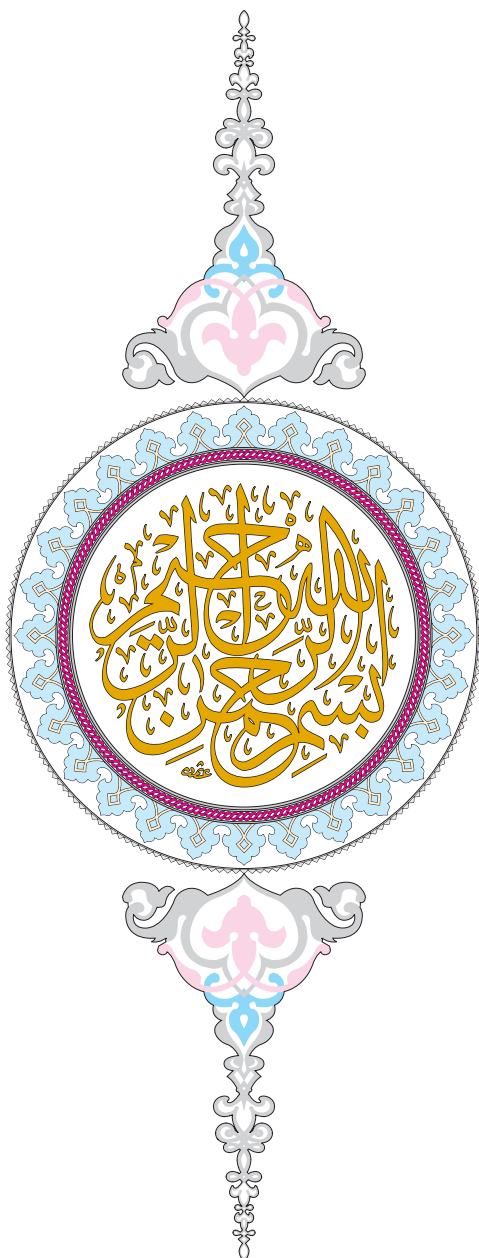
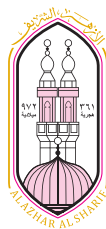






مَجَلَّةُ الْإِسْلَامِ

مَجَلَّةُ شَرْعِيَّةِ جَامِعَةِ

تَصَدَّرَ عَنْ شَيْخِ الْإِسْلَامِ فِي أَوَّلِ كُلِّ شَهْرٍ عَرَبِيٍّ

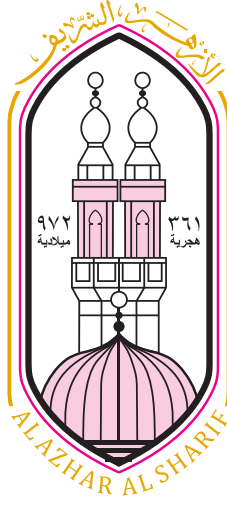
١٩

المجلد التاسع عشر

السنة ١٣٦٧ هـ

مَجْلِسُ الشُّرَاةِ الْعِلْمِيَّةِ

الْإِسْلَامِ الشَّرِيفِ



مشيخة الأزهر الشريف

تليفون : 25907497 / 25899823

فاكس : 25903974 / المحمول : 01114242123

www.azhar.eg

جميع الحقوق محفوظة للأزهر الشريف

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م

سقيفة الصفا العلمية

SAQIFAT AL-SAFAT TRUST

لبوان - ماليزيا

www.saqifat-alsafa.org

E-mail : info@saqifat-alsafa.org

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة السنة التاسعة عشرة لمجلة الأزهر

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وتنال الدرجات ، وتذلل العقبات .
والصلاة والسلام على محمد رسول الحق الى العالمين ، وعلى آله وصحبه وتابعيه
إلى يوم الدين ، صلاة وسلاما دائماً أبداً بالدين .

وبعد ، فإننا نقدم لقراء مجلة الأزهر العدد الأول من سنتها التاسعة
عشرة ، شاكرين لله على ما أسداننا من معونته ، وسدد خطواتنا في خدمة
دينه ونشر حكمته ، راجين أن يوالينا هذا التوفيق في عملنا ، لنبلغ به إلى أسمى
ما قدر له من كمال ، وأشرف ما نتوجه إليه من مآل .

ولا معدى لنا في هذا المقام من الإشادة بذكر ما يحوطنا به حضرة
صاحب الجلالة الملك فاروق الأول من ضروب التشجيع ، وما يتولانا به
من الرعاية والتأييد ، أعز الله به هذا الدين ، كما أعزه بسميه العظيم ، مؤسس
الامبراطورية الاسلامية عمر بن الخطاب ، ومد الله في عمره المبارك حتى يرى
ثمرات جهوده دانية القطوف ، ونتأجج توجيهااته الاصلاحية مضرب الامثال ،
ومحققه للشرق جميع الآمال .

وقد وافق أول السنة الهجرية الجديدة (١٣٦٧) يوم جمعة ، فاتجهت
الرغبة السنية لتأدية فريضة الجمعة بالجامع الأزهر ، فاحتشد فيه حضرات
العلماء الاعلام وكبار رجال القصر والوزراء والوجهاء ، وبعد أداء الصلاة
نهض حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل
الجامع الأزهر ، فألقى كلمة بليغة في تاريخ الهجرة النبوية ، ألم بجميع ما جرياتها
في عبارة مختارة ، وبيان قيم ، وقعت من السامعين أرفع موقع ، وتعالق
الاهتمامات بحياة حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، فزادت الاحتفال جلالاته .
وسننشر الخطابة الجليلة لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير وكـ



الرسالة الملكية السامية

في عيد الهجرة النبوية

تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فوجه الرسالة
الملكية السامية الآتية الى الشعب المصرى وإلى الشعوب
العربية والإسلامية بمناسبة عيد رأس السنة الهجرية . وقد
أذيعت هذه الرسالة السامية فى الساعة التاسعة والنصف من
صباح العام الجديد ثم أعيدت إذاعتها فى المساء مرتين وهذا نصها :

شعبى العزيز :

فى هذه الذكرى العزيزة ، ذكرى الهجرة النبوية الكريمة ، أبعث إلى شعبى
المحبيب ، وإلى الشعوب العربية الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها ،
بأصدق التهنئة ، واجيا لهم جميعا عزا ونصرا ، وسؤددا ومجدا .

وأحيى فى هذا اليوم المبارك ، يوم إشراق العزة النبوية ، ونشر مبادئ
السلام والانسانية ، فلسطين الباسلة ، التى أجمعت الشعوب العربية على استخلاص
حقوقها ، وكفالة العزة والحرية لأفرادها .

شعبى العزيز :

إن فى الحوادث بعض التجارب القاسية التى تمر بالأمم ، وبلادنا تمر الآن
بـ ألمة ، فقد أصاب مصر العزيمة بوباء لا يرحم .

وإني أشارك شعبي فيما أصابه من بأساء ، وما نزل به من ضراء ، وأسأل الله أن يلفظ به ، فيما جرى به قضاؤه .

لقد قضى هذا الوباء على كثيرين ، وإن قلبي ليفيض بالحزن على هؤلاء المنكوبين ، وأعزى أسرهم وأهلهم فيهم ، وأهيب بالموسرين منا أن يذكروا آلام الفقراء والمعوزين ، وحاجات الضعفاء والمحتاجين ، وينفقوا مما يحبون حتى ينالوا بر الله وثوابه ، وإحسانه ورضوانه .

وإني لأتوجه بفيض من الشكر وعرفان الجليل ، إلى الدول العربية الشقيقة ، وإلى جميع الشعوب والحكومات التي آزرتنا في محنتنا .

ومصر ، وهي ترقب في أمل وطيد ، ورجاء أكيد ، قرب اقتصارها على هذا العدو ، ستذكر بالحمد أثر هذه المساعدات في نجاتها من هذه الكارثة .

شعبي العزيز :

تعود ذكرى الهجرة النبوية ، وفي عودها تنبيه وتذكير . ومن الحق علينا أن نعتبر بها ، ونقتدى بسيرة صاحبها ، التي تملأ النفوس إيماناً بعظمة الرسول ورسالته ، وتحفزها إلى الاهتمام بهديه وسنته .

والشعوب العربية أحوج ما يكونون إلى العبرة والموعظة الحسنة بهذه الذكرى ، فيما يجاهدون له ، ويناضلون في سبيله من استغلال ، وعزة وحرية .

أعاده الله علينا وعلى العالم أجمع ، عام خير ، وبركة ، واطمئنان وسلام .

والسلام عليكم ورحمة الله

العيد الاكبر والحج الاكبر

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الجليل

الشيخ محمود أبو العيون

سكرتير عام الازهر

إن لله عز وجل مواسم وأعيادا تُفَتِّحُ فيها أبواب الخير والبركة للمسلمين في الدين والدنيا ، وتنصرف فيها النفوس وقتنا من غواشي الدنيا وأعراضها ، لخير الإنسانية ، والعمل الصالح للبشرية .

وإن من أكبر مواسم السنة كلها ، وأعلاها شأنًا ، وأجلها مكانة ، وأسمها منزلة ، عيد الأضحى المبارك ؛ فهو عيد الأعياد ، وموسم المواسم ؛ فيه تتجه القلوب إلى الله سبحانه وتعالى ، ويتقرب إليه الحسيرون من عباده بأعمال الخير والبر ، وتسخر الأيدي الشحيحة بالمعطاء والجود ؛ فيه تنحر الذبائح ، ويهشم الثريد ، ويطعم القريب والبعيد ؛ فهو يوم التضحية والفداء .

ويقترن بهذا الموسم موسم آخر ، هو يوم الحج الأكبر إلى البيت العتيق ، وهو أول بيت وضع للناس بمكة المكرمة ؛ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ؛ ولم يعرف التاريخ ، ولم تهبط الأديان بعقيدة ، أو عبادة من العبادات ، فيها جماع الخير والسعادة للناس كهقيدة الحج إلى البيت الحرام .

وكانت لقريش سنن صالحة امتازوا بها عن العرب جميعا ؛ منها إقامة مناسك الحج ، يخرجون إلى البيت ، يطوفون حوله ، وينحرون الذبائح في مشاهدته .

وقد أسلمت قريش لعبد مناف أحد أجداد النبي سيادتها وقيادتها ،
ووفادتها (١) ووفادتها (٢) ، وقام بالامر بعده ولده هاشم ، وكان اسمه «عمرا»
فسمته قريش هاشما ، لأنه هشم الثريد ، وأطعم الشعب في المجاعة حين اشتد
القحط بمكة .

عمرو والعلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مُسَفِّتون عجايف
وهو أول من آلف قريشا رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام ؛
ومات بمدينة غزة من أرض فلسطين .

فالحج عبادة مقدسة في الجاهلية والاسلام ، وشأنه في الاسلام جسيم
وعظيم ؛ فالحجيج في الاسلام يتجردون من مظاهر الدنيا ، ومألوف عاداتهم ؛
فهم يكونون في حالة الإحرام طالين من كل حلية ، مجردين من كل لباس
إلا ما يمتز أجسادهم من غير مخيط ؛ وءوسهم طارية ، خشيتهم من الله ظاهرة
وبادية ، مهللين مكبرين ملبين : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ،
إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » . هنالك وفي تلك المشاهد
المقدسة يؤدون شعائر الله ؛ وهنالك تقصّل أرواحهم العاصية بالملا الأعلى ،
فلا رقت ولا فسوق ولا جدال في الحج ؛ وهنالك يجتمع المسلمون أبيضهم
وأحمرهم ، ملكهم وسوقهم ، فقيرهم وغنيهم ، في صعيد واحد ، متجهين
إلى قبلة واحدة ، ضارعين إلى إله واحد في خشوع واطمئنان ؛ وهنالك
يجتمع عشرات الآلاف من المسلمين حول البيت وفي عرقات مهبط التجلّيات
والرحمات ، متعارفين متواصلين ، متوادين مترحمين ، يضمهم الاسلام ،
وتجمعهم عقيدة التوحيد ، والتصديق بالرسول : لا إله إلا الله محمد رسول الله .
والسر الذي يهدف اليه الاسلام في اجتماع المسلمين من أصقاع الارض
وأقطارها في صعيد واحد ، إنما هو التعارف فيما بينهم ، وتوثيق الصلات
والروابط بين عصبياهم ، وتبادل الآراء فيما يختلف من شئونهم وأعمالهم .

(١) الوفاة : نزول الوفود بمكة ، ولا ينزلون إلا في ضيافة عبد مناف .

(٢) الرفاة : إطعام الحجيج .

فالإسلام في ذلك الاجتماع الذي هو أشبه بمؤتمر عام ، يشهد فيه المسلمون منافعهم ، ويذكرون اسم الله ، يقصد الى غرض نبيل شريف ، هو إيجاد عصبية إسلامية قوية ، متجانسة الآراء والأغراض ، متماثلة المقاصد والأفهام والآمال ، حاملة على تقوية الشعوبية القومية الإسلامية ؛ وكل شعب عضو في تلك الجماعة إذا ضيم هب الكل لنصرته ، والاختد بسترته ؛ وفي ذلك يكون المسلمون كما قال المصوم - عليه الصلاة والسلام - كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحلمى والسهر .

كذلك كان المسلمون من قبل في حجهم واعتماؤهم ، وكذلك كانوا في غير حجهم وفي غير اعتماؤهم ؛ كان ينزل القحط في الحجاز ، فتسارع مصر الى نجدة إخوانهم في الحجاز ؛ وكان يقع الضيم على المسلمين في العراق ، فيهب المسلمون في الشام الى نجدة إخوانهم في العراق ؛ فهل تبدل الحال وتغير ؟ نعم قد صار المسلمون في أقطار الأرض بددا ، وتفرقوا فيما بينهم أيدي سبا ، لا تجمعهم جامعة ، ولا تربطهم رابطة ، ولا تضمهم وحدة :

المسلمون - فدتك نفسى - أمة ملثوا بطاح الخافقين عديدا
لكنهم جار الزمان عليهم أو ماترام أعظما وجلودا !

كل ذلك قد وقع ، وبذلك تمزقت الرقعة الإسلامية ، ووهنت قوة المسلمين ، فانطفأت شعلة العرفان والنور في الربوع الإسلامية ، وأخذت جذوة الحرارة والغيرة الدينية في الأقوام ، وانحرف ظل الحضارة الذي كان يظل ربع المسكونة يتمتع فيه المسلمون وغير المسلمين بجمال الدين والدنيا ، والحياة المطمئنة في رواق الأمن والسلام . زال كل ذلك واندر ، وغفت آثاره ، ودرست معاملته ، وأصبح تاريخنا يقرؤه الناس للمظة والاعتبار .

ولكن هل آن الأوان لأن يستشعر المسلمون هذا الخذلان والانحلال ؟ هل آن الأوان لأن يصحو الرجل المريض ، وأن يدرك الحرية ، ويبصر النور ، وأن يفهم وصايا الدين ويعمل بها ، وأن يعلم أن الاستنامة للانحلال والضعف والفرقة والجهل ، خسران في الدنيا ، وعذاب مقيم في الآخرة ؟ !

نعم قد آن الاوان لان يفهم المسلمون ذلك ؛ فها انتهت الحرب العالمية حتى تنبه الوعي القومي فيهم ، وتيقظ الضمير الحى الاسلامى فى نفوسهم ، كأنما هم قد أفاقوا من حلم مروّع ، وتنقّسوا الصمّداء من جرّاء ما قاسوا فى غضونهما من هياج الخواطر ، وارتقاب المخاطر ، وتوتر الاعصاب ، وارتباك الأحوال . ولقد نجم عن ذلك الشعور الوجدانى الآليم الذى طاف برءومهم فصدعها ، أن اجتمع ملوك العرب وأقباؤهم فى بلودان وإنشاص وقصر الزعفران ، ووضعوا الميثاق والعهد على أن يعملوا بمحنان قوى ، وأنف حى ، وعزيمة ماضية ، وأيد عاملة ناصبة ، على استرداد هيبة العروبة ، وجلالة الشرق ، وعلى إقامة حضارة جديدة للشرق العربى تتناسق مع عناصر الحياة النابضة فى العالم المتحضر ، وعلى أن يستمروا فى تلمس الخير بين طيات الشرور القائمة بين الشرق والغرب .

إن الجامعة العربية التى أوجدتها ظروف قاسية مريرة سوف تعمل على إعادة المجد المضىّع للشرق العربى ، من محاربة الجهل ، وأسباب الضعف ، ومن تنشيط العقل وتوجيهه إلى الابتكار ، وثقافته بكل نافع من العلم والأدب والسياسة والاجتماع ، والسير الحثيث فى معارج التقدم والنجاح ، بوضع منهاج اقتصادى يشمل كل حاجات البلاد العربية وما جاورها من الأمم المناصرة لها ، وما شد من أزرها من الأمم الدانية والقاصية .

ونحن إذ ندرك مساس الحاجة إلى الاتحاد والتكاتف فى هذه المضطربة ، فإننا نتفاءل الخير كله من بنية الجامعة العربية ، فستكون جبهة قوية كالبناء المرصوص ، وكتلة متحدة لا يعرف التفريق إليها سبيلا .

إن التكافل الملحوظ الآن بين ملوك العرب وأقباؤهم أمر طبيعى ، وتطور محمود ، من ناحية التقدم الديموقراطى ، بل هو حاجز منيع دون الشيوعية الهدامة .

القصص في القرآن

القرآن خاتمة الكتب الإلهية ، نزل به الروح الأمين ، على قاب قوسين أو أدنى المرسلين ، هداية للعالمين .

ولما كانت هذه الهداية تشمل الناحيتين المادية والأدبية ، وتقتضى توفية الحاجتين الروحية والعلمية ، نزل القرآن مشتملا عليهما معا ، وجاءت فيه تلك الهداية على نوعين متماشيين مع تطور الافهام والعقول ، ومسايرة لترقى الآداب والعلوم ، لكيلا يحس زمان يتناقض فيه العلم والوحي ، ويضطر الناس معه لترك هداية القرآن والتعويل على هداية العلم ، ويكون في ذلك دليل ضمني على قصور الكتاب ، ينتهي الى تكذيب على بساويته ، احتياط لذلك الأمر القرآن ، وانفرد دون سائر الكتب بهذا الاحتياط ، على اعتبار أنه خاتمة الكتب الإلهية ، ليبقى على الدهر نبراس هداية لأهله مهما بلغوا من درجات العلم ، وإلى أي حد ملوا من الفتوحات العلمية ، والانتقالات المادية والأدبية . ونحن قبل أن نصل الى موضوعنا نبين وجوه هذا الاحتياط التي جعلت لتكون حوافظ العلماء والمتعلمين أن يتدهوروا في مزالق الفلسفة والعلم ، إبقاء عليهم من التورط في هذه الفتنة .

من تلك الحوافظ قوله تعالى : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ردا على سؤال بعضهم عن ماهية الروح . والمراد من هذه الآية أن يتحقق الانسان أن ما وصل اليه من العلم لا يوصله الى إدراك ماهية الروح ، وأنه يجب عليه أن لا يتعجل في الحكم حتى لا يقع في الخطأ .

ومنها قوله تعالى : « ريكم آياتي فلا تستعجلون » وقوله تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » إيذانا منه عز وجل بأنه مذخور للانسان علم عال يتبين له به أن هذا القرآن حق . ومنها قوله تعالى : « وفوق كل ذي علم عليم » ، وفيه ردع للمستعجلين بأرائهم ، ليبتأمنوا من كبرائهم ، ويحذروا من مزاعمهم ، ويعبدوا أنفسهم لتلقى نقد الناقدين ، وتقويم الخالفين .

ومنها قوله تعالى : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » ، وهو إعلان صريح بأن كل قوالب أن يكون لصاحبه على صواب دليل ، وأن كل من

يُلقى إليه هذا القول يجب أن يطالب بهذا الدليل ، وإلا رُد عليه ما يقول .
ومنها قوله تعالى : « وما لهم بذلك من علم ، إن هم إلا يظنون » وفي آية
أخرى « وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا » ، وفيه تصريح بأن كل مُدُل برأى
يجب أن يعتمد فيه على العلم ، وإلا عد قوله ظنا وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا .
وهذا كله مؤدى الدستور العلمى الذى وضعه العلامة (بيكون) الانجليزى
بعد نزول القرآن بألف سنة ، وخلد به اسمه فى التاريخ .

ومنها قوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن
أم الكتاب وآخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه
ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله الا الله ، والراسخون فى العلم
يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الالباب » ، وهذا نص
صريح على أن فى الكتاب الكريم آيات متشابهة ، أى يدق إدراكها ، وتتخالف
العقول فى فهمها ، وتفضل فى تحقيقها ، وشنع ذلك بنهى المؤمنين عن الاشتغال
بتلك الآيات ، ونعى على الذين يتبعونها قصدهم إثارة الفتنة أو تأويلها ،
وما يعلم تأويلها إلا الله ؛ ويسكتفى المتمكنون من العلم بأن يقولوا : آمنا به ،
بحكمه ومتشابهه ، كليهما من عند ربنا ، وما يدري ما ينطوى عليه هذا الموقف
من الحكمة إلا أصحاب العقول .

المتأمل فى هذه الحواظف القرآنية يجد أنها جد معقولة ، فإن فى الكتب
السمائية ، غير ما تأمر الناس به أو تنهاهم عنه ، من الآداب الكريمة ، أو الصفات
الذميمة ، أمورا أخرى تتعلق بما وراء الطبيعة يجب أن يؤمن بها الناس استكمالاً
لحاجات أرواحهم ، وفيها إشارات لدوى البصائر النيرة لا يدركها على حقيقتها
سواهم ؛ ولو اشتغل بالبحث فيها جمهور الناس ، وقعوا فيما وقعت فيه الأمم الصالحة
من التجسيد والنشيبه ، ودب اليهم الخلاف فيها فأصبحوا شيعة لا تجمعهم جامعة .
وفى القرآن الكريم أيضا ، على اعتبار أنه خاتم الكتب السماوية ، أخبار عن
الأمم التى سلفت ، وعن الرسل الذين أرسلوا إليهم ، وعن الآيات التى عززوا
بها مواقفهم لديهم ، وفى كثير من هذه الأخبار والآيات ما لا يدركه العقل فى
قصوره ، ولا يعترف به العلم فى حالته الراهنة ، ولم يذكرها التاريخ أيضا ،
اتخذها شبهات على الأديان من يريدون التخلص من سلطانها ، داعين الى الناس

أن يحذوا حذوهم . ولو نظروا الى أن العلم لا يزال في مهده ، وأن ما حصله الناس منه على جلالة قدره ، لا يبلغ عشر معشار ما سيبلغونه منه بعد قرن واحد أو بضعة قرون ، لقللوا من غلوائهم ، وعدلوا من تطرفهم . ألا يرون أن العلم الأوربي الذي كان قبل قرن واحد يقرر أن زمان العقيدة بالروح والحياة الآخرة قد انتهى ، آل أمره اليوم الى بذل جهود الجبابة في تحقيق أمر الروح وبقائها بعد الموت ، حتى بلغ منه أبعد مدى ، وأعلن ذلك على رؤوس الأشهاد ، وأدخل هذه البحوث الى جامعاته الكبرى ومنها كبردج واكسفورد ؟ وفي عهد المرسلين السابقين ، كان الناس ، وهم في حاجة شديدة الى التخلص من الصفات الحيوانية ، بالخضوع للتعالم السماوية ، لا يقنعهم بصدق المرسلين في دعواهم إلا حدوث الخوارق على أيديهم ، فكان الخالق الحكيم يوالى الجماعات البشرية بالرسل مزودين بالقدرة على إحداث تلك الخوارق من ضروب شتى . فلما آن للناس في هذه القرون الأخيرة أن ينظروا في الديانات ، وكانت الفلسفة المادية قد طوحت بهم إلى نكران كل ما لم يؤيده دليل محسوس ، أسرعوا الى التكذيب بالنبوات ، واتهموا الأنبياء بالخداع والتدليس . ولو كانوا عاشوا الى هذا العهد ، ورأوا رأى العين أكبر علماء أوروبا وأمريكا اليوم يشتغلون بالتوسع في دراسة الخوارق ، لادركوا أن ما يكذبونه من أخبار المعجزات التي أرسل بها المرسلون ، أصبح في العلم ما يبررها ، ويقربها من العقول بمشاهدات محسوسة . وكما كذبوا بالرسالات ، وخوارق العادات ، اضطروا أن يكذبوا بالنبوات ، واعتبروا جميع هذه الأخبار من الأقاصيص الخيالية ، ومحسوا حوادث التاريخ مقتصرين فيه على الحوادث الدنيوية ، تاركين أخبار الرسل وما أرسلوا به من المعجزات لأصحاب الأديان ، ودعوا ما دونه هؤلاء منها بالتاريخ المقدس . ولما كان أولئك القائمون بتمحيص التاريخ في الثلاثة القرون الأخيرة من الملحدون الذين لا يؤمنون بخالق الكون ، ولا بالنبوات ، ولا بالوحي ، أطلقوا على التواريخ المقدسة للأمم اسم الميتولوجيا أي علم الاساطير ، وذهبوا في تحقير هذه الميتولوجيا كل مذهب ، غير مفرقين بين ما يصح أن تطلق عليه هذه الكلمة من العقائد الوثنية ، والتقاليد الخرافية ، وبين الحوادث النبوية القيمة التي كان لها الفضل كله في تهذيب النفوس ، وكبح الرعونات ، وتوجيه القلوب الى المثل العليا من الحياة الانسانية .

وجاءت الاجيال الحديثة فراءت نفسها من أخبار الأمم حيال تاريخ وميتولوجيا ، ودربت على أن تعتبر الاول خلاصة مخصصة من حوادث الشعوب الماضية ، وأن تعد الثانية حكايات خيالية تنزلت من عقول ساذجة ، اخترعها لها رجال مدلسون ، فألفوا أنفسهم متحليلين من كل ماحمل الاقدمون أنفسهم من تكاليف عقيدية ، وتقاليد وهمية ، معتبرين كل ما يوجد في تاريخ الاديان وكتبها المقلصة من أخبار وحوادث وانقلابات لا تتفق والتاريخ المبتور ، خرافات لا أصل لها في الواقع !

فهل بعد هذا البيان يسوغ لانساق أن يقول إن حادثة بعينها أو حوادث من قبيلها تتصل بالدين ، خرافات لا أصل لها في المماريات البشرية ؟

وهل بعد أن أعلن أجلاء العلماء الماديين في أوروبا من أمثال ولیم كروكس مكتشف إشعاع المادة ، وروسل ولاس نديد دارون ، وسيزار لو مبروزو واضع علم الأسباب الفيزيولوجية للجرائم ، وولیم جيمس البسيكولوجي الامريكي الأكبر ، وشرنك نوتزنج مدرس علم النفس بجامعة برلين ، الى مالا يحصى من أمثال هؤلاء ، قلنا هل بعد أن أعلن هؤلاء على رؤوس الأشهاد وفي القرن العشرين ، أنهم قد اكتشفوا عالم مافوق الطبيعة ، وأنهم يتحدثون مع كائناته ، وأن هذه الكائنات تتجسد أمامهم وتكلمهم ، وتحدث أمامهم من خوارق النواميس الطبيعة ما يدهش العقل ؛ قلنا هل بعد هذا يسوغ لعاقل أن ينكر المعجزات التي أيدت المرسلين في دعواتهم الدينية ، باعتبار أنها تناقض العلم ، وتخالف نواميس الطبيعة ؛ وأن يعتبر كل قصص ورد عن مثل هذه الامور في الكتب الدينية من الخرافات التي لا أساس لها من التاريخ ؛ أى تاريخ بشرى يتخذ معيارا لما حدث وما لم يحدث من أخبار الانسانية ، وهو قائم على اعتبار أن وجود الخالق والروح الانسانية والحياة الآخروية ، والارواح الملوحة والسفلية من الامور الخيالية ، ويتبع ذلك أن كل ما يروى عنها ، ويناقض العلم الذي قصره على معلوماتهم المحدودة ، يجب أن يحسب من الافاصيص الخرافية ؟!

نعم إن الحوادث التي صاحبت رسالات الرسل دخل فيها كثير من المبالغات ، ولكن هذه المبالغات سمات يهتدى بها اليها ، فكانت الموافقة للعقل والعلم لدى العائشين معنا في القرن العشرين ، ومهدوا الفتوحات العلمية الحديثة من تقنيات الذرة واحالتها الى أصلها وهو القوة ، بعد أن هدما العلم مادة صلبة أكثر من

ثلاثة آلاف سنة ، ومن محاولة استخدام الأشعة الكونية لإحداث أعظم انقلاب في حياة الانسانية . ومن إثبات العالم الروحاني عمليا . كما صرح بذلك أكابر ممثلي العلم . وهذا واحد منهم (كاميل فلامريون) أشهر علماء الفلك في القرن العشرين يقول في كتابه (المجهول والمسائل النفسية) :

« لقد أثبتت المشاهدات الحسية وجود عالم روحاني عميق كنتحقق العالم المادى المدرك بمواسمنا الخمس »

هذه مقدمة نذكرها بين يدي كلمة نريد أن نقولها عن القصص في القرآن الكريم :

نوه الكتاب الكريم بأهم ماضية ومرسلين ، وقص من أخبارها وأخبارهم ما فيه موعظة للتالين والسامعين ، فلاحظ بعض المستشرقين ، وكلهم من غلاة الماديين ، أن من هذا القصص ما لم يرد في التاريخ ، وبعضه يعتبر من الخرافات . وجوابنا على هذا كله ما ذكرناه من أن الذين دونوا التاريخ قد جروا في تمحيص الحوادث على مطابقتها لأصولهم في تقرير الحقائق ، وقد بينا لك أن من أصولهم نكران وجود خالق الكون ، واعتبار الانسانية والحياة بعد الموت من أعرق المعتقدات الخيالية ، وأشدّها إضرارا برقى الانسانية ، وهذا ليس بمعيار صحيح لتقدير ما هو حق وما هو باطل من المماريات العالمية كما قدمنا . أما ما يعتبرونه في القصص من الخرافات ، فهو لأنهم بخنوا التاريخ على ضوء المبادئ المادية البحتة التي تعتبر ، كما قلنا ، وجود الخالق والروح ، والكائنات العلوية والسفلية ، وتأثيرها في خرق النواميس الطبيعية من الأوهام الطفولية . فإذا كان هؤلاء المكذبون ينكرون الحركة العظيمة التي قامت في أوروبا بين العلماء مدة مائة سنة وراء إثبات عالم ما فوق الطبيعة على مقتضى الدستور العلمى ، ويهزأون بما أدت اليه من النتائج المحسوسة في إثبات الروح والحوادث الخارقة للنواتيس الطبيعية ، والقائمون بها أئمة العلم العالمى ومدعو أصوله ، وقد ألقوا فيها مئات من الكتب ، وأسسوا لها مثلها من الجمعيات والمجلات ، وجمعوا لها نحو سبعة مؤتمرات عالمية في أكبر عواصم الأرض ، ودخلت دراساتها في الجامعات وجهات لها مقاعد فيها ، ينكر هؤلاء المشتككون هذا كله وهو قائم بين أيدينا ويهزأون به ، أفيمستغرب منهم بعد هذا أن ينكروا رسالات الأنبياء وأخبار الأمم السالمة وبيننا وبينها ألوف من السنين ؟ محمد فريد وجري

الايان الكامل

في نظر القرآن الكريم

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحيم المدوي

وجه القرآن الكريم دعوته الى الناس ليؤمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، وليصلوا الى خصال البر ومكارم الاخلاق، فغزت دعوته القلوب، واستولت على الافئدة، لما اتصل بها من حجج وما اكتنفها من براهين . على أنها في الحق دعوة الفطرة السليمة، فلا تحتاج الى دليل عند ذوي الالباب .

والايان عقيدة تملأ جوانب النفس بالامن، وتجوس خلال الجوانح، تمحو الاضطراب والشك، وتغمر القواد باليقين، وتفيض على صاحبها معاني الخير، من عزة النفس وزاهاة الطبع، وتحبب اليه العدل والانصاف والاستقامة، والاعتراف بالجليل، والاعتداه بصنائع المعروف، وتوجهه وجهة الخير في كل ما يأتي وما يدع . فاذا تم سلطانها وقويت دعائها في نفس امرئ، فاعلم أنه وفق للمهاداة وهدى الى الصراط المستقيم .

والقرآن الكريم لا يعول على العقيدة المجردة في تسمية المؤمن مؤمنا حقا، بل يطلب آثاره وثمراته ؛ فهو يشترط في المؤمنين شروطا اذا حصلوها استحقوا أن يخلع عليهم اسم الايمان ، يفرض عليهم صفات خاصة إذا حققوها صح في نظره أن يكونوا مؤمنين .

والناظر الى هذه الصفات (صفات المؤمنين في نظر القرآن الكريم) يمجدها متعددة وتنوع بقدر ما بينها من فوارق وما فيها من مميزات ، لكنها رغم تباينها وتعددتها لا تتجاوز ثلاث صفات :

صفة يقصدها تربية الناس وتقوية نفوسهم ، وغرس الفضائل فيهم ، حتى لا تنهن بالتكاليف ، أو تضعف من حمل ما حملت من أمانة ، فيقدمون

حينئذ على كل تضحية ، ويتفانون في أعمال البر ، ويقفون جهودهم على سبيل الإصلاح والخير ، ويسلكون مسلك الاعتدال في أحوالهم الخاصة والعامة .
يتحملون الشدائد ، ويتمسكون بالصبر الجميل ، فلا تزعمهم الخطوب ، ولا تلين من قناتهم النوائب .

وبالجملة هي صفات يقصد منها صياغة النفوس البشرية على سنن الفضيلة وطريق الرشاد .

والصفة الثانية من صفات المؤمنين ترجع الى سلوك الانسان الشخصي وابتنائه الخير في خاصة نفسه ، وانتفاعه بالاستقامة في السر والعلن ؛ فهي رقابة يقظة على المرء في حركاته وسكناته ، وحراسة حازمة على الضمائر والنوايا ، لا يصدر صاحبها إلا عن فكر ، ولا يورد إلا عن روية ، ولا يبدو للناس إلا في مظهر التقى والصلاح ، والطهارة وحسن القدرة ؛ فهو ملاك في صورة إنسان ، وروح لم تخالطها ظلمة الأجسام .

أما الصفة الثالثة من صفات المؤمنين ، فقد اهتم القرآن بشأنها أيما اهتمام ، وعنى بها أجل عناية ، لأنها ترتبط بسيرة المؤمن في الجماعة ، وتصل بالرأى العام ، وتفتك بالذات ومعاملاتهم ؛ وذلك كله له خطره ومكانته في حياة الأمم والشعوب .

فلا غرابة إذا رأينا القرآن الكريم يفسح لها صدره ، ويفتح في الحث على تحصيلها ، ويسلم المجتمع من الشرور ، وتخلو الجماعة من عوامل الفساد ، فتسود الأمة ويسعد العباد .

والنوع الأول من الصفات ، وأعنى به الصفات التي يقصد بها تربية النفوس وإعدادها للخير ، تعددت أساليب القرآن في تحصيلها والحث عليه .

فتارة يضع بين أيدينا صورة مغرية للمؤمنين العاملين الصادقين ، فيقول : « كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ، وبالأصباح هم يستغفرون ، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » .

وأى نفس تسمع حديث أولئك المؤمنين السكدة الذين يقضون الليل في ركوع

وسجود وتضرع وعبادة لا ينامون من الليل إلا غراراً حتى إذا أظلمهم السحر أخذوا في الاستغفار كمن أقام على جرم أو بات على إثم؟ من ذا الذي يسمع حديث هؤلاء ولا يحفظه ذلك إلى الاقتداء بهم، والسير في طريقهم؟

وطوراً يلج إلى النفوس من طريق الوجدان والاحساس، فيمثل لنا الكاملين في الايمان في صورة المسرء الذي عراه ما عراه من خشية وخوف وماحل به من فزع، ولكنها خشية لا تلبث أن تنحول إلى طمأنينة، وخوف لا يملك إلا ريثماً ينقلب إلى راحة وأمان، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: «إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. أولئك هم المؤمنون حقا، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم». ويقول في آية أخرى «ألا بذكر الله تطمئن القلوب».

وأونة يطلب منا أن تقاوم ما فينا من غرائز، ونقننه إلى ما فينا من ملكات قد تنزع إلى الشر، وتحت ستار ذلك قد يخفي علينا طريق الخير خضوها لطبائعنا وتمشينا مع غرائزنا، فيرشدنا إلى طريق الصواب في ذلك، ويهديننا إلى سواء السبيل.

وفي ذلك يقول القرآن الكريم:

«يأياها الذين آمنوا لا تلهيكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون. وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب، فأصدق وأكن من الصالحين. ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها، والله خبير بما تعملون».

ويقول أيضاً «يأياها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم».

غيب المال والولد طبيعة متمكنة من النفوس، قد يستغها الشيطان فيضل الناس وهم لا يشعرون.

ومرة يحدتنا عن الشجاعة والثبات والصبر على الشدائد، ليغرس فينا هذه الأخلاق السكونية، فيقول:

« ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً » .

وأخرى يصور لنا طاعة المؤمنين السكينة ، فيقول « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً » .

وحينما يدعوننا الى الايمان وعمل الخير، فيصور لنا ذلك بأنه تجارة رابحة وصفقة تجلب السعادة وراحة البال، فيقول « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون » .

وكثيراً ما يدعوننا الى الشجاعة الادبية وقول كلمة الحق ببيضاء نقية لا يشوها رياء ولا يخالطها نفاق ولا تعكر صفوها مجاملة قرابة قريبة ، أو مداراة صديق ، فيقول : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » .

كما أنه رسم لنا طريقاً في الوقوف عند حد الاستقامة وترك ما لا يعنى بقوله : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » . وقوله : « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسوكم » وأقام لنا دستوراً في عدم موالاة أعداء الانسانية والدين بقوله : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء » وقوله : « لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه » .

أما الاوامر العامة التي يقصدها الاستقامة في العالوك ، وحفظ الجوارح من اقتراف الذنوب ، والحرص على كل حلال طيب ، فكثيرة لا يحصيها العد ، منها قوله « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » وقوله « يا أيها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون » .

هذه مجموعة من أساليب القرآن القيمة في الحث على التمسك بالصفات التي

تهذب النفوس وتقوم الاخلاق ، وتعد المرء لكل ما طلب منه من تكاليف ، وما حمل من تبعات ، وضمنهاها بين يدي القارئ الكريم ، لتكون له دستورا يحثه وقانونا يتبعه .

أما النوع الثاني من صفات المؤمنين وهي التي تتصل بالانسان في خاصة نفسه ويتصل نفعا به ، وهي ما قلنا عنها إنها صفات رقابة على الانسان وحراسة على سلوكه ، فمن أمثلتها قوله تعالى « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لقروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » .

وخلق بمن خضع في صلاته وبلغ الغاية في القيام بالأعمال البدنية والطاعات وتجنب المحرمات وحفظ أمانته ، ورعى عهده ، أن تكون الجنة مآله ، والفردوس طاقبة أسرته ، فيفوز بكل خير ، وينجو من كل ضير ، ويكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

والصفة الثالثة من صفات المؤمنين الصادقين ، هي تلك التي قلنا عنها إنها تتصل بالجماعة الانسانية ، وقلنا إن القرآن الكريم غنى بها لسمو مكانتها وعظيم آمارها .

هذه الصفات تتنوع الى صفات عملية إيجابية ، وإلى صفات سلبية يطلب من المؤمن السكامل أن يتعد عنها حتى يتم له الايمان وتكمل له عقيدته . فمن الاول قول الكتاب العزيز « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

فالمسلمون إذا حققوا هذه الاخوة الدينية وعلموا أنهم ينتصبون الى أصل واحد هو الايمان الموجب للحياة الأبدية ، إذا هم فعلوا ذلك حصنت حالهم

وانتظم أمرهم ، وتماونوا في السراء والضراء ، وكانوا يدا واحدة على الأعداء ، ولما رأينا بينهم بأئسا ولا مسكيناً ، ولا وجدنا منهم ملهواً أو محزوناً .

ورحم الله المؤمنين الأولين يوم كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ويجودون بما لديهم وهم في أشد الحاجة إليه .

أما المسلمون الآن فقد أهملوا هذه الأخوة الدينية ، ففشا بينهم الحقد ، ونمت البغضاء ، وتفرقوا شيعاً وأحزاباً ، فذلوا بعد عز ، وضعفوا بعد قوة ، وذهبت ريحهم ، فكانوا كغناء السيل ، أو كالريشة في مهب الاطامير .

ومن الصفات الإيجابية أيضاً قوله عز وجل : « والذين آمنوا وهاجروا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم مغفرة ورزق كريم » .

فالهجرة الى الله والفرار بالعقيدة في وقت الفتن من علامات الايمان الكامل ، لانه يصحبها البعد عن الاهل والاجتباب والاخوان والاصحاب والآباء والأمهات ، وبصحبها أيضاً ترك المال الذي هو قوام الحياة وعون المرء في كل شأن وحال ، ويصحبها أيضاً مفارقة الأوطان التي درج تحت سمائها وتنسم هواءها ، فلا عجب إذا كانت الهجرة التي من هذا القبيل أمانة كمال الايمان وعلاوة تغفل العقيدة في أعماق النفس . والجهاد في سبيل الله بالنفس والمال تضحية عظمى تدل على ما بين الجوانح من إخلاص في النية وسلامة في الطوية ومنانة في العقيدة وقوة في الايمان . وإيواء الضعفاء من المؤمنين وبذل المال لمعوتهم ، والقيام على حوائجهم وتبهدلهم بالرعاية ، ومسح دموع اليتيم منهم ، وكفالة المعززة والأرامل ، كل ذلك دليل كمال الايمان . وسمو العقيدة ونصرة الدين وحياطته من كيد الكائدين ، وبذل الجهود لإعلاء كلمته ورفع شأنه من علامات الايمان الكامل والعقيدة الصحيحة .

وأما الصفات السلبية ، فمن أمثلتها قول القرآن الكريم « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم

الفسوق بعد الإيمان، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون . يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا، يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ، واتقوا الله إن الله تواب رحيم . « يأيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالآثام والمدوان ومعصية الرسول ، وتناجوا بالبر والتقوى ، واتقوا الله الذي إليه تحشرون » .

ومن الآيات الجامعة لكلا النوعين الإيجابي والساي ، قول الله عز وجل في سورة الفرقان :

«وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما، والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما، والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما، إنها ساءت مستقرا ومقاما، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما، والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون، ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات، وكان الله غفورا رحيما، ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا، والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما، والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا، والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قوة أعين، واجعلنا للمتقين إماما، أولئك يجزون الغرفة بما صبروا، يلقون فيها تحية وسلاما » .

فهى تحدثنا عن إيمان صادق جمع صاحبه بين الصلوك الطيب، ودفع السيئة بالحسنة، وإتقان العبادة في ظلام الليل والناس نيام، والخوف من عقاب الله والخشية من عذاب النار، وكم للخوف من آثار سامية !

ثم تحدثنا هذه الآيات الكريمة عن أولئك المؤمنين الصادقين، بأنهم يعرفون قيمة الاقتصاد في المال وأنه سبيل السعادة، والاقتصاد في القول وأنه طريق راحة البال، وأنهم يعرفون قيمة النفس الانصافية فلا يهتكون لها سترآ

ولا يريقون لها دما ، ويحترمون حقوق الغير ، فلا يكونون سبباً في ضياعها
بمهادة الزور وتلبيس وجه القضاء على القاضى ، وفي ذلك سلامة المجتمع ونظام
شبل الجماعة .

هذه هي صفات المؤمنين الصادقين الذين قال الله فيهم : « وكان حقاً علينا
نصر المؤمنين » . وقال « إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان
كفور » .

وهم الذين قال فيهم أيضاً « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات
ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليكن لهم دينهم الذى
ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدوننى لا يشركون
بى شيئاً » .

وقال فيهم أيضاً « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات
الفرودوس نزلاً ، خالدين فيها لا يبعثون عنها حولا » .

وقال أيضاً : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم
وبأيمانهم ، بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار » .

وهم الذين أشاد بذكركم فى أساليب متعددة إذ يقول « وعباد الرحمن »
ويقول « يا عباد لا خوف عليكم اليوم » ويقول « فبشر عباد » ويقول
« أولئك حزب الله » .

فهل نحن الآن على سنن هؤلاء نسير ؟ اللهم هب لنا توفيقاً ، وهىء لنا
من أمرنا رشداً

كبر السن

قال العتبي : لما أسن أبوبراء همروبن مالك الملقب بملاعب الاسنة ، وكان
فى الجاهلية من أشجع الناس قلباً ، وأقواهم جسماً ، وأعلمهم بفنون القتال ،
ضعفه بنو أخيه وانهموه بالخرف ، ولم يكن له ولد يدافع عنه ، فأنشأ يقول :

دفعتمكم عنى وما دفع راحة بشيء إذا لم يستعن بالأنامل
يضغفنى حلمى وكثرة جهلكم على وأنى لا أصول بجاهل

أبو الأنبياء

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى
المدرس فى كلية الشريعة

للإسلام ونبىه الكريم عليه الصلاة والسلام ، صلة وثيقة بخليل الله إبراهيم ، هى أقوى الصلات ، وأرسخها فى التاريخ قدما ، وأكثرها بين الروابط وشائج وعُرى .

ذكرنى بهذا المعنى ، وفتح لى باب الكتابة فيه ، هذا العام الهجرى الجديد ، وأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد هاجر بأمر العرب « هاجر » وولده منها « إسماعيل » إلى بلاد العرب ، هجرة شبيهة بهجرة رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ، التى كان لها أطيب الثرات ، وأبعد الآثار فى نشر الدين ، وإبطال الشرك ، وظهور عقيدة التوحيد على كل عقيدة تنافىها .

وحسبى فى هذا المقال أن أعرض لناحيتين عظيمتين ، من وجوه هذا الاتصال والتقارب بين الرسولين الكريمين :



فإبراهيم هو الجد الأعلى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما هو الجد الأعلى لكثير من الأنبياء والرسل غيره ، وفى هذا يقول الله عز وجل : « ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ، وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ . وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

الضمير فى قوله تعالى : « ومن ذرئته » لإبراهيم عند أكثر العلماء لأن نوح . ولو ط وإن كان ابن أخيه إبراهيم إلا أنه ذكر فى الذرية تغليبا ،

ولكن مجددا صلى الله عليه وسلم يمتاز في هذه النسبة بأمر يلقت النظر ،
 هياؤه الله له ، واختصه به من بين هؤلاء الانبياء أجمعين : ذلك أن إبراهيم كان
 له ولدان : إسماعيل من هاجر ، ثم إسحاق من سارة ؛ فأما إسحاق فقد كثرت
 ذريته من الانبياء ؛ فكل من نسب الى إبراهيم في هذه الآيات فهو من ذرية
 إسحاق ؛ وأما إسماعيل فهو أبو العرب على اختلاف قبائلهم ، وليس له ذرية
 من الانبياء إلا سيدهم وخاتمهم ، عليه أفضل الصلاة والسلام ؛ فكأن الشجرة
 الإبراهيمية قد أنبتت فرعين عظيمين وازن أحدهما الآخر جلالة وشرفا ، وكان
 « عهد » وحده وزان هذه السلالة الطاهرة كلها من الانبياء والمرسلين !

وابراهيم عليه السلام هو باني البيت الحرام ، ورافع قواعده بأمر الله ،
 ومطهره للطائفين والقائمين والركع السجود ، وواضع المناسك والمشاعر ،
 وهو الذي دعا به لهذا البلد الحرام أن يجعله آمنا ، تهوى اليه أفئدة من الناس ،
 وتجيى اليه ثمرات كل شيء ، وأن يبعث في العرب رسولا منهم يتلو عليهم
 آياته ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم .

فهذه صلة إبراهيم بمحمد عليه الصلاة والسلام ، نسبا ووطنا وقوما ،
 وهي ناحية بارزة - من غير شك - في حياة هذين الرسولين الكريمين .

* * *

ولكن هناك ناحية أبرز منها ، وأقوى في تحقيق الصلة بينهما ، هي ناحية
 الاتفاق في الدعوة وأسلوبها .

وأول ما يلاحظ من ذلك أن إبراهيم عليه السلام كان منذ صغره مائلا
 عن الشرك ، متزها عن أوجاسه ؛ فلم يشرك بالله قط على كثرة ما كان حوله
 من بواعث الشرك ؛ فأبوه مشرك ، وقومه مشركون ، وللاصنام عندهم منزلتها
 وحرمتها ومعابدها ، ومع ذلك لم يمل قبل بعثته طرفة عين الى جانب الشرك ،
 ولم يعبد إلا الله ، ولم ينحشع إلا الله ؛ وقد حدثنا القرآن الكريم أنه لما جادل
 أباه وقومه فيما يعبدون من دون الله استصغروه وقالوا له « أجنثنا بالحق أم
 أنت من اللاعين » ، ولما حطم هذه الاصنام « قالوا : سمعنا فتي يذكرهم يقال له

إبراهيم . كل هذا يدل على أنه عزف عن الشرك ، وأخلص التوحيد لله ، وهو بعد في سن مبكرة لم يعد طور الفتوة والشباب ؛ ولهذا يقول الله عز وجل : « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين » ويقول : « إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين » .

وكذلك كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فقد تولاه ربه برعايته منذ طفولته ، وراه مما كان يسود قومه وعشيرته الأقربين من الشرك والفحش والشعر واللهو وسائر أنواع المجون ، وأدبه فأحسن تأديبه ، حتى كان يعرف في قومه « بالصادق الأمين » ، ولم يسجد لصنم قط ، ولا استقسم بركم قط ، ولا استطاع كاهنا ، ولا استعان بعراف ، وقد حببت إليه العزلة والبعد عن مظاهر الشرك والوثنية ، وهو العربي القرشي الذي نشأ فوجد أهله زعماء القوم وكبار المشركين .

وابراهيم كان له طريقة عقلية بارعة في محاجة الخصوم ، ومقارعة المبطلين بالدليل تلو الدليل ، على نحو من الاستدراج المنطقي ، أو ما يسمونه في البحث والمناظرة بإرخاء العنان للخصم حتى يفاجأ بما ليس في حسابه فيرتبك ويتلعثم ويضطر الى التسليم .

وأمثله هذا فيما حكاه الله في القرآن الكريم عن ابراهيم كثيرة ، حسبنا أن نعرض لبعض منها بالتفصيل ، وأن نشير الى بعض آخر :

١ — « ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك » .

محاجة دارت بين ابراهيم وجبار عنيد غره ملكه حتى نازع ربه الذي يملك ناصيته فادعى الربوبية ، وقد ناقشه خليل الله مناقشة أبطل فيها إفكه وسفسطه ، وبين كثرة جهله ، وضعف عقله ، وألزمه الحجة حتى انقطع وتخير « إذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت » لم يقل له : ربي يحيي ويميت ، لأنه لا يريد أن يصف الله بالإحياء والإماتة خصب ، ولكنه يريد أن يستدل بإحيائه وإماتته وما يرى الناس من المشاهدات في الكون على وجود صانع لها ، فقال : ربي هو الذي يفعل ذلك ، كأنه قال له : أنا لا أعبد ولا أدين بالربوبية إلا

لمن بيده الإحياء والإماتة والتصرف في الخلق بما يشاء، لأنه هو الذى يستحق عبادتى وخضوعى ، أما من كان مثلى فى خضوعة لهذا الرب وما يصنعه به ، فليس جديرا بأن يكون ربا لى . فإذا قال له الكافر ؟ قال : « أنا أحيى وأميت » . لم يستطع أن يقول « أنا الذى أحيى وأميت » وإلا لكان مكابرا صريح العناد ، ولكنه تحايل بهذا اللفظ ليخدع السامعين ؛ ولا ينكشف أمام الحاضرين ، فأسند لنفسه نوما من الأعمال مماء إحياء وإماتة ، على نحو من الحيلة والسفسة (١) ، فكان إبراهيم يستطيع أن يزيف له هذا الرد ، ويبين له أنه فى واد غير واديه ، ولكنه لم يفعل ، فأعرض عن هذه الحجة لأنه يعلم أن صرف الوقت فى ردها والنقاش فيها غير لازم ، وانتقل الى حجة أخرى « قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأنت بها من المغرب ، فبُهِتَ الذى كفر » لأنه لم يستطع مع هذه الحجة الساطعة أن يتبجح ويتلاعب بالالفاظ والمعانى كما فعل من قبل . « والله لا يهدى القوم الظالمين »

٢ — وقد تجلت طريقته الحاسمة أيضا فيما قصه الله علينا من استدراجه للذين يعبدون غير الله ، إذ رأى الكوكب فقال : هذا ربى ، ومكث على ذلك مدة حتى إذا غاب الكوكب وأفل « قال لأحب الآفلين » وهكذا فعل مع القمر ، ثم مع الشمس ، فكأنه يقول لقومه : هيا بنا نبجث عن الإله المستحق للألوهية وأن يفرد بالتوحيد ، هيا بنا نطاب الحقيقة ونبحث عنها حتى نجدها ؛ وتلك طريقة فى إيصال الحقائق الى القلوب ، يؤمن علماء النفس والتربية بعظيم جدواها ؛ وكأنى بقومه قد مننوا أنفسهم بأن يعبد إبراهيم ما يعبدون ، ثم تبين لهم أنه يستدرجهم من حيث لا يعلمون ؛ ولذلك انتهز للفرصة بعد هذا الاستدراج الذى تضمن إبطال زعمهم فى كل خطوة من خطواته ، فأعلنها كلمة صريحة قوية ذات أساس متين : « يا قوم إني برى مما تشركون . إني وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين »

(١) قالوا : كان يؤتى بالرجلين قد تحتم قتلها فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر فكأنه قد أحيا هذا وأمات ذاك .

٣ — وقد تحدى قومه باهانتهم لاصنامهم ، واستهزائه بهم ، ثم أعلن فيهم أن هذه الاصنام عدو له ، فاذا كان لها قوة فلتفعل به ما تشاء ، فهو لا يخافها ولا يهابها ، وهو آمن كل الأمن من قبلها ، لأنه لا يخاف إلا الله الذى فطره ، والذى يطعمه ويسقيه ، وإذا مرض فهو يشفيه ؛ ويصور لنا القرآن الكريم هذا التحدى فى مواضع كثيرة ، منها قوله تعالى : « وحاجه قومه ، قال : اتحاجوننى فى الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئاً ، وسع ربى كل شىء علماً ، أفلا تتذكرون ! وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ، فأى الفريقين أحق بالأمن ، إن كنتم تعلمون » .

وهذه حجة لا يمتري فيها ذو عقل ، ولا يصد عنها من كان عنده ذرة من إنصاف ؛ ولذلك يمتن الله بها فيقول : « وتلك حجتنا آتيناه إبراھيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ، إن ربك حكيم عليم » .

ولو ذهبنا نستقصى الامثلة التى توضح لنا أسلوب إبراھيم وقوته فى الحجاج وإلزام الخصم لطال بنا القول ، ولما اتسع له هذا المجال ؛ فحسب القارئ أن ينظر مع هذا الذى ذكرناه فى أسلوبه مع أبيه ، حينما نهى عن عبادة الشيطان ، ودعاه الى عبادة الرحمن ، وفى أسلوبه مع بنيه حينما وصاهم بالاحتفاظ بما اصطفاه الله لهم من الدين ، وفيما احتج به يوم اتهم بتعطيم الاصنام إذ جاءوا به على أعين الناس وهم يشهدون ، فقطعهم بالحجة حتى ألجأهم الى استعمال القوة بإلقاءه فى النار : « قالوا حرّقه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا ياناركونى برّداً وسلاماً على إبراھيم ، وأرادوا به كيداً فجعلناه من الآخسرين » . فقرأوا أيها القراء هذا ، وقرأوا غيره من الامثلة التى لم أذكرها ، فسترون أن إبراھيم ما كان ضعيفاً فى حجته ، ولا مخطئاً فى أسلوبه أو فكرته ، ولكن الذين لا يتدبرون لا يفهمون !

وعلى مثل هذا السنن كانت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم وحجته التى لقنها الله إياه كما لقنها أباه إبراھيم من قبله ؛ فما جاء القرآن الكريم إلا بالمنطق الحق ،

والحجة البالغة ، وتتبع الخصوم في كل ما تعللوا به من شبهات لتكذيب الدعوة وتوهينها .

جادلوه في عقيدة البعث والنشور وقالوا « من يحيى العظام وهى رميم ؟ » فعلمه ربه أن يقول « يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون . أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم »

وكانوا يقولون : « أئنا لناركو آلهتنا لشاعر مجنون ؟ » فإرد الله عنه بقوله « بل جاء بالحق وصدق المرسلين » « وما علمناه الشعر وما ينبغي له ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . أم اتخذوا من دونه آلهة ، قل هاتوا برهانكم ، هذا ذكر من معى وذاكر من قبلى ، بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون » « قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى ، وأمرت أن أسلم لرب العالمين . هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ، ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون . هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون » .

وهكذا تقوم دعوة الاسلام على لسان محمد صلى الله عليه وسلم بما قامت به على لسان إبراهيم عليه السلام : حجة وبرهان ، ونظر وتدبر فى ملكوت السموات والأرض ، يدعى إليهما كل قافل ، ومنطق سليم لا يحجده إلا مكابر قد أطغاه العناد ، وأفسده اللجاج .

وقد استجاب الله بذلك دعوة إبراهيم ، وجعلها باقية فى عقبه ، وإنما بقيت بمحمد وشريعة محمد .

ولذلك أمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بإعلان هذه الحقيقة ليعلم الناس أن دين الله واحد ، فقال له : « قل إني هدى ربي الى صراط مستقيم ، ديناً قيسماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » .

أوائل المتكلمين من المسلمين

واصل بن عطاء - شيخ المعتزلة

لفضيلة الأستاذ الشيخ علي مصطفى الغرابي

انتهى بنا الكلام في المقال السابق عن « واصل » الى ما كان له من المقام في العلم ، مع بيان بعض ما نسب له من كتب . وفي هذا المقال نحب أن نواصل الكشف عن بعض نواحي ذلك العالم السلفي حتى تؤدي له بعض حقه علينا ، فإن للاكباء حقوقا على أبنائهم ، وإن كثيرا من سلفنا قد ظلم من الزمن ومن أهله ؛ ولا نجد طريقا لدفع ذلك الظلم عنهم إلا نشر الحقائق التي لو عرفها الناس لتغير رأيهم فيهم ، وحلوا منهم المحل الذي يليق بهم . وإن من هؤلاء العلماء « واصل ابن عطاء » لأنه شيخ المعتزلة ورئيسهم الأول . وبعد ما سمعت أيها القارئ نبذة صوّرت لك حياته تصويرا إجماليا ، نحب أن تعرف أولاً موقف بعض علماء الفرق الكلامية الأخرى منه ، ورأيهم فيه ، فنقول تنمة لما سبق :

٤ - واصل في نظر بعض علماء الفرق الكلامية :

إن ما تقدم - كما قلت - هو ما أمكننا استخلاصه عن واصل من جملة مراجع ، إلا أن بعض من ألقوا في الفرق الكلامية يذهبون في واصل الى غير ما ذهبوا اليه ، فيجعلونه تارة خارجيا ، وتارة جهميا ؛ ولم يقف بهم الأمر الى ما ذكر من كونه خارجيا وجهميا ، بل ذهبوا الى أكثر من هذا وهو « أنه كافر » .

أما من سماه « خارجيا » فهو عبد القاهر بن طاهر البغدادي الأشعري المتوفى سنة ٤٢٩ هـ سنة ١٠٣٧ م ، في كتابه « الفرق بين الفرق » ص ٩٨ : « ثم إن واصلًا وعمرا وافقا الخوارج في تأييد عقاب صاحب الكبيرة في النار مع قولها بأنه موحد وليس بمشرك ولا كافر ، ولهذا قيل للمعتزلة « إنهم مخانيث الخوارج » .

ووافقه على هذه التسمية أيضا أبو المظفر الاسفراينى تلميذه المتوفى سنة ٤٧١ هـ فى كتابه (التبصير فى الدين) ص ٤١ فقال : ونسبهم إسحاق ابن سويد الى الخوارج فى شعره فقال :

برئت من الخوارج لست منهم من الغزال منهم وابن باب
وأما من سماه وسمى كل المعتزلة كذلك « جهميا » فهو الامام أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى المتوفى سنة ٣٢٤ هـ فى كتابه (الابانة) ص ٤١، فقد قال : « وزعمت الجهمية أن الله عز وجل لا علم له ولا قدرة ولا حياة ولا سمع ولا بصر... الخ. فهذا رأى فى صفات الله الذى ذكره الأشعرى هو رأى المعتزلة، وقد عبر عنهم « بالجهمية »، ويدل أيضا على أنه يريد بالجهمية المعتزلة قوله فى الكتاب المتقدم (ص ٤٢) : وقد قال رئيس من رؤسائهم وهو أبو الهذيل « إن علم الله هو الله ». ولا شك أن من يسمى المعتزلة « بالجهمية » فهو يسمى من باب أولى رئيس المعتزلة (واصلا) بتلك التسمية ، وهو أنه جهمى .

وأما من وصمه بالكفر فهو كذلك أبو منصور عبد القاهر البغدادى فقد قال : « ثم إنهما « واصلا وسموا » أظهرنا بدعتهم فى « المنزلة بين المنزلتين » وضما إليها « دعوة الناس الى قول القدريّة » على رأى معبد الجهنى ، فقال الناس يومئذ لو اصل « إنه مع كفره قدرى » وجرى المثل فى كل كافر قدرى » ا هـ من كتابه « الفرق بين الفرق » ص ٩٨ . وهكذا ترى أيها القارىء أن البغدادى قد وصم واصلا بوصمة الكفر وسماه « كافرا » .

ومن بين الذين كفروا « واصلا » أبو الفتح الأزدي ؛ فقد حكى ذلك عنه الذهبي فى كتابه « ميزان الاعتدال » ج ٣ ، ص ٢٦٧ ، قال : « قال أبو الفتح الأزدي : « رجل سوء كافر » .

هذا ما حكم به العلماء المخالفون للمعتزلة فى آرائهم على واصل الذى عرفت طرفا من ورعه وزهده فى الدنيا وعلمه الغزير ، وغيرته على الدين الإسلامى ، وإرسال الدعاة لنشره فى الآفاق ، ومؤلفاته الكثيرة فى الدفاع عن التعاليم

الإسلامية ؛ هذا الحكم هو « أنه رجل سوء كافر » . وما أسهل الاتهام بالكفر عند أرباب الفرق مع أنه لا يجوز الحكم على مجتهد - ولو أخطأ - بالفسق ! وذلك على حسب القواعد المقررة عند علماء المسلمين ؛ قال الشيخ جمال الدين القاسمي في كتابه « تاريخ الجهمية والمعتزلة » ص ٥٨ : « كما أن اسم الاجتهاد يتناول في عرفهم فروع الفقه ، فكذلك مسائل الكلام لعموم مفهومه « الاجتهاد » لغة واصطلاحاً ووجوداً ، فإن الفرق التي تنوع اجتهادها في مسائل الكلام ربما تربو على مجتهدى الفروع . وكيف لا تكون من المجتهدين ، وهي تستدل وتحكم وتبرهن وتقضى وتجادل خصومها بما أخذها ، وترى أن ما تستدل عليه هو الحق الذي لا يعقد على سواه ، ولا بد أن الحق تعالى يعتبره ؟ » إلى آخر ما ذكره تحت عنوان « بيان أن الجهمية والمعتزلة لهم ما للمجتهدين » من كلام طويل ، فارجم إليه إن شئت .

وبعد هذا كيف يبيح مؤرخو الفرق الكلامية لأنفسهم أن يحكموا على رجل أبلى بلاء حسناً في الدفاع عن عقيدة المسلمين ، وعالم من علماء التابعين أو تابعيهم بأنه « كافر » ؟ !

اللهم إن هذا مرض قد أصاب المسلمين ، ولا زال سيفاً مصلتاً على رؤوس المخلصين ، وهو أقرب سلاح لمن عجز عن إقناع خصمه بالحجة والدليل ، مع أن الدين الاسلامي قد قرر أن « لا إكراه في الدين » لانه « قد تبين الرشد من الغي » والحق من الباطل والهدى من الضلال ؛ فهذا الدين لأنه حق ومعقول قد ترك للإنسان أن ينظر بعقله ويتدبر بفكره ويتبين الخير من الشر والنور من الظلام ، ما دام هذا التفكير وذلك النظر لا يعاوض نصاً صريحاً أو رأياً مجمعاً عليه ، وما دام صاحب النظر لا يريد إلا الحق .

• — علاقته بأستاذه :

لقد أجمع المؤرخون على أن أصلاً كان تلميذاً للحسن البصري ، وأن علاقته به بقيت طيبة إلى أن قام الخلاف بينهما على مرتكب الكبيرة ، حين جاء رجل يسأل الحسن عن شأن مرتكبها ، وأن التلميذ أجاب قبل أن يجيب

أستاذه « بأنه في منزلة بين المنزلتين ، وأنه فاسق » كما سنذكر ذلك - إن شاء الله - عند الكلام على آرائه . ولقد كان ذلك الرأي الذي ذهب إليه التلميذ يخالف رأى أستاذه ؛ إذ أن الحسن كان يرى « أن مرتكب الكبيرة ليس في منزلة بين منزلتي الإيمان والكفر ، وإنما هو منافق فاسق » . قال أبو الحسين عبد الرحيم الخياط المعتزلي المتوفى آخر القرن الثالث الهجري في كتابه « الانتصار » ص ١٦٥ : وقال الحسن ومن تابعه : « مرتكب الكبيرة مع فسقه وخبوره منافق » . وقال ابن المرتضى في كتابه « المنية والأمل » ص ٢٣ - حين تحدث عن الجدل الذي قام بين واصل وعمر بن عبيد على مرتكب الكبيرة - : إن واصل قال لعمر : أوليس تجد الفرق على اختلافهم يسمون صاحب الكبيرة « فاسقا » ، ويختلفون فيما عداه من الأسماء ، فالحوارج تسميه « كافرا وفاسقا » ، والمرجئة تسميه « مؤمنا فاسقا » ، والشيعة تسميه « كافر نعمة فاسقا » ، والحسن يسميه « منافقا فاسقا » .

ولما أجاب التلميذ بما يخالف رأى أستاذه طرده من درسه - كما تقول بعض الروايات - فقام واصل الى جانب سارية من سوارى المسجد وأخذ يقرر رأيه على بعض زملائه الذين كانوا معه في درس الحسن ، وقد أعجبهم رأيه في مرتكب الكبيرة ، وكان من بينهم « عمرو بن عبيد » الذي انضم إليه بعد أن أقنعه واصل برأيه . إن تلك الرواية قد تدل على أن علاقة التلميذ بأستاذه قد ساءت ، وأن حبل المودة بينهما قد انقطع ، وأصبح التلميذ بهذا عاقلا لأستاذه ؛ وقد يقوى ذلك الرأي أن المؤرخين قد وقفوا الى هذا الحد من كلامهم على واصل ، مما جعل أكثر من قرأ عنه ، بل كل من عرفه يعتقد أن الخصومة قد بقيت بين الحسن وواصل حتى توفى الحسن رضى الله عنه عليها ؛ وليس كذلك ، بل لما أن الخلاف بينهما كان لله وللحق ، ولم يكن للهوى والشيطان ، فإنه لم يؤثر على علاقتهما ، ولم يمنع التلميذ أن يحضر على أستاذه ويسمع لنصائحه وعظاته ويحفظ عنه وصاياه ؛ يدلنا على هذا ما كتب به واصل الى عمرو بن عبيد - حين بلغه عنه أنه قد حاد عن نهج أستاذه في التفسير من تنقيص المعاني ، وتفريق المباني - ولقد اشتهد عليه واصل في التفرع والتأنيب ، وأخذ يذكره

بكلام أستاذة فيه وأنه كان يخافه ، وأنه كان يتوقع منه أن سيميل عن طريقته ، وأنه شكاه لله مقدما . وقد ذكر ذلك الكتاب ابن عبد ربه في كتابه « العقد الفريد » ح ٢ ص ٣٨٦ — ٣٨٧ فقال : كتب واصل الى عمرو يقول : « أما بعد ، فإن استلاب نعمة العبد ، وتعجيل المعاقبة ، بيد الله ، ومهما يكن ذلك فباستكمال الآثام ، والمجادرة للجدال الذى يحول بين المرء وقلبه ، وقد عرفت ما كان يطعن به عليك وينسب اليك ، ونحن بين ظهراى الحسن بن أبى الحسن رحمه الله ، لاستبشاع قبج مذهبك ، ممن قد عرفتهم من جميع أصحابنا ، ولما إخواننا الحاملين الواعين عن الحسن ... ثم قال : عهدى والله بالحسن وعهدكم به أمس فى مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بشرق الاجنحة ، وآخر حديث حدثنا إذ ذكر الموت وهول المطلق ، فأسف على نفسه ، واعترف بذنبه ، ثم التفت - والله - بمنة ويسرة معتبرا باكبنا ، فكأنى أنظر إليه يمسخ مرفض العوق عن جبينه ، ثم قال : اللهم قد شهدت وضيئ راحلتى ، وأخذت أهبة سفرى الى محل القبر ، وفرش العفر ، فلا تؤاخذنى بما ينسبون الى من بعدى ... » الخ

إن ذلك الكتاب الذى أرسله واصل الى زميله « عمرو بن عبيد » يدلنا - كما قلت - على أن واصل قد بقيت علاقته بأستاذه ولم يفرق بينهما الخلاف فى رأى ، كما يريد خصوم واصل ، وكما يريدون أن يوسعوا شقة الخلاف بينهما ، وغضب الأستاذ على تلميذه ، مع أن واصل لم يكتف بمجرد العلاقة بينه وبين أستاذه ، بل كان يحرس على سماع دروسه ، والانتقال معه فى الاسفار ، والارتحال معه فى سبيل العلم ؛ لأن هذا الدرس الذى أوصى فيه الأستاذ تلاميذه الذين كان من بينهم (واصل وعمرو) كان بالمدينة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ويظهر أنها كانت آخر رحلة من الحسن الى مسجد الرسول عليه السلام ، حيث إنه رجع الى البصرة وتوفى بها ، وقد صارت العلاقة بينهما على خير حال . وبهذا يظهر خطأ من ظن أن العلاقة بين الأستاذ وتلميذه انقطعت ، وأن الأستاذ توفى غاضبا على تلميذه . وأحب أن أقف بالقارىء الى ذلك القدر من الكلام على واصل ، وفى مقال آخر سنتحدث عن آرائه الكلامية ، إن شاء الله .

بين الخشاب والعطار

من أدباء القرن التاسع عشر

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان
المدرس بكلية اللغة العربية

الخشاب: هو السيد اسماعيل بن سعد؛ اشتهر بالخشاب، لأن أباه كان نجاراً، ثم فتح له مخزناً لبيع الخشب بالقرب من باب زويلة؛ حفظ القرآن، ثم طلب العلم، وتفقّه على مذهب الشافعي، وتثقف في العلوم العقلية واللسانية، وأولع بمطالعة الكتب الأدبية، وكتب التصوف والتاريخ، وحفظ كثيراً من الأشعار والرسائل والحكايات، حتى عدّ من نوادر عصره في المحاضرات والمحاورات والاسمار؛ مما جعل الرؤساء والمظاه وأرباب الدولة، يتنافسون في تقريبه والاختصاص به، إلى ما طبع عليه من رقة الشمائل، وخفة الروح، ودمائة الاخلاق. وكان يحترف الشهادة في المحكمة، ثم عينه الفرنسيون مؤرخاً لديوان القضايا للمسلمين، الذي أنشئوه، ومسجلاً لحوادثه وقضاياه، إلى حرفته الأصلية؛ حتى ارتحل الفرنسيون عن مصر، وبقي الخشاب معروفاً للحل، ميسور الحال، قريباً إلى النفوس، إلى أن توفي في ذي الحجة سنة ١٢٣٠ هـ. أما العطار، فهو أبو علي الحسن بن محمد كتن الشهير بالعطار؛ ولد في القاهرة في حدود سنة ١١٩٠ هـ، ويقال إنه مغربي الأصل، ورد بعض أسلافه مصر واستوطنها، ونشأ في حياطة أبيه الشيخ محمد كتن وكان عطاراً فقيراً، له إلمام بالعلم، كما يدل عليه قول المترجم في بعض كتبه: «ذاكرت بهذا الوالد رحمه الله» فكان يستصحبه إلى الدكان ويستخدمه في صغار شؤونه، ويعلمه البيع والشراء؛ ولكن غير المترجم من لداته المختلفين إلى المسكاتب، جعلته في خفية من أبيه يختلف إلى الأزهر، حتى حفظ القرآن في مدة يسيرة؛ فلما نفي ذلك إلى أبيه سربه سروراً بالغاً وأعان على طلب العلم، فجدّ في تحصيله على كبار شيوخ وقته، كالأمير والصبان وغيرهما، حتى بلغ من العلوم مبلغاً أهله للتصدي للتدريس، ولكن ميله إلى الاستكمال مال به إلى الاشتغال بغرائب

الفنون . فلما هاجت الفتن بدخول الفرنسيين مصر ، داخله الخوف ، ففر الى الصعيد كجماعة من العلماء ؛ ثم طاد بعد أن حصل الأمن ، واتصل ببعض علمائهم ، فكان يعلمهم العربية ، ويعلمونه من علومهم ؛ مما جعله يقول : « إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ، وتمجدد معارفها » ؛ ويطول عجبه مما وصل إليه الفرنسيون من العلوم والفنون .

ثم ارتحل الى الشام سنة ١٢١٥ هـ ، وأقام في دمشق زمنا ؛ وارتحل الى بلاد الروم سنة ١١١٧ ، وأقام هناك مدة طويلة ، وسكن بلدة « اشكودرة » من بلاد الأرثوذكس ؛ وتأهل بها وأعقب ، لكن لم يبق عقبه ثمة . ولم يقتر شغفه بالإفادة والاستفادة في رحلاته ، حتى عاد الى مصر كما تروح الطير ، مزودا بعلوم وفلسفات افتزعت من مشيخة عصره الإقرار بتفرد ، والاعتراف بامتياز . وكان أول ما بدأ به بعد عودته ، أن عقد مجلسا لقراءة تفسير البيضاوى ، وكانت قد مضت مدة طويلة ، لم يقدم أحد من مشيخة الأزهر على تدريس هذا التفسير فيها ؛ فحضره أكابر الشيوخ ، وكانوا يفضون حلقتهم ويقومون الى درسه متى حضر لإلقائه . ومما نقل عنه أنه قال : « قدم علينا بمصر عام سبعة وثلاثين ومائتين بعد الألف كبير جبال الدروز ، لقيام أهل الجبال عليه ، ملتجئا بوزيرها محمد علي باشا ، وقدم بصحبته بطوس النصرانى ، فاجتمع بالفقير مرارا ، ورأيت منه أدبا جما ومحاضرة ومعرفة بالتواريخ والأيام والأنساب والنحو وغير ذلك ؛ وكان يكتب الخط الحسن ، وامتدحني بقصيدة منها :

أما الذكاء فانه أذكى وأبرع من إياسه
أنهى البديع رفيقه لما تفرد في جناسه
في أى فن شئت فكنانه باني أساسه

ولقد أجنأه فوقه في سائر العلوم - لاسيما الحكمة وما يتبعها من الرياضيات والهندسة وكانت غير معروفة في الأزهر - حسدا معاصريه ، فافتنوا في نصب الفخاخ له ولمن يتصل به ، وزاد في حدة ذلك ما كان يلقاه من تقريب والى مصر محمد علي باشا ، وعرفاته لفضله ، وإكباره لشأنه .

ومن أغرب ما يروى من مكائدهم : « أن المشايخ اجتمعوا مرة في القلعة

لأمر من الأمور ، وكان المترجم بينهم وهو شيخ للأزهر ، فسرقوا نعله ، واحتالوا حتى صرفوا خادمه ببلغته ؛ فعاد الى بيته في حارة الحمام ماشيا في جوربه ، جامعا « فرجيته » على رأسه تنكرا . . .
وتولى مشيخة الأزهر بعد الشيخ الدهوجي سنة ١٢٤٦ هـ فقام بها خير قيام . وتوفي سنة ١٢٥٠ هـ .

وشعر العطار ونثره من المتعالم المشهور :

* * *

وكان بين الخشاب والعطار ودٌّ متبادل ، وألفة وثيقة ، يصنفها الجبرتي فيقول : « وبعد أن رجع صاحبنا العلامة الشيخ حسن العطار من سياحته ، مازج المذكور وخالطه ورافقه ووافقه ولازمه ، فكان كثيرا ما يبيتان معا ، ويقطعان الليل بأحاديث أرق من نسيم السحر ، وألطف من اتساق نظم الدرر ، وكثيرا ما كانا يتنادمان بداري ، لما بيني وبينهما من الصحبة الأكيدة ، والمودة العتيدة ؛ فكان يرناحان عندي ، ويطرحان التسكفات التي هي على النفس شديدة ، ويتمثلان بقول من قال :

في انقباض وجشمة فإذا رأيت أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسي على سجيتهما وقلت ما قلت غير محننم

ثم يتجاذبان أطراف الكلام ، فيجولان في كل فن من الفنون الأدبية والتواريخ والمحاضرات ؛ فتارة يتشاكيان تغير الزمان ، وتكدر الإخوان ؛ وأخرى يترنمان بمحاسن الغزلان ، وما وقع لهما من صدّه وهجران ، ووصل وإحسان ؛ فكانت تجري بينهما منادات أرق من زهر الرياض ، وأفتك بالعقول من الحدق المراض ؛ وهما حينئذ فريدا وقتهما ، ووحيدا مصرهما ، لم يعززا في ذلك الوقت بثالث ، إذ ليس ثم من يدانيهما فضلا عن مساواتهما في تلك الشؤون التي أربت على المثاني والمثالث ؛ واستمرت صحبتهما ، وتزايدت على طول الأيام مودتهما ، حتى توفي المترجم ، وبقي بعده الشيخ حسن فريدا عن يشاكاه ويناشده ، ويتجارى معه ويحاوره ، فسكت بعد حسن البيان ، وترك نظم الشعر والنثر ، إلا بقدر الضرورة وتفاق أهل العصر ؛

وذلك لتفاهم الخطوب ، وتزايد الكروب ، وفقد الإخوان ، وعدم الخلان ؛ واشتغل بما هو خير من ذلك ، وأبقى ثوابا فيما هنالك ؛ من تقرير العلوم وتحقيقها ، والتأليفات المتنوعة في الفنون المختلفة وتنميتها ؛ وهو الآن على ما هو عليه من السعي في خدمة العلم وإقراء الكتب الصعبة ، وله بذلك شهرة بين الطلاب ... الخ » اهـ .

أما بعد ، فإن من يقرأ ترجمة المطار ، التي دوّنها المرحوم العلامة أحمد بك الحسيني ، في مقدمته لشرح كتاب الام للشافعي ، المخطوطة في دار الكتب الملكية ، والتي هي المرجع الوحيد ، والتي لخصها المرحوم علي مبارك باشا في المخطط التوفيقية ؛ ثم يدرس ديوان الخشب المطبوع في مطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٣٠٠ هـ ؛ أقول : إن من يقرأ هذا وتلك ، يحزم — مع الجبرتي — أنهما كانا فريدي وقتهما ، ووحيدي عصرهما ؛ وأنهما أول من حمل راية التجديد في بحر العصر الحديث ؛ المطار في سائر العلوم لاسيما الحكمة وما يتبعها من الرياضيات والهندسة ؛ والخشب في فنون الشعر والنثر ، وأن من تلاها من أعلام التجديد ، كالسيد جمال الدين والطويل والامام ، وكصفوت الساعاتي ، والبارودي ومن بعدهما ، اقتعدوا قبل أن يؤموا ، ورأوا قبسا فحشوا في ضوءه ، وتمهدوا بسناه ، ووسعوا من دائرته . ويتقاضانا الإيضاح أن نضم الى المترجمين العظمين ، صاحبهما الكريم العلامة الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ، فإنه لم يكن دونهما رغبة في التجديد ، وشغفا بالعلم ، وعلمنا بأن وراء علوم الازهر ، علوما أخرى ، لا سبيل الى رقي الفرد ، ولا الى نهوض الامة دون الجد في تحصيلها ، والعمل على اكتسابها .

* * *

على أن المترجمين ، وإن اختلفت جهتا فوقهما ، يلتقيان في أن كلا منهما طالع قرض الشعر ، وله في فنونه مضطرب ، يناسب عصرهما حينما ويسمو حينما ؛ ولهما فيه مساجلات ، لفت نظري من بينها موشحتان ، بدأ المطار فنظم أولاهما ، وطارضه الخشب فنظم الاخرى .

وفد رأيت أن أجعلهما موضوع « موازنة » بين المترجمين ؛ ثم بينهما وبين وشاحي العصر الحاضر ، في حديث آخر ، فقد طال هذا الحديث .

من طرائف القرآن الكريم

أفضيلة الاستاذ الشيخ عبد الغنى عوض الراجحي

المدرس بمعهد القاهرة ومبعوث الأزهر الى لبنان

كنت أفتاء اضطلاعى بعمل رسالتى « متشابه النظم فى قصص القرآن الكريم » كثيرا ما يفضى بى النظر تتابعه والاسترسال فيه إلى طرائف قرآنية لم يصرفنى أنها كانت على هامش الرسالة عن تقييدها ، تمهيدا لتخصيصها ببحث مستقل ، والحقائق ضالة الباحث أنى وجدها التقطها .

كان عملى فى جوهره قائما على دراسة القصة فى القرآن : كيف جاءت القصة الواحدة فى سورة على كيفية من الألفاظ والعبارات ، ثم جاءت هذه القصة نفسها فى سورة أخرى على كيفية أخرى من الألفاظ والعبارات ، تختلف الحكاية فى موضع عنها فى آخر ، والمحكى فى أصله شئ واحد . (١)

كان بيان السر فى ذلك كثيرا ما يجرى الى بيان السباق والسياق واللاحق لكل قصة فى كل سورة ، وكان ذلك بدوره يجرى الى مراجعة السورة مراجعة إجمالية ، واستحضارها بصفة عمومية بحيث تكون من ألقها الى يأتها أمام ناظرى كباقة الزهر لا تكاد تختفى فيها زهرة ، وعلى مسمعى كجوقة الموسيقى لا تكاد تند منها نغمة .

وعلى ضوء هذا العمل سرطان ما ظهر لى أنه كثيرا ما يكون للسورة من القرآن ظاهرة تشيع فيها ، وتنساب خلال آياتها ، وتبدو واضحة الكيان قوية المعالم فيما يتجاوز أو يقتارب من الآيات .

هذه الظاهرة أعم من أن تكون معنى من المعانى ، أو لفظا من الألفاظ ، أو طريقة من طرق الأداء أو نحو ذلك ؛ كما أنها قد تكون سببا فى العدول

(١) راجع مثالا لذلك فى قصة آدم حيث ذكرت فى السور : البقرة ، الاحراف ،

الحجر ، الاسراء ، الكهف ، طه ، ص .

عن طريقة سوق القصة في سورة الى طريقة سوقها في سورة أخرى ، وفي المدول عن لفظ الى آخر ، وعن وجه الى آخر ، ونحو ذلك .

انظر مثلاً سورة (طه) قصصها وتتبع آياتها مجدها قد شاع فيها الذكر والنسيان وما يشق منهما ويدور حولهما ، الامر الذي كان سبباً في سوق قصة آدم فيها مفتتحة بقوله تعالى « ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجده له عزمًا » مقتصرآ فيها على الإطناب في ذكر دخول آدم الجنة ، وعهد الله إليه بعدم الأكل من الشجرة ، ونسيانه عهد ربه ، وهبوطه الى الأرض ، مع التنويه له بذكر الله الذي من أعرض عنه فإن له معيشة ضنكاً ويحشره الله يوم القيامة أعمى « قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ؟ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى » .

على أن سورة (ص) قد شاع فيها الشقاق والخصام ، فكان بدء القصة فيها بقوله تعالى : « ما كان لى من علم بالملاء الأعلى إذ يختصمون » ، وكان الاختصار فيها على الإطناب في حكاية ما كان بين إبليس وربه من مقاولات الخصومة والنزاع ، دون التعرض فيها لمسألة دخول آدم الجنة ونسيانه عهد ربه ، كما لم يتعرض في سورة (طه) في نفس القصة للخصومة والمقاولات بين إبليس وربه .

أما أن سورة (ص) قد شاع فيها الشقاق والخصام « فالذين كفروا في عزة وشقاق » الآية ٢ ، وقصة داود فيها كثير من الخصومة باللفظ والمعنى من الآية ١٧ إلى الآية ٢٦ ، وأهل النار عند النهاية في تخاصم ، الآية ٩٦ وما بعدها .

أما أن سورة (طه) قد شاع فيها الذكر والنسيان فذلك يغني عن الإطالة في بيانه الرجوع إلى الآيات ٣ ، ١٤ ، ٣٤ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٥٢ ، ٨٨ ، ٩٩ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١٢٦ (١) .

(١) ما ذكر من أرقام الآيات مع ما تشهد له من حقائق في هذا المقال إنما هو بمثابة مفتاح في يد الباحث يتسنى له به الولوج إلى مداخل هذا البحث متمداً على مجهوده الشخصى فأنت لم أجِد - فيما ترمى اليه بحثي - أحداً ذكر شيئاً عن هذه الظاهرة في سور القرآن . والسيوطى على طول باعه في أمثال هذه المباحث قد حام حولها ولم ينفذ إليها وكانت منه على ضربة معمول فلم يفرسها . راجع كتابه الاتقان في علوم القرآن ص ١٢٣ ط الحلبي .

وانظر مثلاً آخر سورة يوسف ، ترها وقد شاعت فيها الرؤيا وتأويلها ؛
فآيات ٤ ، ٥ ، ٦ ، رؤيا وتأويلها ، والآية ٢٦ مع الآية ٤١ رؤيا وتأويلها ،
ومن الآية ٤٣ إلى الآية ٤٩ رؤيا وتأويلها ، والآيتان ١٠٠ ، ١٠١ حديث
عن الرؤيا وتأويلها .

ثم انظر إليها أيضاً وقد شاع فيها المكر والكيد والتدبير ؛ فاخوة يوسف
يستخلصونه من أبيه بحيلة « أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا لحافظون » ،
وإنما أخذوه للإيقاع به ثم يبرئون أنفسهم أمام أبيهم بحيلة أن جاءوا على قميصه
بدم كذب « وجاءوا أباهم عشاء يبكون قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا
يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ، وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » .

ثم تقيض له النجاة من الحب بتدبير بالغ اللطف من الله ، حيث جاءت سيارة
فأرسلوا واردم فأدلى دلوه ، قال : يا بشرى هذا غلام . ثم تدبر له امرأة العزيز
أحكم الحبل حيث غلقت الابواب وقالت هيت لك ، ولما سمعت بمكر نسوة
في المدينة لقولهن : امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها
في ضلال مبين ، مكرت بهن فأعتمدت لهن متكئا ، وآتت كل واحدة منهن سكينا
وقالت اخرج عليهن ، فلما رأيته أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا
بشرا إن هذا إلا ملك كريم ، قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته
عن نفسه فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونن من الصاغر ين .
ثم يدبر الله ليوسف خروجه من السجن وظهور براءته ، وجعله على خزائن الأرض ،
حيث رأى عزيز مصر أحلاما عسر تأويلها ، فأرشد الى يوسف رجل كان زميلا
له في سجنه وعلم من تأويله للأحلام ما لا يعلمون . وقد استرجع يوسف
إخوته مرة ثانية الى مصر بحيلة « اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها
إذا انقلبوا الى أهلهم لعلهم يرجعون » وإلما كان ذلك لاجل أن يأتيوا له بأخ
لهم من أبيهم كما قال « ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفى السكيل
وأنا خير المتزلين . فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون » ثم استبقى
لديه أخاه بحيلة أن جعل السقاية في رحله ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون .
« فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه » وكانوا قد

قالوا «من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين» وفي الآية ٥ «فيكيدوا لك كيدا» وفي الآية ٢٨ «إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم» وفي الآية ٣١ «فلما سمعت بمكرهن» وفي الآية ٣٣ «وإلا تصرف عني كيدهن» وفي الآية ٣٤ «فصرف عنه كيدهن» وفي الآية ٥٠ «إن ربي بكيدهن عليم» وفي الآية ٧٦ «كذلك كدنا ليوسف» وفي الآية ١٠٣ «إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون» وفي الآية ٥٢ «إن الله لا يهدي كيد الخائنين» .

وانظر مثلاً آخر سورة الأنبياء فقد شاعت فيها طريقة ختم الآية بالسكون الناقص يقع خبره فاصلة آخرها نون قبلها واو أو ياء، الآيات ٧، ٨، ١٤، ١٧، ٢٨، ٤١، ٤٦، ٥١، ٥٤، ٦٣، ٦٨، ٦٩، ٧٣، ٧٤، ٧٧، ٧٨، ٨١، ٨٣، ٨٧، ٩٠، ٩٧، ١٠٣، ١٩٤ .

وانظر مثلاً آخر سورة مريم فانها قد شاع فيها ذكر الرحمة والرحمن حتى فيما يتوهم أن ضد الرحمة فيه أقرب كما في قول ابراهيم لآبيه «يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتسكون للشيطان وليا» وقد تردد ذكر هذين اللفظين في الآيات ٢، ١٨، ٢١، ٢٦، ٤٤، ٤٥، ٥٠، ٥٣، ٥٨، ٦١، ٦٩، ٧٥، ٧٨، ٨٥، ٨٧، ٨٨، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٦ .

لقد بدئت السورة بذكر الرحمة في قوله تعالى «ذكر رحمة ربك عبده زكريا» فذهبت مخايل هذا المطلع الرحيم تنظم السورة كلها، كما أنه على أثر هذا الذكر المذكور في هذه الآية وهي مطلع قصة زكريا توارد سائر قصص السورة مبدوءاً بالذكر في مطالعه على وتيرة واحدة «واذكر في الكتاب مريم» الآية ١٦ «واذكر في الكتاب ابراهيم» الآية ٤١ «واذكر في الكتاب موسى» الآية ٥١ «واذكر في الكتاب إسماعيل» الآية ٥٤ «واذكر في الكتاب إدريس» الآية ٥٦

وانظر مثلاً آخر سورة الشعراء، فقد شاع فيها ذكر تكذيب الأقوام لرسولهم، ودعوة الرسل لهم بطريقة موحدة. فالآية ١٠٥ وما بعدها «كذبت قوم نوح المرسلين إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تنقون. إني لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين» .

والآية ١٢٣ وما بعدها « كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون . إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين » والآية ١٤١ وما بعدها « كذبت نوح المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون . إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين »

والآية ١٦٠ وما بعدها « كذبت قوم لوط المرسلين . إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون . إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين » .

والآية ١٧٦ وما بعدها « كذب أصحاب الأيكة المرسلين . إذ قال لهم شعيب ألا تتقون . إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين » كم يأخذ هذا التكذيب كله بحجزة التكذيب المذكور عن أهل مكة في مطلع السورة الكريمة حيث يقول تعالى فيهم الآية ٦ « فقد كذبوا فسيأتيهم أفياء ما كانوا به يستهزئون » ثم انظر الى نفس السورة كيف شاع فيها ذكر هاتين الآيتين المتلازميتين تكتمفان كل قصة في السورة « إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك هو العزيز الرحيم » الآيات ٧ ، ٨ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٩٠ ، ١٩١ .

كم تأخذ هذه الآيات بحجزة الآية المذكورة مطلع السورة الكريمة في الآية ٤ حيث يقول الله في أهل مكة « إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين » .

وانظر مثلاً آخر سورة القمر كيف شاع فيها ذكر التكذيب من الأقوام لرسولهم على وتيرة متشابهة قصة نوح « كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا » الآية ٨ وما بعدها .

قصة هود « كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر » الآية ١٨ وما بعدها . قصة صالح « كذبت نوح بالندر » الآية ٢٣ وما بعدها .

قصة لوط « كذنت قوم لوط بالنذر » الآية ٣٣ وما بعدها .
 قصة آل فرعون « كذبوا بآياتنا كلها » الآية ٤٢ ، ثم كان ذلك التكذيب
 كله آخذاً بحجزة التكذيب المذكور في مطلع السورة عن أهل مكة حيث يقول
 تعالى فيهم الآية ٣ « وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر »
 ثم شاع في نفس السورة أيضاً ذكر « النذر » الآيات ١٦ ، ١٨ ، ٢١ ،
 ٢٣ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤١ ، وكان ذلك كله آخذاً بحجزة المذكور
 مطلع السورة الآية ٥ حيث يقول تعالى « حكمة بالغة فما تغني النذر »
 ثم شاع في نفس السورة أيضاً قوله تعالى « فهل من مدكر » الآيات ١٥ ،
 ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ ، ٥١ ، وكان بمنابة قرع العصا لأهل مكة مرات ومرات ،
 وكان في الوقت نفسه آخذاً بحجزة المذكور مطلع السورة الآية ٤ حيث يقول
 تعالى في أهل مكة « ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر »
 وانظر مثلاً آخر وأخيراً سورة الرحمن ، والمرسلات كيف شاع في الأولى
 قوله تعالى « فبأى آلاء ربكما تكذبان » وفي الثانية قوله تعالى « ويل يومئذ
 للمكذبين » (١) .

إن سور القرآن روضات واضحة الحدود والمعالم ، لكل روضة رواء خاص
 وحسن متميز يترقق فيها ، وهو على شيء كثير من التشابه في مظهره ، والتناسب
 في جوهره « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » .

جواد

نظر خالد بن عبد الله القسري من مظلة له يوماً فرأى أعرابياً مقبلاً على
 بعير له فقال لحاجبه : إذا قدم فلا تحجبه ، فلما قدم سلم وقال :
 أصلحك الله قل ما بيدي فسا أطبق العيال إذ كثروا
 أناخ دهر ألقى بكل كلكه أرسلوني إليك وانتظروا
 فقال خالد : إذن لا تنزل لكي تسرع إليهم بما يسرهم . وأمر له بمائتة .

(١) راجع أيضاً السور المائدة والمافات والكهف أملاك واجد فيها ما هو من هذا القبيل .

بحث في مقارنة الشرائع الوضعية

بالشريعة الإسلامية

لحضرة الأستاذ صالح بكير

المدرس بكلية أصول الدين

المحرمات من النساء وإجازة الزواج

بينما فيما سبق أن الزواج يحرم بين الرجل والمرأة إذا كانت بينهما قرابة أو مصاهرة ، وتضيف الشريعة الإسلامية الى ذلك الرضا .

والتحريم يرجع الى عوامل فسيولوجية ، والى أنه يؤدي الى ضعف النسل وانتشار الأمراض ، كما يرجع الى عوامل أخلاقية ونفسية .

ومع ذلك ففي بعض الاحوال الخاصة لبعض التشريعات غير الإسلامية يصح التجاوز فيها عن هذا التحريم ، فيرخص بالزواج . وسنمعرض لذلك بعضها :

أولا — ففي عهد التشريع الكنسي أمام كثرة الموانع التي ابتدعتها الكنيسة والتي ترتب عليها حصول اضطراب كبير ، اضطرت هذه لأن ترخص بالزواج وتتجاوز عن بعض الموانع ، وكان ذلك لالغاء كثير من الموانع . وفي العهد الأول للكنيسة ما كانت توجد تراخيص يطلق عليها ترخيص بمعنى الكلمة ، حيث لم يكن للكنيسة سلطان على تأميمها فيما يختص بمادة الزواج ، إلا السلطة التأديبية ، فللقاضي الكنسي إما الابقاء على الزواج أو أن يفصم فقط عراه .

وحينما أصبح القانون الكنسي تشريعا حقيقيا بالنسبة لمادة الزواج ، ظهرت نظرية الاجازة والترخيص كتمييز خاص وقاصر على المشرع فقط .

وفي القرن الثاني عشر على الأقل كان البابا يحتفظ بالسلطة العامة لمنح تراخيص الزواج ووضع القواعد والشروط التي تحدد تطبيقاتها . وحينما حصل النزاع في حق تشريع مادة الزواج بين الدولة والكنيسة ، لم تتوان الدولة في أن تدعى لنفسها حق الترخيص بالنسبة للموانع التي قررتها هذه .

وقد تقرر أن الموانع التي منشؤها حق طبيعي أو حق إلهي لا تلحقها الإجازة ، أما الموانع التي منشؤها يرجع الى الحقوق الوضعية ، فانها هي التي تكون محل إجازة وترخيص ، سواء كان ذلك تشريع الكنيسة أو تشريع الدولة ، كالترخيص بزواج الاعمام أو الأخوال أو العلمات أو الخالات مع أولاد الأخ أو أولاد الأخت ، وكالترخيص بالزواج بين أولاد الاعمام أو أولاد الأخوال أو أولاد العلمات أو أولاد الخالات ، وكالترخيص بالزواج بين إخوة الزوجين ، وكالترخيص بالزواج بين بعض أقارب الزوجين الخ .

وقد قرر مجلس الترانة عدم منح تراخيص الزواج إلا في أحوال نادرة ولأسباب هامة ، ومع ذلك فانه لم يراع هذا القرار حيث تضاعف عدد الموانع وزادت زيادة فاحشة ، فمن ذلك عدم كفاية الدوطة ، وسن الخمس والعشرين سنة للبنات ، وكالاتحاد الخفي ، وكوسيلة لإنهاء دعوى هامة قائمة ، وكالاتفاظ بأموال أسرة محترمة ، وغير ذلك .

وإجراء طلب الترخيص يكون برفع عريضة للبابا الذي يرسل بدوره الترخيص على شكل رسالة للساكنين المنتدب الذي يقوم بتحقيق الوقائع الموجبة للترخيص الممنوح .

ثانياً — وأما القوانين الحديثة فقد ظهرت شديدة الحرص في هذه المسألة حيث لم تبق من الموانع إلا ما كان ضرورياً ؛ فمثلاً القانون المدني الفرنسي لا يجيز الترخيص بالزواج الممنوع إلا في أحوال ضيقة ، فهو لا يجيز مطلقاً الزواج في عمود النسب (بين الأصول والمروع) كما لا يجيز الزواج بين الولد المتبنى وبين زوج من تبناه أو بالعكس ، ولكنه يرخس الزواج بين بعض الأقارب والأصهار ، بشرط أن تكون هناك أسباب خطيرة ، وبشرط موافقة رئيس الدولة على ذلك ، فقد نصت المادة ١٩٤ على ما يأتي :

بطلان الزواج وإغاؤه — عموميات :

البطلان المطلق والبطلان النسبي

الجزء المترتب على مخالفة الشروط المقررة لعقد الزواج هو فسخ وانحلال عرى الزوجية . وقد كان قديما بطلان الزواج ونظر دعواه من اختصاص المحاكم الكنسية والبرلمانات . وقد نشأت عن ذلك حلول تهيأت لأن يأخذ بها القانون المدني الفرنسي فيما بعد ، خصوصاً التمييز بين الموانع المحرمة تحريماً بسيطاً ، وبين الموانع المحرمة تحريماً مطلقاً قاطعاً ، والمؤدية الى إبطال الزواج واعتباره كأن لم يكن ، كما هيأت هذه الحلول أيضاً للقانون المذكور نظرية البطلان المطلق والبطلان النسبي . والفرق بينهما أن البطلان المطلق يبيح لكل ذى مصلحة في رفع دعوى الإبطال كما يبيح ذلك أيضاً للنيابة العمومية ، (وهذا يشبه دعوى الحسبة) بينما أف البطلان النسبي لا يبيح رفع دعوى الإبطال إلا للزوجين أو لأحدهما أو لأقاربهما فقط . وقد زالت أهمية بطلان الزواج أمام ظهور تشريع الطلاق ؛ إذ أنه في العهد القديم كان الطلاق غير مباح وغير مشروع ، كما كان اللجوء الى إبطال الزواج هو الشائع كواسطة لانتهاء الزوجية ، وكانت أحواله كثيرة ؛ فقد كان يكفي الغلط أو الإكراه مثلاً للحكم ببطلان الزواج ، وكان هذا يقوم مقام الطلاق . والفرق بين البطلان والطلاق أن الطلاق يفهم عرى الزوجية مستقبلاً بينما يعتبر الزواج كأن لم يكن .

أحوال البطلان في القانون المدني الفرنسي

أحوال البطلان التي نص عليها هذا القانون ست : (١) عدم رضا الزوجين أو أحدهما (٢) عدم موافقة القريب الذي له حق الموافقة على الزواج بالنسبة للقاصر ، وهاتان الحالتان ترجعان الى حماية إرادة الزوجين . وأما الأربعة

الباقية فترجع الى النظام العام ، ولذا فالبطلان المترتب غيابها بطلان مطلق ، وهي (٣) عدم البلوغ (٤) قيام زوجية لأحد الزوجين أو لكليهما (٥) التزوج بالمحارم (٦) عدم مراعاة شرط من الشروط الشكلية الجوهرية كالإشهار ، وكاختصاص مأمور الأحوال المدنية الخ . وسنتحدث عن أحكام نوعي البطلان.

البطلان النسبي

(١) من أسباب البطلان النسبي عيوب الرضا كالغلط والإكراه والغش ، وهي معروفة ؛ ومع ذلك فإن عيوب الرضا أساسا ليست سببا لبطلان الزواج اللهم إلا إذا كان الإكراه خطيرا ؛ وأما الخوف من الوالدين الناشئ عن الاحترام فلا يعتبر سببا لبطلان الزواج ، بينما الغلط لا يكون سببا للبطلان إلا إذا كان الغلط واقعا على ذات الشخص . وهذا لا يتأتى الآن عمليا لأنه طبقا للقانون المدني الفرنسي لا بد من حضور الزوجين أمام مأمور الأحوال المدنية ، وهذا يبعد كثيرا الوقوع في الغلط على ذات الشخص ، ولكن المحاكم الفرنسية ذهبت الى إمكان الحكم بإبطال الزواج في حالة الغلط في الصفات الجوهرية للشخص ، إذ تعتبر هذه الصفات كذات الشخص ، فالغلط فيها يعتبر كالغلط في ذات الشخص .

ثم ليس لأحد خلاف الزوجين طلب إبطال الزواج ، ولكن المعاشرة لمدة ستة أشهر بعد زوال الإكراه أو العلم بالغلط تعتبر إجازة ضمنية لزوج وقد تكون صريحة بالموافقة بالقول .

(٢) ومن أسباب بطلان الزواج عدم الموافقة عليه ممن له حق الموافقة ، وذلك بالنسبة لزواج القاصر . وحق طلب إبطال الزواج قاصر فقط على من له حق الموافقة ، وقد حدد القانون مدة لرفع دعوى الإبطال ، فالسكوت طول هذه المدة يعتبر إجازة ضمنية ، وقد تستخلص الإجازة الضمنية أيضا من بعض الوقائع والظروف ، وكما تكون الإجازة صريحة بالقول .

أسباب البطلان المطلق :

هي (١) عدم الرضا من الزوجين أو من أحدهما (٢) عدم البلوغ القانوني

(٣) وجود زوجية قائمة لأحد الزوجين أو كليهما خلاف هذه الزوجية
(٤) الزواج بأحد المحارم (٥) عدم الأشهاد (٦) عدم اختصاص مأمور
الأحوال المدنية . وهذه الأسباب تبيح لكل ذى مصلحة كما للنيابة العمومية
طلب إبطال الزواج . وهذا البطلان لا تلحقه الإجازة . ومع ذلك ففي بعض
الأحوال يصح إجازة هذا الزواج وينقلب صحيحاً .

هل هناك أحوال يمكن أن يعتبر فيها الزواج غير موجود ؟

لم يشر القانون المدنى الفرنسى الى هذه الأحوال ، ولكن يستفاد ذلك
من القواعد المقررة لإجراء عقد الزواج ، فلا يمكن مثلاً أن يقال إن هناك
زوجية عند اتحاد جنسى المتعاقدين ، وكعدم إشهار الزواج أو كعدم تدخل
مأمور الأحوال المدنية ، أو كعدم تسجيل عقد الزواج فى السجل . فى مثل
هذه الأحوال لا يمكن أن يقال بوجود زوجية . والفرق بين البطلان المطلق
وعدم وجود الزوجية أن البطلان المطلق قد تلحقه الإجازة فى بعض الصور ،
بينما عدم الوجود لا تلحقه الإجازة ، لأنها فرع الوجود وتصحيح خطأ .

آثار بطلان الزواج :

يترتب على بطلان الزواج انعدام آثاره فى الماضى والمستقبل ، بينما فى
حالتى الطلاق والوفاة تنعدم الآثار فى المستقبل دون الماضى . والأصل أن
الزواج الذى حكم ببطلانه يعتبر كأنه لم يكن ، ولم يخرج عن كونه مباشرة غير
قانونية فتعتبر الأولاد أولاداً غير شرعيين ، ولا تسقط أهلية المرأة فى
التصرفات ، كما أن العقد الخاص بالنظام المالى بين الزوجين يعتبر كأنه لم يكن الخ .

ويلاحظ أن المرأة التى حكم ببطلان زواجها لا يجوز لها أن تعقد زواجا
جديداً من شخص آخر قبل خروجها من العدة ، وهى عشرة أشهر من وقت
صدور الحكم بالبطلان .

الزواج الفاسد .

وخطورة هذه النتائج وقسوتها بالنسبة للزوجين أو لأحدهما ، وبالنسبة

للأولاد، ابتدعت الكنيسة ابتداء نظرية الزواج الفاسد . ومخلصها أن الزواج الذي حكم ببطلانه يعتبر كأنه زواج صحيح بالنسبة للأولاد، وكذلك بالنسبة للزوجين أو لأحدهما إذا ثبتت حسن نيتهما أو حسن نية أحدهما . وعلى هذا فتعتبر الأولاد أولاداً شرعيين ، وعلى الزوجين أن يفترقا وينقطعاً عن المعاشرة ويعيدا زواجهما طبقاً للشروط والأوضاع القانونية . وقد أقر القضاء الفرنسي هذا المبدأ واتبعه .

الشريعة الإسلامية

إذا رجعنا لمذهب الأحناف نجد أنه عرف الباطل بأنه العقد الذي لم يشرع بأصله ولا بوصفه ، والفاسد ما شرع بأصله دون وصفه . فالزواج الباطل هو كما إذا حصل خلل في صيغة العقد أو خلل في أصل أهلية المتعاقدين لفقد التمييز كالجنون أو الصغر . وهذا الزواج يعتبر كأنه لم يكن ، ويعتبر وجوده كعدمه ، ويعتبر الدخول بمنزلة الزنا ، فلا عدة على المدخول بها بعد المتاركة ، ولا يثبت به نسب ، ولا حرمة مصاهرة ، ولا توارث ، ولا مهر ، ولا نفقة ولا طاعة .

وأما الزواج الفاسد فهو كما إذا اختل شرط من شروط صحته كعقد الزواج بغير شهود . ومجرد هذا العقد لا يترتب عليه أثر ما ، بمعنى أن المتزوجين زواجا فاسدا إذا افترقا قبل الدخول لا تثبت به عدة ولا مهر ولا حرمة مصاهرة ولا نسب ولا ميراث . أما إذا دخل الزوج دخولا حقيقيا فيترتب على ذلك : (١) وجوب المهر على الزوج ، إما مهر المثل أو الأقل من المسمى ومن مهر المثل إن سمي في العقد مهر . (٢) وجوب العدة على الزوجة بعد التفريق . (٣) ثبوت النسب . (٤) حرمة المصاهرة ، وما عدا هذه الآثار الأربعة فلا يترتب على الزواج الفاسد أثر آخر كالتوارث والنفقة والطاعة وحل الاستمتاع .

ودعوى التفريق تثبت لكل مسلم لأنها من دعاوى الحسبة إزالة للعنكر . وأما المالكية والشافعية فلا يفرقون بين الباطل والفاسد . وعلى هذا فشكل نكاح لم تتوفر فيه الشروط المقررة فهو نكاح باطل وفاسد ، وأما من حيث الآثار وخصوصا النسب فقد وضع المالكية قاعدة عامة وهي :

« كل نكاح يندريء به الحد فالولد لاحق بالواطىء ، وكل نكاح يجب فيه الحد لا يلحق الولد بالواطىء » .

ويستنتج مما سبق :

(١) أن الشريعة الإسلامية لم تقع في ذلك الاضطراب القى وقعت فيه الشرائع الأخرى .

(٢) عدم وجود ما يسمى بالترخيص أو إجازة الزواج في الشريعة الإسلامية ، وهذا واضح لعدم وجود تعقيد في عقد النكاح الإسلامى .

(٣) لا توجد في الشريعة الإسلامية دعوى إبطال الزواج لأن البطلان أو الفساد ثابتان ، وإنما القاضى يحكم بالتفريق بعد ثبوت البطلان أو الفساد .

(٤) دعوى التفريق في الشريعة الإسلامية حق لكل مسلم من باب إزالة المنكر . وبهذا يتضح تفوق الشريعة الإسلامية على غيرها من الشرائع الأخرى لتمشيتها مع المنطق والأخلاق ، وأن قواعد النكاح التى وضعتها خلت من التعقيد والاضطراب ، فأصبحت صالحة لكل عصر . وهذه الميزة لا توجد في الشرائع الأخرى التى تغير كل يوم في قواعد زواجها . وهذا نخر عظيم للفقه الإسلامى والشريعة الإسلامية .

أجوبة محكمة

قال هرون الرشيد لعبد الملك بن صالح : أ كفراً بالنعمة وغدراً بالامام؟ فقال الرجل : ما ذلك يا أمير المؤمنين إلا بغى باغ نافسى فيك بقديم الولاية وحق القرابة . فقال الرشيد : هذا قامة كاتبك يخبرنى بفعلك . فقال عبد الملك : أحقا يا قامة ؟ قال نعم ، لقد أردت ختل أمير المؤمنين والغدر به . فقال عبد الملك : كيف لا يكذب على من خلى من بهتنى فى وجهى .

قال الرشيد : هذا ابنك شاهد عليك . قال عبد الملك : يا أمير المؤمنين هو بين مأمورا وطاق . فإن كان مأمورا فمعدور ، وإن كان طاقا فما أخاف من عقوقه أكثر .

لغويات

القيثارة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد علي النجار

المدرس بكلية اللغة العربية

جرى هذا اللفظ هكذا في عبارات المحدثين . وهو لضرب من آلات
اللهوذي ستة أوتار تحرك بالأصابع فيأتي من ذلك غناء مطرب . وهذا اللفظ
معرب عن جيتار في الفرنسية guitare ، وهو مبدوء بالحرف الذي بين
الجيم والكاف ، ويعرف بالجيم الفارسية . فترى أنهم أبدلوه قافا ، لما لم يكن
هذا الحرف من حروف العربية الفصيحة . وإني أختار وأستحب أن يكون
بدل هذا الحرف جيم عربية ، فيقال : الجيثارة . وقد فعل العرب ذلك
بكلمات كثيرة عربوها على هذا النحو . فقد قالوا لجام وأصله لكاه بالكاف
الفارسية ، وقالوا آجر ، وأصله أيضا في الفارسية آكر ، وقالوا الجرداب
لوسط البحر ، وأصله الجيم الفارسية ، إلى كثير من المعربات على هذا النسق . على
أن العرب في قليل من الألفاظ أبدلت من الجيم الفارسية قافا ، وكافا ، فقالوا :
قُرْبَق ، وكُرْبَق لكان البقال ، وأصل الكاف والقاف فيه الكاف الفارسية .
وإني أسوق إليك نصا لإمام النحو سيبويه إذ يقول : « يبدلون من
الحرف الذي بين الكاف والجيم الجيم لقربها منها . ولم يكن من إبدالها
بدء ، لأنها ليست من حروفهم . وذلك نحو الجر بـ ، والآجر والجورب .
وربما أبدلوا القاف ، لأنها قريبة أيضا ، قال بعضهم : قرب بـ ، وقالوا : كورب
وقرب (١) ، والجر بـ : الخب الخبيث ، وهو معرب عن الفارسية . ولقد وقعت
على صورة للكلمة (قيثارة) قديمة أتت بالكاف . وذلك في شعر أبي عامر
ابن شهيد الأديب الأندلسي . وذلك حيث يقول (٢) :

تغنيه أطيال القيان إذا انتشى بصنح وكيثار وعود كران

(٢) من النخبة ج ١ ، ص ٢٦٧

(١) من الكتاب ج ٢ ص ٣٤٣

وخير لنا أن نتبع هذا التعريب القديم إذا لم نصر إلى الجيثارة .
ومما يحسن ذكره في هذا المقام أن اللفظة انتقلت إلى الفرنسية عن الأسبانية
وهي في لغتها الأسبانية جسترا guistarra فدخلت الفرنسية بحكم الجوار ،
ودخلت العربية فيما يبدو عن الأسبانية بحكم المخالطة والمداخلة في الأندلس
في عهده السعيد . وفي بعض المعاجم أن الكلمة في الأغريقية ، ويحتمل
أن تكون العربية أخذت عنها . وما ذكرناه هو الأرجح .
ويرى القارىء مما سبق أن ابن شهيد استعمل الكيثار غير مختمة بتاء
التأنيث . ويستعملها المحدثون تارة مجردة من التاء كما فعل ابن شهيد . انظر
إلى قول الأستاذ محمد الصياد (١) :

ألقيت للنار في غفلة مني
عودى وقيثارى وقلت لى : غن

وتارة بالتاء - وهو الجارى في الاستعمال - ومن ذلك قول الأستاذ (٢)
أنور العطار في البصرة :

مدينة الماء والرواء فتفت بالحسن كل راء
وهجت قيثارة الفضاء بأعذب الشعر والغناء

احتج العمال على سوء معاملتهم

ترى هذا وأمثاله كثيرا . يستعمل الاحتجاج في موضع الإنكار
والسخط لبعض الأشياء التي تنوب امرأ أو طائفة أو شعبا من الشعوب .
فالدولة تهتج لدى الدولة المملانية أن أهين سفيرها ، وأذيل فائنها ؛ والشعب
يحتج على إنكار حقه وضمه ، وهكذا مما لا تكاد صحيحة دورية تخلو منه .
والاحتجاج في وضعه اللغوى هو الإدلاء بالحجة والدليل لتأييد الدعوى ،
وتسكينها ، ولاتزاه في وضعه يدل على الإنكار الذي أطبق الناس على استعماله
فيه . والبحث يهذى إلى أن مرده هذا الاستعمال في العربية الترجمة لأسلوب
غربي يأتي فيه ما يقابل لفظ الاحتجاج لمعنى الإنكار . ويلاحظ أن الأسلوب
الغربي تفرق فيه مادة الاحتجاج بعبارة تدل على المخالفة والخصامة فيقال
في الفرنسية :

١ - من مجلة الكتاب جزء نوفمبر سنة ١٩٤٧ .

٢ - المصدر السابق .

أحتج في مواجهة جور واقع . Je proteste contre une injustice . وهذه العبارة التي تقارن مادة الاحتجاج تشر بها معنى الإنكار والاستياء ، وليس كذلك ما يقرن بمادة الاحتجاج في العربية ؛ فإنها توقع السامع في لبس وإيهام . فالمعنى الوضعي لقولك : أحتج على إهانتى : أنى أقم الحجة على هذا الأمر وأعتقده وأدفع عنه . ويحاول لبعض الباحثين أن يخرج هذا الأسلوب على المجاز ، فيزعم أن الإنكار يدعو الى الاحتجاج والاستدلال وبيان ما يدعو اليه من الأسباب ، وقد ذل بالمسبب وهو الاحتجاج على السبب وهو الإنكار . وقد علمت أن الداعى لاستعمال الاحتجاج في الإنكار لم يكن هذا الذي يذكره هذا الباحث ، وإنما هو الترجمة للأسلوب الغربي ، كما عرفت . والأسلوب الغربي قد لا يسه ما يقربه من معنى الإنكار ، وقد خلا عن ذلك الأسلوب العربي . فالأولى للداء هجر هذا الاستعمال ، والعود الى أن يستبدلوا به مادة الإنكار أو السخط أو الاستياء ، وما جرى هذا المجرى .

أخطركم بكذا

تستعمل مادة الإخطار بالشئ في الإعلام به . يقول الناس في هذا العصر : أخطرت فلانا بكذا ، وأخطر الرئيس العامل أنه فصل واستغنى عنه ، وأخطر صاحب البيت الساكن بالاخلاء ، يراد أنه أهله بذلك . ولا ترى هذا المعنى السادة في اللغة ؛ غير أن عندي لها تخريجا : أن يكون هذا الأسلوب على القلب في القصة ؛ والأصل أن يقال : أخطر بك هذا الأمر أى أجهله يخطر بك ، يقال : أخطر الله بباله أمر كذا : وضعه في خاطره وروعه وقلبه . وذلك فيه معنى الإعلام . فعنى أخطر بك كذا : أشعرك به وأدريك ، فقلب هذا فقيل : أخطرك بكذا . والقلب يجرى في المخاطبات كثيرا ؛ من ذلك عرضت الحوض على الناقة ، وخلمت رأسى من القلنسوة - وقد سلف لنا بحث في القلب يحسن الرجوع اليه في هذه المجلة - وقد رأيت أن الإخطار كثيرا ما يستعمل في الإعلام بالأمر المسكروه ، وهو يرادف في هذه الحالة الإنذار . ومما يستعمل في بعض الحين في معنى الإنذار : الايدان . فهو في وضعه الأصلي للإعلام ، يقال : أذنته بكذا : أعلمته . ومن استعماله في الإنذار قوله تعالى : « فان تولوا فقل

آذنتكم على سواء» . قال أبو خنثري : «وآذن منقول من آذن إذا علم . ولكننه كثر استعماله في الجري مجرى الانذار، ومنه قوله تعالى : « فأذنوا بحرب من الله ورسوله » ، وقول ابن حنبل : آذنتنا ببعضها أسماء » .

مرافق لهذا صورة لشهادة الميلاد

ترى هذا الأسلوب في الكتابات الديوانية . وكثيرا ما يجد القارئ مثل هذه العبارة : مقتطع من راتب فلان خمسة قروش . والمتبادر في هذا الأسلوب أن يكون الوصف الذي بدئت به الجملة خبرا مقديما وذو الوصف مبتدأ مؤخر ، فرافق خبر ، وصورة مبتدأ ، وهكذا على هذا النحو . ولكن يقوم في وجه هذا التخرج أن الخبر يجب أن يكون مطابقا للمبتدأ ، فكان الواجب أن يقال : مرافقة لهذا صورة ... وعلى ذلك لا يستقيم هذا الوجه . والتخرج الصحيح أن يكون مرافق مبتدأ وصورة فاعلاله سد مسد الخبر ، ولا يجب تأنيث المبتدأ في هذه الحالة . وترى أن الوصف استغنى بمرفوعه عن الخبر دون أن يعتمد على نفي أو استفهام ، وهذا رأى الاخفش والكوفيين . ولا بأس باتباعه لتصحيح هذا الأسلوب الجاري بين الناس .

دخل الطلبة المدرسة اثنين اثنين

يتردد هذا الأسلوب في الدلالة على تكرار العدد ، فيكررون اسم العدد كما ترى . والمعروف عن العرب في هذا أن يأتوا بلفظ واحد بدلا من العدد المكرر ؛ فيقال : دخل الطلبة المدرسة مثنى أو ثناء ، يعدلون إلى إحدى هاتين الصيغتين عن اثنين اثنين . وهكذا يقولون : دخلوا أحاد وموحد ، وثلاث ومثلث ، ورباع ومرتبع . وفيما جاوز هذه الأعداد خلاف طويل الذيل بين علماء العربية لا يعنينا تفصيله وبسطه في هذا المقام . وقد ذكرت هذا حين وقع نظري في صحيفة أخبار اليوم ١٩٤٧ / ٥ / ٣ على النبا الآتي : « اتفق ستون من طلاب جامعة لوفان على أن يخرجوا من جامعتهم اثنين اثنين في الساعة التاسعة صباحا » ، وقلت : إن هذا خطأ من الكاتب لم يوافق الاستعمال العربي الصحيح ، ولو توخاه لقال : على أن يخرجوا من جامعتهم مثنى ، أو ثناء . وقد كنت مقتنعا بهذا الحكم منذ قراءتي لشرح الاشتوني ؛

فقد وقعت حين ذاك في حواشي الالفية للشيخ كيس على قوله : « لا يقال : جاءوا واحدا واحدا ، ولا اثنين اثنين ؛ لأن العرب قد عدلوا عن ذلك إلى أحاد ومثنى ، وكذا أخواتهن . فهذا من الأصول المهجورة نص عليه في الدرة » . ورجعت إلى الدرة ، وهى دُرّة الغواص للحريرى ، فألفت النقل صحيحا لم يحرم منه الشيخ يس حرفا . وأردت التثبت والتوسع في هذه المسألة فرجعت إلى ما كتبه الشهاب الخفاجى على الدرة ؛ فقد كنت أعلم أنه كثيرا ما يتعقب الحريرى في تخطئته للأساليب الجارية ، ويكر عليه كرو الناقد البصير . ولقد ألفت الشهاب الخفاجى بخطى الحريرى في هذا الحكم ، ويصوب تكرير العدد فيما أسلفت ، ويسوغ أن يقال : دخل الطلبة المدرسة اثنين اثنين . وإنى أسوق إليك كلامه ، ثم أناقشه فيه : قال الشهاب : « تخطئهم في استعمال واحدا واحدا إلى آخر ما ذكره للدلالة على التكرير خطأ ؛ لأنه مقيس كثير في كلام العرب ؛ كما قال الشاعر :

إذا شربنا أربعا أربعا فقد لبسنا الفرو من داخل

ولو لم يكن أصلا شائعا لما كان أحاد معدولا عنه ، وكان المعدل فيه تقديريا ، ولا قائل به . وفى شرح الكافية للحديثى : أسماء العدد المستعملة للتكرير المعنوى بلفظها مطرده . وإنما عدل ليكون نصا فيما قصد به ؛ فإن ثلاثة ثلاثة مثلا يحتمل التأكيذ بخلاف صيغ أحاد وموحد » . وترى أنه رد على الحريرى بأصـرين : الأول أنه مقيس ؛ وهذا لا ينازع فيه ولا يجحد ، فلا فرق بين قولك : أعط المساكين دوهمين درهمين ، وقولك : جاءوا اثنين اثنين فى مجرى القياس . والثانى أنه كثير فى الاستعمال . وهذا إذا صح كان هدما لكلام الحريرى ونقضا أى نقض له . فإن الحريرى بنى حكمه على أن هذا أمر أطوحه العرب وأهملوه وهجوه ، وما أطوحه العرب فهو مطرح ، وإن سوغه القياس على النظائر والأمثال . ونرى أن الشهاب لم يجيء فى سبيل دعواه كثرة الاستعمال لما أنكره الحريرى بشىء يذكر ، ولا سلطان مبين . فكل ما أورده قول الشاعر : إذا شربنا أربعا أربعا ، والظاهر أن الشاعر يريد : إذا شربنا أربعا من الأكؤس ثم أربعا منها ، وعلى ذلك لا يكون المقام لرباع ؛

فإنه لو قال: إذا شربنا رباع كان المعنى: أننا طوائف، كل طائفة أربعة في حال الشرب كما لو قيل: خرجنا رباع أى خرجنا طوائف كل طائفة أربعة، ولو أراد هذا لكان المقام لتأنيث العدد فيقول: إذا شربنا أربعة أربعة. وهذا يحصل لو شرب كل واحد من الطوائف كأساً واحدة، ولا يؤدي هذا الى ما رتب عليه وقد مر من قوله: فقد لبسنا الفرو من داخل، أى عمنا الدفء أو غمرنا الحر؛ فإن ذلك لا يكون بالكأس الواحدة. فتري أن الشهاب ركب الشطط في هذا الاستدلال. على أنه لم يحمل الشاعر صاحب هذا البيت بما يرفع الجهالة عنه حتى نعلم حاله في الاحتجاج به. فلعله أن يكون من المولدين الذين لا يحتاج بكلامهم. ويغلب على الظن هذا، فإن المعنى الذي ذكره، وهو لبس الفرو من داخل للكناية عن الدفء، معنى غريب يأتي من التأمل والنظر، ولا يكون للعربي الساذج. ودعواه أن هذا الأصل لو لم يكن شائماً لم يكن أحاد معدولاً عنه كلام لا يغني عنه من الحق شيئاً. فكثير من الاشتياء عدل عنها واقتصر على الفرع وأهمل الأصل إهمالاً كلياً. ألا ترى أن الأصل في قولك: عسى زيد أن يقوم، عسى زيد قائماً، ولو قيل هذا الأصل لوقع القائل في الخطأ الفاحش، وقد حكموا بالشذوذ على قول الشاعر:

أكثر في العذل ملجأ دائماً لا تكثرن إني عسيت صائماً

وبعد، فما زلت على رأي الأول في استهجان الأسلوب المدون في صدر البحث، ولا أزال كذلك حتى يثنيني عنه وجه صحيح. وفقنا الله لاتباع الحق حيث كان.

شرجه

تستعمل هذه العبارة في معنى مساوي الشيء ونظيره في أمر من الأمور. وجاء في مجلة الاثنين ١٦/٩/١٩٤٧ ما يأتي « وأنا أيضاً شرجه » ويبدو لي أن الأصل شرجه، فصحف الجيم الى الحاء. ومثل هذا كثير. والشرج في اللغة من معانيه: المثل، والنظير. والله أعلم.

إيمان أبي بكر

لفضيلة الاستاذ الشيخ إبراهيم على أبو الخشب

الإيمان ضرورى للبشر لا يقل مسيس الحاجة إليه عن مصيبتها الى الطعام والشراب ؛ وذلك لأنه إذا كان الطعام والشراب غذاء الأجسام وقوامها ، فإن الإيمان غذاء الأرواح تسمو به الى ملكوت علوى من العقيدة ربما كان من الصعب تحويلها عنه ، خصوصا إذا كانت من تلك النفوس الكبيرة التى لا ترى اللذة والسعادة إلا فى محيطه الواسع العميق . . . وهــ لذا هو السر - على ما أرى - فى أن المؤمنين يستهينون بالموت ، ويستمذبون الاستشهاد ، ويستسيغون التضحية ، ويستصغرون الشدائد مهما كان لونها وطعمها ؛ بل يطلبون ذلك ، ويعملون له ، لتنمو تلك الشجرة وتتمكن ، فإذا « أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها » . وكأما يبتغون هذا العراك رياضة وتهذيبا ، وثقافة وتأديبا .

وفضيلة الدينار يظهر سرها فى حكمة لا فى ملاحه رقشه

ومن هنا كان الجهاد - فى الاسلام - بابا من أبواب الجنة . ومن هنا أيضا كان نزوع محمد قبل الرسالة وقلقه وحيرته واضطرابه وخلوته بغار حراء اللبلى ذوات العدد ، ينطلق الى هدف يركز فيه إيمانه ، ويقصر عليه قلبه ولسانه ، وسره وإعلانه .

ومسارعة أبي بكر رضى الله عنه الى الرسول صلى الله عليه وسلم واضعاً يده فى يده مذعنا لما جاء به الى قريش خاصة ، والى الناس طامة ، قد يؤولها المؤولون بالصحبة القديمة ، والمودة السالفة ، التى ربطت بينهما طفلين غريرين ، وشابين فتين ، ورجلين كبيرين ؛ والحب إذا تحكم بين شخصين ، وتأكدت فى نفوسهما أواصره ، غطى على كل اعتبار ؛ مع أن الأمر ليس كذلك ؛ فإن الرجل كان من الظالمين المتعطشين ، لم يلبث حين توجهت إليه الدعوة أن أصابت منه «مواقع الماء من ذى الغلة الصادى» . ولو أنه عبد الاوثان

أو آمن بغير الله ، لكانت له كبوة ، وقال كما قال المعاندون : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » .

وإذا كان الإيمان خوفا مشوبا بشك يساور العابد في رضاء معبوده ، فانه كذلك صلابة في الحق ، وثبات على المبدأ — على حد بعض التعابير — . وهكذا كان ابن أبي قحافة ، فما قرأ القرآن وجلست له وعيدته « فار الله الموقدة ، التي تطلع على الأفئدة » إلا بسكى واخضلت لحيته بالدموع ؛ وما ذكر يوم القيامة إلا ارتعدت فرائصه وقال : « لو كانت إحدى قدمي داخل الجنة والأخرى خارجها ما أمنت مكر الله . » مع أنه من المبشرين بها . وحديث صلابته في الحق يتمثل في محاربته لاهل الردة ، أولئك الذين انتهزوا فرصة موته صلى الله عليه وسلم فتمعوا الزكاة . وكأني به :

في كل منبت شعرة من جسمه أسد يمد الى القريصة مغلبا

يقول له عمر بن الخطاب : كيف تقاتل قوما يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر ؟ فيقول له « والله لو منعوني عقاب بعير كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه » . وقد تصل تلك الصلابة في الحق الى درجة أن تهوى لصاحبها أنه وحده دولة ، لها من البأس صولة . وكثيرا ما توالى الهن الشداد على صناديد المهاجرين والانصار « وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله » فاذا به كأنه صاحب المتنبي الذي يقول فيه :

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلى هزيمة ووجهك وضاح وفتك باسم

يحيره ابن الدغنة حينما أراد الهجرة الى الحبشة ويقول له « مثلك لا يخرج ولا يخرج ، إنك تكسب المعدم ، وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » ثم يطوف به على منتهيات قریش ومجتمعاتها يعلمهم بما بينه وبينه ، وينذرهم إن تصدوا له بسوء أن يرده إليهم أضعافا مضاعفة ، ويكون الرجاء حارا في أن يتخفى « المستجير » بدينه وقرآنه لئلا يفتن به نساؤهم وأبناءؤهم . ولكن ذلك لم يحرك من الرجل ساكنا ، أو يهز منه عاطفة ، فيحاول إعلان عبادته ، وقرأ القرآن أمام بيته ، ويتهافت

عليه الشيوخ والشباب ، تهافت الذباب على الشراب ، ويتهامس المتهمسون ماذا يكون في تلك « المعاهدة » وسرعان ما يتجلى إيمان « الرجل » في قوله لجيره : إن كان يخرجك ما بيننا من جوارفاني « في جوار الله » العزيز الحكيم ! ولم يقر قراره دون أن يكافح ويكابد ، وينافح ويجاد ، ويؤذن فيمن حوله من لداته وأقوانه « بكلمة الحق » يعلنها مدوية صاخبة . وما هي إلا عشية وضحاها حتى كان في صفوف المسلمين عثمان بن عفان ، وطلحة بن الزبير ، وسعد بن أبي وقاص ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وغيرهم ممن اعتر بهم الاسلام وانتصر .

والحق والایمان إن صبا على برد فقيه كتيبة خرساء
نسفوا بناء الشرك فهو خرائب واستأصلوا الأصنام فهي هباء
يمشون تغضى الأرض منهم هيبة ولهم حبال نعیمها إغضاء
حتى إذا دانت لهم أطرافها لم يطعمهم ترف ولا نعماء !!

والنفوس التي تترفع عن أضرار المادة هي التي تزهد في المال ، وتعرف من مباحج الحياة ، وتدعن بالمعجزات وخوارق العادات . وكذلك رأينا رضى الله عنه ، تبرع بماله للنبي لينفقه في حاجته وحاجة المعوز البائس من صحابته ، فأخلف الله عليه غيره ، فتبرع به من جديد ، فأخلف الله عليه غيره فتبرع به ، وكلما تبرع أخلف الله عليه ، وكلما أخلف الله عليه تبرع . وقد قال له صلى الله عليه وسلم في إحدى هذه المرات : وماذا أبقيت لعيالك يا أبا بكر ؟ فقال : أبقيت لهم الله ورسوله . « الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مئالا ولا أذى لهم أجرم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

ويخيل الى أنه المثل الأعلى للذين يؤمنون بالغيب . تلقاه صبيحة الإسراء نهر من الكفار فقالوا له ماذا ترى في رجل يزعم أنه قطع ما بين المسجد الحرام الى المسجد الأقصى في قطع من الليل ؟ والعرب تعلم أنها مسيرة شهر ، فقال لهم « صدقناه فيما يوحي اليه ، أفلا نصدق فيما هو دون ذلك » ؟ وتمضى السنون ويختار الله إلى جواره نبيه الكريم ، فيذهل الذاهلون

عند نعبه ، ويقف عمر بالمسجد طارضا سيفه قائلا : من أخبر بهذا الخبر قصصته .
وهناك لا يغيب عن الصديق رباطة جأشه ، وقوة إيمانه ، وشدة شكيمة ،
فياخذ طريقه إلى المنبر ليقرأ على الناس : « وما مجد إلا رسول قد خلت من قبله
الرسل ، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن
يضر الله شيئا » فلا يلبث أن تزول هذه الغاشية ؛ وكأن أحدا من
المسلمين لم يستمع إلى هذه الآية من قبل ، أو يدر أنها أنزلت .

ومنذ هذه اللحظة تلتفت الأنظار إليه ليكون « خليفة رسول الله » ،
وينتهي إليه هذا الأمر فلا يزدهيه أو ينقص من تواضعه « إني وليت عليكم
ولست بخيركم ، إن رأيتموني على حق فأعينوني ، وإن رأيتموني على باطل
فقوموني ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم » .

وبعد ، فهذه وجازة عن « عقيدة رجل » أخبر الصادق المصدوق أنه
لو وزن إيمانه بإيمان هذه الأمة لرجح ؛ رجوت بعرضها أن تكون تذكرة
وعبرة « والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

من حكم لقمان

قال لقمان لابنه : لا تكن إلى الدنيا ، فانك لم تخلق لها ، وما خلق الله خلفا
أهون عليه منها ، فانه لم يجعل نعيمها ثوابا للعطيعين ، ولا بلاءها عقوبة
للعاصين . يا بني لا تضحك من غير عجب ، ولا تمش في غير أرب ، ولا تسأل
عما لا يعنيك . يا بني لا يضيع مالك ، وتصلح مال غيرك ، فان مالك ما قدمت
ومال غيرك ما تركت . يا بني من يرحم يرحم ، ومن يصمت يسلم ، ومن يقل
الخير يغم ، ومن يقل الباطل يأثم ، ومن لا يملك لسانه يندم . يا بني زاحم
العلماء بركبتك ، وأنصت إليهم بأذنيك ؛ فان القلب يحيا بنور العلماء ، كما
تحيا الأرض الميتة بمطر السماء .

خالد

لفضيلة الاستاذ الشيخ عبد العزيز السيد موسى

تحدثت عن حياة أبي عبيدة بن الجراح ، وأثارت ذكراه الكلام عن خالد ابن الوليد ، لأنهما في المجد توأمان ، وفي السؤدد والعظمة صنوان .

خالد بن الوليد المخزومي كان من سادة بني مخزوم ، وريحانة العرب ، لما له من حياة سامية وهمة عالية . فلورجعت الى حياته الحافلة بمجلائل الأعمال لرأيتها شعلة وقادة من المهد الى اللحد . ظهر خالد في أيام الرمح والسيف والبادية والجل ، ونبت في أصل أصيل ، ومجد أثيل ، وكان له خبرة فنية في قيادة الجيوش فاقت كل خبرة ؛ فهو قائد الفرسان ، وصاحب القبة في الجاهلية ؛ كانوا يضربون له القبة في أثناء حروبهم ، وينصبون خيامهم حولها ، ويرجعون اليه في شئونهم ؛ وكان لخالد في غزوة أحد الأثر البعيد في نصر دولة الشرك ؛ فانه تحين شغل المسلمين بما وضعوا أيديهم عليه من الغنائم ، حيث كان النصر لهم ، وجاءهم من خلفهم وفرق جمعهم ، وإن كان لم يكن من وراء انتصاوه هذا شيئا .

وفي السنة السابعة للهجرة أسلم خالد ، وفرح الرسول صلى الله عليه وسلم بإسلامه ، وقال له : الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا نرى لك عقلا رجوت ألا يسلمك إلا الى خير . فقال : يا رسول الله ادع الله لي أن يغفر تلك المواطن التي كنت أشهدا عليها . فقال له عليه الصلاة والسلام : الاسلام يقطع ما قبله . وكان له في إسلامه الأثر الم محمود ، وفي جهاده الخطر البالغ ، فان الرسول صلى الله عليه وسلم أخذ يوجه الجيوش الى خارج الجزيرة بعد ما قويت سواعد المسلمين . ولما وجه النبي صلى الله عليه وسلم جيشا نحو الشام ، جعل لهذا الجيش قوادا ثلاثة يتعاقبون عليه واحدا بعد الآخر إذا أصاب القائد الموت ،

وهم : مولاه زيد ، وابن عمه جعفر ، وشاعره ابن رواحة . وكان المسلمون في ثلثمائة ، وكان العدو في ألوف مؤلفة ؛ فأصاب الثلاثة الموت ، فحمل الراية من بعدهم خالد بن الوليد ، وبقيادته نجح جيش المسلمين من جيش العدو ، بما له من كياسة حربية وسياسة عسكرية . واطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعين الغيب على ماجرى ، وخطب أصحابه بالمدينة ، ونعى اليهم القواد الثلاثة ، ثم قال : وأخذ الراية سيف من سيوف الله . ومن هذا اليوم سمي خالد سيف الله المسلول .

وفي عهد أبي بكر وجهه الخليفة الأول الى أهل الردة ، فكان له ما كان من مواقف مشهودة ، ومن قتله مسيلمة الكذاب . وقد نقم عليه بعض الشيء في هذه الحروب عمر بن الخطاب ، وأخذ يتحدث في شأنه ، فقال له أبو بكر : ارفع لسانك عن خالد فاني لا أنشيم (أى لا أنحمد) مصيفا سله الله ، وقد قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم الرجل خالد بن الوليد !

وكان بجوار جزيرة العرب دولتان عظيمتان لهما ما لهما من عز وسؤدد ، وما كان يدور بخلد العرب أن يتوجهوا إلى حربيهما في وقت ما ؛ ولكن خالدا قائد الفرس كان هو السهم النافذ إلى نحوهما ؛ وهما الفرس والرومان ؛ دولتان عظيمتان ، فقص أطرافهما خالد ، وأخذت كل دولة تنكشف الى مركز دائرتها ، وتنقلص إلى عاصمة بلادها ، وهو يسوقهما أمامه بسيفه ، حتى حطم الأسوار ، وجعل الاسلام يرفرف تيتها وإعجابا فوق تلك الديار .

استداه أبو بكر من العراق لحرب الشام ، وأسند إليه القيادة العامة بعد عزل أبي عبيدة منها ، لأنه كان يرى فيه الحكمة السياسية والتربية العسكرية ، وأن الجنود كانوا معجبين به أينما إعجاب ، لذلك كانوا طوعا وعبارته ورهن إشارته ؛ وخالفه النصر في كل معركة .

وفي خلافة عمر بن الخطاب عزله عمر من هذه القيادة ، وقال له : ما عزلتك لريبة فيك ، ولكن افتن بك الناس فخفت أن تفتن بالناس ! فتقبل العزل بنفس هادئة ، وألقى مقاليد القيادة الى أبي عبيدة وقلبه راض .

كان خالد يود من صميم فؤاده ومن أعماق قلبه أن تدركه منيته وهو غاز .

فقال وهو محتضر : لقد شهدت مائة زحف أوزهاءها وما بقي في بدني شبر إلا وفيه ضربة سيف ، أو طعنة رمح ، ثم أموت على فراشي هكذا كما يموت البعير ، لا نامت أعين الجبناء !

ذلك قول خالد وهو على فراش الموت . وإن صفحات المجد التي سجلها التاريخ لخالد بن الوليد باقية أبد الآبدين ، وخالدة دهر الدهرين .

وقد حقق المؤرخون أنه مدفون بمسجده القائم بمحضر ، وهو مسجد يشهد على عظمة المدفون فيه . وقيل إن صورته كانت تعطي صورة واضحة لعمر بن الخطاب فكأنه هو ، حتى كان الكثير من الناس يشقه فيها ، فإذا رأى الإنسان أحدهما ظنه الآخر . بنى له ذلك المسجد العظيم السلطان عبد الحميد أحد خلفاء الدولة العثمانية . وكيف تتصور أنه نال كل ذلك الفخار وسجل له التاريخ تلك العظيمة ، في حياة قصيرة ، فانه لحق بربه وهو في الثالثة والأربعين من عمره .

تلك صورة موجزة تقرب إلى ذهرك خالد بن الوليد وجهاده وبطولته . وهكذا تكون رجالات الاسلام الذين تربوا في أحضان النبوة على ضوء القرآن في عهده الأول ، فكم فيهم من أمثال خالد .

تلك اللحظات السريعة جالت بخاطري عندما وقفت أمام قبر خالد الذي نوى فيه عند زيارتي للحمص في سنة ١٩٤٦ . فعليك رحمة الله يا خالد ! صنعت فلم يصنع كصنعك صانع وما يصنع الاقوام فانه صانع

من حكم أبي حازم

طلب عبد الملك بن مروان أبا حازم ، فلما دخل عليه قال : تكلم يا أبا حازم . قال : فيم أتتك يا أمير المؤمنين ؟ قال : في المخرج من هذا الأمر . قال : يسير إن أنت فعلته . قال : وما ذاك ؟ قال : لا تأخذ الأشياء من غير حلها ، ولا تضعها إلا في أهلها . قال : ومن يقوى على ذلك ؟ قال : من قلده الله من أمر الرعية ما قلده . قال : عظمي يا أبا حازم . قال : اعلم أن هذا الأمر لم يصبر إليك إلا بموت من كان قبلك ، وهو خارج من يديك بمثل ما صار إليك . قال : يا أبا حازم أئثر على . قال : إنما أنت سوق فما نفق عندك حمل إليك من خير أو شر فاختر أيهما .

من أقباس النبوة :

يا هلال المحرم...!

لفضيلة الاستاذ كامل محمد عجلان

مدرس بمعهد القاهرة

« رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق
واجعل لي من لدنك سلطانا نصيراً » قرآن كريم

يا هلال المحرم ! أرني أنظر الى جبينك ، حتى أستوحى من بسماته لمحات
الظفر التي طبعت على مراياك ، طالما تقلب بك الفلك ، وأطاعك على رمال
المصحراء ، وعنت لغرتك لفتات الناظرين .

يا هلال المحرم ! أعنذك فوق ما يغمرني من الذكريات الحسان ؟ ...

إنها إعجاز البشرية ، يوم صدع الرسول بالدعوة الخالدة ، مادامت السموات
والارض ، وتكالبت عليه ضغائن الوثنية تصده عن الجهر بالحق ، وإرسال
نوره ينصب في قلوب العرب .

وفي زحمة الجهد ، رحبت (الحبشة) (النصرانية) بالمهاجرين الذي آواهم
دين السلام ، فكره اليهم الكفر ، وبغض الاثم ، ورد عنهم غاشية الوثنية
الجامدة البغيضة .

يا هلال المحرم ! ما أنت في معالم الزمن ؟ وما وراء يومك من عبر ترهب
القلب خشيتها ، فيهتز من روعة المواقف المسلسلة ، والصبر المؤمن ، والدعوة

المسكافة ، التي لا يأتيتها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، تعزيز من قوى
متين .

يا هلال المحرم ! أرأيت يوم (الطائف) وقد راح الرسول حاصر القلب
واسع الصدر ، يعرض دين الله على غلواء المشركين ، فتأخذهم العزة بالامتناع ،
ولسكنه ، وهو النبي الذي وعد بنصر الله ، يعود مناجيا ربه ، يشكو اليه قلة
حيلته في الصم الذين غلفوا قلوبهم ، وأصروا واستكبروا استكبارا !

يا هلال المحرم ! ما الذي ارتسم على جبينك يوم كانت قریش تطارد الذين
آمَنوا وأسلموا لله ، وأمام ركبهم رسول الله ، وهو يعدهم بالنصر ، ويرسم
لهم بصبره معارج الخلود ، ويضع في أيديهم مفاتيح الجنة ، حتى لتهب على
وجوههم المرهقة رياحين ظلالها ، فتتمسح عنهم لغوب الاذى ، في حر الهجير
ووقدة الرمضاء ؟

يا هلال المحرم ! نبثني عن طواف الرسول بين القبائل وهتافه بهم ، كلما
نزلوا بسوق ، أو اجتمعوا في واد ، أو طافوا بالبيت العتيق ... وهو الصبور
الذي لا ينطق عن الهوى ، يؤيده الوحي ، ويرشده فائق الاصباح ، وهادى
العمى عن ضلالهم ، تعالى الله عما يصف المشركون !

يا هلال المحرم ! أى غلالة كنت ترتديها في كبد السماء ، ليلة أن غرهم بالرسول
الغرور ، ونام المشركون على بابه يترصدون ... ؟
وناموا وعين الله يقظى ، لا تأخذها سنة ولا نوم .

يا هلال المحرم ! إنها نجوات تُدَوَّى في همساتنا ، كلما طاشت بنا نفحات
النبي ، وهزتنا أماسيد إعزاز الله لدينه ، ونصره لنبيه ، الذي وقف في مهاب
الاعاصير يحمل الاذى ، ومن ورائه صحابة دفعوا أنفسهم وأموالهم وأهلهم
في سبيل الله ، وأرخصوا راحتهم حتى ارتفعت راية الاسلام ، وعلت في آفاق

القبائل ، وأودية العشائر (الله أكبر) ! . هنالك ترددت أصداؤها في القرى والمدائن ، إننا نتلقفها حتى اليوم ، وإلى قيام الساعة .

* * *

يا هلال المحرم ! هل أرسلت شعاعك فطوق باب (الغار) الذي آوى للنبي وصديقه ، وخدع أقدام الطالبين ، يربدون إعطاء نور الله ويأبى إلا أن يظهر آياته ، ويشيع بيناته ، هدى ورحمة للعالمين . « ذلك تقدير العزيز العليم » . وما خاب من كان الله معه . يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

يا هلال المحرم ! هلا أشفقت على المهاجرين فوليت الأدبار ، وحجبت نورك ونور أمك (الشمس) ، حتى يجعل الله الليل سرمداً على المشركين ، وكفى نور المؤمنين الذي يسعى بين أيديهم سراجاً منيراً وبدراً وهاجاً .

يا هلال المحرم ! أشهد لقد كنت ساخراً ممن يلجئون وراء الرسول ، ولو استطعت لقلت . ولكن سبقت كلمة ربك لينصرن الله من ينصره ، وتمت إرادته ؛ ولا تمنع الطالبين لهفتهم على رد الرسول وصاحبه إلى مكة ؛ إلا إذا جاء الفتح وحق نصر الله ، ونادى فيمن أخرجوه من داره : إذهبوا فأنتم الطلقاء ! لا تثريب ... يا هلال المحرم ! يغفر الله ، ومن عفا وأصلح فأجره عند غافر الذنب وقابل التوب .

* * *

يا هلال المحرم ! ما فأنك أن تشهد طلعة البدر على أهل المدينة ، وهم يهتفون ويغنون ويطربون :

طلع البدر علينا . . .

طلع البدر علينا . . . !

يا هلال المحرم ! ليتني وليت مزاحي كانت هناك ! ولكنني هنا في زحمة الذكرى أخب وأضع ، وكأنني أنظر في الجموع وهي تحيي الرسول المهاجر بدينه يدعو الناس للدخول في ساحة التوحيد أفواجاً .

وتمت على يديه كلمة الله العليا ، وتبّت الأنامل السفلى ؛ والعاقبة
للقوى ...

يا هلال المحرم ! أين كنت في الألمان الخالدة ، والتطريبات الباقية ،
والأناشيد الهزاجة ... ؟
أين كنت ، وأين أفقك الجليل منها ؟

يا هلال المحرم ! أين أنت من (هلالنا) الذي أضاء بنوره الدنيا
والآخرة ، وأشرقت بتعاليمه نفوس المؤمنين ... !
إنه عنك مشغول ، والشفاعة عند الرسول مأمولة ، يوم لا ينفع المرء
إلا ما قدمته يده ...

يا رسول الله ! أنت لنا ... فإليك سلام الله كلما درجت على جبين المعالم
الخالدة ذكرياتك العظيمة ...

أسأل الله وحده

قال الحسنى : قال أبو غسان : أخبرني أبو زيد قال : سألت سائل بمسجد الكوفة
وقت الظهر فلم يعط شيئا ، فقال : اللهم إنك بحاجة طالم لا تعلم ، أنت الذى
لا يعوزك نائل ، ولا يحفيك سائل ، ولا يبلغ مدحك قائل . أسألك صبورا
جميلا ، وفرجا قريبا ، وبصرا بالهدى ، وقوة فيما تحب وترضى . فتبادر سامعوه
إليه يعطونه . فقال لهم : والله لارزأتكم الليلة شيئا ! ثم خرج وهو يقول :
ما اعتاض بأذى وجهه بسؤاله عوضا ولو نال الغنى بسؤال
وإذا النوال مع السؤال وزنته رجع السؤال وشال كل نوال
وقال عبيد بن الأبرص :

من سأل الناس يجرموه وسائل الله لا يخيب

مدرسة النقد الأدبي (١)

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد السلام أبو النجاء سرحان
المدرس بالأزهر

١ — النقد الأدبي ونشأته :

يحدثنا التاريخ أن النقد صحب الإنسان منذ نشأته ، وتناول كل ما صدر عنه من أيام طفولته ، بل تناول الطبيعة ومظاهرها ، والحياة وألوانها ، وحاول أن يخضعها للأذواق المتباينة ، ويوائم بينها وبين الطبائع المختلفة في كل زمان ومكان .

ولقد كان ذا أثر واضح في وضع القواعد الاجتماعية والحلقية وتقديم العلوم والفنون ، وبفضله ارتقت الإنسانية وارتفعت أعلام الحضارة ، واتمرت شجرة المعرفة ؛ فهو شريفة الحياة في شتى مظاهرها ، وطريق الصعود بالأمم والأفراد إلى درجات الكمال .

ويؤيد النقد من الأسس الهامة والدائم القوة التي قامت عليها الحضارة الحديثة ، خصوصا من الناحية السياسية ونظم حكومات الشورى ؛ وكان من أقوى العوامل التي ارتقت بآداب الأمم وفنونها وصناعاتها ، وسارت بالعلم والمعرفة أشواطا بعيدة في سبيل الحياة .

ومن المتفق عليه في العصور الحديثة أن النقد ليس مما يعيب الأدباء والمفكرين والمؤلفين ، بل إنه ليمد من أسباب الرواج للكتب العلمية

(١) في سنتي ١٣٦٢ ، ١٣٦٣ هـ نشرت بحثا في مجلة الأزهر الفراء تحت عنوان « قدامة بن جعفر ومدرسة النقد الأدبي » قدمت له بكلمة موجزة عن مدرسة النقد الأدبي في مختلف العصور حتى عصر قدامة ، ثم ترجمت قدامة ترجمة مفصلة ودرست كتابه دراسة تحليلية ووعدت في نهاية البحث بالعودة إلى الكتابة تفصيلا عن مدرسة النقد الأدبي ، وهأنذا أتى بوعدي ، والله المستعان .

والأدبية عند الغربيين ، حتى إنه توجد طبقة خاصة صناعتها النقد ، لها مكائتها عند الجماهير ، وحكمها كحكم القضاء بين المتخاصمين ؛ وقبل أن يخرج المؤلف كتابه يقدمه الى بعض النقاد ، فإخمل حرارة المراحل وثبت أمام الطعن والتجريح خرج الى الوجود متين البنيان موطن الدعائم قوى الأساس ، وإلا أضحي هشيما تذروه الرياح .

ويعنيها في هذا البحث ، أن نتكلم عن مدرسة النقد الأدبي العربية ، ومدى ما وصلت اليه في العصور المختلفة ، موجزين ما استطعنا الى ذلك سبيلا .

ويجب أن يلاحظ أن ذوق المؤلف أو الشاعر لا يتفق وذوق كل إنسان ، للاختلاف العام في المشارب والاتجاهات ، وتفاوت العقول في وسائل الوعي والفهم والإدراك ، التي هي مرجع الحكم في أصول الفنون وأنواع الجمل .

كما يجب أن يراعى الفرق الكبير بين إلهام الأديب حين ينشئ وتكون نفسه جمرة ذهنية متقدة فيبدو إنتاجه خلاصة لذوب فكره وعصارة للهب طافقه ، وبين نظر الناقد الهادي المتشد الذي يضع الكلام مواضعه ، ويقيسه بمقاييس قسيحة وعاظقة طبيعية .

والمقدرة على خلق الأثر الأدبي أقل — قطعاً — من المقدرة على تحليله ونقده . روى المبرد (ص ٢٣٣ ح ٢ عمدة) « أن أبا نواس ومسلم بن الوليد اجتماعاً متلاحقين ، فقال مسلم : ما أعلم بيننا لك يخلو من سقط ! فقال أبو نواس : اذكر شيئاً من ذلك ، فقال مسلم : بل أنشد أنت أي بيت شئت ؛ فأنشد أبو نواس :
ذكر الصبوح بسجرة فارثاً وأمله ديك الصباح صياحاً

فقال مسلم : قف ههنا ، لم أمله ديك الصباح وهو يبشره بالصبوح وهو الذي يرتاح اليه ؟ فقال أبو نواس : فأنشدني أنت . فأنشده :

طاحى الشباب فراح غير مفتقد وأقام بين عزيمة وتجلد

فقال أبو نواس : ناقضت ؛ ذكرت أنه راح والرواح لا يكون إلا بالانتقال من مكان الى مكان ، ثم قلت : وأقام ، فجعلته منتقلاً مقبلاً في حال ، وهذا متناقض .

قال أبو العباس المبرد: « وكلا البيتين صحيح ، ولكن من طلب عيبا وجده ، ومن طلب له مخرجا لم يفته »

فالنقاد قد تنكشف أمامه الحجب الخافية على المنشئ ، وتظهر له العيوب التي لا يفتن بها الأديب ؛ وقد فطن المتنبي لهذا فقال :

أفام ملء جفوني عن شواردها

ويشهر الخلق جرّاه ويختصم

فن القسوة أن نأخذ المنشئ أو الشاعر بالشدة ، بل يجب أن فتلس له العذر ما استطعنا ، مادام لم يخرج عن القواعد العامة ، والبدهيات المعروفة ، والخصائص الشائعة .

٢- ما النقد الأدبي ؟

أما النقد الأدبي فهو تقدير النصوص الأدبية ، ووزنها بمقيار الذوق الأدبي وبيان درجتها الفنية ، وتمييز الأدب الراقى من التافه الذي لا قيمة له ؛ وذلك يستدعى فهم الأدب أولا ، وفهم مختلف الطبائع التي تفتحه ، ومعرفة أقدار تلك الطبائع على ضوء الاتجاه الذي يريده الفن الأدبي السكامل .

ومن الخطل أن ننظر الى أبيات القصيدة أو عبارات القطعة الأدبية جزءاً جزءاً ، فإن كلاهما كطاقة من الأزهار المنسقة ، أو حبات العقود المنمقة ، فاذا نثرت أزهارها أو انفرطت حباتها ، زوى جمالها ، وتضاءل سحرها ، وذهب بهاؤها ، وضاع رونقها .

والدر ليس بنافع أربابه ما لم يؤلفه في النظام وينقب

والبيت الواحد من القصيدة أو العبارة المفردة من القطعة النثرية كالزهرة العنواء تنظر إليها العين لتستشعر جمالها ، وتنتهب لونها ، وتستشف عذوبتها ، في صمتها المعبر ، وحيائها العفيف ؛ ثم ينقل الحس هذه الصورة الجميلة الى القوة المفكرة ؛ فتخترط في سلك التأمل والإمعان ، وتستلذ منها النفس ، وتطرب لها الروح ؛ فاذا عبث طابث بتلك الزهرة ومزقها أجزاء ، ذلت كبرياؤها ، وأصبح البحث فيها نظرا علميا محضا ، لا خيالا سحرانيا جميلا .

فمن الإِ نِصاف إذن أن فنظر الى القصيدة باعتبارها وحدة مرتبطة، ووحدة فنية متماسكة، وتمثالا للجمال الشعرى مركبا من قطع صغيرة، وإلا زال كثير من روعتها وجمالها؛ وذلك كما ترى صورة فنية لمشهد من مشاهد الطبيعة؛ فان انساق الألوان واجتماعها فى أوضاع متناسبة وأبعاد متناسقة ومقادير فنية يعطيها جاذبية سحرية تنتزع منك الإعجاب وتثير فيك المشاعر؛ فاذا تفرقت هذه الألوان زال الجمال، وضاع السحر، ومات الغمور.

وسنرى أن نقاد العربية يسرون على غير هذا المبدأ، ويفتقدون الآليات الفردية والالفاظ المنبثقة فى التراكيب المختلفة؛ ويرجع هذا مبدئيا الى أن اللغة العربية واسعة النطاق فسيحة الأرجاء، لا تجهد حرجا من النقد ما كان نزها، ولا تنزمت من تقويم مادام رائده الخير؛ ويرجع ثانيا الى كثرة كلماتها المترادفة واتساع مادتها بحيث يستطيع الاستعاضة عن كلمة بكلمات، وعن لفظ بألفاظ؛ وبهذا وسعت كتاب الله بمباراته الفريدة، وتراكيبه المعجزة، ونظمه البديع، وفتحت قلبها لعلوم الأمم المختلفة وآدابها وفلسفتها وحكمتها، وهضمت الفنون المختلفة من قديم الزمن، فازدادت بها جمالا، وأفادت منها صقالا.

الأذن عند العرب

قال زياد لحاجبه عجلان: كيف تأذن للناس؟ قال: على البيوتات، ثم على الأسنان، ثم على الآداب.

فقال له الأمير: فمن تؤخر؟ قال الحاجب: من لا يعبا الله بهم.

قال الأمير: ومن هم؟ قال الحاجب: الذين يلبسون كسوة الشتاء فى الصيف وكسوة الصيف فى الشتاء.

وكان سعيد بن عتبة إذا حضرباب أحد من السلاطين جلس جانبا، فقيل له: إنك لتباعد من الأذن جهلك. قال: لأن أدهى من بعيد، خير من أن أقصى من قريب. ثم قال:

فان مسيرى فى البلاد ومترلى	هو المنزل الأقصى إذا لم أقرب
ولست وإن أدنيت يوما بياتع	خلاقى ولا دينى ابتغاء التحب
وقد عده قوم تجارة رابح	ويعننى من ذاك دينى ومنصبى

الخطابة في الأندلس

المندر بن سعيد البلوطي

لفضيلة الاستاذ الشيخ أحمد الشرباصي

المدرس بالأزهر

على أن البلوطي — رحمه الله — كان يتخفف أحيانا من أوزار منصبه ،
ويخلع عنه رداء تزمته وتوقره ، فيقول أبياتا فيها شيء من القوة والخفة ؛
مثل قوله حينما عدله إخوانه لتكفنيته لرجل كان قد سبّه :

لا تعجبوا من أننى كنيته من بعد ما قد سبنا وهجنا
فالله قد كنى أباهب ، وما كناه إلا خزية وهوانا !

يشير البلوطي بهذا الى قول الحق تبارك وتعالى : « تبّت يدا أبى لهب
وتب . . . » وهى لفظة بارعة من البلوطي ، وحسن تعليل مقبول وجميل ،
بل خلوص لطيف من مأزق تعرض له ، وكان يعاب به .

كذلك نرى البلوطي الواعظ الزاهد ، يبيع لنفسه فى ساعات دعايته وفترات
مراحه ، أن يتحدث عن الجمال ، وعن مغائن النساء ، فيذكر قوامهن
وأصداغن ، وما اتصل بذلك من حديث الهوى والفتون ، جاعلا ذلك لوقا
من الترفيه اللطيفة المقبول ، الذى يزين الأسلوب ، ولا يخذل الكرامة .
فانظر اليه مثلا إذ يكتب الى فقيه العربية وقيد أوابدها أبى على القالى ، يستعير
منه كتابا فى غريب اللغة ، فلا يجد ما يقسم به فى مجال الظرف والدعابة
إلا الطبي الرقيق صاحب الخلد الأسيل ، فيقول :

بحق رئم مهفف وصدغه المتعطف

ابعث إلى مجزء من الغريب المصنف !

فيجاريه أبو على فى أسلوبه بعض المجازاة ، وينقل التعبير من مجال الى مجال ،
فيرسل اليه ما طلب ، ويحجبه بقوله :

وحق در مؤلف بهيك آي تألف
لأبمن بما قد حوى الغريب المصنف
ولو بعثت بنفسى إليك ما كنت أمرف !

ونحن حينما نقرأ ما ذكره المؤرخون عن خفة روح البلوطى وصفاء ظلمته ولطيف دعابته وبديع مزاحه وهزله ، ونذكر بجوار ذلك ما كان له من فصاحة وبلاغة ، نرجح أن هذا اللسان المقوال وذلك الطبع الاصيل القياض لا بد من أن يكونا قد أنتجا أشعارا عاطفية لها جمالها وعذوبتها ، وإن كنا لم نقف عليها ؛ ومن يدري ! ... لعل متشددنا من مترمى النقلة تعمّد أن يحذف هذه الأشعار ظنا منه أن روايتها مما ينال من سمعة البلوطى وجلال مرتبته ! . وكيف نقول إن أمثال هذه الأبيات المتكلفة هي كل تراث البلوطى بين الشعراء ، ونحن نرى من أخباره أنه كان ، الى ما سبق من صفاته الشعرية ، نقادة سريع البديهة يقظا الاحساس ، عليا بأشعار النابغين من المتقدمين ، خبيرا بأسرار تلك للأشعار ، دقيق التمييز بين الغث والسمين ، والطيب والخبيث ، كما ترشد الى ذلك القصة التالية :

حضر البلوطى وهو فى رحلته بمصر مجلس أبى جعفر النحاس وهو يملأ أخبار الشعراء ، فأملى شعرا لقيس مجنون بنى عامر ، وهو قوله :

خليلى ! هل بالشام عين حـزينة أبكى على نجد ، لعلى أعينها ؟
قد آسأها الباكون ، إلاحامة مطوقة ، باتت وبات قرينها
تجاوبها أخرى على خـيزرانة يكاد يدينها من الأرض لينها !

فقال له منذر بن سعيد البلوطى : يا أبا جعفر ، ماذا - أعزك الله تعالى - باتا يصنعان ؟ فقال له النحاس : وكيف تقول أفت يا أندلسى ؟ فقال : باتت وبان قرينها . فسكت أبو جعفر ولم يحرجوا . قال منذر : وما زال - يعنى جعفر - يستثقلنى بعد ذلك حتى منعى كتاب (العين) وكنت ذهبت للاستنساخ من نسخته ؛ فلما يئست منه قيل لى : أين أنت من أبى العباس ابن ولاد ؟ فقصدته فلقيت رجلا كامل العلم حسن المروءة ، فسألته الكتاب

فأخرجه الى ؛ ثم ندم أبو جعفر حين بلغه إباحة أبي العباس الكتاب لى . وعاد إلى ما كنت أعرفه منه ! .

فهذه القصة وأشباهها فى حياة البلوطى تدلنا على أنه كان ينطوى فوق ملكته الوعظية على فيض من معين الشعر ! .

* * *

ومع أن البلوطى كان قاضى القضاة بقرطبة ، والامام الخطيب بالمسجد الجامع ، فقد كان كثير الدابة طويل المزاج . يقول عنه الفتح بن خاقان : « وإذا هزل نزل (١) » . ويقول ياقوت : « وكان منذر على متانته وصلابته حسن الخلق كثير الدابة ، فربما ساء ظن من لا يعرفه به لدابته ، فاذا رأى ما يخل بالدين قيد شعرة ثار ثورة الأسد الضارى ، وتبدلت بشاشته عبوسا (٢) . وقد ذكر له صاحب كتاب (مطمح الانفس) طائفة من دعاباته الصريحة المكشوفة التى يذكر فيها أسماء الموروات والحرمات (٣) . فلنكتف بإيراد طرفه من طرفه الرزينة :

جلس منذر فى ليلة من ليلالى شهر رمضان للإفطار مع أولاده ، فاذا بسائل يسأل فيقول : يا أهل هذه الدار الصالحين ، أطمعونا من عشاءكم أطمعكم الله من ثمار الجنة هذه الليلة ! . فقال البلوطى وهو يضحك : إن استجيب لهذا السائل فيكم ، فليس يصبح منا واحد ... !

* * *

أفيكون معنى هذا أننا سفتغنى بأداع البلوطى ولا نقف منه موقف الناقد ؟ كلا فان الانصاف يقتضينا أن نقول ماله وما عليه . ولعل الموقف المشين الذى رأيته للبلوطى ، هو نخره ومباهاته بموقفه بين يدى الناصر يوم زاره رسول قسطنطين ، وتمريضه بأبى على القالى وهو ضيف الخليفة ونزيل الأندلس ، وبحر اللغة ، وراوية الآداب . . . انظر الى البلوطى إذ يفتخر بذلك الموقف ، ويعرض بالامام القالى فيقول :

[١] مطمح الانفس ص ٤١ . [٢] المعجم ج ١٩ ص ١٨٣ . [٣] ص ٥٠ و ٥١ .

مقالى كحد السيف وسط المحافل فرقت به ما بين حق وباطل
 بقلب ذكي ، ترتجى جراته كبارق وعد عند رعى الأنامل
 فما دحضت رجلى ، ولازل مقولى ولا طاش عقلى يوم تلك الزلازل
 وقد حدثت حولى عيون إخالها كمثل سهام أثبتت فى المقاتل
 ظير إمام كان ، أو هو كائن لمقتبل ، أو فى العصور الأوائل
 وفود ملوك الروم وسط فنائه مخافة بأس ، أو رجاء لنائل .. الخ

وينال من مكانة أبى على القالى ، ويمرض بتقديمهم إياه عليه فى الخطابة
 فيقول :

هذا المقام الذى ما عابه فند لكن قائله أزرى به البلد
 لو كنت فيهم غريبا كنت مطرطا لكننى منهم ، فاعتنائى النكد (١)

الحق أنه ليس من شيعة الكريم القوى أن يهزأ بالضعيف أو بمن خانه
 الحظ ، ولا أن يفخر هذا المنصور الزائد حينما يمنحه الله توفيقا لا يمنحه لسواه .
 زد على ذلك أن أباعلى القالى لم يرتكب جرما ، ولم يظهر ضعفا يستوجب تحقيره
 والتعريض به ، فما هو إلا رجل خان التوفيق ومانده الحظ وأرهبه الموقف ،
 فلم يستطع أن يقول ما يجب عليه ، ولم يرض أن ينزل الى كلام من هو دونه
 فأرتج عليه (٢) . ومن قبل القالى أرتج على كثير من الرجال والباطال
 الذين لهم أقدار معروفة فى بلاغة القول وحسن الأدب ؛ منهم عثمان بن عفان ،
 ويزيد بن أبى سفيان ، ويزيد بن المهلب ، وعبد الله بن عامر ، وخالد بن
 عبد الله القسرى ، وزفر بن الحارث ، وممن بن زائدة ، وعدى بن أرطاة ،
 وروح بن حاتم ، وغيرهم . . .

ولقد كان عبد ربه اليشكرى عاملا لعيسى بن موسى على (المدائن) ،
 فصعد المنبر يوم الجمعة ليخطب القوم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم أرتج عليه

(١) ويرى هذا التطر McKda : ولا دهانى لم بنى ولا حد .

(٢) رتج كفرح : استنطق عليه الكلام كأرتج عليه وارتنج واسترنج - القاموس .

فسكت ثم قال : « والله إنى لا كون فى بيتى فتجىء على لسانى ألف كلمة ، فاذا قمت على أعوادكم هذه جاء الشيطان ففحاها من صدرى ! ولقد كنت وما فى الأيام يوم أحب الى من يوم الجمعة ، فصرت وما فى الأيام يوم أبغض إلى من يوم الجمعة ، وما ذلك إلا لخطبتكم هذه ! (١) »

وصعد خالد بن عبد الله القسرى المنبر فأرتج عليه ، فركث مليا لا يتكلم ، ثم نهى له الكلام ، فقال : « أما بعد ، فإن هذا الكلام يحىء أحيانا ويعزب أحيانا ، فيسبح عند مجيئه سيبه ، ويعز عند عزوبه طلبه ، ولربما كوبر فأبى ، وعولج فنأى ، فالتأتى لمجيئه خير من التعاطى لآيئه ، وتركه عند تنكره أفضل من طلبه عند تعذره ، وقد يرتج على البليغ لسانه ، ويختلج من الجريء جنانه ، وسأعود فأقول ، إن شاء الله (٢) . »

فلم يكن مقبولا إذن من البلوطى أن يهتك حرمة ذلك العالم الكبير ، خصوصا وأنه ضيف ، وله من الأيادى السابقات ، والكلمات النابغات ، ما يغفر له مثل هذا الحصر ! .

ولعله يكون من المناسب هنا أن نذكر البلوطى - رحمه الله - بفصل له من خطبة ذكر فيها نفسه بواجبها نحو إصلاح ذاتها وتقويم معوجها ، وهو الذى طالما وعظ وخطب ، ونهى وأمر ، فقال : « حتى متى ، والى متى أعظ ولا أتعظ ، وأزجر ولا أنزجر ! أدل الطريق الى المستقلين ، وأبقى مقبلا مع الحائرين ! كلا ، إن هذا هو البلاء المبين ، إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء ، وتهدى من تشاء ؛ أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا ، وأنت خير الغافرين . اللهم فرغنى لما خلقتنى له ، ولا تشغلنى بما تكلمت لى به ، ولا تحرمنى وأنا أسألك ، ولا تعذبنى وأنا أستغفرك ، يا أرحم الراحمين ! » .

اللهم آمين ، لنا وله وللناس أجمعين ! . . .

العدالة في الإسلام

من عدالة أمير المؤمنين عثمان بن عفان

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد علي منصور

من علماء الأزهر

قام العدل على قدم وساق في عهد أبي بكر وعمر ، وانتشر ميزان القسط بين الناس بالحق ، وأرخی الانصاف سدوله بين العرب ، واتسعت رقعة الاسلام ، وأمتت الأمة العربية من القوة بحيث يحسب لها ألف حساب وحساب ، ونمت فيها أفنان العزة ، واستحكمت فيها أصول القدرة ، وانتهت إلى ما يعلى شأنها ويرفع قدرها ، واتجهت لكل شيء بحفظ وجودها ويمكن لها في الأرض ، وبلغت مرادها بهذا الدين الإسلامي الصالح لكل زمان ومكان ، والذي أعدته الحكمة الإلهية ليكون خاتمة الأديان لنوع الانسانية ، ينتهى بها إلى أسمى غايات الحضارة والمدنية ، ويأخذ بيدها إلى أقصى مراقى الآداب .

ذلك الدين العظيم الذى كفل لمعتقيه السعادة والحرية والعدالة والانصاف والمساواة في الحقوق والواجبات ؛ فسادوا العالم أجمع ، وساسوا دوله ، وحكموا شعوبه ، وتواصلوا بالحق ، وتوصلوا بالصبر .

ولقد شاء الله ، ولا راد لمشيئته ، أن يصاب المسلمون في خليفتهم عمر بن الخطاب ، فترعت نفس الشقى أبو لؤلؤة المجوسى نزعة كانت من أشأم الزمات على العالم الانساني ، اهترت لها أعواد المتابر ، ونفذ رنينها إلى أعماق القلوب ، فطعن بخنجره أمير المؤمنين في المسجد بعد أن كبر للصلاة ؛ فسارع كبار الصحابة إلى خليفتهم وهو يجود بنفسه ؛ ولما علموا أنه في آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، طلبوا منه أن يعين الخليفة بعده ؛ فأبى وقال : لا أحملها حيا وميتا ؛ فإن استخلفت فقد استخلف من هو خير منى - يعنى

أبا بكر - وإن تركتكم فقد ترككم من هو خير مني - يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم عین ستة من أفاضل الصحابة ، وأوصاهم أن يختاروا من بينهم واحداً ، في مدى ثلاثة أيام بعد دفنه . فنفذوا أمره ، وانتخبوا عثمان بن عفان ، وبايعوه بالخلافة بعد دفن عمر بثلاث ليال .

شبَّ عثمان رضي الله عنه على الاخلاق الفاضلة ، والصفات الحميدة ، والسيرة الكريمة ، والحياء الذي أخذ منه بأوفر حظ وأعظم نصيب .

وكان رضوان الله تعالى عليه كريماً ، رءوفاً بالناس ، محباً لقراءة القرآن ، محبوباً من قومه ، متواضعاً يجلس مع أفراد الرعية كأنه واحد منهم ، وينام في المسجد وردائه تحت رأسه .

مما أثر عنه أنه اشترى من رجل قطعة أرض بعد أن اتفق معه على ثمنها ؛ ومضت الايام تلو الايام ولم يحضر البائع ليتسلم ثمن الأرض ، فأرسل إليه عثمان وماله عن السبب في إبطائه عن تسلم الثمن ، فقال الرجل : إنك غبتني ، واشتريت الأرض رخيصةً مني ، وكلما قابلني رجل لآمني على هذا البيع . فقال له عثمان : أنت حر في الرجوع ؛ فان شئت أمضيت البيع وقبضت الثمن ، وإن شئت رجعت في البيع وأخذت أرضك ؛ فاختر ما تشاء : الأرض أم الثمن .

فهل بعد هذا عدل وإنصاف ؟ وهل وراء هذا خوف من الله ورأفة بالناس ؟ وهل هناك تصامح فوق هذا التسامح ؟ انظر ما قاله عثمان للبائع مع أن البيع قد انقصد وأصبحت الأرض ملكاً له . وأيم الحق إن هذا هو منتهى العدالة والتسامح ، والرأفة بالناس ، والخوف من رب العالمين !

كان لليهودى بئر بالمدينة ، يبيع ماءها للمسلمين ، ويتحكم فيهم ؛ فطلب عثمان من اليهودى أن يبيعه هذه البئر ، فأبى ؛ فراوده عثمان على أن يبيعه نصفها ، فقبل اليهودى على أن يكون ثمن النصف اثني عشر ألف درهم ، فأعطاهم له عثمان وأخذ نصف البئر ، واتفق معه على أن كلا منهما يستقي منها يوماً . وأباح عثمان للمسلمين أن يستسقوا من البئر في اليوم المحدد له ، وأن يأخذوا كفايتهم لليوم التالي . فلما رأى اليهودى ذلك ، وأنه لم يعد أحد يشتري منه ماء بعد ، باع النصف الباقي لعثمان بثمانية آلاف درهم .

فلم يأخذ عثمان البئر من اليهودى بالقوة ، ولم يجبره على بيعها ، ولم يتملكها منه بئس أقل من ثمن مثلها . وإنك لتلمس من هذا شدة شفقته بالمسلمين ، واهتمامه بأمرهم ، وبذله المال عن طيب خاطر لمساعدتهم . كما تلمح من خلاله الحزم والفظافة وسعة الحيلة ؛ فقد اشترى النصف الأول بئس مرتفع ، وكان ذلك سبباً في أن يبيع الرجل النصف الثانى بئس معتدل .

حدثت في بلاد العرب مجاعة في خلافة أبى بكر ؛ وعلم التجار أن ألف جبل لعثمان جاءت من الشام ذات يوم ، تحمل قمحاً وزبيباً وزيتاً ؛ فأرادوا أن يشتروا منه هذه البضاعة ليبيعوها للمسلمين ؛ وعرضوا عليه قدر ثمنها خمس مرات ؛ فامتنع وقال لهم : إن الحسنه بعشر أمثالها ؛ وإن الله تعالى قد أعطاني قدر ثمنها عشر مرات ، ثم أمر بتوزيعها على الفقراء والمساكين .

وفضلاً عن ذلك فقد جهز جيش العسرة إلى يموك ، وأنفق في ذلك عشر آلاف دينار ، وجهز ألف مجاهد وأعد لهم تسعمائة بعير ، ومائة فرس . ولم تمر به جمعة منذ أسلم إلا ويعتق فيها رقبة .

فهل رأينا كرماً وعدلاً وزهداً وسماحة وراء هذا ؟ يعرض عليه في هذا الوقت العصيب مقدار قيمة التجارة خمس مرات فتأبى نفسه العالية إلا أن يوزعها على المحتاجين ابتغاء وجه الله ، وطلباً لرضوانه . ويجود وقت الازمة الشديدة بماله في منفعة المسلمين ونصر الدين ، بدون أن يطالب منه أحد أو يلجئه ملجئ ، سوى ضميره التقي ، وحبه لهذا الدين الاسلامي العظيم .

كان يقوم للصلاة مراراً بالليل وقبيل الفجر ، ويعبد وضوءه بنفسه ، ولا يوقظ أحداً من أهله أو خدمه . فقيل له : إذا شئت أيقظت بعض الخدم فيقومون بما تحتاج إليه ، وليس عليهم في ذلك حرج . فقال : لا أفعل ذلك أبداً ؛ الليل لهم يستريحون فيه .

هذا عدل واسع ، ورحمة كبيرة ، وشفقة عظيمة ، ورأفة نادرة ، وتواضع لا نظير له .

وصفوة القول في عثمان : أنه خليفة جواد سمح كريم ، ولين هين عادل مهل حلیم ، جمع أشنات الفضائل وحيد الخصال ، وضربت بحبائه الوافر الامثال . رضی الله تعالى عنه وأرضاه !

منزلة السنة من الدين

وضرورة العمل بها والإنكار على من ردها

لخبرة الأستاذ محمد فؤاد افندي عبد الباقي

الفصل الأول — المقياس الصحيح للحديث :

يقول بعض المؤلفين :

إن خير مقياس يقاس به الحديث وتقاس به سائر الأنباء التي ذكرت عن النبي ، ما روى عنه عليه السلام أنه قال : « إنكم ستختلفون من بعدى ، فما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله ، فما وافقه فنى ، وما خالفه فليس عنى » .
وهذا مقياس دقيق أخذ به أئمة المسلمين منذ العصور الأولى ، وما زال المفكرون منهم يأخذون به الى يومنا الحاضر .

الفصل الثانى :

فلننظر فى مقدار ما فى هذا الحكم من صحة .
قال الامام الشوكانى فى كتابه « إرشاد الفحول الى تحقيق الحق فى علم

الاصول » ص ٣١ :

... وأما ما روى من طريق ثوبان فى الأمر بعرض الأحاديث على القرآن ، فقال يحيى بن معين : إنه موضوع وضمنه الزنادقة .
وقال الشافعى : ما رواه أحد عن يثب حديثه فى شيء صغير ولا كبير (صوابه : صغير أو كبير) .

وقال ابن عبد البر فى كتاب جامع العلم : قال عبد الرحمن بن مهدي : الزنادقة والخوارج وضعوا حديث « ما أتاكم عنى فاعرضوه على كتاب الله ، فان وافق كتاب الله فأما قلته ، وإن خالف فلم أقله » اهـ .

وجاء في كتاب جامع بيان العلم لابن عبد البر ج ٢ ص ١٩٠ :

قال عبد الرحمن بن مهدي : الزنادقة والخوارج وضعوا ذلك الحديث ،
يعني ما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما أتاكم عنى فاعرضوه على كتاب
الله فان وافق كتاب الله فأنافقته ، وإن خالف كتاب الله فلم أقله ، وإنما أنا
موافق كتاب الله ، وبه هداني الله » .

وهذه الالفاظ لا تصح عنه صلى الله عليه وسلم عند أهل العلم بصحيح
النقل من سقيمه . ١٠ هـ .

وجاء في الرسالة للإمام الشافعى ص ٢٢٤ .

قال قائل : أفتجد حجة على من روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« ما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله فأنافقته فأنافقته ، وما خالفه فلم أقله » ؟
فقلت له : ما روى هذا أحد يثبت حديثه فى شىء صغر ولا كبر .
وهذه أيضا رواية منتظمة عن رجل مجهول ، ونحن لا نقبل مثل هذه
الرواية فى شىء . ١٠ هـ .

وجاء فى الحاشية بقلم الأستاذ أحمد محمد شاكر :

هذا المعنى لم يرد فيه حديث صحيح ولا حسن ، بل وردت فيه ألفاظ
كثيرة كلها موضوع ، أو بالغ للغاية فى الضعف حتى لا يصلح شىء منها
للاحتجاج أو الاستشهاد .

قال فى عون المعبود (٤ : ٣٢٩) : فأما ما رواه بعضهم أنه قال : إذا
جاءكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله فان وافقه فأنافقته ... فانه حديث باطل
لا أصل له ، وقد حكى زكريا الساجى عن يحيى بن معين أنه قال : هذا حديث
وضعت الزنادقة .

ونقل العلامة الفتنى فى تذكرة الموضوعات (ص ٢٨) عن الخطابى أنه
قال أيضا : « وضعته الزنادقة » .

ونقل هو والمجلونى فى كشف الخفا (١ : ٨٦) عن الصغاني أنه قال :
هو موضوع .

وقد كتب الامام الحافظ أبو محمد بن حزم ، في هذا المعنى فصلا نفيسا جداء ، في كتاب الاحكام (٢ : ٧٦ - ٨٢) وروى بعض ألقاظ هذا الحديث المكذوب ، وأبان عن علمها فشنق ومما قال فيه :

« ولو أن امرءاً قال : لا نأخذ إلا ما وجدنا في القرآن لكان كافراً بإجماع الأمة ، ولكان لا يلزمه إلا ركعة ما بين دلوك الشمس إلى غسق الليل ، وأخرى عند المعز ؛ لأن ذلك أقل ما يقع عليه اسم الصلاة ، ولا حداً أكثر في ذلك ؛ وقائل هذا كافر ، مشرك ، حلال الدم والمال » .

ثم قال « ولو أن امرءاً لا يأخذ إلا بما اجتمعت عليه الأمة فقط ، أو يترك كل ما اختلفوا فيه ؛ مما قد جاءت فيه النصوص ، لكان فاسقاً بإجماع الأمة . فهاتان المقدمتان توجبان بالضرورة الأخذ بالنقل » ا هـ .

الفصل الثالث - نقض هذا المقياس - قال الامام الشوكاني في « إرشاد

الفحول » ص ٣١ :

وقد عارض حديث العرض قوم فقالوا : « وعرضنا هذا الحديث الموضوع على كتاب الله نخالف ، لأننا وجدنا في كتاب الله : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » (٥٩ / الحشر / ٧) ووجدنا فيه أيضاً : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » (٣ / آل عمران / ٣١) . ووجدنا فيه : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » (٤ / النساء / ٨٠) ا هـ .

الفصل الرابع - فرض الله طاعة رسوله فيما منه صلى الله عليه وسلم

قال الامام الشافعي في الرسالة ص ٧٣ :

بيان فرض الله في كتابه اتباع نبيه :

قال الشافعي : وضع الله رسوله من دينه وفرضه وكتابه الموضوع الذي أبان جل ثناؤه أنه جعله علماً لدينه بما افترض من طاعته وحرم من معصيته ، وأبان من فضيلته ، بما قرن من الايمان برسوله مع الايمان به . فقال تبارك وتعالى : « فآمنوا بالله ورسوله النبي الذي يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه

لعلكم تهتدون ، (٧ / الأعراف / ١٥٨) وقال : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، (٢٤ / النور / ٦٢) فجعل كمال ابتداء الإيمان ، الذي ماسـواه تبع له ، الإيمان بالله ثم برسوله ، فلو آمن عبدٌ به ، ولم يؤمن برسوله ، لم يقع عليه اسم كمال الإيمان أبداً ، حتى يؤمن برسوله معه ؛ وهكذا سن رسول الله في كل من امتحنه للإيمان .

أخبرنا مالك عن هلال بن أسامة عن عطاء بن يسار عن عمر بن الحکم قال : أتيت رسول الله بجزيرة ، فقلت يا رسول الله على رقبة أفأعتقها ؟ فقال لها رسول الله : أين الله ؟ فقالت : في السماء ، فقال : ومن أنا ؟ قالت : أنت رسول الله . قال : فأعتقها اه .

الفصل الخامس — منزلة السنة من الدين :

قال ابن عبد البر في كتابه « جامع بيان العلم وفضله » جزء ثان ص ٣٣ و ٣٤ :

« وأما أصول العلم ، فالكتاب والسنة ، وتنقسم السنة قسمين : أحدهما إجماع تنقله الكافة عن الكافة ، فهذا من الحجج القاطعة للأعداء إذا لم يوجد هناك خلاف ، ومن رد إجماعهم فقد رد نصاً من نصوص الله يجب استتبابه عليه ، وإرافة دمه إن لم يتب ، لخروجه عما أجمع عليه المسلمون ، وسلوكه غير سبيل جميعهم .

والضرب الثاني من السنة ، خبر الآحاد النقات الإثبات المتصل بالإسناد ، فهذا يوجب العمل عند جماعة علماء الأمة الذين هم الحجة والقُدوة ، ومنهم من يقول : إنه يوجب العلم والعمل جميعاً اه

جاء في « إرشاد الفحول » للإمام الشوكاني ص ٣١ :

قال في معنى كلمة السنة : وأما معناها شرعاً ، أي في اصطلاح أهل الشرع ، فهي قول النبي صلى الله عليه وسلم وفعله وتقريره . وتطلق بالمعنى العام على الواجب وغيره ، في عرف أهل اللغة والحديث اه .

وقال في « استقلال السنة النبوية بالتشريع » :

« البحث الثاني » : اعلم أنه قد اتفق من يعتد به من أهل العلم على أن السنة المطهرة مستقلة بتشريع الأحكام ، وأنها كالقرآن ، في تحليل الحلال وتحريم الحرام . وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « ألا وإنى أوتيت القرآن ومثله معه » ، أى أوتيت القرآن وأوتيت مثله من السنة التي لم ينطق بها القرآن ، وذلك كتحریم لحوم الجمر الإهلية ، وتحريم كل ذى ناب من السباع ، ومخلب من الطير ، وغير ذلك مما لم يأت عليه الحصر . ١٠ هـ .

وجاء في سنن أبي داود ٣٩ كتاب السنة ٥ باب فروم السنة جزء رابع ص ٢٠٠

حدثنا عبد الوهاب بن نجدة ، حدثنا أبو عمرو بن كثير بن دينار ، عن حريز بن عثمان ، عن عبد الرحمن بن أبي عوف ، عن المقدم بن معديكرب ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه ، لا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام خرموه . ألا يحل لكم لحم الجمار الإهلى ، ولا كل ذى ناب من السبع ، ولا لقطة معاهد ، إلا أن يستغنى عنها صاحبها . ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه ، فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قواه .

حدثنا أحمد بن محمد بن حنبل وعبد الله بن محمد النفيلي ، قالا : حدثنا سفيان ، عن أبي النضر ، عن عبيد الله بن أبي رافع ، عن أبيه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا ألفين أحداً على أريكته يأتيه الأمر من أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول : لا ندرى ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه » ١٠ هـ .

وجاء في جامع الترمذى ٩٣ - كتاب العلم ١٠ باب ما نهى عنه أن يقال

عند حديث النبي صلى الله عليه وسلم . جزء ثان ص ١١٠

حدثنا قتيبة حدثنا سفيان بن عيينة عن محمد بن المنكدر وسالم أبي النضر عن عبيد الله بن أبي رافع عن أبي رافع وغيره رفعه قال « لا ألفين أحداً على أريكته يأتيه أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول : لا أدرى ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه . (قال أبو عيسى) : هذا حديث حسن صحيح .

حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدثنا معاوية بن صالح عن الحسن بن جابر اللخمي عن المقدم بن معد يكرب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث غني وهو متكئ على أريكته فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله فإ وجدنا فيه حلالا استحللناه وما وجدنا فيه حراما حرمناه ، وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم الله » ١ هـ .
وجاء في سنن ابن ماجه . المقدمة ٢ — باب تعظيم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والتعليق على من عارضه . الجزء الأول ص ٥ .

« حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا زيد بن الحباب عن معاوية بن صالح ، حدثني الحسن بن جابر عن المقدم بن معد يكرب الكندي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يوشك الرجل متكئا على أريكته يحدث بحديث من حديثي فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله عز وجل فإ وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألا وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما حرم الله » .

حدثنا نصر بن علي الجهضمي ، حدثنا سفيان بن عيينة في بيته أنا سألته عنه عن سالم أبي النضر ، ثم مر في الحديث قال ، أو زيد بن أسلم ، عن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا ألفين أحداكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر مما أمرت به أو نهيت عنه ، فيقول لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه » ١ هـ .

بين معاوية ووالديه

لما قدم معاوية من الشام ، وكان عمر قد ولاء عليها ، دخل على أمه هند ، فقالت له : يا بني إنه قلما ولدت حرة مثلك ، وقد ولاك هذا الرجل فاعمل بما وافقه أحببت ذلك أم كرهته . ثم دخل معاوية على أبيه سفيان فقال له : يا بني إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا عنهم ، فرقمهم سبقهم وقصر بنا تأخرنا ، فصرنا أتباعا وصاروا قادة ، وقد قلدوك جسيما من أمرهم ، فلا نخالفن أمرهم فانك تجري إلى أمد لم تبلغه ، ولو قد بلغته لتنفست فيه . قال معاوية : فعجبت من اتفاقهما .

الفن القصصى فى القرآن

أرسل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود أبو العيون السكرتير العام للجامع الأزهر والمعاهد الدينية الكتاب التالى إلى حضرة صاحب العزة عميد كلية الآداب عبد الوهاب عزام بك .

الجامع الأزهر

مكتب السكرتير العام

حضرة صاحب العزة الصديق الكريم ، والجاهد المفضل ، الدكتور عبد الوهاب عزام بك عميد كلية الآداب بجامعة فؤاد الاول .

السلام عليكم ورحمة الله . وقد ترمى إلى سمنى عن طريق الصحف والمجلات ، وأحاديث الافراد والجماعات ، أن رسالة قدمت إلى الكلية من حضرة محمد أحمد خلف الله أفندى المدرس بالكلية لنيل درجة « الدكتوراه » وموضوعها « الفن القصصى فى القرآن » .

وقد أحيطت هذه الرسالة بإشادات ومبهمات تمس قداسة القرآن وصميم الاسلام ، وهي — لو صحت — تستوجب التأديب والعقاب . وقد رأيت أن أكتب اليك — وأنت الرجل الغيور على دينه ، المعروف بماضيه المشرف فى خدمة الاسلام وعقائد المسلمين — لكي تبادر بدراسة هذا الموضوع دراسة وافية . فاذا رأيت فيه ما يستوجب مجازاة أو عقاباً قلت به وأبنت للناس عنه ، حتى يكون ذلك عظة وعبرة ؛ وإن لم تر فى الموضوع ما يستحق هذه الضجة أصدرت للناس بذلك بياناً تقطع به قول كل قائل .

ولأنه ليهمنى أن أقف على حقيقة هذا الموضوع ، فمن أخطر الامور أن تتعرض قداسة القرآن وكرامة العقائد لمثل هذه التخريصات .

وفى انتظار تصرفك الحكيم أهدي إلى عزة الصديق المفضل أخلمس

السكرتير العام

التحيات .

للجامع الأزهر والمعاهد الدينية

محمود أبو العيون

سیدی صاحب الفضیلة العلامة الشیخ محمود أبو العیون ،
السلام علیکم ورحمة الله .

وحقيقة الامر أن طالبا قدم رسالة عن القصص في القرآن لينال بها درجة دكتور، فودتها لجنة الفحص. فهي رسالة بين طالب وأساتذته عرض عليهم رأيهم فوه خطاه، كما يسأل التلميذ أستاذه، أو يعرض عليه ما بداله من مسألة مسترشدا. فلم تنشر الرسالة، ولم تخرج من دائرة البحث والامتنعاه، حتى تصلح أن تكون موضع مناقشة أو مؤاخذه.

وأنتم تعلمون غيرتى وغيره فملائي من أساتذة قسم اللغة العربية على الدين وعلى الكتاب المبين ، الذى تطمئن اليه قلوبنا ، وتحفظه صدورنا ، وتتلوه ألسنتنا ، وهو حجة تاريخنا ومفخرة لغتنا ، بل حجة الله البالغة ، وكتابه المجيد .

وأرى أن الامر لا يعدو أن يكون غلط تلميذ اجتهد وأحسن النية . فرد عليه رأيه ولم يؤذنه أن ينشر هذا الرأي، أو يتقدم بهذا الكتاب للامتحان . ولو كان في الامر غير هذا لكننا عند ظنكم في المؤاخذه والمجازاة ، وعند واجبنا في المحافظة على كرامة القرآن ، وحرمة الاسلام .

وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَهَيِّءَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشْدًا، وَيَرْزُقَنَا السَّدَادَ فِي الْفِكْرِ وَالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ .

والسلام عليكم من المحب المخلص .

٦ ذى الحجة ١٣٦٦

عبد الوهاب عزام

1947/10/20

مذكرة

مرفوعة من جبهة علماء الأزهر

الى حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، ثم الى جهات الاختصاص
في الدولة المصرية وإلى الرأي الاسلامى العام .

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد، فان جبهة علماء الأزهر ترفع الى مقامكم الكريم تحياتها بالغة سابعة ،
وتستأذفكم فى الحديث مرة ثانية عن الرسالة التى تقدم بها محمد أحمد خلف الله
افندى المعيد بكلية الآداب ليحصل على درجة دكتوراه ، طاعنا فى القرآن
الكريم بأن فيه قصصا غير صادق ، وبأن فيه تناقضا ، وبأنه مستمد من
التوراة والانجيل والاسرائيليات وأدب الفرس واليونان ، وبأنه كلام فنان
تأثر بالعواطف وسبح مع الخيال واقتبس من الأساطير . ومعنى هذا أن
القرآن كلام محمد القصصى الفنان ، لا كلام الله المنزه عن المشابهة والحدان .
ولقد ظاهره على هذا الزور والبهتان ، أستاذ المشرف على رسالته الأستاذ
أمين الحولى .

ولقد التمسنا إجراء تحقيق عاجل عادل ، وتوقيع عقوبة رادعة بالرجلين
إن صح الخبر . لكن مضت أيام طويلة لم نظفر فيها بطائل ، ولم يجر فيها
تحقيق على ما نعلم ، حتى بتنا وبات الرأى الاسلامى العام تتمايل من الأغضاء
على هذا القذى ، كأن دين الله لا خطره له ، وكأن كتابه أسطورة لا بأس أن
يخوض فيها من شاء بما شاء لا يسأل عما يفعل !! .

أمر عجب

ومن عجب أن جريدة الإخوان المسلمين طلعت علينا صبيحة يوم عيد الأضحى من هذا العام ، وفيها كلمة للعميد كلية الآداب سعادة الدكتور عبد الوهاب عزام بك ، يعترف فيها بخطأ صاحب الرسالة ، ثم يعترف بأن لجنة الفحص قد حكمت بخطئه ؛ لكن سعادته حاول بعد ذلك أن يهون الأمر ، وأن يجعل هذا الجبل الشامخ من الكفر والجهل أصغر من الذر ، فقال : « وحقيقة الأمر أن طالبا قدم رسالة عن القصص في القرآن لينال بها لقب دكتور ، فردتها لجنة الفحص ، فهي رسالة بين طالب وأستاذته ، عرض عليهم رأيه فرفضوه خطأه ، كما يسأل التلميذ أستاذه أو يعرض عليه ما بدله في مسألة مسترشدا ؛ فلم تنشر الرسالة ولم تخرج من دائرة البحث والاستفهام حتى تصلح أن تكون موضع مناقشة أو مؤاخذه » . ثم زاد سعادة العميد فزكى صاحب الرسالة وقال : « إفه شاب مسلم قصد أن يدفع عن القرآن الكريم بعض شبه الملاحدة وأحسن النية » . ثم قال « وأرى أن الأمر لا يعدو أن يكون غلط تلميذ اجتهد وأحسن النية » .

ولا ريب أن كلام هذا العميد يفيد أن صاحب الرسالة تلميذ لا معيد ، وأن مثله مثل مسائل مستفهم مسترشد ، لا واضح رسالة قاصد متعمد ، يدافع عنها بكل ما أوتي من قوة مع سبق الإصرار والترصد ١١ . ويوهم كلام العميد فوق ذلك أن شأن هذا الذي سماه تلميذا شأن المجتهد إذا أخطأ وهو حسن النية ، فله أجر وليس عليه وزر ١١ . أجل ، بمثل هذا الاستخفاف قضى أو حاول أن يقضى عميد الآداب ، في أكبر جريمة من جرائم الإلحاد والجهل والخروج على الآداب .

ولقد كان الأجدر بل كان الواجب على سعادة العميد وهو يمنح إلى المجاملة ، أن يجامل الحق والاسلام والشعب المسلم وصالح الطلاب والكلية التي هو مسؤول عنها بين يدي الله والتاريخ ، لا سيما أنه عالم مسلم نسل من بيت إسلام وعلم .

معالم الجريمة

ولقد كنا نتمنى أن نطوى نحن المسألة كما أراد أن يطويها العميد ، لكن على أساس شريف حازم من التوبة والالاباة وإعلان الرجوع الى الحق من صاحب الرسالة وقائده ، أما بعد هذا الاصرار والعناد والمراوغة والافتراء على مرأى ومسمع من الجمهور المسلم وغير المسلم ، فاننا نرى الأمر جد خطير على نحو ما شرحنا في مذكرتنا السابقة ، خصوصا أن معالم الجريمة قد بدت للعيان ماثلة ، ودم القتل قد جرت به أنهار الصحف والمجلات ، على رغم المراوغة وبذل الجهد في إخفاء المعالم وطمس الحقائق !

١ — فها هو الأستاذ أحمد أمين بك أحد أعضاء لجنة فحص الرسالة ، قد نشر تقريره محرراً مبرهنناً بنصوص وفقرات من نفس الرسالة ، وإذا هو يسجل كفر صاحبها وجهله عدة مرات لا مرة واحدة ، على وجه لا يختلف فيه منصفان .

٢ — وها هو الأستاذ أحمد الشايب وهو أحد أعضاء لجنة فحص الرسالة أيضا ، قد أخرج تقريره وفيه ما في تقرير لأستاذ أحمد أمين بك ، بل زاد عليه وأسهب ، وكان أعنف في حكمه وأشد !

٣ — وها هو صاحب الرسالة نفسه ، قد حاول جاهداً أن ينزل الميدان ويدافع عن نفسه نخائته قواه ، ولاذ بالفرار ، وتهرب من أن يحس موضوع الاتهام ، ولم يستطع أن ينفي شيئاً مما سجله عليه أستاذاه اللذان فحصا رسالته ، بل أخذ يتخبط في الظلمات ، فكتب مرة في معنى الأسطورة كتابة مبتورة ، وسب مرة أخرى أستاذاه الشايب سباً قذراً لا يليق بأقل طالب فضلا عن معيد في كلية الآداب . ثم تعلق بأذيال حربة الرأي غير طارق بين الحرية والكفر ، وتمسح بأعتاب الاستاذين الكبيرين الشيخ عبد المجيد سليم والشيخ محمود مثلثوت ، فافتري عليهما أنهما أفتيا بما يفيد أنه مجتهد مأجور ، لكن هذا الافتراء لم يغن عنه شيئاً ، فقد فضحه الشيخان ، وتبرأ من هذا الذي نسبته إليهما .

والى هنا ثبت بوضوح أن صاحب الرسالة قد جمع بين الكفر والجهل والوفاة والافتراء والعناد ، وهى جرائم تكفى الواحدة منها لعقوبته وإقصائه عن مكانه فى كلية الآداب !! .

فرية الاجتهاد

أما القول بأنه مجتهد أخطأ فهو قول هزل ، لأن المسألة ليست مسألة اجتهادية ، كيف وموضوعها عقيدة من العقائد الأولية فى الاسلام ، وقد تضافرت عليها قواطع الأدلة واستفاضت بين الخواص والعوام . ألا ترى أن كون القرآن كلام الله لا كلام محمد ، وكونه حقاً لا باطل فيه وصدقاً لا كذب فى قصة من قصصه ولا فى خبر من أخباره ، وكونه وحياً يوحى أنزله الذى يعلم السر وأخفى من مماء الغيب ، لا اسناداً من الاسرائيليات والاساطير وأدب الفرس واليونان . فقول : ألا ترى أن كل أولئك أمور تناولتها نصوص الكتاب والسنة وانعقد عليها الاجماع ، واستفاضت بين المسلمين جيلاً بعد جيل من عهد نزول القرآن الى اليوم ، لا يمارى فى ذلك إلا جهول أو جحود ، حتى أصبحت هذه العقيدة من المعلوم من الدين بالضرورة . وذلك لا محالة يخرج موضوع الإجماع هنا عن أن يكون محل اجتهاد ، ويخرج بصاحب الرسالة عن أن يكون مجتهداً مأجوراً ، الى أن يكون مجرماً سرتداً مأزوراً !! ومن القواعد المشهورة بين الأصوليين ، أنه لا اجتهاد فى مقابلة النص ، وأنه لا يجوز الاجتهاد فيما قام عليه الاجماع ، أو علم من الدين بالضرورة .

الأستاذ أمين الخولى

يبقى الكلام على الأستاذ أمين الخولى ، وما أدراك ما الأستاذ أمين الخولى ؟ إنه الركن الاول فى هذه الجريمة . هو الذى تولى كبرها ، وقد اعترف ضمناً فى جريدة أخبار اليوم (١ - ١١ - ١٩٤٧) بأنه هو الذى غرر بتلميذه خلف الله وأغراه على ما أجرم ، وأشرف عليه وهو يرتكب الجريمة ، ثم حاول حمايته وتأبيده والدفاع عنه بعد ارتكابها ، هازئاً بمقدسات الاسلام ومقرراته العلمية ، ساخراً من موقف جبهة علماء الأزهري وفضيلة المفتى الساق ، وأسمى

الرأى الاسلامى العام فى هذا الموضوع بأنه ضجيج عامى أهوج ، متقولا على المرحوم الأستاذ الشيخ محمد عبده ما لم يقل ، متهاونا بمقامه فى كلية الآداب كأستاذ ، وبمقام زميليه اللذين خصا الرسالة كأستاذين جليلين ، وبمقام العميد الذى أعلن خطأ صاحب الرسالة كرئيس عظيم . بل لقد أسرف الأستاذ الخولى واشتط فأعلن إصراره على هذا الإلحاد بصورة التجدى لمصر والشرق كله إذ قال : « لو لم يبق فى مصر والشرق كله أحد يقول إنه حق ، لقلت وحدى وأنا أقذف فى النار : إنه حق حق » !! .

أما بعد

فأننا نرجو فى دينكم وغيرتكم أن تتفضلوا فتعملوا على تحقيق ما يأتى فى سرعة ، غسلا للآهامة التى لحقت الدين والعلم والأزهر والجامعة والامة الاسلامية كلها :

- ١ — تحويل الرسالة إلى فضيلة مفتى مصر الأكبر ، ليقضى فيها من ناحية الدين ، باعتباره جهة الاختصاص .
- ٢ — عقد جماعة كبار العلماء لمناقشة الأستاذ أمين الخولى (باعتباره طالما) فيما نسب إليه من تأييد ما فى الرسالة ، وفيما نشره بجريدة أخبار اليوم .
- ٣ — إيقاف الأستاذ أمين الخولى ومحمد احمد خلف الله أفندى عن عملهما ، حتى يفصل فى أمرهما .
- ٤ — عدم تجديد عضوية الأستاذ أمين الخولى بمجلس إدارة كلية أصول الدين .
- ٥ — تطهير الجامعة والمدارس فى مصر من كل ضليل ملحد .
- ٦ — تصحيح الأوضاع وإسناد تدريس المواد الدينية والعربية إلى أساندة أمناء على دينهم وعلمهم وتلامذتهم ووطنهم .

وذلك أضعف الايمان

ذلك أقل ما يجب فى مثل هذا الحادث الجلل ، وإلا فحكم الإسلام على المرتدين معروف . وإن مصر الاسلامية بل زعيمة الامم الاسلامية ،

لا يصح أن تكون بعد اليوم مباءة للالحاد والملاحدة ، وفيها الوعي الديني قد تلبه وتيقظ ، وفيها الأزهر الممهور قد ثار للمدوان على الاسلام وتغيظ ، وعلى رأسها ملك صالح مسلم يعرف كيف يقود السفين ويحمي العرين .

« والله يقول الحق ، وهو يهدي السبيل » .

وتفضلوا بقبول موفور التحية والاحلال .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

في ١٩ / ١٢ / ١٣٦٦ هـ - ٢ / ١١ / ١٩٤٧ م

رئيس الجبهة

الامين العام للجبهة

محمد الشريفيني

محمد عبد العظيم الزرقاني

عضو جماعة كبار العلماء

الاستاذ بكلية أصول الدين

عمر ومعاوية

قال يزيد بن معاوية : حدثني أبي أن عمر بن الخطاب لما قدم الشام ، قدم على حمار ، ومعه عبد الرحمن بن عوف على حمار ، فتلقاهما معاوية في موكب ثقييل ، تجاوز عمر حتى أخبر ، فرجع إليه ، فلما قرب منه نزل إليه ، فأعرض عنه عمر ، فجعل يمشي الى جنبه راجلا ، فقال عبد الرحمن بن عوف : أتعبت الرجل ! فأقبل عليه الفاورق وقال له : يا معاوية أنت صاحب الموكب آتقا مع ما بلغني من وقوف ذوى الحاجات ببابك ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين . قال ولم ذاك ؟ قال : لأننا في بلد لا نمتنع فيها من جواسيس العدو ، ولا بد لهم مما يرههم من هيبة السلطان ، فإن أمرتني بذلك أقمت عليه ، وإن نهيتني عنه انتهيت . فقال عمر : لئن كان الذي تقول حقا فانه رأى أريب ، وإن كان باطلا فانه خدعة أديب . وما أمرك به ولا أنهاك عنه .

فقال عبد الرحمن بن عوف : لحسن ما صدر هذا الفتى عما أو ردت فيه .

فقال عمر : مصادره جشمناء ما جشمناءه .

الاسلام والمسلمون في شرق أفريقيا

لحضرة الأستاذ الدكتور محمود حب الله

مبعوث الأزهر الى شرق إفريقيا

دراسات عامة

الحالة الاجتماعية

تتكون بلاد إفريقيا الشرقية من أربع مقاطعات : كينيا ، وتنجانيقا ، وبوغندا ، وبلاد الزنجبار ، وهي إما مستعمرات انكليزية أو تحت الانتداب الانكليزي ، ويسكنها ما يقرب من مئة عشر مليوناً من الانفس ، ومن هؤلاء من يعتبر من السكان الاصليين ، ومنهم النازحون الذين انحدروا اليها من أقطار متعددة وأمم متباينة .

١ — السكان :

(١) فهناك الأوروبيون أو البيض ، وهم الطبقة الحاكمة والمتمتعة بكثير من الامتيازات ؛ فلكل أوروبي مركز ممتاز ، وعليه واجبات وفيود يقصد بها الاحتفاظ بكرامته وبمركزه الممتاز . فلهم أحياء خاصة ، وفنادق خاصة ، ومرافق خاصة ، لا يسمح لغيرهم أن يطرقها ، ولا يصح لواحد منهم أن يسافر في الدرجة الثالثة ، لأنه لا يصح أن يكون شعبياً . والحد الفاصل القوي يضع الشخص في هذه الناحية أو في تلك الناحية هو اللون ، حتى يتبين خلافه . ويسكن هؤلاء المدن عادة إلا المبشرين منهم فانهم متغلغلون في طول البلاد وعرضها .

(٢) وهناك الهنود النازحون من الهند وسيلان ، وهم جماعات شتى وطوائف متعددة ، وأديان مختلفة ؛ شأنهم في ذلك شأن الهند نفسها . وهم

متغلغلون في البلاد أيضا ، غير أنهم لا يتزاوجون مع الوطنيين . وهذا هو السر في احتفاظهم بلغاتهم الأصلية ، على الرغم من طول مكثهم هناك .
(٣) وهناك العرب الذين نزحوا ولا يزالون ينزحون من جزيرة العرب ، وخاصة من عمان وحضرموت وعدن ومسقط . وهم متغلغلون في البلاد كلها أيضا ، فتجدهم على قلتهم ، في المدن وفي القرى وفي الغابات . وهم يندمجون مع الوطنيين ويتزوجون منهم . وهذا هو السر في أن كثيرا منهم نسي لغته الأصلية واستبدل بها اللغة الوطنية ؛ ولكنه نال نظير ذلك إسلام الوطنيين .
(٤) وهناك الوطنيون الأصليون ، وهم أكثرية البلاد .

وأما المسلمون من السكان فيقربون من أربعة ملايين من الأنفس ، وهم منتشرون في البلاد كلها ؛ فتجدهم في العواصم وفي القرى ، وعلى السواحل وفي داخل البلاد ، وهم طبعاً أقلية في كل مكان إلا في بلاد الزنجبار ، فهم هناك يكادون يكونون كل السكان ، ولا يوجد بينهم إلا نفر قليل من غير المسلمين . وتعتبر بلاد الزنجبار المركز الرئيسي للإسلام هناك ، لا لأن سكانها مسلمون فحسب ، بل لأن سلطانها عربي مسلم أيضا ، ويدين له كل عرب إفريقيا الشرقية بالطاعة والولاء .

ب - الإدارة :

تحكم هذه المقاطعات كلها مباشرة أو عن طريق غير مباشر بالحكومة الانجليزية . وليس لغیرهم من السكان إلا سلطان محدود حين يوجد . فعلى الرغم من أن الهنود يحتلون مراكز اقتصادية ممتازة ، لا نجد لهم أثرا حقيقيا في توجيه سياسة البلاد ، وكأنهم يخشون أن تضع الحكومة العراقل في وجوههم وتسد عليهم أبواب الرزق أو تخرجهم من البلاد إذا ما أظهروا شيئا من التذمر ؛ ولهذا فهم يظهرون أنهم واضون بما يصود هناك من أوضاع . ولكن هل هذا هو الحقيقة ؟ .

وليس العرب بأحسن حظا من الهنود في تلك الناحية ؛ فليس لهم رأى حقيقى في توجيه سياسة البلاد أيضا . وعلى الرغم من ذلك فهناك ولاية من العرب في بعض البلاد ؛ وهناك مديرون منهم في بلاد الزنجبار يساعدون السلطان في إدارة البلاد .

وشأن الوطنيين في ذلك شأن غيرهم ، مع أن منهم مديري بيوغنده ، ومن بين هؤلاء مدير مسلم ، وهو الوحيد هناك منهم .
وهناك من المسلمين من يعين عضوا في المجالس المحلية أو ينتخب فيها .
ولكن الكلمة العليا هي في النهاية لدى السلطان .

ج — القضاء :

والقضاء المدني بجميع درجاته في أيدي قضاة من الانجليز .
وأما القضاة الشرعي للمسلمين فهو ، حيث يوجد ، في أيدي المسلمين .
وسلطان القضاء منحصر في المسائل الشرعية من زواج وطلاق وميراث . وأحيانا يتعدد القضاة الشرعيون في البلد الواحد بتعدد الفرق . ولقد رأيت (١) في بلاد الزنجبار قاضيا للأباضيين وآخر لأهل السنة ، وفي ممباسا قاضيين لأهل السنة . على أنني لم أر قضاة شرعيين في غير هذين البلدين . ولقد عجبت ماذا يصنع المسلمون في البلاد الأخرى حينما تعرض لهم مشا كل ، وبينهم وبين هذين البلدين مئات من الأميال . ولقد سألت هذا السؤال فوجدت إجابات استظهرت منها أن الناس يحملون مشا كلهم بأنفسهم ، أو بواسطة مجالس يختارونها هم ، أو بواسطة عرفاء المسكاتب مادام ذلك ممكنا ، وإلا فأنهم يتجهشمون مشاق الرحلة إلى أحد هذين البلدين .

الحالة الاقتصادية

تتمتع هذه البلاد ، على وجه عام ، بالرخاء ورغد العيش . وذلك لتوفر المحصولات بسبب كثرة الأمطار وقلة عدد السكان بالنسبة لاتساع الأرض

(١) ومن تشرفت بمعرفتهم السيد عمر بن سليط قاضي أهل السنة في بلاد الزنجبار . وهو عالم ورع وزعيم مدرسة ومحبيب إلى النفوس جميعا . ولقد تشرفتني بأن لازمني أثناء إقامتي ببلاد الزنجبار . وعرفت السيد محمد الأمين قاضي قضاة ممباسا ، وهو شافعي المذهب كالسيد عمر ، جليل القدر ، وله عدة مؤلفات باللغة الوطنية في الرد على القماديانية . ولم أتشرف بمقابلته إلا مرتين زرت في بيته الربني الذي كان يعرض فيه .

المكسوة بالخضر والفواكه ، ولجودتها وخصوبتها . فتجد في بلاد الزنجبار الكثير من القرتل وجوز الهند ، وهما من المحاصيل الرئيسية ، غير أنهما يباطن بأجنس الاثمان ، وفيها معاصر لاستخراج زيت القرتل . وهناك المانجة والاناناس والبرتقال والموز والبطيخ والذرة الشامية . وأثمانها بخسة جدا إذا ما قورنت بالأسعار في مصر . ولكن ذلك لا يؤثر كثيرا على السكان ، لأن مجهودهم في استخراج هذه المحصولات ضئيل . ويسكدا أحيانا ينحصر في جمع هذه المحصولات بعد أن يكون قد آن حصادها . وتجد في كينيا ، عدا الكثير من هذا كله ، الشاي والارز والقمح والشعير ، وتجد في تنجانيقا الشاي والبن كذلك . وفي يوغندا كثير من البن والقطن وقصب السكر . وهناك محالج له ومصانع للسكر .

وعندهم ، عدا هذا ، كثير من المواد الخام الضرورية للصناعات . وتقدم الغابات المترامية الاطراف بكثير من أجود أنواع الخشب . وأما الثروة الحيوانية فيوجد منها الكثير . فهناك الحيوانات الوحشية التي ينتفعون بجلودها وعظامها وأوبارها . والحيوانات الاليفة التي ينتفعون بلحومها كذلك . ولقد ساعدتهم كثرة المراعي على الإكثار من هذه الثروة ، وهي في نمو مطرد .

وللبحيرات دخل كبير في كثرة الأمطار التي جعلت هذه البلاد جميعها تبدو كأنها حقول واحد مكسو وجهه بالخضر . وتقدم البحيرات أيضا بثروات أخرى مثل السمك والتماسيح . وهذه هي البحيرات التي تمد النيل بمائه ، ومنها بحيرة فيكتوريا الواقعة في يوغندا ، وهي من أكبر البحيرات التي تمد النيل . ولقد سمعت بهذه المناسبة ، أن حكومة يوغندا تفكر جديا في التحكم في ماء تلك البحيرة . وذلك ببناء خزان عند جنجا ليستغل في توليد الكهرباء من مساقط الماء هناك . وإذا تم هذا المشروع وضبطت مياه البحيرة فإذا يكون الشأن بالنسبة لمصر ؟ هل ستدفع النواحي الانسانية حكومة يوغندا إلى أن تترك المياه تجري في مجاريها الطبيعية ، أو أنها ستعمد إلى تهديد مصر وإلى مساومتها ؟ ذلك ما يجب أن نتنبه له وأن نفكر فيه .

« يتبع »

الجانب الالهى من التفكير الاسلامى

هذا كتاب جليل قدره ، عظيمة فائدته ، طريف موضوعه . قام بتأليفه
 حضرة الأستاذ الأسمى الدكتور محمد البهى مدرس الفلسفة بكلية أصول
 الدين . واسمه يدل على المجهود المصنى الذى يقتضيه إبراز مثل هذا العمل الفذ
 فى اللغة العربية . ومجرد استكمال المراجع العربية التى اعتمد ، ونقل ملاحظات
 قيمة منها ، يدل وحده على مبلغ ما طناه الأستاذ المؤلف من الجهد الجاهد ،
 فى سبيل إقامة هذا الصرح الفلسفى فى أدق المواضع وأحوال العناية والتدقيق .
 الكتاب الذى نذكره الآن هو القسم الثانى من كتاب « الجانب الالهى
 من التفكير الاسلامى » وهو كما قال المؤلف : « يعرض موقف فلاسفة المسلمين
 فى الشرق من التراث العقلى الاغريقى فيما وراء الطبيعة ... »

ولأجل الوصول الى هذه الغاية « يذكر آراء المدارس الفلسفية فى الوجود
 وأصله وما ينتهى إليه ، ورأى هؤلاء الفلاسفة فيه ، ويوضح أن رأيهم فى
 تصورم الوجود ، وتصويرهم له ، يتمثل فى التوفيق بين الدين والفلسفة ،
 أكثر من أن يعبر عن بناء جديد فى التفكير الفلسفى فيما وراء الطبيعة » .
 ثم شرع حضرة المؤلف الجليل فى خوض غمار هذه البحوث فذكر أولاً
 موقف العقلية الاسلامية من الفلسفة الاغريقية . ثم سرد أسباب قبول المسلمين
 لهذه الفلسفة ، وبحوثهم فى التوفيق بين الدين والفلسفة . ثم ألم بمشكلة
 الوجود ، وذكر سبب اختلاف نظر الفلاسفة فيه ، وأتى على آراء البراهمة
 فيه ، وآراء الاغارقة ومنهم الايليوف وأفلاطون وأرسطو والرواقيون ،
 وأضاف اليهم فلاسفة الافلاطونية الحديثة كأفلوطين وبرقلس الخ . ثم انتقل
 الى رأى القرآن فى الوجود ، وتوسع فى إبراد رأى الكندى ، والفارابى
 وابن سينا . وبعد هذا كله انتقل الى مسألة الاستدلال على واجب الوجود ،
 وجاء برأى توماس الاكفينى فى دليل الوجود ، ونقد (كانت) للدلالة التقليدية
 على وجود الله ، ووحدايته ، وعلى علم واجب الوجود .

فهذا خضم متلاطم الامواج من البحوث ، استطاع ممثل النبوغ الازهرى فى
 الفلسفة الحديثة أن يحصره فى ٢٩٢ صفحة حافلة بالنظرات القيمة ، والتعليقات
 الثمينة . فنثنى على مؤلفه النابغة أطيب الثناء ، أكثر الله من أمثاله فى النبغاء .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة حضرة صاحب الفضيلة

الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرحمن حسن

التي ألقاها بين يدي حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم في احتفال الأزهر
بعيد رأس السنة الهجرية

• كنا وعدنا بنشر هذه الكلمة القيمة في هذا العدد من ،
• مجلة الأزهر ، ففني بما وعدنا ، وما هي في ثوبها الرائع ،

بسم الله الرحمن الرحيم

• وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ
• كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ
• مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا .

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاث عشرة سنة ، يدعو فيها الناس
إلى دين الله الحق ، مما فيه من هدى ونور .

وقد كانت هذه السنوات الطوال حرباً شعواء على الوثنية وما فيها من شرور
وفساد ، وصراعا شديداً بين الحق والباطل ، بذلت فيه قريش كل جهدها ، وما تملك
من قوة وحيلة ، لإبطال الدعوة إلى دين الله ، والقضاء عليها ؛ ولأق رسول الله
صلى الله عليه وسلم مع أصحابه أشد أنواع الإيذاء ، وأنكى أصناف العذاب ،
فلم يرد ذلك إلا اعتصاما بحبل الله المتين ، وقوة وثباتاً على الحق .

اتتمرت به قريش ، وحاولوا قتله ، وأنذروا عمه أبا طالب بالحرب ، إن لم
يكفّه عن الدعوة إلى هذا الدين ، وشردوا أنصاره ، ولاحقوهم خارج الجزيرة ،
ليكيدوا لهم عند ملك الحبشة ، حتى لا يؤوؤهم ، وضيقوا عليه وعلى عشيرته ،

وقاطعوهم ثلاث سنين ، لا يبيعونهم ، ولا يبتاعون منهم ، ولا يزوجونهم ، ولا يتزوجون منهم ؛ وبذلوا له من المال والسيادة والملك عليهم ؛ ورسول الله صلى الله عليه وسلم في كل ذلك وغيره من الأحداث ، لم يبال بتهديداتهم ، وإنذاراتهم ، وإغرائهم له بزخرف الدنيا ، بل سار في طريقه ، يدعو إلى الله ؛ وقد قال لعنه أبي طالب - وقد أنس منه الخذلان ، خوفاً من حرب بينه وبين قومه ، تأكل الأخضر واليابس - : « والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهر ، أو أهلك فيه ، ما تركته ! »

وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على الناس في مواسم العرب ، ويذهب إلى القبائل في منازلها ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وأن ينعموه حتى يبلغ رسالة ربه ، ويناديهم : « أيها الناس ! قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، وتسلطوا بها العرب ، وتدين لكم بها العجم ، فاذا فعلتم كتم ملوكا ، لكم الجنة » . كان يفعل هذا ، ومن ورائه من القرشيين من يصد الناس عن الاستجابة إلى دعوته ، والاستماع إلى ما يقول .

ولكن الله سبحانه وتعالى ، الذي أراد إظهار دينه ، وإعزاز نبيه ، هياً لهذا الدين منفذاً يسود فيه ، وتعلو فيه كلمة الله ؛ فقد اتصل صلى الله عليه وسلم ، في موسم الحج بنفر من أهل المدينة ، قتلوا عليهم القرآن ، ودعاهم إلى الإسلام ، فأسلموا ؛ وقد عرفوا فيه أنه النبي الذي كان يذكره لهم اليهود ، وقالوا له : « إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يرجعهم الله بك : فسنقدم عليهم ، فنُدعوهم لأمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبتك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك ، فلا رجل أعز منك » . ثم انصرفوا ، وذكروا لقومهم أمر رسول الله ، ودعاهم إلى الإسلام ، حتى فشا فيهم ، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكره صلى الله عليه وسلم .

وفي الموسم الثاني ، وأتى الموسم من المدينة اثنا عشر رجلاً من الأوس والخزرج ، واجتمعوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وبايعوه على الإسلام ، وألا يرتكبوا إثماً ولا فجوراً ؛ وأرسل مصعب بن عمير يقرئهم القرآن ، ويفقههم في الدين ؛ فأسلم

بإسلامهم خلق كثير، وفيهم الأشراف والسادة؛ وكان القرآن هو المؤثر الأعظم الذي ينفذ إلى القلوب المغلقة فيفتحها فلا من يسمعه حتى يسلم. «اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ؛ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ».

أسلم سعد بن معاذ سيد بني عبد الأشهل بعد أن سمع القرآن وتأثر به، فذهب إلى قومه في ناديتهم فقال: يا بني عبد الأشهل كيف تعملون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمتنا نقيية. قال: فإن كلام نساءكم ورجالكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله. قالوا: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما أو مسلمة.

وفي موسم الحج الذي كان قبل الهجرة، اجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان ممن أسلموا، وتشاوروا معه سرًا، فرأى من استعدادهم أن يعقد معهم حلفاً يكون قوة للإسلام ومنعة للمسلمين، فبايعوه على أن يمنعوه بما يمنعون منه أنفسهم وأموالهم، ولو كان في هذا مصيبة الأموال وقتل الأشراف ولهم الجنة.

وفي هذه المبايعة يقول الله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ، وَوَعْدًا عَلَيْهِ حَقٌّ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟ فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

أزجحت هذه البيعة قريشا بعد أن علمت بها، وكانوا يؤملون أن يعيدوا من أسلموا إلى دينهم، بعد أن أصابوهم بالأذى وضيقوا عليهم السبل؛ ولكنهم وجدوا الزمام قد أفلت من أيديهم، لأن الانصار سبقوا إلى المدينة، وأن محمداً وأصحابه وجدوا لهم طريقاً إلى الخلاص، وأصبحت فجاج المدينة مفتوحة أمامهم، وصارت لهم قوة خارج مكة قد تنمو وتنصر محمداً عليهم، وقد تقف في طريق تجارتهم وتمنع قواظمهم إلى الشام، وقد يداهمونهم في دارهم ويملكون عليهم أمرهم؛ ولهذا أخذت قريش تفكر جدياً في هذا الأمر، وخصوصاً بعد أن عرفوا من أمر المسلمين أنهم قد هاجروا ولحقوا بحلفائهم في المدينة، وأصبحوا في قوة ومنعة،

وخافوا أن يلحق محمد بهم فيسكيد لهم بما لا يقدرّون على دفعه، وهو في منعة من أصحابه، فاجتمعوا له في دار الندوة، وهى دار قصى بن كلاب التى كانت قريش لا تقضى أمراً إلا فيها، يتشاورون فيها يصنعون فى أمره، وقلبوا الأمر على الوجوه المختلفة، وانتهوا إلى رأى أبى جهل بن هشام، وهو أن يختاروا من كل قبيلة شاباً فتىً جلدأً تسبياً وسيطاً فيعطوه سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه فى القبائل، فلا يستطيع بنو عبد مناف أن يحاربوا قومهم جميعاً.

وانتهوا إلى هذا الرأى، واختاروا الفتيان والليله التى يقتلون فيها؛ وقد علم رسول الله صلوات الله عليه ما دبّروا وما يبتّوا، فلم يفرغ، وبيّت من الأمر ما يرد به كيدهم، والله تعالى يقول: «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ».

ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت أبى بكر وأخبره بما كان، وأن الله تعالى قد أذن له فى الهجرة، ففرح أبو بكر رضى الله عنه، لأنه كان يرجو أن يكون صاحب رسول الله فى هجرته. وسأل رسول الله أن يكون صاحبه فأجابه، ففرح أبو بكر بذلك حتى بكى. وقالت عائشة رضى الله عنها: «فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكى يومئذ، !

أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب أن ينام مكانه فى الليله التى اتفق على قتله فيها، وأن يتسجى بيرده الذى اعتاد أن ينام فيه، حتى لا يرتاب أحد فى وجوده؛ فكان على رضى الله عنه أول من باع نفسه فى سبيل الله، ووقى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم خرج هو وأبو بكر إلى غار بجبل ثور فدخلاه، ورُتب الأمر على أن يتسمع عبد الله بن أبى بكر أخبار قريش نهاره، ثم يأتيهما فى المساء بما كان فى ذلك اليوم، وأن يرعى عامر ابن فهيرة مولى أبى بكر غنمه فى النهار، ويريحها عليهما فى المساء، حتى إذا عاد عبد الله تبعه بالغنم فعسى أثره، وأن تأتيهما أسماء بنت أبى بكر بما يصلحهما من الطعام. أما فتيان قريش الذين اجتمعوا على قتله فقد باتوا ليلتهم على باب داره ينتظرونه حتى يخرج فيقتلوه؛ وكانوا يتطلعون من فرجة فيرون رجلاً نائماً

يرون أنهم طلبتهم . هو نائم في برده الأخضر الذي اعتاد أن ينام فيه ؛ إذا لاشك أنه محمد . ولكن في الصباح أدرك هؤلاء الفتيان أنهم باتوا يحرسون على ابن أبي طالب ، لا محمد بن عبد الله .

اهتمت قريش لهذا الأمر ، وسألوا عن أبي بكر فلم يجدوه ، فزاد اهتمامهم وخرجوا بسيوفهم ورماحهم يبحثون عن محمد وأبي بكر في كل مكان ، وجعلوا لمن يأتي بهما قتيلين أو مأسورين دية كل واحد منهما مائة ناقة ، وأتوا بالأدلاء والقافة يبحثون ، حتى وصلوا إلى الغار ، وصاروا كما قال أبو بكر : « لو نظر أحدهم إلى قدمه لرأىهما ، ففزع أبو بكر وظهر عليه الحزن خوفاً على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : يا رسول الله لست أخاف الموت فأنا رجل واحد ، ولكنني أخشى عليك ، فإنك إن قتلت هلكت الأمة . فأجابه رسول الله بقلب يملؤه الإيمان واليقين بأن الله سينصره ويؤيده » لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا .

أما فتيان قريش فقد عادوا بالخفية والفشل ، وصرف الله نظرهم عن رؤية النبي وصاحبه ، فلم يهتدوا إليهما .

وفي هذه الحادثة ، وهي إحدى المعجزات التي أكرم الله بها رسوله ، يقول القرآن : « إِلَّا تَصْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ، وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ، وَجَعَلَ لَكُمُ الْغَارَ الْفَوْقَ السُّفْلَى ؛ وَلَكِنَّ اللَّهَ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

مكنا في الغار ثلاثة أيام حتى سكن الطلب ، ثم خرجا إلى المدينة على راحلتين كان قد أعدهما أبو بكر ، يقودهما دليل ماهر . وهنا يسجل التاريخ معجزة أخرى للنبي صلى الله عليه وسلم أكرمه الله بها .

وقد علم سراقه بن مالك بالجهة التي يسيران فيها ، فنقلد سلاحه وركب فرسه ، وقد أغواه الجعل الذي بذلته قريش ، فسار خلفها جاداً حتى يلحقهما ، وقد أفرغ هذا المفاجيء الجديد أبا بكر عند ما رآه يقترب منهما . أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان دائم الدعاء ، ولا يفتر عن قراءة القرآن ؛ ولكن بينما سراقه يحد السير إذ كبَّتْ به فرسه وألقته على الأرض ، ولكنه قام يحاول اللحاق بهما وقد

أوشك على النجاح ، غير أنه لم يلبث حتى كسبت به الفرس مرة أخرى وساخت قوائمها حتى الركبتين وألقته بعيدا يتدحرج في سلاحه . وهنا تطير سراقه وأدرك أنه فاشل في محاولته ، وقال عن نفسه : إنه ألقى في روعه أن محمدا سيظهر أمره وينتصر ، فألقى إليهما بالأمان ، وانهى به الأمر إلى أن أصبح حارسا لهما يمنع من يريد اللحاق بهما ، بعد أن خرج يريد قتلهما أو أسرهما .

الحياة في المدينة

وصل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فاستقبله أهلها بأعظم مظاهر الترحيب ، وكان يوماً مشهوداً . وفي المدينة يبدأ أهم دور في تاريخ الدعوة الإسلامية ، وهو دور التنظيم ، ودور الهداية ، ودور النصر .

كان في المدينة طوائف مختلفة من السكان ، وهم المسلمون من سكان المدينة الذين أجابوا الدعوة وآمنوا وسماهم الإسلام الأنصار ؛ والمهاجرون الذين فروا من مكة إلى المدينة ؛ واليهود ، والوثنيون الذين لم يسلموا من سكان المدينة الأصليين . ومع هذا التعدد كانت توجد بين أهل المدينة الأصليين إحن وأحقاد متأصلة في النفوس وصلت إلى الحرب التي كادت تفنيهم . وقد قال النفر الذين التقوا بالنبي صلى الله عليه وسلم في الموسم : « إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك » .

كان لا بد إذن من تدبير أساسي يوحد بين هذه النزعات المختلفة في هذا المجتمع ؛ ولهذا وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عنايته بحسن سياسته وتدييره إلى توحيد الكلمة ، وجمع الشمل ، والقضاء على هذه الأحقاد المترجعة بالنفوس ، ليجعل من المدينة وحدة سياسة منظمة يشعر فيها جميع السكان بالطمأنينة والاستقرار .

عمد إلى تنظيم حقوق المسلمين وتوثيق وحدتهم ، فأخى بين المهاجرين والأنصار مؤاخاةً دونها لحمه النسب ، وقد كانت مؤاخاة في الدين ، بها يتناصرون ويتوارثون كما يتوارث الإخوة من النسب ، وأظهر الأنصار في هذه المؤاخاة من كرم النفس وحسن مواساة المهاجرين وإيثارهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ما كان له أعظم الأثر في النفوس وامتزاجها . ولقد بلغ من بعضهم أن عرض على أخيه أن يقاسمه في ماله وهو حتى لا يشعر بشيء من المفارقة ، وقد جعل الله لهؤلاء

الفضل الأول ، وسماهم المؤمنين ؛ ففي الكتاب الكريم : « والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله ، والذين آووا ونصروا ، أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم مغفرة ورزق كريم » .

وعمد إلى الاتفاق مع اليهود ، فكتب بينهم وبين المهاجرين والأنصار معاهدة مفصلة ، تقررت فيها وحدة المسلمين ، وأنهم أمة واحدة ، تكون وحدة ذات شخصية سياسية ودينية ، مهما اختلفت شعوبهم وقبائلهم ؛ وتقررت فيها حرمة الانفس وحرمة الاموال وحرمة المدينة . وقد عاهد اليهود على أن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، وعلى أن ما كان بين أهل هذه المعاهدة من حدث أو اشتجار يخاف فساد ، فإن مرده الى الله عز وجل ، وإلى محمد رسول الله .

وبهذه المعاهدة العظيمة والمؤاخاة بين المسلمين ، هدأت حالة المدينة ، وسكن المسلمون الى دينهم ، يقيمون فرائضه جماعات ووحداً ، لا يخافون فتنة ولا أذى ، وزال ما كان بينهم من العداوة وصدق فيهم قول الله تعالى : « هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم » .

هذا في المدينة ؛ أما في خارجها ، فقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين الى عدم مناصرة المشركين وموالاتهم ، ورغب من يسلم في الهجرة الى المدينة ، ليكونوا قوة لإخوانهم في الدين ، ولينالوا من خير الدنيا والآخرة ؛ وإلا فلا تناصر بينهم وبين إخوانهم في المدينة إلا إذا اعتدى عليهم في دينهم فإنهم ينصرونه . وفي هذا يقول الله تعالى : « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، والذين آووا ونصروا ، أولئك بعضهم أولياء بعض ؛ والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ، وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ، والله بما تعملون بصير . والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » .

وبعد أن وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم أسس الوحدة والهدوء والاستقرار للدولة الإسلامية ، أخذت أعماله في السياسة والتشريع تتوالى ، مما كان له أكبر النتائج ، وأعظم الأثر في التاريخ .

وفي الحق إن الهجرة النبوية ، وما سبقها ، وما كان فيها من أحداث ، تعلمنا أن الحق مهما تجمعت عليه القوى ، فانه لن يغلب ، وأنه لا بد أن ينتصر ويسود . ولكن لا بد لهذا من الصبر والعمل ، مع السياسة وحسن التدبير ؛ والله المستعان .

مولاي صاحب الجلالة :

إن حادث الهجرة مَثَلٌ أعلى في التضحية وبذل النفس في سبيل إعلاء كلمة الله ، وأن ترفرف على هذا الوجود راية الأمن والطمأنينة والسلام . والتاريخ يامولاي يسجل لك القدوة الحسنة برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأنت تعمل على إعلاء كلمة الدين ، ورفع شأن الإسلام والمسلمين ، مع الاناة وحسن السياسة والتدبير . والتاريخ يامولاي يسجل لك ما عملته وتعمله في جمع شمل العربوة وتوحيد كلمتها ، كي تعود إلى سابق مجدها وعزها وسلطانها . وها هي يامولاي بقوة عزمك وحسن تدبيرك قد اجتمعت كلمتها ، وصارت قوة يحسب حسابها إذا جدّ الجد بين الدول العظمى ، وهي تناضل عن حقوقها معتزة بنفسها وقوة سلطانها . والتاريخ يسجل لك يامولاي رعايتك هذا المعهد العظيم ، مهد العلم والعلماء ، ودوام العطف والخو على أهله ، وشدة اهتمامك بمن يفدون إليه من أقطار الأرض ليتفقهوا في الدين وينشروه بين قومهم إذا رجعوا إليهم . وأنت في هذا يامولاي إنما تعمل بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول : « إن الناس لكم تبع ، وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين ، فإذا جاءوكم فاستوصوا بهم خيراً » .

وإن الأزهر يامولاي ، علماءه وطلابه ، ليضربون إلى المولى القدير أن يحفظ جلالتهم ذخراً للإسلام والمسلمين ، وقوة للعلم والعلماء ، ومناراً تستضيء به العربوة في جهادها ونضالها ؛ وأن يوفق حكومة جلالتهم إلى ما فيه خير الأمة وفلاحها .

وإننا لهذه الذكرى يامولاي نترحم على رجلين عظيمين كانا يعملان تحت لوائك لإعلاء شأن الدين ، ورفع شأن المعهد العظيم ، هما المغفور لهما : الشيخ محمد مصطفى المراغى ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ، رحمهما الله وجعلهما في أعلى عليين مع الصديقين والشهداء والصالحين . والسلام عليك يامولاي ورحمة الله .

افتتاح الاذاعة الدينية في عهدها الجديد

ألقاها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عبد اللطيف دراز
مدير الأزهر في مساء يوم ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم .

نفتح هذا الدور الإصلاحي الجديد لدار الإذاعة اللاسلكية المصرية .
حضرات السادة :

لا شك أن الاذاعة اللاسلكية من أعظم آيات العصر الحديث منفعه للناس ،
وهي من بينها أقرب وسيلة على الإطلاق لنشر الآراء والأخبار ، وبث العلوم
والمعارف ، وإذاعة الآداب والفنون ، وجمع الأمة كلها على الإحاطة بالأحوال
العامة والشئون الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وهي مع هذا لون جميل من
ألوان المتاع المباح .

لذلك عرف لها الناس قدرها ، وتنافسوا في الإقبال عليها ، والاستماع لما
تذيعه وتحدث به ، واتخذتها الأمم والدول على اختلافها مصدرا من أهم مصادر
أخبارها والتحدث عن آرائها وسياستها . فلا عجب بعد ذلك أن يلتفت اليها
المسؤولون عندنا لفئة عناية وإصلاح .

يا حضرات السادة :

إن مصر هي مثابة الإسلام وزعيمة العالم العربي ، اليها تتجه الأنظار وتهوى
الأفئدة ، وتسسم الآذان . ولقد كان من رزايا الماضي الأليم أن بقيت الأمة
غالبة على الشعوب العربية والإسلامية ؛ والأمر يسمع ولا يقرأ ؛ لذلك لا تبرا
مصر من تبعاتها في هذه الحالة إلا إذا أسمعت صوتها لجميع العالم العربي والإسلامي ،
وكانت لها دار إذاعة تجمعهما مع إخوانها العرب والمسلمين من أقصى الغرب الى
أقصى الشرق على مائدة واحدة من وحى القرآن ، وهدى الإسلام ، وثقافة
العصر ، وما امتازت به من علوم وفنون وآداب .

وعندى أن دار الإذاعة بهذا الوصف بعد تطورها الجديد، سيكون لها من الأثر في جمع الشعوب الإسلامية والعربية على كفة واحدة، ما لا يمكن أن يتأتى لاية وسيلة أخرى، وستكون فائدة ذلك للإسلام عامة وللعرب خاصة، وللمصر بوجه أخص، مما لا تتسع له عبارة، ولا يبلغ كنهه وصفه بيان.

لهذا جئت اليوم لأهنيء دار الإذاعة اللاسلكية المصرية، باتجاهها الجديد، ونهضتها الإصلاحية المباركة، راجيا أن تفضي بها سبيلها الرشيدة التي تنتهجها الآن الى الغاية المرجوة إن شاء الله، ولنا في ثقافة رجالها وغيرتهم وكفائتهم لما يطلعون به ما هو جدير أن يُذكر هذا الأمل في نفوسنا، ويقرب هذه الغاية منا، في عهد حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم، ملك وادى النيل، حفظه الله.

حضرات السادة :

كان المخلصون من هذه الأمة ينادون بأن يكون للتربية الوطنية، والنواحي الخلقية والقومية، والروحي الاسلامي، حظها الأول في مما يذاع ويسمعه الناس. وقد سرنا أن يكون من أثر الاتجاه الجديد رعاية هذا رعاية حسنة، فنظمت أحاديث ومحاضرات في هدى القرآن، تجلى للناس حكمته البالغة، وسفته الوضاعة، وأدبه القويم في الإصلاح والتهديب.

وسيتناول ذلك قصص القرآن الرائع، وهو القصص الحق المنزل من الله العليم الحكيم، على خاتم النبيين والمرسلين، بأحكام الحكم، وأروع العبر، وأصدق مثل التاريخ. كما تناول المنهج الجديد فيما تناول، عرض الأعلام الإسلامية الخالدة، وما كان لها من أثر بالغ في تكوين التاريخ الإسلامي من شتى نواحيه.

ولما كان علم هذه الأعلام، وأحقها جميعاً بالتقديم، هو ولا شك إمامها الأول، وقائدها الأكبر، سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم — فقد رئي أن يكون هذا الأسبوع الذي يتبدى اليوم هو أسبوع محمد صلى الله عليه وسلم. وسيتناول المتحدثون من أفاضل العلماء النواحي المختلفة لعظمته. ونحب أن لا تخلو هذه المناسبة من كلمة موجزة في ذكرى المصلح الأعظم، ورسول الإنسانية العام، سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

حضرات السادة :

لن أطيل القول ، بل سيكون ما بقى عليكم أن تسمعه غايةً في الإيجاز ، وما حاجتنا إلى التطويل ، وليس أمامنا غامض نجليه ، ولا مردود ندافع عنه ؛ بل ما حاجتنا إلى التطويل في مقام هو أظهر من كل حجة ، وأوضح من كل برهان ، وأصدق على نفسه من كل شاهد ؛ مقام محمد صلى الله عليه وسلم ، والقرآن الكريم الذى أوحى به إليه .

هل هناك أصدق شهادةً لمحمد من سيرة محمد ، وهدى محمد ، وشريعة محمد ؟ هل هناك أصدق شهادةً لمحمد من محمد نفسه ؟ لا ، بل كلمة الله أفصح وأبلغ . هل هناك أكبر شهادة لمحمد من الله ربه : « قل أى شئ أكبر شهادة » ، قل الله شهيدٌ بيني وبينكم ، وأوحى إلى هذا القرآن لا تُنذركم به ومن بلغ » .

نعم أيها السادة ، هي الشهادة الكبرى ، شهادة الله جلّ شأنه لرسوله بأنه صادق ، وللقرآن بأنه الحق من عند الله ؛ وهي الشهادة التي تدحض كل باطل ، وتخرس كل لسان . وهذه الشهادة ، هي شهادة الكون نفسه ، شهادة السنة الإلهية القاهرة . فإن لله كتابين : كتاباً مقروءاً ، هو هذا القرآن الذى نتلوه ، وكتاباً صامتاً ، هو هذا الكون ، ولكنه في صمته أنطق من كل ناطق ، وأفصح بحاله من كل لسان .

فإذا كان ما يدعو إليه محمد والقرآن ، يتفق وهذه السنة الإلهية ، ويسير معها في سبيل واحدة إلى غاية واحدة ، ويهدى إلى ما تهدى إليه ، من عمارة الأرض والإصلاح فيها ، وتركية النفوس وتهذيبها ، وتوحيد الخالق وعبادته ، وترقية الإنسانية والنهوض بها ؛ إذا كان ما يدعو إليه محمد ، وما جاهد في سبيله حتى الموت ، هو هذه السبيل إلى تلك الغاية السعيدة ، فليس بعد ذلك دلالة أعظم ، ولا شهادة أكبر على أن باعث الرسول ، ومنزل القرآن ، هو خالق هذا الكون ؛ وإلا لاختلغا في السبيل ، أو اختلفا في الغاية ، أو تعارضاً ولو في القليل ؛ بل لتعارضاً في الكثير الذى يعلمه الله ويجهله محمد ، ويتنزه عنه الخالق ، ولا يتنزه عنه المخلوق . أما ولا اختلاف قط بين آيات الكون ، وآيات القرآن ، فتلك إذاً هي الشهادة الكبرى لمحمد والقرآن ، وأى شئ أكبر شهادةً من الله ؟

حضرات السادة :

لو أردنا أن نضرب الأمثال على هذا الذي ذكرناه لكم من اتفاق آيات الكون وآيات القرآن ، لطال بنا القول ؛ ولكننا سنجتزئ من ذلك كله بمثال واحد هو : التوحيد ، الذي دعا إليه الاسلام ، والوحدة التي كوَّنها محمد بالفعل من أمم مختلفة العناصر والاجناس .

أرايتم كيف تعمل الأمم في القرن العشرين لتحقيق هذه الوحدة وتلج في الوصول إليها ، فلا تتال من سعيها إلا حرباً بعد حرب ، وفناء بعد فناء ! ذلك أنها تدعو الى وحدتها على أساس الاطماع والشهوات والاغراض . تأملوا هذا في عصرنا الحاضر ، وتأملوا كيف فشلت في هذه السبيل هيئة الأمم أو كادت ، كما فشلت زميلتها عصبة الأمم من قبل ؛ ثم ارجعوا الى ما قبل هذا التاريخ بست وستين وثلاثمائة وألف من السنين ، تجدوا الوحدة التي أقامها محمد صلى الله عليه وسلم ، وأقامها على أساس من الحق ، وتقوى من الله ورضوان .

بهذه المقارنة الواضحة تدركون الفرق بين ما هو من عند الناس ، وما هو من عند الله ، وتبين لكم واضحة سبيل الرحمن من سبيل الشيطان . لقد أقام القرآن الوحدة بين الناس ، من أعلى عليائها الى نهاية مداها ، على الحق الواضح والنور المبين . قاله رب الناس واحد لا شريك له « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » . والرسول والأنبياء الذين بعثوا الى الناس ، والكتب التي أنزلت عليهم من الله ، كل هذا أمر واحد وشأن واحد ، سبيله الهداية الى الحق ، والدعوة الى الله ، وغايته النجاح والفلاح والفوز بسعادات الدنيا والآخرة : « آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ، وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، غُفِرَ لَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » . والناس جميعاً عنصر واحد ، وأصل واحد ، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك : « أيها الناس ! إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم و آدم من تراب ، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد ، . ويمضى الإسلام على هذه السنة من الأخوة والمساواة التي جعلت المسلم أخا للمسلم مهما تباعدت الديار ، وتنامت الأقطار ، والتي لم تستطع أيدي الظلم والطغيان على شدة بطشها وجبروتها ، ولم تستطع عوامل التفريق ، وهي كثيرة لا تعد ، أن تقضى عليها ، أو تضعف من شأنها .

فلا زال صوت الهند أرفع صوت في الدفاع عن فلسطين ؛ ولا زال المسلم على ساحل الإطلانطى يستجيب لنداء المسلم عند جدران الصين . فأين هذا من العنصرية الممقوتة ، والشعوبية البغيضة ، التي لم تزل تفرق بين الناس في أرقى البلاد مدنية ونورا ؟ !

هذه الوحدة التي وضعها الإسلام بين الناس ، وهذه المساواة العامة بين بني البشر التي أقامها القرآن على أساسه الإلهي ، حققها في أوجز مدة وأسرع زمان ؛ وهذا التخييط بين دول العالم وأممه ، في السعى الى الوحدة من طريق غير الطريق السوى ، وفشلهم في ذلك مرة بعد أخرى — هو دليلنا اليوم ؛ وحسبنا هو من دليل على صدق الدعوة الاسلامية ، وأثرها الخالد في الإصلاح ، وهدايا الواضح وحققها المبين .

بل هي آية الدهر ، ومعجزة الزمان ، على أن لا تصلح الانسانية ولا يستقيم شأنها إلا على الأساس الذي وضعها عليه القرآن ، وصدق الله العظيم « قل يا أيها الناس إني رسولُ الله إليكم جميعا ، الذي له ملكُ السمواتِ والأرضِ ، لا إله إلا هو ، يحيي ويميت ، فأمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون . »

الوعى القومى والوعى العالمى والاسلام

يراد بالوعى القومى شعور الامة بوجودها كوحدة اجتماعية ، لها حقوق طبيعية ، وعليها واجبات إنسانية . فأما حقوقها الطبيعية ففى أن تعيش فى بلادها حرة مستقلة ، تستغل ما تحت يدها من الارض دون أن يحد من نشاطها فيها متحكم ؛ وأن تنشئ بينها وبين الامم المختلفة علاقات أدبية ومادية دون أن يعترض هذا الانشاء متسيطر . فهذا الوعى الجماعى الذى يشبه الوعى الفردى من جميع الوجوه ، يوجه الامم إلى طرق الحصول على مقوماتها ، ووسائل دره المهددات لوجودها ، ويجعلها تحتاط للحوادث قبل وقوعها ، وتتخذ لها ما يدفعها عند طروئها . هذا الوعى ضرورى للجماعات ضرورته للأفراد ، وحرية التصرف فى توجيهه لا بد منها للحصول على كل ما يثمره للجميع من نظام ووثام واتجاه حر مشترك ، يتأدى بهم إلى الغايات التى كتب للإنسانية أن تبلغها .

ولكن الحالة البدائية للجماعات اقتضت ، لأسباب شتى من القصور العقلى والعلى ، أن يقتصر وعيها القومى على وجودها الذاتى ، وعلى قواها ووسائلها دون أن يكون لها الخيرة فى أمرها ، لوقوعها فى أسر حكومات استبدادية منها ، هى التى أقامت ، أو لأن حالتها من القصور هى التى اقتضتها وأخضعها لها . وكان هذا هو النظام العام فى جميع الشعوب إلى ما قبل خمسة قرون ، أى حوالى عهد انتهاء القرون الوسطى ، حيث تيقظ فى النفوس عامل جديد للحياة الاجتماعية ، وهو إصلاح أداة الحكم بحيث تتجلى فيها إرادة الامة ، فتعطى نفسها الوجهة التى تريدها ، وتهى لها الوسائل التى تؤيدها إليها .

انتقال بعيد المدى فى طراز حكومات الامم ، انتهت إليه أرقى الجماعات ثقافة ، وأرفعها أدبا ، وأكثرها ميلا إلى الترقى ، وأسرعها اجتيازاً للمراحل الحياة فى خطى ثابتة يؤمن معها الزلل ، وتبلغ بها الغاية ، مع شعور عام من جميع الافراد بها ، وهم لذلك يتوزعون التبعات فى المحافظة عليها ، والمنافعة عنها .

ومنذ نحو قرن من الزمان، بدرت بوادر شعور عال لبعض كبار المفكرين رموا به إلى ضرورة اعتبار الإنسانية كلها أمة واحدة، يجب أن تبطل بينها الحروب، وأن تقوم على مبدأ التعارف والتفاهم، ليتحقق بذلك مؤدى الناموس الأدبى الذى يأبى بطبيعته العلوية أن يفرق بين بنى آدم بسبب اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم، ويتفق والمنطق الاجتماعى من أن إبطال التناحر، والقيامة على سنة التعاون، أجدى فى هذه المرحلة التى بلغتها الإنسانية على المجموعة البشرية، وأقوى أداة لإيصالها إلى كمالها المنشود.

ولكن هذا البصيص من النور العلوى الذى شعر به بعض كبار القلوب، لم يصل حتى خبره إلى الدهماء، فما يزال الناس على ما كانوا عليه من التفرقة بين الشعوب، وسيبقون على هذه الحالة حتى تصل العلاقات الدولية إلى مأزق لا تستقيم معه إلا بتآخى جميع الأمم وقيامها على سنة التعاون والتكافل التى كانت تحلم بها بعض العقول الراقية ولا تستطيع أن تجاهر بها.

ومن المعجزات العلمية الإسلامية، أنه جاء بنوعى الوعى الاجتماعى، القومى والعالمى، على وجه يمكن أن يتصوره العقل، ويقره العدل المطلق، والشعور العالى بالحق.

بدأ الإسلام فى تكوين مجتمعه على السنته الديمقراطية الصحيحة: بنشر دعوته بين الأمم أجمع، غير مراعى إلا وجهة الإصلاح على مقتضى أصولها الطبيعية القويمه، باشعار جميع طبقات الأمم بحقوقهم وواجباتهم؛ فصاح بالاس كافة وهم فى غفلة من أمرهم ليوقظهم من سباتهم قائلاً: «يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم، وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضلٍ ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً».

ثم راعى فى جمعهم أن تكون الصلات كلها بينهم قائمة على الديمقراطية الصحيحة، بدعوة الخاص والعام إلى كلمة واحدة لا تمايز فيها. فكاف كل فرد من المجتمع بما كلف به سواء، لا فرق بين قوى وضعيف، ولا بين شريف ووضيع.

فالوعى القومى فى مثل هذه الأمة يكون على القليل أشد ما يمكن أن يكون عليه ، لأنه أساس اجتماع الأفراد وترابطهم ، على خلاف سائر المجتمعات فإنها لم تولف تلبية لدعوة ، ولا تخيراً لمذهب ، ولكن من طريق التطور التدريجى الذى لا يحس بأدواره المتعاقبة ، ولا بعلاها المؤثرة .

وقد صرح الكتاب الشريف الناس بما لهم وبما عليهم ، وكرر ذلك مراراً على ألوان شتى من البيان ، وفى حالات عدة من الحوادث ، حتى صار كل إنسان على علم تام بما له على الجماعة التى هو منها وما عليه لها ، وليس بعد هذا مزيد من الوعى الاجتماعى البالغ منتهى الكمال ، وهو الذى حمل المسلمين فى حادث الفتنة أن يتجمعوا فى نحو اثنى عشر ألفاً ويحاسبوا أمير المؤمنين عثمان على ما حدث من بعض عماله فى الأقطار . وقد أعقب ذلك ثورة قتل فيها الخليفة الثالث ؛ ولولا أن الوعى الاجتماعى كان لدى المسلمين الأولين مستوفياً شروطه ، لتأدت هذه الحركة إلى تفكك جماعة المؤمنين ، وتفرق كلمتهم ، ولكان ساع للرومانيين والفرس المحيطين بهم أن يزحفوا عليهم ، ويستخلصوا ما اقتطعوه منهم من أقطار .

وقد وصف النبى صلى الله عليه وسلم حالة المسلمين من هذه الناحية بقوله : « المؤمن للؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » وقوله : « مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » .

ولم إلى جانب هذا الوعى الخاص بث الإسلام فى روع المسلمين وعياً عالمياً ، ووطد قواعده فى عقولهم ونفوسهم ، وطالبهم بالعمل به وهو ما لم يسبق إليه فى تاريخ أية أمة من الأمم ، حتى الأمم المعاصرة لنا من ضربت فى الرقى العلى والفلسفى بسهم وافر . يظهر ذلك بأجلى عبارة وأقوم دليل فى قوله تعالى : « يأبها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » .

هذا إيذان للعالم كافة فى جميع بقاع الأرض ، متحضرهم ومتبديهم ، بأن الله لم يخلق العالم ليتخالفوا ويتناحروا ، ولكن ليتعارفوا ويتعاونوا على قطع مفاوز هذه الحياة ، وعلى التأدى إلى وجود كريم يليق بمكانة الانسانية . وهذا التعارف

وما يستدعيه من التعاون والتكافل ، يقتضى كل الصفات الجليلة التى دعا إليها القرآن من المساواة فى الحقوق ، والعدل فى الأحكام ، والرحمة بالضعفاء ، والأمانة فى المعاملات . وهى أصول قد تعذر تعميمها فى العالم فى العهد الأول للمسلمين ، فقد كان التعصب الأعمى للأديان والقوميات يمنع الناس من الدخول فى مثل هذا العهد من السلام العام ، ولولا ذلك وأثر الوراثة فى العقول ، لقبول الاسلام كل من بلغته دعوته ، ولكان للناس شأن غير شأنهم اليوم .

فلمسلمين والحالة هذه فوق شعورهم القومى ، شعور عالمى يشمل الانسانية جمعاء ، وليس الأثر الأدبى لهذا الأمر بالشئ القليل ؛ وهو يعين على تعليل الانتقال البعيد المدى الذى بلغه المسلمون فى أقل من ريع قرن من الزمان فى آدابهم وأخلاقهم وعوائدهم وعلاقاتهم وسيرتهم فى فتوحاتهم . فقد أثر عنهم من التسامح للأجانب عن الدين ما لم يؤثر مثله ، أو قريب منه ، عن أى أمة من الأمم ؛ فقد ساووا بينهم وبين أنفسهم فى المعاملات والمحاکات والحقوق ، وهذا كله ما كان لينفذ لولا أنه مرتكز على وعى عالمى عام ، اكتسب قوة من معاملة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الكتاب وغيرهم من الأجانب عن الإسلام ، ومن عدم التفرقة بينهم وبين المسلمين فى المبرات والصدقات ، بل فى بذل العلم اليهم وعدم البخل عليهم ببيان معاضله ، وكشف غوامضه . وقد قابل أولئك الأجانب عن الإسلام هذه المعاملة الحسنة بالاخلاص للمسلمين ، والتفانى فى خدمتهم ؛ فقد ترجعوا لهم من الكتب القديمة ، وبالغوا لهم فى حل رموزها اللغوية ، ومعمياتها اللفظية ، ما لم يحصل مثله إلا بين الإخوان المخلصين ، بل القرابة الاقربين .

فالوعى العالمى الذى ظهر أول تنويه به فى القرآن الكريم ، وفى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان من الأسباب القوية فى نهضة المسلمين التوسعية ، وانسياحهم فى الشرق والغرب ، وفى تسابق الناس جماعات وشعوبا للدخول فى هذا الدين ، مسوقين الى ذلك بما تجلى على المسلمين من سعة أفقهم الاجتماعى ، ورحابة صدورهم للأجانب والأغراب والملائين إليهم . فكانوا

يساوونهم بأنفسهم أمام القانون، وفي حقوق الجوار، ويهادونهم، ويقبلون دعواتهم الى محافلهم وولائهم، ويعودون مرضاهم، ويشيعون موتاهم، ويكشفون لهم أسرار العلوم والفنون والصنائع، ويمطونهم حقهم من الإجلال والاحترام، حتى إنه لتظهر كثير منهم في علوم الطب كان الخلفاء يتخذون أطباءهم منهم، ويندقون عليهم الأعطيات والهيئات. وقد ذكر التاريخ أن دورهم كانت تضارع قصور الخلفاء في سعتها وأبتها، وجمال مظهرها.

لا جرم أن الوعي العالمي الذي كان من أثره على المسلمين ماترى، يعتبر من المعجزات العلمية الخالدة للقرآن، ويزيده إعجازاً أن المسلمين الأولين عملوا به، مع أنهم في أول أدوارهم لم يكونوا على شيء من الثقافة الاجتماعية.

أين هذا لدى المسلمين مما كانت عليه الحال عند سواهم من الأمم التي كانت عريقة في المدنية كالآمة اليونانية والرومانية؟ فقد أثر عن أفلاطون قوله: «إني أشكر ربي على ثلاث: على أنه خلقني إنساناً ولم يخلقني حيواناً، وعلى أنه أوجدني في عهد سقراط، وعلى أنه قدر لي أن أكون يونانياً، ولم يقدر لي أن أكون من جنس آخر». أين هذا من قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بتقوى أو عمل صالح، كلكم لآدم وآدم من تراب»؟

وكان أرسطو الملقب بأمير الفلسفة تلميذ أفلاطون، يعتبر الأرقام من البهائم المجردة عن الحقوق الإنسانية؛ فأين هذا من قول عمر أمير المؤمنين: «كان أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا، يعنى بلالا الذي كان رقيقاً حبشياً»؟

هذه كلها آيات بينات «لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد».

محمد فريد ومري

إنما الأعمال بالنيات

لفضيلة الأستاذ الشيخ طه محمد الساكت

المدرس بالأزهر

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ؛ فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه » رواه الشيخان (١) .

أجمع الأئمة على جلالة هذا الحديث ، وعظيم خطره ، حتى قال الشافعى وأحمد وغيرهما : إنه ثلث الاسلام ؛ يمتنون أن الاسلام يفتنم أركاناً ثلاثة : عمل الجنان ، وقول اللسان ، وفعل الجوارح ؛ أو يريدون أنه أحد الأحاديث الثلاثة التى إليها ترد جميع الأحكام ؛ والثانى : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » ، رواه مسلم عن عائشة ؛ والثالث : « الحلال بئى والحرام بئى » ، الحديث ، رواه الشيخان عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما .

والحديث بعد هذا يرفع شأن النية ، ويعلى مكانها ، ويبين أنها من العمل بمنزلة الأس من البناء ، والروح من الجسد ، والعماد من البيت . وإذا قدرت القوانين النية قدرها ، وربطت بها آثارها ، وأدخلت فى الثواب أو العقاب حسابها ، فإن شريعة من الشرائع لم تبلغ مبلغ الاسلام فى تقدير النية والاعتداد بها . وحسبك أنه يهدر العمل إذا خلا من النية ، ويجعله ، أو يكاد ، ضرباً من ضروب اللغو أو الخطأ ، وهو لا يجزى على واحد منهما وإن أدى بطريق المصادفة إلى غاية حسنة ، فإن عاقب المخطئ إذا أفضى خطؤه إلى ضرر ، فلترية

(١) كتب هذا الحديث فى دار الهجرة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام . وإنما فاته المدد السابق ، وهو به ألتق ، لاضطراب البريد حيناً وتعطيله حيناً آخر ، والحمد لله إذ أنجى الكنانة من سبب اضطرابه ! .

اليقظة في النفوس وتحذيرها أن تتهاون أو تتغافل حتى تنحرف عن الجادة .
ومن هنا رفع القلم عن الصبي حتى يبلغ ، وعن المجنون حتى يُفِيْق ، وعن النائم
حتى يستيقظ ، كما رفع عن المخطيء والناسي والمسكره (١) ؛ لأن هؤلاء جميعاً
لانية لهم ؛ اللهم إلا الصبي إذا ميز فإنه يؤدب إذا أساء ، ويكافأ إذا أحسن ، وإن
تكن نيته دون من بلغ الحُلم ، على أن الإسلام لم يترك هذا الباب مفتوحاً
على مصراعيه ، يلجأ كل من تحدته نفسه بالتخلي عن التبعة ؛ بل وضع شروطاً
للخطأ والنسيان والإكراه تأخذ بتلايب كل مفتر أو متصنع (٢) . وإذا أردت
أن تبلغ الغاية في تقدير الإسلام للنية والاعتداد بها ، فانظر إليه إذ يفضل النية
المجردة من العمل على العمل المجرد من النية ، وهذا تأويل الأثر المشهور « نية
المؤمن خير من عمله » (٣) ، وذلك لأن العمل الذي خلا من النية كالصورة
لا حياة فيها ، والبنيان لا أساس له ، فلا خير منه يرتجى ولا ثمرة له ترتقب ؛ أما
النية الصالحة فهي تذكي صاحبها وتوجهه إلى صالح العمل وشيكا ؛ بل هي تلحقه
بالعاملين المخلصين إن صلحت ، وبالمفسدين إن فسدت ، وإن لم يصنع صاحبها
شيئاً . وشاهد هذا ما رواه الترمذي من حديث أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه ،
عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالا وعلماً
فهو يتقى فيه ربه ، ويصل فيه رحمه ، ويعلم لله فيه حقا ، فهذا بأفضل المنازل ؛ وعبد
رزقه الله علماً ولم يرزقه مالا ، فهو صادق النية ، يقول : لو أن لي مالا لعملت بعمل
فلان ، فهو بنيته ، فأجرهما سواء ؛ وعبد رزقه مالا ولم يرزقه علماً ، فهو يحبط في
ماله بغير علم ، لا يتقى فيه ربه ، ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقا ، فهذا
بأخبث المنازل ؛ وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علماً ، فهو يقول : لو أن لي مالا
لعملت فيه بعمل فلان ، فهو بنيته ، فوزرهما سواء . » وقد دلت صحاح الآثار على
أن من اعتاد عمل خير أو هم به فحسبه حابس من مرض أو عذر ، كتب الله له
ثواب ما نوى ؛ فمن ذلك ما رواه البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال

(١) في ذلك كله أحاديث ينظر تحقيقها في كشف الحفاء .

(٢) فلا يقبل من دعاوى الخطأ والنسيان والإكراه إلا ما دلت القرائن على صدقه .

(٣) حديث ضعيف ولكن له طرق تجمل فيه قوة . وله تأويلات أخرى ذكر بعضها

كشف الحفاء وإحياء العلوم .

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مرض العبد أو سافر ، كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً ، وما رواه البخاري أيضاً عن أنس رضي الله عنه قال : رجعنا من غزوة تبوك مع النبي صلى الله عليه وسلم فقال « إن أقواما خلقنا بالمدينة ، ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا ، حبسهم العذر » .

وكما يحجز العبدُ على الحسنة يهَمُّ بها فلم يستطعها ، يحجز كذلك على السيئة يريد هاثم يكف عنها خشية الله عز وجل ، وربما انتظم بخوفه من الله في سلك الطوائف السبعة التي يظلمها الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله .

ولما كانت النية تخلف قوة وضعفاً ، على حسب منزلة العبد في الإخلاص قرباً وبعد — اختلف الجزاء على الأعمال قلة وكثرة ، حتى جوزى المحسن على حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة لا يعلمها إلا الله عز وجل ؛ روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تصدق بعدل تمرة (١) من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه (٢) حتى تكون مثل الجبل » . وروى النسائي وغيره عن أبي هريرة أيضاً رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سبَقَ درهم مائة ألف درهم ، فقال رجل : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : رجل له مال كثير أخذ من عُرضه مائة ألف درهم تصدق بها ، ورجل ليس له إلا درهمان فأخذ أحدهما فتصدق به » .

ولعل في هذا الذي أسلفناه بياناً لفضل النية الصالحة ، وأنها جوهر العمل وروحه ، وتلك خلاصة الجملة الأولى « إنما الأعمال بالنيات » ؛ وتصورها صادقاً للجزاء العاملين ، وأنه على حسب نياتهم ، ومرتبة كل من الإخلاص ، وهم في ذلك درجات ، وتلك خلاصة الجملة الثانية « وإنما لكل امرئ ما نوى » .

(١) أى بقيمتها لأن العدل بالفتح : المثل ، وبالكسر : الحمل .

(٢) مهره وفيه لنتان : النتح فالضم فالتشديد ، والكسر فالسكون بوزن جرو .
والتقبل باليمين كناية عن الرضا .

ولما بتين صلوات الله وسلامه عليه أن الأعمال بحسب النيات ، وأن حظ العامل من عمله نيته ، خيراً كان العمل أو شراً - أوضح جزاء المخلصين والمرائين في مثال من الأعمال التي تتحد صورتها ويختلف حكمها والجزاء عليها باختلاف النية فيها إخلاصاً ورياءً وصلاًحاً وفساداً ، وكأنه يقول : إن سائر الأعمال على قياس هذا المثال . واختار التمثيل بالهجرة لما لها من عظيم الشأن في ذلك العهد ، ولعله تحدث الحديث في إبان الهجرة من مكة إلى المدينة والدعوة إليها . ويؤيد ذلك ما يروى أن رجلاً هاجر من مكة إلى المدينة لا يريد فضيلة الهجرة وإنما يريد أن يتزوج امرأة تدعى أم قيس ، وكان خطبها فأبت أن تزوجه حتى يهاجر إليها ، ففعل ، فكان يقال له مهاجر أم قيس ؛ فإن صح أن تكون القصة سبب هذا الحديث كما قيل ، كان التمثيل بالمرأة مقصوداً له صلى الله عليه وسلم جرياً على كريم عاداته من التعليم والارشاد من غير أن يجابه أحداً بما يكرهه حياءً وكرماً ؛ وإلا فالقصة من قبيل المصادفة ليس غير .

وقد وقعت الهجرة في الإسلام على وجهين : أولهما الانتقال من دار الخوف إلى دار الأمن كما في هجرتي الحبشة ، وابتداء الهجرة من مكة إلى المدينة ؛ والثاني الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان ، وذلك بعد أن استقر النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهاجر إليه من أمكنه ذلك من المسلمين ، وكانت الهجرة إذ ذاك تختص بالانتقال إلى المدينة إلى أن فتحت مكة فانقطع الاختصاص وبقي عموم الانتقال من دار الكفر لمن قدر عليه واجباً .

واتحاد الجزاء والشرط مما يدل على المبالغة في التعظيم أو التحقير ، فكأنه صلوات الله وسلامه عليه يقول : من هاجر لا يبتغي إلا وجه الله عز وجل لا أجد له جزاء إلا أن أكله إليه سبحانه ، فهو وليه وحسبه « والله ذو الفضل العظيم » ؛ ومن هاجر لا يبتغي إلا دنيا يصيبها أو شهوة يقضيها فحسبه ضياعاً وخزياً أن وكله الله إلى غيره ففسر الدنيا والآخرة « ذلك هو الخسران المبين » .

وبعد ، فإن مدار الفوز والسعادة على العمل ، ومدار العمل على الإخلاص ؛ فمن عجز عن العمل الصالح فلن يعجز عن النية الصالحة ، والرغبة الصادقة ؛ ورب نية فاقت عملاً ، ورب رغبة مهدت للخير سبلاً .

ادب الجدل في القرآن الكريم

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ عبد الرحيم العدوى

شيخ معهد فؤاد الاول بأسوط

ما دمنا في هذه الحياة فالمنازعات بين الناس باقية لا تزول ، وما دام الملوان يتعاقبان فقانون تنازع البقاء سرمدى خالد يخضع الناس له ، ويذودون عنه باليد واللسان والفكر والجنان . فالجدال شأن اجتماعى لا يمكن أن تخلو منه أمة أو يتخلى عنه شعب ؛ ذلك لأن الناس مختلفون في المعتقدات والآراء ، متباينون في الأغراض والميول ؛ وما الحروب الطاحنة بين الأمم في هذا العصر إلا وليدة اختلاف الآراء ، ونتيجة تشعب الأفكار .

وقد أشار القرآن الكريم الى هذه الظاهرة الطبيعية في سورة هود بقوله : «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم» .

وليس كل خلاف في هذه الحياة شرا محضا ، فكثير من أفرادهِ وسيلة للخير ومراقبة للنفع العام ، إذا كان الغرض به الوصول الى الحق وتمحيص وجه الصواب . انظر الى الشورى والمجالس النيابية ، فان الخلاف فى الفكر فيها دعامة الاصلاح الاجتماعى ، وأُس العمران فى هذه الحياة .

والجدل والمناظرة كغيرهما من الشؤون الاجتماعية ، إذا لم تحط بقيود انفرط عقدها ، وإذا لم تصحبها التحفظات ضاعت ثمرتها .

وكما أن للقرآن الكريم طريقته الخاصة فى إقامة الحجة والبرهان ، وله أسلوبه الخاص فى طريقة الاستدلال ، فله أيضا مسلكه الخاص فى أدب الجدل ومراعاة شعور الخصوم ؛ أدب ينفق مع مكانته السامية ، ومراعاة تناسب مع الرسول الكريم الذى بلغه الى الناس .

وقد علم الله خطر الجدل إذا لم يقصد به الوصول إلى الحق ، فذكر لنا في كتابه الكريم الأصل العام الذي يجب أن يكون عليه الحجاج ، والأساس الذي يبنى عليه المؤمن جدله ومناظرته ، من حسن الأسلوب ولين الجانب ، وعف القول ، والإغضاء عن الهفوات ، والصفح عن الزلات ؛ اقرأ إن شئت قوله تعالى في سورة النحل :

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هي أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين . وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . » .

تجده قد رسم فيه العلي القدير لرسوله الكريم الدستور الذي يجب أن يترسم خطاه في دعوته ، فأمره بأن يقيم الدعوة على الحكمة والمواظب الآخاذة بالقلوب لحسنها ، ويخاصم ويجادل ولكن بالطريقة المثلث التي تضم الخصم إلى ساحته وتقربه من مبادئه . ثم حجب إليه طريقة العفو والصفح ، وبصره بمكانة الصبر بقوله « وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . » .

ثم استمع إلى قول الله عز وجل في سورة العنكبوت « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هي أحسن ، وقوله تعالى في سورة فصلت « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هي أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، وقوله تعالى لموسى وهارون « اذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولاً ليلاً لئله يتذكر أو يخشى . » .

استمع إلى كل ذلك تعرف كيف دعا القرآن المؤمنين إلى سلوك طريق الحسنى في حجاجهم ، وبين لهم ثمراته الدانية من أنه يقلب العدو صديقاً ، والخصم الألد أخاً حميماً وولياً ونصيراً .

وقد حذر القرآن المؤمنين من السب والشتم والخوض فى الباطل والتلفظ بساقت القول ، ولو كان ذلك فى أصنام المشركين التى لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع ، سداً للذرائع ، ووقاية من سوء أدب المشركين ، فقال « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم » . ونص القرآن على من يجادل

بالباطل ليدحض به الحق ، ليلفت الناس الى أن الغاية التي يجب أن تقصد من الجدل هي ظهور الحق الذي ينفع الناس به ، والذي يعود خيره على الجماعة الإنسانية كافة ، كما حط من شأن الذين يتكبرون في جدالهم ويسخرون من خصومهم ، ويعتقدون بما لهم من مكانة مزيفة وسلطان مؤقت أنهم أصحاب القول الذي لا يرفض ، والرأى الذي لا يمانع : وفي ذلك يقول القرآن الكريم : « وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق » . ويقول : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد . كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضلله ويهديه الى عذاب السعير » .

المثل العليا للجدل :

وقد قص الله علينا من باب الذكرى والاعتبار المثل العليا للخصوم الشرفاء ، ووضع بين أيدينا صورة واضحة للتجادلين بالحق المعتدلين في خصومتهم المؤدبين في جدالهم .

فقص علينا جدال ابراهيم عليه السلام مع أبيه فقال « واذكر في الكتاب ابراهيم إنه كان صديقاً نبياً ، إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً . يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سوياً . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً . يا أبت إني أخاف أن يمسَّكَ عذاب من الرحمن فتكونَ للشيطان ولياً » .

هذا الأسلوب المؤدب هو أسلوب النبوة المخلصة ، أو بالأحرى أسلوب النبوة الكاملة ، يفيض عطفاً ، ويسيل رقة وحناناً ، يحذر في لطف ، وينذر في لين ، ويعرف مكانة الأبوة فيعطيها ما لها من حقوق ، ويهب لها ما تستحقه من رفعة واحترام .

فليت شعري ماذا كان جواب الأبوة ، وهي في العادة موطن الرحمة والشفقة ، ومحل العطف والحدب ؟ إنها انقلبت شواظاً من نار وتحولت لظى من جحيم ، وانفرط منها عقد الرحمة فعاد قسوة في فظاظه ، وغلظة في جفاء !

وإن أردت البرهان فاستمع إلى قول تلك الأبوة الظالمة : « قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم ؟ لننم تنة لأرجمتك وأهجرني مليا » فيقابل إبراهيم عليه السلام هذه الشدة باللين والإحسان ، فيقول : « سلام عليك ، سأستغفر لك ربى إنه كان بنى حفيا » . فأى نفس تلك التى صدر عنها هذا التواضع ، وأى فم ذلك الذى نطق بالآيات البينات فى مقابلة الاساءة بالاحسان ؟ إنها نفس إبراهيم عليه السلام ، وإنه فم خليل الرحمن وكفى .

وقص القرآن علينا أيضا جدال نوح عليه السلام مع قومه ، فقال : « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إلى لكم نذير مبين ، أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم » فقال الملا الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بآدى الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين » .

هذا أحسن تخاطب من قوم نوح لنوح . وهو كما نرى بنم عن الكبرياء والغطرسة ، ويفيض بالسخرية والاستهزاء ، ويرمى البراء بأخس الأوصاف وأرذل الألقاب ، ويسم نوحا ومن اتبعه بالكذب والزور .

فانظر كيف كان رد نوح على هذه البذاءة وذلك الكبرياء : قال « يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربى وآتاني رحمة من عنده فعُصِّيت عليكم أنزل مكموها وأتم لهاكارهون ، ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون . ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون . ولا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقوم إنى ملك ، ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتهم الله خيرا ، الله أعلم بما فى أنفسهم ، إنى إذا لمن الظالمين » .

ألم تر إلى نوح عليه السلام كيف رد على فظاظتهم وغلظتهم بأبلغ ما فى الكلام من ألفاظ اللين ، وصار يضع بين أيديهم القوانين الاجتماعية والمبادئ الدينية فى أخصر لفظ وأرق معنى ، ويصور كل ذلك بأبلغ تصوير ، ويكشف عنه الغطاء ويجليه لكل ذى بصيرة ، فبين لهم أن رحمة الله بعباده قد تخفى على من لم يستعد لفهمها والاستفادة منها ، وأن عقائد الدين لا تلقن تلقينا ولا تملى على الناس

إملاء ولو مع كره ؛ بل هي سهلة جذابة تصل إلى القلوب السليمة لا حجاب يمنعها ، ولا حاجز يتوق سيرها إليها ؛ وأن الأنبياء سفراء عن ربهم يبلغون عباده أوامره ، وهو وحده الذي يعطيهم الأجر ويقدر لهم الجزاء ، فليس على العباد ضرائب مالية ولا تبعات مادية ؛ وأن من لجأ إلى حظيرة الإيمان كيف يطرد ، وكيف ينتقص قدره ، وقد يكون له عند الله الزلف وحسن المآب .

فهو كما ترى أسلوب تواضع ولين ، وأسلوب وعظ حسن وتذكير ؛ وما كان هود عليه السلام بأسعد حظاً من إخوانه الرسل السابقين ؛ فقد قال له قومه : يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء .

أما صالح في قومه ثمود ، فكان غريباً بين أمة ، ووحيداً في شعب .

وكم لقي شعيب عليه السلام وهو خطيب الأنبياء من أهل مدين من الشدة ، وكم قوبل بسوء ! نهام عن نقص المكائيل والموازين وكانوا على ذلك مكبين ، وذكرهم بما لقي قوم نوح وقوم هود وقوم صالح من العذاب المهيئ . فاستمع لردهم عليه ، قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفاً ، ولولا رهطك لرجمناك ، وما أنت علينا بعزيز ، فيقول شعيب : أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهيراً ؟ إن ربي بما تعملون محيط .

أما موسى مع فرعون في جدالهما العجيب العجيب : لين ورقة من موسى ، وكبرياء وصلف من فرعون ؛ إذ يقول لموسى : لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين ، فيقول موسى متلفظاً : أو لو جئتك بشيء مبين ، ؟

هذه هي المثل العليا في أدب الجدل ، لجدير بكل من يتصدى للجدل العلمي أن يترسم خطاها في الذود عن الحق ، ويتخذها إماماً له في حماية المبادئ ، فلا ينبغي أن يشتط الإنسان مع أخيه الإنسان ، ولأن يواجهه بسقط القول وبذاءة اللسان ؛ ولا ينبغي للره أن يعتد بمكانته في المجتمع فيغضى عن رأى خصمه لأنه أقل منه مكانة وأضعف جنداً ، فإن الرأى بقيمته لا بقيمته صاحبه ؛ ولا ينبغي لإنسان كائناً من كان أن يفرض على الناس رأيه ، فإن الحق مشاع والحقيقة مطلب الجميع .

وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لا تتعلم العلم ثلاث ، ولا تتركه ثلاث ؛ لا تتعلمه لتمازى به وتجادل ، ولا لتراعى به ، ولا لتباهى به ؛ ولا تتركه حياء من طلبه ، ولا زهادة فيه . ولا رضا بالجهل . وقال غلام الأخلاق : إن الباعث على الجدل هو الترفع بإظهار العلم والفضل ، والتهجم على الغير بإظهار نقصه ، وهما شہوتان باطنتان للنفس ، بإظهار الفضل من قبيل تركية النفس ، وتقصيص الغير من مقتضيات طبع السبعية الكامن في نفس الإنسان ، وكل ذلك من الصفات المذمومة التي يقويها الجدل ، وينمها غمط الحقوق .

وأكثر ما يكون الجدل بالباطل في العقائد والمذاهب ؛ وقد ذكر الإمام الغزالي في كتابه الإحياء أن من أدب المجادل الذي يقصد بمجذاله وجه الله وإحقاق الحق ، أن يكون جداله مع خصمه في خلوة لا في حفل جامع ، فإن الخلوة أجمع للفهم ، وأحرى بصفاء الذهن ودرك الحق ، وفي حضور الجمع الكثير ما يحرك دواعي الرياء ، ويوجب الحرص على نصرة كل واحد نفسه محققا كان أم مبطلا ، فحرصهم إذاً على المحافل والجامع ليس لله ولا لوجه الحق .

فقد يخلو الواحد منهم بصاحبه مدة طويلة فلا يكلمه ، وربما اقترح عليه صاحبه بعض الأمور فلا يجيب . فإذا انتظم مجمع أو تكامل عقد محفل ، لم يغادر في قوس الاحتياال منزعاً حتى يكون هو المختص بالكلام وفارس الميدان .

ومن أدب المجادل أيضاً أن يكون في طلب الحق كناشد الضالة ؛ سواء لديه أن تظهر الضالة على يديه أو على يد من يعاونه ، فيرى رفيقه معينا لا خصما ، ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له طريق المحجة .

فقد اعترضت امرأة من قریش عمر بن الخطاب وهو على المنبر ينهى الناس عن التغالى في مهور النساء ، فقالت له : أيعطينا الله ويمنعنا عمر ! يقول الله تعالى : وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ، فقال عمر : اللهم غفراً ! كل الناس أفقه من عمر ؟

في مطلع العام الجديد :

الأشهر الحرم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدني
المدرس بكلية الشريعة

كان فيما ورثه العرب من ملة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، احترام أشهر أربعة من شهور السنة القمرية، وتقديسها تقديساً عظيماً؛ فإذا كانوا في شهر منها تركوا القتال إن كانوا في قتال، وأجلوا التّرات إن كانت لهم ترات، ونشروا الأمن والسلام في ربوع الجزيرة وأرجائها، حتى كان الواحد منهم يلقي في الحرم وغيره قاتل أبيه أو أخيه، على خلوة وتمكن، فلا يمد يده إليه بسوء، وهم القوم الذين عرفوا بالضراوة في سفك الدماء، والتسك الشديد بالآخذ بالتأثر.

ورثوا ذلك عن ملة إبراهيم وإسماعيل، وعاشوا عليه زماناً لا يعشون به، ولا يغيرون فيه؛ فلما طال عليهم الأمد، وبعد العهد بينهم وبين هذه الملة الأولى، وهانت عليهم - في سبيل أهوائهم ومنافعهم - مناسكهم ومشاعرهم، كان فيما عبثوا به، وبدلوا فيه، هذه الأشهر الحرم، فأفسدوها بالنسيء، وأحلوا منها ما حرّم الله، يلغونها تارة، ويؤجلونها أو بعضها تارات أخرى.

وليس من غرضنا الآن بيان النسيء، وما كان من شأنهم فيه، وإنما نريد أن نقول: إن الشريعة الإسلامية قد أقرت هذا التشريع المتوارث عن إبراهيم وإسماعيل، الثابت بطريق التواتر القولي والعمل إلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم، جرياً على سنتها في الإبقاء على كل صلاح، وعدم التعرض بالإلغاء أو التعديل إلا إلى ما كان من فساد، أو اقترن به فساد.

يقول الله عز وجل : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حُرُمٌ . ذلك الدين القيم ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم » (١) . وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم هذه الأشهر الأربعة في خطبته التي خطبها في حجة الوداع فقال بعد أن تلا هذه الآية : « ثلاثة متواليات ، وواحد فرد : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذي بين جمادى وشعبان » (٢) . وبذلك أصبحت السنة القمرية الإسلامية التي أنبى على حسابها كثير من أحكام التشريع مبدوءة بشهر حرام ، هو المحرم ، ومختومة بشهر حرام ، هو ذو الحجة ، ويتخللها فيما بين ذلك شهران آخران .



قضى الله - جلّت حكمته - أن يفضل بعض ما خلق على بعض ، لأسرار يعلمها هو ، ولا سبيل لنا إلى إدراكها علي صورة من الجزم والتحديد ، تلك سنته في الأشخاص والأماكن والأزمان ، يفضل بعضاً على بعض ، ويميز بالتشريع والتعبد شيئاً على شيء ؛ ومصداق ذلك قوله تعالى : « وربك يخلق ما يشاء ويختار » (٣) ؛ فبما أنه في أصل الخلق والتكوين مختار ، يخلق القوى والضعيف ، والذكي والغبي ، والجميل والدميم ، وذا الجرامة والشجاعة ، والجبان الفروقة (٤) ، ويميز بلاداً عن بلاد بما فيها من جبال عالية ، أو أنهار جارية ، أو عيون صافية ، ويجعل بعض الأرض خصباً ، وبعضها أجاديب ، ويطوى بعضاً على ماشاء من معادن وثروات وكنوز ، ويجعل بعضاً خلاء عفاء ، إلى غير ذلك مما نرى بأعيننا في جميع نواحي الحياة ؛ كذلك هو مختار فيما وراء الخلق والإبداع من التمييز والتفضيل ، يجعل لبعض الأماكن حرمة وقداسة ، ولبعض الأزمان حرمة وقداسة ، فيكون ذلك اصطفاً لها واختياراً ، بمثابة اختياره واصطفائه تعالى لبعض من خلق من الأشخاص .

(١) الآية ٣٦ من سورة التوبة .

(٢) رواه الشيخان وغيرهما من حديث أبي بكرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قاله

في منى عام حجة الوداع . (٣) ٦٨ / النصص

(٤) الفروقة : الشديد الفرع . يستوى فيه الذكر والمؤنث .

وقد أرشد القرآن الكريم إل هذه المعنى الذى من شأنه أن يطمئن قلوب المؤمنين فى كثير من المواضع التى تكلم فيها عما خلق الله وعما شرع : « لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون » ^(١) « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » ^(٢) « آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا » ^(٣) « لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما ، إنه عليم قدير » ^(٤) « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ^(٥) .

وقد أرشد إلى هذا المعنى أيضاً فى شأن الشهور وما اصطفاه الله منها ، فذكر لنا أن عدة الشهور عند الله ، أى فى حقيقة الأمر وواقعه ، اثنا عشر شهراً ، وأن ذلك هو شأنها فى كتاب الله ، أى فى نظام خلقه وما قدره للدينا من سنن تكوينية يوم خلق السموات والأرض ، وإنما مسمى هذا النظام كتابا لأنه ثابت متقرر ثبات ما يكتب ويسجل : وذكر بعد هذا أن الله قد اختار من بينها هذه الأشهر وميزها ، وساق اللفظ الدال على ذلك مساقا يشعر بأن هذه الإرادة وهذا التفضيل كانا منذ الأزل ، فخلقت الشهور عامة ، وميز منها أربعة حرم ، بميزة خاصة .

هذا هو الأصل الذى يجب أن يكون عليه المعول فى تعليل امتياز هذه الأشهر بما ميزها الله به ، وأن يصار إليه فى تعليل كل امتياز فى الخلق أو تفضيل جرت به حكمة العليم القدير ؛ ولكن هذا لا يحول بيننا وبين النظر فيما يصاحب هذه التدبيرات الإلهية العليا من فوائد للبشر نراها ونحس بها ، وتدركها عقولنا فنزداد بها إيمانا على إيمان ، ويقعنا إلى يقين .



فإذا أردنا أن نطبق هذا على « الأشهر الحرم » ، وأن نعلم الفوائد التى ترتبت على هذا التشريع فى شأنها ؛ برزت لنا فائدتان جليلتان ، كماهما تعود على بنى

(١) ٢٣ الأنبياء .

(٢) ٦٦ آل عمران .

(٣) ١١ النساء .

(٤) ٤٩ - ٥٠ التورى .

(٥) ١٢٤ الأنعام

الإنسان بالتهذيب والسمو، وتعلم في المجتمع أظافر الشر والفساد إلى حد بعيد:
فأما الفائدة الأولى : فهي التهيئة لأعظم العبادات التي شرعها الله لعباده
وهي حج البيت واعتباره .

لقد ذكر الحج بين أركان الإسلام الخمسة في حديث « بنى الإسلام على خمس، وجاء ذكره في آخرها، وليس ذلك لأنه آخر هذه الأركان منزلة، وأقلها شأنًا، ولكن لأنه أعلاها في مراتب الترقى والوصول إلى السكّال؛ فإن أركان الإسلام الأربعة التي تقدمته كلها تمهيد له وإعداد بالتطهير والتزكية، حتى إذا أقبل المرء إليه كان صافي النفس، مطمئن القلب، راسخ الإيمان . ولذلك كان الحج المقبول عند الله بمثابة خلق الله لصاحبه من جديد : « من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، ^(١) فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله هي الخطوة الأولى التي يتقدم بها المؤمن فيعترف بأصل العلاقة بينه وبين ربه ورسول ربه، ومع ما لهذا الاعتراف من قيمة في ذاته فهو لا يكلف صاحبه بذلاً ولا تضحية، ولا يستغرق منه جهداً ولا وقتاً، بل إن فيه لذوى البصائر وأولى الأبواب لذة هي لذة العرفان، وجمالاً هو جمال الإدراك للحق . فإذا آمن بذلك قلبه كانت الخطوة التالية لهذا الإيمان أن يتوجه إلى هذا الإله الذي آمن به، واعترف بواحدانيته، خاشعاً مناجياً في صلاة رسمها له، وحدد له أركانها ووسيلتها، وشرع له قبلتها، وهذه عبادة مع سموها، وجلالة شأنها، لا تكلف صاحبها جهداً كبيراً، ولا تأخذ منه وقتاً طويلاً، فإن أدنى ما تصح به صلاة الفريضة لا يتجاوز بضع دقائق، وما زاد على ذلك فهو كمال . ثم تأتي بعد ذلك الخطوة الثالثة، وفيها شيء من التضحية والبذل؛ ذلك أن يؤدي زكاة ماله فيقتطع منه جزءاً معيناً طيبة به نفسه ليعطيه الفقراء والمساكين؛ وبهذا الركن الثالث تكون أول تربية إيجابية، وتزكية نفسية من الشح والاستئثار يظهر الله بها القلوب، ولكنها على ذلك ليست إلا تضحية مالية بنسبة ضئيلة تفل عن أصغر ضريبة مرت أهل الأموال على أدائها في أي بلد من بلاد الله وهم

(١) أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة عن رسول الله صل الله عليه وسلم .

لا يشعرون . ثم تأتى بعد ذلك الخطوة الرابعة ، وهى صوم شهر كامل متتابعة أيامه ، يتخلل فيه المؤمن عن طعامه وشرابه وشهوته إيماناً بالله ، واحتساباً لثوابه ، ويصير فيه على كثير مما يقاسى : وتلك منزلة من التضحية أعلى من التضحية فى الزكاة ؛ لأن التضحية بشيء من النفس أعز وأغلى من التضحية بشيء من المال !

أما الفريضة الخامسة وهى الحج ، ففيها ذلك كله على أبلغ وجه ، وأكمل صورة : فيها الاعتراف بالله والإيمان به وبرسوله الى حد الترك لكل ما سواهما من المال والأهل والولد والمتاع ؛ فيها التوجه الى الله ، لا بواسطة قبلة بينه وبينها آلاف الأميال ، ولكن بالرحيل الى هذه القبلة نفسها ؛ فيها بذل الكثير من المال عن رضى وسخاء ؛ فيها التضحية بالنفس ، واحتمال مشاق السفر والاغتراب ، والتحلل من سلطان العادة فى متع العيش ولذاته ؛ فيها خلع ثياب الدأب والعمل والسكدح ، وارتداء ثياب التطهر والاحرام والتسليم ؛ وفيها الى ذلك كله زيارة الله فى بيته ، والمثول بين يديه فى المكان الذى قدسه ، والزمان الذى قدسه .

هكذا شأن فريضة الحج ؛ كل ما قبلها بمثابة التمهيد لها ؛ مثل العبد فيها كمثل امرئ أحب ملكاً عظيماً ، ودان له وهو فى طرف من أطراف ملكه بالخضوع والولاء ، ينفذ أوامره ، ويخلص فى خدمته ، ويقوم بكل ما عليه من واجبات فى سبيله ، ثم يستدعيه هذا الملك العظيم ، فيهرول إليه مسرعاً ، ويخلع نفسه من كل ما هو فيه ، ويأخذ لهذه الزيارة التى ستم فى بيت الملك أهبتها ، فيتزين ويتطيب ، ويقطع المراحل الطوال حتى يصل الى غايته ، ويحظى بأمنيته ! والله المثل الأعلى ، وهو العزيز الحكيم .

فإذا كان للحج هذه المنزلة الكبرى من بين أركان الاسلام ، وكان الوافدون الى المسجد الحرام من كل فج عميق هم ضيوف الله وزواره ، فما أجدر الأشهر التى تقع فيها هذه الزيارة بأن تحرم وتقدس ، ويبلغ الأمن فيها مداه ، كما جعل البيت مثابة للناس وأمناً !

ومن هنا تلاقى « الأشهر الحرم » ، بواقيت الحج والعمرة ؛ فذو القعدة شهر الإعداد والتأهب ، وذو الحجة شهر الوصول والأداء ، والمحرم فيه تتم العودة والإياب ؛ أما رجب الفرد فذلك شهر في وسط العام يطيب فيه لكثير من الزائرين الاعتبار .

هذه هي الفائدة الأولى التي قارنت هذا التشريع الإلهي الحكيم .

أما الفائدة الثانية : ففيها تربية وتهذيب للنفوس من جانب آخر غير جانب الحج والعمرة وزيارة الله في بيته ؛ ذلك أن ما فطر عليه الناس من الانسياق الى عوامل التنزع والخلاف ، يفضى بهم في كثير من الأحيان الى الحزب والقتال ، ومحاولة كل فريق أن ينتصر على خصمه بكل وسيلة يستطيعها ؛ فإذا كان للناس أشهر معدودة في كل عام ، يقفون فيها خصوماتهم ، ويكفون عن نزاعهم وحروبهم ، ويعيدون فيها السيوف الى أغمادها ؛ فإن ذلك سيعود على بنى الإنسان بتخفيف كثير من ويل الحرب وسفك الدماء ، وربما سكنت في هذه الفترة نفوس ، وهدأت قلوب ، ووجدت أسباب النزاع جوا هادئاً خالياً من قعقة السلاح ، فاستراحوا من الحرب ، وحفظوا بذلك المهج والاموال والجهود !

تصوروا أن الحريين العالميتين اللتين شهدهما هذا الجيل في أقل من ثلاثين عاماً قد بقيت كل منهما مضطربة النار بضعة أعوام ، تنصارع فيها القوى البشرية وتتناحر ، وتفتن في ابتداع أسباب الهلاك والاستبصال ، حتى اندكت بلاد ، وتزلزلت أمم ، وزهقت ملايين من الأرواح ، وبددت ملايين من الأموال ، وضيعت قوى وجهود كان البشر في حاجة إليها ؛ فلو أن للإنسانية فترة كهذه الفترة التي يقررها الإسلام « بالأشهر الحرم » ، تعتمد فيها السيوف ، وتسكت فيها المدافع ، وتسكن فيها الطائرات والقاذفات وما إليها ، أفما كان هذا بلسماً يشفي الجراح ، وروحاً يسرى إلى القلوب والنفوس ، ولعله يفتح إلى السلام أبواباً ، ويهdy إلى التفاهم وحسم الخلاف بالتى هى أحسن !

إن الناس إذا كفّوا عن الخصومات والحروب في هذه الأشهر الحرم خضوعاً لأمر الله ، ونزولاً على حكمه ، سيدكرون أن الذى أمرهم بذلك ،

ودعاهم إليه ، وحكم بتقديس هذه الأشهر ، قد أمرهم بأشياء أخرى فيها مصلحتهم وفيها سعادتهم ؛ ذلك أن يمتنعوا مبادئ الحق والعدل والإنصاف ، وأن يكونوا متعاونين في هذه الحياة على إسعاد أنفسهم ، لا على خلق أسباب الشقاء والنزاع ، وإذكائها بالحروب والغارات وسفك الدماء ؛ فإذا ذكروا ذلك تقاربت مسافات الخلف ، وتعاطفت القلوب إلى السلام والخير ، وأنصت الآذان إلى دعوة الله التي يناشد بها البشر في كتابه الكريم حيث يقول : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، ^(١) وعلى لسان رسوله الأمين حيث يقول : « أيها الناس ! إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ؛ كلكم لأدم ، وأدم من تراب ، ^(٢) ،

أما والله لو وفق الناس إلى أن يفقهوا دعوة الإسلام على حقيقتها ، لكان لهم في الحياة شأن غير هذا الشأن ، ولو صلوا ما انقطع من أسباب السعادة والأمن والسلام ؟

حكمة عمر

توفي رجل بجوار أبي ذر الغفاري ، وكان مسرفاً على نفسه ، فتحامي الناس جنازته ، وبلغ ذلك عمر ، فأمر أهله أن يُعلموه متى فرغوا من تجهيزه ، ففعلوا ، فشهد جنازته والناس معه ، فلما دُفن وقف على قبره وقال : رحمك الله أبا فلان ، فلقد صحبت عمرك بالتوحيد ، وعفرت لله وجهك بالسجود ، فان قالوا مذهب وذو خطايا ، فمَن منا غير مذهب وذو خطايا ؟

وأحسن ما قيل في الرجاء هذا البيت :

وإني لأرجو الله حتى كأني أرى بجميل الظن ما الله صانع

(١) ١٣ / الحجرات .

(٢) من خطبته صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع .

نظر الاسلام الى النفاق والمنافقين

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغي

النفاق داء قديم ابتلى به الناس ، وأغلب الظن أنه نشأ مع الانسان ؛ فقد فطر الله الناس مختلفي الطباع قوة وضعفاً ، وشجاعة وجبناً ؛ والنفاق في أكثر الأحيان يلزم ذوي النفوس الضعيفة التي يسهل تلويها بوسائل الإغواء . وقد عرّف العلماء النفاق بعبارات كثيرة . فعن الحسن : النفاق اختلاف السر والعلانية ، والقول والعمل ، والمدخل والمخرج . وعن عبد الله بن جراد : المنافق يملك عينه يبيكي كما يشاء . قال المناوي لأنه ذو لونين باطن وظاهر ، ويقين وشك ، وإخلاص ورياء ، وصدق وكذب ، وصبر وجذع . وإن أشهر هذه العبارات وأجمعها ما عرفه به بعضهم ، وهو : أن يظهر الإنسان خلاف ما يظن . فإذا أظهر الإنسان خلاف ما أبطن من عقيدة التوحيد بالله وبأنبيائه وباليوم الآخر ، فهو منافق كافر ؛ وإذا أظهر خلاف ما أبطن من غير ذلك ، فهو منافق مخادع .

وعلى هذا فالرياء ، والخداع ، والتدليس ، والمصانعة ، والمداينة : كلها أفراد لهذا الجنس البغيض ؛ أعنى النفاق .

وقد تحدث الإسلام كثيراً عن نوع خاص من النفاق ، وهو النفاق في العقائد ؛ وهو أن يظهر الإنسان الإسلام ويطن الكفر ؛ لأنه أشد أنواعه خطراً على الأمة . والمنافقون على هذا الوجه من شر ما تبتلى بهم الأمم والجماعات ؛ لأنهم يظاهرون أعداءها ، ويدلونهم على مواطن الضعف فيها ، وهم على بينة منها .

وقد قسا القرآن وقست السنة في عقاب هؤلاء ، وسلّكهم في نظام الكافرين ؛ قال الله تعالى : « إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً » . بل جعلهم القرآن شراً من الكافرين ؛ قال تعالى : « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيراً » . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « تجد من شرار

الناس يوم القيامة ذا الوجهين : الذى يأتى هولاء بوجه ، وهؤلاء بوجه . . وعن أنى فضالة قال : كان بعض المهاجرين يقول : والله ما أخاف المسلم ولا أخاف الكافر ؛ أما المسلم فيحجزه إسلامه ، وأما الكافر فقد أذله الله عز وجل ، ولكن كيف لى بالمنافق ؟

وقد يصح تسمية هؤلاء « الطابور الخامس » بلغة العصر الحديث . وقد أدركت الأمم شر هذا الطابور وفرضت عليه أقصى العقوبات .

وقد استنكر الاسلام النفاق فى الأقوال والأعمال فى أى صورة من صورته وعلى أى وجه من وجوهه ، لسوء أثره فى حياة الأمم والأفراد . فالنفاق رذيلة اجتماعية خطيرة ، ترفع الثقة بين الناس فى شئونهم ، وبالتالي تذهب بالتعاون بينهم ، وإذا انعدمت الثقة بين الناس وفقد بينهم التعاون ، وقفت عجلة الحياة فيهم ، وركدت ريجهم ، وحل بهم الجمود والبوار . فعلى هذين الركنين ، أعنى الثقة والتعاون ، تقوم صروح التجارة والصناعة والعلم ، ومظاهر الحضارة عامة .

وبهذين الجناحين طارت أمم فى سبيل المجد وعزت وسادت ، وبدونهما تخلف عن ركب الحضارة من الأمم من تخلف .

والنفاق فى ذاته خلق ذميم ، وهو مدعاة لطائفة أخرى من الأخلاق الذميمة : كالغدر ، والكذب ، والخيانة ، والرشوة ، والتجسس ، والنميمة ، والفجور ، والجبن ؛ وهذه كلها أدواء تفتك بجسم الأمة فتحيلها هيكلًا متخاذلاً ، لا تنهض برسالتها ، ولا تصلح لمنافسة الأمم ومزاحمتها .

لهذا كله أنكر الإسلام النفاق ، وكره المنافقين ، وصورهم فى أشنع الصور وأقبحها ، وأنذرهم شديد العذاب وسوء المآب ، ولم يعتد بأعمالهم لمجانبتها الإخلاص والقصد الحسن الى ثواب الله وجزائه .

قال تعالى : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » . وقال تعالى : « وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها ، هم فيها ، ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم » . وقال تعالى : « يأياها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير » . وقال تعالى : « والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » . وعن النبى صلى الله عليه وسلم : « إن المنافق لىصلى فيكذبه الله عز وجل ، ويصوم فيكذبه الله عز وجل ، ويتصدق فيكذبه الله ، ويقاقل فيقتل فيجعل فى

النار.. وعنه عليه السلام : « المنافق يعبد هواه ، لا يهوى شيئاً إلا ركه » . وعن عمر رضى الله عنه : « ما أخاف عليكم أحد رجلين : رجل مؤمن قد تبين إيمانه ، ورجل كافر قد تبين كفره ، ولكن أخاف عليكم منافقاً يتعذب بالإيمان ويعمل بغيره » . وعن عبد الله بن عمر : أنه رأى الناس يدخلون المسجد فقال مستفهما : إن رأوا منكراً أنكروه وإن رأوا معروفاً أمروا به ؟ قالوا : لا ، قال فما يصنعون ؟ قالوا : يمدحونه ثم يسبونهم إذا خرجوا من عنده . فقال ابن عمر : إن كنا لنعد النفاق على عهد رسول الله فيما دون هذا . وعن بلال بن سعد : المنافق يقول بما يعرف ، ويعمل بما ينكر .

هذا نظر الاسلام الى النفاق والمنافقين ، وهذا موقفه منهم ؛ وإنه لموقف حازم وصارم هم جديرون به : لأنهم جرائيم في أجسام الأمم يقتكون بها ويسلبونها أمنها واستقرارها .

وقد راجت سوق النفاق في هذا العصر ، وساعد على رواجها روح التسلط في الأمم ، وشهوة الأفراد القوية في الربح المادى من أى وجه وبكل حيلة ، فأصبحت الأمم القوية تخادع الأمم الضعيفة عن حرياتهما ، وتساوئهما في مصائرها ، وأصبح الأفراد يخادعون بعضهم بعضاً ، وشاع النفاق في كل شأن من شؤون الناس ، وصار غير مستغرب ولا مستنكر أن يعد الرجل ولا يثق ، ويستقرض ولا يؤدى ، ويقول ولا يعمل ، ويهين . وكان من أمانيه أن يعزى ، ويتظاهر بالصدقة وقلبه مملوء بالحق والضعفة .

وقد ضاقت الأمم والأفراد ذرعاً بهذه الحال ؛ إذ تجلت لهم أخطارها ، وتكشفت مآسيها ، فساءت علاقات الأمم وساورتها الشكوك والريب ، وقلت ثقتهما بالعبود والمواثيق ، ونظر بعضها الى بعض نظرة الحذر والوجل ، وكذلك نظر الأفراد بعضهم الى بعض .

وحاولت المدنية الحديثة أن تبرر النفاق وتضفي عليه ألواناً براقاً تُخفى شينه وتغشى عيبه ، فسمته مرة « دبلوماسية » ، ومرة « لباقة » ، وثالثة « مرونة » ، ورابعة « مجاملة » الى غير ذلك من الاسماء ؛ ولكنها محاولة فاشلة ، هيئات أن تقلب حقيقته ، وتقى الناس شره وأخطاره ؛ وهيئات أن تغير من نظر الاسلام اليه نظراً يكافى هذه الشنور والأخطار ! .

معجزة مجهولة

من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعيدي

المدرس بكلية اللغة العربية

كم للنبي صلى الله عليه وسلم من معجزات تظهر لكل من يتدبر ويتأمل ، وهذه ميزة معجزاته على معجزات غيره من الأنبياء ؛ فقد كانت معجزاتهم حسية يدركها الحس بسهولة ؛ وأما معجزاته فهي أرقى من أن يتناولها الحس ، لأنها من أفق أعلى من أفقه ، فلا يدركها إلا العقل المتدبر ، وما أسمى ما يختص العقل بإدراكه ، ولا يتطلع الحس الى تناوله .

وهذه معجزة مضى عليها أجيال من الدهر تحقق من أمرها ، وتُتقوى من شأنها ، فلا يزيدا سر الأجيال إلا ثباتا ، ولا يزيدا توالي الحقب إلا قوة ، حتى أن لنا الآن أن نتحدث عنها ، وأن نظهرها للناس جلية واضحة ، لا يعترها أدنى شك ، ولا يخفيها أدنى لبس ؛ وكيف يعترها شيء من الشك واللبس وقد مر عليها ست وستون ومائة سنة بعد الألف ، وهي قائمة تتحدى الزمن ، وتحدى أهله في الشرق والغرب ، وفي الشمال والجنوب ، وفيما كان ظاهرا من المعمور وما كان مستورا منه ، فعجز الزمن وأهله عن تحديها ، وسيظل عاجزا عن هذا الى ما شاء الله تعالى ؟

قد وردت هذه المعجزة في آية من آيات القرآن لا يُشك في أمرها ؛ لأن آيات القرآن قد حفظت منذ نزولها في الصدور وغيرها مما حفظت فيه ، ثم حفظت في المصاحف عقيب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وهذا في قوله تعالى : « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شيء عليما ، الآية - ٤٠ - من سورة الأحزاب .

فقد قطعت هذه الآية في أمر لا سبيل للبشر أن يقطعوا فيه ، ولا يمكن عاقلا منهم أن يورط نفسه في شأنه ، بل يرى من مصلحته أن يتركه للزمن ، وأن يمتنع عن الحكم فيه بإثبات أو نفي ، لأنه لا يدخل في علمه ، ولا يمكنه الجزم بشيء فيه ، فكيف إذا كان يدعى النبوة ، وهي أسمى مرتبة في البشر ، فلا يمكن صاحبها أن يعرضها للتهمة بما لا يرضاه عاقل من عامة الناس لنفسه ؟

لقد ختمت هذه الآية عهد النبوة ، وحكمت بأنه لا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، مع أنه كان قد مضى على الخليقة آلاف لا تحصى من السنين ، والأنبياء يتعاقبون فيها نبيا بعد نبي ، من آدم ، إلى شيث ، إلى إدريس ، إلى نوح ، إلى إبراهيم ، إلى إسماعيل وإسحاق ، إلى يعقوب ، إلى يوسف ، إلى موسى وهارون ، إلى داود ، إلى سليمان ، إلى عيسى بن مريم ، وبين هؤلاء الأنبياء أنبياء لا يحصون عدا ، لأن هناك من الأنبياء من لم يرد إلينا حديث عنهم ، كما قال تعالى في الآية -١٦٤- من سورة النساء : « ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما » .

وكان كل نبي من هؤلاء الأنبياء يبشر بمن يأتي بعده منهم ، ويأمر أتباعه بانتظاره ، ويحثهم على الإيمان به إذا ظهر بعده ؛ وقد وردت بذلك بشارات كثيرة في كتب الأنبياء ، فوردت في صحف إبراهيم عليه السلام ، ووردت في توراة موسى عليه السلام ، ووردت في زبور داود عليه السلام ، ووردت في انجيل عيسى عليه السلام ، وفي غير هذا من كتب الأنبياء .

وكل هذا كان يدعو محمدا صلى الله عليه وسلم أن يحجم عن قطع عهد النبوة لو كان أمره من نفسه ، لأنه يخالف ما تواتر عليه الأجيال ، ويخرج عما تعاقبت عليه السنين من بدء الخليقة إلى عهده ، والبشر في أحكامهم لا يخرجون عن مثل هذا الحكم ، ولا يخالفون نظاما جرت عليه السماء من قديم الزمن ، بل كان هذا يدعو أن يجرى على هذه السنة ، فيأتي ببشارة من البشارات ، ويستن في ذلك سنة أولئك الأنبياء ، ترويجا لأمره بين الناس ، ولا سيما أن للناس شغفا بالبشارات والتنبؤات ، وميلا إلى تصديق من يذهب هذا المذهب من الكهان ونحوهم .

فالامر في قطع عهد النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم ليس منه ، وإنما هو من الله الذى أنزل عليه القرآن الكريم ، وأنزل عليه هذه الآية التى تقطع عهد النبوة بعده ، وتحكم بأنه خاتم النبيين ، وبأن شرعه آخر الشرائع ، وتنحدى الزمن فى ذلك ، فلا يجرؤ على التحدى ، وتنحدى أهله من الموافقين والمخالفين ، فلا يجرءون على معارضة حكمها ، وما هى ذى باقية بعد ست وستين ومائة بحد الآلف من السنين ، تجدد ذلك التحدى ، وقد زادت تلك المدة الطويلة قوة فى تحديها ؛ لأن هذه المدة تسكنى لظهور كثير من الأنبياء ؛ وقد كان الأنبياء قبلها يتوالى ظهورهم ، ويتعاصر الكثير منهم ، فما بالهم قد انقطعوا فى هذه المدة الطويلة ؟ وما بال الزمن قد صار لا يتطلع إلى نبوة كما كان يتطلع ؟ وما بال أهله قد صاروا الآن لا يتطلعون إلى نبوة كما كانوا يتطلعون ؟ .

لقد فتح النبي صلى الله عليه وسلم للناس باب الاجتهاد بعده ، وجعل العلم هو الوسيلة لذلك الاجتهاد ، فحث الناس على طلب العلم والحكمة ، ولم يفعل مثل هذا نبي قبله ، فصار العلم هو الوسيلة للإصلاح بعد الدين ؛ لأن الدين هو الأساس ، والعلم يقيم بناءه على أساسه ؛ فانقطع أمل الناس فى نبوة تظهر لهم ، واعتمدوا على العلم فى إصلاح أحوالهم ، وهم فى هذا يعملون بما جاء به الإسلام من حيث لا يشعرون ، ويصدقون ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من انقطاع عهد النبوة وهم لا يعلمون ؛ ولا فرق فى هذا بين المسلمين منهم وغيرهم . وإذا كانت هناك طوائف لا تعترف بأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو النبي الذى بشر به الأنبياء السابقون ، ولا تزال تنتظر نبياً يأتى بعده ، فإن فيما مضى بعده من هذه المدة الطويلة ما يكتفى لقطع أملها فى ذلك ؛ وإن فى أحوال عصرنا ما يجب أن يصرفها عن خطئها ، لأن الأمر استقر فيه على الاكتفاء بالنبوات السابقة ، فعكف فيه أهل كل ديانة على ديانتهم ، وقاموا فى حدودها يتولون إصلاحهم بأنفسهم ، ولا ينتظرون فى هذا وحياً من السماء ، ولا يترقبون نبياً يبعث إليهم .

لقد حاول الأسود النخعي فى حياة النبي صلى الله عليه وسلم أن يتحدى ما جاء به من أنه خاتم النبيين ، فادعى النبوة فى اليمن ، وكان يشعذ ويرى الجبال

الاعاجيب ، ويسبى بمنطقة قلب من يسمعه ، ولكن أمره لم يثبت أن بطل بيد أقرب الناس إليه ، فقتله امرأته في أبيها الذي كان قد قتله .

ثم حاول مسيلة الكذاب ذلك أيضاً في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأخذ يأتي بأشجاع تافهة يقلد بها القرآن ، فلم يلبث أن بطل أمره أيضاً ، وقتل في أوائل خلافة أبي بكر رضى الله عنه .

وبعد ، فإنه كان لنا أن نسكت عن التحدى بهذه المعجزة عشر سنين بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم ، أو مائة سنة ، أو خمسمائة سنة ؛ ولكنه لا يصح لنا الآن أن نسكت عن التحدى بهذه المعجزة بعد أن مضى عليها ست وستون ومائة سنة بعد الألف . إنها معجزة قائمة تتحدى الزمن ؛ إنها معجزة لها أكبر شأن في تاريخ البشر ؛ لأنها فصلت فيه بين عهدين : عهد توالى فيه أنبياء منذ الخليفة على القيام بإصلاح حال الأرض ، وتولى فيه الإصلاح وحى السماء ؛ وعهد انقطع فيه ذلك الوحي من الأرض ، وترك فيه أمر أهل الأرض لأنفسهم ، بعد أن أدى الوحي رسالته بينهم .

ولا شك أن مثل هذا لا يمكن أن يحكم به بشر ، وإنما هو حكم الله تعالى ، ومعجزة خطيرة من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم .

الاتعاظ

قال العتيبي : دخل رجل من عبد القيس على أبي فوعظه ، فلما فرغ قال أبي له : لو اتعظنا بما علمنا ، لا نتفعنا بما عملنا ؛ ولما علمنا علما لزممتنا فيه الحجة ، وغفلنا غفلة من وجبت عليه النعمة ؛ فوعظنا في أنفسنا بالانتقال من حال الى حال ، ومن صغر الى كبر ، ومن صحة الى سقم ، فأبيننا إلا المقام على الغفلة ، وإيثاراً لعاجل لا بقاء لأهله ، وإعراضاً عن آجل إليه المصير .

وقال رجل للرشيد : يا أمير المؤمنين إني أريد أن أعظك بكلام فيه بعض الغلظة فاحتملها . فقال : كلا ! إن الله أمر من هو خير منك بالإلانة القول لمن هو شر مني !

بين العطار والخشاب من أدباء القرن التاسع عشر

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الجواد رمضان
المدرس بكلية اللغة العربية

قلنا في حديث مضى تحت هذا العنوان ؛ إنه كان بين العطار والخشاب مساجلات شعرية ، استرعى نظرنا منها موشحتان ، نظم أولاهما العطار ، وعارضه الخشاب بالآخرى ؛ وإنتى رأيت أن أجعل منهما موضوع « موازنة » بين الأدبيين ؛ ثم بينهما وبين وشاحي العصر الحاضر ، في حديث آخر . فهذا حين الوفاء بهذا الوعد .

قال العطار ؛ وأغلب الظن أنه إنما كان يقول الشعر ارتياضاً ، وإظهاراً للبراعة والقدرة على قوله ، لا خضوعاً لعواطف تجيش به في صدره ؛ وربما أشيد هذا الظن ، أن ترجمته تقول : « إنه كان يقول الشعر أحياناً » مع اعترافها بأن له ديواناً ؛ و « فلان يقول الشعر » غير « فلان شاعر » . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، ما قدمنا من تفرد العطار في العلوم لاسيما الحكمة وما يتبعها من الرياضيات والهندسة ، فإن هذا التعمق العلمي حجازاً عن التفوق في الشعر ؛ كما هو معروف . فأما صديقه الخشاب ، فكان شاعراً ، تدفعه العواطف ، وتحذو به نزغات شياطينه ، وعوامل دواعيه .

بدأ العطار فقال :

أما فؤادى فعنك ما انتقلا

فلم تخيرت في الهوى بدلاً ؟ - فاعجب -

يا مُعرضاً عن محبِّه الدَّنْفِ

ومغرماً بالجمال (كذا) والصِّلَفِ

ومن به زاد في الهوى شغفى

أما كفى يا ظلومُ ما حصل

حتى جعلت الصدودَ والمثلاً — مذهب —

فكش فؤادى فليس فيه سوى

شخصك يا أيها المليح ستوى

قد ضل قلبي لسكنه وغوى

وهكذا من يحب معتدلاً

لم يلق إلا تأسفا وقلًا — مشرب —

وهى طويلة، قال مترجموه: إنها فى ديوانه، الذى لم أشر عليه بعد طول البحث،
يبد أن ما نقلناه منها كاف فيما نريد .

قال العلامة الجيرقى، فى ترجمة الخشاب : « ولما وردت الفرنساوية لمصر،
اتفق أن علق شابا من رؤساء كتابهم كان جميل الصورة، لطيف الطبع، عالما
ببعض العلوم العربية، مائلا الى اكتساب النكات الأدبية، فصيح اللسان بالعربى،
يحفظ كثيراً من الشعر؛ فلذلك المجانسة، مال كل منهما للآخر، ووقع بينهما
توادد وتضاف، حتى كان لا يقدر أحدهما على مفارقة الآخر؛ فكان المترجم
تارة يذهب لداره، وتارة يزوره هو، ويقع بينهما من لطف المحاورة ما يتعجب
منه . وعند ذلك قال المترجم الشعر الرائق، ونظم الغزل الفائق . ولما نظم الشيخ
حسن العطار موشحته التى يقول فيها : « أما فؤادى فعنك ما انتقلا الخ، عارضه
المترجم المذكور بقوله فى معشوقه الذى ذكرناه :

يهتز كالغصن مال معتدلاً

أطلع بدرا عليه قد سدا — غيب —

ريم يصيد القلوب بالدعج

يسطو بسيف اللحاظ فى المهج

يزهو لعينى بمنظر بهج

فكيف أبغى بحبه بدلا
وليس لي عنه - جار أو عدلا - مهرب -

وضاح نور الجبين أبلجُه
ورديّ خد زها توهجُه
إليه شوق يزد لا عجُه

فلست أصغى لعاذل عدلا
وعنه - والله - لا أتوب ولا - أرغب -

ومنها :

مولاي رفقا بصبك الدنف
قد كدت أقضى عليك من أسف
تلاف رُوحى ، فقد دنا تلقى

من ريقك العذب أروني نهلا
وهات كأسى ، وطف به تميلا - واشرب -

راحاً ، سناها يُضىء كالللب
تبسم عن رطب لؤلؤ الحب
(وعن عقيق من ثغرك الشنب)

بين رياض ومسمع غزلا
على المثنائ إذا شدا رَملا - أطرب -

والورق من حسن صوتها العَرِد
تُميل قُضْبَ الرياض بالميد
وتوجّج الدوح لؤلؤ البرد

تاجاً من الدر نظمه كملا
فكن من اللهم سالكا سبلا - وادأب -

وقد بدئت كلتا الموشحتين بقفل ، فهما من الموشحات التامة ، وهى عند
الوشاحين ما بدئت بقفل ؛ ويقابلها « العرجاء » أو « القَرَعاء » وهى ما بدئت
ببيت ؛ والاقفال : ما اتحدت أجزاء ، ووزنا ، وقافية . والآيات : ما اتحدت
أجزاء ، ووزنا فقط . ومن الاقفال والآيات يتألف الموشح ؛ على أن تامة
وأعرجه ، لا بد أن يختم كلاهما بقفل يسمى « خُرْجة » ، هى موضع البراعة
والإبداع فى كل موشحة ؛ وللخرجة شووط : منها أن تسبق بلفظ يدل على
الاقتباس ، كقَالَ أو قلت ، أو أنشد ، مثلاً ؛ وأن تكون على لسان إنسان
أو حيوان أو طير ، مثلاً . وهذه فذلك لا بد منها ، قبل نقد الموشحات ، حتى
يستقل القارىء الجمهورى بفهم الكلمات الاصطلاحية بمجرد قراءتها فى مجلة
دينية سائرة .

» « «

قال مولانا الاستاذ الاكبر العطار شيخ الجامع الأزهر :

أما فسوادی ، فعنك ما انتقلنا
فلم تخيرت فى الهوى بدلا - فاعجب -

وقال الخشاب الشاعر :

يهتز كالغصن مال معتدلا
أطلع بدرأ عليه قد سدلا - غيب -

ويبدو لأول النظر ، أن أسلوب العطار فى قفله أسلوب على تاليفي ،
وأن أسلوب الخشاب أسلوب شاعر مطبوع ؛ وأنه لو جرد كل من القفلين من
نسبته إلى قائله ؛ ثم عرضا على ناقد أدیب ، لحكم لأول نظرة ، بأن هذا
« لعالم » وهذا « لشاعر » .

فأما المعنى : فإن شيخنا العطار سلك فيه مسلكا تجاريا ، أساسه « التبادل »
الذى يمت إلى « البيوع وملحقاتها » بمتات قريب ، ولم يذهب فيه مذهبا غراميا
مألوفاً ، أساسه « التضحية » ونكران الذات . وما أدرى من المخاطب بالامر
فى قوله : « فاعجب » : أهو يعنى نفسه ، أم يعنى الحبيب ، أم يعنى القارىء ؟

وأيا ما كان ، فلا موضع للعجب ما دام انتقال المحبوب إلى البديل عن تخير ،
فإن انتقال البائع ، إلى الثمن المريح ، والبديل الأرجح ، في طبيعة الحياة العامة .
وانبرى الشاعر الخشاب - في ذلة العاشق المدله - يتلذذ بوصف محاسن
المحبوب ، التي أوقعته في شركه ، ليقوم بذلك عذره عند عاذليه ، ثم ليرتب عليه
مذهبه التقليدى فى الحب ، أو بالحرى لينزل على شرع الغرام ، الذى قضى به دين
الهوى ، على كل من اعتنقه من فؤاد جريح ! . يد أنى لا أطرب لهذه الصورة
المستحيلة ، فى قوله : « أطلع بدرأ عليه قد سدا - غيب - » ، وإن كان لها مجاز من
التخييل ؛ لأن من شأن البدر أن يهتك أستار الظلام ، فكيف يسدل الغيب - وهو
الظلام - على بدر طالع ؟ ! ولعل أحسن منه فى هذا المعنى ، قول حمدة الأندلسية :

إذا سدت ذوائبها عليها رأيت البدر فى أفق السواد
كأن الصبح مات له شقيق فمن حزن تسربل بالحداد

وقول ابن شهيد الأندلسي :

شربت أعضاؤه خمر الصبا وسقاه الحسن حتى عربدا
رشأ ، بل غادة مكورة عمت صبحاً بليلى أسودا



عاد مولانا الأستاذ الأكبر ، فقال فى بيته الأول وقفله الثانى :

يا معرضاً عن محبة الدنف

ومغرمًا بالجمال (كذا) والصلف

ومن به زاد فى الهوى شغفى

أما كنى يا ظلوم ما حصلنا حتى جعلت الصدود والملا - مذهب - ؟

وعاد الخشاب كذلك فقال فى بيته الأول وقفله الثانى :

ريم يصيد القلوب بالدعج

يسطو سيف اللحاظ فى المهج

يزهو لعينى بمنظر بهج

فكيف أبغى بحبه بدلا

وليس لى عنه جار أو عدلا - مهرب -

« الدنف » بفتح الون مصدر وصف به ، وبكسره صفة ؛ و « بالجمال » فى الجزء الثانى ، لا معنى لها ، وإن كانت الرواية ؛ ولعلها « الدلال » وما زال أسلوب العطار فى قفله الأول أسلوبه هنا ؛ ولعل ما يشيع من عامية فى الجزء الأول من قفله : « أما كفى يا ظلوم ما حصلنا » أبرز الشواهد على ضعف أسلوبه ، وضاعف من عاميته استعماله « ظلوم » وصفا ، والشعراء يذكرونه فى الأعم الأغلب علما ؛ وحسب الشاعر فى شكاته ما يشعر به هذا العلم . فأما المعنى ، فهو شرح وتوضيح لما أجمله الشيخ فى قفله الأول ، على أنه شرح أضعف المعنى وأدنفه ؛ فإن انتقال المحبوب عنه إلى « بدل متخير » لم يجعل لعد ذنوبه إليه من الإعراض والصد والملل موضعا ، ولا لامتنانه عليه بزيادة شغفه فى هواء قيمة . وكل ما يفهمه القارئ للبيت والقفل جميعا ، أنه موشح « تشليق بلدى » شفى به مولانا الأستاذ نفسه من هذا الحبيب الغادر ، الذى لم يمر ف مقدار تنزله من عليائه السماوى الدينى ، إلى حب هذا المخلوق الأرضى الصلف الظالم ، الذى تمرد على سلطان الأزهر ، وألحد فى جلال الشيوخ . ويا حبذا لو شرح الشيخ : « ما حصل » فإن فى النفس منها أشياء !

وكذلك أسلوب الخشاب : هو أسلوبه فى قفله الأول ، أسلوب وشاح مصقول ، وشاعر عده طبع . وأما معانيه ، فهى امتداد وترفع للأساس الذى أرساه بقفله الأول ، من تعداد شمائل الحبيب ، وأنه ريم دججه ينظم القلوب جميعا ، وأن سيف لحاظه يفتك بالآرواح جميعا ، فهو فتنة عامة ، لا حبيب اختصم فيه الشيخ وآخر ، فتخير الآخر ! ثم أنكر على نفسه وعلى عاذله أن يبغى بحبه بدلا ؛ وانتهى - بعد هذه المقدمات - إلى مقطع الرأى فى مذهبه الغرامى ، وهو أنه : « ليس لى عنه جار أو عدلا مهرب . ومن محاسن ذوق الخشاب ، أنه نسب خاطر التبدل إلى نفسه لا إلى الحبيب ، كما فعل شيخنا ؛ ولا غرو ، فإنه ذوق شاعر .

(يتبع)

علماء الأزهر

يقررون دعوة المسلمين الى

الجهاد بالنفس والمال لإنقاذ فلسطين

سارع رجال الأزهر المسئولون ، وأعضاء جماعة كبار العلماء ، الى الاجتماع والتشاور في توحيد جهودهم لمناصرة فلسطين ، وشد أزرها ، ومساعدتها على اجتياز تلك المكيدة الكبرى التي دبرت لها .

وقد بدأوا أول اجتماعاتهم في ١٩ من المحرم سنة ١٣٦٧ هـ (٢ من ديسمبر سنة ١٩٤٧ م) بالرواق العباسي بالجامع الأزهر الشريف ، مفضلين الاجتماع في الأزهر عما سواه من أماكن أخرى ؛ لأنه كان دائما مقر الاجتماعات لبحث خطير الأمور وجليلتها في تاريخ مصر والإسلام ؛ فكم من فتوى خطيرة صدرت من هذا المكان اهتزت لها أرجاء العالم ! وكم من أمر دبر لختلف الشئون العامة والهامة في هذا المكان ! ومنه انبعث أول صوت ينادى بالحرية ، ومنه اليوم ينبعث أول صوت ينادى بوجوب الجهاد على المسلمين لإنقاذ فلسطين .

وعند الساعة الحادية عشرة كان قد وصل الى الرواق العباسي حضرات أصحاب الفضيلة الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل الجامع الأزهر ، والشيخ محمد عبد اللطيف دراز مدير الأزهر ، والشيخ محمود أبو العيون السكرتير العام للجامع الأزهر ، والشيخ عبد المجيد سليم مفتي الديار المصرية السابق ورئيس لجنة الفتوى ، والشيخ محمد مأمون الشناوى وكيل الأزهر السابق ، والشيخ محمد حسين مخلوف مفتي الديار المصرية ، والشيخ ابراهيم حمروش ، والشيخ عيسى منون شيخ كلية الشريعة ، والشيخ الحسينى سلطان شيخ كلية أصول الدين ، والشيخ عبد الجليل عيسى شيخ كلية اللغة العربية ، والشيخ محمد الجهنى شيخ معهد القاهرة ، وباقي أعضاء جماعة كبار العلماء ، وعدد كبير من أساتذة الكليات الأزهرية .

وقد بدأ المجتمعون بدراسة ما يجب عمله على رجال الدين لإزاء هذا الحادث الخطير (قرار هيئة الأمم بتقسيم فلسطين) وواجههم بالفسبة لتوجيه الأمة الإسلامية الى واجبها في تلك المحنة التي نزلت بأحد أقطارها .

وقد استقر رأى المجتمعين الى إصدار نداء الى الأمة الاسلامية والعربية ، وقد نشرناه في آخر هذا البيان .

قيادة الجماهير .

وتناولوا بالبحث عدة اقتراحات أخرى ، منها اقتراح من صاحب الفضيلة المدير العام للأزهر باجتماع العلماء يوم السبت ٢٣ من المحرم سنة ١٣٦٧ هـ (٦ ديسمبر سنة ١٩٤٧ م) بالأزهر والدعوة الى الجهاد لجميع طبقات الأمة ، والخروج معهم في مظاهرة كبرى يتقدمونها الى سراى عابدين العامرة ، ورفع كلفة باسم علماء الأزهر الى مقام جلالة الملك في تأييد فلسطين .

وقد أرجىء بحث هذا الاقتراح الى جلسة يوم السبت التي تقرر أن تبدأ في الساعة العاشرة صباحا .

تنظيم الكتائب الأزهرية :

وألفت لجنة برئاسة فضيلة الشيخ محمد عبد اللطيف دراز المدير العام للجامع الأزهر ، وعضوية حضرات الاساتذة : القائم مقام محمد بهجت بك رئيس التدريب العسكري ، وسعد الله هاشم بك ، وشيخ كلية اللغة العربية ، وشيخ معهد القاهرة ؛ وذلك لتظيم تطوع طلبة الأزهر في كتائب ، وتدريبهم على الأعمال العسكرية .

جمع التبرعات :

وألفت لجنة من أصحاب الفضيلة الشيخ عبد الرحمن حسن ، والشيخ حسنين مخلوف ، والشيخ محمود أبو العيون ، والشيخ محمود شلتوت ، لجمع التبرعات وفق القواعد التي تقرر ، وقد رثى أن يكون أدنى حد للتبرع ٢٠٪ من مجموع المرتب شهرياً للدرسين في الأزهر .

فتح الاكتابات :

وقد اكتب الحاضرون بالمبالغ الآتية كافتتاح للتبرع :

٥٠ جنيا من كل من حضرات الشيخ عبدالرحمن حسن والشيخ عبدالمجيد سليم والشيخ مأمون الشناوى مع التبرع بمبلغ ١٠ ٪ شهريا من مرتب الاول ومن معاش ومرتب جماعة كبار العلماء للأخيرين، و٥٠ جنيا من كل من الشيخ حسين مخلوف مفتى الديار المصرية والشيخ عيسى منون شيخ كلية الشريعة والشيخ عبد الرحمن عيد المحلاوى، و٣٠ جنيا من كل من الشيخ محمد عبد اللطيف دراز مدير الأزهر والشيخ محمود أبو العيون السكرتير العام للأزهر، و٢٠ جنيا من كل من الشيخ عبد الجليل عيسى والشيخ ابراهيم الجبالى والشيخ الحسينى سلطان والشيخ محمد الجهنى شيخ معهد القاهرة، وعشرة جنيهات من كل من حضرات الشيخ ابراهيم حمروش مع خصم ٣ ٪ من معاشه ومرتبته فى جماعة كبار العلماء والشيخ محمود شلتوت والشيخ محمد غرابة والشيخ محمد عرفة والشيخ محمد العنانى والشيخ حامد محيسن والشيخ محمد العتريس والشيخ فرغلى الريدى والشيخ أحمد حميدة والشيخ محمد أبو شوشة والشيخ عفيفى عثمان والشيخ حامد جاد والشيخ محمد الشايب والشيخ عبد الرحمن تاج والشيخ محمود الغمراوى والشيخ على المعداوى والشيخ عبد الرحمن عليش، وتبرع بمبلغ خمسة جنيهات كل من الشيخ محمد سامون والشيخ اسماعيل الدوى والشيخ منصور رجب والشيخ حسن مرزوق والشيخ عثمان صبرة والشيخ محمد البسيونى زغلول والشيخ موسى اللباد والشيخ عبد العزيز خطاب . وبلغ مجموع التبرعات فى هذه الجلسة ٦٧٠ جنيا مصرية .

وانتهى الاجتماع فى نحو الساعة الثانية بعد الظهر . وفيما يلى نص النداء :

نداء

إلى أبناء العروبة والاسلام

من علماء الجامع الأزهر الشريف

« هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ »

بسم الله الرحمن الرحيم .

يا معشر للعرب والمسلمين ! قضى الأمر ! وتألّبت عوامل البغى والظغيان على فلسطين ، وفيها المسجد الأقصى أول القبلتين ، وثالث الحرمين ، ومنتهى إسماء خاتم النبيين ، صلوات الله وسلامه عليه .

قضى الأمر ! وتبين لكم أن الباطل ما زال في غلوائه سادرا ، وأن الهوى مافئء على العقول مسيطرا ، وأن الميثاق الذي زعموه سييلا للعدل والإيصال ، ما هو إلا تنظيم للظلم والإجحاف .

قضى الأمر ! ولم يبق بعد اليوم صبر على تلكم الهضيمة ، التي يريدون أن يرهقونا بها في بلادنا ، وأن يجتمعوا بها على صدورنا ، وأن يمزقوا بها أوصال مشوب وّحد الله بينها ، في الدين ، واللغة ، والشعور .

إن قرار هيئة الأمم المتحدة ، قرار هيئة لا تملكه ، وهو بعدُ قرار باطل جائز ليس له نصيب من الحق والعدالة . ففلسطين ملك العرب والمسلمين ، بذلوا فيها النفوس الغالية ، والدماء الزكية ، وستبقى إن شاء الله - رغم تحالف المبطلين - ملك العرب والمسلمين ، وليس لأحد كائنا من كان أن ينازعهم فيها أو يشطرها أو يمزقها .

وإذا كان البغاة العتاة قد قصدوا بالسوء من قبل هذه الأماكن المقدسة ، فوجدوا من أبناء العروبة والاسلام قساورة ضراغم ذادوا عن الحمى وردوا البغى على أعقابها مقلم الأظفار محطّم الاسنة ، فإن في السويداء اليوم رجالا ، وفي الشرى آسادا ، وإن التاريخ لعائد بهم سيرته الأولى .

يا أبناء العروبة والاسلام!

لقد أعذرتكم من قبل ، وناضلتم عن حقكم بالحجة والبرهان ما شاء الله أن تناضلوا ، حتى تبين للناس وجه الحق سافراً . ولكن دسائس الصهيونية وفتمتها وأموالها قد استطاعت أن تجلب على هذا الحق المقدس بخيلها ورجلها فعميت عنه العيون ، وصمت الآذان ، والتوت الأعناق ، فاذا بكم تقفون في هيئة الأمم وحكم ، ومدعو نصره العدالة يتسللون عنكم لوذا ، بين مستهين بكم ، وممالئ لأعدائكم ، ومتستر بالصمت متصنع للحياد .

فاذا كنتم قد استنفدتم بذلك جهاد الحجة والبيان ، فان وراء هذا الجهاد لا نقاذ الحق وحمائيه جهاداً سبيله مشروعة ، وكلمته مسموعة ، تدفعون به عن كيافكم ، ومستقبل أبنائكم وأحفادكم ؛ فذودوا عن الحمى ، وادفعوا الذئاب عن العرب ، واجاهدوا في الله حق جهاده !

« فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ، وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا . »

« الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ، فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا . »

يا أبناء العرب والاسلام!

خُذُوا حَذْرُكُمْ ، فَانْقَرُوا ثَبَاتٍ أَوْ انْقَرُوا جَمِيعاً ؛ وإياكم أن يكتب التاريخ أن العرب الآبَاءَ الأماجد قد خروا أمام الظلم ساجدين ، أو قبلوا الذل صاغرين . إن الخطب جلال ، وإن هذا ليوم الفصل ، وما هو بالهزل . فليقبل كل عربي وكل مسلم في أقصى الأرض وأدناها من ذات نفسه وماله ، ما يرد عن الحمى كيد الكائدين ، وعدوان المعتدين . سدوا عليهم السبل ، واقعدوا لهم كل مرصد ، وقاطعوهم في تجاراتهم ومعاملاتهم ، وأعدوا فيما بينكم كتاب الجهاد ، وقوموا بفرض الله عليكم ، واعلموا أن الجهاد الآن قد أصبح فرض عين

على كل قادر بنفسه أو ماله ، وأن من يتخلف عن هذا الواجب فقد باء بغضب من الله وإثم عظيم .

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم . »

فاذا كنتم بإيمانكم قد بعتم الله أنفسكم وأموالكم ، فيها هو ذا وقت البذل والتسليم ، فافوقوا بعهده الله يوف بعهدهم .

وليشهد العالم غضبتكم للإكرامة ، وذودكم عن الحق .

ولنكن غضبتكم على أعداء الحق وأعدائكم ، لا على المحتمين بكم ، ممن لهم حق المواطن عليكم والاحتماء بكم ، واحذروا أن تعندوا على أحد منهم ، إن الله لا يحب المعتدين .

ولتجواب بعدد الأصداء في كل مشرق ومغرب بالكلمة المحببة إلى

المؤمنين : الجهاد ! الجهاد ! الجهاد !

والله معكم ولن يتركم أعمالكم .

وقد اجتمعت اللجنة الفرعية للتبرعات يوم ٢٣ المحرم سنة ١٣٦٧ هـ . (٦ ديسمبر سنة ١٩٤٧م) ، ورأت أن تطوف على الكليات والمعاهد لجمع التبرعات الناجزة من المدرسين والموظفين ، وإيفاد مندوب عنها إلى معاهد الأقاليم لجمع تلك التبرعات . كما حددت بجلستها في يوم ٢٥ المحرم سنة ١٣٦٧ (٨ ديسمبر سنة ١٩٤٧) ألا يقل ما يتبرع به عضو جماعة كبار العلماء عن ١٥ جنيه ، ومن في الدرجة الثالثة عن ١٠ جنيهات ، ومن في الدرجة الرابعة عن ٥ جنيهات ، ومن في الدرجة الخامسة عن ٣ جنيهات ، ومن هو في درجة دون ذلك عن ٢ جنيه . وقد جمع من تلك التبرعات لغاية يوم ٧ صفر سنة ١٣٦٧ (١٧/١٢/١٩٤٧) ٥٣١ ٥٣١ مليم ١٥٥٠ جنيه .

أسباب تأخر المسلمين في العصور الأخيرة وعلاج هذا الموقف

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد عنتر
المدرس بكلية اللغة العربية

تصدير

هذا الموضوع كان يلملج في نفسى من زمن بعيد ، وكان يضيق به صدرى ولا ينطلق لسانى ، وكنت فى شبه يأس من فائدة الكتابة فى هذا الشأن وأمثاله مما يتعلق بتشخيص الداء ووصف الدواء ، لا ستئصال الأمراض النفسية ، التى كادت تفتك بالمجتمع الإسلامى من جميع نواحيه !

أما الآن فقد ظهرت لى بارقة أمل فى ثمرة بث الإصلاح الإسلامى ونشره بالصحف والمجتمعات ؛ ويرجع الفضل فى ظهور هذه البارقة من الأمل الى صاحب النفس الزكية ، والشيمة المرضية ، والهمة العالية : مولانا صاحب الجلالة « فاروق الأول » ملك وادى النيل المحبوب !

فهو الذى قوى النهضة الدينية ، وأحيا مواتها ، وجدّد شبابها ، وحاطها من عنايته بأوفر حظ وأكبر نصيب . ذلك لأنه — حفظه الله — علم بثاقب فكره ونافذ بصيرته أن فى تقويتها سعادة الدنيا والآخرة . ثم سار الشباب الإسلامى فى ركبه الميمون ، يؤم نوادى الفضيلة ، ويقوم فى وجه الرذيلة ، مترسما طريق مليكة فى الهدى والإصلاح . وقد يما قيل : « الناس على دين ملوكهم » . فهذه جماعات الشباب المسلمين ، والإخوان المسلمين ، وشباب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ويتغلغل فى صفوف تلك الجماعات رجالات الأزهر من طلاب وعلماء ، ويؤازر هؤلاء وهؤلاء علماء الوعظ والإرشاد ، الذين نصبوا أنفسهم لإرشاد الأمة الى الطريق المستقيم بالقول النافع والموعظة الحسنة . هذا الذى أثار اهتمامى بهذا الموضوع الخطير ، وقوى عزيمتى على طرق بابيه ، فأقول وبالله التوفيق :

ليس عند المنصفين من شك في أن المسلمين أصبحوا مستضعفين مغلوبين على أمرهم في مشارق الأرض ومغاربها !

وأنهم تفرقوا شيئا وأحزابا « كل حزب بما لديهم فرحون » .

وأن خاصتهم وبعض عامتهم تحللوا من تعاليم الإسلام ، وجعلوها قيودا رجعية ، رجعت بهم القهقري ؛ بينما تقدم غيرهم من لم يأخذوا بهذه التعاليم ، كشعوب أوروبا وأمريكا وبعض شعوب الشرق الأقصى (اليابان) . ولا ريب في أن هذا التحلل يعد تأخرا في الدين !

وأن الغالبية العظمى من المسلمين تأخرت في ميدان السباق العلمي الى كشف وسائل الراحة ، ووسائل الدفاع عن النفس ، على حين تمّ السبق لغيرهم في هذا الميدان ! لا شك في أن هذا كله قد حدث ، بل حدث ما هو أعظم من هذا كله ؛ وهو زعزعة عقائد الدين في نفوس بعض المسلمين الذين فتوا بعلوم « أوروبا » ومخترعاتها ، ولا سيما بعض من تخصص منهم في أوروبا عليها ، أو نزح إليها للتروض أو للاستشفاء !

أقول هذا ، والأسى يملا فؤادي ، والحزن يقطع نياط قلبي ، والحسرة تملك على كل جوانحي ؛ أسفا على ما وصلت إليه حال المسلمين ، سواء في هذا أمور الدنيا أو أمور الدين !!

وإني أتساءل : هل يرجع ذلك إلى طبيعة الإسلام ، أو إلى طبيعة المسلمين أنفسهم ، أو إلى شيء آخر غير ما ذكرنا ؟ ذلك ما أريد أن أبينه تحت هذا العنوان ، ثم أصف بعد ذلك العلاج الناجع والدواء الشافي ، عسى أن نتخلص من هذه الأوصاب الصعاب ، وما ذلك على الله بعزيز !

التأخر لا يصح أن يعزى إلى طبيعة الإسلام :

ذلك أن الإسلام دين الحضارة والمدنية الصحيحة « وابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ؛ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ » (١)

دين العزة والكرامة ، والعمل لسعادتي الحياة الدنيا والآخرة « والله العزة
ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون » ^(١) . « وقل اعملوا فسيرى الله
عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما
كنتم تعملون » ^(٢) .

دين العقيدة السليمة والإيمان القوى الموحّد « قل إنما أنا بشر مثلكم
يوحى إليّ أنما ألهمكم إليه واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً
ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » ^(٣) . « قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء
بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا أرباباً
من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأبائنا مسلمون » ^(٤) .

دين المثل الأعلى للاجتماع البشرى ، والأخوة الإنسانية « يأيها الناس إنا
خلقناكم من ذكر وأثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند
الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » ^(٥)

ولقد عاش الرسول صلى الله عليه وسلم منفقاً عمره النفيس في تبليغ هذا
الدين الحق ، بين كركر وفر ، وغزوات وسرايا ، ورسل وكتب إلى الملوك
والقيصرة ، حتى حقق الله جل شأنه قوله في كتابه العزيز « هو الذى أرسل
رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » ^(٦) .
« يريدون ليطففوا نور الله بأفواههم ، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون » ^(٧) .

ثم جاء بعده الخليفة الأول « أبو بكر الصديق » فتممّ البناء الذى شيده
الرسول الأعظم ، وانصرفت كل همته إلى تأسيس هذا البناء وتدعيم أركانه ،
وكانت شئون الحضارة وقتئذ ثانوية بالنسبة إلى تبليغ الدعوة الإسلامية .

ولما استتب الأمر في عهد الخليفة الثانى « عمر بن الخطاب » شرع رضى الله
عنه يسلك سبيل الحضارة الدنيوية ، فنظم ديوان الجند ، ووضع أساس البريد ،

(١) الآية ٨ من سورة المنافقون (٢) ١٠٥ من التوبة (٣) ١١١ من آل عمران

(٤) ٦٤ من آل عمران (٥) ١٣ من الحجرات (٦) ٣٣ من التوبة

(٧) ٨ من الصف

واستجلب المنجنيق من بلاد الفرس واستعمله في الحرب، إلى غير هذه الإصلاحات التي حالت منيته العاجلة دون تحقيقها، والتي هي من الإسلام في الباب والصميم ! ثم تتابع الخلفاء من الأمويين والعباسيين يقتفون أثر عمر، ويتغلغلون في حضارة الفرس والروم، فترجموا الكتب، وضربوا بسهم في علوم الكون، كالكيمياء والطبيعة والفلك، حتى كان عصر الأندلس الأموي الإسلامي، فازدهرت المعارف الإسلامية، وترعرعت العلوم في حضارة الإسلام، بين دينية، وأدبية، ولغوية، وصناعية، وزراعية، وهندسية، وكيمائية؛ وهي حضارة العرب في الأندلس.

تلك الحضارة التي تسربت إلى فرنسا، ثم إلى ألمانيا، ثم إلى إنجلترا، ثم إلى سائر ممالك أوروبا.

تلك الحضارة التي كان من آثارها أن جعلت أوروبا بلاد الشرق كلها أسواقا تباع فيها منتجاتها المتنوعة، التي يتوقف عليها رقي العمران وتقدم الشعوب، والتي جابت معها سموم الأخلاق والعقائد الدينية والوطنية، فتسممت بها البيئات الشرقية، وسرت تلك السموم في النفوس، وبخاصة المتعطشة منها إلى الرقي، وساعد على سرعة سريانها نفثات المستشرقين من دعاة الاستعمار وأبواق المدنية الكاذبة؛ فزعموا - والزعيم مطية الكذب - أن الإسلام دين التوحش، لأنه يقطع يد السارق؛ ودين الهمجية، لأنه يبيع الرقيق؛ ودين التأخر والجمود، لأنه لا يدعو إلى الكشف والاختراع؛ ودين يضاد الاجتماع، لأنه يبيع تعدد الزوجات، إلى غير ذلك من الترهات التي زعموها مبادئ للإسلام. والله يشهد أن الإسلام من مزاعمهم براء؛ لأن تلك الأحكام شرعت لحكم وأسرار إلهية، لا تدرك إلا بالتأمل الدقيق والتفكير العميق.

وزادوا على ما ذكر أن نفثوا في روع الناس بمن لم يتمكنوا من تعاليم دينهم أن السبب الوحيد في تأخرهم في الحضارة هو تمسكهم بالإسلام، مستدلين على ذلك بتقدم أوروبا المسيحية، وتأخر الشرق العربي الإسلامي !!

يقولون هذا وأكثر من هذا بملء أفواههم، وينعيقون به في مجتمعاتهم ونواديبهم ومدارسهم، وينسَوْنَ أو يتناسَوْنَ أن الاسلام هو الذي فتح عيون

أوروبا لمبادئ هذه الحضارة، وأن علماء القوانين الوضعية والاجتماعية الحديثة في أوروبا أخذوا من الإسلام لبابه، واستخلصوا منه مقومات الحضارة وانتحلوها لأنفسهم، وأخذوا يمتنون على الشرق بها؛ ومادروا أنها بضاعتنا ردت إلينا، ولكنها ردت إلينا ناقصة مشوهة، لا تناسب الحياة الشرقية في شيء، كما شهد بذلك علماء القانون من الشرقيين !

الخلاصة - أن تأخر المسلمين في مضمار الحضارة لا يرجع إلى طبيعة الدين الإسلامي لما ذكرناه .

فهل يرجع هذا إلى طبيعة المسلمين أنفسهم ؟

الجواب بالسلب المؤكد ؛ لأن طبيعة المسلمين في العصور الأخيرة هي طبيعتهم بذاتها أيام بسطوا ظلمهم على رقعة كبيرة من أديم الكرة الأرضية، تمتد من أواسط آسيا شرقاً إلى ساحل المحيط الأطلنطي غرباً، ومن ساحل المحيط الهندي جنوباً إلى تخوم روسيا والنمسا وإيطاليا وفرنسا شمالاً (أنظر مصوراً الممالك الإسلامية).

وقد نشروا في هذه الأصقاع راية العدل، وأزالوا عن أهلها كابوس الظلم، وفتحوا لهم باب السعادة والحرية على مصراعيه، وعاملوهم بما شرعه الإسلام من المساواة بين بنى الإنسان : « لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » ! .

وقد نعم الناس إذ ذاك بحياة سعيدة وعيش رغيد لم يعرفوها من قبل، ولذا دخلوا في الإسلام أفواجا، واعتنقه الملايين في الشرق والغرب، رغبة في مبادئه السامية، وتعاليمه الراقية، وعقائده الحقة . ثم سار جمعهم الضخم الفخم في طريق المدنية الصحيحة على قدر طاقتهم البشرية من العلم والمعرفة، ورائدُهم المصلحة العامة، والعلم النافع، والعدل الشامل، حتى عزَّ بهم الإسلام، فكانت له الهبة في نفوس الجميع ! .

إذن ليس تأخر المسلمين الآن في ميدان الحضارة من طبيعة أنفسهم وكيان ذاتهم، ولا من طبيعة الإسلام كما سبق بيانه . بل هو ناشئ من عوامل خارجية وأسباب طارئة، أحاطت بهم منذ منتصف عصر الخلفاء العباسيين إلى وقتنا هذا . وسأبين هذه الأسباب في مقال تال، إن شاء الله تعالى .

علوم القرآن

علم المنطوق والمفهوم

لفضيلة الأستاذ الشيخ حسن حسين
المدرس بالأزهر

أبحاث ودراسات في « مفهوم المخالفة »

ذكرنا فيما تقدم أن الأئمة الثلاثة : مالكا ، والشافعي ، وأحمد ، يرون أن مفهوم المخالفة معتبر شرعا في إثبات الأحكام ، على معنى أن يثبت به نقيض حكم المنطوق ؛ وذكرنا أدلتهم من القرآن الكريم ، ومناقشة الأحناف لهذه الأدلة : وبيننا أن مفهوم المخالفة على رأى الأئمة يكون من علوم القرآن مادام صالحاً لأن يكون أداة من أدوات الاجتهاد وإثبات الأحكام ، شأنه في ذلك شأن مفهوم الموافقة ، والمنطوق بقسميه : صريح وغير صريح . أما السادة الأحناف الذين لا يرون أن مفهوم المخالفة تثبت به الأحكام ، فالظاهر عندهم أنه لا يعتبر من علوم القرآن ، لأن الأبحاث التي تدور حوله عندهم سلبية ، منصبه كلها على نفي أن يكون من أدوات الاجتهاد والتشريع ، ومعلوم أن العلوم - سواء كانت ملكات أو إدراكات أو قواعد - أمور إيجابية ، اللهم إلا إذا لحظنا أن إدراك السلب فرع إدراك الثبوت ، وأن معرفة الشيء منفياً فرع معرفته ثابته ، وعلى كل حال فهي علاقة بسيطة ، كما ترى ، لا تصلح أساساً لبيان ، كعلم من العلوم .

وقد كان ينبغي لنا ألا نتعرض لمذهب الأحناف وأدلتهم ، حيث إن مذهبهم لا يساعدنا على بيان مفهوم المخالفة من ناحية أنه علم من العلوم (وهو بحثنا) ، غير أنهم لما تعرضوا لأدلة الإثبات بالمناقشة ، وتناولوها بالبحث والدرس ،

رأينا أن نعرض أدلتهم ، لرى مبلغ قوتها ، ومبلغ ما جادلهم به الأئمة من ناحية ، ولأنهم أحسد طرفى النزاع من ناحية أخرى . وقبل أن أذكر ذلك ، أرى لزوما أن أتعرض هنا لمسألة من أهم المسائل خطورة فى هذا المقام ، لأنها تمس مذهب الأئمة فى الصميم ، ولأنها كانت مزلقاً من المزالق التى انحدر فيها كثير من الناس ، بل ومن أولى العلم الذين ينتسبون للعلم ظاهراً ، واتبعوا فيها أهواءهم بغير علم ، فضلوا وأضلوا ؛ تلك المسألة الخطيرة هى مسألة « القيود » التى تنصب عليها الأحكام الواردة فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ مثل قوله تعالى : « وربائبكم اللاتي فى حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن » ، وقوله تعالى : « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها » ؛ ومثل قوله صلى الله عليه وسلم : « أيما امرأة نكحت نفسها بغير إذن وليها فنكاحها باطل » ، وغير ذلك من القيود التى وردت فى آيات وأحاديث الأحكام ، وأهمها وأخطرها القيود الواردة فى آيات تحريم الربا « يأبى الذين آمنوا ألا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة » ؛ فقد ذهبوا فيها مذاهب ، وفسروا هذه القيود السكرية تفسيرات ، واتبعوا فى مفهومها المخالف اتجاهات ، يعلم الله والراسخون فى العلم مقدار ما فيها من بطلان وزيف .

يأبى الناس ويا أشباه العلماء ! أتصورون أن الأئمة رضوان الله عليهم الذين يرون العمل بمفهوم المخالفة لم يخطر ببالهم ما خطر ببالكم ، ولم يصل عليهم وإدراكهم إلى مثل ما وصل إليه علمكم وإدراككم ؟ كيف وهم الأئمة المجتهدون ، أصحاب المقامات العالية فى الأصول والفروع ، وأصحاب هذا الشأن وفرسان الميدان ؟ هل تظنون أن الأئمة حينما قرروا أن بعض القيود (خرج مخرج الغالب) رموا بهذا القرار جزافاً ، ومن غير روية وتفكير ، ومن غير قاعدة أصولية مطردة ، مستندة إلى أوثق المصادر ، متمشية مع روح القرآن والسنة ؟ .

الله الذى جعلهم أئمة الهدى يعلم أنهم على حق ، وإنهم لصادقون ، والله يشهد إنكم فيما ذهبتم إليه من تحليل ما حرم الله ، وتحريم ما أحل ، لكاذبون ! ولعلك أيها القارئ الكريم تتصور أن فى هذه المسألة شيئاً من الغموض والإبهام ، فسأوضحها لك بكل جلاء .

إن هؤلاء الناس يقولون : إن الأئمة الثلاثة قرروا أن مفهوم المخالفة ثبت به الأحكام ، والمراد بالأحكام الأحكام المناقضة لأحكام المنطوق ؛ والمراد بثبوتها العمل بها في حال السكوت ؛ وعلى ذلك فقوله تعالى « وربائبكم اللاتي في حجوركم ، أثبتت بمنطوقها الصريح تحريم نسكاح الريبة بقيد أن تكون في حجر الزوج وكنفه وتحت رعايته ، لأن قوله « وربائبكم ، معطوف على قوله « أمهاتكم ، الواقع نائب فاعل لقوله « حرمت ، فيكون النظم حرمت عليكم أمهاتكم وربائبكم اللاتي في حجوركم ؛ وأثبتت بمفهوم المخالفة — طبقا للقول بالعمل به — نقيض هذا الحكم في محل السكوت ؛ فتكون الريبة غير محرمة إذا لم تكن في حجر الزوج . وقالوا في قوله تعالى « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ، إنها تدل بمنطوقها الصريح على أن الخلع جائز مع الشقاق ، وبمفهومها المخالف على عدم جوازه عند عدم الشقاق .

وقالوا في قوله تعالى « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ، إنها تدل بمنطوقها الصريح على تحريم قتل الأولاد عند خشية الفقر ، وبمفهومها المخالف على جواز ذلك عند عدم خشية الفقر . وهكذا قالوا في آية الربا وغيرها ، واستمروا في تطبيق قاعدة العمل بمفهوم المخالفة بدون استناد ولا علم بالقواعد التي قررها أصحاب القول بمفهوم المخالفة . مع أن الأئمة رضوان الله عليهم احتاطوا لهذا الأمر أشد الحيطه ، وحذروا من الأخذ بمفهوم المخالفة على إطلاقه أشد التحذير ، خشية أن يندفع بعض الناس وراء أهوائهم بغير علم . وما كان لهم إلا أن يحتاطوا وأن يحذروا فالأمر جدد خطير . رأيت معي مقدار ما لهذه المسألة من الخطورة ؛ لذلك سنفرد لها مقالا خاصا نشرح فيه قاعدة « الحيطه والتحذير » ونعرض لتفسير الآيات المتقدمة ، فأن هذا مما يمس بحثنا أشد المساس ، فضلا عن خطورته الدينية والاجتماعية .

وما يتصل بهذا الموضوع اتصالا وثيقا ، وينهض كشبهه من شبه هذا الفريق ، أن الأساليب العربية وأقوال علماء اللغة متضافرة على أن الحكم إذا ورد على مقيد بقيد كان القيد هو المقصود بالحكم ؛ فإذا قلت : قدم الفارس مسرعا ، فأنت لا تريد أن تفيد المخاطب أن الفارس قدم ، وإنما تريد أن تخبره

بأنه قدم مسرعا ، وإلا لكان القيد عبثا ولغوا ، ولما كان هناك فرق بين أن تقول : قدم الفارس ، وقدم الفارس مسرعا . وكذلك إذا قلت : رأيت الأمير يصلى فى الأزهر ، فأنت لم ترد أن تخبر بأنك رأيت الأمير ؛ وإلا لكفاك أن تقول : رأيت الأمير ، وإنما أردت أن تخبر بأنك رأيته حال كونه يصلى فى الأزهر ، وإلا لا نعدم الفرق بين التعبيرين . وإذا تركنا هذا الأسلوب المعتاد جانبا واتجهنا نحو الأدب الرفيع والأساليب الراقية لوجدنا فيها الشيء الكثير .

انظر الى قول عنتره :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر للحرب دائرة على ابني ضمضم
الشاتى عرضى ولم أستمهما والناذرين إذا لم ألقيهما دى
فهو لا يريد أن يخبر بأنه يخشى الموت ، وإنما أراد أن يخبر بأنه يخشى الموت قبل أن يقتل ابني ضمضم ، وانظر إلى قول النابغة الجعدي فى قصيدته المشهورة التى مدح فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ويتلو كتابا كالنجرة نيرا
أقيم على التقوى وأرضى بفعلها وكنت من النار المخوفة أحذرا
فهو لا يريد أن يخبر بأنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتشرف بصحبته فحسب ، وإنما أراد أن يخبر بأنه جاء وقت أن جاء بالهدى والكتاب المنير ليقم على التقوى الخ . وانظر إلى قوله فى نفس القصيدة :

ألم تريا أن الملامة نفعا قليل إذا ما الشيء ولى وأدبرا
فهو لا يريد أن يحمل المخاطبين على الاعتراف بأن نفع الملامة قليل — مطلقا — وإنما فى وقت أن يكون الشيء الذى أوجها قد ولى وأدبر .

وانظر إلى قوله فيها :

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له بوادر تحمى صفوه أن يكذرا

فهو لا يريد بالبداهة نفي الخير عن الحلم على إطلاقه ، ولكن إذا لم تكن له بوادر الخ . قالوا والقرآن الكريم جاء على أوضح منهج وأبلغ أسلوب ، وأنه تحدى بأسلوبه وإعجازه العرب أصحاب هذه الأساليب الرفيعة .

فلماذا لا يكون أسلوب القرآن في آيات الأحكام على نمط أساليب العرب في كلامهم وأحكامهم ؟ قلت :

أما أنه يكونُ أو لا يكون كذلك ، وأما أنكم فهمتم كلام الأئمة في أصول فقهم أم لم تفهموه ، فمرعدنا في المسألتين المقال الآتي إن شاء الله ، والله الموفق ؟

الدنيا

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من كانت الدنيا همه ، طال في الآخرة غمه ؛ ومن خاف الوعيد ، لها عما يريد ؛ ومن خاف ما بين يديه ، ضاق ذرعا بما في يده . »
نقول : المراد من تجرد للدنيا دون عمل للآخرة .

وقال أبو الحسين الوراق .

يا غافلا تنو بعيني راقدا ومشاهدا للأمر غير مشاهد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي درك الجنان بها وفوز العابد
ونسيت أن الله أخرج آدمها إلى الدنيا بذنب واحد !

وقال نابغة بني شيبان :

إن من يركب الفواحش سرا حين يخلو بسره غير خال
كيف يخلو وعنده كاتباه شاهده وربه ذو الجلال !

في حكم تعاطي الدخان والاتجار فيه

من دار إفتاء الديار المصرية

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حسين محمد مخلوف
مفتي الديار المصرية

تفضل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حسين محمد مخلوف
مفتي الديار المصرية فبعث إلينا بهذه الفتوى ، ونحن نبادر بنشرها لأن موضوعها
يهم طائفة كبيرة من المسلمين ، فنرجو لفضيلته دوام الإفادة والتوفيق .

سأل موسى احمد المنسي قال :

نرجو الإفادة عن حكم الله في تجارة الدخان ، وعما يتبع ذلك من الكسب
الناجم عن هذه التجارة ، حيث إن الحاجة ماسة جداً الى معرفة ذلك .

الجواب :

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

اطلعنا على هذا السؤال المؤرخ في الثاني من شهر ديسمبر سنة ١٩٤٧
والمتمضمّن الاستفتاء عن حكم الشريعة الغرام في تجارة الدخان والكسب الناتج
منها ؛ ونقول :

اعلم أن حكم تعاطي الدخان حكم اجتهادي . وقد اختلفت فيه آراء الفقهاء .
والحق عندنا كما في رد المحتار : أنه الإباحة ، وقد أفتى بحله من يعتمد عليه
من أئمة المذاهب الأربعة ، كما نقله العلامة الأجهوري المالكي في رسالته . وقال

العلامة عبد الغنى النابلسى فى رسالته التى ألفها فى حله : إنه لم يقم دليل شرعى على حرمة أو كراهته ، ولم يثبت إسكاره أو تفتيره أو إضراره بعامة الشاربين حتى يكون حراما أو مكروها تحريما : فيدخل فى قاعدة : الأصل فى الأشياء الإباحة . بل قد ثبت خلاف ذلك . وفى الأشياء عند الكلام على قاعدة : الأصل فى الأشياء الإباحة أو التوقف : أن أثر ذلك يظهر فيما أشكل أمره ومنه الدخان . وفى رد المختار أن فى إدخاله تحت هذه القاعدة إشارة الى عدم تسليم إسكاره وتفتيره وإضراره كاقيل ، والى أن حكمه دأثر بين الإباحة والتوقف : والمختار الأول ، لأن الراجح عند جمهور الحنفية والشافعية كما فى التحرير ، أن الأصل الإباحة : إلا أنه كما قال العلامة الطحاوى يكره تعاطيه كراهة التحريم لعارض ، ككونه فى المسجد للنهى الوارد فى الثوم والبصل وهو ملحق بهما ، وكونه حال القراءة لما فيه من الإخلال بتعظيم كتاب الله تعالى اهـ موضحا . وأشار بالنهى المذكور الى ما فى صحيح البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى غزوة خيبر : « من أكل من هذه الشجرة - يعنى الثوم - فلا يقربن مسجدنا » . وعن جابر بن عبد الله أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من أكل ثوما أو بصلا فليعتزل مسجدنا وليقعد فى بيته » اهـ . والعلة فى النهى كراهة الرائحة وإيذاء المسلمين بها فى المساجد . ولا شك أن للدخان أيضا رائحة مستكرهة عند من لا يستعمله ، فيكره تعاطيه فى المسجد للعلة المذكورة ، كما يكره لاجلها غشيان المساجد لمن أكل الثوم والبصل ونحوهما من المأكولات ذات الرائحة الكريهة التى تبدو بالتنفس والجشاء ما دامت فى المعدة . ويكره تعاطيه أثناء القراءة لكل من التالى والسامع لتحقيق العلة المذكورة فيهما . والكراهة لعارض لا تنافى حكم الإباحة فى عامة الأحوال . وقول العمادى بكراهة استعمال الدخان محمول كما ذكره أبو السعود على الكراهة التنزيهية . وقول الغزى الشافعى بحرمة قد ضعفه الشافعية أنفسهم ، ومذهبهم أنه مكروه كراهة تنزيه إلا لعارض : والكراهة التنزيهية تتجامع الإباحة . ومن ذلك يعلم أن الاتجار فيه اتجار فى مباح على الراجح ، وأن الربح الناتج عنه حلال طيب . والله أعلم ؟

تيارات الالحاد

لفضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم على أبو الخشب
المدرس بمعهد القاهرة

لم يعرف في تاريخ البشرية دين سماوى كتب له البقاء والتغلب على عوامل الهدم التي حاولت تقويض دعائمه، والإتيان على بنائه من القواعد، كما عرف عن الإسلام. فإن محمدا صلى الله عليه وسلم حين أعلن كلمته، وحمل رسالته، ودوى صوته بها في أنحاء الجزيرة، كان ذلك منه بمثابة الساعة على قريش، وهذا منها ما يهدا من كل دعوى لا تدل في الحقيقة إلا على الحسد والبغضاء على أن يكون هذا الأمر ليتيم فقير، وكان أجدر به أن ينزل وحيه على رجل من القريتين عظيم، والمتبع لمعارضتهم له، وخروجهم عليه، وتكتمهم لمناوئته، يستطيع أن يرجع هذه الحرب التي أثاروا غبارها، وأطاروا شررها، إلى هذا المعنى وكفى. أما التكذيب ودعوى أن القرآن أساطير الأولين، أو له شبه بالشعر والسحر وما شاكل ذلك من مهارات المغلوب على أمره، فأحاديث إذا خلوا إلى أنفسهم لا يعترفون بها، ولا يذعنون لها. ولم يكن من المعقول أن يتلقى كفار مكة هذا الحدث الجديد بالقبول والارتياح، لأنه يقضى على المطامع والشهوات، وينعى على الفوارق بين الأفراد، ويندد باستبداد الرؤساء وظلم الحكام، ويجعل بنى آدم كأسنان المشط لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى. ولا شك أن أحبار اليهود، ورهبان النصارى، ومن إلى هؤلاء وهؤلاء ممن يتكسبون بالأديان، ويرزقون باسم الكتب المنزلة لا تطيب نفوسهم بتلك القلاقل التي تفضي على كبريائهم الحجب، وتسدل على عنجيتهم ذيل مرط مرحل، وقد أسلم من هذه الحشرات من أسلم، وتزبوا بأزياء المؤمنين المخلصين لا للدين ولكن للكيد والهدم، وتفريق الصفوف وإضعاف القوى، وتشيت الكلمة، وإشعال نار الفتنة، والأحاديث الموضوعية

والإسرائيليات المدسوسة في كتب التفسير ، والجدل الصاخب في عصور مختلفة للتافه اليسير من الأشياء ، كخلق القرآن ، وحقيقة الجن والملائكة ، والجلوس على العرش ، وأفعال العباد ، وغير هذا .

وهذا بعض آثار هذا « الطابور الخامس » في الإسلام . وإذا كان الشريأتى بالخير - في بعض الأحيان - فإن هذا كله كان شخذا للأذهان ، وإذكاء للقرائح ، وإنارة للبصائر « ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة » . وهو بالتالى يعلن لمن فى الأرض جميعا أن هذا الدين لا يؤخذ بالتقليد ، ولا ينتقل بالوراثة ، أو يرضى بالحيرة والاضطراب ، وأن دستور أهله الدرس والفهم أولاً ، ثم يكون بعد ذلك الإيمان والعمل الصالح . وفى يقينى أن تدين سواد غير قليل من شبابنا « تدين جغرافى » يعتمد على التقليد والوراثة أكثر مما يعتمد على الفهم والنظر ؛ لذلك نجد عدوى الإلحاد أسرع تفشياً فيهم ، وانحداراً إليهم . وربما تقبلوها بدعوى التجديد والمدنية .

والتجديد والمدنية — فى مصر — من السموم الفتاكة التى يجب مطاردتها والقضاء عليها ؛ لأنها كالسلاح الذى يوضع فى يد الصبى رجاء أن يتلهى به ، فإذا هو يصيب مقاتله ، ويمزق مفاصله ، ويتركه بعد ذلك أشلاء متناثرة . ومن الأسف أن الجيل الحاضر ليس عنده من الحصانة أو المناعة ما يحول بينه وبين التردى فى هذه المهاوى ، والانزلاق فى تلك المنحدرات . وكلمة « حرية الفكر » من الكلمات التى روج لها فريق من المتأدبين بالحق والباطل ، دون أن يعدوا لها البيئة التى تناسبها من الثقافة والعلم ، وحملها من حملها من أنصاف الجهاد وأنصاف العلماء ، وملأوها بالأندية والمحافل ، ثم ملأوها بالكتب والمجلات والعقول والألباب . والنخجل المؤلم أن بيئاتنا العلمية قد صارت مرعى خصيباً لهذه الجرائم ؛ إما لقلة الحصول الكافى من التعليم الدينى الذى يدرءون به عن أنفسهم هذه الشبهات ، أو لانعدامه كل الانعدام . وهو ما يندى له الجبين ، ويذوب من أجله القلب حسرات . وزاد ذلك وساعد عليه أن الأحداث والثورات التى أصبحت تتمثل فصولها بين جدران هذه البيئات صرفت التليذ والاستاذ عن إكمال النقص ،

ورأب الصدع ، وأصبح انتقال الطالب من مرحلة إلى مرحلة ، بمضى المدة لا أكثر ولا أقل . يضاف إلى هذا فتح الباب على مصراعينه للبشرين الواغلين علينا باسم المدارس والمستشفيات ، في حين أن لهم من ماضيهم بيننا ، وطول إقامتهم معنا ، ما يجعلنا نحكى فيهم قول الله تعالى : « قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر » .

والخصومة في المبادئ ، والخلاف في الآراء ، أحقر أساليب الإقناع فيها أن تقول « هذا حلال وهذا حرام » ، أو تحيل المعاند المنكر على آية محكمة ولا أحسب أن ذلك يغض من شأن كتاب « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » ، إنما هو الجرى على السنن الذى يجرى عليه الخصم ، واللجوء الى خطة لا ينكرها ، وسيل يقول فيها « قل هذه سبيل » . على أن من الحصافة أن تكون الحرب بمثل عدة العدو وسلاحه .

وكتب الغزوات والفتوح تحدثنا أن العرب لم يتعلموا المنطق فى الصيال والنزال إلا حين رأوا الفرس يتخذون منه هيلهم وهيلبانهم .

ونحن نرى دعوى العلم ، ودراسة الفلسفات الحديثة ، والنظريات الجديدة التى تعرض على بساط البحث فى أوربا ، تجرى على السنة أولئك الهدامين الملهدين . أفما كان من الحرم أن تقطع منا « جماعة » للاشتغال بذلك حتى لا نقف مكتوفين إذا قيل لنا « كيف وكيف » لعالم معاصر ، أو فيلسوف قديم ؟ وما أظن الآية « فلولاً نفرّ من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » كانت ترمى الى الفقه الاكبر والاصغر فقط . على أن الوسيلة — كما يقولون — تشرف بشرف الغاية « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ إنما يتذكر أولو الألباب » ! .

التعريف بالعالم الإسلامى :

إمارة الكويت الإسلامية

لفضيلة الأستاذ أحمد الشرباصى المدرس بالأزهر

تمهيد :

لقد أجمعت الأمم العربية والإسلامية على الجهاد الصادق والكفاح الدائب ، حتى يتحقق لها غرضان جليلان ، فيهما تمام النصر وعز الدهر ؛ وهما الحرية والاتحاد ؛ وإنما تتحقق الحرية بالقوة ، وإنما تتحقق القوة بالاتحاد ؛ لأن الاجتماع عصمة وسداد ، والتفرق ذلة وضعف . ولن يكمل الاتحاد إلا إذا تعارفنا نحن الأمم العربية الإسلامية ، حكومات وشعوباً وأفراداً ، ولن نتعارف كما ينبغي إلا إذا درس كل عربى أجزاء وطنه الأكبر ، فلا يقتصر العربى منا على شئون وطنه الصغير الذى ولد فيه ؛ وهذا ما حداثى إلى محاولة التعريف بما أستطيع من أقطار العروبة والإسلام ، وهأنذا أبدأ اليوم بإمارة الكويت .

ما هى الكويت ؟ :

الكويت إمارة عربية إسلامية ، تقع على ساحل الخليج الفارسى بين البصرة ونجد ، وتمتد على ساحل الخليج شرقاً وغرباً ، وهى واقعة على آكام قليلة الارتفاع ، وفى بطون أودية لها منظر بديع ، ولا سيما منظرها من جهة البحر ، وهى طيبة الهواء معتدلة المناخ ، ونسيمها لطيف فى الشتاء والصيف ، وقلبا تخلو لىالى صيفها من نسيم عليل يكسب الجسم نشاطاً ، ويسمى « الغربى » . وعاصمة الإمارة هى مدينة « الكويت » ، وتقع على خليج صغير يتفرع من الخليج الفارسى ، ويبلغ طولها نحو ثلاثة أميال ونصف ، ويبلغ عرضها نحو ميلين ، وهى ميناء طبيعى ، وينثر حولها جملة من القرى ، ويبلغ تعدادها نحو مائة وخمسين ألفاً من السكان ، وكان بها قديماً نفر قليل من اليهود الدخلاء ،

ولكنهم لم يستطيعوا مزاحمة الوطنيين في أعمالهم ، فزحوا عن الكويت حتى لم يبق فيها يهودى واحد ؛ والله المسئول أن يتدارك فلسطين الشهيدة ، كبذ الإسلام الطعين ، وجرح العروبة الدامى ، كما تدارك الكويت من قبل ، فيقضى على ذلك السرطان العالمى الخبيث الذى يسمى « اليهود » بالفرقة والشتات بعيداً عن أولى القبيلتين ، وثالث الحرمين ، ومسرى الرسول ، وملقى الأنبياء ، حتى يسلم الوطن العربى لأهله وذويه ! .

وقد أنشئت إمارة الكويت منذ مائتى سنة تقريباً ، أنشأتها أسرة آل الصباح وهم ينتسبون إلى قبيلة « عنزة » من كبريات القبائل العربية ، وكانوا قديماً يقيمون بين أهلهم في نجد ، ثم حدث بينهم وبين بنى عم لهم من بطن « جُمَيْلَة » من عنزة قتال ونزاع أدى إلى خروج آل الصباح من وطنهم إلى موضع الكويت الحالى بعد عدة تنقلات ، فشيّدوا تلك البلدة التى حسدهم عليها القريب والبعيد ، وكان ذلك فى سنة ١٠٨٣ هـ أو ١٠٢٥ أو ١٠٢٢ أو ١١٠٠ ، فهناك خلاف كثير فى تحديد ذلك ، والتوفيق بين هذه التواريخ يسير ، فقد يكون البدء فى البناء حدث فى أسبقها ، ثم تابع إتمام أجزائها فى التواريخ الأخرى المتتالية ! .

معنى كلمة « كويت » :

شيدوها وسموها « الكويت » ، فما معنى كلمة « كويت » هذه ؟ . إن أصل الكلمة ليس عربى ، لأنها تصغير « كوت » . قالوا : وكوت هذه كلمة مشهورة معروفة فى العراق ونجد ، وما جاورهما من البلاد العربية ، وقد شاع استعمالها على الألسنة ، حتى إنهم صرفوها تصريف الكلمة العربية الأصلية ، فصغروها وجمعوها ، فقالوا : كويت وأكوات ؛ وبالمصغر سميت مدينة « الكويت » الواقعة على ضفاف البحر الفارسى أو خليج البصرة ، وهذه الكلمة قد توارثها العراقيون عن آبائهم البابليين والكلدانيين ، ووردت فى « سفر الملوك من التوراة » . وهى تطلق عندهم على البيت المربع المبنى كالحصن والقلعة وغيرهما مما يبنى لحاجة ، ويبنى حوله بيوت صغيرة حقيرة بالنسبة إليه ، ويكون ذلك البيت فرضة للسفر والبواخر ، ترسو عنده لتكمل منه ما ينقصها من الفحم والزاد وما أشبه ذلك من حاجات السفر ، ولا تطلق هذه الكلمة إلا على ما يبنى قريباً من الماء ، سواء

أ كان من ماء البحر أم من ماء النهر . وقد يطلق لفظ « الكويت » على النهر الصغير أيضا . وتسمى به الآن جملة من القرى في العراق توسعا . ولعلها كانت في أول أمرها أكواتا صغيرة ، ثم تقاطر الناس إليها وعمروها فالتسعت ، وبقيت على اسمها الأول^(١) .

ثم يذكرون في سبب تسمية الإمارة الكويتية بذلك الاسم أنها سميت باسم حصن صغير كان موجودا فيها ، بناه ابن عريعر زعيم بني خالد ، وأقام فيه أحد عبيده ، واتخذة مستودعا لليرة والذخيرة ، فإذا أراد الغزو شمالا ، أو المرعى قريبا من ذلك الحصن ، تزود بما يريد منه ؛ فلما هبط آل الصباح في هذه البقعة وهبه لهم ، فكانوا أول من شاد فيها البيوت الحجرية ، وتولوا حكمها منذ تأسيسها إلى اليوم . . .

مدينة الكويت :

وفي مدينة الكويت أحياء كثيرة ، منها حي « الوسط » ، وهو حي يقع في وسط المدينة ، وفيه بيت الإمارة ، وقصور آل الصباح ، وفيه السوق والصفاة وهي أرض واسعة اتخذت مناخا للأعراب الذين ينزلون الكويت من أجل التجارة ، إذ يعرضون سلعهم وبضائعهم في سوقها ، من إبل وغنم ، وصوف ودهن وجلود ، وفيها يكثر الزحام ويشتد ، حتى ليعسر التخلص للبصير بلبه الأعمى . وإلى هذا يشير شاعر الكويت الشيخ صقر بن سالم فيقول :

ما في الصفاة لذى عى مثلى أمور محمد
كم مرة قد ضمنى فيها زحام أنكد
كادت به عن جثى نفسى العريزة تفقد !

وفي مدينة « الكويت » مساجد كثيرة ، تزيد على الخمسين مسجدا ، والظاهرة الجميلة في أمر هذه المساجد أن أكثرها قد بناه الأفراد بأنفسهم ، دون معونة الحكام أو الرؤساء الرسميين ، ولذلك يسمى المسجد في الغالب باسم بانيه ، ومن بين هذه المساجد مسجد يعقوب ، أسسه زعيم عائلة يعقوب ، ثم نالته أيدي الزمان بالهدم والتخريب ، فأصلحه الحاج حمد الخالد سنة

(١) انظر مادة « كوت » في دائرة معارف القرن العشرين للعلامة وجدي بك .

١٣٤٢ هـ إصلاحاً واسعاً نقله عن حالته الأولى ، ولهذه المناسبة يقول الشيخ يوسف بن عيسى القناعي في مدح آل خالد :

لوقيل من هم في الكويت أولو المكارم ، والمحامد
الطيون ، المحسنون على المدارس ، والمساجد
الراحمون الثابتون على المبادئ ، والمقاصد
لأجبتهم : هذى الخلال تجمعت في آل خالد !

ويحيط بمدينة الكويت سور كبير مما يجعلها شبيهة بمدن القرون الوسطى ، وقد بنى ذلك السور أولا الشيخ عبد الله بن صباح الأول (المتوفى سنة ١٢٢٩ هـ) ثم جدد هذا السور في رمضان سنة ١٣٣٨ في عهد الأمير الشيخ سالم بن مبارك ، وهو من أسباب انتظام الأمن في المدينة ، وإخضاعها لأوضاع السكينة والهدوء ! .

وفي الكويت بضعة جزر جميلة ، منها « الجزيرة الصغيرة » التي يتخذها بعض الكويتيين منتجعا لهم في ليالى الصيف ، يتمتعون بهوائها الطلق وجوها البديع ، ويزورها كثير من الشعراء والأدباء ، ولهم حولها مساجلات أدبية لطيفة ، بعضهم يتعصب لها ، ويتغنى بها ، والبعض الآخر يعارض ويعاند ، فينسب إليها سيئات وهنات ، ورحم الله الشعراء وغفر لهم ، « ألم تر أنهم في كل واد يهيمون » ؟ . ومن تلك المساجلات أن الأستاذ الشيخ عبد العزيز الرشيد مؤلف « تاريخ الكويت » كان قد أقام بها أياما مع فريق من زملائه وإخوانه فبعث الى أستاذه الفاضل المرحوم الشيخ عبد الله خلف ، بهذه الأبيات يمدح فيها تلك الجزيرة :

رحلنا الى أرض الجزيرة ، علنا	نزيل هموماً بالفؤاد استقلت
فنلنا بحمد الله ما فيه أنسنا	ولو نالنا في ذاك بعض المشقة
فأعظم ما يدنى الى القلب أنسه	مناظر يعزى حسننا للطبيعة
كنظرنا للبحر ، والبحر هادئ	ومنظره والموج يبدو كهضبة
وما فيه من سفن تمر كأنها	طيور يبحر الجو تجرى بسرعة
ومنظرنا تلك الحضور وأهلها	وقد حملوا الأسماك منها بحلة

فأجاب الأستاذ على ذلك بقوله :

على هاجرى الأوطان ييغون دونها وجل مناغم فى سباح الجزيرة
مناظرها تعزى إلى ضد وصفها فلا حسنٌ فيها لرب البصرة
أعشاق سبخاها ، وحلّال ربعها بسوء مناخ فى أراض صغيرة
لئن طاب منها الليل ، فالويل فى الضحى إذا اتقدت رمضاؤها فى الظهيرة
أيدفع بالأخصاص حر شمسها ومن قصب بال بناء الحظيرة ؟ !

وترى بعضهم يفضل هذه الجزيرة على مصيف لبنان ؛ فاستمع إلى الشيخ عبد المحسن أبى بطين إذ يقول فيها من قصيدة له :

ياليتنى أحظى بها لو ساعة فأنال فيها الأنس والأفراح
فلها عدا حسن الهواء فضيلة مرأى عجيب يذهب الأتراح
ولها على لبنان فضل واضح فسلوا ملوك الأرض والسياح

ويلوح لى أنها العصية الجميلة المحبوبة للأوطان ؛ ومن ذا الذى لا يعتقد أن وطنه خير البلاد وأجمل الأوطان ؟ . ورحم الله شوقى إذ يقول :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى !

ومن مشكلات الكويت أن الماء العذب فيها قليل نادر ، ومع ذلك تغلب أهلها على تلك المشكلة ، فهم يجلبون الماء من شط العرب بواسطة السفن ، وبعضهم يستفيد من الأمطار ، ويخزنون ماءها لاستعمالها بعضا من الوقت ، وبذلك استطاعوا أن ينشئوا من إمارتهم روضة غناء خلال صحراء جرداء ، والكويت تجمع بين الحسينين ؛ فهى بوقوعها على الخليج الفارسى تمتاز بميزة الثغور والموانئ ، التى يتمتع فيها الناس بمناظر المياه وصيد الأسماك ، وركوب السفن والزوارق ، وغير ذلك من المتع التى تهيئها مجاورة البحار والأنهار ؛ وهى فوق ذلك قطعة كريمة أصيلة من الجزيرة العربية التى عرفت فى تاريخها القديم والحديث بما يقدمها ويفضلها على غيرها ، فهناك مناظر الطبيعة ، وجلال الصحراء ، وروعة الفضاء ، وجلوة السماء ؛ ولذلك كانت الجزيرة منذ القدم مبعثا ومسترادا لأكرم الدعوات ، وأفضل الشرائع ، وأسمى الأخلاق !!

نور الله على الجبال

Cameos: God's Light on the Mountains by: Mary Corelli.

مترجمة بقلم الأستاذ عمر طلعت زهران
بإدارة المعاهد الدينية

وقال الله : « ليكن النور ، فكان »

« نورٌ على نورٍ . يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ » .

ارتفعت السحب الواحدة إثر الأخرى ، وانقشعت حجب الضباب الكثيفة
بيطه ، ومن ثم بدت للعيان الجبال الشاخنة ، ومن ورائها السماء الأثيرية الباهتة
الزرقة . وكان الثلج الدائم جاثما في بياضه فوق قلال الجبال التي ترامت من الأفق
البعيد . وظهر خيط من النور الذهبي ، بدا فأنازل سفوحها تجاه الشرق ، وتحت
هذا الخيط المترقق الدافئ أخذ الثلج يذوب ، بينما تفتحت زهور البنفسج
عن أكمامها .

وبدا شبح رجلين يتقدمان تجاه النور المشرق فوق الجبل ، وكانا مجهدين من
ارتقاءهما الشاق لهذا الجبل الأشم ، وقد ظهر النور لأعينهما من بعيد ، فلما بلغاه
وقفا في دائرته سويا . كانا أخوين في العمل والعقيدة ، ولكنهما إذ خطوا
إلى هذا المجد الذهبي ، تقطبت جبهتهما غضبا وحسدا .

وقال أحدهما يحدث زميله : « ماذا وقوفك هنا يا هذا ؟ إن هذا النور لى » .

فرد عليه الآخر : « صه أيها الأحق ! إنك كذاب أشر ! إن النور نورى » .

ثم زاد تقطيعهما واشتد غضبهما ، ونسيا إذ ذاك أخوتهما ، واشتبكا يتقاتلان ؛
يتقاتلان في غضب أعمى جموح : يتقاتلان على هذا النور العجيب الذى لم يكن نور

أحدهما؛ وتقاتلا حتى وجفت زهيرات البنفسج على بساط الخضرة، واثنت كأنما قد ماتت، وقد غمرها سيل الدماء الذى أريق.

وفجأة سقط بينهما ظل؛ وكان اسم هذا الظل هو الموت. فانفلت كل منهما من قبضة الآخر وهو يرتجف، ورفع يديه يغطى عينيه، ثم ذهب مسرعين، وذهب الظل معهما. وشربت الأرض الرطبة الداكنة دماءهما، وتفتحت زهور البنفسج من جديد؛ وظل نور الله يشرق فوق الجبال.

وتلاههما امرأتان دخلتا دائرة النور. كانتا ملكتين عظيمتين، تتوج رأسيهما تيجان الماس والزرجد، ويثقلهما حمل الذهب والجواهر، وكانتا تجرجران مخلوقاً ضعيفاً متداعياً يبدو كالطفل وإن كان له جناحان. كان شيئاً يكاد يموت، دائم البكاء، على الصراخ، يتعثر فى مشيته. وحين وصلت المرأتان الى النور وقفنا بغتة ثم تواجهتا؛

وقالت إحداهما للأخرى: «دعى قبضتك عن الحب، لانا وقد وصلنا إلى النهاية: لا قسم بعبرى جمالى فى هذا النور، إن النور والحب لى!»

فأجابتها الأخرى: «أيتها الخائنة التعسة! أوتحدثين عن الجمال ألامى! ألسنتُ سيدة العالم، الحب خادمى والنور ميراثى؟ لا، لا، لا تجادلى، فالنور والحب إنما هما لى!»

ثم سقط بينهما الظل، فاصفرت الملكتان المتنافستان وشفّتا، ثم ذابتا كالأشباح الواهنة فى الظلمة الداكنة. وبقى الطفل المجنح وحيداً يبكي؛ وظل نور الله يشع برفق فوق الجبال.

وتقدم نحو الضوء عابر سليل، وحيداً، عارى الرأس، ورفع عينيه نحو السماء ثم سكن فظفر وابتسم. كانت ساقاه متعبتين، وبدت يداه خشنتين من عمل قاس لا يؤتى ثمرة تعب، وعلى الرغم من صفرة وجهه ونحافته فقد كان جميلاً.

ثم انفرجت شفتاه عن آهة عميقة.

وقال: «هذا هو النور، لك الحمد يارب!»

واقهرت منه الحب المجنح الذي كان يبكي وحيدا وقبل قدميه ، وسأله وهو يكفكف دمه : « من أنت ؟ حدثني بالله من أنت الذي أجهدت نفسك لتجد النور ثم لم تنبس شفتاك كلمة سوء ، بل سلام وثناء ؟ » .
فابتسم الغريب وأجاب :

« أنا أعرف بالوحيد المحقر ، لا أملك في العالم كله شيئا ، حتى ولا إقبال الناس على ودعاهم لي . بحثت عن النور حتى وجدته ، ومن ثم فإني أحمد معطى النور الذي أجاب مسؤولي . إني أحمل اسما يكرهه الناس غالبا ، واسمي هو الصدق » .

ثم حل الظل مرة ثالثة ، ولكنه لم يكن حينئذ ظلا ، بل بهاء يسطع في النور نفسه ، وارتوى الصدق المتعب من المجد الذهبي ، فاشتد ساعده ، وكفكف الحب دمه ، وجاء من بعيد صوت حلو ، كأنما هو تغريد الملائكة .

وانتشر نور الله فوق الجبال

ميرى كوريلي

Cameos. God's Light on the Mountains. Mary Corelli.

العقل

قال المغيرة بن شعبه لعمر بن الخطاب إذ عزله عن كتابة أبي موسى الأشعري :
أعن عجز عزي لثني أم عن خيانة ؟ فقال عمر : لا عن واحد منهما ، ولكني كرهت أن أحمل على العامة فضل عقلك .

يقول : إن من عبقرية الحكم أن تكون لعمر بن الخطاب هذه الكياسة في حكم أمته . فإن الأمور الاجتماعية إذا عولجت بشدة ، وسرى عليها المنطق الدقيق ، فسدت وخرجت عن حدودها ككل الأشياء الإنسانية . ومن أحكم ما قرأناه في هذا الموطن قول معاوية : « العقل مكيال ثلثه فطنة ، وثلثاه تغافل » .
ومثله قول الشاعر :

ليس الغبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي

الشعر في العهد الأيوبي

لفضيلة الأستاذ رياض هلال

المدرس بمعهد القاهرة

هذه حقبة من تاريخ أدبنا العربي، ما تزال مطوية الصفحات، لم تدرس بعد، ولم يرسل عليها الكتاب والدارسون ضياء من عنايتهم فيكشفوا ما أحاط بها من غموض وإبهام. وكأني بهم لما يأنسوا بها ولم يشيموا بها خيرا، فأشاحوا عنها بوجوههم واطرحوها وراءهم ظهريا. ولو أنهم أخذوا أنفسهم بالبحث، وصبروا على عنث الدرس والفحص، لجنسوا من ذلك أطيب الثمرات، وعثروا في زوايا التاريخ المجفوف على خير كثير كانوا عنه في شغل. وسنحاول في هذه الكلمات أن نرسم خطوطا واضحة المعالم بيّنة السيات عن الشعر في العهد الأيوبي، ومدى عناية الأيوبيين به، وعرفانهم بحقوق أهله واحتفائهم به، فنقول:

وجد الشعر في هذا العهد من سلاطين الأيوبيين وأمراءهم ووزرائهم وعيون دولتهم عازدا ومشجعا، عرف له فضله، وقدره حق قدره، فقرّبوا الشعراء منهم، وأدّوهم من مجالسهم، وكان من ملوكهم من له أكثر من شاعر يسجلون محاسنه ويشيدون بآلانه، كصلاح الدين الأيوبي؛ فقد كان العباد لأصهاره، والقاضي الفاضل، وفتيان الشاغوري، وابن الذروي، وعرقلة الشامي، وسعادة الأعمى الحمصي، والبهاء السنجاري وغيرهم، يحيطون به، ويلهجون بمدحه. وعرف عن خلفاء صلاح الدين أنهم كان لهم شعراء لازمهم وعرفوا بهم؛ فاشتهر الأشرف موسى بكال الدين بين النبيه وابن عنين، وعرف الكامل بالراجح الحلي، والملك الصالح أيوب بالشاعرين جمال الدين بن مطروح والبهاء زهير. وهكذا كثر الشعراء في عهد الأيوبيين فاقتنوا في ضروب الشعر وأنوا فيه بالأعاجيب حتى نفقت سوقه وعلا شأنه، وما زال الشعر أثيرا عند الملوك وسلم المجد ورائدا الناس إلى محاسن الأعمال:

ولولا سبيل سنّها الشعر ما درى بناء العلا من أين تؤتى المسكارم

وإذا كان بنو أيوب قد بسطوا أيديهم للشعراء بالعطاء الجزل والنائل الغمر، فقلدهم هؤلاء من شعرهم مدحا قبلي الأيام ولا تزيدها إلا جدة ونصوعا؛ فقد وجد الشعراء ما يدفعهم إلى القول ويحثهم إلى القصيد، ولو لم يؤملوا عطاء أو يشيخوا نائلا في تلك المواقف المحمودة للملك الأيوبيين من جهاد^(١) الشرك والنفع عن الاسلام.

وتلك مفخرة جديرة أن تجدد من الشاعر أريحية تهتز لها نفسه، فتأني إليه المعاني أرسالا، وتنتال عليه الألفاظ انثيالا. كما كانت المناظر الطبيعية في مصر والشام حافزا من حوافز الشعر عند الشاعر، يسجل فيه إعجابه بمكان كانت له فيه صبايات مع لداته وأقرانه بين حفيف أشجار، وضواحك أزهار، وما أكثر المشاهد والمناظر في مصر والشام.

قال العماد: لما قتل الصالح طلائع بن رزيك وانكشفت شمس الفضائل ورخص سوق الشعر، وانخفض علم العلم وضاق فضاء الفضل، لم تزل مصر بعده مبخوسة الحظ منحوسة الجسد، إلى أن ملكها يوسفها الثاني، وجعلها معان المعاني، وأنشر رميمها وعطر نسيمها^(٢).

ولقد تناقل الرواة والمؤرخون أخباراً وروايات متوافرة تدل على مبلغ عناية الأيوبيين بالشعر وحفلهم بالشعراء، وإن كانوا من أصل كردى ليس له في صناعة البيان العربي سابقة معروفة، ولا ماض يصلون به حاضرم؛ ولعل السر في ذلك أنهم رأوا في الفاطميين قبلهم أمثالا من ذلك التكريم فتقبلوهم، ورأوا خلفاء العباسيين في بغداد يعطفون على العلم والعلماء ويشجعون الشعراء ويقرّبونهم منهم، فأرادوا محاكاةهم في ذلك، حتى تكون القاهرة مرتحلا ينتجعه الناس ويقصده طلاب الحاجات، وما يزال العلم والأدب في كل مكان مناراً يهتدى به السائرون، وشارة بمجد تحفّق في ربوع الدول فتقرأ فيها آية العظمة وجلال الشأن: فلا يدع إذا رأينا من ملوك الأيوبيين ووزرائهم وأمراءهم مساميح يغدقون على العلماء والشعراء من عطاياهم ويغمرّونهم بنواهم حتى ينطق

(١) سنقتصر هذا الموضوع يبحث منفرد.

(٢) الزوشتين ١ - ص ١٢٤.

الشاعر بالمديح الذي لا يبلى على مر الأيام وكر الدهور والأعوام ؛ والأمثلة لذلك مستفيضة متكاثرة . يحدثنا عز الدين عبد السلام أنه صحب عمر بن محمد المعروف بابن الشعنة من الموصل إلى السلطان صلاح الدين ، فمدح السلطان بقصيدة أولها :

على الحى من وادى الغضا إذ تفرقوا سلام مشوق قد براه التشوق
فلما بلغ إلى قوله :

وقالت لى الآمال إن كنت لاحقاً بأبناء أيوب فأنت الموفق
قال له السلطان : لقد وفقت ! وأجازه بجائزة سنية ^(١) .

وكان عرقلة الشامى بمن لا زموا صلاح الدين واختصوا به ، وكان قد وعده أنه إذا أخذ مصر يعطيه ألف دينار ، فلما أخذها كتب إليه عرقلة :

قل للصلاح معينى بعد إعسارى يا ألف مولاي أين الألف دينار
أخشى من الأسر إن حاولت أرضكو وما تفى جنة الفردوس بالنار
فجد بها عاضديات موقرة من بعض ما خلف الطاغى أخوالعار
حمرا كأسيافكم ، غرا كخيلكم ، عتقا ثقالا كأعدائى وأطهارى
فجهر له صلاح الدين ألفاً وأخذ له من إخوته مثلها ، فجاءه الموت فجأة فلم ينتفع بفجأة الغناء ^(٢) ولعل من حرص الأيوبيين على أن يعرفوا بتشجيعهم للأدب وإثابتهم على الشعر ما رواه العماد قال :

لما وصل صلاح الدين إلى حمص ، خرج إلينا ابن الدهان عبد الله بن أسعد الشاعر ، فقدمته إليه وقلت : هذا الذى يقول فى قصيدته يمدح بها ابن رزّيك :
أمدح الترك أبغى الفضل عندهم والشعر ما زال عند الترك متروكا ؟
فأعطاه السلطان مائة دينار وقال : حتى لا تقول إنه متروك عند الترك .
فامتدحه الشاعر بقصيدته العينية التى جاء فيها :

أعلمت بعدك وقتى بالأجرع ورضا طولك عن دموى الهمع
لا قلب لى فأعنى الكلام فأننى أو دعت بالأمس عند مودعى

(١) الروضتين ٢ ص ٦١ (٢) شذرات الذهب ٤ ص ٢٢٠ .

قل للبخيلة بالسلام تورعا كيف استبحت دمي ولم تتورع
هل تسمحين ببذل أيسر نائل أن أشتكي وجدى إليك وتسمعي
أو سائلي جسدي ترى أين العنا أو فاسألي إن شئت شاهد أدمعي

ذلك عرض موجز لموقف ملك واحد من ملوك الأيوبيين من الشعر والشعراء، يبين لنا مدى عطفه وتشجيعه للأدب والأدباء. ولو ذهبنا لنعرض لمواقف من خلفوه من السلاطين لاطال بنا الحديث وتشعب بنا القول، فلكل منهم مواقف مشهورة تناقلها الناس وتحدثوا بها. وحسبك أن تقرأ في كتب التاريخ والطبقات والسير لترى مددا زاخراً من هذه الأمثال يدل على مدى ما ذهبنا إليه في حكمنا على ملوك هذا العهد. ذلك ولم تكن هذه العناية مقصورة على السلاطين كما قدمنا، بل كان الوزراء ينافسون في ذلك أيضاً؛ فهذا صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر وزير الملك العادل وأصله من دميرة^(١) كان عالماً فاضلاً له عناية بالعلم والعلماء والأدب والأدباء، وله في القاهرة مدرسة باسمه^(٢). ولقد كان مثل هذا الصنيع خليقاً أن يأخذ بالشعر إلى معارج الرقي وسبيل التجويد، كما أنه حري أن يخلق في نفس الشاعر إقبالا على الشعر ورغبة ملحّة في معالجته واصطناعه، لأنه سوف لا يجزى على شعره الشعير كما يقول عرقلة:

يقولون لم أرخصت شعرك في الوري فقلت لهم إذ مات أهل المكارم
أجازني على شعري الشعير وإنه كثير إذا حصّلت من بهائم^(٣)

ذلك ضرب من ضروب تشجيع الأيوبيين للشعر والشعراء، وهو الإثابة عليه بالعطاء والنوال. وهناك ضرب آخر أشدّ أثاراً وأبعد غاية في تشجيع الشعر والاحتفال له، وهو مشاركتهم لأربابه ومحترفيه في مدارسته والعكوف عليه وتذوقه وقرضه ونقده، وموعنا في الحديث عن ذلك عدد تال ٢٠.

(١) إحدى قرى الوجه البحري.

(٢) النجوم الزاهرة ٦ - ص ٢٨٠.

(٣) شذرات الذهب.

السيدة نفيسة رضى الله عنها

لحضرة الأستاذ أحمد عز الدين خاف الله

مدرس بمعهد فؤاد الأول بأسىوط

اطلعت على مقال تحت هذا العنوان فى مجلة (الاثنين) ١٠ نوفمبر سنة ١٩٤٧
زعم كاتبه أن زوجة مراد بك المتوفاة عام ١٨١٦ هـ هى السيدة نفيسة صاحبة
الضريح المشهور فى القاهرة . فرأيت أن أنشر ترجمة مختصرة للسيدة نفيسة رضى
الله عنها ، حتى لا يلبس الأمر على أحد ، وقد استقيت ما كتبه من أوثق
المصادر التاريخية المعروفة لدى الباحثين ، فأقول :

سيرتها : هى السيدة نفيسة بنت الأمير الحسن الأنور ابن الأمير زيد
ابن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين . ولدت بمكة سنة ١٤٥ هـ ،
ونشأت بالمدينة حتى تزوجها إسحاق المؤتمن بن جعفر الصادق بن محمد الباقر
ابن زين العابدين بن الحسين رضى الله عنهم ؛ وكان ذلك سنة ١٦١ هـ . ثم نزع
بها زوجها إلى مصر لاضطهاد العباسيين لأهل البيت ، فاستقبلها المصريون
استقبالا حافلا من العريش إلى القاهرة ، حيث نزلت بدار جمال الدين عبد الله
من أكبر التجار فى ذاك الوقت ، فأقامت عنده شهوفاً كانت خلالها كعبة للزوار
من كل حذب وصوب . ولم تك هذه بالحياة التى تريدها ، فعزمت على العودة
إلى الحجاز ، وبلغ ذلك الأمير السرى بن الحكم ، فزارها وسألها العدول عن
عزمها ، فقالت : « إني امرأة ضعيفة وقد شغلوني عن جمع زادى لمعادى ، ومكانى
قد ضاق بهذا الجمع السكثيف . فدبر لها حاكم مصر مخرجاً من أمرها حتى
تعدل عن السفر ، فأجابها قائلاً : « إن لى داراً واسعة بدرب السباع ، فأشهد الله
أنى قد وهبتها لك ، وأسألك أن تقبلها منى ، وأما الجوع فقررى معهم أن يكون

ذلك يومين في الجمعة وباقى أيامك في خدمة مولاك ، . فانتقلت الى هذه الدار ولبثت بها حتى وفاتها ، وخصصت للوفود يومى السبت والأربعاء .

عليها وعبادتها : كانت رضى الله عنها تحب العبادة من صغرها ، وكانت لاتفارق حرم النبي صلى الله عليه وسلم خلال إقامتها في المدينة ، وحجت ثلاثين حجة أكثرها ماشية ، وكانت عند ما قطف بالبيت الحرام تتعلق بأستار الكعبة ، وتتضرع إلى الله قائلة « إلهى وسيدى ومولاى ! متعنى وفرحنى برضاك عنى ، فلا تسبب لى سبباً به عنك تحجبني » . قالت زينب بنت يحيى المازني (وهي بنت أخيها) « خدمت عمتي ^(١) أربعين سنة فما رأيته نامت الليل ولا أفطرت بنهار ، . وكانت لها درجة عالية في العلم ، فكانت تحفظ الحديث الشريف وترويه ، وتحفظ القرآن الكريم وتفسره ، وكانت بجرأ زاهراً في الكرم . قال ابن كثير : « وكانت ذات مال فأحسنت إلى الناس والجندى والزمنى والمرضى وعموم الناس ، وكانت عابدة زاهدة كثيرة الخير ، ولما ورد الشافعى مصر ^(٢) أحسنت إليه ، . وكفى دليلاً على غزارة علمها ورسوخ قدمها فيه أن الامام الشافعى رضى الله عنه سمع عليها علم الحديث ، وكان أحياناً يصلى بها في شهر رمضان ، وحين مات أمرت بمجنازته فأدخلت إليها فصلت عليه في دارها ، وهو موضع مشهدها اليوم . قال ابن الأهدل : « إن سلسلتها في القسب وسماع الشافعى منها وعليها ، وحمله ميتاً الى بيتها ، أعظم منقبة : فلم يكن ذلك إلا عن قبول ، وإقبال ، وصيت وإجلال ، نفع ^(٣) الله بها ، .

وفاتها : قال القضاعى ^(٤) « حفرت السي : نفيسة قبرها في بيتها ، وكانت تنزل فيه وتصلى كثيراً ، وقرأت فيه مائة وتسعين خمسة ، .

وابتدأ بها المرض في شهر رجب سنة ٢٠٨ هـ واشتد بها ، حتى عجزت عن القيام لضعفها ، فكانت تصلى قاعدة ، ولا تفر عن القراءة والتسبيح ، ولما دخل

(١) الكواكب السائرة ص ٣١ (٢) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢٦٢ (٣) شذرات
القدم لابن الماد ج ٢ ص ٢١ (٤) الكواكب السائرة ص ٣٣

شهر رمضان كانوا ينصحونها بالإفطار، فكانت ترفض، إذ كانت أميتها أن تلقى الله صائمة فكيف تظفر عند لقائه! وفي أول جمعة من رمضان وفي هدأة الليل كانت تتلو سورة الأنعام ويجوارها بنت أخيها زينب، فلما وصلت إلى قوله تعالى: «لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون»، غشى عليها فضممتها بنت أخيها إليها، ولكن الأجل كان انتهى، فشهدت شهادة الحق وفاضت روحها رضى الله عنها، ودفنت في المنزل الذي كانت تسكنه، وهو بمكان يعرف قديما بدرب السباع بين مصر والقاهرة، وكان يوم وفاتها يوما مشهودا، وقد توافد الناس إليها من البلاد فصلوا عليها بعد دفنها. قال ابن خلكان «غرب الدرب، ولم يبق هناك سوى المشهد، وقبرها معروف بإجابة الدعاء عنده، وهو مجرب^(١) رضى الله عنها».

شهرتها: يقول ابن شاكر الكتبي: «وكان للبصريين فيها اعتقاد عظيم، وهو إلى الآن^(٢)» باق كما كان». ويقول الأمير أبو المحاسن ابن تغرى بردى: «وهي صاحبة الكرامات والبرهان، وقد شاع ذكرها^(٣) شرقا وغربا»، وكان يتردد لزيارة ضريحها بعد وفاتها جمع من كبار الأئمة المعاصرين؛ مثل الإمام عبد الرحمن البويطى، والإمام الربيع بن سليمان المرادى، والإمام الربيع الجيزى، والإمام حرملة بن يحيى، وهؤلاء من أصحاب الامام الشافعى، رضى الله عنهم أجمعين.

ومنهم الشيخ الكبير يونس بن عبد الأعلى الصدفى، والإمام سخون المالكي، وذو النون المصرى المتوفى سنة ٢٤٥، وغيرهم ممن لا يدخل تحت حصر، سواء من العلماء أو المؤرخين والأمراء والملوك، أكف عن ذكرهم خشية الإطالة.

المؤرخون: ترجم لها كثير من عيون المؤرخين. وثأبت هنا بعضهم مينا سنة وفاته، واسم مؤلفه، ورقم الجزء والصفحة التى ذكرت فيها الترجمة:

(١) وفیات الأعيان ٣ - ٨٦ - ٨٧

(٢) فوات الوفيات ٢ - ٣٨٦

(٣) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٢ - ١٨٥

قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ (وفيات
الاعيان) ٣ - ٨٦

محمد بن شاكر الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ (فوات الوفيات) ٢ - ٣٨٦
الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ (البداية
والنهاية) ١٠ - ٢٦٢

شمس الدين محمد بن الزيات (القرن التاسع) الهجري (الكواكب السيارة)
٣١، ٣٣ وغيرها.

أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ (النجوم الزاهرة)
٢ - ١٨٥

الإمام السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ (حسن المحاضرة) ٢٩٢ - ٢٩٣
الإمام عبد الوهاب الشعراني المتوفى ٩٧٣ هـ (الطبقات الكبرى) ١ - ٥٨
ابن العماد المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ (شذرات الذهب) ٢ - ٢١

هؤلاء اطلعت على ما كتبوه عنها، وكتب في هذا الموضوع جم غفير غيرهم
أكتفي بالإشارة إليهم لمن يريد البحث؛ مثل السكندی (فضائل مصر)، موفق
الدين بن عثمان، أبو إسحق إبراهيم بن بللوه النسابة، السيد الشريف محمد أسعد بن
علي الحسيني، القضاة، ابن عبد الحكم (فتوح مصر)، ابن زولاق، ابن
الاهل، الحافظ الذهبي، مجد الدين بن عین الفضلاء الناسخ (مصباح الدياجي)،
الحافظ ابن حجر، السخاوي (تحفة الأحباب) وأفردها بالترجمة ابن النحوي
في كتابه (الدرة النفيسة).

تاريخ عمارة مسجدھا رضى الله عنها :

أول من بنى مشهدها الطاهر عبيد الله^(١) بن السرى بن عبد الحكم أمير مصر؛

(١) كان أميراً على مصر من سنة ٢٠٦ هـ الى سنة ٢١٢ هـ .

وجدد القبة التي على الضريح المبارك الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله عام ٥٣٢ هـ. وتحفظ دار الآثار العربية بأثر من المشهد النفيس يرجع إلى العصر الفاطمي^(١)؛ وبني المسجد السلطان الناصر^(٢) محمد بن قلاوون سنة ٧١٤ هـ؛ وجدد المشهد الأمير عبد الرحمن كتنخدا^(٣) سنة ١١٧٣ هـ وكذا المسجد، وبني الصهرنج على هذه الهيئة الموجودة، وجعل لزيارة النساء طريقاً بخلاف طريق الرجال. كل هذا حدث، أى العمارة الأخيرة للمشهد النفيس من أحد معاصري مراد بك.

أما زوجة مراد بك (نفيسة) فقد توفيت بعد ذلك بثمان وخمسين سنة. وختاماً أقول: إن إجماع المعاصرين على تحديد مكان وفاتها رضى الله عنها واتفاق كبار المؤرخين القدماء على ذلك، واعتقاد الأمة منذ القدم فيها وزيارتها في مكانها الحالى، وتاريخ عمارة مشهدها ومسجدها، كل ذلك يجعل إنكار وجودها من قبيل إنكار الحقائق البديهية، اللهم إلا إذا كانت زوجة مراد بك عاشت في القرن الثانى الهجرى وأوائل الثالث! وهذا ما لم يدعه أحد!

وليطمئن الأستاذ ولا يرم الشعب المصرى بالغباء؛ فصر معلومة بأضرحه كبار الحكماء، أمثال أحمد بن طولون، والمعز لدين الله، والظاهر بيبرس، ومحمد على باشا الكبير، ومع ذلك لم يكونوا مزاراً للمستشفعين، وإن كان يحمل لهم أطيب الذكريات ويثنى عليهم أجمل الثناء؟

(١) دار الآثار المصرية رقم ٤٤٦. وهو محراب إطاره من خشب نبق محشو بزخرفة دقيقة الصنع كانت شائعة في القرون الخامس والسادس الهجرى. راجع كتاب الدكتور حسن إبراهيم (الفاطميون في مصر) ص ٣٦٤.

(٢) الخطط التوفيقية ص ٢٠ ص ٦٢، والخطط والآثار لأميرزى للتوفى سنة ٨٤٥ هـ ص ٢٠ ص ٣٠٦.

(٣) الجبرتي - عجائب الآثار ص ٢٠ ص ٦.

حول مؤلفات الجاحظ

« الدلائل والاعتبار ، العبر والاعتبار ، التفكير والاعتبار ،

« أسماء ثلاثة لمسمى واحد ،

لحضرة الاستاذ الشيخ سليمان سليمان خميس

بتخصص التوحيد والفلسفة

لا يزال التراث الاسلامي بحاجة إلى جهود كبيرة لتكشف عن مخبأته . ولقد لمست هذا بنفسى حينما كنت أعد العدة لتأليف كتابي « حقيقة الجاحظ المفكر » .
فبينما يذكر لنا ابن العميد أن كتب الجاحظ « تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً » ،
إذا بنا في هذا العصر نجد الجاحظ لا يكاد يعرف إلا بأدبه ، حتى لقد وصلت الحال إلى أنك إذا ذهبت إلى أى دار من دور الكتب وجدت كتب الجاحظ قد فهرس لها في الفهارس الأدبية ^(١) ، ونرجو أن نكون قد وفقنا إلى إظهار « حقيقة الجاحظ المفكر » ، وكشفنا عن ناحية تكاد تكون مجهولة عن الجاحظ في هذه الأيام ، ولعل ما ننشره اليوم قد يكون من هذا القليل المجهول .

ذكر لنا سبط ابن الجوزى في مرآة الزمان أنه رأى بنفسه ثلثمائة وخمسين كتاباً من مؤلفات الجاحظ . وذكر ياقوت في كتابه « معجم الأدباء » بعض مؤلفات الجاحظ وذكر لنا فيما ذكر من مؤلفاته كتاباً يسمى « التفكير والاعتبار » . وإذا كنا لم نثر على ذلك الكتاب ، فقد وجدنا كتابين آخرين ينسبان إلى الجاحظ أحدهما مطبوع والآخر مخطوط ؛ أما الكتاب المطبوع فيسمى « الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير » ؛ وأما المخطوط فيسمى العبر والاعتبار ، وهو محفوظ بدار الكتب المصرية ، ويستطيع القارئ أن يرجع إليه ^(٢) .

(١) إذا استثنينا كتاب الدلائل والاعتبار ، أو العبر والاعتبار ، وجدنا كل أثر للجاحظ قد وضع في الفهارس الأدبية . (٢) في فهارس علم الكلام تحت رقم ١٩٧٨ .

وقد استلقت نظرى تقارب اسمى هذين الكتابين ، فدفعنى ذلك إلى الموازنة بينهما ، وقد ظهر لى من هذه الموازنة أن العبر والاعتبار ، هو نفس الدلائل والاعتبار ، وكل ما هنالك من فارق بينهما هو أن المقدمة المذكورة فى العبر والاعتبار قد حذفت من الدلائل والاعتبار ، وُغير اسم العبر والاعتبار بالدلائل والاعتبار .

ولست أدرى أصنع الناشر للدلائل والاعتبار هذا الصنيع ، أم قد سبقه بهذا أحد قتابه . وإذا كان الدلائل والاعتبار هو نفس العبر والاعتبار ولا يمتاز عنه إلا بالمقدمة وتغيير الاسم ، فإن أكبر الظن أن التفكير والاعتبار ما هو إلا اسم ثالث لهذا المسمى الذى أطلق عليه مرة اسم العبر والاعتبار وأخرى اسم الدلائل والاعتبار .

سلك الجاحظ فى هذا الكتاب سبيل النظر فى الكون مستدلاً بما فيه من عجائب ونظام على وجود إله مدبر حكيم ، واستعرض الكثير من الكائنات ليصل بقارئه إلى هذا الهدف ؛ وقد تأثر بهذا الكتاب وانتهج منهجه بعض المفكرين الإسلاميين ؛ وها نحن نجد الغزالى فى كتابه حكمة الله فى المخلوقات يسير هذه السيرة . وكذلك نجد ابن قيم الجوزية فى كتابه مفتاح دار السعادة ، ومنشور ألوية العلم ، ينتهج نهج الجاحظ فيستعرض الكثير من الكائنات مستدلاً بها على أن لها صانعاً مدبراً .

والقارئ لكتاب ابن القيم المذكور يرى تأثره بكتاب الجاحظ واضحاً جلياً ، حتى يكاد يلمس تأثره به فى عباراته فضلاً عن منهجه ^(١) .

ولما كانت مقدمة العبر والاعتبار التى حذفت من النسخة المطبوعة « الدلائل والاعتبار » تشير إلى أن الجاحظ قد سبقه من سلك هذا المنهج ، وأنه قد استفاد من هؤلاء ، رأينا أن نثبت هنا تلك المقدمة حتى يتمكن من يقتنى هذه النسخة المطبوعة من الاحتفاظ بها ، فضلاً عما فى نشرها من فائدة لعامة القراء وها هى :

(١) راجع فى هذا ص ١١٩ ، ١٢٠ من « حقيقة الجاحظ المفكر » لكتاب هذا المقال نجد النصوص المنقولة عن الجاحظ وابن القيم تسكاد تتفق فى العبارة .

«بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذى سمك السماء بقدرته ، وجعل الأرض مهادا بحكمته ، ونظم ما بينهما براهين أدلته ؛ خالق الأمور المتعادمة ، والآلات المتباينة ، والجواهر والأعراض المختلفة والمتفقات ، من نور وظلمة ، وذى سكون وذى حركة ، وأفس ووحشة ، وجفاء ورقة ، وضعف وقوة ، ونوم ويقظة ، وضحك وغضب ورضى ؛ الذى أخفى النفوس فى الأبدان وألطفها فما تُرى ، ثم دبرها فما تحس وتشاهد ، وأيدها بالفطن وقواها بالعلم والمعرفة ، وأعانها بالآسماع والأبصار والذوق واللس والشم ، وأيدها بالأيدي والأرجل الحوامل العوامل ، ومكنها من الحجة والمعرفة بالأدلة ، وجعل ما وهب لها من ذلك حجة لها إن شكرت ، وحجة عليها إن كفرت ، وشاهدا بتقصيرها إن قصرت . والحمد لله الأحد الواحد الماجد ، الذى لا تشتمل عليه المشاعر ، ولا تحجبه السواتر ، ولا تدركه الخواطر ؛ الأول لا بترتيب عدد ، الآخر لا بمعنى غاية تنفذ ، الشاهد من غير مماسة ، البان لا عن مسافة ، الظاهر لا للأبصار ، الباطن من غير حلول ، الذى دل على نفسه بآيات قدرته الموجودة فى بريته ، واستشهد على لطفه بفعله ، وجعل الحجاب بينه وبين خلقه ضعفهم عن إدراك قوته ، فذاته مجهولة السكنة ، وآياته معلومة بين خلقه ، معروفة بما وهب لهم من بصر هدايته ، ليس سواء ياله ، ولا غيره رب معبود ؛ الذى حجب الأبصار عن رؤيته ، ويسر للعقول سبب معرفته ، وأخرس الألسن عن تحديد كنه صفته . . والحمد لله الذى خلق فأحسن الخلقة ، وفطر فأتقن الفطرة ، وفق الأفهام للمعرفة ، وذلل الجوارح للطاعة ، وهدى الى طريق النجاة والسلامة ، وزجر عن سبيل الضلالة والجهالة ، ثم مد لخلق حبل الإمهال ، . ووعدهم المغفرة والإقالة حتى ارعوى مرعو ، واهتدى مهتد ، بعد التحير والتهور تسميا للنعمة ، وزيادة فى الإعذار ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزا حكيما . فنعوذ بالله من غلبة الشقوة ، ونسأل الله العظيم الزيادة من البصيرة ، والمنفعة بالعلم ، وأن لا يجعل شيئا منه وبالا فى الآخرة ، إنه على كل شىء قدير .

« أما بعد فإنه ليس بأهل البر والتقوى ، ولا بذى الغباوة والردى ، غنى عن المواعظ ، والدلالة على أمكنة الحق ، والتواصى والتساهى عن الشر ، لما فى ذلك من التبصرة والتذكرة ، والتأديب والتهديب ، والبركة والمنفعة ؛ ولو كان [خرم] عدو الله إبليس الضامن بإخناك الذرية إلا قليلا ، وبين [خرم] رب

العباد أعلاق سوى الذكر لله ، لوجب طلب مفاتيحها علينا بتحمل المشاق وركوب الأخطار والتغلغل الى خفي أماكنها ، لنأمن كيد عدونا الذى يجرى بجرى الدم ، ويرانا من حيث لا نراه ، وله تسليط على سويداء القلوب ، وحرص على استزلالنا لنعطب ، فأوجب الأعداء عباد الله بأن يحذر من ليس يجزى من كيده حارس سوى التعوذ بذى الجلال والإكرام ، والفزع الى تلاوة كتبه وترديد أسمائه الحسنى ، والتعلق بذكره .

« فليكن بالك أيها الإنسان المخلوق من ضعف وطين وماء مهين ، معتنيا بذكر الله ، منوطا بالفزع إليه ، ومسألة النجاة من كيد عدوك وغدوه ، والسلامة من خيله ورجله ، ومكر جنوده ؛ فإن لهم أفواها وألسنة تلتقم القلوب والاسماع ، وصورا مختلفة لا ترى بالابصار ، ومداخل لطيفة تصل الى النفوس براده من الإضلال والاستزلال .

« واعجب وعجب أيها الانسان بمن جهل معرفة الواحد الخالق الرحيم الرحمن ، وقد أراه الآيات البينات فى الآفاق وفى نفسه ، من النماء والنقص فى أحواله وأهله وجسمه ، وأوجد له الامور التى بها تتم منافعه ، والمآرب التى إليها يتناهى مصالحه ، وكيف تنهأ له قبل [خرم] مفروغا منها قبل خروجه الى الدنيا متممة محكمة وهو فى ظلمة الرحم ، مصنوعة منظومة على أتم صنعة قبل تكوينه ، وأنه لم يمهدها لنفسه ولا ادعى أبوه تمهيدها ولا أمه ولا أحد من أبناء جنسه ، ثم ليس منها على كثرتها شيء إلا وهو مركب تركيبا لم يكن المصلحة لتتناهى الى دونه ولا يتجاوز ما فوقه ، ولا ترغب عن شيء منه ، وإن الطبائع جميعها لتشهد أنها لم تصنع ذلك وتعترف بالعجز ، ولو ادعت ذلك لا نقطعت أسباب الحقيقة عن دعواها وشهد بالإحمال عليها عجزها . ونحن ذاكرون أشياء من شواهد آثار الصانع فى صنعته ، ومنهون على أسرار قد أودعها ، تخبر عن جلال عظمتة وكآل قدرته ، وواصفون أعلاما وآيات وبراهين واضحة تشهد بها التجارب ، وتهيب بذكرها الغرائز ، وتعرفها الطبائع ، ولا تنكرها التراكيب ، ولا تدفعها العقول ، بمقدار وسع الطاقة ومبلغ الجهد ، وما وهب الله لنا من العلم ؛ وما توفيقنا إلا بالله عليه توكلنا ، وهو العلى العظيم ، لتزول

الشكوك عن قلوب المرتابين ، ويتجدد نور اليقين في صدور المؤمنين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

« وقد ألف مثل كتابنا هذا جماعة من العلماء الحكماء المتقدمين فما أوضحوا معانيه ، ولا بينوا المشكل فيه ؛ فمنهم جبريل بن نوح الأنباري ، لأنه صدر كتابه بغير خطبة ولا مقدمة ، وزته بترتيب الفلاسفة ، وصدره بكلام منفلق ، ونظم غير مقسق ، فكان كما لم يؤلف .

« وقبلة ألف في معناه « بوردبوس » أسقف طرسوس ، كتابا وضعه في زمان « فلبالوس » ، عظيم الروم الذي كان ينسب الى القول بالدهر ، والعصية لدين الكفر ، فكان هذا الملك من أهل التلبيس والتدليس ، وسمى « بوردبوس » كتابه : كتاب التدبير ، ونقله من أخذه عنه من السريانية الى العربية ، فلم ينفع لفساد النقل ، حيث ينبغي أن يقع من الإيضاح والشرح ، وأفسده تداول الألسنة وسوء العبارة .

« ومنها كتاب نظمه « باوراطوس » أسقف « قورس » كتبه باليونانية ونقله إلى السريانية ثم إلى العربية ، فخرى مجرى الأول المفسود بتداول النقل والعبارات . ومنها كتاب [خرم^(١)] أيام بني أمية نظمه « نسو عجيب » مطران « فارس » وكتبه بالفارسية فأكسبه استغلافا .

« وقد جمعنا في كتابنا هذا محاسن ما وجدناه في هذا الكتب ، وزدنا مقدار الطاقة ، والتوفيق من الله جل ذكره ، وشرحنا ما نقلنا من غيرنا ، وبيننا القول فيما زدنا ورتبناه ترتيبا يوفق السمع ، ويسر القلب ، وينشط السامع ، ويوجب الحجة على المخالف ، وما توفيقنا إلا بالله . »

إلى هنا تنتهى زيادة العبر والاعتبار ، وما بعد هذا من فقرات نجدها في مفتاح الدلائل والاعتبار ؛ ويسير الكتابان بأسلوب واحد لا يكاد يختلف - إلا ما ندر - إلى نهايتهما . وكان ينبغي أن يوجد بدار الكتب المصرية بعض الباحثين الذين يكشفون عن أمثال هذا وينشرونه على الناس . ونرجو أن تتاح لنا الفرصة قريباً ليطلع القراء على بعض النواحي الطريفة في الجاحظ .

(١) ويبدو لي أن هذه الكلمة هي « ألف » ويوجد بمض حروف باقية ترجع هذا

الاسلام والمسلمون

في شرق أفريقيا

لحضرة الأستاذ الدكتور محمود حب الله

- ٣ -

حالة المسلمين الاقتصادية

قد يتبادر الى الذهن من تحدثي عن مركز المسلمين الاجتماعي والاقتصادي أنهم يكونون هناك وحدة اجتماعية أو اقتصادية، وأن لهم شخصية متميزة تعامل على أنها وحدة من تلك النواحي؛ ولكنه لا وجود في الواقع لمثل هذه الوحدة. وكل ما هنالك بين المسلمين من روابط هو على الأكثر ذلك الشعور الروحي الذي يوجد بين المسلم وأخيه المسلم فحسب.

لذلك كان من الدقة التحدث عن طوائفهم لا عن جماعتهم؛ فذلك أقرب الى الصواب؛ إذ أن ارتباط كل فرد منهم بطائفته وفرقة لا يزال أقوى وأكبر أثرا في حياته الاجتماعية والاقتصادية من ارتباطه بجماعة المسلمين. ويمكن أن ترقب طوائفهم من الناحية الاقتصادية ترتيبا تنازليا هكذا:

الشيعة، فالأباضية، فأهل السنة.

فالشيعة أغنى الطوائف هناك بلا مرأى؛ ولكن يظهر أنهم ليسوا في مستوى واحد من الثراء. فالإسماعيليون - أتباع أغا خان - يأتون أولا. ولقد ساعدتهم جسدتهم واجتهادهم من ناحية، ونظامهم التعاوني الدقيق وارتباط بعضهم ببعض برباط متين من ناحية أخرى، على أن ينهضوا نهضة عظيمة في جميع نواحي الحياة.

والبهريون والاثنا عشريون من الشيعة ذوو مركز اقتصادي طيب أيضا. وأما الأباضيون فهم على ما يبدو، أقل ثراء من الأولين. وأما أهل السنة وهم

جمهور المسلمين ، فيأتون أخيرا ، وهم أكثرهم فقرا ، على الرغم من أنه يوجد من بينهم أفراد قلائل يملكون ثروات طائلة .

وإذا علمنا أن جمهور العرب والوطنيين من أهل السنة ، علمنا أين يحل الفقر . وإذا حل الفقر في مكان اصطحب معه صديقه المرض والجهل . وهذا هو شأن كثير من العرب والوطنيين .

ولقد أخبرت أن العرب كانوا يوما ما أرباب الثراء والنعمة ، ولكنهم أخذوا الى الترف وغرتهم النعمة ، وكأنهم آمنوا بخلودها فيهم ، فلم يفكروا في تنميتها أو الاحتفاظ بها ، فلم يمس إلا قليل من الزمن حتى كانت مرهونة في أيدي إخوانهم المسلمين من الهنود ، وهم أكثر منهم نشاطا ؛ ولم تمس فترة أخرى حتى انتقلت اليهم لعجز العرب عن الوفاء . ولقد أوجدت تلك الظاهرة الاقتصادية فيهم شعورا من العداوة نحو إخوانهم الهنود ، ولكنه قد زال الآن أو كاد يزول لأنهم أدركوا أنهم هم المسئولون حقا ، وأن ثروتهم لو لم تنتقل الى هؤلاء لانتقلت الى غيرهم من غير المسلمين ، وكانت العاقبة أدهى وأمر .

ولكن على الرغم من أنه لا يوجد بين المسلمين هناك ما يمكن أن يعتبر وحدة اقتصادية ، فلا مرء في أنه يوجد بينهم كثير من المساعدات المالية المشكورة التي يقدمها أرباب الثراء منهم للبعسين على اختلاف فرقهم وطوائفهم . وتمثل تلك المساعدات في نواح شتى ، والمساجد ناحية منها . فتجد أغنياء الشيعة ، مثلا ، يساهمون بنصيب كبير في بناء مساجد أهل السنة أو في إصلاحها ، وقد رأيت عدة أمثلة من ذلك . وليست الجمعيات الخيرية التي تألفت هناك إلا مظهرا آخر من مظاهر العون المالى الذى يقدمه الموسرون للبعسين ، وعلى الرغم من أن المساهمة في هذه الجمعيات عامة ولا تخص فريقا دون فريق ، فإن المبالغ التي دفعت فعلا والتي يرجى أن تدفع من العرب ومن الوطنيين مبالغ ضئيلة بجانب ما دفعه أو سيدفعه الآخرون . وأما ثمرة هذه الجمعيات فستكون أولا وبالذات للعرب وللوطنيين ، لأنهم هم وحدهم الذين لا يجدون مدارس يربون فيها أبناءهم ، وليس لديهم من المقدرة المالية ما يمكنهم من تربية أبنائهم خارج بلادهم .

٣ - الحالة الثقافية :

إن نظرة واحدة الى هذه البلاد تكفي لمعرفة مقدار تأخرها من الناحية الثقافية . وعلى الرغم من أن هنا مجالا فسيحا للتحدث ف سأكتفي بشرح موجز لحالة المدارس واللغات السائدة هناك .

(١) المدارس : هنالك نوعان من المدارس ومعاهد التعليم : مدارس حكومية ، وأخرى أهلية . فالحكومية قليلة العدد ، ولا يمكن أن تفي بحال من الأحوال بحاجة السكان ، وهي مع ذلك طائفية . ويظهر أن تقسيم الناس إلى طوائف شتى يعجب السلطة هناك وتوحى به ؛ إذ أنه ظاهر في كل مكان وفي كل مرافق الحياة حتى في التشريع نفسه .

فإذا قطعنا النظر عن المدارس التي يتعلم فيها أبناء الأوربيين ، وجدنا مدارس حكومية للهنود في كثير من البلاد ، وهي مدارس مدنية وتقبل المسلمين وغير المسلمين من أبناء الهنود ، وتعلم من اللغات ، بجانب اللغة الانكليزية ، اللغات الهندية من أوردية و هندوستانیة ، ولكنها لا تعلم اللغة العربية . وفي بعضها أقسام ثانوية .

وأما العرب والوطنيون فليس لهم مدارس حكومية على الإطلاق ، اللهم إلا شيئا يشبه الكتاب بمباسا ، ويتكون من عدة غرف بعيد بعضها عن بعض . وهي مع ذلك لم تبدأ إلا قريبا بعد جهاد عنيف قام به بعض المسلمين هناك ، ولا تعلم إلا مقداراً ضئيلا من اللغة العربية .

وليس هناك معاهد حكومية عليا إلا كلية مكريري^(٢) في يوغندا . وهي

(١) عميدها الحالي الدكتور لا مونت الذي كان من قبل أستاذا للفلسفة بجامعة فواد الأول . ولقد كان الدكتور كريما ومجاملا ، وأقنى على مصر ثناء مستطابا حين كان يعلق على إحدى محاضراتي . ولقد دعاني بعد ذلك ودعا معي آخرين إلى العشاء في بيته ، ودار الحديث حول موضوعات شتى تتعلق بالمسلمين ومنها =

تعى أكثر مما تعنى بالتقافات الإنكليزية وبالادب الانكليزى ، وتقبل طلابها من جميع الاجناس والاديان من أهل أفريقيا الشرقية ، ولكنها تقبل السودانين أيضاً . وقد علت أن بها الآن عشرة طلاب من مسلمى الزنجبار .

وأما المدارس الأهلية فكثيرة ومنتشرة في جميع أنحاء البلاد ، ومنها مدارس المبشرين ؛ وسأتحدث عنها عند التحدث عن المبشرين وجهودهم . ومنها مدارس أخرى ترتبط بالطوائف والفرق والجماعات المتعددة .

فهنالك مدارس الاسماعيليين . وهذه تكاد تكون موجودة في كل بلاد إفريقيا الشرقية والشاطر الأكبر من قراها ؛ إذ أنهم يفتحون مدارس ، أينما حلوا ، تناسب مع حاجتهم . فأحيانا تكون ابتدائية ، وأحيانا تكون ثانوية أيضا . وقد زرت بعض هذه المدارس فوجدتها تسير بدقة ونظام يفوقان كثيرا من المدارس الحكومية . وهى تنفق بسعة على المدرسين ، وتقبل الطلاب بلا أجور ، وهى مدنية ، ولا تقبل غير أبناء طائفتهم . ولبعض الطوائف الأخرى مدارس خاصة يعلمون فيها أبناءهم شيئا من الدين بعد عودتهم من مدارس الحكومة ، وهذه توجد غالبا في المساجد أو في رحابها .

وأما العرب والمسلمون من الوطنيين ، وهم يزيدون على ٧٠ ٪ من مجموع المسلمين ، فليس لهم مدارس منظمة أو ذات مورد ثابت . وكل ما هنالك هو آلاف من الكتاتيب المنتشرة في طول البلاد وعرضها ، والتي لا يجمع بينها جامع ولا تخضع لنظام واحد أو منهج واحد . فعريف الكتاب - وأحيانا لا يكون له من المؤهلات أكثر من أنه يعرف شيئا من القراءة والكتابة - هو السلطة العليا

= موضوع كان يحز في نفوس المسلمين ؛ ذلك أن المسلمين جمعوا من عشر سنوات مضت عشرة آلاف من الجنهات ليبنى بها مسجد داخل أسوار الكلية ، كما أن هناك كنائس للمسيحيين ؛ ولكن المسجد لم يبن حتى اليوم . فوعده الدكتور لا مونت بالبدء في البناء هذا العام ، وفهمت أنه غير ملوم عن هذا التأخير الطويل لأنه لم يعين في الكلية إلا قريبا .

التي تضع المناهج وتطبقها . وهذه الكتاتيب في جملتها لا تعلم إلا مقداراً ضئيلاً من القرآن يحفظه الناشئ بغير فهم غالباً ، وشيئاً من العبادات والعقائد ، ولكن بأسلوب بدائي . ولقد زرت كتباً في قرية من قرى نيروبي فوجدت المعلم يعلم المبتدئين الذين لا يعرفون شيئاً من اللغة العربية قواعد النحو والصرف . كأنه يرى أنهم يجب أن يعرفوا قواعد اللغة أولاً ثم اللغة بعد ذلك . قد يكون هذا المعلم محققاً في منطقته ولكنها طريقة عسرة ومملة .

ولكن هناك من الكتاتيب ما هو أرق من ذلك بكثير ؛ فهناك مثلاً مدرسة الرياضة العربية بمباسا ، وأستاذها الشيخ سالم بن عوض العامري . وهي تعلم الألعاب الرياضية بجانب اللغة العربية والثقافات الإسلامية ، ويحسن أبنائها النطق باللغة العربية ، وهي نهضة طيبة . غير أن المدرسة في حاجة ماسة إلى المساعدة المادية . وهناك في يوغندا وتبانياً كثير من المدارس التي يشرف على إدارتها الشريف عبد القادر الجفري ، وقد زرت بعضها فسرني منهجها وما فيها من حيوية . وسألت بعض الطلاب في مسائل لغوية ودينية فأجابوا إجابات موفقة ، واستمعت إلى خطب كثير منهم — وهم من أبناء الوطنيين — فوجدت أن لهجتهم لهجة عربية صحيحة .

ولكن تلك المدارس كلها قائمة من ناحية مالية على أكتاف الوطنيين وقليل من العرب ، وهؤلاء جميعاً فقراء ، فلا يني ما يتبرعون به بحاجة المدارس . وليس لديهم كتب مدرسية ، ولا يجدون العدد الكافي من المدرسين ، ولا يجد المدرسون مورداً يعيشون منه مما يضطر الكثير منهم إلى العمل بجانب التدريس . وأخيراً لا تفي المدارس الموجودة بحاجة السكان المتزايدة .

وإنني أعتقد أنه لو نظمت هذه المدارس والكتاتيب وزيد عددها ورصد لها من المال ما يكفيها لكانت فتحة مميّنة ، لأنها تجذب قلوب الوطنيين جميعاً . « وشبه الشيء منجذب إليه » . ولقد تسلمت هناك عدداً وفيراً من الالتماسات ، ولا تزال الخطابات ترد إلى تلمس كلها من الأزهر ومن مصر أن يمد يد العون لهذه المدارس حتى تتمكن من تأدية مهمتها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هل يؤدى العلم الى الالحاد العلماء وأنصاف العلماء

لم يؤد العلم صاحبه إلى الإلحاد فى أى عهد من عهوده ، فإن العالم المنقرب عن الحقائق يجد نفسه من الوجود فى عالم لا حد له ، حافل بالموجودات المختلفة ، والقوى الزاخرة ، والحركات الدائمة ، والتحولات المستمرة ، فلا يكاد يسبر غورا حتى تلوح له من وراءه أغوار ، ولا يقف على علة لظاهرة ، حتى تتراعى له من خلفها علل ، ولا يفتنى من تحليلاته الى سبب ، حتى تبدو له من بعده أسباب ؛ فهو فى خضم غطيم من الكائنات والقوى الظاهرة والخفية ، بحيث يكاد يفقد رصده حيرة ودهشا ، يسود مجموعها نظام يحكم لا تشوبه شائبة من اضطراب . وفى أثناء ذلك يرى العالم الذى نصب نفسه للاهتمام الى أسرار الكون ، أنه يصادف من آثار الحكمة العالية ، وعلامات الإرادة الراشدة ، مالا يدرك مداه بعقله المحدود ، ويرى أن كل ما حصله من علم بالموجودات ، وما كسبه من فقه بالأسباب ، لا يتعدى مدى العلاقات الظاهرة بين تلك الموجودات ، أما كنهها ، ومصدر انفعالاتها ، وترايط القوى العاملة فيها ، فتعلو عن متناول عقله ، بحيث يدرك لأول وهلة من تفكير ، أنها مما لم يخلق هذا العقل لإدراكه .

فهذا الباحث عن أسرار الخليقة ، يضطر أن يخبر ساجدا للقدرة العالية التى أوجدت هذا الكون الباهر ، معترفا بأنها فوق متناول الإدراك ، وأن جهد الفيلسوف أن يُخَبِّتَ لها ، وأن يستمد منها نورا يهتدى به فى ظلمات وجوده المادى . ولكن الى جانب هذا الصنف من المنقبين عن أسرار الوجود ، أصنافا أخرى ذوى عقول محدودة ، وهم قاصرة ، وقابليات ضيقة ، تكفى من التعليقات بما يؤثر على مخيلتها ، ومن التحليلات بما يقف عند حد إدراكها ، فيخيل اليها بعد ربح من الزمن أنها وقفت على أسرار الوجود ، وأن ليس وراء ما وصلت اليه غاية

ترتجى ؛ فترى أنها وقفت من كل معلول على علته ، ومن كل كائن على غايته ، فما الذى يحول بينها وبين أن تزعم أنها بلغت من العلم نهايته التى ليس وراءها مرمى ، وماذا عليها بعد ذلك أن تعلن أن العالم قائم بنفسه ، وأنه ليس بحاجة إلى قيوم فوق مادته ؟ فهذا وأمثاله أطلق عليهم الفلكى الكبير (كاميل فلامريون) فى كتابه (الله فى الطبيعة) اسم أنصاف العلماء ، وسجل عليهم أنهم قصار النظر ، محدودو العقل ، ضعاف التصور ، يكتفون بالكلمات الفارغة ، والعبارات المجوفة . هؤلاء هم الملحدون باسم العلم ، وقد ظلموا العلم ، وقصروه على فهمهم القاصر ، وإدراكهم الهزيل .

نشر الدكتور دنيرت dennert الألمانى بحثا حثا حل فيه الآراء الفلسفية لأكابر العلماء الذين أناروا العقول فى الأربعة القرون الأخيرة ، وتوخى أن يدقق فى تعرف عقائدهم ؛ فتبين له من دراسة آراء ٢٩٠ منهم أن :

٢٨ منهم لم يصلوا إلى عقيدة ما .

و ٢٤٢ أعلنوا على رموس الأشهاد إيمانهم بالله .

و ٢٠ فقط تبين أنهم غير مبالين بالوجهة الدينية أو ملاحدة .

فإذا اعتبرنا غير المبالين كلهم من الملاحدة ، وجدنا أن ٩٢ فى المائة من كبار العلماء يعتقدون بوجود الله تعالى . فهذه النسبة الكبيرة تدل دلالة صريحة على أن التناقض بين الإيمان والعلم الذى يزعم الماديون أنه وصف مميز للعلماء ، ليس له أصل ، وتشير إلى أن الإيمان والعلم يتكاملان ولا يتنافيان .

قال الدكتور (ليون ووقى) الذى أخذنا عنه هذا الإحصاء :

« إن العلامة الكبير (باستور) وهو أكبر عقل ظهر فى القرن الماضى كتب يقول :

« الإيمان لا يمنع أى ارتقاء كان ، لأن كل ترق يبين ويسجل الاتساق البادى فى مخلوقات الله . وإذا كنتُ علمتُ أكثر مما أعلم اليوم ، لكان إيماني بالله أشد وأعق مما هو عليه الآن . »

وعقب على هذا بقوله :

« إن العلم الصحيح لا يمكن أن يكون مادياً ، ولكنه على خلاف ذلك يؤدي إلى زيادة العلم بالله ، لأنه يدل بواسطة تحليل السكون على مهارة وتبصر ، وكال عقل الحكمة التي خلقت انواءيس المدبرة للوجود ، كإلا لا حد له .

وقد ثبت أن الايمان إنما نشأ لدى أصحاب القرائح العالية من ممارستهم للعلم .

إن باستور العظيم ، حتى في عهد ازدهار المذهب المادى في أوربا ، أوتى من الشجاعة ما جعله يؤكد ما سبق للطبيعى الإنجليزى المشهور (فاراديه) تأكيده قبله . فصرح أمام جميع أعضاء الاقازيميا الفرنسية في حفلة انتخابه لعضويتها يعقيدته قائلاً :

« إن الاعتقاد في وجود الله ووجوب احترامه قد توارد الى عقلى من طرق ثابتة كثبوت الطريق التى تقودنا إلى حقائق النظام المادى . »

أما الدكتور (وتز) Wutz الكيمائى وعضو أقاذيميا العلوم وأستاذ وعميد كلية الطب الباريزية فقد كتب يقول :

« إذا أحسست في حين من الأحيان أن عقيدتى بالله قد ، تزعزت وجهت وجهى إلى أقاذيميا العلوم لتثبيتها .

وهذا الفيلسوف (ديكارت) المشهور عندما كان بسبيل بيان العلاقات بين الدين والعلم ، عرفهما بقوله :

« إن حقائق ما فوق الطبيعة هى الجذور الحقيقية لشجرة العلم ، وهى بدونها تجف وتذبل ، وتتصوح أوراقها وتسقط ،

وإليك ما قاله الطبيعى (ريومور) مؤكداً :

« إن التاريخ الطبيعى هو تاريخ أعمال الخالق ، ولا يوجد دليل فى متناول عقل جميع الناس على صحة ذلك غير ما يسمح به هذا العلم ،

وقال الفلكى الكبير (فاي) Faye العضو بأقاذيميا العلوم فى مؤلفه (أصل العوالم) :

« من الخطأ القول بأن العلم يفضى بصاحبه الى نكران وجود الله . »

وقال الجيولوجى الذائع الصيت (ادموند هربرت) المدرس بجامعة السوربون :

« العلم لا يمكن أن يؤدي إلى الكفر ، ولا إلى المادية ، ولا يفضي إلى التشكيك . وهذا العلامة (ميلن ادواردس) العضو بأفاهيم العلوم ، ومدرس علم الحيرانات بمتحف التاريخ الطبيعي ، قال في محاضرة له بجامعة السوربون في عرض على نظريات الفلسفة المادية :

« هذه الفروض الباطلة ، وأولى بك أن تقول هذه الضلالات العقلية التي يسمونها أحيانا باسم العلم الحسى ، يدحضها العلم الحق نفسه ؛ وعلماء التاريخ الطبيعي لا يستطيعون تصديقها اليوم ، كما كانوا لا يصدقونها على عهد رومور ، ودولينيه ، ودوكوفيه ، وعدد كبير آخر من أهل الألمعية ، ولا يستطيع هؤلاء الأعلام أن يفهموا الظواهر الطبيعية ، إلا بعزو حدوثها إلى خالق الكون نفسه .

هذه آراء بعض أقطاب العلم الطبيعي ، ولدينا منها الشيء الكثير ، وجميعهم يقررون ، كما ترى ، أن سبب إيمانهم بالخالق جل شأنه هو العلم الطبيعي نفسه ، فإذا كان أنصاف العلماء وطلاب العلوم يتأدون منه إلى عكس هذه النهاية ، فليس العاب في ذلك على العلم ، ولكن على اتخاذهم بنظرياتهم ، واعتبارها أمورا مقررّة ثابتة ثبوت المحسوسات ، وهذا خطأ جسيم لم يقل به عالم يعتد برأيه إلى اليوم .

إن طالب العلوم الطبيعية ، كثيرا ما يفتن بتعليلاتها للشاهدات تعليلا يمكن تحقيقه بالعمل ، ولكن هذا التعليل العلى لا يتعدى العلل القريبة من تفاعلاتها ، أما العلل البعيدة التي تتعلق بوجودها ، وبتطوراتها ، وبحركاتها الباطنة ، فتخفى على أسمي العقول ، وتدع المجال واسعا أمام الفروض والظنون المتعكسة .

طالب العلم ينخدع من إمكانه تعليل بعض ظواهر الطبيعة ، ويبني على ذلك قصورا من الأوهام : فإذا سأله عن سر عدم سقوط القمر على الأرض ، علله بأنه يجب أن يكون مجذوبا بكواكب أخرى تمسكه في مدار لا يتعداه ، ويغفل عن أن الجاذبة العامة إن عللت تجاذب الكواكب فلا تعلل حركاتها . فقد سئل نيوتن مكتشف هذا الناموس نفسه عن دليل لا يمكن دحضه يثبت به وجود الخالق ، فقال : إذا قررنا أن الكواكب لا يتساقط بعضها على بعض لأنها متجاذبة من جميع جهاتها ، فما الذي يدفعها لتسيح في الفضاء في أفلاك بعضها حول بعض ؟ أليس يدل هذا دلالة قاطعة على أن يد الله هي التي تديرها ؟

محمد فريد ومجدي

المساجد الثلاثة

المسجد الحرام - المسجد النبوي - المسجد الأقصى

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ طه محمد الساكت
المدرس بالأزهر

عن أبي هريرة رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ ^(١) إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ : مَسْجِدِي هَذَا ، وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ، وَالْمَسْجِدَ الْأَقْصَى » ^(٢) . رواه الشيخان .

أفضل بقاع الأرض المساجد ، ما في ذلك ريب : وكفى أنها بيوت الله التي أذن أن ترفع ويُذكر فيها اسمه . وهي — وإن شُرُفت كلها باقتسابها إلى الله عز وجل — تختلف شرفاً وفضلاً باختلاف قدمها وسعتها ، واقتربها من السنة وابتعادها .

وقد رفع الله ثلاثة منها درجات ، فقدّمها على ما عداها ، وكرّمها ، وفضّلها تفضيلاً ؛ وتلك هي النّوّة بأسمائها ^(٣) رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث .

أما المسجد الحرام فهو أعظمها فضلاً ، وأجلها شأنًا ، وأرفعها مكانًا ؛ جعله الله مثابة للناس وأمنًا ، في مكة البلد الأمين ، مهبط الوحي ، ومبعث الرسالة ، ومولد خاتم النبيين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . اختاره الله تعالى قبلة لعباده ، وجعل زيارته زكناً من أركان دينه ، وأمر أبا الأنبياء خليله إبراهيم

(١) الرحل البعير كالسرج للفرس ، وشد الرحال كناية عن السفر مطلقاً .

(٢) سمي بذلك لبعده عن مسجد مكة أو المدينة ، أو لانه لم يكن وراءه مسجد ، أو لبعده عن القدر والجس .

(٣) نوه باسمه : إذا رفع ذكره .

عليه السلام أن يبنيه ويرفع قواعده ، ويؤذّن في الناس بالحج إليه ؛ ليأتوه رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . وليس على وجه الأرض موضع يجب على كل قادر أن يسعى إليه ، ويطوف به ، ويقبل بعضه إلا هذا البيت . وحسبك ما روى أن الصلاة فيه بمائة ألف صلاة فيما سواه ، وما صح أن من حجه مخلصا لله فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه . وهل تنتظر شهادة على فضله أبلغ من قول أصدق القائلين فيه « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمنا ، والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين » ؟

وبلى المسجد الحرام في الفضل مسجدُ النبي صلى الله عليه وسلم ، على ما ذهب إليه العلماء . قال النووي في شرح قوله صلى الله عليه وسلم : « صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام » ^(١) : اختلف العلماء في المراد بهذا الاستثناء على حسب اختلافهم في مكة والمدينة : أيهما أفضل ؟ ومذهب الشافعي وجماهير العلماء أن مكة أفضل من المدينة ، وأن مسجد مكة أفضل من مسجد المدينة . وعكسه مالك وطائفة ؛ فعند الشافعي والجمهور : معناه إلا المسجد الحرام ، فإن الصلاة فيه أفضل من الصلاة في مسجدي . وعند مالك وموافقيه : إلا المسجد الحرام ، فإن الصلاة في مسجدي تفضله بدون الألف ^(٢) . ويؤيد مذهب الجماهير ما رواه الترمذي والنسائي عن عبد الله بن عدى رضى الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو واقف على راحلته بمكة يقول : « والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت » ؛ وما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام ، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة في مسجدي » .

(١) رواه الشيخان عن أبي هريرة .

(٢) انظر النووي على مسلم ، والفتح على البخاري ، ووافا. الوفا بأخبار دار المصطفى -

في الكلام على المساجد الثلاثة .

وقد بناه النبي صلى الله عليه وسلم ، وأسسه على التقوى من أول يوم ^(١) بعد مقدمه من مكة إلى المدينة ، دار السلام ، وموئل الإسلام ؛ من بعد أن أسس مسجدَ قُباة ^(٢) في بني عمرو بن عوف ، وكان قد أقام فيهم أربع عشرة ليلة .

أمر صلوات الله وسلامه عليه باتخاذ اللَّسَنِ فاتخذ ، وبني المسجد في مَبْرَكِ ناقة ، وهو يومئذ مَرَبْد تَمَر ^(٣) ليتيمين في المدينة ، وكانا راغبين أن يجعلنا ثمنه هبة لله ورسوله ، فأبى صلى الله عليه وسلم إلا الثمن ، وابتاعه منها بعشرة دنانير ، أداها من مال أبي بكر رضى الله عنه ، ثم سُقِف بالجريد ، وجعلت مُعَمَّده من خشب النخل ، وعمل فيه المهاجرون والأنصار ، وكان صلى الله عليه وسلم ينقل معهم اللَّسَنِ في بناءه ، وهو يتمثل بقول عبد الله بن رَوَاحه رضى الله عنه :

كَهَذَا الْحِمَالُ ، لَا حِمَالُ حَيْبَرُ كَهَذَا أَبْرُ - رَبَّنَا - وَأَطهرُ ^(٤)
وقوله :

اللهم إِنَّ الْأَجَرَ أَجْرُ الْآخِرَةِ • فَارْحِمِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ

وجعلت قبلته الى بيت المقدس ؛ وكان صلى الله عليه وسلم يصلى نحو بيت المقدس بعد مقدمه الى المدينة حتى ولاه الله القبلة التي يرضاها وهي الكعبة البيت الحرام ، على رأس سبعة عشر شهرا ؛ وبما جاء في فضل هذا المسجد مارواه الامام أحمد باسناد صحيح من حديث أنس رفعه « من صلى في مسجدى أربعين صلاة لا تقوته صلاة كتب له براءة من النار ، وبراءة من العذاب ، وبراءة من النفاق » . وأما المسجد الثالث فهو بيت المقدس ، مسجد الأنبياء السابقين ، وقبله الأمم السالفة ، وقبله هذه الأمة كذلك سبعة عشر شهرا كما قدمنا آنفا ؛ وورد أن الصلاة فيه بخمسمائة صلاة فيما سواه ^(٥) إلا المسجد الحرام والمسجد النبوى .

(١) إشارة إلى الآية الكريمة « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم ... » وسيفر لك وجه الحق في سبب نزولها .

(٢) قباة من هوالى المدينة على نحو ثلاثة أميال منها ، وهى في الأصل اسم بئر في هذا الموضع . (٣) المرید بوزن منبر : الجرين أو مربوط الابل .
(٤) أى المحمول من اللبن والحجارة في بنيان هذا المسجد ، أبر وأزكى عندك ياربنا من أحوال خير تمرها وزيتها . (٥) رواه البزار باسناد حسن .

وروى النسائي عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن سليمان بن داود عليهما السلام لما بنى بيت المقدس سأل الله عز وجل خلا لا ثلاثا : حكما يصادف حكمه ^(١) فأوتيته ؛ وملكا لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيته ؛ وسأل الله تعالى حين فرغ من بنائه ألا يأتيه أحد لا ينهزه ^(٢) إلا الصلاة فيه أن يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه . وروى أبو داود عن ميمونة مولاة النبي صلى الله عليه وسلم ^(٣) أنها قالت : يارسول الله ، أفتنا في بيت المقدس ، فقال « إيتوه فصلوا فيه ، فإن لم تأتوه وتصلوا فيه فابعثوا بزيت يسرج في قناديله » .

هذه هي المساجد الثلاثة المقدسة ، التي تشد الرحال اليها ، وتحتل المشاق في سبيلها ، وتتفق النفقات في زيارتها والصلاة فيها ؛ وأما غيرها فلا يدركها في هذه المنزلة ، ولا يلحقها في تلك المزية . فالذين يتحملون النفقات في السفر الى مسجد سواها ، أو يرهقون أنفسهم في الذهاب الى غيرها ، جاهلون بسنة نبيهم ، أو متبعون لأهوائهم ^(٤) ؛ وحق على أهل العلم أن يهدوهم صراطا سويا .

نعم ؛ إن الرحلة للقاء الصالحين ، أو الأخذ عن العلماء العاملين ، أو النظر في ملكوت السموات والأرض ؛ كل ذلك مما رغب فيه الكتاب والسنة وشهدت به سيرة السلف ؛ قال الامام الغزالي : كان سعيد بن المسيب يسافر الأيام في طلب الحديث الواحد . وقال الشعبي : لو سافر رجل من الشام الى أقصى اليمن في كلفة تدله على هدى أو ترده عن ردى ما كان سفره ضائعا . ورحل جابر بن عبد الله الى مصر مع عشرة من الصحابة ، فساروا شهرا في حديث بلغهم عن عبد الله ابن أنيس الأنصاري يحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعوه ^(٥) . والآثار والآثار في الارتحال الى طلب العلم ، وزيارة الاخوان ، والتدبير في آيات الكون ، وآثار السابقين ، أكثر من أن يلم بها كتاب فضلا عن مقال .

(١) أي أن يكون حكمه موافقا لحكم الله عز وجل وشريعته .

(٢) لا يخرج من ولا يدفعه .

(٣) خادمه .

(٤) ومن هؤلاء أقوام أولموا بالموالد ، ورأوا فرضا عليهم أن يؤدوا مساجد الله

وعبادته ، بشدة زحامهم ، وكثرة ضجيجهم ، وبلغ أقدارهم .

(٥) انظر إحياء العلوم في آداب السفر .

والحق بعض العلماء مسجد قباء بهذه الثلاثة فأجاز شد الرجال اليه لأنه أول مسجد بنى في الإسلام ، وأول مسجد أعلن فيه النبي عليه والصلاة والسلام الجماعة بأصحابه ، وأول مسجد بنى لجماعة المسلمين عامة ، وكانت المساجد قبلة خاصة للأفراد أو القبائل ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يزوره كل سبت راكباً أو ماشياً ، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يحرص على ذلك اقتداء به صلى الله عليه وسلم .

واختلف العلماء في أى المسجدين نزل قوله تعالى ﴿ الْمَسْجِدُ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ۚ فَرَضَ جَمَاعَةٌ — مِنْهُمْ مَالِكٌ — إِلَى أَنَّهُ مَسْجِدُ قَبَاءَ مُحْتَجِينَ بِمَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْمَسْجِدِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ، فَقَالَ : هُوَ مَسْجِدُكُمْ هَذَا ، يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ . قَالَ النَّوَوِيُّ : وَهَذَا نَصٌّ بِأَنَّهُ الْمَسْجِدُ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى الْمَذْكُورُ فِي الْقُرْآنِ ، وَرَدَّ لَمَّا يَقُولُ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّهُ مَسْجِدُ قَبَاءَ .

والحق كما قال الحافظ ابن حجر أن كلا منهما أسس على التقوى من أول يوم بنى فيه ، وأن قوله تعالى في بقية الآية ﴿ فِيهِ رَجُلَانِ يَتَزَكَّىٰنَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يَكْتُبُ الْمُحْسِنِينَ ۚ ﴾ يؤيد أن المراد مسجد قباء كما روى في سبب نزولها بسند صحيح . والسر في إجابته صلى الله عليه وسلم بأنه مسجد المدينة رفع ما يخطر بالبال من أن التأسيس على التقوى خاص بمسجد قباء ، وبيان أن مسجد المدينة يشاركه في هذه المزية ، ويمتاز عنه بفضائل أخرى .^(١)

وبعد ، فإن الحنيفية السمحة تدعو إلى الأسفار النافعة ، والرحلات المباركة ، التي تثمر ثمرها وتؤتي أكلها ، وتدل على الخير والهدى ، وتدفع الشر والردى ؛ كما تحذر من الأسفار العابثة والضائعة ، التي لا تكسب صاحبها في الدين أجراً ، ولا في الدنيا خيراً .

(١) وأما زيارته صلوات الله وسلامه عليه فكان المقصود الأول منها مواصلة أهل قباء وتفقد أحوالهم وأحوال من ظاب منهم عن شهود الجمعة معه وهذا هو سر تخصيص الزيارة بالسبت .

فطرة الله

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدني
المدرس في كلية الشريعة

قال الله تعالى : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . » .
يذكر الله عز وجل في هذه الآية ، أن الاعتراف به ، وإفراده بالالوهية ، فطرة فطر الناس عليها ، فإذا نُحِلَ المرء ونفسه ، حُكِمَ بأنه مربوب لإله قادر حكيم ، خلقه وأنعم عليه ، وأن هذا الإله واحد لا شريك له ، ولا سلطان لأحد مع سلطانه ؛ يرشده إلى ذلك عقله الذي ركب فيه ، ومنح قدرة يستطيع بها إدراك الحقائق ، والتمييز بينها وبين الأباطيل ، فهو يقول لنفسه : أنا قد وجدت بعد أن لم أكن ، فحال أن يكون وجودي بدون مُوجد ، ثم هذا المُوجد الذي أوجدني لا بد أن يكون قادراً حكماً منعماً ، لأنه قد أوجد كثيراً من أمثالي ، وأنعم علينا بنعم لا تعد ولا تحصى ، تحيط بنا من كل جانب ، ولم يتركنا في هذه الحياة دون أن يَمُنِحنا وسائل العيش فيها ، وأدوات السكون والقرار إليها ، وقد جعل ذلك كله على نظام محكم متقن ، لا يعتريه الخلل ، ولا يتطرق إليه الفساد ؛ ولا بد أن يكون الموجد لهذا كله ، والمنعم بهذا كله ، والمتقن لهذا كله ، إلهاً واحداً ليس كمثل شيء ، لأنه لو كان متعدداً له نظير أو نظائر ، لاضطرب النظام ، وفسد السكون ، وذهب كل إله بما خلق ، وعلا بعضهم على بعض ...

هذه القوة الفطرية المركوزة في الإنسان ، والتي ترشده إلى إدراك الحق والواقع في شأن الالوهية إذا خلا من المؤثرات المصنوعة ، والعوامل الطارئة — هي التي يذكرها الله عز وجل في هذه الآية ، ويذكرها في آيات أخرى ، على صورة أخرى ، إذ يقول : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ، أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ

إننا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل ، وكنا ذرية من بعدهم ، أفنتهلكنا بما فعل المبطلون . وكذلك نفصل الآيات ، ولعلمهم يرجعون ، (١٧٢ - ١٧٤ / الأعراف) .

فسواء أكان هذا من قبيل الحقائق التي وقعت وأخبرنا الله بها ، أم من قبيل التمثيل والتصوير ، فقد اعترف أبناء آدم بأن لهم ربا ، وأن هذا الرب هو المستحق وحده لعبادتهم ؛ اعترفوا بذلك قولاً ونطقاً ، أو تكويناً وخلقاً ، فلم يعد لأحد عذر في أن يخرج على هذه الحقيقة التي آمن بها وقررها ، وهو خال من كل مؤثر ، بعيد عن كل إضلال وتحكم ؛ ولم يعد لأحد حق في أن يزعم أنه إنما أشرك بالله لأن آباءه قد أشركوا فهو قد ورث عنهم الباطل من حيث لا يدري ، ولم يبدعه ويخترعه من ذات نفسه حتى يؤاخذ به ويعاقب عليه ؛ لم يعد لأحد أوقى العقل أن يعتذر بهذا العذر ، أو يحتاج بهذه الحجة ، وفي الكون آيات ، وفي الخلق شواهد بينات ! .

وشبه بهذا في القرآن الكريم أيضاً قوله تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به ، إذ قلتم سمعنا وأطعنا ، (٧ / المائدة) .

والقرآن الكريم يسوق هذه الفطرة التي من شأنها أن تؤمن بالله وتفرده بالربوبية ، مساقاً آخر حين يتحكم إلى العقول وما في الكون من آيات وشواهد تدل على الله ، فيقول : « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ، (١٦٣ - ١٦٤ / البقرة) .

ويقول : « والله ملك السموات والأرض ، والله على كل شيء قدير . إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الأبصار ؛ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً ، سبحانه ، (١٨٩ - ١٩١ / آل عمران) .

ويقول : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من مُفروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ؛ تبصرةً وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحبَّ الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتا ، كذلك الخروج » (٦ - ١١ / ق) .

ويقول : « أم اتخذوا آلهة من الأرض هم يُنشِرون . لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون . أم اتخذوا من دونه آلهة ، قل هاتوا برهانكم ، هذا ذكرٌ من معي وذكرٌ من قبلي ، بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون . » (٢١ - ٢٤ / الأنبياء) .

بل يصل في تعظيم شأن البرهان والعقل إلى أن يقول : « ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهانَ له به ، فإنما حسابه عند ربه » (١١٧ / المؤمنون) .
ومن المعلوم أنه لا برهان لمن يدعو مع الله إلهاً آخر ، ولكنه مع ذلك ساقه مساق الممكن ، اعتداداً بالعقل وثقة بحكمه :

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة المنبثة في الكتاب الكريم التي تخاطب العقول ، وتستشهد بما في الكون من آيات ؛ ونفهم منها أن الله جلت حكمته قد طبع الخلق وفطرهم على الإيمان به وتوحيده ، وأن مظهر ذلك هو العقل الذي لا يسعه حين يتدبر الدلائل ويرى هذا الكون البديع إلا أن يعترف ويؤمن بصانعه القدير .

وقد جمع الله عز وجل في بعض الآيات بين العهد الذي أخذه ، والعقل الذي أودعه ، ومن ذلك قوله : « إنما يتذكر أولو الألباب ، الذين يُؤفون بعهد الله ولا يتقضون الميثاق » (١٩ - ٢٠ / الرعد) . وقوله : « ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدوني ، هذا صراط مستقيم ، ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون » (٦٠ - ٦٢ / يس) .

ولقد حدثنا القرآن الكريم أن المشركين أنفسهم لم يكونوا منكرين لهذه الفطرة إنكاراً صريحاً، ولكنهم كانوا يبررون ما هم عليه من شرك بمبررات يزعمونها، كأن يقولوا: «هؤلاء شفعاؤنا عند الله» (١٨ / يونس) أو يقولوا: «ما فعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى» (٣ / الزمر). وأنهم حين يسألون عن مصدر هذا الوجود، ومفيض هذا الإلحاح، يمترون بأنه الله وحده دون هؤلاء الشركاء الذين اتخذوهم؛ ولذلك انفع الرسل بهذه الفطرة، وخاطبوا في أهمهم هذه الغريزة، واتخذوا منها حجة قائمة دامغة على تناقض المشركين مع أنفسهم، وخروجهم على مقتضى العقل: «وإن سألتم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون» (٨٧ / الزخرف) «قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار، ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، ومن يدبر الأمر، فسيقولون الله، فقل أفلا تتقون» (٣١ / يونس) «أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها؟ أإله مع الله؟ بل هم قوم يعدلون. أم من جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً؟ أإله مع الله؟ بل أكثرهم لا يعلمون. أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض؟ أإله مع الله؟ قليلاً ما تذكرون. أم من يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته؟ أإله مع الله؟ تعالى الله عما يشركون» (٦٠ - ٦٣ / النمل).

وهكذا يقف أمامهم رافعاً لواء الحق في قضية تعرفها عقولهم وقؤمن بها فطرهم، فينبئ عليها، ويجادلهم على أساس التسليم بها، والإذعان لها، ويفتن في تعجيبهم والتعجب منهم، في هجوم عنيف، وسخرية موجهة، وكأنه يمسك بتلابيبهم، أو يقبض على نواصيهم أن يفلتوا من الحجة، أو يتهربوا من لوازمها البينة، فهم منها في قيد أيّ قيد، يحاولون الخلاص، ولات حين مناص!

ولم يكن ذلك شأن المشركين على عهد محمد صلى الله عليه وسلم فحسب، وإنما هو شأنهم على عهد كل رسول: كانوا ينتوون عن مقتضى الفطرة فيجابهم بها رسلمهم، ويتخذون منها الحجة القاطعة عليهم؛ وفي ذلك يقول الله عز وجل:

« ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ؛ جاءتهم رسلهم بالبينات فرددوا أيديهم في أفواههم وقالوا : إنا كفرنا بما أرسلتم به ، وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب . قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض ، (٨ - ٩ / إبراهيم) . »

وكما جاء القرآن الكريم بآيات هذه الفطرة ، والمحاجة على أساسها ، جاءت السنة الصحيحة بذلك :

أخرج البخارى ومسلم فى صحيحهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة — وفى رواية على هذه الملة — فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه . »

وفى صحيح مسلم عن عياض ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله : إني خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم ، فأى حوتهم . »

وأخرج النسائى فى سننه عن الحسن بن أبى الحسن البصرى ، قال : حدثنى الأسود بن سريع ، قال : غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع غزوات قال : فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشتد عليه ، ثم قال : « ما بال أقوام يتناولون الذرية ؟ ! » فقال رجل : يا رسول الله أليسوا أبناء المشركين ؟ فقال : « إن خياركم أبناء المشركين ! ألا إنه ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها ، فأبواها يهودانها وينصرانها . »

فكل هذه الأحاديث تدل على ما يدل عليه القرآن الكريم من أمر الفطرة ، وأن الذى يصرف عنها إما تقليد للآباء ، وإما صارف من الهوى والشيطان .

وفى الحديث الثالث ما يدل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى أن يعامل أبناء المشركين بما يعامل به آبائهم من القتل ، أملا فى أن يثوبوا — إذا بلغوا الرشد — إلى فطرة الله التى فطر الناس عليها ، ويقاوموا بالعقل أسباب التعصب وبواعث الهوى .

بمناسبة المولد النبوى

سيد الانبياء فى شعر أمير الشعراء

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد عنتر

المدرس بكلية اللغة العربية

أعتقد أنه لم يحفل شاعر من شعراء النهضة الحديثة ، فى مصر أو فى الشرق العربى ، بمدح رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، مثلما حفل بذلك أمير الشعراء أحمد شوقى بك . هنا الله روحه ، وأمطر جدته شأيب رحمته ، وأفاض عليه من سجال رضوانه !

كما أعتقد أن هذه الحفاوة البالغة بالرسول عليه السلام ، من شاعر ملهم مجيد ، أثر من آثار محبة هذا الشاعر للدوح ، ولما جاء به من شريعة محكمة ، جمعت إلى التوحيد محاسن الخصال ، ومكارم الأخلاق ، ونظاما كاملا للحياة الإنسانية الهنيئة السعيدة !

وقد ظهرت هذه المعانى واضحة جلية فى شعره الذى سنعرض لذكر أيسات منه عند المناسبة .

ولئن تأثر شاعرنا فى هذا الغرض الشعرى بشعر مآدح رسول الله فى عصر الماليك ، الإمام المحب للحضرة النبوية ، الشاعر الذائع الصيت ، سيدى محمد البوصيرى ، إن لشعر أمير الشعراء ديباجة شعرية خاصة ، ومعانى خيالية ملهمة ، وآساليب من السهل الممتنع ، تكاد تضارع أساليب الشعر فى العصر العباسى الأول ! وحسبى أن أورد على دعواى هذه دليلين من أدلة كثيرة أضرب عنها صفحا لطول الكلام :

١ — قال البوصيرى فى مطلع همزيته :

كيف ترقى رُقَيْكَ الأنبياءُ يا سماءَ ما طاولتها سماءُ ؟ !

وقال شوقى فى افتتاح همزيته النبوية :

وُلد الهدى فالكائنات ضياءُ وفمُ الزمان تبسمُ وثناءُ !

فالقارىء الأديب يحسّ الفارق الكبير بين المعنيين ، ويدرك بوضوح تجلّى الروح الشاعرية الفتيّة فى بيت شاعرنا ، وظهور الحقيقة الواقعية المتسمة ببعض الخيال فى بيت الإمام .

ب — قال البوصيرى فى مطلع البردة ، أو البردة :

أمن تذكر جيرانٍ بذى سَلم مزجتَ دمعاً جرى من مُقلة بدم ؟ !

وقال شوقى فى مطلع نهج البردة :

ريمٌ على القاع بين البان والعلم أحلّ سفك دمي فى الأشهر الحرم^(١)

المعنى فى بيت البردة مطروق بين الشعراء القدامى والمحدثين ، وهو فى بيت النهج مبتكر جديد ، أودع فى ثوب من جوهر اللفظ قشيب . ومع هذا فأليك ما يقوله أمير الشعراء تواضعاً منه وتأدباً مع الإمام البوصيرى :

يا أحمدَ الخير لى جاءَ بتسميتى وكيف لا يتسامى بالرسول سَمِى^(٢) ؟ !

المادحون وأربابُ الهوى تبَعُ لصاحب البردة الفيحاء ذى القَدَم^(٣)

مديحه فيك حب خالص وهوى وصادقُ الحب يملئ صادقَ الكلام

الله يشهد أنى لا أعارضه من ذا يعارض صوبَ العارض العَرم^(٤)

ولنما أنا بعض الغابطين ومن يغبط وليك لا يُذِمُّ ولا يُكَلِّم .

(١) الرّيم بالياء : أصله الرّثم بالهمز ، وهو ولد الظبي . والقاع : الأرض المستوية . والبان :

شجر . واللم : الجبل .

(٢) من أسماء الرسول عليه السلام أحمد ، واسم شوقى أحمد ، فهو سَمِى الرسول ،

ويتسامى : يتعالى .

(٣) أى التّقدم والمنزلة .

(٤) العارض : السحاب . والرم : المطر الشديد .

وبعد ، فليس هذا المقام مقام موازنة أدبية بين البوصيرى وشوقي ، وإنما هو مقام تجلية المدائح النبوية في شعر من شهد له شعراء المشرقين بالزعامة والإمارة على جميع شعراء هذا العصر . فلنسر في هذا الطريق فنقول :

تجلى مدح شوقي لرسول الله في أربع قصائد من قصائده الغرّ ، جاءت كل قطعة منها صورةً فنية رائعة ، تمثل المعاني التي تضمنتها أبدع تمثيل ، وتسمو بقارئها وسامعها من التخيل إلى التحقيق ، حتى كأنه يلبس المعنى من اللفظ بدون كد أو عناء !

١ — اختير أمير الشعراء ممثلاً للحكومة المصرية في المؤتمر الشرقي الأول ، الذي عقد في مدينة جنيف بسويسرا عام ١٨٩٤ م فأشدد قصيدته الحمزية العصماء ، التي عنوانها ، كبار الحوادث في وادي النيل ، .

وهي تُرتب على ثلاثمائة بيت من حُرّ الشعر وخالص القريض ؛ طرق فيها موضوعات شتى ، ثم أفاض في مولد المسيح عيسى عليه السلام ، وفي حرّم دولة القياصرة ، وانتشار الظلم والفساد في أنحاء العالم شرقاً وغرباً ، وانغماس أكثر الناس في عبادة الأوثان ، واستيلاء الجهل على النفوس ، حتى أظلم الشرق والغرب ، وعمت الفوضى ، وتطلعت القلوب إلى السماء متضرعة أن تنقذها من تلك الفوضى العاتية ، وأن تبدد عنها ذلك الظلام الحالك ، ثم قال عفا الله عنه :

أشرقَ الثُّورُ في العوالم لما بشرتها بأحمدَ الأنبياءِ
باليقيمِ الأسمى والبشرِ المُو حى إليه العلومُ والأسماءُ
قوةَ الله إن تولّت ضعيفاً تعبت في مراسه الأقوياءُ (١)
أشرفُ المرسلين آيته الطُّـقُ مُبيناً وقومه الفُصَحَاءُ
جاء للناسِ والسرائرِ فوضى لم يؤلّف شتاتهنِ لواءُ
وحى الله مستباحٌ وشرع اللّهُ والحقُّ والصوابُ وراءُ

(١) للراس : المارسة والمعالجة .

فلجبريلَ جِيْمَةٌ ورواحٌ وهبوط إلى الثرى وارتقاءُ
يحسب الأفقُ في جناحيه نوراً سُلْبَتُهُ النجومُ والجوزاءُ
تلك آى الفرقان أرسلها اللهُ ضياءً يهْدِي بها من يشاء
نَسَخَتْ سنةَ النبين والرُسُلِ كما يفسخُ الضياءُ الضياءُ

وهاك ما قاله في إنصاف عمرو بن العاص الذى تولى فتح مصر، فخلب لأهلها العدل والنصفه، وجلب للإسلام بها الخير والبركة؛ وقد أشاد الشاعر بالنيل العظيم، وأبان بأن من يستولى عليه فقد استولى على قارة أفريقية، وأن أفريقية يعلو شأنها، ويستقيم أمرها إذا حرر وادى النيل من منبعه الى مصّبه، بحلاء الأعداء عن أراضيهِ، وأن فى استرقاق النيل رق هذا القسم من اليابسة؛ وذلك إزراء شأن، وعيب فاضح! قال:

فابك عمراً إن كنت منصف عمرو إن عمراً لنير وضاء
جاد للمسلمين بالنيل والنيل لمن يقتنيه أفريقاء
فهى تعلو شأننا إذا حرر النيل وفى رقه لها إزراء

رحم الله أمير الشعراء! لقد كان وطنياً مخلصاً لوطنه، قبل أن يكون شاعراً خيالاً مجيداً لشعره!

٢ — تنقل معي أيها القارئ إلى روضة أخرى من رياض شوق فى مدح نخر الكائنات، لترى كيف يكون التفنن فى القول، ولتعرف مقدرة هذا الشاعر على إبراز شاعريته وإبداع تفننه فى مقام واحد، بأساليب شتى، وأفانين مختلفة. قال من قصيدته فى ذكرى المولد النبوى:

تجلى مولد الهادى وعمّت	بشائره البوادي والقصابا ^(١)
وأسدت للبرية بنتُ وُهب	يداً بيضاء طوّقت الرقابا
لقد وضعتهُ وهاجاً منيراً	كما تلد السمواتُ الشهابا
فقام على سماء البيت نوراً	يضىء جبال مكة والنقابا ^(٢)

(١) المدن الكبيرة، ومفردها قصبه.

(٢) جمع قتب وهو الطريق فى الجبل.

وضاعت يشرب الفيحاء مسكاً وفاح القاع أرجاء وطاباً^(١)
ثم قال مخاطباً الرسول عليه السلام ، يذكر تفرق المسلمين ، وينعى عليهم
تضييع سنة الرسول وطريقته المثلى ، ومجرم أخلاقه وأخلاق أصحابه التى سادوا
بها الأمم :

وما للمسلمين سواك حصن إذا ما الضّر مستهم وناباً !
ولو حفظوا سبيلك كان نوراً وكان من النحوس لهم حجاباً !
بنيت لهم من الأخلاق ركناً تخافوا الركن فانهدم اضطراباً !
وكان جنابهم فيها مهيباً وللأخلاق أجدر أن تهاباً !
فلولاها لسوى الليث ذنباً وسوى الصارم الماضى قراباً^(٢)

أظنك أيها القارىء ترى معى أن هذا الشعر غنى بوضوحه عن الشرح والبيان ،
وأنة جمع إلى جمال الأسلوب الشعرى فى المديح نصاعة الحكم والنصائح الغالية ،
وتدرك منه تجلّى روح الشاعر لإبراز محبة الرسول عليه السلام ، ومحبة شرعه المحكم
وما اشتمل عليه من أخلاق فاضلة !

٣ - وهذا نوع آخر من الافتتان السحرى ، والفيض الشعرى الذى يبهرك
نوره ، ويفرح من بين ثنياه عبيره ! يحيى به النبى عليه السلام ، ويمتدح شريعته
وأصحابه . قال من همزته النبوية :

ياخير من جاء الوجود تحيةً من مرسلين إلى الهدى بك جاموا
بيتُ النبيين الذى لا يلتقى إلا الخائفُ فيه والخنفاء^(٣)
خير الأبوة حازم لك آدم دون الأنام وأحرزتُ حواء
هم أدركوا عز النبوة وانتهت فيها إليك العزة القعساء^(٤)
خلقْتَ لبيتك وهو مخلوق لها إن العظماء كفؤها العظماء

(١) ضاعت رائحة المك : تحركت ، ويثرب مدينة الرسول عليه السلام ، والأرجاء
النواحي مفرداً رجا بوزن سبب .

(٢) الصارم : السيف ، الماضى القاطع ، وقراب السيف : نغمه .

(٣) الخائف : الطاهرات ، والخنفاء : الذين هم على ملة إبراهيم عليه السلام .

(٤) الحصينة الثابتة .

بك بشر الله السماء فزُيِّنَتْ وتضوعت مسكا بك الغبراء (١)
وبدا محيّاك الذى قسّماته حق وغرته هدى وحياء (٢)
وعليه من نور النبوة روفق ومن الخليل وهديه سيّام
أثنى المسيح عليه خلف سمانه وتهلكت واهتزت العذراء (٣)
يوم يقيه على الزمان صباحه ، ومساؤه بمحمد وضاء !
ذعرت عروش الظالمين فزلزلت وعلت على تيجانهم أصداء
والنار خاوية الجوانب بينهم خمدت ذوائبا وغاز الماء
والآى ترى والخوارق جمّة جبريل رّواح بها غداء
نعم اليتيم بدت مخايل فضله واليتيم رزق بعضه وذكاء
فى المهد يستسقى الحيا برجائه وبقصده تستدفع البؤساء

لعلك أيها القارىء ، وقد وصلت إلى هنا ، تحس باسقتشاق نسبات معطرة
بريّا مدح محمد صلى الله عليه وسلم فى صغره ، وأن الله اختاره من أشرف الرجال
وأطهر الامهات ، وأن أمارات النبوة قد بدت عليه وهو طفل يتيم ، إلى غير
هذا مما تبيّنته فى نفحات أمير الشعراء العطرة !

وهذا روض آخر من الشعر يتعطر السكون كله بشذاه ، وتسمع الدنيا كلها
نفحاته الساحرة ، التى تهتز لها أوتار القلوب ، وتحنّ إلى سماعها النفوس . قال
يصف أخلاقه عليه الصلاة والسلام :

بسوى الأمانة فى الصّبّا والصدق لم يعرفه أهل الصدق والأماناء
يامن له الأخلاق ما تهوى العلا منها وما يتعشّق الكبراء
زانتك فى الخلق العظيم شمائلُ يُغرى بهنّ ويولعُ الكرماء
أما الجمال فأنت شمس سمائه وملاحه الصّدق منك أياها (٤)

(١) الأرض .

(٢) ما بين الوجنتين والافف .

(٣) صريم أم المسيح عليه السلام .

(٤) الأياها : نور الشمس وبهجتها .

والحسن من كرم الوجوه، وخيرُهُ
وإذا سَخِرَتْ بلغت بالجود المدى
وإذا عفوت فقادراً ومقدراً
وإذا غضبت فإنما هي غضبةٌ
وإذا رَضِيتَ فذاك في مرضاته
وإذا خطبت فللمنابر هزةٌ
وتَمدَّ حِلْمك للسفيه مُدارياً
ما أوقى القُـسَـوَادُ والزعماء
وفعلت مالا تفعل الأنواء^(١)
لا يستهين بعفوك الجلاء
في الحق لا ضغنٌ ولا بغضاء
ورضى الكثير تحلّتم ورياء
تعرو الندى وللقلوب بكاء^(٢)
حتى يضيق بعرضك السفهاء

ثم انتقل - عفا الله عنه - يصف منزلته عليه السلام في العلم ، ويذكر معجزته الخالدة ، وشريعته الجامعة لخيري الدنيا والآخرة ، فقال :

يَا أَيُّهَا الْأُمِّيَّ حَسْبُكَ رَبَّةٌ
الذكر آية ربك الكبرى التي
نُسخت به التوراة وهي وصيةٌ
بك يا ابنَ عبد الله قامت سمحةٌ
بُنيت على التوحيد وهي حقيقة
ومشى على وجه الزمان بنورها
لما دعوت الناس لبي عاقلٌ
أَبَوْا الخروج إليك من أوهامهم
ومن العقول جداولٌ وعلامدٌ
في العلم أن دانت بك العلماء
فيها لبغى المعجزات غناءٌ
وتخلف الإنجيل وهو ذكاء
بالحق من ملل الهدى غراءٌ
نادى بها سُقراط والقُدماءُ
كُتِهَان وادى النيل والعُرُفَاءُ !
وأصمَّ منك الجاهلين نداءُ
والناس في أوهامهم مُسَجِّنَاءُ !
ومن النفوس حرائرٌ وإماء !

ثم وجه شاعرنا الخطاب إلى رسول الله ، متخلصاً إلى وصف حال المسلمين ، فقال :

(١) الأنواء جمع نوء ، وهو النجم الساقط أو الطالع . وكانت العرب ترمي أن الأمطار والرياح والحُر والبرد من فعلها ! .
(٢) الندى لغة في النادى .

أدعوك عن قومي الضعاف لازمة في مثلها يُلقَى عليك رجاءُ
أدري رسولُ الله أن نفوسهم ركبت هواها والقلوبُ هواهُ ؟
متفككون فما تضمُّ نفوسهم ثقة ولا جمع القلوب صفاءُ !
رقدوا وغرَّهم نعيمٌ باطلٌ ونعيم قومٍ في القيود بلاء !
ظلموا شريعتك التي نلنا بها مالم تنل في رومة الفقهاءُ
مشت الحضارة في سناها واهتدى في الدين والدنيا بها السَّعداءُ
صلى عليك الله ما صحب الدُّجى حادٍ وحنّت بالفلا وجنأ^(١)

هذه قطع من همزية أمير الشعراء في مدح الرسول ، وهي ترينا ما يكتنه صدر هذا الشاعر من حب سيد الأنبياء . والإشادة بالدين الذي جاء به . والقطعة الأخيرة تنعى على الأمة الإسلامية موقفها من الشريعة ، ومُتهيب بها أن تنبذ بعد الخول ، وأن تستيقظ بعد طول الرقاد .

فهل آن للسلمين والعرب أن يستجيبوا لداعى الوطنية ، فيتحلوا من قيود الاستعباد ، ومن قيود الأهواء ؟ ! لعل هذا يكون قريباً : ولا سيما أنهم قد رأوا بأعينهم ، وسمعوا بأذانهم ما حل بفلسطين « المجاهدة » ، ولا أقول « الشهيدة » لأنها تجاهد الآن وتستبسل في سبيل حريتها ، وستنتصر على جميع أعدائها بإذن الله ؛ والله مع الصابرين !

أيها القارئ الكريم ! أرى أن أقنصر في هذه المناسبة على ماسمته إليك من شعر شوقي في مديح المصطفى ؛ وهو قطرة من بحر مما جادت به قريحته الوقادة في هذا المقام . وسأعود إلى إتمام الحديث في فرصة أخرى ، إن شاء الله ؟

نظرية الارتكاب بالترك في الشريعة الإسلامية وفي القانون المقارن

لحضرة الأستاذ المحترم الدكتور أحمد محمد إبراهيم

من وكلاء النيابة العمومية

اعتاد عامة الناس سماع القول بأن أحكام الشريعة الإسلامية لا تتفق مع ما وصل إليه العقل الإنساني في تطوره ، وما ابتدعه من نظريات قانونية ليس لها وجود في فقه الشريعة . ومن المولم أن تكرار هذا القول أثر في تفكير كثير من المسلمين ، فتراهم يرددونه في بساطة ، وكأنه قاعدة لا تحتل جدلاً أو نقاشاً ، لكثرة ما ألفوه .

ولست أقصد الآن أن أناقش هذه الفكرة ؛ ولكني أريد أن أضع أمام المسلمين وغيرهم بعض ما جاء في كتب الشريعة الغراء عن نظرية الارتكاب بالترك ، التي ينسب فضل القول بها إلى علماء ألمانيا ، والتي اعتبرت مجداً قانونياً لهم . وسيرى المطلع على هذا البحث أن فقهاء الشريعة الغراء - رحمهم الله - قد عرفوا هذه النظرية قبل أن يعرف عنها العلماء الألمان شيئاً بقرون .

وقبل أن نبين معنى هذه النظرية يجب أن نذكر أولاً أن علماء القانون يقسمون الجرائم إلى جرائم إيجابية وأخرى سلبية . ويقصد بالجريمة الإيجابية الجريمة التي تتكون من القيام بعمل مادي . أما الجريمة السلبية فهي التي تتكون من مجرد الامتناع عن القيام بواجب يفرضه القانون ؛ وبمعنى آخر الجريمة الإيجابية هي ارتكاب مانهى عنه القانون ؛ والجريمة السلبية هي الامتناع عن القيام بما أمر به القانون .

والجرائم الإيجابية هي الغالبة في القانون : ومن أمثلتها القتل والحريق والسرقة ؛ فالقتل لا يحدث إلا إذا أطلق الجاني عياراً نارياً على المجنى عليه فأرداه قتيلاً ؛ والحريق لا يتم إلا بعد وضع النار في المكان المراد حرقه ؛ والسرقة لا تحصل إلا باختلاس مال الغير . ومن أمثلة الجرائم السلبية امتناع القاضي عن الحكم في الدعوى ، وامتناع الشاهد عن أداء الشهادة .

ولا يوجد أى خلاف فى أى دولة من الدول على معاقبة من يرتكب جريمة من الجرائم السلبية أو الجرائم الإيجابية مادام القانون يعاقب عليها . ولكن الخلاف على أشده حول العقاب على ارتكاب جريمة إيجابية بطريق سلبى .

هل يعد قاتلاً من يجد آخر على وشك الغرق فيمتنع عن أن يمد له يد المساعدة قاصدا قتله ؟ وهل تعد قاتلة الأم التى تمتنع عن إرضاع طفلها ، أو عن ربط الحبل السرى له حتى يقضى نحبه ؟ هل يعد حارقاً من رأى النار مشتعلة فى منزل وكان فى إمكانه أن يطفئها ، فتركها لتلهم المنزل ؟

هذا الموضوع الذى اختلف على حكمه العلماء هو ما أسموه : « الارتكاب بالترك أو العمل بالامتناع Commission Por Ommission وهذا البحث لا يدور عادة إلا عند الكلام على جريمة القتل لمعرفة هل من الممكن أن يعد قاتلاً من يرتكبها بطريق سلبى أم لا ؟ والسبب الجوهرى للخلاف هو عدم وجود نصوص صريحة فى قوانين العقوبات تبين حكم هذه الحالة . ونذكر الآن حكمها فى بعض القوانين الوضعية ، ثم نذكر بعد ذلك ما قال به فقهاء الشريعة الغراء فى هذا الصدد .

إذا رجعنا الى القانون الرومانى ، وجدنا أنه يعتبر قاتلاً من يترك طفلاً حديث العهد بالولادة بدون طعام حتى يموت . وكان القانون الكنسى يعاقب بعقوبة جريمة القتل من يرى شخصاً معرضاً لخطر داهم ويبقى ساكناً مع قدرته على خلاصه . وقد لخص « لوازى » القاعدة القانونية فى هذا الموضوع بقوله « من يقدر ويمتنع بخطئه » . ورغم هذا فكان الرأى السائد فى فرنسا فى ذلك الوقت يخالف هذه القاعدة .

ويرى العلماء الألمان - وبرأيهم تقضى المحاكم - أن الممتنع يعاقب كقاتل إذا كان عليه واجب قانوني أو تعاقدى نحو المجنى عليه ولم يتم بهذا الواجب قاصدا قتله . فالألم التي تمتنع عن إرضاع ابنها حتى يموت تعد قاتلة ؛ والشخص المكلف برعاية أعمى ويراها سائرا نحو بئر فيتركه يهوى فيه دون أن ينبهه الى الخطر ، يعد قاتلا متى كان قد ابتغى من وراء عدم قيامه بواجبه قتل المجنى عليه . وحجتهم في قولهم بالعقاب هي أن الامتناع مظهر من مظاهر الارادة ، والقانون يعاقب على النية الجنائية ؛ فتي انتوى شخص قتل آخر فانه يعد قاتلا ، ولا قيمة للطريقة التي توصل بها لقتل المجنى عليه .

وهم يقررون في نفس الوقت أنه إذا لم يكن على الممتنع واجب قانوني أو تعاقدى فلا عقاب عليه ؛ فمن يمتنع عن أن يمد آخر بالمساعدة أو الإحسان إليه لا يمكن أن يسأل عن النتيجة التي تترتب على امتناعه ؛ لأن القانون لا يتطلب من الناس أن يكونوا محسنين ذوى مروءة ؛ وعلى هذا فلا يعد قاتلا من يرى جاره على سطح منزله والنار مشتعلة فيه ، فيمتنع عن أن يعطيه سلماً ينزل به إلى الأرض ، وهو يقصد من وراء ذلك موته حرقا .

وقد نص القانون الإيطالي على العقاب على ارتكاب جريمة بطريق الترك ، فهو يقضى بأن من لا يمنع حادثة يوجب القانون عليه منعها ، يتساوى بمرتكبها . وهو في هذا يتفق والنظرية الألمانية ، ولكنه قد توسع في العقاب ، فنص أيضاً على عقاب من يمتنع عن القيام بواجب تمليه الإنسانية ؛ ولكنه جعل هذا الامتناع جريمة خاصة ، إذ لا يعد الممتنع مرتكباً للجريمة الأصلية ، فهو يعاقب بالحبس ثلاثة أشهر وبغرامة قدرها ٣٠٠٠ ليرة من يترك بدون مساعدة طفلاً أو مجنوناً أو شخصاً في خطر ؛ وأجاز مضاعفة العقوبة في حالة الوفاة .

والقانون الإنجليزي لا يفرق بين القتل بالارتكاب والقتل بالترك . فالذى يكون متكفلاً بطفل ويمنع عنه الطعام إلى أن يموت جوعاً ، مع أن في استطاعته إطعامه ، يعاقب بعقوبة القتل العمد .

وعلى العكس مما تقدم ذهب الفقه والقضاء في فرنسا إلى عدم جواز العقاب

على ارتكاب جريمة إيجابية بطريق سلبى ؛ لأن العدم لا ينشئ إلا العدم ، والممتنع لم يتم بعمل ما ، فكيف ترتب على امتناعه نتيجة إيجابية ؟ وهذه الحجة ليست إلا سفسطة ، فليس هناك عدم أنتج عدما ؛ وإنما يوجد أعمال الإرادة على وجه معين . والشخص كما تتجه إرادته إلى العمل تتجه إلى الامتناع ، وكل من العمل والامتناع لا يعد عدما .

وقالوا إنه يشترط لوجود جريمة القتل أن تكون هناك صلة سببية بين فعل الجاني والنتيجة التى حدثت . وهذه الرابطة لا وجود لها فى حالة الارتكاب بالترك . فن يرى آخر مشرفا على الغرق ولا يساعده على النجاة بإلقاء حلقة النجاة إليه ، لا يعد قاتلا له ، لأنه مات بسبب الغرق ، وليس سبب موته عدم إلقاء الحلقة إليه . وهذه الحجة بدورها لا تقوم على أساس . فعلاقة السببية قائمة وموجودة ، إذ لولا الامتناع عن إلقاء حلقة النجاة إليه لنجا من الغرق . فسبب موته مرتبط أشد الارتباط بعدم استطاعته النجاة ؛ وثم صلة قوية بين عدم المساعدة وعدم النجاة ، يمكن القول معها بوجود علاقة السببية بين الامتناع وبين النتيجة التى حدثت . وسنتعرض مرة أخرى لهذه الحجة فى نهاية البحث :

ويستندون - فضلا عما تقدم - إلى حجة أخرى مستمدة من حالة التشريع الفرنسى . فقد صدر فى سنة ١٨٩٨ قانون يعاقب بعقوبة القتل من يتمتع عمداً عن تغذية صبي لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره بقصد قتله فيموت . وفى صدور هذا التشريع ما يدل على أن النصوص العامة لا تجيز القول بالعقاب فى مثل هذه الحالة ، وإلا لما كان هناك ما يدعو إلى إصدار هذا القانون . وقد قضت المحاكم الفرنسية بأنه لا يجوز التوسع فى تفسير هذا القانون ، فلم تطبقه على من يتمتع عن تغذية مجنون أو مريض أو عاجز .

وقد اختلف شراح القانون المصرى فى هذا الصدد ؛ فمنهم من قال بوجوب العقاب فى حالة وجود واجب قانونى على الممتنع ، ولم يتم به ، كحالة الأم التى تمتنع عن إرضاع طفلها حتى يموت ، أو لا تربط له الحبل السرى قاصدة قتله ،

والمعرضة التي تمتنع عمداً عن إعطاء الدواء للمريض ، والشخص الذي يحبس آخر ويتركه حتى يموت جوعاً .

ومنهم من رأى عدم العقاب ؛ وحجتهم في ذلك أن نصوص التشريع القائم لا تساعد على القول بالعقاب .

وهذا الخلاف بين الفقهاء تبعه خلاف مماثل بين المحاكم المصرية ، فقضى بالبراءة في قضية أم اتهمت بقتل طفلها ، بتركه عقب الوضع حتى مات ، لعدم صدور عمل إجباري يؤخذ منه تعمد القتل . كما قرر قاضى الإحالة في محكمة الميا في قضية أم اتهمت بقتل ابنها الحديث الولادة عمداً ، بالامتناع عن ربط الحبل السرى ، بأنها لا تسأل عن جريمة القتل العمد ، واعتبرها مرتكبة لجريمة القتل الخطأ ؛ وأخذ بما ذهب إليه العلماء الفرنسيون من أن مثل هذا الفعل لا يمكن العقاب عليه باعتباره قتلًا عمداً إلا بتشريع خاص ، لأنه لا يمكن أن يندرج تحت حكم النص العام للقتل عمداً . وعلى خلاف ما تقدم قضت إحدى المحاكم بالعقاب في قضية شخص اتهم بتبديد زراعة قطن مجوز عليها ، بأن لم يطلب ضم محصولها وتركه على الأشجار حتى ذرته الرياح . وظاهر أن المحكمة اعتبرت الجاني مسؤولاً عن ارتكاب الجريمة بالترك ، كمسؤوليته عن ارتكابها بالفعل .

ولا يفوتنا أن نذكر أن أغلب الفقهاء الذين لا يقولون بالعقاب في حالة ارتكاب جريمة بالترك ، يعللون رأيهم بأنهم يفسرون نصوص القانون المعمول بها وهي لا تساعد على القول بالعقاب ، ويقررون بأنه لا يوجد ما يمنع المشرع من أن يصدر قانوناً خاصاً يعاقب على الارتكاب بالترك في الحالات الخطيرة .

للكلام بقية

بين العطار والخشاب

من أدباء القرن التاسع عشر

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الجواد رمضان
المدرس بكلية اللغة العربية

ومضى شيخ الإسلام العطار ، في بيته الثاني وقفله الثالث ، في مداره الذي
تخيّره ، وعلى سنّته الذي انتهج ؛ فقال :

فتش فؤادى فليس فيه سوى
شخصك يا أيها المليح ثوى
قد ضلّ قلبي لسُكْرِهِ وغوى

ومكّذا من يحبّ معتدلاً
لم يلق إلا تأسفاً وقللاً — مشرب —

ومضى الشاعر الخشاب كذلك في بيته الثاني ، وقفله الثالث ، يفيض
في تعداد شمائل الحبيب ، وينعم في ذكر أو صافه ، لينتهى من ذلك إلى الإصرار
الذى لا يخامره تحول ولا انتقال ، على هوى ذلك الحبيب ؛ فقال :

وَصَاحَ نَوْرَ الْجَيْنِ أَبْلَجُهُ
وَرُدِّي خَدَّ زَهَا (كَذَا) تَوَثُّجُهُ
إِلَيْهِ شَوْقِي يَزِيدُ لَا عِجُّهُ

فلست أصغى لعاذل عذلاً
وعنه - والله - لا أتوب ولا - أرغب -

ثم عرض بعد ذلك لتباريح الهوى ، ولواعج الصباية ، التي تعصف به ،
فقال :

قطع قلبي بحبه إربا (كذا)

وصدّ عني فلم أنل إربا

أواه أواه منه ، واحربا !

أَمْكَلِي فَوَاضِي بِحُبِّهِ : وَقَلَا

وذبت وجدا به ؛ ولي قتلا ؛ — فاعجب —

* * *

ولئن مضى الأسلوبان كلاهما على ما رسمنا في حديثنا الماضي ، من أن الأول أسلوبٌ ، فقيه ، ، والثاني أسلوبٌ ، شاعر ، ، لقد كانت دزها ، في قول الخشاب : « وَرَدِيْ خَدَّهَا تَوَجِّهَ ، ؛ وكلبة إربا ، في قوله : « قطع قلبي بحبه إربا ، غير واقعتين موقعهما في الاستعمال الصحيح ؛ ذلك بأن الأنسب بالتوهج ، وهو حرارة الشمس والنار ، هو : « ذكا ، لا دزها ، ؛ فان « الذكاء » بالمد والقصر ، شدة وهج النار . ولأن « إربا ، هنا بمعنى « عضوا ، يقال : « قطعته إربا إربا ، أى عضوا عضوا ؛ وهى بهذا المعنى إنما تكون بكسر الهمزة وسكون الراء ؛ وبسكينها يذهب الجنس الذي حمله على هذا الاستعمال العامى . على أن العذر أمام الشاعر ممد ، من التطبيع ، ومن تحريف النسخ ، ومن الضرورة التي لا تخدش قوة الأسلوب .

* * *

فأما المعانى ، وعمل الخيال في تصويرها وجلوتها ؛ فإن شيخنا العطار ، قد يتناول : « تفرد الحبيب بسكنى قلب المحب ، وهو معنى من معانى العامة المشتركة التي لا يتميز فيها شاعر عن شاعر ، إلا بروعة التصوير وجمال العرض ؛ فوضعه في صورة شواء مشوشة ، فيها حشو ، وفيها إحالة ، وفيها غامية ؛ وأكبر الفن عندي أنه أراد أن يجارى إبراهيم بن سهل الاسرائيلي ، في مطلع موشحته :

هل درى ظي الحما أن قد حمى قلب صب حله عن مكئس ؟
ولكن ، وأين الثريا من يد المتناول ؟ ! . ومهما يكن من شيء ، فإننا نستطيع
أن نقول في كثير من الشجاعة : إن مولانا الشيخ لم يقصد إلى معنى ، وإنما قصد
إلى هيكل من النظم ، فاستفاد له ذلك على ما اتفق ، لا على ما أريد . وإن أبيت
هذا الاجمال على عمومه ، فإنى أشير لك إلى قوله : « يأبها الملبج » فهل تراها
« مليحة » ؟ . وقوله : « قد ضل قلبي لسكنه وغوى » . وإذا عرفت أن « السكن »
بضم السين مشددة وسكون الكاف ، هو أن تُسكن إنسانا منزلا بلا كراه ، فهل
ترى ضلاله وغيه لأنه أسكنه ؛ : أو لأنه أسكنه بلا أجرة ؟ ! ثم متى كان الاعتدال
سببا في التأسف والقللا ، إلا إذا كان المحب أعوج ملتويا ؟ !

وإذا شئت أن ترى المعنى المراد الذى سخر له اللفظ تسخيرا ، وذلله تذليلا ،
فاقرأ معى قول شاعرنا الخشاب : « قطع قلبي بحبه اربا ، وصدعنى فلم أنل أربا ،
أواه أواه منه واحربا ! » : حب طاغ ذهب بالقلب شعاعا ، يقابل الصدد والإعراض
القاطع ، أليس صاحبه حريا بأنه يدعو بالويل والحرب ، وأن يبسط قضيته للناس ،
في هذا التقابل البليغ الأخاذ :

أصلى فؤادى بحبه ، وقللا

وذبت وجدا به ؛ ولي قبللا : — فاعجب —

علمهم يواسونه ، أو يسلونهم ، أو يتوجعون لبلواه ! ثم أليس من أعجب العجب ،
أن يقلاك من يحترق فؤادك بحبه ، وأن يقللك من تذوب وجدا فيه ؟ ! وانظر
موضع « فاعجب » هنا ، مع موضعها في القفل الاول لمولانا الشيخ الأكبر ،
تر الفرق بين الطبع والتطبيع ، أو بعبارة فنية : بين التكلف والطبع . قال الشيخ
رحمه الله :

أما فؤادى فعنك ما انتقلا فلم تخيرت فى الهوى بدلا — فاعجب —

ثم إذا هفت بك النشوة بما سمعت ، فلت إلى أن تشرب وأن تيميل
من طرب معى ، فاقرأ قول الخشاب بعد ذلك :

مولاي رفقا بصبك الدنف

قد كدت أقضى عليك من أسف

تلا في روعي فقد دنا تلقى

من ريقك العذب ، أروني نهلا

وهات كأسى ، وطف به ثملا - واشرب - !

راحا ، سناها يضىء كاللهب

تبسم عن رطب لؤلؤ الحب

بين رياض وسميع غزلا على المثنائى إذا شدا رملا - أطرب - !

فان فيه نفحة من نفحات الشاعرية ، فى عصورها الذهبية ، تضع الخشاب موضع الطليعة من شعراء النهضة ، وتبوءه من زعامتها المقام المحمود .

على أننا - إذا انحدرنا بطبقة شيخنا العطار ، عن مستوى طبقة شاعرنا الخشاب - لا نجد محيصا عن عده فى الرعيل الأول من شعراء النهضة ، بما له من أشعار فيها قوة ، وفيها جمال .

ثم أما بعد ، فان الظاهرة التى نلاحظها فى طلائع النهضة الحديثة من الشعراء ، تقليدهم المطلق للمتقدمين فى أوزان الشعر وقوافيه ، قديمها ومحدثها ، فلا ترى شاعرا اخترع وزنا ، أو قافية ، أو فنا من فنون الشعر ، لم يعرفه المتقدمون ؛ ومضى الأمر على ذلك حتى عصر ازدهار النهضة ، وبلغها أوج رفعتها ، أيام البارودى وصبرى وشوقى وحافظ ، إذا استثنينا : « مال واحتجب » التى خرق بها « الأمير » خرقا فى الاسلام ، و : « ذات القوافى » للسيد توفيق البكرى ؛ فإذا أخذنا نتحدر عن القمة ، طرق أذنك هنا وهناك دعوة حيية الى القافية المطلقة ، تعالى حينا ، ثم تخفت ، ثم تخفى ؛ حتى إذا شاخت « النهضة » وهرم الشعر ، دهمك سيل أتى من الأوزان ، ومن القوافى ، وما تعرف ، وما لا تعرف ، مما هو على صورة الشعر ، فاشتبهت الأعلام ، واضطربت السبل ، وحر الدليل . ومرد هذه الفوضى الغامرة الداجية ، التى ليس لها بطنها فجر ، أن محدثى المجددين فهموا أن التجديد يتبع الهوى الخاص ، وأن لكل شاعر أن يحدد على حسب

هواه ، وأن يضرب في الأوزان والقوافي على غير هدى أو على هدى مادام دليله مزاجه ، وميزانه ذوقه ومشاعره ؛ والأذواق والمشاعر غير محدودة ولا مضبوطة ، فليكن الشعر غير مضبوط ولا محدود .

إن العرب لما دعت حاجتهم الى التجديد في أوزان الشعر ، اخترعوا - في ظروف وأحوال مختلفة - فنونا ، حصرها النقاد في « سبعة » وهي : الدوييت ، والسلسلة ، والموشح ، وثلاثتها معربة ؛ وإنما يسوغ اللحن في « الخرجة » في الأخير منها ، بشروط شديدة . والزجل ، والكان وكان ، والقوما ؛ وثلاثتها ملحونة . والموالى ، ويكون ملحونا ومعربا .

ولما دعت حاجتهم الى التجديد في القافية ، اخترعوا : المزدوج ، والمسطر ، والمسمط . ولكل واحد من هذه المبتكرات جميعا ، ضابط يحدده ويرشد اليه ، ويميزه عن كل ماعدها ؛ وهذه الضوابط وشواهدا وأوزانها وما يعرض لها من التغيرات ، والمثل الموضحة لكل أولئك ، منصوطة باستيفاء بالغ ، في كتب العروض وفي كتب الأدب ، مما يجعل تعرضنا لها هنا من لغو الحديث .

فهل درج مجددو العصر الحاضر على هذا السنن في فنون تجديدهم ؟ كلا !

الاستاذ على محمود طه ، شاعر في الرعيل الأول من شعراء مصر في هذا العصر ؛ ومقطوعته ، الجندول ، قطعة فنية رائعة في ذاتها ، ثم بما أضفاه عليها اسحق مغنى العصر ، عبد الوهاب ، من مزاميره الداودية ؛ هذه المقطوعة ، قد التزم فيها شاعرها بيتا واحدا ، يكرر بعد كل مجموعة من أبياتها ، فيذكرنا بما عرفناه في حدائتنا من طريقة إنشاد « البردة » . إذ يردد بعد كل بيت فيها « مولاي صل وسلم دائما أبدا ، الخ . فهل أغنية الجندول « موشحة » ؟ إنها لا تنطبق على ضابط الموشح كما حدده مخترعوه . هل هي « حمل زجل » ؟ لا ، إنها معربة والزجل ملحون !

وهذا الاستاذ الشاعر الجليل : أنور العطار من كبار شعراء الشقيقة « سوريا » يقول في : « أغنية ... » نشرتها له الرسالة الغراء في العدد : ٧٥١ .

إن تراميت لى خيالا وظنا رقص القلب فرحة وثنى

واحتوائى حلم رقيق حبيب لهو منى الهوى الذى أتمنى
والنشيد العذب الذى أتننى

ثم يعود فيقول :

وإذا رفرت عليك شجونى وهفا خاطرى ، وهاج حنينى
فاسألى الليل أن يرق لحالى فهو مثلى هيمان جم الفتون
شاعر خير الرؤى والفنون الخ الخ

أعود فأقول : إن هذا ليس نسجا قديما ، وليس موشحا ، وليس زجلا الخ .
فهل لهذا من ضابط محدد أتهدى به عند النسيج على منواله ؟ .

وهذا صديق الكريم الأستاذ محمود الخفيف ، وأوزانه وقوافيه وأعاريصه
وأضرابه ، شئ لا يناله الحصر ، ولا يحصيه العد ؛ وهذا الثالث المقدس ، يمثل
الكثرة الغامرة من شعراء العصر المجددين ؛ فلا داعى للأطالة بذكر غيرهم .

إننى — على الرغم من رجعتى — لا أبغض التجديد ، ولا أنمى على المجددين ،
ولا أثبط من همهم ؛ وإنما أريد أن يكون للتجديد حدود تعينه ، ورسوم تضبطه ،
وعلامات ترشد إليه ، حتى يعم ، وينفع ، ويعيش . فأما التجديد المرادف للفوضى
فلا يُبعد الله غيره ؟

كلمات بليغة

كتب عمر بن العزيز : إلى رجاء بن حيوة : أما بعد فإنه من أكثر من ذكر
الموت اكتفى باليسير ، ومن علم أن الكلام عمل قل كلامه إلا فيما ينفعه .

وكتب عمر بن الخطاب الى عتبة بن غزوان عامله على البصرة : أما بعد ، فقد
أصبحت أميرا ، تقول فيسمع لك ، وتأمر فينفذ أمرك ، فيألفا نعمة إن لم ترفعك
فوق قدرك وتطغك على من دونك ، فاحترس من النعمة أشد من المصيبة ،
وياك أن تسقط سقطة لا شوى لها ، وتعثر عثرة لا لعالمها . (أى لا إقالة) .

بمناسبة شهر الذكريات المجيدة :

تحقيقات علمية

في وقت المولد والهجرة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكري ياسين
المدرس بكلية الشريعة

من أحفل الشهور العربية بالذكريات المجيدة ، شهر ربيع الأول ؛ فهو الشهر الذي اتفقت كلمة من يؤخذ بصحة آرائهم ، ويركن الى أقوالهم ، على أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد ولد فيه ؛ وهو الشهر الذي تدل الروايات التاريخية الصادقة ، والأحاديث النبوية الصحاح ، على أنه في العاشر منه — من العام الخامس والعشرين من ميلاده عليه السلام — قد تزوج بالسيدة خديجة بنت خويلد ، وعلى أن خروجه من الغار في طريقه الى المدينة كان فيه ، وأن دخوله قباء والمدينة كان فيه ، وأن إقامة أول مسجد أسس على التقوى من أول يوم ، كانت فيه أيضاً .

وهذه كلها كما ترى ذكريات عزيزة ، وحادثات مجيدة ، وقد أحببنا — بمناسبة حلول شهرها العظيم — أن نكتب ما تيسر لنا الوصول اليه من تحقيقات علمية وتاريخية عن تحديد أوقات مولده صلى الله عليه وسلم وهجرته ، تصحيحاً للأخطاء الشائعة عنها ، والموجودة في أذهان بعض الناس ، والمعمول بها في بعض المناسبات ، وتقريراً للحقائق في ذاتها ، وإثارةً للبحوث الموضوعية المليئة ، على المقالات الإنشائية السطحية التي تكتب عادة في مثل هذا الصدد

١ — وقت المولد :

المشهور عند الجمهور من العلماء أن ولادته عليه الصلاة والسلام ، كانت ليلا حين طلوع الفجر في يوم الاثنين من شهر ربيع الأول : والخلاف بعد ذلك في تعيين هذه الليلة ، فقيل : إنه ولد لليلتين خلتا من ربيع الأول ؛ وقيل : لثان خلون منه ؛ وقيل : لعشر خلون منه ؛ وقيل : لثنتي عشرة خلت منه ؛ نص عليه ابن اسحاق ، ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه عن جابر وابن عباس رضي الله عنهم . وهناك روايات أخرى تقول : إنه صلى الله عليه وسلم ولد في رمضان ، ولكن هذه الروايات قد وصفها المحققون بأنها غريبة جداً ، وبأنها محل نظر . وإنا إذا استبعدنا هذه الروايات ، لضعفها ، ولعدم التعويل عليها ، فإنه لا يبقى معنا بعد ذلك إلا قول الجمهور بولادته صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الأول ، إلا أننا مع هذا لا نرى بين ماذهب اليه الجمهور من الأقوال رواية قاطعة عن تعيين يوم ولادته من هذا الشهر .

ولذلك نجد أنفسنا مضطرين الى سوق شيء من النقول المعتمدة التي نأخذها عن بعض المصادر العربية والافرنجية الوثيقة ، للمقارنة بينها ، وللوصول منها الى ذكر الرأي القاطع في تعيين يوم ولادته عليه الصلاة والسلام .

نقل أصحاب الحديث عن قتادة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن يوم الاثنين ، فقال : « ذلك يوم ولدت فيه » .

وذكر ابن بكار والحافظ ابن عساكر : أن ذلك كان حين طلوع الفجر . ويدل له قول جده عبد المطلب : ولد لي الليلة مع الصبح مولود .

وعن سعيد بن المسيب : أنه صلى الله عليه وسلم ولد عند ابهيار النهار - أي وسطه - وكان ذلك اليوم لمضى ثنتي عشرة ليلة من شهر ربيع الأول ؛ وحكى الإجماع عليه ، وعليه العمل الآن في الأمصار .

وقال الإمام شمس الدين المعروف بالخلال : « قد صح ن النبي عليه الصلاة والسلام ولد في شهر ربيع الأول في العشرين من نيسان عام الفيل في عهد كسرى أنوشروان ، فلما أتت عليه أربعون سنة أو يوم ، بعثه الله ، فلما أتت له ثلاث

وخمسون سنة ، هاجر الى المدينة . . ويقول المحققون من أصحاب التقاويم : إن شهر نيسان هذا يوافق دائماً شهر إبريل ، فتكون ولادته صلى الله عليه وسلم في فصل الربيع .

وقال المسعودي في مروج الذهب : « والذي صح من مولده عليه الصلاة والسلام أنه كان بعد قدوم أصحاب الفيل مكة بخمسين يوماً ، وكان قدومهم مكة يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة ثمانمائة واثنين وثمانين من عهد ذي القرنين ؛ وكان قدوم أبرهة مكة لسبع عشرة خلت من المحرم ، ولست عشرة ومائتين من تاريخ العرب الذي أوله حجة الغدر ، ولسته أربعين من ملك كسرى أنوشروان ، وكان مولده عليه الصلاة والسلام لثمان خلون من ربيع الأول من هذه السنة بمكة . »

وذكر ابن الأثير : أن كسرى حكم مدة سبع وأربعين سنة وثمانية أشهر ، وأنه عاش سبع سنين وثمانية أشهر بعد ولادته عليه الصلاة والسلام ، فيكون كسرى على هذا قد حكم أربعين سنة كاملة لعهد ولادته صلى الله عليه وسلم . وإذا علمنا أن كسرى جلس على العرش في سنة ٥٣١ ميلادية ، فتكون ولادته عليه الصلاة والسلام في سنة ٥٧١ ميلادية .

وذكر العلامة « إيدلر » في رسالة له في السكرونولوجيا الرياضية : أنه (صلى الله عليه وسلم) ولد في ٢٢ نيسان سنة ٨٨٢ من تاريخ الاسكندر ، كما نص عليه ابن العميد بقوله : ولد (صلى الله عليه وسلم) يبطحاء مكة في الليلة المسفرة عن صباح يوم الاثنين . ثمان خلون من ربيع الأول ، يوافق من شهور الروم الثاني والعشرون من نيسان سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة للاسكندر ذي القرنين .

وقد عرفنا أن شهر نيسان السرياني ، يقابله شهر إبريل الافرنجي ، فيكون مولده صلى الله عليه وسلم حينئذ في ٢٢ إبريل سنة ٥٧١ ميلادية .

وذكر المسيو « سيلفستر دوماسي » نقلاً عن « مقالات جمعية الطراف والآداب » أن ولادة النبي (صلى الله عليه وسلم) كانت الساعة السادسة من ليلة الاثنين لعشرين من نيسان سنة ٨٨٢ للاسكندر ، وهو يوافق ٢٠ إبريل سنة ٥٧١ ميلادية .

وإننا نختم هذه النقول المتفقة على أن الولادة كانت في شهر ربيع الأول ،
والمختلفة في تعيين وقت الولادة منه ، بما ذكره العلامة المرحوم محمود باشا
الفلكي - طيب الله ثراه - في كتابه : « تقويم العرب قبل الاسلام ، الذي ألفه
باللغة الفرنسية ، وترجمه الى اللغة العربية أحمد زكي أفندي ، طبعة بولاق سنة ١٣٠٥
هجريه ، فانه قد أتى فيه بعد استعراض أقوال الرواة والمؤرخين ، وتمحيص آراء
علماء الهيئة ، بما أقام الحجّة ، وقطع المحجّة ، وعين وقت الولادة بالضبط
والتحديد ، قال :

« ولا يسعني إلا الجزم بأن ولادته عليه الصلاة والسلام كانت في فصل الربيع
من سنة ٥٧١ مسيحية ، وحيث إن بمصر هذه الأقوال تصرح بأن شهر ابريل هو
شهر المولد النبوي الشريف ، والبعض الآخر يدل عليه ، فإني أعتبره شهر الولادة ،
ويبقى علينا أن نبين في أي يوم من شهر ابريل كانت الولادة ، فنقول : إن الاجتماع
الحقيقي للقمر ، حصل في شهر ابريل سنة ٥٧١ في يوم ١١ الساعة ٩ والدقيقة ٤١
بعد نصف الليل على حساب الزمن الوسطي لمكة المشرفة ، ولم يمكن رؤية الهلال
بالعين المجردة إلا في مساء هذا اليوم ، وحيث يُلزم أن الشهر القمري العربي كان
مبدؤه يوم الأحد ١٢ ابريل ، وقد قال الثقات : إن النبي صلى الله عليه وسلم
ولد في ٨ أو ١٠ أو ١٢ من شهر ربيع الأول . وقد اتفقوا جميعا على أن الولادة
كانت في يوم اثنين ، وحيث إنه لا يوجد بين الثامن والثاني عشر من هذا
الشهر يوم اثنين سوى اليوم التاسع منه ، فلا يمكن قط أن يمتد يوم الولادة
خلاف هذا اليوم .

« ويتلخص من هذا أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم ولد في يوم الاثنين ٩
ربيع الأول ، الموافق ٢٠ ابريل سنة ٥٧١ مسيحية ، فاحرص على هذا التحقيق ،
ولا تكن أسير التقليد ، اهـ .

٢ - وقت الهجرة ؛

يشبهه على كثير من الناس مبدأ التاريخ الهجري ووقت الهجرة ، فيحسبون ،
بل ويحزمون أن هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ، كانت
في شهر المحرم ، بل وكانت في العاشر منه . والواقع أن الحقيقة تخالف هذا ، وأن

الوقت الذى جعلوه مبدأ للتاريخ الهجرى غير الوقت الذى حصلت فيه الهجرة فعلا ؛ وستعرف ذلك على التحقيق فيما سنبينه لك بعد ، وسنسرّد لك المراحل التاريخية مرتبة محررة مضبوطة . بعيدة عن زحمة الأقوال الكثيرة ، والروايات المختلفة .

ففى شهر المحرم قبيل نهاية السنة الثالثة والخمسين من عمره صلى الله عليه وسلم حصل العزم على الهجرة ، وأخذ النبى يدبّر أمرها ، ويستعد لتنفيذها ؛ وفى اليوم السابع والعشرين من شهر صفر الحخير ، خرج النبى وأبو بكر من مكة ، ولجأ الى الغار ، وبقي فيه ثلاث ليال ؛ وفى فجر اليوم الأول من شهر ربيع الأول ، خرج النبى وصاحبه من الغار متوجهين تلقاء المدينة ؛ وبعد ثمانية أيام قضياها فى الطريق ، وصلا الى «قباء» ، ضحى يوم الاثنين ثامن ربيع الأول الموافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ للميلاد ، و ١٠ تشرى عند اليهود ، سنة ٤٣٨٣ للخليفة ، وهو يوم عاشوراء عندهم . وإذا اعتبرنا أن يوم الوصول الى «قباء» هو يوم الوصول الى المدينة - كما يراه معظم المحققين - فإن الثامن من شهر ربيع الأول ، يكون حينئذ موافقا للعشرين من شهر سبتمبر سنة ٦٢٢ ميلادية ، أما اذا اعتبرناه منفصلا عنه - كما يراه بعض الباحثين - فإنه يكون قد دخل المدينة عصر يوم الجمعة ليلة السبت فى اليوم الثالث عشر من شهر ربيع الأول ؛ وذلك أنه لما وصل الى «قباء» نزل ضيفا عند بنى عمرو بن عوف ثلاثة أيام ولياليها ؛ وفى ضحى يوم الخميس الثانى عشر من ربيع أقام مسجد «قباء» ؛ وفى صبيحة يوم الجمعة الثالث عشر من ربيع ، توجه الى المدينة ، وفى طريقها نزل عند بنى سالم ، وصلى الجمعة هناك ، ثم دخلها فى عصر اليوم نفسه .

فنحن نرى من كل هذه المراحل المتتابعة أن الهجرة الفعلية إنما وقعت فى غير شهر المحرم ، وأنها بدايةً ونهايةً - اذا اعتبرنا مبدأها الخروج من الغار - قد تمت فى شهر ربيع الأول ، فلا محل إذن لما فهم بعض العلماء من أن الهجرة كانت فى شهر المحرم .

وإليك شيئا من الاسانيد الصحيحة التى تؤيد ما ذكرناه ، وتميط لك اللثام عن جعل المحرم مبدأ للسنة الهجرية :

ذكر الإمام السيوطي في كتابه «الشماريخ» ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمر بالاربخ يوم قدم المدينة في شهر ربيع الأول . قال ابن عساكر : هذا أصوب .

وأخرج البخاري في صحيحه : « ما عدّوا من مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا من متوفاه ، وإنما عدّوا من مقدّمة المدينة » .

وفي سنن سعيد بن منصور عن ابن عباس ، قال في قوله تعالى : « والفجر » قال : الفجر شهر المحرم ، هو فجر السنة . أخرجه البيهقي في الشعب ، وإسناده حسن ، قال شيخ الاسلام أبو الفضل ابن حجر في أماليه : بهذا يحصل الجواب عن الحكمة في تأخير التاريخ من ربيع الأول الى المحرم ، بعد أن اتفقوا على جعل التاريخ من الهجرة ، وإنما كانت في ربيع الأول .

وقد يعقّب على بعض هذه الأسانيد بأن ذكره السيوطي وابن عساكر من أمر النبي بالتاريخ ما يخالف المحفوظ المشهور من أن الأمر بالتاريخ هو عمر رضى الله عنه ؛ فقد قال مصعب : ولما تشاور عمر مع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، وقال : بأى شهر نبدأ ، فنصّروه أول السنة ؟ قالوا : رجب ، فإن أهل الجاهلية كانوا يعظمونه ؛ وقال آخرون : الشهر الذى خرج فيه من مكة ؛ وقال آخرون : الشهر الذى قدم فيه ؛ فقال عثمان : أرخوا من المحرم ، أول السنة وهو شهر حرام أول الشهور في العدة ، وهو منصرف الناس عن الحج ، فنصّروا أول السنة المحرم ، وكان ذلك سنة سبع عشرة ، أو قال : ست عشرة في نصف ربيع الأول . وقد أجاب على هذا التعقيب المرحوم الشيخ حمزة فتح الله في كتابه « التحفة السنية في التواريخ العربية » - طبعة بولاق سنة ١٣١٥ هجرية فقال :

« وقفت على ما يعضد الأول (ما ذكره السيوطي وابن عساكر) إذ رأيت بخط ابن القماح في مجموع له : قال ابن الصلاح : وقفت على كتاب في الشروط للأستاذ الزيايدى ، ذكر فيه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرخ بالهجرة حين كتب الكتاب لنصارى نجران ، وأمر علياً أن يكتب فيه أنه كتب لخمس من الهجرة ، فالمؤرخ بالهجرة إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمر تبعه في ذلك » .

يبقى بعد ذلك كله ما أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن ابن عباس ؓ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قدم المدينة يوم عاشوراء ، فإذا اليهود صيام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما هذا ؟ ، قالوا : هذا يوم أغرق الله تعالى فيه فرعون ، ونجى فيه موسى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أولى بموسى ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصومه .

وفى الحق أن ظاهر هذا الحديث يناقض ما نطقت به الروايات الصحيحة من أن الهجرة كانت فى شهر ربيع الأول ، على ما ذكرناه آنفاً ، إذ لا يتفق أن الرسول حينما قدم المدينة وجدهم صائمين يوم عاشوراء ، وهو اليوم العاشر من شهر الله المحرم ، أو هو اليوم التاسع منه ، كما يقول ابن عباس ، وأنه ما قدم المدينة إلا فى شهر ربيع الأول . ولقد حمل هذا التناقض كثيراً من العلماء على استشكل هذا الموضوع ، وعلى رواج كثير من الأوهام ، التى وقعت فيها الأفهام .

وقبل أن نشرع فى إيراد ما يدفع هذا التناقض ، يحسن بنا أن نعرف أن اليهود من العرب كانوا يسمون أيضاً بعاشوراء اليوم العاشر من شهر تشرى ، وهو أول شهور سنتهم المدنية ، وسابع شهور سنتهم الدينية ، وتشرى عند اليهود شهر الاحتفالات العظيمة ، والمحافل المقدسة ؛ وأن نعرف أيضاً أن السنة عند اليهود شمسية ، بخلافها عند العرب ، فإنها قمرية ؛ وأن يوم عاشوراء الذى كان عاشر المحرم ، وافق فيه غرق فرعون ، لا ينقيد بكونه عاشر المحرم ، بل اتفق أنه فى زمن مقدمه صلى الله عليه وسلم المدينة ، كان وجود ذلك اليوم . قال البيرونى فى كتاب الآثار : وقد قيل : إن عاشوراء عبرانى معرب - يعنى عاشور - وهو العاشر من تشرى اليهود الذى صومه صوم الكبور ، وأنه اعتبر فى شهور العرب ، فجعل فى اليوم العاشر من أول شهورهم ، كما هو اليوم العاشر من أول شهور اليهود .

وإذا عرفت هذا فاسمع ما يردّ به على هذا الإشكال العلامة الحافظ ابن القيم فى كتابه « زاد المعاد » قال : « أما الإشكال الأول ، وهو أنه لما قدم المدينة وجدهم يصومون يوم عاشوراء ، فليس فيه أنه يوم قدومه وجدهم يصومونه فإنه إنما قدم يوم الاثنين فى ربيع الأول ، ولكن أول عليه بذلك موقع القصة

ابن مضاء القرطبي ورده على النحاة

فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد علي النجار
المدرس بكلية اللغة العربية

ابن مضاء القرطبي من علماء العربية الأندلسيين . عاش في القرن السادس الهجري ، واستظل بظل دولة الموحدين في الغرب ، وكان قاضي القضاة في دولتهم . وقد كان بما أهمه أن يردّ على النحاة ، ويخالفهم ، وينقض من أسسهم وأصولهم التي بنوا عليها نحوهم ، فألف في ذلك كتابا ؛ وانبرى له بعض علماء الأندلس يردّ عليه وينضج عن النحويين .

ونما يُحمد للأستاذ الدكتور شوقي ضيف - من أساتذة الجامعة المصرية -

في اليوم الثاني الذي كان بعد قدومه المدينة ، ولم يكن وهو بمكة . هذا إن كان حساب أهل الكتاب في صومه بالأشهر الهلالية ، وإن كان بالشمسية زال الإشكال بالكلية ، ويكون اليوم الذي نجى الله فيه موسى هو يوم عاشوراء من أول المحرم ، فضبطه أهل الكتاب بالشهور الشمسية ، فوافق ذلك مقدم النبي المدينة في ربيع الأول ، وضوم أهل الكتاب إنما هو بحساب سير الشمس ، وضوم المسلمين إنما هو بالشهر الهلالي ، إلى أن يقول : « فظهر حكم هذه الأولوية في تعظيم هذا اليوم ، وفي تعيينه ، وهم أخطأوا تعيينه لدورانه في السنة الشمسية ... الخ » .

هذا ما تيسر لنا الوقوف عليه من التحقيق الدقيق في هذا الصدد ، وقد أوردناه فيما تقدم بكل ما في طاقتنا من أمانة ودقة ، ونرجو أن نكون قد وفقنا فيما قصدنا ، والله المستعان ؟

أن عثر على كتاب ابن مضاء ، وذلك له للناس بطبعه في مظهر حسن ؛ فكان له بذلك يد على المشتغلين بالنحو وعلوم العربية .

والكتاب لطيف ، عمد صاحبه إلى الإيجاز ، وتجنب الإسهاب ، والاقتصار على معاهد المقاصد . وللناشر مقدمة له بسط فيها الكلام على مقاصد الكتاب ، وزاد عليها آراء له على نحو ما فعل ابن مضاء في الانتقاض على النحاة ، وهدم قواعدهم ، وتأصيل قواعد جديدة في النحو . والمقدمة طويلة تقع في مثل حجم الكتاب .

وقد أحببت أن أنظر في هذا الكتاب ، وأدوّن نظراتي فيه . وسأتناول بالبحث الكتاب من جهتين : نصوصه ومثته ، وما فيه من فكر وآراء . وبعد هذا سأتناول مقدمة الناشر الباحثة .

نظرة في متن كتاب (الرد على النحاة) ونصوصه

وقع في الكتاب كهفات ، قد يرجع معظمها إلى سقم النسخة التي كانت أصلاً في الطبع ، وقد أحببت أن أنبئه عليها : لأن بعضها قد يحيل المعنى ، ويوهن الأسلوب . وإني أجمل ملاحظاتي فيما يأتي :

١ - في ص ٨٢ وردت العبارة الآتية : « ومن أعرض عنه وأنف منه هلك هلاك العجماء في الفيءاء عند عدم الرعي والماء » ، وقد ضبط الرعي بفتح الراء ، وهو هكذا مصدر ، ولا ينتظم مع الماء . والذي يبدو أنه الرعي بكسر الراء ، وهو السكلاء والمرعى ، وبذلك يتناسب مع الماء .

٢ - وفي ص ٨٢ وردت العبارة الآتية : « ولعل قانلا يقول : أيها الاندلسي المسرور بالأجراء في الخلاء ، المضاهي بنفسه الحفيّ ذكاه وأى ذكاه . وقال الناشر في التعليق : « يريد بالحفيّ - فيما يظهر - سهويّه » . وهو يعتمد في هذا على أن الحفيّ معناه العالم ، وفي اللغة أنه العالم يتعلّم باستقصاء ، وقد

لا يصدق هذا على سيبويه الذى بلغ الغاية فى فنته ونحوه . ثم بعد هذا يبدو قوله « ذكاءً وأى ذكاء » قليلاً نائياً فى الكلام . ويذكر الناشر فى التعليق على قوله « بنفسه » أن فى الأصل « بفتنه » ، ويبدو لى أن هذا قد لا يكون بعيداً عن الصواب . كما يبدو لى أن الأصل هكذا : « المضاهى بفتنه الخفى » ذكاءً وابن ذكاءً . يريد أن فنته وعلمه خفى لم يبلغ مبلغ الاشتهار والوضوح ، وهو مع ذلك يبارى ذكاء - وهى الشمس - ، وابن ذكاء - وهو الصبح .

٣ - وفى ص ٨٤ ورد النص هكذا : « أتزرى بنحوى العراق ، وفضل العراق على الآفاق ، كفضل الشمس فى الأشرار » . وفيه كما ترى « نحوى العراق » مفرداً ، وكأن الناشر يرى أن المؤلف يريد سيبويه : والعراق لا يكون له الفضل على الآفاق بنبوغ فرد فيه ، قد يكون نبوغه وبراعته فلتة من الدهر ، وإنما يكون خليقاً بالفخر إذا كان موطناً للنبوغ ، منبتاً للبراعة والتبريز ، ومثابة لاولى الفضل ، ويبدو لهذا أن الأصل : « أتزرى بنحوى العراق » ؛ ليكون جمعا .

٤ - وفى ص ٨٥ ما يأتى : « فن ذلك ادعاؤهم أن النصب والخفض والجزم لا يكون إلا بعامل لفظى » . وأرى أن الأصل : لا تكون - بالتاء - ؛ إذ كان هذا خبراً عن ثلاثة الوجوه من الإعراب : ولا تصح الصيغة بالتذكير إلا على تأويل أن المراد : لا يكون كل منها ؛ وهذا يخرج بعيد .

٥ - وفى ص ٩٣ ورد النص الآتى عن الخصائص : « اعلم أن إجماع أهل البلدين إنما يكون حجة إذا أعطاك خصمك يده أن لا تخالف - كذا ، والمألوف فى الرسم ألا تخالف - المنصوص والمقيس على المنصوص » . وظاهر أن السياق

يقضى بأن يكون الأصل ألا يخالف ، أى إذا تكفل لك الخصم أن يوافق المنصوص ، والمقيس على المنصوص ، ولا يخالفه ، ولو بقى النص كما هو لكان المعنى أن الخصم يضمن ألا تخالف أنت ما ذكر ، وهو إنما يضمن ويلتزم عن نفسه لا عن نفسك . وعذر الناشر فى عدم التنبيه على هذا أنه رآه هكذا بهذا التحريف فى نسخة الخصائص المطبوعة ، وهى محشوة بالتصحيف والتحريف .

٦ - وفي ص ٩٤ في بقية النص السالف عن الخصائص : « وأراهم الحكمة في الترحيب له والتعظيم ، ، والترحيب بالحاء المهمة لا نعرفه يتعدى باللام ، وإنما يتعدى بالباء ؛ وإني أرى أن الأصل : الترحيب - بالجيم - ، والترحيب : التعظيم ، وقد رجيت : عظمت . وتراه هكذا بهذا التحريف في نسخة الخصائص .

٧ - في ص ١١٨ ما يأتي : « ومن الأبواب التي يُظنّ أنها تعسر على من أراد فهمها وتفهمها ، لأنها موضع عامل ومعمول ، ولا داعية لى إلى إنكار العامل والمعمول . . ويلاحظ على الجملة الأخيرة أنها تناقض مذهب المؤلف ، فهو مبنى على إنكار العامل ، كما سيجيء لك ، فله داعية أية داعية إلى إنكار العامل والمعمول . ومن ثمّ فيبدو أن الأصل : ولى داعية إلى إنكار العامل والمعمول .

٨ - في ص ١٢١ أورد البيت الآتى :

أثعلبة الفوارس أم رياحا عدلت بهم طُهيّة والخشبا

وضبط الفوارس بالجر بإضافة ثعلبة اليه ؛ وظاهر أن الفوارس وصف لثعلبة ، وصفهم بذلك لأنهم من بنى يربوع ، وبنو يربوع منهم فرسان بنى تميم ، فكان ذلك وصفاً وثناء لثعلبة ؛ وما تقرر في النحو ألاّ يضاف الموصوف إلى الصفة .

٩ - في ص ١٤٤ في سياق الاستشهاد على النصب في جواب التثني : « وقرئ : ودّوا لو تدهن فيدهنون . . ويلاحظ على هذا أن الاستشهاد إنما يتم لو قرئ « فيدهنوا ، بالنصب ، - وقد قرئ كذلك - فيبدو أن الأصل ما ذكرت ، وما يشدّد من هذا أنه إنما يقال : قرئ كذا في غير قراءة العامّة ، وفي القراءات النادرة ، وهذا لا يصدق على قراءة الرفع . وما يذكر هنا أن قراءة النصب شاذة .

١١ — في ص ١٦٢، ذكر المؤلف من أمثلة ما أبدلت فيه الواو ياء، الأمر عما فاؤه واو، نحو «لِيَجْلَ وَيَسْقِ» ، «وَلَيْسَقُ» أمر من «وَسَقَ»، «وَوَسَقَ» مضارعها «يَسِقُ»، كوعد يعد، وأمرها «سَقَ» بحذف الفاء لا بإبدالها ياء. ويبدو أن الأصل : «يَسِنُ» - بالنون -، وهو أمر من «وَسِنَ» «يُوسِنُ» : أصابته السِّنَّةُ، وهي أول النوم.

١٢ — في فاتحة الكتاب : «أدام الله بركته، ونور بنوره الإيمانَ كَحَلَدِهِ». وظاهر أن الأصل : بنور الإيمان .

١٣ — في ص ٨٩ : «قالوا إنه مفعول بفعل مضمر تقديره أضربت زيداً». وظاهر أن الأصل : تقديره ضربت زيداً .

نقد المؤلف للنحاة

يقوم نقد المؤلف للنحاة على أنهم يتوا النحو على أن كل أثر إعرابي لا بد له من عامل في الكلام، وقد جشمهم هذا من التكلف والإبعاد في التأويل ما كانوا في غنى عنه. وهو يعيب عليهم هذا ويزري عليهم أية مزااة، ويدعو الى نبذ العامل وطرحه في النحو ولفظه كما تلفظ النواة.

وقد قام جدال عنيف حول قضية العامل في النحو لبضع سنين خلت، أثاره أساذ من أساتيد الجامعة المصرية — هو الأستاذ إبراهيم مصطفى — وتصدى للرد عليه أساذ من أساتيد الأزهر — هو الأستاذ الشيخ محمد عرفة — ، وقد علنا بظهور كتاب «الرد على النحاة» لصاحبنا القرطبي، أن القرطبي كان سلفا وإماما للأستاذ الجليل إبراهيم مصطفى.

وينقد المؤلف النحاة في قولهم بالعامل بأمور :

١ — فالقول بأن ضرب في قولك «ضرب زيد عمرا» عمل الرفع في زيد

والنصب في عمرو، يوم أن هذا اللفظ «ضرب» أحدث الرفع والنصب. بل قد صرح بهذا سيوييه ولم يورب إذ يقول: «لا فرق بين ما يدخله ضرب من هذه الأربعة لما يحدثه العامل» فانظر كيف نسب الإحداث الى العامل. ويرى القرطبي أن هذا فساد كبير لا يقول به عاقل. والنحويون — وهم بحمد الله عقلاء — لا يقولون بهذا الذي يذكره القرطبي: وهم إنما نسبوا العمل الى اللفظ لما كان داعيا المتكلم الى أن يراعى في الكلام نحوها خاصا، ويأتى في الكلمة بأثر معين. فـضربَ في المثال السابق يحمل المتكلم على أن يرفع زيدا وينصب عمرا إذا أراد ألا يخطيء سنة العرب في كلامهم؛ فقد كان العربي إذا رأى في الكلام مثل ضرب رفع ونصب، وقد كانت هذه النسبة في مبدأ الأمر بسبيل من التجوز والتوسع، ثم صار ذلك حقيقة عرفية يراد منها المعنى الصحيح، وانسلخ اللفظ عن هذا المعنى الفاسد الذي يوهمه الوضع اللغوي لكلمة العامل؛ واصطلاحات العلوم كثيرة تعتمد المناسبات الضعيفة للمعنى اللغوي، وما رأينا من ينكر هذا. ومن العجيب أن المؤلف ساق عن ابن جنى وغيره البيان الصحيح للعامل، ونفوا هذا الذي يوهمه لفظه، وكان يحسب المؤلف هذا في الكف عن النحويين؛ فقد بان غرضهم واستبان قصدهم. وكان خيرا له ألا يثير هذا النقد، ولا يجعله مما يحاسب عليه النحاة، وأن يعنى نفسه بما أخذ يذهب مذهب أهل الكلام في فساد عمل اللفظ، ويحتفل له ويعقب على قول ابن جنى أن العامل هو المتكلم نفسه بأن هذا مذهب المعتزلة، ومذهب أهل الحق أن العامل هو الله سبحانه وتعالى، فكل هذا لا حاجة اليه.

٢ — والقول بالعامل ساق النحويين الى أن يتكلفوا تقدير محذوف لا يدعوا الكلام اليه، وإن أظهر كان عيبا. ومن أمثلة ذلك ما قالوا في «أزيداً ضربته» فهم يقدرون العامل في «زيدا» محذوفا وهو ضربت. وهويذ كرأن هذا القول لا يحتاج الى تقدير عامل. ووجه نظر النحويين في هذا التقدير أن ضرب فعل متعد الى واحد، وقد استوفى مفعوله وهو الضمير، فزيدا لا بد أن يعمل فيه عامل آخر، ولما لم يكن موجودا في اللفظ قدروه. ويذكر القرطبي أن هذا زعم

زعمه النحاة ، وكأنه لا يقول بالفعل المتعدى . ونراه في ص ١٠٣ يقول وهو يمثل لدلالة اللزوم : « ودلالة الفعل المتعدى على المفعول به والمكان ، فتراه يعترف بالفعل المتعدى ولا ينكره . وترى أن الذى دعا الى التقدير داع صحيح . والنحويون يقررون أن هذا المحذوف لا يصح إظهاره ؛ إذ كان فى الكلام ما يغنى عنه ويقوم مقامه ، ومن ثم كان إظهاره عيبا ، ولا شئ فى هذا يبرى بتقدير العامل . وليت شعرى ما الفرق بين الحذف فى هذا الضرب ، والحذف فى الضرب الذى استساغه المؤلف ؛ كالحذف فى قوله تعالى « ناقة الله وسقياها » ، وكلاهما دل عليه دليل ، وما هنا وجد فى الكلام ما يغنى عن المحذوف ويسد مسده . ويرد القرطبي أيضا بأن القائل لهذا الأسلوب قد لا يخطر بروعه محذوف ؟! والواقع أن الناطق بالأسلوب أولا يراعى الحذف ، فإذا استقر الأسلوب وجرى على الألسن غفل عنه القائل . وهذا لا ينهى أن فى الكلام تقديرا .

وتراه فى هذا المقام يورد إشكالا على النحويين يظنه معجزا لهم هادما لأصلهم إذ ما ذا يضمرون فى هذا المثال « أزيذا مررت به » . والقارىء لهذا يحزم بأن النحويين لم يعرضوا لمثل هذا المأزق الذى أدخله عليهم القرطبي . والنحويون عرضوا له ووجدوا لهم منه مخرجا ، فهم يقدرون فى مثله : لا بست ، والأصل : لا بست زيدا : مررت به . ومعنى لا بست زيدا كان لى معه شأن وأمر ، وفسر هذا بعد بأنى مررت به . وانظر سيبويه يقول : « وإذا نصبت زيدا لقيت أخاه ، فكأنه قال : لا بست زيدا لقيت أخاه ، وهذا تمثيل ولا يتكلم به » .

ومما يذكر فى هذا الموطن أن النحاة ليسوا مجمعين على تقدير العامل فى الأسلوب الذى ذكره المؤلف ، فن السكوفيين من يرى أن الفعل عامل فى الاسم وضميره معا ؛ إذ كانا شيئا واحدا : ومنهم من يرى أن الفعل عمل فى الاسم ، والضمير توكيد للاسم .

وبعد ، فقد رأيت أن هذا النقد هين لئن لا يقوم بما أراه القرطبي من الهدم والنقض .

آثار الزوجية

وسمو التشريع الاسلامي

على جميع التشريعات الاجنبية

لحضرة الاستاذ صالح بكير
المدرس بكلية أصول الدين

للزواج آثار قانونية هامة ، وسفتمحدث عن ذكر أهمها مع استعراض تاريخي لتطورها .

ففي العهد القديم لأوروبا تنلخص هذه الآثار في أن الزواج يكسب الزوج الولاية والسلطة على زوجته ، سواء من حيث النفس أو المال ، كاكسباب الولاية أو السلطة الأبوية للأب على أولاده . فكانت آثار الزواج تنحصر في أن للزوج حقوقا على زوجته وعليها واجبات نحوه . ولكن الكنيسة خففت وطأة هذا المبدأ استنادا لقول القديس پول بالاعتراف للزوجة بأن لها واجبات زوجها . ويلاحظ أن ولاية الزوج قد تطورت نحو التخفيف منها في نفس الاتجاه الذي تطورت فيه ولاية الأب على أولاده

ومن أهم هذه الآثار قديما (وحيننا أيضا) أن تكون الزوجة عفيفة أمينة لا تفرط في عرضها ، فقد كان هذا التفريط يعتبر من أكبر الخيانات لواجب الزوجية .

وقد ترك عقاب الزوجة على هذه الجريمة للزوج نفسه ، فكان له حق مطاردتها بالسوط في الطرقات العامة للمدينة أو القرية . ولا شك أن هذا كان يودي بحياتها ، كما كان رمزا الى أن للزوج حق طرد زوجته الزانية من منزله بل من المدينة نفسها أو القرية التي هو بها ، وهذا قضاء عليها بالموت إذ لا تجد من يحميها قانونا . ويبدو أنه يمكن أن تستخلص قاعدة عامة من التشريع البربري (الجرمانى) وهى أن للزوج حق قتل امرأته الزانية ، وكذلك شريكها في الجريمة حال التلبس المفاجأ ، كما أنه في حالة عدم التلبس كانت المحاكم تقضى بإعدام الزوجة الزانية .

وأما التشريع الكنسى الذى تبع هذه المبادئ فقد كان يقضى على الزوجة الزانية بالرجم ، وتشير كلمة المسيح فتقول « الذى لا ذنب له هو الذى يبدأ بالقاء الحجر ولكن الكنيسة رأت أنه لعوامل إنسانية (فى رأيها) ضد ما كان قائما من عادت قديمة قاسية أن تخفف من هذا العقاب مكثفة بعقوبات بسيطة على الزوجة الزانية ، وكذلك تأنيب الزوج الزانى . وهذا وإن كانت الزوجة الزانية كان يحكم عليها بعقوبة الحرمان فإنه كان يحكم أيضا على الزوج بالحرمان لمدة خمس سنين أو الى الأبد ، كما يحرم الزوج من الاحتجاج بخطأ زوجته الزانية . وأمام تعسف رجال الكنيسة فى معاملتهم القاسية ضد الزناة تدخلت البلديات وصارت تنظر جرائم الزنا ، ثم حلت محاكم الملك محل المحاكم الأخرى فى نظر هذه الجرائم .

وقد بقيت آثار العقوبة المسيحية فى أخلاق وعادات القرون الوسطى التى تحولت إلى نوع من التشنيع والإخجال الذين كانوا أشد خزيا من ارتكاب الجريمة نفسها . وقد كانت تصحب العقوبة غرامة مالية ، كما كان يكتفى بالغرامة فى بعض الأحيان ، وكان يعاقب الشريك عقابا تحكما لا ضابط له متروك أمره للمحاكم فقد تذهب العقوبة الى النفى .

وتنفيذ هذه العقوبات كان نادرا لصعوبة الإثبات .

وحينما اختصت محاكم الدولة بنظر جريمة الزنا أحل القضاء الملوكى محل عقوبات الكنيسة وعقوبات العرف والعادة عقوبات مقتبسة من مجموعة جوستيان الجديدة وغيرها من التشريع الرومانى . وتلخص عقوبة الزوجة الزانية فى حبسها فى دير وحرمانها من فوائد الزواج . كما كان يستعاض فى بعض الأحيان عن الأجرامات القضائية بخطابات محتومة ، وذلك لتجنب المناقشات التى تثير الفضاخ حيث قد يكون الإثبات عسيرا وغير قاطع ولا يترك إلا أثرا للأشاعات التى تشين الأسرة (كالمحاضر والاثبات بالكتابة والشهود) وانتهى التشريع أخيرا الى أن حق اتهام الزوجة بالزنا هو من حق الزوج إلا فى أحوال خاصة (كارتكاب الزوج جريمة الزنا أيضا وخشية الفضيحة) فلا يكون له هذا الحق كما أن الزوج فقد حقه فى إعدام زوجته حال التلبس (وذلك من الوجهة النظرية) والذى كان

أثرا من الآثار القديمة . ولكن في الواقع اذا استعمل الزوج هذا الحق فانه ليس من الصعب عليه أن يحصل على العفو .

ويلاحظ كما سيأتى بيانه ، أن التشريع الحديث يفرق في المعاملة بين الزوجين الزانيين ، فلا عقوبة على الزوج الزانى ، كما لا يحكم عليه بالتفريق الجسمى كما لا يفقد حق الاحتجاج بزنا زوجته الزانية وإنما يحرم فقط من الفوائد المالية للزوج . وهذه التفرقة ليس مفشؤها الدين ، وإنما كانت تطابق التقاليد والعادات التى تستند على مصلحة اجتماعية فى أن زنا الزوجة يجرى إلى خروج أموال الأسرة إلى أجنبي ، كما يعرض الأولاد الشرعيين لهذا الخطر .

التشريع الوضعى : أما التشريع الفرنسى الحديث فانه يرتب آثار هامة على عقد الزواج :

- ١ — جرى العرف والاستعمال على أن الزوجة تحمل اسم زوجها ، كما تشير إلى ذلك المادة ٢٩٩ فرنسى مدنى ، وذلك بطريق المفهوم .
 - ٢ — يكون محل إقامة الزوجة هو محل إقامة زوجها (١٠٨ فرنسى مدنى) .
 - ٣ — ونصت المادة ٢١٢ مدنى فرنسى على وجوب الأمانة والمساعدة والتعاون بين الزوجين . ويستفاد من هذا أنه يجب على الزوجين عدم ارتكاب جريمة الزنا ، كما يجب على الزوجة السكنى مع زوجها ، وكما أن النفقة يجب للمحتاج منهما على الآخر بما يقوم ويساعد على الحياة الزوجية .
 - ٤ — ونصت المادة ٢١٣ مدنى فرنسى على أن الزوج هو رئيس الأسرة ، ويزاول وظيفة الرياسة فى الصالح المشترك للنزل والأولاد ، وتشترك معه فى إدارة المنزل ماديا وأديبا من حيث صيانة وتربية الاطفال ورعايتهم وتكوينهم ، وتقوم الزوجة مقام الزوج فى الرياسة عند وجود مانع للزوج .
 - ٥ — ونصت المادة ٢١٤ مدنى فرنسى على أن كلا من الزوجين يشترك فى تكاليف شؤون المنزل (النفقة) وذلك بقدر طاقة كل واحد منهما إذا لم ينص فى عقد التظيم المائى للزواج على شىء آخر يتعلق بذلك .
- والاصل أن هذه التكاليف (النفقة) تقع على الزوج ، إذ أنه واجب عليه أن يقدم لزوجته كل ما هو ضرورى لمقومات المعيشة والحياة على حسب طاقته

وحالته، وتشترك الزوجة في ذلك بما تخصصه من أموال عند زواجها أو من ريع أملاكها التي تديرها . وفي حالة امتناع أحد الزوجين عن القيام بهذا الواجب فلآخر حق إجباره على تنفيذ هذا الواجب . ويلاحظ أن النفقة بقدر الحاجة وأنه إذا حكم بها ولم يطالب بسدادها في مواعيدها سقطت إلا في حالة الاستدانة عليها .

٦ - ونصت المادة ٢١٥ مدني فرنسي على أن اختيار محل سكني الأسرة هو للزوج، وعلى الزوجة الإقامة معه ، ويجب على الزوج قبول إقامة زوجته معه وعدم منعها من ذلك . وإذا كان محل الإقامة الذي اختاره الزوج يحدث ضررا ماديا أو أدبيا للأسرة فللزوجة الحق في أن تطلب محل إقامة آخر ، ويتضح من هذا وجوب الطاعة على الزوجة . وقد نص قانون العقوبات الفرنسي على جريمة هجران الأسرة بعقوبة الزوج الذي يهجر الأسرة بلا مبرر .

٧ - ومن أهم آثار الزوجية إلى عهد حديث عدم أهلية المرأة المتزوجة لأجراء التصرفات القانونية ، فقد كانت القاعدة العامة أنه بمجرد زواج المرأة تفقد أهليتها لأجراء التصرفات القانونية (فتكون كالقاصر) وتقع تحت سلطة زوجها سيد المنزل . وهذا المبدأ نشأ عن مبدأ الوصاية المستمرة على المرأة الذي كان شائعا لدى الإغريق والرومان والشعوب الجرمانية . ولكن في أوائل عصر الإمبراطورية الرومانية اندثر استعمال هذه الوصاية في روما ونالت المرأة استقلالها وأهليتها المدنية ، ومع ذلك فإنها بقيت عديمة الأهلية في بعض الأحوال الخاصة كالترامها لأجل شخص آخر ، كالترامها على أموالها لصالح دائني زوجها . وكما قلنا فيما سبق إن الزواج بالسلطة اندثر في روما في العصر العلمي ، والذي كان بمقتضاه تعتبر المرأة كأحد أولاد الأسرة فتقع تحت سلطة زوجها أو تحت سلطة رب الأسرة ، وبقي الزواج بلا سلطة وهو الذي لا يجعل للزوج سلطة على زوجته قانونا لا عملا حيث يعتبر الزوجان متساويين ، فتحفظ الزوجية بأهليتها كما كانت قبل زواجها ؛ ولذا لا يكون البحث عن منشأ نظرية عدم أهلية المرأة المتزوجة في القانون الروماني . كما يلاحظ أيضا أنه في مقاطعات الجنوب بفرنسا التي كانت تتبع القانون الروماني والتي كانت تسمى ببلاد للقانون المدون ، لا يعرف مبدأ

عدم أهلية المرأة المتزوجة . ولكن هذا المبدأ وجد في مقاطعات الشمال بفرنسا التي كانت متأثرة بالطابع الجرمانى ، وكانت تتبع العرف والعادة ، وكانت تسمى ببلاد القانون الغير المدون ، إذ كان من مبادئ الشعوب الجرمانية وقوع المرأة تحت الوصاية المستمرة ، ولو أن هذا المبدأ قد اندثر إلا أنه بقي له أثر وهو وقوع المرأة المتزوجة تحت سلطة زوجها حيث كان وصيها الطبيعى ، ولذا كانت توجد تفرقة بين النساء المتزوجات وغير المتزوجات من حيث أهليتهن المدنية . وغريب جدا أن المرأة قبل أن تترج تكون أهلا لجميع التصرفات وبمجرد زواجها تفقد هذه الأهلية.

وواضعو القانون المدنى الفرنسى أبقوا هذا المبدأ أخذنا من بلاد العرف والعادة ، وأدخل بذلك فى بلاد القانون المدون . ويلاحظ أن هذا المبدأ أصبح أثراً تاريخياً وسائراً إلى الزوال ، وقد قضى على أكثر آثاره فى فرنسا سنة ١٩٤٢ تحت تأثير النظريات الحديثة من تساوى الجنسين ، بتأثير الحركة النسوية .

وكانوا قد عللوا مبدأ عدم أهلية المرأة المتزوجة بأن الزواج شركة ويجب لكل شركة رئيس ، ولكن هذا التعليل غير سديد ؛ لأن كل اشتراك يقتضى التساوى بين الشركاء ، ولا يستلزم أن رئيس الشركة تكون له السلطة المطلقة على شركائه ، ووظيفة الرئيس هى الإدارة تحت رقابة الشركاء ، وقيل بأن تقرير هذا المبدأ هو لأن المرأة فى حاجة إلى الحماية . ولكن هذا التعليل غير سديد أيضاً إذ أنه يمكن أن يقال ذلك أيضاً عن المرأة قبل زواجها . وقيل بأن سبب هذا هو نقص عقل المرأة ؛ ويُرد على هذا بأنه يمكن أن يقال هذا قبل زواجها أيضاً . فالواقع لا يوجد تعليل منطقي سليم إلا أنه أثر تاريخي كما قلنا . وقد نالت المرأة أخيراً فى سنة ١٩٤٢ أهلية التصرف فلا تحتاج إلى إذن الزوج أو القضاء .

ومبدأ عدم أهلية المرأة المتزوجة ينحصر فى أنها لا تستطيع أن تزاول التصرفات حتى ولو كان على مالها الخاص إلا باذن الزوج أو القضاء . ولما كانت ضرورة إدارة شؤون المنزل تستدعى أعمالاً متعددة سريعة ، اضطر القضاء إلى اعتبار أن هناك وكالة ضمنية من الزوج لزوجته من يوم عقد الزواج لإدارة شؤون المنزل ، فلا ترجع إلى زوجها لتستأذن منه لشراء ملح أو خبز مثلاً .

قلنا فيما سبق إنه طبقا للسادة ٢١٣ مدني فرنسي بأن من واجبات الزوجين الأمانة ، فلا يجوز لأحدهما ارتكاب الزنا . وقانون العقوبات الفرنسي (كالمصري) يعاقب الزوجة الزانية بالحبس أو الغرامة . ولكن القضاء الفرنسي أصبح يكتفي بغرامة بسيطة قدرها ٢٥ فرنكا ، وهو مبلغ زهيد يشجع على ارتكاب الفحشاء لأنها عقوبة غير رادعة .

وأخيراً الزواج يثبت نسب الأولاد الذين يرزقون للزوجين على فراش الزوجية ، كما يترتب على الزواج حرمة المصاهرة (كما بين سابقا) ، ولكن يلاحظ أنه لا توارث بين الزوجين .

الشرعية الإسلامية : لا يفقد الزواج في الشريعة الإسلامية أهلية المرأة ، وليس للزوج على امرأته سلطة بالنسبة لأموالها ، إذ أنهما متساويان في هذه الحقوق ؛ وبذلك كانت الشريعة الإسلامية أسبق التشريعات في تقرير مبدأ أهلية المرأة المتزوجة ، وليس للرجل على زوجته إلا الطاعة في حدود معينة . كما أن النفقة تجب على الزوج فقط ، وعلى قدر طاقته وحالته (قانون سنة ١٩٢٥) ، ولا يسقط متجمد النفقة إلا بالأداء أو التنازل . كما لا تجب النفقة في حال نشوز المرأة . فالرجل في الواقع له القوامة في الحدود التي يفتها الشريعة الإسلامية . وبالزواج يثبت نسب الأولاد ، كما هو سبب للتوارث بين الزوجين المسلمين .

ولذا خلت الشريعة الإسلامية من الاضطراب والتعقيد اللذين وقعت فيهما التشريعات الأخرى ، وأقرت ما أقرته الشريعة الإسلامية منذ أمد بعيد (سنة ١٩٤٢) بالنسبة لأهلية المرأة) . وهذا من فضل الله على المسلمين .

أوائل المتكلمين من المسلمين

واصل بن عطاء - شيخ المعتزلة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ على مصطفى الغرابي
المدرس بكلية أصول الدين

لقد انتهينا في المقالين السابقين من الكلام على واصل بطريق إجمالي، والآن نريد أن نتحدث عن آرائه .

آراء واصل الكلامية :

لقد كان الناس في عهد الرسول والخلفاء من بعده ثلاثة أصناف : مؤمن ، وكافر ، ومنافق .

فالْمُؤْمِنُ : هو ما اتفق ظاهره وباطنه ، ووافقت أعماله الجسمية اعتقاداته القلبية ، ينعكس نور إيمانه المستقر في قلبه على جوارحه فيدفعها نحو العمل ، وتكون أعماله ترجمانا عما يكنه قلبه من الإيمان الصادق ، واليقين الكامل .

والسَّافِر : هو الذي جاهر بالخالفه ، ووافقت أعماله الفاسدة ، عقيدته الباطلة . فأعماله صورة لما في قلبه من الزيف والضلال ، والفجور والكفران ، والشروع والآثام ، والسوء والبهتان .

وأما المنافق : فهو الذي يظهر خلاف ما يضمّر ؛ يطن الكفر ويظهر الإسلام ، ليعامل في الدنيا معاملة المؤمنين عن إخلاص وطيب خاطر ، وإن كان في الآخرة في الدرك الأسفل من النار : « يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون

إلا أنفسهم وما يشعرون . في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ، ولهم عذاب أليم بما يكذبون » ^(١) .

أما من وقع منه مخالفة من المؤمنين فيظهر أنه لم يكن له اسم يعرف به ، إما لأنه لم يوجد من المؤمنين من وقعت منه مخالفة لما جاء به الدين الاسلامي وما آمن به من أحكام الشريعة الاسلامية ، أو وجد من وقعت منه مخالفة على ندرة ؛ والاخير أصبح بدليل آية القذف ، « والذين يرُمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون » . ففي هذه نرى أن القرآن الكريم قد سمى من يرمى المحصنة بالزنا ، ولم يقدّر على إثباته بأربعة شهداء - « فاسقا » ، وأنه يجلد ثمانين جلدة ، ولكن لم يبين لنا القرآن هل هذه التسمية - وهو أنه فاسق - تخرجه من الإيمان الى الكفر ، أو أنه مع إيمانه فاسق ، أو أنه خرج من رتبة الإيمان الكامل ، ولم ينزل الى حضيض الكفر ، أى أنه في منزلة بين المنزلتين ؟ لهذا رأينا المسلمين قد اختلفوا بعد عصر الرسول عليه السلام ، وبعد أن انقضى معظم عصر الخلفاء الراشدين ، فيمن ارتكب كبيرة من المؤمنين بأى شيء يسمونه ؟ أبسمونه « مؤمنا فاسقا » كما هو رأى المرجئة ؟ أم يسمونه « منافقا فاسقا » كما قال الحسن البصري ؟ أم يسمونه « كافر نعمة فاسقا » كما ذهب الى هذا الشيعة ؟ أم يسمونه « كافرا فاسقا » كما زعمت الخوارج ^(٢) .

اختلف المسلمون في الصدر الأول (القرن الأول الهجرى) في ذلك ، وذهب كل فريق إلى أخذ تلك التسميات التي ذكرناها وقد أدلى واصل بن عطاء دلوه في هذا الميدان ، وكان له رأى خاص يخالف فيه غيره من المعاصرين له ، وهذا ما يعرف عند مؤرخي الآراء الكلامية « بمسألة مرتكب الكبيرة » .

(١) لقد يدل لما ذهب اليه من التقسيم المذكور قول الحسن البصري المتوفى سنة ١١٠ هـ « الناس ثلاثة : مؤمن ، وكافر ، ومنافق . فأما المؤمن فقد ألجمه الخوف ، وقومه ذكر العرض . وأما الكافر فقد قمه السيف ، وشرده الخوف ، فأذعن بالجزية وسبح بالضرية . وأما المنافق في الحجرات والطرق يسرون غير ما يعلنون ، ويضمرون غير ما يظهرون » .
(٢) اللنية والامل لابن المرتضى ص ٢٣ وللعل والنحل للشهرستاني ص ٣٣ ، طبع كيوتو .

كان واصل — كما ذكرت عند الكلام على تاريخه — أحد تلامذة الحسن البصرى ، وفى أثناء أحد الدروس التى كان يلقيها الحسن على طلبته ، وقف سائل وسأله عن مرتكب الكبيرة فقال : يا إمام الدين ، لقد ظهرت فى زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبار ، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن المسلة ، وهم وعيدية الخوارج ؛ وجماعة يرجون أصحاب الكبار ، والكبيرة عندهم لا تضر مع الايمان ، بل العمل على مذهبهم ليس ركنا من الايمان ، ولا يضر مع الايمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وهم مرجئة فكيف تحكم لنا فى ذلك اعتقادا ؟^(١) بعد أن ألقى السائل سؤاله هذا على الحسن البصرى لسمع منه القول الفصل فى أمر مرتكب الكبيرة ، وبينما هو ينظر الجواب من شيخ المعلمين فى ذلك العصر ، وإذا بواصل يتطوع بالجواب قبل أن يعلن أستاذه رأيه قائلا : « هو فى منزلة بين المنزلتين ، لا مؤمن ولا كافر »^(٢) وجه تقرير واصل لهذا رأى :

لم يذكر مؤرخو الفرق الكلامية أن واصل واجه أستاذه بالتدليل على رأيه ، وإنما وقفوا عند حد ذكر الرأى مجردا عن كل استدلال أو تعليل ، إلا أن بعض الكتب^(٣) قد حكى لنا الحاجة التى وقعت بين واصل وعمرو بن عبيد الذى كان قد بقى على رأى أستاذه الحسن فى هذه المسألة — مسألة مرتكب الكبيرة — ولما اقتنع عمرو بن عبيد برأى زميله واصل اعتنقه وقال : « ما بينى وبين الحق من عداوة ، والقول قولك ، وأشهد من حضر أنى تارك ما كنت عليه من المذاهب ، قائل بقول أبى حذيفة »^(٤) :

أما التقرير الذى أقنع به واصل عمرا فهو أنه قال : يا أبا عثمان ، لم استحق مرتكب الكبائر اسم النفاق ؟ قال عمر : لقوله تعالى « والذين يرمون المحصنات

(١) الملل والنحل للشهرستانى ص ٣٣ طبع كيوترن .

(٢) الفرق بين الفرق للبندادى ص ٩٨ والملل والنحل ص ٣٣ . طبع كيوترن .
والتبصير فى الدين لأبى المظفر الاسفرائينى ، ص ٤٠ ويختصر الفرق بين الفرق لعبد الرزاق ابن رزق الله الرسمى ص ٩٨ .

(٣) المنية والامل لآل المرتضى ص ٢٢ - ٢٣ .

(٤) المنية والامل ص ٢٣ .

ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون . ثم قال : « إن المنافقين هم الفاسقون » . فكان كل فاسق منافقا ، إذ كان الألف واللام موجودين في باب الفسق . فقال واصل : أليس الله تعالى قال « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » . وقد قال في آية أخرى : « والكافرون هم الظالمون » . فعرف بالألف كما في القاذف ؛ فسكت عمر . ثم قال واصل : ألسنت تزعم أن الفاسق يعرف الله ، وإنما خرجت المعرفة من قلبه عند قذفه ؟ فإن قلت : لم يزل يعرف الله فما حجتك وأنت لم تسمه منافقا قبل القذف ؟ وإن زعمت أن المعرفة خرجت من قلبه عند قذفه قلنا لك فلم لا أدخلها في القلب بتركه القذف كما أخرجها بالقذف ؟

ثم قال واصل لعمرؤ : أليس الناس يعرفون الله بالأدلة ويجهلون به دخول الشبهة ، فأى شبهة دخلت على القاذف ؟ ثم قال له واصل أيضا : يا أبا عثمان ، أيما أولى أن يستعمل من أسماء المحدثين : ما اتفقت عليه الفرق من أهل القبلة . أو ما اختلفت فيه ؟ فقال عمرو : ما اتفقت عليه ، فالخوارج تسميه « كافرا فاسقا » ، والمرجئة تسميه « مؤمنا فاسقا » ، والشيعة تسميه « كافرا نعمة فاسقا » ، والحسن يسميه « منافقا فاسقا » . فأجمعوا على تسمية « مرتكب الكبيرة بالفسق » فأخذ بالمتفق عليه ولا نسميه بالمختلف فيه ، فهو أشبه بأهل الدين .

وهنا يجب أن نلاحظ أن واصل قد استعمل في استدلاله على رأيه وتقريره وإبطال رأي عمرو بن عبيد ، أو بالأحرى رأى الحسن البصري ، ثلاثة أنواع من الأدلة :

أولا : الدليل النصي من القرآن الكريم الذي أشار إليه بالآيات التي ساقها .
ثانيا : الدليل العقلي الذي بدأه بقوله : ألسنت تزعم ... وانتهى به في قوله : أليس الناس يعرفون الله ... الخ .

ثالثا : الإجماع ، فقد قال — بعد أن ذكر آراء المخالفين وبين ما اتفقوا عليه وما اختلفوا فيه — : « فأجمعوا على تسميته « بالفسق » ، فأخذ بالمتفق عليه ولا نسميه بالمختلف فيه ، فهو أشبه بأهل الدين » .

والص الأخير وهو قوله : « فهو أشبه بأهل الدين » يدل على أن واصلا ما كان يريد برأيه هذا إلا الرجوع إلى رأى مجمع عليه ، ولا يعمل هذا إلا من كان مخلصا للحق يقرر في الدين لله ، لا للهوى والشيطان ؛ ومخالفته لرأى أستاذه « الحسن » لا تجعله متهما في دينه ولا كافرا ، كما يقول بعض علماء الأشاعرة الذين أرحوا لفرق المتكلمين ؛ ومن هؤلاء أبو منصور ^(١) عبد القاهر بن طاهر البغدادى ؛ قال عن واصل هذا في كتابه « الفرق بين الفرق ص ٩٨ » : « ثم إنهما « أى واصلا وعمرأ ، أظهرأ بدعتهما « فى المنزلة بين المنزلتين ، وضأ إليهما « دعوة الناس إلى قول القدرية على رأى معبد الجهنى ، فقال الناس يومئذ لواصل : « إنه مع كفره قدرى » ، وجرى المثل فى كل كافر قدرى . ا هـ »

ومنهم كذلك أبو المظفر ^(٢) الاسفراينى الذى قال فى كتابه « التبصير فى الدين ص ٤١ » : فلأ عرف الناس من واصل قوله بالقدر — وكانوا يكفرونه بالقول الاول « وهو المنزلة بين المنزلتين » الذى ابتدعه فى فساق أهل الملة — وكانوا يضربون به المثل ويقولون : إنه مع كفره قدرى . ا هـ »

ومن هنا ترى كيف أن أصحاب الفرق يتهم بعضهم بعضا ، وأيسر شئ يحكمون به هو حكمهم على كل من يخالفهم فى رأى من الآراء مخلصا فيه ومجتهدا لا شئ إلا الوصول إلى الحق ، والتمييز بين الصحيح والفساد ، والصادق والكاذب — أيسر شئ وأقر به خطورا على بالهم هو الحكم على من خالفهم « بالكفر » مع أننا قلنا : إن لعلماء الكلام أن يجتهدوا فيما لم يرد فيه نص قاطع بشرط أن يتفق ذلك مع القواعد العامة والقوانين الكلية التى قررها الدين الاسلامى ، كما أن للفقهاء ذلك الحق ، ومن اجتهد منهم وأصاب فله أجران ، ومن أخطأ — بشرط أن يكون طالبا الحق مخلصا فى طلبه — أجر ، وهو كذلك مؤمن لا كافر . وفى مقال تال إن شاء الله نتحدث عما سبق من آراء واصل الكلامية حتى نكشف عن عالم جليل من علماء المسلمين المتقدمين . والله هو الهادى إلى سواء السبيل ؟

حقوق الانسان

بقلم فضيلة الاستاذ الشيخ ابراهيم على أبو الخشب

المدرس بمعهد القاهرة

بالأمس رأيتني أخط عنوان هذه الكلمة دون ما وعى ولا إدراك ،
ورأيت كأن وازعا يحفزني أن أمشي في منعرجاته ، وأن أطوف بجنباته ، وأن
أسترسل فيه فربما كان من المقالات التي تجدر بعناية الكاتبين خصوصا في وقت
لا يفرغ أديب الى نفسه ، أو يسبح فيلسوف في مهامه خلوته ، وملكوت فكره
إلا عاوده الأسف على ما صار اليه الحال من انحسار وانهايار . وهناك دوى في
رأسى صوت يغمغم « ويل للانسان من الانسان ...! » وأدركت بعدها على طريقة
الربط والترابط ، المسببة في رأى علماء النفس « تداعى المعانى » بانهيار أفكار
وهواجس أخرى كان أبرزها ما كان في الجاهلية من ظلم صارخ ، وجور شنيع ،
واعتماد لا يسيغه الذوق . وسوى هذا وهذا مما كان يتمثل في حروب ثور
عجاجتها ، وتدور رحاها ، ويعلو في أجواز الفضاء غبارها فلا تضع أوزارها
إلا إذا شارف الحيان على الفناء ، ودنا الفريقان من الموت ، وأنأخ الهلاك بكلك
عليهم جميعا ... فان أدرك الرشد عقلاهم ، وأسعف رؤسائهم ، عادوا الى الصحو ،
وعلم كلاهما أى منقلب ينقلبون ، ولكن ذلك الى أمد ، ثم تعود الكرة دواليك
وهكذا ...

وقد طاف الى جوار هذا الخاطر وأد البنات « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل
وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون
أم يدسه فى التراب » وغير هذا مما يدل على العقوق ، وغمط الحقوق ، ونبد
التآلف ، وانعدام الرغبة فى التعارف ، حتى لسكان الناس وحوش نافرة ، أو معان
متناكرة . وحينئذ التمس العذر للعربى الجلف فيما كان يأتى من ظلم ، أو يقارف
من خطل ، لأنه لم تربطه آصرة ، أو تلم شمله عقيدة ، والامة من شأنها أن يجمع

القانون شتانها ، ويخضع أهواها المختلفة لحكم السلطان أو رأى الخليفة . وهو وإن كان يسكن الجزيرة ، تقله أرضها ، وتظله سماؤها ، إلا أنه مع أخيه المواطن ، وزميله القاطن ، كما يقول التصوير القرآنى « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى » . ولذلك كانت المنة واضحة بالثام الأرواح ، وتساقق الأشباح ، وانسجام العواطف ، وتلاقى الأغراض ، يوم أن أذن صوت الوحي فيما بينهم « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم » .

وانتقل الخاطر بعد ذلك انتقالا خاطفا الى دعاة المدنية الحديثة ، والحضارة التى سخر العقل فى خدمتها جنونه وفنونه ، فقلت حتى متى يضللون الناس بتلك الكلمات الجوفاء ، والجلل المعسولة ، والأساليب المفضوحة ، من دعوى « حقوق الإنسان ، وضمان السلم ، ونزع السلاح ، ورد المظالم ، وانعاش الدول التى طحنتها ربحى الهييجاء ، وأنت عليها ويلات المعارك ، ودكت معالمها قتابل القتال ؟ وما هذه المؤتمرات التى تجتمع وتفض ، وتظعن وتقيم ، وهيئة الأمم ، ومجلس الأمن ؟ وما بالها بعد هذا كله لم تضمن السلام ، أو تكفل الطمأنينة ، وتقف المعتدى عند حد معقول من الاعتداء ؟ ألا لإنهم « يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون » . والحرب لا تزال تطارد العالم ، وتكمن له فى كل مرصد .

وليس ورام دين محمد صلى الله عليه وسلم ما يضمن الهدوء والاستقرار ، ويُرَغَّب فى السلم ، ويُنفَر من الخصومة ، ويقضى على نزوات الهوى ، ونزغات الطيش ، إذ يدعو إلى الألفة ، ويُحَبِّبُ فى الإيثار ، وبحث المسلم أن يكون أخا المسلم ، لا يؤذيه : ولا يخونه فى عرضه ، أو ينتهك حرماته ... وقد رسم « حقوق الإنسان » باعتباره فردا ، وباعتباره لبنة فى بناء المجتمع ، وحدّره مواطن الهلكة ، ونهاه عن موارد التلف ، ومزالت السوء ، وضمن له بمشروعية البيع والشراء ، والرهن والإجارة ، ونهيه عن الخسالة والخداع ، ملكية صحيحة لا يصادفها جور ولا اعتداء ... وأمره بالزكاة وبذل يد المعونة للبائس الفقير ، والتفانى فى سبيل الخير العام ، ليكون المؤمن للؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا .. وفى هذا من الدعوة إلى الإنسانية مالا تحجى به شريعة ، أو تعترف به

تقاليد أخرى ... ولا نقول هذا عصبية هو جاء لدين يُقضي أن ننافع عنه ،
وندعو إلى مائدته . . . فإنه يأبى فيما ياباه الوراثة الممقوتة ، والتقليد الاعمى ،
ويجب دائماً أبدأ النظر والفقه ، والمماحصة والدرس ، حتى يكون الإيمان به
يقيناً وإذعاناً بجريان من الرجل مجرى الدم الذى يذكى حرارة الحياة والحركة
« ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة » .

ولكننا نرجو هؤلاء الداعين الى الوفاق ، الراغبين رغبة أكيدة فى الإصلاح،
أن يجعلوا لهذا الكتاب الذى أنزله ربه مباركا ليكون بين يدي هذا السكون «هدى
للناس وبيئات من الهدى والفرقان » نصيبا من النظر والاعتبار ، عسى أن تنتهى
هذه الإحزن ، وتقضى تلك المحن ، وتعيش الخليقة فى بلهنية الحياة وغضارتها . . .

قلت لنفسى هذا الكلام حينما أمسكت بالقلم لأكتب تحت عنوان « حقوق
الإنسان » ، ولم ألبث أن سمعت هاتفا فى وادى الضمير يقول تيقظ من نومك
واصح من غفلتك ، فإننا فى عصر « المادة » والمسلمون ليست لهم شوكة المسلط ،
ولا بأس المظفر الغالب ، وكل ما يملك أحدهم اذا دعا الى الله أن يتلو آية ، أو يقرأ
حديثاً ، دون أن يعزز ذلك بما يحميه من عدوان الجاهل ، وسخرية الضال ، مع
أن رسولهم الذى يزعمون أن لهم فيه أسوة حسنة لم يغز غزواته ليفتح البلاد ،
ولا ليحيى الخراج ، ويضع فى رموس المعاندين الجزية ؛ إنما حارب ليفتح القلوب ،
وينير البصائر ، ويوجه الأفهام الى الخير ؛ فمن اهتدى بهدايته عصم بها ماله ودمه
وكانت سبيله سبيل المؤمنين .

وعدت فقلت : وماذا يفعل المسلمون والبأس لغيرهم ، والغلبة لعدوهم ،
وأيديهم خلو من السلاح والذخيرة . غير أن هذا الهاتف انبعث الى جانبيه هاتف
آخر بأبيات كنت أحفظها من شعر شوقي ، فظلمت أعيد فيها وأردد :

هل كان حول محمد من قومه	إلا صبي واحد ونساء
فدعا فلبى فى القبائل عصبه	مستضعفون قلائل أنضاء
نسفوا بناء الشرك فهو خرائب	واستأصلوا الأصنام فهى هباء
والحق والإيمان إن صبا على	برد فقيه كتيبة خرساء

المظاهرة المصرية لتأييد حق العرب في فلسطين

كان يوم الأحد غرة شهر صفر سنة ١٣٦٧ (١٤ ديسمبر ١٩٤٨ سنة) يوماً من الأيام المجيدة في تاريخ مصر ؛ فقد تألفت فيه مظاهرة هي أول ما حدث من نوعها في الشرق ، من ناحية عدد أفرادها ، فقد بلغوا مائة ألف ؛ ومن ناحية مكانة المشتركين فيها ، فقد سار فيها كبار شيوخ الأزهر ، وكبار قساوسة الإكاثروس القبطي ، وأكثريّة العلم الأزهريين والجامعيين ، وسائر معاهد التعليم في القاهرة ، بين وبنا ؛ فكانت مظاهرة رائعة لالتهاب شعور الشرقيين بقسمة فلسطين بين الإسرائيليين وأهلها المسلمين .

ففي الساعة الحادية عشر أمّ الأزهر كبار علماء الدين وطلاب العلم ، واشترك معهم بعض كبار رجال الإكاثروس القبطي ، منهم حضرات القمامسة : متياس سكرتير صاحب الغبطة بطريارك الأقباط ، ومديوس البرموسى ، وصمويل السويريانى أرسانيوس وكيل مطرانية بنى سويف ، والارسمندريث فلامتيوس الصويقي ؛ ساروا إلى جانب حضرات أصحاب الفضيلة : الشيخ محمد عبد اللطيف دراز مدير الأزهر ، والشيخ محمود أبو العيون سكرتير عام الأزهر ، والشيخ عيسى منون شيخ كلية الشريعة ، والشيخ عبد الجليل عيسى شيخ كلية اللغة العربية .

وسار خلف هؤلاء العلماء والقمامسة بعضُ العلماء ، وسعادة صالح حرب باشا وفضيلة الشيخ حسن البنا ، وغيرهما ممن لا يحصون كثرة .

مشى هذا المركب يحف به الجلال ، حتى وصل إلى ميدان إبراهيم باشا ، وكان قد أعدت في فندق السكوتينتال منصة للخطابة ، وجعل فيها كراسي لحضرات

رؤساء وفود الدول العربية، ووضعت في الميدان مكبرات للصوت، وكانت أعلام الدول العربية السبع تتحرك فوق الفندق .

عند ذلك طلب المتظاهرون أن يسموا كلمات لرؤساء الوفود العربية ، وكانوا قد صعدوا إلى سطح الفندق لعدم إمكان وصولهم إلى مكان الخطابة من شدة الزحام ، فأعد لهم هناك مكبر للصوت . وصعد إلى السطح أصحاب الفضيلة الشيخ محمد عبد اللطيف دراز ، والشيخ محمود أبو العيون ، والشيخ حسن البنا ، وصالح حرب باشا ، والاستاذ إسماعيل الأزهرى ، وبعض ممثلى الصحف ، وشركات التلغرافات . فألقى دولة رياض بك الصلح كلمة باسم الأمير فيصل ، ولكن الجماهير ألحت فى أن يسمعهم صوته ، فألقى سموه كلمة قوبلت بالتصفيق والتهافى لفلسطين .

وتقدم حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمود أبو العيون السكرتير العام للجامع الأزهر ، فألقى كلمة بليغة ، قوبلت بأبلغ ما تقابل به الخطب من الهتاف والتقدير ، فكان مما قاله :

« الله أكبر القادر على كل شيء ، لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده !

« شأهت الوجوه ! هذا يوم الفصل ! إلى الامام يا جند الله ! إلى الامام يا صناديد العرب ! إن هذا اليوم له ما بعده :

فإما إلى صدّاحة تطرب الورى وإما إلى نواحة فى المآتم

« نعم أرض العرب للعرب . إن ورأى هنا ، وفى هذا المكان العالى ، غضافرة لا يرهبون الموت ، ولا يخافون الردى ؛ هم أمراء العروبة ، ورؤساء حكوماتها ووزراؤها ومثلوها فى جامعة الامم العربية ، ... الخ .

ثم تلا فضيلته جميل مردم بك فألقى خطبة قيمة قوبلت بتصفيق حاد متكرر . ونهض بعده سعادة صالح حرب باشا فألقى كلمة حماسية استقبلت باستحسان عميق .

وتكلم بعده غبطة القصص متياس الانطونى سكرتير نيافة بطريرك الاقباط خطابة باسم الآباء الروحانيين ، جاء منها قوله :

« إننا مستعدون للتضحية بكل معانيها في سبيل إنقاذ فلسطين ، ونحن المسيحيين قبل أن نكون مسيحيين نعلن أننا على استعداد لتقديم كل تضحية في سبيل إنقاذ فلسطين وجعلها عربية . »

ثم أعقبه الأستاذ الأزهرى رئيس الوفد السودانى ، وألقى كلمة قال فيها :
« إن شباب الوادى فى الجنوب يهبون أرواحهم وأموالهم لفلسطين وللعروبة . »

وتلاه فضيلة الأستاذ الشيخ حسن البنا فألقى كلمة حماسية بليغة ، بدأها بقوله :
« ليك فلسطين ! » فوقت من المتظاهرين موقعا جميلا .
ثم استأنفت المظاهرة سيرها إلى ميدان عابدين ، فبلغته فى منتصف الساعة الثالثة ، وأخذت تهتف باسم فلسطين ؛ وهنا انتهت مهمتها ، وتفرق أفرادها .

من نصيح الآباء للأبناء

مما قاله لقمان الحكيم لابنه : يا بنى لا تضحك من غير عجب ، ولا تمشى فى غير أرب ، ولا تسأل عما لا يعينك .

يا بنى لا تضيع مالك وتصلح مال غيرك ؛ فان مالك ما قدمت ، ومال غيرك ما تركت .

يا بنى إنه من يرحم يرحم ، ومن يصمت يسلم ، ومن يقل الخير يغنم ، ومن يقل الباطل يأثم ، ومن لا يملك لسانه يندم .

يا بنى زاحم العلماء بركبتك ، وانصت إليهم بأذنك ، فان القلب يحيا بنور العلماء ، كما تحيا الأرض الميتة بماء السماء .

وقال أعرابي لابنه : يا بنى إنه قد أسمعتك الداعى ، وأعذرالك الطالب ، وانتهى الأمر فيك الى حده ، ولا أعرف أعظم رزية من ضيع اليقين وأخطأ الأمل .

وقال على بن الحسين لابنه : يا بنى اصبر على النوائب ، ولا تعرض للحتوف ، ولا تجب اخاك من الأمر الى ما مضرتك عليك أكثر من منفعتك لك .

مطالعات فى الجبرتى :

العلماء سفرء وقادة

لحضرة الأستاذ محمود الشرفاوى

يؤرخ عبد الرحمن الجبرتى مصر فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر وشطرا من القرن الثالث عشر الهجرى ، فهو يبدأ تاريخه بسنة ١٠٩٩ ، ويدون حوادث هذه السنة بعد إجمال لما سبقها من تاريخ مصر ؛ وينتهى تاريخه بنهاية سنة ١٢٣٦ هـ .

وقد كتب الجبرتى تاريخه هذا فى سنة ١٢٢٠^(١) ، وتوفى على الأرجح فى سنة ١٢٣٦ كما يفهم من السطور الأخيرة من الكتاب ؛ فهو إذن قد شاهد كثيراً مما دونه فى تاريخه الذى سماه (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) ، وما لم يشاهده الجبرتى بنفسه من الحوادث التى سبقت عصره رواه عن ثقات شاهدوا هذه الحوادث وعاصروها ، ولعله روى كثيراً منها عن أبيه الشيخ حسن الجبرتى الذى كان عالماً ثرياً ذا مكانة وحظوة .

ويكاد الجبرتى أن يكون وحده ، أو هو عن يقين ، ينفرد بتاريخ هذه الفترة من تاريخ مصر باللغة العربية ؛ وهو بمعاصرته لطائفة كثيرة من حوادث هذه الفترة ، وبما كان له ولأبيه قبله من المكانة ، قد دون هذه الحقبة من التاريخ فى كثير من الدقة والإحاطة والتفصيل ؛ ويستطيع من يؤرخ مصر من بعده أن يعتمد على صدقه فى تاريخ هذه الحقبة ، وأن يؤتقنه .

* * *

كان الأزهر وكان علماءؤه فى هذه الفترة التى يؤرخها الجبرتى ، يشغلون مكانا

(١) ص ٣٧٧ جزء أول من تاريخ الجبرتى طبع المطبعة الشرفية .

رقيقاً في المجتمع المصري، ويؤثرون تأثيراً قوياً في حوادث ذلك العصر، وهم يشغلون بأخبارهم وحوادثهم جزءاً غير هين فيما كتبه الجبرتي من تاريخه؛ جزءاً غير هين في كنه ولا في كيفه؛ فهم في صفحات كثيرة من هذا التاريخ يُذكرون، وهم في كل أمر جسيم من أمور مصر لذلك العهد يذكرون، بل لعلمهم كانوا في كثير من الأمور محوراً ومؤثراً الأول والأكبر.

ومع أن مصر في هذه الفترة من تاريخها كانت تعيش في محنة موصولة، واقعة تحت حكم طائفة من المماليك يظلمون أهلها، ويستبدون بمقاديرها، ويتركون جميع من في مصر في ظلمات من الجهالة، ومن الرعب الدائم والخوف القاتم، حتى فسدت قلوبهم وعمولهم، وضمائرهم وأخلاقيهم - مع أن مصر في هذه الفترة كانت في هذه الحال، فإن ما نجده من أخبار علماء الأزهر في هذه الفترة هو كالنور يضيء في الظلام؛ بل لعله أن يكون وحده هو الحديث الطيب مما كتبه الجبرتي في تاريخ هذه الفترة من حياة مصر.

علماء الأزهر في هذه الفترة هم - كما قلت في رأس هذا المقال - كانوا سفراء وقادة؛ سفراء الشعب المظلوم إلى حكامه الظلمة، وقادة الشعب الساخط ضد كل عدوان وجور وجبروت.

سفراء عند قوم يشك كل إنسان منهم في كل إنسان، ويتم كل جار جاره، ويوقع أهل كل بيت منهم بين بعضهم وبعض، ويتوجس كل أخ من أخيه.

وقادة بين قوم يقتل منهم الواحد والعشرة في أقل سبب وبلا سبب، وتنهب أموالهم وتسبي نساؤهم وأولادهم، ويحرق الناهب والقاتل والسالب كثيرين يقولون له: أحسنت أنت سيدنا ونحن ملك يمينك.

هكذا كان الناس، وكان علماء الأزهر في ذلك الزمان.

يقول الجبرتي في حوادث شهر جمادى الأولى من سنة ١١٩١: إن بعض الأوقاف المحبوسة على طلبة العلم آل إلى الطلبة المغاربة، ولكن واضع اليد على ذلك

الوقف جحد هذه الأيلولة وأبى أن يسلم فيه إلى مستحقه، والتجأ في ذلك إلى يوسف بك الكبير أمير الحاج فأعانه، فأقام المغاربة دعوى أمام القاضى، فأثبت لهم الحق في هذا الوقف. ولكن الأمر كبر على يوسف بك فأبى أن يسلم بحكم القاضى بل أمر بالشيخ عباس « زعيم المطالبين بوقف المغاربة » أن يذهب به إلى السجن، فلما ذهب رسل الأمير يوسف بك إلى الأزهر ليأتوا إليه بالشيخ عباس هذا، طردهم المجاورون وسبوه ولم يكتوهم من أخذه، ثم قصدوا إلى الشيخ أحمد الدردير فأخبروه الخبر، فكتب الشيخ الدردير كتاباً إلى يوسف بك ألا يتعرض لأهل العلم وألا يعاند في حكم أصدره القاضى، وأرسل الشيخ الدردير كتابه هذا إلى يوسف بك مع شيخين اختارهما لذلك، أحدهما يسمى الشيخ الفرنوى، فلما وصل الشيخان إلى يوسف بك برسالة الشيخ الدردير، أمر بالقبض عليهما، وزجرهما زجراً شديداً، ثم حبسهما.

وترك للجبرقى أن يقص ما جرى بعد ذلك بأسلوبه الطريف حيث يقول :

« ... ووصل الخبر إلى الشيخ الدردير وأهل الجامع، فاجتمعوا في صبحها وأبطلوا الدروس والأذان والصلوات، وقفلوا أبواب الجامع، وجلس المشايخ بالقبلة القديمة، وطلع الصغار على المنارات يكترون الصياح والدعاء على الأمراء، وأغلق أهل الأسواق القريبة الحوانيت، وبلغ الأمراء ذلك، فأرسلوا إلى يوسف بك فأطلق المسجونين، وأرسل إبراهيم بك من طرفه إبراهيم أغايت المال فلم يأخذ جواباً، وحضر الأغا إلى الغورية ونزل هناك ونادى بالأمان، وأمر بفتح الحوانيت، فبلغ مجاورى المغاربة ذلك فذهب إليه طائفة منهم وتبعهم بعض العوام وبأيديهم العصى والمساوق، وضربوا أتباع الأغا ورجوه بالأحجار، فركب عليهم وأشهر فيهم السلاح هو ومماليكه، فقتل من مجاورى المغاربة ثلاثة أنفار، وانجرح منهم كذلك ومن العامة، وذهب الأغا ورجع الفريق الآخر، وبقى الهرج إلى ثانى يوم، فحضر إسماعيل بك والشيخ السادات وعلى أغا كتحدا الجاوشية وحسن أغا غات المتفرقة والترجمان وحسن أفندى كاتب حواله وغيرهم فنزلوا الأشرية وأرسلوا إلى أهل الجامع تذكرة بانفضاض الجمع وتمام المطلوب. وكان ذلك عند الغروب، فلم يرضوا بمجرد الوعد، وطلبوا الجامكية والجرارية فركبوا ورجعوا،

وأصبح يوم الأربعاء والحال على ما هو عليه، وإسماعيل بك مظهر الاهتمام لنصرة أهل الأزهر، فحضر مع الشيخ السادات وجلسوا بالجامع المؤيدى، وأرسلوا للشيخ تذكراً لصحبة الشيخ إبراهيم السندوبى ملخصها أن إسماعيل بك تكفل بقضاء أشغال المشايخ، وقضاء حوائجهم، وقبول فتوهم، وصرف جماهيرهم وجراياتهم، وذلك بخمنان الشيخ السادات له : فلما حضر الشيخ إبراهيم بالتذكرة وقرأها الشيخ عبد الرحمن العريشى جهاراً وهو قائم على أقدامه، فلما سمعوها أكثروا من الهرج واللفظ، وقالوا هذا كلام لا أصل له ! وترددت الارساليات والذهاب والمجيء بطول النهار، ثم اصطلحوا وفتحوا الجامع فى آخر النهار، وأرسلوا لهم فى يوم الخميس جانباً من دراهم الجامكية . ومن جملة ما اشترطوه فى الصلح عدم مرور الآغا والوالى والمحاسب من حارة الأزهر، وغير ذلك شروط^(١) .

ثم يتولى الجبرقى بعد ذلك إن إبراهيم بك عُيِّن بعد هذه الحركة ناظراً على الجامع الأزهر بدلاً من الآغا، وأنه أرسل من طرفه جندياً للطبخ، وسكن الاضطراب .

لم يكن فى هذه الفترة من تاريخ مصر من يستطيع أن يقف مثل هذا الموقف مع أحد من المماليك، ولا مع تابع من أتباع الممالك؛ لم يكن أحد من العامة ولا من الخاصة مستطيعاً فى هذه الفترة من تاريخ مصر أن يرد مبعوثاً بعث به يوسف بك، أو أن يصيح من فوق منبر بالدعاء على الممالك، أو أن يكتب الى أحد منهم كتاباً ينبه فيه الى أمر كما فعل الشيخ الدردير حين بعث الى الأمير يوسف ينبهه الى « عدم التعرض لأهل العلم ومعاندة الحكم الشرعى » على حد قول الجبرقى .

ولم يكن الممالك وأتباعهم وخدمهم يتحركون لأحد أو لطائفة من الناس ولا لأمر مهما يكن خطره ما دام غير صادر عنهم أو عن أمير منهم، ولكنهم عند ما يغضب أهل العلم فى الأزهر، يبعثون اليهم بالرسل يسترضونهم ويستشفعون

(١) ص ٩ من الجزء الثانى من تاريخ الجبرقى طبع المطبعة الشرفية .

بشيخ منهم يتخذونه ضمينا لهم كما فعل إسماعيل بك بالشيخ السادات حيث جعله عندهم شفيعا وضمينا ، ولم يكن المالك يقبلون من أحد من الناس رأيا ولا يتمضون له أمرا إذا واجههم به ، ولكنهم يسرعون إلى طلبة العلم فيقضون حوائجهم ، ويترضونهم ويتصدقون اليهم في مساجدهم مجيئين مسلمين قد أجابوهم لكل ما يطلبون . ولا يظن ظان أن أهل الأزهر كانوا في غضبتهم هذه نفعيين تحركهم الرغائب والمصلحة الخاصة حين يفضبون في أمر أوقافهم وأموالهم وجراياتهم ، فإن فيما يذكره الجبرتي في صفحات كثيرة من تاريخه ، وما قد فلخص طرفا منه في هذه الفصول ، ما يظهرنا على أن أهل الأزهر كانوا يفضبون أشد الغضب أيضا في أمور لا تنفعهم خاصة ، وإنما أثار غضبهم فيها الدفاع عن كلمة الحق ، وعن دين الله ، وعن الضعاف والمظلومين من عباد الله .

الأدب مع الملوك

كان الحسن السؤلوى ليلة عند المأمون وهو يسامره إذ نفس المأمون والحسن يحدثه . فقال له : نفست يا أمير المؤمنين ؟ فاقبه . فقال المأمون : سوقى ورب الكعبة ! (أى لا يقول مثل هذا الكلام فى حق أمير المؤمنين إلا سوقى لا يصلح لمجالسة الملوك) يا غلام خذ بيده ! فأخرجه الغلام .

ودخل أبو النجم على هشام بن عبد الملك ينشده أرجوزته التى أولها : الحمد لله الوهوب المجزل ، وهى من أجود شعره . فلما أتى على قوله : والشمس فى الجسود كعين الأحول ، غضب هشام وكان أحول ، وأمر بصفع قفاه وإخراجه ! .

ودخل كثير عزة على يزيد بن عبد الملك ، فبينما هو يحدثه إذ قال : يا أمير المؤمنين ما معنى قول الشماخ ؟ وأنشده بيتا له . فقال يزيد : وماذا على أمير المؤمنين أن لا يعرف ما قال هذا الاعرابى ! وأمر بإخراجه .

منزلة السنة من الدين

وضرورة العمل بها والانكار على من ردها

لحضرة الاستاذ محمد فؤاد عبد الباقي

وجاء في سنن الدارمي — المقدمة ٤٩ — باب السنة قاضية على كتاب الله ص ٥٥

أخبرنا أسد بن موسى ، حدثنا معاوية ، حدثنا الحسن بن جابر ، عن المقدام ابن معد يكرب الكندي ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرّم أشياء يوم خيبر : الحمار وغيره ، ثم قال : « ليوشك الرجل متكئاً على أريكته يحدث بحديثي فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، ما وجدنا فيه من حلال استحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرّمناه . ألا وإن ما حرّم رسول الله فهو مثل ما حرّم الله » . ١٠ هـ .

وجاء في مسند الامام احمد — الجزء الثاني ص ٣٦٧

حدثنا عبد الله ، حدثني أبي ، حدثنا خلف قال : حدثنا أبو معشر عن سعيد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأعرفن أحدا منكم أتاه عني حديث وهو متكئ في أريكته ، فيقول : اتلوا علي به قرآنا ؛ ما جاءكم عني من خير قلته أو لم أقله فأنا أقوله ، وما أتاكم عني من شر فأنا لا أقول الشر » . ١٠ هـ .

وجاء في الجزء الرابع ص ١٣٠ و ١٣١

حدثنا عبد الله ، حدثني أبي ، حدثنا يزيد بن هرون قال أنبأنا حريز بن عبد الرحمن ابن أبي عوف الجرجسي عن المقدام بن معد يكرب الكندي ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه ، ألا يوشك رجل يثنى شعبانا على أريكته يقول : عليكم بالقرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فخرموه » .

ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلى ، ولا كل ذى ناب من السباع ؛ ألا ولا لُحْطَةٌ من مال معاهد إلا أن يُستغنى عنها صاحبها ؛ ومن نزل يقوم فعلهم أن يقرؤهم ، فإن لم يقرؤهم فلهم أن يُعقبوهم بمثل قراهم ، ٥١ .

وجاء فى ص ١٢٢

حدثنا عبد الله ، حدثني أبي ، حدثنا عبد الرحمن وزيد بن حباب ، قالوا : حدثنا معاوية ابن صالح عن الحسن بن جابر ؛ قال زيد فى حديثه : حدثني الحسن بن جابر ، قال سمعت المقدم بن معد يكرب يقول : حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر أشياء ثم قال : ديوشك أحدكم أن يكذبني وهو متكئ على أريكته يحدث بحديثي فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمانه . ألا وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما حرم الله ، ٥١

وجاء فى الجزء السادس ص ٨

حدثنا عبد الله ، حدثني أبي ، حدثنا على بن إسحق ، أنبأنا عبد الله ، أنبأنا ابن لهيعة ، حدثني أبو النضر أن عبيد الله بن أبي رافع حدثه عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا عرفن ما يبلغ أحدكم من حديثي شيء وهو متكئ على أريكته فيقول : ما أجد هذا فى كتاب الله ، ٥١ .

وقال ابن عبد البر أيضا فى كتابه جامع بيان العلم الجزء الثانى ص ١٨٨

(باب موضع السنة من الكتاب وبيانها له) .

قال الله تعالى ذكره : وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ، ١٦ / النحل / ٤٤ وقال : فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ، ٢٤ / النور / ٦٣ وقال : وإنك لتهدى الى صراط مستقيم . صراط الله ، ٤٢ / الشورى / ٥٢ و ٥٣

وفرض طاعته فى غير آية من كتاب الله وقرنها بطاعته جل وعز ، فقال : وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ، ٥٩ / الحشر / ٧

وروى عن عبد الرزاق قال : أخبرني الثوري عن منصور عن إبراهيم عن علقمة قال : قال عبد الله بن مسعود : لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله . قال : فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب ، فقالت : يا عبد الرحمن بلغني أنك لعنت كيت وكيت ، فقال : وما لي لا ألعن من لعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن هو في كتاب الله ! قالت : إني لأقرأ ما بين اللوحين فما أجده . قال : إن كنت قارئة لقد وجدته ؛ أما قرأت « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ؟ قالت بلى ، قال : فإنه قد نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلت : قد أخرج هذا الحديث الإمام البخاري في صحيحه في كتاب اللباس (٧٧) باب المتنمصات (٨٤) بهذا النص :

« حدثنا إسحق بن إبراهيم أخبرنا جرير عن منصور عن إبراهيم عن علقمة قال : لعن عبد الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله ، فقالت أم يعقوب ما هذا ! قال عبد الله : وما لي لا ألعن من لعنه رسول الله ، وفي كتاب الله ! قالت : والله لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدته ؛ قال : والله لئن قرأته لقد وجدته « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، اهـ

وجاء في إرشاد الفحول للإمام الشوكاني ص ٣١

قال الأوزاعي : الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب .

قال ابن عبد البر : إنها تقضى عليه وتبين المراد منه .

وقال يحيى بن أبي كثير : السنة قاضية على الكتاب .

والحاصل أن ثبوت حجية السنة المطهرة واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينية ، ولا يخالف في ذلك إلا من لا حظ له في دين الاسلام . اهـ .

وجاء في كتاب جامع بيان العلم لابن عبد البر الجزء الثاني ص ١٨٩

حدثنا خلف بن القاسم ، حدثنا ابن المفسر قال : حدثنا أحمد بن علي بن سعيد القاضي ، قال : حدثنا داود بن رشيد قال : حدثنا بقرية بن الوليد عن محفوظ بن المسور الفهري عن محمد بن المنكدر عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

« يوشك بأحدكم يقول هذا كتاب الله ما كان فيه من حلال أحلناه وما كان فيه من حرام حرمانه . ألا من بلغه عن حديث فكذب به فقد كذب الله ورسوله والذي حدثه ، ا هـ .

وقال الإمام للشافعي في رسالته ص ٨٨ :

قال الشافعي : وما سنّ رسول الله فيما ليس فيه حكم ، فبحكم الله سنّه . وكذلك أخبرنا الله في قوله تعالى : « وإنك لتهدى الى صراط مستقيم . صراط الله ، ٤٢ / الشورى / ٥٢ و ٥٣ .

وقد سنّ رسول الله مع كتاب الله ، وسنّ فيما ليس فيه بعينه نص كتاب . وكل ما سنّ فقد ألزمنّا الله اتباعه ، وجعل في اتباعه طاعته ، وفي العُتُود عن اتباعها معصيته التي لم يعذر بها خلقا ، ولم يجعل له من اتباع سنن رسول الله خرجا ، لما وصّفتُ ، وما قال رسول الله :

أخبرنا سفيان عن سالم أبو النضر مولى عمر بن عبيد الله سمع عبيد الله بن أبي رافع يحدث عن أبيه أن رسول الله قال : « لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمرى ، مما أمرت به أو نهيت عنه ، فيقول : لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه ، ا هـ .

قال ابن عبد البر في كتابه جامع بيان العلم الجزء الثاني ص ١٩٠ :

والبيان منه صلى الله عليه وسلم على ضربين : بيان المجمع في الكتاب العزيز كالصلوات الخمس في مواقيتها وسجودها وركوعها وسائر أحكامها ، وكيانها للزكاة وحدّها ووقتها ، وما الذي تؤخذ منه الأموال ، وبيانها لمناسك الحج .

قال صلى الله عليه وسلم إذ حج بالناس : «خذوا عني مناسككم ، لأن القرآن إنما ورد بجملة فرض الصلاة والزكاة والحج دون تفصيل ، والحديث مفصّل ، وهو زيادة على حكم الكتاب كتحریم نكاح المرأة على عمتها وخالتها وكتحریم الحر الأهلية ، وكل ذى ناب من السباع ، إلى أشباه يطول ذكرها .

وقد أمر الله جل وعز بطاعته واتباعه أمراً مطلقاً بجملاً ، لم يقيد بشيء ، كما أمرنا باتباع كتاب الله ، ولم يقل : وافق كتاب الله كما قال بعض أهل الزيغ ؟

العصر العظيم في تاريخ العالم

- ١ -

« كنفشيوس - جوتامو بوذا - زردشت - فيثاغوراس » من وجهة نظر تأليفية

تأليف : ف. ستانكا. تعريب : عمر طلعت زهران

« محاضرة خارج المنهج الدراسي أقيمت في جامعة هامبورج في التاسع عشر من سبتمبر سنة ١٩٤٦ ، ويجب أن ينظر الى ربط أصل نظريات هؤلاء الاربعة باستخدام الحديد والاستغلال السياسي كفرض يحتاج الى فحص وتمحيص » .

- ١ -

لنأخذ لنا مصرحا هو العالم كله ، ولكنه العالم القديم . وليكن العصر هو النصف الأول من تاريخ العالم ، التاريخ القديم بأجمعه ؛ وبتعبير أدق : عصر ما قبل المسيح . ثم لنسأل بعد ذلك أى رجال هذا الزمن كان أعظم شأنًا ؟ ولسنا نريد بالطبع أعظمهم قوة ، أو أكثرهم إراقة للدماء وانتصارا في الحروب ، ولا في التدمير والتخريب ؛ وإنما نريد أعظمهم في تحقيق السلام ، في الشعور العميق ، في التفكير السامى ، والأعمال الصالحة . فإذا ما ابتدأنا بيلاد شروق الشمس في الشرق الأقصى ، فإننا سنذكر أولا الحكيم الصيني الأعظم كنفشيوس مفسر فلسفة الدولة لأكثر بلاد العالم سكانا . وإذا ما اصطحبنا الشمس في سيرها متجهة نحو الغرب ، فسنجد أمامنا اسم معلم الإنسانية العظيم جوتامو بوذا مؤسس أول دين عالمي .

أما في إيران فيسيطر أمامنا المعلم العظيم زردشت الذى دعا الناس والقوى السماوية معا للنضال ضد الشر في العالم . وأخيرا نجد في بلاد الإغريق بعض

الصعوبات : من يكون من بين مفكرى هذه البلاد الأفذاذ أعظمهم شأنًا ؟
سقراط ، أم أفلاطون ، أم أرسطو ، أم أبيقور ، أم زينون ؟ وهنا لن تركز
العظمة الروحية على شخص بعينه ، فلن نستطيع أن نتحدث إلا عن مثل لقوة
الإغريق الروحية . ولكننا بعد أبحاث قليلة ، وتردد قليل ، وبعد المقارنة
بينهم وبين الثلاثة الأوائل ، سنختار ولا ريب فيثاغوراس ، وهو الوحيد الذى
يمكن أن نضعه فى مرتبة هؤلاء الثلاثة الأوائل ^(١) .

لقد كانوا عظماء ، وعظمتهم هى العامل المشترك بينهم ، ولكن هل ثمة عوامل
مشتركة أخرى بينهم ؟ وماذا نعرف عنهم ؟

إننا نعرف ، ونعرف بالتحديد ، المكان الذى نبعوا منه ؛ ويبدو من النظرة
الأولى أن ليس هناك شئ شائع بينهم ، بل إنه يحتمل وجود اختلافات وفوارق
كثيرة بينهم ، نظرا لأن الأماكن التى نشأوا فيها تتباعد تباعدا شاسعا . وأما كن
ولاداتهم — وليس فى ذلك ريب — كانت بعيدا بعضها عن بعض بمدأ كبيرا .
ولكنه يوجد نظام لافت للنظر فى هذا البعد وفى توزيع هذه الأماكن ، فكل
مكان يبعد عن الآخر بمسافة قدرها ٣٠٠٠ ك . م . تماما . وقد يظهر هذا التحديد
. كأنما هـو عارض لا معنى له ، ولكن من الصعب أن نعتقد أن من الصدفة أن
يقوم فى كل مركز من مراكز الثقافة القديمة : فى الصين وفى الهند وفى جنوب
غرب آسيا وفى اليونان حكميم عظيم ومعلم كبير ، كان له نفوذ قوى منذ آلاف
السنين . وإننا لنجد فى هذا النظام ظاهرة حكمية ، وعلامة لقانون هام فى تقدم
البشر الروحي .

ويأتى بعد ذلك الزمن : عصر نشاطهم ؛ ومعلوماتنا هنا ليست دقيقة كل الدقة .
ولسنا نستطيع تحديد تاريخ ولادة وموت واحد منهم غير كنفثيوس ؛ فقد ولد
فى عام ٥٥٠ أو ٥٥١ ومات فى عام ٤٧٨ ق . م . وليست الأخبار عن فيثاغوراس
بهذه الدقة ، وإن وجد تاريخ واحد عن حياته له بعض التأكيد ؛ ذلك أنه ترك بلدته

(١) كنفثيوس ، جوتامو بوذا ، زردشت .

ساموس حوالى عام ٥٣٠ ق. م. وذهب الى إيطاليا والى كروتونا حيث أنشأ نحلته المعروفة، وحيث أمضى أخصب سنى حياته. ومن هنا يفترض الباحثون أن فيثاغوراس قد ولد عام ٥٧٠ ومات فى عام ٥٠٠ ق. م. بالتقريب. وعلى ذلك يمكن اعتباره معاصراً لكنفشيوس بأدق معانى هذه الكلمة. أما تاريخ جوتامو ففيه من الشك أكثر مما فى سابقه حيث لا يوجد تاريخ يمكن أن يؤخذ نقطة بدء.

كما أنه يوجد اختلاف كبير فى تحديد زمن نشاطه وإذاجه^(١). واسكن العلماء أجمعوا بعد بحث وتدقيق على احتمال ولادته فى عام ٥٦٠ ق. م. وموته فى عام ٤٨٠ ق. م. وقد يزيد كلا التاريخين أو ينقص عشر سنوات. وعلى ذلك يكون جوتامو قد عاش فى نفس الزمن الذى عاش فيه كنفشيوس وفيثاغوراس؛ ولا يمكننا أن نتجاهل أن هذا التعاصر الزمنى لافت للنظر خاصة فيما يتعلق بكنفشيوس وجوتامو، وعلينا أن نأخذ على أنه أهم تصادف فى تاريخ العالم كله. ولكن يمكن أن يكون هذا التعاصر أكبر من ذلك، فعلى الرغم من أن عصر زردشت غير محدد بالكلية، وعلى الرغم من أن آراء الباحثين تختلف فيه اختلافاً كبيراً، فليس لنا أن نصدق الكتاب الاغريق الذين اعتقدوا أنه كان يسبقهم بألاف السنين، وحتى رأى القائل إن زردشت كان يعيش قبل عصرنا هذا بألف عام، يجب اعتباره رأياً باطلاً. ويميل جل المؤرخين الى اعتبار عام ٧٠٠ ق. م. أكثر السنين احتمالاً، وحتى فى هذه الحالة، أى منذ ٢٥ قرناً، يمكننا أن ننظر إليه على أنه معاصر - بأوسع معانى هذه الكلمة - للثلاثة السابقين، فهو إن لم ينتم إلى عصرهم بالذات، فانه ينتمى الى زمنهم التاريخى.

ولكن هذا التاريخ ٧٠٠ ق. م. قد لا يمكن أخذه على أنه الكلمة الأخيرة للعلم، فنلا يرى «أوتران»، وهو أستاذ معاصر، أن التاريخ الأكثر احتمالاً لحياة زردشت هو الفترة التى بين ٦٦٠ و ٥٨٥ ق. م.^(٢)

(١) انظر كتاب حياة بوذا: ١ ج. توماس، لندن ١٩٢٧.

(٢) شارل أوتران: ميترا وزردشت وما قبل التاريخ الآرى المسيحية.

وفوق ذلك فقد ساد قديماً أن زردشت كان معاصراً لوالد الملك الفارسي دارا . وذكر ذلك المؤرخ الروماني أميانوس مارسيلينوس .^(١) أما البارسيون وهم الزردشتيون الذين يعيشون في الهند ، فيقصون نفس الخبر . ويميل المؤلفون المحدثون الى قبول هذه النظرية . ووالد دارا كان يسميه المؤرخون الإغريق هستاسب Hystaspes ؛ وجاء في تاريخ زردشت أن أول المؤمنين به والحامين له هو الملك فستاسب Vistaspa وهو اسم قريب من الأول . وتوجد كتابة على صخور المشهور « بهستون » Behistun^(٢) تدل على أن اسم والد دارا هو فستاسب وهو نفس اسم حامى زردشت ، وهذا اتفاق عميق المعنى تؤكد حقيقة : هي أنه في نفس هذه الكتابة الحفرية عن دارا توجد أول معلومات مباشرة ، إن لم تكن عن زردشت ، فمن الكتابة تذكر اسم أهورا مازدا باعتباره موجوداً أعلى . وقد دفعت هذه الحقائق بعض الدارسين الى أن يحددوا بين شخصيتي فستاسب الواردة في الزند أفستا ، وبين هستاسب فستاسب والد دارا . ويوجد بحث قيم عن هذا الموضوع في مقال لارنست هارزفلد انتهى منه الى أن التماثل بين فستاسب المذكور في الكتابات الحفرية وبين فستاسب المذكور في الزند أفستا هو تماثل كامل . فان الاسم واللقب والزمن والحاشية ، كل هؤلاء ذكروا بالضبط ، وإن تطابقهم فوق كل شك^(٣) .

ولو قاسمنا هارزفلد رأيه ، لرأينا أن دارا قد تولى الحكم عام ٥٢١ ق . م وكان زمن نشاط زردشت هو الوقت الذي كان أبو دارا لا يزال فيه على قيد الحياة ، أى منتصف القرن السادس قبل الميلاد ؛ فيمكننا أن ننظر اليه كمعاصر للحكام الثلاثة الأول بالمعنى الضيق لهذه الكلمة ، ومن هنا تزداد المعاصرة الثلاثية الى معاصرة رباعية تضم أربعاً من أعظم الأحداث الروحية في تاريخ

(١) ماك نعه : Marcillinus : " addidit Zoroastres diende ; Hystaspes rex prudentissimus, Darei pater " .

(٢) قرية في فارس على حفورها كتابات حفرية تمان من كتبها هدى رونود ١٨٤٦ (المغرب) .

(٣) لارنست هارزفلد « دراسة في الآثار الإيرانية » ١٩٢٩ ص ١٨٥ .

البشرية . ومن المؤكد أن المؤرخين حتى وقتنا هذا لم يلاحظوا هذه المجموعة السديمية لهذه الكواكب الروحية ، ذات القيمة الأولى في روحانية البشر : أوهم على الأقل لم يهتموا بها الاهتمام الكافي .

وإن تعاصر هؤلاء الأعلام الأربعة ليجعل من القرن السادس ق. م . عصرًا عظيمًا ، ولسكن عظمته يمكن أن تقدر التقدير اللائق بها إذا نظرنا إلى تأثير نظرياتهم في العصور اللاحقة ؛ وأبسط هذه التأثيرات كان تأثير تعاليم فيثاغوراس على أية حال ، إذا نظرنا إليها من الجانب الخارجي . فهو قد جمع دائرة من أتباعه المخلصين في أقروطونا ، وفي غيرها من مدن إيطاليا ، كونوا فرقة دينية أو أخوة روحية أخلصت لشخص أستاذها ؛ وبعد انحلال الفرقة وطردها من أقروطونا ، وبعد موت فيثاغوراس ، بقيت جماعته حوالى مائة وخمسين عاما ، ولم تختف إلا في أواخر القرن الرابع ق. م . ؛ ومع ذلك فقد ظل سحر هذه النحلة ومؤسسها باقيا ، إذ نرى الفيثاغورية تبعث من جديد في القرن الأول ق. م . ، والقرن الأول الميلادي في هيئة الفيثاغورية الجديدة ، التي أثرت تأثيرا كبيرا على الأفلاطينية وظلت باقية باسمها حتى القرن السادس الميلادي ، أى بعد ألف عام من موت صاحبها . بل إننا لنجد آثارها باقية بعد اندثارها في المسيحية ، وعلينا ألا ننسى أن فيثاغوراس كان أول من علم خلود الروح في أوروبا .

أما تأثير زردشت فكان أعظم وأكبر ، فقد أنتجت تعاليمه دينا جديدا ظل يسيطر على إيران حتى دخلها الإسلام في القرن السابع الميلادي ، بل إن اضطهاد الحكام الجدد لم يستطع أن يقتلع نهائيا العقيدة الإيرانية الوطنية أو أن يحتد ذكرى منشئها . وما زالت توجد حتى اليوم جماعات صغيرة في إيران والهند تحيي ذكرى زردشت بعد أن احتفظت بها خمسا وعشرين قرنا ، وحدث نفس الأمر على صورة أكثر اتساعا لنظرية كنفشيوس التي صارت بعد عدة قرون يعمها الاضطراب ، فلسفة تسود الدولة ، أو دين الدولة الصينية بمعنى آخر ؛ وتبجيل اسم كنفشيوس يحافظ عليه من كل الشعب الصيني . وكان تأثير جوتامو أعظم من ذلك كله ؛ فإن البوذية لم تغز قلوب وأرواح شعب واحد فحسب ، وإنما هي قد غزت شعوبا مختلفة موزعة في أرجاء آسيا المتباعدة ، فصارت

البوذية أول الأديان العالمية المنتشرة . وإن انتشار البوذية السلي وغزوها الموفق للدول المختلفة كبيرها وصغيرها ، لحادث يبعث على الدهشة ، ويظهر لنا مقدار النفوذ الروحي لكلام بوذا . وإذا حذفنا السؤال عن تأثير البوذية المحتمل على أصل المسيحية ^(١) ، فإن خمسمائة مايون من أتباع هذا الدين — في أيامنا — بعلامات نهضتهم ونفوذهم المتزايد حتى على البلاد غير البوذية ، لخير دليل على حيوية تعاليم جوتامو الدافقة .

وإننا إذ ننتهي من هذا البحث القصير عن مدى تأثيرهم ، نرى أنفسنا مضطرين إلى الاعتراف بأنه ليس من بين رجال العصور القديمة إلا أربعة أو ثلاثة على الأقل لم يُنسوا من الإنسانية ، بل إن العالم ليزداد لهم تقديراً واحتراماً عصراً إثر عصر . وتظهر لنا هذه الحقيقة عظمتهم الحقيقية ، وعظمة عصرهم الذي كانوا يعيشون فيه . ومن ناحية أخرى فإن هذا التأثير يفصح عن السمات الحقيقية للروح الإنساني الذي تأثر تأثراً عميقاً بهذه التعاليم ، حتى إن صداها ليردد طيلة ألفين ونصف من الأعوام . ويجب أن نعترف بوجود اتفاق عميق بينهم ؛ فإن كان كذلك فإن فهم هذه النظريات يعنى إلى حد ما فهماً لجوهر الروح الإنساني .

(يتبع)

الحلم والجهل

لئن كنت محتاجاً إلى الحلم إننى	إلى الجهل فى بعض الأحيان أحوج
وما كنت أرضى الجهل خدنا وصاحباً	ولكننى أرضى به حين أخرج
فإن قال قوم إن فيه سماعة	فقد صدقوا والذل بالحر أسعج
ولى فرس للحلم بالحلم ملجم	ولى فرس للجهل بالجهل مسرج
فمن شاء تقويى فإنى مقوم	ومن شاء تعويجى فإنى معوج

(١) بحثت هذه المسألة بحثاً كافياً ، ونرى أن السؤال الآن أصبح : إلى أى حد أثرت البوذية على المسيحية ؟ وكيف حدث هذا ؟ ، بدلا من السؤال القديم : هل أثرت البوذية على للمسيحية أم لا ؟ وهو سؤال أصبح مبتذلاً باطلاً .

في أدب المرأة :

الجمال والصدق

لفضيلة الاستاذ كامل محمد مجلان
المدرس بمعهد القاهرة

إذا وعت المرأة بعض الجواب المشرقة من ماضى أديها ، كان لها منه ما يقوى
معنوياتها ، ويدفعها فى طريق الأمل النافع ، والمثل الصالح ، والوجهة المجدية لها
ولأبنائها ، والنافعة لوطنها .

وأغلب ما روى فى كتبها الأدبية المتناثرة على جبين الأزمان ومختلف العصور ،
يشهد كله بوضوح أدب المرأة ، ويكشف فيما نسب إليها عن عاطفة إنسانية تشرق
وتزهو بالجمال ، والإخلاص ، والوفاء ، والركة البالغة .

وألوان الأدب النسوى تغابت بحسب البيئة ودواعى الحياة وطبائع الأحداث
السياسية والاجتماعية ، منها القوى ومنها الضعيف ، وفيها الفرح وفيها الحزن ،
وعندها المؤمل وعندها اليأس . وقد توزع بين المنظر والممنور ، وجاءنا فى
ثوب الحكمة والمثل ، والأقصوة والأحدثة .

وحفظت لنا كتب الأدب وأسفار النوادر وصحائف المصحف ومختارات
الأخبار ، بعض ظلال من حزار النساء وجدلهن ، ومواقفهن فى الحروب ، وفى
سياسة الرأى ، والتفاخر ، والتقاضى ، والدفاع عن الحقوق لدى الخلفاء والقادة ...

كما خلدت الكتب لكثير من السيدات المسلمات ، ومن قبلهن للاعرايات ، خطباً احتفل بها الرواة ، واعتزت الكتب ، وازدانت بيلاتها وصراحتها وصرامتها وصدقها وقوتها . . . وآنسنا فيما بقي لنا من آثار المرأة ، روح الزوج المخلصة ، والام العطوف ، والأخت المفاخرة ، والابنة المعتزة بقوة قبيلتها ، وجهد عشيرتها ، ودفاع قومها وانتصار جانب أهلها وحماها .

وإذا كان أدبنا يمتد فنه ، وتتأصل منابته ، وترجع إلى أعماق سحيقة ، فإننا لا ننسى ، كلما ذكرت مجامع الأدب وأسواقه ، مثل (سوق عكاظ) .

لا ننسى حظ المرأة ونصيبها في هذه المدارج ، كما لم ينسها التاريخ إذ خلد لها ما خلفت من كلم ، وما جودت من شعر ، وما حسنت من قول .

نعم : كانت النساء ترحل في مواسم الأدب مع الأهل وذوى القربى إلى الأسواق ؛ وبعد انطواء صفحات التجارة والتشاور في أمر الثارات والتفاخر بالانساب ، نجد المرأة تشترك في المعارك الأدبية ، وتشترك في الجدل البياني والإفصاح البلاغي ، بما يعد في المسكنة العالية ، والمنزلة المرموقة ، والقدر المحجب الجميل النافع في موائد الرأي الأدبي ، وخاصة الشعر الذي كان عدة للعربي والعربية ، يشرح قضية السياسة ، ويعبر عن أهداف الجميع وأمل العشائر ، ويكافح في كل مأزق يقع ، أو مأزمة تجدد ، أو خلاف يفتش .

ومن النساء اللاتي شهدن السوق الأدبية ، وكان لهن القدر المعلى : (الخنساء) سيدة شاعرات العرب غير مدافعة ؛ ولقد حكم لها النابغة الذبياني حين أنشدته قصيدتها في أخيها ، وفضل شعرها وأشار إلى الأعشى ، وقال لها : لولا أن أبا بصير أنشدني قبلك ، لقلت إنك أشعر من بالسوق هذا العام .

* * *

حتى إذا أشرقت شمس الإسلام ، ورفعت مكانة المرأة ، وتميز كيائها العائلي والمنزلي ، وقفت المرأة عند الحد الذي رسمه الإسلام لها ، ورضيت بنصيبها ورسالتها القويمة .

* * *

وكان أن راج الأدب على أيدي (الجواري) من سبايا الحرب ، ومن مآردين على اصطناع الأدب ليروج سوقهن ، وتغلي أثمانهن في أيدي البائع والمشتري .
وتلك الحياة دعت إليها طبيعة التحضر في بغداد ، ودمشق ، والمدينة ، والقاهرة ، وقرطبة .

وفي أدب المرأة ظواهر كثيرة مختلفة المشارب والظلال ، متعددة الملاح والأغراض .

ويهمني هنا أن أقف عاجلا عند بعض مظاهر شعر المرأة .

والشعر صورة العاطفة المجلمة ، وماروى منه نجد فيه كثيرا ما يحمل أنفاس المرأة ، وَيَتَسَمُّ بِطابعها المعهود في حياتها ، ومواقفها الملائمة لاستعدادها ، ومواهبها وآمالها .

فهي إذا فخرت حدثت بجهود قومها ، ومدحت مواقف زوجها ، وجلاد ولدها ، ولا تلتفت الى الفخر بنفسها ، وهذا ما أريده من سمات الصدق في نتاج المرأة الخالص لها ، والخالى من ضروب المداجاة والمواربة .

وكم وقف شاعر ونسب الى نفسه محامد لم تكن له ، ومفاخر جرت على أيدي غيره ، أما المرأة فقد تخلصت من هذا الداء ، أو تخلص كل ماروى عنها من نزعات الرجال في شعرهم ؛ ولهذا يحمل شعر المرأة ، ويصدق إذا عصفت بها الالم ، لفقد عزيز أو موت عميد ، وإذا وصفت حياتها وتعلقها بوطنها ، وإذا نفذت بصيرتها الحساسة ونظرت في جمال الطبيعة المحيطة بها ، وقلبت وجهها في رونق ما تعيش فيه من نعمة ، وما يجري عليها من رفاهية القصور ، كما كان في الأندلس والشام وبعض عهود مصر .

وهنا يروى شعرها عاطفة من يشوقه الشعر الصادق الخالى من بهرج وزيف .
ويصدق ما ذهب اليه مثل هذين البيتين لإحدى النساء ، في زوج تخلف عنها وتركها هي وأولادها :

غدرت بنا بعد التصافى وختنا وشر خلال فى الرجال خؤونها
وضيعت سرا كنت أنت أمينه ولا يحفظ الاسرار إلا أمينها

* * *

وينسب لأعرايية فى التعلق بالوطن ، وقد هتفت بأبيات وكانت تسوق
أعزاً ترعاها فسألها أحد الرجال عن مدرجها وملعب صباها ، فقالت متمدحة
ذاكرة وطنها :

بلاد بها حل الشباب تمائى وأول أرض من جلدى تراها

* * *

وإني لأروى أياتا عربية تسمى (ميسون بنت بحدل) وهى أم يزيد بن
معاوية ، تنشقق الى وطنها ومرتعها الأول ، ومعهده ملاعبها ومألف لداتها
فى البادية . تقول :

ليت تخفق الأرواح فيه أحبُّ الى من قصر منيف
ولبس عباءة وتقرَّ عيني أحب الى من لبس الشفوف
وأكل كُسَيْرَة فى عقر بيتي أحب الى من أكل الرغيف
وأصوات الرياح بكل فج أحب الى من نقر الدفوف
خشونة عيشتي فى البدو أههى الى نفسى من العيش الطريف
فما أبغى سوى وطنى بديلا وما أبهأ من وطن شريف

ومن الايات الماثورة عن فتاة (جديس) فى تحميس قومها :

فلبين خير من مقام على الأذى وللبوت خير من مقام على الذل

* * *

والذى لا شك فيه أن المرأة - وخاصة الام العربية - هى التى كانت تلقن

ابنها أصول الأدب وتمده بقوى البيان ؛ وكما ترضعه بلبنها كانت تسقيه من معين الشَّمِّ ونيل الأخلاق وكريم الطباع ، وتسلبه الى والده فتى شب على جليل الخصال ؛ وما على الأب إلا أن يعلبه الرماية وَيَقْتَلَ ساعديه ، ويزج به في ساحة الرجولة وقوة البأس ، والحفاظ على العيش كريما .

وليس معنى ذلك أنها كانت تترك ولدها بعد أن يشب عن الطوق ، ويقف إلى جنب والده وفي وسط عشيرته ... لا ، بل كانت تقف منه موقف الناصح والموجه والمشجع .. ومن ذلك حديث (أسماء بنت أبي بكر الصديق) المسماة ذات النطاقين ، حين حوَّصر ابنها عبد الله في مكة المكرمة ، وأحاط به جند الحجاج من كل جانب وتولى عنه أنصاره وجنده ، فرَّ منهم من فر ، وقتل من قتل . وبقي فريدا وحيدا ... فدخل على أمه (أسماء) وقال لها : إنه لم يبق إلا القتل ! وكانت حينذاك كبيرة مكفوفة البصر ... فقالت له : أجزعا من لقاء الله ؟ فقال كلا ، ولكنني أخاف إذا قتلت أن يمشلوا بي . فقالت : إن الشاة إذا ذبحت لا تنبالي بسلخها ، ثم انقلبت إلى مصلاها .

وقالت سيدة : وقد دفعت بابنها إلى مطلب يهملها ويهم أسرته وقيله .

يا بني « كان الله صاحبك في أمرك ، وولىَّ نَجحَ طَلبتك . امض لا أشمت الله بك عدوا ، ولا أرى محييك فيك سوءاً » . وقالت امرأة أخرى تنصح ابنها :

« يا بني إن سؤالك الناس ما في أيديهم من أشد الافتقار إليهم ؛ ومن افتقرت إليه هنت عليه ، ولا تزال تحفظ وتكرم حتى تسأل الناس وترغب » . ولدينا مآثورات عن المرأة تشهد بأنها كانت ، ولا تزال ، حريصة على تسمية كرائم الطباع ، وتدفع بأبنائها الى الموارد الكريمة السامية ، ولا تقبل من شبلها أن يعطى الدنية في نفسه أو في مواقفه ، أو يضرع إلى الرجال ، أو يخضع أمام مطالب الحياة . فيقدم يده صاغرة يستجدي العون ، أو يستمد من غيره مع امتنان أو إذلال .

والمثل الكريمة والتوجيهات الصالحة في سيرة النساء أكثر من أن تحصى ؟

مدرسة النقد الادبي

بقلم فضيلة الاستاذ الشيخ عبد السلام أبو النجا سرحان
المدرس بكلية اللغة العربية

مدرسة النقد الادبي :

لقد عنيت الامة العربية — أكثر من سواها — بنقد آثارها الادبية ، وميز
جيدها من رديئها ؛ ذلك أنها أمة كلام وفصاحة ، تنوعوا طيفها للبلاغة ، وتهفو
قلوبها لسحر البيان .

ولذلك اهتمت بالنقد ، وفصل الطيب عن الخبيث ، ليبقى الاول على الازمان ،
ويرمى الثاني في زوايا النسيان ، كما أنشد دعبل الخزاعي :

يموت ردىء الشعر من قبل أهله وجيده يبقى وإن مات قائله

وقد نشأ عن هذا الاهتمام حركة مباركة غايتها الارتفاع بالادب الى أسمى
مكان ، وعدتها البحث والتنقيب ، ثم الحكم والتعقيب ؛ ويطلق أدباء العصر
الحديث على هذه الحركة « مدرسة النقد الادبي » .

وقد كان لهذه المدرسة فصول وتلامذة وعمداء اختلف عددهم قلة وكثرة
باختلاف العصور السياسية والنهضات العلمية والادبية . والذي نرجحه أنها نشأت
منذ نشأ الادب ، لأن النقد فطرى فى الانسان يحاول أن يصل به الى غاية الاحسان .
وسنقدم تاريخاً موجزاً لتلك المدرسة لنقف على الأطوار التى قطعتها فى العصور
المختلفة حتى نضجت ثمرتها واتسعت رقعتها هذا الاتساع الهائل أيام العباسيين .

فى العصر الجاهلى :

فى العصر الجاهلى كان الشعر أهم فنون الادب ، فتناولته يد التشريح بمبضع
النقد الحاد ، وساعدت مساعدة جدية فى إخراجه بهذا الثوب القشيب .

والمعقول أن يكون للنقد أثر هام في نضج الشعر العربي ، إذ كانت فصول مدرسته منتشرة في بقاع الجزيرة العربية ، متمثلة في أسواق العرب ورحلاتهم الطويلة ، ومجتمعات الحج ، والمعارك الحامية بين القبائل .

ولقد كانوا يحتفلون بنبوغ الشاعر ، ولا يمكن أن يأتي هذا النبوغ فجأة ، بل لابد أن يكون بعد درس ونقد وتمحيص ، وبعد أن يظهر الشاعر في مجالات النقد حتى يعترف له الشعراء بالتبريز والتجلية ؛ ولا نستطيع أن نخط قريشنا حقها في نقد اللغة الأدبية وتهذيبها ، ففضلها في هذا واضح مشهور ؛ قال أبو نصر الفارابي في كتابه « الألفاظ والحروف » : كانت قريش أجود العرب انتقادا لأفصح الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسجوعا وأبينها إبانة عما في النفس (ص ١٤٧ الشهاب الراصد) .

ولو صح مارواه ابن عبد ربه (ص ١١٩ ج ٦ العقد الفريد) ومن تبعه في شأن تعليق بعض القصائد بأستار الكعبة لأن العرب تخيرتها من الشعر القديم ، لكان ذلك أكبر دليل على انتشار النقد الأدبي وشهرته في الجاهلية ؛ ولقد كان بعض الشعراء يبق القصيدة عنده حولا لتهذيبها وتنقيحها (ص ٧ ج ٢ البيان والتبيين و ص ١٠ طبقات الشعراء) وهذا العمل من صميم النقد الأدبي .

ومن ميزات النقد في هذا العصر أنه كان يعتمد على الفطرة ووحى الخاطر ، وتقدير اللفظ والمعنى ، وقوة التأثير ، وملاحظة كل عيب يمكن أن يمس القصيدة من حيث المعنى والاستعمال والأوزان والقوافي ، وكان ذلك عاما منتشرا بين الشعراء وسواهم ؛ ولكن عصر التدوين لم ينقل لنا من مظاهر النقد في الجاهلية إلا نتفا مبثوثة في بطون الكتب ، ومقتضبات مذكورة في سجلات الأدب .

ويرى الباحث أن النقد الجاهلي كان في الغالب سديدا لأنه نتيجة العرض على الذوق الأدبي الخالص ، ولم تكن قواعده وقضاياه العلمية قد عرفت بعد .

على أن مواطن النقد في الشعر والأدب كانت قليلة جدا بالنسبة للعصور اللاحقة ، ولهذا لم تكن المدرسة كثيرة الفصول والتلاميذ آنذ ، لأن الأسلوب الفطري كان يحكم الأدب العربي في جميع الأصقاع .

وكان النابعة الذبياني أكبر عمداء المدرسة في الجاهلية . فكانت تضرب له قبة حمرام في سوق عكاظ ويأتيه الشعراء فينشده كل منهم شعره ليصدر حكمه فيه . أتاه الأعشى مرة فأنشده ، ثم حسان فأنشده : فقال : لولا أن أبا بصير أنشدني آنفا لقلت : إنك أشعر الجن والأنس ! . قال حسان : والله لأننا أشعر منك ومن أيك ومن جدك ! فقبض النابعة على يده ثم قال : يا بن أخي ، إنك لا تحسن أن تقول :

فانك كالليل الذي هو مسدركي وإن خلت أن المتأى عنك واسع
ثم اتجه إلى الخنساء فأنشدته ، فقال : ما رأيت ذا متانة أشعر منك ، قالت :
ولا ذا خصيتين ! (ص ٣٣ الشعر والشعراء) . وقد ذكر قدامة نقده لحسان في قوله :

لنا الجففات الغر يلعن بالضحي وأسيفنا يقطرن من نجدة دما
بقوله : أكثرت جفانك وأقللت أسيفك ! ثم رد على هذا النقد (ص ١٨ نقد الشعر) .

ومن أساطينها الذين طواهم البين قبل الأوان طريقة بن العبد ؛ روى المرزباني أن المسيب بن علس مر بمجلس بني قيس بن ثعلبة فاستشدوه فأنشدهم بعض شعره فلما بلغ قوله :

وقد أتاسى إلهم عند احتضاره بناج عليه الصَّيْعَرِيَّةُ مُكْدَم
قال : طريقة — وكان صبيا صغيرا — : استنوق الجمل ! (ص ٧٦ موشح) .
وهذا يدل على أن النقد الجاهلي كان فطريا يلحظه الصغار والكبار ، لأن البلاغة طبيعة لهم والبيان سليقة فيهم .

ومنهم ربيعة بن حذار الأسدي ، وقد ذكر المرزباني نقدهاته لشعر الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم وعبد بن الطيب والخييل السعدي ، فليراجعها من شاء (ص ٧٥ موشح) .

في صدر الاسلام :

وقد نزل القرآن باللسان العربي المعروف ، ولكن بأسلوب غير مألوف ،

ورأى الناس منه نهجا جديدا، وتعبيرا فريدا، بهر البلغاء وأعجز الفصحاء، وسمعوا به فظما طريفا، جمع الى السلاسة دقة التعبير، وإحكام الفسج، وجمال السبك، فأخذوا بقوته، وسجدوا لبلاغته، وحنوا رءوسهم أمام شدة أسره وعظمة أسلوبه، ثم حاولوا أن يحاكيوه فشرعوا يغترفون من بحره، وينهلون من فيضه، ويقبسون من نوره، حتى نشأ لهم أسلوب جديد هذب به القرآن وغير به نهج البيان. وفي هذه الأثناء كان الاسلام يطوى بين جناحيه كثيرا من حواضر العجم وبممالكها، فدخل في حوزته أكثر سكانها، واندفعوا يتعللون القرآن ويدرسون شرائعه وأحكامه لأنه الدستور الخالد لدينهم الجديد.

وإذ كان القرآن عربيا، كان لابد من تعلم العربية لغة الدين ولسان الفاتحين، والمغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده كما قال ابن خلدون (ص ١٤٧ مقدمة)، والناس أبدا على دين ملوكهم وحكامهم.

لهذا بدأت الحاجة تظهر إلى تلك المدرسة، فأخذت القضايا الأدبية تنهال على محكمة النقد، وارتفعت بعض الشكاوى من المخالفين لقانون البيان العربى، فبدأ العمل فى وضع قوانين الصياغة وقواعد اللغة العربية.

وقد تأثر الأسلوب الأدبى فى هذا العصر تأثرا واضحا، فجذت تعابير حديثة، وماتت عبارات وألفاظ قديمة لم يرتضها الإسلام أو لم تنسق مع الأسلوب المذهب الذى أوجده القرآن الكريم والبلاغة النبوية السامية، وترتب على ذلك أن جاء كلام الإسلاميين عموما أعلى طبقة فى البلاغة وأذواقها من كلام الجاهليين منظومهم ومشورهم (ص ٥٧٩ مقدمة).

والسبب فى ذلك - كما قرر ابن خلدون - أن الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام فى القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثلها، فكان كلامهم فى نظمهم ونثرهم أحسن دياجعة وأصفى رونقا وأرصف مبنى وأعدل تثقيفا بما استفادوه من الكلام العالى الطبقة، قال: وتأمل ذلك يشهد لك به ذوقك إن كنت من أهل الذوق والبصر بالبلاغة (ص ٥٨٠ مقدمة) ويتفق الله أبى فى هذا رأى مع ابن خلدون (ص ٣ ج ١ يتيمة الدهر).

ومن عمداء هذه المدرسة حينذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقد منحه

الله بصيرة نفاذة الى الأعماق، وفكرة نقادة في أوسع الآفاق، وكان صلوات الله وسلامه عليه سيد البلغاء وإمام الفصحاء. سئل مرة عن زهير فقال: إنا قد سمعنا كلام الخطباء والبلغاء، وسمعنا كلام ابن أبي سلى، فما سمعنا مثل كلامه من أحد (ص ٥٥ > ١ زهر الآداب)، وقال صلى الله عليه وسلم في امرئ القيس: إنه أشعر الشعراء وقائدهم الى النار (ص ٧٦ > ١ عمدة).

ومنهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. والذي يقرأ حكومته بين النجاشي وبنى العجلان (ص ٢٠٢ > ١ بيان) أو بين الخطيئة والزرقان (ص ٣٩ > ١ ديوان المعاني) يأخذه العجب من قسوة إدراكه وحسن توسله في معاني الشعر، لإخراجها عن الهجاء. ولقد حكى الجاحظ في رواية هذه الأخبار: أن عمر كان أعلم الناس بالشعر. وقال الجمحي: كان عمر لا يكاد يعرض له أمر إلا استشهد فيه بيت شجري (ص ٢٠٤ > ١ بيان) ولكنه مع ذلك كان يفيض التعرض للشعراء ويكل الأمر الى حسان بن ثابت وأمثاله ممن تهون عليهم سباهم؛ فإذا سمع كلامهم حكم بما يعلم، ويكون قد خلص بعرضه سليما. قال مرة لابن عباس: هل تروى لشاعر الشعراء؟ قال: ومن هو؟ قال: الذي يقول:

ولو أن حمدا يخلد الناس أخلدوا ولكن حمد الناس ليس بمخلد
قال: ذاك زهير. قال: فذاك أشعر الشعراء. كان لا يعاظم في كلامه، ولا يتبع حوشيه ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه. (ج ١٠ ص ٢٨٩ أغاني دار الكتب).

ومنهم حسان بن ثابت، وكان عمر يحكمه في الخصومات الأدبية (ج ١ ص ٣٨ عمدة). سئل مرة: من أشعر الناس؟ فقال: رجلا أم حيا؟ قيل: بل حيا. فقال: هذيل (ج ١ ص ٧١ عمدة).

ومنهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. سئل مرة عن امرئ القيس، فقال: رأيته أحسنهم نادرة، وأسبقهم بادرة، وإنه لم يقل لرغبة أو لرغبة (ج ١ ص ٧٧ عمدة). وهذا يدل على إدراك صادق لمعنى الشاعرية، وبفضله — كرم الله وجهه — رشح أبو الحسن البصري قواعد النحو (ص ٦٠ الفهرست) حين بدأ اللحن يطل برأسه من خلال الحياة الجديدة. وبهذا خضت مدرسة النقد الأدبي خطوة جديدة إلى الامام.

التعريف بالعالم الاسلامى

امارة الكويت الاسلامية

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصى
المدرس بمعهد القاهرة

الحالة الاقتصادية :

تعتبر التجارة الركن الأعظم لتقدم البلاد : لأن الكويت قاحلة ، لا تزرع فيها يغنيها عما سواها ، وأهم بلد يتجرون معه هو « البصرة » ، إذ يستصدرون منها القمح والشعير والتمر والخضر والفواكه . وكذلك اتخذوا بغداد سوقاً لتجارة اللؤلؤ : وقد حدثت بين الكويت ونجد منازعات طويلة حول التجارة ، إذ رأى جلالة الملك عبد العزيز آل سعود عاهل المملكة العربية السعودية لبعض الأسباب أن يمنع رعيته من الاتجار مع الكويتيين . ثم تم الاتفاق أخيراً بين حكومة الكويت وعاهل الجزيرة على تنظيم التجارة بين البلدين ، وتموين نجد من الكويت ، بمعاهدة تكفل حقوق الطرفين : وكان ذلك فى سنة ١٩٣٩ م .

وفى الكويت من الصناعات : الحياكة والتجارة والحدادة والصياغة ، وصنع السفن الشراعية ، حتى إنهم كثيراً يبنون سفناً تسع الواحدة منها ستة آلاف من قواصر التمر ، أى ما يقرب من خمسمائة طن ! .

وليس للكويت من الحاصلات أو الصادرات ما لغيرها من الأقطار الكبرى ، فهى ليست زراعية ولا صناعية ، ولذلك تقتصر على تصدير الدهن والصوف ، وفراء الثعالب والبهائم ، وفرائد اللؤلؤ . وقد كانت تجارة اللؤلؤ فى الكويت إلى عهد قريب هى أهم مصدر للربح ، وكانت الكويت تعرف به ، ولكن أسعار اللؤلؤ اليوم قد اضمحلت ، وسوقه قد كسدت ؛ وذلك بسبب مزاحمة اللؤلؤ الصناعى الذى ابتكره اليابانيون . وقد حدثنى صديقى الأستاذ عبد العزيز حسين الكويتى أن فى الكويت عائلات كبيرة ، كانت معروفة بالثراء والنعمة ، ولكنها نكبت نكبات قاسية من جراء هبوط أسعار اللؤلؤ بسبب هذه

المزاحمة التجارية ، وأن والده كان من تجار اللؤلؤ في الكويت ، وقد خسر في هذه التجارة مبالغ طائلة من أثر ذلك الانقلاب ! .

وقد استبدل كثير من الغواصين وتجار اللؤلؤ بسفن الغوص سفنا كبيرة يستخدمونها في التجارة بين الكويت وسواحل الهند ، وهي تدر مبالغ ضخمة على الرغم من الأخطار التي تصادفها . وعلى ذلك يصح أن نقول إن التجارة قد احتلت الموضع الذي كان يحتله اللؤلؤ قبل عشر سنوات ! . ومع هذا فلا تزال للؤلؤ مكائته ، ولا يزالون يفتشون عليه باحثين منقبين .

وليس استخراج اللؤلؤ عملا سهلا يطيقه كل من أراده أو حاوله ، بل له نظم خاصة وأوقات معينة معروفة ؛ ولغوص على اللؤلؤ رجال مدربون ، وسفن مدربة ، ولكل واحد في السفينة وظيفة وعمل ، وهم يتجهزون بالطعام والشراب والسياب ، ويخرجون للبحث عنه ، فيقضون في ذلك أياما عدة ؛ وللغواصين على اللؤلؤ هناك زعيم لا يرجعون إلى وطنهم إلا عندما يصدر أمره إليهم ، فإذا انتهت المدة المقيمة لهم من قبل حاكم البلد ، أخذوا ينتظرون الإشارة من زعيمهم ، وهي إطلاق مدفع يثور من سفينة ، فإذا سمعوا دوى المدفع تركوا عملهم ، وعادوا إلى أهلهم ، فإذا ما شاهدوا الكويت ولاحت لهم قصورها ، أطلقوا المدافع شكرًا لله على رجوعهم إلى وطنهم سالمين غانمين ! .

ومن لطيف ما يذكر هنا أن الغواصين يقصون أمورا غريبة يشاهدونها في البحر ، فيتمولون إنهم يرون في القاع كهوفا عظيمة ، وغابات مظلمة ، وكشبانا مرتفعة ، وجبالا عالية ، وبعضهم يغلو في الإغراب فيزعم أنه شاهد في القاع رجالا ونساء من الجان بين صخور البحر وكهوفه ، ويتبين لكم ما في بعض هذه القصص من بعد عن الحقيقة حينما تعرفون القصة الطريقة التالية .

حدث أحد المهرة من الغواصين عن نفسه ، قال : كنت مع أصحابي يوما في مغاص اللؤلؤ ، فنزل أحدهم إلى البحر ، ولم تكد تطلأ رجله الأرض حتى صعد إلينا خائفا مرعبا ، وأخبرنا بأنه شاهد امرأة من الجان جالسة في القاع وعليها عباءة سوداء ، وذكر لزيادة التأكيد أشياء من أوصاف العباءة ، فرأى أحد

إخوانه أن ينزل ليتحقق الخبر ، فجرى له مثل ما جرى لصاحبه ، ثم نزل الثالث والرابع وهكذا ، حتى فعل ذلك جميع من كان في السفينة ، وكلهم اتفقوا على صدق ما قاله الأول ، فلما رأيتُ الكل قد أضربوا عن العمل بسبب تلك الحادثة رأيتُ أن أكشف الحقيقة بنفسى ، ولكننى عند ما نزلت وجدت الأمر كما قالوا...! فدهشت وأصابنى من الرعب ما كاد يضطرنى إلى الخروج ، غير أن نفسى أبت على أن يتحدث الناس عني بأننى جبان ، فصممت على استجلاء الحقيقة مهما كانت النتيجة ، فأقدمت على الجنية ، ولويت يدى على عنقها بكل قوتي ، وقد أغمضت عيني ، فما أشعر إلا والدم يجرى من يدي ، ففتحت عيني ، والصخر يصدمنى صدمة عنيفة ، فرأيتُ أننى قد صدمت بصخرة قد تلبست بعباءة...! ولا تسل عن فرحى عند ما عرفت الحقيقة... ولكننى أردت مداعبة أصحابى ، فلبست العباءة وخرجت عليهم متخفياً بها ، فلما رأونى رموا أنفسهم فى البحر ، وتركوا السفينة بما فيها ، إذ اعتقدوا أن الجنية قد قضت على ، وخرجت إليهم لتقضى عليهم أيضاً . ولم يرجعوا من البحر إلا بعد أن سمعوا صوتى وأنا أضحك عليهم ساخراً منهم !!

الحالة السياسية :

أما عن حالة الكويت السياسية فحسبكم علماً بها أنها قد دخلت تحت الحماية الإنكليزية من سنة ١٩١٣ م ؛ ولم تكن هناك حكومة بالمعنى الصحيح فى أول نشأة الكويت ، إذ كان آل الصباح المنشئون لها أسرة واحدة لا تحتاج إلى حاكم ، ولكن لما هبط عليهم الناس من هنا وهناك ، وخالطهم بعض الأجانب رأوا أن يولوا عليهم حاكماً منهم ، فأجمعوا أمرهم على « صباح الأول » فقبل ، وظل الحكم من أيامه إلى أيام « مبارك الصباح » شورى ؛ يستشير الحاكم وجهاء القوم فيما ينتابه من المهمات ، وما يعرض عليه من القضايا ، وليس له الرفض أو القبول بعد أن يقر رأيهم على أمر ؛ لأن السلطة الحقيقية لهم ، وإنما يعطى اسم الرئاسة عليهم تفضلاً ، بل قد يذهب الأمر إلى أبعد من ذلك ، إذ يعجز الحاكم أحياناً عن أخذ الحق من بعضهم ، كما يتبين فى القصة التالية :

أخذ بعض هؤلاء الوجهاء سلعة إلى أمد من أحد الكويتيين . فلما دنا

الأجل ذهب الدائن إلى المدين يطالبه بحقه ، ولكن الوجيه ماطل : وامتنع عن الوفاء ، فرفع الرجل شكواه إلى الحاكم ، فصارحه الحاكم بأنه لا يستطيع إكراه ذلك الوجيه على الدفع ، ثم أرشده الحاكم إلى حل يدل على النباهة والذكاء . قال له : الرأي أن تذهب إلى زوجة هذا المدين المماطل فتخبرها بأن زوجها قد قال يوم أخذ السلعة : « امرأتى طالق ثلاثاً إن لم أوف إليك حقك عند أجله » ، فإنك ستحصل بتلك الحيلة على ما تريد ؛ لأن ذلك الوجيه لا يرد لزوجه طلباً ، إذ هو عبد لها ، فقبل الدائن ذلك الرأي وقصد الزوجة فشرح لها الأمر ، فوعده أنه بأن تحقق له رجاءه ، ولما عاد زوجها إلى البيت احتجبت منه وامتنعت عليه ، فدهش لذلك وسألها عن السبب ، فأخبرته بالقصة ، وحثمت عليه أن يسارع بأداء الدين قبل اتصاله بها ، فأكد لها الزوج أن ذلك كذب وافتراء ، ولكنها امرأة ، فلم تصدقه ، فاضطر الرجل أن ينزل على أمرها ، وأدى إلى الدائن حقه ! .

أمير الكويت :

أما حاكم الكويت اليوم فهو الأمير الشيخ أحمد بن جابر آل الصباح ، وهو الحاكم العاشر من حكام الكويت ، وكثيراً ما يخاطبونه في الكويت قائلين في خطاباتهم : « مولانا الأمير الجليل ، صاحب العز والسيادة الشيخ أحمد بن جابر الصباح حاكم الكويت المفخم أدام الله عزه وتوفيقه » .

وهو نجل الشيخ جابر بن مبارك آل الصباح ، ولد في الكويت سنة ١٨٨٠م على الأرجح ، ونشأ فيها وتعلم القراءة والكتابة في قصر والده ، وهو ربيع القامة حنطى اللون ، ممتلئ الجسم كث الشعر بهي المنظر ، لطيف الحديث جذاب الملامح رزين متواضع ، يميل إلى معالجة الأمور باللين والحكمة ، بعيد عن العنف وسفك الدماء ، بعيد عن المحرمات وتعاطياها ، معروف بالميل إلى الاقتصاد ، ولديه ثروة كبيرة تقدر بالملايين ، وهو يلبس الملابس العربية ، وأبناء الكويت جميعاً في ذلك مثله ، ويضع الكوفية (الصمادة) والعقال على رأسه ، ويلبس العباءة دائماً . وينهض سموه مبكراً من النوم فيتوضأ ويصلى ويقرأ ما تيسر من القرآن الكريم ، ثم يشرب القهوة ويفطر ، ثم ينتقل بالسيارة إلى قصر الحكم في داخل

مدينة الكويت (وقصره الذى يعيش فيه يسمى الدسمان) وهو واقع فى الطرف الشرقى من مدينة الكويت ، ويطل على خليج فارس ، فيستقبل الزائرين والموظفين وينظر فى الرسائل والكتب والشئون الأخرى حتى الظهر فيتغدى مع من يكون هنالك من الزوار والحاشية ، ثم يصلى الظهر جماعة فى مسجد القصر مع الموجودين ، ثم يستريح إلى العصر ، وقديما كان يغادر القصر إلى قهوة السوق ، وهى قهوة كاثنة فى وسط سوق الكويت التجارية ، وحوله رجال الشرطة والحجاب ، فيجلس فيها فيلتف الناس حوله . فينظر فى مصالحهم وقضاياهم ويفصل فيها ، أى أنه كان يأتى إلى المتقاضين بدلا من أن يأتواهم إليه ، وتلك عادة جميلة قديمة من عادات شيوخ الكويت ؛ وبعد أن ينتهى من نظر القضايا يعود بالسيارة إلى قصره قرب المغرب ، فيصلى جماعة فى مسجد القصر مع من يكون هناك من الزوار والحجاب والخدم وراء إمام القصر الخاص ، ثم يتعشى مع الزوار والحاشية فى غرفة المائدة ، ثم ينتقل مع ضيوفه إلى المشرب فيتناولون القهوة ويسمرون حتى يأتى موعد النوم ، وهو يكر إليه فى أكثر لياليه . . . أما اليوم فقد أنشئت بالكويت محاكم تقوم بالقضاء والفصل فى الخصومات نيابة عن الأمير .

وقد سن الأمير سنة طيبة حميدة ، وهى الاستماع إلى الدروس الدينية من بعض العلماء فى وقت معين من النهار أو الليل ، يقول الأستاذ عبد العزيز الرشيد : « لا نعلم أن أحداً من حكام آل الصباح اتخذ له واعظا خاصا فى مجلسه العام كل صباح ، يفسر بين يديه الكريمتين الآيات القرآنية ، ويشرح الأحاديث النبوية ، ويبين شيئا من الأحكام والأخلاق ، غير أميرنا المحبوب ، فقد شرفنى للقيام بتلك الوظيفة العالية ، ودعانى إليها فابيت نداه ، وامثلت أمره ، وقد كان يصغى لما يسمع من الآيات والمواظ على إعطاء المتدبر ، وبقيت مدة طويلة قائما بهذه الوظيفة الشريفة قبل ولايته » .

هذا كتاب يقع فى نحو مائة وأربعين صفحة ، ولكنه خلاصة بحوث ومطالعات تقع فى مجلدات ضخام ، قصد منه مؤلفه الفاضل الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى ، مدرس الفلسفة بجامعة فؤاد الأول ، بيان ماهية المدرسة فى جميع أدوارها ، عند اليونانيين الأقدمين ثم عند المسلمين ، ثم لدى الأوربيين الذين بدأوا ينتقلون منها الى الدور النهائى لاكتساب المعرفة ، وهو الدور العلى . وقد أبدع كل الإبداع فى توفية حق كل ما تصدى له من البيان . فافتتح الكلام عن الفلسفة بتعيين مدلولها ، ثم إنقل منه الى بيان تطورها ، ومنه ألم بالفلسفة اليونانية فلتخص مذهبها ومقاصدها إلماما يعتبر نموذجا فى اتقان التلخيص ، يلم المطالع منه بماهية الفلسفة اليونانية وأشهر تمثيلها فى نحو خمس وعشرين صفحة تقرأ فى سوية واحدة .

ثم خرج من هذا البحث إلى دراسة الفلسفة الإسلامية وتاريخها وبيان مراميها كما استخلصها من أقوال أئمتها الذين سرد كثيرا من أسمائهم : وانتهى من ذلك إلى بيان الفلسفة الحديثة مبتدئا بعصر النهضة .

وقد جعل لنظرية المعرفة بابا خاصا ، وأتى على مذاهب الفلاسفة فيها من أول القدامى إلى اليوم . كل هذا مع بيان أشهر الآراء فى مشكلات الفلسفة الخ . موجز القول فى هذا الكتاب أنه استخرج زبدة الفلسفة وجعلها فى حيز يمكن كل إنسان أن يتناولها ويستفيد منها ، وهذه مقدرة فى التلخيص والبيان والإحاطة تسجل لحضرة المؤلف بالإكبار والإعجاب .

نفحات من سيرة السيدة زينب

هذه رسالة تقع فى ثمانى وأربعين صفحة ، أوجز فيها فضيلة الأستاذ الفاضل الشيخ أحمد الشرباصى المدرس بالأزهر ، سيرة السيدة زينب رضى الله عنها .
فهى زينب بنت على بن أبى طالب ، وأمها فاطمة الزهراء ، ولدت فى شعبان من السنة الخامسة للهجرة بعد ميلاد أخيها الحسين بستين .

تزوجت بآبى عمها عبد الله بن جعفر بن أبى طالب . وصحبت شقيقها الحسين فى نزوحه إلى العراق ، وحدثت هنالك المعركة بينه وبين عامل يزيد ، وقتل الحسين فى المعركة فشق عليها ذلك ، وافتيدت الى يزيد بن معاوية فسكمتها كلاما موجعا وعادت إلى المدينة وأخذت تؤلب الناس عليه ، فاضطرها أشياع يزيد إلى الهجرة إلى مصر ، فأقامت بها مكرمة معظمه ، حتى توفيت فى رجب من سنة (٦٢) هـ .

وفاة أنطون الجميل باشا

لبي دعوة ربه إلى العالم الباقي كبير الصحفيين المصريين ، أنطون الجميل باشا ، فكان لنعيه أثر عميق في القلوب ، لما عرف به من حسن الاضطلاع بمهمته العظيمة ، وجميل الاثر في خدمته للصحافة ، والتزده عن الهوى في تغذية الرأي العام ، فكان في قيادته لسياسة أكبر جريدة في الشرق ، مثالا حيا للاتزان وبعد النظر ، فإذا كان أصحاب الأهرام لم يدخروا وسعا في تقويم عملهم بما يحتاج إليه من المال الوفير ، فإن أنطون الجميل باشا استطاع بما أوتيته من استقامة الرأي ، وتوخي الاحسن ، وتحرى الحقائق ، والترفع عن السفاسف ، ما رفع الأهرام إلى مستوى من السمو يعتبر المثل الأعلى في الصحافة .

أدرك أنطون الجميل باشا ، كما أدرك ذلك من سبقه في الأهرام ، أن مصر في عهدها الراهن من الانتقال السياسي ، وما يحتمش هذا الدور من تفرق الكلمة ، واختلاف الأنظار ، في حاجة ماسة إلى منبر عام ، يستطيع كل صاحب مبدأ أن يدلي منه برأيه إلى الجماهير في حرية تامة ، وجو بعيد عن المماراة والملاحاة ، فوقف بقلمه موقفا وسطا في مزدحم المتنازعين ، ولكن في غير تعصية بمذهبه الشخصي الذي كان يقضى به بين حين وحين ، غير متعرض لحزب ، ولا متحامل على طائفة ، حتى جعل الأهرام يشبه من وجوه شتى جريدة التيمس اللندنية في ابتعادها عن الخلافات ، وإشادتها بكل اصلاح تقوم به أية جماعة من الجماعات السياسية في تلك البلاد .

وكان فقيدنا بما أوتي من الميل الى العلم والادب ، وهما الموضوعان اللذان بدأ بهما حياته العملية ، يشجع المشتغلين بهما ، ويرحب بشمرات جهودهم فينشرها في أحسن مكان من الأهرام ، مع أنها كانت كثيرا ما تضيق عن نشر الاعلانات المستعجلة في أيام الحرب العالمية الأخيرة .

وبمدقاننا لا نجد من نخمسه بالتمزية في وفاته ، فكل الناس سواء في التأثر بها فنعزيم جميعا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

احتفال الازهر بعيد المولد النبوى الكريم

في الساعة الخامسة من مساء يوم الخميس ١١ ربيع الأول ١٣٦٧ الموافق ٢٢ يناير سنة ١٩٤٨ ، قصد فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد مأمون الشناوى ، السراى الضخم الذى أقامته مشيخة الأزهر الشريف فى ساحة المولد النبوى الكريم بالعباسية لاحتفل فيه بعيد مولد محمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه . فقبل فضيلته بحفاوة رائعة ، وهتافات مدوية ، اشترك فيها الشعب والطلبة .

وابتدأت الحفلة ، فألقى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد عرفة مدير الوعظ كلمة قيمة فى ذكرى المولد ، ختمها بالدعاء لجلالة الملك ، وبالتعبير عن شعور الأزهر العظيم ، وسروره البالغ ، بتعيين الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخاً للأزهر ؛ ودعا لفضيلته بالتوفيق فى عهد الأزهر الجديد . ثم ألقى فضيلة الأستاذ الشيخ عبد المعبود سلام مفتش الوعظ المساعد ، والأستاذ الشيخ محمد مصطفى أبو العلا الواعظ ، كلمتين مناسبتين للمقام . وإلى القراء الكلمة القيمة التى نشرها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر فى هذه المناسبة الكريمة :

* * *

« حق على الناس أن تتجه أفكارهم عند ذكر مولد النبي صلى الله عليه وسلم إلى سائى حكمة المولى عز وجل ، وسننه البديع الذى أجراه فى خلقه ، وخلق كل شئ وفقدره تقديرآ . »

فقد اقتضت حكمته السامية ، ورحمته الواسعة ، أن فطرهم على دين الحق ، وأودع فيهم مبادئ الخير ، وما زالوا على ما فطرهم عليه من الإيمان بالله ، والثقة بالنفس ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ، هاثنين بحياة سعيدة ، حتى يوسوس لهم الشيطان ، فتحرف قلوبهم عن الإيمان ، ويفسد ما بينهم ، وتسوء حالتهم ، وعندئذ يتجلى الله برحمته على عباده ، فيبعث فيهم رسولا ، يذكرهم بما أنساهم الشيطان ، ويردّهم إلى حظيرة الإيمان « وإن من أمة إلا حلال فيها نذير » ، « سنة الله في الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

ولقد كان العالم قبيل مبعث الرسول صلوات الله وسلامه عليه يتخبط في ظلمات الجهالة ، وسفين أمره في بحر لجي من الأهواء والشهوات ، لا يعصمه فيه كتاب ؛ وأصبح الأمر في الناس فوضى ، يرسفون في أغلال من المنكرات التي تمجّسها الفطر السليمة ؛ فقويهم يملك أمر الدنيا من مال وسلطان ، ويسط على من سواه كل عنت وإرهاق ؛ وتقطعت أسباب المودة بين الناس ، فشنوا الغارات ، وأقاموا الحروب لأتفه الأسباب ، وتمادوا في طغيانهم ، فوآدوا ، البنات ، وقتلوهن خشية الإملاق .

وعندئذ تجلّت رحمة الله بعباده ، فبعث في العالم رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم هدى ورحمة ، فأخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ووضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، وجاء بأسمى المبادئ ، لتحقيق العدالة والمساواة بين الناس ، لافضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى « يأبى الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . وحث الرسول صلى الله عليه وسلم على البر ، والتواصى بالفقراء ، والعطف على اليتامى ورعايتهم ، وعنى بعلاقات الناس بعضهم ببعض ، فأقامها على أساس قويم من المحبة ، والوفاء ، والإخلاص لله .

ولقد جاهد الرسول صلى الله عليه وسلم في نشر الدعوة ، ولاقى من صنوف الإيذاء والاضطهاد ما لاقى ، حتى كتب الله النصر لدعوته ، وأتم على عباده نعمته . نسأل الله الكريم أن يعيد هذه الذكرى المباركة ، وقد تحقق عز العروبة ، ومجد الإسلام ، مبتهلين اليه سبحانه أن يحفظ مولانا صاحب الجلالة الملك

خاروق الأول، وأن يمدد بعون منه، ويوفقه إلى ما فيه مصلحة العباد، وسعادة البلاد. صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وهذه كلمة فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد عرفه
مدير الوعظ والإرشاد

بسم الله الرحمن الرحيم

« لقد منّ الله على المؤمنين، إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين. »

وإنها لمنّة عظيمة، ونعمة كبرى. ولقد علم المسلمون فضل هذه النعمة؛ فهم يحتفلون في كل عام بمولده صلى الله عليه وسلم، ويجعلونه يوما معدوداً، وعيداً مشهوداً؛ وخير ما يصنع في الاحتفال به أن تنشر أخلاقه وصفاته صلى الله عليه وسلم، ليقنّدى بها المسلمون: « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة. »

ونحن سندكر صفة واحدة من صفاته لتكون عظة العام، نتعظ بها وقدبرها، ونغرسها في نفوسنا؛ هذه الصفة هي « الأمل. »

كان محمد صلى الله عليه وسلم عظيم الأمل فلا يقط، وكان كبير الرجاء فلا يئأس، وكان وهو في أحلك الأزمات يمتنى أصحابه بملك كسرى وقيصر.

هذا الأمل غرسه وتعهّده في رسول الله أمور أربعة: إيمانه بالله، وإيمانه بالفضيلة، فكان يعتقد أن الله ينصر الفضيلة والفضلاء، ويخذل الرذيلة والأرذلين.

وإيمانه أنه كان هو وأصحابه على الحق والهدى، وأن خصومه على الباطل والضلال، وأنه في هذا العراك المحتدم بينهم لا بد أن يداخل من المبطلين للمحققين؛ والقرآن الكريم مشحون بهذه العقائد، يرددها ويثبتها في نفوس المسلمين: « ولقد سبقتم كتبنا لعبادنا المرسلين، إنهم لهم المنصورون، وإن جندنا لهم الغالبون. »

وتربية صالحة؛ فقد رباه الله أحسن تربية، فحبّب إليه الأمل، وبغضّ إليه اليأس والقنوط، وجعلهما من صفات الضالين والكافرين « ولا تيأسوا من

رَوْحَ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَبْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ، « وَمَنْ يَقْطَعْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ » .

وقد بغض إليه الأمل الكاذب ، وهو الأمل الذى لا يصحبه عمل ، أو يصحبه عمل لا يؤدى إليه ، بل يؤدى إلى النقيض : « كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَفُتِنُوا بِغُلَامَيْنَا فَبَدَّلُوا آيَاتِنَا » . وقد نعى القرآن على الذين إذا أصابهم كارثة أو ألمت بهم مصيبة انحلت عقدهم ، وانطفأ أملهم ، وجزعوا أعظم الجزع ، ودخلوا فى ظلام اليأس : « إِنَّ الْإِنْسَانَ لَخُلُوقٌ هَلُوعٌ ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ، إِلَّا الْمُصَلِّينَ » .

أيها المسلمون ! ليس بعار على المرء أن يخيب فى مسعاه ، إنما العار أن تنحل عزيمته إذا أخفق ، وينطفىء أمله إذا فشل . أيها المسلمون ! الأمل قبس من نور الله يضىء لكم السبيل ، وروح من روح الله يحيى به النفوس الميتة ، وهو الذى يزرع الدنيا أمامكم بالورود والرياحين ، ويجعل صحراء الحياة المجردة ظلاً ظليلاً وماء نيراً ، وجنات وعميونا ، وزروعا وكروما ، وهو الذى يطالع فى ليالى الخطوب الملهمة ، وظلماتها الحالكة ، قرأ منيراً .

وهو بعد ذلك كله لكسير الحياة ، فلا سعادة للبرء بدونه ؛ فالحياة به نعيم سائغ ، وبدونه جحيم لا يطاق ؛ وهو الذى ينقذ البشر من النكبات والمحن ، ويعينهم على التغلب على الصعاب .

فاجعلوا لأنفسكم آمالاً واسعة ، واسعوا بكل ما فيكم من قوة لتحقيق هذه الآمال ، واحذروا الأمل الكاذب ، والسراب الخداع ، والبرق الخُلْب ، فليست الحياة إلا أن تعرفوا وتؤملوا ، وتحبوا وتؤمنوا بكل ما هو حسن وجميل .

وإني بهذه المناسبة أرفع إلى صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر ، الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر ، تهنئى وتهنئة علماء الدعوة والإرشاد بتقلده هذا المنصب السامى ؛ ونسأل الله أن يعينه ويسدد خطاه .

وإننا ننمى الأمل الإسلامية بذكرى مولد الرسول ، ونسأل الله أن يرزقهم السعادة فى ظل حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق ، أبقاه الله ذخراً للإسلام والمسلمين .

احتفال الأزهر

باستقبال شيخه الجديد صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر
الشيخ محمد مأمون الشناوى

تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك المحبوب حفظه الله ، فأسند مشيخة الأزهر الشريف إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى .
وصدر الأمر الملكى الكريم مساء يوم الأحد ٧ ربيع الأول عام ١٣٦٧ (١٨ يناير ١٩٤٨) .

وكان لنبا هذا التعيين الميمون ، والثقة الملكية السريية ، أعظم صدى فى محيط الأزهر ، وفى القطر المصرى ، والشرق الإسلامى كله ؛ لما عرف به الأستاذ الأكبر من سمو فى الخلق ، وعظمة فى الروح ، وقوة فى النزعة الدينية الإسلامية .
وفى صباح يوم الثلاثاء ٩ ربيع الأول ١٣٦٧ شرف فضيلته الإدارة العامة للأزهر فى وسط مظاهرات رائعة ، وحفاوات منقطعة النظير ، اشترك فيها الطلبة والأساتذة والموظفون والشعب ، وكان الجميع يهتفون بحياة جلالة الملك منقذ الأزهر ، وحياة الأستاذ الأكبر .

وقصد فضيلته مكتبه وسط الزحام الشديد ، فألقى فضيلة الأستاذ محمد المدنى المدرس بكلية الشريعة ، ثم فضيلة الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى المدرس بالأزهر ، ثم حضرات الأساتذة : حسن جاد ، ومحمد جلال ، وعبد الرزاق سلمان ، ومحمد خليفة ، ومحمد العزازى ، وغيرهم - كلمات وقصائد فى تهنئة الأزهر بشيخه الأستاذ الأكبر ، معلنين شعورهم الطيب نحو فضيلته ، وابتهاج الأزهر كله بتوليده مشيخته ، وأملهم فى مستقبل عظيم للعلم والعلماء فى عهد فضيلته .

كذلك ألقى الأستاذ عبد الحميد الهاشمى رئيس البعثات السورية بالأزهر وكلية أصول الدين كلمة ترحيب وتهنئة قوبلت بالنقد والتصفيق .

وفى موجة من الفرح والبشر والابتهاج ، ألقى الأستاذ الأكبر كلمته فى شيوخ الأزهر وطلابه ، فكانت تقابل بالهتاف المتواصل بحياة الملك منقذ الأزهر وحياة الأستاذ الأكبر المصلح ، الشيخ محمد مأمون الشناوى .

وهذه قصيدة فضيلة الأستاذ حسن جاد المدرس بكلية اللغة العربية :

سرتُ باسمك البشري فعاودنا البشرُ
ودانت لك الأيام بعد اعتسافها
وأشرق نور الحق فانتشع الدجى
وراحت أساطير الظلام شـتـيـتـة
تداركت المعمور أقدارُ رحمة
وأنقذه الرحمن بعد احتضاره
فقل للذي قد ضاق بالصبر صدره
وقل لسكاري التيه : موسى أتا كمو
وقل لبنى المعمور إءوساً وخزرجاً
وقل لبنى الوجهين إن أبا كمو
وأنتم جناحها إذا هيض منها
فقيم أثرتم مُفرقة جاهلية
تداركه الفاروق فالتام أمره
وآسى بمأمون نوازي جرحه
صبرنا الى أن بارك الله صبرنا

وعادت لدين الله آماله الغر
وأقبل في دنياه يعتذر الدهر
وطالعنا صبح عن الخير يفتـر
يطاردها في جيش أنواره الفجر
ولله فيما قد ألم به سر
ويارب شر منه ينتظر الخير
رؤيتك إن العسر يعقبه اليسر
أقلوا من الأوهام قد بطل السحر
تداركم مأمونه الصادق البر
هو الأزهر الخاني وأمكو مصر
جناح فلا يرجى رقى ولا طير
يشب لها في ساحة الأزهر الجمر
ولولا يد الفاروق ما التأم الأمر
فنامت نوازي الخطب وانحسم الشر
وأجمل شيء في الحياة هو الصبر

فعـد يا إمام المسلمين لمنصب
تهلل لما عدت حرا مكرما
خلعت عليه من وقارك هيبة
مُعرفت أبي النفس لا تعرف الهوى

أضرّ به الشوق المبرح والهجر
يحالفك السعد المؤازر والنصر
فأضحى عزيزا لا يُلم به ضمير
ومن آفة الأخلاق أن يعرف النكر

فأدرك حى المعمور من محنة الهوى فأنت له فى حادثات الهوى ذخى
هو الفلك ضلت فى متاهات بحرها وعجت أواذيه وماج بها البحر
وما أنت يامأمون إلا منارها ومرفوها الهادى إذا مانأى البر
فوحّد على الحب الجميل صفوفه وضمّ بنيه لا يلم بهم وتر
وكن والداً للكل يأسو جراحهم ويستل ما يضىئ النفوس وما يعرفو

* * *

أهنيك يا مولاي والناس كلهم يهنئنى حتى سما بك لى قدر
وما أنا إلا للعالى مهنىء فقد هز أعطاف المعالى بكم نخر
ومثلك لا يزهى بغير قصائدى ولكن به تزهى قصائدى الغر
رجونك يامأمون للخير والهدى ومثلك من يرجى على يده الخير



وها هى قصيدة فضيلة الأستاذ النابه الشيخ محمد عبد المنعم خفاجى :

يوم تشيد بذكره الأيام قد عز فيه الدين والإسلام
المسلمون استبشروا وتيامنوا والأزهر ابتسمت له الأيام
لبست مآذنه الضياء وكبرت أركانه ودنت له الأحلام
وعلت بحياه ابتسامه شاكر واختال فيه شيوخه الأعلام
وازدان منبره بكل مفوه ينبيك عنه جبينه البسام
وتسامع الطلاب بالبشرى ويا لجلالها فإذا الحياة سلام
وتضج من فرح معاهده العلى وترف فى أجوائها الأعلام
يوم تلالاً فى الكنانة نوره وتسير تحمد فضله الأعوام
من ذا سوى الفاروق يكسوه السنا آلاء فاروق عليه كرام

يا يوم أزهرنا المجيد تحية أتت المنى وشدا بك الإلهام
 أت الحياة تدب في أركانه والخير والإخلاص والإقدام
 مأمون قلده الملك أموره مأمون أروع حازم مقدام
 هو في القلوب نشيدها ورجاؤها هو في الهدى والسابقين إمام
 حفلت صحائفه بكل جليلة لشبابه بكرمها الإكرام
 هو في كواكبه المنيرة شمسها ويند من لآلئه الإظام
 علم التقى والخير والداعى إلى شرف الحياة وفي الخطوب همم
 بيت المعز وجوه وفؤاد والفاروق بالمأمون ليس يضام
 خلق كما شاء الإله مطهر ومحنة وتعاون وسلام
 وخلاله الإيثار والحسنى وما وجد السبيل لعزمه الإحجام
 متبذل لله يمشى خاشعا وله يتمدى السماء هيام
 مضت السنون ونحن نهدم ما بنى أسلافنا وجميعنا أخصام
 وتقوم دنا الأهواء ضلت قائدا هي مفرقة وتباغض وخصام
 أعمالنا الأقوال والجو الذى يحيا به النشء الجديد ظلام
 مأمون تليد الامام أعد لنا عهد الامام فحسبنا الأوهام
 تحملت أعباء الإمامة فارعا تنهض بها الأخلاق والأحلام
 وأعد لقدس الدرس ماضى مجده ترجع اليه سكينه ونظام
 وامنح الشقاق بمعهد هو أسوة للمسلمين وموئل وعصام
 يتفامل الوادى بوجهك والحنى والأزهر المعمور والإسلام

وهذه قصيدة فضيلة الأستاذ السباعى الشاوى

قم حتى مأمونا وحى الأزهرنا واهتف به أستاذ مصر الأكبرا
 شمس تضىء المشرقين كأنها شمس الرسول سماؤها أم القرى

فيض من الاخلاص يغمر قلبه يا نعم إخلاصا يقود إلى الذرا
 أخلصت للعمور في أزماته وأتيته بالمعجزات فأزهرها
 في ساحة الانصاف قدت جهاده فرجعت مرفوع اللواء مظفرا
 قِيم من التقدير لم يظفر بها في أى عهد فانتشلت الازهرها
 ورفعت رأس بنيه بين لاداتهم وجعلتهم فوق الطوائف مظفرا
 فبنى لك التاريخ مجدا خالدا وبأحرف التقدير خط وسطرا
 واليوم في التنسيق نرجو غيثكم إنا بساحتكم تعودنا القسرى
 قدت السفينة مفردا فأدرتها بمهارة أخذت بألباب الورى



هى نعمة خلقت لغرس ضغائن ياويله من ذا الذى قد دبرا
 إنا لنطلب وحدة الوادى فلا نبغى لدى الوجهين فصما للعرا
 أبناء مصر إخوة وجميعهم متآزرون ووحدة لن تبرا
 هى جذوة أرسل عليها نفحة من فيض قطرك تستحيل إلى ثرى
 وأثر نسيم الود فى جنباته من بعد ما عصف الزمان وغيرا
 من كان كالمأمون فى نفحاته حل العويص من الأمور وأكثرا
 أو كان كالمأمون فى عزماته ساس الجميع بعزيمة لن تنهرا
 هو نفحة الرحمن أرسله هدى للعالمين ورحمة وتبصرا
 ولكم دعونا فاستجيب دعاؤنا وأق لنا المأمون شيخا كبيرا
 الذين فى يمينه ينثر دره واليسر فى يسراه أبهى منظرا

وفود الأزهرين

من الأقاليم

وفدت إلى القاهرة جماهير من أساتذة وطلاب المعاهد الإقليمية، وانضم إليهم طلبة الكليات ومعهد القاهرة، واصطفوا في ساحة الجامع الأزهر، واعتلى خطبائهم شرفة الإدارة العامة للمعاهد الدينية يعبرون عن سرور طلاب العلم واستبشارهم بتعيين حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ « محمد مأمون الشناوى » شيخاً للأزهر، وبعد ما فرغوا من مهمتهم، تفضل فضيلته بتوجيه كلمة إليهم، جمعت من ضروب النصائح الأبوية، والإرشادات الأدبية ما يكفل للأزهر والأزهرين عهداً من النهوض والاستقرار يحقق ما يرجى منه لإنشاء جيل يؤدى رسالة الإسلام العالمية على أكمل وجه، وأشرف مآل.

أبنائى :

بسم الله الرحمن الرحيم أفتتح عهدى معكم ، وأتوجه إلى الله بالشكر على عظيم فضله ، راجياً لى ولكم التوفيق والسداد ؛ وأدعو الله الكريم أن يحفظ ملاذ الأزهر وراعيه ، مولانا الفاروق العظيم ؛ فإن أياديه على الأزهر غرام ناصعة ، وأمانيه للأزهر والأزهرين جلييلة سامية ؛ وخير ما يرجوه جلالة مولانا الملك أن يظل الأزهر كما كان منذ ألف سنة ، مناراً للعلم والدين ، ومهبطاً للخلق الكريم ، ومنبعاً للأخوة والمحبة الصافية ؛ فإن الألفة بين أبناء ذلك المعهد لما ترفع شأنه ، وتعالى ذكره ، وتحله مكان الصدارة فى الفكر ، والخلق ، والدين .

وإني لا أشكر لكم جميل شعوركم ، وكريم تهانيتكم ، التي عبر عنها خطابكم وشعراؤكم ، وظهرت واضحة في صححات الاستبشار التي استقبلتموني بها منذ تفضل مولانا جلالة الملك فأسند إليّ هذا المنصب .

كل هذا يجعلني واثقاً كل الثقة بأن ستكونون عند حسن الظن بكم ، وأنكم أساتذة وطلابا وموظفين ستعملون متكاتفين متساندين ، لمعونتي على السير بكم وبالأزهر قدماً نحو الاهداف السامية التي يتمناها لنا جلالة الملك المعظم ، ويرجوها للأزهر كل محب له ، حريص على مجده . وإني لوائق أننا جميعاً نحب الأزهر ونرجو له كل ازدهار ونماء ؛ وكلكم يعلم أن رسالة الأزهر إنما تتحقق على أكمل وجه إذا قامت على أيادٍ موحدة ، ونفوس مُصفاة . فلتنسوا كل ما كان ، ولنجعل عهدنا من اليوم صفاء في القلوب ، وإيماناً برسالتنا ؛ ولنفسر على بركة الله ؛ ولكم مني - إذا أنتم حققتم أملى - كما حقق الله آمالكم ، فعكف الطلاب على دروسهم ، والأساتذة على بحوثهم ، أن أبذل غاية جهدي في سبيل مصلحتكم ومصلحة الأزهر ؛ فاعملوا معي ، وانشدوا الوحدة ، واتركوا ما ليس لكم من شئون ، والله يوفقني إلى ما فيه الخير واليمن لكم في حاضركم ومستقبلكم .

أما تهنئتيكم لي فقد تمّ التعبير عنها ، ولمستها في فيض عواطفكم ، فاجعلوا شكري عليها نصيحة خالصة : أن تتحدوا وتتآلفوا ، وتقبلوا على دروسكم ، ودعوا إلى الفرصة لأعمل في جو هادي ، كي أحقق لكم الأمل ، فإن الأمل بابه العمل ، وهو أجدي علينا وعليكم من أوقات نضيمها في القول والتهاني ، **« وَقِيلَ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ »** .

وبعد ، فإن عهدي إلى العالم الإسلامي أن أعمل لخدمة العلم والدين ، وأن أفسح المجال في الأزهر لكل طالب وباحث هدفه العلم والدين ، مهما تباعدت أوطانه ؛ فالأزهر كعبة لكل مسلم في مشارق الأرض ومغاربها ، ولكل وافد عندي العون والمساعدة ، ليلبغ من العلم ما يريد ، حتى يعود إلى أهله داعياً للأزهر ، وناشراً لدين الله . وعهدي إلى العالم الإسلامي أن أعمل على نصرته

قضية العروبة والإسلام ، والتكئين لكلمة الله « حتى لا تكون فتنة » ويكون الدين كله لله . »

وأخيراً أقول لكم جميعاً : إن بابي مفتوح لكل ذى حاجة ، وإنه لا فرق عندي بين أستاذ وأستاذ ، ولا بين موظف وموظف ، ولا بين طالب وطالب ، إلا بالتوفر على العمل ، والإخلاص فيه « مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » .

« وأكرر لكم جميعاً شكرى على عظيم استقبالكم ، وكريم حفاظكم ، وحسن ظنكم ، وأدعوكم إلى العمل من الساعة . فاعملوا ، والله معكم ، ولن يتركم أعمالكم » .

ولنى أتبل إلى الله جلّت قدرته أن يحفظ مولانا جلالة الملك ، وأن يديم على الأزهر عطفه وبره . كما أضرع إليه أن يعيد على العالم الإسلامى ذكرى مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد تحققت آمال المسلمين ، فى مجد العروبة وعز الإسلام . والسلام عليكم ورحمة الله .



كلمة الاستاذ الاكبر في الوفود

يوم الاحد ٢٥ يناير سنة ١٩٤٨

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله على فضله العميم . سبحانه ما أعظمه من منعم ! فقد مهّد لنا أقوم السبل الى خير ما أحب وتحبون : وأرفع آيات الشكر والولاء الى حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم على سامى عطفه علينا ، وكريم بره بالأزهر والعلم والدين ، وعظيم رعايته لأمور المسلمين : وأشكر لكم جميعا ما أبديتموه من حفاوة ، وأقدر ما تحملتموه من مشاق . وإنه ليزيدنى اعتباطا أن أجدكم دائما عند حسن الظن بكم رجالا تعرفون واجبك في الحياة العلمية والاجتماعية ، فتكرسوا وقتكم لتحصيل العلوم والمعارف ، وتبذلوا قصارى جهودكم في حماية الدين ونشر مكارم الاخلاق ، وبهذا تكونون قد أدّيت رسالة الأزهر الى العالم كأزهريين عاملين . وكونوا إخوانا كما أمركم الله .

وبعد ، فقد مضى من العام الدراسي وقت غير يسير ، فأرجو ألا تدعوا فرصة العمل فيما بقي منه ، فإذا ذلك أجدى عليكم وأجدر بكم ، وانشدوا الاتقان فيما تعملون فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا . وسارعوا الى ما وجب عليكم مترسمين الاخلاص لله وللعلم حتى نجنى الثمار جميعا ، وإنها بفضل الله ومشيئته عزة للأزهر ، ومجد للعروبة ، وقوة للمسلمين ، وسلام على العالمين .

وأخيرا اعلوا أن أبناء الأزهر لدىّ سواء ، ولكن كل بعمله ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يكتب لنا التوفيق ، وأن يمدنا بروح من عنده ، وأن يحفظ مليكتنا المعظم فاروق الاول ، أعزه الله . والسلام عليكم ورحمة الله .

كلمة الاستاذ الاكبر

في طلبة معاهد الاقاليم

يوم الاربعاء ٢٨ يناير سنة ١٩٤٨

بسم الله الرحمن الرحيم

أبنائي الاعزاء :

السلام عليكم ورحمة الله . أقدر لكم هذا الشعور الفياض ، وأحيي فيكم هذا الروح الكريم الذي ينم على عظيم إخلاصكم وصادق محبتكم وشدة تفانيكم في تقديركم للمثل العليا ، وتعلقكم بها . وأشكر لكم هذه الثقة الغالية التي لا تفتأون كل يوم تظهرون منها ما يثبت أركانها ويوطد دعائمها ، ويقوى من عزيمة الذين تتوجهون اليهم بها ، وأبادلكم تحية بتحية ، وإخلاصا بإخلاص .

أبنائي :

تعلمون أن الأزهر أقدم جامعة إسلامية ، وأعظم مؤسسة في التاريخ قامت بحفظ الشريعة الغرام ، وحراسة اللغة العربية ، وحملت وحدها عبء الثقافة والتعليم في الوقت الذي لم يكن في الشرق جامعة ولا مدرسة غيرها تقوم بمثل هذا الواجب .

وأؤكد لكم أنه لولا وجود الأزهر في تلك الحقبة التاريخية الطويلة لعمت الجهالة ، وانتشرت ظلماتها بين الناس ، وانتاب التأخر والانحطاط كثيرا من نواحي الحياة ، وغلبت على الشرق كثرة من الظواهر الاجتماعية الخطيرة التي كان يصعب تلافيها .

فالأزهر من هذه الناحية قد قام بأعظم الخدمات وأجل الفوائد للإسلام والعرب والشرق ، بل وللإنسانية جمعاء . فواجبنا نحن أبناء الجيل الحاضر إزاء

هذه الجامعة المجيدة أن نحافظ على هذا التراث العظيم ، وأن نرعاها ، وأن نتابع جهودنا ونبذل كل قوانا في سبيل الإبقاء عليه وإنماء ثروته وازدهارها ، والنهوض بها قُدمًا ، حتى نكون خير خلف لخير سلف ، وحتى نستحق أن نوصف بأننا أبناء بررة لأوائك الآباء الأجداد . وغنى عن البيان أن هذا كله لا يتم ولا يتحقق إلا بحسن قيامنا بواجبنا ، وعنايتنا بما وكل إلينا ، والتفات كل فرد منا الى واجبه المنوط به ، ليؤديه على الوجه الأكمل ، ويضعه في وضعه الصحيح .

وإنه لطيب لى فى هذا المقام أن أنهى إليكم أن جلالة مولاي الملك المعظم يعطف على الأزهر وأبنائه كل العطف ، ويرعاهم أعظم الرعاية ، ويسره أن يبلغ جلالته عنهم قيامهم بواجبهم وتأديتهم رسالتهم ، وتفرغهم للاشتغال بالعلم وحده ، وابتعادهم عن كل ما يحول بينهم وبين أى شىء من ذلك .

أمد الله فى حياة جلالته ، وأيده بروح من عنده ، وأعز به الدين ، وجعل عهده كله خيرا وبركة على الاسلام والمسلمين ، والأزهر والأزهريين .
والسلام عليكم ورحمة الله .

بين المؤمنين والملحدین

نشرنا في الجزء السابق كلاماً عن الإلحاد والعلماء ، وأتينا على آراء بعضهم ، فكان لهذا العمل وقع عظيم في نفوس القارئین ، وخصوصاً الشبان المنتخرجين من الجامعات منهم ؛ فقد كانوا يظنون أن أكثر الناس علماء هم أصعب الملحدین شيكمة ، فإذا بهم يرون أنهم كانوا أكثر الناس شعوراً بوجود الخالق ، وأحرصهم على إعلان ذلك عنهم ، وهذا مصداق لقوله تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » . حصر سبحانه وتعالى الخشية على وجهها الأكمل في العلماء ، لأنهم بما أوتوا من صفات النظر العميق ، والتحليل الدقيق ، يقفون من أسرار الابداع الإلهي في الوجود ، ونواحي الاعجاز فيه ، على ما لا يقف عليه سواهم ، فيكون إيمانهم أعاق بالنفس ، وأبعد غوراً فيها من إيمان غيرهم من الواقفين عند حدود القشور الظاهرة للوجودات .

وقال تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولو العلم ، قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم » ، فجعل شهادة العلماء بوحديته ، في درجة شهادة الملائكة ، وهم من لا يتطرق اليهم الشك ؛ وفي هذا من الاعتداد بآراء أهل العلم ما لا مزيد عليه ؛ وما ذاك إلا لأن العلم نور معنوي يُظهر من خفايا الأشياء ما لا يراه الذين لا يستعينون به .

قال العلامة الأفاضلي (شفرول) Chevreul وهو علم من أعلام علم الكيمياء الفرنسيين ، وقد أراد أن يصم جراحة بعض غلاة الماديين في زمانه بوصلة عار لا تمحي :

« لقد سألت نفسي ، وأنا في زمان يتكرر الزعم فيه بأن العلم يؤدي الى المادية : ألا يكون من الواجب على الرجل الذي أمضى حياته في وسط كتبه ، وفي داخل معمل كيميائي ، باحثاً عن الحقيقة ، أن يهب محتجاً على قول مناقض للعلم كل المناقضة ؟

وأنه لهذا السبب صرح بأنه لم يكن قط لا أدرياً ولا مادياً ، وهو على استعداد لأن يبين أسباب ذلك .

« نعم لم أكن قط لا أدرياً . فاني معتقد بوجود ذات إلهية أبدعت تناسقين عظيمين : تناسق عالم الجمادات الذي يكشف عنه أولاً علم الميكانيكا السماوية ، وعلم الظواهر الذرية ؛ وتناسق العالم العضوي الحي . فلم أكن قط في أى عهد من عهود حياتي مادياً ، لأن عقلي لم يستطع أن يدرك بأن هذين التناسقين ، وهذا الفكر الانساني كانوا من نتائج الاتفاق والخيوط . »

وهذا الأستاذ (دولاباران) De Lapparent العلامة الجيولوجي الكبير قد قال :

« فضلاً عن أني لم أضق ذرعاً بعقائدي ، فأنا على عكس ذلك أجد منها باعثاً قويا لمتابعة أعمالى العلمية . »

وقال الأستاذ الرياضي المشهور (كوشي) Cauchy :

« ليست عقائدي ثمرة أوهامى الوراثة ، ولكنها نتيجة تحقيقاتي العميقة . »

وقال الفيلسوف الجليل (جول سيمون) :

« إن فكرة الألوهية هي المركز الذي تلتقي فيه جميع طرق التفكير الانساني . »

وقال الشاعر العالمى الكبير (فيكتور هوجو) وهو يخطب المجلس التشريعى

في ١٥ يناير سنة (١٨٥٠) .

« أما عن نفسى فليس مع لى بأن أعلن على رموس الأشهاد بأنى أعتقد بوجود الله ، وهو فى نظرى أثبت وجوداً من هذا الوهم الضئيل الذى نسميه بالحياة . فهو مائل أمام عينى لا يبرحهما . وأنا معتقد بوجوده بجميع ما فى الاقتناع من قوى ؛ وبعد دراسات كثيرة أصبح الحقيقة العليا لعقلي ، والتعزية المثل لروحي . »

وقال العلامة المؤرخ الطبيعى فابر Fabre :

« إنى أعتقد وجود الله ... وبدون ذلك لا أفهم شيئاً ، أى يصير كل شيء أمام نظرى ظلاماً بهيماً . »

وقال العلامة الكبير كلود برنار Claude Bernard وهو أشهر فيزيولوجي أنجبته البشرية :

« إن الفلسفة الحسية والمذهب المادى كلاهما فى نظرى غير معقولين ولا يمكن الدفاع عنهما » .

وكتب الفيلسوف المشهور (مونتيني) Montaigne :

« إن الكفر بالله رأى مناقض للفطرة السليمة وسخيف ، ويصعب إقناع العقل بصحته مهما كان هذا العقل ضعيفاً ومضطرباً » .

وصرح (دنيس كوشان) العضو بالأقاذيميا :

« المذهب المادى قد رُفض رفضاً باتاً ، فإن المذهب الذى يفضى الى قتل الضمير ويسلب الانسان شعوره بالمسؤولية ، لا يعقل أن يكون له سلطان على العقول » .

أما المؤرخ الطبيعى الكبير (فابر) Fabre المتقدم ذكره فقد صرح بما يأتى :
« كل عهد له أهواء جنونية . فإنى أعتبر الكفر بالله من الأهواء الجنونية . وهو مرض العهد الحالى . وأيسر عندى أن ينزعوا جلدى من أن ينزعوا منى العقيدة بالله » .

بعد أن نقلنا هنا ما نقلناه من أئمة العلوم الطبيعية الخالدين من أهل العصر الحاضر ، نرى من العدل أن نأتى على آراء أئمة الملحدن فى إثارة ما هم عليه من الإنكار ، على ما عند خصوصهم من الإثبات . ولعل أكثر القراء يود أن يعرف ذلك حتى يكون فى تقديره للعلماء المؤمنين على بينة .

يعجب القراء إذا قلنا لهم إن إلحاد الملحدن لا يستند على شيء غير مرض نفسانى ، وهو تضرع منا جريء نرجو أن نقنعهم به بنقل بعض أقوالهم .

أشهر الكفار المعاصرين البيولوجى المشهور (لودانك) Le Dantec مدرس البيولوجيا (علم الحياة) بجامعة السوربون . له كتاب أسماه : (إنكار الله) قال فى صفحة ٣٨ منه :

« إن سألتني عن علل إنكارى لوجود الله ، فإنى سأفضى بها إليك فى إيجاز . ولكنى لا أخفى عنك بطلانها ، وإنى لأعتبر نفسى عاقلا حين أقول لنفسى على نحو ما فعل المسيو (دولاباليس) : إذا كنت أعتقد وجود الله ، فذلك لآنى كافر به . وهذا دليل جيد لا يمكننى أن أقيمه على عدم إيمانى . فأنى منكر لله على نحو ما أنا بروتونى (بروتون قطر فى فرنسا) ، كما يكون الانسان أسمر أو أشقر دون أن يكون قد أراد ذلك .

« وليس لدىّ حامل شخصى يحملنى على أن أدلل على أن نكران الله أحسن من أى شىء آخر ، لآنى لم أستطع أن أتذوق شيئا آخر . . .
وقد نقل العلامة الدكتور (ليون ووتى) عن الأستاذ لوداتك هذا القول وعقب عليه بقوله :

« من المحال أن يكون الانسان أوقع مما ترى ، وفى الوقت نفسه أبعد عن المنطق . .

وإليك إماما آخر من أئمة الماديين وهو الأستاذ (بوخنز) الألماني فانه قال فى كتابه انقوة والمادة :

« إن الفرض الذى مؤداه وجود قوة خالقة لا يمكن قبوله ،

قال هذا ولم يعط دليلا واحدا لإثباته . والقاعدة المقررة عند العلماء ولا يشذ عنهم الماديون : أن العلم لا يمكن أن يبنى على الفروض ، فكل قول لا بد أن تقوم على صحته أدلة محسوسة . فهل لديه دليل أو شبه دليل على أن الكون يمكن أن يوجد وتنظم كائناته بدون قدرة خالقة ؟ حقا إن هؤلاء الملحدين لا يستندون فى إلحادهم على شىء غير المزاعم الباطلة .

ولا ننسى أن نأتيك بمثال آخر من تحكيماتهم فتقتبسه من كتاب الفيلسوف هيغيل الألماني Hegel ، الموسوم بالمنطق الكبير ، وكأنه كما يقول الدكتور (ليون ووتى) وصفه بالكبير تهكما . فقد أتى فيه على نفى الخالق بدليل نعته بأنه غير قابل للدحض وهو هراء محض . وإليك هذا الدليل :

المادة شيء غير الروح .

والروح شيء غير المادة .

فهما إذن متغايران .

وإذن فهما شيء واحد .

قال الدكتور (ليون ووتى) عقب هذا الدليل : « على اعتبار أن هذا دليل لا ينقض وخاصة بوصف أنه من المنطق الكبير ، فهذا نجاح عظيم ! أما نحن فلا نرى فيه إلا شيئاً واحداً لا يمكن نقضه ، وهو أنه ضرب من الخبل فى عقل هذا العالم المادى المزعوم » .

وزاد الدكتور المذكور على هذا قوله :

« إليك مثالا آخر من الهذيان التى تعترى هؤلاء الماديين ، وهو صادر من الأستاذ (تين) Taine . ونحن إنما اخترناه لأنه صادر من فيلسوف مشهور من الملحدين . فقد قال :

« ليست المادة بشيء غير صورة وهمية . وكل جسم ليس فى حقيقته غير خيال ملون ومركز ومعين ومتحيز . فهو فى الحقيقة مجموعة قوى ، وكل مجموعة قوى ليست بشيء ، فينتج من ذلك أن الجسم الذى ليس هو فى الواقع غير مجموعة قوى ليس بشيء » .

وقد عقب الدكتور (ووتى) على هذا بقوله : ويكون قياساً على ذلك أننا لسنا بموجودين أيضاً ! إن من العبث دحض أمثال هذه الغباوات .

محمد فريد ومهدى

عيد ميلاد جلالة الملك المعظم

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر
يذيع كلمة قيمة عن هذا العيد بالراديو

يوافق اليوم الحادى عشر من شهر فبراير تاريخ ميلاد حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق المعظم ، وقد جرت العادة أن يحتفل به الشعب المصرى وحكومته احتفالا عظيما ؛ بإقامة الزينات ، ورفع الأعلام ، وتسيير المواكب ؛ فرأى جلالاته مراعاة للتأثر العام بما أصاب فلسطين ، أن يقتصر الاحتفال به على الرسميات ؛ فضرب جلالاته بهذا العمل مثلا من أروع الأمثلة على الشعور العالى ، والنظر الرفيع .

ونزولا على الإرادة الملكية السامية رأى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر أن يكتفى بإذاعة كلمة بالراديو فى هذا اليوم الأغر ، تجمع من مناقب جلالة الملك ، ومآثره الخالدة ، ما لا بد من الإشادة بذكره ، والتيمن بفسره ؛ فجاءت على إيجازها بليغة جامعة ، كان لها وقع عظيم فى نفوس المستمعين من سائر الأقطار العربية .

ونحن تيمناً بهذا العيد الكريم ننشر كلمة فضيلته ، ونضم صوتنا إلى صوته فى الدعاء لحضرة صاحب الجلالة ، بأن يطيل الله فى حياته ذخر ألامته ، وملاذاً لرعيته ، حتى يتم ما بدأه من إبلاغ بلاده سائر أمانها ، وجمع كلمة الأمم العربية ، وتوحيد جهودها ، حتى تبلغ شأواً وأئلهما علماً وعملاً ومدنية .

بسم الله وعلى بركة الله نفتتح هذا البرنامج الحافل الذى أعدته دار الإذاعة المصرية ابتهاجا بعيد الميلاد الملكى لحضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فاروق الأول ، ونسأله معها بكل قلوبنا فى الاحتفال بهذه المناسبة السعيدة التى تقدرها البلاد حق قدرها ، وتفرح بها من حبات قلوبها ، والتى تجد فيها مذكرا لها بتلك النعمة الكبيرة التى أنعمها الله على البلاد ، وهى ميلاد الفاروق العظيم .

أجل : فقد كان ميلاد جلالته طالع ين وإقبال على الأمة ، وبشير خير وإسعاد على شعب وادى النيل ، الذى وجد فيه أميرا محبوبا ، وولى عهد مبارك النقية ، ميمون الطلعة ؛ كما اقترن ميلاد جلالته بفيض من تحقيق الآمال الوطنية ، وبلوغ الأمانى القومية ، واسترداد سلطة الأمة ، واسترجاع حقوقها الدستورية ، واستكمال أهدافها السياسية .

وما كاد جلالته يعتلى أريكة الملك ، ويباشر حقوقه الدستورية ، حتى نهض بالبلاد نهضة قوية فتيحة ، وتقدم بها تقدما ملحوظا ، وخطا بها خطوات واسعة فى جميع نواحي الثقافة وأساليب الحكم ؛ فقد استقر فيها النظام الجامعى ، وارتقى فيها التعليم بكل أنواعه ، وساد فيها الحكم النيابى القائم على احترام سلطة الأمة وتمثيل رأيها ، والأخذ بنظام الشورى بينها ؛ وهكذا بعث جلالته فى كل جانب من جوانب الحياة العامة قبسا منيرا من روحه الوضاء ، فأنازل السبيل ، وعبّد الطريق ، وسما بالأمة إلى الجوزاء ، وقاد السفينة فى وسط الشدائد والأزمات كأحسن ما يقودها ربان ماهر ، ومدرّب حكيم بصير بالعواقب .

ولقد كان فى مقدمة الإصلاحات جميعها ، وفى طليعة هذه المآثر كلها ، عناية جلالته بالتعليم الدينى ، واهتمامه بجامعة السكينة ، وبمعاهده الثانوية والابتدائية ؛ فقد أولاها جميعا مزيد رعايته ، وحباها سابغ عطفه ، وكلاهما بإرشاداته السامية ، وتوجيهاته العالية ، وحاطها بعينه الساهرة على مصلحة شعبه ، ومكّن لها من أن تؤدى رسالتها على الوجه الأكمل ، وأن تقوم بواجبها آمنة مطمئة فى جلال رعايته وحمايته .

ولقد أوحى إليه دينه القوى ، وإيمانه الصادق ، وحبه للحق ، وتقديره للسلام ، وإخلاصه في العمل ، وانتصاره للعدالة ، أن يعنى بشؤون العروبة والإسلام ، وأن يجعلها في المسكان الأول من اهتمامه ؛ فوطد أواصر المودة والصداقة والمحبة بين جلالاته وبين ملوك ورؤساء الدول العربية ، وقوتى وشائج الوفاق والوئام بين أقطابها ، وربط بين قلوب شعوبها وأممها برباط وثيق من الشعور والإحساس ، وعطف على زعمائها وأبطالها اللاجئين إلى حماه عطفًا بارزا ملموسا ، وانتصر للشعوب المظلومة منها انتصارا نشاهد له كل يوم آية من آيات المجد ، ومنقبة من مناقب الشرف والفخار ، حتى لقد أصبحت كل تلك الشعوب بفضل هذه السياسة الرشيدة ، والتصرفات الحكيمة ، وهذا العقل الراجح ، والتفكير الناضج ، كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، وحتى صارت كأعضاء الجسم الواحد إذا تأثر منها عضو بشيء شاركته سائر الأعضاء الأخرى .

هذه إشارة عابرة الى بعض ما ثر جلالاته العلمية ، وأعماله الإصلاحية والعمرانية ، ومواقفه العربية والإسلامية ؛ فإذا ما انتقلنا من كل ذلك ويتمننا نحو ما عرف عن جلالاته من حرص على العدالة ، وحب للإنصاف ، واحترام للحقوق ، وتقدير للعاملين ؛ ومن بر بالفقراء ، وأخذ بيد الضعفاء ، وعطف على المحتاجين ، وتشجيع للناهضين ، وتكريم للنابعين ؛ فإننا سنجد مجال القول فسيحاً ، وميدان الكلام متسعاً .

خطب أحد فصحاء العرب بين يدي ملك عظيم ، فقال :

« إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكهم ، وأفضل الملوك أعمهم نفعا » .

وإننا إذا أخذنا هذا القول ونظرنا من ثناياه إلى أعمال مليكتنا المحبوب فاتنا لا نشك في عظمة جلالاته ، ولا نتردد في أفضليته ؛ لأن نفعه عام ، وبره شامل ، وخيره وافر ؛ ولأن أريحته يعرفها الصغير والكبير ، والغني والفقير ، ويتحدث عنها

العمال في أعمالهم، والطلاب في جامعاتهم ومعاهدهم؛ فانهم يلبسونها كل يوم فيما تجود به مكارمه العالمة، وتسخر به أياديه المشكورة .

وإذا كان النفع — كما يقول ذلك العربي البليغ — هو متماس العظمة وعنوانها، وعماد الأفضلية وقوامها، فمن غير الفاروق المحبوب يكون أهلا لها، وهو أعظم الناس نفعا لبلاده، وبراً بشعبه، وحباً على رعيته، وإخلاصاً لمصلحتها. لقد أحسنت دار الإذاعة المصرية كل الإحسان في إعدادها هذا الاحتفال بعيد الميلاد الملكي السعيد؛ فانها إذ تفعل ذلك إنما تحتفل بميلاد ملك عادل صالح مصلح، مسلم غيور مخلص، وفي ديمقراطي، ساهر على مصلحة شعبه، عامل على رقي أمته، جدير بكل حب ووفاء، وحقيق بكل إخلاص وولاء .

إننا إذ نشاركها هذا الحفل الباهر، ونشكرها على القيام بهذا الواجب، نضرع إلى الله جلّت قدرته أن يحفظ جلالة مولانا الملك المعظم، وأن يبارك في عمره السعيد المديد، وأن يسكّله بالنصر والتأييد، وأن يحوطه برعايته وتوقيه، وأن يحيه حياة طيبة مباركا فيها، تعم بنفعها العباد والبلاد .

كما أننا ننتهز هذه الفرصة السعيدة لنرفع إلى جلالته فروض التهنئة والتبريك، مع خالص الدعاء وصادق الولاء . والسلام عليكم ورحمة الله .

التوافق بين آيات الكون وآيات القرآن

قانون الأسباب والمسببات

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ

محمد عبد اللطيف دراز مدير الأزهر (*)

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرات السادة : السلام عليكم ورحمة الله .

وبعد ، فبذ قريب تحدثت من هذا المنبر العام عن « التوافق بين آيات الكون ، وآيات القرآن » ، مستدلاً بهذا على أن منزل القرآن هو خالق الكون جل جلاله ؛ وأشرت يومئذ إلى أن هذا الدليل لم يبتدعه أحد من الناس ، وإنما الله سبحانه وتعالى هو الذي لفت أنظارنا إليه ، حيث يقول ، مؤها بهذا التوافق ، وأنه برهان دامغ على أن القرآن من عند الله : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » . وضرربنا مثلاً لذلك « الوحدة » التي تتجلى في مظاهر الكون من أعلاه إلى أسفله ، ويقوم عليها نظام آياته البينات في الآفاق وفي الأنفس ، وهي نفسها سُنّة القرآن ؛ بل إن الوحدة هي أساس دعوته ، حتى لو أردت أن تجمع الإسلام في كلمة واحدة ، لما وجدت أجمع له من كلمة التوحيد ؛ فهو ينادى بوحداية الله ، ووحداية الدعوة التي نزلت بها الكتب ، وجاءت بها الرسل ؛ وينادي بوحدة الإنسانية في الأصل والعنصر ، وبوحدتها في الحقوق التي يقتضيها نظام الحياة ؛ من الحرية ، والعدالة ، والإخاء ، والمساواة .

والمثل الذي نصره اليوم على هذا التوافق بين آيات الكون وآيات القرآن

هو « قانون الأسباب والمسببات » .

وإنما اخترت هذا المثل ، لأنه — فوق فائدته العلمية النظرية — سيفيدنا فائدة أخرى عمالية واقعية . ذلك أن كثيراً من المتدينين يعتقدون أن الدين إنما يقوم على المعجزات وخوارق الآيات ، وأنه ليس من الأصل فيه أن يطرد مع السنن الكونية ، حتى لقد غالى أتباعه في بعض العصور فخطروا النظر في أصوله ، وقصروا فهمها على طائفة قليلة منهم سموها « رجال الدين » فأساءوا بذلك إلى الدين إساءة بالغة ، بما حالوا بينه وبين الناس ، بل بينه وبين مدلوله الذي يريده الله منه . فإن الدين للإنسانية عامة ، لا لطائفة خاصة منها ؛ إذ هو عقيدة الناس ، وهو شريعتهم ، ولا يتأتى أن يعتقد الناس ما لا يفهمون ، ولا أن يشترعوا شريعة تنأى بهم عن واقع الحياة . فكان ذلك أعظم سبب في عزلة الدين وإبعاده وإبعاد رجاله عن معترك الشؤون الدولية ، مع أن هداية الناس إلى الحق وإلى الاستقرار في الأرض لن تكون إلا على أساس الدين . وحيرة الإنسانية وضلالها وتآخرها الآن ، وهى في أوج المدنية والمعرفة ، خير شهيد بصدق ما نقول . والذي أريد أن أقوله : هو أن الإسلام لم يأت الناس بما لا يفهمون ، ولم يحملهم ما لا يطيقون ، ولم يخرج بهم عن واقع الحياة فيما يحسّون وفيما يفعلون ؛ فهو يسير مع الكون خطوة خطوة ، وخطرة خطرة ، يتساوقان ويتجاوبان ، كأنهما الشخص وظله ، أو الصدى وصوته ، بل الجسد وروحه ، والمادة وحياتها . وكما كانت الوحدة التي دعا إليها وحدة شاملة من أعلى عالماتها إلى نهاية مداها ، فكذلك قانون الأسباب والمسببات ، هو عنده عام شامل لا يخرج على كفته شيء ، فلا يتعاضمه كبير ، ولا يقلت من حكمه صغير .

يقول الإسلام للناس : آمنوا لتهتدوا ، وتحابوا لتسعدوا ، وافعلوا الخير لتفلحوا ، واعدلوا لتأمنوا ، وازرعوا لتحصدوا ، وتعلموا لتعرفوا ، واسعوا لتتالوا « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ؛ وينهاهم عن القعود وتمتسي الأمانى الباطلة ؛ فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ؛ وإن العزة والسعادة والمجد لا تقال بالتواكل والتواني ، والاعتماد على كرم الأنساب وشرف الأحيساب ، والتشدد بالأديان ، والتفاخر بالقوميات « ليس بأمنا نيسكم ولا أمانى أهل الكتاب ؛ من يعمل سوءاً يُجْزَ به ، ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

وهذه هي سنة الكون نفسه؛ لا بد لكل غاية من وسيلة، ولكل نتيجة من سعي، ولكل أمل من عمل، ولكل مقصد من الخير سبيله التي تهدف له وتوصل إليه. فهو إذاً قانون واحد تقرأه في القرآن كما تشهده في الأكوان، ومنطق واحد يعبر عنه الكون بلسان حاله كما يعبر عنه القرآن بمقاله «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبشكم بما كنتم تعملون». هذا هو «قانون الأسباب والمسببات» الذي أخذ الله به العالم أخذاً، كما هو الشأن في سائر مظاهر السنة الإلهية: هي محكات من الأمر لا تقض، وعزائم لا رخصة فيها لأحد، وإن كان أقرب الناس وأحبهم إلى الله «فلن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً».

وأقرب مثل يحضرنا لهذا، ما حصل للمسلمين في موقعي أحد، وبدر قبلها، حيث اختلفت الأسباب. فاختلفت النتائج تبعاً لها.

فلقد كان لهم من أسباب النصر في «بدر» على قلة عددهم وعددهم، وحده لا تنفصم غرورتها، وعزيمة لا يفل حدتها، وإيمان تنزلت عليه الملائكة من السماء، وصبر يزن به المسلم عشرة من الأعداء، وانقياد وطاعة بلغ من شأنهما أن قال المسلمون للنبي: «أما إنا لا نقول لك ما قال قوم موسى لموسى «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون» بل نقول: إنا معكم مقاتلون؛ سر بنا يا رسول الله كما أمرك الله؛ والله لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه وراءك ما تخلف منا أحد. ثم لا قوا أعداءهم على هذه الأسباب القوية، التي أمدوا بها أنفسهم، فأمدتهم الله بمعاونته وتأيسده، وكان ذلك نصراً عزيزاً اختلفت على تحقيقه لهم أسباب الأرض وأسباب السماء.

أما في أحد: فلم يكن شيء من هذا، بل كانت ظاهرة الخلاف أبرز ما كان من أمرهم؛ خالفوا الرسول في عدم الخروج إلى الأعداء — وكان عدم الخروج رأيه عليه الصلاة والسلام — ثم خالفوا أثناء السير إلى القتال: فانحذل «عبد الله ابن أبي» بثلك الجيش من أتباعه المنافقين. ثم خالفوا عن أمره أثناء القتال، فلم تنفذ فرقة الرماة أمره كما أراد، وكان إهمال هذه الفرقة هو السبب المباشر فيما أصاب المسلمين يوم أحد. وبعض ذلك فضلاً عن اجتماعه كاف في الهزيمة.

ولقد وقعت الهزيمة فعلا ، ونفذت سنة الله كما تفقد دائما ، وإن أصابت في إمضائها وقهرها أقرب الناس إلى الله ، وأعظم أهل الأرض إيمانا بالله ، محمد صلى الله عليه وسلم وجيشه من المؤمنين ؛ فقتل نحو سبعين من أبطالهم ، وكانوا هم قد أصابوا أعداءهم بمثل هذا العدد يوم بدر ، حيث قتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين ؛ فلما ارتاع بعض المسلمين للهزيمة وإن لم تخف عليهم أسبابها ، وجعلوا يتعجبون قائلين : أنى هذا ؟ وكيف نهزم وفينا رسول الله ؟ رد الله عليهم بقوله : « أو لمَّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم » ، فأتم الذين تسيتم في هذه الهزيمة بخلافكم على قائدكم ، وفشلكم في أمركم ، وعدم إخلاصكم في عزيمتكم . ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسسونهم يأذنه ، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين .

وفي هذه الواقعة نزل ذلك السياق الرائع الذى يبدأ من قول الله جل شأنه : « وإذ غدوت من أهلك تبوء المؤمنون مقاعد للقتال » ، والله سميع عليم ، إلى نحو ستين آية بعدها من سورة « آل عمران » .

وفي هذا النسق الطويل من تأديب القرآن ، وبالغ حكمته ، وبيان سنة الله في الكون ووجوب رعايتها ، ما لا يتسع هذا المجال للإفاضة فيه . ولكن حسبك منه الآن هذا البيان الجامع ، حيث يقول الله تعالى « قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للبتقين . »

حضرات السادة :

هل نجد بعد هذا من يخالف عن سنة الله عاجزاً أو جاهلاً ، ثم يسمى عجزه أو جهله توكلاً على الله وتسليماً لأمر الله ؟ وهل نجد بعد ذلك من يجمل روح القرآن وهدى الاسلام فيفسره على غير وجهه ويحملة على غير محمله !

كلبتنا لأمثال هؤلاء المتواكبين الجاهلين ، أن يتدبروا القرآن ليفقهوا معناه ؛ فإن عجزوا عن ذلك فليتركوا ما لا يفقهون . وكلبتنا إلى المسلمين عامة هي هذه الكلمة التى ساقها الله إلى الناس كافة : « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للبتقين . » والسلام عليكم ورحمة الله .

دعوى الجاهلية

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ طه محمد الساكت
المدرس بالأزهر

عن جابر رضى الله عنه يقول : « غزونا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد ثاب معه ناس من المهاجرين حتى كثروا ، وكان من المهاجرين رجل لعَّابٌ ، فمكَّسَع أنصاريًا ، فغضب الأنصاريُّ غضباً شديداً حتى تداعوا ، وقال الأنصاريُّ : يا لآنصار ! وقال المهاجرىُّ : يا للهاجرين ! فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما بالُ دعوى أهل الجاهلية ؟ ! ثم قال : ما شأنهم ؟ فأخبر بكسَّةَ المهاجرىِّ الأنصاريِّ ، قال : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : دعوها فإنها خبيثة . وقال عبد الله بن أبي ابن سلول^(١) : أقصد داعوا علينا ؟ لأن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنا الأعرث منها الأذل . فقال عمر : ألا نقتل^(٢) ؟ يارسول الله هذا الخبيث ؟ - لعبد الله - فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا ، يتحدث الناس أنه كان يقتل أصحابه . » رواه الشيخان .

ثاب : رجع ، وقيل اجتمع . لعَّاب : مزَّاح ، بصيغة المبالغة من اللعب ، وقيل كان يلعب بالحراب كما تصنع الحبشة . وكسعه كمنعه : ضرب دبره بيده أو بصدر قدمه . وتداعوا : استغاثوا ودعا بعضهم بعضاً بدعوى الجاهلية ، وهى أن يقولوا عند الحرب : يا آل فلان ، أو يا فلان ، فيجتمعوا لنصرة المستغيث ولو كان ظالماً .

لم يحرص الإسلام على شيء حرصه على سلامة الأمة ووحدتها ، وشدَّ بنيانها واجتماع كلمتها ؛ وهو لذلك يحذرها كل الحذر ، ويشفق عليها كل الإشفاق ، بما يوهن أمرها ، أو يضعف شأنها ، أو يثلم هيبتها ، أو يجرح كرامتها وعزتها . ومن تأمل قليلاً فى قواعد الإسلام ودعائمه ، وأصوله وفروعه ، وأوامره

(١) أم عبدالله بن أبي ولقد ثبت ألف ابن الثانية وينون أبى ، لأنها صفة أخرى لعبد الله لا لأبى .
(٢) روى بالنون ، وبالتاء .

ونواهيه ، وحكمه وأحكامه - وجد أسنى غاياته ، وأجل مقاصده ، أن تكون أمته
أجمع الأمم كلفة ، وأعظمها قوة ، وأرفعها مكانا .

وحسبك أن تنظر إليه وقد دعا بمختلف الأساليب وأقواها ، إلى الائتلاف
والتعاون والتحاب حتى نفي الإيمان عن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ووعد
المتحابين بأن لهم منابر من نور يوم القيامة ، وأن الله يظلمهم في ظله يوم لا ظل إلا ظله ؛
وأمر بالتواضع حتى لا يبغي أحد على أحد ؛ وأذهب عن المؤمنين بعد إذ بعث فيهم
رسولا من أنفسهم - عبية^(١) الجاهلية ونفخها بالآباء والأحساب ، فكلمهم بنو آدم
وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ؛
ورغَّب في إصلاح ذات البين ، وقال إن فساد ذات البين هي الحالقة لا أقول
تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين ! وشدد النكير على الفتن ما ظهر منها وما بطن ،
حتى لقد بلغ من نكيره على من أيقظ فتنة أو دعا إليها أن تبرأ منه حيا وميتا ،
فقال « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا
من مات على عصبية »^(٢) وقال : « من حمل علينا السلاح فليس منا »^(٣) .

وهذه قصة تبين منهجه صلى الله عليه وسلم في سياسة أمته ، وحرصه البالغ
على اتحادها وائتلافها ، والحيولة بينها وبين نزعات الشيطان ، ونزوات الشهوة ،
ومضلات الهوى .

روى أصحاب السير والمغازي أن بني المصطلق اجتمعوا لحرب النبي صلى الله
عليه وسلم ، فخرج إليهم حتى لقيهم على ماء من أمواهم يقال له المريسيح ، فهزم الله
تعالى بني المصطلق وأمكن منهم . ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من
أمرهم وردت واردة من الناس تستقي الماء وتذود الخيل والإبل ، فاشتد الزحام
حتى اقتتل أجير لعمر بن الخطاب يدعى ججهاه بن مسعود الغفاري ، وحليف لبني

(١) بضم العين وكسرهما وتشديد الباء والياء : الكبر . وهذا وما بعده اقتباس من
صحيح كتب السنة .

(٢) هي المدافعة عن العشيرة ظلما وعدوانا . والحديث رواه أبو داود عن جبير بن مطعم

(٣) رواه الشيخان عن أبي موسى وابن عمر .

عوف يسمى سنان بن مسعود الجهنى ، فصرخ الجهنى : يا للأنصار ؛ وصرخ الغفارى : يا للهاجرين ! فثارت حية ابن أبى رأس المنافقين وعنده رهط من قومه ، وقال أو قد فعلوها ؟ نأفرونا فى ديارنا وكأفرونا فى بلادنا ؛ والله مامثكلنا ومثكلهم إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ! ثم أقبل على رهطه فقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتهم بلادكم وقاسمتهم أموالكم ؛ أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم !

تنبت الفتنة ، وهاج هائج الشر ، وبلغ النبى صلى الله عليه وسلم الخبر ^(١) ، وكانت له معذرة دونها كل معذرة فى قتل رأس النفاق والشقاق وسوء الأخلاق ، ولا سيما بعد أن استأذنه الفاروق فى قتله ، ثم ابنه عبد الله رضى الله عنه لما قيل له خطأ : إن أبى صلى الله عليه وسلم يريد قتل أهلك !

لكنه صلوات الله وسلامه عليه ، وقد آتاه الله الحكمة ، وبعثه ليتعم مكارم الأخلاق ، سلك ما هو حقيق به وبخير أمة أخرجت للناس . فنهى عن العصبية ، وأخبر أنها خبيثة منتنة لا تجلب إلا الوبال والنكال وخبت الفعال ، وأخبر عمر أن قتل هذا الخبيث ليس من الخير للمسلمين ، ولا للدعوة الإسلامية ، فإن دعاة السوء سيشتيعون أن محمدا — وحاشاه — يقتل أصحابه ، لأن عبد الله بن أبى كان يظهر الإسلام والصحة ويبطن النفاق والكفر ! ثم ما أجل أن يأمر صلى الله عليه وسلم ابنه عبد الله وهو من خيرة صحابته أن يرفق بأبيه ويحسن إليه وقد هم بأن يحمل رأسه إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، حسبا للفتنة ، وسبقا إلى الطاعة ، وإيثارا لمرضاة الله ورسوله على أقرب الناس إليه وأمسهم به ! . ثم أمر صلى الله عليه وسلم بالرحيل فى وقت لم يكن يرتحل فيه ، ليشغل كل بنفسه ، ويلهو عما يضرهم نار الحقد والخصام .

(١) بلغه زيد بن الأرقم . وانظر قصته وتصديق الله إياه فى تفسير سورة « المنافقون »

وقصة أخرى لا تقل عن هذه شأنًا إن لم ترد عليها، يرويها المفسرون وأصحاب السير أيضًا. قالوا: مرقيس بن شاس اليهودي بنهر من الأوس والخزرج وهم في مجلس يتحدثون فيه فغاضه ما رأى من ألقهم وصلاح ذات بينهم في الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية؛ وكان شيخا عظيم الكفر شديد الضغينة على المسلمين، فقال: قد اجتمع ملائكة بني قَيْسِلَةَ^(١) بهذه البلاد والله ما لنا معهم إذًا من قرار! وأمر شابا يهوديا كان معه أن يذكرهم يوم بُعث^(٢) وينشدهم بعض ما كانوا يتناولون فيه من أشعار، وكان يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على بني عمهم؛ ففعل عدو الله فعلته، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا حتى تواءموا وقالوا: السلاح السلاح! فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين وقال: يا معشر المسلمين أبدوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام وقطع عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم؟ فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضا، وانصرفوا مع النبي صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين؛ فأنزل الله عز وجل «يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين». وكيف تكفرون وأتمت تلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله، ومن يعتصم بالله فقد هُدى إلى صراط مستقيم». قال جابر: فما رأيت يوما أقبح أولا وأحسن آخرًا من ذلك اليوم.

هذا قليل من كثير من دعوته صلوات الله وسلامه عليه إلى الألفة والوحدة، وجهاده في نبذ الشقاق والفرقة، وحسن بلائه في لم الشجعت وجمع الكلمة. فهل آن لأمته، ولا سيما حملة شريعته، أن يستنوا بسنته ويهتدوا بهديه؟ ولقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا.

تنبيه: وقع سهو أس ٨ ص ٢٠١ من العدد السابق «قباء» والصواب «المدينة».

حاشية: سأل بعض الأفاضل عما أُلحق بالحرمين. والخلاصة أن العلماء اتفقوا على مضاعفة الثواب لما زيد في المسجد الحرام، واختلفوا فيما زيد في الحرم النبوي، فذهب النووي وغيره إلى أن التضعيف لا يشمل، ولكن رغبته صلى الله عليه وسلم في زيادته وتحقيق أصحابه لهذه الرغبة دليل على أن المضاعفة شاملة لما زيد فيه. ولعل الإشارة في «مسجدي هذا» لإخراج المساجد المنسوبة إليه بالمدينة. وانظر: وفاء الوفاء.

(١) أم الأوس والخزرج وهما في الأصل أبناء عم.

(٢) بالعين والنون كغراب، ويثالث؟ موضع بقرب المدينة. قاموس.

العقل السليم في نظر القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحيم العدوي
شيخ معهد فؤاد الأول بأسوط

القرآن الكريم كتاب الحياة ودستور الخلود ، أنزله الله خاتماً للكتب
الساوية ، وغاية للوحى الإلهي . وهو وإن كان كتاب الإسلام الذي هو دين
الفطرة ، والذي توفرت فيه أنواع اليسر على الناس والتسهيل عليهم فيما يطلب منهم
من واجبات ، فإنه لم يعول على التقليد ، بل جعل العقل عدته فيما يدعو إليه ،
والتفكير الصحيح موثله فيما يشرع للناس ، وفيما يفرض عليهم من حقوق .
فأساليب القرآن الكريم رغم تنوعها في هداية الناس إلى الحق ، ومسالكه
في جذب النفوس إلى الصراط المستقيم رغم تشعب أطرافها وتعدد نواحيها ، كلها
تستمد سلطانها من المنطق ، وتعتمد على صحيح النظر .

فهو إذ يضع الدليل القاطع بين أيدي الناس ليقفوا على ما فيه من مقدمات
ونتائج ، يهيب بعقولهم لتفكر ، ويشير فيهم عاطفة التدبر والنظر . فإذا تناول الرد
على منكري البعث الذين يقولون « إذا كنا عظاماً ورفاتاً ألنا لمبعوثون خلقاً
جديداً ، قال لهم « كونوا حجارةً أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم ،
فسيقولون من يعيدنا ؟ قل الذي فطركم أول مرة ، ؛ ليعلموا أن من قدر على المبدأ
يقدر على المعاد ، لأنه أقرب منه منالاً ، وأقل مجالا .

وهو إذ يحول وجهه إلى مسلك آخر من مسالكه في هداية الناس فيأمرهم
بإطالة النظر في الآيات الكونية ، والتفكير في أطوار خلق الإنسان في هذه
الحياة ، يعتد بالعقل كوسيلة فعالة للوصول إلى الغايات ، وسبب قوى في الحصول
على سكون النفوس والقلقة وطمأنينة الفؤاد المشتت . ومن هذا النوع قوله تعالى :

« فليَنظر الإنسان ممّ خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ، وقوله تعالى : « أنتم أشد خلنا أم السماء ، بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دَكّاهَا ؛ أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها » وقوله تعالى « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » . ثم يتدرج معهم الى أن يصدمهم بالحقيقة الواقعة وهي أن الأصنام في مستوى دون مستواهم ، وفي أفق غير أفقهم ، فيقول : « ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيدي يطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم أذان يسمعون بها ! قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون » . وهو في كل هذه الطرق والأساليب يعول على العقل ويحكمه في كل ما يقولون وما يعملون .

والقرآن أيضا إذ يعبد للناس طريق الهداية ، ويمهد لهم سبل الرشاد ، فيضرب لهم الأمثال ليوازنوا بين الأمور ، ويفرقوا بين الحق والباطل ، ويقضوا على مدى الخائف بين الهدى والضلال ، فيقول « وما يستوى البحران ؛ هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ، يعول على العقل ، ويعتمد على تفكيره ، رغم كون الأمثال وضربها ألطف ذريعة إلى تفهيم القلوب ، وأقوى وسيلة إلى تسخير النفوس الآتية ، لأنها تصوير للمعقول بصورة المحسوس ، وإبراز للعاني في صورة الملبوس ، وإلباس المطالب الصعبة المنال ثوب المشاهد الذي لا ينسرك ، والمعلوم الذي لا يجادل فيه ؛ ولذا يقول القرآن الكريم : « وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون » .

بل إن القصص التي يسوقها القرآن الكريم للعبرة والاتعاظ لا يصل الناس الى الغرض منها إلا إذا حاطها العقل ، ولا تؤدي رسالتها إلا إذا كان الفكر رقيقا عليها : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير » .

ومن قبيح ما يسميه الناس على الهامش ، نقول : إننا لو تتبعنا آيات القرآن الكريم ، لوجدناه ينسب التفكير إلى القلوب في أكثر الأحوال وأغلبها ، فيقول : « لهم قلوب لا يفقهون بها » ، « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » ، « وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » ، « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » .

وتارة يشير إلى أن مركز العقل هو تجاويف الدماغ هنالك في المخ والمخيخ والنخاع الشوكي . ولعل استنباط ذلك من قوله تعالى « يأياها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » سهل على الناظر البصير .

وهو في الطريق الأول ينظر إلى القلب كعضو ممتاز في جسم الإنسان يوزع الحياة على أطرافه ونواحيه ، ويمده بأسباب البقاء : والرأس بما فيه مدين للقلب بنموه وبقائه ، كما يشهد بذلك الطب والتشريح .

ونظرة عجي فيما سردنا عليك من آيات ، وقصصنا عليك من حجج ، تكفيك للوقوف على مبلغ اعتداد القرآن الكريم في دعوة الناس إلى الحق ، بالعقل وتفكيره والنظر وتدبيره ، والمنطق وبراهينه . فهو لا يعول على سلطان العواطف ، ولا يعتد بالشهوات والرغبات . وإليك برهان ذلك من الكتاب العزيز :

يقول الله عز وجل لنبيه الكريم : « إنك لا تهدي من أحببت » . ويقول سبحانه وتعالى : « عبس وتولى أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، ويقول : « وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » ، ويقول : « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للبشرkin ولو كانوا أولى قربي من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم » ويقول « يأياها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك » . ويقص القرآن الكريم علينا قولة إبراهيم لأبيه « إني أراك وقومك في ضلال مبين » . ويقول الله عز وجل « يأياها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » .

ولذلك كله استباح عمر أن يخاطب عليا رضي الله عنهما حين تأخر في بيعه أبي بكر رضي الله عنه بقوله « وما منا إلا له مقام معلوم ، ونبأ ظاهر أو مكتوم ، وإن زعمت أنك قريب رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة ، فأبو بكر قريب منه قرابة ، والقرابة لحم ودم ، والقرابة نفس وروح » .

فالقرآن كما ترى لا يأبه للرغبات والعواطف ، ما دام العقل لا يؤيدها ، والمنطق لا يؤازرها . فهي رغم كونها غرائز نشأت مع الإنسان وشبت معه ، لم يعرها القرآن نظره ، بل أقام العقل عليها حارسا أميناً ، يخفف من شماسها ، ويكسر من حدتها ، ويكبح جماحها ؛ لتكون أداة خير وصلاح .

إسلام قریش فی فتح مکة لم یکن بالسيف

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعیدی
المدرس بكلية اللغة العربية

إن مما يثير أوروبا وأمريكا على الإسلام في عصرنا الحاضر، جهلهم بكثير من أصوله الحقّة العادلة؛ ومن أهم ما يجهلونه من هذه الأصول أن الإسلام لا يبيح استعمال السيف في الدعوة إليه، وإنما يدعو الناس بالحكمة والموعظة الحسنة؛ ومن أثر جهلهم بهذا الأصل ما عمدت إليه بعض المجلات الأمريكية منذ أيام، من نشر صورة نبينا الكريم في صورة زنجي راكب على فرس وفي يده سيف يهدد العالم به؛ مع أنه لم يدّع أحد إلى السلام كما دعا الإسلام إليه، إذ قال تعالى في الآية - ٢٠٨ - من سورة البقرة « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ » . وقد بلغ من حب الإسلام في السلام أن اتخذ اسمه تحية اللقاء، فلا يلقى مسلم شخصاً إلا بادره قائلاً « السلام عليكم » ، ليكون السلام شعار المسلمين، ويكون اسمه أكثر الأسماء ذكراً بينهم .

وقد تُعذّر أمم أوروبا وأمريكا في جهلها بهذا الأصل الكريم من أصول الإسلام؛ لأنها لا تجد من المسلمين من يبلغه إليها على حقيقته، ولا تجد منهم من يفهمها حقيقة الحروب التي قامت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ويبين لها أنها لم تكن لإكراه الناس على الإسلام، وإنما كانت موجهة لمن أراد فتنة أهله في دينهم، وصرفهم عنه بالقوة؛ فكانت للدفاع عن العتيدة، ولم تكن لإكراه الناس على الإيمان بها، لأنه لا إكراه في الدين، كما قال تعالى في الآية - ٢٦٥ -

من سورة البقرة : « لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي » ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والله سميعٌ عليمٌ .

بل قد تجد أمم أوروبا وأمريكا من بعض المسلمين من يزعم لها أن الإسلام انتشر بالسيف ، وأن هذه هي غايته التي يعمل لها ، فتزداد ضغنا وحقداً عليه ، وتخشى أمره إذا عادت إليه سطوته ، فتنفق كلماتها على حرب المسلمين ، وتقف حائلاً دون رجوع سطوتهم إليهم ، وهي في عصرنا ذات قوة وبأس شديد . ولو أن الإسلام انتشر بالسيف حقاً لما أهتمنا أن يكون هذا سبباً في تأليبها علينا ، ولكن الحقيقة أن الإسلام لم ينتشر بالسيف ، وأن ضرر هذا لا يقتصر على جمع كلمة هذه الأمم على حربنا ، بل يُتخذ عندها حجة على الإسلام ، لأنها تقُدس حرية الرأي والعقيدة ، ولا تبيح استعمال القوة في الإيمان بعقيدة من العقائد ؛ وهذا هو الذي جاء به الإسلام قبلها ، لأن الإيمان عنده إذعان بالقلب ، فلا يكفي فيه الإقرار باللسان من غير هذا الإذعان .

وقد كانت قريش أول من دعى من العرب إلى الإسلام ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يهتم بإسلامها أكثر من غيرها ، لأنها كانت صاحبة الزعامة الدينية في بلاد العرب ، فإذا صارت إلى الإسلام صار غيرها إليه تبعاً لها ، وقد أصرت على عنادها عشرين سنة ، حاربت فيها الإسلام أشد حرب ، وتولت زعامة القائلين بحربه من العرب ، حتى انتصر عليها في السنة الثامنة من الهجرة ، ففتح مكة في هذه السنة ، وكان قد سار إليها بجيش عظيم لم تقدر أن تقف أمامه ، فما إن دخل هذا الجيش مكة حتى بادر أهلها إلى الإسلام ، وتركوا ما كانوا فيه من عبادة الأصنام .

وهنا يدخل في ظن كثير من الناس أن أهل مكة لم يسلبوا إلا بقوة هذا الجيش ، وأنهم لو تركوا وأنفسهم لاستمروا على شركهم ، ولم يدخلوا في الإسلام دفعة واحدة كما دخلوا بعد ذلك الفتح . فإذا أردنا أن نفند هذا الظن وجب أن نرجع إلى الآيات التي أذن فيها للمسلمين بقتال قريش ، لأنها هي التي تبين لنا إن كان قتالهم لها من أجل إدخالها في الإسلام ، أو من أجل غاية أخرى غير هذه الغاية .

لقد أذن الله تعالى للمسلمين بقتال قريش في الآيتين — ٣٩، ٤٠ — من سورة الحج «أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأَنَّهُمْ ظَلَمُوا، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوَامِعُ وَيَسْعُ وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ». وهاتان الآيتان صريحتان في أن الإذن بقتال قريش لم يكن لإدخالها في الإسلام، وإنما كان لدفع ظلها عن المسلمين، لأنها فتنتهم في دينهم، وأخرجتهم من ديارهم بغير حق، وآذت من قعد به الضعف منهم فأقام بينها، ولم يهاجر إلى المدينة.

فتوالت الحروب بين قريش والمسلمين بعد الإذن في القتال لهذا الغرض من الفريقين، فقريش تريد أن ترجعهم بالقوة إلى دينها، وأن تقضى على هذا الدين الذي آمنوا به عن طواعية واختيار، وهم يريدون أن يدفعوا ظلها عنهم، ليعيشوا أحرارا آمنين في دينهم، ولم يدخل في غرضهم أن يكرهوها على الدخول في الإسلام، كما دخل في غرضها أن تسكرهم على الرجوع عنه.

وقد استمرت هذه الحروب إلى أن كانت السنة الثامنة من الهجرة، وكان بين قريش والمسلمين عقد صلح، فنقضته وحاربت حلفاء المسلمين من خزاعة، فسار النبي صلى الله عليه وسلم إليها بعد نقض هذا العهد لا ليكرهها على الدخول في الإسلام، بل ليطهر قبلة المسلمين من عبادة الأصنام، ويجعلها بيتا خالصا لعبادة الله تعالى، كما كانت في عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

وإن من أظهر الأدلة على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقصد إكراه قريش على الإسلام أنه لم يجعله شرطا فيما أعطاه من الأمان لها، بل دخل مكة من أعلاها وجيشه ينادى: من دخل داره وأغلق بابها فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. ولم يذكر في ندائه «من أسلم فهو آمن»، لأنه يريد إيمانا خالصا عن طوعية واختيار، وليس فيه شائبة قهر وإكراه.

ثم كان منه بعد هذا أن جمعهم وقال لهم : يا معشر قریش ، ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . فقال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء . فعفا عنهم عفوا مطلقا من غير قيد ولا شرط ، ولو كان قتاله لهم من أجل الإسلام لاشتراطه في العفو عنهم ، لأن من يقاتل لغاية ، يحرص على تحقيقها عند النصر ، ولا يعفو عن انتصر عليه مثل دذا العفو .

ثم كان من قریش أن أخذت بذلك النصر ، فأمنت أنه من الله ، وأخذت بذلك العفو الكريم ، فأمنت أنه لا يكون إلا من نبي ، فدخلت في الإسلام طائفة مختارة ، وبقي منها بضيع وثمانون رجلا على شركهم ، كدليل أيضا على أنها لم تؤمن بقهر أو قسر . وقد أسلم من بقي منها بعد هذا في غزوة حنين ، وكان إيمانهم بما رأوا من كرم النبي صلى الله عليه وسلم وبره بهم ، كما آمنت قریش قبلهم .

من الكلمات الطريفة

دخل ابن السماك على محمد بن سليمان بن علي ، فرآه معرضا عنه . فقال له : مالي أرى الأمير كالعقاب على ؟ قال الأمير : ذلك لشيء بلغني عنك كرهه .

قال ابن السماك : إذن لا أبالي . قال الأمير : ولم ؟ فقال ابن السماك : لأنه إذا كان ذنبا غفرته ، وإن كان باطلا لم تبهله .

وأذن رجل من بني هاشم ذنبا إلى المأمون فعاتبه فيه ، فقال : يا أمير المؤمنين من حمل مثل حالتي ، ولبس ثوب حرمتي ، ومث مثل قرابتي ، اغتفر له فوق زلتى . فقال له المأمون : صدقت يا ابن عمي وصفح عنه .

وكان سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي قد نذر إن آلت إليه الخلافة ليقطعن لسان يزيد بن راشد ، لأنه كان يطالب بخلع سليمان بن عبد الملك من ولاية العهد وإحلال عبد العزيز بن الوليد مكانه . فلما آلت إليه الخلافة دخل عليه يزيد بن راشد فجلس على طرف البساط مفكرا ، ثم قال : يا أمير المؤمنين كن كذي الله صلى الله عليه وسلم : ابتلى فصبر ، وأعطى فشكر ، وقدر فغفر . فقال له أمير المؤمنين : من أنت ؟ فأجابه : أنا يزيد بن راشد ! فعفا عنه .

أمهات المشاكل الفلسفية

عند ابن رشد

لحضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب

تمهيد :

لا ريب أن بسط الحركة الفكرية في عصر من العصور يتطلب من الباحث عرض آرائه الشخصية في تاريخ الفلسفة عامة ، وفي الأنهاج التي سلكها أهل ذلك العصر خاصة . وكلما كان للبيئة المراد درسها اتصال وثيق بنفسه ، كان ذلك أدعى إلى حذره من سلطان العاطفة ، واحتياطه من فتنة الهوى ، لتصح مقاييسه ، وتعتدل موازناته ، وتبرأ أحكامه من الخطأ بقدر المستطاع .

ولما كانت دراسة أهمية العصر ومزاياه ومظاهره الاجتماعية والسياسية ضرورة لا نزاع فيها لكشف خفايا المعضلات الفلسفية التي شغلت المفكرين في ذلك العصر من جانب ، ولما كان تاريخ الفلسفة من بعض وجوهه هو دراسة المحاولات التي قام بها الأفاضل من رجال الفكر في حل أهم المعضلات الكونية والجهود التي بذلوها في تلك السبيل والمشقات التي احتملوها من جراء إيمانهم بمبادئهم من جانب آخر ، فقد حق على كل من يتصدى لتاريخ الفكر أن يلم بهذه العوامل المؤثرة تأثيراً فعلياً مباشراً أو غير مباشر في تكوين هذا الفكر وفي تطورات ما مر به من مشكلات وحلول . ونحن على يقين من أن إلقاء الضوء على تعيين المشكلات الأساسية التي تعنى بها الفلسفة ، والطرائق التي تعرض بها تلك المشاكل على بسط البحث في العصور المختلفة ، والأسباب التي تتحدد تلك الطرائق ، والمحاولات الفردية التي قام بها كل فيلسوف على حدة ، وما إلى ذلك من بواهر النتائج العقلية — لم يكن إلا ثمرة من ثمار الموازنة بين تلك العوامل .

على أن هذه العناية بالبيئة ومؤثراتها لا ينبغي أن تُفَسَّوَتْ علينا الاهتمام بالمواهب الشخصية للمفكرين ، وبكل الأحداث التي يمكن أن تشرح منتجاتهم ، وتوضح آراءهم ، وتبطل أسباب اتجاهاتهم من الناحية النفسية البحتة ؛ وكذلك لا ينبغي

أن نغفل المظاهر المتباينة التي اتخذتها المشكلات وما تعاقب عليها من تطورات منذ أقدم العصور التي عرضت فيها ، لأن مجموعة هذه المظاهر وتلك التطورات هي التي تولف من المشكلات كيائها المتين الذي هو منشأ مغالبتها أحداث الدهر ، ومآتي بقائها على الزمن .

كانت الفلسفة الإسلامية إبان النهضة العربية تكون مع الفلسفة الإغريقية كئلا منسجما بلغ اتساقه حد الائتلاف الذي صار من العسير معه فصل أحد الإنتاجين عن الآخر ، فحمل ذلك عددا غير يسير من الباحثين القدماء والمحدثين على تقرير أن مفكرى الإسلام لا يزيدون على أنهم نقلة أو مقلدون . ولا جرم أن هذا يقتضى من المعنيين بدراسة الحركات الفكرية مضاعفة جهودهم لإمالة اللثام عن هذه الحقيقة ، وذلك لا يتيسر إلا بالوقوف على منتجات أولئك الأعلام دراسة وتحايلا ، وموازنة واستنباطا ، حتى يتبها لهم تحديد المنزلة الحقيقية التي تشغلها كل طائفة من المنتجات بإزاء غيرها ؛ وهذا هو الذى سنحاوله آملين أن نهتدى إلى كشف المكانة الدقيقة التي تستحقها الفلسفة الإسلامية بين صفوف الفلسفة العامة ؛ فإذا فرغنا من هذه المهمة عنيينا بالموازنة بين منتجات المشرق والمغرب من هذه الفلسفة ، ثم حددنا موضع كل منهما تجاه الأخرى .

بيد أنه لما كانت الفلسفة المغربية قد انتهلت من ينابيع الإغريقية الأصلية بطريقة مباشرة - إذا صح هذا التعبير - من جهة ، وسلكت في فهمها ذلك التراث وتوجيهها إياه وسائل أخرى غير التي سلكتها الفلسفة المشرقية من جهة ثانية ، وكانت في عمومها أو رتودوكسية أى أكثر ولاء لأرسطو الحقيقى ، وأشد استمساكا بآرائه الصحيحة من جهة ثالثة ، وكانت تتظاهر بأنها تتعقب ذلك الإنتاج العربى لتنتقده أكثر مما تستفيد منه من جهة رابعة ، فقد دفعنا كل ذلك إلى أن نستجيب لما لدينا من العوامل الخاصة التي حملتنا على أن نغنى اليوم بدراسة أمهات المشاكل الفلسفية عند عين أعلام الفلسفة المغربية ، وهو ابن رشد . وإليك البيان :

(١) واجب الوجود ومعرفته بالنظر

لما كان الفلاسفة الذين تقدموا ابن رشد قد أجمعوا على أن الأداة الضرورية لمعرفة البارى ولفهم أسرار الكون - فضلا عن الحكم عليها - هي المنطق

أو القنانون العقلي الذي تعصم مراعاته الذهن عن الخطأ في الفكر ، فقد كان من الطبيعي أن يتابع هذا النهج فيقرر أن معرفة مبدع السكون عن طريق التقليد من خصائص العامة ، وأنها لا قيمة لها لدى الصغرة الممتازة التي انقهرت السماء لتكون موطن الحكمة ، أو لتؤدي رسالة كشف الحجب الكونية عما وراءها من أنوار باهرة ، وأسرار ساحرة . ولا جرم أن هذا يقتضى طلب تلك المعرفة عن طريق النظر المحض ، وأن هذا النظر لا يتيسر إلا لمن درس أدوات الضرورية وهي المنطق دراسة عميقة تؤهله لاستخدامه على خير وجه حتى تكون النتائج مستبطة من أقيسة يقينية لا يتطرق إليها الارتباب . وليس هذا فحسب ، بل إنه أراد أن يخلق على النظر الفلسفي أحد نعوت القداسة ، فجح إلى محاولة إثبات أن الشرع قد أوجبه ، واستدل على دعواه هذه بذكر آيات من القرآن تحت الإنسان العاقل على التأمل في ملكوت السموات والأرض ليستنبط وجود مبدعه من النظر ، مسموا بعقله عن الإيمان التقليدي الذي هو من شأن الجماهير . وهو في هذا يقول :

« وإذا تقرر أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل في الموجودات واعتبارها ، وكان الاعتبار ليس شيئاً أكثر من استنباط المحمول من المعلوم واستخراجه منه ، وهذا هو القياس أو بالقياس ، فوجب أن نجعل نظرننا في الموجودات بالقياس العقلي ؛ وبين أن هذا النحو من النظر الذي دعا إليه الشرع وحث عليه هو أتم أنواع النظر بأنواع القياس ، وهو المسمى برهاننا . وإذا كان الشرع قد حث على معرفة الله تعالى وموجوداته بالبرهان ، كان من الأفضل أو الأمر الضروري لمن أراد أن يعلم الله تبارك وتعالى وسائر الموجودات بالبرهان أن يتقدم أولاً فيعلم أنواع البراهين وشروطها ، وبماذا يخالف القياس البرهان القياسي الجدلي والقياس الخطابي ، والقياس المغالطي ، وكان لا يمكن ذلك دون أن يتقدم فيعرف قبل ذلك ما هو القياس المطلق ، وكما أنواعه ، وما منها قياس وما منها ليس بقياس ، وذلك لا يمكن أيضاً ، أو يتقدم فيعرف قبل ذلك أجزاء القياس التي منها تتمدت ؛ أعني المقدمات وأنواعها^(١) . »

(١) انظر صفحة ٣ « من فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » لابن رشد

وعما يسترعى الانتباه ، بل مما هو جدير بالتقدير في هذا الموقف هو صعود فيلسوفنا بالباحث على درجات سلم المعرفة في أناة وتؤدة ، وسروره بوسائلها الضرورية مروراً طبيعياً ليس فيه قفز ولا وثوب ، فيبدأ بإرشاد الباحث بدياً إلى التساؤل عن علم القياس هل سبق إليه الأولون أو لم يسبقوا ، فإن كانت الثانية وجب عليه أن يحاول ابتكاره لينصبه معياراً لبحوثنا . وإن كانت الأولى فقد لزمه التنقيب في كتب الأقدمين عن مبادئ ذلك العلم الهادى إلى الحق ، فإذا عثر عليها تأمل فيها حتى يصبح قادراً على الانتفاع بها في إمطة اللثام عن معميات الوجود ، دون أن تقف مخالفة أربابها له في العقيدة حجر عثرة في سبيل الاستفادة منها ، والاسترشاد بها . ولكن ليس معنى هذا التتلذذ على الأقدمين أنه يكون عبداً لهم ، بل إن لديه أتم أنواع الحرية في قبول ما يتبين أنه الحق ، وفي رفض ما ينم عن زيف أو بطلان ؛ وتلك هى أحدث وسائل البحث ، وبها يكون ابن رشد قد سبق الباحثين العصريين إلى المناهج الحديثة بأكثر من سبعة قرون ، وهذا الامتياز البديع هو الذى يحملنا على ذكر عبارته في هذا مع ما قد يبدو في ذلك من إطالة ؛ واليك تلك العبارة :

« وإذا تقرر أنه يجب بالشرع النظر في القياس العقلى وأنواعه كما يجب النظر في القياس الفقهى ، فبيّن أنه إن كان لم يتقدم أحد من قبلنا بفحص عن القياس العقلى وأنواعه أنه يجب علينا أن نبتدىء بالفحص عنه ، وأن يستعين في ذلك المتأخر بالمتقدم حتى تكمل المعرفة به ، فإنه عسير أو غير ممكن أن يقف واحد من الناس من تلقائه وابتداءً على جميع ما يحتاج إليه من ذلك ، كما أنه عسير أن يستنبط واحد جميع ما يحتاج إليه من معرفة أنواع القياس الفقهى ؛ بل معرفة القياس العقلى أخرى بذلك وإن كان غيرنا قد فحص عن ذلك . فبيّن أنه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا في ذلك ، وسواء كان ذلك الغير غير مشارك لنا أو غير مشارك في الملة ، فإن الآلة التى تصح بها التزكية ليس يعتبر في صحة التزكية بها كونها آلة لمشارك لنا في الملة أو غير مشارك إذا كانت فيها شروط الصحة ، وأعنى بغير المشارك من نظر في هذه الأشياء من القدماء قبل ملة الإسلام ؛ وإذا كان الأمر هكذا ، وكان كل ما يحتاج إليه من النظر في أمر المقاييس العقلية قد فحص عنه القدماء أتم فحص ، فقد ينبغى

أن نضرب بأيدينا الى كتبهم فننظر فيما قالوه من ذلك ، فإن كان كله صواباً قبلناه منهم ، وإن كان فيه ما ليس بصواب نهنا عليه ^(١) .

الآن وبعد أن فرغ ابن رشد من تقرير أن النظر هو الوسيلة المثلى لمعرفة الباري ، فقد أراد الترقى بالبالحث الى مرتبة أسمي من التي انتهى منها ، وبجملها أن الشرع وسيلة الى الغاية العليا وهي الحكمة التي هي الحق والخير ، وأن الإيمان بغير هذه العقيدة ضرب من الجهل أو من الضلال ، وهو يشير الى هذا فيقول : « وينبغي أن تعلم أن مقصود الشرع إنما هو تعلم العلم الحق والعمل الحق ؛ والعلم الحق هو معرفة الله تعالى وسائر الموجودات على ما هي عليه ، وبخاصة الشريعة منها ، ومعرفة السعادة الآخروية والشقاء الآخروى . والعمل الحق هو اتمام الأفعال التي تفيد السعادة ، وتجنب الأفعال التي تفيد الشقاء . والمعرفة بهذه الأفعال هي التي تسمى العلم العملى ^(٢) . »

وإذا ، فقد بان من كل هذا أن الغاية التي ترمى إليها جميع الشرائع ، ويرنو إليها العقل البشرى فى شوق وشغف ، ويهدف إليها الفلاسفة من بحوثهم المستفيضة ، ومجهوداتهم المتواصلة — هي غاية واحدة ، وهي معرفة السر الأسسمى لهذا الوجود وما انبثق عنه من أسرار ثانوية . ولما كانت الأدلة التي أسلفها الحكماء من الإغريق وفلاسفة الإسلام الشرقيين قد اشتملت على القدر الكافى لإثبات وجوب وجود البارى ووحدانيته وكأله وسموه عن الند والشبيه والقسم والتألف والحيثيات والزمان والمكان ، والكيف والانحصار ، والتشخيص والتحدد ، وما الى ذلك مما يتنافى مع مقام الألوهية الحققة التي تقتضى أرفع مراتب التنزيه ؛ ولما كانت أدلة ابن رشد على هذا كله لا تكاد تعدو ما أتى به أولئك الأعلام فى هذا الصدد ، فقد اعتبرناها غير مبتكرة . ولهذا رأينا الإغضاء عنها هنا اكتفاء بما سبقها من منتجات أسلافه ، وركزنا اهتمامنا فيما بدا فيه تجديد ابن رشد ناصعاً جلياً ، وموعدنا المقال الآتى .

(١) راجع صفحتى ٤ و ٥ من كتاب « فصل المغال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » لابن رشد .

(٢) ارجع الى صفحتى ١٨ و ١٩ من المرجع السابق .

هل بعث الرسول الى الجن

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ حسن حسين
المدرس في الأزهر

المستفيض على السنة العلماء في كتب الشريعة الإسلامية أن الله تعالى بعث رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم إلى الجن كما بعثه إلى الإنس . وهناك روايتان مشهورتان في هذا الموضوع : رواية « ابن مسعود » ، ورواية « ابن عباس » سند كرهما ، ونذكر أقوال العلماء فيهما ، بعد أن نبين أن بعض الفرق أنكر وجود الجن إطلاقا ، وأن العلماء حكموا عليهم بالكفر ، ونبين آراء الذين أثبتوا وجود الجن من ناحية أنهم أجسام ، أو حالوّن في الأجسام ، أو أنهم قوى خفية ، إلى غير ذلك مما يتصل بهذا الموضوع اتصالا وثيقا ، فنقول :

أنكر بعض الفلاسفة ، والمعتزلة ، والقدرية ، وبعض أهل الكتاب ، وجود الجن إطلاقا . وهؤلاء لا يشملهم بحشا ، لأن بعثة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الجن إنما تكون حيث يوجد الجن ولا وجود لهم في نظر هؤلاء . وقد حكم العلماء على هذه الطوائف التي أنكرت وجود الجن بالكفر ، لمصادمة آرائهم صريح القرآن الكريم : « قل أوحي إلىّ أنه استمع نفرّ من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا » ، إلى آخر سورة الجن . وقوله تعالى في سورة الاحقاف : « وإذ صرّفنا إليك نفرّا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيئوا داعي الله ، إلى آخر الآيات الواردة في الجن في هذه السورة الكريمة ، وقوله تعالى في سورة الحجر : « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون . والجنان خلقناه من قبل من نار السموم » ، إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي تثبت وجود الجن صراحة .

ولمصادمة آرائهم أيضا ما وقع عليه إجماع طوائف المسلمين ، وعلى رأسهم الصحابة والتابعون ، مما يكاد يكون معلوما من الدين بالضرورة .

ولما عرّف الشيخ الرئيس ابن سينا « الجن » في رسالته التي ألفها في حدود الأشياء بأنه : حيوان هوائي «تشكل بأشكال مختلفة ، وقال « هذا شرح للاسم » ، فهم العلماء أن ابن سينا ينكر حقيقة الجن ، وأنها ليس لها وجود في الخارج ، إذ لو كان لما عدل عن تعريفها إلى شرح اللفظ . وعندى أنه استنتاج من العلماء ، فإن الرئيس لم يصرح بنفي الحقيقة والماهية ، وإنما اكتفى بشرح الاسم ، وهذا لا يعني حتما اعتقاده نفي الوجود الخارجي . ولم لا يجوز أن يكون سلك هذا السبيل لعدم معرفته ذاتيات الجن ؟ ومعلوم أن تعريف الشيء بحقيقته وماهيته فرع العلم بذاتيات الماهية .

ولا شك عندى أن الصيرورة إلى هذا أفضل من أن نخسر ابن سينا في زمرة المنكرين المحكوم عليهم بالكفر .

هذا وقد أثبت وجود الجن طوائف المسلمين على اختلاف طبقاتهم ، وتواتر ذلك عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، وعن التابعين وعلماء أهل الكتاب وأتباع الرسل السابقين ، ومشركي العرب وغيرهم ، مما صار مشهوراً مستفيضاً متواتراً .

وافترق المثبتون إلى فرقتين : فرقة ترى أنها ليست أجساما ولا حالة في الأجسام ، وإنما هي جواهر قائمة بأنفسها كالأرواح ، إلا أن أنواعها مختلفة بالماهية ؛ فبعضها خيرة ، وبعضها شريرة ، وبعضها كريمة محبة للخير ، وبعضها دنية محبة للشرور والآفات . وأصحاب هذا الرأي لا يجدون مانعا من أنها تتعلق وتصل ببعض أجسام هذا العالم — البشر — ما دامت كالأرواح .

وفرقة ترى أنها أجسام خفية عاقلة تغلب عليها النارية ، كما يشهد له قوله تعالى : « وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ » وهي قابلة للتشكل بأشكال مختلفة تُرى بصور غير صورها الأصلية ، ولا يراها بصورها الأصلية إلا الأنبياء عليهم السلام . وخواص الخواص من المؤمنين .

وأصحاب هذا الرأي انقسموا إلى فرقتين : إحداهما تقول : إن هذه الأجسام مشتركة في كونها حاصلة في الحيز والمكان والجهة ، وموصوفة بالطول

والعرض والعمق ، ومختلفة في ماهيتها ؛ لأن الاشتراك في الصفات لا يقتضى الاشتراك في تمام الماهية . وثانيتهما تقول : إنها مشتركة في الصفات ، ومتساوية في تمام الماهية .

وقد وُجّه إلى أصحاب هذا المذهب (مذهب المجسّمة) ، وإلى أصحاب المذهب الأول (مذهب القوى الخفية) ، اعتراضات كثيرة وجدل عنيف ، ومناقشات حادة قاموا بدفعها والردود عليها ، ولو نقلناها هنا لظال بنا المقام .

والذى يعيننا في هذا البحث هو أن الجن موجود ، سواء كان 'قوى' ، أو 'أجساما' : فإن بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم تنوقف على وجودهم كما أسلفنا .

وهناك في هذا الموضوع مذهبان مشهوران : مذهب ابن عباس ، ومذهب ابن مسعود .

مذهب ابن عباس :

يلخص في أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبعث إلى الجن ، ولم يأمره الله بتبليغهم ، وإنما استمع الجن للقرآن الكريم صدقة واتفاقاً فآمنوا به ، وكان استماعهم له أثناء مرورهم بناحية عكاظ للبحث عن السبب الذى منعهم من استراق السمع من السماء ؛ وذلك أن الجن والشياطين كانوا — فى المدة الواقعة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام — يسترقون السمع ويخطفون الخطفة من ملائكة السماء ويبلغونها للكهنة ، فتضيف الكهنة على الكلمة الصادقة مائة كذبة ، كما ورد فى صحيح البخارى ؛ فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، رُميت بالشبه ، ومُنعت من استراق السمع ؛ وذلك ما حكاه الله عنهم فى سورة الجن « وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا هَامُوءَةً تُمْلِئُ الْحَرَسَاءَ شِدِيداً وَشِبَاءً . وَأَتَاكُنَا تُقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ السَّمْعِ ، فَتَنُ سَمِعَ الْآنَ يَجِدُ لَهُ شِهَاباً رَصَدًا . وَأَنَا لَا نَذْرَى أَشْرَئُ أَرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا . فَالْتَفَتُوا حَوْلَ إِبْلِيسَ وَشَكُوا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ أَمْرِ السَّمَاءِ ، فَفَرَقَهُمْ طَوَائِفَ وَأَمْرَهُمْ أَنْ يَطُوفُوا حَوْلَ الْأَرْضِ كُلِّهَا لِلْبَحْثِ عَنْ هَذَا الْخَبَرِ الْعَظِيمِ ؛ فَاتَّفَقَ أَنْ مَرَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ جِهَةَ عَكَاظَ ، وَكَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي الصُّبْحَ بِأَصْحَابِهِ وَيَجْهَرُ

بالقراءة ، فاستمع له الجن وقالوا : هذا والله هو الذى منعنا من أمر السماء ! ثم ولوا إلى قومهم منذرين ، دون أن يعلم الرسول من أمرهم شيئاً حتى أخبره الله بقوله « قل أوحى » الخ .

وإليك نص رواية البخارى عن ابن عباس : قال البخارى فى باب تفسير سورة قل أوحى : حدثنا موسى بن اسماعيل ، حدثنا أبو عوانة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال : انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين فقالوا : ما لكم ؟ قالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب . قال : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث ؛ فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فانظروا ما هذا الأمر الذى حدث ؟ فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هذا الأمر الذى حال بينهم وبين خبر السماء ؟ قال : فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنخلة وهو عامد إلى سوق عكاظ وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن تسمّعوا له ، فقالوا : هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء . فهناك رجعوا إلى قومهم ، فقالوا : يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشd فأمنّا به ولن نشرك بربنا أحداً . وأنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن » ، وإنما أوحى إليه قول الجن اه . هذه رواية البخارى بنصها عن ابن عباس . وقد رواها غيره بزيادات ، وسند كرا أقوال العلماء فى مذهب ابن عباس بعد أن نبين مذهب ابن مسعود .

مذهب ابن مسعود :

هو صريح فى أن الله تعالى أمر محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يبلغ الجن ، وأنه صلى الله عليه وسلم رسول إلى الجن كما هو رسول إلى الانس ، وأن الجن مكلفون بأصول الشريعة وفروعها كالانس سواء . فقد جاء فى رواية عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أمرت أن أتلو القرآن على الجن » . وفى رواية أخرى عنه « أرسلت إلى الجن » . وهذا صريح فى أنه صلى الله عليه وسلم بعث إلى الجن .

واسمع رواية ابن مسعود بنصها : قال ابن مسعود : قال عليه الصلاة والسلام :
 « أمرت أن أتلو القرآن على الجن ، فمن يذهب معي ، ؟ فسكتوا ، ثم قال الثانية
 فسكتوا ، ثم قال الثالثة ، فقال عبد الله : قلت : أنا أذهب معك يا رسول الله .
 قال : فانطلق حتى إذا جاء الحُجُون عند شعب أبي دب ، خط على خطأ فقال :
 لا تجاوزه . ثم مضى الى الحجون ، فأنحدروا عليه أمثال الحجل كأنهم رجال الزُّط
 يقرعون في دفوفهم كما تفرع النسوة في دفوفها حتى غشوه ، فغاب عن بصرى ،
 فقممت ، فأومأ الى يده أن اجلس : ثم تلا القرآن ، فلم يزل صوته يرتفع ،
 ولصقوا بالأرض حتى صرت أسمع صوتهم ولا أراهم ، فلما عاد الى قال : أردت
 أن تأتيني ؟ فقلت : نعم يا رسول الله . قال : ما كان ذلك لك : هؤلاء الجن أتوا
 يستمعون القرآن ، ثم ولوا إلى قومهم منذرين اه .

وروى أبو داود عن علقمة عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم ،
 قال : أتاني داعي الجن فذهبت معه وقرأت عليهم القرآن : قال : وانطلق بنا
 وأرانا آثارهم وآثار نيرانهم . وفي شرح البيهقي من طرق شتى عن ابن مسعود
 أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى العشاء ثم انصرف فأخذ يبدى حتى أتينا مكان
 كذا . وفي آخر هذه الرواية ما نصه : فقلت : أين كنت يا رسول الله ؟ فقال :
 « أرسلت الى الجن ، فقلت : ماهذه الأصوات التي سمعت ؟ قال : هي أصواتهم حين
 ودّعوني وسلّوا على اه .

من هذه الروايات يتبين لك منها أيها القارئ الكريم ، أن الله تعالى أرسل
 محمدا صلى الله عليه وسلم الى الجن كما أرسله الى الإنس ، وأنه أمره بأن يتلو
 عليهم القرآن ، وأن بعض الجن مؤمن وبعضهم كافر ، مثلهم في ذلك مثل الإنس .
 انظر الى قول الله تعالى حكاية عنهم في سورة الجن : « وأنا لما سمعنا الهدى آمنا
 به فنؤمنُ بربه فلا نخافُ بخساً ولا رهقاً . وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون ،
 فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً . » وثبتت
 آيات الاحقاف بأن من الجن دعاة الى هداية قومهم . انظر الى قوله تعالى :
 « قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي الى
 الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم

وَيُجْرَمُ مَنْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ . وَمَنْ لَا يُجِبُ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

وبعد ، فاعلم أيها القارى الكريم أن الذى عليه المعول لدى العلماء إنما هو مذهب ابن مسعود الموافق لصريح القرآن الكريم ، وأن مذهب ابن عباس لا يتنافى مع مذهب ابن مسعود ، فإن ما ذكره ابن عباس وقع أولاً ، فأوحى الله تعالى الى الرسول « قل أوحى إلى » . ثم أمر بعد ذلك بالخروج إليهم . وقد قال العلماء : إن واقعة الجن تكررت ست مرات ، وإن الواقعة التى رواها ابن عباس كانت أول الوقعات ، فإنها كانت قبل الهجرة بثلاث سنين .

ونحنى ابن عباس بعث الرسول إلى الجن ليس على إطلاقه ، وإنما هو خاص بهذه الواقعة الأولى فقط . وحاشا ابن عباس أن يخالف صريح القرآن . ومتى أمكن الجمع بين الروايات وجب الجمع ، كما أسلفنا .

ويقول العلامة ابن تيمية : إن ابن عباس علم ما حكاه القرآن ولم يعلم ما عليه ابن مسعود ، فإن الواقعة الأولى التى رواها ابن عباس وقعت فى وقت كان ابن عباس فيه شاباً حدثاً ، لأنه لم يناهز الحلم إلا فى حجة الوداع . ومهما يكن من شيء فالواقعة تكررت . وهذا هو سبيل الجمع بين الروايات .

وقبل أن أختم هذا المقال أود أن ألفت النظر إلى ما فى قول الله تعالى : « قل أوحى إلى » ، الآية من أسرار - ففيها :

(١) أن الصحابة عرفوا أنه عليه الصلاة والسلام بعث إلى الجن كما بعث إلى الإنس .
(٢) توبيخ قريش بأن الجن مع ترمدهم لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه فآمنوا به ولم يعاندوا كما عاندت قريش .

(٣) أن يعلم القوم أن الجن مكلفون كالإنس .

(٤) أن الجن يسمعون كلامنا ويفهمون لغاتنا .

(٥) أن فيهم مرشدين يدعون أقوامهم إلى التوحيد . وفى آيات الاحقاف ما يدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم رأى الجن وكلهم ودعاهم إلى الإسلام وجعل منهم رسلاً إلى أقوامهم .

وفقنا الله جميعاً إلى ما فيه الرشاد .

نظرية الارتكاب بالترك في الشريعة الإسلامية وفي القانون المقارن

لحضرة الأستاذ المحترم الدكتور أحمد محمد إبراهيم
من وكلاء النيابة العمومية

بيّنا فيما تقدم معنى نظرية الارتكاب بالترك والآراء المختلفة في حكمها ، ويجدر بنا قبل أن نبين حكم هذه النظرية في الشريعة الغرام ، أن نذكر أن الحكم التكليفي الذي قد يوجب العقاب إما أمر وإما نهى . فعدم طاعة الأمر هو الجريمة السلبية ، وارتكاب ما نهى عنه هو الجريمة الإيجابية ؛ وقد عبر عن ذلك مؤلف كتاب مدين الأحكام بقوله : « والعقوبة تكون على فعل محرم ، أو ترك واجب أو سنة أو فعل مكروه ^(١) » . ومثال الجريمة الإيجابية في الشريعة : القتل والسرقة والزنا وقطع الطريق . ومثال الجريمة السلبية : امتناع المدين الموسر عن سداد دينه ، وعدم إقامة المسلم الصلاة ، وامتناعه عن إيتاء الزكاة .

ولما كانت الأمثلة التي ذكرها فقهاء الشريعة ، فيما يسمى بنظرية الارتكاب بالترك ، قد وردت عند كلامهم على جريمة القتل ، فيحسن أن نوضح ماهية الوسيلة القاتلة في المذاهب المختلفة ، لأنها محل خلاف بينهم ؛ وليس الارتكاب بالترك إلا وسيلة من وسائل القتل .

يرى الامام أبو حنيفة أن الآلة المستعملة في القتل يجب أن تكون محددة ، أى مفرقة للأجزاء ؛ فإن لم تكن كذلك فلا يعتبر القتل عمداً . واعتبر الصحابان الآلة قاتلة إذا كانت لا تلبث ، أى لا تحتملها النفس .

ويرى الشافعي وأحمد أن أى وسيلة قاتلة تجعل القتل عمداً ، ولو لم تكن محددة . ومذهب مالك أن القتل يعتبر عمداً متى كانت الآلة قاتلة ، سواء كان الاعتداء على سبيل القتل أو اللعب . أما إذا كانت الآلة غير قاتلة فيعتبر القتل خطأً إن كان الاعتداء على وجه اللعب أو التأديب ؛ فإن كان عداوة فالقتل عمداً .

وعند أهل الظاهر يعتبر القتل عمدا إذا كان نتيجة اعتداء يمتد من مثله ،
أو لا يمتد من مثله . أما ما لا يموت من مثله أحد أصلا فليس عمدا ولا خطأ ،
ولا شيء فيه إلا الأدب ^(١) .

وفيا إلى بعض أمثلة الارتكاب بالترك التي ذكرها الفقهاء وبيان حكمها :
إذا حبس المجنى عليه في مسكان ومنع عنه الطعام والشراب مدة لا يبق فيها
حتى يموت ، فعلى الحابس القود عند أحمد والشافعي ومالك ، لأن الحبس مع منع
الطعام والشراب يقتل غالبا ؛ وترتب القتل على ذلك يختلف باختلاف الأشخاص
والظروف ؛ فإذا كان الشخص عطشا في شدة الحر مثلا ، مات في الزمن القليل ^(٢)
والحكم كذلك إذا منعه الدفء وكان البرد يقتل غالبا ^(٣) .

وفي مذهب مالك ذكر ابن يونس عن بعض القرويين ، أن من منع فضل
مائه مسافرا عالما بأنه لا يحل له منعه ، وأنه يموت إن لم يسقه ، قتل به ، وإن لم
يل قتله يسيده . وظاهر ذلك أنه يقتل به سواء قصد بمنعه قتله أو تعذيبه ^(٤)
وعنده أيضا - حيث يقتل الأصل بفرعه خلافا لجمهور الفقهاء - نص على أنه إذا
منعت الأم ولدها الرضاع حتى مات ، تتمثل إن قصدت قتله ^(٥) . وفي مذهبه أيضا
أنه إذا أمر شخص آخر بقتل ثالث ، فيقتنص من المباشر دون الأمر إلا إذا كان
حاضرا فيقتل أيضا لقدرته على خلاصه ^(٦) .

وجاء في الفتاوى الكبرى (في مذهب الشافعي) أنه إذا حضر نساء ولادة
ذكر ، فقطعت إحداهن سرته من غير ربط ، ونهاها الباقيات ، فمات بعد القطع
بقليل ؛ فإن كان يقتل غالبا فيجب القود عليها . ولو قيسل بوجوب القود على
الجميع إذا لم يرين الربط ، لم يبعد ؛ لأن المهلك ترك الربط ، ولأن البرء موثوق به

(١) راجع مؤلفنا « القصاص » ص ٤١ وما بعدها والمراجع للشارح إليها .

(٢) الشرح الكبير - ٩ ص ٣٢٨ . المهذب - ٢ ص ١٨٨ .

(٣) كشف القناع - ٣ ص ٣٣٦ . شرح المنتهى - ٣ ص ٣٦٧ .

(٤) حاشية المسوق - ٤ ص ٢٨٥ . حاشية الصاوي - ٢ ص ٣٤٦ .

(٥) شرح الدردير الكبير - ٤ ص ٢٨٥ .

(٦) شرح الحرثي - ٨ ص ١٢ .

لوربط في العادة المطردة ، فالهلاك ينسب إليهن كلهن فيلزمهن القود ، وإلا فدية العمد ^(١) .

وعند الأخناف : لا قود أصلا في الارتكاب بالترك ^(٢) .

ولعل أكبر أنصار الارتكاب بالترك ، ودافعيه الى أبعد حدوده ، هو أبو محمد ابن حزم . وننقل هنا كلامه بحروفه :

« ٢٠٩٧ — مسألة : من استسقى قوما فلم يسقوه حتى مات » .

« قال علي : رويانا من طريق أبي بكر بن أبي شيبة أخبرنا حفص بن غياث عن الأشعث عن الحسن ، أن رجلا استسقى على باب قوم فأبوا أن يسقوه ، فأدركه العطش ؛ فضمّهم عمر بن الخطاب ديته .

« قال أبو محمد : القول في هذا عندنا ، وبالله تعالى التوفيق ، هو أن الذين لم يسقوه إن كانوا يعلمون أنه لا ماء له البتة إلا عندهم ولا يمكنه إدراكه أصلا حتى يموت ، فهم قتلوه عمداً وعليهم القود بأن يمتنعوا الماء حتى يموتوا ، كثروا أم قلوا . ولا يدخل في ذلك من لم يعلم بأمره منهم ، ولا من لم يمكنه أن يسقيه . فإن كانوا لا يعلمون ذلك ويقدرّون أنه سيدرك الماء ، فهم قتلة خطأ ، وعليهم الكفارة ، وعلى عواقلم الدية ولا بد . برهان ذلك قول الله تعالى « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » ، وقال تعالى « والحرمات قصاص » . وبيّين يدرى كل مسلم في العالم أن من استسقاها مسلم وهو قادر على أن يسقيه فتعمد ألا يسقيه الى أن مات عطشا ، فإنه قد اعتدى عليه بلا خلاف من أحد من الأمة . وإذا اعتدى فسواجب بنص القرآن أن يعتدى على المعتدى بمثل ما اعتدى به ، فصح قولنا يبين لا إشكال فيه . وأما إذا لم يعلم بذلك فقد قتله ، إذ منعه ما لا حياة له إلا به ، فهو قاتل خطأ ، فعليه ما على قاتل الخطأ .

« قال أبو محمد : وهكذا القول في الجائع والعارى ولا فرق ، وكل ذلك عدوان . وليس هذا كمن اتبعه سبع فلم يؤووه حتى أكله السبع ؛ لأن السبع هو القاتل له ، ولم يمت من جنائهم ولا بما تولد من جنائهم . ولكن لو تركوه

(١) الفتاوى الكبرى - ٤ ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٢) ابن عابدين - ٥ ص ٥٣٦ .

فأخذ السبع وهم قادرون على إنقاذه فهم قتلة عميد ، إذ لم يمت إلا من فعلهم ؛ وهذا كمن أدخله في بيت ومنعوه حتى مات ، ولا فرق ^(١) .

وهكذا نرى فقهاء الشريعة الغراء قد سبقوا العالم في الكلام عن الارتكاب بالترك ، وإن لم يعرفوا هذا الاسم . وظاهر أنهم قالوا بالنظريات الحديثة المختلفة ؛ فلا يعتبر القتل بهذه الوسيلة موجبا للقصاص في مذهب أبي حنيفة . وأجاز البعض القصاص متى كان على الإنسان واجب قانوني كحالة الأم التي تمنع عن إرضاع ابنها ، أو كان عليه واجب أو جبه بفعل نفسه كحالة من يحبس آخر ويمنع عنه الطعام والشراب . بل وقال البعض بالقصاص ولو كان على المرء واجب تمليه الإنسانية ، كامتناع شخص عن إعطاء من هو على وشك الموت جوعا فضل طعامه . وعلة هذا التوسع الأخير ترجع الى أن الشريعة الغراء توجب على الناس أن يتعاونوا ، وأن يساعد كل واحد منهم أخاه قدر طاقته ، وإلا كان آثما . وإن مجتمعا يقوم على هذه الأسس لهو خير مجتمع يمكن أن تراه البشرية .

ونحن نرى ضرورة العقاب في حالة الارتكاب بالترك ، ولو لم يكن على الممتنع إلا واجب تمليه الإنسانية وتقتضيه المروءة ، إذا كان قيامه بهذا الواجب لا يعود عليه مه ضرر يذكر ، فلم لا يعد قاتلا ذلك الذي يرى شخصا على وشك الغرق ويمتنع عن إلقاء حلقة النجاة التي في يده للغريق قاصدا غرقه ؛ أو ذلك الذي يمتنع عن إعطاء شخص على وشك الموت من الظمأ جرعة من الماء ؟ فمثل هذه النفوس التي تضن بتقديم مساعدة لا يعود عليها منها ضرر يذكر ، ويترتب عليها قتل نفس حية ، يجب أن يعدها القانون خطرة ، وأن يعاقب صاحبها .

فالشريعة الغراء توجب التكافل والتعاون بين الناس . ولا أدل على ذلك

(١) المحلى ج ١٠ ص ٥٢٢ - ٥٢٣ - ونص في مذهب أحمد في باب الهدية على أنه لا ضمان على من رأى إنسانا في مهلكة فلم ينجه منها مع قدرته على ذلك ، وقد أساء ، لأنه لم يهلكه ولم يكن سببا في هلاكه (المغني ج ٩ ص ٥٨١) وظاهر من هذا التعليل أنه يوافق ما تقول .
به النظرية الفرنسية من عدم توافر رابطة السببية بين الامتناع والنتيجة .

مما نص عليه الفقهاء من أنه إذا نزلت بشخص مخضعة ووجد مع رجل طعاما ، فامتنع عن إطعامه ومن مساومته ، فإن له أن يقتله ، ولا شيء عليه إن قتله ^(١) .
وقد حكى أبو يوسف رحمه الله تعالى ، في كتاب الخراج ، أن قوما وردوا ماء فسألوا أهله أن يدلوهم على البئر فلم يدلوهم عليها ؛ فقالوا : إن أعناقنا وأعناق مطايانا قد كادت تنقطع من العطش ، فدلونا على البئر وأعطينا دلو نستقي بها ؛ فلم يفعلوا . فذكروا ذلك لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال : فهلا وضعتم فيه السلاح ^(٢) ! .

أما إذا كان على الممتنع واجب يلزمه به القانون كحالة رجل الشرطة المكلف بحفظ الأمن ، أو يلزمه به الاتفاق كحالة من يتعاقد على قيادة كفيف ، أو أوجه على نفسه بفعله كحالة من يحبس شخصا ويمنع عنه الطعام ؛ فنرى عقاب الممتنع ، ولو كان قيامه بالمساعدة يترتب عليه ضرر جسيم ، لأنه بحكم وجوده في هذا المركز التناونى أو التعاقدى أو الواقعى يعد قابلا لحمل كل النتائج التى تترتب على عدم قيامه بواجبه .

وعلى هذا فإذا أدى الامتناع الى القتل ، وكان الممتنع قاصدا القتل ، فإنه يعاقب بعقوبة القاتل عمدا ؛ أما إذا لم يقصد قتلا فيعد قاتلا خطأ .

وفضلا عما تقدم فيجب أن تكون هناك بين الامتناع والجريمة رابطة السببية ، وقد سبق أن ذكرنا أن العلماء فى فرنسا يستمدون الى القول بانتفاء رابطة السببية تأييدا لرأيهم فى القول بعدم العقاب على الارتكاب بالترك . والواقع أن المسألة دقيقة ، وتزداد دقة إذا تدخلت إرادة أخرى فى إحداث النتيجة التى حدثت ، بأن ارتكبت الفعل المادى للجريمة ؛ كحالة من يرى شخصا بهم يقتل آخر فيتركه يتم جريمته رغبة منه فى موت المجنى عليه .

واضح من هذا المثال أن القتل تم نتيجة لإطلاق العيار النارى مثلا ، والسببية بين هذا الفعل وبين النتيجة سببية مباشرة ، فى حين أن الصلة بين الامتناع عن المساعدة والقتل غير ظاهرة تماما ؛ ولكن المعيار الذى نرى الأخذ به لتحديد

(١) معين المحاكم ص ٤٢ - تفسير القرطبي ص ٢٠٥ (٢) راجع كتاب المعاملات الشرعية لاساتذنا المرحوم احمد بك ابراهيم ص ٢١ وما بعدها .

الحالات التي يعاقب فيها الممتنع والتي لا يعاقب فيها ، يجعلنا نقرر وجود علاقة سببية بين الامتناع وبين النتيجة التي حدثت ، وهذا المعيار هو أن الممتنع لا يعاقب إلا إذا كان قادرا على منع الجريمة ، ولو حاول منعها ما حدثت . أما إذا لم يكن في قدرته أن يمنعها فلا يعاقب على امتناعه . فمن يرى شخصا على وشك الغرق ويسر لموته ، لا يمكن أن يعتبر قاتلا عمدا إذا تبين أنه لا يحسن السباحة ، وأنه لم يكن في وسعه أن ينقذه بطريقة أخرى . مثل هذا الشخص لا يمكن اعتباره قاتلا بالامتناع لأنه لم يمتنع في الحقيقة عن شيء ، وبذا لا تكون هناك علاقة بين امتناعه وبين الغرق . وكذلك من رأى شخصا يريد قتل آخر فلم يمنعه ، ولو تدخل لما كان لتدخله أثر على تمام الجريمة ، مثل هذا أيضا لا يعتبر قاتلا ؛ لأن تدخله وعدم تدخله يستويان في النتيجة ؛ أما إذا كان تدخله كفيلا بمنع ارتكاب الجريمة ، وامتنع عن التدخل قاصدا حصول هذه النتيجة ، فصلة السببية موجودة ، على ماسبق أن أوضحنا عند مناقشة النظرية الفرنسية .

ونرى أن هذه القاعدة لا تسرى إلا على الجرائم التي يمكن أن يتعدد مرتكبوها . ذلك أن هناك جرائم لا تقبل بطبيعتها أن يتعدد مرتكبوها ، فإذا ارتكبت جريمة من هذا النوع ، فلا يمكن أن تنسب إلا إلى من ارتكبها وإليه وحده . ومن الأمثلة على ذلك جريمة الزنا وشرب الخمر ؛ فالزنا هو الوطء في غير حلال ، ولا توجد الجريمة التامة إلا بالوطء ، والوطء لا يمكن حصوله في محل واحد وفي وقت واحد إلا من شخص واحد ، فمن غير المتصور أن يزني شخصان بامرأه واحدة في وقت واحد . وكذلك لا يعد شاربا للخمر إلا من يشربها فعلا ؛ لأن الجريمة لا توجد إلا بدخول الخمر الفم ، ومن المستحيل أن يشرب شخصان جرعة واحدة من الخمر في وقت واحد . وعلى عكس ذلك يجد أن تعدد الجناة أمر عادي في جريمة القتل ؛ فقد يطعن أكثر من شخص المجنى عليه في وقت واحد فيقتلونه .

وعلى ذلك فإذا امتنع شخص عن منع ارتكاب جريمة لا تقبل بطبيعتها تعدد الجناة ، فإنه لا يعد مرتكبا لها ؛ وذلك لاستحالة ارتكاب شخصين لها في وقت واحد . ويجب أن يوضع نص قانوني خاص يحدد العقاب في هذه الحالة .

لغويات

التقاوى

تطلق كلمة « التقاوى » فى لسان عامة المصريين على البذور تبذر للزراع . ولا تراهم ينطقون لها بواحد ، فاسمعنا لها منهم مفردا . وقد حرّصتُ منذ دهر على أن أقف على حقيقة هذه الكلمة ومأتاها اللغوى ، فلم يردلى فيما وقفت عليه من المعاجم شئ يشفى الغلة وينقع الصدى . ففى المعاجم أن التقاوى مصدر تقاوى الشريكان إذا تزايدوا فى الشرك بينهما . وذلك أن يكون بين الرجلين دار مثلا فيقومّاهما ، ليشترى أحدهما نصيب الآخر . ومناسبة هذا لما عرف فى هذه الأيام لا تكاد تبين . وقد وُفقت إلى أن أهتدى إلى أصلها إن شاء الله . فقد جرى عرضاً فى بعض حديث أستاذنا الحجة الثقة الشيخ إبراهيم حمروش ذكر التقاوى ، فذكر — حفظه الله — أن هذا الاستعمال يرجع إلى عهد رأس الأسرة العلوية الحاكمة فى مصر : محمد على الكبير . ذلك أنه كان يعطى الفلاحون من أهراء السلطان ومخازن الولاية ما يعينهم على الزرع من البذور . وكان ذلك يخرج من الديوان ، ويكتب فى كتب الأعطية : يعطى فلان كذا كيلجة أو إردباً . تقويةً له . فلما كثر قرنُ عطاء البذر بالتقوية وكان بينهما هذا التحالف ، غلبت التقوية على البذر وعرفت فيه . فكان إذا قيل : أخذت التقوية فإنما يعنى أخذ البذر ؛ وجمع التقوية على التقاوى ، وغلب هذا اللفظ « التقاوى » على البذور ما قل منها وما كثر .

دأب المصريين الدفاع عن الوطن ، ضد كل اعتداء

يكثر استعمال « ضد » هكذا . وكأن المستعملية يخالونه ظرفاً ؛ فهم يلزمونه النصب ، ولا يدعون به . يتغير عن هذه الصيغة ، كما يفعل بالظروف والأدوات .

وترى في الرسالة (العدد ٦٣٣) : « هذه التسميات الجارحات ، التي أرسلها لورنس من طريق قصصه ، أثارت ثائرة النقاد عليه ، وأحفظتهم ضده . والمعروف في اللغة أن الضد من الأوصاف ؛ تقول : هو ضد فلان ، وهما ضدان ، وهم أضداد . وفي مزدوجة أبي العتاهية :

لكل إنسان طبيعتان : خير ، وشر ؛ وهما ضدان

وتقول : أتيت بضد ما تفعل ؛ ولهم في هذا فعل ؛ يقولون : أضد الرجل ؛ وفي أفعال ابن القوطية : أضدت : أتيت بالضد ، وهو خلاف الشيء . . ويبدو لي أن المحدثين أئوا في استعمالهم الضد على غير وجهه من قبل الترجمة للأساليب الفرنسية . فقد جعلوا كلمة ضد ترجمة لكلمة كُنْتر contre الفرنسية . وهذه الكلمة في الفرنسية ليست من الأوصاف ، بل هي من أدوات انوصل والربط ؛ ولذا فهي عندهم من الكلمات التي لا يدخلها التصريف والتغيير ؛ وهم يقولون : يتكلمون خلاف ما يفكرون Ceaespensées its par lent contre فتبعهم كتابنا فقالوا : يتكلمون ضد ما يفكرون . وقد علمت أن هذه الترجمة ليست دقيقة وفق الصواب ، فليس من الدقة أن تضح الوصف موضع الأداة ، وتعطى أحدهما حكم الآخر ، فذلك جمع بين الضب والنون . وقد يخطر للباحث في هذا الأسلوب أن يخرج على أن « ضد ، حال ؛ فإذا قلت : تشن الدولة الحرب ضد الأعداء الثلاثة : الجهل والمرض والفقر ، فالمعنى تشن الدولة الحرب في حال أنها ضد هذه الأعداء . ولكن مثل هذا لا يقصده مستعملو هذا الأسلوب ، وإنما يريدون أن الدولة تشن الحرب على هذه الأعداء ، فـضد في منزلة حرف الجر أو حرف الوصل والربط . وقد تقول : تحارب دولة ضد دولة ، وهنا لا تستقيم الحالية ؛ إذ أن دولة من النكرات ، ولا يأتي منها الحال في مطرد أمرها ، وقياس مثلها . ولعل الكتاب بعد هذا يعدلون عن هذا الأسلوب السقيم .

بقي معي حوالى مائة درهم

ترى هذا الأسلوب كثيراً في كتابات المحكيين . وفي صحيفة « المصرى »
 في يوم ١ / ١١ / ١٩٤٧ : « فما بالك إذا أقحم عليهم حوالى مليون صهيونى ! » .
 والكلمة « حوالى » لا مكان لها في هذا المقام . ويجب أن يستبدل بها زهاء
 أو نحو، أو غير ذلك مما يجرى في هذا المعنى . تقول : عندى زهاء مائة من الدراهم ،
 ونحو مائتين من الرجال . وذلك أن حوالى إنما يقع ظرفاً مكانياً . تقول : قعدوا
 حوالى محمد وحواله ، وحوليه ، وحواله ، وأحواله ، ولا يراد في هذا حقيقة التثنية
 والجمع . وإنى أسوق إليك بعض النصوص في هذا : لتقتنع بما أقول ، وتعطى
 يدك بما أذكر . جاء في المصباح : « وقعدنا حوله ، بنصب اللام على الظرف ، أى
 في الجهات المحيطة به ، وحواليه بمعناه » . وفي اللسان : « قال الأزهرى : رأيت
 الناس حواله ، وحواليه ، وحواله ، وحوليه » . وقال الصّبّان في حاشيته على
 الأشموني : « ومن غير المتصرف حوال ، وحوالى ، وحوالى ، وأحوال » وهو
 يريد بغير المتصرف ما لا يخرج من النصب على الظرفية إلا إلى الجرّ بمن ، وفيه معنى
 الظرف في جميع أحواله . ومن شواهد استعمال حوالى في وجهها الصحيح ما جاء
 في دعاء الاستسقاء : اللهم حوالينا ولا علينا . أى أنزل الغيث حوالينا : في مواضع
 النبات ، لا في مواضع الأبنية ؛ وذلك من قولهم : رأيت الناس حواليه ، أى مطيفين
 به ، محدقين . ومن شواهد ذلك قول الفرزدق :

لعلك يوما أن ترينى ، كأنما بنى حوالى الأسود الحوارد^(١)

ملط

ترى هذه الكلمة في لسان العامة . وهم يستعملونها في الوصف بالعُرى
 والتجرد . يقولون : فلان عارى ملط . ويوردونها في موارد المجاز ، فيقولون :

(١) الحوارد : النضاب ، واحدها حارد .

فلان فلتس وأصبح ملط . وقد كان من هم الأستاذ حسن توفيق العدل - عليه رحمة الله - أن يخرج هذه الكلمة ويردّها إلى أصل عربيّ . فكان أن اهتدى إلى أن أصلها مَرط ، وذلك من قولهم : سهم أمرط ، ومريط ومُرط : لاريش عليه . وعلى هذا فقد كان من العامة أن أبدلوا من الراء لاما ، وهذا ليس غريبا في اللغة ، فهذان الحرفان يتعاقبان ، كقولهم : فلق الصبح ، وفرق الصبح . على أن خيرا من هذا التخريج عندى أن يكون هذا اللفظ من قولهم للذى لا نسب له : ملط ، ويقال : أملت ريش الطائر : سقط ، والملاطان : الجنبان ، سميّا بذلك لانه قد ملط غنهما اللحم أى نزع . والأملت : الذى لا شعر على جسده كله ، إلا الرأس واللحية ؛ وكان الأحف بن قيس أملت : لا شعر على بدنه ، إلا فى رأسه . وإنما اخترت هذا لانه لا يحوجنا إلى القول بالبدل ، مع ظهور الاشتقاق ، ووضوح المعنى فيه .

ابن جنى ، ابن ماجه

وقع السؤال عن هذه الأعلام وإعرابها . ذلك أنها تلزم السكون فى الوصل والوقف ، ولا يفعل بها ما فعل بنحو سَقَر وخوارزم ومصر وطبرستان وخراسان مما دخل فى العربية من الأعلام : فإن هذه الكلمات تجرى عليها حركات الإعراب ، وإن كانت تمنع التنوين . وقد عهدنا التزام السكون وتجنب ظهور الحركات فيما كان محتوما من هذا الضرب بالياء الخفيفة أو الهاء . فما ختم بالياء ابن جنى - ويراعى سكون الياء وألا تشدد كياء النسب - وابن جنى أشهر من أن يعرف ، فهو العالم الذى يعدّ بحق فيلسوف اللغة وحررها ؛ ومن ذلك على بن أحمد بن جنى ، وأحمد بن محمد بن جنى ، من المحدثين - ذكرهما صاحب القاموس - . وما ورد محتوما بالهاء ابن سيده اللغوى الأندلسى الضليع ، صاحب المحكم والمختص ، وابن منده وهو أبو زكريا يحيى من الحفاظ المشهورين وأحد أصحاب الحديث المبرزين . ومن ذلك ابن راهويه ، من جلة المحدثين . وقد حركوا الهاء إذا كان قبلها ساكن ؛ نحو بُويه جد البويهيين أصحاب الدولة فى بعض عهود الخلفاء العباسيين ؛ وزاه لقرية قرب نيسابور ؛ على أنا نراهم يقولون : أشنّه لقرية قرب أصبهان ، ويحركون الهاء - وهذه القرية ينسب إليها الأشنانى اللغوى - .

ويبحث المرء عن الداعى لتسكين أو آخر هذه الكلمات . ويبدو فيما كان محتوماً بالياء كجنى أنه لو أجريت مجرى غيرها من المقوص لتقيل في المجرور : نظرت الى جن يحذف الياء ، وهنا يلتبس بالجن ، فيكان مما ينبغي دفعاً للبس إبقاء الياء في حالة الجر ، وحمل سائر الحالات عليها : وهكذا القول في جنى : ويضاف الى هذا أن الكلمة الأجممية يراعى الإبقاء على كل حروفها ، فهذا ما بعث على بقاء الياء ساكنة . وأما المختوم بالهاء فكأن الداعى الى تسكينها أنها لو حركت لتوهم أنها تاء تأنيث فأبقيت على السكون .

وبعد هذا أقول : إن هذه الكلمات معربة : إذ لا موجب لبنائها ، وإعرابها بحركات مقدرة على أواخرها منع من ظهورها سكون الحسائية ، أى حوكمي أصلها الأجممي . ويراعى في حالة الجر أن إعرابها بفتحة نيابة عن الكسرة : لأنها من الأسماء التي منعت الصرف للعلمية والعجمة . والله أعلم .

في الاخوان

قال شاعر :

خير إخوانك المشارك في المرّ وأين الشريك في المر أينا
الذي إن شهدت في الحضرة أنه ر وإن غبت كان أذنا وعينا

وقال آخر :

إذا رأيتُ انحرافاً من أخى ثقة ضاقت على برحب الأرض أوطاني
فإن صددت بوجهي كي أكافئه فالعين غضبي وقلبي غير غضبان

حول كتاب الرد على النحاة

لابن مضاء القرطبي

لحضرة الأستاذ الدكتور شوقي ضيف

تفضل الأستاذ الجليل الشيخ محمد علي النجار ، فعقد في هذه المجلة الغراء بعدد ربيع الأول مقالا عن كتاب الرد على النحاة الذي نشرته ، وهو كتاب أراد به صاحبه ابن مضاء القرطبي أن يهدم نظرية العامل التي صعبت كتب النحو العربي وعقّدتها وجعلتها عسيرة الفهم .

ومقال الأستاذ الجليل مقسم إلى قسمين : قسم خاص بمتن الكتاب ونصوصه أشار فيه إلى هنات وقعت في هذه النصوص ، وقسم خاص بآراء الكتاب أشار فيه إلى ما في هذه الآراء من خطأ وفساد ، وسأعرض لمناقشة كل قسم على حدة .

هنات المتن والنصوص

أما الهنات التي أشار إليها الأستاذ الجليل فأكثرها ظنون واقتراحات في قراءة بعض عبارات النصوص ، وهي في أغلبها مجرد افتراضات ؛ فمن ذلك ما جاء في الكتاب ص ٨٣ من قول ابن مضاء : « ولعل قائل يقول : « أيها الأندلسي المسرور بالإجراء بالخلاء ، المضاهي بنفسه الحقيّ ذكاه وأى ذكاه » ؛ وسياق الكلام هنا يدل على أن ابن مضاء يحكي على لسان شخص قد يلومه فيقول : أيها الأندلسي الذي خلا له الميدان في الأندلس فهو يُجرى فيه ولا يُجرى فيه أحد معه ، ولو كان في المشرق بين علماء النحو وعلى رأسهم سيبويه ما أجرى إلى هذه الغاية من الطعن على النحاة وعلى سيبويه خاصة . ومن هنا قلت في هامش الكتاب : إن ابن مضاء يريد بالحقيّ ذكاه - فيما يظهر - سيبويه ، وقد ذكره بعد ذلك صراحة ، والكتاب كله مؤلف لرد نظرية العامل التي جاء بها ؛ ومعروف أن

كتاب سيبويه ، أصل النحو العربي ، وأصل نظرية العامل التي تشبث بها النحاة جميعاً . وهذا الفهم وما يطوى فيه من توجيه للعبارة لم يُرض الأستاذ الجليل ، ولذلك اقترح أن نقرأها هكذا : « أيها الأندلسي المسرور بالإجراء بالحلاء ، المضاهي بفنه الخفي مُذْكَاء وابن مُذْكَاء » . وذكَاء بالضم الشمس وابنها الصبح . ولا ريب أن في هذا تكلفاً شديداً في التعبير لسنا بحاجة الى بيانه ووصفه ، ولو اقترح الأستاذ الجليل أن نقرأ كلمة الخفي وحدها بالحاء المعجمة أى أن نقرأها الخفي ما أنكرنا عليه ، وقلنا هذا احتمال ممكن ، وقد عرض لنا أثناء النشر وفضلنا عليه الاحتمال الأول .

وهذا السياق في الكلام والحديث عن سيبويه جعلني أقرأ عبارة تالية رواها ابن مضاء على لسان هذا الشخص الذي يلوه على هذا النحو « أتزرى بنحوى العراق » . ونشرتها هكذا بالإفراد فى كلمة نحوى ولم أجمعها كما يرى الأستاذ الفاضل لأن الأولى أكثر اتساقاً مع السياق . وربما كان خيراً من اقتراحه أن نقرأ العبارة هكذا : « أتزرى بنحو انعراق » بدون ياء ، وهذه قراءة جيدة ولكنى فضلت الأولى لأنى وجدت فى الأصل الياء .

وقد رجح الأستاذ الجليل أن نقرأ الفعل « يكون » فى العبارة الآتية بصيغة المؤنث لا بصيغة المذكر كما نشرتها فى ص ٨٥ وهى : « فمن ذلك ادعائهم - النحاة أصحاب نظرية العامل - أن النصب والخفض والجزم لا يكون إلا بعامل لفظى » . ولا أزال عند رأيى وذوقى فى أن صيغة الفعل هنا بالمذكر خير من صيغته بالمؤنث ، والطريف أن الأستاذ الجليل يجيزها ، ومع ذلك ينقدها ويعتبرها هتافاً !

ونقل ابن مضاء عن الخصائص فى ص ٩٣ هذا النص : « اعلم أن إجماع أهل البلدین إنما يكون حجة إذا أعطاك خصمك يده أن لا تخالف المنصوص والمقيس على المنصوص » وقرأت أنا الصيغة هكذا : تخالف ، ورأى الأستاذ الجليل أنها ليست كذلك ، إنما هى يخالف ، وأنا لا أرد رأيه ، فهو ممكن ، ولكن أقول إن رأيه يقبل ، وكذلك رأيى ؛ لأن الكلام دائر بين شخصين وموقف كل منهما من صاحبه ، ولذلك يصح أن يكون الفعل تخالف أو يخالف . أما كلمة الترحيب التي جاءت فى نص الخصائص هذا فلعلها بالجيم .

وجاء في كتاب ابن مضاء ص ١١٨ : « ومن الأبواب التي يظن أنها تعسر على من أراد تفهيمها وتفهمها ، لأنها موضع عامل ومعمول ، ولا داعية لى إلى إنكار العامل والمعمول » . ورأى ذلك الأستاذ الجليل فتبادر إلى ظنه أن العبارة مضطربة وأن كلمة « ولا داعية لى إلى إنكار العامل والمعمول » لا تتمشى مع السياق ، ولذلك أصلحها على هذا النحو : « ولى داعية إلى إنكار العامل والمعمول » . والعبارة ليست فى حاجة إلى هذا التصحيح ، فإن مضاء يقول : « ومن الأبواب التي يصعب أن تفهمها أنت أو تفهمها لغيرك بدون أن تؤمن بنظرية العامل ، لأنه يتحتم أن تكون موضع عامل ومعمول ، والحال أنه لا داعية لى إلى إنكار العامل والمعمول الخ . وهذا كلام واضح لا يحتاج تغييرا ولا تصحيحا ! . وقد عرض الأستاذ الجليل عقب ذلك لبيت جرير : »

أثعلبة الفوارس أم رياحا عدلت بهم طهية والخشبا
واستظهر أن تكون الفوارس بالنصب لا بالجر ، لأنها صفة لثعلبة ، وجرها يكون من باب إضافة الموصوف إلى الصفة ، ومع أن هذا غير ممتنع وله أمثلة معروفة تذكرها كتب النحو ، فإنى لا أتمسك به وأرى أن الإضافة هنا على حقيقتها فى بابها الخاص . ومن هنا كنت لا أوافق الأستاذ الجليل على نصب كلمة الفوارس .

وذكر ابن مضاء أثناء استشهاده على النصب بعد الفاء فى التثنية قوله تعالى : « ودوا لو تدهن فيدهنون » . وحتّم الأستاذ الجليل أن تكون القراءة هنا : « ودوا لو تدهن فيدهنوا » ، لأن ابن مضاء بصدد الاستشهاد على النصب فى التثنية لا الرفع . وإنما جئت بالقراءة الأولى لأنها هى التى ذكرها ابن مضاء نفسه ، وكأنه يريد أن يلفت قارئه إلى أن الفعل المضارع قد يرفع مع التثنية إما على العطف أو على القطع . وقد رجعت إلى كتاب سيبويه فوجدته يشير إلى ذلك فى باب نصب المضارع بالفاء ويذكر نفس الآية الكريمة . وهذا ما دفعنى إلى أن أبقي على الأصل بدون تغيير ، وخاصة أنه يلفتنا إلى أن المضارع قد يرفع بعد الفاء فى التثنية . وأظن من حق ابن مضاء أن يلفتنا إلى ذلك . ولا أزال أرى أن الفعل المقدر فى مثل : أزيذا ضربته ينبغى أن تقدر معه الهمزة وإن لم تشر إلى

ذلك جهررة النحاة، لأننا إن لم نصنع خرج الكلام من باب الإنشاء إلى باب الخبر !

أما قول ابن مضاء في ص ٨٢ عند عدم الرعى والماء فلا أ منع أن تكون الكلمة الرعى بالكسر وإن كنت لا أجد مانعاً من أن تكون بالفتح . وأكبر الظن أن الأستاذ الجليل يتفق معنا الآن بعد استعراض هناته التي آخذنا بها أنها مجرد افتراضات . حقاً بقي من هناته هنتان مطبعيتان هما : كلمة إيسن وهي الأمر من وسن في لغة شاذة ، فقد جاءت في الكتاب إيسق ؛ ثم كلمة : « ونور بنور الإيمان خلده » . فقد جاءت : « ونور بنوره الإيمان خلده » وهذا خطأ مطبعي واضح . وأنا على كل حال أشكر للأستاذ عنايته بالكتاب وقراءة نصوصه قراءة فاحصة . ولعل من الواجب أن أذكر أني نشرت هذا الكتاب من نسخة حديثة حرفت فيها الكلم عن مواضعها ، وشوهت تشويهاً شديداً ، ولولا أني استعنت بكل ما أمكنني الرجوع إليه من مؤلفات في النحو خطوطه ومطبوعه ما استطعت أن أخرجه إلى الباحثين .

نقد الأستاذ الجليل لا بن مضاء

وذهب الأستاذ الجليل بعد حديثه في الهنات والافتراضات السابقة ينقد ابن مضاء ، وبدأ هذا النقد ببيان محدود جداً لنظرية ابن مضاء في هدم العامل في النحو العربي وكل ما يرتبط به من تقديرات وتأويلات وعلل وأقيسة . وإنني أستاذن الأستاذ الجليل في أن ألخص نظرية ابن مضاء في كتابه حتى نكون أكثر وضوحاً ودقة فيما نعرض له من ذلك .

لقد استهل ابن مضاء كتابه بقوله : « قصدي في هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغنى النحوى عنه ، وأنبه على ما أجمعوا على الخطأ فيه ؛ فن ذلك ادعائهم أن النصب والخفض والجزم لا يكون إلا بعامل لفظي ، وأن الرفع منها يكون بعامل لفظي وبعامل معنوي ، وعبروا عن ذلك بعبارات توهم في قولنا ضرب زيد عمراً أن الرفع الذي في زيد والنصب الذي في عمراً إنما أحدثه ضرب ، وذلك بين الفساد .

وقد صرح بخلاف ذلك أبو الفتح بن جنى وغيره : قال أبو الفتح في خصائصه بعد كلام في العوامل اللفظية والعوامل المعنوية : وأما في الحقيقة ومحصول الحديث فالعمل من الرفع والنصب والجر والجزم إنما هو للمتكلم نفسه لا لشيء غيره .

ابن مضاء إذن ينادى في مفتتح كتابه بأن فكرة العامل في النحو ليست صحيحة لأن الذى يعمل الحركة فى الكلام كما يقول ابن جنى ليس هو مثل ضرب وإنما هو المتكلم نفسه . وهذا كلام منطقي . ومن هنا يقول ابن مضاء : إن الإيمان بأن لفظاً يحدث حركة فى اللفظ التالى له لا يقول به عاقل .

وقد ناقش الأستاذ الجليل الشيخ محمد على النجار هذه الفكرة وقال : إنه النحويين بحمد الله عقلاء ، وإنهم إنما يقولون بالعامل النحوى على سبيل المجاز . وكأنى بالأستاذ نسى ما قاله ابن مضاء فى ص ٨٨ إذ لا يكتفى فى هدم نظرية العامل بأنها تخالف منطق العقل فيقول : ربما زعم بعضهم أن هذا العامل النحوى إنما مثل عاملاً على وجه التشبيه والتقريب لتيسير تعلم العربية . وأظن أن هذا نفسه ما يقول به أخيراً الأستاذ الجليل : لأن وجه التشبيه والتقريب هو نفسه وجه التجوز الذى قال به .

وقد رد ابن مضاء نفسه على ذلك بأننا لسنا فى حاجة الى فكرة العامل ولو كانت على وجه التشبيه والتقريب أو على وجه التجوز لأنها تحط كلام العرب عن رتبة البلاغة ، إذ نرى النحاة يحيلون الكلام عن وجهه من الفصاحة بما يقدرون فيه من عوامل محذوفة . ولقد أفضى بهم ذلك الى أن يرفضوا أساليب عربية فصيحة ويضعوا مكانها أساليب نحوية ركيكة إرضاء لنظرية العامل .

ليست المسألة مسألة استعمال اصطلاح نحوى بضرب من التجوز ، إنما هى مسألة خطيرة ؛ فقد جاء النحاة وعلى رأسهم سيبويه باصطلاح أفسد نحوهم وملاؤه بتقديرات وتأويلات لا دليل عليها فى اللغة ، ومع ذلك فقد جعلوا هذا الاصطلاح القطب الذى دارت عليه رحى النحو كله .

وابن مضاء يستطرد من ذلك الى بيان ما جرت به نظرية العامل في النحو العربي من تصعيب وتعقيد، وما جرت به أيضا من رفض لأساليب العربية وأخذ بأساليب نحوية مضطربة؛ ونراه يعتقد من أجل ذلك فصلا للعوامل المحذوفة في الكلام من مثل تقدير «أدعو» في نحو «يا عبد الله» وتقدير «مستقر أو استقر» في مثل «زيد في الدار» وينتهي من استعراضه لكل ذلك الى نفي فكرة العامل المحذوف، وأن الكلام ينبغي أن يعرب كما هو بدون تقدير ولا تأويل.

ولم يكتف ابن مضاء بإلغاء فكرة العامل المحذوف، فقد دعا أيضا الى إلغاء فكرة المعمول المحذوف وكذلك المعمول المستتر في مثل «زيد ضارب عمرا»، فضارب ليس فيها ضمير مستتر تقديره هو بل هي تدل على هذا الضمير الذي يسمى فاعلا بمادتها، ومثلها في ذلك ضرب في نحو «زيد ضرب». وقد استدل ابن مضاء على ذلك بالفعل المضارع في نحو أعلم ويعلم وتعلم؛ فإن الفعل يدل بمادته على الفاعل وأنه متكلم أو غائب أو مخاطب. وكذلك الشأن في ضرب فهي تدل على الفاعل وأنه غائب مذكر بمادتها؛ وبذلك يذهب ابن مضاء الى أن الفعل يدل على الحدث والزمان كما يقول النحاة، ويدل على الفاعل أيضا كما يقول هو، وكما نرى في الأمثلة السابقة.

ويناقش ابن مضاء بعد ذلك بابين مشهورين في النحو بكثرة التأويل والتقدير في عبارتهما، وهما باب التنازع وباب الاشتغال. أما التنازع فإن النحاة يبحثون فيه صورة من التعبير دارت على ألسنة العرب وفيها نجد فعلين وراءهما فاعل أو مفعول مثل «آمن وصدق المسلمون». يقول علقمة:

تغفّق بالأرطى لها وأرادها رجال فبذّت نبلهم وكيـب

وقد رد النحاة هذه الصورة من التعبير لأنه لا يصح في رأيهم أن يتسلط عاملان على معمول واحد أو بعبارة أدق لا يصح أن يجتمع مؤثران على أثر واحد. وإذن فإذا أن تعمل الأول وتضمّر في الثاني أو تعمل الثاني وتضمّر في الأول، فتقول: آمن وصدقوا المسلمون على رأى الكوفيين، أو تقول آمنوا وصدق المسلمون على رأى البصريين! ويستمر النحاة فيضمرون المفعولات كما أضمروا

الفاعل ، وإنهم ليستخرجون أثناء ذلك كثيراً من الصور المعقدة وخاصة في أبواب الأفعال التي يعدونها الى مفعولين أو أكثر نحو قولهم : « ظننت وظناني شاخصا الزيد بن شاخصين » وقولهم « أعلمت وأعلمانيهما إياهما الزيد بن العمر بن منطلقين » .
ويحمل ابن مضاء حملة شعواء على مثل هذه الصور المرتبكة التي ليس لها نظير في كلام العرب ، وإنه ليرفضها ويرفض معها نظرية العامل التي جعلت النحاة يردون صورة أصيلة من التعبير العربي ويضعون مكانها صوراً نحوية مرتبكة .

ويخرج ابن مضاء من بحث باب التنازع الى بحث باب الاشتغال وما جاء فيه النحاة أيضاً من صور مضطربة لم ترد عن العرب من مثل « أزيداً لم يضربه إلا هو ، وأخوأك ظناهما منطلقين ، وأأنت زيداً ضربته » الى غير ذلك من أساليب لم تأت في العربية ولكن جاءت في كتب النحو لترضى نظرية العامل وما يتصور لها النحاة من سلطان وكبرياء . ونرى ابن مضاء يحمل هنا على مثل هذه الأساليب غير المستعملة ، كما نراه يحمل على طريقة درس النحاة للباب عامة وتقسيمهم لأساليبه بين ما يجب رفعه وما يجب نصبه وما يرجح فيه الرفع وما يرجح فيه النصب وما يجوز فيه الأمران ، مقدرين — في أغلب العبارات — عوامل مضمرة لا دليل عليها في قول المتكلم . وكل ذلك يرفضه ابن مضاء ويضع مكانه قاعدة بسيطة ، وهي أن الاسم السابق للفعل في هذه العبارات إن عاد عليه ضمير رفع رفعناه ، وإن عاد عليه ضمير نصب نصبناه ، وبهذا حل مشكلة باب الاشتغال ، وربما كان أكثر الأبواب النحوية تصعباً وتعقيداً .

وقد وقف الأستاذ الجليل الشيخ محمد على النجار على هذا كله فلم يوجب به ، بل لقد ذهب بين ما في إنكار ابن مضاء لتقدير النحاة فعلاً محذوفاً في مثل زيداً ضربته من فساد مدباره أنه ينكر بذلك فكرة التعدى وال لزوم المشهورة في النحو . وليس من ريب في أن ابن مضاء ينكرها ، وهل يمكن أن يؤمن بها وهي جزء من نظرية العامل وأن منه متعدياً ولازماً ؟ لقد ألغى ابن مضاء نظرية العامل وكل ما يتصل بها من تعدٍ ولزوم وتأويل وتقدير ، وأيضاً فقد دعا الى أن نلغى معها كل

ما في كتب النحو من جدل وأقيسة وعلل . وليس ذلك كل ما دعا الى إلغائه ، فقد دعا أيضا الى إلغاء التمارين غير العملية من مثل قول النحاة « ابن من البيع على وزن فُعْل » مادام ذلك لم يأت في اللغة .

وأنا لا أرتاب في أن آراء ابن مضاء لا تزال في حاجة إلى مناقشة واسعة ، وهي مناقشة قد تنتهي بنا إلى هدم الإطار الذي رسم فيه النحو القديم كله . ولن يضيرنا ولن يضير النحاة السابقين ذلك ، فقد أدّوا لنحوهم — كما تصوره مؤسساً على نظرية العامل — رسالة كاملة . ولست أبالغ إذا قلت إن العقل العربي المشتعل ذكاه لم يخدم علماً لغوياً كما خدم النحو العربي . ونحن تكبر هذا العقل ونكبر النحاة معه . ولكن هذا لا يمنعنا أن نحاول التجديد في النحو ما دامت هناك حاجة حقيقية إلى هذا التجديد .

ولقد نشرت هذا الكتاب « الرد على النحاة لابن مضاء » ووضعته بين يدي الباحثين المحدثين حين رأيت الجهود تنحف من كل جانب لإصلاح النحو العربي وتذليل كتبه وتيسير قواعده . وهذا ما جعلني أقدم له بمدخل واسع بينت فيه حاجتنا إلى تصنيف النحو تصنيفاً جديداً حتى نرفع عن الناس ما يفدحهم ويثقل كاهلهم في تعلمه . وقد حاولت بعد ذلك أن أضع للنحو تصنيفاً جديداً مهتدياً فيه بما دعا إليه ابن مضاء من تصفية النحو العربي لا من نظرية العامل فقط بل من كل ما يتصل بتصعيبه وتعقيده . ولست أزعم أن هذه التصنيف نهائي ولا شبيه بالنهائي إنما هي صورة مثلت بعد درسي للنحو على هدى آراء ابن مضاء في ذهني ومثلتها لحضرات الباحثين . وقد وعد الأستاذ الجليل الشيخ محمد علي النجار بمناقشتها . وإني لا أتهدئ هذه الفرصة فأحييه تحية طيبة ، سائلاً الله أن يرزقنا السداد والإخلاص في الفكر والقول والعمل ؟

شيء من الذوق !

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغي
مدير دار الكتب الأزهرية

نشرت إحدى الصحف الأسبوعية تحت عنوان : رأس السنة ، ما يلي :

بلغت الاسعار في ليلة رأس السنة رقبا قياسيا ؛ فقد كان رسم الدخول وثمان العشاء في «الأوبرج» للشخص الواحد أربعة جنيهات ونصف جنيه ، وفي «شبرد» أربعة جنيهات ، ومع ذلك لم يكن فيهما موضع قدم .

قرأنا ذلك الخبر ، فأخذ منا العجب ، وفاضت نفوسنا بشتى الأحاسيس ، وحاولنا توجيه ذلك الهوس والإسراف فلم نفلح . وأى هوس وأى متاع ذلك الذى يدفع ببعض الناس الى هذا الإسراف والى التزاحم على الظفر به ، والتسابق فى المشاركة فيه !

وما بال هؤلاء الناس ، وفى أى أمة يعيشون ، وبأى إحساس يحسّون !

ألم قلوب يفقهون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها !

لو كان هؤلاء من صميم الشعب يألمون لألمه ، ويهتمون لهمه ، ويفكرون فيما يفكر فيه ، ويعانون ما يعانیه ، لشغلهم ما يشغله ، أو لدعتهم الجمالة والذوق على الأقل إلى أن يشاركوه فى محنه وكوارثه ولو بالمظاهر ، إن لم يشاركوه بالقلوب والضماير .

إن الشعب المصرى - ككل شعوب العالم - يحتاجه المحن ، وتظاهر عليه الشدائد ، ويجاهد ساسته وقادته علنهم أن يجدوا منها مخرجا ، أو يستطيعوا لها فرجا .

يعجّ الشعب المصرى بمختلف المشاكل ، وتدور فى خلد بعض أفراد شتى الأفكار والمذاهب ، وتشغله مجتمعا قضيته السياسية التى تظاهرت ضدها قوى الشر والاستعمار ، وتشغله وطأة الغلاء التى أخذت بمنافسه ، وعقدت عليه اسباب الحياة ، وتشغله نازلة السكوليرا ، وتهدهد فى الأرواح والأرزاق ، وتشغله مشاكل أخوته وجيرانه من الشعوب العربية ، وبخاصة فلسطين ؛ وتشغل كل طائفة من طوائفه أحوالها المالية والأدبية ، وتكاد تخرج ببعض هذه الطوائف من جادة العقل ومنهج الرشاد .

تشغل الشعب وتشغل طوائفه هذه الأحداث ؛ ولكن عصبه من هؤلاء الأغنياء لا يجدون فيها مشغلا ، ويجدون من فضل أوقاتهم وسعة أموالهم مجالا للهو والمتاع البغيض ، ويسترخصون في سبيله البذل ، ويستقلون العطاء .

ولو أن هؤلاء الذين يدفعون في الليلة الواحدة أربعة جنيهات ونصف جنيهه للعشاء ورسم الدخول ، عدا ما يستلزمه العشاء ويستلزمه الهناء من نفقات إضافية ، قيل لهم في جد الأمور وعظائم الأحداث هاتوا شيئا من أموالكم نكسوا بها عراة ، أو نطعم بها جياعا ، أو نرفه بها عن المرضى والمنكوبين من إخوانكم في الوطن أو الدين ، لكفوا أيديهم ، وهزوا رؤوسهم ، وولوا مدبرين .

إننا لانتجنى على هؤلاء فيما نقول ، ولانفرق فيما ندعى ؛ فهاهي ذى قوائم التبرعات لمنكوبي فلسطين ومنكوبي السكوليرا ، فهل شرفت هذه القوائم بأسماء كثير منهم ! إنه ليحز في نفوسنا أن تخلو أمكنة هؤلاء في هذه القوائم ، وتعمر بأسماء صغار الموظفين ، وطوائف العمال والصناع ، من عمرت قلوبهم بالإيمان ، وغمر نفوسهم حب الوطن .

نحن لا نحسد هؤلاء على ما آتاهم الله من فضله ، ونؤمن عن يقين بقسمة الله تعالى في الأرزاق ، وأنه يمنع من يشاء ويرزق من يشاء بغير حساب ؛ ولا نطمع ولا نرضى لغيرنا أن يطمع في أموالهم بغير طوعية من أهلها ، وبالسائل التي يتوسل بها غيرنا في بلاد أخرى ، ولكننا نذكرهم بحق الله في أموالهم ، وبحق الفقير والبائس والمحروم في غناهم ، ولا نطالبهم باسم الدين ، فالدين أبعد ما يكون عن خواطرهم ، ولكننا نطالبهم باسم الوطن الذي وهب لهم هذه الأموال وهذه الخيرات ؛ وباسم الفلاحين والعمال الذين يعملون لهم في مزارعهم ومصانعهم ومتاجرهم ، تلفح وجوههم حرارة الصيف ، ويقاص أطرافهم زمهرير الشتاء ، يواصلون الليل بالنهار فلا يصلون إلى الكفاف .

سنطالبهم باسم المدينة والمروءة والذوق والانسانية أن يكونوا أعوانا لإخوانهم في الشدائد ، ولأوطانهم ذخرا في الملمات .

نطالبهم أن يكونوا لأوطانهم ك بعض الأجانب الذين قدروا للوطن قدره وعرفوا له حقه ، فلبوا نداء الوطن وداعى الذوق والمجاملة ، وبذلوا في مواطن البر منه بعض ما وهب لهم من خير ، وسجلت لهم في صحائف المجد والذكر آيات الحمد والتقدير .

في ذكرى مولد الفاروق :

تولية محمد على الكبير

العلماء يختارونه لمصلحة الشعب

لحضرة الأستاذ محمود الشرقاوى

عند ما يحىء اليوم الحادى عشرى من شهر فبراير من كل عام ، يستقبله الشرقيون عامة والمصريون خاصة والأزهريون على الأخص بقلوب مستبشرة ووجوه فرحة ، ونفوس مطمئنة عامرة بالإيمان .

عند ما يحىء هذا اليوم السعيد من شهر فبراير فى كل عام يستقبله الشرقيون والمصريون والأزهريون خاصة بهذه القلوب المستبشرة ، وهذه الوجوه الفرحة المتلهلة ، والنفوس المطمئنة ، لأنه يقع فى ذكرى مولد صاحب الجلالة الملك العظيم فاروق ؛ وكل يوم يقترن ذكره بذكر صاحب الجلالة الفاروق فهو يوم البشارة والفرح والتهلل واطمئنان القلوب العامرة بالإيمان .

الإيمان بمجد مصر ، ومجد العرب ، ومجد الاسلام . والفاروق ، حفظه الله ورعاه ، هو رمز هذه الأجماد جميعا ، هو رمز المجد لمصر ، فهو العامل الساهر على مجدها وسؤدها ورفع شأنها ، وأن تال مكانها اللائق بها بين أمم الأرض .

هو رمز المجد للعرب ، فهو العامل الساهر على مجدهم وسؤدهم ورفع شأنهم وتوحيد جهودهم وصمودهم لما يقع عليهم من عنت وضغط وإرهاب .

هو رمز المجد للإسلام ، فهو العامل الساهر على مجده وسؤده ، وإحياء ما كان له من قوة وشمول ورفع شأن . والأزهر هو القائم على تراث الاسلام والحفيظ على ما له من قوة كامنة موفورة لم يور زندها ولم تشعل نارها ، ولم يتوهج بعد نورها ؛ وهو مخرج هذا السكامن الموفور من قوته ، ومور زنده ، وشعل ناره ، وموهج النور الساطع الفياض منه إن شاء الله .

فن حق الأزهر ومن حق أهله خاصة أن يذتهجوا ، وأن تستبشر قلوبهم ، وأن تهلل وجوههم ، وأن تطمئن نفوسهم عامرة بالإيمان عند اليوم الحادى عشر من شهر فبراير . يوم الذكرى السعيدة ، لمولد الملك العظيم فاروق .

وللأزهر واتصاله بالأسرة العلوية حديث قديم ، بدأ حيث بدأ مؤسس هذه الأسرة الكريمة أن يلى شئون هذا الوطن العزيز الذى أحبه محمد على وقضى حياته كلها عاملاً مجدداً ودؤباً على رفع شأنه والتسكين له ، أن تنجدد فيه الحياة ، وأن تنمو وتطرّد حتى تصبح شباباً وفتوة ، وحتى أصبح اسم محمد على قريناً للنهضة المصرية الحديثة ورمزاً لها .

وكذلك أحب هذا الوطن العزيز محمداً علياً ، وحفظ له أعز ذكرى وأعز مكان من الإجلال والتعجيد والاكبار .

وسنجد فيما نلخصه فى الصفحات القادمة عن الجبرقى ، أن علماء الأزهر هم الذين اختاروا محمداً علياً ليكون والياً على مصر ، وأنهم اختاروه لما وجدوا عنده من الرأفة بالشعب والمحبة له والعدل فيه .

وجد شيوخ الأزهر فى ذلك العهد هذه الصفات الكريمة ، من المحبة للشعب والعطف والعدل والشجاعة أيضاً ، موفورة عند محمد على ، فاختاروه والياً على مصر ؛ ووجدوا كذلك أن الشعب المصرى الذى أهاض جناحه وأفسد حياته ظلم المماليك يحب محمداً علياً ويريده والياً عليه ، فحقق علماء الأزهر لهذا الشعب المهيض المظلوم أن يولى عليه ذلك الرجل العطوف العادل الشجاع : محمد على الكبير .

يذكر الجبرقى فى حوادث شهر المحرم من سنة ١٢٢٠ الهجرية : أن محمداً علياً قدم القاهرة من الصعيد حيث كان يحارب المماليك ؛ ويقول فى حوادث يوم الخميس الحادى عشر من شهر المحرم هذا : إن أحمد باشا خورشيد والى مصر فى ذلك الوقت طلب المشايخ والسيد عمر مكرم والولجاقلية وأرباب الديوان ، فلما اجتمعوا قال لهم : إن محمد على وحسن باشا راجعان من قبلى من غير إذن

وطالبان شرا، فإذا أن يرجعا من حيث أتيا ويقااتلا الممالك، وإما أن يذهبا إلى بلادهما وأعطيتهما ولايات ومناصب في غير أرض مصر، ومعنى أمر من السلطان وكيل مفوض ودستور مكرم أعزل من أشياء وأولى من أشياء وأعطي من أشياء وأمنع من أشياء^(١).

بهذه اللهجة التي تم عن الغضب والتوجس كان أحمد باشا خورشيد والى مصر يتحدث عن دخول محمد على القاهرة، ولكن محمدا عليا دخل القاهرة كما يقول الجبرتي بعدد عصر يوم الجمعة التاسع عشر من شهر المحرم هذا، وذهب إلى بيته بالأزبكية، فنع أحمد باشا المشايخ والوجاقلية من الذهاب إلى محمد على والسلام عليه. وفي يوم الجمعة ١٠ صفر من السنة نفسها ورد تقليد لمحمد على بولاية جدة، فامتنع من طلوع القلعة ليلبس الخلعة بهذه الولاية، ثم اتفقوا على أن ينزل الوالى إلى بيت سعيد فيلباس محمدا عليا الخلعة فيه.

وبعد إلباس محمد على خلعة الولاية على جدة بيومين اثنين «ركب المشايخ إلى بيت القاضى واجتمع به الكثير من المتعممين والعامة والأطفال حتى امتلأ الحوش والمقعد بالناس وصرخوا بقولهم: شرع الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم! وطلبوا من القاضى أن يرسل باحضار المتكلمين فى الدولة لمجلس الشرع... فحضر الجميع واتفقوا على كتابة عرضحال بالمطلوبات، ففعلوا ذلك... وفى تلك الليلة أرسل الباشا مراسلة إلى القاضى يرقق فيها الجواب ويظهر الامتثال ويطلب حضوره إليه من الغد مع العلماء ليعمل معهم مشورة^(٢).

ولكن القاضى والعلماء لم يذهبوا الى الوالى كما طلب، لانهم خشوا خديعته، وحضر لهم من أخبرهم أنه أعد لهم كميناً يغتالهم وهم فى طريقهم اليه.

ثم يقول الجبرتي: «فلما أصبحوا يوم الاثنين^(٣) اجتمعوا ببيت القاضى وكذلك اجتمع الكثير من العامة فمنعواهم من الدخول الى بيت القاضى وقفلوا

(١) ص - ٣٤٧ جزء ٣ من الجبرتي طبع المطبعة الشرفية.

(٢) ص - ٣٥٠ جزء ٣ من الجبرتي.

(٣) يوم الاثنين ١٣ صفر سنة ١٢٢٠ وهو يوافق ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ ميلادية.

بإبيه ، وحضر إليهم أيضا سعيد أغا والجماعة ، وركب الجميع وذهبوا الى محمد على وقالوا له : إنا لا نريد هذا الباشا حاكما علينا ولا بد من عزله من الولاية . فقال : ومن تريدونه يكون واليا ؟ قالوا له : لا نرضى إلا بك وتكون واليا علينا بشروطنا لما تتوسمه فيك من العدالة والخير . فامتنع أولا ثم رضى . وأحضروا له كرعا وعليه قفطان وقام اليه السيد عمر والشيخ الشرفاوى فألبساه له ، وذلك وقت العصر ونادوا بذلك في تلك الليلة في المدينة ، وأرسلوا الى أحمد باشا الخبر ^(١) .

ولم يرض أحمد باشا بطبيعة الحال هذا التنصيب وهذه التولية من العلماء وأهل الرأي واختيارهم محمدا عليا ، بل قال إني مولى « من طرف السلطان فلا أعزل بأمر » « الفلاحين » ولا أنزل من القلعة إلا بأمر من السلطنة ^(٢) .

وفي هذه الفترة من النزاع بين محمد على وبين أحمد باشا الوالى المخلوع ، نستطيع أن نستبين فيما دونه الجبرتي ظاهرتين لازمتا هذه الفترة كلها من النزاع حتى استقر الأمر لمحمد على :

الظاهرة الأولى : تشدد العلماء عامة ، والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف خاصة ، في أمر تمكين محمد على من الاستيلاء الفعلى على السلطة ، وهذه الفقرة مما كتبه الجبرتي تصور لنا الى حد بعيد هذا التشدد : « ركب السيد عمر أفندى فى قلة من الناس وذهب الى بيت حسن بك أخى طاهر باشا ، وكان هناك عمر بك الذى نزل من القلعة ، فوقع بينه وبين السيد عمر مناقشة فى الكلام طويلة ، ومن جملة ما قال : كيف تعزلون من ولاة السلطان عليكم وقد قال الله تعالى « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ؟ فقال له : أولو الأمر العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل ، وهذا رجل ظالم وجرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة ، وهذا شيء من زمان حتى الخليفة والسلطان إذا سار فيهم بالجور فانهم يعزلونه ويخلعوناه ^(٣) » .

أما الظاهرة الثانية : فهى هياج الشعب وثورته على الوالى المعزول حتى ينزل من القلعة ، وحتى يستطيع محمد على أن يوطد لنفسه الحكم ؛ فقد كان الشعب

(١) ص - ٣٥٠ جز ٣٠ من الجبرتي .

(٢) ص - المصدر نفسه .

(٣) ص - ٣٥٢ ج ٣ من الجبرتي .

أو « الفلاحين » كما قال أحمد باشا المعزول ، يرى أنه قد اختار لنفسه واليا يجد عنده المحكومون « العدالة والخير » فهم لا يستقر لهم قرار حتى يستطيع هذا الحاكم العادل الخبير أن يحكم فيهم ، وهم حريصون على ذلك حتى « إن الفقير من العامة كان يبيع ملبوسه أو يستدين ويشترى به سلاحا ، وحضرت عربان كثيرة من نواحي الشرق وغيره ^(١) كما يقول الجبرتي .

وقد بلغ من تأييد المصريين لمحمد علي في موقفه هذا ضد الوالي المخلوع أن أرسل هذا الوالي فرمانا إلى بعض أنصاره في قليوب يقول فيه : إنه « يجب عليهم معاونته صيانة لعرض السلطنة وإقامة لناموسها وناموس الدين ، وإن « الفلاحين ... ! » محاصرونه ومانعون عنه الأكل والشرب . فلما وصل ذلك فرمان إليهم بقليوب أرسلوه إلى محمد علي وأرسله محمد علي إلى السيد عمر أفندي النقيب ^(٢) . »

ويقول الجبرتي في حوادث الشهر نفسه : إن المعلم جرجس الجوهري وهو من وجوه القبط في ذلك التاريخ كان من المترددين على بيت السيد عمر مكرم المشاركين له في تأييد محمد علي ، وإنه كان يجتمع بالشيخ الشرقاوي والشيخ الأمير والقاضي في بيت السيد عمر لتدبير الأمر في نصره محمد علي والعمل على هزيمة أحمد باشا خورشيد ^(٣) .

وهكذا بقي الحال زمنا بين العلماء والشعب ومحمد علي من جانب ، وبين خورشيد باشا الذي تحصّن بالقلعة لا يريد أن يرحلها إلا بأمر من السلطنة كما يقول .

ولكن الجبرتي بعد ذلك يقول : إن أمرا ورد من السلطنة بتولية محمد علي وخلع أحمد باشا خورشيد ، ولكنه لم يمثل ؛ ففي يوم الاثنين ١١ من شهر ربيع الثاني سنة ١٢٢٠ ^(٤) وصل الخبر بوصول القابجي إلى قليوب ، وأنه طلع إلى برقه

(١) م - ٣٥٢ جزء ٣ من الجبرتي .

(٢) م - ٣٥٣ » » »

(٣) م - » » » »

(٤) يوافق ١٠ يوليو سنة ١٨٠٥ ميلادية .

وسار من هناك . فلما أشيع ذلك اجتمع الناس وطوائف العامة ، وخرجوا من آخر الليل وهم بالأسلحة والعدد والطبول إلى خارج باب النصر ووقفوا بالشوارع والسقائف ... الخ^(١)

ثم يصف الجبرتي بعد ذلك استقبال القاهريين لمن يحمل إليهم أمر تنصيب محمد على وعزل خورشيد وصفاً شاقاً إلى أن وصل القادمون « الى الأزبكية فنزلوا ببית محمد على باشا وحضر المشايخ والأعيان وقرءوا المرسوم الذى معه ومضمونه الخطاب لمحمد على باشا والى مُجدة سابقاً ووالى مصر حالا النداء من عشرين ربيع أول^(٢) حيث رضى بذلك العلماء والرعية ، وأن أحمد باشا معزول عن مصر ، وأن يتوجه إلى الاسكندرية حتى يأتيه الأمر بالتوجه إلى بعض الولايات^(٣) » .

فمن هذا التاريخ الذى أورده الجبرتي تبدأ ولاية محمد على الرسمية بأقرار الباب العالى لما اختاره العلماء والشعب .

ولكن خورشيد باشا لم يمثل أمر السلطنة لعزله وتولية محمد على وقال : « أنا متولّ بخطوط شريفة وأوامر منيفة ولا أنعزل بورقة مثل هذه^(٤) » ، وبقي خورشيد حتى بعد هذا الأمر من السلطنة ممتنعاً تأخذه العزة بالإثم يابى أن ينزل على رغبة الشعب أو على أمر السلطان ، .

وفى يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شهر ربيع الثانى من العام نفسه^(٥) « وصل السلحدار الى بولاق وركب من هناك الى المسكان الذى أعد له وصحبته مكاتبه الى أحمد باشا المخلوع ومضمونها الأمر بالنزول من القلعة ساعة وصول الجواب اليه من غير تأخير وحضوره الى الاسكندرية ، وجواب آخر الى محمد على

(١) ص ٣٥٦ — ٣٥٧ ج ٣ من الجبرتي .

(٢) ١٩ يونيو سنة ١٨٠٥ ميلادية .

(٣) ص ٣٥٧ ج ٣ من الجبرتي .

(٤) ص ٣٥٨ > > »

(٥) ٢٥ يوليو سنة ١٨٠٥ ميلادية .

بإبتهائه في القائمقامية حيث ارتضاه الكافة والعلماء ، والوصية بالسلوك والرفق بالرعية ^(١) . ولم يمثل خورشيد باشا مرة أخرى لهذا الأمر من السلطنة .

ولكن قوة الشعب والعلماء وإصرارهم على خلع خورشيد باشا وتنصيب محمد على والحصار الذى ضربوه جميعا على خورشيد فى القلعة جعله يسلم ويخرج من هذا العناء فينزل حريمه من القلعة وكثيرين من رجاله فى يوم الاثنين التاسع من شهر جمادى الأولى سنة ١٢٢٠ « ثم نزل الباشا المخلوع من باب الجبل فى رابع ساعة من النهار ، فى اليوم الثانى ٢٠ جمادى الأولى سنة ١٢٢٠ » ^(٢)

وهكذا مكن لمحمد على الكبير فى مصر ، وانتصر العلماء « والفلاحون » على خورشيد باشا الأرنؤدى ومن كان معه ، واختار الشعب والياً عليه من رأى عنده « العدالة » فيهم « والخير » لهم . وأقرت السلطنة هذا الشعب على اختياره حيث « ارتضاه الكافة والعامة » حتى سعى فى تنصيبه قبط مصر ، كما رأينا من قبل .

ونحن نجد بعد هذه السنين الطويلة وبعد هذه النهضة الجبارة التى حققها محمد على لمصر ، وذلك الأمن والأمان والاستقرار الذى شمل البلاد المصرية وملحقاتها جميعا ؛ نجد من هذا كله أكبر دليل على فراسة علماء الأزهر وإخلاصهم وصادق حسهم وحسن تقديرهم حين وقع اختيارهم على محمد على الكبير ليسكون والياً على مصر ، وعلى صدق تلك الحاسة الشعبية الموقفة التى أجمعت على تأييد محمد على عندما اختاره العلماء كما أجمعت على إكباره وحبه .

وأعتقد أن خير ما يروى على الناس فى عيد الملك العظيم فاروق شبل إسماعيل ومحمد على الكبير ، هو هذه الصفحات الناصعة المشرقة من تولية محمد على واختيار علماء الأزهر « والفلاحين » له ، لمصلحة الشعب .

أعتقد أن هذه الصفحات الناصعة المشرقة هى خير ما يروى للناس باسم الأزهر فى عيد هذا الملك العظيم فاروق .

(١) ص ٣٥٩ - ٣٦٠ ج ٢ من الجبرقى .

(٢) ص ٣٦١ » » »

الغزل

في كامل المبرد

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الغنى اسماعيل
المدرس بكلية اللغة العربية

الغزل ضربان : ضرب ترى عليه مسحة اللهو ، وسيا المجون ، ولم يقصره صاحبه على غانية ، إنما جعل فيه لسكل غانية تراوت له نصيبا ، وكل فتاة لها حظ من الجمال قسما موفورا .

وضرب آخر تعرف العفة في أبياته ، وتكاد تلس السكرم والطهر بين أجزائه ، يتم كل مقطع منه عن عاطفة مشبوبة ، وصباة صادقة ، وحب عفيف غير مشوب بما ينكر معاملة ويفسد جوانبه .

هذان الضربان وقاهما المبرد حقهما من الاختيار ، وذكر كثيرا من رجالهما . فقد أفرد الباب الخامس والعشرين والخامس والأربعين للغزل ، ولن ترى فيهما لغيره إلا أن يكون شاهدا على وضع لغوى ، أو مذهب نحوى . وفى الباب الذى عقده للغناء ، والذى عقده للترجيع عن القارىء ، والذى عقده للتشبيه ، شعر كثير يتعلق بالمرأة وأوصافها ؛ وبين هذه الأبواب فصول جرت فيها محاورات بين شعراء الغزل تزيد مادة النسيب ، ويزداد بها النقد الأدبى . ومن قبل هذا وذاك مقطعات لها الصدارة فى هذا الباب ، وكان وصف المبرد لها صادقا . يقول فى باب الأساليب العربية :

« وما يستحسن لتخلصه من التكلف ، وسلامته من التزيد ، وبعده من الاستعانة ، قول أبى حية :

رمتى وستر الله بينى وبينها عشية آرام الكناس رميم

فلو أنها لما رمتني رميها ولكن عهدي بالنضال قديم
يرى الناس أنى قد سلوت وإننى لمرمى أحناء الضلوع سقيم
يقول: رمتنى بطرفها وأصابتنى بمحاسنها، ولو كنت شاباً لرميت كما رمت،
وفتنت كما فتنت، ولكن قد تطاول عهدي بالشباب .

ثم يقول : « وما يستحسن لفظه ، ويستغرب معناه ، ويحمد اختصاره ،
قول أعرابي :

فمن يك لم يغراض فإنى وناقى بحجر الى أهل الحمى غرضان
هوى ناقى خلنى وقدامى الهوى وإنى وليأهاا لمختلفان
تحن فتبدى ما بها من صباية وأخفى الذى لولا الأسى لقضانى

وبعد هذا بقليل آيات تصف الأمانى العذبة الروية ، وأخرى لجميل تصف
الألحاظ وأثر العيون المراض فى النفوس ، وثالثة لأبى حية يعارض بها جميلا ،
وموازنة بينهما لأبى العباس ، وفى هذه الفصول يمس المبرد مسا رقيقا أناسا
لامسوا المحبين واتصلوا بهم ، فمنهم من سفر بينهم ، وكان مثلاً لظرف الحجاز
ونسكه ، كابن أبى عتيق ، ومنهم من اكتسب بالعشق ورآه تمرا يساط بسويق ،
كأبى العتاهية الذى يصور لك مذهبه فى الحب هذان البيتان :

رمتنى بسهم الحب أما قذاذه فتمر وأما نصله فسويق
ألا رب خود عينها من خزيرة وأنيابها الغر الحسان سويق

هذا عرض وجيز للغزل فى كامل المبرد ، وأنا أحسبه جاوز مختار أبى تمام
عدداً ، وإن كان مختار أبى تمام يفضلته لإحاطته بكل المعانى العربية فى هذا الباب
على كثرتها وتعدد موضوعاتها . ومهما يكن فقد ذكر شعراء كثيرين واختار
لكل منهم من رائع شعره فى الغزل ؛ فابن أبى ربيعة والعرجى والأحوص ونصيب
وابن الرقيات وابن حسان والراعى والتقى وبشار وأبو نواس من الإباحين .

وجميل وكثير والمجنون وابن ذريح وذو الرمة وابن ثور وأضرابهم من
العذريين . وقد خص المبرد شاعرين من هؤلاء فأكثر من الاختيار لهما ، وهما
ابن أبى ربيعة ، وقيس بن معاذ .

وقد أحسن المبرد كل الإحسان في الاكثار لهذين ؛ فعمر زعيم الإباحيين
بلا منازع ، عنه أخذوا ، وبه اقتدوا ، وطفقوا يعارضونه في أشعارهم ومجالس
لهوهم ؛ والمجنون إمام لمن أتى بعده عن أرداه الهوى ، وتبلة الغرام ، فله عذره بل
توفيقه وإصابته .

هذا وقد بدا لي وأنا أجبل فسكرى في مختاره أمور أعرضها في هوادة ويسر
مع اعترافى بفضلته وأستاذيته .

منها أنه لم يختار إلا لشاعر إسلامى أموى ، أو عباسى على قلة ، فكأن
أبا العباس كان يرى أن الغزل لم يكن غرضاً مستقلاً إلا في عهد بنى أمية ، فإن لم
يكن يراه فقد مهد باختياره الطريق للقائلين به . وفي الحق الذى لا يسع منصفاً
أن يبدى صفحته له ، أن هذه الكثرة لم يعهدها الأدب العربى قبل الأمويين ،
بل لم تعهد في مكة والمدينة من قبل شعراء وهبوا أنفسهم للغزل ، وقضوا دهرهم
في قصف ومجون ، وعمره ببعيشة مفعمة باللهو والانقياد للشهوات .

ومنها أن المبرد كان يسف في الاختيار أحياناً ليرضى مذهبه النحوى ،
وإن نفر منها الذوق ، وأنسرها الأدب ؛ تراها في غير موضع من كتابه يطنب
في بيانها ويستطرد من أجلها . بل قد تكون القطعة طريفة في معناها ، سلسلة
في أسلوبها ، فيعتمد المبرد الى إيقاعها بهذه الترهات فتتوهم بها وتشوه من جمالها .
اقرأ قصيدة عمر :

من رسولى الى الثريا بأنى ضقت ذرعاً بهجرها والكتاب

لتعلم ما صنع فيها وحشد حولها من غناء النحويين . وفي الحق أن المبرد كان
وفياً بوعده إذ يقول « والنية أن نشرح ما وقع فيه من الإعراب شرحاً شافياً » ،
وفي الحق أن الباحث لا يكون وفياً للبحث العلى إذا لم يقل إن مختار المبرد
في هذا الباب كثير منه من النوع المتوسط ، ونادر فيه الردى ندرة الجيد ،
وأن أبا العباس أهمل كثيراً من الشعراء المجيدين الذين توجهوا الأدب بأكاليل

من روائع شعرهم في هذا الباب ، مؤثراً لشعراء خاملين ؛ وقد يذكر شواهد من قصائد في الذروة العليا من النسب ويتغافل عنها ، في حين أنه قد يذكر قصائد لا تعد رأساً ولا ذنباً فيه ، من أجل تفسير كلمة غريبة نائية .

هذا وإنني أدلك على مقطعة من مختاره الجيد تماماً للبحث ، ووفاء بحق الأدب ، وأرسل على هامشها كلمة قصيرة تقوم مقام النثر لجليل معناها . قال قيس ابن معاذ :

ولم أر ليلى بعد موقف ساعة يطن منى ترمى جمار المحصب
ويبدى الحصا منها إذا قذفت به من البُرد أطراف البنان المخضب
فأصبحت من ليل الفداه كماظر مع الصبح في أعقاب نجم مغرب
ألا إنما غادرت يا أم مالك صدى أينما تذهب به الريح يذهب

أسعده الزمان فلف شمله بليلى في منى حين كانت ترمى الجمار فتتلاعب بعقله حركاتها اللذيذة وأناملها المخضوبة ، فتراه مذهوب العقل مشترك اللب ، وما هي إلا ساعة من نهار حتى فرق بينهم النفس ، فراعهم ركائبهم من مومة ، فحدد إليهم الطرف ولا يستطيع الدنو منهم لأن حولهم أحراساً شداداً ؛ فهو كالناظر إلى النجم دانيا لمغيب ، وكان متاع قليل من حبيب راحل ، أورث حزناً طويلاً ، ووكّل به شقاء لازماً ، وأعقب حسرة لا تدفع ، ولوعة لا ترد ، وأبقى شيئاً يبيح الأسماع ما يمنع العيون .

إلا إنما غادرت يا أم مالك صدى أينما تذهب به الريح يذهب

هل ترى في هذا الكلام غريباً أو ساقطاً سوقياً يمجّه سمعك وينبوعه ذوقك؟ ألسنت ترى له نوبة بالقلب وعلقاً بالنفس ودرّكاً للحاجة ، مع القصد في المعنى واللفظ ؟ وهو إن أسرف في البيت الأخير فإن الهوى يخرج من حد الإسراف إلى حد الاستطراف ، ويجعله في باب البادر المفرد والبارع المستجاد . وما أجمل هذه المبالغات يتولاها مبدع فيجيد حوكها فيكون لها موقع من القبول باهر ، ومدخل إلى النفوس ساحر .

وسأختم كلتي بهذه الآيات التي قالها المجنون حين نمي إليه أن ليلي يغدى
بها أو يراح :

كأن القلب ليلة قبل يغدى بليلي العامرية أو يراح
قطاة عزها شرك فبانت تجاذبه وقد غلق الجناح
لها فرخان قد تركا بوكر فعشهما تصفقه الرياح
فلا في الليل نالت ما ترجى ولا بالصبح كان لها يراح
تلك التي أطلقت لسان المبرد بأنها أبلغ ما قيل في خفقان القلب ، وأنها غاية
الوصف بالاضطراب . وكيف لا تكون ؟ ليس قلبه كقطاة أنزلها الدهر على حكمه
من طلاقة وأمن ، إلى شرك غلبها وأمكه منها قدر متاح فبانت تكابد وتسعى
جهدا في الخلاص ، وقد عز الخلاص حين حم القضاء فعلق الجناح ؟ ومما زاد
في حزنها وأهاب بهمومها تركها فرخين بمهب الرياح قد افتقدا الكاسب وعجزا
عن النهوض .

أسأل الله أن يؤلف بين قلوب المسلمين ، ويشعرها جلال الألفة وجمال المحبة ؛
محبة الفضائل ورياضة النفوس عليها وإيثار الباقيات الصالحات ؛ محبة تام فيها
الآهواء ، وتحسم بها الأدواء ، وتقطع العلل والمعاذير ، ولا تبقى إلا النفوس
بريئة من أضغانها ، سالكة سبل ربها ، في إيمان وأمن ورضى ، حتى تلقاه
راضية مرضية .

استعطاف بليغ

قال العتيبي : أمر عبد الملك بن مروان بقطع مرتبات آل أبي سفيان
وجوائزهم ، لموجدة وجدها على خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان .
فدخل عليه عمرو بن عتبة فقال : يا أمير المؤمنين إن أدنى حقك متعب ،
وبعضه قاذح لنا ، ولنا مع حقك علينا حق عليك باكرام سلفنا لسلفك . فانظر
إلينا بالعين التي نظروا بها إليهم ، وضعنا بحيث وضعتنا الرحم منك .

انحلال الزواج

الحضرة الأستاذ صالح بكير

المدرس بكلية أصول الدين

الأصل أن الزواج ينحل بوفاة أحد الزوجين ، وقد ينحل أيضا بالطلاق . وسفترض لهذا الأخير في أهم القوانين القديمة والحديثة . وأما الغيبة فلا تحل الزواج مهما طال مدتها .

القانون الروماني : ينحل الزواج في القانون الروماني بموت أحد الزوجين أو بفقد الحرية أو الحقوق المدنية ؛ إذ الزواج القانوني كان معتبرا من الحقوق المدنية التي لا يتمتع بها إلا المواطن الروماني ، كما أن الزواج كان ينحل أيضا بالطلاق . ويلاحظ أن الزواج بلا سلطة كان ينحل كانحلال الزواج بالسلطة . وطريقة ذلك كانت على عكس الشروط المكونة للزواج ؛ فبما أن الزواج عقد يتم بالتراضي فكذلك الطلاق أي يحصل بالرضا المتبادل . وبجانب هذه الطريقة كانت توجد طريقة أخرى خاصة بالزواج بلا سلطة ، وهي أن يهجر أحد الزوجين زوجه *Répudiation* ويتخلى عنه . وعلة ذلك أن الزواج كان من الحقوق الخاصة .

والثابت تاريخياً أن الدولة كانت لا تتدخل في مسألة انحلال الزواج ؛ وبناء على ذلك كانت لا توجد حدود للطلاق ، فكان ذلك سببا لشيوعه وانتشاره في أواخر عصر الجمهورية وأوائل الإمبراطورية ، حتى لقد وصل الحال بالنساء أن يحسبن سذبن بعدد طلاقهن . وقد ترتب على انتشار الطلاق مساوئ اجتماعية وساعد على قلة النسل . وكان الطلاق يحصل بإقرار شفوي أمام سبعة شهود .

وفي القرن الثاني وجد نظام المهجران أو التخلي بطريق إعلان من الزوج لزوجته ، ولم يوجد تشريع للطلاق إلا في عصر الإمبراطورية المسيحية التي حاولت

القضاء على الطلاق ولكن بدون أن تقرر مبدأ لذلك ، ويعتبر أول تدخل للدولة في شؤون الطلاق هو ما قام به ديكايانوس (ولم يكن مسيحياً) حيث قرر بأنه في حالة عدم كفاءة الزوجين أو في حالة وجود نزاع بينهما فإن القاضي يقرر لمن تكون له حضانة الأولاد .

وظهر بوضوح في عهد قسطنطين المسيحي الاتجاه نحو الحد من الطلاق ، كما لا يجوز الهجران إلا في أحوال معينة . وأكثر ما كان يقع ذلك كان من جانب الزوج ، ولكن المرأة يجوز لها أن تهجر زوجها إذا ارتكب جريمة قتل أو تسميم أو انتهك حرمة القبور . وكانت توجد عقوبات في غير هذه الأحوال .

أنواع الطلاق في عصر جوستينيان :

يمتاز هذا العصر بتشريع غريب لمادة الطلاق ، وقد حصره في أربعة أحوال :

- (١) طلاق بالتراضي ، وكان قد قرره ثم ألغاه ثم قرره جوستيان الثاني .
- (٢) طلاق لأسباب شرعية كعجز الزوج عن إتيان زوجته عجزاً نهائياً ، أو لعقم الزوجة ، ويعتبر هذا الطلاق هجراناً . (٣) طلاق في معنى الهجران ويعتبر عقاباً لأحد الزوجين الذي ارتكب خطأ نحو زوجه الآخر . (٤) طلاق بلا سبب شرعي وهو هجران لا يستند على سبب شرعي ، ومع ذلك فإنه يقع صحيحاً ويترتب عليه عقاب الذي وقع منه الهجران .

عقوبات الطلاق :

كانت هذه العقوبات في عصر جوستيان وهي : (أ) عقوبة توقع على المخطيء من أحد الزوجين الذي حصل بسببه الطلاق (ب) عقوبة ضد الزوج الذي طلق بلا سبب . والعقوبات على نوعين : مالية وجسائية ، تختلف على حسب الظروف والأحوال ، كالاعتقال مؤبداً في أحد الأديرة .

القانون الجرمانى :

بدأ القانون الجرمانى من حالة قديمة جدا حيث كان الزوج وحده هو الذى له حق هجران زوجته ، ويظهر أن استعمال هذا الحق ما كان يستند على سبب بل على مجرد رغبة الزوج . ولكن فيما بعد خففت حدة هذا الحق ، وذلك بسبب الخوف من التعرض للانتقام من أقارب الزوجة إذا هجرها الزوج بلا سبب

كالزنا مثلاً. ثم أخذ الطلاق بالتراضى يحتل مكانه في القوانين الجرمانية التي وقعت تحت تأثير النفوذ الروماني، وذلك بجانب طلاق الهجران الذي يحصل من الزوج إذا كان هذا يستند على سبب صحيح. ولكن الواقع أن الزوجة كان لها أيضاً هذا الحق أى لها حق هجران زوجها. ويبدو أن عدم المساواة بين الزوجين في هذا الحق لم يندثر بعد حيث إن الزوجة التي كانت تهجر زوجها بلا سبب كانت تعرض للعقوبات الجسدية. بينما أن الزوج لا يتعرض لمثل هذه العقوبات وإنما توقع عليه عقوبات مالية. ويتضح أنه وإن كان الجارى عليه العمل في إثبات الطلاق هو الكتابة إلا أنه يظهر أن هذا الشكل ليس ضرورياً حيث كانت توجد أشكال أخرى غير الكتابة .

القانون الكنسي :

في وقت ظهور المسيح كان غير منتظر أن تنتشر المسيحية في أنحاء العالم القديم (اليهود والاعريق والرومان) .

ويلاحظ أن الطلاق كان يتعارض مع هذا الدين الجديد ، وقد كان من المنتظر أن يقضى هذا الدين على الطلاق حيث أن الانجيل وحواري المسيح يرون الطلاق أمراً غير مقبول وغير مرغوب فيه . وكانوا ينادون بمبدأ عدم قابلية الزواج للانحلال ، فيجب على الزوجين أن يتصالحا ويتسامحا عن الجرم المرتكب لأن مبدأ الاحسان يجبرهما على عدم الانفصال بلا عودة . وأحد الأسس الذي يستند عليه هذا المبدأ هو ما ورد في عبارة القديس ماتيوس (٥ / ٥١ / ٣٢) وكانت موضوع نقاش وجدل بقطع النظر عن مسألة الهجران بسبب الزنا . والرأى الغالب بين رجال الكنيسة هو أن الطلاق (حتى في حالة الزنا) محرم ، فيجب على الزوج إعادة زوجته الخاطئة متى ندمت وتابت عن ذنبها . ولكن للزوج الحق بل واجب عليه أن يبتعد عن التي تصرّ على خطئها ، كما أنه ليس له الحق في التزوج . وقد فاز واتصر هذا المبدأ بواسطة القديس أوغستين الذي ربطه بالفكرة القائلة بأن الزواج رباط ديني وصورة لاتحاد المسيح بالكنيسة ، فلا يقبل الانحلال لعدم قابلية اتحاد المسيح بالكنيسة للانحلال ، وكان هذا عقيدة سائدة . وقبل نهاية القرن التاسع لم يكن تشريع الكنيسة ضيقاً للغاية (إذ لا عقوبة

على الزوج الذى يتزوج ثانياً (حيث الطلاق كان جارياً استعماله فى عهد الفرنك عن طريق الدولة بدون أن تعترض الكنيسة على ذلك حيث فى نهاية القرن الثامن كانت المراسيم الملكية قررت حالة استثنائية لمبدأ عدم قابلية الزواج للانحلال ؛ لأن هذا المبدأ على شكله المطلق لم يكن قد حاز قبولا بصفة عامة (سنة ٧٨٩ وسنة ٨٧٩) ، وذلك لأجل ملافاة الصعوبات الخطيرة التى أحدثها طلاق لوتير وتونبرج سنة ٨٥٧ . ولذا كان لزاماً أن يتدخل البابا نيقولا الأول حتى يحترم مبدأ عدم قابلية الزواج للانحلال .

وإنه وإن كان الطلاق كان جارى الاستعمال كمخلف عن الآثار القديمة إلا أن الرأى كان للكنيسة ، وبقي المبدأ فى صيغته التى صاغها جراسيان وصاغتها المراسيم .
الانفصال الجسمى :

إن كلمة الطلاق لم تندثر فى لغة القانون ، ولكنها استعملت فى الدلالة على :
(١) انفصال الزوجين فى حالة إلغاء الزواج . (٢) حالة الانفصال الجسمى الذى كان يصدر بحكم بواسطة القضاء الكنسى وذلك فى أحوال معينة كزنا الزوجة وكسوء المعاشرة من جانب الزوج أو كزندقة أحد الزوجين .

قضاء المحاكم البرلمانية :

نظمت فى عصر الملوكية مسألة الانفصال الجسمى وتركت أسباب تقديره للقاضى (كسوء المعاملة أو رفض إعطاء ما هو لإلزام لضروريات الحياة) ومع ذلك فزنا الزوجة كان يؤدى الى الانفصال الجسمى إذا ادعاه الزوج ، وليس الأمر كذلك بالنسبة لزنا الزوج . وكان تدخل قاضى الدولة أمراً ضرورياً فى تحقيق أسباب الانفصال الجسمى . وقد حل هذا القاضى محل القاضى الكنسى كما فى كثير من الأحوال الأخرى . ويلاحظ أن اعتراف الزوج بالزنا لا يصح أن يكون دليلاً وسبباً كافياً للحكم بالانفصال الجسمى إذ قد يكون هذا الاعتراف حيلة للوصول الى الانفصال الاختيارى .

والانفصال الجسمى لا يفصم عرى الزوجية وإنما يؤدى فقط الى إعفاء الزوجين من واجبات الزوجية التى أهمها المساكنة ، كما يؤدى الى الانفصال فى الأموال ، ومع ذلك فقوامة الزوج تبقى ولا تزول .

السابقات إلى الاسلام :

رسول النساء الى الرسول

لفضيلة الأستاذ كامل محمد عجلان

مدرس بمعهد القاهرة

طابت نفوس أهل (المدينة) بهجرة الرسول إليهم ، وبات الإيمان يعمر قلوب
الأنصار والمهاجرين . وجعل الرجال والنساء يتدارسون القرآن ويتفهمون ما نزل
منه ، ويتبعون ما يأمر به النبي ، ويوحى بعضهم الى بعض ، ما تلقاه بين يدي
رسول الله ، وما سمعه من صحابته ، وما عرفه من الدين وقواعده وأوامره ونواهيه .
وكانت نساء الأنصار يتشوقن في لهفة الى استماع القرآن ، وتبصر واجبهن ،
وما شرع لهن ، وما يقربهن الى الله زلفى .

وكان كل رجل يعود الى بيته بعد أن يحضر مجلس الرسول ، وقد وعى ما ينصح
به أهله ، وما يذكى روح بيته وعشيرته من أخت أو أم أو زوج .

وكانت في (المدينة) مثابة الإسلام بعد الهجرة (فتاة) في ريعان شبابها
ومقبل عمرها ، يزينا جمالها ، ويعلو بها عقلها ، لها بين لداتها منزلة بفضل فصاحتها
وسعة إدراكها ، وشدة تلهفها على المعرفة والوقوف جاهدة على ما ينادى به الرسول
وما يدعو اليه الإسلام ، من كل ما يهيم المسلم والمسلمة ، والأنصارية والمهاجرة .
وكانت كلما تلقت من أدب الدين شيئاً ، زادها إيماناً ورغبة في أن تقتنى آثار
ما يوحى ، وما يتنزل من السماء ...

وتريد أن تشارك الرجال في السبق الى المعرفة ، ولكن حياء المرأة وطبيعتها
وبعدها عن مجالس الصحابة إذا تحلقوا حول الرسول ، كل ذلك كان يقلقها ، فتهم
بزميلاتهن وتطلب عندهن حاجتهن من العلم والمعرفة فلا تجد إلا بمقدار . وإنها

لتخشى أن تكون درجة النساء في الجهاد منقصة تنتهي بالمرأة الى منزلة عند الله أقل من الرجل المجاهد في سبيل الله .

لقد بايعت الرسول مع من بايعن من النساء حين هاجر الى المدينة ، وأسلمت لله وأخلصت لدينه القوى المتين . ولكنها ترى الرجال يجاهدون في سبيل الله ويمتازون بصلاة الجماعة والجمع والأعياد .

طال بها التفكير ، وهداها عقلها الى أن ترجع الى رسول الله .

ولكن كيف السبيل ؟ أتذهب الى نساء النبي وتسأل إحداهن ؟ ... لا شفاء لنفسها إلا إذا قابلت رسول الله ، وإنه ليجلس بين أصحابه كلما دعا أمر ، أو نزل وحى ، أو استراح بهم الجهاد ، أو قضيت الصلاة .

طال بها التفكير ، وأخيرا غلب على حياتها شدة إيمانها وشوقها الى معرفة مكان المرأة وحظها من الجهاد وأجرها على ما تقدم في حياتها من كفاح مع السابقين الى الإسلام .

كاد ينقلب شوقها غيرة من حرمان المرأة حمل السلاح وحضور الجناز والحج بعد الحج . وخافت أن يكون في تلك الميزات ما يحرم المرأة من الفضل ، وما يخلف قدرها في أجر الآخرة ، إذا فتحت أبواب الجنة للسابقين الداخلين في دين الله أفواجا .

وأخيرا لم تجد بدا من الذهاب الى رسول الله . وما أن علمت أنه أخذ مجلسه بين صحابته يزيهم ويعلمهم الكتاب ويرشدهم ، حتى انطلقت تدفعها الرغبة ويحفها الحياء ويحوطها الأدب .

راحت (أسماء بنت يزيد الأنصارية) تنصب في سيرها العاجل وخطواتها المؤلمة ، وأنفاسها المتلهفة ، وتفكيرها الدائر حول ما تسأل فيه الرسول ، وماذا تعود به الى نساء المدينة من قول تزفه بشرى الى النساء المسلمات ، ليكون حديثاً يروى ، وأثرا يذكر ، وأدبا يحتذى ، ودستورا يقتدى به ، وتقف المرأة عند حدوده طيبة النفس ، مستريحة خاطر ، آمنة على أملها في الجنة ، وحظها فيما أعد الله للمتقين من جنات عرضها السموات والأرض .

نعم : مضت (أسماء الأنصارية) إلى مجلس تحف به الهيبة . وهناك قالت :
« يا رسول الله بأبي أنت وأمي ! أنا وافدة النساء إليك . إن الله عز وجل
بعثك إلى الرجال والنساء كافة فأمننا بك ويأهلك . »

« إنا معشر النساء محصوراتٌ مَقْصُورَاتٌ ، قواعِدُ في بيوتكم ، وحاملاتٌ
أولادكم ؛ وإنكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعة وعبادة المرضى وشهود
الجنائز والحج بعد الحج ، وأفضل من ذلك الجهادُ في سبيل الله . »

« وإن أحدكم إذا خرج حاجا أو معتمرا أو مجاهدا ، حفظنا لكم أموالكم ،
وغزلنا أثوابكم ، ورينا لكم أولادكم ، أفنُشَارِ كُكُمْ في الأجر والخير ؟ . »



كأني بها قد صمتت في أدب وانتظار لما يوجه الرسول . وكأني بالصحابة
يعجبون من ذِلاقة لسانها . وكأني بها كَتَفَسَّت عن راحة بالها حين سألت عن
كل ما يَشْغَلُهَا وَيُثْقِلُ صدرها ..

وهنا التفت النبي إلى أصحابه بوجهه كله ، ثم قال :

« هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها من هذه ؟ »

فقالوا : يا رسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا .

والتفت النبي إليها وقال : « أفهمي أيتها المرأة وأعلمي من خلفك من النساء أن
حُسْنُ تَبَعْلِ المرأة لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يَعْدِلُ ذلك كله . »
وتبعل المرأة لزوجها : إطاعتها له ، وحسن أدبها معه ، وقيامها بحقه .

عادت أسماء من عند رسول الله إلى نساء المدينة ، والفرح يملأ جوانحها ، وإنها
لتوسط حلقات زميلاتِها وتفصح عن لقاءها للنبي وإنها لتروى ما سمعت منه
وقت وفادتها ، وحسن استماعه لها ، ورقة جوابه ، ورأفته بها وبمعشر النساء جميعا .

لقد سهرت عند الرسول تبغى بيان أجرهن على جهادهن ، فعلمت أن جهاد
المرأة « هو رعاية زوجها » ولها أجر المجاهدين في سبيل الله . ومن يوم هذه
السفارة عرفت بخطيبة العرب ، ورسول النساء إلى الرسول .

وأصبحت (أسماء) مرجع نساء قومها، يتدبرن رأيها، ويتبعن ما تنصح به، وأضحت مرجع كثير من التابعين يَرِدْنَ من أفصاحها وفضل أدبها ما شاء الله وشاءت لها غيَرتُها على حقوق المسلمات وتنقيف المسلمين .

إنها أسماء ، وكم في الصحابيات من مُثل تستطيع المرأة أن تقتدى بهداها، وتعرف الهدف الذي حدد لها من أول مطلع التشريع والتوجيه .

إن جهاد المرأة في منزلها هو الجهاد الأكبر؛ لأنها تحمل نفسها على الصبر، وتدفعها إلى العمل في سبيل الأسرة، وتردها عن الميل إلى الخروج على طبيعة ما أعدت له وأعد لها الأجر من ورائه .

ومما يدل على قيمة جهاد المرأة في بيتها، ويؤكد ما وعد به رسول الله ، قوله الى أحد الرجال ، وقد جاء يوما الى مجلس النبي ، فقال :

« يا رسول الله : إن لي امرأة إذا أتيت مهموماً قامت الى فأخذت بطرف رداي ومسحت على وجهي وقالت : إن كان همك للدنيا فصرفه الله عنك ، وإن كان همك للآخرة فزادك الله هما . »

فقال الرسول : « إن لها أجر الشهداء ورزقهم . »

تلك هي بعض مواقف المرأة ، وبعض ما أعد لها من أجر الله ، وما أثارته وافته النساء .

وليس معنى ذلك أنها لا تشترك في الجهاد والمحارب إن دعت الظروف وقضت المواقف ، بل إن رسالتها الكبرى في المنزل قد تسمح لها بأن تشترك في مد الجيوش المحاربة بما تستطيع من مال وجهد وعمل في حد طاقتها .

ولا أصدق على ذلك من موقف أسماء الصحابية هذه . فلقد عاشت طويلا بعد الرسول وأدركت موقعة (اليرموك) بين المسلمين والروم ، ولما التحم الجيشان كانت تقوم على إسعاف الجرحى وإمداد المحاربين بالماء ، ولما حى وطيس الحرب تناولت عمود خيمتها وتقدمت الى صفوف المحاربين وجعلت تضرب حتى قتلت تسعة من المحاربين من جنود الروم أعداء المسلمين .

وتلك القوة من فضل الإيمان في نفوس السابقات الى الاسلام .

أساليب العيش

بين الأدب والدين

لفضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم أبو الحشب
المدرس بالأزهر

كان فيما تناقل الناس جيلا بعد جيل ، وقيلا بعد قبيلا ، أن الضرورة تبيح المحظورة ، وأن طالب القوت ما تعدى . لذلك فهم يرون في سبيل سدّ العوز ، ودفع الفاقة ، والابقاء على الحوباء ، أن يَحْتال الانسان صنوف الحيل ، ويسلك أعنف الطرق ، ليمنع ما عساه أن يودى بنفسه جوعا ، أو يخرّ بها صرعى في ميدان تنازع البقاء .

غير أن الفقى يلاقى المنايا كالحات ولا يلاقى الهوانا !
وقد عيب على الحريرى هذا اللون من الأدب الذى كان أشبه الأشياء بالكدية والاستجدام ؛ لأن الناشئ لا يأخذ عنه إلا ضعفا وخضوعا ، وذلة وخنوعا ، إذ ينتهى منه إلى مثل قوله :

لبست الخيصة أبغى الخيصة وأنشبت شصى فى كل شيعة
وصيرت وعظى أحبولة أريغ القنيص به والقنيصه
وألجأتى الدهر حتى ولجت بلطف احتيالى على الليث عيصه

وربما كان أشد اعتدالا ، وأكثر إنصافا ، من يرى أن يتخير الرجل مرأى رحله ، ومواطن سفره ، ومواضع تسأله ، فلا يرجو ماهب ودب ، ولا يقصد كل حاف ومنتعل ، وإنما يعتام مواقع الغيث ، ومنابت الكلاء .

وإذا ابتليت ببذل وجهك سائلا فابذله للسكرم المفضل
 ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله عوضا ولو نال الغنى بسؤال
 ولم تكن هذه سيئة عصر خاص ، ولا جريرة بيئة خاصة ، ولكنها تركه
 الضعف الخلقى الذى يتوارثه بناء السوء عن الآباء اللئام . . . ثم هى إلى جانب
 هذا جناية الأدب الرخيص فى شعر « المديح » الذى يوبناه فى أبواب ، ونسقناه
 فى صحائف ، تأديبا لأحفادنا ، وفلذات أكبادنا . وكنا نود أن يجاروا الممدوح
 فى عطائه ، والسكرم فى سخائه ، فإن اليد العليا خير من اليد السفلى ، إلا أنهم
 جاروا السائل فى صياغة المدائح ، وصفافة الصفائح ، وبالغوا فى المقصود ،
 كأنه المعبود .

وما رأيت - فيما رأيت - من هذا الطراز من الشعر ما يحتفظ فيه القائل بماء
 وجهه ، أو يرفع بكرامته ، اللهم إلا فى أبيات لبشار بن برد يوجهها الى أحد
 البرامكة ، زاعما له أنه لا يسأله عن ذلة ، ولا يقصده عن صغار ، بل هى ضرورة
 تبادل المنافع ، قضت أن يكون بذل فى مقابل بذل ، وعطاء ثمنا لعطاء :

أخالد لم أخبط اليك بذمة سوى أنتى عاف وأنت جواد
 فإن تعطى أفرغ عليك مدائحى وإن تأب لم يضرب على سداد
 ركابى على حرف وقلبي مشيع ومالى بأرض الباسخين بلاد
 إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها خرجت مع البازى على سواد

وللدين الاسلامى أدب أفضل من هذا الأدب وأسمى منه لأنه قام على مبدأ
 « ولقد كرمتنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم
 على كثير ممن خلقنا تفضيلا » وهذا التكريم فى نظره يقوم على أساس ألا يكون
 الإنسان عبداً لغير الله ، وألا تصل به الحاجة والفقر إلى درجة أن يجعل وجهه
 فى مواطئ الأقدام « والناس كلهم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على
 عجمى إلا بالتقوى » .

وإذا كان سبحانه قد فضل قوما على قوم فى الرزق ، ففى أموالهم حق معلوم
 للسائل والمحروم ، ولو أن هذا الحق بذل عن طوعية واختيار ، لما كان هنالك
 سائل ولا محروم ، وقائل الله الشح :

ولوسئّل الناس التراب لأوشكوا إذا قيل هاتوا أن يملوا ويمنعوا
ومع هذا فإنه لم يكلّ الفقير إلى حقوق غنى الأغنياء، ولكنه حث على السعى،
ورغب في الزهادة، وكره أن يعيش المرء عائلة على أخيه، وعلينا أن طرق أبواب
الرزق من أفضل العبادات، وأحسن القرب. على أنه بما استقر في الطبائع أن
الحاجة ما دخلت في مودة إلا أفسدتها، ولا معاشرة إلا نغصتها، ولا جماعة
إلا فرقها :

إن من أحولك الدهر إليه وتعلقت به هُنت عليه
ليس يصفو ود من آخيته إن تطلعت لشيء في يديه
وقد جاء في الحديث « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب فيبيع خير له من أن
يسأل الناس أعطوه أم منعوه ». وهو لا يقصد — بالطبع — التخصيص على
الاحتطاب خاصة، وإنما هو أسلوب من أساليب العيش الشريف، والحياة المحترمة.
وهيات أن يولى المسلم وجهه إلى عمل من الأعمال قاصداً الكفاف، ودفع
المسغبة معتمداً على المولى جل جلاله، ثم يخيب مسعاه، أو لا يتحقق رجاءه،
وقوله صلى الله عليه وسلم « لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق
الطير تغدو خماساً وتروح بطاناً، يرسم صورة واضحة للأعمال المقرونة بنجاح
المسعى، وبلوغ الغاية، فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ».

ولم تضق الحياة بنا ولكن زحام السوء ضيقها بحال
ولم تقتل براحتها بنيتها ولكن ساقوا الموت اقتتالا
ولو زاد الحياة الناس سعياً وإخلاصاً لزادتهم جمالا
نعم هو زحام السوء ضيق رقعتها مع اتساعها، وصيرها كأحبولة الصياد
في نظر طلاب الأقوات، ورواد الرزق، وهكذا :

لو أنصف الناس استراح القاضى وبات كل عن أخيه راضى
وقد تذبذب بنا الزمن إلى درجة أن أصبح فينا من يقول : « لو أنصف
القاضى !... »، والواقع أنها عيوب اجتماعية يحمل أوزارها الكبار والصغار.

عيد الانسانية

لفضيلة الاستاذ الأملعى الشيخ محمد عبد المنعم خفاجى
المدرس بالأزهر

يوم الميلاد النبوى الكريم، عيدُ الإسلام والسلام، عيد الإنسانية والحضارة،
عيد الحق والحرية، والإخاء والمساواة .

يوم خالد فى تاريخ البشرية الرهيب ؛ كان فاصلا بين النور والظلام ،
والفوضى والنظام، والحرب والسلام، والشقاق والوئام؛ كان فارقا بين حياتين :
حياة الاستعباد، والحرية ؛ وحداً بين عهدين : عهدى الوحشية، والمدنية .

وُلد محمد صلوات الله عليه، فوُلد معه النور والهدى، والحق والخير، والرحمة
والإيثار، والفضيلة والشرف، والعزة والكرامة .

وما أظن الدين يعترف بما نسميه نحن مصانعة أو مداراة، ويسميه قانون
الأخلاق تضاًؤلاً ونزولاً . على أنك تعذر من تلجئه الضرورة، وتسوقه الحاجة .
أما هؤلاء الذين ليسوا بحاجة إلى هذا كله فما عذرهم أمام الله والتاريخ ؟ أعذرهم
أن فى ذلك الرقى والجاه، والتقدم والعلو، والغنى واليسار، والتمكين لدى الرؤساء
أو المسؤولين ؟ وهو على حد قول القائل :

ما يحرز المرء من أطرافه طرفاً إلا تخونهُ النقصان من طرف !
والسكال بالأخلاق لا بالأرزاق، وبالأدب لا بالحسب والنسب . وخير
ما يكون المؤمن أن يكون كما قال القرآن « لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا
بما آتاكم » والبطولة لم تكن إلا فى الرجولة :

والرجل الضرب من تساوى فى نفسه الصعب والزلول
فهو إذا انحط أو تعالى لا اتيه منه ولا الخمول
كالسيف لا زينه التحلى يوما، ولا عيبه الفلول !

وشبَّ محمد صلى الله عليه وسلم مفضولاً على أسمى الفضائل والمواهب والأخلاق، التي تعتبر تراثاً خالداً تعتز به الإنسانية وينشده الناس .

وبعث محمد إلى الناس كافة، فحمل الرسالة، وأدى الأمانة، ونشر السلام، وجعل كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى، وقضى على من كانوا يعملون جاهدين ليطفئوا نور الله ودين الله .

ومات صلى الله عليه وسلم بعد أن ترك وراءه ديناً عاماً آمناً به العالم، وكتاباً سماوياً رددته الأجيال والقرون، ودولة خضعت لها الشرق والغرب، تأتمر بأمر الله، وتسير على حدود الله، وتؤمن بدين الله، وكتابه الحكيم، ورسوله العظيم .

محمد صلوات الله عليه نشيد الإنسانية الخالد، وأمل الحضارة الباسم، وأول داع إلى أعظم دين، وأنبل مُثُل، وأكرم غايات، وأسمى أهداف .

محمد صلوات الله عليه هو نبي الإسلام، ورسول السلام، وأعظم لإنسان تعتز به الحياة والناس، في شتى العصور .

محمد صلوات الله عليه هو أملنا في الماضي والحاضر والمستقبل، وقدوتنا في الحق والإصلاح والخير، ومثلنا الأعلى في كل ميدان، وكل فكرة أو عمل .

يا رسول الله ! بارك خطوات أمتك الإسلامية في الدفاع عن حرياتهما وعزتهما وكرامتهما؛ وبارك ملاذ الشرق والعروبة والإسلام؛ فاروق المعظم، حفظه الله . وبارك هذا المعهد الإسلامي العظيم : الأزهر، الذي يعمل لنشر دينك، وإحياء سنتك؛ وبارك هذا العهد الجديد السعيد، في تاريخ الأزهر والإسلام، عهد حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الإمام الشيخ محمد مأمون الشناوى؛ أيده الله، في ظل الفاروق المحبوب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الايمان بما فوق الطبيعة

أساس لبتمام النوع الإنسانى وترقيه

اشتدت الفلسفة المادية فى القرن الماضى فى نشر أصولها ، معتمدة على ما كشفته العلوم الطبيعية من مساتير القوى الكونية ، ذهابا من قادتها إلى أن تجرد العقول من كل علاقة بما فوق الطبيعة يفضى إلى فضج القوى العقلية الإنسانية ، ويكون أثر ذلك على الأخلاق والمعاملات والعلاقات الاجتماعية رقيا لا تشوبه شائبة ، وكلا عليا وعمليا يؤدى الإنسانية إلى عهدها الذهبى المنتظر ، دون أن ترتطم بمعطلات اعتقادية تحول بينها وبين الحقائق الكونية .

وقد بذل أشيع هذه الفلسفة جهد الجبارة فى نشر مبادئهم ، فأكثروا من المحاضرات الفلسفية المؤيدة لمذهبهم ، وعمدوا إلى طبع المؤلفات التى تؤيد مزاعمهم طبعات رخيصة الثمن لتنتشر بين الطبقات الدنيا من الشعوب ، حتى تم لهم ما أرادوا من زعزعة عقائد العامة فى شئون ما فوق الطبيعة ، وأصبح الاستخفاف بالمقررات الدينية ، واعتبار قادتها وممثلها من العاملين على صد النفوس عن الاشتراك فى بناء العالم الجديد الخالص من شوائب الرجعية ؛ فكانت ثمرات هذه الجهود التى بُذلت ، انتشار روح التمرد فى الطبقات العاملة ، واستهتار أصحاب الأموال فى جمع الثروات ، وإنفاقها فى اللهو والقصف ، والتفنن فى ضروب اللذات ؛ ونشأت من هذا الوضع مذاهب متطرفة بين العمال وما فى حكمهم ، تذرعت بكل صنوف الوسائل المدمرة للوصول إلى نظم اجتماعية لو تحققت لكانت وبالا وبلا على المجتمعات المتمدنة ؛ بل تألفت أصول اجتماعية اعتبرت مُثْلا عُليا ، على حين أنها حالات استثنائية تولدها الضرورة ثم تزول بزوالها .

كل هذا لا يُظهر بوضوح تأثير المذهب المادى فى إنتاجه ، ولكن هذا

التأثير يظهر في تدهور الآداب العامة ، وفي ارتخاء الرُّبُط الاجتماعية إلى حد أن اعتبرت تلك الرُّبُط في بعض الجماعات من بقايا العصور الهمجية التي يجب العمل على حلها .

أما تدهور الآداب في القرنين الأخيرين فلست في حاجة إلى بيان أطواره ؛ فقد أصبح كل ما كان يعتقد أنه الناس إفراطاً أو تفريطاً ، أو تجاوزاً للحدود الأخلاق العالية ، يعتبر من بقايا الوسوس العتيقة . ففي البيت أصبح الأولاد يشبون على عصيان آبائهم وأمهاتهم ، مستسلمين هذه الحالة عنهم ، فقد نشأ التدافع أول الأمر بينهم ، فالأولون يبقية من الغيرة أرادوا أن يحدوا من حرية زوجاتهم تحقيقاً لمبدأ القوامة الفطرية عليهن ، فنشأت مشادات بين الفريقين ، انتهت بخذلان الرجال ، وكان خذلانهم بعاملين ؛ أحدهما تسمُّمهم بالمبادئ المادية ، وثانيهما بسيادة الروح الإباحية في الخارج ، فأقروا بخطة خسف ، وانتهى أمرهم بالتسليم بدون قيد ولا شرط ؛ فكيف في بيئة مثل هذه أن تُحمل النابذة على اتباع طريقة أدبية ، وما فائدتها في بيئة هي مثال الانحلال والتدهور ؟

على هذا النحو عمت الفوضى البيوتات ، وتعدتها إلى دور الدراسات ، حتى أصبحت مهمة التعليم عبئاً ثقيلاً على القائمين بها .

أما من ناحية الربط الاجتماعية فقد أصابها من الارتخاء ما وصل إلى أشد درجات الخطورة . ومظاهر هذه الخطورة قيام الاعتصابات لأوهي الأسباب ؛ فبينما يكون دولا ب الأعمال على أكمل ما يكون من النظام إذا ببادرة اعتصاب في بعض فقام العمال ، لا يلبث أن يعم جميع الذين يعملون مثل عملهم في جميع أرجاء المملكة ، فيصبح الناس إما لا يجدون خبزا يأكلونه ، أو نورا يستضيئون به ، أو وسائل نقل تقرب بين مساو فهم ، وتحمل تجارتهم ، أو وقودا يدير آلاتهم ، ويدفع عادية الزمهرير عنهم . وكلما استرضيت طائفة خلفتها أخرى ، بغير مبالاة ، بما يستتبع هذه الاضرابات من وقف الأعمال ، وإرباك الاحوال ، وسقوط الوزارات ؛ وأكثر ذلك لا عن ضرورة ماسة ، ولكن تطلعا لولاية الحكم ، وتربصا للفرص لنيل بعض المآرب المادية ، وقد أصبح هذا الداء مستشرياً إلى حد أنها لا تكاد تفرغ الجرائد من حوادث اعتصاب ، حتى تشتغل بغيره ، وهلم جرا .

وأشد خطرا على الانسانية من هذا كله موت عاطفة التراحم بين الجماعات المختلفة ، والذهاب فى الخصومات الى أبعد حدود القسوة والغشمية ؛ فالأمم المتجاورة المتوحدة فى ديانتها وثقافتها ومدنيتها ، قد تتخالف فى سياساتها ومطامعها ، فبدلا من أن تعمل على تقريب وجهتى نظرها ، وتجهدا فى وجدان تسوية عادلة بين مصالحهما ، تعمل كل منهما على حرمان جارتها من حاجتها ، والاستئثار بكل الفوائد دونها ، فلا تجد الموقورة منهما إلا اللجوء الى القوة فى الحصول على رغبتها ، فتقع بينهما حرب ، والحرب وسيلة وحشية ، فهى تناحر لا يصح وقوعه بين الأمم التى تعقل اليوم نتائجها من الخراب والدمار . وقد تجر هذه الحرب الدول التى تمت الى كل من المتخاصمين بسبب ، فتتقلب الى مجزرة عامة بين أمم تملك كل منها من آلات التدمير ما لا يصح استخدامه لاهلاك بعضها بعضا .

حدث كل هذا فى كل أدوار الانتقالات الاجتماعية ، حيث لم تكن وسائل الاقتناع مغنية ، وبقى إلى اليوم وفى العالم محكمة دولية للعدل ! وفى هذا دليل محسوس على أن الأمم بعد أن بلغت هذه الغايات البعيدة من فهم الحقوق الطبيعية ، وذاقت ثمرات السلام فى النواحي العلمية والمدنية ، لا تزال تتغلب عليها النزعة الوحشية ، بل تفاقم شر هذه النزعة فيها إلى حد أنها تندفع إلى الخضوع لها ، وهى تعلم أن نتيجة ذلك إهلاك النوع الانسانى ، وتجريده من كل ما كسبه من ثمرات المدنية والاكتشافات العلمية .

كل هذا أثر الفلسفة المادية ، لأنه يماشى ومبادئها من تنازع الحياة ، وبقاء الأصلح ، وقيام الأقوياء على أنقاض الضعفاء ، وما اقتنت به العقول من أمثال هذه الكلمات الفارغة التى لو بقيت ، لأدت النوع البشرى إلى عهد من الوحشية لا يمتاز عما كان عليه النوع الانسانى فى أول عهده بالوجود .

هنا يشعر القارىء بأن النوع الانسانى ينقصه لأجل أن يحيا حياة طيبة ، ويزداد علما ورقيا إلى ما لا حد له يقف عنده ، إلى عامل أدبى يجد من نزعة الوحشية ، ويصده عن الانقياد لطبيعته الحيوانية . عامل يلائم ما متع به من روح علوى ينزع به إلى السمو الخلقى ، والرقى الأدبى ، والترفع عن التوحش الحيوانى . هذا العامل الأدبى هو ما حمله الدين إليه من الاعتقاد بعالم ما فوق الطبيعة . والذى يسهل على الدين مهمته العظيمة ، ويسوغ له الإدمان على الدعوة إليه ، أن الانسان

قد أدرك وجود هذا العالم العلوى من يوم ظهوره على الأرض ، ولا يزال على ما كان عليه إلى اليوم ، بل زاد شعورا به وشوقا إلى الاستزادة من معرفته .

نعم إن الانسان أطلق العنان لخيالاته في إدراكه لذلك العالم ، فما ترك شيئا مما يتصوره من كائنات روحانية ، وشؤون علوية ، إلا ألحقه به تحت أسماء واختصاصات شتى ، تخالفت الشعوب فيها تخالفا كبيرا ؛ ولكنها انفتحت جميعها على أن ذلك العالم العالى هو مصدر القوى العامة ، منه تشع على جميع الكائنات ، وإليه يرجع تدبيرها وتقويمها ، وأن العالم الظاهر للحواس منفعل له انفعال الجسم للروح ، والمادة للقوى التى تدبرها .

ولما اتسعت للإنسان آفاق المعارف الطبيعية ، زاد تعلقه بذلك العالم واعتقد أن فيه مُثلها العليا وغاياتها البعيدة .

وجاءت الأديان فأيدت الشعور الفطرى به لدى الانسان ، وأزالت عنه ما ألحقته به طفولة الأمم من الأباطيل والخرافات ، وجعلته مصدر أمر الله ونهيه ، ومنتزل قدرته التى تمد الكائنات بما يربّها ويكملها ، ومشوى الأرواح والملائكة ، وفيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت من المشاهد العلوية ، والأنوار القدسية .

فالنفس البشرية الممتعة بالعقل والإدراك ، والشعور الحاد بالجمال والقبح ، إذا نالها البشَم من معاناة الحياة الأرضية ، وأصابها الرَهَق من مغالبة حوائشها ، وشعرت بالهلع والوحشة من تعاقب الكوارث عليها ، لجأت إلى ذلك العالم المحجوب عنها ، فاستمدت منه القوة والصبر على تكاليف الحياة ، واستلهمت الروح الذى يشع منه المبادئ العليا لمعالجة العوادم التى تحيط بها من كل جانب ، فتشعر بنفحة مشجعة ، وطمأنينة مثبتة ، قد لا تبالى بعدها إذا لقيت حتفها ، لأنها تعتقد أنها ستنتقل بعد هذا الجهاد الموبق الى ذلك العالم العالى ، لتعيش فيه مع الأرواح العالية ، والنفس الطاهرة .

لا جرم أن الشعور بوجود ذلك العالم يجعل للحياة الانسانية ، وللعنت الذى يصيب الانسان فيها معنى ساميا ، وعاقبة معقولة ، ويحمله على ملازمة الخلال النبيلة ، والمبادئ القويمة ، خلافا لمن لا يعتقد بوجوده ؛ فانه إذا تجهمت له الحياة فكر فى ارتكاب الجرائم ، واقتراف المآثم ، ولم يبال بشئ غير نفسه ؛ فإذا عمت

هذه الحماية حتى صارت عقيدة لامة، فانها تتجه إلى طريق الشر، فلا تحترم عهدا، ولا تلتزم ميثاقا، فاذا قاتلت وانتصرت، نشرت الرعب في النفوس، وأشاعت الظلم في الاحكام، وما تزال ترتكب منكرات تليها منكرات، حتى تصادفها قوة أكبر من قوتها فتلحقها بالأذلين.

فإذا استشرى هذا الداء الإلحادي، واعتنقته الامم، وأثمر العلم من الأسلحة المدمرة ما يكون استعماله وبالا على الحضارة الانسانية، فإن تلك الامم لا تتأخر عن استخدامه فتهلك الحرث والنسل، وينتهي العالم بعد هذا الدور من التناحر إلى حالة من البؤس لا يرضاها أشد الناس عداوة لبني نوعه.

ولقد كانت المبادئ الإلحادية قد قويت شوكتها في القرنين الثامن والتاسع عشر فكان ثمرة ذلك حدوث حربين عالميتين، لم تراع فيهما المرحمة الإنسانية، ولا العدالة العرفية، فضرب المتحاربون المدن بالقنابل الضخمة غير مبالين إن كانوا يقتلون بها جنوداً في خطوط النار، أم الأسر الوداعة المكتظة بالنساء والولدان، والمهرى والزمنى منهم، فأبادوا ملايين من النفوس البريئة رغما من التمدن المادى الذى أفاده العلم للناس، ولم يغن بعض ما كانت تغنيه العقيدة الدينية في مثل هذه الأدوار الحرجة.

ولو اتفق اختراع قنابل أشد فتكا كلقنابل الذرية، وحدثت حرب جديدة، لترشق بها الخصوم، وإذا ذاك تتصوح زهرة المدنية، ويخبو نورها، وترتكس الجماعات البشرية إلى أسوأ مما كانت عليه أيام جاهليتها الأولى.

وليس بعد هذه التجارب المحسوسة دليل على أن العلم الطبيعى لا أثر له في تهذيب النفس الإنسانية، ورفع كابوس الوحشية عنها، اللهم إلا ظاهراً من التقاليد الأدبية يستخدمها الناس في مقابلاتهم ومعاملاتهم، وقلوبهم من الإنسانية الفاضلة، والكمالات الخلقية هوام.

هنا يعترض علينا معترض فيقول: إن ما ذكرته عن الوحشية المستكنة في نفوس المتمدنين، رغما عن بلوغهم الغايات البعيدة في العلوم الطبيعية، صحيح لا يمكن التماهى فيه، ولكن تاريخ الجماعات في أشد أدوار حماسها الدينية لم تخل

من قساوات أسوأ مظهرآ، وأفظع مخبرآ مما ذكرت . ألم يذبحوا مخالفهم في الدين ذبح الأغانم ، ألم يلقوهم جماعات في النيران ، ألم يرموا بهم من شواحق الجبال ، لأشئ غير أنهم لا يدينون بدينهم ، ولا يتعبدون بكتابهم ؟ .

نقول : نعم ، حدث كل ذلك من الجانبيين ، ونحن لم نقل إن العقائد وحدها تبلِّغ الجماعات الى المثل العليا من السكال الصحيح ، دون أن تستضيء عقولها بأنوار المعارف الكونية ، وتشجع نفوسها بحكمة الدين الحق ؛ لذلك جاء الإسلام داعياً إليهما معاً ، فقال تعالى : « وقل رب زدني علماً » ، حتى أنه حصر كمال العلم بالله والوقوف عند حدوده في العلماء ، فقال : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » . ودعا النبي صلى الله عليه وسلم الى طلب العلم ، وحث عليه في أقوال أثرت عنه تعتبر مُثلاً علياً في التحضيض عليه ؛ من ذلك قوله : « يوزن مداد العلماء بمداء الشهداء فيرجح عليهما » وقوله : « لموت عالم أشد على الله من موت قبيلة » ، وقوله : « اطلب العلم ولو باليمن » .

فالجاهل إذا تدين ولم يجد من تربيته البيتية ، ولا من ثقافته الحكيمة ، رادعاً يردعه عن الشطط ، تخيل أن في التكيل بأعداء دينه ، والعدوان عليهم ، وسائل تحظيه من الله بأجزل المثوبات .

ومن الأمثلة التي نسوقها لبيان سمو الإسلام ، أن رجالاً دخلوا فيه وآباؤهم كانوا لا يزالون على كفرهم ، فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم : هل يقتلونهم إذا صادفهم في كتائب الأعداء ؟ فنهام عن ذلك احتراماً لحرمة الأبوة ، بل نهام أن يقتلوا من أعدائهم الطاعنين في السن ، والمصايين بمختلف العاهات ، والنساء والولدان وخدم المقاتلين ، ورجال الدين ، وحظر عليهم حرق دورهم ، وتقطيع أشجارهم ، وطلب إليهم أن لا يقتلوا أسراهم ، وأن يحسنوا إليهم ، وأن لا يقتلوا المستسلمين ، فاتفق أن أحد أصحاب النبي قتل مستسلماً ، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك وقال له : « إني أبرأ الى الله من عملك » ، فقال إنه استسلم والسيف يهوى على رأسه تفادياً من القتل . فأجابه النبي : وهل كشفت عن قلبه ؟ إنا أمرنا أن نأخذ بالظاهر .

كل هذا يدل على أن الإنسان لا يمكنه أن يبلغ درجة الكمال النفسى إلا بالدين مقترنا بالعلم ، وليس بأحدهما دون الآخر . بهذا التحديد العظيم فى آخر أدوار الانسانية جاء الاسلام ، فجعل الدين والعلم توأمين متلازمين ، وعاملين متكاملين ، وضرب أهله فى الأرض متشبعين بهذه الحقيقة ، فلم يجدوا علما إلا تدارسوه ، ولا فلسفة إلا اطلعوا عليها ، عاملين بقول نبيهم صلى الله عليه وسلم : « خذوا الحكمة ولا تبال من أى وعاء خرجت » ، و« خذ الحكمة ولو من مشرك » ، فاستقدموا العلماء والحكماء من كل قطر ، وتركوهم على دينهم ، وأجروا عليهم الأرزاق بسخاء لم يسمع بمثله فى أمة قبلهم ، وكلفوهم ترجمة كتب العلم والحكمة ، وأكبوا عليها درسا ونقدا ، وتحريراً وتقريراً ، حتى بلغوا الغاية منها ، وزادوا عليها زيادات لا تزال محل إعجاب أئمة التاريخ الى اليوم .

ولو كان دينهم لم يحضهم على طلب العلم هذا التحضيض الذى لم يؤثر عن أية أمة سواهم ، لبقوا على جهالتهم ، فانقلبت فتوحاتهم شرا عليهم وعلى البشرية ، ولبادوا كما بادت الأمم المتعسفة قبلهم ، ولما بق لهم ولدينهم الأثر الذى بق الى اليوم وسيبقى على الدهر .

فعلى المسلمين أن يدرسوا هذه الناحية من تاريخهم ، فهى التى ستجعل من دينهم مفزعا للعالم كله فى مستقبل ليس بعيدا عنا ، وقد بدت بوادره فى الأفق ؛ ففلم لتحقيق هذا العهد الكريم ، عهد الاسلام الحق ، دين الإنسانية أجمع .

أما وقد بلغنا الى هذا المدى ، فالذى بق أن نقوله إن المدنية القائمة أصبحت مهددة بالزوال من ناحية العلم ، إذا لم تسعف بالعقائد الصحيحة . وقد أكرم الله هذا النوع الكريم فكشف له فى هذا الزمان الأخير من البيانات المحسوسة ، على شرطه فى دراسة العلوم الكونية ، ما يوجد له إيمانا راسخا بما فوق الطبيعة ، وبقاء الأرواح بعد تركها للأجساد ، بما لم يدع شكاً لمرتاب ، ولا حجة لمرتدد : « وفى الأرض آيات للوقنين ، وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون ؟ » .

محمد فريد وجدى

رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه

لفضيلة الأستاذ الشيخ طه محمد الساكت

المدرس بالأزهر

عن أنس رضي الله عنه قال : غاب عمي أنسُ بنُ النضر عن قتال بدر ، فقال :
يا رسول الله ، غبتُ عن أول قتال قاتلتَ المشركين ، لئن الله أشهدني قتال
المشركين ليسرنيَّ الله ما أصنع . فلما كان يومُ أُحُد وانكشف المسلمون ، قال :
اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء — يعني أصحابه — وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء
— يعني المشركين — ثم تقدم ، فاستقبله سعد بن معاذ فقال : ياسعدُ بن معاذ : الجنة ،
ورب النضر ! إني أجدر يحميها من دون أحد ! . قال سعد : فما استطعت يا رسول الله
ما صنع . قال أنس : فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف ، أو طعنة برمح ،
أو رمية بسهم ؛ ووجدناه قد قُتِل ، وقد مثَّل به المشركون ، فما عرفه أحد إلا
أخته بنبائه . قال أنس : كننا نرى — أو نظن — أن هذه الآية نزلت فيه وفي
أشباهه من المؤمنين « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » إلى آخر الآية ؛ وقال :
إن أخته — وهي تسمى الربيع — كسرت ثنية امرأة ، فأمر رسول الله صلى الله
عليه وسلم بالقصاص ؛ فقال أنس : يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق لا تكسر
ثنيتهما ، فرضوا بالأرض وتركوا القصاص . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » رواه الشيخان .

البنان : الأصابع ، وقيل أطرافها ، وهي الأنامل ، واحدها بنانة . والثنية :
واحدة ثمايا الفم ، وهن أربع في مقدمه : ثنتان من فوق ، وثنتان من أسفل .
وأرش الجراحات : ديتها ، وجمعه أروش . وإبرار القسم : تصديقه وعدم تخينه .

إذا صح للأمم الحديثة أن تفخر بما تسميه في نظام جنديتها بالكتائب الفدائية ، أو فرق الموت ، فإن الإسلام أولى بذلك منهم وأحق . ونبادر بأنا لا نذكر هذه النظم الحديثة بجانب النظم الإسلامية ، إلا كما نذكر الشقاء بجانب السعادة ، والضلالة بجانب الهداية ، والموت بجانب الحياة ؛ والصد كما يقول علماء النفس أقرب خطورا بالبال إلى ضده . وإلا فأين من يلقي يسهده إلى التهلكة في سبيل الاستعمار والغب والجشع ، واستلاب الأموال والأعراض ، والبطش بالضعفاء والمساكين — ممن يرحب بالموت في سبيل الله وإعلاء كلمته ، وإحقاق الحق ونصرتة ؟ وأين من يقذف بجسمه طعمة للحرب على غرة ، انتصارا لعقيدة آثمة ، أو إجابة لثورة جاحدة — ممن يبذل نفسه مطمئنة راضية ، ابتغاء مرضاة ربه ، وشوقا إلى نعيمه وقربه ؟ « للذين استجابوا لربهم الحسنى ، والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به » .

كان الإسلام غنياً بهؤلاء الفدائيين ، بل كان كل أتباعه مثلاً في تفديته بالنفس والنفيس — على درجات بينهم — إذا مُسست دعوة الحق ، أو أهيئت كلمة الصدق ، أو انتهكت حرمة العهد والذمام ، أو فصمت عروة الحلف والوئام .

وهذا أنس بن النضر رضى الله عنه ، أحد السابقين الأولين ، والأبطال الفدائيين ، يكبر عليه أن يغيب قهرا عن غزوة بدر ، أول غزوة أسس عليها مجد الإسلام ، وشهد بها النبي عليه الصلاة والسلام ، فيتمنى على الله أن يعوضه خيراً مما ضاع منه ، وأن يشهده موقعة يبلى فيها بلاء حسناً ، ويرى ربه فيها — وهو أعلم به — أنه وفى العهد ، صادق الوعد ، قد باع نفسه وما له لله ، لا يبتغى شيئاً غير فضله ورضاه ! ثم يجلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيذكر له أمنيته ، ويوثق لديه عهده ؛ حتى إذا جاءت غزوة أحد ، وما أدراك ما غزوة أحد ؟ أصيب فيها الغزاة ببعض ما كسبوا ، وأثابهم الله غمما بغم بما انحرفوا ، وكادت الدائرة تدور عليهم بما تعجلوا ، ولولا فضل الله عليهم ورحمته لذهبت ریحهم ، واتحت آثارهم .

جاءت هذه الغزوة ، فصدق المسلمون حملتهم في معمعان الحرب ، وأنحنوا أهل الشرك تقتيلا وتنكيلا ، حتى ولوا مدبرين خاسرين ؛ هنالك برقت لهم غنائم المشركين عن كشب ، فامتدت إليها عيونهم ، وتطلعت لها نفوسهم ، فنسوا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالألا يرحوا مكانهم ، ولو كانت العاقبة لهم ؛ وهنا لك أحاط المشركون بهم وقد رأوهم اشتغلوا بدنياهم عن آخرتهم ، فأعملوا فيهم سيوفهم حتى كادوا يظفرون بهم ! .

وبينا الجيش منكشف مضطرب ، قد تمزقت صفوفه ، وانفرط عقده — جاء الفدائي الوفي أنس بن النضر رضى الله عنه ، نبي بنذره ، وبر بقسمه ، ويستقبل الموت استقبالا رهيبا لم يعرف التاريخ مثله ، حتى إذا لقي سعد بن معاذ منهزما وهو من هو شجاعة وثبات جأش ، صاح به : واهاً لريح الجنة إنى لأجد ريحها ورب النضر عند هذا الجبل ! ^(١) وما هى إلا أنفاس معدودة حتى دخل الجنة فرحاً مستبشراً « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

قال سعد وهو يصف للرسول صلى الله عليه وسلم إقدام أنس وحسن بلائه : والله ما استطعت يا رسول الله على عظيم بلائى أن أصنع صنيعة أو أن أبلى بلاءه ! وقال ابن أخيه أنس بن مالك : ولقد وجدنا به أكثر من ثمانين ثلثة ، ما بين ضربة بسيف ، وطعنة بسن ، ورمية بنبل . ولقد شوّهه المشركون تمثيلا وقطيعة فلم يعرفه أحد إلا أخته الربيع بنت النضر ، عرفت به ببنايه ، وكان حسن البنان جميلا . قال أنس : فكنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نرى أن هذه الآية الكريمة قد نزلت فيه وفى أمثاله من المجاهدين الصادقين « رجال صدقوا

(١) واهاً كلمة تدل على الإعجاب أو التلطف ، كأنه يجب بريح الجنة وقد تمثّلها أو أكرمه الله بشهادتها . والنضر يجوز أن يكون ابنه الصغير الذى تركه فى رعاية الله مؤثرا عليه الجهاد فى سبيله ، وأن يكون أباه الذى كان يبره ويكرمه .

ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه^(١) ومنهم من ينتظر^(٢) وما بدلوا تبديلا .
وليت شعري فيمن تنزل هذه الآية إن لم تنزل في مثل هذه الصفوة التي اصطفاها
الله لإعزاز دينه وإعلاء كلمته ؟ !

ولم تنس أنسا رضى الله عنه دهشة الموقف ورهبته ، أن يعتذر لربه وهو
ماض في سبيله ، عن المسلمين وقد تفرقوا ، ويبرأ من المشركين وقد تجمعوا^(٣) ،
وأن يكون مثلاً عالياً في صدق اللقاء ، والصبر على البلاء ، واستعجال اللحاق
بالشهداء .

ومنقبة أخرى يرويها أنس بن مالك عن عمه رضى الله عنه . تدل على
ماله عند الله من فضل ومنزلة : تلك أن أخته الربيع خاصمت جارية من نساء
الأنصار أغضبته في شيء ، فلطمته فكسرت ثنيته ، فدعى أهلها إلى الصلح فأبوا
إلا القصاص ، وتحاكموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : كتاب الله القصاص ،
وهو صلوات الله عليه لا تأخذه في الحق لومة لائم ولو كان أقرب الناس إليه ؛
فقال أنس وهو يرجو العفو : أتكسر ثنية الربيع يا رسول الله ؟ لا ، والذي بعثك
بالحق لا تكسر ثنيته . فبينما هو يرجع رسول الله راجياً من فضل الله ، ورسول الله
صلى الله عليه وسلم يرجعه — عفا أهل الجارية عن القصاص ورضوا بالدية ،
وصدق الله من صدقه ، ووفى لمن وفى له ، « ومن أوفى بعهده من الله » ؟

(١) أمثال أنس وحزرة ومصعب رضى الله عنهم . والنحْب : الموت ، وأصله النذر ،
ولما لم يكن للحى بد من الموت ، وكأنه نذر لازم في رقبته — قيل لمن مات قضى نحبه كأنه
وفى بنذره المحتوم عليه .

(٢) من بقية المؤمنين المجاهدين الذين لم يستشهدوا .

(٣) وما أجل تعبيره في جانب الأولياء « بالاعتذار » وفي جانب الأعداء « بالتبرؤ »
وأن كان غير راض عن صلح الفريقين جميعاً .

وأرسلها رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً رائئعاً وحكمة بالغة : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره . »

لقد كانت الأمة الإسلامية مرفوعة الرأس ، مسموعة الكلمة ، عزيزة الجانب ، أيام أن كان فيها أمثال أنس بن النضر رضى الله عنهم ممن يستجيبون لله وللرسول إذا دعاهم لما يحميمهم ، لا يتخاذلون ولا يتسواكلون ، ولا يهينون ولا يضعفون ، فإذا ما زلوا زلة فسرعان ما يرجعون وينيبون ، ويتخذون من الشدائد عبراً رائعات ، وعظات بالغات ، ومنارا في الشبهات والظلمات . ثم ضعفت التربية الإسلامية رويدا رويدا لما استنم المسلمون إلى الدعة ، واطمأنوا إلى الراحة ، واستراحوا إلى الترف ، والترف آفة الأمم ، وقاتل الهمم !

وكانت مصيبة المصائب أن تركوا الجهاد لما خدعهم الأعداء بالمدنية ، ورموهم بالعصية ، وأعدوا لهم ما استطاعوا من قوة ، وهم في غمرة ساهون ، حتى إذا تمكنوا منهم انقضوا عليهم من حيث لا يشعرون !

ألا فليتنبه المسلمون وليستيقظوا ، وليعودوا إلى تاريخهم الأول ومجدهم المؤثر ، ولا سبيل إلى ذلك — إن شاءوا — إلا إذا جاهدوا في سبيل الله ، وأعلوا كلمة الله ، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم .

تواضع

قال عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز : قال لى رجاء بن حيوة : ما رأيت أكرم أدباً ولا أكرم عشيرة من أهلك . سمريت عنده ليلة ، فبينما نحن كذلك إذ غشى المصباح ونام الغلام ، فقلت : يا أمير المؤمنين قد غشى المصباح ونام الغلام فلو أذنت لى أصلحته ، فقال : إنه ليس من مروءة الرجل أن يستخدم ضيفه ، ثم حط رداءه عن منكبيه وقام إلى الدبة فصب من الزيت فى المصباح وأشخص الفتيلة ، ثم رجع فقال جرير بن عبد الله : يا أمير المؤمنين أعزم علينا كلنا أن نقوم فتتوضأ ، قال : صدقت ولا علمتك إلا سيداً فى الجاهلية ، فقيهاً فى الإسلام . قوموا فتوضأوا .

محمد صلى الله عليه وسلم

الكامنة التي تفضل بإلقائها من المذيع في أسبوع « محمد ، صلى الله عليه وسلم
حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ السكين الشيخ محمد عبد اللطيف دراز
مدير الأزهر والمعاهد الدينية

بسم الله الرحمن الرحيم :

حضرات السادة :

السلام عليكم ورحمة الله . في هذا الشهر الكريم يحتفل المسلمون في أنحاء العالم
بذكرى نبي الرحمة ، ورسول الهدى : محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فقد ولد في صبيحة
يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول عام الفيل ، ولأربعين سنة خلت من ملك
كسرى أنو شروان . ويوافق ذلك العشرين من أبريل سنة إحدى وسبعين
وخمسة من ميلاد المسيح عليه السلام .

ذكرى ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم هي ذكرى التاريخ والإنسانية عامة .
ولولا ما ابتلى به الناس من التعصب الشديد للأديان ، أو القوميات ، أو هوروث
التقاليد عن الآباء والأجداد ، لما كانت هناك ذكرى في التاريخ على طوله وامتداده
أحق أن يكون الاحتفال بها عاما شاملا من هذه الذكرى السكرية ؛ فإنها ذكرى
رسالة جامعة ، أنقذت الإنسانية مما كانت ترتع فيه من الجهالة ، وتضرب في يدهائه
من الضلال ، وتسام به في حياتها من الذل والاستعباد وسوء العذاب .

كان يسود العالم في ذلك الوقت مملكتان تفتسمان السلطان في الأرض :
الفرس والروم . والنظام السائد فيهما هو النظام الاقطاعي ؛ فالأرض موزعة
بين الأشراف والسادة ، يقوم في كل ناحية منها رئيس مسيطر ، وسيد متكبر ،
يملكها ومن حملت وما حملت من ناس وأنعام ومنافع وأموال . والكل عبيد له
عاملون ، وأتباع مستخرون ، لا ترد له فيهم كلمة ، ولا يشاركه في شأنهم أحد ،

ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ! . والفرس مجوس يعبدون النار . والدين في الروم حرفت كلمته ، ومالت عن استقامتها ، وعادت الطبيعة المتأصلة في نفوس الرومان إلى وثنيتها الأولى ، وإن تسمت بالمسيحية وظهرت في مسوح الأحبار والرهبان . وكانت اليهودية في اليمن ، وفي يثرب من جزيرة العرب ، وفي أنحاء شتى من الأرض - قد فقدت هي الأخرى مددها الإلهي ، وأظلمت على أهلها السبيل ، منذ أغلقوا قلوبهم وأبصارهم عما أنزل الله على موسى من هدى وحق ونور . وجزيرة العرب شر من ذلك كله تهيم في جهالة جهلاء ، وضلالة عمياء ، لا تخضع لقانون من وضع الناس ، ولا لشريعة من وحى السماء ؛ وحياة القبيلة هو نظامها الأساسى ، لا يحسب العربى أن أحداً من غير أهل قبيلته تربطه به رابطة ، أو له عليه حق . فكل دم غير دم القبيلة هدر ، وكل عرض غير عرضها مباح ، وكل مال غير مالها غنيمة ؛ هذا إلى فقر مدقع ، بلغ بهم أن يقتلوا الأولاد خشية الفقر ، وإلى عنجية طاغية ، بلغت بهم أن يئدوا البنات خشية العار ، يحيط بذلك كله وثنية مستحكمة ، أظلمت كل ما استطاعت تأليهه من مظاهر الطبيعة في الأرض والسماء ؛ إلا أن هذا الجانب القاتم المظلم من الحياة العربية لم يؤثر على جانبها الآخر الوضئ الذى هباً لها أن تكون من بين بلاد الله أهلاً لأن تحمل أعظم رسالة وصلت من الله إلى خلقه ، وأن تجاهد في سبيلها جبابرة الأرض من الملوك ، وأساطين العقل من الفلاسفة ، حتى قهرت الأولين بعدلها وقوتها ، وأقنعت الآخرين بحقها وهداياها .

نقول : إن ذلك الجانب القاتم المظلم من حياة العروبة في جاهليتها لم يؤثر ، ولم يكن من شأنه أن يؤثر ، في هذا الجانب المشرق الوضئ ، بل لعل الجانبين جميعاً هما النتيجة لحياة العرب في جزيرتهم القاحلة الجرداء ، فهما جانبان من الخير والشر ، هباً لها الأول منهما أن تحتل في نفسها من الفقر والضر وعيش البداوة ما أصابها في جاهليتها من ذلك كله ، وهباً لها الثانى أن تحتفظ في نفسها من أصول الفضائل لخيرها وخير الناس جميعاً ما لا يمكن أن تغرس أصوله ، أو تترك زروعه ، إلا في تلك النفوس العزيزة الكريمة التى تربت على الشجاعة والسماحة والسخاء وإباء الضيم ، وعاشت دهورها الطويلة بهذه الصفات ، على أنفة لا يجذبها حطام الجبارين ، وفي منعة من إذلال الحاكين وبطش الغالبيين .

هذه هي البذور الإنسانية السليمة التي زرعت في تلك الأرض الخصبة الطيبة، يحوطها سياج من الفقر والامية، وما يتبعهما من عيش البداوة، ليحول بينها وبين ما يفسدها من الخبائث والأضرار؛ أو هو الجانب الروحي السامى الذى استقبلت به الجزيرة شمسها بعد أن دار الزمان دورته، فودعت ليلها المظلم، لتستقبل نهارها المضيء، فكانت البعثة المحمدية هي هذا النهار، الذى أشرقت شمسُه على العالم أجمع، فظمرت من أرجاسه، وهدته من ضلالتِه، وأرشدته من غيه، وأخرجت الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض .

جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، والعالم على ما عرفنا: ضعيف ضائع، وفقير جائع، وغنى كنود، وقوى جمود، وجهل مستحكم، وظلم متحكم، والناس طبقات بعضها فوق بعض، لا يميزها علم نافع، ولا عمل صالح، وإنما هو البطش والقهر بحكم العصبية والغلَب، وبسطة الجاه ووفرة المال والولد، حتى تنتهى تلك الطبقات إلى طاغوت من الطواغيت يسمى كسرى أو يسمى قيصر، يؤطونه تأليها، ويتخذونه من دون الله ربا، فهو لا يحكمهم بل يستعبدهم، وليسوا له برعية، بل هم لذاته عبيد، ورحم الله أمير الشعراء حيث يقول :

أثبتَ والناس فوضى لا تمر بهم إلا على صنم، قد هام فى صنم !

جاء الإسلام فخرر هؤلاء العبيد، وكسر هذه الأصنام، وطرد سدتها، وهدم أوكار عبوديتها، وأعلن أن الناس جميعا إخوة متساوون فى الإنسانية، ربهم واحد وأصلهم واحد، كلهم لآدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربى على عجمى، إلا بالتقوى : « يأياها الناس إنا خلقناكم من ذكروا نثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير،

واشتد فى ذلك حتى كانت هذه العقيدة أول ما عمل على تأصيله فى النفوس، ولعل بعض مثققي اليوم يعرفون عن مدينة الغرب أكثر مما يعرفون عن الإسلام؛ لعل هؤلاء يجهلون أن الإسلام هو أول مقرر لتسوية الفقير بالغنى فى حق التعلم، وأنه لا ينبغي أن يحول حائل بين الفقير وبين مشاركته الغنى، لا فى نوع التعليم ولا فى مكانه، فلا يجوز أن يكون لهذا مدرسة ولذلك أخرى،

كما أنه لا ينبغي في العبادة أن يكون لهذا مسجد ، ولذاك آخر ، وكان ذلك لما رغبت قریش إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن ينحى عن مجلسه الضعفاء والعبيد ، حتى يمكن أن يحضره الأشراف والعظماء لسماع القرآن ، عسى أن يهدوا بهديه ؛ فشنع القرآن على هؤلاء القوم ، وبالغ في التكثير على هذه الرغبة ، ونزل قوله تعالى : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء ، فتطردهم فتكون من الظالمين » .

حرم الإسلام الربا ، وكان كما هو الآن وفي كل زمان مباءة ضر وإضرار ، وسبباً من أشد الأسباب في الفقر وضياع الأموال ، وأحل البيع وسائر المعاملات النافعة المشروعة ، وشرع الزكاة ، فجعل للفقير حقاً مفروضاً في مال الغني باعد بينه وبين طرفين يتحكما الآن في العالم باسم الرأسمالية والشيوعية ، فقرر من هذا الحق ما يكفي الفقير ، ولا يرهق الغني ؛ وبهذه الزكاة المفروضة أغنى الفقير من الحاجة والعوز ، وصان نفسه من الضعة والذل . ذلك أنه حينما يأخذ الزكاة إنما يأخذ حقه المفروض الذي وضعه الله في مال الغني ، وألزمه بأدائه عبادة كالصلاة والصيام ، ووفاء كالدين والعارية ؛ وبهذا أزال ضغن الفقير واحتقان قلبه بالبغضاء على الغني ، ووقى الأمة شر هذه الثورات الفتاكة ، التي يبعثها الفقر باسم الشيوعية أو الاشتراكية المتطرفة . ولم يقف الإسلام عند حد الزكاة المفروضة في هذه المساواة ، بل ترك الباب مفتوحاً لمن شاء أن يزداد من الخير ، ودعا إلى البذل والإحسان ، يل إلى التفضل بالإيثار في كثير من آي القرآن الكريم ؛ بل لقد قدمه على الزكاة المفروضة في بعض هذه المواطن ؛ ولا غرو ، فإن ما يدفع نافلة أدل على السماحة وعلى الإيمان مما يدفع فريضة ؛ ومن هذا قوله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب » .

فإتياء المال هنا هو هذا الإحسان غير المفروض ، أما الزكاة المفروضة فذلك حيث يقول بعد هذا في الآية نفسها : « وأقام الصلاة وآتى الزكاة » .

ويلاحظ أيضاً أن الإحسان وإيتاء المال على حبه صدقة لوجه الله ، لم يتقدم على الزكاة المفروضة وحدها ، بل قدم عليها وعلى الصلاة أيضاً ، بل لتمد قرن بعقيدة الإيمان نفسها فذكر بعدها مباشرة .
حضرات السادة :

هذه مثل هي غاية في الإيجاز لما تبعته ذكرى المولد النبوي من آثار الإصلاح والإصلاح ، وقد كنا نود لو استطعنا أن نفيض القول في نواح أخرى من تلك الآثار الكثيرة التي لا يحصياها العد ، واسكن حسبنا هذا اليوم ، وحسبكم أنتم أن تقرؤوا هذا القرآن الكريم أو تستمعوا إليه ، وأن تنظروا هذه الشريعة الهادية والأمة المهديّة وهذا النور الثجاج المتألق الذي لا يزال — ولن يزال — إلى يوم القيامة إن شاء الله يهدي الناس إلى الاستقامة والرشاد ، وإلى الأخوة والمحبة والسلام ، ويقوم على مدى العصور مثابة للحق ، وقسطاً للعدالة ، وراية أمن وإيمان يأوى الناس إلى وارف ظلالها وإن أنسكر المنكرون وجحد الجاحدون .

حسبكم أن تتأملوا هذا كله ، ثم عدوا بعد ذلك — إن استطعتم — آثار بعثة خاتم الرسل والأنبياء عليه الصلاة والسلام . فإن آثار هذه البعثة الجامعة ، لا يمكن أن تعد إلا إذا عدت آثار الرحمة الإلهية ، وذلك مالا يعد ؛ قال تعالى :
« ورسمي وسعت كل شيء » ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي ، الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون .
والسلام عليكم ورحمة الله .

حسن الظن بالاخوان

قال محمد بن بشار :

غلط الفتى في قوله	من لم يردك فلا ترده
من نافس الإخوان لم	يبعد العتاب ولم يعده
عاتب أخاك إذا هفا	واعطف بودك واستعده
وإذا أتاك بغية	واش فقل لم تعتمد

أمهات المشاكل الفلسفية

عند ابن رشد

معضلة علم الباري

لحضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب

المدرس بكلية أصول الدين

من المعلوم أن أرسطو قد نفى عن المحرك الأول علم ما في هذا العالم الأرضي من أحداث حائلة ، وظواهر متغيرة ، وجزئيات ناقصة ، وأشخاص كائنة فاسدة ؛ وعلل ذلك بأن المحرك الأول عقل محض ، بل هو فوق قمة العقول المجردة ، وهذا يقتضى أن يكون موضوع علمه أسمى المعلومات ، ليلتئم العالم مع المعلوم ، ولما لم يوجد معلوم يوازي ذاته في السمو ، فقد لزم أن تكون هذه الذات — وهي أسمى الموجودات — موضوعا لأسمى العقول ، فلم يكن بد من أن يقتصر علمه على ذاته . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أنه لما كان المعلوم علة للعلم ، فقد اقتضى — لو علم المحرك الأول بالأحداث الأرضية — أن تكون تلك الأحداث علة لعلمه ، وبالتالي لا فتقر إلى عالم الكون والفساد في شؤونه ، وهذا نقص شأن يتعارض مع استغناء مقام الألوهية . وفي هذا يقول أرسطو :

« لأنه لا يناسب مقام المبدأ الأول أن يدخل عقله ما هو أدنى رتبة منه في الوجود . كيف يعلم من هو منزله عن كدر المادة ما في العالم من الأكار والادناس ، والفواحش والجزئيات الجنسية من غير أن ينقص من صفاته شيء ؟ ثم لو قلنا إن له علما بالأشياء الخارجة عن ذاته لوجب أن يكون علمه مستفادا منها ، وأنه لا يكون علما إلا بوجود تلك الأشياء ، فصار المبدأ الأول محتاجا إلى غيره لكي يكون علما ، وهذا لا يناسب جلال ذاته ، مع ما فيه من إدخال

المادة في ذات الإله . إن المادة هي الإمكان ، فلو احتاج المبدأ الأول إلى الأشياء الخارجة لحصول العلم لكان قابلاً للتغير والاستحالة ، وذلك عبارة عن الامكان ، فالأولى أن يقال : إنه ليس للإله علم بغيره ، فالواحد البسيط لا يعلم إلا الواحد البسيط وهو ذاته ، فهو إذاً ، علم وعالم ومعلوم من ذاته . فالحاصل أن المبدأ الأول هو حياة أبدية كاملة من سائر الوجوه ، مبهجة بما لها من العلم بكامل ذاتها الجليلة ، إذ ليس السرور إلا العلم بالسكّال ^(١) .

فلما جاء ابن سينا وأيقن أن الذي حمل أرسطو على القول بهذا الرأي هو إفراطه في تنزيه المحرك الأول عن الاتصال بنقائص عالم الحس ، أقر هذا المبدأ وزاده أيضاً وتأيداً ، وتوسع في تعليلاته وأدلته ، فأبان كيف أن طبيعة المدركات الحسية تقتضي مدركات تلائمها في طبيعتها وتشترك معها في المحدودية والجهة والانحصار بما تنزه عنه الباري ، وأوضح كذلك عملية انطباع المعلومات في عقل العالم ، واقتضاءها قابلية الذات الأقدس لهذا الانطباع ، ثم شرح نظرية تغير المعارف الجزئية واستلزام ذلك ضرورةً ، تغير العلم ثم تغير العالم ، إلى غير ذلك مما أفاض الشيخ الرئيس في بسطه ورددنا عليه في موضعه مفندين ^(٢) ما ذهب إليه من آراء .

جاء بعد ذلك أبو حامد الغزالي فرمى فلاسفة الاسلام بالكفر من أجل هذه النظرية ونظريتين أخريين ، هما أزلية العالم ، وحشر الأرواح دون الأجساد ؛ فلما اطلع ابن رشد على هذه المعركة الحامية الوطيس انتفع بما دار فيها من أخذ ورد ، وتمحيص وتحليل ، وتوجيه وتعليل ، وتخطيء وتصويب ؛ وأخيراً أعلن أن من رمى الحكماء ببحرود علم الله للجزئيات فإنه لم يفهم مراميهم ، ولم يدرك مغازيهم ، لأنهم لم يحددوا في نظره علمه بها على الإطلاق ، وإنما جحدوا العلم الشبيه بعلم الحوادث ، أي العلم المعلول للوجودات ، لا ما كان علة لها .

(١) انظر صفحتي ٥٢ ، ٥٣ من كتاب « تاريخ المذاهب الفلسفية » للأستاذ سائقنا (مخطوطة بدار الكتب المصرية) .

(٢) راجع صفحة ٦٢ وما بعدها من كتابنا « مشكلة الألوهية » .

وبعد أن يبسط هذه المشكلة بسطا وافيا يعرض فيه لما فهمه المتكلمون من آراء الحكماء فيها ، ويصارع الغزالي بأنه أخطأ القصد ، وجانب الحق ، يشرع في بسط الفكرة التي ارتأى أنها تحمل في ثناياها حل هذه المعضلة العويصة ، فيقول بعد كلام طويل ما يلي :

«والذي ينحل به هذا الشك عندنا هو أن يعرف أن الحال في العلم القديم مع الموجود خلاف الحال في العلم المحدث مع الموجود ؛ وذلك أن وجود الموجود هو علة وسبب لعلنا ، والعلم القديم هو علة وسبب للموجود ، فلو كان إذا وجد الموجود بعد أن لم يوجد حدث في العلم القديم علم زائد كما يحدث ذلك في العلم المحدث ، للزم أن يكون العلم القديم معلولا للموجود لا علة له ؛ فإذاً واجب ألا يحدث هنالك تغير كما يحدث في العلم المحدث ؛ وإنما أتى هذا الغلط من قياس العلم القديم على العلم المحدث ، وهو قياس الغائب على الشاهد ، وقد عرف فساد هذا القياس . وكما أنه لا يحدث في الفاعل تغير عند وجود مفعوله ، أعني تغيراً لم يكن قبل ذلك ، كذلك لا يحدث في علم القديم سبحانه تغير عند حدوث معلومه عنه ؛ فإذاً قد انحل الشك ولم يلزمنا أنه إذا لم يحدث هنالك تغير ، أعني في العلم القديم ، فليس يعلم الموجود في حين حدوثه على ما هو عليه ، وإنما لزم ألا يعلمه بعلم محدث ، لكن بعلم قديم ، لأن حدوث التغير في العلم عند تغير الموجود إنما هو شرط في العلم المعلول عن الموجود ، وهو العلم المحدث . فإذاً العلم القديم إنما يتعلق بالموجود على صفة غير الصفة التي يتعلق بها العلم المحدث ، لا أنه غير متعلق أصلاً كما حكى عن الفلاسفة أنهم يقولون لموضع هذا الشك : إنه سبحانه لا يعلم الجزئيات ، وليس الأمر كما توهم عليهم ، بل يرون أنه لا يعلم الجزئيات بالعلم المحدث الذي من شرطه الحدوث بحدوثها ، إذ كان علة لها لا معلولا عنها كالحال في العلم المحدث . وهذا هو غاية التنزيه الذي يجب أن يعترف به ، فإنه قد اضطر البرهان إلى أنه عالم بالأشياء ، لأن صدورها عنه إنما هو من جهة أنه عالم ، لا من جهة أنه موجود فقط ، أو موجود بصفة كذا ، بل من جهة أنه عالم » (١) .

(١) انظر صفحتي ٢٨ و ٢٩ من « فصل المقال » لابن رشد .

أما نحن فإننا لا نرتاب ألبتة في أن أرسطو كان صريحا في نفى العلم بعالم الكون والفساد عن المحرك الأول ، ومن آيات هذه الصراحة التي لا تحتمل أدنى ريب أن تلاميذه — وهم ألصق الناس به وأعلمهم بآرائه — قد أخذوا عليه ذلك وهاجموه من أجل تلك الفكرة قائلين له بعد كلام طويل : « ثم جعلت هذا المحرك لا يعقل إلا ذاته بدعوى أنه لا يليق بجلاله علم ما في الأمور الدنيوية من الجزئيات الدنيئة ، ثم مثلته بقائد الجيش ، فكيف يقود الأمير الجيش إذا لم يبصره ولم يخطر له ببال ؟ وكيف يصح تدبير العالم من متحيز في نفسه ، مقصور على علم ذاته لا يجاوزها ؛ وإذا جحدت تدبيره إياه ، فمن أين وجود العالم في بدء نشأته ؟ ومن أين بقاءه إذا لم يكن للبدأ الأول حظ في تدبير أموره ولا أدنى إلمام به ؟ فكأنك قد جعلت الإله والعالم قطعتين منفصلتين لا اتصال لإحدهما بالآخرى ، وقد انتقدت أفلاطون حيث جعل عالمين : علم الحس وعالم المعاني واليقين ثم عجز عن بيان الاتصال بينهما . وأنت قد وضعت العالم ثم وضعت الإله مقابلا له ، فعجزت عن بيان ماهية العالم وما هية الإله بما يزيل الشك ويدرك الشبهة حتى بقيا متقابلين لا اتصال بينهما ولا تأثير ، فإذا تحققنا قولك وسبرنا معنك وجدنا أنه لا حاجة للإله بالعالم ، ولا حاجة للعالم بالإله (١) . »

وكما أننا نجزم بثبوت هذا الرأي لأرسطو فإننا كذلك لا نتشكك في أن ابن سينا كان واضحا غاية الوضوح فيما ذهب إليه سواء منه ما تأثر فيه بأرسطو أو ما ابتكره في تأييد هذه النظرية ، ولا نتردد في الجزم بأن توجيه ابن رشد هذا هو غير ما أراده أولئك الفلاسفة ، ولكننا أيضا لانجاري الذين رموا هذا الفيلسوف الأخير بالتعصب للفلاسفة إلى حد أنه كان أشد منهم حرصا على أنفسهم كما يقولون ، أو الذين زعموا أن كلفه بمخاصمة الغزالي وتخطيئه هو الذي دفعه إلى الانزلاق في هذا المأزق الحرج ، وإنما نحن نرى أن أحد تعليلات أرسطو لنفيه العلم عن المحرك الأول — وهو تخرجه من أن تكون الموجودات الحائلة علة للعلم الأزلى — هو الذي قد سطع بريقه على عجل في عقل ابن رشد فألهمه فكرة هذا

(١) راجع صفحتي ٤٨ و ٤٩ من كتابنا « مشكلة الألوهية » .

التوجيه الشخصي حيث ساءل نفسه عن تلك العلية فألفاها واردة فتأمل فيها وحاول التنقيب عن وسيلة للتخلص منها ، فاهتدى إلى فكرة العلم القديم الذى لا يشبه العلم المعلول للوجودات السكائنة الفاسدة ، وهو العلم الذى اصطدم به أرسطو ، فوقف منه بين نارين ولم يكن له بد من اختيار أحد أمرين ، أحلاهما مر ، وهما : القول بمعلولية العلم الأزلئ للشخصيات الحادثة ، أو القول بنفى العلم عن المحرك الأول بتاتا . ولما كان الأمر الأول لا يؤيده المنطق من ناحية ، وكانت فكرة موضوعية الذات الأسمى للعقل الأسمى تحتل فى رأسه موضعا بارزا من ناحية أخرى ، فقد رجح اختيار الأمر الثانئ . أما ابن رشد فلم يقو على احتمال نفى العلم عن البارئ ، ولم يستسغ فكرة معلولية هذا العلم للوجودات الحادثة ، فأجهد نفسه فى البحث عن حل لهذه المعضلة يرأب ما انصدع بين هذين الطرفين المتعارضين ، وكانت تلك المعارك الجدلية العنيفة قد هيات له أسباب هذا الحل ، فلم يلبث أن ظفر به وأعلنه ، ولكن الذى نأخذه عليه هو رمية كل من تقدموه بعدم استكناه مرمى الحكماء من آرائهم مع ما كانت عليه تلك الآراء من جلاء . ومن الممكن أن يكون قد تصور أنه ما دام هو قد استطاع كشف هذا التوجيه ، فلا بد أن يكون أرسطو — وقد عرفت رأيه فيه من قبل — قد كشفه بالأولى .

وكما أننا نأخذ على ابن رشد مغالاته فى تقدير أرسطو ، نأخذ على أبئ حامد رمية أولئك الأعلام بالكفر مع ثبوت حسن نياتهم والتحقيق من أنهم لم يقصدوا من وراء هذا النفى إلا تنزيه البارئ عما تصوروا أنه شائن بمقام الألوهية وإن كانوا قد أخطأوا فيما ذهبوا إليه غير باغين ولا عادين .

الجاهل

قال النبئ صلى الله عليه وسلم : « الجاهل يظلم من خالطه ، ويعتدى على من هو دونه ، ويتناول على من هو فوقه ، ويتكلم بغير تمييز ، وإن رأى كريمة أعرض عنها ، وإن عرضت فتنة أردته وتهور فيها . »

نقول : الجهل هنا بمعنى السفاهة كما قال الشاعر الجاهلى :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

الحب

بين العباد والرب

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدني
المفتش بإدارة الأزهر

—

لفظ « الحب » وما تصرف منه ، من الألفاظ الكثيرة الدوران في الكتاب العزيز ؛ فقد جاء في أكثر من ثمانين موضعاً منه على أساليب شتى ، إثباتاً ونقياً ؛ وهو أيضاً من الألفاظ التي وردت في السنة المطهرة على نحو ما وردت في القرآن الكريم .

و « الحب » ، فيما جاء من هذا وذاك نوعان :

(١) حب العبد لله .

(٢) وحب الله للعبد .

ولكل واحد من هذين النوعين ظاهرة جديرة بالنظر والدرس :

فأما حب العبد لله فهو منزلة ترتفع بصاحبها إلى أعلى درجات السمو والكمال والتزده ؛ وهذه المنزلة تستدعي من صاحبها أن يؤثر محبوبه — كما هو الشأن في كل محب — بكل شعب من شعاب قلبه وفكره ، وأن يضحى في سبيله بكل رغبة من رغباته ، وأن يتحمل في رضاه كل عناء ، ويصبر على كل بلاء ؛ ذلك أن الحب — كما يعهده الناس بين بعضهم وبعض — هو علاقة فوق المعرفة ، وميل وانعطاف فوق الإرادة والرغبة ؛ فكل واحد منا يعلم من نفسه أنه يعرف فلاناً من الناس ، أو يعرف كذا من الأشياء معرفة رضا وقبول دون نبوءة عنه أو نفور منه ؛ ولكننا لا نسمى هذا حباً ، لأن الحب أعمق في نفس المحب أثراً ، وأكثر

لفراغ القلب شغلا ، بل الحب الحقيقي هو الذى لا يترك فى القلب فراغا ، ولا يدع للنفس سبيلا للتوجه إلى ما سوى الحبيب .

وإذا كان الأمر بهذه المثابة ، فحب العبد لله هو الإيمان الحق ، وليس الإيمان الحق مجرد المعرفة وإذعان النفس ، وبعبارة أخرى : الإيمان الحق هو إيمان المحب لله المنفعل به الذى يؤثره على نفسه ، وتبدو آثار حبه إياه فى جميع أقواله وأفعاله وتصرفاته ؛ أما الإيمان الجاف الصامت السلبي الذى لا يعدو الإذعان النفسى ، والإقرار القلبى ، ولا تظهر آثاره فى مظهر من المظاهر العملية الإيجابية ، فليس هو الإيمان الذى يريده الله من عباده .

إن المؤمن الحق هو الذى أدرك جمال الله وجلاله ، وأدرك لطفه وإحسانه ، وعلم علم اليقين أنه هو المنعم المفيض الذى لا إنعام إلا به ، ولا فيض إلا منه ، ثم انفعل بهذا الإدراك فأحبه ، فأصبح قلبه مشغولا به ، وعمله موجها إليه ، ولذته وارتياحه فى طاعته وعدم المخالفة عن أمره ، يتحمل فى ذلك ما يتحمل راضيا مغتبطا بقرير العين مطمئن القلب ثابت القدم ؛ فإذا أحسن إليه حبيبه تلقى هذا الإحسان شاكرًا بلسانه وقلبه وفعله ؛ وإذا ناله شيء فى سبيل مرضاته تلقاه صابرا عليه ، غير متبرم به ، ولا ضائق به صدرا .

ذلك هو المحب ، وذلك هو المؤمن ؛ وآية ذلك أن الله ذكر الكافرين والمؤمنين فجعل حبه هو العلامة المميزة بين هؤلاء وهؤلاء إذ يقول : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله » . وذكر الذين يتبدلون بدين الحق ما سواه فقال : « يأبى الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأبى الله بقوم يحبهم ويحبونه » . فقد وضع الحب فى موضع الإيمان . وقد نعى الله على الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة فوصفهم بأنهم « يحبون العاجلة ، ويذرون وراءهم يوما ثقيلا » أى أنهم أحبوها فأثروها ، ولو أحبوا الله لآثروه « كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة » . وقد نفى الإيمان عن يوادون أعداء الله فقال : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادَّ الله ورسولَه ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم

أو عشيرتهم ، وذلك لأن عدو المحبوب عدو للمحب ، كما أوجب على المؤمنين حب رسوله وحب أوليائه « لأن محبوب المحبوب محبوب ، ورسول المحبوب محبوب » وفي ذلك يقول الرسول الكريم : « لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين » . « وما تحاب اثنان في الله إلا كان أفضلهما أشدهما حبا لصاحبه » ويقول الله عز وجل : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » . وهكذا نرى حب الله وإيثاره على كل ما سواه هو الإيمان الحق في كل ما جاء على لسان الشرع . والدستور الجامع في ذلك هو قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتوكلهم منهم فأولئك هم الظالمون . قل إن كان آباؤكم وأبناءكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين »

وأما حب الله للعبد فلم يثبتته القرآن الكريم إلا لذوى الأعمال العظيمة التى تفوق فى قيمتها ومنزلة العاملين بها ما سواها من جنسها ، ولم ينفه إلا عن ذوى الصفات السيئة الموغلة فى السيء التى من شأنها أن تشيع الضرر والفساد .

بيان ذلك أن الآيات التى أثبتت حب الله للعباد تصف هؤلاء العباد المحبوبين بأوصاف هى أمهات الأخلاق ومنابع الفضائل النفسية ، ولها من سمو عما يشاركها فى أصل معناها ما يجعلها جديرة بالحب الذى هو فوق مجرد القبول والرضا .

ومن ذلك قوله تعالى : « إن الله يحب المحسنين » والإحسان صالح لأن يراد به الإنعام على الغير ، وأن يراد به الاتقان والتبريز فى كل شئ ، فإذا أريد به الإنعام فهو منزلة فوق الإعطاء لأن الإعطاء قد يشاب بشائبة من المن أو الأذى أو اختيار الأدنى تخلصاً منه ، ولا يكون العطاء إحساناً حتى ينزه عن ذلك كله ، ويسمو صاحبه فيه إلى الدرجة التى يصفها الله ورسوله فى مثل : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » و « لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه » و « إن الله طيب لا يقبل

إلا طيباً « من كل ما يدل على تحرى الحالة الفضلى ، والصورة المثلى فى كل جانب من الجوانب .

وإذا أريد بالإحسان إتقان العمل عامة والاحتفال له والتبريز فيه ، فليس كل من أدى عملاً يكون محسناً ؛ مجرد أدائه ، فالأداء قد يكون مجرد تخفف وإبراء ذمة ، أما إحسان العمل وأدائه كاملاً متقناً فهذا شيء آخر ؛ وإنهم ليقولون : إن الاحسان فوق العدل إذ العدل هو التسوية ، والاحسان معنى زائد عليها ، فمن أدى الحق وأخذ الحق فهو عادل ، ومن تجاوز عن بعض حقه مسامحة منه وكرماً ، وأعطى أكثر مما عليه تلطفاً منه وتفضلاً ، فهو محسن ؛ ولذلك يقول الله عز وجل « فمن عُنى له من أخيه شيئاً فاتبع بالمعروف وأداء إليه بإحسان » فيطلب المعروف فى الاتباع والمطالبة ، والاحسان فى الأداء ، ويقول : « إن الله يأمر بالعدل والاحسان » فلا يكتفى بالعدل الذى هو المساواة ولكن يأمر بما فوقه وهو الاحسان « ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » .

بهذا يتبين أن الله جلت حكمته لم يمنح حبه لمجرد الإنفاق أو الأداء على ما جرت به العادة ، وإن كان يرضى عن ذلك ويقبله ، ولكنه منح هذا الحب الذى هو فوق الرضا والقبول لما يناسبه .

ولما كان الحب يعامل حبيبه بمنتهى الكرم ، ويتلطف معه أعظم التلطف ، فإن الله جل علاه يعامل المحسنين الذين يحبهم هذه المعاملة ، فيقول : « وبشر المحسنين » « إن رحمة الله قريب من المحسنين » « إن الله لا يضيع أجر المحسنين » « وسنزيد المحسنين » « وإن الله لمع المحسنين » .

وكما يقال هذا فى الإحسان يقال أيضاً فى الصبر ، إذ الصبر منزلة فوق الاحتمال ، لأنه مجاهدة وحبس للنفس عن كل ضجر أو تبرم ، وهو أساس كثير من الفضائل ، وإن اختلفت أسماؤها ؛ فالشجاعة هى الصبر على مكاره الجهاد ؛ والجلود هو الصبر على بذل المال والمعروف ؛ والكتان هو الصبر على شهوة الإفاضة والكلام ؛ والعفاف هو الصبر على نوازع النفوس والشهوات ؛ ورحابة الصدر هى الصبر على المثيرات والمحفظات ، وهكذا ؛ ولذلك يعلن الله أنه « يحب

الصابرين ، ويذكر الصبر في خصال البر « والصابرين في البأساء والضراء » ، ويحمل الصابرين هم أصحاب الحظ العظيم « وما يُلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » ، ويعلن أنه سيغمر الصابرين بمزيد من الفضل الذي يعادل هذا الحب فيقول : « وبشر الصابرين » « ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن مما كانوا يعملون » « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » « إن الله مع الصابرين » « يجزون الفرقه بما صبروا » « وجزاهم بما صبروا جنة » « سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

وقل مثل هذا في بقية المواضع التي أثبت الله فيها حبه لعباده ، مثل قوله تعالى « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » و « يحب المتقين » و « يحب المتوكلين » و « يحب المقسطين » .. الخ .

وقد جاء الحديث الشريف مؤيدا لهذا المعنى القرآني إذ يقول عليه الصلاة والسلام فيما رواه عن ربه « قال الله تعالى : لا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به » .
وليست النوافل في الحديث هي صلاة ركعتين أو ركعات بين يدي الفريضة أو بعدها غسب ، ولكنها كل زيادة وفضيلة فوق ما هو مطلوب في العادة ، وذلك يشمل كل ناحية من نواحي الحياة ، كالإحسان والصبر والتقوى والتطهر... الخ .

ومعنى قوله « كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به » هو التوفيق والهداية والرعاية في كل حال ، نتيجة للحب الذي منحه إياه ؛ ولا شك أن الذي يسمع بالله ، ويبصر بالله لا يضل ولا يشقى ؛ وذلك أيضا هو معنى قوله تعالى « إن الله مع المحسنين » و « مع الصابرين » إذ يلزم هذه المصاحبة كل توفيق وسداد .

بقى بعد ذلك الآيات التي نفي فيها الله حبه عن عباده ، مثل قوله تعالى : « والله لا يحب الفساد » و « لا يحب المفسدين » ؛ ولا شك أن الفساد إجرام فوق العادة ، وأن المفسدين أعداء المجتمع والعاملون على تقويض بنيانه ، وزعزعة أمنه واطمئنائه ، فإن الشخص الذي يذنب ذنباً عادياً يكون جرمه على نفسه ،

أما الذى يعيث فى الأرض الفساد فجرمه على المجتمع كله ؛ ولذلك قد يتوب الله على الأول أى يوفقه للتوبة والرجوع ويغفر له ، أما الثانى فقلها يوفق للتوبة لأن قلبه مظلم ، ونفسه فى ضراوة الوحوش الكاسرة .

وحسبنا أن الله جل علاه يذكر الفساد والمفسدين فى أخطر المناسبات ، إذ يقول : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » ، ولولا دفعُ الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » .

ونتيجة هذا المقت للفساد والمفسدين هى ما ذكره الله عز وجل فى مثل قوله « إن الله لا يصلح عمل المفسدين » ، « زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون » ، « فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » .

وكذلك يقال فى قوله تعالى : « إن الله لا يحب الظالمين » ، وفى القرآن الكريم بيان عاقبة هذا المقت وعدم الحب ؛ مثل قوله « إنه لا يفلح الظالمون » ، « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم » ، « فأخذهم العذاب وهم ظالمون » « وقد خاب من حمل ظلما » .

وأحسب أنه لا يصعب بعد هذا البيان على من شاء من القراء ، أن يتتبع الفكرة على هذا النحو فى مثل قوله تعالى : « إن الله لا يحب الكافرين » ، و « لا يحب الفرحين » ، و « لا يحب من كان مختالا فخورا » ، و « لا يحب من كان خوانا أثيما » .
وخير ما أختم به هذا الحديث دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم الذى كان يدعو به ربه « اللهم ارزقنى حبك ، وحب من أحبك ، وحب ما يقربنى إلى حبك » ؟

الود للأكرمين

قال العطوى الشاعر :

صن الود إلا عن الأكرمين	ومن بمؤاخاته تشرف
فكم من أخ ظاهر وده	ضمير مودته أجيف
ولا تغتر من ذوى خلة	بما هوى لك أو زخرف
إذا أنت عاتبته فى الإخاء	تذكر منه الذى تعرف

شعراء الأزهر

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الجواد رمضان

المدرس بكلية اللغة العربية

ليس الشعر مما يعدّه الأزهر من مفاخره ؛ فالحباء ورثة الأنبياء ؛ والنبوة والشعر لا يلتقيان ؛ وقد قيل لحسان رضى الله عنه : لان شعرك فى الإسلام ؛ قال : لأن الإسلام ينهى عن الشر ! وقال الخيث بشار : أزرى بشعرى الأذان . ذلك إلى أن من طبيعة البحث العميق الذى يمتاز به الأزهرى أن يعوق عن البراعة فى الشعر .

غير أن هذا كله لم يحلْ دون أن يقول الشعر كثير من الأزهرين فى القديم والحديث ؛ ودون أن يجيده ويبرز فيه أفراد ينزلون فى الصفوف الأولى من صفوف الشعراء المعدودين فى جميع العصور ؛ ولا يضيرهم أن كانوا قليلين ، فإن الشعر موهوب ، لا مكسوب ؛ تربيته الثقافة وتقويه ، ولكنها لا تعطيه ؛ وقد يضحى الأزهرى بهذه الموهبة إشارا لما هو بسبيله مما هو الأشرف الأهم ، والمقصد الأعظم .

ولست أريد أن أؤرخ للشعر فى الأزهر ، منذ كان الأزهر ؛ ولا أن أترجم لكل من يقول الشعر فيه ؛ فإن شرح ذلك يطول ؛ ويفتح أبوابا ليس من الخيز أن تفتح . وإنما أقصر على هذه الفترة التى ابتدأت بعصر إسماعيل الى اليوم ؛ على أن أتناول أمثال من يقول (١) :

أزَمَعَ الركبُ رَحِيلاً فَاتَّعَدُ فالتياغا ، قَبَّحَ اللهُ الْجَلْدُ !
زَعَمُوا أَنْ غَدَا فَرَقْتَنَا ذَكُرُوا الْمَوْتَ فَسَمَّوْهُ بَعْدُ
مَا لَجَفَنِي يُولَعُ الْبَيْنُ بِهِ إِنَّهُ لَوْ كَانَ بَحْرًا لَنَفَدَ

لا أمثال من يقول ^(١) :

علوم الفقه والتوحيد ————— والتفسير ، أشباه
علوم حشوها جهل وتخليط عرفناه
وبعض رجالها ضلوا وفي أوهامهم تاهوا
ولولا حسن نيتهم لقلنا : حسبنا الله !

وقد نفغل بعض من لا يروقههم أن نعرض لهم عن لهم في الشعر مقام معروف
توخياً لرضاهم ، وبعدا عما عساهم يعدونه تحسكاً غير مرغوب فيه ؛ وإن كان هدفنا
الأصلي في هذا الموضوع ، هو الإشادة بذكر الأزهر من ناحية غير مطروقة ،
لا التوسع في النقد ، ولا الإقاضة في التراجم والتفاصيل . وربما أغفلنا الترتيب
الزمني ، لاعتبارات وضرورات تقضيها ذلك الاغفال المؤقت حتى تتغلب
على بواعثه .

* * *

(١) السيد حسين والى

هو السيد حسين والى بن العلامة السيد حسين والى بن السيد ابراهيم والى ؛
ينتهى نسبه إلى الامام أبى عبد الله الحسين بن على ، رضى الله عنهما .

ولد في منية أبوعلى من أعمال مركز الزقازيق في مديرية الشرقية ؛ في رجب
الفرد سنة ١٢٨٥ « نوفمبر سنة ١٨٦٨ » وطلب العلم في الأزهر ، منتسباً إلى رواق
معمر ، إلى أن نال شهادة العالمية سنة ١٣١٧ هـ - ١٨٩٩ م . وأذن بالتدريس
في الأزهر سنة ١٩٠٠ ، ثم ندب للتدريس في مدرسة القضاء الشرعى سنة ١٩٠٧ ،
ثم عين مفتشاً في الأزهر والمعاهد الدينية سنة ١٩١١ ، ثم وكيلاً لطنطا سنة ١٩١٤ ،

ثم سكرتيراً عاماً للمجلس الأعلى بالأزهر سنة ١٩٢٠، وبقي في هذا المنصب إلى أن ألغى في ديسمبر سنة ١٩٢٦، وفي ٧ من شهر ربيع الأول سنة ١٣٤٣ (٦ من أكتوبر سنة ١٩٢٤) عين في هيئة كبار العلماء بمرسوم ملكي كريم نصه :

« عين في هيئة كبار العلماء كل من حضرات : الشيخ محمد مصطفى المراغي الحنفي المذهب رئيس المحكمة العليا الشرعية ؛ والشيخ حسين والي السكرتير العام لمجلس الأزهر الأعلى والمعاهد الدينية ، والشيخ محمد الحلبي ، والشيخ سيد علي المرصفي ، الشافعي المذهب . »

وتوفي - طيب الله ثراه - في ٢٨ من فبراير سنة ١٩٣٦، وهو عضو في مجلس الشيوخ، وفي المجمع اللغوي . وما تزال أصداء جولته تدوي في قلوبنا، فيتجاوبها آفاق العروبة في مشارق الأرض ومغاربها إلى اليوم .

* * *

والسيد حسين والي ، أحد الأقطاب الذين سما حظهم من التبحر في علوم اللغة العربية وآدابها ؛ وأخذوا بآفاقها وشعابها ، على جميع الباحثين والمتأدين ؛ في عصر النهضة ، فلا يسبقهم سابق ، وإن ناصحهم شواذ في أقطار الشرق العربي معدودون معروفون . هم الأئمة ، وسائر الناس على آثارهم مقتدون .

لا جرم أن مواهب السيد حسين والي ، جديرة بأن تبوئه هذه المنزلة الرفيعة التي لا ترام ؛ فلقد كان - الى تبحره في علوم الأزهر - كاتباً قديراً ، وشاعراً خلا . يكتب كما يكتب حمزة فتح الله ، والسيد توفيق البكري ، والشدياق الخ ؛ ويشعر كما يشعر حمزة فتح الله ، والسيد توفيق البكري ، وآل اليازجي ، وغيرهم وغيرهم من كبار الكتاب وخول الشعراء ؛ في مصر والشام والعراق ؛ ويصاؤل المؤلفين والباحثين في وزارة المعارف وغيرها ، وينقدهم وينال منهم ويوجههم فيتحهون . ويفتي في اللغة والأدب ، فينقطع كل قول ، ويخفت كل صوت . ذلك بأنه كان مطلعاً ، فقيهاً لغوياً ، ذواقاً ، هاضماً لما علم ، واثقاً بما يقول ؛ والإيمان بالرأي أقوى أسلحة الشجاعة . وكان الطبيعي أن ينال السيد حسين والي

من الشهرة عند الخاصة والعامة كفاء هذه الموهب المتوافرة؛ بيد أنه غرض من شهرته شمائل؛ هي في شرفها وعصرها أنفس جوهرها، وأعز قيمة، وأرفع جمالا من كل شهرة.

كان السيد حسين والى غالبا في التعصب القديم، يعتز به، ويحافظ عليه، ويرعاه في دينه، وفي سمته، وفي لغته، وفي كل ما يحيط به، حتى لقد سمي أولاده: أسامة، ولؤى، ونزار، والفرات. يحدوه إلى ذلك نسبة الشريف، ونشأته الأزهرية، ووقار ألبسه الله منه رداء فضفاضاً؛ ثم نزعة صوفية عميقة ستعلم نبأها بعد حين.

هذه الشمائل المركبة في طبيعة السيد حسين والى؛ أبت عليه:

أن يدعو إلى التجديد؛ أبهر أسلحه الشهرة في هذا العصر

وأن يتبدّل، فينكت، ويشتم ويشتم، ويهدم السابقين، ويخطئ اللاحقين؛ وأن ينافق، فيلقى كل قائم بوجه، وهو يؤمن بأن ذا الوجهين لا يكون عند الله وجهاً؛ وأن يكثر، فيملاً الصحف والمجلات ثثرة، وحديثاً مردداً مكروباً.

والحمد لله الذى ركب في طبيعة السيد حسين والى ما ينافر وسائل الشهرة في هذا العصر، فلولا ذلك لما وجد الخبز كثير من المشهورين!

* * *

وبعد، فليس من همى أن أترجم للسيد حسين والى، فإن ذلك — إلى أنه يتقاضانى مجهوداً ضخماً — ليس من صميم موضوعي؛ وحسبى هذا التعريف الموجز بهذا العلم المطوى، علّ فيه غمراً بشره، مفخرة للأحياء، ووفاء للأموات. بيد أن لدى من نواحي الإعجاب بهذا الرجل العظيم، ما يشجئنى على معالجته في فرصة أخرى، وفي موضع آخر. نسأل الله التوفيق.

* * *

قلنا: إن المترجم شاعر خل، وهو حكم لا يخامرنا شك في صحته وبعده عن كل مجاملة وإسراف؛ ولا نظن ناقدًا يخالفنا فيه؛ إلا بمثل ما قيل في السيد

توفيق البكرى ، من أن شعره لا يوافق روح العصر . وهذا ليس نقداً للشاعر ولكنه نقد لمذهبه ؛ وهو كلام لا وزن له ؛ أما الموهبة الشعرية التى هى مناط النقي والإثبات ، فأنها كاملة ضخمة عند السيدين ، كليهما ؛ على أن السيد البكرى وإن لاقى السيد والى فى أن كليهما شاعر مقل ، أوسع مضطرباً ومجالاً منه ؛ فلقد سمعنا وقرأنا للبكرى كثيراً ؛ ولم نسمع ولم نقرأ لوالى إلا القليل .

فن هذا القليل تقرظه لكتاب « شذا العرف » ، للغفور له الشيخ الحلاوى ؛ ولهذا التقرظ أبلغ الدلالة على قوة الشاعرية عند المترجم ، فقد التزم فيه — على طريقة شعراء عصره — أن يكون الشطر الأول فى البيت تاريخاً لسنة ١٨٩٤ الفرنجية ، والشطر الثانى تاريخاً لسنة ١٣١٢ الهجرية ؛ وعدة التقرظ عشرة أبيات غاية فى الجزالة والفخامة ، على رغم القيود والأصفاذ التى كُبل بها شاعريته ، مما لا يقدره قدره إلا من عاناه . وهو فى هذا الصنيع لا يقل عن الشيخ ناصيف اليازجى وولديه خليل وإبراهيم . اقرأ من هذا التقرظ :

شذا العرف بالطبع مبناه رق	وبرق اضطفأ الصرف لطفاً برق
كتاب كريم أغار الحسود	وأخمل كل كتاب سبق
صنيع أخى الفضل داني الأيادى	وأرقى جليل شريف الأرق
أغرّ البرايا النيل الفريد	مَنِ البدرُ دون ذكاه انمحق
غياث العلا الحلاوى العزيز	مناط النهى من به الفخر حق
لعمرك هذا الذى عزّ جاها	يبث ثناه المديح نطق

هذا شعر لو قيل على الطبيعة ، لدلّ على قوة الموهبة الشعرية عند قائله ؛ فكيف وقد كُبل كما قلنا بالأغلال والأصفاذ ؟ .

ومما وقفنا عليه من شعره : « القصيدة النومية ، التى ندع له رحمه الله تعالى تقديمها . قال :

« قال منشئها ، الفقير إلى الله ، حسين والى الأزهرى الشافعى ، ابن العلامة المرحوم السيد حسين والى ، الحسينى : سبب إنشاء هذه القصيدة ، أنى اجتمعت

مرة بالقطب الرباني ، والهيكل الصمداني ، صاحب البركات والنفحات ، سيدى ومولاي الشيخ ابراهيم أبى العيون ، أستاذ السادة الصوفية ، وملاذ القادة الخلوتية ؛ وكَلَّمْتُهُ فى حاله مع الغوث ، فقال : منى للصطفى ؛ وبعد جدال مع الأستاذ فى شأن ذلك ، ومطالبته بالدليل ، قال لى : ما تراه فى النوم ، أخبرنى به . فما زلت أفكر فى أمره ، حتى رأيت فى الرؤيا بمصر ليلة الجمعة ٢٦ شعبان سنة ١٣١٤ ، النبى صلى الله عليه وسلم ، ويد الشيخ فى يده مثل المتصالحين ؛ وأنا والغوث على بعد يسير من الشيخ ، وقوفا فى تجاهه ، مغموسين فى أنواره صلى الله عليه وسلم ، تعمنا هيئته ووقاره ؛ وأشار على صلى الله عليه وسلم ، أن أمدح الشيخ ، وأصف حاله وحاله ؛ فمدحته بهذه القصيدة واقفا ، حيث لم يتغير أمر واحد منا عما هو عليه ؛ وكأنّ هذا بالمدينة المنورة ، فى فضاء ، ليلا ؛ ثم استيقظت فكتبتها إلا قليلا شط عن فكرى ، فاجتهدت فيه إلى أن وفقت له بارشاد منه صلى الله عليه وسلم فى رؤية أخرى ؛ ثم لما تلوتها على الشيخ بحضرة الأجلاء من الإخوان ، أمرنى أن أصلى وأسلم على النبى صلى الله عليه وسلم فى بيت ، ففعلت ؛ فكانت واحدا وسبعين بيتا ، من مخلع البسيط ؛ ثم قال لى : انتظر الإذن منه بالتسمية ، فانتظرت ، حتى أذنت بهذا الاسم ، والاشارة النبوية ، وعلى الله القبول ، اهـ .

ومطلع هذه القصيدة :

أَمْسَيْتُ بِاللّهِ فى شُؤُونِ وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ فى شُؤُونِ
لم أنسه ، وهو خير معطٍ لا فى حراك ولا سكونٍ
ومنها :

والأمر عندى أمر ربى والأمر عندى أمر دينى
أرنو ، ولكن لصنع ربى وذاته الأقدس المتين
فلو حلفت بأن عيني لم تغف ، ما زغت فى يميني

أنسى هو الله في جموع وفي 'عدُون' ، وفي ظعون^(١)
 في الحب أغرقت في بحور وما لجأت إلى سفين
 وإن شربت ، شربتُ نورا والناس تشرب من معين
 سلوا قريني إذا تسمنى عن كنه عشقي يُجبُ قريني^(٢)
 لا لوم ، إن لم أطع خدينا غنيت بالله عن خدين !
 وهل أخاف سوى قوى عدل ، بقبضته وتين
 سقاني الله كأس شوق على ضروب من اللّحون !
 ومنها ، وهو في الصميم :

أناح قـرب المزار عني شكواي ، والقرب ذو نون
 حقا أراني أبو العيون طه — وربى — بالعيون
 قطب يدور الرضا عليه ومنتاه هـدى البطون^(٣)
 قطب جدير بأن يزجى لبابه أجمع المتون
 نفسى تطاوعه وكانت من قبل ، كالصافن الحرون
 تبعته قـدراً ، وإنى دخلت في كهفه الحصين
 أزال إبليسَ عن نزالى حتى نجوت من الخؤون
 بفضله السابق الفوادي خلصت من زمن الفتون
 به تحققت ما برانى لما تلقيت باليمين
 فإن تكن للورى عيون فلي وحيدا أبو العيون !
 ومنها ، وهو عوذتها :

يا مصطفي أنا منك فارأف بحادث وامق مـهين
 مثلك بين يديك أرجو أن أستمر على اليقين
 يا سيد الأنبياء إني أهل لإحسانك الهتون
 أنقذ فؤادي من أمور فإنما هو كالجنين

(١) عدون : إقامة . (٢) قريني : الملك الموكل بي ، وتسمى : أمكن .

(٣) البطون . الأجيال .

لو لم أر الآن منك حلماً لغرْتُ في نازل بَطِين^(١)
 على التقى والهدى أعنى وسدَّ إن كثرت ديونى
 وإن عصيت فكن شفيعاً فليس غيرك بالقمين
 فإن نار السعير ليست تزداد عنى بالحصون
 من ذا يُسَلَّم في وليد له إلى مُحْرِق مهين
 وهل أرى في القيام غياً وأنت - دون الورى - ضمين ؟
 وختمها بقوله :

صلى وسلم مصطفىه عليه فوق مدى السنين

* * *

والقصيدة بالمقدمة المتقولة هنا ، مطبوعة بالمطبعة الشرفية سنة ١٣١٤ هجرية ،
 وبهامشها تعليقات وجيزة ، وهى فى أسلوبها ومعانيها ، تعرب عن نفسها .

* * *

رحم الله الإمامين الجليلين ، ونفعنا بآثار هذا السلف الصالح . آمين ؟

الفخر بالموت

كان العرب يتماجدون بالموت فى الحروب ، ويتهاجون بالموت على الفراش .
 قال السموول مفتخرا :

وما مات مناسيد حتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيل
 تسيل على حد الظباة نفوسنا وليس على غير السيوف تسيل
 يقول مامات سيد منا على فراشه قط ، ولا ذهب دم قتيل لنا هدرا ، ولم نر
 فى تاريخ جاهلية أمة أنهم كانوا على هذا النحو من استساغة الموت والتباهى به ،
 ولعل ذلك كان منهم مبالغة فى التمدح بالشجاعة .

(١) النازل البطين : النفث البعدي الأرض .

موقف المسلمين من القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد عنتر
الأستاذ بكلية اللغة للعربية

أُنزل القرآن على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، منذ ١٣٨٠ عاماً ^(١) .
ولم يزل بعناية الله محفوظاً من التحريف والتبديل إلى عصرنا هذا ، ثابتاً كالطود
الشامخ ، يرد بغى الباغين ، وكيد الكائدين .

وكلما مرت عليه الأحقاب والسنون ، ازدادت على طول الزمن جدّته ،
وتمثلت لقارئيه قوته ، وتجلت للناس عظمته ؛ ولن يزال كذلك بإذن الله حتى تقوم
الساعة : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

ولقد كان للمسلمين معه في تلك الحقب الطويلة موقفان : موقف السلف ،
وموقف الخلف ؛ وهأنذا أشرح الموقفين . أما الأول فلذكره الطيبة ، وأما
الثاني فللعظة والاعتبار :

موقف السلف من القرآن :

لما نزل القرآن الكريم تلقّاه المسلمون الأولون بصدور منشرحة ، ونفوس
مطمئنة ، وقلوب مؤمنة ؛ وجعلوه إماماً يقتدون به ، ودستوراً يعملون بأحكامه ،
ويسرون في الحياة على ضوء تعاليمه .

كانوا يتلونه بألسنتهم فترسم صور معانيه الجميلة على صفحات قلوبهم ،
منقوشة بيد التوفيق والهداية والإخلاص لله ولرسوله وللمؤمنين .

(١) ذلك أنه ابتدأ نزوله قبل الهجرة بثلاثة عشر عاماً .

كانوا يقرءونه فيجاوز حناجرهم إلى قلوب عمرت بالإيمان ، وملئت باليقين ،
وأفعمت بالشجاعة !

كانوا يرتلونه ترتيلا ليتفهموا معانيه السامية ، ومراميه الواعظة ، وإشاراته
الدقيقة ، واستلزم هذا أنهم كانوا يؤدونه بطريقة الأداء العربي الفصيح ،
الخالية من التلحين الموسيقي ، والنغم الغنائي ، الفاشيين الآن في قراءة قرأتنا .
وطريقة العرب الأولين هذه هي التي أشار إليها القرآن الكريم ، حاثا عليها
الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : « ورتل القرآن ترتيلا » ^(١) .

وقد فطنوا رضى الله عنهم لما في القرآن من هداية وإرشاد ، فأحلوا حلاله ،
وحرّموا حرامه ، ووقفوا عند الحدود التي رسمها لهم ؛ لذلك أثنى عليهم المولى
جل وعز ، فقال : « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ؛ أولئك
الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب » .

فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول حينما استشفع عنده حُبّه أسامة
ابن زيد في إقامة حدّ السرقة على إحدى العظيمات من نساء قريش « ... أتشفع
في حد من حدود الله ؟ ! » . وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ! ،
وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول لعمر بن العاص ، أحد دهاة
العرب ، ووالى مصر الأول ، وفاتها في عهده ، لمناسبة حادثة شهيرة ^(٢) ، يقول له :
« متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ ! »

وهذا على كرم الله وجهه يقول لما نزلت آية تحريم الخمر : « لو وقعت قطرة
في بئر فبنيت مكانها منارة لم أؤذن عليها ، ولو وقعت في بحر ثم جف ونبت فيه
السكر لم أرعه ! »

أما الجهاد في سبيل الله فقد طبّقوا في شأنه توجيه القرآن المستفاد من قوله
تعالى « وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة » ، ومن رباط الخيل تُرهبون به عدوّ الله

(١) الترتيل في القراءة : التهل فيها والتبيين بنير بنى ، والبنى هنا معناه مجاوزة الحد
في الفئات واللدود ، وخروج التلاوة إلى الألحان والأغاني .

(٢) حكم فيها عمر رضى الله عنه أن يقتص المصري من محمد بن عمرو بن العاص ، بالرغم من
أنه ابن حاكم مصر !

وعدوكم» وجعلوه نُصب أعينهم ومطمح أنظارهم ، لكن لا للاستعمار والاستعباد والاستيلاء على حطام الدنيا الزائل ، بل جاهدوا في الله حق جهاده ، وصبروا وصابروا ابتغاء مرضاة الله ، ولتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، حتى قال سعد بن معاذ الأنصاري قبيل غزوة بدر مخاطباً رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً . إنا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء ^(١) » وقال عقبه بن نافع لما حارب الروم والبربر وانتصر عليهم حتى وصل إلى بحر الظلمات (المحيط الاطلنطي) « يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك ^(٢) » .

والمتبع لتاريخ حياة أولئك المسلمين الأولين يرى أنها كانت حياة مودة وإخاء ، وعمل وكفاح ، وجد وجهاد وانتصار ، مع عزوف عن التكاثر في الأموال للأفراد ، بل للأمة والدولة لمساعدة الفقراء والمعوزين ، ومع بعد عن الدنيا التي تفتك بالعقول والأجسام ، وضمان الحرية السكاملة لمن كان يخالفهم في الدين من أهل الذمة ، اليهود والنصارى .

هكذا كانت حياة المسلمين الأولين التي أساسها تعاليم القرآن . وهي تلخص

في كلمات :

توحيد لا إشراك معه ، وجهاد لا بغى فيه ولا عدوان إلا على الظالمين ، وعمل لسعادتي الدنيا والآخرة ، وتكافؤ في الحقوق الإنسانية ، وتمتع بالكفاف من الرزق الحلال !

وهذه الحياة الطيبة قد اقتبسوها من تعاليم القرآن ، وطرقه المثلى في الهدى والإرشاد : لذلك تم لهم ما أرادوا ، ففتحوا الأقطار ، ومضروا البلدان ، وضربوا للإنسانية المثل العليا في العدل والإخاء ، والحرية والمساواة ؛ ودامت دولتهم على هذا زمانا ليس بالقصير ، كانوا فيه مضرب الأمثال ، ومفخرة الأجيال ، ومعجزة التاريخ . وهذا مصداق قوله تعالى : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون » .

(١) سيرة ابن هشام (٢) تاريخ الأمم الإسلامية ، محاضرات الحضري بك الجزء الثاني .

هذا موقف سلف المسلمين من القرآن العظيم ؛ فاسمع أيها القارئ الكريم موقف منزل القرآن جل وعز من هؤلاء العظماء حيث يقول : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ؛ تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله ، ! . وهذا هو الثناء المستطاب ، الذى تشرئب اليه النفوس ، وتثلج به الصدور !

موقف الخلف من القرآن :

والآن أشير الى موقف المسلمين من القرآن بعد عصر النبي عليه السلام ، وعصر الخلفاء الراشدين وبنى أمية ؛ ليستبين فضل السلف من المسلمين السابقين ، وليتنبه المسلمون فى هذا العصر الى ما قصروا فيه هم ومن سبقهم من مسلمي العصور الأخيرة ، لعلمهم يتداركون ما فاتهم من مجد وسؤدد ، ويحققون ما يرمى اليه القرآن من عز وكرامة ، واتحاد وقوة !

فقد وضع المسلمون الأولون أسس العظمة الإسلامية كما اقتبسوها من هدى القرآن الكريم ، وكان على من جاء بعدهم أن يشيدوا على أسس هذه العظمة صرحا إسلاميا غاليا ، قوى الأركان ، مضيء الجوانب ، يشع منه النور على جميع أرجاء المعمورة ؛ ولكنهم — وبالأأسف — لم يفعلوا شيئا من ذلك ! بل تأخروا وتقدم غيرهم ، وكسلوا ، وجد وعمل غيرهم . والى القارئ البيان .
بجملا فى الشئون الآتية :

(١) الاتحاد والتعاون :

دعا القرآن المسلمين الى الاتحاد والتعاون فى آيات كثيرة ، ومناسبات شتى ، فقال تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، ، ولا تازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، ، وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم » .

فماذا كان موقف الخلف من المسلمين إزاء هذه التوجيهات السديدة ؟

الجواب : أنهم ساروا على الضد منها ، ولم يفتطروا للدسائس المحسوسة الخفية ، التى دسّت بذورها فى أرض الجامعة الإسلامية من أواخر عهد عمر رضى الله عنه ، ثم نبتت فى أواخر عصر بنى أمية ، ثم نمت وترعرعت فى عصر العباسيين ، ثم

كانت النتيجة أن ذهب ربح المسلمين، وتقوض بنيان الخلافة أو الجامعة الإسلامية، وقامت على أنقاضها دويلات مختلفة المشارب، مفككة العرى، ضعيفة الجسائب. فماذا يرجى للإسلام منها وحالها على ما وصفنا؟ ثم قامت دولة الترك العثمانية، فلم تلبث أن منيت في ريعان شبابها بدسائس أخرى على الطراز الأول، أو أشد منه وأنكى، وأخيراً تقوضت هي الأخرى، وأصبحت في خبر كان !.

(ب) التوجيه القرآني في شؤون الحرب :

قال الله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ؛ وقال عز شأنه « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ». لقد أعد المسلمون الأولون ما استطاعوا في وقتهم للقاء عدوهم فظفروا وكانت لهم الغلبة، وقصر من جاء بعدهم من المسلمين في تطبيق ما ترمي إليه الآية الأولى والثانية أيما تقصير ! ذلك أن ما كان يستطيعه المسلمون في أول ظهور المخترعات الحربية الحديثة أكثر مما قاموا به فعلاً، إذ كان في مكنتهم - لو أنهم عنوا بهذا التوجيه السامي - أن يتغلغلوا في أوروبا، وينقلوا إلى بلادهم صناعة المعادن المختلفة، وطريقة استنباطها من المناجم المحلية، وينقلوا مع هذه الصناعة صناعة الأسلحة الحربية الحديثة، التي تشملها كلمة (ما) في الآية السكريمة، والتي يفسرها قوله تعالى : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ». أنزلنا الحديد : خلقناه . والتعبير بمادة النزول يشير إلى أنه هبط على الأرض من لدن قادر حكيم . والبأس الشديد : ما فيه من قوة للفتك والإهلاك . ومنافع الحديد التي يرمز إليها القرآن : يفسرها ما هو مشاهد في عصرنا هذا من استعماله في كل مرافق الحياة إلا قليلاً . وإني في هذه المناسبة أرسلها صرخة مدوية يرن صداها في أنحاء العالم الإسلامي والعربي، فأقول :

« أعتقد أنه لا تقوم للمسلمين ولا للشرق العربي قائمة إلا إذا جعلوا لشؤون التعدين والصناعات المختلفة المقام الأول، وبغير هذا لا يكون الجيش جيشاً، ولا الدولة دولة . وسأبين بقية الشؤون التي قصر فيها المسلمون الخلف في فرصة أخرى، إن شاء الله . فإلى اللقاء »

في محيط المرأة

الحديث الذى ألقاه حضرة صاحب السعادة محمد العشماوى باشا فى حفلة
افتتاح الموسم الثقافى الثانى لمكتبة الأميرة فريال بمصر الجديدة
أصيل يوم الجمعة ٢٣ من يناير سنة ١٩٤٨

تفضل رئيس هذه المؤسسة الكريمة ، فكتب إلى يدعونى أن ألقى محاضرة
فى حفلة الافتتاح ، ومبعث هذه الدعوى توهمة أنى محاضر ، وله العذر فى هذا
التوهم ، فهو يعلم أن لى اتصالا بالمليادين الثقافية والاجتماعية ، وجدير بمن توافر
له مثل هذا الاتصال أن يكون محاضرا . ولقد أسلفت فى كثير من المواقف أنى
لست بالمحاضر ، وإنما أنا رجل متحدث يرتجل حديثه ، وهيات أن أعد
للبوقف موضوعا محدود التفاصيل والنقاط ، أو أن أتلو ما هو مكتوب فى
أوراق ، فإذا سميت أحاديثى بالمحاضرات فذلك تسمية فيها الكثير من النجوز .
وقد عرفت من نفسى أنى لا أستريح لغير الارتجال فى مقامات الكلام ، فلا
طاقة لى بالجلوس لأعداد ما يقال . ولى أن أعتد هذا من عيوبى ، وأن أتوقع فى
حديثى أن يكون سطحيا يعوزه التنسيق ، ويفوته ترتيب النتائج طوعا للقدماء ،
ومثل هذا الحديث لا يسمى محاضرة بالمعنى الصحيح . وإنى لأرجو أن يتبين من
حديث الليلة صدق هذه العيوب ، فيكف أصدقائى عن دعوتى إلى الكلام
باعتبار أنى ألقى محاضرة .

دعيت إلى هذه الحفلة كى أتحدث ، والداعى صديق تربطنى به صلات ثقافية
 واجتماعية ، فلم يطب لى أن أعتذر ، لأن تلك الروابط عندى أقوى من روابط
النسب والمصاهرة ، وما أخرجنا إلى توثيق الروابط الثقافية والاجتماعية وتغلها
على روابط القربى ؛ فالأولى توجهنا إلى الخير المحض ، والأخرى قد تورطنا
فيها هو شر .

وما كان لي أن أعذر ، وهذه الحفلة تقام لافتتاح الموسم الثقافي لمكتبة الأميرة فريال ، تلك المكتبة التي لها في نفسى مقام ملحوظ ، وذكري عزيزة ؛ فقد أنشئت لنشر الثقافة في ضاحية لها مكانتها ، وقد بذل في سبيل إنشائها جهد موفور حتى أصبحت لا أقول : ضخمة ، ولكن أقول : أنيقة ، وإن الأناقة لمن حوافز القراءة ودواعي الاقبال على المطالعة ، ونحن محتاجون الى هذه الحوافز نعالج بها انصراف الناس عن دور الكتب وعن التزود من زاد العقول .

وأما الذكري العزيزة لهذه المكتبة في نفسى فهي أنى كنت خطيباً في حفلة افتتاحها يوم شرفها جلالة الملك المعظم بزيارته ، وكان ذلك في الفترة التي كتب على أن أكون فيها وزيراً للعارف ، والحمد لله على السلامة منها . وقفت يومئذ أذكر ما للمكتبات من أثر في توكيد النهضة وإمدادها بأسباب النماء والازدهار .

ولقد كان صديق الداعي رفيقاً بي هذه الليلة ، فترك لي تحديد الموضوع ، وخيراً فعل ، فإني لا أتحدث إلا في موضوع يترك لي اختياره ، لأنى في هذه المواقف من الهواة لا المحترفين ، وليس على الهاوى إلا أن يتكلم بما يجيش به صدره ، ويخطر بباله ، في غير تكليف ولا إملاء .

سألت نفسى : فيم أتكلم ؟ ولم يطل بي التفكير ، فقد ذكرت أنى متهم بالتشيع للبرأة ، وكنت أرمى بهذه التهمة وأنا وزير للعارف حين تظهر الترقيات ، فيقال إنى أرقى النساء الى الدرجات العليا التي هي وقف على الرجال . ولما كنت قد نشأت لا أفرق بين المرأة والرجل ، بل أعتمد أن الله خلقهما لتحقيق وحدة المجتمع وتنسيقه ، فإني لم أكن أعير سمعى لتلك الدعاوى التي تميز فريقاً دون فريق .

وما إن ذكرت ذلك حتى اخترت « محيط المرأة » موضوعاً للحديث ، وحسبى من دواعي الاختيار لهذا الحديث بعينه أنه متصل بهذه المؤسسة التي تحمل اسم أكبر درة في تاج الفاروق ، وهي غفر الفتيات : الأميرة فريال . فليكن لموضوع الحديث قبس من ذلك الشرف الذى أضفى على تلك المؤسسة الكريمة .

وكذلك حفزنى على اختيار هذا الموضوع أننا فقدنا بالأمس القريب سيدة من أكرم سيدات الشرق على الشرق ، وهي المرحومة المبرورة هدى هانم شعراوى

وكلنا نعرف جولاتها في الإصلاح ، وجهودها في المطالبة بحقوق المرأة ، وما كان لها من مروعات ومبرات تؤيد بها الرسالة التي نصبت نفسها لها ؛ فن تكريم ذكرها — طيب الله ذكرها — أن نتحدث عن شأن كان شغلها شاغل وهما الأكبر .

وما زادني إثارة لهذا الموضوع أن المجتمع تشيع فيه اليوم ألوان من الآراء في حقوق المرأة ، وتختلف المعسكرات الاجتماعية والثقافية في تعيين اتجاهها وتبيان مهمتها . ولقد قرأت في هذه الأيام كلاما ألقى في شعبة من شعب هيئة الأمم المتحدة جاء فيه : أن المرأة الشرقية ما تزال محجورا عليها ، وأن هناك فوارق وفواصل بينها وبين الرجال ؛ وأن مرد ذلك إلى الدين الاسلامي ، ووقوفه عقبة في سبيل نهوض المرأة ومساواتها بالرجل .

وإذن فمن الخير أن يكون حديثي عن مقام المرأة في ظل التشريع الاسلامي حتى يتبين ما لها من حقوق ، وما عليها من تبعات :

ولست أدعي أنني مستطيع من استيفاء القول في هذا الموضوع في وقفة واحدة ؛ فان شئون المرأة تتطلب سلسلة من المحاضرات والأحاديث ، ولا غرو فانها تكون نصف المجتمع ، وتوحي إلى النصف الآخر ؛ وطالما قلت في أحاديثي : إنني أخشاه ، وقد تكون خشيتي مبعثا الاحترام لها وتقدير مهمتها ، وقد يكون مبعثا إيماني بقوة بطشها إذ هي نصف متحكم في النصف الآخر ؛ فالرجال إن حكموا أو عملوا فأنما يحكمون ويعملون بوحى من وراء الستار ؛ بل لقد ارتفع الستار وأسفر مبعث الإيحاء . وإن المرأة اليوم توجه وتتوجه ، وتثقف وتثقف ، فهي ظاهرة الوحي ، غالب أمرها في كل شيء . فما قولك في نصف هو الكل ؟ !

حقا لقد مرت بالآمة فترات من الظلام أصاب المرأة فيها جانب من الحيف والإخضاع ، ولكن ذلك شذوذ اجتماعي يعرض للأمم في بعض عصورها لعوامل طارئة ، ثم لا يلبث أن يزول .

إنني رجل أدين بالإسلام ، ولى من ثقافته قسط ، فمن الحق على أن أجهز بأن الإسلام أول من مكن للمرأة في المجتمع الإنساني ، فليس بمجهول أن

المرأة حين بزغ نور الإسلام كانت في حضيض الذلة والانحطاط ، ينكر عليها حق التوريث ، ويؤبى عليها أن تشترك في أى نظام من نظم المجتمع ، فأعلن الإسلام مساواتها بالرجل ، إذ رسم لها فروضا واحدة في العبادات والمعاملات ، وجعلها بمنزلة واحدة في الحقوق والواجبات . ترى القرآن يخاطب المرأة والرجل على حد سواء في شئون المعاشة والآجلة ، وتراه يبين أننا نشأنا جميعا من نفس واحدة ، وأننا افترقنا جنسين لكي نؤلف شطرى المجتمع البشرى ؛ وتراه يعتز بالأسرة ويعبر عن الزواج بأنه الميثاق الغليظ ؛ وتراه يدعو إلى المساواة بقوله : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » .

وإن في حياة الرسول صلوات الله عليه لما يدلنا على أنه لا فرق بين امرأة ورجل في حق أو واجب ، فقد بايعه النساء كما بايعه الرجال ، وقد استفتوه في شئونهم كما استفتاه الرجال . وفي عهد « عمر » كان الرجال والنساء يدعون جميعا إلى الاجتماعات العامة ، وما إن شق طريق الجهاد حتى انفتح للمرأة المسلمة باب وقفت فيه موقفا إنسانيا يتعطر به ذكر التاريخ ، وما إن تحالفت حلقات العلم وطلبت رواية الحديث حتى اشترك النساء بالسهم الوافر ، فرويت عنهن الأحاديث ونقل عنهن الشرع ، ولم يخف أثرهن في سياسة أو اجتماع .

أطلق الاسلام حرية المرأة ، فأباح لها التصرف فيما تملك ، ولو وازنت بين شرائع الغرب وشرعية الاسلام لتجلى لك أن الاسلام أبر بالمرأة وأكفل لحقوقها وأكثر إفساحا لحريتها من التشريع الحديث . وأذكر أنى لقيت سيدة هى زوجة مشرع فرنسى كبير ، فتحدثت إلى فيما تحدثت تزف الى أن فرنسا في طريقها إلى استصدار تشريع يبيح للمرأة المتزوجة التقاضى دون إذن الزوج . فقلت لها : أما زالت فرنسا متأخرة إلى هذا الحد ؟ فقالت : نحن أول أمة غربية سنت هذا القانون ؛ فقلت لها : يوسفى بل يسرنى أن أخبرك بأن الاسلام فرغ من ذلك منذ أربعة عشر قرنا ، ففتح المرأة هذا الحق ، واعترف لها بالرشد التام .

فما لاريب فيه أننا نحيا في ظل تشريع كفل للمرأة ما تطمح اليه من الحقوق ؛ وإذا كانت المرأة قد لقيت في بعض العصور إعناتا وإجحافاً فليس الذنب ذنب التشريع ، وإنما هو ذنب الذين حرّموا المرأة حقوقها المكتسبة ؛ ولذلك يجب

علينا أن نستقي الحقوق من منابعها الأصلية الصافية ، قبل أن تكدرها عهود العنت والشذوذ . وإن نصوص التشريع وحقائق التاريخ لتدلنا أصدق الدلالة على أن ينابيع الاسلام الصافية تفيض بالخير للمرأة ، وتوجد لها بحقوقها غير منقوصة .

ماذا تطالب المرأة به ؟ بالثقافة ؟ لقد فرض عليها الاسلام أن تتعلم . بالميراث ؟ لقد أعطيت نصف حظ الرجل ، وليس في هذا تمييز للرجال على النساء ، بل إن فيه تمييزاً لمن على الرجل ، وأكد أقول : إن فيه محاباة للمرأة ، فعلى الرجل تقع أعباء النفقات ، فإن كان ثمة غنم له في الميراث فهو غنم يقابله كبير غرم ، وكيف لا وقد رفعت عن المرأة اتصال الإنفاق على نفسها وعلى ذوى قرباتها ؟ ومن الانصاف إذا أردنا الحكم على شئ أن نحكم عليه بمجتمعه متصلاً بمقدماته ونتائجه . بقي للمرأة مطالبها بالحقوق السياسية ، فهل حرّمها الاسلام تلك الحقوق ؟ كلا ، بل أباح لها أن تباشر مختلف الأعمال ، وتتولى شتى المناصب ، حتى منصب القضاء ، على اختلاف بين الفقهاء ، فمنهم من أجاز للمرأة أن تكون قاضية كالرجل سواء بسواء .

إنى لأعجب لتكرار الجدال في حقوق المرأة ، وفي الموازنة بينها وبين الرجل ، حتى ليجعلنا هذا الجدال معسكرين ينقسم بهما جسم الأمة الى شطرين ، على حين أننا في حاجة الى التمازج والتوحد . وفي معتقدي أن المسألة ليست مسألة حقوق للمرأة تيمجد أو يعترف بها ، وليست مسألة موازنة بين النساء والرجال أى الجنسين أعلى وأقدر ، وليست مسألة عجز المرأة عن الحكم كالرجل ، فعلها أكفأ له ، وقد جربنا حكم الرجال من عهد آدم فكانت الحال كما نرى من بلاء وشقاء ، وبقي أن نجرب حكم المرأة فربما كان أحمد أثراً ، وأحسن عقبي .

المسألة فيما أعتقد توزيع الاختصاص على أساس من حسن توزيع القوى والمزايا وضروب الاستعداد . ونحن في التوجيه الثقافي نهدف إلى توزيع الطلاب بحسب استعدادهم ومزاياهم دون نظر إلى رغبتهم وميلهم وحقهم الطبيعي ؛ فن واجب الدولة أن توجه كل فرد من أفراد الأمة الوجهة التي هي أكثر صلاحية لها وأكبر غناء فيها .

وإن واجب التوزيع في سبيل مصلحة المجتمع لا يمنع أن يشترك أبناء الأمة في اختصاص عام ، ثم تكون لهم ميادينهم الخاصة في غيره . والمرأة قد حباها الله رسالة جليلة هي إنشاء الجيل وتوجيهه ، فيجب أن فعدھا لتأدية تلك الرسالة على خير الوجوه ، ولكي ندرك قيمة إعدادنا لها يجب أن تتمثل أن أبنائنا إذا نشموا في بيئة جاهلة رضعوا الجهالة والخنول ، فلا تزداد بهم الأمة إلا ضعفا على ضعف ، والأمة لا تقاس مكائتها بعدد أبنائها ، وإنما تقاس بمالهم من كفايات ومزايا وقوى في معترك الحياة . وما دمنا لا نغنى بأعداد المرأة حتى تخرج لنا الجيل الصالح القوى بأخلاقه ، السليم في عقله وجسمه ، فانه لا رجاء في نهوض ، وسنقى نعيش ونسير بشق مائل ، تتعثر خطانا ، ونستهدف للتداعى والسقوط .

فليكن من همنا أولا أن نهيم المرأة لرسالتها الكبرى ، ثم نأخذ ما زاد من وقتها وما فضل من جهدها للانتفاع به في الميدان العام ؛ على أن المرأة هي في ميدانها الأول ملكة متوجة ، وفي ذلك الميدان العام جندي في غمار الجنود ، فلتفرغ لمملكيتها قبل كل شيء ، وليكن عملها في الميدان الآخر نافلة تسخو بها نفسها حين تطمئن الى أنها قامت بالفروض خير قيام . فأما أن تحل بنا الفوضى ، فبرى المرأة ترهد في رسالتها لتمدق جهودها في ميادين مختلفة فإن ذلك يجعل شأننا كشأن جيش ذى وحدات ضربت فيه الفوضى أطاها ، وترك الجند فيه مرا كزهم ، نخلت وحدات من أبطالها ، وغصت وحدات بغير رجالها . فكيف يتسنى لجيش محتل النظام كهذا الجيش أن يحارب أعداءنا الثلاثة من فقر وجهل ومرض ؟

نحن لا تنكر على المرأة أن تتعلم وأن تبالغ في التعلم ، ولا نأبى عليها أن تشارك في أى ضرب من ضروب العلوم والفنون والآداب ؛ ولكنتا تنكر عليها كل الانكار ونأبى عليها كل الإباء أن تنعرد على ما يفرضه النظام الاجتماعى وما تلزمها إياه الطبيعة الانسانية من عنايتها بإنشاء الجيل وتوجيهه والاستعداد له حتى لا ينشأ في عماية وضلال .

إن المرأة المصرية تطالب اليوم بحق الانتخاب ، وإلى مؤيدها في هذا المطلب ، متعجب أشد التعجب من يخالفونها في الرأى ، فالغرض من الحياة النيابية هو

الإشراف والتوجيه ، وللرأة نصيبها الأكبر في التوجيه ؛ وكذلك من أغراض الحياة النيابية التقنين ، وللرأة عتملة تمكنها من الاشتراك في سن القوانين ، وليس التقنين إلا ضوابط اجتماعية لمنع الشذوذ ، ولحشد الجهود منظمه في سبيل الخير والحق ؛ وهناك من القوانين ما هو خاص بالأسرة ، وذلك هو اختصاص المرأة الأصل ، ومن القوانين ما هو خاص بالأملاك والضرائب ، والمرأة مالكة كالرجل ، فمن حقها أن تشترك في المراقبة التي هي مناط الحكم في الدساتير . وإن من القواعد المتمررة أن من يدفع ويؤدى ، له الحق في أن يشرف ويراقب ، والمرأة لها نصيبها في الثروة والملك والميراث ، فكيف تؤدى الضرائب ولا يكون لها حق المراقبة والإشراف ؟

يبد أنى أشفق على المرأة المثقفة من أن يشغلها اقتضاء هذا الحق عن أداء رسالتها الكبرى ، رسالة إنشاء جيل ديمقراطى يزن الحقوق ويمتد الواجبات ، ويحسن النهوض بالتبعات ، ويتموى على مواجهة التيارات العارمة في ركب العالم المتحضر .

ومن المعلوم أن الدستور المصرى لم يحرم المرأة حقوقها السياسية ، ولكن قانون الانتخاب جعل الانتخاب مقصورا على الرجال ؛ ولعل ذلك لأننا كنا حديثى عهد بالأوضاع الدستورية ، فأريد لنا أن نخطو خطوات رفيقة لا طفرة فيها ولا وثاب .

وأحسب أنه قد آن لنا أن نتفع بالمرأة في المجالس التشريعية ، فان التشريعات اليوم لم تعد مقصورة على فن الحكم الضيق ، إذ أصبحت الحكومة محور الشؤون الاقتصادية والاجتماعية .

فلنبج للرأة الاشتراك فيما يدخل في اختصاصها ؛ ولنلاحظ في تعليمها أن نعددها لرسالتها الكبرى أولا وللرسالة العامة أخيرا .

وأذكر أننى تحدثت في وقت مضى الى كبير يابانى ، فعلبت منه أن فى اليابان جامعة للفتيات ، فسألته : أتخشون الاختلاط بين الجنسين ؟ فأجابنى : لسنا نخشى

من ذلك شىءا؁ وإنما قصدنا أن نهىء للفتاة ثقافة تؤدى بها رسالتها؁ ولا نمنعها مع ذلك أن تتجه الى الميدان العام كما تريد.

ونحن فى مصر حتى اليوم لم تؤسس جامعة خاصة نهىء فيها المرأة لرسالتها الخاصة؁ فتخرج الى الحياة مزودة بثقافة فى تكوين الأسرة وتوجيه الزوج وتنشئة الطفل وهداية الشباب.

ولا نزاع فى أن ميدان الخدمة الاجتماعية هو خير الميادين لجهد المرأة؁ ونحن أآوج ما نكون الى تعمير هذا الميدان بالعنصر الصالح له.

فعلينا أن نعمل على الانتفاع بآهود الجنسفين متضامنين متفاهمين؁ بدلا من أن نضيع الوقت فى جدال عقيم حول الحقوق التى استقرت وتبينت.

وحسبنا دليلا على حق المساواة وأنه طبيعى لا ريب فيه؁ أن الريف المصرى يضم خمسة عشر مليونا يعمل نصفهم من النساء عمل الرجال بجانب عملهن الخاص. وليس بعد هذا برهان على استطاعة المرأة العمل فى الميدانين الخاص والعام؁ ولكن الريفية لم تتقف ولم ترب؁ ولذلك تعاني ضعفا فى القيام بمهمتها التى تبذل فيها جهدا كله؁ ولو تجردت نساؤنا المثقفات للخدمة الاجتماعية فى الريف لارتفعن به الى مستوى لاثق كريم.

فلتعمل المرأة والرجل؁ فإنه لا خير فى مجتمع لا يتعاون فيه الجنسنان معا على العمل. ولنعلنها حربا لا هواة فيها على عوامل الفقر والمرض والجهل؁ حتى نهض بالامة نهضة حققة.

بلاغة الاستعطاف

لما ظفر المأمون بابراهيم بن المهدي ومثل بين يديه؁ قال ابراهيم: كل ذنب دون عفوك؁ فإن صفحت فبسكرمك؁ وإن أخذت فبحقك.

ثم قال: يا أمير المؤمنين: إنه وإن كان جرمى يبلغ سفك دى؁ فلم أمير المؤمنين وتفضله يبلغانى عفوه؁ ولى بعدهما شفعة الاقرار بالذنب؁ وحرمة الآب بعد الآب. فقال المأمون: لو لم يكن فى حق نسبك ما يبلغ الصفح عن زلتك؁ لبلغك إليه حسن توصلك؁ ولطيف تنصلك.

ابراهيم هذا كان عما للباؤون؁ خرج عليه وقاتله ليغتصب الخلافة منه.

ابن حزم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الله المراغي
مدير إدارة المساجد بوزارة الأوقاف

نسبه ومولده ونشأته :

هو أبو محمد بن علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف ابن معدان بن سفيان بن يزيد مولى يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس الأموي. وأصله من بلاد فارس. وأول من عرف مسلماً من أجداده يزيد. ولم نقف في تاريخ صحيح على رفع نسبه بعد يزيد. يقول صاحب كتاب « نفع الطيب » : إن أباه أحمد يكنى بأبي عمرو ، وجده « غالب » بن يزيد . ويقول ابن خلكان : إن « غالباً » بن صالح كما قدمنا . ويرجع الاضطراب في اسم بعض أجداده إلى أن النسابين لم يعنوا بالانساب التي تنحدر من أصول غير عربية عنايتهم بالأصول العربية . والمعروف أن أول من دخل الأندلس من أجداده جده خلف ، فأقام فيها وأعقب ، حتى ولد علي المشهور بابن حزم في بيت كريم من والد عظيم هو أبو عمرو أحمد الذي كان رئيساً للوزارة في عهد المنصور بن أبي عامر . وكان مولده في آخر يوم من رمضان سنة ٣٨٤ هـ — ٧ من شهر نوفمبر ٩٩٤ م في قرطبة . ولا عجب أن ينشأ ابن حزم نشأة كريمة فيها نباهة الشأن ، ورجاحة العقل ، وحرية الرأي ، وشجاعة القلب ، وجرأة المنطق ، والطموح إلى المعالي ، والمغامرات في سبيل الاحتفاظ بالمجد والتسامي فيه .

لذلك نرى أن ابن حزم قد توافرت له عوامل النبوغ والنهوض ، واجتمعت له أسباب كثيرة تفاعلت فأضفت عليه من ذبوع الصيت ورفع الذكر ما لم يجتمع لغيره في عهده ، بل ندر أن يحفظ التاريخ في غير عهد ابن حزم ما حفظه لابن حزم من مقومات العظمة ، وبواعث الإجلال التي كانت مثار إعجاب محبيه والمعجبين به ، ومثار شتآن مبغضيه وشائنيه والحاقدين عليه .

تعلبه وشيوخه ونبوغه :

لم يلبث ابن حزم حين درج، حتى حفظ القرآن في سن مبكرة، ثم عُني بحفظ متون العلوم وهو لا يزال يافعا، ثم أخذ يتذوق معاني هذه المتون حتى أحاط بموضوعاتها على أكابر علماء قرطبة الذين لمجوا فيه لونا من الذكاء قل أن يُعرف بين معاصريه، واستشرفوا فيه فطنة أكبروها : فأعربوا لوالده أن لولده مستقبلا عظيما ينتظره. ويذكر ابن حزم في كتابه « طوق الحمامة » أن شيخه في كثير من العلوم هو العالم الكبير عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي الذي غادر الأندلس في حرب الطوائف. كما درس ابن حزم على الشيخ أحمد بن الجصور عالم الأندلس المتوفى في سنة ٤٠١ هـ. ومن شيوخه الذين نشئهم يحيى بن مسعود المحدث المشهور، وقد تلقى عليه ابن حزم الحديث رواية ودراية : كما أخذ الفقه عن شيوخ قرطبة : وكان في نشأته شافعي المذهب، ثم انتقل إلى مذهب أهل الظاهر. وأخذ المنطق عن محمد بن الحسن المذحجي القرطبي. وله شيوخ آخر كانوا يترددون على منزل والده يتناوبون ابن حزم تأديبا وتعلما : ولكن ابن حزم لم يكن بالتلميذ الذي يعتمد على معلميه يرضع على أيديهم ثدى العلوم، أو يرتكن على ما يستخلصه أساتذته من عصارات الفنون : بل كان عصاميا : فما إن شب عن الطوق حتى أخذ يقرأ لنفسه، ويدرس لنفسه، ويفكر لنفسه، معتدرا برأيه، مستقلا بفهمه، معتزا ببحثه : ونبغ في علوم جمة، فكان فقيها مفسرا محدثا أصوليا متسكلا منطقيا طيبيا أدبيا شاعرا مؤرخا، عاملا بعلمه، ثم زاهدا في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له ولأبيه من قبله في الوزارة وتدبير الملك في بلاط أمراء قرطبة .

ابن حزم بين عهدين :

كان ابن حزم في عهده الأول رجل العلم والحكمة والرياسة والحكم، وكان وزيرا يكبر الوزراء، ومستشارا يزن المستشارين، عالما يفوق العلماء في ذلك العهد الذي قرب إليه الكثيرين وحبب إليه الكثيرين، كما أبعد عنه الكثيرين وبغض فيه الكثيرين، فكان له أصدقاء وأعداء : فلما نشبت الاضطرابات السياسية في قرطبة التي أنزلت الأسرة العامرية عن عرشها، وقد كان والد ابن حزم مستوزرا فيها، تأثر مركز الوالد والولد بهذه النكبة الفادحة، فعانى الاثنان من صنوف المحن

الشيء الكثير وخاصة بعد سنة ٤٠٠ هـ — سنة ١٠١٠ م؛ فقد عاد هشام الثاني الى العرش، وكان لهذا أثره في نفس الوالد حتى توفي في نهاية ذي القعدة سنة ٤٠٢ هـ فأقام ابن حزم بقرطبة بعد وفاة والده الى المحرم سنة ٤٠٤ هـ فغادرها حيث لم يطب له فيها المقام، وهو لا يطيق الضيم ولا يرصاه، ولا يطعم الذل بل يأباه؛ فقد وجد أن الحروب الأهلية مزقت شمل الأكابر في قرطبة، وأن البربر خربوا قصر أسرته البديع، فلم يجد بدا من الرحيل، فاختر المرية مكانا لإقامته.

ولكن هل طابت الإقامة لابن حزم في هذه البلد؟ نعم إنه استطاع أن يعيش قليلا هادئ البال، حتى اتفق على بن محمود مع خيران صاحب المرية على إخلع الأمير سليمان الأهموي عام ٤٠٧ هـ، وعظم نفوذ خيران، ورأى في ابن حزم خصما يتآمر عليه لمصلحة الأمويين، فلم ير بدا من سجنه هو وصديقه أحمد بن إسحاق للتخلص من نشاطهما، فظلا في السجن بضعة أشهر؛ ولكن ابن خيران رأى في بقائهما — ولو سجينين — شجحا مخيفا، فنفاهما حيث ذهب الرجلان الى حصن القصر، فوجدا من حاكمه صدرا رحبا، ومكشأعده موضع التكريم والقبول، حتى نودى بعبد الرحمن الرابع المرتضى خليفة في مدينة بلنسية. فاستأذنا حاكم حصن القصر وركبا سفينة ذهبا فيها الى هذه المدينة؛ فلما وصلا رأى عبد الرحمن أن يستوزر ابن حزم ففعل؛ فلما قامت حرب غرناطة اشترك فيها ابن حزم مع جيش الخليفة، فوقع في الأسر، ولم يلبث في الأسر طويلا، بل أطلق سراحه بعد مدة قليلة؛ فرأى أن يرجع الى قرطبة، فعاد إليها في عهد الخليفة القاسم بن حمود سنة ٤٠٩ هـ بعد أن تركها ست سنوات.

ولما نودى بعبد الرحمن الخامس المستظهر خليفة بعد خلع ابن حمود سنة ٤١٤ هـ وكان الخليفة الجديد صديقا لابن حزم، ولكن الحظ العاثر لازمه هذه المرة أيضاً، فلم يستمتع بالمنصب طويلا؛ فإن صديقه عبد الرحمن قتل في نفس العام بعد بضعة أسابيع، وزج بابن حزم في السجن. وهكذا كان ابن حزم يخرج من شدة الى شدة، ويبارح سجناً الى سجن. فقد قضى في السجن فترات إن كان المؤرخون لم يحددوها بالضبط فإنها من غير شك أثرت في حالته النفسية، وعرقلت جهوده، ووقفت إنتاجه العلمي. ويذكر بعض المؤرخين أن ابن حزم استوزره

هشام المعتد بعد ذلك . وهنا يغفل التاريخ ما آل إليه ابن حزم . ولكن المؤكد أن ابن حزم اعتزل أمور السياسة ، وتفرغ للدرس والتأليف والدفاع عن آرائه . وهذا عهده الآخر الذي لم يهنأ فيه بالاستقرار ، كما سنبين بعد .

مرحلة من حياة ابن حزم :

أسلفنا أن ابن حزم كان شافعي المذهب ؛ ثم جنح الى الاجتهاد سالكا طريق أهل الظاهر ، أخذاً بظاهر الكتاب والسنة ، حاملاً على أهل القياس ؛ ولم يحجزه جلال الأئمة — كأبي حنيفة ومالك والشافعي — عن الطعن في آرائهم ، والرد عليهم مجرحاً أدلتهم ؛ وكان لسانه في نقد سواهم من العلماء أشد وأسلط حتى لا يكاد يسلم أحد من لسانه .

قال أبو العباس بن العريف : « كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج بن يوسف الثقفي شقيقين » . فقد كانت له حرية واسعة في نقد خصومه ومخالفه في الرأي جعلته هدفاً للسهام ، وغرضاً للتبال ، فلم يكن في حياته الجديدة هادئ البال ، مطمئن النفس ، لكثرة أعدائه وخصومه ، الذين بادلوه ذماً بدم ، ونقداً بنقد لم يسلم فيه من التجريح ، فنفروا منه القلوب ، وأبعدوا عنه الأمراء ، وحذروا منه العامة ، وبغضوا فيه الطلاب ؛ ولذلك لم يتلذذ له إلا نفر قليل من أولئك الذين لم يخشوا في مرافقته لومة لائم . وقد بلغ من أمره أن المعتضد بن عباد أحرق كتبه بإشيلية ، فقال ابن حزم :

دعوني من إحراق رق وكاغد	وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدرى
فإن تحرقوا القرطاس لن تحرقوا الذى	تضمنه القرطاس بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقرت ركائبي	وينزل إن أنزل ويدفن فى قبرى
ويقول فى تسلية نفسه عن السجن :	

ولكن لى فى يوسف خير أسوة	وليس على من بالنبي اتقى ذنب
يقول مقال الصدق والحق إننى	حفيظ عليم ما على صادق عتب

هذه بحالة تجلى لنا ما لقي ابن حزم فى حياته من أحداث الزمن ، وغير الدهر ، ولنا عودة أخرى ، إن شاء الله .

علم الاجتماع

بين ابن خلدون وأوجست كونت

لحاضرة الأستاذ سعيد زايد

المحرر بمجمع فؤاد الأول للغة العربية

نشرنا في عددى جمادى الآخرة وشعبان من العام الماضى بحثا فى علم الاجتماع بين ابن خلدون وموتسكيو، والآن نحاول أن نعيد المقارنة بين فيلسوفنا العربى وفيلسوف غربى آخر هو أوجيست كونت ، ونعتذر مقدما لحضرات القراء الكرام إن لاحظوا بعض التكرار . وسنتناول فى هذا البحث الكلام عن موضوع علم الاجتماع، والاساس القائم عليه، ومنهج البحث عند كل منهما، والموضوعات الفرعية التى تكلم فيها كلاهما.

١ — موضوع علم الاجتماع والاساس القائم عليه :

رأى ابن خلدون أن هناك أخطاء شائعة لدى المؤرخين فى نقل الاخبار وتصوير الحوادث ؛ وذلك يرجع فى كثير من الأحيان الى جهل هؤلاء المؤرخين بأحوال الاجتماع البشرى والاصول الخاضعة لها هذه الأحوال ؛ فهم لم يعرفوا أن هذا الاجتماع فى أحواله وظواهره يشبه كل الحوادث الطبيعية التى تخضع لقوانين ثابتة ، كما أنهم لم يعرفوا أن النظم الاجتماعية ليست لها صفة استقرار ولكنها تختلف باختلاف الأمم والأزمان والأمكنة . وشعر ابن خلدون بضرورة إنشاء علم جديد مستقل « ذى موضوع وهو العمران البشرى والاجتماع الانسانى ، وذى مسائل وهى بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته » ، فإذا كانت

كل حقيقة متعلقة بطبيعية يصلح أن يبحث عما يمرض لها من العوارض لذاتها وجب أن يكون باعتبار كل مفهوم وحقيقة علم من العلوم يخصه . ويظهر من هذا أن الموضوع الذى يتناوله ابن خلدون بالبحث فى هذا العلم المستقل هو الكشف عن القوانين التى تخضع لها تلك العوارض والأحوال التى نسميها نحن الآن بالظواهر الاجتماعية التى لا تسير أبداً وفق الأهواء والمصادفات ولا حسب ما يوجهها إليه آراء الأفراد، ولكنها تخضع أبداً لقوانين خاصة ثابتة مطردة لا تقل فى ثبوتها واطرادها عن قوانين حركات الشمس فى شروقها وغروبها، وتغيرات القمر فى تزايدها وتضاؤلها، وأن النظم الاجتماعية لا تستقر على حال وتختلف بعضها عن بعض بحسب اختلاف الأمم والأزمنة والأمكنة . وإلى هذه الفكرة يشير بقوله « فإن كل حادث من الحوادث ذاتا كان أو فعلا لا بد له من طبيعة تخصه فى ذاته » و « أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، وإنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك فى الأشخاص والأوقات والأمصار فكذلك يقع فى الآفاق والأقطار والأزمنة والدول . »

أما أوجيست كونت فلا يعنى بتحديد موضوع علم الاجتماع تحديداً تاماً ، ولا يفرق بينه وبين ما تدرسه العلوم الأخرى ؛ لأنه يرى أنه كل ما عدا الظواهر الكونية والرياضية ، وهو لا ينظر إلى المجتمع باعتباره جملة أفراد مستقلين منفصلين ، وإنما يرى أن للجماعة روحها الخاصة التى تضغط على الأفراد فتكون هناك طبيعة عامة تمتاز بها الجماعة وحدها ، ولهذا الجماعة قوانين تسير على مقتضاها ، فيجب دراسة عناصر المجتمع ثم الوظائف التى تقوم بها الظواهر الاجتماعية ، والدعائم التى ترتكز عليها هذه الوظائف وعلاقة الوظائف بعضها ببعض ؛ ولما كانت الظواهر الاجتماعية خاضعة لقوانين تشبه القوانين الطبيعية فى ثبوتها واطرادها فلا بد من البحث عن هذه القوانين والكشف عنها حتى يتسنى لنا أن نصلح المجتمع على أساس ذلك ، وإصلاح المجتمع كان غرض كونت الملمشود ؛ فإنه رأى أنه لا يمكن أن يقيم إصلاحه هذا والفساد ضارب أطنابه على التفكير ، والفوضى العقلية سائدة ، فلا بد أولاً أن يكون التفكير علمياً ، وأن ننقل إلى

المرحلة الوضعية في علم الاجتماع كي تنسجم كل أنواع التفكير ، وحينئذ يمكننا أن نسير في إصلاحها ؛ فمن الواجب أن ننظر بعين واحدة لكل العلوم فلا ندرس العلوم الطبيعية دراسة وصفية تحليلية نقصد منها الكشف عن القوانين ، ثم ننظر إلى الظواهر الاجتماعية كأنها أشياء ميتافيزيقية لا سبيل إلى دراستها وتحديدها ، فإن هذا لا يصح ، بل يجب أن ندرس الظواهر الاجتماعية دراسة وصفية تحليلية هي دراسة ما هو كائن كما هو الشأن في العلوم الطبيعية ، وبذلك نتنقل بعلم الاجتماع إلى المرحلة العلمية ، وبذلك أيضاً يتم الانسجام في التفكير .

٢ - منهج البحث :

من المعروف أن المنهج العلمي لعلم الاجتماع هو دراسة العالم للظواهر الاجتماعية كما يدرس أشياء واقعية ، دراسة يتخلل فيها العالم عن الآراء السابقة ، فيحلل الظواهر ويكشف كنهها وحقيقتها وخصائصها ، ويستعين فيها بالملاحظات والتجارب ، وبالنتائج التي وصلت إليها العلوم الأخرى ، وعلى ضوء كل هذا يحاول الكشف عن الوظائف التي تؤديها هذه الظواهر وعن علاقاتها ببعضها البعض ، ثم يستنتج القوانين العامة الخاضعة لها هذه الظواهر . ومنهج ابن خلدون منهجاً علمياً فهو يستقرى الحوادث التاريخية ، ويرى أنها مرتبطة بعضها ببعض ارتباط العلة بالمعلول والسبب بالمسبب ، ويرى أن الأغلاط التي يرتكبها المؤرخون ناتجة عن أنهم لا يقيسون الماضي والحاضر والمستقبل بمقياس واحد ، ولا يتورعون عن ذكر أشياء خارجة عن منطق الواقع ، ولا تتفق مع نوااميس العمران في شيء ، وهذا يدل على جهلهم بطبائع الأحوال في العمران أي القوانين التي تخضع لها الظواهر الطبيعية والجهل بقوانين الظواهر الاجتماعية أيضاً . فابن خلدون يقول مثلاً في صدد تحرى الحقائق التاريخية : « فليرجع الإنسان إلى أصوله وليكن مهتماً على نفسه ، ويميز بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته ، فما دخل في نطاق الإمكان قبله ، وما خرج عنه رفضه » . ويشرح هذا الإمكان فيقول « ليس مرادنا الامكان العقلي المطلق فان نطاقه أوسع شيء فلا يفرض حداً بين الوقائع وإنما مرادنا الامكان بحسب المادة التي للشئ ، فاذا نظرنا أصل الشئ وجنسه وصفه ومقدار عظمه وقوته أجرينا

الحكم عليه من نسبة ذلك على أحواله . . . » مع الابتعاد في كل ذلك عن التشيع لآراء أو مذاهب أو ميل إليها ، لأن النفس ، إذا خامرها تشيع لرأى أو نخلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة ، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتحصيل . . . ، وابن خلدون في نقده للمؤرخين يحاول أن يربط بين تطور الاجتماع الانساني وبين علله القريبة ، فهو ينظر في أحوال الجنس والهواء ووجوه الكسب ويعرضها مع بيان تأثيرها في التكوين الجسمي والعقلي في الانسان وفي المجتمع .

أما كونت ، فيتبع الطريقة الوضعية في بحثه عن الظاهرات الاجتماعية وتطورها وانشعابها ، ويقول إن من الواجب على عالم الاجتماع كي يستطيع ذلك أن يكون ملماً بمحصول علمي كامل يبدأ من الرياضة حتى البيولوجيا التي تبين للعالم الطريقة المقارنة ، فلا بد للعالم أن يسير من السهل الى المركب ، فالرياضة ضرورية لكي يعتمد الانسان التفكير الوضعي ، لكن الظاهرات الاجتماعية لا تحتاج الى استخدام الأعداد والتحليل وحساب الاحتمالات ، فان مثل هذا الحساب إذا طبق على الظواهر الاجتماعية منعنا من المعرفة المضبوطة التي تمكنتنا من إخضاع الظواهر لقوانين كسائر ظواهر العلوم المختلفة . . . وكذلك يجب أن يلم الباحث الاجتماعي بالعلوم الفيزيائية والطبية وهي التي تكون الملاحظة بها أول وسيلة للبحث .

وعلى كل حال فأوجيست كونت يستخدم المنهج التاريخي في الاجتماع ، فالاجتماع علم مجرد والتابع الرئيسي له هو التاريخ ، هذا التاريخ الذي غرضه البحث عن القوانين التي تحدث التطور الاجتماعي بمقتضاها ، ولا يصح أن نأخذ نظرة جزئية لهذا الضرب من التاريخ ، بل يجب أن نعتد أن الظاهرات بأنواعها تتطور تحت تأثير متبادل بينها ، فلا يصح تفسير التطور بنوع معين من الظاهرات دون أن نعرف فكرة عامة عن التطور الكلي ، فيجب أن تبين الحالات الخاصة من حيث النوع والزمن ، وبهذه الاتجاهات تتعين مجموعة من الظواهر معدة لأن تدرس دراسة اجتماعية ، فإذا تم ذلك يمكن تعيين ازدهار ظاهرة من الظواهر طبيعية كانت أو أخلاقية أو عقلية أو سياسية ، واتصال هذه الناحية باضمحلال الظاهرة المضادة .

وهكذا فإن كونت أقام المنهج الوضعي ، ولكنه لم يستطع أن يطبقه على الاجتماع إلا بفرض علم معين له واقعيته وهو التاريخ الذي أمده بالأمثلة العملية لتطور الظواهر الاجتماعية ، ومن هذه الناحية يوجد شبه بينه وبين ابن خلدون ، ولكن ابن خلدون استعان بالتاريخ من أجل الاجتماع ، وفرض كونت الأول والأخير هو الاجتماع . والمهم أن ابن خلدون وكونت فكرا في التاريخ حين فكرا في الاجتماع ، وأنهما وفما الى ذلك باتباعهما المنهج الواقعي ، ولما كان التاريخ يعد أمثلة عملية لتطبيقه للظواهر الاجتماعية فقد استعان كلاهما به .

٣ — الموضوعات التي تناولها كل منهما :

تعتبر مقدمة ابن خلدون جامعة لكل البحوث الاجتماعية التي ظهرت في العصر الحديث على يد دوركهم ، أو بعبارة أخرى التي بعثت على يد دوركهم بعد ما كادت تطوح بها أيدي البلى بعد وفاة كونت ؛ فإذا رجعنا الى مقدمة ابن خلدون رأيناها يلخص مادة علمه من الناحية الموضوعية في أنها « ما يعرض للبشر في اجتماعهم من أحوال العمران والملك والكسب والعلوم والصناع ، بوجوده برهانية يتضح بها التحقيق في معارف الخاصة والعامة وتدفع بها الأوهام والشكوك » . ثم بعد ذلك يقسم موضوعه الى ستة أبواب تكلم في الباب الأول عن العمران البشري على الجملة وقسّمه من الأرض ، وفي الباب الثاني عن العمران البدوي وذكر النبائل والأمم الوحشية ، وفي الباب الثالث عن الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية ، وفي الباب الرابع عن العمران الحضري والبلدان والأمصار ، وفي الباب الخامس عن الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه ، وفي الباب السادس عن العلوم واكتسابها وتعلمها .

وهذا لا يقل عن تقسيم المدرسة الاجتماعية الحديثة التي بعثت دراسة كونت من حيث القيمة والشمول لمواضيع الاجتماع ، فالباب الأول يقابل مقدمة علم الاجتماع أو الاجتماع العام ، والباب الثاني يقابل أصول المدنية الانسانية ، والباب الثالث يقابل الاجتماع السياسي ، والرابع يقابل المورفولوجيا الاجتماعية أو دراسة التركيب الجمعي ، والباب الخامس يقابل الاجتماع الاقتصادي ، والسادس يقابل

الاجتماع القضائي واللغوى والدينى والتربوى . ومن هنا يتبين أن ابن خلدون قد استوعب في مقدمته كل أنواع البحوث الاجتماعية عامة كانت أو خاصة ؛ فهو قد تكلم عن النظم الاجتماعية متتبعا للمجتمع بالدرس والتحليل في جميع أطواره منذ نشأته وبدأوته الى استقراره وانتظامه في المصر والدولة ، وتردده بين القوة والضعف والقوة والكهولة والنهوض والسقوط ، واستقصى خلال ذلك أحوال هذا المجتمع وخواصه وعناصر تكوينه وتنظيمه من الفرد والجماعة الى السلطان والدولة ، وما يعرض لهذه العناصر في حياتها الخاصة والعامة من الظروف والأحوال ، وما يقتضيه سلامة هذا المجتمع ، وما يؤذن بفساده وانحلاله ؛ وتكلم أيضا عن الاجتماع العائلى والاجتماع الاقتصادى والاجتماع القضائى والاجتماع اللغوى والاجتماع الأخلاقى والاجتماع السياسى . هذا ما نجد في مقدمة ابن خلدون وهو شاهد عدل ضد هؤلاء الذين ينسبون علم الاجتماع الى كونت . فحين إذا غضضنا النظر عن دور كهيم واعتبرناه كباعث لآراء كونت ولدراسته لا أكثر ولا أقل ، استطعنا أن نعطي لابن خلدون الأولوية بفعل الزمن . هذا ومن الظلم أن نهضم حق دور كهيم في تكملة بحوث كونت ، فكونت أهم ما ينسب اليه هو تأسيسه علم الاجتماع ، ولكننا لا نجد عنده هذا التقسيم الواضح لمواضيع الاجتماع . فابن خلدون إذن قد فعل مثل ما فعل الباحثان الغربيان ، والسبق له بفعل الزمن .

وقد قسم كونت شعب علم الاجتماع الى شعبتين : شعبة الستاتيك سوسيال وتدرس العناصر التى يتألف منها المجتمع والوظائف والدعائم التى تقوم عليها هذه الوظائف والعلاقات بينها ، والديناميك سوسيال وتدرس التطور الانسانى وتبحث عن القوانين الخاضعة لها الظواهر الاجتماعية فى المجتمع الانسانى فى تطوره . ومن الحق أن نقول إن كونت فى دراسته لهاتين الشعبتين قد تأثر بالدراسات السابقة ، ففلسفة التاريخ قد مهدت لشعبة الديناميك ، والدراسات الخاصة مهدت لشعبة الستاتيك ، ولكن يمكننا أن نقول إن ابن خلدون لم تساعده الدراسات التى قبله كثيرا ، بل يعد الخالق لهذا العلم الجليل الذى أتى به .

وقد عنى كونت بشعبة الديناميك أكثر من عنيته بشعبة الستاتيك ، فاستخلص من دراسته فيها قانونه العام « قانون الأحوال الثلاثة » الذى ينص على أن كل فرع

من فروع المعرفة يحتاز مراحل ثلاث : المرحلة الدينية ، والمرحلة الميتافيزيقية ، والمرحلة الوضعية : ورتب العلوم بمقدار أسبقيتها إلى الوصول إلى المرحلة الوضعية فرأى أن أولها هي العلوم الرياضية وآخرها هو علم الاجتماع . على أن هذا القانون ليس مطرداً في جميع الأحوال ، فهناك علوم لم تمر بالمراحل الثلاث بل انتقلت توأ من المرحلة الدينية إلى المرحلة الوضعية ، وهناك بعض الحقائق لم يفكر فيها إلا تفكيراً علمياً ، كما أن هناك أناساً في المجتمع الواحد يفكرون تفكيراً دينياً وغيرهم يفكرون تفكيراً ميتافيزيقياً ، وآخرون يفكرون تفكيراً علمياً ، فقانون كونت إذن قانون فاسد . ولم ينس كل من ابن خلدون وكونت أن يتكلما عن العوامل المؤثرة في الظواهر الاجتماعية بصدد كلامهم عن مواضيع علم الاجتماع . وأهم العوامل التي ذكرها ابن خلدون هما العاملان الديني والجغرافي ، وقد بالغ ابن خلدون في أهمية العامل الجغرافي ونسب إليه أموراً كثيرة تتعلق بتغير الظواهر وتطورها ، وباجتمعة كل ما يحدث في المجتمع . أما كونت فعنده ما يقرب من أربع عوامل مؤثرة : هي الأفكار الدائعة والأخلاق والظواهر الاجتماعية والانسان ، وهنا نلاحظ أن كونت قد قال بتدخل الانسان في الظواهر الاجتماعية ، إلا أنه أسرع وحدد مجال هذا التدخل فقال : إن أقصى ما يحدثه الانسان هو تمصير أمد مرحلة من مراحل قانون الأطوار الثلاثة .

خاتمة :

والآن وعلى ضوء ما ذكرنا ، ألا نستطيع أن نحدد مكان كل من ابن خلدون وأوجيست كونت بصدد علم الاجتماع ؟ إن الحق أبلغ وضاح ، فلا يستطيع منصف أن يقول إن كونت هو مؤسس علم الاجتماع ، فقد سبقه ابن خلدون قبل ذلك بخمسة قرون ؛ ولكن من الحق أيضا أن نقول إن كونت هو مؤسس علم الاجتماع الذي أخذته مدرسة دوركهم وتوسعت فيه ، لأننا لم نستطع حتى الآن أن نثبت أن هناك همزة وصل بين ابن خلدون وكونت ، وأن فيلسوف الأفرنج قد اطلع على ما خلفه فيلسوف العرب ، فكما فشأ ابن خلدون في بيئته لم تقو على فهم علمه وطوحت به أعاصير السياسة في مشارق الأرض ومغاربها ، فإنه أيضاً لم يجد من الخلف من يتابعه وينمى دراسته أو على الأقل من يرددها ، بل بقي علمه

حيرة العالم وموقف رجال الدين

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغى
مدير دار الكتب الأزهرية

تحتاج العالم منذ زمن قريب موجة من القلق الفكرى والخلق والاقتصادى ،
تتفاقم شدتها شيئاً فشيئاً ، وتندر مظاهرها بأسوأ العواقب ؛ ويجهد رجال الفكر
ورجال السياسة ورجال الحرب أنفسهم فى وقاية الشعوب شرور هذه العواقب ؛
وأنى قلب المرء طرفه ، وأى شعب استعرض أحواله ، ألنى مشاكل يأخذ بعضها
برقاب بعض ، كلما حلت منها مشكلة برزت مشكلة أشد استعصاء على الحل من
سوابقها . فمجموع الطوائف فى أكثر الشعوب تشكو الحظ وتشد الإنصاف ؛
فظوائف الموظفين تشكو قلة الرواتب والعجز عن مواجهة تكاليف المعيشة ؛
وطوائف العمال تشكو قلة الأجور وتلتبس التقريب بينها وبين غيرها من

مطوياً إلى أن قدر الله له الذبوع ، وهو فى هذا يشبه كونت الذى لم يجد من الخلف
أيضاً من يتابعه إلى أن ظهر دور كهيم ، إلا أن الفترة التى انقضت بعده كانت
أكثر بكثير من الفترة التى انقضت بعد ابن خلدون .

على أننا نرى أن العالم الشرق وإن سبق العالم الغربى بالزمن ، فقد سبقه أيضاً
فى مقدار شمول عليه وإحاطته بكل التفاصيل ، فجهوده يوضع فى كفة ، ويوضع
فى الكفة الأخرى مجهود كونت والمدرسة الاجتماعية ، وأنه كان أجراً من كونت
فى قوله بأن الظواهر الاجتماعية تخضع لقوانين ثابتة مطردة لا تقل عن
القوانين الطبيعية ؟

الطوائف في مستوى الحياة، وترنو بعيون البغض والضغينة إلى أصحاب رهوس الأموال؛ وطوائف الفلاحين في بعض الشعوب ترى أنها دون غيرها قد اختصت بالظلم وتخلفت عن ركب الزمان، أجرأ وتعلما وصحة ومكانا؛ وطوائف الطلاب يسبقون الزمان ويرون أنهم أقدر على حمل الرسالات في الأمم من الكهول والشيخوخ، ويشورون على التمايل في سائر الشئون، منبعثين إلى ذلك بقوة الشباب، وبالإيحاء الداخلي تارة والخارجي تارة أخرى؛ ويطمع بعض هذه الطوائف فيما في أيدي الطوائف الأخرى مما أذنم الله به عليها، من غير وجهه المشروع.

ولهذه الطوائف مطالب لا تنتهى ولا تقف عند حد، وكثير منها يستعصى على الحل والتفديد، ولكنها مع ذلك تصر عليه وتلتمس إلى تحقيقه وسائل لا يفضل بعضها بعضاً إلا في الغرابة وقوة الابتكار. فإضراب عن العمل، وإضراب عن الطعام، واعتصام بالأماكن، إلى أمثال هذه الوسائل التي تلتقي جميعاً في البعد عن الإقناع، وعن مواطن الرشاد.

كذلك يشكو أكثر الشعوب اختلال الموازين الخلقية، ومغالبة الرذائل فيها للفضائل؛ فرقابة الآباء أبناءهم رجعية، وتمرد الأبناء وعنادهم حرية، والخروج على الأساتذة والمعلمين ديمقراطية، وتبرج النساء مدنية، وتصونهم واحتشامهم رق وعبودية، والنفاق لباقة، والثبات على المبدأ جمود وصلابة، والرحمة جبن، والتسامح عجز، والسخاء خرق، والشح حزم، والغش في الصناعة والتجارة مهارة، والصدق والأمانة خيبة وخسارة، والعمل بالتقاليد غفلة عن مقتضيات الرقي والتقدم، والدستور الخلقى الشائع إنما هو الثورة على الماضى والخضوع لسلطان الهوى والمصلحة؛ فعلى أى وجه هو بيت فافعل، وأنى تحققت مصلحتك فاعتم فرستك، لا تبالي خلقا، ولا تراقب أحدا.

من راقب الناس مات هماً وفاز باللذة الجسور

وعلى هذا النحو من الاضطراب في الأخلاق تشكو الشعوب الاضطراب في الأفكار، والخيرة في غمرات المذاهب المتجددة؛ ففي كل منها شيع وأحزاب ومذاهب وآراء، يناقض بعضها بعضا، ويتم بعضها بعضا، ليس من ههما أن تصلح

الشعوب ، وإنما همها أن تظفر وتسود ، وتشكر سخية الشباب بعلوم الفلسفة والأخلاق والعلوم النظرية عامة ، ويرون أن العلوم الجديرة بالدرس والبحث وأن توجه إليها أفكار الشباب وعزائم الأمم ، إنما هي العلوم التي تصل بها الشعوب الى غاياتها المادية ؛ من غلب وفتح وبطش واستعمار ، وما عدا هذه العلوم ففسطات من مخلفات الماضي شغل بها العلماء أوقات فراغهم فحسب . هكذا كان حال الشعوب الى ما قبل الحرب الأخيرة . وظلت تسير من سىء الى أسوأ حتى جاءت هذه الحرب فزادتها سوءا بما خلفته من آثار ازداد بها العالم شقاء وبلاء ، إذ تركت كثيرا منها فريسة للفقر والجوع والمرض ، وللبيادى الهدامة التي تبلبل الأفكار وتدعها نهبا للأوهام والآلام ؛ وأصبحت الجماعات والشعوب تعاني من تلك الأحوال وتفشد الأمن والاستقرار ، ولكن دون جدوى ولا طائل .

فأصبحت من ليلى الغداة كتماض على الماء خافته فروج الاصابع

وأخذ الساسة ورجال الحرب أنفسهم بعلاج هذه الحال ، وإعادة الأمن والاطمئنان إلى قلوب الشعوب ، فخانهم التوفيق وفشلوا في هذه المهمة برغم ما بذلوا من الوقت والجهد ، وما أتوا من غرائب القوانين والمبادئ ؛ لأن باعثهم الى ذلك باعث ذاتى تمليه عليهم مصالح دولهم وحاجاتها . ومحال أن ينجح هؤلاء في مساعيهم ماداموا يصعدون عن هذا الباعث .

وستظل الشعوب تتقلب على جمر القلق والفوضى ، ما ظل رجال السياسة يتولون قيادتها ؛ ولن يستقر لها قرار ولن تقيم بأمن وسلام إلا إذا تخلى هؤلاء الساسة عن مكان النميادة وأسلموه الى من هم أقدر عليها منهم ، وهم رجال الدين ؛ فرجال الدين بالدين أقدر على قيادة الشعوب من هؤلاء ، وقد عاشت الشعوب في ظلال هذه القيادة قرونا طويلة مطمئنة رخيية البال ناغمة العيش منذ جاءت الأديان ، ومنذ كانت الأديان مهيمنة على عقائد الناس وأعمالهم .

وما تحولت حالها ونزل الشقاء بها إلا منذ نادى في الشعوب نذر السوء بأن رقابة الأديان أصبحت لا تلائم هذا العصر وتحول دون تقدم الشعوب ، وظهرت نظرية فصل الدين عن الدولة ، وعمل بهذه النظرية بعض الشعوب ، وما عمل بها شعب إلا ارتكس

في حماة الفوضى، وورد موارد الشقاء، مهما توافرت له أسباب الحياة المادية من مال وعلم وجاه وسلطان؛ لأن السعادة ليست في هذه وما يتعلق بها، ولكنها الرضى النفسى والاستقرار الروحى؛ وكمن غنى قوى تجمعت له أسباب الثروة والجاه ولكنه ظل شقيا قاق النفس مضطرب الحس كالسفينة في مضطرب الأمواج. وإنما قلت إن رجال الدين بالدين أقدر على قيادة الشعوب وتحقيق سيادتها من رجال السياسة؛ لأن رجال الدين يقودونها بما جاء به الدين، والشعوب بشعورها الفطرى بالتدين وحاجاتها الفطرية اليه، أسرع استجابة لهؤلاء من أولئك. وما جاءت الأديان إلا لإسعاد الشعوب ونهائها. جاءت الأديان بأصول العقائد والأخلاق والآداب والعبادات والمعاملات، لتطهر الأنفس، وتطهر الجماعات. وتربط الأفراد بعضهم ببعض، وتربط الجماعات بعضهم ببعض، وإن اختلفت أديانهم برباط المحبة والإخاء، لا يطمع قوى فى ضعيف، ولا يبغي حاكم على محكوم، ولا يفضل جنس جنسا، ولا يسود لون لونا؛ يسير الجميع فى ظلال هذه التعاليم إلى غايتهم التى أرادها الله لهم، والدين مستقر السكينة، وملجأ الطمأنينة، به يرضى كل بما قسم له، وبه يدأب عاملا حتى يبلغ الغاية من عمله، وبه تخضع النفوس إلى أحكام السنن العامة فى الكون، وبه ينظر الإنسان إلى من فوقه فى العلم والفضيلة، وإلى من دونه فى المال والجاه، اتباعا لما وردت به الأوامر الإلهية.

قد يسخر من هذا القول بعض الناس، وليس غريبا أن يسخر فى هذا العصر الذى دان فيه الناس بأديان من الهوى والمادة؛ أن يسخر بعض الناس بالدين ومن يتكلم بالدين؛ ولكن ما لنا ولسخرية الأغبياء الجهلاء! وهناك من رجال الفكر والسياسة ممن يعتقد بهم من يرى هذا الرأى ويدعو إلى ما ندعو إليه. خطب زعيم من أشهر زعماء الغرب وأبرزهم شخصية فى مناسبة من المناسبات فقال: «لابد من الرجوع إلى الكنيسة». ومن قبل ذلك دعا إلى هذا كبار رجال الأديان فى العالم.

لقد أسرف العالم، وبخاصة الطبقات التى تسمى مستتيرة، فى سخط الله، وأتوا بأعظم الجرائم وأشنع المنكرات، فوكلهم الله إلى أنفسهم، ففرقوا فى لجج من الحيرة والآلام الجسمية والنفسية، ولم يشفهم مما هم فيه غرائب العلوم ومعائب

الاستكشافات . بل لقد زادتهم حيرة وملأت حياتهم غما وهما ، وليس ينجيهم إلا أن يعودوا إلى ربهم ، وأن يسترضوه عسى أن يرضى عنهم ، ولن يرضى عنهم إلا إذا غيروا ما هم عليه مما ينكره الدين ، بما يعرفه الدين ويرضى عنه الله : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « ما أنكرتم من زمانكم فيما غيرتم من أحوالكم » . ويقول العلامة محمد عبده : أرشدنا سبحانه في حكم آياته إلى أن الأمم ما سقطت من عرش عزها ، ولا بادت ومحي اسمها من لوح الوجود ، إلا بعد نكوبها عن تلك السنة التي سنها الله على أساس الحكمة البالغة : إن الله لا يغير ما يقوم من عزة وسلطان ورفاهة وخفض وأمن وراحة ، حتى يغير أولئك القوم ما بأنفسهم من نور العقل وصحة الفكر وإشراق البصيرة ، والاعتبار بأفعال الله في الأمم السابقة ، والتدبر في أحوال الذين حادوا عن صراط الله فهلكوا وحل بهم الدمار ، ثم لعدوهم عن سنة العدل وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة ؛ وحادوا عن الاستقامة في الرأي ، والصدق في القول ، والسلامة في الصدر ، والعفة في الشهوة ، والحمية على الحق ، والقيام بنصره ، والتعاون على حمايته . خذلوا العدل ولم يجمعوا همهم على إعلام كلمته ، واتبعوا الأهواء الباطلة وانكبوا على الشهوات الفانية ، وأتوا عظام المنكرات . خارت عزائمهم فشحوا ببذل مهجهم في حفظ السنن العادلة ، واختاروا الحياة في الباطل على الموت في نصره الحق ، فأخذهم الله بذنوبهم ، وجعلهم عبرة للمعتبرين » .

من شعر الخلفاء الراشدين

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه يوم فتح مكة :

ألم تر أن الله أظهر دينه	لى كل دين قبل ذلك حائد
وأسلمه من أهل مكة بعدما	تداعوا الى غي من الأمر فاسد
غداة أجال الخيل في عرصاتها	مسومة بين الزير وخالد
فأسمى رسول الله قد عز نصره	وأسمى عداه من قتيل وشارد

حول آى الكتاب والسنة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود النواوى
المدرس بمعهد القاهرة الثانوى

« ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألدّ الخصام » .

قلّ أن تلقى من أهل زمانك من خلا من الملق والرياء .

يلقاك يحلف أنه بك واثق وإذا توارى عنك فهو العقرب

أولئك هم الضعفاء الوضعاء الذين لا يجدون من قوة الشخصية ما يخول لهم أن يواجهوا بالحقائق ، ولا يأنسون من أنفسهم إيماناً ببارئ المسموكات أن يأررزوا^(١) إلى كهفه ويلجئوا إلى كنفه . وهؤلاء هم الذين يصفهم الذكر الحكيم معيراً ومندداً « وإذا جاءوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسكم حسنة تسوهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ، إن الله بما يعملون محيط » . ويقضى فيهم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وآله بأنهم شرار الناس فيقول : « تجدون شر الناس ذا الوجهين الذى يلقى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » . ترى كثيراً منهم قد منحه الله ثقافة فى الفكر ووهب له ذلاقة فى المنطق ، من الذين قال فيهم سيدنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : « إن أبغضكم إلى وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة الثرثارون المتفيهقون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون » .

وما أشد خطورة هذا النوع من الناس على المجتمع « إن أخوف ما أخاف على أمتى كل منافق عليم » ! قالوا : يا رسول الله ، كيف يكون منافقاً علماً ؟

قال : « عليم اللسان جاهل القلب والعمل » . ولقد صدق صلوات الله وسلامه عليه : فإن هؤلاء هم الذين اتعنوا نخانوا ، واطمأن الناس إليهم في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم فكانوا الذئاب العاتية . على أن أمثالهم جديرون أن يظهروا للناس على كنههم ، وأن تتجلى حقيقتهم على وجهها ، وإنها « إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله » .

ومهما تكن عند امرئ من خليفة وإن خالها تخفى على الناس تعلم رب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا ، فإن على قلوبهم ما كانوا يكسبون . وأخطأهم التوفيق فيما يأتون وما يدعون . فتنة في الأرض وفساد كبير ؛ أن تظهر في حال يعلم الله خلافها منك ، وأن تكون ذا وجهين فيمن عرفته .

هى والله قلوب خاوية ضعفا وهلعا ، خالية من كل إيمان وحكمة ، هاروة في الدرك الأسفل من الرذيلة ؛ قلوب أولئك الذين لا يستطيعون أن يواجهوا بحقيقة لدى جهول أنوك ، لم يذق حلاوة الحق ، ولم يبال ألا يكون على صراط مستقيم .

رحمك الله يا بن الخطاب ! لقد صممت قواعد الرجولة في جماعة محمد حتى فغرت الافواه بكلمة الحق تسمعها من المرأة المسكينة راضيا مغتبطا ، بل متهللا مستبشرا ؛ تقول لك في محفل العلنية من أمة محمد : إن الله يقول غير ما تقول يا عمر ، وتحجبها بقولك : الحمد لله الذى جعل في الرعية من يرد عمر إلى صوابه . وتدوى بها صارخة لترجم بها الشيطان وتدكدك صرح العنجهية الجاهلية : أيها الناس ! أخطأ عمرو وأصاب امرأة . رحم الله امرأ أهدى إلى عيوب نفسى . وتدب إلى مهبط السرائر في نفوس المسلمين ، لينزل كل جبار عن جبروته أمام الحق ، وما كنت إلا نصيره وأسيره ، ولينكر كل ذى أثره مهما ارتفع ذاته وأثرته . ليس عمر بأكبر من أن يُنصح ولا بأصغر من أن ينصح . تلك هى النفس التى لقحت بحكمة الاسلام ، وهذبت بريضة القرآن ، لاهم لها إلا أن تقيل الانسانية من عثارها وتصلها بملكوت السماء . وهذه هى خلافة الله في الأرض ، ترفع العدل وتخفض القسط .

بالت قومي يعلنون أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، فيفيثوا إلى رشدهم، ويلتمسوا العزة والسؤدد في سيرة سلفهم، ولا ينسوا تلك المجادة القعساء. فأما الرئيس «الراعي» فينشد الخير العام متجافيا عن الغرور والغطرسة، يسمع النقد ويقبل النصح، ويشكر الغش، ويرفض المدح، إلا ما أعان على خير، أو وجه إلى رشد، ما يزيده شيء من ذلك إلا ارتفاع شأن، ولا يرى المنصب منه إلا كل قوة وسلطان؛ ولعمر الله ما أفلح قوم ضاع الحق بينهم، وآثروا من ليس عند القسطاس بأثير. وأما المرموس فيذكر دائما أنه عون أمين لرأعيه، فهو مسئول عن كل ما يشاركه فيه، وأنه إذا رآه في ظلم فواجبه تقويمه، وأنه إلى إرشاده أحوج منه إلى مدحه وإطرائه. فالذكرى تنفع المؤمنين. «إذا رأيت أمتي الظالم فلم تأخذ على يده أو شك أن يعم الله الكل بعذابه» «واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب».

ألا قبح الله أولئك الذين يمالئون على الضلال، ويذكرون أفعال الجبال، لأن لهم سطوة وقوة، وفيهم نزوة ونبوة، كأنما تتخلى عنهم رحمة الله إذا سخطوا، وتصيهم قارعة أو تحل قريبا من دارهم إذا ما تنكروا. «إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين. والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسم ينصرون».

ألا قبح الله أولئك المادحين القادحين، الذين «اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون... وإذا رأيتم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم، هم العدو فاحذرهم، قاتلهم الله أنى يؤفكون، إن الله سبحانه يوجهنا وجهة القوة ويدعونا بدعاية الكرامة» من كان يريد العزة فلله العزة جميعا.

يريد الله سبحانه ليدعم فينا الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، والتفاني في نشدان الحق حيثما كان وعند من كان: «كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شتان قوم على ألا تعدلوا، استوى في ذلك الصغير والكبير، والأمر والمأمور، لا تفرقة أمام محكمة البصائر الثاقبة. ورحم الله أمير الشعراء إذ يقول فيما يصف به حكومة الاسلام وصاحبها صلى الله عليه وسلم:

ورسمت بعدك للعباد حكومة لا سوقة فيها ولا أمراء
الله فوق الكل فيها وحده والكل تحت لوائه أكفاء
والدين يسر والخلافة بيعة والامر شورى والحقوق قضاء

فما بال هذا الذى يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويلبس للناس مسوح الرهبان ،
أبعد ما يكون من قداسة الأديان ؟ ! يا قومنا إن للدنيا سييلا وللآخرة سييلا . وإن
من سوء التقدير أن تخلطوا . إن مارسه ربك لتعامل به معه فلا يجعل بك أن
تجعله سلعة رخيصة بين عباده . إن الله أغنى الأغنياء عن الشرك ، وإنه غيور ، ولا
أحد أغير منه ، « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة
ربه أحدا » .

تالله ما رثيت لشيء رثائاً لأولئك الدُّسَسِ الذين يتقلبون فى المجالس
يخوضون فى الباطل ويترددون على شتى المحافل يحملون ألفاظا قد جبروها
ليشتروا بها عطف الرؤساء فيظفروا بهم ، ويعدو بهم طورهم بخساً لأصحاب
الحقوق ، وإضاعة لذوى الكفايات من العاملين . لقد خسر البائع وخسر المشتري !
« أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » .
الاخلاص لوجه الله ولواجب المجتمع هو الطريق الوسطى والجادة التى يتفاوت
الناس فى سلوكها « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً
يره » . ولكنه طريق وعر ، ومركب صعب لا يمتطيه إلا من وهب له الله سبحانه
قوة النفس ، وصحة الطبع ، وإيثار الجذ ، وهيات ذلك إلا أن يوفق الله من شاء
من عباده .

تالله إن أمة لن تبلغ الذروة وتنب إلى القمة حتى يكون مقياس الدرجات
والمنازل فيها الكفايات والأعمال التى تنفع المجتمع ، وترفع من شأن الوطن -
أما أن يكون الميزان أن تتعرف إلى كبير فيختصك ويصطفيك ، أو تلتمس شفيعاً
فتذل له نفسك وتريق على بابه كرامتك ، فما شئ أشد فتسكابكيان الأمم ولا أعمل
فى تقويض أركانها منه ، فانه مقبرة الكفايات ، ومزجرة الهمم والمنافسات . لقد مسخ
التفكير ، وشاهت الحقائق ، وعميت الأبصار والبصائر ، وعند الله المخرج والمنجى .

يأبىها الناس إن خزان الله لا تنفذ ، وأبوابه لا تغلق ، وإنه لن يصيب نفساً إلا ما كتب الله لها في رزقها وأجلها : فاتقوا الله وأجملوا في الطلب . نافسوا في المكارم لا في عرض الدنيا الحقير ، خذوا أنفسكم بكرامة الإسلام ، وبغزة الإيمان ، من حارب الله في عباده يبغي أو استهانة حربه الله ، إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فليسعهم منكم بسطة الوجه ، وحسن الخلق ، وإيصال الحق إلى صاحبه . ارحموا الإنسانية المتهمضة يسلم دولاب العمل لخدمة الجماعة ولخدمة الفرد .

وأنت يا صاحب الحاجات المعذب ، ويا من تفتى نفسك في مطالب الحياة : أرح نفسك ولذ بركن الله الركين ، واعمر قلبك بالإيمان والرضا ، دع كل أمر في وضعه الطبيعي ، فلا تسرف في المزاحمة على عرض الدنيا ، ولا تستهدف فيها لخصومات لا قبل لك بها . واعلم أن من ضاق عليه الحق فالباطل عليه أضيق ، واذكر أنه « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم »

ونفسك أكرمها فانك إن تهن عليك فلن تلقى لها الدهر مكرماً

إن الثروة الحق في الخلق الكريم والقلب السليم ، والنفس الرضية المطمئنة ، والخلو من التناحور المزرى ، والتشاحن المقيت الذى يظهر الإنسان في مظهر الخنزير حرصاً واستماته .

إن القلب السليم هو ذلك القلب الخير ، بفسح الطريق لسالكيها ، ومعاونة الإنسانية في كل ما يلابسها . هو ذلك الذى يسير بالقسطاس المستقيم ، ولا يرسف في قيود من تعصب أو محاباة . من يسير الرفق حيث يسير ، وينشر الأمن والبشر والبر والخصب أوليته حيث ينزل ، ذلك المعتر بالله المتوكل عليه ، الذى يرى أن الخير كله في يديه ، فلا يقول إلا حقاً ، ولا ينطق إلا صدقاً ، ولا يصدر إلا عن رجولة أى رجولة .

أيها المادح العباد لتعطى إن لله ما بأيدي العباد
لا تقل في الجبان ما ليس فيه وتسم البخیل باسم الجواد

بَابُ الْأَسْبُعِثَّةِ وَالْفَتَاوَى

نقل المسجد

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

مسجد جمعية إحياء المساجد بشبرا أشترينا أرضه بمال مأخوذ من الاكتتابات ، ونوينا فى الشراء أن تكون الأرض مسجدا ، وكانت الأبنية مقامة عليها قبل الشراء ، والشعائر قائمة ، لأنها كانت مستأجرة من صاحبها بهذا القصد . وقد اعترض بعض الموسرين على موقع المسجد لأنه فى شارع ضيق جدا ، ولأن مساحته ضيقة ، وأبدى رغبته فى إقامة المسجد فى مكان يكون قريبا من الشارع المتسع . وأنا قد رأيت فتوى من لجنة الفتوى مأخوذة من كلام ابن تيمية مفادها أنه يجوز نقل المسجد على أن يجعل المكان الأول من صالح المسجد ، فيستأجر مثلا لتكون غلته للمسجد . وهذه الفتوى لا تنفعنا إلا قليلا لأننا نريد أن نبيع الأرض والبناء وتصبح ملكا حرا لمن يشتريها ، ونشتري بثمنها مع ما نجمعه من الاكتتابات أرضا بالمكان القريب المتسع ، ونبنى عليها مسجدا متسعا . فهل هناك رأى يجوز ذلك ؟ نرجو الإفادة .

على حسن البولاق

الجواب :

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان يوم الدين .

أما بعد ، فتفيد اللجنة بأنه إذا كانت إقامة المسجد على القطعة المراد شراؤها خيرا وأصلح من المكان المراد بيعه ، جاز بيع هذا المكان وشراء ما يراد شراؤه بثمنه مع ما يتبرع به ليكون مسجدا بدله ، وذلك بواسطة المحكمة الشرعية المختصة إذا كان المكان الأول قد جعل مسجدا بالفعل . وهذا على ما ذهب إليه الإمام أحمد بن حنبل ، واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية . وهو ما تختاره اللجنة للفتوى .

رئيس لجنة الفتوى

والله أعلم

عبد المجيد سليم

نواحي الإعجاز في أخلاق الرسول

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد شاهين
تخصص الوعظ والإرشاد

روى القاضى عياض فى الشفاء نقلا عن الطبرى عن على كرم الله وجهه ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ه ما هممت بشىء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بينى وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممت بسوء حتى أكرمنى الله برسالاته : قلت ليلة لغلام كان يرعى معى : لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشاب ، فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة سمعت عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم ، فجلست أنظر ، فضرب على أذنى فتمت ، فما أيقظنى إلا مس الشمس ، فرجعت ولم أقض شيئاً ، ثم عراني مرة أخرى مثل ذلك ، ثم لم أهم بعد ذلك بسوء ، ه .

مما وعاه صحيح التاريخ من أمر الرسول وسيرته قبل مبثته ، أنه عليه السلام كان فى تلك المرحلة من حياته يمتاز على أقرانه وأهل بيئته عموماً ، بسلوكه الخاص ، وأخلاقه التى كان بها نسيج وحده . فقد اشتهر عند العرب بالحلم ، والرفق ، والتواضع ، والإخلاص إلى الرزاة والصمت : كما اشتهر بانقباضه التام عن كل ما زخرت به بيئته وانهمك فيه أقرانه من المنازعات ، واللجاجة فى الخصومة ، والزهو ، والخيلاء ، والمفاخرة فى المحافل بآثر العشيرة ومناقبها وأيامها ، والمساكرة بما أحرزت من حطام الدنيا ومتاعها ، والمغامرة فى تحصيل الغنائم والمتع بشن الغارات وإثارة المعارك ، واللهو بالصيد والتقنص ، ولعب الميسر ، ومعاقرة الخمر ، والتشبيب بالنساء . وأثر عنه نفوره الشديد من عوائد قومه وعاداتهم وعقائدهم ، كزجر الطير ، والاستقسام بالأزلام ، والرجوع إلى الكهنة والعرافين عند المشاكل : واشتد ممتنه للأوثان حتى لم يطعم من قرابينها ، ولم يحضر

أعيادها . وقيل إن رجلا استحلفه مرة بالآوثان فغضب وقال : إنه لا يجد أبغض الى نفسه من هاتيك الحجارة ! فأن كان ولا بد فإنه يحلف بالله .

ولما زادت وحشته من تقاليد قومه وأساليبهم في الحياة ، داخلته حيرة وضيق ، وأخيرا لاذ بالعزلة في غار حراء ، يتأمل ويفكر ، فأنس بذلك واطمأن قلبه . قال ابن القيم في زاد المعاد : « ثم حُبب إليه الخلو والتعبد لربه ، وكان يخلو بغار حراء يتعبد فيه الليالي ذوات العدد ، وبُغضت إليه الآوثان ودين قومه ، فلم يكن شيء أبغض إليه من ذلك » .

وروى البخارى عن عائشة رضوان الله عليها : « أول ما بدى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء . فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع الى أهله ، ويتزود لذلك ، حتى جاءه الحق » . وحدثنا صحيح التاريخ أن سلوك الرسول وأخلاقه الفريدة قد استلقت إليه أنظار العرب عامة ، وأهل الرأي منهم خاصة ، فأكبروه وأحبوه ، ولقبوه بالأمين ، واختصوه بمعاملة استثنائية ، فأشركوه مع مشيختهم في مهام الأمور برغم سنه الباكرة ، وتحاكموا إليه فساهم في عهد حلف الفضول لحفظ النظام وتأمين الحجيج .

ولما تنازعت القبائل عند تجديد بناء الكعبة بشأن إعادة الحجر إلى موضعه وكادوا يمتشقون السيوف ، تحاكموا الى الرسول ، فبسط رداءه ، ووضع عليه الحجر ، ثم أمر كل قبيلة أن تأخذ بطرف ، فرفعوا الحجر ووضعوه الرسول موضعه . وهكذا كانت نباهة شأنه عند قومه بأخلاقه الباهرة ، حتى أنه لم يسموا فيها بوادى شأنه المرتب ، ومستقبله العظيم ؛ فطالما كان عمه أبو طالب يردد هذه الحكمة في زهو وثقة : « ليكونن لابنى هذا شأن » على أنه إذا لم يكن يعلم على وجه التحديد ما هو هذا الشأن المرتب لابن أخيه لأن بشار السكتب السماوية بنبوته لم تكن ظاهرة للقرشين ظهورها لأهل السكتب ، ولأن البشار والحوادث التي اقترنت بميلاده لم يظهر مغزاها جميعا إلا بعد البعثة ، فإن أبا طالب قد عاين في فتاه محمد طارازا فريدا من الشخصية لا عهد له بمثله عند أمثاله من شبيبة الجيل ،

فتوقع له شأنًا ومجدًا في مستقبل حياته . ولقد صدَّق فِرَاسَةَ أَبِي طَالِبِ الرَّاهِبِ بحيرا عندما التقى به محمد وعمه في طريقهما إلى الشام بالتجارة .

وعلى الجملة فإن أخلاق الرسول كانت في نظر المعاصرين له من أشراط مجده وإرهاص نبوته قبل بعثته ، كما كانت بعدها من معجزاته الباهرة التي ألقت حوله القلوب ، وآمن بسببها بعض من آمن به ، وأشار بها خصومه الالءاء .

عن حابر بن عبد الله رضى الله عنه : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بذات الرِّقَاعِ فإذا أتينا على شجرة ظليمة تركناها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء رجل من المشركين وسيفُ رسول الله صلى الله عليه وسلم معلق بالشجرة فاخرطه فقال : تخافني ؟ قال : لا ، قال : فمن يمنعك مني ؟ قال : الله . »

وفي الشفاء للقاضي عياض ، وفي صحيح أبي بكر الأسماعيلي : فقال : ومن يمنعك مني ؟ قال : الله . فسقط السيف من يده ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف فقال : من يمنعك مني ؟ فقال : كن خير آخذ . فقال : تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ؟ فقال : لا ، ولكن أعاهدك ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك . غلّى سبيله ، فأتى أصحابه فقال : جئكم من عند خير الناس ! . وفي رواية القاضي أن الأعرابي هو غورث بن الحارث .

وقال في الشفاء : « وجاءه زيد بن سعة قبل إسلامه يتماضاه ديناً عليه فخبذ ثوبه عن منسكبه وأخذ بمجامع ثيابه وأغلظ له ، ثم قال : إنكم يا بني عبد المطلب مُطَلّ ، فاتهره عمر ، وشدد له في القول ، والنبي صلى الله عليه وسلم يتبسم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا وهو كنا إلى غير هذا منك أحوج يا عمر : تأمرني بحسن القضاء ، وتأمره بحسن التقاضى » . ثم قال : لقد بقي من أجله ثلاث ، وأمر عمر أن يقضيه ماله ويزيده عشرين صاعاً لما رآه ، فكان سبب إسلامه . وذلك أنه كان يقول : ما بقى من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في محمد إلا اثنتين لم أخبرهما : يسبق حلمه جهله ، ولا تزيد شدة الجهل إلا حلمًا » ، وكذلك كانت عظمة الرسول الخلقية شاهد صدق بعظمته وصحة دعوته عند المعاصرين له قبل البعثة وبعدها ، وبها أشاد العدو والصديق ، وألهمت الشعراء فتجاوبوا بها في الآفاق وتغنوا بها في المحافل .

العصر العظيم

تعريب الأستاذ عمر طلعت زهران

— ٢ —

وعلينا ، لكي نفهم هذه التعاليم أن نرجع إلى مصادرها ، وهنا نجد صعوبات جمّة . وقد يكون سبب هذه الصعوبات ندرة هذه المصادر كما هو الحال مع فيثاغوراس ، فلم يبق من كتاباته سطر واحد . هذا إذا تسكّمنا عن كتاباته التي يختلف الباحثون فيها ، فيما إذا كان قد كتب شيء على الإطلاق . وقد فقدت كتابات تلاميذه ، أيضا ، وأول المصادر المكتوبة عنه كانت مراجع لمؤلفين آخرين لا ينتمون إلى الفيثاغورية ، يبتدئون بالمؤرخين مثل « هيرودوت وديودورس » وفلاسفة مثل « أفلاطون وأرسطو » . أما أدق الأخبار عنهم فيمكن أن توجد فقط في مؤلفات الكتاب الأفلوطينيين « يامبيخوس وبورفيروس » أو في مؤلفات « ديوجين » ، وعلينا أن نتذكر أن هذه الكتابات قد وضعت بعد موت فيثاغوراس بنحو سبعة أو ثمانية قرون ، ويجب أن نكون على أشد الحذر حين نأخذ من هذه المصادر المشككة غير المعتمد عليها .

أما الصعوبات التي تعترض مصادر البوذية فهي صعوبات جد مختلفة إذ هي على عكس الصعوبات الأولى . فإن على الباحث أن يناضل لا ضد

وفي العصر العباسي عني بدرس أخلاق الرسول بعض العلماء المحققين ، فكشفوا بمنطق البحث الدقيق ناحية رائعة من الإعجاز في خلق الرسول على نحو ارتضاه علما من أعلام النهضة العباسية ، هما الجاحظ من المعتزلة ، والغزالي من الأشعرية ، كما سيتضح لك بعد .

والآن ما عسى أن يكون موقف الباحث الحر في العصر الحديث حين يعرض بالبحث والتحليل للجانب الخلق من السيرة النبوية في ضوء العلم المجرد والمنطق المجاهد ؛ ترى هل يرى رأى أولئك الأوائل في اعتبار أخلاق الرسول من معجزاته الواضحة ، أم له رأى آخر ؟ سوف نرى .

قدرة المصادر ، بل ضد كثرتها وتعددتها . فانه يوجد على العموم ثلاثة أو أربعة أنواع من الكتابات البوذية : الكتابة البالية ، والسنسكريتية ، والصينية ، والكتابة اللامية بالتبت . وأقصر هذه الكتابات وأهمها هي الكتابة البالية عن البوذية الجنوبية ، وهي مع قصرها تبلغ ثلاثة أضعاف حجم الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد . أما السنسكريتية فأكثر طولاً . وتشمل الكتابات اللامية بالتبت ١٠٨٣ كتاباً تقع في ١٠٨ مجلداً . ولكنها جميعاً تتضاءل أمام الكتابات الصينية التي تتكون من ١٦٦٢ كتاباً تقع في ٦٧٠٠ مجلد . فمن منا لا يستطيع ألا يضل في متاهات هذه النصوص ، كل واحد منها على حدة ، بله كلها مجتمعة .

أما صعوبات النصوص الزردشتية فانها ذات طبيعة مختلفة عن ذلك : فان هذه النصوص توجد في الزند أفستا ، وهو كتاب الزردشتيين المقدس . وقد بنيت آمال كبيرة على نشر هذا الكتاب ، ولكن ما إن نشرها العالم الفرنسي انكتيل دوبيرتون^(١) حتى خابت الآمال . فبدلاً من وعظ موحى به ، وصورة فذة للصراع بين الخير والشر في العالم ، وجد أن الزند أفستا إنما تحتوي على أناشيد وأدعية لا معنى لها ، خالية من الحياة على صورة السحر . ووجدت الحية صداها في كلمات المستشرق الانجليزي الكبير سير وليام جونز ، إما أن يكون زردشت لم يكتب هذا الكتاب أبداً ، وإما أن يكون مجرداً من العقل ، وفي كلتا الحالتين لا يستحق هذا الكتاب أن ينشر . وكان سير وليام مغالياً في نقده إذ تمكن الباحثون بعد مجهود كبير من اكتشاف بعض آثار العظمة الروحية السابقة ، ولكن هذه الآثار كان يغطيها طبقة كسيفة من الزيادات والتحريفات ، تجمعت على سر العصور ، فجعلت معرفة النص الصحيح مستحيلاً . وعلى الرغم من أى شيء فإن الأثر الذي تركه هؤلاء الحكماء على عقول البشر كان عميقاً حتى إن أشباحهم لتبدو منيرة متميزة خلال ظلام العصور الماضية ، ومن خلال التحريف والتشويه الذي أصاب كتاباتهم .

ويطلق على كنفشيوس دائماً أنه مؤسس الدين الوطني للدولة الصينية ،

(1) Anquetil Duperron, Zend Avesta, Ouvrage de Zoroastre. Paris 1771.

ولكن كلمة « دين » هنا يجب أن تقابل بـ « حض التحفظ » ، وعلى أية حال ، فهي لا تعنى أى نوع من العبادة أو إقامة الشعائر لمعبود ما ، فإن معنى « الإله » كان بعيداً عن الكنفشيوسية . وكل ما نجده هو كلمة « السماء » ، تستعمل بمعنى غامض ، وحتى فى هذا الصدد يقف كنفشيوس ثابتاً ويقول : « لا تتكلم السماء » ، وإنما تتمثل إرادتها فى أعمال الناس ، وهذا كل شيء . . أما إذا سئل عن كيفية عبادة الأرواح الخالدة ، فإنه يجيب « إنا لا نعرف كيف نخدم الناس » ، فكيف نستطيع أن نعبد الأرواح ؟ ، وبفس هذا الأسلوب كان يجيب عن الأسئلة الميتافيزيقية ، أما عن السؤال : ما هو الموت ؟ فإنه يجيب « إنا لا نعرف ما هى الحياة » ، فكيف لنا أن ما هو الموت . .

وبجانب هذه الواقعية الصرفة التى نراها فى آرائه وحاجته ، الى الاهتمام بكل أنواع الميتافيزيكا ، فإن منهجه فى البحث كان منهجاً عقلياً : التفكير ، فالدراسة ، فالبحث . فلا يوجد به شيء موحى به من أعلى ، ولا شيء يفوق الطبيعة أو يفوق العقل .

وكان مدار البحث فى دراساته هو الإنسان نفسه ، وأحياناً الفرد ، يقول الجميع : الامبراطورية ، المملكة ، العائلة ، أساس الامبراطورية هو المملكة ، وأساس المملكة هى العائلة ، وأساس العائلة هو الفرد ، ولكن هذه الآراء الفردية نادرة ، فإن كنفشيوس كان جماعياً ، وكان عمله الأساسى هو : وضع علاقات الجماعات ، فى العائلة والدولة وفى البشرية . ولنا أن نسأل : فى أى اتجاه كان يبحث عن حل المشكلة ؟ ونستطيع أن نجيب دون تردد : فى العائلة . فإن العائلة كانت نقطة الابتداء لكل فلسفته الاجتماعية والسياسية ، ويروى لنا مؤرخو حياته أن العظمة والجلال اللذين اكتسقا حفل جناز أمه أدهشا مواطنيه وجعلاه ذائع الصيت ، وأمضى بعد الجناز ثلاثة أيام بجانب المدفن مخصصاً كل الوقت للتأمل والأعمال الفلسفية ، ومن هنا أينعت نظريته . وينبع من تمجيد العائلة ميلاً للدراسات التاريخية ، بل وهنا نجد منبع تمسكه « بالتقاليد » أيضاً ، إن لم نقل « المحافظة » أو « الرجعية » ، لوصف مثله الأعلى للتحكم الأبوى فى العلاقات العائلية وعلاقات الدولة . ومن الطبيعى أن يكون هذا الشعور نفسه هو منبع العناصر التقدمية - إن لم نقل الثورية - فى آرائه وتعاليمه . ويجب أن تشمل عناصر العلاقات العائلية علاقات المجتمعات

الكبرى كالدولة والامبراطورية ، بل والانسانية جمعاء . وحين قال أحد أتباعه باكيًا : إنه لا إخوة له ، أجابه كنفشيوس « علينا أن ننظر للناس في العالم كله كأنهم إخوة ، وحينئذ لن يبكي إنسان لانعدام إخوته » . وأجاب عن سؤال : ما هي الانسانية ؟ بقوله : « الحب » وهو جواب يبدو كأنما هو أمر مسيحي . ولكن لنكن على حذر حتى لا نتخذنا ظواهر الكلمات ، فان نشوة الحب العجيب في خطبة الجبل^(١) كانت بعيدة عن عقل كنفشيوس الحذر الرزين ، المرتبط بأمور الأرض أشد الارتباط . وسئل : هل يجازى الانسان الشر بالخير ؟ فأجاب : « وكيف يجازى إذن عمل الخير ؟ » أما نظريته في السلوك نحو الآخرين ، فقد بينها في « القانون الذهبي » : « ما لا تحب أن يعاملك به الناس ، لا تعامل به غيرك » . وهي القاعدة الذائعة التي سبق بها كنفشيوس « كانت » بخمسة وعشرين قرنا .

وإذا ألح أى إنسان ، على الرغم من أى شيء ، فى أن يبحث عما يثير العواطف فى مؤسس أى دين ، فانه فى حال كنفشيوس يوجد الشعور بالوقار ، والحذر ، والشعور بالتقاليد الدينية من الناحيتين العقلية والعملية ، ومهما كان الأمر ، فانه شعور حقيقى أكده كنفشيوس بحياته ، فقد وضع برنامجا للإصلاح الاجتماعى والسياسى لتحقيق السعادة للعالم أجمع : « لو قلدى حاكم مقاليد الحكم اثنى عشر شهرا لحققت شيئا عظيما ، وفى مدى ثلاث سنوات أحقق أغراضى بأجمعها » . وقد اضطر الى ترك إقليمه « لو » ، وجاب الأرض ببقية حياته من ولاية إلى أخرى ، يبحث عن الحاكم الذى يقلده مقاليد الحكم . وكان يقابل فى أحسن الاحوال باحترام واستقبال غير حار دون وعود ، وأحيانا بجفاء ، بل وبالسجن . ولكنه لم يجد الحاكم الذى يبحث عنه . ولما شعر بدنو أجله قال « لم يوجد حاكم ذكى يقلدنى مقاليد الحكم ، لقد انتهى زمنى ! » وهذه آخر كلمات تروى عنه . لقد كان أول وأعظم « عقلى » هو فى نفس الوقت أول ولعله أعظم « دون كيشوت »^(٢) بأحسن معانى هذه الكلمة .

(١) السيد المسيح .

(٢) بطل القصة التى كتبها بهذا الاسم الكاتب الاسبانى المعروف سرفنتيز فى القرن السادس عشر الميلادى . يستعمل مجازا بمعنى « إنسان خيالى » أو « حلم متحمس » (العرب) .

تشابه النظم في القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ عبد الغنى عوض الراجحي

في مقالين سابقين كشفت عن أسرار هذه الظاهرة وعن مواقعها في القرآن الكريم .

ولما كانت هذه المواقع يصح أن تسمى « متشابه القرآن »^(١) ، وكان اللفظ المتشابه إطلاقات متعددة متشابهة ، فأننى أحب الآن وفي هذا المقال أن أبين هذه الاطلاقات مع إيضاح الفروق بينها فأقول :

صيغتنا التفاعل والافتعال تأتيان من مادة واحدة Lafادة معنى واحد هو التشارك في معنى المادة . تقول من القتل : اقتتلوا وتقاتلوا ، ومن الخصام : اختصموا وتخاصموا ، ومن الشركة : اشتركوا وتشاركوا ؛ ولا يخرج الأمر عن ذلك في قولك : تشابهوا واشتبهوا ؛ فالتشابه والاشتباه ذوا أصل واحد ويفيدان معنى واحدا هو المشاركة بين الأشياء في الأوصاف والكيفيات^(٢) ، وعليه قوله تعالى : « تشابهت قلوبهم » وقوله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها »

(١) من ذلك « ملاك التأويل القاطع لذوى الالتحاد والتعطيل ، في توجيه التشابه اللفظي من آى التنزيل ، لابن جعفر بن الزبير المغربي ، و« البرهان في متشابه القرآن » لـالكرماني ، و« كشف الممانى في متشابه المثنى » لبدرالهدى بن جماعة ثلاثها رسائل صغيرة مخطوطة ، ثم كتاب « درة التنزيل وغرر التأويل » للخطيب الإسكافي « في متشابه التنزيل » وقول البيهقي في كتابه الاتقان « النوع الثالث والستون في الآيات المشتبهات » .

(٢) لا يعكر على ذلك كون المادة لا بخصوص هذه الصيغة مفيدة لهذا المعنى كقولهم : أشبه الولد أباه ، وقولهم :

أصبح فيه شبه من أمه من عظم الرأس ومن خرطه

مثنى ، وقوله تعالى « والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه » ، وفي آية أخرى « والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه » ، فالاشتباه والتشابه في كل ذلك بمعنى التماثل في الأوصاف والكيفيات . ولولم يكن الأمر على ذلك لفسد المعنى وبطل أمر التقابل في قوله تعالى : « مشتبها وغير متشابه » .

ولما كانت المماثلة في المميزات من شأنها أن تؤدي الى الالتباس والخفاء وعجز الذهن عن التمييز بين المتماثلات ، وكلا له عن التحديق فيها كما قال القائل :

رق الزجاج وراقت الخمر فتشابهها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

لما كان الأمر كذلك ذهبوا يقولون : المشتبه والمتشابه ، ويريدون الملتبس الخفي أمره ، فيقولون : اشتبهت الأمور ، يعنون أنها التبتت وأشكلت ، ويقولون : اشتبهت القبلة ، يعنون أنها خفيت على من يريد لها لا يدري في أى الجهات هى حتى يصلح اليها . وعليه قوله تعالى : « إن البقر تشابه علينا » وقوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله » .

فاذا كانت آيات القرآن كلها يشبه بعضها بعضا فى الصدق والإعجاز وسمو المعانى ، صح أن يطلق على القرآن كله أنه بهذا المعنى متشابه كما قال تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها » والمتشابه بهذا المعنى لا يقابل بالمحكم ولا يمتنع معه إطلاق المحكم على القرآن كله ، بمعنى إحكام آياته وصيانتها عن كل نقص وإطلاق ، وإصابتها المحز فى حسن السبك والنظام ، كما قال تعالى « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » .

وإذا كانت بعض آيات القرآن قد التبتت وعجز الذهن عن إدراك مدلولها والإحاطة بمعناها ، ولم يتمكن العقل البشرى من النهوض بذلك والاستقلال به فقد اصطاح العلماء على أن يطلقوا على ذلك البعض من الآيات أنها بهذا المعنى متشابه القرآن ، وعلى البعض الآخر الذى اتضحت دلالاته وبان المراد منه أنه محكم .

فالمتشابه والمحكم على هذا متقابلان ، وبعض القرآن متشابه وبعضه محكم ، كما قال تعالى « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات » .

ولذا كان بعض آيات القرآن قد كرر في مواضع متعددة وسور مختلفة والمعنى الأصلي في هذه الآيات المكررة واحد ، والتركيب اللفظية يشبه بعضها بعضا لاتفاقها في أصل العبارة وقوامها مع نوع اختلاف بشئ من التقديم تارة والتأخير أخرى والذكر تارة والحذف أخرى والتعريف تارة والتسكير أخرى والفصل تارة والوصل أخرى ونحو ذلك — كان لنا أن نطلق على هذا النوع من الآيات أنه بهذا الاعتبار متشابه القرآن ، لكن من حيث إن التشابه هنا يقع في نظم القرآن وله زيادة تعلق بنصوص الآيات : عباراتها وألفاظها المنظومة ، فأنتى أختار أن أسميه متشابه النظم في القرآن ^(١) وبعض القرآن متشابه وبعضه غير متشابه .

هذا المتشابه لا يقابل بالمحكم ، ولا يراد بهذه الآية القرية الذكر التى قبل فيها بين المحكم والمتشابه . أما ما حكاه السيوطى في كتابه « الاتقان في علوم القرآن » « النوع الثالث والأربعون في المحكم والمتشابه » حيث استعرض الآية الكريمة فجعلها محور البحث وقال فيما حكاه من الأقوال « وقيل المحكم ما لم تكرر ألفاظه ومقابله المتشابه » كذلك ما حكاه من بقية الأقوال التى أبعد الناس فيها النجعة كالقول بأن المتشابه أوائل السور والمحكم غيرها ، والقول بأنه الناسخ والمنسوخ والمحكم غيرهما ، والقول بأنه القصص والأمثال والمحكم غيرهما ، والقول بأنه ما يؤمن به ولا يعمل والمحكم ما يؤمن به ويعمل ، والقول بأنه الألفاظ الغريبة « كالأب ويذقون ، والمشاركة كاليد واليمين وما فيه تقديم وتأخير وعموم وخصوص ، وما يحتاج فيه الى معرفة زمانه ومكانه وشرطه ونحو ذلك ، فكل هذا توسع وتساهل وجرى وراء ما تشتم فيه رائحة الاشتباه كأن كل شئ صعب فهمه واحتاج الى بحث وإعمال ففكر فهو عندهم من المتشابه المقصود بالآية ، وفوق أن هذه الأقوال كلها لا تتمشى مع الآية من أولها الى آخرها ولا تلتم مع ما هو معروف

(١) راجع تعريف النظم في كتاب « دلائل الإعجاز » للبرجاني ص ٦٤ ط المنار .

من الخلاف في إدراك هذا المتشابه ، والوقوف على لفظ الجلالة في قوله تعالى « وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون آهنا به » فإن هذه الأنواع المذكورة بما فيها من المباحث قد أخذت ألقابا علمية أخرى واستقلت بأبواب في علوم القرآن ، وذلك « كأقسام القرآن » وأمثاله وقصصه وعامه وخاصة وناحته ومنسوخه وغير ذلك .

فالأولى عندي أن ينأى بأمثال هذه المباحث عن أن تكون مرادة بالآية أو مقصودة بهذا المتشابه المتقابل بالمحكم ، وبذلك تخلص الحقيقة العرفية للمتشابه الذي يجل فيه الخطب ويدق الأمر وتقف العقول الانسانية حياله مكبلة بأغلال العجز والقصور ؛ المتشابه الذي من أجل السؤال عنه ضرب عمر ابن صبيغ ، وطرده الامام مالك من مجلسه رجلا اعتبره رجلا بدعة في قلبه زيغ حين قال له « الرحمن على العرش استوى » كيف استوى ؟ المتشابه المتعلق بالذات العلية وصفاتها ، والذي إذا أطلق لقط المتشابه تبادر هو الى الفهم ، والتبادر كما يقولون علامة الحقيقة ، وكاد الناظر في أقوال العلماء وتأليفهم وصنيعهم في مباحثهم أن يدعى إجماعهم على ذلك .

بعد أن انتهى بنا البحث إلى تحديد متشابه النظم في القرآن بأنه ما أعيد فيه المعنى الأصلي الواحد بعبارات مختلفة متشابهة ، نرى أنفسنا وكأنها تتساءل : إذا اختلفت العبارات في موضع عنها في آخر فكيف يكون المعنى واحدا ؟ أو ليست المعاني تابعة للألفاظ تختلف إذا اختلفت وتتحد إذا اتحدت ؟

وللإجابة على هذا السؤال نفصح المجال للامام عبد القاهر الجرجاني حيث يقول ^(١) « لا يكون لإحدى العبارتين مزية على الأخرى حتى يكون لها في المعنى تأثير لا يكون لصاحبتها ؛ فإن قلت : فإذا أفادت هذه ما لم تفده تلك فليستا عبارتين عن معنى واحد بل هما عبارتان عن معنيين اثنتين ؟ قيل لك : إن قولنا المعنى في مثل هذا يراد به الفرض والذي أراد المتكلم إثباته أو نفيه نحو أن تقصد تشبيه زيد بالأسد فتقول زيد كالأسد ثم تريد هذا المعنى بعينه فتقول كأن زيدا الأسد ، فتقيد تشبيهه أيضا بالأسد ، إلا أنك تزيد في معنى تشبيهه زيادة لم تكن في الأول

(١) « دلائل الإعجاز » باب اللفظ والنظم ص ١٩٩ وما بعدها طبع المنار .

وهي أن تجعله من فرط شجاعته وقوة قلبه وأنه لا يردعه شيء بحيث لا يتميز عن الأسد ولا يقتصر عنه حتى يتوهم أنه أسد في صورة آدمي ، وإذا كان ذلك كذلك فانظر هل كانت هذه الزيادة وهذا الفرق إلا بما توخى في نظم اللفظ وتركيبه حيث قدم الكاف الى صدر الكلام وركبت مع أن ؟ .

ثم قال بعد ذلك كلاما طويلا خرج منه بقوله « إن الفصاحة والبلاغة وتخير الألفاظ عبارة عن خصائص ووجوه تكون عليها معاني الكلام ، وعن زيادات تحدث في أصول المعاني كالذي أريتكم فيما بين زيد كالأسد ، و « وكان زيدا الأسد » . وقوله « لا سبيل إلى أن تجيء إلى معنى البيت من الشعر والفصل من النثر فتورده بعينه وعلى خاصيته وصنعتة بعبارة أخرى حتى يسكون المفهوم من هذه هو المفهوم من تلك لا يخالفه في صفة ولا وجه . ولا يغرنك قول الناس : قد أتى بالمعنى بعينه وأخذ معنى كلامه فأداه على وجهه فإنه تسامح منهم ، والمراد أنه أدى الغرض ، فأما أن يؤدي المعنى بعينه على الوجه الذي يكون عليه الكلام الأول حتى لا تعقل هنا إلا ما عقلته هناك وحتى يكون حالها في نفسك حال الشنفين والسواريين — المتماثلين — ففي غاية الأحالة ، وظن يفرض بصاحبه إلى الجهالة » . وللعلامة ابن تيمية ^(١) حيث يقول « وقد ذكر الله قصة موسى في مواضع من القرآن يبين في كل موضع منها مكان العبرة والاستدلال ، كما يسمى الله ورسوله وكتابه بأسماء متعددة كل اسم يدل على معنى لم يدل عليه الآخر ، كلها أسماء تختلف في المدلول وتتحد في الذات ، وإن كانت القصة المذكورة واحدة في ذاتها فصفاها متعددة ، ففي كل جملة من الجمل معنى ليس في الجملة الأخرى ، وليس في القرآن تكرار أصلا » .

ظهر إذن أن هذا التشابه المكرر لمعنى أصلي واحد مع اختلاف التراكيب ، لك أن تقول إن المعنى فيه واحد ، ولك أن تقول إن المعنى فيه مختلف ، فالوحدة باعتبار أصل المعنى المراد أدائه المقصود إعطاؤه ، والاختلاف بحسب ما يعرض لهذا الأصل من زوائد يختلف بها المكرر في موضع عنه في آخر لاختلاف المقام في موضع عنه في آخر . كما أن لك بالتالي أن تعتبر ذلك تكرارا وأن لا تعتبره — كما قال ابن تيمية — تكرارا . . . ؟

(١) معارج الوصول الرسالة الثانية من مجموعة الرسائل ص ١٨٩ المطبعة العاصرية الشرفية طبعة ثانية .

الروح والجسد

بتلم الدكتور ا. ا. سلفرستون
تعريب الاستاذ محمد كمال الدين الشاهد

من أنا؟ أروح أم جسد؟ أم أن مزيجاً من الاثنين قد كوّنناه هذا
الـ أنا ؟

يقص علينا التلمود أنه أمام عرش « الأعلى » في « يوم القيامة » سيحاول كل من الجسد والروح أن يتجنب العقاب على الآثام التي ارتكبت . يقول الجسد « إن الروح هو الذى أذنب ، لا أنا ، فبدونه لا حياة ولا قوة لى ، ولكن الروح سيجادل قائلاً « لا ، إنه الجسد الذى أذنب وأثم ، لقد جرتى معه ، إني نقي ، غير مدنس » .

ولكن العدالة ستأخذ مجراها ، كما يروى التلمود ، تبعاً للقصة الآتية :

« كان لأحد الملوك حديقة غنّاء ، بها مالد وطاب من أشهى الفاكهة ، فأتى برجلين يحرسانها ، أحدهما أعمى ، والآخر أعرج .

« وقال الأعرج يوماً يحدث صاحبه « إني أرى فاكهة طيبة ، ولكن أنى لى أن أصل إليها ؟ ،

« فرد الأعمى « ارتق كتنفى ، وقدنى إلى المكان ، فنحصل على الفاكهة سوياً . »
« وحين وجد الملك أن الفاكهة قد اختفت ، أتى بالرجلين أمامه .

« فقال الأعرج « كيف أكون أنا السارق ، وأنا لا أقدر على السير ! » .

« وقال الأعمى « لا يمكن أن أكون قد سرقت الفاكهة ، فلست أرى » .

« ولكن الملك الذكي الحكيم ، وضع الأعرج فوق كتفي الأعمى ، وحاكمهما كشخص واحد ! » .

وهكذا ينتهى التلبود إلى أن العذل الإلهى سيوقع العقاب على الروح والجسد معا .

الروح والجسد متميزان ؛ فالروح هو الذى يدفع الجسد ، والجسد يؤدي ما يملكه عليه الروح .

ولكن ما هو الروح تماما ؟ إن أسهل طريق للإجابة على هذا السؤال هو أن نقول : كما أنه يوجد وسط نسميه الأثير ، تحيا فيه القوى المغناطيسية ، فكذلك يوجد وسط تحيا فيه القوى الفيزيكية .

وهذا الوسط هو جوهر غير مادى ، نسميه الروح . فالروح إذن هو المجال الذى تتمثل فيه العمليات الفيزيكية .

ولما كان الروح هو الوسط الذى يتمثل فيه العمل الفيزيقي ، فقد يبدو أنه يأتي إلى الجسد لحظة الميلاد ، لا قبل ذلك ، لأنه لا توجد قبل الميلاد ظاهرة فيزيكية .

SOUL and BODY

By Dr. A. E. Silverstone, Ph. D.

(مجلة الأزهر) إن ما ذكره الدكتور سيلفسترون تعليقا على ما قاله التلبود هو رأيه الخاص ، وهو أمر يختلف فيه العقول . وقد روى البخارى بسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « إن أحدمكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك . ثم يرسل اليه الملك فينفخ فيه الروح ... » الحديث .

وهذا الكلام موافق للمحسوس ، فإن الجنين يتحرك فى بطن أمه بعد أربعة أشهر من وجوده فى بطن أمه ، وهى مقدار المائة والعشرين يوما التى ذكرها الحديث الشريف .

على ذكرى المولد النبوى الكريم :

بعث أمة وميلاد دولة

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد السلام أبو النجا سرحان
المدرس بكلية اللغة العربية

العالم غارق في بحار لجية من الجهالة ، والناس ساجدون في أمواج متراكمة من الضلالة ، والفقر آخذ بالنواصي والأقدام ، والانحلال ضارب خيامه في كل مكان ، والشقاء مخيم على كل بيت ، والمادية تستهوى أفئدة الناس ، والشهوات مرخى لها العنان ، والظلم يوجه جيوشه حيثما أراد ، ويرسل بطشه أنى شاء ، ونظام الإقطاع صنو حكم الطغيان ، وقانون الطبقات منفذ ياحكام ، والحريات سلسلة في الأغلال ، والأنفاس معدودة على النساء والرجال ، والعقول مجبوسة في ظلمات البغي ، والعلوم معقولة بضلالات النغي ، والفرس والروم في صراع مخيف وحرب سجال ، والعرب بين لاتهم وعزاهم لاهون ، وفي ضلالتهم وجهلهم سادرون .

في هذا الجو المكفهر ، وفي تلك الأزمان العصيبة ، وعلى فترة من الهداة ويأس من المصلحين ، ومع بزوغ الفجر وإشراقه - سطع على الدنيا نور نجم جديد .

نعم في هذا الجانب الساكن من العالم المضطرب ، وفي بيئة مكة القاحلة الجرداء ، وبين مهاد الفقر ودثور الشقاء ، استهل محمد بن عبد الله بطلعته في يوم الاثنين التاسع من ربيع الأول (٢٠ من أبريل سنة ٥٧١ م) فتفجرت ينابيع الحكمة من مواطن الضلال ، وانساب أضواء الهدى في كل مجال ، وتلألأت أنوار العلم والمعرفة والحياة .

ولقد ارتجت الدنيا جميعها لهذا الميلاد ، وصحت من غفوتها بعد طول الرقاد ،

وافتر ثغر العالم عن بسمه الأمل ، وأحس الناس فجرا مشرق الجنبات ، وكتابا مضى الصفحات ، ورأوا نورا ساطعا بهر البصائر والأبصار ، واستمال العقول والأفكار ، وعرفوا نظاما فريدا أخرج الناس من الظلمات الى النور ، وقاد الأفراد والجماعات الى مواطن العزة والسعادة والسلام .

كان هذا هو الصدى الأول ، لميلاد الإنسان الأول ، فاهتزت السموات وتتابعت البشريات ، وتعلقت الآمال بهذا المولود السعيد .

وكانما ألهم الله الكائنات سر القدر ، وعلمها أنه الذي المنتظر ، فاتجهت كلها نحوه ، واستشرفت أعناقها إليه ، وأخذت ترعاه وتلاحظه أينما حل وحيثما سار . ولقد نشأ صلوات الله وسلامه عليه أكمل ما يكون خلقا وخلقاً ، وأسمى ما يعرف عقلا وفضلا ، إذ صنعه الله على عينه ، وصاغه بيديه ، وهياؤه لرسالته ، وأدبه فأحسن تأديبه ؛ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ، فكان حريا أن يخاطبه الله تبارك وتعالى بقوله « وإنك لعلی خلق عظیم » .

لهذا كان ميلاده صلى الله عليه وسلم إيذانا بذلك الانقلاب الخطير في حياة العالم ، وإرهاضا بذلك الإصلاح الشامل الذي بعث به ، وبشرى بتلك الرسالة الخالدة التي خلقت أعظم نظام عرفه البشر في السياسة والتشريع والاجتماع .

ولقد عاش صلوات الله وسلامه عليه قبل الرسالة مثالا يحتذى في كمال خلقه وحسن معاملته ، وصدق قوله وموفور أماته ، حتى عرف بين أهل مكة بالصادق الأمين ؛ كذلك اشتهر عنه لين الجانب ، وقوة العزم ، والجرأة في الحق ، والعطف على الناس ، ومواساة الضعفاء والبر بالمنكوبين ، فكانت أخلاقه أكبر داعية له ، ومعاملته أعظم دليل عليه ...

وما إن ألقى عليه عبء الرسالة ، وحمل ذلك الثقل القادح ، وأوحى إليه أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، حتى حمل اللواء ، ونظم الأداة ، ودعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وبث في قلوب مناصريه إشعاعا من وحي رسالته ، ونفث في نفوس مؤازريه سحرا من فيض قوته ، فكانوا منارا مشرقا لدعوته ، وجنودا مخلصين لقيادته .

ولقد حاولت قریش أن تكشف هذه الشمس المشرقة ، وتطفئ ذلك النور القدسى المتوهج الذى أعده الله لهداية العالمين به ، ولكن خاب فألها وضاع أملها ، وردت سهامها فى نحورها ، فأصاب من الكفر وأهليه مقتلا ، ولم يمض زمن قليل حتى رأى الناس ضيوء الرسالة الجديدة ، وتناثرت أشعتها بين قبائل العرب المختلفة ، ثم استقرت بعد ثلاثة عشر عاما فى طيبة الطيبة ، أو المدينة ، كما أسماها صلوات الله عليه .

وهناك أرسى الدولة الفتية قواعدها ، وأقامت دعائمها ، وأخذت تضع الخطة لإصلاح العالم وهداية الناس من جديد .

حمل الدعاة بآيائهم دستور هذا الدين الجديد ، وقدموا أمام دعوتهم كتاب الله رأس القوانين ، فقرأوا فيه الحرية التى ينشدونها ، « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي » ، والعدالة التى يتفقدها : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » ، والمساواة التى حرموها : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، والإخاء الذى يبحثون عنه : « إنما المؤمنون إخوة » ، « ولا يغتب بعضكم بعضا ، أوجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا » : ثم رأوا المثل العليا فى الخلق والآداب والاجتماع يفيض بها تشريعها ، وأعجبوا بطريقته فى العلاج حين يشخص الداء ويصف الدواء ، كما لمسوا فى سيرة الرسول وصحبه أقوى خطة وأقوم منهاج ، وسمعوا الرسول الكريم يجلى أصول سنته ويوضح أساس رسالته فيقول « المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل ديني ، وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيق ، والعلم سلاحى ، والصبر ردائى ، والرضا غنيمتى ، والعجز نفري ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والجهاد خلقى ، وقرة عيني فى الصلاة » . ويقول « الناس سواسية كأسنان المشط » « لا فضل لعربى على عجمي إلا بالتقوى » إلى غير ذلك من المبادئ التى جاء بها الاسلام وقررها الكتاب والسنة .

ولقد عرف العرب قبل سائر الناس هذه المبادئ الخالدة ، ولمسوا تلك المثل

الرفيعة ، فطربوا لنغمها ، ولذّ لهم رنينها ، فأنصتوا لها ، واستجابوا لدعوتها ، وشغفوا بالرسول حبا ، وزادوا برسالته كلفا ، فانضوت قبائلهم تحت لوائها ، وانخرطوا سراعا فى سلك أتباعها ، والتفوا حول حامل مشعلها ، ودخلوا أفواجا فى حوزتها ، واجتمع شتاتهم حول رايتها ، وأسسوا على التقوى دولة فتيّة لم تلبث إلا قليلا حتى طوت أعظم الدول تحت جناحها ، وثلت عروش الأكاسرة والقيصرة ، وامتد رواقها من المحيط الأطلسى غربا إلى سور الصين شرقا ، ومن جبال القوقاز شمالا إلى المحيط الهندى جنوبا ، وبهذا تغيّر وجه التاريخ فى أقصر حقبة عرفها التاريخ .

ولقد أدام الله عز المسلمين الأولين ومنحهم نصره وتوفيقه ، ورفع أعلامهم على سوارى الزمن ومنازل الأمم ، وبوأهم فى العالمين مكانا عليا ، وجعلهم أساطين العلم والسياسة ، وقادة الشعوب والأمم ردحا طويلا من الزمن ، حتى خلف من بعدهم خاف تكالبوا على الشهوات ، وانغمسوا فى الرذائل ، وقتلوا بما فتح الله عليهم من خزائن الأرض وجناتها ، فأدال الله دولتهم ، وسلمهم عزهم وحرّيتهم ، ومكن منهم أعداء دينهم ، فاستعمروا بلادهم ، وضربوا عليهم الذلة والمسكنة ، وساموهم الخسف والهوان .

وإن فيما يلاقيه المسلمون فى فلسطين وسواهم لأعظم العبر التى تدعو إلى التفكير الطويل ، وتوجب على المسلمين أن يفيثوا إلى ربهم ، ويرجعوا إلى دينهم ، حتى يستحقوا نصره ، ويستأهلوا غونه ، « ولينصرن الله من ينصره ، و « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

ولعل فى ذكرى مولد الرسول الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه — ما يحفز المسلمين عامة وشباب الهيئات الاسلامية خاصة ، إلى العمل بجد وإخلاص ، فى سبيل سيادة الاسلام وتنفيذ شرائعه ، والعمل بمبادئه .

وفقنا الله جميعا لما فيه نصر دينه وإعزاز كلمته ، إنه نعم المولى ونعم النصير ؟

أبو نواس

بين الطبع والصنعة

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الحميد المسلول

المدرس بكلية اللغة العربية

أصدق الشعراء فطرة، وأصفاهم ملكة، وأصحهم طبيعة، وأقومهم سليقة، وأجودهم تصويراً للمعاني وافتراءاً للأفكار، وانزاعاً للأخيلة: هو الذى يشتد التجاوب بين شعره ونفسه، وتغوى الأواصر وتشد الروابط بين ما يهدر به حسه من المعاني، ويشرق فى قريضه من جمال الفكر وإبداع الخيال. وكلما كان شعر الشاعر استجابة لشعور يختلج فى أطواء قلبه، وتصويراً لإحساس يضطرم فى نفسه، كان أمسّ اتصالاً بالطبع، وأسرع نفاذاً إلى القلب، وأشد إثارة للأحاسيس والعواطف.

والشاعر الفحل دائماً تتور فى نفسه المعاني، وتستجيش الخواطر وتستجر الأفكار وتدافع الأخيلة، فلا يملك حبسها، ولا يستطيع كبتها، بل ينطلق بها كالسيل الجارف لا تقف أمامه الحواجز والسدود، وكالقدر المتاح ما يستطيع دفعه ولا تعويقه.

ذلك شعر الفطرة والطبيعة، يدخل على القلب من غير أذن، ويلامس النفس دون عناء أو جهد، ويبقى خالداً لا تنكره الأذواق ولا تجفوه الأسماع، لأنه عمل الطبيعة التى لم تجتذب له بهرجة، ولم تحتفل له بزينة، ولم تقنصر له الأصباغ مما يصح وبما لا يصح. نعم قد تداخله الأصباغ وتسرى فى ثناياه الألوان الزاهية الجميلة، ولكنها كذلك ألوان طبيعية لم تحشد لها صنعة، ولم يحتل فى رسمها فكر، ولم يدخل فى تصويرها تكلف أو اعتساف، وبذلك تظل دائماً وعلى تتابع الأيام قوية الضوء ساطعة البهتان، لا تبلى، ولا تتخاق ولا تنصل ولا تحول.

فإذا نصب معين الشاعر وفتر إحساسه ، وركدت خواجه وأفكاره ، وإذا نقص جَيْشَانُ قلبه والتهاب عواطفه ، راح يعتسف الأخيلة ، ويقنسر الأفكار ، ويستجمع الشوارد من هنا وهناك ، يؤلف منها أشتاتاً متنافرة وأمشاجاً متناكرة ، وصوراً قد لا ترضى الذوق ولا تروج عند نقاد الأدب ؛ وذلك شعر الصنعة ونتاج التكلف . وقد يخطئ الشاعر القوى فيحاول أن يوشى شعره بألوان الحلى وأنواع الزينة ، فيكون إقباله على هذا وتكلفه له ورصده كل ما يملك لاقتناصه ، سبياً في فتور إحساسه وتراخي شعوره ونقص الفطرة لديه . قد تجود الصنعة وتحاول أن تطاول الطبع مطاولة ، ولكنها لا بد أن تجور على المعنى الذى يريده الشاعر ويحتفل له الأديب ، وإذا حسنت الصنعة مرة فهي فى عشرات أخرى باردة غثة غير مقبولة .

وإذا حاول الشاعر أن يقنسر الأخيلة اقتساراً ، وأن يقتصص ألوان البديع ليوشى بها شعره ويحلى أدبه ، وإذا جهد فى التماس النكت واصطياد الزينات والحلى ، فلا بد أن يشتد التراخي بينه وبين نفسه ، ويخيم الشعور على عاطفته وحسه ؛ ومن هنا كانت جناية الصنعة على الأدب وطغيانها على الطبع وتشويهاها للمعاني ، وإن خلعت على الألفاظ بريفاً والتماعاً .

والمهم فيما أرى هو أن يترك المرء نفسه على سجيته ، ويمكن لها فى طبيعتها ، ويترك لها تخيير الطريق الذى تحبه وترتاح له وتأنس اليه ، فإذا اتجهت إلى المبالغة فى تصوير معنى ، كان لها من الطبع السليم والفطرة الصحيحة ما يحفظ التلام والتساوق بين حقيقته ومجازة .

ونحن نحب أن نعرض هنا صورتين لشعر الطبع القوى الموهوب ، إحداهما لشاعر قديم هو امرؤ القيس ، والأخرى للشاعر الذى تحدث عنه وهو أبو نواس ، لنرى كيف تأتلف الفطرة القوية الجياشة مع الصنعة الجميلة البراقة ، أو كيف يتحكم الطبع فى المحسنات البديعية فيجعلها جزءاً منه .

قال امرؤ القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليتلى

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكـكل :
 ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل
 فانظر كيف أراد الشاعر أن يعبر عن طول ليله وكثرة الآلام والهموم التي
 تحتشد فيه فأتى بهذه الصورة التي تبعث الرهبة وتثير الوحشة وتدعو إلى الإشفاق
 بأن جهل الليل كموج البحر يغمر الناس ويغطي على الأحياء ، ويكنهم بسدوله
 وأستاره فلا يدع لهم منفذا ولا يترك لديهم متنفسا ، وجعل له صلبا وصدرأ وأعجازا
 ودعاه وخاطبه ، وهذا كله مبالغة في التعبير واتجاه إلى حسن التصوير ، وقد ساعد
 على هذا فطرة لا تضعف ، وقوة لا تتخاذل ، وبسجية وثابة لا تعرف التراخي
 ولا النكوص .

ويقول أبو نواس :

وخيمة ناطور برأس منيفة تهم يدا من رماها بزيل (١)
 إذا عارضتها الشمس قامت ظلها وإن واجهتها آذنت بدخول
 حلبت لأصحابي بها درة الصبا بصهباء من ماء الكروم شمول
 إذا ما أتت دون اللهاة من الفتى دعا همه من صدره برحيل
 فلما توفى الشمس جنح من الدجى تصايبت واستجملت غير جميل

أراد أبو نواس فيما أراده من هذه الصورة الفنية الرائعة ، أن يقول : إن الخمر
 تنفي همومه وتزيل آلامه ، وإنه يلعب ويلهو ويهجن حين يحن الليل وينشر الدجى
 أطنابه على الخليقة ، فبالغ في تصوير المعنى مبالغة تدعو إلى الإعجاب حقاً وتمسلاً
 النفس طرباً وروعة ، وأخبر أن الهم يدعو للرحيل من صدره حين توشك الخمر
 من لهاته . وانظر الى هذا المعنى الرائع البديع الذي يصوره تصويراً قوياً بقوله :
 فلما توفى الشمس جنح من الدجى .

ومع ذلك نرى الطبع وثاباً مشرقاً لم تضعفه صنعة ، ولم يساور فضطرته بهرج
 متكاف أو زينة مقتسرة ؛ ذلك لأن طبيعته وجيشان نفسه وامتلاءها بالإحساس
 والشعور ، يدفعه لأن يقيس الصورة بالصورة ، ويقارن الأنداد بالأنداد ، ويجمع
 النظير إلى النظير ليتيماً له معناه في أكمل أشكاله وأوفى ضروبه ، ثم تعرض له

(١) الناطور : حافظ السكرم أو الزرع . زليل : زلل .

ألوان الزينة رفيعة وادعة تنائب اليه هيئة طائفة من غير أن يرتصد لها في كل ناحية ، وتلم به مهلة مستجيبة دون أن يجهد نفسه في تصيدها من كل مكان . وهكذا كان أبو نواس في أكثر شعره شاعرا واتاه الطبع ، واجتمع له غزارة الإحساس ، وفيض الشعور ، وبراعة الخيال ، وإشراق المعاني وسموها ، وأسلس له زمام اللغة ينفق من كنوزها ويلعب بألفاظها ، ويتنقل بين رياضها وأزهارها ، لا يتكلف قولاً ، ولا يمتسف معنى ، ولا يَحْتال لفكرة ، ولو أنه صرف نفسه عن الشعر صرفاً وراض حياته على غيره لاستعصى عليه الطبع وأبت ذلك شياطين الشعر ، فهو شاعر بروحه ، وشاعر بأعصابه ، وشاعر بكل ما فيه من فسكر وإحساس وعاطفة .

وهاك صورة أخرى من صورهِ البديعة تجلّت فيها قوة الطبع ولطف الزينة ، قال :

وحمرام كالياقوت بت أشجها وكادت بكفى في الزجاجة أن تدمى
فأحسن بها شيخوخة في إنائها وألطف بها بين المفاصل والعظم
تغازل عقل المرء قبل انقسامه وتخدعه عن لبه وعن الحلم
وهل هناك أجمل رسماً وأبلغ تعبيراً وألطف دخولاً على النفس وإثارة للحس
وتهييجاً للعاطفة من قوله : « تغازل عقل المرء » .

ومن شعره الموشح بألوان البديع قوله :

إن هذا يرى ولا رأى للأحر حق أنى أعده إنسانا
ذاك في الظن وهو عندي كالذي لم يكن وإن كان كانا
وفي هذا ما يسميه علماء البلاغة المذهب الكلامي ، وهو إيراد حجة للبطلوب . فهو يقول : إن هذا يرى أنى أعده إنسانا وهو أحق فلا رأى له فهو ليس بإنسان ،

ثم يؤكد ذلك بقوله : إنه عند نفسه إنسان وهو عندى لا قيمة له ولا وجود
كأن لم يكن .

ومن الهزل الذى يراد به الجذ قوله :

وإذا ما تيمى أتماك مفاخرا فقل عدّ عن ذا كيف أكلك للضب
وهو من أبلغ ما يقال فى السخرية البالغة والتهكم الشنيع . ومن التصدير أورد
العجز على الصدر قوله :

وحياة رأسك لا أعو د لملها وحياة راسك
وقوله :

ظن بى من قد كلفت به فهو يحفونى على الظن
ومن لزوم ما لا يلزم قوله :
أما وزند أبى على إنه زند إذا استوريت سهّل قد حكا
إنى لىأبى الصنع على همتى من غيركم ويعاف إلا مدحكا
ومن الاقتباس قوله :

خط فى الأرداف سطر من عروض الشعر موزون
لن تالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون
وقوله :

قل للبليغ أما تروى الحديث بما خالفت فيه وقد جامت به الصحف
إن القلوب لأجناد مجندة لله فى الأرض بالآهواء تختلف
فا تعارف منها فهو مؤتلف وما تماكر منها فهو مختلف

ومن الغلو وهو ادعاء ما لا يمكن قوله :

لا ينزل الليل حيث حلت فليل مُشرَّابها نهار

وقوله :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق

وقد كرر هذا المعنى بقوله :

حتى الذي في الرحم لم يك صورة لفؤاده من خوفه خفقان

وقد اختلف العلماء حول هذا المعنى كثيرا فقال صاحب « معاهد التنصيص » المتساهلون في هذا النوع كثيرون كأبي نواس وابن هانيء الأندلسي والمتنبى والمعري ، والاضراب عن ذلك أنسب ، وقال أيضا « ومن لطيف ما يحكى هنا أن العتابي الشاعر لقي أبا نواس فقال له : أما استحييت من الله بقولك « وأخفت أهل الشرك ... ؟ » فقال له أبو نواس : وأنت أما استحييت من الله بقولك :

ما زلت في غمرات الموت مطرحا يضيق عني وسيع الرأي من حيل
فلم تزل دائبا تسعى بلطفك لي حتى اختلست حياتي من يدي أجلى

فقال له العتابي : قد علم الله وعلمت أن هذا ليس مثل ذاك ، ولكنك أعددت لكل ناصح جوابا .

وقال الجرجاني في كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه : « وأما ما جرى مجرى أبي نواس « وأخفت أهل الشرك » فهو من المحال الفاسد ، وكل هذا عند أهل العلم معيب مردود ومنفي مردول ، وإن كان أهل الإغراب وأصحاب البديع من المحدثين قد لهجوا به واستحسنوه وتنافسوا فيه وبارى بعضهم بعضا به . »

وقال المرزباني في الموشح : هذا البيت « وأخفت أهل الشرك » بادى العوار جدا ... فقد أحوال وأسرف وتجاوز .

ولكن قدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر يستحسنه ويحتج له ويقول : إنه إنما أراد به المبالغة والغلو بما يخرج عن المرجود ويدخل في باب المعدوم ليلبغ النهاية في النعت . .

ونحن نميل إلى رأيه ونرى أنه أراد أن يبالغ في قوة الخليفة وشمول هيئته وإحاطة سطوته حتى ليس هناك صورة من الرهبة والخوف والفرع يمكن أن تخطر بالفكر أو تطوف بالبال إلا دخلت في هذا المعنى الذي رسمه وافتزعه خياله وغاص عليه فكره وأحسن تحديده بيانه ، لأنه رجل تأثرت مشاعره وامتزج إحساسه بالخوف من الرشيد ، فهو يحذره بتمظان ونأثما ، ويرهب دائما سطوته وشدة أخذه ، وإن صرامة الرشيد كانت تملك على الشهراء وخاصة مثل أبي نواس نفوسهم ، فإذا أرادوا مدحه تمثل أمامهم ما يحذرونه فيه ويخشونه منه ، ولم يكن أبو نواس وحده هو الذى يبالغ في الحديث عن سطوته وقوته ، بل هذا أشجع السلى يمدحه فيقول :

وعلى عدوك يابن عم محمد رصدان : ضوء الصبح والإظلام
فإذا تنبه رعته وإذا غفا سلت عايه سيوفك الأحلام

على أننا نستطيع أن نقول : إن أبا نواس لم يكن ملمسكا لصنعتة فنحكم فيه ، وتستبد بمعانيه ؛ وإن وقع في شعره شيء من الصناعة الشعرية أو الأصباغ البديعية فهو أجل الألوان التي تأتي عفوا وتجيء طيبة لم يبدل لها جهدا ولم يتكاف فيها فكرا ، ولم يرتصد قوة لاقتناص أشباحها وتأليف أمشاجها من هنا وهناك .

ومن هنا كان أبو نواس شاعر الطمع السمع ، والفطرة القوية الموهوبة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الترك والاسلام

عقب الحرب العالمية الأولى التي انتهت في سنة (١٩١٨) م بهزيمة المانيا وأنصارها ومن شايعها، أصاب الأتراك يوم من أيام الأمم ، وكانوا من الدول التي دارت عليها الدائرة، وللأمم أيام تمر عليها لتجدد وجودها إن كان بها كدما^(١)، أو لتقضى عليها إن كانت قد استنفدت جميع مذكورها من الحياة .

هذه الأيام تلم بالأمم وهي بين برائن أعدائها، فتشعرها بالخطر على وجودها، وتعتصر منها شعورا قويا بضرورة حفظ ذاتها . وكيف يكون ذلك والأسنة مشرعة إلى صدورها من كل جانب؟ فتستमित، وتوحى إليها هذه الاستماتة أن تتجرد من كل غريزة غير غريزة تنازع البقاء . فإذا انتهت مناضلتها هذه عن الفوز بإبعاد الخطر عنها ، عادت الى متابعة وجودها الاجتماعي ، ولكن على أصول غير التي كانت عليها ، فتتخلى عن أخلاق كانت متأصلة فيها ، وتقاليدها كانت عزيزة عليها ، وعادات كانت جزأ من نفسياتها ، خشية أن يكون في ثنايا هذه الأخلاق والتقاليد والعادات ما يعرض وجودها للخطر كما حدث لها من قبل .

من الثورات التي تتخذ مثالا قويا لما نحن بسبيله ، الثورة الفرنسية ، فإنها لما خمدت جذوتها، أسفرت عن ضروب من التطرف تعتبر من لوازم هذه الحالة، منها تجرد ذويها من الدين وتخليهم عن كل عقيدة ، وغلوهم في مبدأ المساواة الى حد أنهم حذفوا من لهجتهم لفظة مسيو (سيدى) وأبدلوا بها لفظة السيد ، كراهية أن تكون في لهجتهم كلمة عليها عبقة من امتيازات الطبقات ، وليس بين الفرنسيين سيد ومسود . ولكن لم تمض إلا سنين قليلة حتى عاد كل ذلك الى نصابه من الاعتدال .

ثار الأتراك ثورتهم في سنة (١٩١٨) فكانت أعجب ثورة في تاريخ الانقلابات الاجتماعية ، إذ توصلوا ، وقد خسروا الحرب ، إلى استرداد جميع حقوقهم

من قاهريهم ، ونازعوهم إياها مازعة الانداد في مؤتمر لوزان ، واستعادوا كل ما كان لهم من السيادة على بلادهم ، بيد أن كانت قد قسمت سواحلها على الغامعين فيها ، حتى شهد لهم خصودهم بالرجولة البالغة أقصى حدودها ، والبطولة التي ليس وراها مرمى لمستزيد . فكان هذا الحادث أغرب ما دونه المؤرخون في تاريخ الانقلابات ، وأمثلة ما يستشهد به الاجتماعيون على مدى ما تستطيع أحداثه روح الاجتماع في الشعوب .

والذي يجب أن لا يغفل عنه الباحث الاجتماعي في الثورة التركية أنها لم تكن على غرار كل ثورة ، وفي حدودها المعروفة ، فإنها لم تكن لأسباب داخلية كسواها ، حين ثور الأمة فيها على حكومتها أو على بعض طوائفها المتعاطية عليها ، ولكنها كانت ثورة ذات أغراض خارجية ضد أمم كانت تود الحد من سلطانها على حقوقها الطبيعية . فكان هذا الحادث أغرب ما دونه المؤرخون في تاريخ الثورات ، وأمثلة ما يستشهد به الاجتماعيون على مدى ما تستطيع أحداثه روح الشعور بالكرامة في شعب من الشعوب .

والأترك في هذه الناحية كغيرهم ، خرجوا من هذه الثورة متأثرين بروح تواقه لكل جديد ، سيئة الظن بكل قديم ، وقد كان الدين بما حمله مما ليس فيه ، وما استغل له اسمه من التفضيل والتأييد ، في مقدمة ما اتجهت أنظارهم إليه ، إلا أنهم حفظوا له كرامته فلم يمسوه بسوء ، مكثفين بحذف الطبقة المهيمنة عليه ، ذهاباً منهم إلى أن حذف تلك الطبقة ، ينجي الآخذين به من تضليلاتهم ، ويحميهم من التسلط على عقولهم ، فلا يستطيعون استغلال جهالتهم ، ولا تستخيرهم لأرادتهم . وفاتهم أن الاستمرار على هذا الوضع يفضي إلى إفقار بلاد الترك من علماء الدين ، ويتسع المجال أمام الناس فيها إلى الوضع والابتداع ، فتؤول بهم الحال إلى شرمال ، وهذا ما لا تصبر عليه أمة عرفت بالغيرة الدينية كالأمة التركية . فلما هدأ روع الجماعة ، وأمنت الدولة فيه على وجودها ، ارتفعت أصوات الشعب بالمطالبة بتأسيس كلية لدراسة أصول الدين ، وتعميم تدريس مبادئه وأصوله بالمدارس الابتدائية والثانوية ، لتشعب النابتة عارفة بأمور دينها ، ملية بمبادئ شريعتها .

فما كاد الشعب يؤانس قبولا من مفكره لندارك ما عسى أن يوجد من النقص في بنائه ، ليلبغ المثل الأعلى من الحياة الانسانية الفاضلة تحقيقاً لما قدره له مبدعه العظيم ، حتى نهض يطالب حكومته بوجوب تدريس الدين لطلاب المدارس الابتدائية والثانوية ، وقد وجد منها إذنا صاغية لأنها حكومة شعبية لا عمل إلا تحقيق رغبات الجماعة ، ولكنها قررت لذلك نظاما حكيماً يحمي الحقائق الدينية أن يندس اليها ما ليس منها من أوهام العامة ، فشرطت أن لا يتجارى على تدريس الدين غير المدرسين الحائزين لجميع الشروط المطلوبة من مدرسى مدارسها .

وقد تلقت الأهرام من مراسلها باسطنبول تلغرافاً نشرته من نحو عشرة أشهر جاء فيه قوله :

« أذاعت وزارة التربية الوطنية منشورا أباحت فيه انشاء مدارس للتعليم الديني بعد الحصول على ترخيص من هذه الوزارة .

« ولكنها اشترطت اقرار وزارة التربية للبرامج التي تضعها تلك المدارس ، و(الكتب) التي تستعملها ، وقد فرضت أن يكون مدرسو هذه المدارس حائزين لجميع الشروط المطلوبة من مدرسيها . . الخ . »

وقد سارعت الأمة تحت قيادة كبار زعمائها للاستفادة من هذا الترخيص الى أبعد حد ، حتى أنها قررت إنشاء كلية لاصول الدين لتخريج العلماء الذين يدرسون الدين في المدارس الحكومية ، وقد وصل إلى القاهرة أخيراً واحد من رجالات هذه النهضة المباركة ، وهو سعادة السيد تحسين جندوفلو وزير المعارف السابق في تركيا ، ومهمته الآن الاطلاع على برنامج التعليم في كلية اصول الدين المصرية لاقتباس ما يحسن اقتباسه من علومها ، وقد رأى أن يزور حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى ويحادثه في هذه الشؤون الدينية ويستهديه برأيهما . فأكرم فضيلته وفادته ، وذكر له طرفاً من ماضى الأتراك الحافل بجلال الأعمال في خدمة المسلمين والاسلام ، ورجا الله أن تستمر هذه الدولة حريصة على دينها ، عاملة على أعلا كلمته بين العالم .

فأجابه سعادة السيد تحسين جندوفلو بأن الأتراك لا يزالون على ما كانوا

عليه مستمسكين بدينهم ، غيورين عليه ، واستشهد على صحة قوله بحركتهم الاخيرة في ضرورة فتح مدارس لتدريس الدين ، وإنشاء كلية له لتخريج العلماء .

فأظهر فضيلة الاستاذ الأكبر اغتباطه بهذه الأنباء ، وتبنى للقائمين بهذه الحركة المباركة في تركيا أن يكال الله جهودهم النجاح .

ولما وصل الحديث الى ذكر مدى انتشار التعليم الديني في تركيا ، أجاب رئيس لجنة المعارف بأن الدين يدرس الآن في المدارس الابتدائية والثانوية كمادة أساسية ، وأضاف الى ذلك أن في النية تخصيص مدارس ثانوية لإعداد طلبتها للانخراط في سلك طلبة كلية أصول الدين المزمع إنشاؤها ولحاقها (بالجامعة العلمية) .

فأفاض فضيلة الاستاذ الأكبر في جلاله هذا العمل وفأدته في تكوين نابذة فاضلة ترفع مجد الأمة إلى أعلى المكنات ، وتصورن الاخلاق أن تتدهور إلى مكان سحيق من الانحلال ؛ وأبدى فضيلته استعداد الأزهر للمعاونة على إنشاء هذه الكلية .

ثم توج فضيلته حديثه برجاء أن يهتم ولاية الأمور الترك بتدريس اللغة العربية في المدارس التركية .

فقال سعادة رئيس لجنة المعارف في المجلس الوطني بأن هناك مشروعاً يرمى الى تدريسها إجبارياً في تلك المدارس .

هذا ملخص الحديث الذي دار بين حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الأكبر وزائره الكبير سعادة تحسين جندوفلو الذي ندب لتنفيذ رغبة المجلس الوطني التركي في إعادة التربية الإسلامية إلى سابق عهدها في تركيا .

* * *

مما يجب أن نلفت النظر اليه في هذا الشأن أن الأمة التركية الممثلة في مجلسها النيابي لم تجعل لرجال الدين القوامه المطلقة على ضمائر الناس ، ولا الاستبداد بحق التوجيه الروحي لهم ، كما هي الحالة لدى الأمم الشرقية ، فجعلت لنفسها القوامه عليهم ، فاشتترط النظر في البرنامج الذي يضعه رجال الدين للتعليم الديني ، وفي الكتب التي يؤلفونها لنشر الدين وتعميمه .

واشترطت ما هو أخص من ذلك في الحسد من حرية رجال الدين مبالغة في المحافظة على حرية الضمائر ، وذلك بأن حظرت أن تفتح مدرسة للتعليم الديني حيث لا توجد مدرسة للتعليم العلماني ، أى التعليم الخالي من التأثير الديني ، وهي ترمى بذلك إلى درء خطر العدوان على حرية الضمائر .

والذي يلوح لنا أن الأتراك لا يخشون من سيادة الروح الإسلامية على جماعتهم ، لأنهم يعرفون ما للاسلام من فضل في تنوير العقول ، وتقرير الحقوق الطبيعية للإنسان ، وفي عنايته بنشر العلوم والفنون ، وفي حكمته في قيادة الجماعات في معترك المزاومات العالمية ؛ كل هذا يعرفه الأتراك ويقدرونه قدره ، وقد وضعوا فيه كتباً ، ولكنهم بتقريرهم هذه التحفظات يسيئون الظن بالذين يتولون أمره ، فلا يعرفون مدى إدراكهم لروح الاسلام السامية ، ومبلغ فهمهم لحكمته العالية ، بل يعلمون أن ممن التحفوا شعار رجال الدين أفراداً لا يقدرون تبعه قيادة النفوس قدرها ، فيضطرب سيرهم في توجيهها ، فيجيدون بها عن الصراط السوي إلى سبل يتأدون منها إلى غايات بعيدة من الجود العقلي ، أو الانحلال الخلقى . وليس هذا بما رى اليه الأتراك من ثورتهم التي ضربت بها الأمثال ، وسجلت لهم صفحة خاصة في تاريخ الوطنية الصحيحة .

وعلى كل حال فإن عود الأتراك إلى إباحة التعليم الديني يعتبر حادثاً جليلاً في تاريخ الأمة الإسلامية ، وسيكون له رد فعل في جميع الشعوب الشرقية ، لأن في سماحهم الاشتغال بأمور الدين بعد التحلل منه نحو ربع قرن ، إيذاناً منهم بأن الاسلام ضرورى لحفظ كيان الجماعة ، فهم في هذه الناحية لم يحاكوا الأوروبيين الذين قرروا أن لا تشغل الاداة الحكومية بغير المصالح الدنيوية ، تاركة أمور الدين لرجالها ، والمبالاة بهم أو اهمالكهم إلى الأفراد أنفسهم ، شأنهم مع الدين كشأنهم مع كل دعوة يقوم بها جماعة في حدود الحرية الشخصية .

ولا يجوز أن يغيب عنا بأن هذا الموقف من برلمان الأمة حيال الدين سيكون له أثر كبير في محو البدع التي تروّج في الكتب الشعبية باسم الاسلام ، ولا يقرها الكتاب ولا السنة ، ولا يملك أهل البصر سلطة لإزالتها ، ومنع ظهور أمثالها . وبعد فسيشهد العالم كله بعد حقبة من الدهر شعباً إسلامياً لا تكدر مظهره شائبة من بدع العامة ، ولا من طامات كذبة المتصوفة .

محمد فريد ومجدي

يومان . . . !

الكلمة التي ألقاها حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد عبد اللطيف دراز

مدير الأزهر والمعاهد الدينية

يوم ٢٢ / ٢ / ١٩٤٨ بدار الإذاعة

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرات السادة :

السلام عليكم ورحمة الله .

أما بعد ، فما أعجب التاريخ فيما يبدى ويعيد ! وما أعظم أحداث الدهر
وتصرفاته عبرة للمعتبرين وذكرى للمستبصرين ! .

يومان للعروبة والإسلام تشابها حتى اختلطا ، وتقاربا حتى اتحدا ، فما يمتاز
أحدهما عن الآخر ؛ هما يومان في عداد الزمن ، ويوم واحد في أحداث التاريخ : يومنا
الحاضر ، ويوم صلاح الدين . القوم هم القوم ، والميدان هو الميدان ، والدعوى هي
الدعوى ، وإن أخذت لونا آخر واحتلفت في بعض الصور والأوضاع . فأوربا التي
تولت كبر الحروب الصليبية هي التي تتولى اليوم كبر كل حرب ضد العرب والمسلمين
في فلسطين وغير فلسطين ، وليست أمريكا إلا امتدادا لأوربا عتيقة وثقافة
وسياسة ، وكان بيت المقدس هو الغرض من الحروب الصليبية ، وكذلك هو نفسه
الغرض من الحرب الصهيونية ، وكما زجت الصليبية بيت المقدس في دعواها
تضليلا تستر به أغراضها من الفتح والملك والافساد في الأرض ، فكذلك
الصهيونية لا تريد من وراء دعواها في هذا البيت المقدس إلا الدولة والملك
لتكون سرطانا في جسم العالم العربي يقضى على أممه ودوله ، وتقوم تلك الدولة
اليهودية به — لا قدر الله — في وسط الوطن الاسلامى مباءة بنى وضرار
وإفساد ، تفرق فيه أبناءه ، وتؤلب عليه أعداءه .

وقديما كان الصليبيون من الغرب والتتر من الشرق يدا واحدة على العرب والمسلمين ، واليوم أوروبا وأمريكا من الغرب وروسيا من الشرق يدا واحدة كذلك على العرب والمسلمين ؛ فأهلاً بالتاريخ يمدد نفسه ، ويدعونا الى ما نشأنا عليه من أحداث ، وما عرف لنا من مواقف ، ليكتب الأبناء والأحفاد من صحف المجد بأيديهم مثل ما كتب الآباء والأجداد .

ما هذه البروق والرعود ؟ وما هذه الزلازل والنوازل ؟ وما هذا العالم تتحزب أحزابه ، وتتكتب كتائبه ، وتجتمع أممه ودوله من مشرق الأرض ومغربها ، تسوقها الدسائس الدنيئة والأغراض السافلة ، لتروع الهادئين ، وتخيف الآمنين ، وتحارب المسلمين ! . ما بال هذه الحضارة التي كان يظنها الناس قسطاس العدالة ودستور الحقوق ، وأساس التقدم في جميع مناحي الحياة ، قد ارتدت على أعقابها خاسرة مرتكسة في هذا الدرك من التعصب والجمالة ، حتى عميت عن الحق في أجلى مظاهره وأثبت مواضعه وأحق قضاياه ، فاندفعت في حمية الجاهلية تدوس العدالة ، وتغتصب الحقوق ، وتثير الحروب ، وتعثو في الأرض فسادا .

سبحانك ربى ! أليكون للذهب الصهيونى وغيره من ضروب المادة كل هذا السلطان فى الأرض ، أو تحط الروحانيات والمعنويات السامية فى الناس الى أن تصبح مهينة ذليلة تسحق تحت أقدام المادية الغليظة التى نهضت فى الأرض بتموتها وجبروتها عملاقا ماردا وشيطانا رجيا ، ترهب الناس بفظاعته وتخيفهم بتموته . هو فى الشرق الشيوعية وجيوشها الحمراء ، وفى الغرب الرأسمالية وقابلهما الذرية ؛ ثم بعد ذلك تتظاهر هذه المدنية الخداعة فتذكر الإنسان وحقوقه فى ملكه ، وفى تقرير مصيره ، الى آخر ما يجأرون به فى الشدة والضيق ، وينسونه فى الفرج والسعة . فمن يراؤون ؟ وعلى من يكذبون ؟ أيلظن هؤلاء الناس أن الله الذى خلق السموات والأرض بالحق وأقامها لأعظم غاية من الحق ، يحيط به عليه وتديره وإرادته ؛ أيلظنون أن الله قد دفع هذا الخلق كله الى بضعة نفر من طواغيت الأرض يعلنون فيه الفساد والطغيان ، ويرفون باسم الشيطان راية البغى والعدوان ! . كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا . راجعوا التاريخ أيها الناس وقلبوا صفحاته ؛ لقد كان النبى من الانبياء عليهم الصلاة والسلام ،

أو المصلح من المصلحين يأتي وهو نقطة من الحق في خضم متلاطم الأمواج من الباطل ، فلا تزال هذه النقطة تتسع وتتسع ، ولا يزال أمرها يكبر ويعظم حتى تغمر اليم على سعته وتلاطم أمواجه ، وتحيل ذلك المحيط من الماء الأجاج عذبا زلالا سائغا للشاربين . ذلك مثل الحق والباطل ، وهو مثل خالد لا يزول ؛ وإن عمى الناس عن ذلك فليظنوا إلى هذا المثل الذي افتتحنا به حديثنا ، فند ثمانمائة سنة على التقريب ، كان للعرب والمسلمين مع المنتعشين عليهم من أهل البغي والعدوان نفس هذا الموقف الذي يقفه الصمونيون وأنصارهم من العالم شرقا وغربا ، وكان زعيم العرب والمسلمين إذ ذاك هو البطل العظيم والملك العظيم : « صلاح الدين الأيوبي » . ولقد تألب المشرق والمغرب كلاهما على العرب والمسلمين في ذلك العهد ، وأجابت الأمم عليهم بخيلها ورجلها ، فدهمها الصليبيون من الغرب ، ودهمها التتر من الشرق ، وارتكب الفريقان في طريقتهما إلى هذه البلاد مع كل أمة أوقعها سوء الحظ في طريقهم أشنع وأبشع ما رواه التاريخ من تنكيل وتدمير ؛ وكانت مصر كما هي اليوم قطب الرحي وزعيمة اللواء ، وقلب العروبة والإسلام ؛ فجمعت العرب والمسلمين جميعا تحت لوائها ، ووقفت للدنيا كلها بالمرصاد ، تضرب الصليبيين بإحدى يديها وتضرب التتر بالأخرى ، واستمرت الحروب وطالت وامتدت أيامها ونكباتها ، حتى ردت مصر التتر أربع مرات ، أولاها في معركة « عين جالوت » سنة ٦٥٧ هـ بقيادة ركن الدين بيبرس ، وكانت آخرها بالقرب من « دمشق » سنة ٧٠٢ هـ في عهد الملك الناصر ، محمد بن قلاوون الذي هزمتهم جنوده هزيمة منكرة ، وكان عدد الأسرى منهم في هذه المعركة عشرة آلاف أسير فقط ، فضلا عن القتلى والجرحى ، وكانت هذه الموقعة هي الفاصلة بين حق مصر والعرب والمسلمين ، وباطل التتر المعتدين الظالمين . أما الصليبيون فكانوا من قبل ذلك وفي أثنائه في حرب طاحنة دائمة مع العرب والمسلمين . وقد استمرت هذه الحروب ما يقرب من مائة عام ، وسقطت آخر دولة لهم بالشام سنة ٦٩١ هجرية . فله أنت يا مصر من بلد عظيم ، ولله العرب والمسلمون ! .

مائتا سنة تجتمع فيها الدنيا كلها على مصر ، ومن ورائها العرب والمسلمون ، فتقف لهم طول هذه المدة رافعة الرأس ناصعة الجبين ، صامدة ثابتة لا تهين

ولا تلين ، ولا يفل لها حد ، ولا يثنى لها عزم ، حتى لاحت تبشير الصباح ،
وبزغ فجر النصر ، وتقدمت مصر والعرب أمام العالم كله تركز راية المجد على
أعلى قمة في تاريخ الجهاد ، والعاقبة للمتقين .

فإذا ينتظر المتألبون المتعصبون الباغون على العرب والمسلمين اليوم ،
إلا أمثالها ! . ليكون ذلك إن شاء الله ، ولتعلن نبأ بعد حين . وإذا كان الأحزاب
في الدهر الأول قد لاقوا نكالهم على يد — صلاح الدين — وخلفائه من بعده ،
فإن كل ملك ورئيس دولة وحاكم في بلاد العروبة والاسلام اليوم ، ليعتبر
نفسه خليفة من خلفاء صلاح الدين ، داعياً بدعوته ، وقائماً بأمره . وإن الشعوب
العربية والاسلامية اليوم هي بحمد الله أكثر عدداً وأعز نفراً . ذلك إلى أن
الحق هو الحق ، والباطل هو الباطل ، فما نصر به الله العرب والمسلمين من تأييد
ومعونة فيما مضى ، سينصرهم بمثله اليوم ، وهو سبحانه وتعالى نعم المولى ونعم
النصير ؛ فلا يهولنكم معشر العرب والمسلمين ذلك الضجيج والتهريج ، ولا يخيفنكم
من القوم ما جمعوا من جمع ، ولا ما أعدوا من عدة ، ولا ما ألوحوا به من جيش
دولى وغير دولى ؛ فكم من فئمة قليلة غلبت فئمة كثيرة بإذن الله ، والله مع
الصابرين .

أيها العرب والمسلمون :

أخلصوا النيات ، ووحّدوا الصفوف ، وجاهدوا باسم الله في سبيل الله ؛
واعلموا أنكم تقفون مع القوم أمام سنة الله القاهرة في الحق والباطل ، والله تعالى
يقول : « بل نقذف بالحق على الباطل ، فيدمغه فإذا هو زاهق » ، ويقول :
« وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .

دعائم الاستقرار في التشريع القرآني

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدني
المفتش بالأزهر

من طبيعة الإنسان أنه ينفر من كل تكليف يحد من حريته، ويقيده في تصرفه بشيء من القيود. ذلك أن الإنسان — من بين الكائنات الحية — ذو اعتداد بفهمه، وشعور بقوته التفكيرية وسلطانه العقلي؛ فهو يتساءل دائماً: لماذا يقيد؟ وبأي حق يقيد الآخرون؟ وهل هم في تقييدهم إياه منصفون أو متحكمون؟ فإذا استطاع أن يجيب على هذه الأسئلة في نفسه إجابات معقولة يطمئن إليها، أو أن يسمع من غيره إجابات تريحه وتمنعه، قيل مبدأ التقيد والنزول عن حريته، واعترف بحق الذي يقيد وأذن لسلطانه، وهياً حياته على حساب هذا القيد طائعاً محتاراً حتى يصبح بعد حين أمراً مألوفاً لديه، يحبه، ويدافع عنه، ولا يرضى به بديلاً؛ أما إذا لم يقتنع بالإجابات النفسية أو الخارجية عن هذه الأسئلة أو عن بعضها، فانه يثور على هذا القيد أو على من يحاول فرضه عليه، أو يبيح لنفسه التخلص منه في خفية كلما أمكنه هذا التخلص وأمن معه على نفسه وماله وما يهيمه. لهذا كانت كل القوانين والتكاليف محتاجة إلى دعائم ثلاث، لكي تستقر وتؤدي إلى الغاية منها، وتصبح في نظر المجتمع قاعدة التعامل والسلوك؛ تلك الدعائم الثلاث هي:

- (١) إقناع المكلفين بحاجتهم إلى قبول مبدأ التقيد في الجانب المعين الذي يراد التكليف به، وفرض أي نوع من أنواع الالتزام فيه؛ وبعبارة أخرى: بجيء هذا التقيد بعد أن يشعر المكلفون أنفسهم بحاجتهم إلى مجيئه.
- (٢) إقناعهم بشرعية السلطة التي عنها يصدر هذا التقيد.

(٣) إقناعهم بأن هذا التقييد قد جاء على قدر الحاجة ، فلم يشطط ولم يسرف .
هذه هي الدعائم الثلاث التي تستقر عليها القوانين ، وترسخ في المجتمع ،
وتكسب الهيبة والاحترام ، وتأمين شر الانتفاض عليها ، والتفقت من سلطانها
في السر أو العلانية ؛ ولذلك لا تعمّر القوانين أو التكاليف التي أساسها مجرد
الرغبة من فرضها دون الشعور بها من جانب المكلفين ؛ ولا تعمّر القوانين
التي تفرض من غير ذي حق مشروع في فرضها ، لأن سنادها حينئذ هو القوة ،
والقوة عارض يزول ؛ ولا تعمّر القوانين التي يشعر المكلفون بها بأنها تقييد
فادحة تكلفهم من الأعباء فوق ما يستطيعون ، أو تتجاوز بهم حدود ما تقضى به
الحاجة ولو كان محتتملاً في نفسه .

ولقد قام التشريع القرآني في كل ما جاء به على هذه الدعائم الثلاث ؛ ولذلك
كان هو الشريعة الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان ، القادرة على أن تبث في
العالم أسباب الطمأنينة والرضا والأمن والسلامة ، وأن تقيمه عوامل النزول
والاضطراب والفوضى .

أما الدعامة الأولى : وهي إقناع المكلفين بحاجتهم إلى التقييد بتشريع معين
في أمر معين ، فإننا نرى لها مظاهر في الكتاب الكريم ، نذكر منها ما يأتي :

(١) كان القرآن الكريم لا ينزل في مكة إلا فيما يتصل بالعقائد وأصول
الرسالة وأمّهات الأخلاق والفضائل ، ولا نكاد نجد حكماً تفصيلياً في أية ناحية
من النواحي العملية نزل في مكة ؛ وهذا أمر طبيعي لأن القوم حينئذ لم يكونوا
مستعدين لتقبل أى قيد يقيّدون به في أحوالهم ونظامهم الاجتماعي ؛ فقد كانت
عروق الشرك ضاربة فيهم ، متشبثة ببرائتها في عقولهم وقلوبهم ، وكانوا من ناحية
أخرى وحدات متناثرة تتمثل في العصبية القبلية وما يتفرع منها ، متخذاً أفقاً
أضيق كعصبية العشيرة أو البطن أو الفخذ أو البوة إلى أب قريب ؛ ومثل
هذه الوحدات لا تكون أمة واحدة منجانسة ذات أهداف واضحة ، وميول
متلاقية . فلو أن القرآن الكريم عاجلهم في هذا الطور بالتشريع التفصيلي ، وكلفهم
مع الإيمان والتوحيد بهذه القوانين التي نراه قد عني بها فيما بعد حين كان ينزل

بالمدينة ، لعرض أحكامه وقوانينه ، بل دعوته كلها للضياع ، ولكان مثله كمثله من يذير الحب في أرض غير صالحة - أو فترة غير صالحة - للإنبات والإثمار ، دون أن يمهدها ويشقها ويسويها ، ويهيئ لبنوره فيها أسباب الصلاح ، من زى وتعمد ، وأوقات مناسبة .

والخلاصة في هذا الجانب أن التشريع الإسلامي القانوني لم يأت في مكة ، ولم ينزل به القرآن لأهلها ؛ لأن البيئة لم تكن شاعرة بحاجة إليها ، ولا مستعدة لتلقيه بالقبول ؛ ولهذا توفرت آيات الكتاب الكريم في هذه الفترة على تطهير هذا المجتمع من أدران الشرك ومفاسد العقيدة والأخلاق ، شأن الذي يهدم ويزيل الانقاض قبل البناء .

(٢) عندما استقر شأن المسلمين كأمة ، وتميزوا في المدينة كدولة ناشئة لها شئون داخلية وخارجية ، لم يكن هم القرآن أن يشرع الأحكام ويرتجلها ارتجالاً حتى تصور أن الأمر كان أمر قوانين تهيأ وتصاغ ويلقى بها إلى الناس لينفذوها حين تعرض لهم مشاكل تنصل بها ؛ لم يكن الأمر كذلك ، وإنما كان التشريع ينزل على حسب الحوادث ؛ فإذا برز في محيط المسلمين أمر يحتاج إلى حكم نزل هذا الحكم ، وإذا عنى المسلمون بالسؤال عن شيء أو التماس تشريع فيه أجيئوا إلى ذلك حسب ما تقتضيه به أخوالهم ؛ ولذلك نجد فيما ذكره المفسرون والمشتغلون بالقرآن أبواباً من العلم هي ما يعرف « بأسباب النزول » ، ونجد الروايات تسكفل في جانب كثير من الآيات ببيان الشأن الذي نزلت فيه ، والفضية التي كانت سبباً في هذا التشريع ، والإحساس الاجتماعي الذي تهيأ له وتطلبه ، ودعا إليه وترقبه .

ومن أراد أن يتجلى له ذلك فليرجع إلى هذه الأسباب في كثير من الآيات التشريعية في شئون الزواج والطلاق واللعان والنفقات والمهور ، وفي شئون الحجاب ودخول البيوت وآداب الاجتماع العامة والخاصة بين الأسر والأفراد والمرءوسين والرؤساء ، وفي شئون العبادة وشروطها ورخصها ، ونحو ذلك .

ونكتفي هنا بذكر مثال واحد هو مثال المجادلة ، وهي المرأة التي كان زوجها قد ظاهر منها : حدث الرواة أن أوس بن الصامت قال لزوجته خولة بنت ثعلبة ،

وقد غضب لمراجعته إياه في شأن من شئونه : أنت على كظمر أمي . وهي عبارة كان العرب في جاهليتهم يحررون بها نساءهم على أنفسهم ، فلما سكن غضبه أراد أن يناودها ولكنها أبت حتى تستفتي في أمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنطلقت إليه ، وقصت عليه قصتها ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أراك إلا قد حرمت عليه ، فراجعته وقالت : يا رسول الله إنه ما ذكر لفظ الطلاق ، فقال لها : لم ينزل علي في أمرك شيء وما أراك إلا قد حرمت عليه ، فظلت تراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتجادله وتقول : يا رسول الله إن أوساً تزوجني وأنا شابة مرغوب في ، فلما خلا سني ، وثرث بطني — أي كثر أولادي — جعاني عليه كأمه وتركني إلى غير أحد ، فان كنت تجحد لي رخصة يا رسول الله فحدثني بها ، فلا يزيد الرسول عليه الصلاة والسلام على أن يقول لها : لم ينزل علي في أمرك شيء وما أراك إلا قد حرمت عليه ؛ ثم اتجهت المرأة إلى الله شاكية ضارعة تقول : رب أشكو اليك وحدتي ، وشدة فاقتي ، وما يشق علي من فراق زوجي ، رب إنك تعلم أن لي منه صبية صغاراً إن تركتهم اليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلى جاءوا ! . فأذن الله لشكواها ، وقبّل ضراعتها ، وأنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم قوله : « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم ، ولهنهم ليقولون منكرا من القول وزورا ، وإن الله لعفو غفور . والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتأسا ، ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتأسا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ، ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتلك حدود الله ، وللكافرن عذاب أليم . »

فالظاهر إذن كان نظاماً معروفاً عند العرب ، وقد علم الله أنه نظام صائر بالتشريع الإسلامي إلى الإلغاء لأنه غير صالح للبقاء ، ولكنه مع ذلك لم يعاجل بإلغائه ، وتركه حتى تهيأ له الجو التام بعد وقوع هذه الحادثة المؤثرة ، وإلحاق الزوجة فيها على الله ورسوله ثم إلغاه .

وفي ذلك دلالة واضحة على أن التشريع القرآني لم يكن يأتي مجرد أخذ الناس به وإملائه عليهم ، وإنما كان يأتي تلبية للحاجة ، ومجاراة لتطلب الحوادث والرأى العام لمياه .

(٣) نحمد القرآن الكريم يقرن الأحكام التي يشرعها غالبا بما يدل على انبناء تشريعه فيها على مصالح الناس أنفسهم ، وعلى أن أحوالهم تتطلبها ، ولا تستقيم بدونها ، فيعطى بذلك فكرة واضحة عن أن المشرع لا يشرع لمجرد الرغبة في أن يشرع ، ولكن ليحقق مصلحة معينة بعد أن تتضح حاجة المجتمع الى تحقيقها ، وعدم صلاحه بدونها ؛ ومن ذلك أنه يعمل لكثير من الأحكام تعليقات تبين أحيانا الباعث الذي يبعث عليها ، وأحيانا المصلحة التي تتضمنها ، وأحيانا المضار التي تترتب على إهمالها وعدم الأخذ بها .

يقول الله تعالى في تحريم نكاح المشركات والابتكاح الى المشركين : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنن » ، ولا ممة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ، ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ، ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ، أولئك يدعون الى النار ، والله يدعو الى الجنة والمغفرة بإذنه ، وبين آياته للناس لعلهم يتذكرون »

لا شك أن أمر النكاح واختيار الزوجة أو الزوج أمر له أهميته وخطورته ، ولا شك أن البيئة الإسلامية بيئة مقتطعة من بيئة العرب المشركين ، وقد كانوا جميعا أهل وطن واحد ، وبينهم وشائج قرى وصلات معاملة ، وأنواع من الصداقات والتعارف ، فإذا أراد مسلم أن يتزوج ، ووقع اختياره على مشركة فليس هذا عجيبا ، وربما طغت عليه عوامل الرغبة والحرص على هذه الزوجية فقدمها على عوامل الاخوة الدينية ؛ فلما حرم الله زواج المشركين والمشركات قرنه بأمرين :

أحدهما : أن الاختيار الزوجي لم تقتصره الطبيعة على جانب معين حتى يشعر الانسان بأنه إذا لم يفز ببغيته ، ويحقق طامته من هذا الأفق بالذات فإنها لا تحقق ، ولكن في أفقه الخاص المحيط به المشارك له في العقيدة والرأى فرصا للاختيار يتحقق بها مطلب من لا يريد التعنت ، فيمكنه أن يجد زوجات مؤمنات وأزواجا

مؤمنين ، وإذا كان في جانب المشركين والمشركات شيء من عوامل الاغراء والترجيح أثار في نفسه الإعجاب ، فليذكر أن الإيمان صفة ترجح سائر الصفات عند الموازنة ؛ فلو أن أمة مؤمنة وزنت بامرأة مشركة لكان لها في نفس المؤمن رجحان وإيثار ، ولو أن عبدا مؤمنا وزن برجل مشرك لكان له في نفس المؤمن رجحان وإيثار ؛ فهو بهذا يثير فيهم نخوة الإيمان ، ويتمايل بها نخوة المعاطمة والمكاثرة والتفاخر بالزوجية . ولا شك أنه يصيب من ذلك هدفه ، والقوم مؤمنون لا يعدلون بإيمانهم شيئا ما من أغراض هذه الحياة .

الثاني : وصفه المشركين والمشركات في هذا المجال بقوله « أولئك يدعون إلى النار » فإن معناه : كيف يمرض المؤمن نفسه وما عسى أن يرزق به من بنين وبنات ثمرة لهذه الزوجية إلى خطر الارتداء في أحضان الشرك المفضى إلى النار ؟ وهل مثل ذلك في القياس إلا كمثل امرئ يلقي بنفسه طائعا مخنارا في النار ويظن أنه في حصانة منها وأنها لا تحرقه ؟ وهب قد تحصن هو منها فهل يضمن حصانة ذريته ؟ لا شك أن الحزم هو الابتعاد عن النار جملة ، والتماس الحياة في كنف آمن غير هذا الكنف .

ويقول الله جل ثناؤه في أمر المحيض : « ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تمربوهن حتى يطهرن ، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ، إن الله يحب النواوين ويحب المتطهرين » .

فيعمل التشريع في ذلك ، وهو وجوب اعتزال النساء في المحيض ، وعدم قربهن إلا بعد التطهر ، بعلّة طبيعية يتقبلها كل عاقل حريص على نفسه وصحته ، وهي أن هذا المحيض أذى ؛ وفي هذا التعبير دقة وبراعة وإقناع ، حيث جعله نفس الأذى ، وأتى به صالحا لأن يفهم منه معنى التأذى والنفرة من التذر والتزده عنه ، وأن يفهم منه معنى التأثير على الصحة وإلحاق الضرر بالبرآء المعافين . وفي العدد القادم إن شاء الله تعالى ، تتابع الحديث في هذا الموضوع ؟

المسلمون بين الامس واليوم

كيف تقدموا ، ولماذا تأخروا ، وكيف ينهضون ؟

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكري ياسين
المدير المساعد لمكتب البحوث والثقافة
بالأزهر الشريف

لو أننا ذهبنا نستعرض أحوال المسلمين في عصورهم الاولى ، ورحنا نستبيء أخبارهم الماضية ، ونستقريء ما كانوا عليه من مجد وسؤدد — لوجدنا أنهم قد سبقوا في كل شأن من شؤون الحياة ، وبرعوا في كل ناحية من نواحيها ، ولاقتنع معنا كل منصف بأنه لم تكد شمس الإسلام تسطع فوق رُبى تلسم الديار المترامية ، والربوع الفسيحة ، حتى كان المسلمون قد انتهوا من ممالك ناصية العلوم والفنون ، والأخذ بزمام الثقافة والعرفان ، وحتى كانوا قد تمت لهم الصدارة الدولية والاجتماعية بالرغم من سلطان تينك الأمتين العظيمتين العريقتين في الحضارة والرقى ، وحتى ظهر من المسلمين القواد العظام ، والسياسيون المحنكون ، والعلماء النجارير ، والمشترعون المتمكنون ، والأدباء الزوايغ ، والأطباء الماهرون ، والفلاسفة الممتازون ، كما ظهر بينهم عدد غير قليل من رجال الفكر والإصلاح ، وأرباب الأموال والتجارات ، وعباقرة الإداريين والحكّام ، وأعلام الولاة والوزراء ، وسوى أولئك وهؤلاء ممن ساروا بأمتهم مُقدّمًا نحو مُذرى السكال والسمو ، ووصلوا بها إلى قمم العلا والمنجد .

ولو أننا رحنا بعد ذلك كله ننقّب بين ذخائر المكتبة العربية ، ونبحث في جواهرها وكنوزها الثمينة ، ونحصي تلك الثروة العلمية الطائلة التي خلفها لنا المسلمون الأولون في تلك الأحقاب الزاهرة ، لاستطعنا أن نقول — ونحن مطمئنون كل الاطمئنان — : إن هذه الثروة لم تسبق إليها أية أمة من الأمم ،

ولم تتح لأى شعب من الشعوب ، ولا استطاعت تلك الثروة أن تتحدى ثقافات الأمم المختلفة فى شتى أنحاء الأرض بما حوته من نفائس وفرائد فى كافة المواد والفنون ، وسائر العلوم والمعارف .

ولعل القارىء الكريم بعد هذا كله ، يفكر فى أن يسألنى عن السرِّ فى هذه العظمة ، وعن السبب فى هذا النهوض ، الذى لا يوجد له نظير بين أمم الإنسانية جمعاء .

والسبب يسير كل اليسر ، سهل أعظم السهولة ؛ ذلك أن العالم كان متعطشا أكبر التعطش إلى دين ، يقوم من اعوجاجه ، ويصلح من فساده ، وينتقل به من حياة الجاهلية الجاهلاء إلى حياة راقية مهذبة ، وينتشله من وهدة الهمجية والفوضى والاضطراب ، إلى مجتمع تسود فيه الطمأنينة ، ويتوفر فيه النظام والاستقرار ، يأخذ بيده إلى حيث يشعر بالوجود الصحيح ، والإنسانية الفاضلة ؛ فما إن أشرقت الأرض بنور الإسلام ، حتى وجد العالم فيه ضالته الموشودة ، ورأى فيه طلبته المبتغاة ، وأقبل عليه ينقياً ظلاله فيما يضمن له أهناً عيشة ، وما يكفل له خير حياة ؛ وما إن أنزل الله تعالى القرآن الكريم ، والدستور العظيم ، والحجة البالغة ، والحبل المتين ، وأمدّه الرسول بالسنة المطهرة ، شارحة له ، ومبينة لمعانيه ، حتى أيقن أهل النصفة والاعتدال بأن هذا هو الدين الصالح ، والنظام المحكم ، والمنهاج القويم ؛ لما اشتمل عليه من حقائق صحيحة ، وأصول متينة ، وعقائد سليمة ، وأحكام يسيرة ، وحنيفية سمحة ، وهداية واضحة ، وآداب راقية ، وأنظمة عالية ؛ ولما جاء به من أخلاق كريمة ، ومعاملات سامية ؛ ولما حث عليه من صفات نبيلة ، وفضائل حميدة ؛ ولما رغب فيه من برٍّ ومعروف ، وخير وإحسان ؛ فسارعوا إلى الدخول فيه أفواجا ، وهرعوا إليه من كل حذب وصوب ، وبادروا إلى الأخذ بهواعده ومناهجه ، والإصغاء إلى نصائحه وإرشاداته ، والسير على تعاليمه ومبادئه ؛ وآمنوا بأن الانضواء تحت لواء الإسلام هو خير طريق ، يحقق لهم ما يرجونه من سعادة وفلاح ، ويضمن لهم ما يصبون إليه من حياة إنسانية رشيدة ، ومُثل اجتماعية عالية ، ومعنويات مثالية كاملة .

وقد انضم إلى هذا أن المسلمين الأولين كانوا ممن صفت نفوسهم ، وعلت همهم ، وقويت عزائمهم ، وندرت شجاعتهم ، وأخلصوا لعقائدهم ، واستمسكوا بدينهم ، وعملوا به في السر والعلن ، وراقبوا الله في الجهر والخفاء .

وكانوا ممن يضحون الدنيا في سبيل الدين ، ويذلون كل مرتخص وغال لإعلاء كلمة الله ؛ ومن يرون أن الدين هو كل شيء ، وأنه يجب أن يفندى بأعز ما يملكه المسلم ؛ ومن يعتقدون أن كل فرد منهم إنما هو مجند لخدمة الاسلام ، وأن هذه الخدمة يجب أن تكون في الميدان الذي يتيسر لصاحبه أن ينتج فيه ، وأن يبرز فيه بأثر نافع ؛ فكان منهم المشتغلون بالفتوح والإمارات ، والقضاء والإفتاء ، والتعليم ، والحراسة والرباطة ، وغيرها ؛ وكان منهم المشتغلون بالعلوم يدرسونها ويجمعونها ، ويدونونها ، ويرتبونها ، ويستخرجون أنواعها وضروبها ، ويتكرون طرقها وأساليبها ، ويضعون فيها المعاجم والمدونات ، والموسوعات والمصنفات التي نفاخر بها اليوم ، والتي تعد أعظم ما وصلنا اليه في العلوم الإسلامية والقرآنية وعلوم السنة ، والعلوم اللسانية ؛ فوصلوا بفضل كل هذه الجهود الجبارة الى تشييد صرح ذلك المجد الشاخ الذي سجله لهم التاريخ ، والذي يشهد بما كان لهم من مضاء العزيمة ، وصدق الإيمان ، وطول الباع في شتى العلوم والفنون .

* * *

وهناك سبب جوهرى آخر غير كل هذا الذى ذكرناه ، وهو أن تلك النشأة القوية المبدئية ، قد كونت في طبائع المسلمين الأولين خلقا إسلاميا عاما ، تركز في نفوس أفرادهم وجماعاتهم ، وزود بكل الصفات والمقومات التي تنبئ عليها حضارة الأمم ، وتسمو عليها عظمتها ، ويتأسس فوقها رقيها ومدنيتها ، وقد استطاعوا بوساطة هذا الخلق المتين ، وهذه النشأة الدينية القوية أن يبلغوا ما وصلوا اليه ، مما ألمعنا اليه آنفا .

* * *

هذه هي أهم الأسباب الخاصة والعامة التي نهضت بالمسلمين الأولين ، وسمت بهم الى مشارف العزة والكمال ، وجعلتهم يحلقون في سموات المجد والرفعة .

فقل لي بربك : ماذا يكون الحال ، لو أننا أردنا أن نوازن بين حالة المسلمين اليوم ، وبين حالتهم بالأمس ؟ وماذا تكون النتيجة الواقعية لهذه الموازنة ياترى ؟ إننا نعتقد أن أى مسلم ينطوى ضميره على أقل ذرة من الإنصاف والمعدلة ، سيشعر بالخجل العميق من نتيجة هذه الموازنة ؛ لأن حالتنا اليوم ، تكاد تكون فى جملتها وتفصيلها على النقيض من حالة أسلافنا الأماجد ؛ فالنفوس ضعيفة ، والهمم كليلة ، والعزائم فائرة ، وسوق العلوم باثرة ، وحركة الفشاط فيها خامدة ، والوازع الدينى مفقود ، والاعتصام بمبادئ الاسلام منعدم ، والأخلاق الاسلامية لا أثر لها فى بيئاتنا المختلفة ، والتنشئة الدينية لا تسلم فى أوساطنا من السخرية والنقد .

وباليت الامر قد وقف بنا عند هذا الحد ، بل لقد تعداه الى أن شاعت بيننا أمراض خلقية فتاكة ، وتفشت فيها آفات اجتماعية وبيئية ، وتمكنت فى نفوسنا عادات مردولة ، وموروثات فاسدة ؛ وإذا لم يتداركنا بلطفه ، فستزل بنا الطامة وتحل بنا الكارثة .

ولكن ، هل معنى هذا أننا نياس من العلاج ، وأتينا نقطع الأمل فى استعمال الدواء الناجع ؟ كلا ، فإن هذا لا يليق بشعوب عريقة فى المجد ، ولا يحمل بأهم أصيلة فى المعالى ، ولا يتفق وما جاء به الإسلام من دعوة الى العمل فى الدنيا بالجد والسكد ، والهمة والنشاط ، ومن أنه دين المدنية والعمران ، واليقظة والنهوض ؛ إنما يجب — درءاً لكل تلك المفاسد التى عليها المسلمون الآن — أن تكون النواة الأولى التى نضعها لإنهاض المسلمين من غفوتهم ، وإقامتهم من كبوتهم ، وإيقاظهم من رقدهم ، هى أن نرجع بهم الى حظيرة الإسلام ، وأن نعود بهم الى تعاليمه الصحيحة ، وأن نربهم على مبادئه القويمه ، وأن نغرس فى نفوسهم أن آدابه وفضائله هى التى يجب أن تكون الهدف الأول لهم فى كل ما يصدر عنهم من أعمال وأفعال ، وأن نجعل الروح الإسلامى هو السائد فى جميع معاملات المسلم ؛ فتكون معاملته لربه بمراقبته فى السر والعلن ، وقيامه بفعل المأمورات ، وترك المنهيات ؛ وتكون معاملته لنفسه باختياره الاصلح والانفع لها فى أمور الدين والدنيا ؛ وتكون معاملته للخلق برعاية الأمانة فى كل ما يتصل بهم ، ويرتبط بحقوقهم ؛

فيجب أن يكون الرعاة أمناء مع رعيّتهم فيما وكل اليهم من أداء الأمانات ، ورد الظلمات ، والعدل في الحكومات ؛ ويجب أن يكون العلماء أمناء مع الناس بأن يرشدوهم الى الاعتقادات والأعمال النافعة لهم في الدنيا والآخرة ، وأن يحبّوهم التعصبات الباطلة ، والمذاهب الفاسدة ؛ ويجب أن يكون الآباء والأبناء والأزواج والأقرباء والأصدقاء أوفياء بعضهم لبعض ، وأمناء في الحقوق المطلوبة من كل منهم نحو الآخر .

وهكذا يجب أن تسيطر الأخلاق الإسلامية على كل حركة من حركاتنا ، وأن تمثل في كل تصرف من تصرفاتنا ؛ فانه لا تصلح هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، وإنه لا يستقيم لها حال ، ولا يعظم لها شأن ، إلا إذا اهتدت بهدى الإسلام ، واسترشدت بوصاياه وحكمه ؛ وفي هذا يقول القرآن الكريم : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ، ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم » . ويقول الرسول الأعظم : « تركت فيكم أمرين ، لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله ، وسنة نبيه » .

فان نحن نجحنا في هذه الخطوة ، وأخذنا بها أنفسنا ، واستطعنا أن يكون لها السلطان الروحي في بيئاتنا وأوساطنا الخاصة والعامة ، فان المسلمين - ولا ريب - سينهضون نهضة قوية مباركة ، يكون لها أبعد المدى ، وأكبر الأثر في محيط الإنسانية العام .

حقيقة الكرم

قال حاتم الطائي :

أضحك ضيفي قبل أنزال رحله ويخصب عندي والمحل جديد
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى ولكننا وجه الكريم خصيب

تحقيقات

حول عقيدة ابن رشد

لحاضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

تمهيد :

اجتازت الفلسفة الإغريقية بغداد ومصر وسوريا إلى بلاد الأندلس، تحدى بها شروحاتها وتوجيهاتها، وتحليلاتها وإجلالها، ونقدها ومهاجماتها، فكان إزهارها في بلاد المغرب هو أوان ذبولها وتدهورها في المشرق؛ ولكن يبدو أن فلاسفة الأندلس قد أغضوا عن مجهودات أسلافهم الشرقيين في إيضاح الفلسفة الإغريقية، أو حرصوا على الأقل على أن يظهروا بهذا المظهر، فلم يعرضوا - في مجموع آرائهم - لمنتجات أولئك الأعلام الشرقيين إلا بالنقد والتجريح، ورميهم بعدم الفهم تارة وبالتدليس أو بمجاملة الجماهير تارة أخرى .

ولقد كان من نتائج هذا النهج الذي انتهجه هؤلاء المفكرون بازاء أسلافهم أن اقتنع بعض مؤرخي الحركة العقائدية في المشرق بأن إنتاج المغربيين يمكن أن يعتبر سلسلة أجنبية عن إنتاج أسلافهم، فأهملوهم في مؤلفاتهم عن عمد، بل عن سبق إصرار . وإذا ، فلم يكن سطوع أسمائهم نتيجة لمجهودات المؤرخين الشرقيين ، وإنما كان الفضل فيه للمدرسين من الأوروبيين الذين تأثروا بهم تأثرا عميقا . ومن آيات ذلك أن ابن جبرول كان في القرن الثالث عشر أحد المنايع الأساسية للأفلاطونية الحديثة ، وفي الوقت عينه صار مذهبه أعظم المذاهب التي طبعت الفرانسيكانيين بطايعها ؛ وأكثر من هذا أن ابن رشد كان له — في فلسفة العصور الوسيطة — أثر بلغ من العظم حدا جعل كل باحث يشعر بأن الضرورة تقضي

عليه بأن يخصص بين منتجات تلك البيئة في هاتيك العصور فصولا مسببة . ولقد أطلق الباحثون المحدثون على هذا الجانب من مذهب ابن رشد اسم الرشدية اللاتينية " Averroïsme latin " وهم يعنون بذلك تلك الحركة التي بدأت تنمو وتنتشر في جامعتي باريس وبادوا منذ القرن الثالث عشر والتي ظلت زاهرة متلاثلة في هذه الجامعة الأخيرة إلى عهد النهضة كما سنيين ذلك في موضعه ، وليس ذلك فحسب ، بل إن القديس توماس — رغم مهاجماته إياه — كان يدعوه أعظم شراح أرسطو على الإطلاق . وقد تأثر به إلى حد أن استعار في مؤلفه العظيم نفس الصور التي ابتكرها ابن رشد في شروحه لأرسطو^(١)

وإذا ، فقد تبين مما تقدم أن مصادر المعرفة الحقة للفلسفة الأندلسية توجد في المغرب أضعاف وجودها في المشرق ، وأن من الوفاء للعلم عامة ولهذا الجانب من جوانب الإنتاج الفكرى خاصة ، أن نتعقب هذه الفلسفة — ولكن دون أن نهمل مصادرهما المباشرة من كتب أصحابها — في مؤلفات الأوروبيين غير مبالين بما عسى أن يقال من أننا اعتمدنا على مصادر دخيلة ، فإن ذلك سيكون من جانب القائلين به لونا من ألوان التجنى ، إذ أن أولئك الباحثين الغربيين هم ورثة المنتجات المغربية عامة ، والتراث الرشدى خاصة ، عن طريق اللغتين : العبرية واللاتينية اللتين ترجمت إليهما مؤلفات هؤلاء الاعلام إبان محنة الفلسفة ، ومن ثم لا ينبغي أن تصرفنا العصبية عن تعقب الحقائق في مواطنها ، لأن العلم لا وطن له .

ولا جرم أن هذا التصميم يحملنا على أن نتعقب بديا ما كتبه أولئك الباحثون عن عقيدة ابن رشد ، وما وصلوا اليه من نتائج فيما يتعلق بإيمانه مستنبطين تلك الأحكام من رأيه في الدين صراحة أو تليحا . ولقد عثرنا في الشرق والغرب الإسلاميين وفي العصور الوسيطة المسيحية على أحكام لعدد وافر من العلماء والمفكرين أصدروها على هذا الحكيم ، وفيها من التباين والتضارب ما لا يعلم مداه إلا الله ؛ ففريق يرتفع به إلى السماء ، وآخر يهوى به إلى الأرض ، وثالث

(1) P. Palhoriés, Vies et doctrines des grands philosophes, t. II, p. 59.

يرى أنه مؤمن قسوى الإيمان ، ورابع يعلن أنه في طلائع الملاحدة والزنادقة ، بيد أنه لما كان يبعث هذه الآراء إما التعصب وضيق الصدر من حكم العقل ، وإما الجهل والتحيز ، فقد شئنا أن نضرب عنها كلها صفحا مكتفين بأراء العلماء المحدثين ، لأنها كانت نتيجة خالصة لبحوث عقاية ، وثمره بريئة لتأملات فكرية ، وبالتالي لا يمكن إغفالها أو التغاضي عنها ، وإن كان هذا ليس معناه أنها سلبت من الهفوات ، كلا ، بل هي مشتملة على كيوات ، وسوف نشير الى ما فيها من انحراف عن جادة الصواب ، ولكننا على يقين من أن ما فيها من هنات ليس ناجما في مجموعته عن تحامل أو عن سوء قصد ، لأننا نعرف عن أكثر أولئك القوم في غير هذا الموضع ما يرفعهم في نظرنا الى مرتبة الأبرياء الذين لا يناون عن الحق إلا بعجزا أو قصورا ، والله وحده الكمال .

والآن إليك آراء أولئك الباحثين ، فاستمع إليها برحوبة صدر حتى تنتهى منها ، ليتيسر لك نقاشها في جو على مفعم بالهدوء .

رأى رينان :

أعلن إرنست رينان في كتابه « ابن رشد والمدرسة الرشدية » ، أن هذا الفيلسوف باحث حر الفكر إلى حد بعيد ، وأنه لا يتقيد في بحوثه بدين ولا عقيدة ، وأن لادينيته صريحة في كثير من مؤلفاته ولا سيما في شرحه للجمهورية أفلاطون ، وهذا يدل على أنه عقلى محض ، وفيلسوف نقي ، لم يشغل نفسه بأولئك الدينين المسكبلين ، بل كان يفلسف بحرية ؛ نعم إنه لم يعتمد أن يصطدم بالدين ، ولكنه لم يحاول كذلك أن يزجج نفسه ، ليتجنب الاصطدام به ^(١) .

قد يتبادر إلى ذهن الباحث على أثر مطالعته عبارات رينان السالفة أنه لا علم له بتلك المؤلفات التي كتبها ابن رشد ، ليوافق فيها بين الفلسفة والدين والتي طالما شغل نفسه فيها بالمتكلمين ، وحاول جهد طاقته أن يتجنب الاصطدام بالدين ؛ ولكنه إذا أمعن في كتاب رينان تبين أنه يعلم هذه المحاولة من جانب ابن رشد ، وأنه يعلمها بعلمين : إحداهما حرصه على حياته ، وثانيتهما الرحمة التي استولت على

(٢٥١) انظر الصفحة ١٢٩ و صفحة ١٦٤ وما بعدها الى صفحة ١٧٣ من كتاب « ابن رشد والرشدية .

نفسه فجعلته يتجنب إيلام الجماهير بالطعن في عقيدتها ، وفي هذه الخطوة من جانبه برهان ناصع على سعة عقله وخلوه من التعصب ^(١) .

لا ريب أن في هذه الدراسة الرينانية شيئاً من الحقيقة وإن كانت لم تصل إلى إيضاح الخطوة الرشدية الصحيحة ، ولا إلى إثبات الأسباب الحقيقة التي حدثت فيلسوفنا إلى سلوك هذا النهج ، ولكن عذر رينان في هذا التقصير واضح وهو أنه لم يطلع على النصوص الرشدية العربية أو على ترجمة دقيقة لها ، بل إن كل ما وصل إليه منها هو بضع شذرات من « تهافت التهافت » باللغة اللاتينية ، وملخصات ترجمها الأستاذ مانك عن اللغة العبرية ، وهذا لا يمكن الباحث من إصدار حكم موثوق به على المؤلف ، وفوق ذلك فإن رينان كان لادنيا وكثيراً ما هاجم المسيحية بالذع العبارات ، ومن ثم هو مشغوف بتصيد زندقا من الهواء ونسبتها إلى من يكتب عنهم من المفكرين ، وقد صيرت هذه الخطوة مؤلفاته غير معتبرة في البيئات العلمية .

رأى مانك :

قرر مانك أن ابن رشد — بالرغم من أن آراءه الفلسفية لا تكاد تتفق مع عقيدته الدينية — كان يعنى كثيراً بأن يكون مسلماً حسن الإسلام ^(١) . وقد استنتج مانك هذا الحكم مما رآه في نصوص ابن رشد من اعتناؤه بالتدليل على أن الدين والفلسفة يدعوان إلى حقيقة واحدة .

ومما لا شك فيه أن الأستاذ مانك قد لاحظ أن هذا تناقض من جانب ابن رشد ، وعذره في عدم إدراكه حقيقة هذه المسألة واضح كذلك ، وهو أن نصوص فيلسوف قرطبة لم تصل إليه على حقيقتها .

رأى دونكان ماكدونالد :

شرح ماكدونالد بأن ابن رشد قد تعهد في كتاب « تهافت التهافت » أن

(١) انظر صفحة ٥٤ وما بعدها من كتاب « مزيج من الفلسفتين العربية والعربية »

يضع نقاباً سميكاً على زندقته، أما رسائله التي زعم أنه أراد بها التوفيق بين الفلسفة والدين، فهو لم يدع فيها نافذة مفتوحة أمام فلسفته الحقيقية^(١).

ومعنى هذه العبارة أنه كتب هذه الكتب الدينية ليتق بها سخط المسلمين، ثم أقفل أبوابها في وجه الأفكار الفلسفية الحقيقية، ولم يدع في داخلها مجالاً إلا للآراء العامة.

رأى ت. ج. دي بوير:

ذهب دي بوير في كتابه الأول «تناقضات الفلسفة» الذي نشره في سنة ١٨٩٤ إلى أن ابن رشد باحث عقلي مقتنع بآرائه، وأن التناقضات المقصودة التي ظهرت في كتبه لم تكن إلا سخرية بسيطة من لدن عالم يحتقر العامة ولا يأبه للوسائل التي يسلكها لتحويل اتهامات الجماهير الغبية عن نفسه، فهو مثلاً حين يمرض لمسألة خلود النفس يقرر أنها ليست في متناول الفكر البشري، على حين أنه لا يعتد هذا، بل هو مقتنع بأن العقل الإنساني قادر على بحث هذه المسألة^(٢).

أما في كتاب «تاريخ الفلسفة في الإسلام» الذي نشره في سنة ١٩٠١ فهو لم يعد إلى البحث في هذه المسألة، بل تجاوزها في غير اكتراث، كأنها لا تعني الباحث، أو كأنه عدل عن رأيه فيها ولم يشأ أن ينبه القراء إلى هذا العدول.

ليس من الغريب أن يكون «دي بوير» في كتابه الثاني قد عدل عن آرائه التي قررهما في كتابه الأول، لأن عدداً من الباحثين المتأخرين في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي قاموا ببحوث هامة حول هذا الموضوع اعتمدوا فيها على نصوص ابن رشد العربية، وكان من نتائجها أن ضعفت الآراء القديمة القائلة بتقية ابن رشد أو بسخريته من جماهير المسلمين.

ومن أشهر العلماء الذين قاموا بهذه البحوث الأساتذة: أ. ف. ميرين، وميجيل أزين، وليون جوتييه. وسنطوف معك في الكلمة الآتية ببذ من آرائهم، فإلى الملتقى؟

(١) انظر صفحة ٢٧٦ من كتاب «نمو علمي التوحيد والفقه الاسلاميين» لما كدوناك طبعه لوندرد سنة ١٩٢٣.

(٢) راجع صفحة ٩١ من كتاب «تناقضات الفلسفة» تأليف بوير.

أسباب تأخر المسلمين

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد عنتر
الاستاذ بكلية اللغة العربية

عرضت في مقالى السابق تحت هذا العنوان بمجلة الأزهر (عدد صفر)
للبروضات الآتية :

١ — ضعف المسلمين فى العصور الأخيرة ، وتأخرهم فى ميدان الحضارة ،
على حين تقدم غيرهم .

٢ — بيان أن هذا التأخر لا يصح أن يعزى الى طبيعة الاسلام ، لأنه دين
الحضارة والمدنية الصحيحة ، ولا الى طبيعة المسلمين أنفسهم ، لأنهم لا يختلفون
عن أسلافهم إلا ما جدد عقولا وأفهاما .

٣ — نتيجة ما ذكر ، وهى أن هذا التأخر إنما جاءهم من عوامل خارجية
وأسباب طارئة ، أثرت تأثيرا سيئا فى حياتهم الدينية والدنيوية ، وأخرتهم عن
بعض الأمم فى مضمار الحضارة والتقدم والرقى ! .

وهذا بيان الأسباب بالتفصيل ، وقد رأيت أن أقسمها الى ثلاث درجات :
أولى ، وثانية ، وثالثة .

أسباب التأخر من الدرجة الأولى :

أهم هذه الأسباب ما يأتى :

١ — عدم تيقظ المسلمين وسائر العرب للدسائس الخفية والمساكنات الخبيثة
المهلكة ، التى مصدرها من قديم المنافقون من المشركين واليهود ، ومن أسلم من
بعض الأعاجم الوثنيين والروميين الذين ملأوا الحقد على الاسلام صدورهم ،
وعششت البغضاء بين جوانحهم ، وباضت حمائم الترات العصبية والدينية فى أبراج
نفوسهم « قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر ! » .

هؤلاء الذين أشرت إليهم في كلامي أمثال عبد الله بن أبي ابن سلول ، رأس المنافقين في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ثم عبد الله بن سبأ ، وكعب الاحبار ، ووهب بن منبه من اليهود ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي بالولاء ، اليهودي الأصل ، الذي اشتهر بيبغض العرب ؛ وفيروز أبو لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة ابن شعبة ، وزباد بن سميّة أو ابن أبيه ، وغير هؤلاء من الرافضة والخوارج ، وكثير من الموالي الذين دخلوا في الاسلام أو تظاهروا به ولم يكن لهم غرض إلا الوقعة بالمسلمين والعرب جميعا ! وأغلب هؤلاء الكائدين للإسلام وأهله من اليهود والمشركين . وقد صدق الله العظيم حيث يقول « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » ، فإن الواقع والتاريخ حقا صدق هذا الكلام الذي « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » .

ولنوضح الآن كيف كان عدم اليقظة لدسائس من ذكرنا سببا جوهريا من أسباب تدهور المسلمين قديما ، وقد بقي أثره إلى عصرنا هذا !
تجمع من أعداء العرب المسلمين ثلاث جماعات من أخطر جماعات الشر والخبث والخديعة .

الأولى - جماعة اليهود المطبوعين على الشر وكرهية المسلمين ، لأنهم أصحاب الدين الجديد ، ولأنهم قتلوا أكابر اليهود الذين ناصبوا النبي وأصحابه العداء ، فحرضوا قريشا وغيرها من القبائل العربية على مناوئته ومحاربته ، قصدا إلى إبطال دعوته وطمس شريعته ؛ أمثال كعب بن الأشرف ، وابن أبي رافع الملقب بتاجر أهل الحجاز ؛ ولأنهم طردوا من بقي من اليهود على دينه في عصر عمر رضي الله عنه .

الجماعة الثانية — المنافقون وأولادهم وحفدهم من مشركي العرب ، الذين كانوا أضربا بالاسلام من أعداء الاسلام ! والذين قال الله فيهم « يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، والله أعلم بما يكتمون » ، وكان على رأسهم عبد الله بن أبي ابن سلول ، الذي هلك في السنة التاسعة من الهجرة .

الجماعة الثالثة — مبغضو العرب من الموالي الذين دخلوا في الاسلام بعد فتح فارس والروم ، كالخوارج والرافضة وعلى رأسهم زياد بن سمية .

نظمت تلك الجماعات أعمالها تظليماً سرياً دقيقاً محكماً ، بحيث يتوارثه الأبناء والاحفاد عن الآباء والأجداد ، ووضعت الخطط والبرامج للقضاء على الاسلام ومحو سلطان العرب ! وتذرعت في سبيل تنفيذ غايتها الزكراء بالدهاء والمكر والخديعة ، والتستر باسم الاسلام . وهذا النوع من خطط الجماعات السرية الضارة لم يكن للعرب عهد به ، لا في جاهليتهم ولا في إسلامهم ، لأن العرب معروفون بظهارة القلب ، وصراحة الضمير ، وخلوص النية ؛ لذلك أمروا مكر هؤلاء الدخلاء في الدين وفي العروبة ، واثمروهم على الأرواح والأموال والأعراض ، حتى ولوهم الإمارات وقيادة الجيوش ، ولم يتخذوا الحيلة لمراقبة حركاتهم السرية الإجرامية ، التي نفذوها بكل حذق ومهارة ! وكلما انقض من هؤلاء جيل خلفه جيل آخر ، يفسوق سابقه في المكر والدهاء وتلبس الحيل الشيطانية ، والوسائل الجهنمية ، حتى أتوا على بنيان الخلافة الاسلامية من قواعده ، وأصبحوا هم أصحاب الصولة والدولة ، وذوى الحكم والفسوذ في أغلب بلاد العرب والاسلام !

والى القارىء طرفاً من فعالهم الشنيعة ، وأحاييلهم الشيطانية ، ومؤامراتهم الهدامة :
المؤامرة الاولى :

قتل عمر بن الخطاب غيلة : بدموا أولى مؤامراتهم الخطيرة بقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، الخليفة الثانى بعد أبى بكر رضى الله عنهما ، لأنهم رأوه صعد بالعرب إلى قمة المجد فى زمن وجيز ، بعد أن طرد اليهود من الحجاز ، ودوخ ملوك كسرى والروم ، ففتح الأقطار واختط الأمصار ، وأقام العدل بين الناس ، وأخذ العرب يحتنون ثمار كدهم وجهادهم فى سبيل الله ، ويعيشون فى ديارهم وخارج ديارهم عيشة راضية عزيزة هنيئة رغيدة !

وقد غزل خيوط تلك المؤامرة ، وحاك نسجها ، وحبك أطرافها أبناء كسرى وقيصر ، المتووردون من عرب الإسلام فى عهد عمر بقتل آبائهم ، وتفويض ملكهم ، وأسر ذرارهم ونسائهم ؛ وقد أعانهم على ذلك اليهود المطرودون من المدينة ، ومن أسلم منهم ومن المسيحيين واختار الإقامة بالمدينة ؛ مثل كعب الاحبار الذى أعلن عن موت عمر قبل وقوعه بثلاثة أيام !! ومثل جفينة المسيحي

الذى استقدمه سعد بن أبي وقاص من الحيرة ليعلم أولاد العرب الكتابة والقراءة . وعلى الجملة فقد أحكمت حلقات هذه المؤامرة لإحكامها بالما ، لأن أصحابها رأوا الفرصة سانحة لقتل عمر ، خشية اطراد نمو الإسلام وتقوية دعائمه بهذا الخليفة العادل الفاتح !

ولست الآن بصدد التحقيق فى كيفية مقتل عمر رضى الله عنه ، فان هذا الامر قد تكفل به المؤرخون ، وإنما أريد أن أبين أطوار تلك المؤامرة التى تعد أكبر حدث فى تاريخ الاسلام ، إذ بنتيجتها فتح باب الشر على المسلمين والعرب ، ولم يخلق هذا الباب إلى وقتنا هذا . وقصدى بذلك أن يتنبه المسلمون والعرب إلى أمثال تلك المؤامرة ، فيقتلوها فى مهدها ، ويظهروا بلادهم بمن يشكون فى نياتهم من الدسائس والجواسيس ، أعداء الوطنية والدين والعروبة .

كيف دبرت المؤامرة ؟

أولاً — استفاضت الأخبار عند أبناء فارس والروم أن عمر الخليفة لا يتخذ لنفسه حرساً كما يصنع ملوك العجم وقياصرة الروم ، للحفاظ على حياتهم من الاغتيال ، ولاظهار أهبة الملك وعظمة الحاكم .

ثانياً — أرسل كسرى رسولا من لدنه ليستيقن صحة هذه الأخبار ، فلما جاء رسوله المدينة أخذ يسأل عن مكان الخليفة فدل عليه ، فوجده فى المسجد نائماً على الأرض وليس معه حارس ولا حاجب ، فقال هذا الرسول (الجالسوس) قولته المشهورة : « عدلت فأمنت فنمت يا عمر ! » وتيقن أن هذه الكلمات وقعت عند العرب المسلمين موقع القبول والرضا ، لأنها تدل بظاهرها على تقدير عمر والإعجاب بخططه الرشيدة ، مع أنها تخفى وراءها أمراً خطيراً وشراً مستطيراً . ثم عاد الرسول إلى كسرى فأخبره بما رأى ، وشاع هذا الخبر فى أنحاء فارس ، فقوى عزمهم على الانتقام من عمر باغتيال حياته .

ثالثاً — من سوء حظ المسلمين فى ذلك الوقت أنه كان بالمدينة عاصمة الخلافة حفنة من عناصر السوء لم يأبه لهم أحد ، ولم يلتفت العرب إلى حركاتهم المريية ، مع أنهم كانوا الرأس المفكر والعقل المدبر لهذه المكيدة الكبرى ، وهم : الهرمزان أمير الأهواز الذى أسلم خوفاً من السيف بعد أن نقض الصلح

بينه وبين المسلمين مرارا ، وجفينة المسيحي الذي تقدم ذكره وفيروز أبو لؤلؤة المجوسى بطل هذه المؤامرة ، الذى سبك الحيلة على سيده المغيرة بن شعبة والى الكوفة ، فجعله يستأذن عمر فى قدومه المدينة ، بدعوى الانتفاع بصناعاته المتعددة وهى الحدادة والتجارة والنماشية . هذا هو الظاهر ، وفى الواقع هى الستارة التى تستر بها هذا العليج لتنفيذ فعلته الأثيمة ، وجرمه الشنيع ؛ وكعب الأحبار اليهودى الأصل الذى استتر باسم الإسلام ، وكان على علم بتدبير المؤامرة ، إن لم قتل إنه رأس المتآمرين وكبيرهم الأمر الناهى .

اجتمع هؤلاء الرهط ورأوا الفرصة قد سنحت تماما لاغتيال الخليفة ، فأعزوا الى من وقع عليه الاختيار لتنفيذ الجريمة ، وهو فيروز المجوسى ، أن يشكو سيده المغيرة الى عمر ليخفف عنه ما كلف به من المال ، لأنه يهظه ولا يقدر على أدائه . فسأله عمر عن صناعاته ، فقال فيروز (حداد . نجار . نقاش) فقال عمر : ليس ما طلب اليك أدؤه بكثير ، فانصرف أبو لؤلؤة وهو يتوعد عمر !!

رابعا — لم تكن شكوى أبى لؤلؤة الى عمر إلا ستارا كشيئا يخفى وراءه ما قصده هذا اللعين ، وهو التثبت من معرفة شخص عمر ، حتى لا يخطئه فبقتل غيره ، وقد فعل ذلك بعد أن أعيته الحيل فى سبيل الوصول الى التمكن من رؤية عمر ، لأنه بحكم دينه المجوسى ممنوع من حضور مجالس الخليفة التى كانت تعقد غالبا فى المسجد ؛ لذلك تظاهر بالشكوى ، لعله بأن عمر لا يرد شاكيا كائنا من كان .

خامسا — جاء دور التنفيذ ، فصنع أبو لؤلؤة خنجرا له طرفان ، نصابه فى وسطه . وعين المتآمرون يوم القتل وساعته ، وهو اليوم السادس والعشرون من ذى الحجة سنة ٢٣ هـ وقت صلاة الصبح . وفى فجر هذا اليوم كان عمر رضى الله عنه يوقظ الناس للصلاة ، ثم حضر المسجد وأقيمت الصلاة ، فسوى الصفوف على عادته ، ثم كبر تكبيرة الإحرام ، ولم يكدر يشرع فى القراءة حتى طعنه أبو لؤلؤة المحرم الأثيم عدة طعنات إحداهن تحت السرة ، وهى التى أنفذت مقاتله - رضى الله عنه - وقضت عليه ، ثم مر القاتل بين الصفوف فطعن ثلاثة عشر من المسلمين ، مات منهم سبعة ، ثم قتل هذا الملامون نفسه بيده . وبقتل عمر ختمت حياة بطل عربى اعترز بالإسلام . ولا يسعنى بعد هذا إلا أن أقول :

إن القلب ليتفطر حزنا ، وإن النفس لتتحرق كدما ، وإن العين لتتكاد تبكى
دما لفقدك يا أمير المؤمنين !!

ولو شئت أن أبكى دما لبكيتك عليه ولكن ساعة الصبر أوسع !

هذا ، والعامل المنصف لا يشك في أن قتله رضى الله عنه كان نتيجة حتمية
لتساهل المسلمين في التحرى والتدقيق الواجبين في شأن من يشك في حسن نيّتهم
من عرفت عداوتهم ، وبدت عليهم مخايل الخبث والدهاء .

نعم : إن هذا قضاء الله الذى لا مرد له ، والذى أشار إليه النبي عليه السلام
في حديثه ^(١) قبل وقوعه ؛ ولكن هذه العقيدة لا تتنافى مع الأخذ في الاسباب
واستعمال الحذر ، لعدم علمنا بما قدره الله في المستقبل ، ثم يكون بعد ذلك ما يكون .
فترك اليقظة وعدم التنبه لحركات العدو تقصير لا ينبغي أن يكون ؛ وقديما قال
العربي الحكيم : حسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة ؟

(١) الحديث المشار إليه رواه البخارى ومسلم في (كتاب الفتن) . ورواية البخارى
أخصر . وهاهى ذى :

« عن شقيق قال : سمعت حذيفة يقول : بينما نحن جلوس عند عمر إذ قال : أيكم يحفظ قول
النبي صلى الله عليه وسلم في الفتنة ؟ قال : فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره - تكفرها
الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . قال : ليس عن هذا أسألك ، ولكن
التي تموج كموج البحر ؛ قال ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين . إن بينك وبينها بابا
مغلقة . قال عمر : أيكسر الباب أم يفتح ؟ قال بل يكسر . قال عمر : إذا لا ينلق أبدا .
قلت أجل . قلنا لحذيفة : أكان عمر يعلم الباب ؟ قال نعم ، كما أعلم أن دون غد ليله . وذلك
أنى حدثته حديثا ليس بالأعاليط . فبهذا أن نسأله من الباب ؟ فأمرنا مسروقا فسأله فقال
من الباب ؟ قال : عمر ... انتهى الحديث . واقول : الفتنة التي أشار إليها الرسول عليه السلام
هى فتنة قتل عثمان وعلى والحسين رضى الله عنهم ، وكسر باب الفتنة كناية عن قتل عمر
رضى الله عنه .

التقليد

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحيم العدوى

شيخ معهد أسيوط

لا أريد أن أتناول هذه الكلمة بالبحث على طريقة الفقهاء والمتشرعة فأبين أن مذهب المقلد مذهب مقتيه أولاً، ولا بلسان المتكلمين في العقائد فأدلل على أن إيمان المقلد مقبول أو غير مقبول؛ وإنما أريد معالجة بحثها من ناحية أنها مسلك من مسالك الأفراد والجماعات في هذه الحياة، وأنها صفة من صفات الناس وحال من أحوالهم في سلوكهم بعضهم مع بعض، وأنها بهذا الاعتبار قد تكون خيراً محضاً إذا كانت تسابقاً في الخيرات، وتنافساً في صنوف البر، وترسماً للثل العليا في نواحي الحياة وما يرضى للجماعات من مشاكل؛ وعندئذ نرى الدين يشرح لها صدره، ويشد أزرها، ويقوى دعائماً، ويحبوها عطفه ورضاه، فتراه يكثر من الحث عليها ويتفنن في إغراء الناس بسلوك طريقها واتباع منهجها بشتى الطرق والأساليب، لأنها إذ ذاك تسير بالآمم الى ما يليق بها من مجد ونجار.

وتارة تكون شراً محضاً إذا كانت محاكاة للفسدين، وتقليداً للبضلين، وتشبهاً بالاشرار المجرمين، فتكون همزة الوصل الى الدمار، وتثير على الأفراد والجماعات الزعازع، وتقض منهم المضاجع، وتصبح وسيلة قريعة لانهيار الأمة وتلاشى سلطانتها في وقت وشيك. وعندئذ تكون في نظر الدين سبة في جبين الانسان الذى وهب العقل فلم يحكمه ولم يهتد بهديه، ووصمة عار لذلك الانسان الذى كرمه الله على كثير من خلقه فكفر النعمة وغمط الحق.

فالتقليد إذا كان خيراً محضاً كالسابق في الخير، والتنافس في صنوف البر، والتفانى في كل ما ينفع الأمة ويعود عليها بالخير والبركات، كالسابق في بناء الوحدات الصحية التى تصون صحة أبناء الأمة وتوفر لهم خير العلاج، وكالتنافس

في مساعدة المحتاجين وإغاثة الملهوفين، وتشديد الملاجئ والمستشفيات، وتعليم أبناء الفقراء، تقليدا للخيرين، وتشبها بالبررة الكرام في كل عصر، وترسما للنبل العليا في الشعوب الراقية؛ أقول إذا كان التقليد على هذه الشاكلة كان من الأمور العظيمة التي لها خطرهما في بناء كيان الأمم، وكان بالتالي مطمح نظر الدين ومحل تقديره. فلا غرابة إذا رأيناه يكثر من طلبه وبحث عليه، ويسميه تأسيسا بالقدوة الحسنة، وتشبها بالكلمة من الناس. على أنه في الواقع مذهب الطريق ممد السبيل؛ لأنه غريزة في الإنسان يصاحبه في كل أطواره، تمتعه حركاته التقليدية أيام طفولته، وحرصه على أن يكون من النبغاء كهلا وبافعا، ومبالغته في أن يكون اسمه مسجلا في صحيفة العباقة رجلا كامل الرجولة. ولا غرو إذا كانت منزلة التقليد في نهضات الأمم مكانة اللبنة الأولى من الأساس، والحجر الأول في مقومات الجماعة.

أجل: فإن للأمم عوامل كثيرة، تنهض بها، وتأخذ بيدها إلى معارج الرقي. فالعلم النافع طريق صحيح لرقى الأمم؛ وسهر الزعماء والقادة على مصالحها سبيل معبد لسعادتها؛ وإخلاص بنينا في خدماتها وتفانيهم في توفير أسباب عزتها يسير بها إلى المجد قدما؛ والدفاع عن حرياتهم والذود عن حماها والتضحية في سبيلها بكل مرتخص وغال هوصل جيد إلى ما تبغيه من عزة وما تريد من سلطان.

لكن هذه العوامل كلها مع كثرتها وكثرة ما تحويه من مزايا، لا تصل بالامة إلى قمة المجد إلا إذا كان لبنها في كل هذه النواحي قدوة حسنة يرسمون خطها، ومثل عليها يأتسون بها في كل ما يريدون لها من عزة وبعد صيت.

أما مكانة التقليد بهذا المعنى الجميل في نظر الدين فهي المسكنة التي لا تبارى ولا يشق لها غبار؛ ألم تر إلى القرآن الكريم كيف حثنا على التأسي بالقدوة الحسنة في قوله تعالى: «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة» وفي قوله تعالى «وأولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده»، وكيف وضع بين أيدينا صورا شتى لعباده الذين صاحبهم التوفيق ولازمهم السداد؛ لنسير على نهجهم ونقتدى بسيرتهم. استمع إلى القرآن الكريم حيث يقول «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما، والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما، والذين

يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ، إنها ساءت مستقرا ومقاما ، إلى آخر الآيات الكريمة في سورة الفرقان .

بل انظر إلى القرآن الكريم كيف يصور لنا سلوك الكملة من الناس ، والسعداء من عباده المؤمنين الذين عرفوا قيمة العمل فحبسوا نفوسهم على تحصيله ، وقدروا حسن الجزاء ففسعوا إليه حثيثا ؛ وذلك حين يصف لنا حال المتقين فيقول « إن المتقين في جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم ، إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون ، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ، ليفتح أمامنا البعل الصالح ، ويمهد لنا سبيل الاخلاص فيه لنسعد بما أعده الله لعباده المخلصين .

وانظر إليه كيف يصف حال المؤمنين الصادقين الذين لم تزل قدمهم لوسوسة المفسدين وتخيل المنافقين ، وكيف يضع يدنا على ما كان منهم من حزم وثبات وصبر وجلد ، وكال دين وقوة يمين ، إذ يقول : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فاتمبلوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم .

وكيف نهانا سبحانه عن أن نركن إلى قرناء السوء ، أو أن نسير على نهجهم المعوج فقال « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أمرنا بأن نفتدى برسوله العظيم ونرسم خطاه ، فلأنه صلوات الله وسلامه عليه كان المثل الأعلى للإنسانية الكاملة في كل صفاتها وميزاتها ، ولأن السير على نهجه القويم الذي رسمه لنفسه في السلوك كاف في وصول الإنسان إلى كل ما يبتغي من عزة أو يريد من كرامة

فهو صلى الله عليه وسلم مثل أعلى في الثبات على المبدأ ، ولذا قال حين طلب منه الكف عن دعوته « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته ، مع كل ما كان يلقاه من خصوم الدعوة من شدة وبطش .

وكان مثلاً أعلى في الانصاف ، ولذا يقول : « والله لو سرق فاطمة بنت محمد

لقطعت يدها ، !

وكان مثلاً أعلى في التواضع ، ولذا قال لتلك المرأة التي ريعت منه وتملكها الفرع بين يديه : « ليفرخ روعك فاني لست بجبار ولا متسلط قاهر ، وإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد » !

وكان مثلاً أعلى في الصبر على الملمات والتسليم لقضاء الله ، ولذا قال حينما مات ولده ابراهيم « العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ؛ وإنا لفراقك يا ابراهيم لمحزونون » . فياله من قدوة حسنة يجب الناسى بها ، ومن مثل أعلى يتحتم على المؤمنين الصادقين ترسم خطاه !

لا يبلغ الواصف المثني مدائحه وإن يكن محسناً في كل ما وصفا وهذه المعاني السامية التي اختص بها صلى الله عليه وسلم ، هي التي طبعت أصحابه بطابع الكمال ، ودرتهم على خير الخلال .

فها هو ذا عمر بن الخطاب كان مثلاً أعلى في الحرص على مصلحة الرعية وتفقد أحوالها ليلاً ونهاراً ؛ مر ذات ليلة في بعض شوارع المدينة فسمع امرأة 'تَشْدُ' وهي في خدرها بيتين تشكو فيهما غيبة زوجها ، فسأل عنها فعلم أن زوجها في الغزو ، قد طالت غيبته ، فأصدر أمراً بأن لا يغيب الجندى عن أهله أكثر من أربعة شهور .

وكان مثلاً في الانصاف ، فقد ضرب بدرته سعد بن أبي وقاص وهو خال الرسول ، حينما رآه يتخطى رقاب الناس ليأخذ عطاءه ، فقال سعد : لم هذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال عمر : رأيتك تستهين بسلطان الله في أرضه ، فأردت أن أعليك أن سلطان الله لا يهابك !

وكانت تجبى إليه خيرات فارس والروم ومصر والعراق ، وهو الورع الزاهد يلبس المرقع من الثياب ، ويأكل خبز الشعير بغير إدام .

هذه الخلال الكريمة وأمثالها هي التي ملكت على المسلمين في العصور الأولى زمامهم ، واستولت على مشاعرهم ، فكانوا مثلاً عليا رقت بالإنسانية الى أوج عزتها ، وسعد الناس في رحابها ، واتسع سلطان الدولة الإسلامية ، وطبقت سمعتها أجواز الفضاء ، وسارت مع الشمس الى كل أفق ، وصاحبت القمر المنير في كل مطلع .

وإن تاريخ الأمم الإسلامية لحافل بالمنزل العليا في كل نواحي الحياة ، ولم يكن ذلك مقصورا على الرجال فحسب ، بل كان للنساء الحظ الوفير في الشجاعة والصبر وقوة الإيمان والثبات إذا ادلهمت الخطوب أو اسود ليل النوائب .

فهاهى امرأة أبي طلحة مات ابنها وأبو طلحة غائب فى عمله اليومى ، فلما قدم الى البيت سأل عن حالة ابنه ، فقالت له امرأته : إنه لم يكن فى يوم من الايام أحسن حالا ولا أهدأ بالاً منه اليوم . فاطمأن وقدمت له الطعام فطعم ، ولما أخذ قسطه من الراحة قالت له : يا أبا طلحة ألا تعجب لجيراننا ! كانت عندهم وديعة لبعض الناس فلما جاءوا يطلبونها غضبوا . فقال بئس ما صنعوا ، الودينة لصاحبها شاؤا أو أبوا . فقالت : إن ابنك كان وديعة لدينا من الله عز وجل وقد استرد اليوم وديعته ! . فما زاد على أن أسترجع ، ثم ذهب الى الرسول الكريم فأخبره الخبر : فقال الرسول : إنها ستعجب لك أولاداً كثيرين . وقد حقق الله هذه البشارة النبوية لأبي طلحة ، فولدت له امرأته هذه عشرة أولاد كلهم حفظ القرآن الكريم .

ولقد بقى تاريخ أولئك الأقدمين مناراً للسايرين ، ودليلاً واضح الحجّة للعاملين ، الى أن فترت العزائم ، وتغلبت الشهوات ، وجرف سيل المدنية الكاذبة كل حزم وعزم وخلق كريم .

على أننا فى هذا العصر الحاضر يسرنا أن نرى فى بنى المسلمين فى جميع الأقطار ميلاً كبيراً لتقليد أسلافهم الأولين ، والسير على طريقة أجدادهم الأجداد الذين بنوا لهم صروح المجد ودعموا بنيان الاخلاق : فتركوا ما ألفوه زمناً طويلاً من التقليد الأعمى فى كل شؤونهم : فى البيوت والحدود ، فى إنفاق المال فى غير النافع ، وإضاعة ثرواتهم فيما لا يجدى ، ومحاكاة المفسدين فى آرائهم ، والخروج على تقاليدنا الصالحة الموروثة ، والتظاهر بالوطنية فى وقت الرخاء حتى إذا جد الجدد انماعوا وتلاشوا كما تنبأ قطرة الندى تحت أشعة الشمس الوهاجة .

والفضل فى كل ذلك للشهداء والنوب ؛ فجزى الله الشدائد كل خير ، نهت منهم الغافل ، وأيقظت كل كسلان ؟

شعراء الازهر

أحمد الزين

لفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد الجواد رمضان

المدرس بكلية اللغة

إذا كنت - يا زين - زين الأدب فأن كتابك زين الكتب
قلائد ، طوقت جيد البيان بهن ، وحليت جيد العرب
خلائق تترى بنفح الرياض إذا ضحكت من بكاء السحب
وما المرء إلا خلاق كريم وليس بما قد حوى من نشب

* * *

هذه أبيات لشيخ الشعراء ، المغفور له اسماعيل صبرى باشا ، يقرظ بها كتاب «قلائد الحكمة» ، الذى ألفه الأستاذ المرحوم الشيخ أحمد الزين ، وهو لما يزل طالبا فى سن العشرين ، وقدم له الأستاذ العلامة محمد فريد وجدى بك بمقدمة فى فلسفة الاخلاق ، جاء فى ختامها : « هذا غيض من فيض أسوقه بين يدي ما أنا فيه الساعة من النظر فى أرجوزة الاخلاق الموسومة بقلائد الحكمة للشاعر المطبوع الشيخ أحمد الزين ؛ فقد جمعت فى أقل من ألف بيت ، ما تشئت من شمل الكلم التوابغ ، وتفرق من درر الحكم البوالغ . . . ولا غرو ، فقد نبغ الأستاذ الزين عبقرىا بطبيعته ، كبيرا على حدائته ، مبرزاً وهو فى سن العشرين ، على فحول المعرقين ، .

من هذه القلائد فى آداب الأصدقاء :

أرى القضا أسرابا فاطلب الأصحابا
إن الصحاب عدة ذخيرة للشدة

هم زينة الإنسان وسلوة الأحزان
هم حلية المعطل وعم سلاح الأعزل
إياك والمنازعة فانها مقاطعة

وأذكر — وما أوجع الذكرى ! — أنه حينما كان يطيب لنا في نادي الشعراء « قهوة عم حسين بشارع محمد علي » أن نغم بأثارة المرحوم الزين ، يقودنا المرحوم الأستاذ الهراوي ، في نشيد منغوم ، تتجاوب أصداؤه فتستوقف السابلة ، ويهتاج الزين ، فيقذف كل واحد منا بمقطعة ؛ فهذا جاهل ، وهذا متشاعر ، وهذا لو ذهب كل كلمة من شعره إلى صاحبها ، لما بقي له شيء الخ ونحن — مع كل أولئك — ما نزال نتغنى منشدين :

« يمشى » القطا أسرابا فاطلب الأصحابا
هكذا نغير « أرى » فنجعلها « يمشى » والقطا لا يمشى ، ولكنه يطير ؛ لنزيد في ثورته وإقذاعه ، حتى نبليغ من ذلك ما نريد . أوّاه
لله أيا منّا المواضى لو كان ماض لنا يعود ! وهيهات !
ومنها في فضل العلم :

والعقل غرس طيّب له العلوم صيّب
يذبل منه ناضرة إن لم يصبه ماطره
فروه بالعلم وزكه بالفهم
والذهن مثل النار في المرخ والعفار^(١)
وختمها بقوله :

تلك سجايا عالية وذى عظات غالية
جمعتهما في شعري كلؤاؤ في نحر
في حين أن الأدبا في أرض مصر تضبا
وباذل الآداب كباذل التراب
فكدت عنها أنكل لولا الامام الأفضل

(١) للمرخ والعفار : شجرتان فيهما نار ليس في غيرهما من الشجر ، ويسوى من أغصانها الزناد فيقتدح بها .

علامة الزمان ومهبط العرفان
هذا فريد العصر وغرة في مصر
وذو الملا والمجد فيها « فريد وجدى »
تلك يد لا تكفر ونسبة لا تكر

وقد طبعت هذه القلائد سنة ١٩١٨؛ وكان قد سبقها إلى الوجود، والتطوف الدانية، فطبعت سنة ١٩١٧؛ وهى « باكورة شعر الزين »، جمع فيها طائفة من قصائده في مدائح بعض البارزين يومئذ، وعلى رأسهم المغفور له صاحب العظمة السلطان حسين كامل، طيب الله ثراه. وفي الغزل والعتاب، وختمها بتخميسه لمعلقة امرئ القيس، الذى نشره قبل ذلك على حدة؛ وكان له فى آفاق الأزهر وخارج الأزهر صدى بعيد المدى.

وعلى الرغم من قوة شعر الزين فى هذه الباكورة الرائعة المبكرة، فتمد طغت عليها محفوظاته الزاخرة، فظهرت المحاكاة فى مواضع منها؛ قوية حيناً، وضعيفة حيناً؛ ولكنها على كل حال بواكير نابغة موهوب.

فمن غزله الرقيق :

أهاج الشوق من سلمى أذكأرُ	عشية خف بالركب القطارُ
وزار لها على الهجران طيف	وهل أبقي الهوى بى ما يُزار؟!
تردّت من غداؤها بلبيل	كذلك يرتدى الليل النهار
أترهب غرب سيفك أسد ترج	ويعيمك التجلد حين ساروا
تسائل أربعا بالجرع أقوت	ونحى رسمها ديم غزار
فما لطلوها تأبى جوابا	وأنى تنطق الدمن القفار
وقد حل اليبلى فيهن حتى	كأن على معلمن قار « كذا »
كأن لم تغن بالشمار ليلا	ولم توقد بها للضيف نار

* * *

ومما يبدو فيه المحاكاة، قوله يندح « علامة العصر، وفريد الدهر، ونغم مصر، الأستاذ محمد فريد بك وجدى، معارضا مروان بن أبى حفصة فى قصيدته التى أولها: « طرقتك زائرة ففى خيالها » :

قفْ بالرُّبُوعِ مسائلًا أطلالها أمست يجرُّها الصبا أذيالها
دَمَنَ عفونٌ ، وأصبحت عرصاتها تُزجى بها قُلُوصُ النعامِ رثالها
ولقد نعمتَ بها ودهركَ مقبل بوعودِ خود ما خشيتَ مطالها
دارَ لبيضاءِ السوائفِ طفلة رُودُ مُزيرٍ على الفراقِ خيالها
وكانَ بارقٌ ثغرها إن حدثت هنديةً ضمنَ القيونِ صقالها
وكانَ في فيها سلافاً قرقفا تستيكِ من بعد الكرى سلسالها
عهدي بها تصل الحبال ، فما لها قطعتَ حبالك بعد وصلك مالها ؟
أرأتِ نذيرَ الشيبِ لاحَ بمفرق أم قد أطاعت في الهوى عذالها
لا تحسبي يا نعم شبي كبرة لكنها غير الخطوب ، فيا لها !
مما حمى عيني كراها أننى فى أمة قد سَوَدتْ جُها لها
ما زال ليلَ الجهل فيها ضاربا حتى رأيتك يا د فريد ، هلالها



ومن الطريف الذى لا ينمضى عجبهُ ، خلق الاعتداد العالى بالفس ، الذى
شب مع الزين وصحبهُ إلى الحده ، فحدا به — وهو لما يزل طالبا — إلى أن يوجه
إلى المخفور له الشيخ عبد الرحمن قراعة ، وهو مدير الأزهر ، وفى الخلاصة من
أدبائه ، قصيدة من ثلاثين بيتا ، يماثبه بها . ويبحث بها إليه ؛ يقول له فيها :

تَحَمَّلْ رعاكَ اللهُ منى رسالةً تبلغها عنى المدير المعظما
تقول له : إني صحبتك حجة أظنك لى يوما إلى المجد سلما
ألا إن سوء الظن بالمرء عجمة نضن بكل الناس شرا لتسلما
ولا تنس يوما من مسمى إساءةً وإن هو أولاك الخيل وأنعما
ولا تك بمن غره الجهل فاغدى يمدُّ صديقا من أناه مسلما
وقد كنت لى ضرسا فساوره الضنى فنحيته عنى وقد كان مؤلما
وكان لسانى مُجنّة دون عرضكم وسيفا على الأعداء منكم مصمما
فمن ظلمكم صيرتموه عليكم سليلا ، وكان الظلم للرم مغرما
يكيدون لى من غير ذنب إلى العلا فمن كاد فليمدد بجبل إلى السما

أَضِيعَتْ حَقُوقُ الْأَذْكِيَاءِ بِأَرْضِكُمْ وَكُنْتُ أَرَى أَلَا تَضَاعُ وَتَهْضُمَا
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلدَّحِ عَنْدَكَ حَرَمَةٌ فَشَيْدُ بِنَاءِ الْعَدْلِ إِنْ كُنْتُ مُسْلِمًا

* * *

فأما تخميس المعلّقة، فقد أحدث — كما أسلفنا — ضجة، كان بها خليقا؛
فإن القوة تشيع في أطرافه، ويضعاف الإعجاب به حدائثه، ناظمه، مما طار بذكره
ومهد له من مجالس العظماء في الأزهري وفي غير الأزهري، وأثار في نفوس كثيرين
من لداته ومن غير لداته، الحسد له، والغيرة منه؛ ومن ذا الذي يسمع طالبا في
السادسة عشرة أو السابعة عشرة، يجاري أمير الشعر الجاهلي، الملك الضليل،
فيقول:

بكيت على ربع ورسم معطل يحود ثراه كل أسحم مسبل
وقات وقد حلت بفلج فأسل (قفانك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل،

ربوع بعيد بالظعان عليها ودار بذات الأتل أطفل رثما
وأخرى بحزوى مثلا لاح وشمها (فتوضح فالقراءة لم يف رسمها
لما نسجت من جنوب وشمال،

ويسير فيها على هذا الفسج البارع، حتى يختمها بقوله:

وما زال طير الأيك يسجع بكرة ولم يدر أن قد هاج لقباب لوعة
يحن وما تدرى له العين دومة (كأن هكاكي الجواء غدية

صحن سلافا من رحيق مفلفل،

ثم لا يلا الإعجاب نفسه، أو يأكل الحسد قلبه؟!

والحق أنه لو اطرده في الزمن في حياته، العاملة بنسبة بدايته، لمات وهو
أمير الشعراء وشيخ العلماء؛ ولكن حرفة الأدب أدركته، منذ تخرجه سنة ١٩٢٥
فأخذت ترفع عمله الصالح إلى أسفل، وأخرجت به بعدئذ الدور التي كانت
تسعد لدالته قبلئذ في الأزهري، فتركته يردد:

فيالك بحرا لم أجد فيه مشربا على أن غيرى واجد فيه مسبحا !

* * *

أحرام على بلبله الدو ح ، حلال للطير من كل جنس ؟
ولا من سميع !

ثم عطف عليه المكتبة الملكية ، فسلكته في عماها بالمياومة من سنة ١٩٢٦ حتى أدركه « الإنصاف » فرقاه إلى الدرجة السادسة .

زرت القسم الأدبي الذي كان يعمل فيه « الزين » منذ شهور ، فاستبدتني دون أصدقائي في القسم — وكلهم أصدقائي — وأخذ يطلعني على ثمرات جهوده ؛ ثم قال : أنا أريد أن أعمل في الأزهر ؛ قلت : إن في الأزهر شرا كثيرا لا تقوى على احتماله ؛ قال : وكيف قدرت أنت على احتماله ؟ قلت : مكره أخاك لا بطل ! إنني فيه كما قال أستاذك حكيم المعرة :

فيأبرق ، ليس السكرخ دارى وإنما رمانى اليه الدهر منذ ليال

قال : فلا كن معك في الجحيم ! قلت : سأرجو أولياء الأمور أن يندبوك لدراسة الأدب في كلية اللغة ؛ قال : بل يبنونى تعيينا ؛ قلت : إن دون ذلك أهوالا ! قال : حاول ؛ قلت : أبذل جهدى .

ثم زرت القسم الأدبي بعد ذلك بأسابيع ، ولما سألت عنه ، قيل لى : لقد نقل الى وزارة المعارف ، قلت : عجا ! وما يصنع الزين في وزارة المعارف ؟ قيل : إن « التنسيق » قد أهله للدرجة الخامسة ؛ ولما لم يكن في ميزانية المكتبة خامسة خالية ، فقد نقل الى « قسم الثقافة » في الوزارة ، نشدانا للدرجة ؛ قلت : خير . وتنظرت أن أقرأ اسمه في ترقيات وزارة المعارف في الصحف ؛ ففجأني نعيه بعد أيام !

* * *

ولم يقتصر النحس الذى لازم الزين ، على الحياة العملية ، بل أدركه حتى

في الأدبيات ؛ فأن غيره من الشعراء الذين يعترفون للزین بالتقدم ، ويعتقد هو - وهو محق في الجملة - أنه أشعر منهم ، كالاستاذ على محمود طه ، والاستاذ رامى ، والاستاذ محمود أبو الوفا ، قد شغلوا كبار الفن الغنائى فى مصر ، بآثارهم ، من الأشعار ، والموشحات والأزجال ؛ ولم تسمح أم كلثوم ، ولم يسمح عبد الوهاب ، بتلحين مقطوعة للزین ، على تطلب ، وعلى صلاحية شعره ، وبخاصة ما صنفه لهذا الغرض كمقطوعة « العود » للتغنى والتلحين ؛ ومرد ذلك الى إصرافه فى الاعتماد بالنفس كما قلنا ؛ ولا يتلاقى تيه وتيه ؛ فى المثل : « تيه مغن » ، وكطرف زنديق » .

* * *

وقد غلب على الزین : « الشاعر الراوية » منذ أحداثه ، لكثرة محفوظاته ، التى جرت فى شعره أولا محاكاة وتقليدا ، ثم لما أخل سرت فيه جزالة ، ونغامة وشدة أسر ورصانة قافية وحلاوة جرس . وكان الزین جميل الإلقاء ، لا يتكلف ولا يتصنع ، ولا يمزج الكلام مضغاً ، يغشى النفس ، ويسك السمع ، كما يفعل كثير من المتكلمين ؛ بل كان يرسل الكلام على سجيته ، متغنيا مطبوعا ، فيخيل الألباب ، ويسحر النفوس ، ويستولى على القلوب .

وما أقيمت حفلة رثاء لعظيم من عظماء مصر ، إلا كان مكانه فيها بجانب شوقي وحافظ والمطران ؛ يُذنى غيره ويُذكر ، ويرد غيره ويطلب ؛ وهو فى كل أولئك مطمئح الأنظار ، وزين الحفلات !

* * *

أما بعد ، فلقد فقد الأزهر آنفا ، شاعرا أكسبه نفرا بلا ثمن ؛ أجل ، لقد فقد الزین !

ابن مضاء القرطبي

والرد على النجاة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد علي النجار
المدرس بكلية اللغة العربية

— ٢ —

٣ — ويلج المؤلف في ذكر مساوئ حذف العامل ، وما استتبعه من فساد وخطأ ؛ فهناك ضروب من الحذف في زعم النحويين لو أظهِر المحذوف لاستحال المعنى وغث ، وكان التأليف تأليف سوء يمجّه الذوق وينبوه اللسان . واختار ابن مضاء للإبانة عن دعواه هذه مثالين :

١ — فهم يقدِّرون في أسلوب النداء — نحو يا عبد الله — العامل أدعو . ومن المقرّر أن أسلوب النداء لإنشاء لا خبر ، ولو أن هذا الذي قدّره النجاة أبرز ، فقيل : أدعو عباد الله لا تقلب الكلام خبراً ، ولتغيّر الأسلوب وزال عن وجهه ؛ ومبعث هذا هو تقدير العامل ، وجعل قضيتته في العربية ضربة لازب لا مناص منها . والنحويون لم يكونوا ليغيّب عنهم ما أورده عليهم ابن مضاء وألزمهم إياه . وهم يقولون : إن الخبر قد يأتي في موقع الإنشاء ، كما يقال : سدّد الله خطاه ، وأجزل ثوابه ، وهذا لا يججده القرطبي فيما نعلم . وفي أسلوب النداء من الدليل على أن الغرض الإنشاء من لفظ الخبر لو صرح به ، مالا مجال لإنكاره . ويقول النجاة : إن العرب عدلوا عن ذكر العامل وإنابة الحرف عنه ، للنص على هذا الذي يحرص عليه المؤلف الناعى عليهم ، وليكون الأسلوب إنشاء لا ريب فيه ، ولا احتمال يعتريه . وقد دعاهم إلى أن في الكلام تقدير أن النداء كلام مستقل ، والشأن في الكلام أن يتألف من اسم وفعل أو من اسمين . وما عهدنا كلاماً تألف من حرف واسم ، فهذا مبعث التقدير ، وليس مبعثه — كما يزعم القرطبي —

العامل . ويحسن أن أذكر هنا أن من النحويين من لا يقدر العامل في أسلوب النداء .
فيرى المبرد أن ^(١) حرف النداء هو العامل لصدّه . صدّ الفعل ؛ ويرى أبو علي
الفارسي أن أدوات النداء أسماء . وإذا لا يتوجه هذا التمدد إلى جميع النحاة ، كما
يوهمه كلام ابن مضاء .

ب — والنحويون يقدرّون في نصب المضارع بعد الفاء والواو أن
المصدرية ، ويسندون النصب إليها وهي مضمرة لا سبيل إلى إظهارها . ففي نحو
اجتهد فتتجح ، التقدير اجتهد فأن تتجح . وقد ساقهم هذا إلى تأويل هذه الجملة
بالجملة الآتية ، ليسكن منك اجتهد فنجاح . وقد عملت أن مظهر ومضمرة
لكثرة استعمالها في النصب بها ، فكانت أمّ الباب في النصب كما يقول
النحويون . والقرطبي يورد عليهم المثال : « ما تأتينا فتحدثنا ، فإن
تأويله على مذهب النحاة : « ما يكون منك إتيان لحديث » . ويزعم
القرطبي أن هذا التأويل لا يقوم في المعنى والغرض بما قام به الأصل . ذلك أن
المثال « ما تأتينا فتحدثنا » يأتي على وجهين من المعنى ؛ فيجوز أن يكون المراد :
ما تأتينا فكيف تحدثنا ! أي أن يكون المراد نفي الإتيان فينتفي تبعاً لذلك الحديث ؛
إذ كان الحديث مسبباً عن الإتيان . ويجوز أن يكون المراد : ما تأتينا محدثاً ، أي
ما تأتينا في هذه الحالة حالة تحدثك إيانا ، وإنما تأتينا غير محدث لنا . فهذان
المعنيان يحتملهما الأصل . فأما تأويله وهو « ما يكون منك إتيان لحديث » ، فلا
يحمل هذين المعنيين ، فيما زعم ابن مضاء ، رحمه الله . وهنا وقع في الكتاب
في الحديث عن التأويل : « وهذا اللفظ لا يعطى معنى من هذين المعنيين ، وأغلب
الظن أن الأصل : لا يعطى هذين المعنيين . ولم يفصح ابن مضاء عن وجه قصور
التأويل عن الأصل ، ويغلب على الظن أنه يرى أن التأويل يعني نفي الإتيان البتة .
على أن هذا زعم من ابن مضاء لا يتابع عليه ؛ فإذا قلت : ما يكون منك إتيان
لحديث ، كان المعنى : ما يكون منك إتيان يعقبه حديث . وهذا يكون إذا لم يأت
أصلاً ، أو أتى ولكنه لم يحدث ؛ ولا شك أنه في الحالة الأخيرة يصح أن يقال :
ما جرى منك إتيان لحديث ، بل أتيت فلم تحدثنا . ومن المعروف الذي لا ينكر

(١) راجع شرح الرضي على السكاكية في مبحث للنادى .

أن النفي إذا توجه الى مقيد بمقيد فقد يقع النفي على المقيد ويتبناه نفي القيد ، وقد يقع النفي على القيد دون المقيد . وقد جاء قوله تعالى : « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها » ، ويرى بعض المفسرين أن جملة ترونها فى موقع الصفة لعمد ، ومن هؤلاء من يرى أن المعنى أن ليس هناك عمد ، وبعضهم يرى أنها لا عمد لها لا ترى ، ومن هؤلاء مجاهد وقتادة . ويرى الفخر الرازى أن الماضى بالعمد إمساك الله لها ، وتديبره لها ما تبقى به فى الحيز العالى ، ولا تساقط . وقد بان من هذا أن التأويل يقوم فى المعنى بما قام به أصله . فأما وجوب إضمار أن وتجنب ذكرها فيعمله النحويون بالمحافظة على صورة عطف الفعل على الفعل ، ولو أظهرت أن لسان كان فيه صورة عطف الاسم على الفعل .

ومما ينبغى ذكره فى هذا المقام أن تقدير أن وإحالة النصب عليها هو رأى البصريين ، فأما الكوفيون فيرون النصب بالفاء والواو ، فلا حذف عندهم ، ومن ثم لا يتوجه هذا النقد اليهم . ومن الكوفيين من يرى أن النصب بالمخالفة ، وهى عامل معنوى لا يحوج الى تقدير . وهنا ينبغى أن ننبه الى ما يكرره ابن مضاء أن النحويين وضعوا هذه القاعدة « كل منصوب فلا بد له من ناصب لفظى ، فقد رأيت أن الكوفيين منهم من يجعل النصب بالمخالفة ، وهو عامل غير لفظى ، وهذا العامل يقولون به فى الأسماء ، كالمفعول معه .

٤ — ويورد ابن مضاء على القول بالحذف نقضا يصوغه فى صيغة الحجة والمنطق ، ويضيق عليهم الخناق فى الجدال والخصومة ، فإذا هو خصم جدل قدير ، فهو يردد الحذف بين أن يكون المحذوف له وجود فى النفس ، أو لا يكون له ذلك ، فإذا لم يكن له وجود فى النفس فأنى يعمل ! « ونسبة العمل إلى معدوم على الإطلاق محال ، وهو إنما يورد هذا الوجه لتتيم الحصر ، وإلا فإن النحاة يكفونه مؤنة هذا ولا يقولون به . فأما إذا كان لها وجود فى النفس وحذفت فى الكلام إيجازا ، فإن هذا يترتب عليه أمور كلها مبرهن : أفليس الكلام يكون ناقصا إذا حذف منه بعض أجزائه ؟ فهذا أحد الأمور ، وهذا الذى يقدره النحويون أى دليل عليه فى الكلام ! إن الذى بعثهم على القول بالحذف أمر ليس فى صميم الكلام ، ولا فى طبيعة الأسلوب ؛ وإنما هو ما وضعوه

وافترضوه : « إن كل منصوب فلا بد له من ناصب لفظي » وهذا أمر ظني لا يدفع إليه قاطع من دليل ، وهو ما لا ينبغي أن ينصب في وجه البقين ، وهو خلو الكلام من هذه المقدرات ، فيقدر ما شاء النحويون وشاءت صنعتهم . ويستجير ابن مضاء النحويين بعد هذا إلى أهوية يتمتعون فيها صرعى : أليسوا بهذه المحذوفات التي انساقوا إليها يزينون في كتاب الله ما لم يأت به سلطان مبين ولا كتاب منير ويقولون في القرآن بآرائهم ، وقد جاء في هذا الوعيد الشديد ، ويقولون في القرآن بغير علم ، وهذا من أكبر الموبقات والآثام ! .

والنحويون لا يبالون أن يكون الكلام ناقصا إذا دل الدليل على أن في الكلام حذفاً . وابن مضاء يقول بالحذف في بعض الكلام ، ويرضى للكلام أن يكون ناقصا إذا دل عليه دليل : كما في قوله تعالى : « ناقة الله وسقياها » . وهم يرون فيما يذهبون إليه من وجوه الحذف أن الدليل دل عليه . فلا عليهم أن يقال إن الكلام ناقص كما يقول ابن مضاء . وموضع الخلف بينهم وبين ابن مضاء أنهم يرون أنفسهم مسوقين في الحذف وراء الدليل ، وابن مضاء ينكر عليهم هذا . وفي الأمثلة التي أوردها عليهم — نحو أزيذا ضربته ؟ ويا عبد الله ، وما تأتينا فتحدثنا — دل الدليل القوي عندهم على الحذف فاعتمدوه وقالوا به : كما قال هو في بعض أبواب الحذف . ولو أنه أقنعهم بأنه لا وجوب للحذف لعدلوا عنه ، ولكشفوا مؤنة التأويل والتقدير . ولكنه لم يبلغ أن يصرفهم إلى رأيه ، ويلفتهم عما استقر عندهم من الرأي والمذهب . وإذا كان الحذف لبعض أجزاء الكلام — عاملا كان أو غير عامل — سنة من سنن الكلام العربي ، فلا بدع أن يكون في القرآن الذي جاء على غرار الكلام العربي ذلك . وينص ^(١) العلماء على أن المقدرات في الكتاب العزيز ليست منه ؛ إذ هي إنما اقتضاها تركيب الكلام وفهم المعنى . والمقدرات بعد ليست من اللفظ المنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أثر وجمع بين دفتي المصحف الكريم . ومن العلماء من يرى أن المقدرات من القرآن ولكنها ليست لها أحكام القرآن اللفظية ؛ من الإعجاز وحرمة القراءة على الجنب ، وما جرى هذا المجرى . وبعد فالأمر لا يدعو إلى هذا التهويل الذي ركب مثته ابن مضاء وبالغ فيه وأرخص لنفسه فيه العنان .

(١) انظر حاشية الأمير على عهد السلام على جوهرة التوحيد في مبحث بسملة المصنف .

٥ — ويذكر ابن مضاء فيما يورده على النحويين تقديرهم متعاق الجار والمجرور في نحو « زيد في الدار » إذ يقولون : إن التقدير كائن أو استقر . وليس لهذا التقدير من باعث إلا ما وضعوه من : كل أثر إعرابي فلا بد له من عامل . وأقول له : إن التقدير في هذا الباب لا يعتمد عليه جميع النحويين ؛ فمن النحويين من يجعل الخبر هو الملفوظ ولا يقدر شيئاً . فممكن أن ينبغى أن يعرف ذلك ابن مضاء ويتابعهم إذا شاء ، ويعرض عن الرأي الآخر ، والذين قدروا دُفعوا إلى هذا بما ساقهم إليه النظر في الكلام العربي . فمقد وفقوا على قول كثير عزة :

فإن يك جثماني بأرض سواكم فإن فؤادي عندك الدهر أجمع
إذا قلت : هذا حين أسلو ذكرتها فظنات لها نفسى تنوق وتزع

فيرى أن أجمع تأكيد مرفوع ، وليس في الكلام المنطوق ما يصلح أن يكون متبوعاً لهذا التوكيد . فكان أن ذهب النحاة بحق إلى أن الأصل « كائن عندك » ، وفي كائن ضمير مرفوع انتقل إلى الظرف حين حذف الوصف ، وجاء تأكيد هذا الضمير مرفوعاً على نسقه . وحق لهم بعد هذا أن يروا أن العربي ينوي متعلقاً في هذا الأسلوب . ولولا هذا ما ساغ الإتيان بالتوكيد المرفوع . ويرى الناظر أن هذا استدلال صحيح ونظر صائب لا يدفعه ابن مضاء إن ابتغى شريعة الإنصاف .

٦ — وما يعتمد عليه ابن مضاء ويأخذه على النحويين ما يروونه من استتار الضمائر في المشتقات التي لا ترفع الاسم الظاهر ، نحو محمد قائم . وذكر ابن مضاء من أدلة النحويين على هذا الزعم قول العرب : زيد ضارب هو وبكر عمرا ، فقد جاء هو تأكيداً للضمير في ضارب ، ولا يجوز أن يكون هو فاعلاً لأنه ضمير منفصل ، ويجىء الفاعل ضميراً متصلاً هنا بالاستتار ممكن ، فلا يعدل عنه ، كما هي السنة في كلام العرب . فقد ثبت استتار الضمير في الوصف في هذا الأسلوب . والعرب تعتمد إلى هذا حيث يريدون العطف على فاعل الوصف كما في هذا المثال . وابن مضاء يبدو منه أنه لا يعارض في استتار الضمير في هذا الموضع من الكلام حيث الحاجة ماسة إليه حتى يؤكد فيجىء العطف عليه . ولكنه لا يرى طرد ذلك وتعميمه في سائر المواطن حيث لا تدعو الحاجة إليه . والنحويون يرون

أنه في هذا الأسلوب بدت نية العربي في شأن هذا الوصف وأنه يلاحظ فيه ضميراً، فكان ما ظهر دليلاً على ما خفي؛ وهذا استدلال صحيح. فأما التفريق بين الوصف في الأساليب مع اتحاد اللفظ والمعنى فما لا يستقيم مع النظر الصحيح والمنطق السديد.

ويذكر ابن مضاء أيضاً من أدلة النحويين على استتار الضمائر في الأوصاف قول العرب: مررت بقوم عرب أجمعون، ومررت بقاع عرّ فجع كلّه. ألا ترى أن أجمعون تأكيد مرفوع، ولا وجه له إلا أن يجعل تأكيداً للضمير في عرب وهو مرفوع؛ وكذلك كله تأكيد مرفوع تابع للضمير المرفوع في عرّ فجع؛ وذلك على تأويل الجامدين: عرب وعرّ فجع بالوصف؛ فيراد بعرب المتولدون من الجنس المعروف، وبالعرّ فجع المندرج في هذا الجنس من الشجر. وإذا ثبت استتار الضمير في المؤول المشتق فأولى أن يثبت في المشتق المحض. ويسلم ابن مضاء بهذا، وإنما يتكلم في طرد هذا، وقد عرفت أن لا وجه له في هذا التأني؛ فالشأن في اللغة الاطراد والاقتياس؛ وشأن العلماء الاستدلال بالأمر يبدو في بعض المقامات على حاله في سائرهما متى صحّ لهم وجه الاطراد ولم يظهر وجه التفريق.

٧ — وأنكر ابن مضاء على النحويين قولهم باستتار الضمير في الفعل في نحو زيد قام، وساق كلاماً طويلاً في هذا المقام، وأورد في نهايته الكلام على الاستتار والحذف، ولم يستبين الفرق بينهما. والنحويون يرون استتار الضمير في مثل هذا إذ رأوا أنه يقال: إن زيدا قام هو وعمرو؛ وواضح أن الضمير ليس هو الفاعل، وإنما هو تأكيد للضمير المستتر على حد ما قلنا فيما سبق في الكلام على الوصف. وهم يرون أن هذا الضمير ينبغي أن يكون فوق رتبة المحذوف، ويكون في حكم المذكور وإن لم يكنه حتى يسوغ توكيده؛ وذلك أن التوكيد يقتضى الاهتمام بالموكد والبعد عن حذفه وإطراحه. فدفع النحاة إلى القول بالضمير المستتر وأن يجعلوا له من قوته في النفس واتصاله بالمذكور ما ليس للحذوف. وبذلك يبين الفرق بين الاستتار والحذف، ويبين وجه القول فيما أورده ابن مضاء على النحاة.

٨ — وينكر المؤلف على النحاة وضمهم باب التمرين في الصرف ، وأنه لا جدوى ولا غناء في تعلمه والاشتغال به . وباب التمرين يقصد به تنبّه طالب العربية إلى القواعد الصرفية ، وكيف يصوغ الكلمة وفق القوانين والمزاج العام للعربية . وقد تدعو الحاجة إلى ارتجال كلم لا توجد في اللسان ، فيحسن أن يتعود متعلم اللسان هذا الأمر . قد يدعو الأمر إلى أن أسمى من أشياء اسما يوازن فعلا من مادة باع ، فهل أقول : بوع أو بيع ؟ وقد أسمى بعض العقاقير بموازن فاعول من مادة الشفاء ، فهل أقول : شافي أو شافئ ؟ مثلا ؟ والذوق العربي يجب أن يسود في المرتجل ويجرى طبقا للقول في العربية . ويعجبني هنا ما تفعله العامة بألسنتهم في الكلمات المعربة ، فهم إذا خلوا وسجيتهم أتوا بها صحيحة إلى حد ما . ألا تراهم يقولون : السيامي السيما ؟ وترى المثقفين يحرصون على السيما ، ولفظ العامة أقعد وأقيس . وتراهم يقولون : الكسرونة لما عربوا كسرُول Casserole الفرنسية . وقد جروا على المزاج العربي الذي يستقل الرأ قبل اللام ، ولا يحفظ ذلك إلا في ألفاظ معدودة منها الغُرلة ، وأرُل اسم لجبل . ونحن في هذا العصر الذي يحتاج فيه إلى إبداع أسماء للسميات الحديثة أحوج ما نكون إلى التوسع في باب التمرين ، والتبحر فيه ، واكتناه أسرار العربية ، حتى نحاذيها ونسير على منهاجها . والله الموفق للصواب .

بيان حقيقة

نسب إلى زميلي الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان أبياتا في مقاله المنشور بعدد (جمادى الأولى من مجلة الأزهر) فأصرح بأنها ليست لي ، ولا أحب أن تنسب إلى ولو مداعة ؟

عبد المتعال الصعيدي

ضرب الناشزة في الاسلام

مباح مبعوض

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعدي

المدرس بكاتبة اللغة العربية

قد يقرأ كثير من الناس قوله تعالى في الآية — ٣٥ — من سورة النساء :
 « واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واجبروهن في المضاجع واضربوهن ، فإن
 أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، إن الله كان عليا كبيرا ، فيظن أن الله أباح للرجال
 ضرب الناشز من النساء على أنه شيء يليق بالرجل الكامل ، ولا يقدح في مروءته
 ولا ينقص من منزلته . وقد يفهم كثير من النساء أن الله أباح بذلك ضرب
 الناشز منهن إبادة خالصة ، يأتيها الرجال كما يأتون سائر المباحات ، فلا يكون
 عليهم فيها حرج ، لأن إتيان المباح لا حرج فيه ، بل قد ورد الترغيب في إتيان
 ما أباحه الله ، لأن الله يحب أن تأتي بما أباحه لنا ، كما يحب أن تأتي بما فرضه علينا ،
 ولهذا ذم في القرآن من حرم على نفسه ما أباحه الله له ؛ فإذا فهم بعض النساء
 ذلك من إبادة ضرب الناشز منهن دخل في نفوسهن منه ما يدخل ، وقلن كيف
 يضع الله تعالى المرأة من الرجل هذا الموضع المذل ، وهو الذي رفع من قدرها
 ما رفع ، وأعطاها من الحقوق ما أعطى ، ومنع عنها من المهانات ما كانت فيه
 بمنزلة العجاوات ، إذ كانت تحرم من الميراث ، ويحدها فيها كفرد من الأسرة ،
 وإذ كانت تورث مع التركة ولا ينظر إليها في هذا كإنسان لا يصح أن يورث ،
 وإذ كان يباح للرجل وأدها وينظر إليها في هذا كحيوان لا حرمة لنفسه ، فلم يرض
 الاسلام لها شيئا من هذا كله ، وأنصفها فيه من الرجال الذين استغلوا ضعفها بإزاء
 قوتهم ؛ فكيف يبقى لهم مع هذا حق ضربها ، ولا يرى فيه شيئا من الحرج عليهم ،
 وفي هذا هدر لكرامتها كشریک لزوجها في منزلها وأولادها ، وخط من منزلتها

أمام أولادها وخدمها ، فتسقط هيبتها في نفوسهم ، ولا يؤدون لها حق الطاعة كما يجب ، لأن الزوج يعاملها بالضرب أمامهم كما يعاملهم ، فلا يرون فرقا بينها وبينهم .

ولإني أرى أن أعنى أولا بدفع ما يفهم من تلك الآية من إباحة ضرب الناشز من النساء إباحة خالصة ، وأن أبين أن الله يشرع في مثل هذا للمصلحة التي لا يصح أن تتأثر بالعاطفة ، فيبيح أحيانا ما لا يرضيها لأن المصلحة تقتضيه ، وقد يصل في إيثار المصلحة إلى حد أن يبيح من الأشياء ما يبغضه ، ولهذا أباح الطلاق وجعله أبغض الحلال إليه ؛ وكذلك ضرب الناشز من النساء ، فليس من المباحات التي يحب الله أن تؤتى كما تؤتى فروضه ، وإنما هو كالطلاق الذي أباحه وكره أن يؤتى .

ولإني هذا ذهب عطاء في ضرب الناشز من النساء ، فقال : لا يضرها وإن أمرها ونهاها فلم تطعه ، ولكن يغضب عليها . وقد ذكر القاضى أبو بكر بن العربي أن هذا من فقه عطاء ، فإن من فهمه بالشريعة ووقوفه على مظان الاجتهاد علم أن الأمر بالضرب في تلك الآية أمر إباحة ، ووقف على الكراهية من طريق أخرى ، في قول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث عبد الله بن زعمرة « إني لأكره للرجل يضرب أمته عند غضبه ، ولعله أن يضاجعها من يومه » . وروى ابن نافع عن مالك عن يحيى بن سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استؤذن في ضرب النساء ، فقال « اضربوا ، ولن يضرب خياركم ، فأباح وندب إلى الترك ، وإن في الهجر لغاية الأدب . ثم قال القاضى أبو بكر : والذي عندي أن الرجال والنساء لا يستوون في ذلك ، فإن العبد يقرع بالعصا ، والحر تكفيه الإشارة ، ومن النساء بل من الرجال من لا يقيمه إلا الأدب ، فإذا علم ذلك الرجل فله أن يؤدب ، وإن ترك فهو أفضل . قال بعضهم وقد قيل له : ما أسوأ أدب ولدك ! فقال : ما أحب استقامة ولدى في فساد ديني . ويقال : من حسن خلق السيد سوء أدب عبده . وإذا لم يبعث الله سبحانه للرجل زوجة صالحة وعبدًا مستقيما فإنه لا يستقيم أمره معهما إلا بذهاب جزء من دينه ، وذلك مشاهد معلوم بالتجربة .

وقد ورد مثل هذا في كتاب الطبقات لابن سعد ، فروى عن القاسم بن محمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ضرب النساء ، فقيل : يا رسول الله ، إنهن قد فسدن ، فقال « اضربوهن » ، ولا يضرب إلا شراركم . وروى عن أم كلثوم بنت أبي بكر أنه كان قد نهى الرجال عن ضرب النساء ، ثم شكاهن الرجال إلى رسول الله نغلي بينهم وبين ضربهن ، ثم قال « لقد طاف بآل محمد الليلة سبعون امرأة كلهن قد ضربت ، ما أحب أن أرى الرجل تأثر فريص عصب رقبته على ممر يئته يقاتلها » . وروى عن إياس بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا تضربوا النساء » فتركوا ضربهن ، فجاء عمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، قد أبر النساء على أزواجهن ، فأنذن في ضربهن . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لقد طاف بآل محمد الليلة سبعون امرأة كلهن تشكو زوجها ، ولا تجد أولئك خياركم » .

فهذه كلها أحاديث تدل على كراهة ضرب الناشزات ، وتصف من يضربهن من الرجال أقبح وصف ، فيجب أن تحمل إباحة ضربهن في القرآن على حال الضرورة ؛ وهذا حين لا يجد الرجل مفرأ من هذا التأديب ، فيكون التأديب بالضرب حينئذ خيراً من التأديب بالطلاق ، لأن ضرر الضرب يقتصر أمره على المرأة ، أما ضرر الطلاق فيتعداها إلى أولادها ومن يؤذيه طلاقها ، ويورث العداوة والبغضاء بينه وبين أهلها .

على أن السنة قد بينت الضرب الذي أباحه القرآن في حال نشوز المرأة ، فإذا هو لا يطلق عليه اسم الضرب إلا على نوع من التجوز والتساهل ، وقد جاء تفسير هذا الضرب في بعض ما رواه الطبري ، فروى عن قتادة أنه قال في تفسير « واحجروهن في المضاجع واضربوهن » : تهجرها في المضجع ، فإن أبت عليك فاضربها ضرباً غير مبرح ، أي غير شائن .

وروى عن عطاء أنه قال : قلت لابن عباس : ما الضرب غير المبرح ؟ قال : بالسواك ونحوه . وفي رواية : السواك وشبهه يضربها به . ولا شك أن الضرب بالسواك وشبهه لا يعد ضرباً ، وإنما هو مس رفيق يكفي في تنبيه الحرة الى خطئها وإرشادها إلى طاعة زوجها ، فإن لم يكف في هذا لم يحز تعديده إلى الضرب بغيره ؛

فإما صبر على أذاها ونشوزها ، وآثر الصبر على المفارقة بالطلاق ، وله في ذلك أجر الصابرين ، وجزاء المحسنين ؛ وإما طلقها ليحفظ على نفسه دينه ، ولا يضارها بامساكها على كره منها .

وبهذا يتبين أن الإسلام لم يخالف سنته في إنصاف المرأة بإباحة ضرب الناشزة ؛ لأنه لم يبح منه إلا المس الرفيق ، وهو في الحقيقة يقصد منه التنبيه لا الضرب ؛ ولأنه مع هذا نفر الرجال منه ، وجعل من يفعله من شرارهم ؛ ولأنه يقصد منه مصلحتها ، وأن يتق به الفرقة بالطلاق ، وضرر الطلاق أكبر من ضرر مثل هذا الضرب . ويجب على النساء أن يهدن من ثأرتهن ، وألا يجرين في هذا مع عاطفتن ؛ لأن المصلحة فوق العاطفة ، وحكم العاطفة كثيرا ما يضرب ؛ أما حكم المصلحة فهو نافع أبدا ، ولا يحصل منه ضرر لمن ولا لغيرهن . ويجب عليهن أيضاً أن يعرفن أن الإسلام حرم ضربهن ، ولم يبح إلا ضرب الناشزة مع كراهته له ، فكاد بهذا يحرم ضربهن مطلقا . وهذا ما أردت أن أدفعه أولا من الخطأ في فهم إباحة ضرب الناشزة في القرآن الكريم .

وإني أبين بعد هذا كيف أبيع للرجل هذا الضرب على كراهته ، وكيف كان صاحب الحق فيه عند نشوزها ؛ وبيان هذا أن الأسرة لا بد لها من رئيس يكون له الحكم فيها ، ويقوم بتدبير أمورها ، ويفصل فيما يحصل من نزاع بين أفرادها ؛ لأن الأسرة إنما هي دولة في داخل دولة ، فلا بد لها من رئيس كالدولة التي توجد بداخلها ؛ وهذا الحق يجب أن يعطى في الأسرة للرجل ؛ لأن هو الذي يقوم برعايتها ، ويسعى فيما يتطلبه وجودها ، فيجب أن يكون هذا الحق له دون غيره ؛ على أنه مع هذا أقوى على النهوض به ، وأقدر على احتماله ، وأصلح له من غيره ؛ وللرئيس حق تأديب مرءوسيه ، وهذا يشمل الأسرة كلها ، ولا يصح أن تخرج المرأة منها ، لتستقيم أمور الأسرة ، ولا يرى أحد من أفرادها أن له حق الخروج على رئيسها ، بل يدين كل فرد منها له بحق الطاعة ، ويذعن لحكمه إذا حكم ، ويخضع لتأديبه إذا أدب ، ولا يرى في هذا حرجا في نفسه ، أو خطأ من كرامته ، لأن مصلحته في هذا التأديب ، وحكم المصلحة فوق حكم العاطفة .

لا اكراه فى الدين

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حسن حسين

المدرس فى الأزهر



الدين بمجموع أمور ثلاثة : إيمان ، وإسلام ، وإحسان .
(فالإيمان) أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر
خيره وشره .

و(الاسلام) أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة
وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج بيت الله إن استطعت إليه سبيلاً .

و(الإحسان) أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . هكذا
أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا جبريل حين سأله عنها فى الحديث
المشهور الذى رواه مسلم بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقال الرسول
فى آخر الحديث : هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم . فهل يتصور أن يحصل الاكراه
فى أحدها أو فى مجموعها ؟ كلا .

الإيمان :

أما الإيمان فهو عقيدة وإذعان وتسليم ، والعقائد محلها القلوب ، ولا سلطان
لأحد على القلوب إلا علام الغيوب : والدين من هذه الناحية ، ناحية العقيدة
والاذعان والتسليم — أعنى الإيمان — أمر عام مشترك بين جميع الأمم من آدم
عليه السلام إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين والمرسلين . فدعوة
الرسول أجمعين تنصب على هذه العقيدة . عقيدة الإيمان بوجوب وجود الله ،
ووحدانيته ، ونفى الشرك والوثنية بشكل قاطع لا مجال للشك والريب فيه .

والناظر في قصص الرسل في القرآن الكريم يجد هذا المعنى في سهولة ويسر ، فما من رسول إلا دعا قومه للتوحيد ونبذ الوثنية . فلا كراه لا يجد له مسلكا إلى القلوب ، إذ لا سبيل لأحد على قلب أحد بالسيف ، فإن أكرهته واستجاب لك فإنما يستجيب لك بلسانه كاذبا تحت تأثير الضغط وخشية الهلاك ، وأنت لا تستطيع أن تكذبه لأنه لا سبيل لك إلى قلبه ووجدانه وشعوره وباطنه وسره ، كما وقع ذلك في صدر الإسلام لبعض أحد أصحاب رسول الله مما سئق عليه فيما بعد . فالسبيل إلى العقيدة إنما هو البرهان الساطع والجهة العملية وتوجيه أفكار الناس وعمولهم إلى آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم ؛ ولذلك كانت دعوة الرسل كلهم مؤيدة بهذه البراهين الساطعة القاطعة « المعجزات » ، واقترنت بحكمة الله جل شأنه أن تكون المعجزات متفاوتة مختلفة باختلاف حال الأمم ومناسبة لهم تمام المناسبة ، لأجل أن تؤدي رسالتها ، وتسلك سبيلها إلى القلوب من أقرب الطرق .

مثال ذلك معجزة السيد عيسى عليه السلام الظاهرة في دعوته « إحياء الموتى » ؛ فإن الطب كثر في زمنه وبلغ نهايته ، ولكن أقصى ما يستطيعه الطبيب الماهر بتواعد عليه وتجاربه هو معرفة الداء وصف الدواء ، فلما أرسل الله عيسى عليه السلام جعل معجزته من هذه الناحية — ناحية الطب — لكن أى طب هذا ؟ طب أذهب قلوب الأطباء وأطار ألبابهم وأذهلهم ، إذ من من الأطباء يستطيع إحياء الموتى ؟ فكانت المعجزة من ناحية علمهم ، لتسلك سبيلها إلى قلوبهم .

وموسى عليه السلام : كثر السحر في زمنه كثرة مزججة ، ونمى السحرة نبوغا فائقا ، وكان فرعون يستند عليهم في تثبيت دعائم عرشه ، ولذلك دعاهم لمعارضة موسى عليه السلام لزعمه أنه ساحر ، وأنهم أعلم منه بالسحر . فكانت معجزة موسى من هذه الناحية ، ناحية ما يعلمون ، لتهربهم ؛ ولذلك كان السحرة أنفسهم أسرع القوم استجابة لموسى ، لأن المعجزة عرفت سبيلها إلى قلوبهم فأمنوا إيماناً لم يزعه تهديد فرعون إياهم بالعذاب المهيّن ، بل قالوا له في شجاعة المؤمنين وصراحتهم « لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا ، فاقض

ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى . إى وربى لقد قالوا له هذا ، مع أنهم حديثو عهد بإيمان ، ولكنها العقيدة لا سبيل للإكراه عليها .

وسيد الخلق أجمعين صلوات الله وسلامه عليه : بحث في أمة عريضة ، في طبيعتها وسليقتها الفصاحة والبلاغة ، لا يجدون في ذلك حرجا ولا مشقة ، وإنما هى طبيعتهم المرسله ، وسجيته المطلقه ، لا غناء ولا جهد ، ولا تحضير ولا مقدمات ؛ فكان البلاغة تجري في دماغهم ، وتردد مع أنفاسهم ، فهم فرسان هذا الميدان بلا منازع . فكانت معجزة الرسول من هذه الناحية : القرآن الكريم ؛ بهرهم ، وأذهلهم ، وأدهشهم . وعلى لسان من جاء القرآن ؛ على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، الأسمى الذى لا يقرأ ولا يكتب ، فكانت الدهشة بالغة ، وكان الذهول مروعا .

وفي الواقع كان الطريق مختلفا ؛ فهم من ناحية يمتقدون أنه من كلام البشر أو الجن ، وبنوا خطتهم في معارضته على هذا الزعم الفاسد ، والقرآن من عند الله لا سبيل إلى معارضته ، ولكنهم عارضوه بعد التحدى ، على اعتقادهم فيه ، فتحداهم بعشر سور من مثله ، فعجزوا ، فتحداهم بسورة واحدة ، بل بأقصر سورة ، فعجزوا عجزاً ظاهراً ، وهم أصحاب هذا الشأن : البلاغة والفصاحة ؛ فتنبه العقلاء إلى أن هذا لا بد من عند الله ، وأن صاحبه رسول ، ما في ذلك شك ولا ريب ؛ فآمنوا من طريق المعجزة إيماناً لم يرحزحه ما صبه عليهم ، وهم المستضعفون ، صناديد قريش من ألوان العذاب ، مما لا يتحمله البشر .

ولإليك بعض ما يحضرنا في هذا الشأن :

هل أتاك نبأ بلال ، الرقيق الضعيف ، وما لاقاه من سيده من ضروب التعذيب والقسوة والوحشية مما هو فوق احتمال البشر ؟ كان يوثق يديه ورجليه ويرقده على حجارة مكة في الصيف الصائف وفي شدة اليقظة ، بعد أن يجرده من ثيابه ، ثم يحمى حجراً كبيراً بالنار ، كأن حرارة الشمس في إبان شدتها لا تكفيه ، ويضعه فوق صدره وبطنه ، فيسيل دمه الى أن

يصل الى درجة النزع ؛ كل هذا لأجل أن يرجع عن عقيدته ، وهو حديث عهد بها ، فلم يرجع ، بل لم يسكت ، فكان يعبر عما في أعماق قلبه من إيمان بقوله أثناء التعذيب الشديد : أحد أحد ! . وكانت كلمة الكفر الظاهرية باللسان ترضى سيده فيخفف عنه من هذا العذاب ، فلم يشأ أن يتحولها . أرايت أروع من هذا المثل الذى ضربه بلال فى التضحية فى سبيل العقيدة ! .

وهل قرأت فى التاريخ الإسلامى ما أصاب أسرة « ياسر ، عمار وأباه ياسرا ، وأمه سمية ؟ أما الأبوان فقد قتلا تحت العذاب ، ولم يرجعا عن عقيدتهما ولا باللسان ، وهما أول قتيلين فى الإسلام ، وأما عمار فقد كان شابا حدثا ، وقد رأى ما أصاب والديه ، وعلم أن مصيره مصيرهما ، فأعطاهما كلمة الكفر باللسان ، فهل كفر عمار ؟ كلا إطلاقا . اسمع ما يقوله الله فى هذا « من كفر بالله من بعد إيمانه ، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم » . واسمع ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال له بعض الصحابة : يا رسول الله إن عمارا كفر : « كلا إن عمارا ملئ إيمانا من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحن ودمه » . هذا قول الله وهذا قول رسوله ، وكلاهما صريح فى أن الاكراه لا يمس العقيدة وإن قال صاحبها ما ينافيها بلسانه . وفى بعض الأحاديث أن عمارا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى ، فجعل النبي يمسح عينيه وقال له : « مالك ، إن عادوا لك فعد لهم بما قلت » فعم إن هناك فرقا شاسعا بين مقام عمار ، ومقام والديه ؛ فهو قد أخذ بالرخصة ، وهما صدعا بالحق إلى أن ماتا تحت العذاب ، فمقامهما عند الله أرفع . ويدل على ذلك ما روى فى حادثة أخرى : أن مسيلة الكذاب أخذ رجلين فقال لأحدهما : ما تقول فى محمد ؟ قال : رسول الله ، قال : فما تقول فى ، قال : أنت أيضاً ، فخلاه أى أطلق سراحه ؛ وقال للآخر : ما تقول فى محمد ؟ قال : رسول الله ، قال : ما تقول فى ، قال : أنا أصم ، فأعاد عليه ثلاثا ، فأعاد جوابه ، فقتله ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أما الأول فقد أخذ برخصة الله ، وأما الثانى فقد صدع بالحق فهنيئاً له » . وهناك صهيب ، وخباب ، وسالم ، وجبر مولى الحضرمى وغيرهم ، كل له قصة ، وكل قد ضرب أرفع الأمثلة فى التضحية فى سبيل العقيدة . فتلك صور

إسلامية رائعة لو أردنا ذكرها لطلال بنا القول ، وربما أفردنا لها مقالا خاصا .
أرأيت معي ، بما قدمناه لك أن الاكراه لا يجد سبيله مع الإيمان .

الإسلام :

أما الإسلام ، وهو الانقياد الظاهري لما جاء به الرسول من الشهادات والصلاة الخ ؛ فله حالتان : إحداهما : أن يكون ناشئا عن العقيدة ، أعنى الإيمان ، فيكون أثرا من آثاره ، وهو الإسلام الصحيح المعتمد به ، لأنه الموافق لما في القلب ، فهذا حكمه حكم الإيمان لا يتصور فيه الإكراه أصلا ؛ لأنه ناشئ عنه وأثر من آثاره ؛ والثانية ألا يكون كذلك ، وهو إسلام غير صحيح لا يعتد به ، لأنه لم يوافق ما في القلب كإسلام المنافقين ، فانهم أسلموا ظاهرا ، وقلوبهم مشبعة بالوثنية والشرك ، وكانوا يصلون كما يصل المؤمنون ، ويصومون كما يصومون ، ويجلسون في مجلس الرسول ويستمعون اليه ، ولكنهم كانوا في كل ذلك كاذبين بشهادة القرآن « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » ، « يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون » .

فهذا النوع من الإسلام لا يسمى في الحقيقة دينا ، فهو خارج عن موضوع « لا إكراه في الدين » . فسيان جاز فيه الإكراه أم لم يجز ، لأنه باطل من أساسه . وهذا النوع من الإسلام غير النوع الذي يكون قلب صاحبه خالياً من العقيدة : الإيمان ، ولكنه مستشرف له متطلع اليه ، وهو المشار اليه بقوله تعالى « قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم » . فهو إسلام لم ينشأ عن الإيمان ، ولكن القلوب خالية ليست ملوثة بالشرك ، بل هي مترقبة دخول الإيمان . ومهما يكن من شيء فالإسلام الصحيح المعتمد به شرعا لا يدخله الإكراه ، سواء كان ناشئا عن الإيمان بأن يكون متأخرا عنه ، أو يكون سبباً له ومدخلا اليه .

أما الإسلام الذي لا يعتد به كإسلام المنافقين ، فلا شأن لنا به لبطلانه من أساسه كما تقدم .

الإحسان :

أما الإحسان : فهو مقام المراقبة ، مراقبة العبد ربه كأنه يراه ، وهي مرتبة من أرفع المراتب في العبادة ، ليس هناك أرفع منها إلا تمام المشاهدة ، على ما يقول الصوفية ، وقد أشار الحديث الشريف إلى أن للإحسان مرتبتين : إحداهما أرفع شأنًا من الأخرى ؛ فالأولى أن يعبد المؤمن ربه كأنه يرى الله ؛ والثانية أن يعبد معتقدا أن الله يراه . وقد ضرب شراح الحديث لذلك مثلاً يقربه إلى الأفهام ؛ قالوا : إن الأجير إذا رأى المالك وقت العمل لاشك ي بذل أقصى جهده في العمل إرضاء للمالك ، وهذه هي المرتبة الأولى . فإذا لم يكن المالك حاضرا ، لكن الأجير يعتقد أنه مطلع عليه من شرفة منزله مثلاً ، بذل جهداً مشكوراً أيضاً ، ولكنه أقل من اجتهاده فيما لو كان المالك حاضرا ، وهذه هي المرتبة الثانية . وهذه المراتب الرفيعة في العبادة لا تكون قسراً ، وإنما ينساق المسلم إليها انسياقاً ناشئاً عن إيمانه . فلا إكراه في الدين إيماناً وإسلاماً وإحساناً . كيف وقد قال الله تعالى « أفأنت تكسر الناس حتى يكونوا مؤمنين » وقال « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » .

روى أنه كان لأنصارى من بنى سالم بن عوف ابنان تنصرا قبل أن يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قدما المدينة ، فلزمهما أبوهما وقال : والله لا أدعكما حتى تسلبا ! فأبيا ، فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الأنصارى : يا رسول الله أيدخل بعضى النار وأنا أنظر ؟ فنزل قوله تعالى : « لا إكراه في الدين » .

كلمات لأمرأ المؤمنين

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله عدى بن أرطاة : أما بعد فقد أمكنتك القدرة على المخلوق ، فاذكر قدرة الخالق عليك ، واعلم أن مالك عند الله مثل ما للرعية عندك . وقال المنصور لولده المهدي ، وقد تولى الخلافة بعده : لا ترم أمرأ حتى تفكر فيه ، فإن فكرة العاقل مرآته تريه حسناته وسيئاته . واعلم أن الخليفة لا يصلحه إلا التقوى ، والسلطان لا يصلحه إلا الطاعة ، والرعية لا يصلحها إلا العدل ، وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة ، وأنقص الناس عقلاً من ظلم من هو دونه .

في البلاغة العربية:

قديمنا وجديد الناس...

لفضيلة الأستاذ الشيخ على محمد حسن العماري
مبعوث الأزهر الى المعهد العلمي بأم درمان

لم ينصفنا من يظن أنا ندافع عن القديم لأنه قديم ، و ننافح عن السابقين من علمائنا عصبية منا لهم ، و نأخذ الطريق على المحدثين استهانة بهم وبآثارهم ، فما إلى ذلك قصدنا ، وكيف ، وقد كتبنا في هذه المجلة في عدد قريب نكشف عن بعض عيوب كتبنا القديمة ، و ندعو الى التخلي عن هذه العيوب ، وإراحة الدارسين من همومها وأنقاها ؟ والحق أنا إنما ندافع عن القديم لأنه البناء المتماسك الذي لم يستطع بناء المحدثين أن ينهض بجانبه ، وأحيانا نتمسك بالقديم مرغمين لأننا نتلفت فلا نجد في جديد الناس ما يغني غناؤه ويسده مسده ، فلا نستطيع أن نوافق على هدم القديم ، وليس بين أيدينا جديد صالح تركزز عليه بلاغتنا العربية . نعم في هذا البناء عيوب ، ولكن — مع ذلك — يؤوى ويظل ويستتر ، أما بناؤكم فهو يقوم على أساس واهٍ ، لو أراد مستند إليه أن يمد يده ليساعده على النهوض لانهار البناء ، وبقى المستجير في العراء .

والفكرة عندنا لا تزال كما كانت عند أسلافنا ؛ يقول أبو العباس محمد بن يزيد المبرد : « وليس لقدم العهد يفضل القائل ، ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب ، ولكن يعطى كل ما يستحق »^(١) . ويقول أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري : « ولا نظرت إلى المتقدم فيهم بعين الجلالة لتقدمه ، ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين ، وأعطيت كلا حقه ، ووفرت عليه

حظه ، فإنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه موضع متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل فى زمانه ، ورأى قائله ، ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده ، وجعل كل قديم منهم حديثا فى عصره ، وكل شريف خارجيا فى أوله . . . فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له ، وأثينا عليه به ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله ، ولا حداثة سنه ، كما أن الردى إذا ورد علينا للبتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه ^(١) .

وإذا كان هذا فى الشعر واجبا فهو فى العلم أوجب ، فسييلنا — إذن — أن نصف العلم وحده . ثم أمضى الى القصد .

وقد انتهى بنا الحديث فى المثال السابق (هدم المجددين وبنائهم) إلى هدم نظريتهم فى الاتكاء على (الإيهام) وجعله وسيلة الى إخراج بحث (شبه كمال الانقطاع) من البحث البلاغى ، ويثبت أن الإيهام لا يمنع العطف نحويا ، وإنما يمنع بلاغيا ، وأكبر حجة على ذلك هذا البيت الذى اعتمدوا هم عليه ، فقد قلنا إنه بعد الفصل فيه إيهامان آخران ، ونحب أن نضيف اليوم أن علماءنا كانوا متنبهين إلى هذه الفكرة ، فقد ذكروا أن الإيهام يوجد فى كل من كمال الاتصال وشبهه ، وأن صاحب التلخيص إنما اقتصر على ذكره مع كمال الانقطاع لكثرة فيه ، بل قالوا إنه يكون فى الأقسام كلها . قال فى عروس الأفراح : « ولك أن تقول الإيهام كما يدفع الفصل بين الجملتين اللتين بينهما كمال الانقطاع يدفعه بين اللتين بينهما كمال الاتصال ، وكذا غيره من الأقسام السابقة واللاحقة ، فليعتبره الناظر . والإيهام مشروط بأن لا يعارضه إيهام آخر ، وذكر بعض الكتاتين تعليقا على قول الإيضاح « إما لدفع إيهام خلاف المقصود » قال : « وجوب الوصل فى هذا من جهة البلاغة لأنه يمكن دفع ذلك بالسكوت بين الجملتين أو بمعونة القرائن ، وهو إنما يكون فى كمال الانقطاع بين الجملتين كما فى المثال المذكور : « لا وأيدك الله » ، وقيل إنه يمكن اعتبار الوصل لدفع الإيهام فى كمال الاتصال أيضا كما

تقول لمن سألك: هل تشرب خمرًا: لا وتركت شربه. وقيل إنه يتعين الفصل في كمال الاتصال مطاقًا ويدفع الإيهام في مثل هذا بطريق آخر فيقال: لا قد تركت شربه أو نحوره.

ثم نراهم يحاولون أن يخرجوا من دائرة البلاغة بحث كمال الانقطاع وبحث كمال الاتصال ويعتمدون على أن العطف أساسه المغايرة والمناسبة، فنحن لانعطف إلا شيئين متغايرين متناسبين، والمغايرة ألا يكون المعطوف نفس المعطوف عليه ولا جزءه، تقول: جاء زيد نفسه أو جاء زيد زيد فلا تحتاج للعطف إذ لا مغايرة فيها، بخلاف ما إذا قلت جاء زيد وابنه، فالعطف لازم هنا لوجود المغايرة، وكذلك تباين الشئيين يمنع من أن نضع بينهما علامة وصل لأنهما غير صالحين للاتصال، ومن المتفق عليه أن كمال الانقطاع اختلاف السياق، فهما كلامان ليست بينهما وحدة فليس محقولا أن يتصلا، وعلى ذلك فلايس هذا الموضع محل بحث بلاغي لأنه وجه واحد لا يمكن العدول عنه، وأما كمال الاتصال، وهو تأكيد ومؤكد أو بدل ومبدل منه أو بيان ومبين، فهو باب وحده: ذلك أن الاتحاد فيه في السياق تام فطبيعي أنه سياق واحد فلا داعي للفصل فيه إذا أغنى عن ذلك شدة الاتصال.

هذا موجز ما قالوا، وخلاصته أن الباحث في الفصل والوصل يجب عليه أن يطرح عنه بعيدا هذين الموضعين، لأن الفصل في الأول واجب، والوصل واجب في الثاني، والبلاغة إنما تبحث في الجائز.

ولست واجدا شيئا من العناية في الرد على هذا، فان العطف جائز بين الخبر والإنشاء، وقد نقل عن سيبويه جواز جاء زيد ومن عمرو، وفي شرح بانت سعاد لابن هشام هذا الشاهد:

تناغى غزالا عند باب ابن عامر وكحل مآقيك الحسان بأثم

ولا خلاف عندهم في جواز هذا العطف في نحو قوله تعالى « وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل »، ولا مانع عندي أن يجعل من عطف الإنشاء على الخبر العطف في قوله تعالى « إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون، هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون، لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون، سلام قولاً من رب رحيم،

وامتازوا اليوم أيها المجرمون ، ولا داعي لهذا البيان الطويل المعقد الذى ساقه أبو يوسف يعقوب السكاكى فى كتابه المفتاح موضحا وجه العطف هنا .

وأما كمال الاتصال فبحسبنا أن نقول لهم : إن هذه التوابع ليست توابع اصطلاحية ، ولذلك نرى علماءنا كانوا فى غاية الدقة حين قالوا « فوزانه وزان كذا ، من تأكيد أو بدل أو بيان ، على أننا نرى أن النص الأدبى الواحد يكون يسانا فيعطف مرة ولا يعطف أخرى ، قال الله تعالى فى سورة البقرة : « وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » وقال عز وجل فى سورة ابراهيم : « وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » .

ولعل من العجب أن يقول هؤلاء فى قوله تعالى « أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين ، كان يمكن أن يعطف فيقول : وأمدكم . يا الله تحلونه عاما وتحرمونه عاما ! .

بقى لديهم شبه كمال الاتصال ، وهو أولى الأقسام عندهم بأن يخرج عن البحث البلاغى لأن « المسألة - إذن - ليست مسألة سؤال وجواب واستئناف وبتاع ! ومن المؤسف أن يقع فيه عبد القاهر نفسه ، كما يقولون . وإنما المسألة أن هنا كلامين متكاملين مختلفين حقيقة أو حكما ، وما دام الأمر كذلك فالفصل واجب ، لأنه لا يعطف كلام شخص على كلام شخص آخر ، وإذا أراد القارئ أن يفهم هذا الباب كله من أوله إلى آخره فما عليه إلا أن يفهم هاتين الكلمتين اللتين قدمناهما ؛ قالوا « إذا كان الخطاب بين متعددين حقيقة فهذا أول مواضع الفصل وهو أسلوب الحوار - ولم يعطونا فكرة عن أسلوب الحوار هذا - والأصل فى الحوار أن يكون بين شخصين وقد يقع ليمثل حالتين مختلفتين لشخص واحد ، فالحوار الذى نقصده هنا هو الذى يقع بين متعددين حقيقة أو حكما ؛ حقيقة هذا أول مواضع الفصل ، حكما فهذا أول الكلام فى الفصل والوصل ، والأصل فيه أنه حيثما وجد التقابل بين كلامين فهو أول مواضع الفصل ، وحيثما وجد تكامل بينهما كان ذلك أول مواضع الوصل ، وإذا حدث اللبس أو التردد بين هذين الطرفين دخل عمل علم

البلاغة : وتعدد السياق اعتبارا يدخل فيه شبه كمال الاتصال وشبه كمال الانقطاع .
وأما في كمال الانقطاع فإما أن يتعدد السياق وإما أن يتحد ، فإذا تعدد السياق
فهما كلامان ، وإذا وجدت بينهما مناسبة فالفصل ، وإذا اتحد فاما أن يتعدد
المتكلمان حقيقة أو اعتبارا وحينئذ نستغنى عن الوصل ونفصل ، وأما أن يتحد
المتكلم بالجلتين وحينئذ يجب الوصل ، .

وبهذا البيان اللطيف ، وبهذا التقعيد الرائع ، نخلص من هذا الباب الذى كانت
(تسكب فيه العبرات) ولكننا فقط نحتاج إلى جهود جديدة لنبين للناس كيف
تدخل هذه الأقسام كلها تحت أسلوب واحد ، بعضه فرضى . والحق أنى - إلى هنا -
وقفت ، ولست بمستطيع أن أزيد بيانا أو إيضاحا ، ولعل فى العلماء المتعمقين
فى الدراسة من يستطيع أن يفهمنا هذه القاعدة الجديدة لهذا الباب المسكين ؟

العدل فى الاسلام

بث الاسلام فى قلوب أهله روح العدل بين الناس ، وضرب النبي صلى الله عليه
وسلم المثل العليا فيه ، واثم به صحابته من بعده ، حتى أصبحت محاكمهم مضرب
الأمثال إلى يومنا هذا . ناهيك أن القضاة فى عهده الأول كانوا يساون الحاكين
بالرعية فى مجالس القضاء . وهذا ما لم يحدث له نظير فى العالم إلى اليوم .

من ذلك أن الأشعث بن قيس من كبار سادات العرب دخل على شريح القاضى
فى مجلس القضاء . فقال له شريح : مرحبا وأهلا بشيخنا وسيدنا ! وأجلسه معه .
فبينما هو جالس عنده إذ دخل رجل يتظلم من الأشعث . فقال له شريح :
قم يا أشعث فاجلس مجلس الخصم ، وكلم صاحبك . قال الأشعث : بل أكله من
مجلسى . فقال له القاضى : لتقومن أو لأمرن من يقيمك . فقال له الأشعث :
أثم ما ارتفعت . فقال له شريح : رأيت ذلك ضرك ؟ قال لا . قال شريح : فأراك
تعرف نعمة الله على غيرك ، وتجهلها على نفسك .

منزلة السنة من الدين

لحضرة الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي

الفصل السادس

تقسيم السنة الى ما ورد فيه نص كتاب والى ما لم يرد فيه نص كتاب

قال الإمام الشافعى فى رسالته ص ٣٢ :

(البيان الرابع)

قال الشافعى : كل ما سن رسول الله صلى الله عليه وسلم مما ليس فيه كتاب ، وفيما كتبنا فى كتابنا هذا من ذكر ما من الله به على العباد من تعلم الكتاب والحكمة - دليل على أن الحكمة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

مع ما ذكرنا مما افترض الله على خلقه من طاعة رسوله ، وبين فى موضعه الذى وضعه الله به من دينه — الدليل على أن البيان فى الفرائض المنصوصة فى كتاب الله من أحد هذه الوجوه :

منها ما أتى الكتاب على غاية البيان فيه ، فلم يحتج مع التنزيل فيه الى غيره . ومنها ما أتى على غاية البيان فى فرضه ، وافترض طاعة رسوله ، فبين رسول الله عن الله : كيف فرضه ، وعلى من فرضه ، ومتى يزول بعضه ويثبت ويحب .

ومنها ما يتنه عن سنة نبيه ، بلا نص كتاب . وكل شيء منها بيان فى كتاب الله .

فكل من قيل عن الله فرائضه فى كتابه ، قيل عن رسول الله سنته ،

بفرض الله طاعةَ رسوله على خلقه ، وأن ينتهوا الى حكمه . ومن قَبِلَ عن رسول الله فعن الله قَبِلَ ، لما افترض الله في طاعته .

فَيَجْمَعُ القَبُولُ لما في كتاب الله ولسنة رسول الله القبول لكل واحد منهما عن الله ، وإن تفرقت فروع الأسباب التي قَبِلَ بها عنهما ، كما أحلَّ وحرَّم ، وفرض وحدَّ : بأسباب متفرقة ، كما شاء ، جل ثناؤه ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، ٢١ / الانبياء / ٢٣ . ١٠ هـ .

وقال أيضا ص ٢٢ :

ومنه (أى من البيان) ما سن رسول الله صلى الله عليه وسلم مما ليس لله فيه نص حكم ، وقد فرض الله في كتابه طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم والانتهاه الى حكمه ، فن قَبِلَ عن رسول الله بفرض الله قبل . ١٠ هـ .

وقال في ص ١٠٨ :

قال الشافعي : فيما وصفتُ من فرض الله على الناس اتباع أمر رسول الله : دليلٌ على أن سنة رسول الله إنما قَبِلَتْ عن الله ، فن اتبعها فبكتاب الله تبعها ، ولا نجد خبرا ألزمه الله خلقه نصًّا يَبَيِّنُ إلا كتابه ثم سنة نبيه .

فإذا كانت السنة كما وصفتُ ، لا شَبَهَ لها من قول خالقٍ من خلق الله ، لم يَحْزَنْ أن ينسخها إلا مثلها ، ولا مثل لها غير سنة رسول الله : لأن الله لم يحل لأبى بعده ما جعل له ، بل فرض على خلقه اتباعه ، فألزمهم أمره ، فالخلق كلهم له تبع ، ولا يكون للتابع أن يخالف ما فرض عليه اتباعه ، ومن وجب عليه اتباع سنة رسول الله لم يكن له خلافها ، ولم يتم مقام أن ينسخ شيئاً منها . ١٠ هـ .

وقال في ص ١٩٧ :

فلو أن امراً لم يَلَمْ لرسول الله سنة مع كتاب الله إلا ما وصفنا ، مما سن رسول الله فيه معنى ما أنزله الله جملة ، وأنه إنما استدرك ما وصفت من فرض الله الأعمال ، وما يحرم وما يُحِلُّ ، ويُدْخِلُ به فيه ، ويخرج منه ، ومواقفته ، وما سكته عنه سوى ذلك من أعماله — قامت الحجة عليه بأن سنة رسول الله إذا قامت هذا المقام مع فرض الله في كتابه مرة أو أكثر : قامت كذلك أبداً . ١٠ هـ .

وقال في ص ٩١ :

وسنن رسول الله مع كتاب الله وجهان : أحدهما نص كتاب فاتبعه رسول الله كما أنزل الله ، والآخر جملة بين رسول الله فيه عن الله معنى ما أراد بالجملة ، وأوضح كيف فرضها ، عاماً أو خاصاً ، وكيف أراد أن يأتي به العباد ؛ وكلاهما اتبع فيه كتاب الله .

قال : فلم أعلم من أهل العلم مخالفاً في أن سنن النبي من ثلاثة وجوه ، فاجتمعوا منها على وجهين ، والوجهان يجتمعان ويتفرعان : أحدهما ما أنزل الله فيه نص كتاب ، فبين رسول الله مثل ما نص الكتاب ؛ والآخر مما أنزل الله فيه جملة كتاب ، فبين عن الله معنى ما أراد . وهذان الوجهان اللذان لم يختلفوا فيهما .

والوجه الثالث ما سن رسول الله فيما ليس فيه نص كتاب .

فمنهم من قال : جعل الله له ، بما افترض من طاعته ، وسبق في علمه من توفيقه لرضاه ، أن يسن فيما ليس فيه نص كتاب .

ومنهم من قال : لم يسن سنة قط إلا ولها أصل في الكتاب ، كما كانت سنته لتبيين عدد الصلاة وعملها على أصل جملة فرض الصلاة ، وكذلك ما سن من البيوع وغيرها من الشرائع ، لأن الله قال « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » النساء / ٢٩ ، وقال : « وأحل الله البيع وحرم الربا » البقرة / ٢٧٥ ؛ فما أحل وحرم ، فإنما بين فيه عن الله ، كما بين الصلاة .

ومنهم من قال : بل جاءته به رسالة الله ، فأثبت سنته بفرض الله .

ومنهم من قال : ألقي في روعه كل ما سن ، وسنته الحكمة : الذي ألقى في روعه عن الله ، فكان ما ألقى في روعه سنته .

أخبرنا عبد العزيز عن عمرو بن أبي عمرو عن المطلب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الروح الأمين قد ألقى في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها فأجملوا في الطلب » .

فكان مما أُلقي في روعه سننه ، وهي الحكمة التي ذكر الله ، وما نزل به عليه كتاب فهو كتاب الله ، وكلُّ جاءه من نعم الله ، كما أراد الله ، وكما جاءته النعم ، تجمعها النعمة ، وتفرق بأنها في أمور بعضها غير بعض ، ونسأل الله العصمة والتوفيق .

وأىُّ هذا كان ، فقد بيّن الله أنه فرض فيه طاعة رسوله ، ولم يجعل لأحد من خلقه عذرا بخلاف أمر عرفه من أمر رسول الله ، وأن قد جعل الله بالناس كلهم الحاجة إليه في دينهم ، وأقام عليهم حجته بما دلّم عليه من سنن رسول الله معاني ما أراد الله بفرائضه في كتابه ، ليعلم من عرف منها ما وصفنا أن سنته صلى الله عليه وسلم إذا كانت سنةً «بيّنة» عن الله معنى ما أراد من مفروضه فيما فيه كتاب يتلونه ، وفيما ليس فيه نص كتاب - أخرى (أى سنة أخرى) ؛ فهي كذلك أين كانت ، لا يختلف حكم الله ثم حكم رسوله ، بل هو لازم بكل حال . ١٥ .

وجاء في فتح الباري لأستاذ الدنيا في علم الحديث الحافظ ابن حجر العسقلاني

الجزء الثالث عشر ص ٢٠٣

قال ابن القيم في الرد على من رد خبر الواحد إذا كان زائدا على القرآن ما ملخصه :

السنة مع القرآن على ثلاثة أوجه :

أحدها — أن توافقه في كل وجه فيكون من توارد الأدلة .

ثانيها — أن تكون بياناً لما أريد بالقرآن .

ثالثها — أن تكون دالة على حكم سكت عنه القرآن ؛ وهذا الثالث يكون حكماً مبتدأ من النبي صلى الله عليه وسلم فتجب طاعته فيه . ولو كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يطاع إلا فيما وافق القرآن لم تكن له طاعة خاصة ، وقد قال تعالى « من

يطع الرسول فقد أطاع الله » النساء / ٨٠ . ١٥ .

الفصل السابع

إنكار الأئمة على من رد الحديث الصحيح

قال عالم الشام جمال الدين القاسمي في كتابه قواعد التحديث ص ٢٦٣ :

وقال الحميدى : سأل رجل الشافعى عن مسألة فأفتاه وقال : قال النبي صلى الله عليه وسلم كذا وكذا ؛ فقال الرجل : أتقول بهذا يا أبا عبد الله ! فقال الشافعى : رأيته في وسطى زنتاراً ؟ أترانى خرجت من الكنيسة ؟ أقول قال النبي صلى الله عليه وسلم ، وتقول لى أتقول بهذا ! أروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أقول به ؟ ٥١ .

وقال فى ص ٣٩٢ :

وصلى رجل من يكتب الحديث بجنب ابن مهدي ، فلم يرفع يديه ، فلما سلم قال له : ألم تكتب عن ابن عيينة حديث الزهري عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرفع يديه فى كل تكبيرة ؟ قال : نعم ! قال : فماذا تقول لربك إذا لقيك ، فى تركك لهذا وعدم استعماله ؟ !

وقال فى ص ٢٨٧ وهو فى رسالة الشافعى ص ٤٥٠ :

وقال الإمام الشافعى رضى الله عنه فى رسالته « أخبرنى أبو حنيفة بن سمالك ابن الفضل ، قال أخبرنى ابن أبي ذئب عن المقبرى عن أبي شريح الكعبى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عام الفتح : « من قتل له قتيل فهو بخير النظرين : إن أحب أخذ العقل ، وإن أحب فله القود » : قال أبو حنيفة فقلت لابن أبي ذئب : أتأخذ بهذا يا أبا الحارث ؟ فضرب بصدرى وصاح على صياحا كثيرا ، ونال منى ، وقال : أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول أتأخذ به ! نعم آخذ به ؛ وذلك الفرض على وعلى من سمعه ، إن الله تبارك وتعالى اختار محمدا صلى الله عليه وسلم من الناس فهدهم به وعلى يديه ، واختار لهم ما اختار له ، وعلى لسانه ، فعلى الخلق أن يتبعوه طائعين أو داخرين ، لا يخرج لمسلم من ذلك . قال : وما سككت حتى تمتيت أن يسكت . ٥١ .

وقال العارف الشعراني في مقدمة ميزانه : قال الامام محمد الكوفي : رأيت الإمام الشافعي رضي الله عنه بكه وهو يفتي الناس ، ورأيت الإمام أحمد واسحق ابن راهويه حاضرين ، فقال الشافعي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وهل ترك لنا عقيل من دار » فقال اسحق رويانا عن الحسن وإبراهيم أنهما لم يكونا يريانها ، وكذلك عطاء ومجاهد ! فقال الشافعي لإسحق : لو كان غيرك موضعك لفركت أذنه ! أقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقول قال عطاء ومجاهد والحسن ؟ وهل لأحد قول مع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة ؟ بأبي هو وأمي ! اه
وقال ابن عبد البر في كتابه جامع بيان العلم - الجزء الثاني ص ١٨٩ :

حدثنا محمد بن عبد الملك قال حدثنا ابن الأعرابي قال حدثنا سعدان بن نصر قال حدثنا سفيان بن عيينة عن هشام بن حجير قال : كان طاوس يصلي ركعتين بعد العصر فقال له ابن عباس : اتركها ، فقال : إنما نهى عنهما أن يتخذ سنة ، فقال ابن عباس : قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة بعد صلاة العصر فلا أدري أتعذب عليها أم توجر ، لأن الله تبارك وتعالى قال : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » الأحزاب — ٣٦ اه .

وقد رواها الإمام الشافعي بزيادة بيان في رسالته ص ٤٤٣

أخبرنا مسلم وعبد المجيد عن ابن جريج أن طاوسا أخبره أنه سأل ابن عباس عن الركعتين بعد العصر فهما عنهما ، قال طاوس : فتملت له : ما أدعهما ؛ فقال ابن عباس : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضللا مبينا » .

فرأى ابن عباس الحجة قائمة على طاوس بخبره عن النبي ، وذلك بتلاوة كتاب الله على أن فرضا عليه ألا تكون له الخيرة إذا قضى الله ورسوله أمرا . وطاوس حينئذ إنما يعلم قضاء رسول الله بخبر ابن عباس وحده ، ولم يدفعه طاوس بأن يقول : هذا خبرك وحدك ، فلا أثبتته عن النبي ، لأنه يمكن أن تنسى . اه .

وقال أيضا ص ٤٤٦ :

أخبرنا مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن معاوية بن أبي سفيان

باع سقاية من ذهب أو ورق بأكثر من وزنها ، فقال له أبو الدرداء : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن مثل هذا ؛ فقال معاوية : ما أرى بهذا بأساً ! فقال أبو الدرداء : من يعذرني من معاوية ! أخبره عن رسول الله ويخبرني عن رأيه ! لا أساكنك بأرض !

فرأى أبو الدرداء الحجة تقوم على معاوية بخبره ، ولم يلم بذلك معاوية فارق أبو الدرداء الأرض التي هو بها ، إعظاماً لأن ترك خبر ثقة عن النبي .
وأخبرنا أن أبا سعيد الخدري لقي رجلاً فأخبره عن رسول الله شيئاً ، فذكر الرجل خبراً يخالفه ، فقال أبو سعيد : والله لا آوئى وإياك سقف بيت أبدا !

قال الشافعى : يرى أن ضيقاً على المخبر أن لا يقبل خبره ، وقد ذكر خبراً يخالف خبر أبي سعيد عن النبي ، ولكن في خبره وجهان : أحدهما يحتمل به خلاف خبر أبي سعيد ، والآخر لا يحتمله .

أخبرنا من لا أتهم عن ابن أبي ذئب عن مخلد بن خفاف قال : ابتعت غلاماً فاستغسلته ، ثم ظهرت منه على عيب ، فخاصمت فيه عمر بن عبد العزيز فقضى لي برده وقضى على برد غلته ، فأثبت عروة فأخبرته فقال أرواح اليه العشيّة فأخبره أن عائشة أخبرتني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى في مثل هذا أن الخراج بالضمان . فعبجت الى عمر فأخبرته ما أخبرني عروة عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم . فقال عمر : فما أيسر على في قضاء قضيتّه ، الله يعلم أنى لم أرد فيه إلا الحق ، فبلغتني فيه سنة عن رسول الله ، فأرد قضاء عمر ، وأنفذ سنة رسول الله . فراح اليه عروة ، فقضى لي أن آخذ الخراج من الذى قضى به علىّ له .

أخبرني من لا أتهم من أهل المدينة عن ابن أبي ذئب قال : قضى سعد بن إبراهيم على رجل بقضية ، برأى ربيعة بن أبي عبد الرحمن ، فأخبرته عن النبي بخلاف ما قضى به ، فقال سعد لربيعة : هذا ابن أبي ذئب ، وهو عندي ثقة ، يخبرني عن النبي بخلاف ما قضيت به ؛ فقال له ربيعة : قد اجتهدت ومضى حكمك ؛ فقال سعد : وأعجبا ! أنفذ قضاء سعد بن أم سعد وأرد قضاء رسول الله ! بل أرد قضاء سعد بن أم سعد وأنفذ قضاء رسول الله ! . فدعا سعد بكتاب القضية فشقه ، وقضى للمقضى عليه . اهـ .

بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتْاوَى

موالاة المستعمرين خروج من الدين

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

شعب طرابلس الغرب شعب عربى مسلم كان قد منى بعدوان الإيطاليين واستعمارهم حقبة من الزمن ، تخللها جهاد صادق من لدنه فى سبيل الشرف والحرية . ثم شاءت عدالة الله أن تكسر إيطاليا وتنفض يدها من هذه البلاد العربية المجاهدة ، ولكن شاءت الأقدار كذلك أن تزعم الدول الكبرى أنها صاحبة الشأن فى تقرير مصير هذه البلاد العربية ، وأنها ستختبر لذلك رغبة أهلها وتسألهم عن مطالبهم . وما من شك فى أن مطالب أهل هذه البلاد الإسلامية تنحصر فى التخلص من كل نفوذ أجنبى ، والتمتع بالحرية والسيادة الكاملتين تحت جناح الإسلام والعروبة . فما حكم الشريعة الإسلامية على أفراد يدعون أنهم عرب مسلمون ، ويشذون فى الوقت ذاته عن ميول شعبهم المشروعة ، ويعلنون عن رغبتهم فى أن تتولى الإشراف على بلادهم حكومة أجنبية مستعمرة لاتصلها بالإسلام والعروبة صلة ؟

والمرجو أن تعلنوا رأى الشريعة فى هؤلاء الأفراد .

على رجب

رئيس حزب الاتحاد المصرى الطرابلسى

الجواب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .

أما بعد، فقد قال الله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » . وقال تعالى « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولنه ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ، يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول أما أناتكم وأنتم تعلمون » ، « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودُّوا ما عنيتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون » . « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » . « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منهم فأولئك هم الظالمون . قل إن كان آباؤكم وأبناءكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكنُ ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فترى صوابكم حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين » .

هذه الآيات وغيرها من القرآن الكريم ، أوجب الله بها على المؤمنين أن يعتصموا بحبله المتين ، وأن يتحدوا فيما بينهم على حفظ دينهم وتركيز سلطته وإقرار كلمته ، ونهاهم عن الاختلاف والتفرق ، وحذرهم عاقبة ذلك من الفشل وذهاب الريح وتلاشى السلطان .

ولما كانت موالاته بعض المؤمنين لغيرهم من أعداء الدين سبيلا للتفرق ، وخروجا على وحدة المسلمين ، وسببا للفتنة ، عني القرآن في غير آية بنهى المؤمنين عن اتخاذهم أولياء من الكافرين ، يلقون إليهم بالموادة ، ويعملون معهم على ما يمكنهم من تحقيق أغراضهم من التسلط على المسلمين وإضعاف شوكتهم في بلادهم ؛ وقرر أن هذا الصنيع مشاقة لله ورسوله ، واتباع لغير سبيل المؤمنين ، الذى هو الوحدة والاعتصام بحبل الله ، واعتبره خيانة لله وللرسول ، وخيانة للأمانات التى ناط الله رعايتها بالمؤمنين ؛ وقرر أن هذا الصنيع أيضا لا يمكن أن يوجد مع الإيمان بالله واليوم الآخر ، وأن دعوى الإيمان ممن يخرج على أمته

ويعاون من حاد الله ورسوله ، دعوى كاذبة لا قيمة لها عند الله ، ولا وزن لها عند جماعة المؤمنين .

هذا ما تدل عليه هذه الآيات الواضحة ، وبها كان الاتحاد بين المسلمين من أعظم الواجبات الدينية عليهم ، وكان الاختلاف والتفرق من أكبر ما نهى الله عنه ، وكانت موالاة الأعداء والتعاون معهم فيما يضر المسلمين ويزلزل سلطانهم ، بابا من أبواب الكفر والخروج من الدين .

وفي ضوء هذا الأصل الذى يقرره القرآن الكريم للاحتفاظ بالكيان الاسلامى ، نستطيع أن نقرر أن هؤلاء الافراد الذين يدعون أنهم عرب مسلمون ويشذون فى الوقت ذاته عن ميول شعبهم المشروعة فى التخلص من كل نفوذ أجنبي ، والتعجيزتهم وسيادتهم السكاملتين ، ويعلنون عن رغبتهم فى أن تتولى الاشراف على بلادهم حكومة أجنبية مستعمرة لاتصلها بالاسلام والعروبة صلة ؛ نستطيع أن نقرر أنهم يخرجون بذلك على الدين ، ويفرقون كلمة المسلمين ، ويحدثون الفتن التى يتذرع بها أرباب الاستعمار ويدخلون بها بلاد الاسلام ، فيغتصبون حقوقهم المشروعة ، ويدلون عزتهم ذلة ومهانة ، وقوتهم ضعفاً واستكانة .

وقد صرح القرآن بأن أمثال هؤلاء لا ينجيهم من الوعيد الشديد ما يدعونه من أنهم يتحامون بذلك شراً قد ينزل بهم ، أو يتوخون مصلحة تصل اليهم ؛ وقرر أن ذلك ليس إلا انتحالا لأعذار موهومة ، وارتكانا لشبه باطلة يزينها ضعف الإيمان وابتغاء عرض الحياة الدنيا ، ويقول فى شأنهم - بعد النهى عن اتخاذ اليهود النصارى أولياء ، وبعد تقرير أن من يتولاهم ملحق بهم ومعدود منهم - يقول « فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده ، فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين » .

هذا هو حكمهم عند الله وفى نظر الدين . وترى اللجنة بعد هذا أن الدين يوجب على المسلمين عامة وعلى مسلمى طرابلس خاصة ، أن يكافحوا هذا الصنف من الناس الذى منيت به الشعوب الإسلامية فزعزع سلطانها وأطمع الأعداء

فيها ، فأخذوا ينتقصون أرضهم من أطرافها ، ويدخلون عليهم من كل باب ، حتى صارت بلاد المسلمين طعمة للأكليين ، وغرضا للمستعمرين .

ولو أن المسلمين تنبهوا الى هذا الواجب ، وكافحوا هذا الوباء الاجتماعي الذي نبت فيما بينهم ، وطهروا بلادهم من جرائمه ، لاحتفظوا بعزتهم وسلطانهم ، ولتمتعوا بحريتهم وسيادتهم ، ولكان لهم ذلك المجد الذي تقلص عنهم بموقف أمثال هؤلاء الخونة الآثمين . . ولتسكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون المعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون ، والسلام على من اتبع الهدى .

المرأة بين طاعة الزوج والوالد

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتي :

الزوجة في عصمة زوجها هل لوالدها حكم عليها؟ وأيها - أى الزوج والاب - أحق بالطاعة إذا كانت الزوجة في زيارة عند أهلها وأمرها زوجها بالسفر معه وأبى والدها؟ نرجو الإفادة .
يونس محمود شعراوى

الجواب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .

أما بعد ، فقد اطلعت اللجنة على السؤال ، وهى تفيد بأنه قد سئل شيخ الاسلام ابن تيمية فى امرأة تزوجت وخرجت عن حكم والديها فأيهما أفضل : برها لوالديها أو مطاوعة زوجها ؟ فأجاب رحمه الله بما خلاصته :

إن المرأة إذا تزوجت كان زوجها أملك لها من أبيها ، وطاعة زوجها

عليها أوجب ؛ قال الله تعالى : « فالصالحات قانتات — أى مطيعات لله ولرسوله ولأزواجهن — حافظات للذنب بما حفظ الله » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة ، إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك » . وقال عليه الصلاة والسلام : « إذا صلت المرأة خمسها ، وصامت شهرها ، وحصنت فرجها ، وأطاعت بعلمها — دخلت من أى أبواب الجنة شئت » . وقال عليه الصلاة والسلام : « لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » ، وبلغت آخر « لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله لهم عليهن من الحقوق » ، إلى غير ذلك من الأحاديث التى أوردها رحمه الله . إلى أن قال : فليس للبرأة أن تخرج من منزل زوجها إلا بإذنه سواء أمرها أبوها أو أمها أم غير أبويها باتفاق الأئمة . وإذا أراد الرجل أن ينتقل بها إلى مكان آخر مع قيامه بما يجب عليه وحفظ حدود الله فيها ، ونهاها أبوها عن طاعته فى ذلك ، فعليها أن تطيع زوجها دون أبويها ؛ فإن الأبوين هما ظالمان ليس لهما أن ينهياها عن طاعة مثل هذا الزوج . أما إذا أمرها أبوها أو أحدهما بما فيه طاعة لله مثل المحافظة على الصلوات وصدق الحديث أو أداء الأمانة ، ونهاها عن تبذير مالها أو إضاعته ونحو ذلك مما أمرها الله ورسوله ، أو نهاها الله ورسوله عنه ، فعليها أن تطيعهما فى ذلك ولو كان الأمر من غير أبويها ، فكيف إذا كان من أبويها ؟ .

كذلك إذا نهاها الزوج عما أمر الله أو أمرها بما نهى الله عنه ، لم يكن لها أن تطيعه فى ذلك ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » . وليس للبرأة أن تطيع زوجها أو أحد أبويها فى معصية الله ، فإن الخير كله فى طاعة الله ورسوله ، والشر كله فى معصية الله ورسوله .

ومن هذا يعلم أن حق الزوج أعظم ، وطاعته أوجب ، فيما تجب الطاعة فيه مما ليس بمعصية الله ورسوله . والله سبحانه وتعالى أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

عبد المجيد سليم

خدم البيوت

لفضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم أبو الخشب

المدرس بمعهد القاهرة

على الرغم من أن الدين الإسلامى يوصى بمعالى الأمور، ويغض في سفسافها وينكر على الناس أن يتزلوا في سلوكهم، فإننا نرى أن ضرورة العيش تقضى في بعض الأحيان أن يكون هنالك تفاوت في درجات الأشخاص ومراتبهم، لحاجة اختلاف الأوضاع والمنازل... وليس في ذلك كله من ضرر ولا غبن، حيث إن الدافع إليه ما يحتمه واجب المعونة العمرانية، الذى توصى به نواميس هذا الكون، وقد أقامه سبحانه على أساس تبادل المنافع، والإنسان مدنى بالطبع — كما يقول ابن خلدون — لأنه لا يمكنه أن يكون طبيبا ومهندسا ونجارا وبناء وطاهيا وخبازا وغير ذلك في آن واحد ليكتفى حاجته بنفسه، ويقوم بأموره دون احتياج إلى سواه....

والخدمة في البيوت من المشاكل الاجتماعية التى تستوجب من المصلحين أن يولوها شيئا من عنايتهم، وليس ذلك من ناحية إعدادهم لمباشرة هذه المهنة، والقيام بها على أكمل الوجوه وأحسنها... وإن كانت الأمم الراقية تعد لهم المدارس ليتخرجوا منها أساتذة في فن الخدمة، وليتوفروا على سعادة المنزل، وإحاطته بأسباب الرفاهة والسرور، ولكن من ناحية أخرى هى ناحية وضع الحد اللائق بما يصح أن يكون بينهم وبين مخدميه من وشائج صحيحة، وصلات قوية، يمكن بها أن يتوفر هدوء الخاطر — على الأقل — بين طرفين تمس نظم الحياة إلى ارتباطها.

ولعل وزارة الشؤون أحست بذلك كله فخطت إليه بعض الخطوات، وهى وإن لم تكن كل ما يجب أن يكون، إلا أنها بعض ما كان يجب أن يكون؛ لأنها تتناول ناحية خاصة هى الاحتفاظ بالحقوق المدنية للخدام.

والقرآن الكريم يعنى بهذه المشكلة بشكل أشمل وأوسع ، والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيانهم فهم فيه سواء أفبعمة الله يمحدون ، والمفسرون يقولون إن المراد بما ملكتهم الايمان فى الآفة ، العبيد والخدم ، وكأنه تعالى لم يجعل هذا التفضيل إلا للابتلاء والامتحان ، وإلا فالناس كلهم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . . والأجدر بالخدمومين أن يردوا فضل رزقهم على خدمهم فهم فيه سواء ، حتى لا يكون هذا جحودا لنعمه الله عليهم ، وكفرنا بآثاره إياهم .

سبحان من لو شاء سوى بيننا وأدال منك فقد أطلت عذابى !

وكان صلى الله عليه وسلم يردف غلامه معه على الدابة ، ويوصيه وينصحه ويخاطبه خطابا لا يشعره معه بالذلة والمهانة . ويقول « إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه بما يطعم ، وليلبسه بما يلبس . . . ولا تكفروهم من العمل ما لا يطيقون » وهو لا يرضى أن تقوم تلك الصلة على غير الأخوة والمساواة فى الحقوق والمعاملة . فأين ذلك كله مما نحن عليه اليوم ؟ لا يكاد يمر يوم من الأيام لا نسمع فيه بحوادث إجرامية يندى لها وجه الكرامة والأخلاق ، مما يدل على أن الارتباط بين أرباب البيوت والخدم لم تعد شجرة من شعراته متماسكة تماسك الاتصال النائم على الائلاف والحب . والسبب فى هذا لا يرجع إلى ضن الأسياد بالأجرة ، وشحهم بأن يستوفوا الخدم حقوقهم كاملة غير منقوصة لحسب ؛ إنما هو يرجع — مع هذا — إلى سوء المعاملة . وكان تلك الوصية التى وردت فى الحديث « فمن كان أخوه تحت يده الخ ، كانت تنبؤاً بما سيكون ! . فان الذى نعرفه أن كثيرا من المخدمومين جروا على هذا السنن ؛ لا يؤكلون خدمهم إلا من أكل الكلاب ، كما لا يلبسونهن إلا بالى النياب . أما المبيت فحدث عنه ولا حرج . اقتراش للغبراء ، والتحاف بالسماء ، فوق سطح البيت ، أو الطابق السفلى منه . وقد ثبت أن سوادا عظيما من مرضى الأمراض الصدرية من هؤلاء الذين أعوزتهم رحمة الرحماء ، وتحملت عنهم عدالة القضاء ، وفقدوا من دنياهم أسباب الهناء ، وهكذا تودى بالمجتمع عوامل الهدم ، ومعاول الفتك والتدمير .

ولا أزيدك معرفة بكلمة « يا ولد يا خدام ، تلك التي لا يلذ لصاحبه أن يخاطبه بغيرها حين يطلب منه أن يحجى أو ينصرف ، وربما كان مؤدبا معه إذا كان من أولئك الذين يكتفون بها دون أن يردفوها بكلمات أخرى من كلمات المهانة والتحقير ...

ومن الخجل المؤسف أن بعضا ممن يعاملون الخدم بهذه العنجهية الخلقية يبيعون لهم أن يخالطوا نساءهم وبناتهم بحجة أنهم خدم ، وأن ذل الخدمة يكسر من شرتهم ويطفىء من حميتهم ، ويسكن من لوعتهم ، فلا تحدثهم نفوسهم بشر ، ولا يدور بخواطرهم سوء . فإذا قلت لهم إن الدين يحرم هذا السلوك ، قالوا ضرورة العمل ، وذل الخدمة ، وأقاموا لك ألف دليل ودليل على أن « هذا الولد ، مؤدب وابن حلال !! » وأن بيوتهم لا تحتوى إلا ملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ... وأحب أن يتدبر أرباب « البيوت » هذه المسألة على الخصوص ، مسألة « فوضى الاختلاط » القائمة بين الخدم — بنين وبنات — وبين نساءهم وأبنائهم ، فإننى كنت أريد أن أجعل منها وحدها موضوعا لولا أنى خفت أن أكون قاسيا ، وليس من حصافة الواعظ ، ولا من لباقة المصلح ، أن يعالج الأمور بالقسوة ، أو يداوى العلل بالعنف ... ووددت لو يرجع المسلمون الى كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فإنه ماترك فى ذلك صغيرة ولا كبيرة إلا بينها ، وأوضح معالمها ، وجعلها كالشمس حين ترسل أشعتها على هذا السكون فتضئ عليه النور والضياء ... وإذا كان بعد هذا من زيادة فى موضوع « خدم البيوت » فهو أن يفهم جماعة الأرسطراطيين أن الدين لا يعترف بنظام الطبقات ، ولا يفرق بين اليد العليا واليد السفلى ، إلا بمقدار ما يرغب فى الفضل ويحبب فى المزيه ، حثا اللهم ، واستنهاضا للعزائم ، وذهابا للخممول الى حيث لا يكون فى نفوس المسلمين « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » . وأن الضرورة الاجتماعية هى التى جعلت هذا التفريق فى المنازل ، فإذا خادم ومخدوم ، وآخذ ومعط ...

والناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

ذكرى مرور خمسين سنة

الشيخ جمال الدين الأفغانى

مصلح دينى وزعيم سياسى

لحضره الأستاذ محمود الشرفاوى

فى اليوم التاسع من شهر مارس الماضى يتفق مرور خمسين سنة على وفاة جمال الدين الأفغانى .

ومن حق الأزهر على نفسه ، ومن حقه على أهله وعلى نهضته المرجوة ، أن يدرس وأن يطيل الدرس ، وأن يتأمل فيطيل التأمل ، فى حياة هذا النفر القليل من الأبطال الذين أهابوا بالحياة الدينية أن يفيق أهلها مما كانوا فيه من فتور يشبه الموت ، ومن تزمت يشبه الجمود ، ومن سكون يشبه العدم ، ومن وقوف بهذه الحياة الدينية عند ما انتهت إليه فى أيام لم تكن أزهر الأيام لهذه الحياة الدينية ، ولا أقواها على الإنتاج ، بل لعلها أبعد ما تكون عن الإنتاج المفيد ، وعن القوة أو القدرة على التفكير المستقيم والفهم السليم ، أو عن قبول هذا التفكير المستقيم ، لو أنه وجد بمن يقدر عليه فى عصرهم أو فى غير عصرهم .

ومن هؤلاء الأبطال القليلين الذين أهابوا بهذه الحياة الدينية أن يخرج بها أهلها من هذا الضيق والتزمت : جمال الدين الأفغانى ، الذى كان زعيماً سياسياً ومصلحاً دينياً ، والذى لقي ربه بعد حياة كلها كفاح وجهد فى يوم ٩ مارس من سنة ١٨٩٧ .

ولو أننا سألنا عما ألفه السيد جمال الدين من كتب أو نشر من أبحاث أو ألقى من خطب ، ما وجدنا شيئاً ذا قيمة ، فكيف بالذى يجعل صاحبه مصلحاً وزعيماً ! . سنعرض فى حديثنا عن حياة الأفغانى إلى كتيبه الذى سماه «الرد على الدهريين»

وإلى بعض خطبه وما كتبه بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده في مجلة « العروة الوثقى » التي أصدرها في باريس ؛ سنعرض لهذا وللمله فلا نجد فيه شيئاً ذا قيمة يصح أن يقال بسببه : إن جمال الدين مصلح ديني أو زعيم سياسي .

ولكن جمال الدين لم يكن مصلحاً وزعياً بكتبه أو محاضراته ومقالاته ؛ بل كان زعياً مصلحاً بسيرته وحياته ، وشخصه وخلقه ، وكفاحه وإخلاصه لفكرته ؛ وسنجد فيما نترجم به للسيد من هذه الصفحات أنه لم يكن مصلحاً دينياً وزعياً سياسياً فقط ، بل هو صاحب الفضل الأول والأكبر في هذه النهضة الدينية والسياسية والاجتماعية في هذا الشرق الحديث .

* * *

في إقليم « كندر » من بلاد الأفغان ، وعلى بعد ثلاثة أيام بسير الأبل من عاصمتها كابل ، ولد للسيد « صفتر » في قرية « أسعد آباد » ولد سماه محمداً جمال الدين ، والسيد صفتر هذا هو أحد أفراد عشيرة قوية كبيرة الفوذ كثيرة العدد ، تمتلك مساحات واسعة من الأراضي الزراعية ، ويتصل نسبها بالإمام الترمذى ، ثم ترتقى بالنسب إلى الإمام الحسين بن علي ، رضى الله عنه .

وكانت ولادة هذا الطفل في سنة ١٢٥٤ هـ [١٨٣٩] ميلادية ، وعند ما بلغ هذا الطفل البامته من عمره كانت الفتن والحروب الداخلية بين الأسرة المالكة في الأفغان قد أطاحت بثروة هذه العشيرة القوية الكبيرة حيث جردها الأمير « دوست محمد » من أملاكها بعد أن تغلب على أخيه الذي كانت هذه العشيرة تعينه وتؤيده . ثم أمر « دوست محمد » بعد ذلك باخراج هذه العشيرة من إقليمها ، وأن تنقل إلى كابل وفيها السيد صفتر وابنه الصغير ، وبقي جمال الدين في كابل يدرس العلوم الشرعية والعقلية والتاريخ ، ويدرس إلى جانبها قليلاً من الطب والتشريح وشيئاً من العلوم الرياضية ، فاستوعب قمطاً كبيراً من هذه العلوم كلها في عشر سنين ، ثم انتقل إلى الهند فأقام بها أكثر من سنة يشتغل ببعض علوم الرياضة على طريقة أوروبية ، وسافر بعد ذلك للحجاز ليحج ولكنه بقي يطوف في بلاد الحجاز حتى دخل مكة بعد عام ^(١) .

ثم عاد جمال الدين بعد هذه الدراسة وهذه المعرفة إلى وطنه فتولى وظيفة في حكومته ، وبهذه الوظيفة اتصل بدوست محمد الذى أجلى عشيرته عن وطنهم وجردهم من أملاكهم ، فأحببه هذا الأمير وأعجب به ، واستصحبه معه في جيشه الذى سيره لفتح « هراة » ولكن هذا الأمير مات على أبواب المدينة ، ثم فتحت بعد موته .

ودارت الفتنة بعد وفاة « دوست محمد » واتسعت رقعتها ، وشبت نارها بين إخوة أربعة حتى استتب الأمر لمحمد أعظم ، وكان الشاب جمال الدين يمينه على إخوته . فرفع هذا الأمير منزلة جمال الدين وأكبر شأنه واعتمد عليه في كل أمر حتى جعله كرئيس وزراء . وأخلص جمال الدين لأميره حتى كاد أن يدين بالطاعة له جميع من في الافغان ؛ ولكن الحرب قامت مرة أخرى بين القبائل وبين الطامعين في الملك ، حتى تغلب « شير على » على ابن أخيه محمد أعظم ، فهرب هذا ، ثم مات بعد أشهر في نيسابور .

توجس جمال الدين بعد ذلك من شير على وخشى غدره ، وكان هذا الأمير الجديد يخشى أن يمس جمال الدين بسوء لمكانة عشيرته واحترام العامة له بسبب نسبه ، ولكن جمال الدين استصوب أن ينجو بنفسه من هذه الفتنة ، فاستأذن الأمير في أن يهجر ، فأذن له على شرط ألا يمر بإيران حيث كان الأمير المهزوم محمد أعظم لما يمت بعد فيها ، فارتحل جمال الدين إلى الهند ، واستقبلته حكومتها بحفاوة فيها من الحذر والحيلة أكثر مما فيها من الاحترام والمحبة ، حتى إنها لم تسمح له بطول الإقامة في الهند ، ومنعت العلماء من الاجتماع به إلا على أعين من رجالها . وبعد شهور أخرجته حكومة الهند من شواطئها ونقلته على مركب لها وعلى نفقتها إلى السويس ، ومنها قدم إلى القاهرة فأقام فيها أربعين يوما ، والتقى به فيها جمع من السوريين الذين يطلبون العلم ، وطلبوا أن يقرأ لهم شرح « الأظهار » فقرأ لهم بعضا منه في بيته ، وفي هذه الأيام القليلة التى أقامها جمال الدين في القاهرة تردد على الأثر وعرف بعضا من طلاب العلم فيه .

ثم حوّل جمال الدين عزمه من السفر إلى الحجاز فتوجه إلى الآستانة ، وبعد

أيام من وصوله إليها أمكسته ملاقة على باشا الصدر الأعظم ، فأجبه وأكرمه وأقبل عليه . ثم لقي بعد ذلك عددا كبيرا من رجال الدولة ، فأجبه بعضهم وخشيه بعضهم ، وأعجب به أكثرهم ، ولقي فيمن لقي بالآستانة رياض باشا وزير اسماعيل ورسوله إلى الباب العالي .

ونعتقد أن هذه الفترة من حياة جمال الدين التي قضاهما في عاصمة الدولة العثمانية كانت من الفترات الحاسمة في تاريخ جمال الدين وتكوين شخصيته وبروز اسمه في البلاد الإسلامية وخاصة تركيا ومصر ، فقد تناقل الناس الشاء عليه ، وذكروا عليه ودينه وأدبه ، حتى عين بعد ستة شهور من قدومه الآستانة عضوا في مجلس المعارف .

ولكن هذا الصفو والاستقرار لم يدوما للسيد الأفغانى ؛ فقد نصح له المخلصون من خاصته أن يفارق الآستانة بضعة شهور ثم يعود ، فخرج منها غاضبا محنقا ، ثم قصد إلى مصر مرة أخرى ليروح عن نفسه ، ولكن رياض حجب إليه البقاء في مصر واستأله للأقامة فيها فقال . وأجرى عليه رياض رزقا في كل شهر حتى يسهل له سبل العيش .

ويذكر مؤرخو السيد قصصا مختلفة عن سبب خروجه من الآستانة بعد ما نال فيها من الخطوة ، فيقال إنه بعد إقامته فيها اتصل بحزب « تركيا الفتاة » ، « جيون تورك » الذى كان يعمل ضد الخلافة فعُضِب عليه لذلك . ويقال إنه التقى مرة برياض باشا فأسخطه السيد وأغلظ له القول في مجلس حافل من وجوه الدولة . ولكننا قد رأينا أن رياض هو الذى استمال السيد بعد خروجه للبقاء في مصر لعرفانه فضله ؛ فنحن نستبعد هذه الرواية من إغلاظ الأفغانى لرياض .

ويروى الشيخ محمد عبده قصة طريفة طويلة عن خلاف قام في الآستانة بين السيد وبين شيخ الاسلام حسن أفندى فهمى ، وقد شغل هذا الخلاف صحف الآستانة وأهلها ، وسلط شيخ الاسلام الوعاظ على أن يسفهاوا الشيخ ويطعنوا عليه حتى طلب جمال الدين أن يحاكم شيخ الاسلام . ثم نصح له المخلصون من خاصته أن يفارق الآستانة فترة ، فنزح إلى مصر حيث استبقاه رياض للإقامة فيها ، فأقام .

نزل جمال الدين مصر في شهر المحرم سنة ١٢٨٨^(١) ، وكان يعرفها من قبل قليلا ، ولكنه في هذه المرة اندمج في حياتها الأدبية والاجتماعية ، وتردد على دار ابراهيم بك المويلحي ، وكانت قائمة في حارة الأمير حسين بشارع محمد علي ، وهي في ذلك الوقت ندوة المفكرين والعظماء والقادة ، فلما أجرى عليه رياض باشا رزقا شهرين عشرة جنيهات مقابل بتمائه في مصر ولو لم يؤد عملا ، استأجر منزلا في حارة اليهود^(٢) .

يقول الشيخ محمد عبده : إن طلاب العلم عرفوا الأفغاني عند ذلك ودهتوا اليه واستوروا زنده فأورى ، واستفاضوا بحره ففاض درا ، وحملوه على تدريس الكتب فقرأ من الكتب العالية في فنون الكلام الأعلى والحكمة النظرية الطبيعية وعقلية ، وفي علم الهيئة الفلسفية وعلم التصوف وعلم أصول الفقه الاسلامي ، وكانت مدرسته يده من أول ما ابتدأ إلى آخر ما اختتم .

في هذه المرة بقي جمال الدين في القاهرة فترة أطول ، وهي الفترة التي كون فيها جماعته ، وأسس مدرسته الذهنية ، وثبت فيها دعوته الإصلاحية ، واتصل بتلميذه وصفيه الشيخ محمد عبده .

بقي الشيخ جمال الدين يدرس ويدعو دعوته الإصلاحية ، ويشارك في كل أمر ذي خطر من حياة مصر في ذلك العهد أكثر من ثمانين سنين ، أريد فيها أن يُنشأ للباسون محفل في مصر ، فأيد السيد إنشاء هذا المحفل ، وحبذه وشارك فيه ، فتألبت عليه الخصوم ، وكان قنصل إنجلترا واحداً من هؤلاء الخصوم ، وكذلك كان كثيرون يخشون دعوة جمال الدين وفكرته الإصلاحية ، ويرون فيه وفي دعوته خطراً ، فاتفق هؤلاء وهؤلاء وسعى قنصل إنجلترا حتى نفى الشيخ من مصر هو وتابعه أبو تراب من غير محاكمة ، وأخرج من مصر في سنة ١٢٩٦ هـ^(٣) فقصد إلى الهند مرة أخرى .

[١] ٢٢ مارس سنة ١٨٧١

[٢] في خان أبو طاقية .

[٣] أغسطس سنة ١٨٧٩

الصوفية المسلمون

لفضيلة الأستاذ نور الدين شريبه

خريج كلية اللغة العربية

هذا كتاب ألفه الدكتور رينولد . ا . نيكلسون ، وهو على صغر حجمه جم الفائدة للذين يتوخون دراسة الصوفية . والمؤلف غنى عن التعريف ، فهو حجة في هذه الناحية من الدراسة الاسلامية ، قصر عليها حياته باحثا وناشرا ، وهو على ما له من مخالفة لوجهة النظر الاسلامية — سنلتزم الرد عليها — أقرب المستشرقين الى الإنصاف ، وأعمقهم في هذه الناحية من الدراسات الاسلامية .
نور الدين

مقدمة :

يبين عنوان هذا الكتاب بياننا كافيا ، السبب الذى من أجله احتوته سلسلة تمثل الجهود والأخطار التى يلقاها أفراد الباحثين وجماعاتهم فى الكشف عن الحقيقة .

والصوفية Sūfism — فلسفة الاسلام الدينية — قد وصفت فى أقدم تعريف موجود بأنها « إدراك الحقائق الربانية » . والصوفية المسلمون ولعون أن يسموا أنفسهم « أهل الحق ^(١) » .

وحين أعرض أصول مذاهبهم — على هذا الوجه من رأى — سوف

(١) (الحق) لفظ كثيرا ما يدور على ألسنة الصوفية يشيرون به الى [الله]

أعتمد الى حد ما على ما جمّعته خلال الأعوام العشرين السالفة من مصادر لتاريخ جامع للتصوف الاسلامى . وهو موضوع واسع الأطراف ، متعدد الجوانب ، يحتاج الى المجلدات الضخمة للكشف عن حقيقته فى إنصاف .

وليس فى طوقى هنا إلا أن أرسم هيكلًا عامًا لبعض القواعد والطرق ، والخصائص المميزة للحياة الروحية كما عاشها مسلمو كل طائفة ومرتبة ، منذ القرن الثامن الميلادى الى وقتنا الحاضر .

وإن الدروب التى سلكوها لشاقة ؛ وإن ما تؤدى اليه من الجاد لمظلم محير ، قد عذمت فيه الصُّوى . ومع ذلك فإن لم نأمل أن نصحب السَّفر إلى غاية رحلتهم ، فإن معرفة نجمعها عن وسطهم الدينى وتاريخهم الروحى ، لا بد أن تساعدنا على فهم الرياضات النفسية الغربية التى كتبوا عنها .

ومن هنا أود قبل كل شئ أن أقدم ملاحظات قليلة على أصل الصوفية ، ونموها التاريخى ، وصلتها بالاسلام ، وصفتها العامة .

ولست هذه الامور مافعة لدارس علم (الأديان المقارن Comparative Religion) وحده ، بل إن شيئاً من العلم بها لا غنى عنه ألبتة لدارس الصوفية نفسها دراسة جد . ولقد يقال إن الرياضات الصوفية جميعها تلتقى عند نقطة واحدة وذلك حق ؛ بيد أن هذه النقطة عينا تتخذ وجوها واسعة الاختلاف تبعاً لإدانة الصوفى ، وسلالته ، ومزاجه ؛ كما أن الخطوط التى تجتمع حول هذه النقطة تتباين تبايناً عظيماً ، لا حد لتنوعه . والأنواع الكبرى من النصوص ، وإن كان بينها شئ من الشبه فى العموم ، كل منها يميز بخصائص خاصة ، نتجت من الظروف التى منها نشأ ، وفيها ترعرع ؛ وكما أن النوع المسيحى لا يمكن أن يُفهم دون الإشارة إلى المسيحية ، فكذلك النوع الاسلامى لا بد أن يبحث متصلاً بالنمو الخارجى والداخلى للإسلام :

وكلمة (Noldeke) التى انحدرت من الديانة الأغريقية إلى الآداب الأوربية ، يقابلها فى العربية والفارسية والتركية — لغات الاسلام الثلاث الرئيسية — كلمة (صوفى) . واللفظان على كل حال ليسا مترادفين تماماً ، لأن اللفظة (الصوفى) مدلولها دينياً خاصاً .

وقد قيدها الاستعمال بالصوفية الذين يدينون الدين الاسلامى . والكلمة العربية ، وإن اكتسبت على مدى الأيام مدلول الكلمة الإغريقية الرفيع : شفاه مقفلة بالأسرار القدسية ، وعيون مغمضة على النشوة الحاملة ، إلا أن مدلولها كان متواضعا يوم جرت على الألسنة لأول مرة حوالى سنة ٨٠٠ م (حوالى نهاية القرن الثانى الهجرى) .

واشتقاقها لا يزال حتى الآن موضع خلاف . فأكثر الصوفية يشتهونها — غير عابئين بتواعد التصريف — من أصل عربى هو (الصفاء) . ومبنى هذا أن يكون الصوفى « هو الصافى القلب » أو هو « المصطفى » . وبعض الباحثين من الأوربيين يردّها إلى الكلمة الإغريقية سوفوس ، ومعناها « ثيوصوفى » . ولكن « نولدكه Noldeke قطع - فى مقال نشر منذ عشرين عاما - أن الكلمة مشتقة من (الصوف) ، وأنها كانت فى الأصل موضوعا لزهاد المسلمين الذين تشبهوا بالرهبان المسيحيين فى ارتدائهم غليظ الصوف ، دليل ندمهم على ما أسلفوا ، وعلى اطراحهم متاع الحياة الدنيا .

والصوفية الأولون كانوا فى الواقع زهادا وادعين أكثر منهم متصوفة . فإدراكهم المستوى عليهم للخطيئة ، تصحبه الرهبة من يوم القيامة وعذاب النار ؛ تلك الرهبة التى ليس فى طوقنا أن نتحمقها ، والتى صورت فى القرآن تصويراً حيا ، دفعتهم الى أن يحدوا فى الهرب من الدنيا خلاصا لهم . وينذرهم القرآن من جهة أخرى أن الخلاص يتوقف أساسا على مشيئة الله الخفية التى تهدى المهتدى سواء السبيل ، وتضل الضالين عن القصد القويم ، وأن حظهم قد رقم فى الألواح الخالدة - ألواح عناية الله - لا يستطيع شىء لها تبديلا . فيجب أن يعلم أنه إذا قدر لهم أن ينجم صومهم ، وصلاتهم ، وما يأتون من أعمال الخير ، فهم لا بد ناجون . واعتماد كهذا لا بد أن يفتى الى التأمل فى الله ، والخضوع المطلق للمشيئة الربانية . وتلك ميزة من ميزات التصوف فى أقدم صوره .

وقد كان المعين الأصيل للحياة الدينية الإسلامية خلال القرن الثامن الميلادى - الثانى الهجرى - هو الخوف : الخوف من الله ، والخوف من جهنم ، والخوف من الموت ، والخوف من الخطيئة . على أن الدافع المناقض له كان

قد بدأ يظهر تأثيره ؛ وجعل من ولاية الله رابعة - على الأقل - مثلاً ملحوظاً لإنكار الذات الصوفي الحق .

ومن هنا لم يكن ثمة فرق كبير بين الصوفية وبين المتشددین من المسلمين السنيين ، إلا أن الصوفية يجعلون لبعض مذاهب القرآن أهمية خاصة ، وينمونها على حساب غيرها من المذاهب التي يعتبرها كثير من المسلمين متساوية الأهمية . ولا بد كذلك من القول بأن حركة الزهد استلهمت المثل العليا المسيحية ، وكانت شديدة التعارض مع روح الاسلام المرححة النشيطة . والنبي في حديث مشهور قد رفض تعقيدات الرهبانية ، وأمر قومه أن يحبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله ، وجعل من نفسه - كما هو معروف - أصدق الأمثلة على تحييد الزواج . وتحريمه للتولة وإن لم يخل من تأثير فإن فتح خلفائه لفارس وسوريا ومصر قد وصل المسلمين بأفكار عدلت نظرهم إلى الحياة وإلى الدين تعديلاً عميقاً .

والقارئون للقرآن من الأوروبيين لا تتوزعهم الدهشة من اضطراب مؤلفه وعدم تماسكه في معالجة كبار المعضلات ؛ وهو نفسه لم يكن عالماً بهذه المتعارضات ولم تكن حجة عثرة في سبيل صحابته الذين تقبل إيمانهم الساذج القرآن على أنه كلام الله . ولكن الصدع من هنا كان . وسرعان ما أظهر نتائج بعيدة الآثار . من هنا قامت (المرجئة) الذين يضعون الإيمان فوق الأعمال ويؤكدون الحب في الله وحسن السيرة . و (القدرية) الذين يؤكدون أن الإنسان مسئول عن أعماله . و (الجبرية) الذين ينكرون ذلك . والمعتزلة الذين أنشأوا علم الكلام مؤسساً على قواعد العقل وأنكروا صفات الله لأنها لا تتفق ووحدانيته ، والقضاء الأزلي لأنه لا يتفق وعدله . ثم (الأشاعرة) أخيراً متكلمو الإسلام الجدلون الذين صاغوا النظام الديني والغيبي (الميتافيزيقي) الذي يقوم عليه مذهب أهل السنة إلى الوقت الحاضر .

تعليق :

يقيم الأستاذ نيكلسون دعواه الخاطئة عن القرآن ، والرسول ، وصحابته ، على شعب أربع ؛ فهو يقرر :

أولاً : أن مؤلف القرآن مضطرب غير متماسك في معالجة كبار المعضلات .

ثانياً : أنه نفسه لم يكن عالماً بوجود هذا الاضطراب والتعارض .

ثالثاً : أن إيمان صحابة الرسول الساذج قد دفعهم الى الإيمان بأن القرآن

كلام الله .

رابعاً : أن الفرق الإسلامية : من أدثال المرجئة ، والتدرية ، والمعتزلة ،

والأشعرية ؛ إنما قامت بسبب هذا التعارض الذى يحتويه القرآن .

والباحث المنصف ، بقليل من التأمل ، لا يسعه إلا أن يرى الشطط الفكرى

والخطأ التاريخى الذى وقع فيه الأستاذ (نيكسون) .

فؤلف القرآن عنده هو محمد صلوات الله عليه ؛ وليس القرآن كتاباً أنزل

من عند الله على رسوله . وهذه دعوى سبقه إليها كفار قريش أنفسهم ، واجهوا

بها رسول الله حين دعاهم إلى كتاب الله فقالوا عنه : إنه « إفك افتراه وأعانه عليه

قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلماً وزوراً . وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى

تملى عليه بكرة وأصيلاً » بل ذهبوا الى أنه يستملها رجلاً غيره ، فكذبهم الله

بقوله : « لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » .

وتحداهم رسول الله أن يأتوا بعشر سور مثله فعجزوا ؛ وبالع في تحديهم

فطالبهم أن يأتوا بسورة فعجزوا ، وقام هذا التحدى ، بعد انتقال رسول الله صلى

الله عليه وسلم ، إلى الرفيق الأعلى ، مدى هذه القرون الطوال . وابتلى الاسلام

بفرق الزنادقة ، وطوائف الملاحدة ؛ وقد حاولوا الكيد له بكل وسيلة . ولكنهم

جنبوا أمام هذا التحدى القائم في وجوههم من الكتاب العزيز .

وعجيب أمر السادة المستشرقين ؛ فمن يقرأ ما كتبه عن محمد صلوات الله

عليه — حتى المنصفون منهم — ينتهى إلى رأى عجب فيه ؛ هو أن محمداً من أوساط

الناس ، لا يتميز — عندهم — بشئ من العبقورية الفذة ، ولا الفكر المستنير !!

فكيف استطاع هذا الرجل العادى أن يؤلف هذا الكتاب الذى دانت له

الملايين من البشر ، والذى انطوى على نظام شامل لحياتهم ، يجمع أصولها التى

لا ينبغي أن يختلفوا عليها ، ويدع فروعها لعقولهم ، واجتهادهم ، وسنة نبيهم ؟

كلا الدعويين يناقض الآخر .

وثمة شيء آخر يثبت أن القرآن من عند الله . فقد وردنا رسول الله كتاب ربه ، وسنته هو . ومن يقرأ الكتاب الكريم والسنة النبوية يرى الفرق واضحاً بينهما في كل شيء : في أسلوب التعبير ، وفي الموضوعات التي تعالجها ، والأسلوب الذي تعالجها به . فلو كان الكتاب من عند محمد صلى الله عليه وسلم لكان الكتاب والسنة صنوين — في التعبير على الأقل — وهو ما لا يقول به من له دراية ببسائط اللغة العربية .

القرآن كتاب الله ، ما هو بقول بشر ، ولا سحر ساحر ، وإن تعامى عن هذه الحقيقة الواضحة المتعامون .

وليس في القرآن تناقض ولا تضارب ، بل « منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » . وإذا كان السادة المستشرقون لم يتيسر لهم فهم هذه المتشابهات ، وعدوها متضاربات ، فليس ذلك ذنب القرآن ، ولكنه ذنب معرقهم القاصرة باللغة العربية خاصة والتفكير الإسلامي عامة . وأنت مهما جهدت أن تذوق لغة غير لغتك كما يتذوقها أبناؤها فإن تستطيع . وقد يقرأ القارئ العربي آية من الكتاب العزيز فتأخذه روعتها ، أو بيت شعر فيهتز طرباً ؛ ولكنه لا يجد هذه اللذة حين يقرأ لشيكسبير أو ملتون . وأهل كل لغة أعرف بخفائها .

والقرآن ليس كتاباً ألف في موضوع بذاته ، حتى يلتزم فيه ما يلتزم في الكتب الموضوعية على هذا النحو من المقدمات والتمهيدات ، ثم النتائج والخواتيم . ولكنه كتاب شامل لحياة المسلمين ، وضع لهم كافة : يحدد فيه الفيلسوف مادة فلسفته ، والصوفي روحانيته ، والمشرع أصول قوانينه ، والأخلاق قواعد سلوكه ، واللغوي فرائد بيانه . ومن هنا تنوع ما فيه من قصص وحكمة ، وتشريع ، وتاريخ ، وكان على هذا كله متناسقاً لا اختلاف فيه « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

والذين لهم بصير بالدراسات الإسلامية يعلمون أن الجماعة الإسلامية قد ابتليت بعد وفاة الرسول بالاختلاف على من يلي الحكم إلى أن سكن هذا الاختلاف ظاهراً بولاية أبي بكر رضي الله عنه أمر المسلمين ؛ وأن السفينة الإسلامية قد

ارتطمت بصخرة مقتل عثمان ، وقيام المطالبين بدمه في وجه علي ؛ وتشعبت الحياة الاسلامية واتسعت بعوامل الفتح والاختلاط والوراثات الفكرية المختلفة التي انصبت في المحيط العربي الإسلامي ، فقامت هذه الفرق المختلفة .

وليس هذا موضع استقصاء أسباب قيامها . ولكن الذي لا ريب فيه أن القرآن لم يكن سبباً مباشراً لقيام هذه الفرق .

ولقد وددت لو أن الذين يعالجون الموضوعات الاسلامية من المستشرقين ينزعون عنهم لباس التعصب ، ويلتزمون الانصاف في أحكامهم ، ولا يندفعون وراء عواطفهم ، إنما يبتغون الحق لذات الحق . ولكن هذه منزلة لا يصل اليها إلا القلة المختارة من المفكرين ؟

المحابة

قيل لمعاوية : إن آذنتك يقدم معارفه في الإذن على وجوه الناس ، قال معاوية : وما عليه ؟ إن المعرفة لتتفع في السكب العقور ، والجل الصؤول ، فكيف في رجل حبيب ذي كرم ودين ؟ .

نقول : لعل هذا الرد مكذوب على معاوية ، فإن مثله لا يصح أن يجهل أن النظام والعدالة يجب أن يتغلبا على المعرفة . وليس بمنكور أن المعرفة تنفع ولكن لا في إخلال بنظام ، ولا في إضاعة لحق ؛ ولو صح ما نسب الى معاوية لكان للموكلين بالنظم الاجتماعية ، وبالعدالة في الأحكام أن يميلوا مع المعرفة حيث مالت . وقد كنا نود أن كتب المحاضرات تعنى بالتنبيه الى مثل هذه الشؤون فيتنبه القراء الى ما يتخلل مطالعاتهم من وجوه للنقد فتتربى لديهم ملكة الادب الصحيح .

الشعر في العهد الأيوبي

لفضيلة الأستاذ الشيخ رياض هلال
المدرس وكاية اللغة العربية

— ٢ —

تحدثت في عدد سابق ^(١) عن لون من ألوان تشجيع الأيوبيين للأدب عامة وبخاصة الشعر، وهو الإثابة عليه بالانظام الجزل والنوال الغمر، مما ألهم قرائم الشعراء وأذكى شاعريتهم؛ واليوم نتحدث عن عامل آخر من عوامل الأخذ بناصر الشعر وشد أزره في عهد الأيوبيين، وهو مشاركة الأيوبيين لأربابه ومحترفيه، في مدارسته والعكوف عليه، واقتنائه :

رووا أن عضد الدين ابن مؤيد الدولة أسامة بن منقذ، كتب شهر أبيه وجمعه لصالح الدين، وهو لشغفه به يفضل به على جميع الدواوين، حتى إذا كان مؤيد الدولة بدمشق، جالس لصالح الدين وآنسه، وذاكره في الأدب ودارسه ^(٢)، وكان لصالح الدين إذا بلغه عن شيخ رواية عالية وكان ممن يحضر مجلسه، أحضره وسمع عليه وأسمع أولاده وبماليكه، وإن لم يكن ممن يحضر عنده ولا يطرق أبواب الملوك سعى إليه. ويروون أنه كان حافظاً لأنساب العرب عارفاً بسيرهم؛ كما عرف عن الكامل الأيوبي حبه للعلماء ومجالستهم ومناقشتهم في مسائل غريبة في الفقه والآداب والعلوم، يمتحن بها الفضلاء إذا حضروا في خدمته ^(٣)؛ وهو الذي أنشأ دار الحديث بالقاهرة التي قال فيها المقرئ: إنها ثاني مدرسة للحديث على وجه الأرض. وقد تذاكر الأدباء في أحد مجالسه أصعب القوافي في الشعر؛ فقال: من أصعبها الياء الساكنة فن كان منكم يحفظ شيئاً منها فليذكركه؛ فتذاكروا في ذلك فلم يتجاوز أحد منهم عشرة أبيات.

(١) صفر ١٣٦٧ .

(٢) الروضتين ج ١ ص ٢٦٤ .

(٣) أبو الفداء ج ٣ ص ١٦١ .

فقال السلطان : أنا أحفظ منها خمسين بيتاً قصيدة واحدة ، وذكرها ، فاستحسنوا منه ذلك . فقال القاضي شرف الدين كاتب سره : أنا أحفظ منها مائة وخمسين بيتاً قصيدة واحدة ؛ فقال السلطان : يا شرف الدين : جمعت في خزائني أكثر دواوين الشعراء في الجاهلية والاسلام ، وأنا أحب هذه القافية فلم أجدها منها أكثر من الذي ذكرته لكم ، فأنشدني هذه الآيات ؛ فأنشدته قصيدة ابن الفارض الياثية التي مطلعها :

حادي الاظعان يطوى اليد طى منعما عرج على كشبان طى^(١)

ويروى صاحب مرآة الزمان^(٢) عن المعظم عيسى الأيوبي أنه قرأ الأدب والنحو على تاج الدين الكندي ، فأخذ عنه كتاب سيويه وشرحه الكبير للسيرافي والحامسة ، وكان يحفظ الإيضاح لأبي على الفارسي ، حتى قال صاحب النجوم الزاهرة في حقه : إنه رجل بنى أيوب وعالمهم غير مدافع . ولا شك أن تلك غاية ما يجهد له العالم المتخصص لا الملوك المشغولون ، إلا إذا أسرهم العلم واستبد بهم . ولعل من أبين الدلائل على العناية بالشعر أن يجتمع الإخوة الثلاثة : الكامل الأيوبي صاحب مصر ، والأشرف صاحب الجزيرة ، والمعظم صاحب دمشق ، بقصر الكامل في المنصورة بعد طرد الفرنجة من دمياط ، ثم يبعثوا إلى جوارهم فيحضرن في جمع من أهلهم وخواصهم ، فيأمر الأشرف جاريته أن تغني ، فغنت :

ولما طنى فرعون عكا وقومه وجاء إلى مصر ليفسد في الأرض

أتى نحوهم موسى وفي يده العصا فأغرقهم في اليم بعضاً على بعض

فطرب موسى وقال : يا لله ! كررى ! . ولكن أخاه الكامل شق عليه ذلك فأسكتها وقال لجاريته : غنى أنت ، فغنت :

أيأ هل دين الكفر قوموا لتنظروا لما قد جرى في وقتنا وتجددا

أعياد عيسى إن عيسى وحزبه وموسى جميعاً ينصران محمدا

(١) شرح ديوان ابن الفارض لرشيد بن غالب ج ١ ص ٩

(٢) مخطوط في التاريخ الاسلامي

فأعجب ذلك السكامل وأمر لكل من الجاريتين بخمسمائة دينار، فقصت تلك الليلة من أروع ليالى الشعر والغناء عند الأيوبيين .

فأما إحساس الأيوبيين بمحاسن الشعر واهتزازهم له ومبلغ تأثرهم به ، فأمر تقيض به كتب السير والتاريخ ، وتشرق به أخبار ملوكهم وأمرائهم ؛ فقد عرف عن صلاح الدين أنه كان يستحسن الأشعار الجيدة ويرددها في مجالسه ؛ فكثيراً ما كان ينشد قول أبي منصور محمد بن الحسين بن أحمد بن الحسين بن إسحاق الحميري :

وزارنى طيف من أهوى على حذر من الوشاة وداعى الصبح قد هتفا
فكدت أوقف من حولى به فرحا وكاد يهتك ستر الحب بي شغفا
ثم انتبهت وآمالى تخيل لى نيل المنى فاستحالت غبطتى أسفا

وكان يعجبه قول تشو الملك أبي الحسن على بن مفرج المعروف بابن المنجم المصرى الدار والوفاة ، وهو فى خضاب الشيب :

وما خضب الناس البياض لقبحه وأقبح منه حين يظهر ، ناصله
ولكنه مات الشباب فسودت على الرسم من حزن عليه منازل

قالوا : فكان إذا قال مات الشباب ، يمسك كريمة وينظر إليها ويقول : إى والله مات الشباب ^(١) ! وكتب مرة الى بعض أصحابه بدمشق :

أيها الغائبون عنى ولم كنـ تم لتمايى بذكركم جيرانا
لمنى مذ فمقدتكم لأراكم بعيون الضمير عندى عيانا

كما كان يتمثل بالآيات فى المناسبات وينشدها فى المقامات إذا اشتد به أمر أو حل بساحته خطب . كتب مرة الى أخيه تورانشاه كتاباً يذكر له فيه واقعة فى أوله :

ذكرتك والخطى يخطر بيننا وقد نهلت منا المثقفة السمر

ويروى ابن الأثير أنه رأى هذا الكتاب بخط يد صلاح الدين ^(٢) ولما مات تورانشاه هذا حزن عليه حزناً شديداً ، وجعل يكثر إنشاد أبيات المراثى

(١) النجوم الزاهرة ٦ ص ٥٦ . (٢) مختصر أبي الفدا ٣ ص ٥٦ .

وكان كتاب الحماسة من حفظه ^(١) وقيل له إن الوخم كثر في مرج عكا من كثرة القتل فتمثل :

أقتلونى ومالكاً واقتلوا مالكاً معى

وكان مرة خارجاً الى الشام ففرج الناس لوداعه ، فسمع قائلاً يقول فى ظاهر الخيم :

تمتع بن شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار
فتطير من ذلك وانتبض بعد انبساط . وقد كان خلفاء صلاح الدين بهذه المثابة يطربون للشعر ويفزعون اليه عند المناسبات ، مما يبين عن مبلغ كلفهم به واحتفالهم له ؛ فعرف عن الكامل أنه كان يعجبه البيتان :

ما كنت قبل ملك قلبى تصد عن مدنف حزين
ولأنما قد طمعت لما حلت فى موضع حصين ^(٢)
وكان ينشد كثيراً فى مرضه :

يا خليلي خبرانى بصدق كيف طعم السكرى فأنى نسيته
كما عرف عن تورانشاه أنه أرسل إلى صلاح الدين كتاباً فيه أبيات من شعر شاعره ابن المنجم ، منها :

فهل لأخى بل مالكى علم أنى	إليه وإلى طال التردد راجع
وأنى بيوم واحد من لقائه	للملكى على عظم المزية بائع
ولم يبق إلا دون عشرين ليلة	وتجنى المنى أبصارنا والمسامع
لدى ملك تغنو الملوك إذا بدا	وتخشع إعظاماً له وهو خاشع
كتبت وأشواقى إليك ببعضها	تعلمت النوح الحمام السواجع
وما الملك إلا راحة أنت زندها	تضم على الدنيا ونحن الأصابع ^(٣)

أما بعد ، فإلى عدد آخر نرجى الحديث عن الشعراء من البيت الأيوبى ، وسنرى منهم شعراء لهم فى صناعة الشعر باع طويل ؟

(١) الروضتين ٢ ص ١٨ (٢) النجوم الزاهرة ٦ ص ٢٣٢

(٣) الروضتين ٢ ص ١٨ ، ١٩ .

عيد الجلوس الملكي السعيد

أقيمت الاحتفالات به في جميع بلاد الدولة المصرية
وأذاع حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر
كلية بليغة عنه بالراديو

كان يوم الخميس السادس من شهر مايو من أسعد أيام مصر ، حيث تبوأ أريكه دولتها حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، فاحتفلت به الأمة في جميع مدنها وقرائها احتفالاً لم ير له نظائر غير مثيلاتها في كل عام . فسكنت حينها توجهت ألفت الاعلام المصرية تخفق على الدور والمتاجر ، وترى سمات البشر مرتسمة على الوجوه ، يردد أصحابها أطيب التمنيات للذات الملكية ، ويتذكرون الأعمال العظيمة التي تمت في عهده للبلاد ، مما ضاعف ثروتها ، ورفع من قدرها ، وزاد في رفعتها أهلها .

وما زاد في إظهار مواهب جلالة الفاروق ، الأحداث العظيمة التي حدثت في أيامه ، وأكبرها شأنها الحرب العالمية ، وموقع مصر من ساحات القتال ؛ وناهيك بما يستدعيه موقف الحياد الذي وقفته مصر من حسن السياسة ، وبعد النظر ، وشدة الاحتياط ، حتى مرت تلك السنوات البت التي أهلكت الحرث والنسل في أوروبا ، ولم يمس بلادنا سوء يؤثر في نظامها السياسي والاجتماعي ، ولا في اتزانها الاقتصادي ، بل لساننا نبأ الغ إذا قلنا إن مصر جنت من رواج محاصيلها ثروة أضافتها إلى ثروتها ، واتضح للعالم كله أن لها مركزاً ممتازاً بين الشرق والغرب يقتضي أن تعيش مستقلة حرة .

هذا غيض من فيض نذكره تيمناً بهذا اليوم السعيد ، وقد أحصى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر من مآثر حضرة صاحب الجلالة ، في كلمته النبيلة التي أذاعها بالراديو في مناسبة هذا العيد السعيد ، ما أطلق كل لسان بالدعاء لجلالته بأن يقيه الله ذخراً لأمته ، وملاذا للشرق ينعم برعايته .

محمد فريد وهبى

كلمة

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر

بمناسبة عيد الجلوس الملكي السعيد

« الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شيء عليم » .

أما بعد : فهذا يوم أقبل وضح الجبين ، متلألئ الضياء ، فياض السناء ، يكاد سنا نوره يعم الآفاق ، ويملأ السكون بهاء وإشراقا . ولا غرو فهو يوم عيد جلوس الملك الصالح الموفق ، المهتدى بنور ربه « فاروق الأول » ، أعزه الله ، وأيده بروح من عنده ! .

في مثل هذا اليوم من اثنتي عشرة سنة ، تبوأ الفاروق عرش مصر المجيد ، فكان مقدما قرن الخير به ، وحدثا سعيدا أقبل معه اليأس على مصر ، فأتزع الوادي بالخير ، وفاض على جوانبه حتى شمل جيرانه من الأمم العربية والإسلامية .

فما كاد الغاب يخلو من أسده « فؤاد العظيم » طيب الله ثراه وأجزل له حسن المشوبة - حتى هبّ شبله فاروق يحمي العرين ، ويدود عن الحمى ذؤود القادر المسكين . تولى الفاروق ملك مصر ، فأقبات عليها الدنيا سمحة ، تسفر في كل يوم عن آمال كبار يحققها ذلك العاهل العظيم .

إن عهد الفاروق كله خير وبركة ، وإسعاد وإقبال ، يجهد نفسه من يحاول أن يستقصي في الخير آثاره ومناقبه ، ومن يريد أن يحصى على الأيام مواضع بره وواقعه غيبه ، ومن يرغب في تتبع آثار جلالته الصالحات ، وأعمال بره الباقيات ،

كلمة الأستاذ الأبرار (ج)

وفيض إحسانه ومننه الخالدات . فما من يوم يمر ، بل ما من لحظة عابرة تأخذ سبيلها إلى الماضي ، إلا للفاروق فيها مآثرة كريمة ، أو منة عظيمة ، أو لفظة سامية تشمل ناحية من نواحي الحياة المصرية الاجتماعية والعمرانية والسياسية بالخير والبركة .

لقد عم فيض نفحات الفاروق الحياة المصرية بشتى مناحيها ، فما من جانب من جوانب حياتنا إلا شمله من نور الفاروق قبس أضاءه ، ووهب له الحياة والحركة فأمرع قُدم ما بحث الخطى نحو الكمال والنهضة ، حتى لو أنه التفت إلى وراء لهره عظم الشوط الذى قطعه فى عهده محي النهضة المصرية « جلالة الملك المعظم فاروق الأول » شبل فؤاد العظيم . ذلك توفيق الله وفضله يؤتبه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

والفاروق فى شبابه الفياض عظيم الإيمان بالله ، فهو بحق الراعى الصالح الذى لم يشغله الملك على سعته ولا الشباب على إقباله ، عن عبادة الله العلى الكبير ، وإحياء شعائر دينه ؛ فتراه حفظه الله يتمبل على المساجد يقيم الصلاة قانتا لله خنيفا فى سمت العارف بربه ، المتسدر لعظمة . ولاء

« إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى لجلالته التوفيق حليفا ، واليمن رفيقا ؛ فما من خطوة يخطوها إلا انبعث منها الخير ، وفاض منها البر والإحسان ؛ وهكذا ممكن الله للفاروق من قلوب رعاياه ، تحوطه مهجهم أينما حل ، وتدعو له ألسنتهم وقلوبهم ما أشرفت عليهم طلعتة ، أو ذكر اسمه ؛ فإنه ما من بيت فى مصر إلا سبق إليه نداء ، وما من قرية أو مدينة إلا أحاطتها رعايته وشملها بره

« وكذلك ممكننا ليوسف فى الأرض يتبوا منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ، ولا نصضيع أجر المحسنين » .

ولقد أحسن الفاروق إلى رعيته فأجزل لها الإحسان ، وشملها بعنايته ، وأفاض لها خيرا عيما ، أحاط بكل مرفق دن مرافقها ؛ فمذه النهضة العلمية الثقافية المباركة التى تتمتع بها مصر فى جامعاتها المدنية هى من غرس يديه ؛ وهذه النهضة العمرانية فى مشروعات الرى وتوزيع الأراضى على صغار الملاك والمحتاجين هى أثر من آثار عناية الفاروق وتوجيهه الكريم .

أما الأزهر المعمور فقد لقي من عطف جلالته ما أخذ بيده إلى طريق التقدم

والرقى والنهضة العلمية الدينية العظيمة ؛ ولقد خطا الأزهر في عهد جلالته الميمون خطى واسعة إلى الهدف الأسمى من الكمال الذى ينشده للأزهر كل مسلم حريص على دينه وقوميته .

شمل الفاروق - أعزه الله - الأزهر بعنايته ورعايته ، ومكن له من أداء رسالته : رسالة التثقيف والتعليم ، ورسالة الدعوة إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة . أما عن الأولى فكان لفيض يدي جلالته السكريميتين أكبر الأثر في نمو معاهده ، واتساع وسائل التثقيف فيها .

وأما عن الثانية فقد أخذ الأزهر يوفد البعث من أساتذته وعلمائه إلى الأقطار الإسلامية والعربية لتقوم بالدعوة إلى دين الله ، وتهدى المسلمين إلى سواء السبيل ؛ كما فتح أبوابه على مصاريعها ، ليتلقى كل طالب يرغب في العلم والتفقه في الدين من أبناء الأمم الإسلامية .

وفي الأزهر الآن بعوث عديدة من أمم كثيرة شملها جميعاً عطف الفاروق حفظه الله ، ونالها فيض بره وكرمه ، مما ألهج ألسنة المسلمين في أقطار الأرض بالدعاء لجلالته والثناء عليه .

ولقد توج الفاروق أعماله الجليلة بما بذله من جهد لتوحيد كلمة الأمم العربية حتى وفق - نصره الله وأيده - إلى جمع صفوفها في الجامعة العربية . وكان من آثار ذلك ما نخبه اليوم من نهضة العرب ، واستمساكنهم بحقوقهم ، وذودهم عن ديارهم ، ومحاربتهم لأعدائهم ، في وحدة خالصة لله ، حرباً ستكون بإذن الله شديدة على الأعداء ، نكالا عليهم :

» محمد رسول الله ، والذى معه أشداه على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، سيأثم في وجوههم من أثر السجود » .

هذه لمحة عابرة لبعض مآثر الفاروق العظيم التى لا يحصىها العد ، والتى تتجدد كل يوم وتزداد حتى يزدهى يومه ، ويشرق بخير مما سبق ، وتنافس الأيام بخير أياديه .

حفظك الله يا مولاي ، وأعزك ونصرك ، ومد في عمرك ، لتكون للمسلمين عضداً ، وللعرب نصيراً . اللهم أعد هذا العيد وأمثال أمثاله على مصر والعالم الإسلامى

بالخير والمتعة والبركات ، ليسعدوا جميعاً بالفاروق ، إنك سميع مجيب الدعاء

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

نداء

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الا كبر

شيخ الجامع الأزهر

للمجاهدين والمحاربين والعرب

أذاع حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الا كبر الشيخ مأمون الشناوى شيخ
الجامع الأزهر النداء التالى الى المجاهدين :

بسم الله الرحمن الرحيم .

أبناءى المجاهدين ! السلام عليكم ورحمة الله .

أما بعد : فقد آذنت ساعة الجهاد ، وحقت كلمة الله على الذين يريدون
أن يخرجوكم من دياركم ، ويستبدوا بأموالكم ، ويأكلوها بينهم بالباطل ؛ ولم يبق
إلا أن تشمروا عن السواعد ، وأن تهبوا للحرب والكفاح فى سبيل الله ، معترين
بعدل قضيتكم ، وقوة إيمانكم ، ومضاء عزيمتكم ، واتحاد كلمتكم ، ووفرة عدتكم
وشدة صبركم « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم
مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا ، بأنهم قوم لا يفقهون » .

أيها المجاهدون !

هذا يوم الفصل بين حقكم وباطل خصومكم ، وهذه هى الساعة التى وعد الله
المجاهدين فيها الجنة وحسن الثواب ، فهبوا لقتال أعدائكم وردوهم عن دياركم .

« انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، ولا يأخذنكم رفق ولا هوادة . بل أغلظوا لمن أغلظ لكم ، واشتدوا على من سفك دماء آبائكم وأبنائكم ، واعلموا أن الله مع المتقين .

أيها المجاهدون !

هذه حرب لا هوادة فيها ، واستشهاد في سبيل الله ، ودفع عن دياركم أن تقع في أيدي أعدائكم ، وحماية لحرمةكم وبيوتكم ، وذود عن ممالككم ومعاقل آبائكم أن يتخطفها المارقون . إنكم تدفعون شأن قوم لا يرعون إلا ولاذمة ، وتردون عدوان طامعين في بلادكم ، ومعتدين على أموالكم . إنكم إن لا تقاتلوهم يخرجوكم من دياركم ، قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ؛ ويتوب الله على من يشاء ، والله عليم حكيم .

أيها العرب !

هذا يومكم ، وتلك دياركم ، فناخوا عنها بما استطعتم من قوة ، واعلموا أن العالم كله ينظر إليكم ، فإذا أن تثبتوا حقكم وتجاهدوا عدوكم وتستشهدوا في سبيل الله دفاعاً عن دياركم وأموالكم ، وإما أن تكتبوا على أنفسكم الذل والهوان وهو ما لا ترضون . « يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، .

أيها المجاهدون !

إن الجهاد في سبيل الله هو الإيمان حقاً ؛ فقد جعل الله للمجاهدين أجراً عظيماً ، وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار : « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله ، وأولئك هم الفائزون . يبشّرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم . خالدين فيها أبداً ، إن الله عنده أجر عظيم ، .

أيها المجاهدون !

سيروا على بركة الله ، واعلموا أن غَدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ، وأنها أعدت للصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، والله ولي الصابرين . « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ؛ يقاتلون في سبيل الله فيُقتلون ويُقتلون ، وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » .

أبنائي المجاهدين !

إن أردتم النصر فادتملوا نداء خاتم النبيين وسيد المرسلين عليه الصلاة والسلام ؛ نداه في الناس يوم جهاد بدر : « والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابرا محتسبا مُقبلا غير مُدبرٍ إلا أدخله الله الجنة » . فاسعوا إلى الجنة مسرعين ، وأقبلوا على نصره إخوانكم بنفوس راضية ، واعلموا أن الله معكم « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » .

أيها المحاربون !

إن أفضل الناس عند الله من يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله . والجهاد والدفاع عن الأوطان والذود عن الحياض فريضة على كل وطني مخلص لوطنه . فأقبلوا وتقدموا الصفوف ، ولا تخشوا في سبيل الحق لومة لائم ، واعلموا أن من قتل في سبيل الله حى خالد عند ربه « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين » .

اللهم إني أسألك للمجاهدين عزة ومنعة . اللهم إني أسألك لهم نصراً مؤزراً .
اللهم أيدهم بقوة منك ، وأظهرهم على أعدائهم . اللهم اكتب لهم التوفيق
والسداد ، واشرح صدورهم للجهاد ، وارزقهم نصرك الذي وعدت من يجاهد
في سبيلك ، وامنحهم الصبر والنصر ، وثبت أقدامهم ! . اللهم امنح عونك
وتوفيقك صاحب الجلالة ملك مصر المعظم الملك فاروقاً الأول ، المجاهد
في سبيلك ، الداعي لنصرتك ، المؤيد لكلماتك ؛ وأصحاب الجلالة والفخامة
ملوك العرب ورؤسائهم ، إنك يا مولانا نعم المولى ونعم النصير .
والسلام عليكم أيها المجاهدون ورحمة الله وبركاته ، وإني أستودعكم الله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الاكبر

في الاحتفال بذكرى المغفور له الملك فؤاد الأول ، وتوزيع الجوائز
على أوائل الناجحين في حفل حافل شرهه معالي رئيس الديوان الملكي

الحمد لله الذي وفق المصلحين ، والصلاة والسلام على خير الانبياء والمرسلين ،
وعلى آله وأصحابه والتابعين لنهجه القويم ، وصراطه المستقيم .

أما بعد : فإن للعاملين لذكرى ، وإن للمصلحين لأثراً ، وإن أولى العاملين
بالذكر ، رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وأقاموا ركن الدين ، ونهضوا بواجباتهم
على أكرم وجه ، وأمثل سبيل . وأى رجل أخلق بالذكر وأحق بالتمجيد من عاهل
مصر العظيم ، المغفور له ، الملك فؤاد الأول . فقد كان - طيب الله ثراه - مثلاً
يحتذى في إعزاز الدين ، وإكرام رجاله ، والنهوض بهم إلى المسكنة اللاتقة
بدينهم الخفيف ، وتعاليمه السامية .

ولو أردت أن أعدد مآثر فؤاد العظيم ، وأياديه الغر الميامين ، على الأزهر
ورجاله ، لما وسعتني صحائف وصحائف . وهذا التاريخ من قبلى ، قد سجل اسم
فؤاد في عداد الخالدين ، وامتلات صحائفه بآثاره الخالدات ، التي نهضت بمصر
كلها نهضة عظيمة ، في جميع مناحي حياتها ونشاطها الاجتماعي ، والثقافي ،
والسياسي ؛ فما من مؤسسة ولا جماعة هدفها الخدمة العامة والإصلاح ، إلا يتوج
اسم فؤاد جهودها ، بما بذل لها من عون أدبي ومادى .

لم يكن - طيب الله ثراه - يسمح أن تمر لحظة من حياته العامرة بوجوه النفع
والإصلاح ، دون أن يسجل في ثبوت النهضة أثراً جديداً من آثاره الدافعة بالامة
إلى أوج الرقي والحضارة .

واليوم ونحن نحيي الذكرى الثانية عشرة لهذا المصلح العظيم ، لا نستطيع أن نمر على آثاره في النهضة العلمية دون أن نقف لحظات نستمطر فيها الرحمة على هذا العاهل العظيم .

أما الأزهر ففي عنقه لفؤاد العظيم ، دين لن يستطيع أبناء الأزهر مهما جاهدوا في ذكره ، أن يوفوا حق الملك العظيم ، الذي بذل لهم من نفسه وماله وسلطانه ، ما أقام لهم عمدة معيهم العتيد على أساس مكين من الإصلاح الديني والعلمي ، حتى حق أن يلقب فؤاد على الزمن « منشىء الأزهر الحديث » .

فاللهم أسكنه المقام المحمود الذي وعدت من يعملون في سبيلك ، ويؤدون الحق ، ويؤازرون الخير ، ويرون العلم والعلماء ، قدر ما جهد فؤاد نفسه في خدمة العلم والدين ، وجزاء وفاقا لما بذل في سبيل الله وأعان على مرضاته .

اللهم أجزل له مثوبتك بما أجزل للمسلمين من عطاء ، وبما أمدد الأزهر من فيض الرعاية .

« لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، وأولئك لهم الخيرات ، وأولئك هم المفلحون . أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك الفوز العظيم » .

أبنائى الأزهريين :

إن إحياء ذكرى عاهل مصر العظيم فؤاد الأول واجب على الأزهريين ، عرفانا بما أسدى لهم من جميل رفع من قدرهم ، وأعلى من ذكرهم . وإن من آثاره التي لا يحصها العد هذه اليد التي أسداها للطلاب تشجيعا على طلب العلم ، وحثا لهم على التنافس فيه ؛ فقد وهب - أسكنه الله فسيح جناته وأثابه خير المثوبة - جائزة مالية عظيمة لأوائل الناجحين من خريجي الكليات الأزهرية الثلاث ، التي هي من غرس يدي ، وتقديرا لهم ، وحفزا لغيرهم .

وإننا ننتهز فرصة ذكره فتقدم هذه الجوائز للأول والثاني من ناجحي الشهادات العالية في الكليات الثلاث ، مكررين الدعاء من قلوبنا أن يجعل جلالته

في جنات الخلد مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

« والله يدعو إلى دار السلام ، ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، ولا يرهق وجوههم كَتَتْ ولا ذلة ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ،

ولعل أجل ما نعتز به في هذه الذكرى العزيزة علينا وعلى الوطن ، هو ما تفضل به علينا حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم الملك فاروق الأول ، شبل فؤاد العظيم ، بمناسبة إحيائنا هذه الذكرى ؛ فقد تفضل حفظه الله فأسبغ على الأزهر ورجاله نعمة لا حد لها ، ورعى طلابه بعناية سامية يعلن بها رضاه السامى وتقديره للعاملين المجدين . ولاغرو فالفاروق ابن فؤاد العظيم .

وكل يوم تطلع مع شمس مآثرة ومحمدة للفاروق ، هدفها عزة الدين ، وغايتها نصرة الإسلام والمسلمين .

والآن أضرع إلى الله العلى القدير باسمى واسمكم أن يحجزه عنا خير الجزاء ، وأن يحياه حياة طيبة مباركة تعم بنفعها العباد والبلاد . إنه سميع مجيب ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

الاسلام والاشتراكية

وسمو نظام الاجتماع الاسلامى على جميع النظم العالمية

تلطف سعادة الوزير المفوض لدولة المجر فزار حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر ، فى أوائل شهر مايو الجارى ، رافعا لفضيلته تحيات مسلى هنغاريا . فقابل فضيلته هذه التحيات بمثلها ، ورجا سعادة الوزير المجرى أن يبلغها اليهم مشفوعة بدعائه وجميل ثنائه . ثم جرى فى هذه المقابلة كلام عن حال المسلمين فى المجر ، فأجاب الوزير بأنهم ينعمون بالحرية الدينية والاجتماعية ، وبأنهم يتمتعون بعناية حكومتهم ، وبأنها أصدرت حديثا قوانين اعترفت فيها بمساواة الدين الاسلامى لسائر الأديان المعترف بها فى بلاد المجر .

فأبدى له فضيلة الأستاذ الأكبر سروره بهذه الأنباء ، ورجا سعادة الوزير المفوض أن يبلغ أولئك المسلمين أن يبقوا متمسكين بدينهم ومخلصين لوطنهم . ثم انتهز الوزير هذه الفرصة فسأل فضيلة الأستاذ الأكبر عن مبلغ صحة ما يكتب عن الاشتراكية فى الاسلام .

ففضل فضيلة الأستاذ الأكبر بإجابته بما يأتى :

« أود أن أوضح لسعادة الوزير كلمة الدين دون تأثر بأى مذهب أو رأى ، إلا الرأى العلمى الخالص . وكلمة الدين هى أن الاسلام نظام قائم بذاته لا علاقة له بالاشتراكية ولا بغيرها من المذاهب . وهو نظام يكفل للمسلمين السعادة فى معاشهم ومعادهم ، ويضمن لهم التكافل الاجتماعى بفرض الزكاة على القادرين والموسرين لمصلحة الضعفاء والفقراء . على أنه مع ذلك يعترف صراحة بالملكية الفردية ونظام الموارث ، والتفاضل فى الكسب والرزق . وهذا النظام يقوم على قواعد اجتماعية وعمرانية لا نظير لها فى أى مذهب دنيوى من المذاهب الحديثة . »

ونحن نقول تعليقا على هذا التصريح القيم : إنه أقوم وأعدل ما يكتب عن النظام الاجتماعي والمالي في الإسلام .

فإن قول فضيلة الأستاذ الأكبر : إن الإسلام نظام قائم بذاته لا علاقة له بالاشتراكية ولا بغيرها من المذاهب ، حق لا مرية فيه . فإن الاشتراكية لم توجد إلا في القرن التاسع عشر ، فأين هي من الإسلام الذي أنزل في القرن السابع للميلاد ؟ نعم وضع مشرّع اسبارطا اليونانية (ليسكورج) نظاما اقتصاديا لجمهوريته لم تقم عليه أمة قبله ولا بعده ، آخى به بين جميع الاسبارطيين ، حتى كانوا يتناولون الطعام مختلطين في موائد عامة كأنهم أعضاء أسرة واحدة ، وكانت أموالهم مشاعة بينهم لا غنى فيهم ولا فقر ؛ ولكن هذا النظام لم يلبث أن تصدع ، وزالت معه دولة اسبارطة ، ووقعت تحت كلال المقدونيين ، دون أن يترك أهلها أثرا عليها أو فنيا كما ترك إخوانهم الآثينيون . وقد كانت بلادهم جبلية قاحلة لا تسمح أن تقوم بها أمة تتخذ نظاما يصلح أن يسمى نظاما اجتماعيا قويا ، لذلك لم يفكر حتى غلاة الاشتراكيين في أن يتخذوا ما كانت عليه 'قدمة' تؤيد ما يذهبون إليه من نظرياتهم .

أما قول فضيلته عن الإسلام : إنه نظام يكفل للمسلمين السعادة في معاشهم ومعادهم ، ويضمن لهم التكافل الاجتماعي ، بفرض الزكاة على القادرين والموسرين لمصلحة الضعفاء والفقراء ، فثابت لا يمكن التردد فيه . فقد أثبت التاريخ أن الضعفاء والفقراء في المجتمعات الإسلامية نالت في جميع بلاد المسلمين من الرعاية ما لم يتل بعضه أمثالهم في جميع البلاد ، ومنها أوروبا ، إلى أوائل القرن التاسع عشر .

فقد كانت الطبقة الدنيا من الشعوب تعيش في الحرمان ، بل في العبودية للسراة والمثرتين . وكان الفلاحون يباعون ، حتى في فرنسا نفسها وفي أرقى ممالك أوروبا ، مع الأرض التي يعملون فيها ، فينتقلون من ملكية سيد إلى ملكية سيد آخر دون أن يستشيرهم أحد في مصيرهم .

قال فضيلة الأستاذ الأكبر : فرض الإسلام الزكاة على القادرين والموسرين لمصلحة الضعفاء والفقراء . ونقول نعم وهو الوضع الطبيعي المعقول ؛ ولكن الأهم قبل

الاسلام من أول عهد الرومان إلى عهد الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر كانت تفرض الضرائب والائاتات على الفقراء ومتوسطى الحال ، وكانت تعنى الأغنياء والأقوياء منها . وقد حملت هذه المعاملة العامة في الدولة الرومانية على الاضراب عن العمل مرات متتالية ، فكانوا في كل مرة يرضخ لهم القادرون والموسرون بصباية لاترؤى غلة ، فلما أعوزهم الاضطراب تركوا أعمالهم ولاذوا بالجبال ؛ وما زال أمرهم بين بين حتى زالت الدولة الرومانية ، وخلفتها حكومات استعانت على خنق شكاوى العامة بالدين ، بعد أن حرقوه عن حقيقة .

كان الملوك والأمراء ورجال الدين ، ومن لهم صلة بهؤلاء في أوروبا ، معقنين من كل التكاليف المالية على مزارعهم الواسعة ، وعقاراتهم الثابتة ، وتجاراتهم الرائجة ؛ وكان على العامة أن يرسفوا في قيسود الفاقة ، وأن يصبروا على آلام الحرمان . فلما جاء الاسلام قلب هذه الحال الى ضدها ، ففرض على القادرين والموسرين زكاة لمصلحة الفقراء والضعفاء والمعوزين ، ودعاها حقاً لهم ، فقال تعالى : « وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » .

وقد شدد الاسلام في تحصيل هذا الحق حتى قاتل الممتنعين عن أدائه . فانه لما امتنع بعض القبائل العربية عن دفع الزكاة ، أمر أمير المؤمنين أبو بكر أن تحصل منهم بالقوة ؛ فلما أكره بعض أصحابه هذا التشديد قال : « والله لو منعوني عقلاً بغير لقاتلهم عليه » . وأنت خير بأن هذه الزكاة كان يؤدّى جانب كبير منها للفقراء والمملقين . قال الله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب ، والغارمين ، وفي سبيل الله ، وابن السبيل ، فريضة من الله ، والله عليم حكيم ، وكلها كما ترى وقف على مصالح الفقراء وحفظ كيان الاجتماع . فقوله تعالى : « والعاملين عليها » أى على تحصيلها فإنهم يعطون أجورهم منها . وقوله سبحانه : « والمؤلفة قلوبهم » أى الذين أسلموا حديثاً فتستألف قلوبهم بإمدادهم بشيء يستصلحون به معاشهم ليتحققوا أنهم بين ظهرائى قوم رحيمين . وقوله جل وعز : « وفي الرقاب » أى فى فك أسر الأرقاء ، فقد كان من عادة العرب أن يعين الواحد منهم لرقيقه مالا إذا أداه له تحرر من أسره . فأمر الله الحكومة الإسلامية أن تمتد هؤلاء الأسرى بأموال ليتحرروا من رقهم ، وهو

غرض عمراني جليل يشعر بأن الإسلام يرمى الى إعانة الضعفاء على أية صورة كان ضعفهم . وقوله تعالى : « والغارمين ، أى والمدينين لأنفسهم فى غير معصية ولا إسراف . وكذلك الباذل أموالهم لإصلاح ذات البين ، فيرد إليهم ما دفعوه وإن كانوا أغنياء ، تنشيطا لهم على العمل للإصلاح بين الناس . » وابن السبيل : المسافر الذى فقد ماله .

وقول فضيلة الأستاذ الأكبر لمحدثه : « وهذا النظام يقوم على قواعد اجتماعية وعمرانية لا نظير لها فى أى مذهب دنيوى من المذاهب الحديثة ، » فتأكد لا مبالغة فيه ، فإن العقول الإنسانية عجزت عن فرض نظام اقتصادى يسرى سريان نظام الزكاة ، ويتناول الثروة العامة من جميع نواحيها ، على الوجه الذى عليه الزكاة فى الإسلام . فإن كل ما فعلته هذه العقول وتفعله أن تفرض على دُخل كل إنسان وعلى ما يؤول إليه من الأموال ، ضريبة تصاعدية تحصلها وتضيفها الى خزينة الدولة ، فتنفقها فى الوجوه التى تنفق فيها سائر إيراداتها .

ولكن الإسلام خص دُخل الزكاة ، مهما كثر ، فى رأب صدوع المجتمع التى أساسها الفقر والإعواز . وقد ثبت أن الفقر فى الطبقات السفلى من المجتمعات شر أدواء الاجتماع ، فهو يحمل الواقعين تحت كلاله على إتيان جميع ضروب الشرور للحصول على أخص حاجات الحياة وهو القوت . فالبطون إذا خوت ، والأجساد إذا عريت ، دفعت أصحابها لاستساعة جميع صنوف الجرائم ، وعدت ذلك عملا مشروعا . ومهما أعدت الحكومات من درجات العقوبات باءت فى كبجها بالفشل .

وفى البيئات التى يشيع فيها الفقر ، تروج جميع المذاهب المتطرفة التى تستحل جميع شكاوى الأعمال الوحشية للوصول إلى أغراضها ، وتعتبر ذلك من الأمور المشروعة . وقد ذاقنا أوروبا من هذه الناحية شر ما يولده الفقر من الأعمال الضارة بال عمران ، من أول الاضرابات البريئة عن الأعمال ، إلى آخر ما تتطور إليه من الثورات التى لا تبقى ولا تذر . وقد استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم من الفقر ، وهو أزهى الناس فى الدنيا ، ولم يملأ بطنه قط من طعام .

فن أحكم ما رأيناه فى الإسلام ، وكل ما فيه متناه فى الإحكام ، أن يفرض على أهله فريضة مالية يخصصها لتدارك حاجات الفقراء . وقد عُنى غناية فائقة

بأمر هذه الطبقة حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من بات شبعان وجاره جائع » . ناهيك أنه سعى ما يدفع لإعانة الفقراء حقاً لهم ، لا مجرد تفضل من الأغنياء عليهم . وقد أمر بامداد طالب المعونة بحاجته مهما كان مظهره فقال : « أعط السائل ولو جاءك على فرس » .

بهذه التعاليم اضطلعت الأمة الإسلامية ، فلم ينتشر فيها الفقر انتشاره في غيرها ، ولم يصعبها من أهل الإملاق شر في جميع أدوار حياتها الاجتماعية ، واستن المسلمون بسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم في علاج الفقر بقدر ما همدوا اليه ، فأسسوا للفقراء الملاجئ ، وشيدوا لأبنائهم المدارس المجانية ، ووقفوا عليها عتائل أموالهم ، ولا يزالون يحرون على هذه السنة .

ولم يكتف الإسلام بما فرض من الزكاة ، بل جعل كثيراً من الكسفات أموالاً تبذل للفقراء ، أولئك رقاب الأسراء ، وكلها ترمى إلى الترفيه عن المحتاجين ، وقد عُدت الآيات التي وردت في الكتاب الكريم عن بذل المال في وجوه البر ، فوجدت أكثر مما ورد منها في الحث على الصلاة .

إن الذين يطلعون على الحوادث العالمية ، وخاصة الحادثة من تطاحن الأحزاب وما يجره هذا التطاحن من اضطراب الأمور ، وقلق النفوس ، يدركون لأول وهلة أن منشأها سوء توزيع الثروة بين الأفراد ، فإذا وجد نظام اقتصادي يحول حصة صالحة من الثروة العامة تحويلاً آلياً مبنياً على نظام قار ثابت ، إلى الناحية التي تشكو الإقلال ، سواء بتوزيعها نقداً ، أو بإنشاء ملاجئ ومستشفيات وصيدلات ومدارس مجانية ، بحيث تسد حاجة أهل الإقلال ، فإن المذاهب الاشتراكية من معتد لها ومتطرفها لا تجد حاجة لتكدير صفو الحياة الاجتماعية . وهذا يتم عمله بواسطة الزكاة .

فما أصدق فضيلة الأستاذ الأكبر إذ قال لوزير المجر : « إن هذا النظام الإسلامي يقوم على قواعد اجتماعية وعمرانية لا نظير لها في أي مذهب دنيوي من المذاهب الحديثة » .

محمد فريد وهدي

الرفق في العبادة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكري ياسين
مدير إدارة البحوث والثقافة المساعد
بالأزهر الشريف

أخرج الإمام أحمد بإسناده عن رجل من باهلة، قال : « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجة مرة ، فقال : من أنت ؟ قلت : أما تعرفني ؟ قال : ومن أنت ؟ قلت : أنا الباهلي الذي أتيتك عام أول ، فقال : إنك أتيتني وجسمك ولونك وهيتك حسنة ، فما بلغ بك ما أرى ؟ قلت : والله ما أفطرت بعدك إلا ليلاً . قال : من أمرك أن تعذب نفسك ؟ من أمرك أن تعذب نفسك ؟ ثلاث مرات ؛ صم شهر الصبر ، قلت : إني أجد قوة ، وإني أحب أن تزيدني ، قال : صم يوماً من الشهر ، قلت : إني أجد قوة ، وإني أحب أن تزيدني ، قال : فيومين من الشهر ، قلت : إني أجد قوة ، وإني أحب أن تزيدني ، قال : ثلاثة أيام من الشهر ، قال : وألح عند الرابعة ، فساكاد ، فقلت : إني أجد قوة ، وإني أحب أن تزيدني ، قال : صم الحرم وأفطر . »

من هذا الحديث نعلم أن الله تعالى نهى عن الانتقال في الطاعات ، والمغالاة فيها ، وأمر بالرفق واليسر في العمل بأحكام الدين ، وحث على ألا يفعل الإنسان ما فعله ذلك الرجل الباهلي ، وما كان يفعله كثير من العباد والمتنسكين الذين كانوا يحملون أنفسهم من العبادة ما يضر بأجسادهم ، ويشق على نفوسهم ، فهو لاء وإن كانوا أهل صدق وجد واجتهاد ، إلا أنه ينبغي ألا يقتدى بهم في هذا الإفراط والتشدد ، وإنما يقتدى بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن خير الهدى هديه ، وقد كان ينهى عن التعسير ، ويأمر بالتيسير ، ودينه الذي بعث به يسر ، وكان يقول : خير دينكم أيسره ، وكان أكثر تطوعه صلى الله عليه وسلم ببر

القلوب وطهارتها، وسلامتها، وقوة تعلقها بالله، خشية له، ومحبة، وإجلالا، وتعظيما، ورغبة فيما عنده، وزهدا في الدنيا.

سئلت فاطمة بنت عبد الملك زوجة عمر بن عبد العزيز بعد وفاته عن عمله، فقالت: والله ما كان أكثر الناس صلاة، ولا أكثرهم صياما، ولكن والله ما رأيت أحدا أخوف لله من عمر! لقد كان يذكر الله في فراشه، فيتنفض انتفاض العصفور من شدة الخوف، حتى نقول: ليصبحن الناس ولا خليفة لهم. وقال بعض السلف: ما بلغ من بلغ عندنا بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بسخاوة النفوس، وسلامة الصدور، والنصح للأمة.

فالنبي صلى الله عليه وسلم لما رأى ذلك الرجل الباهلى، وقد نهكه الصوم، وغير هيئته، وأضر به في جسده، أمره أولا أن يقتصر على صيام شهر الصبر، وهو شهر رمضان، فلما طلب منه أن يزيده من الصيام، وأن يأمره بالتطوع، قال له: صم يوما من الشهر، فاستزاده، فقال له: صم يومين، فاستزاده، فقال له: صم ثلاثة أيام، فلما ألح عليه عند الثالثة، ما كاد يزيده على الثلاثة أيام من الشهر.

وكذلك فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع عبد الله بن عمرو بن العاص؛ ففي صحيح مسلم عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: صم يوما — يعنى من الشهر — ولك أجر ما بقى، قال: إني أطيق أكثر من ذلك، قال: صم يومين، ولك أجر ما بقى، قال: إني أطيق أكثر من ذلك، قال: صم ثلاثة أيام، ولك أجر ما بقى.

ووجه ذلك أن الصيام يضاعف مالا يضاعف غيره من الأعمال، ولا يعلم منتهى مضاعفته إلا الله تعالى، وكلما قوى الاخلاص فيه، وإخفاؤه وتنزيهه من المحرمات والمكروهات، كثرت مضاعفته، فلا يستبعد أن يصوم الرجل يوما من الشهر، فيضاعف له بثواب ثلاثين يوما، فيكتب له صيام الشهر كله، وكذلك إذا صام يومين من الشهر، فأما إذا صام ثلاثة أيام فالأمر ظاهر، لأن الحسنة بعشر أمثالها، فالיום بعشرة أيام.

وحديث الباهلى هذا، يدل على أن التكلف في العبادة بما يشق على النفس، ويتأذى به الجسم، غير مأثور به شرعا؛ ولذلك قال له النبي صلى الله عليه وسلم: من أمرك أن تعذب نفسك؟ وأعادها عليه ثلاث مرات.

وهذا كما قاله لمن رآه يمشى في الحج ، وقد أجهد نفسه : إن الله لغني عن تعذيب هذا نفسه ، فمروه فليركب .

وقال لعبد الله بن عمرو بن العاص ، حيث كان يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ويختم القرآن في كل ليلة ، ولا ينام مع أهله ، فأمره أن يصوم ويفطر ، ويقرأ القرآن في كل سبع ، وقال له : « إن لنفسك عليك حقا ، وإن لآهلك عليك حقا ، فأت كل ذي حق حقه » .

ولما بلغه أن عثمان بن مظعون أراد التبتل قال له : أترغب عن ستي ؟ قال : لا ، ولكن سنئك أريد ، قال : فإني أنام وأصلي ، وأصوم وأفطر ، وأنكح النساء ، فاتق الله يا عثمان ، فإن لآهلك عليك حقا ، وإن لضيئك عليك حقا ، وإن لنفسك عليك حقا ، فصم وأفطر ، وصل ونم .

وعزم جماعة من الصحابة أن يتبتلوا ، فجلسوا في البيوت ، واعتزلوا النساء ، وحرموا طيبات الطعام واللباس ، وهموا بالاختصاص ، وأجمعوا لقيام الليل ، وصيام النهار ، فنزل فيهم : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين » .

وقد ورد النهي عن صيام الدهر ، والتشديد فيه . وهذا كله يدل على أن أفضل صيام التطوع هو ألا يضعف البدن ، حتى يعجز عما هو أفضل منه من القيام بحقوق الله تعالى ، أو حقوق عباده اللازمة ، فإن أضعف عن شيء من ذلك مما هو أفضل منه ، كان تركه أفضل . فالأول مثل أن يضعف صيام التطوع عن الصلاة ، أو عن الذكر ، أو عن العلم ؛ والثاني مثل أن يضعف عن الكسب للعيال ، أو القيام بحقوق الزوجات ، فيكون تركه أفضل .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم ، يتوسط في إعطاء نفسه حقها ، ويعدل فيها غاية العدل ، فيصوم ويفطر ، ويقوم وينام ، ويأكل ما يجد من الطيبات كالحلواء والعسل ، ولحم الدجاج ، وتارة يجوع حتى يربط على بطنه الحجر ، وقال : عرض عليّ ربّي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهاباً ، فقلت : لا ، يارب ، ولكن أجوع يوماً ، وأشبع يوماً ، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرك ، وإذا شبعت حمدتك

وشكرتك . فاختار صلى الله عليه وسلم أعدل الأحوال ، ليجمع بين مقامات الشكر والصبر والرضا .

وقد ورد : « اكفوا من العمل ما تطيقون ، فوالله لا يمل الله حتى تملوا » . وورد : « أحب العمل الى الله أدومه وإن قل » . فمن عمل عملا يقوى عليه بدنه في طول عمره في قوته وضعفه ، استقام سيره ؛ ومن تحمل ما لا يطيق ، فإنه قد يحدث له مرض يمنعه من العمل بالسكينة ، وقد يسأم ويضجر ، فيقطع العمل ، فيصير كالمثبت ، لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى .

وقد ندم عبد الله بن عمرو بن العاص في آخرة أمره حين عجز عن الاستمرار على ما أخذ بنفسه من قيام الليل وصيام النهار والإفراط في العبادة وقال : ليتني قبلت رخصة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد كان رجل في زمن التابعين ، يصوم ويواصل ، حتى عجز عن القيام ، وكان يصلي الفجر جالسا ، فأنكروا ذلك عليه ، حتى قال عمرو بن ميمون : لو أدرك هذا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لرجموه .

وكان ابن مسعود يقل صيام التطوع ، ويقول : إنه يضعفني عن قراءة القرآن ، وقراءة القرآن أحب الى .

وأحرم رجل من الكوفة ، فقدم مكة ، وقد أصابه الجهد ، فرآه عمر ابن الخطاب ، وهو سىء الهيئة ؛ فأخذ عمر يده ، وجعل يدور به الحلق ، ويقول للناس : انظروا الى ما يصنع هذا بنفسه ، وقد وسع الله عليه ! .

ولعل السر في مطالبة الاسلام (بالرفق في العبادة) والاعتدال في أعمال التطوع واضح كل الوضوح ، فان الله تعالى خلق الانسان محتاجا الى ما يقوم به بدنه من مأكل ومشرب وملبس ، وأباح له من ذلك كله ما هو طيب حلال تقوى به النفس ، ويصح به الجسم ، ويتعاونان على طاعة الله ؛ وحرم عليه ما هو ضار خبيث ، يوجب للنفس طغيانها وقسوتها وغفلتها وأشرها وبطرها ؛ فمن أطاع نفسه في تناول ما تشتهيه مما حرمه الله عليه ، فقد تعدى وظلم نفسه ، ومن منعها حقها من المباح حتى تضررت ، فقد ظلمها ومنعها حقها ؛ فمن تكلف من التطوع ما يتضرر به في جسمه ، كما فعل ذلك الباهلي ، أو ما يمنع به حقا واجبا عليه ،

كما فعل عبد الله بن عمرو بن العاص وغيره من عزم على ترك المباحات في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فانه ينهى عن ذلك ؛ ومن احتمل بدنه ذلك ، ولم يمنعه من حق واجب عليه ، لم ينه ، إلا أن يمنعه عما هو أفضل ، فانه يرشد الى عمل الأفضل . وأحوال الناس تختلف فيما تتحمله أبدانهم ، وتتقبله نفوسهم ، فيرشد كل واحد الى ما يناسب حالته .

وهذا كانه يدل على سماحة الاسلام وسهولة أحكامه ، وما أصدق ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ يقول : « إن هذا الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه » .

كما يدل على شفقة الرسول صلى الله عليه وسلم ورحمته بالمؤمنين ، إذ كان لا يترك فرصة إلا تعهدهم فيها بالنصح والإرشاد ، وتوجيههم الى ما فيه خيرهم وصلاحهم في دينهم ودنياهم « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » .

طلب الحوائج

قال خالد بن صفوان : لا تطلبوا الحوائج في غير حينها ، ولا تطلبوها من غير أهلها ، فان الحوائج تطلب بالرجاء ، وتدرك بالانضاء .

وقال : مفتاح نجح الحاجة الصبر على طول المدة ، ومغلاقها اعتراض الكسل دونها . وقد جاء ذلك في الشعر فقال شاعر :

إني رأيت وفي الأيام تجربة للصبر عاقبة محمود الأثر
وقلّ من جسد في أمر يحاوله فاستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

وقال حكيم : لا تطلب حاجتك من كذاب ، فإن يقربها بالقول ويبعدها بالفعل ؛ ولا من أحق ، فإن يريد نفعلك فيضرك .

وقال شبيب بن شبة : إني لأعرف أمرا لا يتلاقى به إنسانان إلا وجب به النجح بينهما . فقيل له : وما ذاك ؟ قال : العقل ، فان العاقل لا يسأل ما لا يمكن ، ولا يرد عما يمكن .

تحقيقات حول عقيدة ابن رشد

لحضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بالجامعة الأزهرية

رأى ميرين:

استند هذا العالم في حكمه على ابن رشد إلى نصوص كتاب «تهافت التهافت» ، فأنتهى به بحثه إلى أن ابن رشد لم يبذل جهداً مخلصاً في التوفيق بين الفلسفة والدين فحسب ، بل إنه في بعض المسائل الأساسية قد أخضع الفلسفة للدين ، والعقل للعقيدة ، فكان الدور الذي منح الفلسفة تمثيله هو دور شرح الحقائق الآتية عن طريق الوحي ، وفي الدائرة التي حددها الدين . وليس هذا النهج من مبتدعات ابن رشد ، بل هو مألوف عند جميع فلاسفة العرب ، ولكنه هو فقط أكثر ظهوراً في فلسفة ابن رشد . فثلاً نحن نشاهد ابن سينا ينغمس في نوع من التنسك المظلم الذي لا يفهمه إلا نلاميذه كلما اصطدم بمشكلة لا تتفق مع رأى القرآن ؛ أما ابن رشد فقد ذهب إلى ما هو أبعد من هذا حيث أعلن مثلاً بإزاء مسألة الحياة الأخرى أنه يجب ترك هذه المسألة ، وأنه — إلى أن يجد لها العقل حلاً يتفق مع القرآن — يعد الخروج فيها عن حدود الإيضاح القرآني ، أو الارتباب فيه ، ضرباً من الإلحاد . ومن هذا يتبين أننا إذا تعقبنا الفلسفة العربية إلى آخر خطواتها ، ألفيناها دائماً خاضعة للدين ^(١) .

ونحن لا نحسب أننا في حاجة إلى التنبيه على خطأ هذا العالم بعد الذي أسلفناه حين عرضنا لفلسفة الإسلام من محاولاتهم المغالية في إخضاع الدين للفلسفة الإغريقية وجعلها هي المركز الرئيسي الذي يجب أن يجذب إليه النصوص القرآنية ، وما ذكرناه من آرائهم التي تثبت في وضوح أنهم كانوا يقدمون العقل

(١) انظر مجلة « الموزيثون » البلجيكية سنق ١٨٨٨ - ١٨٨٩ تحت عنوان

« دراسات في فلسفة ابن رشد » .

على كل شيء إلى حد حمل الأستاذ «كارادى فو» على أن يعلن أنهم كانوا يجعلون الوحي في الدرجة الثانية بعد الفلسفة.

ميجيل أزين :

بدأ هذا الباحث دراسته بترجمة فصول من كتب : «تهافت التهافت» و «فصل المقال» و «كشف الأدلة» إلى اللغة الأسبانية ، ثم عقد بينها وبين نصوص القديس توماس الاكوينى موازنة دقيقة خرج منها بأن رينان قد غالى في زعمه أن ابن رشد كان عقليا محضاً ، وأن الحقيقة الناصعة هي أنه خصم لدود للتعقل الحس ، وأن مذهبه في محاولاته التوفيق بين الفلسفة والدين يشبه مذهب القديس توماس ، إذ هو يرمى إلى إثبات أن العقل — وليست الفلسفة أو البحث عن جواهر الأشياء بالبرهان إلا من منتجاته — يقود إلى عدد كبير من الحقائق ولكنه لا يقود إليها جميعها . ولهذا لم يكن بد من الوحي الإلهي أولاً لكي يصور الحقائق الضرورية للنجاة أمام أخيلة الجماهير في صورة رمزية فاتنة ؛ ثانياً لكي يلهم الجميع حتى الفلاسفة بعض الحقائق لما بعد الطبيعية التي يستطيع العقل أن يدرك وجودها لا معانيها . وبما أن مصدر العقل والوحي واحد ، فمن غير الممكن أن يتناقضا ، بل يجب أن يتعاونوا ، غير أنه لما كان الوحي يفوق العقل ، فقد وجب في حالة التعارض الظاهر أن يخضع الثاني للآخر .

وأخيراً ينتهى «أزين» في بحثه إلى أن لإخلاص ابن رشد الدينى ينبغى أن يوضع فوق كل ريبة ، وأنه في جميع مهاجماتة التي وجهها إلى المتكلمين لم يتعد حد السنة النقية ^(١) .

ليون جوتييه :

لم يقع هذا العالم فيما وقع فيه أسلافه من التسرع في الحكم على ابن رشد ، وإنما أصدر رأيه فيه بعد روية وتمعن ، وهو يتلخص في أن الباحث — لكي يدرك

(١) انظر المقال المعنون «رشدية القديس توماس الالهية» المنشورة في الكتاب

الذى عنوانه : «إجلال إلى دون فرانثيسكو كوديرا» .

الأسباب الحقيقية التي حملت ابن رشد على التناقض الظاهري الذي يشاهده الناظر في فلسفته — يجب عليه أن يعرف أن هذا الفيلسوف قد قسم بنى الإنسان إلى ثلاث فئات، وأبان نوع المعرفة الذي يجب أن يقدم إلى كل فصيلة (١).

فأما أفراد الفصيلة الأولى فهم الفلاسفة أو ذوو البراهين العقلية الذين لا يقنعون بدون الحجة القاطعة، والمعرفة التي يجب أن تقدم إلى هؤلاء هي المعرفة العقلية البحتة، أى أنه لا يصح أن يخفى عليهم شيء ألبتة، بل ينبغي أن يباح لهم تحليل النصوص المتشابهة أو المعقدة من الكتب الدينية، إذ لا يجوز أن يحتجب عنهم سر ولا أن تقف في طريقهم معجزة، لأن الأسرار والمعجزات ليست إلا بعض الرموز المقدرة للجواهر ولا تتصل بالمعرفة الفلسفية التي لا تتعلق إلا بالحجج العقلية.

وأما أفراد الفصيلة الثانية فهم رجال الدين الذين يعتمدون على الأقاويل الجدلية، وهؤلاء قادرون على أن يتبينوا المصاعب الموجودة في النصوص الدينية فحسب، ولكنهم عاجزون كل العجز عن فهم المعاني الحقيقية لهذه النصوص. ويجب على الفلاسفة ألا يقدموا اليهم من المعرفة إلا النوع الأوسط الذي يتلاءم مع عقلياتهم، وهو التأمل المؤلف من أجزاء عقلية وأخرى دينية.

وأما أفراد الفصيلة الثالثة فهم العامة الذين تستويهم الأساليب الخطائية، وهؤلاء عاجزون عن كل شيء ولا يصح أن يقدم اليهم أى تأويل، بل يجب أن يأخذوا بحرفية النصوص، وأن يؤمنوا بجميع الرموز والتمثيلات دون بحث ولا تأويل.

ومن أوضح الأدلة على صحة هذا التقسيم هو ذلك القول المأثور: «الله في السماء». فإن العامة يعتقدون أنه يقطن السماء كما يقطنون منازلهم، ورجال الدين يؤولون هذه الكلمة بأن الله فوق القصر والضعف الإنسانيين، ولكنهم لكي

(١) تبع ابن رشد بلا ريب في هذا تقسيم أرسطو للحجج إلى برهانية وجدنية وخطائية وشعرية وسفسطائية ثم اطرأ الرابطة والخامسة لأفراط أو لامأ في الخيال، وفساد ثانيتهما، وأبقى الثلاث الأولى، وقسم الانسانية ومعارفها على غرارها.

يوضحوا تأويلهم يقولون : « إن الله في كل مكان » . أما الفيلسوف فإنه يعلم أن قول رجال الدين : إن الله في كل مكان ، يساوى قول العامة : إنه في السماء ، لأنه في الحالتين يكون جسما يشغل قدرا من الفراغ قل أو كثر ، وهو لهذا يقول : « إن الإله ليس في أى مكان ، وإنما هو موجود في ذاته ، وإن تأثيره هو الذى يشمل كل مكان » .

ومن هذا يتبين أن الفلاسفة يجب عليهم أن يفلسفوا سرا ، وأن يرضوا بمعارفهم على أهل الطبقتين : الوسطى والدنيا ؛ ألا يوحوا لهم بشيء من أسرار حكمتهم ؛ كما يجب على رجال الدين ألا يكشفوا النقاب للعامة عن شيء من معارفهم حتى لا يعرض العقل لهدم الدين من النفوس التى هو ضرورى لها .

ومن هذا أيضا يبين أن الفلسفة والدين ليسا إلا تعبيرين عن حقيقة واحدة تقضى الحكمة ألا يستعمل أحدهما في موضع الآخر ؛ الأول عقلى واضح ، والثانى رمزى غامض . وهذا هو معنى التوفيق الذى حاول ابن رشد تثبيته بين الحكمة والشرعية ، فقرر أنهما تستطيعان السير جنبا الى جنب كأختين متحابتين مادامتا متجهتين الى صنفين مختلفين من الناس . ولو أن المعتزلة والأشعرية قد فهموا هذا لما كانوا مصدر تشكيك الناس في دينهم كما فعلوا حين حسبوا أنه يجب أن يدعى الناس جميعا على نهج واحد وبدون تمييز بينهم الى معرفة الإله وإلى الحقائق الدينية ، وباحوا للجميع بالتأويلات التى ظنوا أنها حقيقية . ولما لم يكونوا متفقين فيما بينهم فقد أنشئوا مذاهب وشيعا كان ههما الأول أن يتبادل التهم بالكفر والزندقة ، وفى الواقع أن كل تلك الصدوع الدينية التى وقعت في الاسلام تولدت من هذه التأويلات المختلفة التى لا تتفق مع الفلاسفة ولا مع العامة .

بقى الآن أن نعرف كيف تصاغ الحقائق الفلسفية في عبارات رمزية تتفق مع عقليات الجماهير ، إذ أن هذه الصياغة لا تحدث في نفوس الفلاسفة المختصة بالمجردات ، ولا في نفوس العامة العاجزة ، وإنما هى تحدث في نفوس الانبياء الذين بعد أن يفيض عليهم العقل الايماني — كما يفيض على الفلاسفة — إدراكات عقلية برهانية يعود فيرن في أخيلتهم رنينها يجعلهم قادرين على تحويل الافكار النقية إلى تمثيلات رمزية ، وهذا دليل قاطع على أن النبي هو وحده الانسان الكامل

الاسمى من الفيلسوف ، وهو الذى تجتمع فى نفسه الحكمة مع الدين ، وهو الصلة الحية بين العقل والعقيدة .

وأحسب أنه لم يبق بعد ذلك موضع للقول بأن ابن رشد ليس عقليا خالصا ؛ أو بأنه أخضع الفلسفة للعقيدة كما زعم أصحاب هذا رأى ؛ وإنما الحقيقة التى لا ريب فيها هى أن هذا الفيلسوف لم يخط كلمة واحدة تشهد بخضوع الفلسفة للدين ، بل بالعكس قد أعلن أن الفلسفة والديانة ليستا متساويتين ؛ فوضع الأولى من الثانية هو موضع الصفوة من الشعب ، والفكرة النقية من رمزها المادى ؛ وهذا هو الذى حمّله على أن يؤول النصوص الدينية فى حالة اختلافها مع الفلسفة ليتحقق التوفيق بينهما ^(١) .

هذا هو موجز رأى الأستاذ ليون جوتييه فى ابن رشد وآرائه بإزاء الدين ، ولا أراى فى حاجة إلى النصريح بأنه رأى ثاقب دقيق يحمل فى طياته برهان عمق كاتبه وفهمه للوضوع الذى عاجله ، وقدرته على التغلغل فى غيابات الفلسفة الرشدية .
بمشة لم يسبقه إليها أحد من الباحثين ؟

س—ياسة الملك

قال الوليد بن عبد الملك لأبيه : يا أبت ما السياسة ؟ فأجابته : هية الخاصة مع صدق مودتها ، واقتياد قلوب العامة بالانصاف لها واحتمالها فوات الضائع . وكتب أبرويز ملك الفرس إلى ابنه شيرويه : اعلم أن كلمة منك تسفك دماء ، وأخرى تحقن دماء ، وأن تسخطك سيف مسلول على من تسخط عليه ، وأن رضاك بركة مستفيضة على من رضيت عنه ؛ وأن نفاذ أمرك مع ظهور كلامك . فاحترس فى غضبك من قولك أن يخطئ ، ومن لولك أن يتغير ، ومن جسدك أن يمحى ؛ فان الملوك تعاقب حذرا ، وتعفو حملا . واعلم أنك تجل عن الغضب ، وأن ملكك يصغر عن رضاك ، فقدر لسخطك من العقاب ، كما تقدر لرضاك من الثواب .

(1) L. Ganthier. la théorie d'ibn Rochd sur les rapports de la religion et la raison, p. 74-78, 84-85, 108 sq.

أسباب تاخر المسلمين

المؤامرة الثانية

قتل عثمان رضى الله عنه

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد عنتر

الأستاذ بكلية اللغة العربية

وصلت مع القارىء الكريم فى مقالى السابق تحت هذا العنوان الى نتيجة المؤامرة الاولى ، وهى اغتيال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وكان المتوأمرون يظنون أنه سينفرط عقد الجامعة الإسلامية بهذا الحادث الفظيع ، فيتم لهم ما أرادوا من الشر والوقعة . ولكن ساء ظنهم ، وخاب أملهم ، و « سقط فى أيديهم » ، ورأوا أنهم قد ضلوا ، حين رأوا كلمة المسلمين مجمعة تحت راية الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه . عند ذلك تواروا تحت ستار من المكر والخداع برياسة عبد الله بن سبأ^(١) اليهودى ، وعمدوا إلى إثارة الفتنة والدس بين المسلمين ، واستعملوا لذلك كل دهاء وكياسة ، حتى أوقعوا بين المسلمين وخليفتهم ، وكانت النتيجة أن قتل رضى الله عنه فى داره والمصحف بين يديه ! وبذلك قوى عزمهم على تنفيذ جميع مؤامراتهم المدبرة ، فأشعلوا نار الخلاف بين على ومعاوية رضى الله عنهما ، وانتهت تلك الفتن بقتل الإمام على

(١) وكان يلقب بابن السوداء ، لسواد أمه . أسلم من خبث نية وفساد طوية وكيد للإسلام ، وهو الفاعل بأن علياً رضى الله عنه وصى محمد عليه السلام وقد غصبه هذا الحق من تولى الخلافة قبله من الخلفاء فالواجب على المسلمين أن يقوموا لاعادة الحق الى أهله . وقد تبعه كثير من ضعاف الايمان وأهل الأهواء على هذا الرأى الفاسد . وكان ظهوره بالبصرة سنة ٣٤ هـ ثم طرد منها فذهب الى الكوفة ثم الى الحجاز ثم الى الشام فطرد من الجميع ، فذهب الى مصر وها طاب له المقام ، فأخذ ينشر بين المصريين آراءه التى كانت بدورها لفتنة « التى تموج كوج البحر » كما سبق بيانه فى نهاية المقال السابق .

ابن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين ، وأحد شجعان العرب في الإسلام . قتله الخوارج من أعضاء الجماعات السرية التي أوسخت أمرها آتفا . وهذه هي (المؤامرة الثالثة) .

وكان قصد المتآمرين بهذه المؤامرة أن يقضوا على سلطان العرب في جميع بقاع الإسلام بقتل أساطينهم في مصر والشام والعراق ، وهم على معاوية وعمر بن العاص ؛ وبذا تقع الفوضى ويحدث الاضطراب في صفوف المسلمين . ولما لم يتم لهم جميع ما أملوا من الفساد والإفساد ، ركزوا جهودهم سرا في الإيقاع بالحسين ابن علي رضي الله عنهما ، حتى كانت (المؤامرة الرابعة) التي انتهت بقتله رضي الله عنه ، وتشيت آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم في كثير من بلدان الإسلام !

ولست الآن في مقام مؤرخ يسجل الحوادث الدامية التي وقعت في تاريخ الإسلام ، ولكنني بصدد بيان أن تلك الفواجع الاليمية ، والخطوب الجسيمة لم يكن مصدرها العرب أنفسهم كما يدعى ذلك أعداء العرب من مستشرقين وأوروبا ؛ وإنما كان مدبر أمرها ، ومطير شررها وموقد نارها بين العرب هم أولئك الفئام من مدعي الإسلام وليسوا منه ولا من العروبة في شيء ، الذين نكسب بهم الإسلام نكبة لم يرتفع منها رأسه إلى وقتنا هذا ، والذين تربصوا الدوائر بخلفاء بني أمية ، وأوقدوا نار العداوة بينهم وبين بني العباس ، ثم طوّحوا ببني العباس في مهاوى الردى والدماء ، ثم خلفتهم ذريتهم لتعيث الفساد في دويلات الإسلام بمصر والعراق والشام ، بل وبلاد الأندلس العربية التي كانت إحدى جنات الدنيا ، وإحدى عجائبها التاريخية .

وإن تعجب أيها القارئ فعجب أن أمر تلك الجماعات لم يقف عند هذا الحد من الضرر البالغ ، بل تعداه إلى ضرر أبلغ ، وجُرم أخش ، وطوية أسوأ من كل ما ذكر ؛ ألا وهي التشكيك في الدين .

وذلك أنهم لما رأوا أن تقلص ظل السلطان العربي لم يثمر الثمرة المرجوة لهم ، وأن دعائم الاسلام لا تزال ثابتة بالقرآن وبسنة الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لما رأوا ذلك الذي غاظمهم عمدوا إلى إثارة الشك في الدين بين ضعفاء الإيمان من المسلمين ، ففسروا القرآن بحسب أهوائهم تفسيرا باطنيا باطلا

لا تؤخذ معانيه من ألفاظه العربية ! واخترعوا مسائل الجدل في أصول الدين ، كالقول بالتجسيم ، وبالجب ، وبوجوب الصلاح والأصلح على الله تعالى .
وكذبوا على النبي صلى الله عليه وسلم ، فوضعوا آلاف الأحاديث المعطلة لمبادئ الإسلام ، أو الموقعة في الضلال ، أو المفسدة للأخلاق ، ونسبوا إلى الرسول عليه السلام زورا وبهتانا (١) !!

وزادوا الطين بلة بتأليف الكتب في بيان مثالب العرب وتعداد مساوئهم وإسناد كل إفك وتقيصة وباطل اليهم ، من دون أن يكون لذلك ظل من الحقيقة والواقع ، حتى إن ابن خلدون المؤرخ المشهور تسم بهذه الأفكار الخاطئة ، وتجن على العرب ظلما في فصلين عقدهما في مقدمته التاريخية إذ يقول :

(فصل) في أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب !

ثم يقول بعد ذلك :

(فصل) في أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك !

وقد كتب في هذين الفصلين ما شاء له هواه ، وأملته عليه غريزته ، ناسيا أو متناسيا حضارة العرب في الأندلس ذات الجنان الفيحاء ، والقصور الشام ، والآداب والعلوم ! وغافلا أو متغافلا عن تلك الرزايا الجوسية والرومية التي انصبت على رؤوس حكام العرب ، والتي لو جعلت على شم الجبال لدكتها دكا ، وتركها قاعا صفصفا (٢) لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ! وكأني بلسان حال العرب يقول :

صبت على مصائب لو أنها صبت على الأيام عددن لياليا

فيا لله للعرب ، ثم يالله للمسلمين !!

كلمة إنصاف :

على أن ما حدث من بعض الشراذم الضاللة الشريرة لا يمنعنا أن نقر بالفضل ،

(١) ولكننا نحمد الله إذ تصدى لتمييز هذه الموضوعات رجال من علماء الحديث المخلصين أهل الرواية والدراية . رحمهم الله ورضى عنهم !

(٢) الصفص : الأرض المستوية ، والعوج : الانخفاض ، والامت : الارتفاع .

ونعترف بحمىل الصنع لمن دخلوا فى الاسلام من غير العرب ، وهم الكثرة الكاثرة من المسلمين ، فقد خدموا الاسلام أجل خدمة سجلها التاريخ .

فأكثر مفسرى القرآن من هؤلاء الأعلام ، وجل حفاظ الحديث النبوى ورجال الرواية من هؤلاء ، وفطاحل اللغويين والنحاة وعلما البلاغة والأدب من هؤلاء ، بل أستطيع أن أقول : لولا أولئك الأئمة الأعظم ، من علماء الإسلام الأعاجم ، لاندurst هذه العلوم ، وأضحت فى خبر كان !

إلى هنا يلاحظ القارىء أنى أطنبت فى بيان السبب الأول من أسباب تأخر المسلمين ، إلا أنى أعتقد أنه السبب الرئيسى لهذا التأخر ، وكل ماعداه من الأسباب الأخرى مرده الى هذا السبب .

السبب الثانى — إهمال المسلمين العمل بروح الكتاب والسنة فيما دَعَوْا اليه من الحث على الاتحاد والتعاون ونبد العصية الممقوتة ، والأخذ بأهداب العلم الدينى والدينوى ، والجهاد فى سبيل الله . وهذا الإهمال داء قديم ظهر فى عصر بنى أمية ، ثم أخذ ينتشر بعد ذلك بين المسلمين انتشار النار فى الهشيم !

وكان يحمل جرائم هذا المرض رجال من موالى الفرس والروم ، أمثال من عرضنا لذكركم فى السبب الأول . ظهر هؤلاء للناس بمظهر التدين والطاعة والإخلاص لله ولرسوله ، وأخفوا بين ثنايا عباداتهم وطاعتهم سموم الأمراض الاجتماعية ، وشكوك العقائد الدينية ، يثونها فى نفوس من شاءوا ، فى الوقت الذى شاءوا !

ومن عجيب أمر المسلمين أنهم لم يتنبهوا الى ما نبههم اليه الرسول صلى الله عليه وسلم فى أحاديثه الصحيحة من صفات هؤلاء المارقين من الدين ، الذين يلبسون للناس جلود الضأن ، وقلوبهم كقلوب الذئاب . روى البخارى فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم ، وصيامكم مع صيامهم ، وعملكم مع عملهم ، ويقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم ^(١) يمرقون من الدين

(١) الحناجر : جمع حنجرة ، وهى طرف الحلقوم .

كما يمسق السهم من الرميّة^(١) ، ينظر في النصل^(٢) فلا يرى شيئاً ، وينظر في القيدح^(٣) فلا يرى شيئاً ، وينظر في الريش^(٤) فلا يرى شيئاً ، ويتبارى في الفوق^(٥) . ومعنى الحديث أن كل واحد من هؤلاء يتظاهر بالصلاح والتقوى وليس في قلبه منهما شيء ، وأنه يدخل في الإسلام ويخرج منه لا يعلق بقلبه منه شيء ، كما يخرج السهم من الصيد المرمى بقوة الرمي لا يتعلق به ولا بشيء من أجزائه دم ولا غيره ، حتى إن الرامي يتبارى ويشك هل في الفوق شيء ؟ مع أنه ليس بموضع للشك . وهذا الحديث ونحوه من أصدق الدلائل على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم ، وهو ينطبق تمام الانطباق على غلاة الخوارج والرافضة والباطنية ، الذين نسكب بهم الاسلام في عصر على كرم الله وجهه ، وفيما بعده من عصور الإسلام إلى يومنا هذا !

السبب الثالث — موجة الإلحاد التي طغت على العقائد في العصور الأخيرة ، فأغرقتها في بحر لجي من الشك والخيرة ، فكان من أثر ذلك أن ضعف اعتقاد الناس في البعث والنشور والعرض والحساب ، وفي الثواب والعقاب الآخرين ، أي الجنة والنار ، وترتب على هذا الأثر أن قلت الرغبة في الخير بين المسلمين ، وكثرت نوازع الشر فيما بينهم . وهذه نتيجة طبيعية لمن لا يرجو ثواباً ، ولا يخشى عقاباً !

ونظرة فاحصة إلى حال المسلمين الأولين تريك صحة ما أقول :

آمن السابقون الأولون إيماناً صادقاً بما جاء به الرسول عليه السلام ، فكان من أثره أن باعوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله بأن لهم الجنة ، فقاتلوا الأعداء ، وبذلوا الأموال ، وجاهدوا حتى انتصروا ، وكانت لهم الصولة والغلبة والدولة مع قلة عددهم وعددهم . وذلك أثر الإيمان الصادق .

أما المسلمون اللاحقون فهم مع كثرة عددهم ووفرة أموالهم أذلاء في ديارهم ،

(١) الصيد .

(٢) حديد السهم .

(٣) الذئح بكسر الهمزة : السهم قبل أن يراش .

(٤) ما يجعله حوالى الفوق مما يشبه الريش .

(٥) الفوق بضم الفاء : موضع الوتر من السهم .

مستسلمون لأعدائهم ، بخلاء بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والوطن ، وهذا أثر ليمانهم . واليون شاسع بين الأثرين كما ترى .

السبب الرابع — انصراف الكثير من علماء الإسلام عن النظر والتفكير في العلوم الكونية ، واشتغالهم بعلوم الدين واللغة والأدب . والذي أعنيه بهذا الكلام أنه كان يجب أن يكون في عصر المجتهدين من علماء الدين كأي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل مجتهدون آخرون في استنباط المعادن من بطون المناجم ، والبحث في خواص الأجسام وقوانين الطبيعة للوصول إلى الكشف والاختراع ؛ وأن يقوم بجانب علماء اللغة والأدب كالحليل وسيبويه ، والفراء والأخفش ، والجاحظ وعبد القاهر ، والسكاكي والسعد والسيد ، والأصفهاني صاحب الأغاني ، وابن عبد ربه صاحب العقد الفريد — علماء آخرون من طراز آخر ، يبحثون في تنظيم الجيوش الإسلامية ، وتزويدها بآخر ما وصلت إليه يد الاختراع من معدات الدفاع والحرب ؛ وآخرون يبحثون في اختراع وسائل الراحة المختلفة ، وشئون الحياة العامة كالصحة والزراعة والصناعة والتجارة وغير ذلك مما يشاهد في غير بلاد العرب والإسلام . وهاهنا أقول : إن جهلنا بعلوم الدنيا كان سبباً جوهرياً في تأخرنا وانحطاطنا في شئون الدنيا وفي شئون الدين ! . ومما يثير في النفس أعظم العجب أن دستور العرب — وهو القرآن الكريم — تعرض في كثير من المناسبات إلى الحث على الأخذ بأسباب هذه العلوم ، على حين أن الكتب السماوية السابقة لم تتعرض إلى شيء من ذلك ، بل لم تشر إليه أية إشارة .

السبب الخامس — تطرق اليأس إلى نفوس العرب والمسلمين من إصلاح الحال . وقد نشأ عن هذا السبب هذه المهلكات ؛ وهي :

(أ) الجبن وترك الجهاد ، لاعتقادهم ضعف أنفسهم وقوة عدوهم ، وأنه لا بد منتصر عليهم . وهو داء فتاك بالأمم ، لأنه يضعف فيهم الروح المعنوية ، ويُطمع فيهم الأعداء . وقد حدث هذا فعلاً .

(ب) البخل بالمال في سبيل المشروعات الخيرية والوطنية ، لأنهم يخافون الفقر ، ولا يرجون صلاحاً . وهذا عيب اجتماعي كبير ، لأنه يؤدي إلى

البطالة وضعف الإنتاج ، وهما وسائل الفقر . وقد يما قيل : الناس من خوف الفقر في فقر !

(ج) الاستسلام للخور وضعف العزيمة ، لاعتقادهم أن الأجانب الغربيين سبقوهم الى كل شيء ، وفاقوهم في كل شيء . وهو داء يمتل روح النهوض والنشاط ، ويثبط الهمم عن كل نافع مفيد .

(د) عدم الثقة بالنفس في الشئون الاقتصادية والعمرانية . وهذا منشؤه ضعف العزيمة ، لاعتقادهم بأن الأجانب الأوروبي متقن عمله ، مجيد صناعته ، وأن الشرق لا خطر له في إتقان عمل ولا في إجادة صنعة !

وهذا الداء الفتاك كان يروج له ويدعو إليه أول نهضة « أوروبا » ، مستشرقون مأجورون وشرقيون مفتونون ، مدللين على صحة دعاواهم المبهرجة بحال الشركات العربية ، التي كانت تؤلف ثم لا تلبث أن تنحل وتصفى .

وحقيقة الواقع أن هذه أوهام باطلة ، وأن فشل تلك الشركات كان منشؤه دسائس الأجانب وحيلهم الماكرة الغادرة ، التي أطاحت بكثير من مشروعات العرب في بلاد الشرق .

ويدلك على صحة ما أقول شيثان :

الأول — أن اليابان دولة شرقية قصوى ؛ ولكن لما خلصت من دسائس هؤلاء ترقى في زمن وجيز حتى فاقت بعض دول « أوروبا » حضارة وعلوما !

الثاني — أن الوعي الشرقى الوطنى لما تنبه أخيرا الى أساليب هؤلاء الدعاة وخداعهم أخذ ينتج النتائج المثمرة ، ويقوم بالمشروعات الجليلة النافعة ، في نواحي الصناعة والمال والاقتصاد . وأوضح مثال لذلك « بنك مصر » وشركاته الناجحة الراجعة .

وعما قريب بمشيئة الله تعالى نرى كثيرا من الشركات العربية والإسلامية تنقب عن خيرات الأرض وكنوزها الطبيعية في صحارى مصر ، وطرابلس ، وجزيرة العرب ، والعراق ، والشام ، والأناضول . ويومئذ يعرف الناعبون من غربان المستشرقين بأن الشرق تنبه ، ولم يعد لقمه سائغة في حلق المستعمرين .

فلسفة القرآن والحياة الأخرى

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد يوسف الشيخ
المدرس بكلمة أصول الدين

قرأت في كتاب الفلسفة القرآنية للأستاذ العقاد فصلا في الحياة الأخرى عرض فيه لمذاهب الفلاسفة قديما وحديثا ، ومذاهب الأديان الكتابية في الحياة الثانية ، وكيف تكون وكيف يكون حال أصحاب هذه الحياة في نعيمهم وعذابهم ، لذاتهم وآلامهم .

فذكر أن الفلاسفة قبل الأديان وبعدها يؤمنون بالحياة الثانية ؛ وأشهرهم من الأقدمين أفلاطون ، ومن المحدثين « كانت » وهما وإن اتفقا في الإيمان بتلك الحياة الثانية إلا أن لكل منهما طريقه ومنهاجه ؛ فأفلاطون يؤمن بالحياة الثانية من طبيعة النفس وخصائصها وما لها من التجرد والبساطة ، وأنها من أجل ذلك لا تقبل العدم والانحلال . و « كانت » يؤمن بها من طريق شعورها بسلطة وإرادة إلهية تفرض عليها واجبات تقتضي لذلك العدالة الإلهية جزاء يميز بين المحسن والمسيء ، وليس ذلك في هذه الحياة الأولى كما هو الواقع المشاهد ، فلا مناص من حياة ثانية يتحقق فيها هذا الجزاء . ومن هنا لفت السكاتب أنظار الباحثين الى أن هذه المسألة مسألة بحث وفكر ، وليست مجرد اعتقاد وإيمان ، فهي من القضايا التي يمكن للعقل أن يتناولها بقضائه ، وأنكر على التجريبيين أن يتسكروا لهذه القضية ، وأن يغلقوا الباب فيها ، إذ ليس لهم من الأسانيد العلمية ما يبيح لهم هذا الإغلاق .

هذه الحقيقة كعقيدة من العقائد التي تدعو الشرائع الكتابية الى الإيمان بها ، تختلف عنها في تصويرها وتمثيلها كقضية يتناولها العقل بالبحث والتفكير ؛ فالعقل إذ يتناول الحياة الثانية وشؤونها بالبحث والنظر يفترض في ذلك فروضا شتى ؛ يفترض تارة حياة على مثال هذه الحياة الأولى ، وتارة يفترض حياة تباين

تلك الحياة وما فيها من المادة والجسمية والعرضية وسائر شؤون المادة ؛ كل هذا يفترضه العقل أولاً ، ثم يطمئن أخيراً الى ما هدى اليه البحث والنظر كيفما كان . أما الأديان وكتبها إذ تطالب الناس وتطالبهم جميعاً بالإيمان بالحياة الثانية وما فيها من نعيم وعذاب ، لا بد أن تتمثل ذلك في صور لا يتعذر على كافة الناس فهمها ؛ لا بد أن تصور ذلك في أمثلة مما ألفه الناس وعرفوه ، فتحدث عن النعيم في الآخرة في صورة من الطيبات من ألوان الطعام والشراب والفاكهة ، والخور والولدان ، والقصور وما فيها من أثاث وأرائك ، وهكذا .

يتمثل ذلك في قوله تعالى في سورة الواقعة « في جنات النعيم ، ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ، على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين ، يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين ، لا يصدعون عنها ولا ينزفون ، وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وحوور عين كأمثال اللؤلؤ المسكون ، جزاء بما كانوا يعملون ، لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قِيلاً سَلاماً سَلاماً » . وتحدث عن العذاب فتصوره نيراناً وسعيراً ، يسمع فيها المسكذبون تغيظاً وزفيراً ، وهكذا .

يتمثل هذا في قوله تعالى في سورة الفرقان « بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً ، إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ، وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرّنين دعوا هنالك ثبوراً » .

هكذا يمثل القرآن النعيم الروحي والعذاب النفسى في هذه الأمثلة الحسية ، فيعبد الطريق أمام الجماهير والعامة حتى يتمكنوا من الاقتناع والإيمان بما ادعت ودعت اليه الشرائع . أما ما وراء ذلك من المعنويات المجردة التي تحتفى وراء تلك الأمثلة الحسية فينفذ إليها ذوو البصائر من الخاصة أهل النظر البعيد والتفكير العميق .

ولو أن الشرائع سلكت في تفهيم الجماهير والعامة غير هذا السبيل ، فلقتهم نعيماً وعذاباً في الآخرة ليس من جنس ما ألقوا ولا يشبه ما اعتادوا وعرفوا ، لما وجدت لدعوتها سمياً ؛ فلا بد من أسلوب يحقق العقيدة عند جميع الناس خاصة وعامة ، ولا بد فيها من التعبير عن المعاني بالمحسوسات .

هذا المسلك التمثيلي للعذاب والنعم ليس خاصا بالإسلام وكتابه، بل ذلك سبيل الأديان وكتبها جميعا، تجد ذلك في كتب العهد القديم والجديد، وفي كتب التراتيل والدعوات. ونقل الأستاذ في مقاله نصوصا كثيرة في ذلك.

ينتهي الأستاذ في آخر مقاله الى أن التعذيب تطهير للنفوس وتكفير عن سيئاتها ومآله الغفران، وأن الأنفس جميعا تتلاقى في حظيرة الرضوان. وأما الخلود والأبد فيفيدان الزمان الطويل ولا يفيدان البقاء بغير انتهاء.

هذا تلخيص وبيان لمقال الأستاذ العقاد.

وننكر في هذا المقال أمرين: الأول تصوير النعم والعذاب في الحياة الثانية كما صورته عند الفلاسفة وكتب الأديان. الثاني تكيف العقوبة في الآخرة وأجلها.

أما النعم والعذاب في الآخرة فيختلف الباحثون فيه من فلاسفة وملمين: أحدهما محض معنويات مجردة منقطعة الصلة بالمادة وغواشيها. أم هما من جنس ما ألفت الناس من العذاب والنعم المادى، وإن اختلفا في الأولى والثانية كما وكيفاً؟

هذا الاختلاف في تصوير النعم والعذاب يرجع إلى اختلاف آخر أعظم منه خطراً: هل الإنسان الذى له الحياة الثانية ينعم فيها ويعذب هو على نمط ذلك الإنسان المعهود في هذه الحياة الأولى، تدخل المادة في تقويمه، فهو إنسان ذو جسم ورأس ويد ورجل وأصبع وعين وأذن وأنف وفم ولسان وهكذا؟ أم الإنسان الثانى هو ذلك الروح المجرد الذى كان يدبر شؤون الجسم في هذه الحياة الأولى؟

جزم الفلاسفة الإلهيون بأن الإنسان الذى يحيا الحياة الثانية إنما هو ذلك الروح المجرد، ولا يمكن أن يكون للمادة دخل في تقويمه وقوامه، ولا سيما تلك المادة التى كانت من مقوماته ويدبر شؤونها في الحياة الأولى، ومن ثم فذلك الإنسان الروحى المحض لا يمكن أن يكون له من اللذائذ والآلام إلا تلك المعنويات البريئة من المادة وغواشيها. وإذا فلا مناص لأولئك الفلاسفة إذا كانوا مؤمنين بالوحى وكتب الأديان أن يتأولوا نصوصها التى تتحدث عن الحياة الثانية وما فيها من إنسان مادى ونعم وعذاب كذلك على نحو ما أسلفنا.

وجزم المسلمون جميعاً بأن الانسان الثانى هو ذلك الانسان المعهود فى الحياة الدنيا ، فمن ثم جاز أن يكون له ذموم وعذاب من جنس ما ألفه ونعسه من الماديات ، فاذا ما جاءت الشرائع وكتبها تندعى وتدعو الى الإيمان بحياة أخرى فيها إنسان هو ذلك الانسان وله من النعيم والعذاب ما ألف الناس واعتادوا ، أنكون حيثند فى ضرورة الى التأويل ، أم يجب أن نحترم ظاهر النص ، ذلك الظاهر الممكن الذى تحدثت به النصوص والذى لم نعر على دليل ينطق باحاطته ، وإن لم يكن هناك مانع من أن يكون بجانب العذاب والنعيم المسمى ألوان أخرى من النعيم والعذاب الروحى ؟ بل جزم المحققون من أهل الملة كالغزالى والراغب بأن النعيم والعذاب الأخرى تنظم النوعين جميعاً .

تستطيع على ضوء هذا التكييف لهذا البحث أن تحدد موضع النزاع بين الفلاسفة والمليين فى أنه : هل يمكن أن يكون الانسان الثانى هو الانسان الأول تدخل المادة الأولى فى تنويعه كما دخلت فى تقويم الأول ؟

جزم الفلاسفة بأنه لا يمكن للأبد من تأويل النصوص الكتابية ، وأنها تمثيل للمعقول بالمحسوس .

وجزم المليون بأنه يمكن ، فلا بد من احترام ظاهر النصوص الكتابية والإيمان بذلك الظاهر كما ورد من غير تأويل وتمثيل .

وإننا نسوق اليك فى هذا النزاع أقوى جدل تحاور فيه الفلاسفة والمليون وكيف انتهى الأمر بينهم :

قال الفلاسفة : كيف يكون الانسان هو الانسان الأول وقد انعدم الأول ؟ وكيف يوجد الشئ ثم يعدم ثم يوجد هو هو ؟ هل هذا إلا توسط العدم بين الشئ ونفسه ؟ فإن الانسان ثانياً هو الانسان أولاً وقد توسطهما العدم . وكيف يكون الشئ الواحد سابقاً على العدم لاحقاً له ؟ وكيف يكون الشئ الواحد طرفاً أول للعدم مقدماً عليه ، وطرفاً ثانياً له متأخراً عنه ؟ هذا أقوى ما تمسك به الفلاسفة .

وقد عارضهم المليون بأنه لاخلاف فى أن الانسان الأول قد ثبت له إمكان الوجود لذاته وماهيته ، وإلا لما وجد ، فيجب أن يستمر ذلك الامكان فى جميع

الأوقات كما هو الشأن في الخواص الذاتية ، فإذا أمكن الانسان الأول فليمكن الانسان الثانى ، إذ هو عين الأول ، ولا أثر لاختلاف الزمان فى ذلك أولاً وثانياً .

وأما حديث توسط العدم بين الشئ ونفسه الى آخر ما أطال به الفلاسفة فانما يتضح استحالة إذا كان ذلك فى وقت واحد ، أما إذا كان فى أوقات مختلفة كما فى موضوعنا هذا ، فذلك بىّن الامكان . ألا ترى الى شخص يقف أمام شئ وقتاً ما ثم يقف خلفه وقتاً آخر ؟ فهذا شخص واحد كان طرفين ، وسابقاً ولاحقاً ، متقدماً ومتأخراً ، وقد أمكن ذلك لاختلاف الوقت .

وبعد ، فالانسان الأول الذى ندعى أنه عين الثانى لم ينعدم كلا وجزءاً ، بل ما غشيه من الفناء إنما هو انحلاله وزوال تركيبه ، أما عناصره التى كانت مؤلفة ثم زال اثلاؤها فما زالت باقية حتى تؤلف مرة ثانية ويتكون منها الانسان الثانى . وهذا هو تصوير المحققين من أهل الملة للانسان الثانى الذى يقوم على انقاض الانسان الأول . فالعناصر التى دخلت فى تقويم الانسان الأول لم يطمسها العدم بل ما زالت موجودة صالحة لأن يتكون منها الانسان مرة ثانية ، وإذا فما تشبث به الفلاسفة وأطالوا به لا ينهض حجة على ما زعموا ، بعد تصوير هؤلاء المحققين ؛ فإن شبهتهم إنما قامت على فكرة أن الانسان الأول قد انعدم كلا وجزءاً فلا يمكن أن يكون الانسان الثانى هو ذلك الانسان المعدم . ولكن المحققين من أهل الملة لا يرون هذا الرأى ؛ بل الانسان الأول باق بأجزائه المتناثرة ، والانسان الثانى لا يحتاج الى أكثر من جمع هذه الأجزاء وترتيبها ترتيباً خاصاً حتى تعود الى بنيتها الأولى فتصبح صالحة لتعلق الروح والحياة مرة ثانية .

ولعل فى هذه اللبحة الخاطفة من الجدل ما يكشف مكان الحق فى تلك الخصومة ، وأنه يمكن إمكاننا بيننا لا ريبه فيه أن يكون الانسان الثانى على نمط هذا الانسان الأول ، دخلت عناصر الأول بعد تفرقها فى تقويمه ؛ وإذا فلا مانع أن يكون له من الجزاء ما هو مادى ، كما لا مانع أن يكون بجانب ذلك جزاء روحى . وإذا فما جاء فى كتب الأديان من حياة ثانية فيها إنسان تدخل المادة فى مقوماته وأن له جزاء مادياً من جنس ما ألف الناس وعرفوا ، لا يجوز تأويله بأنه تمثيل للمعقول بالمحسوس تجوزاً وتنزلاً فى خطاب العامة والجاهل ، بل هو

تأويل لا تسيغه اللغة وأصولها؛ فإنه متى أمكن ظاهر النص حيث لم يكشف العقل سيلا إلى إحالته بل قد اهتدى إلى إمكانه، وجب احترام ذلك الظاهر. على أن من الفلاسفة الذين يؤمنون بما آمن به الفلاسفة الإلهيون ويتعصبون لمذاهبهم من قرر في عبارات لا لبس فيها ولا إبهام احترامه لظاهر النصوص الكتابية في هذا الموضوع.

وإني أضع أمام الأستاذ العقاد جملة قيمة في ذلك لابن سينا في كتاب النجاة صفحة ٤٧٧ :

قال ابن سينا « يجب أن تعلم أن المعاد منه مقبول من الشرع ولا سبيل إلى إثباته إلا من الشريعة وتصديق خبر النبوة، وهو الذى للبدن عند البعث. وخيرات البدن وشروطه معلومة لا تحتاج إلى أن تعلم، وقد بسطت الشريعة الحقبة التى أتناها نبينا المصطفى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم حال السعادة والشقاوة التى بحسب البدن، ومنه ما هو مدرك بالعقل والقياس البرهانى وقد صدقته النبوة وهو السعادة والشقاوة الثابتان بالمقاييس اللتان للأنفس، وإن كانت الأوهام منا تقصر عن تصورهما الآن لما نوضح من العلل. والحكماء الإلهيون رغبهم في إصابة هذه السعادة أعظم من رغبهم في إصابة السعادة البدنية، بل كأنهم لا يلتفتون إلى تلك وإن أعطوها فلا يستعظمونها في جنبه هذه السعادة التى هى مقاربة الحق الأول، هذه عبارات ابن سينا، وهى صريحة في إثبات المعاد البدنى وما فيه من نعيم وعذاب مادى، وأن سبيل ذلك وبيانه وبسطه منوط بالشريعة الحقبة، كما هى صريحة في إثبات المعاد الروحى وما له من لذائذ روحية وآلام نفسية، وأن سبيل ذلك البرهان والقياس، وأن ذلك لم تنكره النبوات بل جاءت مصدقة له، وأن إهمال الحكماء للسعادة والشقاوة البدنية ليس مبعثه إنكارهما، وإنما منشأ ذلك عظم رغبهم في إصابة أهم أنواع النعيم والسعادة، وأهمها مقاربة الحق الأول.

وهذا هو بعينه ما تهدف إليه السيدة رابعة العدوية بقولها (كما نقل الأستاذ في مقاله): نحن إذن صغار حتى نفرح بالفاكهة والطير، حين سمعت قارئاً يتلو قوله تعالى: « وفاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون ».

وأما ما ذكره الأستاذ في آخر مقاله من أن التعذيب في الآخرة تطهير للنفوس وما له الغفران، وأن الأنفس جميعاً تتلاقى في حظيرة الرضوان. فوعدنا منه المقال الآتى ؟

حيرة العالم

وموقف رجال الدين

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغي

مدير مكتبة الأزهر

— ٢ —

ذكرت في كلمتي السابقة تحت هذا العنوان ما يشكو منه شعوب العالم من القلق في النواحي الاقتصادية والثقافية والخلقية ، وما تعانيه من البلاء بسبب اختلال الموازين في هذه النواحي ، وبخاصة الناحية الخلقية ؛ فرقابة الآباء أبناءهم رجعية ، وتمرد الأبناء وعنادهم حرية ، والخروج على الأساتذة والمعلمين ديمقراطية ، وتبرج النساء مدنية ، وتصوّنهم واحتشامهم رق وعبودية ، والنفاق لباقة ، والثبات على المبدأ جود وصلابة ، والرحمة جبن ، والتسامح عجز ، والسخاء خرق ، والشح حزم ، والغش في الصناعة والتجارة مهارة ، والصدق والأمانة خيبة وخسارة ، والعمل بالتقاليد غفلة عن مقتضيات الرقي والتقدم ؛ والدستور الخلقى الشائع إنما هو الثورة على الماضي ، والخضوع لسلطان الهوى والمصلحة .

وقد قرأت بعد ذلك مقالات لبعض كبار الكتاب من العرب والأفرنج تجاوزت فيها الشكوى ما أشرت إليه . ولاتفاق هذه المقالات في الفكرة التي تحدثت عنها ، واتجاهها في العلاج إلى الجهة التي توجهت إليها ، رأيت أن أقتبس منها في موضوعي ليعلم الناس ، وبخاصة هؤلاء الذين يطرهم صوت الأجني وتروقه فكرته ، أني لست خيالياً فيما ذهبت إليه ، ولكني كنت واقعياً أصور الواقع الذي يحسه من شغلوا أنفسهم بحال الجماعات وما صارت إليه من سوء .

قال كاتب مصرى كبير فى مقال له بصحيفة أسبوعية :

« لقد استولت على النفوس جميعاً روح الاستهانة بالمثل العليا ، وتملك القلوب والأجسام شيطان المتعة اليسيرة العاجلة ، ما من أحد يريد أن ينقطع إلى علم

أو يتوفر على فن ، إنما السكل يتطلع إلى الثمرة قبل الشجرة . ودب هذا الروح في شباب اليوم فلم يعد لهم جلد على درس أو صبر على كدح ، لا ينظرون إلى الجهد الذى يجب أن يبذل ، وكلهم يبصرون المراتب التى يجب أن يرقوا إليها ، لا يريدون أن يصنعوا وقتاً فى الغرس البطيء والإعداد الطويل ، ولكنهم يريدون ثمرة غرس الآخرين عجولين متلهفين ؛ لذلك قل الاطلاع العميق ، وندرت القراءة المجدية ، وكسدت السكتب القيمة ، فاختلفت الموازين ، وفسدت القيم .

وكتب الأستاذ فريزر ممثل أستاذ التربية بجامعة برمنجهام فى مقال بعنوان (المصالحة بين جيلين) :

« لم يسبق أن شهدنا من قبل مثل هذا البون الشاسع الذى يفصل بين أجيال الناس ، وهذه ظاهرة نراها فى كل بلد ، وهى ظاهرة قد تبلغ حالة الحرب بين الأطفال والمراهقين من جانب ، وبين والديهم ومعلميهم من الجانب الآخر ، وتمتاز هذه الظاهرة بوجود حالة بارزة من النفور المتزايد فى نفوس الشباب والكمول نحو العجائز والشيوخ ، والفوارق بين سن الشباب وسن الشيخوخة تمثل اختلافا لا بد منه فى النظر إلى الأشياء ، وهو اختلاف طبيعى لا غبار عليه ، ولكن الفوارق الفاصلة التى نشهدها فى هذا العصر من الشباب والشيوخ تذهب إلى أبعد من هذا الحد ، إذ تمثل هوة عميقة فى نظام المجتمع تدعو إلى علاج حاسم سريع .

« وإلام نعزو هذا الانحلال الاجتماعى الذى نشهده بعيوننا ، وهو ليس قاصراً على بلد بل نراه فى كل مكان ؟ وأول سبب يعزى إليها الفشل فى توطيد العلاقات السليمة بين الأطفال والوالدين ناشئة من ذبوع آراء ونظريات فى علم النفس الحديث ، وهى نظريات ذائعة شائعة لا توضع عادة فى صياغة لفظية دقيقة ، ولا يفهمها الناس فهما كاملاً . ويقع بعض اللوم فى هذا على الصحافة وعلى الخطباء المرتجلين وعلى المعلمين الضجورين ، وإن كانوا حسنى النية ، فمن الأقوال الشائعة بين الوالدين فى هذا العصر أن معلمى المدارس قد أخبروهم أن يتمتعوا عن ردع الأطفال وكبحهم أو صدمهم ، وبهذه الطريقة غدا علم النفس ، وهو بين أيدي الخبيرين أو الفهماء من الوالدين والمعلمين أداة لإنقاذ الطفل الصغير من عالم المخاوف والسكتب والردع ومنحه حرية على أساس من الترويض السليم — غدا وسيلة لمنع الوالدين من القيام بأولى واجباتهم نحو ذرياتهم . وهناك عوامل

أخرى تفصل بين الجيلين ، وكثيرا ما تكون المدرسة التي تنزع إلى كثير من نواحي النشاط عاملا من هذه العوامل ، فهي تفرط في إدخال هذه النواحي لصالح التلاميذ فتنشئ الأندية والجمعيات ، ثم بعدئذ جمعيات المتخرجين والمتخرجات ، وهذه كلها تعمل لتنشيط النواحي الثقافية والخدمات الأخرى ، وتبقى على ولاء الطلاب والطالبات للمدرسة التي تخرجوا منها ، وتتطلب نواحي النشاط هذه تضحية من الوقت والجهد من معلمى المدرسة ، وما نتيجة هذا كله إلا أن يحيا الأولاد والودهم ، وكثيرا ما يكون هؤلاء الآخرون من طراز الناس الذين يستحون ، والذين لم يحظوا إلا بقسط ضئيل من التعليم — فى عالمين منفصلين ، وأن يقوم الأمهات المتعبات المنهوكات القوى بالواجبات المنزلية ، بينما تبرز بناتهن كنجوم لامعة فى لعبة التنس ، أو يشغفن كل الشغف بالروايات والحفلات الموسيقية .

ثم قال بعد أن أفاض فى بحث علل هذا وأسبابه :

«وعلىنا نجد رجال الدين أن نجاهد لكي نحقق المصالحة والوفاق ؛ لأن الفشل فى هذا المضمار يجر أوحم العواقب ، ولن تتحقق هذه المصالحة إلا فى نطاق الدين ، والناس لا يتلاصقون معا إلا بمعونة الله ، ولن نعيش فى شركة وألفة مع الآخرين إلا إذا عشنا فى نطاق هذه المعاونة .

هذا حديث السكاتبين فى تصوير القلق الذى يسود الأجيال المختلفة فى الشعوب ، وهذه آراؤهم فى علاج هذه الحالة . فعلاج هذه الحالة أن يتخلى الساسة عن مكان القيادة فى الشعوب بعد أن أفلسوا فى إسعادها ومزقوها شيئا وأحزاباً ، وأذاقوها فى ظلال هذه القيادة ألوانا من البؤس والشقاء ، إلى رجال الدين ، ورجال الدين بالدين أقدر على هذه القيادة الى مواطن الأمن ومقامات السعادة .

وإني أكرر ما قلته من أن بعض القارئین لهذا الحديث سترسم على شفاههم ابتسامة السخرية ، وسينفضون رؤوسهم استغراباً واستنكاراً ؛ ولكن مائنا وللأغبياء الجهلاء ! وحسبنا أن نصور ما نحس ويحس غيرنا ، ونقترح للعلاج ما نرى ونذكر ما يرى غيرنا بمن يصغون لصوت الواقع ، ويتفهمون منطق الحوادث ، وحسبنا أن نقول للساخرين :

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد

ابن مضاء القرطبي

وكتابه « الرد على النحاة »

— ٣ —

مدخل الكتاب للأستاذ الدكتور شوقي ضيف
لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد على النجار
المدرس بكلية اللغة العربية

قدّم الأستاذ الجليل الدكتور شوقي ضيف بين يدي كتاب ابن مضاء بحثاً طويلاً ممتعاً، يقارب حجم الكتاب، وسمه بالعنوان : « مدخل إلى كتاب الرد على النحاة ». وقد تناول في هذا المدخل ما يأتي :

- ١ — عصر الكتاب .
- ٢ — مؤلف الكتاب .
- ٣ — وصف نسخة الكتاب ، وتحقيق نسبتها إلى المؤلف .
- ٤ — آراء الكتاب : إلغاء نظرية العامل - إلغاء العلل الثواني والثالث - إلغاء القياس - إلغاء التمارين غير العملية .
- ٥ — حاجة النحو إلى تصنيف جديد : الانصراف عن نظرية العامل - منع التأويل والتقدير في الصيغ والعبارات .

ولقد تردّى الأستاذ الدكتور شوقي في المبحثين الأولين رداه المؤرخ الضليع ، والعالم المحقق ، وكان في المبحث الثالث وراقاً خبيراً ، وبحاجة نحرياً ، وعالج في المبحث الرابع آراء ابن مضاء بحلوها ، ويدعمها بما يؤيدها ويثبت من أركانها ، وما كان أحوجها إلى هذا وهي على غير ما ألف الناس . وتناول في المبحث الأخير ما يراه من بناء نحو جديد ، بعد أن هدم هو وابن مضاء هذا النحو وقوّضا من بنيانه . وكأنه في هذا يتجنب أن يكون ممن قيل فيه :

ويسعى إذا أبى ليهدم جاهداً وليس الذي يبني كمن شأنه الهدم

وسأقصر بحثي على المبحثين الرابع والخامس؛ وسيكون من همي إبداء ما أشكل منهما، والتعقيب عليهما. وإنني أقدم لإجلالي لصاحب المدخل، وأعرف له إخلاصه للعلم وجدّه.

١ — ولقد كان الأستاذ الدكتور شوقي في عرضه لآراء ابن مضاء ليقاً صَنَعاً خبيراً بما ينير الفكرة ويمثل المعنى. وقد استعان على عرضه بالأمثال يضربها، والشعر ينشده، والأثر يأتُرّه، يشايعه اطلاع واسع، وقلب عقول، وعبرة مواتية، وبيان جزل بارع. ولكنه ساقه شغفه بآراء ابن مضاء ونضحه عنها، وتشيعه له، وسوء رأيه في النحاة، أن يذكر أشياء لا يدرو وجهها، ويرميهم بما قد يكونون برءاء منه.

(١) ففي ص ١٨ يذكر أن النحويين عبّروا بعبارات توهم أن الإعراب أحدثه العامل في اصطلاحهم. والتعبير بالإيهام يقتضى أن عباراتهم ليست صريحة ولا نصّاً في هذا المحذور المقنوع من الرأى. ويذكر أن ابن جنى صرح بأن الإعراب في الحقيقة ومحصول الحديث من أثر المتكلم لا العامل. وابن جنى إذ يصرح بهذا يبين عن مراد النحاة، ويدفع عن عباراتهم ما أوهمته من فساد. وما علمنا من النحاة من أنكر على ابن جنى هذا البيان. والقارىء يخرج من هذا - بحق - إلى أن مراد النحاة إذ يقولون: إنَّ ضَرْبَ يعمل الرفع أو النصب، أن ضرب يدعو المتكلم إلى أن يراعى فيما يتعلق بضرب الرفع أو النصب على حسب ما يرسمون وفقاً أثروه عن العرب. ولا يخامر القارىء بعد هذا ما يرميهم به ابن مضاء. ولشدّ ما يدهش القارىء إذ يرى في آخر هذه الصفحة كلاماً لصاحب المدخل ينقض عليه هذا الفهم الذى اطمان إليه، وعول عليه. وذلك حين يقول الأستاذ: «وإن النحاة لبيالغون في ذلك، حتى لنراهم يذهبون إلى أن علامات الإعراب آثار حقيقية للعوامل، وفي الحق أن هذا لا يتفق مع ما أسلفه صاحب المدخل عنهم من أن عباراتهم موهمة لهذا لا نصّ فيه، ومن أن ابن جنى قد دفع هذا الإيهام بتصريحه، وابن جنى - عند صاحب المدخل - «كبير»^(١) من حذّاقهم ومقدّم في الصناعة من مقدّمهم». ولست أدري أين وقف صاحب المدخل على

هذا الذى يعزوه إلى النحاة : أن علامات الإعراب آثار حقيقية للعوامل ! فما وقع فى علمي إلا ما ينفي هذا الزعم ويبحثه من جذوره . فهذا الرضى ^(١) يقول : « ثم اعلم أن محدث هذه المعانى - يريد كون الاسم عمدة أو فضلة - فى كل اسم هو المتكلم ، وكذا محدث علاماتها - يريد علامات الإعراب - لكنه نسب إحداث هذه العلامات إلى اللفظ الذى بواسطته قامت هذه المعانى بالاسم ، فسمى عاملا لكونه كالسبب للعلامة ، كما أنه كالسبب للمعنى المعلم ، ف قيل : العامل فى الفاعل هو الفعل » . ويقول الرضى ^(٢) أيضا : « إن النحاة جعلوا العامل كالعلة المؤثرة ، وإن كان علامة لا علة » . وإني أسوق هنا فصلا لنحوى متأخر ، هو الشيخ يس ^(٣) ؛ فقد قال ^(٤) فى حواشيه على الألفية : « فمعنى السلام أنهم الرافعون لها - يريد المبتدأ والخبر - بسبب وجود الابتداء والمبتدأ . فمن حيث جعلوا الرفع موجودا مع وجودهما ، ومعدوما مع عدمهما ، جعلوهما كالسبب فى الرفع ، وليس السبب فى الحقيقة إلا المتكلم . ثم إنهم ينسبون العمل للألفاظ لتحقيق هذا الاصطلاح ؛ إذ كانت هى العلامات ، واستعمله الناطم - يريد ابن مالك - كثيرا ؛ كقوله : ترفع كان المبتدأ الخ ، وهو اصطلاح عام فى كلام أهل هذه الصناعة ؛ لضبط القوانين ، لا أنهم مدعون لذلك حقيقة ؛ لأن الألفاظ لا ترفع ولا تنصب ولا تجر . نبه على ذلك فى الخصائص . وبهذا سقط ما شنع به ابن مضاء على النحويين أخذا بظاهر اللفظ من غير تحقيق مرادهم ؛ فنسبهم إلى القول على العرب ، وإلى الكذب فى نسبة العمل إلى الألفاظ ؛ بل نسبهم إلى الاعتزال والخروج عن السنة ، وظلمهم - عفا الله عنه - إذ لم يعرف ما قصدوه . وقد صنف ابن خروف فى الرد عليه جزأ سماه : تنزيه أئمة النحو ، عما ينسب إليهم من الغلط والسهو . ولقد كان خليفيا بصاحب المدخل ألا يشايخ ابن مضاء على ظاهره ، ويستبطن الأمور . ولكن يبدو أن نخلة ابن مضاء وافقت هوى فى نفسه ، فأراد أن يتخذ منها سندا وعضدا ، والحق أن ليس فى كلام ابن مضاء سند وسلطان مبين . وليس من يعتم به يأوى إلى ركن شديد .

(١) شرح الكافية ج ١ ص ٢١ . (٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٨ .

(٣) توفى الشيخ ياسين سنة ١٠٦١ هـ . (٤) ج ١ ص ٧٥ طبعة فاس .

ب — وفي ص ١٩ يذكر أن ابن مضاء « رجح فكرة تزيف العامل الى من سبقوه اليها من أمثال ابن جنى » ، وقد علمت أن ابن جنى ما كان ليزيف فكرة العامل ، وهو الذاب عنها ، والمبين لوجه الحق فيها ، والرافع لما فيها من إيهام أوقع ابن مضاء فيما لا يرضى من القول والتجنى على النحاة . وما عهدنا من ابن جنى اقتقاضا على فكرة العامل وثورة بها . فابن مضاء لا سلف له في هذا التزييف . وهو أبو عذره .

ج — ويقول الأستاذ الجليل في ص ٢٠ : « أليست فكرة العامل هي التي تجعلنا نفكر في محذوفات ومضمرات لم يقصد اليها العرب حين فطقوا بكلامهم موجزا . ولو أنهم فكروا فيها لنطقوا بها » ، وقد سلف لى من القول على كلام ابن مضاء أنه ليس بصحيح أن الذى جعل النحاة يفكرون في المحذوفات والمضمرات فكرة العامل ، بل هو المعنى ومنطق الكلام . ويسترعى النظر في هذا المقام قول الأستاذ : « ولو أنهم فكروا فيها لنطقوا بها » ، فهل هذا الارتباط صحيح ! هل كل ما يفكر فيه المتكلم ينطق به ! فأين إذا ما يسمى في عرف أهل البيان « إيجاز الحذف ! » ونرى صاحب المدخل في هذه الصفحة يقرّ ابن مضاء على حذف ما علمه المخاطب ؛ كقوله تعالى : « وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا » أى أنزل خيرا . فهذا المحذوف هنا هل عزب عن علم المتكلم ! اللهم غفرا ! !

د — وفي ص ٢٦ يذكر أن ابن مضاء ينتهى الى أن ضمائر التثنية والجمع في مثل قاما وقاموا ليست ضمائر كما يزعم بعض النحاة ، بل هي علامات تدل على التثنية والجمع ؛ كما تدل التاء الساكنة على التأنيث . وكلام ابن مضاء في هذه المسألة أو ما وقف عليه الأستاذ عليه منه مضطرب ، كما أبان ذلك الأستاذ (ص ١٠٤) . على أن بما خلا من الاضطراب عند الأستاذ في كلام ابن مضاء أن الالف والواو ضميران ؛ ومن كلامه : « والدليل على ذلك قولهم في التثنية : قاما ويقومان ، وفي الجمع : قاموا ويقومون ؛ فهذه ضمائر دل عليها اللفظ » ، فأما رأى الذى يقرر الأستاذ أن ابن مضاء انتهى اليه فهو موطن الاضطراب ، على أنه ذكره على أنه وجه ثان للوجه الأول ، ولا يقال في مثل هذا : إنه رأى الذى انتهى اليه ، إلا أن يكون المراد أنه انتهى اليه في الذكر ، وهذا الفهم بعيد عن كلام الأستاذ .

هـ — وفي ص ٢٧ يذكر أن ابن مضاء حين يعقد فصلا يدرس فيه باب التنازع يريد « أن يصور ما تجرّه نظرية العامل من رفض بعض أساليب العرب ، وأن يضع النحاة مكانها أساليب لا تعرفها العربية » . وابن مضاء حين يعرض لهذا الباب وباب الاشتغال يريد أن يبين أنه يمكن عرض مسائل النحو مع إنكار العامل والمعمول (ص ١٠٧) . وهو يقول في باب التنازع : « وأنا في هذا الباب لا أخالف النحويين إلا في أن أقول : علقت ، ولا أقول : أعلمت ، أفبعد هذا يكون مراده أن يبين ما تجرّه نظرية العامل ... ؟ ويقول الأستاذ صاحب المدخل عن النحاة : إنهم « يرفضون في باب التنازع صورة من التعبير دارت على ألسنة العرب ، وذلك أنهم قد يعبرون بعاملين ، ثم يأتون بعدهما بمعمول واحد على نحو ما نرى في مثل (قام وقعد إخوتك) وقول علقمة :

تعقق بالأرطى لها وأرادها رجال فبذت نبلهم وكليب

... فيطلبون إلى صاحب المثال الأول أن يقول : قام وقعدوا إخوتك ، أو يقول : قاموا وقعد إخوتك . ويطلبون إلى علقمة أن يقول : (تعققوا ... وأرادها رجال .. وكليب) أو يقول : (تعقق ... وأرادوها رجال ... وكليب) . والقارىء لهذا الكلام يرى أن الأسلوب (قام وقعد إخوتك) أسلوب دائر على ألسنة العرب ، بل هو الأسلوب الدائر على ألسنة العرب الذي لا يعرفون سواه . فأما ما يريد النحاة ويرسمونه بدل هذا الأسلوب — وهو أن يقال : قام وقعدوا إخوتك ، أو قاموا وقعد إخوتك — فهو منكسر لا يعرفه العرب . انظر قوله عقب الكلام السابق : « وعلى هذه الصورة يرفض النحاة أساليب العرب ، ويضعون مكانها أساليب أخرى تسوّها لهم فكرة العامل » وهكذا يصور الأستاذ مذهب ابن مضاء في التنازع ! فهل هذا التصوير طبق الحقيقة ! إنا نرى في كلام ابن مضاء (ص ١٠٩) : « وإن علقت زيدا بالفعل الأول قلت في التشنية : « قام وقعدا الزيدان » وفي الجمع « قام وقعدوا الزيدون » أفليس هذا الذي يقرره ابن مضاء هو الذي وضعه النحاة مكان المثال الذي أورده الأستاذ وزعم أنه دائر على ألسنة العرب ! الحق أن هذا المثال لم ينقل أحد أن العرب تكسر منه وتتهججه ؛ فأما قول علقمة فواضح أنه في الشعر وهو موطن الضرورات والخروج عن دائرة الاختيار .

وعلينا أن نثق بالنحاة الأقدمين - وقد كانوا رواة ثقات ، وكانوا من التحري والتدقيق بالمكان الذى لا ينكره عليهم الأستاذ - فى روايتهم ، ولا علينا أن نخالفهم فى تخريجاتهم وتعميداتهم .

ويقول الأستاذ : « وقد استمر ابن مضاء يعرض هذه الصور ليدل على ما صنعوه بأساليب اللغة من تعقيد ، ولا يحس الناظر فى كلام ابن مضاء هذا الغرض يتوخاه وينتجيه . وإنما هو يجارى النحويين فى عرض مسائل الباب ، ويزيد عليها . انظر قوله فى ص ١١٥ : « فإن قيل : النحويون لم يذكروا فى هذا الباب إلا الفاعل والمفعول والمجرور ، وهناك معمولات كثيرة على مذهبهم ؛ كالمصادر والظروف والأحوال والمفعولات من أجلها ، والمفعولات معها والتمييزات . فهل تنماس هذه على المفعولات بها أو لا تنماس ؟ » يأخذ بعد هذا فيما يراه فى هذه الفضلات التى فأتت النحويين فى باب التنازع . وكأنما يريد من هذا أن يبين بقدرته على وضع النحو على مذهبه ، وقد أحس أنها موضع شك عند الناس ، فبالغ فى ذلك وأبلغ .

و - وفى ص ٢٩ يذكر أن ابن مضاء حين عرض لباب الاشتغال حمل « على دراسة النحاة لهذا الباب وتقسيمهم لصوره بين ما يجب رفعه ، وما يجب نصبه ، وما يترجح فيه الرفع والنصب - كذا ، وهو يريد : وما يترجح فيه الرفع وما يترجح فيه النصب - وما يجوز فيه الأمران » . ويقول عن ابن مضاء : « وإنه ليضع قاعدة بسيطة تفسر صيغ الاشتغال كلها ، ومتى تنصب ، ومتى ترفع ؛ وهى أن الاسم المتقدم إذا عاد عليه ضمير منصوب أو ضمير متصل بمنصوب نصب ؛ لأنه فى مكان نصب ، وإلا رفع ؛ لأنه فى مكان رفع . وبذلك حل باب الاشتغال وأراحنا من تعسف النحاة فى حمل أمثله تارة على النصب ، وتارة على الرفع . » .
والذى يقرأ القرطبي لا يرى فيه هذه السهولة وهذا اليسر الذى يصوره الأستاذ ، ولا يجده بمنجاة عن صنيع النحاة فى مسائلهم وتعقيداتهم . ولا يرى ابن مضاء يطلق هذه القاعدة السحرية البسيطة « إذا عاد على الاسم المتقدم ضمير منصوب أو متصل بمنصوب نصب ، وإلا رفع » فإن هذه القاعدة لا يصح إرسالها هكذا سدى كهلا . فقد يعود على الاسم المتقدم ضمير منصوب ، ويجب رفع الاسم ؛ نحو

حول مقال «أسباب تأخر المسلمين»

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد علي النجار
المدرس بكلية اللغة العربية

كتب زميلي الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد عتر بحثاً قيمياً في «أسباب تأخر المسلمين». وقد جاء في المقال الذي نشر في مجلة الأزهر في عدد جمادى الآخرة ما كان الأخلق به والأشبه بفضل أنه يتأى عنه. فقد جهل من الذين كادوا للإسلام

زيد ما أحسنه. وقد ذكر هذا ابن مضاء نفسه (ص ١٣٠). ويتول ابن مضاء في ص ١٣٩: «وإن جمعت بعد الاسم الذي يعود عليه من الفعل ضمير نصب بشرط وجزاء لم يجر فيه إلا الرفع؛ نحو «زيد إن تكرمه يكرمه». وكذلك إن جمعت بعده بحرف أو اسم للاستفهام؛ نحو «زيدكم مرة لقيته؟» وكذلك «عمرو هل رأيته؟» و«زيد من ضربه؟» و«عبد الله ما أصابه؟». وكذلك إن كان الفعل في موضع الصفة؛ نحو «أزيد أنت رجل تكرمه؟» وقال الشاعر:

أكل عام نعم تحوونه ! يلحقه قوم وتذجونه

وقد يجوز الرفع والنصب كما في بيت النمر بن توبل:

لا تجزعي إن منفس أهلكته فإذا هلكك فغند ذلك فاجزعي

يذكر الأستاذ في تعليقه (ص ١٣١) رواية الرفع. ونرى ابن مضاء يحذو حذو النحويين في صور الاشتغال، فيذكر موضع اختيار النصب، وموضع اختيار الرفع، إلى غير ذلك؛ ولا يسع ابن مضاء غير هذا، فهي صور منطقية عمالية راعاها العرب في كلامهم، وتراه يبدأ كلامه بقوله: «إن كل فعل تقدمه اسم وعاد منه على الاسم ضمير مفعول أو ضمير متصل بمفعول أو بمخفوض أو بحرف من الحروف التي يخفض ما بعدها، فإن ذلك الفعل لا يخلو أن يكون خبراً أو غير خبر، وغير الخبر يكون أمراً أو نهياً أو مستفهماً عنه أو محضوفاً عليه أو متعجباً منه. فإن كان أمراً أو نهياً فالاختيار فيه النصب، ويجوز رفعه...» ويمضي ابن مضاء في هذا الأسلوب من ذكر الصور وأحكامها كما يفعل النحاة.

كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وزيادا بن أبيه، وقد سلك هؤلاء مع عبد الله ابن سبأ. وقد سبقه بالطعن في كعب ووهب في عصرنا الأستاذ أحمد زكي باشا عليه رحمة الله؛ فقد قدح فيهما وقرنهما بعبد الله بن سبأ، وذكر أنهما بقيا على يهوديتهما ولم يدخل الإيمان في قلوبهما. وكان من الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى عليه رحمة الله ورضوانه، أن أملى مقالا نشر في مجلة «نور الإسلام» في المجلد الثالث سنة ١٣٥١ يرد فيه على أحمد زكي باشا. وجاء في مقاله: «فأما كعب الأحبار ووهب بن منبه فهما من العدول الثقات... وكان ابن عباس ينقل عن كعب الأحبار، ويرجع إليه هو وغيره من الصحابة». ولعل الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد عنتر يرجع إلى هذا المقال، وهو واجد فيه ما يرده إلى حسن الظن بهذين الإمامين اللذين هما من أعلام الإسلام إن شاء الله. وأما زياد فاعلمت منه كيدا للإسلام، ولا بدا منه ما يسلكه مع الخوارج والرافضة ومبغضى العرب. ولقد استخلفه أبو موسى الأشعري على البصرة حين وفد على عمر، وقال في حقه لعمر: إنه جدير بكل خير ضابط لما استكنى. ولقد ولي البصرة وضبط أمورها حتى إذا جاء عهد على رضى الله عنه طالبه بالمال، فقدمه إليه لم ينقص شيئا، فقال فيه على: مثلك فليؤتمن، وقال فيه لأصحابه يذكر علمه بالبصرة وكفايته: هو ابن بجدتها؛ وقد مهد العراق ووطأ أمره لمساوية، وكان عوننا للخلفاء وذوى السلطان، حربا على البغاة والخوارج؛ فأنى يكون من المنتقذين على سلطان المسلمين الذين يثنون الفتن والدسائس!

وأحب أن أنبه هنا على أن الأستاذ الجليل ذكر في عداد الذين كانوا سببا في تأخر المسلمين عبد الله بن أبي، والمفهوم من «تأخر المسلمين» انحطاطهم وانحذارهم بعد اكتمال مجدهم وازدهار سلطانهم واتساع فتوحهم، وقد مات عبد الله بن أبي في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، ونزل في شأنه قوله تعالى: «ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره». وما نظن الأستاذ يرى أن تأخر المسلمين كان في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام. والله الهادى إلى سبيل الرشاد.

مذهب الروافض في مصر وأثره فيها

لفضيلة الأستاذ الشيخ منصور رجب
المدرس بكلية أصول الدين

منذ أيام كتب الأستاذ عزيز خانكي مشكورا على صفحات جريدة الأهرام يحفز الهمم للاحتفال بالعيد الألفي للأزهر والقاهرة. فخطربياى مذهب الروافض القوم الذين بنوا الأزهر، ذلك المذهب الذى ابتدأ الأزهر حياته العلمية به . ومذهب الروافض هذا وإن كان الكلام عليه يعد جزءا من تاريخ الفقه الاسلامى هو فى الوقت نفسه حلقة من حلقات تاريخ الأزهر، بل هو الحلقة الأولى فى تاريخ الأزهر العلمى؛ ذلك المكان الذى لمع نوره فى تاريخ العلم، واشتهر اسمه فى بلاد العالم، وسطعت شمس هذه القرون الطويلة على الاسلام والمسلمين فى الشرق والغرب؛ الأمر الذى جعل أمير الشعراء المرحوم شوقي بك يحى هذا المعهد الذى يطل على هذا الوجود من سماء ألف عام بتمصيدته الخالدة، وما جاء فيها :

يامعهدا أفنى القرون جداره	وطوى الليالى ركنه والأعصرا
ومشى على يبس المشارق نوره	وأضاء أبيض لجها والأحمر
وأتى الزمان عليه يحمى سنة	ويذود عن نسك ويمنع مشعرا
فى الفاطميين انتهى ينبوعه	عذب الأصول كجدهم متفجرا
عين من الفرقان فاض نميرها	وحيا من الفصحى جرى وتحدر
ماضرنى أن ليس أفتك مطلقى	وعلى كواكبه تعلت السرى
لا والذى وكل البيان إليك لم	أك دون غايات البيان مقصرا

أتعجل القول بأن الأزهر ابتدأ حياته العلمية فى شهر صفر سنة خمس وستين وثلاثمائة؛ فى ذلك الوقت جلس فيه على بن النعمان القاضى يلى مختصر أبيه فى الفقه

على مذهب الروافض، وكانوا يطلقون على هذا الفقه فقه آل البيت، ويعرف هذا المختصر « بالاختصار » وعلى هذا يكون كتاب الاختصار هذا — بعض المصادر تعرفه « بالاختصار، أو الانتصار — أول كتاب افتتح الأزهر حياته العلمية به. وبهذه المناسبة أقول: إنني بحثت عن هذا الكتاب في مصر فلم أعثر عليه، فتقدمت برغبة إلى المرحوم الإمام المراغي المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق للبحث عنه ليحفظ تحفة تاريخية في مكتبة الأزهر، وتقدمت بها أيضا إلى فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحمن حسن، واليوم أتقدم إلى فضيلة مولانا الأستاذ الأكبر الشيخ الشناوى شيخ الأزهر لعل عهده يكلل بالعثور على هذا الكتاب، وليكون عملا مجيدا بمناسبة الاحتفال بالعيد الالفي للأزهر.

وهذه الروافض هذا دخل مصر فاتحا على يد جوهر الصقلي بجيوش مولاه المعز لدين الله، وعاش فيها قرنين اثنين من الزمان أو يزيد قليلا — من سنة ٣٥٨ إلى ٥٦٧ — يعمل به في القضاء والفتيا، إلى أن جاءت الدولة الأيوبية فصرفت قضاة الروافض كلهم، وفوضت القضاء لصدر الدين عبد الملك بن درياس الشافعي، فلم يستتب عنه إلا من كان شافعي المذهب، فتظاهر الناس من حينئذ بمذهب مالك والشافعي، واختفى مذهب الروافض، ولم يكن في الدولة الأيوبية بمصر كثير ذكر لمذهب أبي حنيفة وأحمد بن حنبل إلا في آخرها.

وقبل أن نرى هذا المذهب في مصر، أو بعبارة أخرى قبل أن نقدم الحلقة الأولى من حلقات تاريخ الأزهر العلوي، نقدم لذلك بكلمتين اثنتين استيفاء للبحث وتنميا للفائدة.

الأولى عن الحركة العلمية الإسلامية بمصر قبل أن يكون الأزهر؛ والثانية عن كيفية دخول هذا المذهب مصر، وهل كان معروفاً فيها قبل أن يفتحها أصحابه فيكون الجو فيها من شأنه أن يمهّد السبيل ولو قليلا لدخول هذا المذهب، أو جاءها من غير أن تمياً له الأفكار وتعبد الطرق؟.

ابتدأت الحركة العلمية بمصر بعد الفتح بتحفيظ القرآن الكريم؛ وأول من أقرأ القرآن بها رجل من الصحابة شهد فتح مصر، هو عبيد بن جحر المغافري، ويكنى أبا أمية. وفي سنة ٣٦ هـ عرفت مصر الإسلامية نوعاً من الدرس لم يكن من

قبل ذلك ؛ هو التحدث في الترغيب والترهيب والفتن . وأول من أوجد بمصر هذا الدرس رجل من التابعين ولاء معاوية القضاء بمصر ، فكث بها قاضيا عشرين سنة ، وتوفي بدمياط سنة ٧٥ هـ ؛ ذلك هو سليم بن عزز التجيبي ، وهو أيضا أول من أوجد بمصر سجلا في المواريث .

أخذت هذه الحركة تنمو وتزداد شيئا فشيئا حتى جاء يزيد بن حبيب في عهد عمر بن عبد العزيز ، فزاد فيها كذلك شيئا لم يكن ؛ ذلك أنه أول من نشر العلم بمصر في الحلال والحرام . ويزيد بن حبيب هذا هو أستاذ الليث بن سعد . توفي سنة ١٢٨ هـ .

وحوالى منتصف القرن الثاني عرفت مصر في درس القرآن الكريم شيئا لم يكن ؛ ذلك أن عبد الرحمن بن ميسرة ، ذلك الفقيه العفيف الشريف ، كان أول الناس إقراء بمصر بحرف نافع . ولقد عرفت مصر في هذه الناحية في ذلك الوقت طائفة جلييلة من أئمة القراءات ، منهم رجل أصله مصرى قبضى انتهت اليه رئاسة الإقراء بالديار المصرية ؛ ذلك هو عثمان بن سعيد الملقب بورش . وابن سعيد هذا أخذ القراءة عن نافع ، ونافع هو الذى لثمه بورش لشدة بياضه .

على هذا النحو سارت الحركة العلمية الاسلامية بمصر . ولم يكد ينتهى القرن الثانى للهجرة حتى كان بها درس القراءات ، وتحفيظ القرآن الكريم ؛ وبمحوار ذلك درس القصص ، ودرس أحكام الشريعة . وجد في هذا الدرس الأخير يزيد بن حبيب فتلميذه الليث بن سعد . وقد يكون من الخير هنا أن نقول : إن الليث بن سعد هذا كان من الفقهاء الفضلاء والكرماء الأجواد ، ويقال إن دخله كان في كل سنة خمسة آلاف دينار ، وكان يفرقها في الصلوات وغيرها . روى أن الامام مالكا رضى الله عنه أهدى اليه صينية فيها تمر ، فأعادها مملوءة ذهباً . ويقال إنه من أهل « قلقشندة » قرية من قرى الوجه البحرى ، توفي سنة ١٧٥ هـ .

وفي أيام الليث بن سعد هذا دخل مصر بعلم مالك عبد الرحيم بن خالد بن يزيد ابن يحيى مولى جمع — توفي بالاسكندرية سنة ١٦٣ هـ — فروى عنه الليث بن سعد وابن وهب ورشيد بن سعد ، ثم نشره بمصر عبد الرحمن بن القاسم ، فاشتهر بها مذهب مالك ، ولم يزل مشتهرا حتى قدم الى مصر محمد بن إدريس الشافعى في سنة ١٩٨ هـ ،

فصحبه من أهل مصر جماعة من أعيانها كبنى عبد الحكيم ، والربيع بن سليمان ، وأبي إبراهيم اسماعيل بن يحيى المزنى ، وأبي يعقوب يوسف بن يحيى البويطى ، وكتبوا عن الشافعى ما ألفه ، وعملوا بما ذهب إليه .

وما زال مذهب مالك ومذهب الشافعى رحمهما الله تعالى يعمل بهما أهل مصر ويولى القضاء من كان يذهب إليهما أو إلى مذهب أبي حنيفة رحمه الله ، إلى أن قدم جوهر الصقلى من بلاد المغرب بمذهب الروافض ، ومن حيثئذ فشا بديار مصر هذا المذهب ، وعمل به فى القضاء والفتيا ، وأنكر ما خالفه .

ولم يكن أهل مصر يعرفون مذهب أبي حنيفة معرفتهم بمذهب مالك والشافعى . ويعلم المقرئى ذلك بأن اسماعيل بن اليسع السكونى الذى تولى قضاء مصر بعد ابن طيعة كان يذهب إلى قول أبي حنيفة فى إبطال الأحباس « فنقل على المصرين أمر المذهب وسئموه » .

ولهذه المناسبة نقول : إن فقهاء الحنابلة لم يسمع عنهم بمصر إلا فى القرن السابع الهجرى ؛ وذلك أن الإمام أحمد كان فى القرن الثالث ؛ ولم يبرز مذهبه خارج العراق إلا فى القرن الرابع ، وفى هذا القرن ملك الروافض مصر .

ويقول السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة : « إن أول إمام علت حلولة بمصر الحافظ ابن عبد الغنى المقدسى صاحب العمدة » توفى بالقاهرة سنة ٦١١ هـ .

اتسعت الحركة العلمية الإسلامية بمصر بعد أن دخلها مذهب مالك والشافعى وبفضل من ظهر فيها من جبال العلم والدين ، ومن ورد عليها زائرا أو مقبلا من رجال الفقه والحديث والأدب . وإذا أردت أن تتخيل هذه الحركة بمصر يومئذ ، فتخيل الشافعى يلقى درس الفقه بمسجد عمرو ، وبجواره صاحبه وراوى كتبه الربيع بن سليمان المرادى ، يرحل إليه طلاب العلم من الآفاق ليسمعوا منه أقوال الشافعى ، فيؤدبهم بأدبه ، ويزودهم بلطائفه ، ويفقههم برأيه فى الفقه والأخلاق والأدب .

روى الربيع بن سليمان عن الشافعى أنه كان يقول : « أكره أن يقال : أعظم الله أجرك » يعنى فى المصائب ؛ لأن معناه أكثر الله مصائبك ليعظم أجرك . وقال : « دخلت على الشافعى وهو مريض فقلت : قوئى الله ضعفك . فقال : « لو قوئى ضعفى قتلتنى »

قلت : « والله ما أردت إلا الخير ، قال : « أعلم أنك لو شمتني لم ترد إلا الخير ، قل : قوّى الله قوتك وضعف ضعفك . فكان بهذا يغرس في الناس ملكة الذوق في الحديث والكتابة بحوار تزويدهم أحكام الفقه ، وتلقينهم الأحاديث الصحيحة . وكان الشافعي يعتمد المناظرات لتقليب الرأي في الفقه ، ويعقد الاجتماعات لإنشاد شعر العرب ؛ وأمر ذلك مشهور معلوم في كتب الطبقات والأدب .

وتخيل النسائي أفته مشايخ مصر في عصره ، وأعرفهم بالصحيح والسقيم من الآثار ، وأعرفهم بالرجال ؛ يخرج من بيته بزقاق القناديل بحوار مسجد عمرو ابن العاص ؛ تخيله يخرج من بيته ليلتي درس الحديث ويؤدب الناس بأدب الإسلام . أو تخيل في هذه الحركة العلمية الإسلامية قبل أن يكون الأزهر ، وقبل أن يحكم مذهب الروافض مصر ، تخيل عبد الرحمن بن عمر بن أبي الفهم ؛ ذلك الذي روى عنه البخاري ؛ أو سليمان بن داود بن حماد ذلك الذي روى عنه أبو داود والنسائي ؛ تخيلهما يجردان في تفقيه الطلاب على مذهب الإمام مالك رضى الله عنه .

تخيل المزني صاحب المبسوط والمختصر ؛ ذلك الذي قال عنه الرافعي : إنه صاحب مذهب مستقل ؛ والبويطي خليفة الشافعي في درسه ؛ تخيلهما يفقهان الناس على مذهب الشافعي رضى الله عنه .

تخيل القاضي بكار بن قتيبة قاضي الديار المصرية ، وصاحب التصانيف في الشروط والوثائق والرد على الشافعي فيما تفقه على أبي حنيفة ؛ وتخيل ابن أبي عمران موسى بن عيسى البغدادي شيخ الطحاوي ؛ تخيلهما في درس الفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان .

وهذا ابن هشام الذي هذب سيرة ابن اسحاق فنسبت إليه ، وابن ولاد مصنف كتاب الانتصار لسيبويه ، وشيخ الديار المصرية في العربية ؛ تخيلهما في درس اللغة والنحو . وابن الحكم مصنف فتوح مصر وسعيد بن يونس صاحب تاريخ مصر . وأبو عمر السكندی مصنف فضائل مصر وكتاب قضاة مصر في دروس التاريخ .

هؤلاء وغيرهم كثير من أئمة الفقه والحديث والقراءات والنحو واللغة والشعر والأدب والأخلاق . ولو قدر لهذه الحركة أن تستمر كما كانت وقتئذ في إخلاص الشافعي لفقهه والنسائي لحديثه ، وابن هشام للغته ، وأبي تمام لشعره ؛ لو قدر لها

أن تستمر على هذا النحو بمصر في كل عصورها لتغير وجه التاريخ فيها ، ليس في ذلك من شك .

وكانت هذه الحركة تتقبل الخلاف في الرأي بصدر رحب . قال الربيع بن سليمان : كان الشافعي لا يرى الإجازة في الحديث ، وأنا أخالف الشافعي في هذا الرأي ، ومع ذلك كان الربيع يخدم الشافعي والشافعي يحبه ويقربه إليه ، حتى قال له يوما : ما أحبك إلى ! . وقال له : ما خدمني أحد قط ما خدمني الربيع . وقال له : أنت راوية كتي .

وكنت ترى أحيانا شيئا من التنافس بين أفاضل العلماء والفقهاء في هذه الحركة ، شأن الناس في كل زمان ومكان . فهذا ابن عبد الحكم والبويطي تروى كتب الطبقات أن قد حصلت بينهما وحشة في مرض الشافعي لسبب الخلاف على الجلوس في حلقة الشافعي بجامع عمرو . ولم ينس هؤلاء العلماء الفضلاء نصيبتهم من الدنيا ولم يعرضوا عنها ، بل تأدبوا فيها بأدب القرآن ، ومشوا بتوجيهات المأثور : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

فهذا أبو عبد الله المصري الحافظ النحوى الذى روى عنه النسائي وقال عنه إنه ثقة ، كان بجوار علمه وفضله وأدبه يستأجر الأرض للزراع ، ويشغل بأعمال الفلاحة . وكانت هذه الحركة العلمية القوية المنتجة في حلقات تعقد بجامع عمرو في القسطنطينية ، ثم اتسعت بجامع أحمد بن طولون في القطائع ، واستمرت على هذا النحو حتى ملك الروافض مصر ، فبنوا القاهرة وبنوا فيها الأزهر ، فتزعم الأزهر هذه الحركة ، ورفع لواءها حتى يومنا هذا .

أما كيف دخل هذا المذهب مصر ، والأسباب التي جعلت الأزهر يقوى على حمل هذه الرسالة حتى الساعة ، فوعدنا له العدد القادم ، إن شاء الله .

تشابه النظم في القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الغنى عوض الراجحي
مدرس علوم الدين بكاية المقاصد الإسلامية ببلنان

في مقالات سابقة استطعنا أن نلم بفكرة إجمالية عن تشابه النظم في كلام الله كيف يتردد المعنى الأصلي الواحد في أكثر من موضع بعبارات تختلف في موضع عنها في آخر تقديمًا وتأخيرًا وذكرًا وحذفًا وفسكًا وإدغامًا ونحو ذلك، وكيف كانت هذه الافتراقات لأسرار دقيقة وحكم بلاغية بالغة، ما يفترق نظم عن نظم، وهما لمعنى واحد في وجه من الوجوه إلا لمبرر يبرره بل لمقتضى يقتضيه .

وفي هذا المقال أريد أن أبين ما يجذب به البحث عن هذه الأسرار والكشف عن هذه الحكم، وما تحققه الدراسة التفصيلية لهذه الناحية في كتاب الله، فأقول: عزف القوم بلاغة الكلام بأنه مطابقتها لمقتضى الحال مع فصاحته. ثم قالوا: ومقتضى الحال مختلف لأن مقامات الكلام مختلفة؛ فقام التنكير ببيان مقام التعريف، ومقام الإطلاق غير مقام التقييد، ومقام التقديم يغاير مقام التأخير، وهكذا الحال في مقامات الذكر والحذف والفصل والوصل والأطناب والإيجاز. ثم قالوا: وارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب الذي هو مقتضى الحال، وانحطاط شأن الكلام بعدم هذه المطابقة. وللبلغة طرفان: أعلى وهو الإعجاز بأن يرتقى الكلام في الحسن إلى أن يخرج عن طوق البشر، وأسفل وهو ما إذا غيّر عنه إلى ما دونه التحق بأصوات العجاوات وإن كان صحيح الأعراب. وبين الطرفين مراتب متفاوتة بعضها أعلى من بعض بحسب تفاوت المقامات ورعاية الاعتبارات .

المفارقات التي جاء عليها هذا المثلث ، والتي سوف نسعى وراءها ونجد في أثرها بالبحث والتحليل حتى نبين أنها كانت أثراً من آثار اختلاف المقامات ، وأنها كانت في كل موضع مطابقة تمام المطابقة لمقتضى الحال ؛ على قدر ما نبين من أسرارها تبين لنا رعاية المقامات في كلام الله وترقيه فيها ، وغناؤه بها ، ووفرتها فيه واكتنازه لها الى درجة الاحاطة بما لا يمكن لغير علام الغيوب الاحاطة به . وعلى قدر ما نعقل من ذلك تتجلى لنا بلاغة القرآن وروعته وسر إعجازه للناس أجمعين . فإن البلغاء من العرب الذين تحداهم القرآن فأعجزهم - وعجز غيرهم أولى - لم يكن لهم وهم بشر أن يحيطوا علماً بمقامات الكلام ومقتضيات أحواله على نحو ما يحيط به من ذلك علم الحكيم الخبير ، الذي أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً ، وأن أعلم عالم بالبلاغة بذل عمره في التعرف على مقامات الكلام ومقتضيات أحوالها لا يعرف بعلمه هذا أكثر من أن هذه الحال مقتضى هذا المقام .

أما الاطلاع على كمية الأحوال ورعاية الاعتبار فغير ممكن ، ولو سلم إمكانه فإن الغاية فيه أو الاشراف عليها غير مسلبة ؛ لأن قدر البشر متناهية ؛ ومن رعاية المقامات ومعرفتها ما يتوقف على الولوج في خبايا الأشياء والاحاطة بطبائع البشر والتحرر من منطقة القصور الانساني والوقوف منها على شرف لتصريف القول وإزجائه اليها بما هو نوع من التخليق فيها والتربية لها .

قال في شرح المطول للشيخ سعد الدين التفتازاني ^(١) : « فان قيل ليست البلاغة سوى المطابقة لمقتضى الحال مع الفصاحة ، وعلم البلاغة كافل لذلك ، فمن أتقنه وأحاط به لم لا يجوز أن يراعيها حق الرعاية فيأتي بكلام بليغ بل في الطرف الأعلى من البلاغة ؟ قلنا : لا يعرف بهذا العلم إلا أن هذه الحال مقتضى هذا الاعتبار . أما الاطلاع على كمية الأحوال ورعاية الاعتبار بحسب المقامات فأمر آخر ، ولو سلم فامكان الاحاطة به لغير علام الغيوب ممنوع ، وكثير من مهرة هذا الفن لا يقدر على تأليف كلام بليغ فضلاً عما هو في الطرف الأعلى من البلاغة » ^(٢) .

(١) عند تعريفه بلاغة الكلام (٢) هذا هو الوجه في تصوير إعجاز القرآن ومناط التحدى والمعجز عن المعارضة ، ومن أجله ألفت علوم البلاغة ، أما ما وراء ذلك من الهداية القرآنية والتشريعات والأمور الغيبية فقد كان كثير منها كما نطق القرآن نفسه في زير الأولين - راجع سورة الشعراء الآية ١٩٦ .

هذه المقامات والأحوال التي لا تمكن الاحاطة بها إلا الله ، والتي لا يزال يستكثر منها في الكلام ، ويترقى فيها ويتفنن في شأنها حتى يصل الكلام الذي انطوى عليها الى درجة الإعجاز - كان لعلماء البلاغة اليها عودة في علم المعاني بينوها نوع بيان ، وبسطوها شيئاً ما من البسط ، وسردوا الشيء الكثير من مقامات التقديم والتأخير والاطلاق والتقييد والذكر والحذف والفصل والوصل . فالتقديم للاهتمام والعناية ، والحذف للعلم بالمحذوف ، والفصل للتوكيد والبدل ، ونية السؤال الى ما الى ذلك مما قعدوه من هذه القواعد ، ووضحوه بمأثور الأمثلة وموروث العبارات .

في هذه الدراسة التي نحن بصدددها من حيث إنها دراسة مقارنة وتحليل ، لا نقف عندما وقفوا عنده ، بل لا بد أن نبين من أين جاءت هذه العناية بالمقدم ، وكيف أنه جاء بنفسه مؤخراً في موضع آخر . نبين الاعتبار المناسب الذي أوجب التقديم تارة والتأخير أخرى في لفظ واحد ، نستعين في الوصول الى ذلك بما وقعت فيه العبارة في كل موضع من السياق .

كذلك لا نقنع بوقوع الفصل في عبارة القرآن لارادة البدل أو التوكيد أو نية السؤال ، حتى نستبين لماذا أريد ذلك في هذا الموضع بخصوصه ؟ ولم وقعت العبارة المفصولة في موضع آخر موصولة ؟ وكمثل ذلك نصنع في سائر المقامات الأخرى من الذكر والحذف والأضمار والأظهار والأفراد والجمع والأدغام والفك والأطناب والإيجاز ، حتى نؤكد أن نكون بمنجاة من حملة عبد القاهر الجرجاني التي يقول فيها ^(١) .

« وقد وقع في ظنون كثير من الناس أنه يكفي أن يقال إنه قدم للعناية وأن ذكره أهم ، من غير أن يذكروا من أين كانت العناية ولم كان أهم ؟ ولتخيلهم ذلك قد صغر أمر التقديم والتأخير في نفوسهم ، وهونوا الخطب فيه على الناظر ، حتى إنك ترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضرباً من التكاف ، ولم نر ظناً أزرى بصاحبه من هذا وشبهه .

« وكذلك صنعوا في سائر الأبواب ، فجعلوا لا ينظرون في الحذف والذكر ،

(١) « دلائل الإعجاز » باب التقديم والتأخير .

والتكرار والاظهار، والأضمار والفصل والوصل، ولانوع من أنواع الفروق والوجوه، إلا نظرك فيما غيره أهم لك، بل فيما إن لم تعلمه لا يضرك. لا جرم أن ذلك قد ذهب بهم عن معرفة معنى البلاغة، ومنعهم أن يعرفوا مقاديرها، وصد أوجهم عن الجهة التي هي فيها، والشق الذي يحويها. والمداخل التي تدخل منها الآفة على الناس في شأن العلم، ويبلغ الشيطان منهم مراده في الصد عن طلبه وإحراز فضيلته، كثيرة، وهذه من أعجبها إن وجدت متعجبا.

«وليت شعري إذا كانت هذه أمورا هينة، وكان المدى فيها قصيرا والجدى يسيرا، من أين كان نظم أشرف من نظم، وبم عظم التفاوت واشتد التباين وتراعى الأمر إلى الإعجاز، وإلى أن يقهر أعناق الجبابة؟ أو هاهنا أمور آخر نحيل في المزية عليها ونجعل الإعجاز كان بها، فتكون تلك الحوالة لنا عذرا في ترك النظر في هذه التي معنا والإعراض عنها وقلة المبالاة بها؟»

«أو ليس هذا التهاون - إن نظر العاقل - خيانة منه لعقله ودينه ودخولا فيما يبرى بذى الخطر ويغض من قدر ذوى القدر؟ وهل يكون أضعف رأيا وأبعد من حسن التدبر منك إذا همك أن تعرف الوجوه في «أنذرتهم»، والإمالة في «رأى القمر». وتعرف الصراط والزراط وأشباه ذلك مما لا يعدو فيه علمك اللفظ وجرس الصوت، ولا يمنعك إن لم تعلمه بلاغة، ولا يدفعك عن بيان، ولا يدخل عليك شكا ولا يغلق دونك باب معرفة، ولا يقضى بك إلى تحريف أو تبديل أو خطأ في تأويل، ولا يعينك ولا يهيك أن تعرف ما إذا جهلته عرضت نفسك لكل ذلك وحصلت فيما هنا لك وكان أكثر كلامك في التفسير وحيث تخوض في التأويل كلام من لا يثنى الشيء على أصله ولا يأخذه من مأخذه، ومن ربما وقع في الخطأ الفاحش الذى يبق عاره وتشنع آثاره، اه.

لعل لا أكون مبالغا إذا قلت إن دراسة هذه الناحية في كتاب الله من أشق الدراسات وأعقها، لم تغفر بكثير من عناية الباحثين في القديم والحديث، ولم تحظ بمثل ما حظى به غيرها من النواحي التي ربما كانت أقل منها خطرا، ولم يترك الأوائل فيها ما يتناسب مع جلال الموضوع وقيمه العلمية ولم أجد من أفرد لها بحثا متمعة أو أخرج فيها كتباً حافلة قيمة، إلا ما كان من مسائل صغيرة مشتقة في كتب التفسير والبلاغة وعلوم القرآن، وما كان من بعض رسائل صغيرة لقلة

من العلماء ، على ما في أكثر ذلك من القصور والاكتفاء بنسكتة التفنن مع تهيب الخوض في أسرار هذه المفارقات والتزهد في دراستها ^(١) .

ولعل كذلك لا أكون مبالغاً إذا قلت إن هذه الناحية في كتاب الله إنما كانت من أول ما أمر الله بتدبره حيث يقول « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » وحيث يقول « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » وحيث يقول « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب » وحيث يقول « ولقد صرفنا في هذا القرآن ليدركوا وما يزيدهم إلا نفورا » وهل جاءت هذه المفارقات في المتشابه حيث توجب النظرة العابرة الوفاق اعتباطاً ، أو غفلة عن شناعة الافتراق حيث يجب الاشتاق ، أم أن ذلك كان إحكاماً لآي كتاب يمثل هذه الدقائق قد أحرص ألسنة المعاندين ، وأسأل عليهم الوادى عجزاً ، وسد عليهم منافذ القول سدا ؟

عدل الولاية

قال ابن أبي الزناد عن هشام بن عروة قال : استعمل ابن عامر عمرو بن عروة أصبغ على الأهواز ، فلما عزله قال له : ما جئت به ؟ قال له : ما معي إلا مائة درهم وأثواب . قال ابن عامر : كيف ذلك ؟ قال أصبغ : أرسلتني إلى بلد أهله رجلاً : رجل له مالى وعليه ما على ، ورجل له ذمة الله ورسوله . فوالله ما دريت أين أضع يدي . فأعطاه ابن عامر عشرين ألفاً مكافأة له على أمانته .

وقال معاوية : إني لاستحي أن أظلم من لا يجد على ناصر إلا الله .
وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الظلم ظلمات يوم القيامة » .

[١] راجع حاشية القنوى على البيضاوى ج ٢ ص ٧٧ حيث يستعرض المفارقة بين الفصل في قوله تعالى في سورة البقرة « يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم » والوصل بالواو في قوله تعالى في سورة إبراهيم « يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم » فيبني الفصل على أن الثاني بيان للاول ، والوصل على أن الثاني مغاير للاول ثم يقول « فإن قيل لم اعتبر المغايرة في موضع دون آخر ؟ الجواب أن النكسة بناء على الارادة موقع الارادة هكذا فلا يحسن أن يرام له وجه » .

نظر علماء الازهر الى الشعر

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد كامل الفقى
المدرس بمعهد القاهرة

رسالة الازهريين دينية خلقية ، ينشرون دين الله فى الأرض ، ويحضون على الفضائل جهدهم ، ويدعون إلى مكارم الأخلاق بكل أسلوب ؛ ومن ثم كان طابعهم الجلال ، وسمتهم الزماتة والوقار ، وحديثهم الذى العفيف ، يحرصون كل الحرص على أن يكون شعرهم بعيدا من الفحش لإمامتهم فى الناس ، ويحسدون أنفسهم فى مجانبه ما لا يتفق مع هذه النزعة ، أو يجافى ذلك الاتجاه .

وفى هذا الأفق ينظر علماء الازهر إلى الشعر ، وبهذه المثابة يرون رأيهم فيه ، فلم يكن من الجائز فى نظرهم ، أن يسرفوا فى قول الشعر هجاء وملاحاة ، أو يمعنوا فى قرضه خوفا فى عرض ، أو تأريثا للعداوة ؛ ولم يعهد فيهم أن يقولوا الشعر لا يتحرزون فيه عن ذكر الغافلات المقصورات فى خدورهن ؛ ورأوا من كرامة العلماء أن يعفوا عن المبالغة فى المدح والإطراء ، والتدلى إلى الكذب والتجنى على الناس ؛ وإذا حاموا حول ذلك فى شعرهم فبقصد واعتدال دون إغراق ولا مغالاة . وهذا الشعور من العلماء ، وتلك النظرة منهم إلى الشعر ، كانت جنابة فى كثير من الأحيان على كثير من فنون الشعر وأغراضه ؛ فقد أنفوا أن تفيض شاعريتهم فى ألوان مختلفة تهتز لها الأسماع وتخفق لها القلوب ، فكان ذلك مضعفا لشعرهم فوق ما ضعف به من ضيق خيالهم وأفقهم المحدود الذى يعيشون فيه .

والشعر فى رأى الشاعر الذى لا يترمت ولا يتعفف ، خيال وتصوير وافتنان ، لا تخرج ولا تصون فيه ، وأعدبه فى رأيه أكذبه كما يقولون ، ولكنه عندهم فى هذا المتجه مجافاة لرسالتهم ، وزراية بمكائهم ، وذلك هو الذى حمل العلماء

على أن يطووا صفحة فيها بجون وطرب ، وفيها خفة وغزل ، وألا ينشروا من ذلك إلا الهئين المقتصد ، وذلك هو الذى حضمهم على أن يخفوا عن الناس شعرا أودعوه مكنون صدورهم ، وتجلى أخيلتهم ، وخفقة أفئدتهم ، وجعلهم يشعرون بأن من الشعر ما هو عورات يجب أن تستر ، واستهتار لا ينبغي أن يظهر .

وهذا هو « السيد عبد الله نديم » ، الأزهرى الخطيب الكاتب الشاعر، تبحث عن شعره الذى تدفقت به شاعريته الفياضة فلا تهدي إلا إلى غيض من فيض ، وقُلّ من كثر . حدث الأستاذ « أحمد سمير » المترجم له فى صدر مختاراته المعروفة بسلافة النديم ، أن له ديوانين منظومين يشتملان على سبعة آلاف بيت .

ويقول فى تصديره للسلافة « ولما كان فى يافا أول مرة بعث إلى محررا يكلفنى به أن أطلب ديوان شعره الصغير من صديقه المرحوم « عبد العزيز بك حافظ » فلما قصده وجدته مصابا فى قواه العقلية بما لم يدع للطلب مجالا ، ثم كتب إلى ثانيا بأن ديوانه الأوسط عند م . بك . ف . فطلبته منه فاعتذر بأنه ضاع ، فلما أنبأت المترجم بذلك أرسل إلى فى مكتبته الثالث أنه إنما طلبهما ليحرقهما براءة منهما ومن أمثالهما ، لأن فيهما هجوا كثيرا . وختم المكتوب بهذه العبارة « قد خلعت تلك الثياب الدنسة ، ولبست ثوب « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » .

ذلك هو رأى أحد شعراء الأزهر فى الشعر ، وتلك هى نظرتة له ؛ فالحجاء فى نظره رجس ، والملاحاة فى رأيه ثوب من الدنس ؛ ومن ثم فهو يريد أن يحرق هذا الشعر ، وأن يجعل هذه الثروة القيمة حطبا للداركى يذهب الله عنه الرجس ويطهره تطهيرا .

وهذا شاعر آخر من شعراء الأزهر الفحول وهو المرحوم « الشيخ على اللبثى » يلعن من يطبع ديوانه المخطوط ، لأنه يخشى حسابه على ما أودعه من قول يزعم أن فيه منافاة للورع والتقية .

ولعلى لم أسمع أن شاعرا آخر غير أزهرى طاوعته نفسه أن يحرق شعره لأن فيه هجوا وملاحاة ، مها كان شعره من الغثاثة والضعف والانحلال ، طلبا للتطهير

وبعدا من الرجس والندس . ولعل أيضا لم أسمع أن شاعرا آخر غير أزهرى لعن من يطبع ديوانه المخطوط لسبب من الأسباب .

بل إن كثيرا من الشعراء غير الأزهريين يقيمون حول شعرهم ضجة هائلة من الدعاية والرويج، ويمجّدون في طبع شعرهم محتالين على أرباب اليراعات أن يقدموا دواوينهم بعبارات التقريظ والإطراء المبالغين ؛ بل إن كثيرا من الشعراء غير الأزهريين يسعون لدى الشفعاء أن يتوسطوا لطبع شعرهم ، وعساهم ألا يقتصروا على طبع النعير، بل يقدموا لكل قصيدة بصورة رمزية خليعة تمثل فتاة عارية، أو صبا ضارعا، أو منظرا مسرفا في فحشه وخلاعته .

ويرى الأستاذ « العقاد » أن القدوة لشعراء الأزهر في هذا المذهب ما يروى عن الإمام الشافعي ، إذ يقول :

ولولا الشعر بالعلماء يزي لسكنت اليوم أشعر من لبيد ^(١)

وقد تكون القدوة عندهم في ذلك ما حكم الدين به على الشعر ، فهم يعلمون أن الإسلام إنما جاء بالجد الذي يحض على الثواب في الآخرة ، ويحرم على المسلمين فضلا عن علماءهم الكذب في القول ، وإشاعة الفاحشة وقذف المحصنات ، والحديث عن الخمر والمحرّمات، والولوغ في الأعراض وتأريث العداوات .

وهم يعلمون أن الله نزه محمدًا صلى الله عليه وسلم عن الشعر فقال « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » ، وأن الله ذم الشعراء بقوله « والشعراء يتبعهم الغاؤون » ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لأن يمتلئ جوف أحدكم فيريه ^(٢) خير له من أن يمتلئ شعرا » .

وهم يعلمون أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن من البيان لسحرا، وإن من الشعر حكمة » ، وأنه خلع على كعب بن زهير بردته التي اشتراها منه معاوية بثلاثين ألف درهم ، وتوارثها الخلفاء من بعده يلبسونها في الجمع والأعياد .

(١) شعراء مصر وبيئاتهم للأستاذ عباس العقاد ص ٩٠

(٢) وري القبح جوفه كوعى أفده ، وورى فلان فلانا أصاب رثته

وأنه كان يكثر من استنشاد الخنساء في رثاء أخيها صخر، ويقول « هيه ياخناس » وأنه دعا إلى الشعر واستعان به في دعوته، واتخذ حسان شاعرا له ينافع عنه، وكان يقول له « شن الغارة على بنى عبد مناف، فوالله لشعرك أشد عليهم من وقع الحسام في غيش الظلام » !.

وأنه استحسّن شعر النابغة الجعدي ودعا له، وذلك حيث يقول النابغة :

« أنشدت رسول الله صلى الله عليه وسلم قولى :

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وإنا لنبغى فوق ذلك مظهرا
فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أين المظهر يا أبا ليلى ؟ فقلت : الجنة يا رسول الله . قال : أجل إن شاء الله . ثم قال أنشدنى فأنشدته من قولى :

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له بواذر ^(١) تحمى صفوه أن يكدرها
ولا خير فى جهل إذا لم يكن له حلم إذا ما أورد الأمر أصدرها
فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا يفضض الله فاك . قال الراوى : فنظرت إليه فكأن فاه البرد المنهل ما سقطت له سن ولا انفلتت ^(٢) ترف غروبه ^(٣) .

كما يعلمون أن النبي صلى الله عليه وسلم أثابه ودعا له ، وأن الشعراء أنشدوا بين يديه واهتز لما أنشدوه . فهذه هى قتيلة أخت النضر بن الحارث الذى كان غالباً فى عداوة المسلمين بمكة . يكثر أذاهم ويأقن فتيان قریش الشعر فى هجائهم ، أسره النبي فى بدر وقتله ، لجأته أخته وأنشدته :

يا راكبا إن الأثيل مظنة من صبح خامسة وأنت موفق ^(٤)
أبلغ به ميتا بأن تحية ما إن تزال بها النجائب تخفق ^(٥)

(١) بواذر : جمع بادرة وهى الحدة أو ما يبدر من الانسان عند الحدة من الخفة إلى الاقتحام بالقول أو الفعل .

(٢) انفلتت : انتقلت - ترف : تبرق وتلمع - غروب الأسنان ماؤها وظلمها .

(٣) دلائل الاعجاز ص ١٨ .

(٤) الأثيل : واد قرب بدر وهو الموضع الذى دفن به أخوها .

(٥) تخفق - كتضرب : تسرع .

منى إليك وعبرة مسفوحة جادت بوا كفها وأخرى تخنق^(١)
 هل يسمعى النضر إن ناديته أم كيف يسمع ميت لا ينطق؟^(٢)
 ظلت سيوف بنى أبيه توشه لله أرحام هناك تشقق^(٣)
 صبرا يقاد الى المنية متعبا رسف المقييد وهو عان موثق^(٤)
 أمحمد ولدتك خير نجية فى قومها والفحل فحل معرق^(٥)
 ما كان ضرك لو مننت وربما من الفتى وهو المغيظ المحنق^(٦)
 فالنضر أقرب من قتلت قرابة وأحقهم إن كان عتق يعتق^(٧)
 لو كنت قابل فدية لفديته بأعز ما يغلى به من ينفق^(٨)

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو سمعت هذا قبل قتله لمننت عليه .
 وهم قد عرفوا أيضا أن كثيرا من شعراء الإسلام أنشدوا بين يدى النبى
 صلى الله عليه وسلم غزلا ، ومن ذلك ما أنشده كعب بن زهير بين يديه إذ يقول :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متم إثرها لم يفد مكبول^(٩)
 وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول^(١٠)
 هيفاء متبلة عجزاء مدبرة لا يشتكى قصر منها ولا طول
 تجلو عوارض ذى ظلم إذا ابتسمت كأنه منهل بالراح معلول^(١١)

-
- (١) وكف المطر والدمع : سال .
 (٢) أم للاضراب ، أى بل إنه لا يسمع لانه لا ينطق .
 (٣) تنوشه : تتناولها .
 (٤) قتله صبرا وصبر الانسان على القتل أن يحبس ويرمى حتى يموت . العانى : الأسير .
 الموتى المقييد بالوثاق .
 (٥) الفحل : كناية عن الأب ، والمعرق الأصيل .
 (٦) المحنق : المتناظر من أحقنه إذا أغاظه .
 (٧) غلا بالشيء وغالى به : طلب فيه ثمنا غاليا أو اشتراه كذلك .
 (٨) التبول : من تبلة الحب إذا أضناه وأفسده أو ذهب بلبه وعقله . والتيم للذلل المعبد
 وللغلول من وضع الغل فى عنقه . وفى رواية مكبول وهو المقيد بالكيل أى القيد .
 (٩) الأغن : القدى يتكلم من قبل خياشيمه . غضيض الطرف من غضه إذا خفضه .
 (١٠) العوارض جمع عارضة وهى السن التى فى عرض الفم ، الظلم : شدة صفاء متون
 الانسان . المنهل : النهل محركة أول الشرب . والمنهل الشرب والشرب وللنزل يكون
 بالمفاضة ، معلول : العلل محركة : الشربة الثانية أو الشرب بعد الشرب تبابا .

أوائل المتكلمين من المسلمين

واصل بن عطاء شيخ المعتزلة

لفضيلة الأستاذ الشيخ على مصطفى الغرابي
المدرس بكلية أصول الدين

لقد تكلمت في مقال السابق على رأى واصل في « مرتكب الكبيرة من المسلمين » ، وأنه جعله في منزلة بين منزلتي الإيمان والكفر ، وأنه سماه « فاسقا » ، لا كافرا ولا مؤمنا ولا منافقا . وفي هذا المقال سأتحديث إن شاء الله على موقف واصل من الآراء الكلامية التي راجت في عصره ، ومن بينها مسألة « مرتكب الكبيرة » ، على أن أبين مدى اهتمامه واهتمام غيره من المسلمين في ذلك العصر بتلك المسألة .

المشاكل الكلامية في ذلك العصر :

إن المشاكل التي كانت تشغل بال المسلمين في أيام واصل بن عطاء — تقدم أنه عاش من سنة ٨٠ الى سنة ١٣١ هـ — هي :

أولا : مسألة العصاة من المؤمنين ، أو مسألة « مرتكب الكبيرة » .

ثانيا : الحكم على عثمان وقتليه ، ثم على بن أبي طالب وشيعته ، ثم السيدة عائشة ومن معها من المسلمين ، ثم معاوية ومن معه منهم .

ثالثا : هل الإنسان مجبور في أفعاله أو مختار ؟

رابعا : القرآن مخلوق أو غير مخلوق .

خامسا : صفات الله تعالى .

سادسا : من يستحق أن يكون خليفة المسلمين ؟

أما المسألة الأخيرة — وهى من يصح أن يكون خليفة — فإن السيف لا العقل ولا الدين كان صاحب رأى فيها برغم آراء الفرق واختلافهم عليها؛ لهذا كانت للامويين أولاً، وللعباسيين ثانياً، ثم توزع أمرها بين المسلمين فى شكل ولايات تصغر أو تكبر حسب قوة المقتصب .

وأما المشكلة الثانية — وهى الحكم على من ذكرنا من المتقاتلين من المسلمين — فإنها ضعفت أو انتهت بضعف الطوائف التى كانت تعتنقها وتعصب لصاحبها . وسرى رأى واصل فيها إن شاء الله .

وبقيت مشكلة « مرتكب الكبيرة من المؤمنين » ، ومشكلة الإنسان « هل هو مجبور أو مختار ؟ » ، ومشكلة « هل القرآن مخلوق أو غير مخلوق ؟ » ، ومشكلة « صفات الله » .

أما مشكلة الإنسان فقد كانت محل نزاع بين رأيين ، أحدهما رأى « الجعد ابن درهم » ، وجهم بن صفوان ، وهو أن الإنسان مجبور فى أفعاله ، وأنه كالريشة المعلقة فى مهب الرياح ؛ وثانيهما رأى « غيلان الدمشقي » ، ومعبد بن خالد الجهنى ، وهو على الضد من رأى الأول ، وهو أن الإنسان مختار فى أفعاله لا مجبور .

وأما مشكلة القرآن فقد ظهرت عند الجعد وجهم بن صفوان ، ولكننى لم أر لواصل رأياً فيها ، ويظهر أنه لم يتكلم فيها ، وإنما ظهرت تلك المشكلة مرة أخرى على يد « بشر المريسي » أيام الرشيد ، ثم على يد « ثمامة بن أمرس النميرى » رئيس المعتزلة فى أيام المأمون والمعتصم والواثق من خلفاء الدولة العباسية ، وهو الذى جرى على يديه وعلى يد « أبى دؤاد » امتحان الفقهاء فى خلق القرآن .

وأما مشكلة الصفات ، فقد بدأت عند الجعد وجهم ثم غيلان الدمشقي ، إلى أن جاء وكان له رأى فيها ، وسند كره إن شاء الله .

وأما مشكلة مرتكب الكبيرة فقد كان بدم أمرها عند الخوارج بعد أن اختلفوا مع على بن أبى طالب رضى الله عنه على التحكيم بينه وبين معاوية فى القتال الذى كان بينهما ، ثم كان للرجة فيها رأى ، كما كان للحسن البصرى فيها رأيه ، ثم كان رأى واصل بن عطاء . ولما كانت هذه المشكلة أهم المشاكل التى شغلت المسلمين فى ذلك

الوقت فإن واصلًا قد بذل مجهودًا كبيرًا في سبيلها أكثر من المشاكل الأخرى التي حكمها عنه كتب الفرق . ولقد ذكرت بعض هذه الكتب مناقشة واصل لأراء الفرق الأخرى حتى انتهى إلى إبطائها وتأيد رأيه بالحجة والدليل .

قال واصل لمخالفه فيمن يرتكب الكبيرة من المؤمنين : قد أجمعتم أن سميت صاحب الكبيرة « بالفسق والفجور » فهو اسم له صحيح بإجماعكم ، لأن الخوارج تقول « إن مرتكب الكبيرة مع فسقه وفجوره كافر » ، والمرجئة تقول « هو مع فسقه وفجوره مؤمن » ، والشيعية تقول « هو كافر نعمة فاسق » . وقال الحسن البصري ومن تابعه « هو مع فسقه وفجوره منافق » . ثم إن القرآن قد نطق بهذه التسمية في آية القاذف قال تعالى « والذين يرمون المحصنات لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون » وكذلك في كثير من آياته سمي المؤمن العاصي « فاسقاً » . فوجب تسميته لهذين « فاسقاً » . وأما ما تفرد به كل فريق منكم من الأسماء فدعوى لا تقبل منه إلا بينة من كتاب الله أو من سنة نبيه صلى الله عليه وسلم . ثم قال لهم : لقد وجدت أحكام الكفار المجمع عليها المنصوصة في القرآن كلها زائلة عن صاحب الكبيرة ، فوجب زوال اسم الكفر عنه بزوال حكمه ، لأن الحكم يتبع الاسم كما أن الاسم يتبع الفعل ، وأحكام الكفر المجمع عليها المنصوصة في القرآن على ضربين :

أحدهما : أن الله سبحانه وتعالى قال : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » ، فهذا حكم الله في أهل الكتاب وهو زائل عن صاحب الكبيرة .

وثانيهما : أنه قال تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثختموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعداً وإما فداء » . وهذا حكم الله في مشركي العرب ، وفي كل كافر سوى أهل الكتاب ، وهو زائل عن صاحب الكبيرة . ثم قد جاءت السنة المجمع عليها على أن أهل الكفر لا يوارثون ولا يدفنون في مقابر أهل القبلة ، وليس يفعل ذلك بصاحب الكبيرة .

وحكم الله في المنافق أنه إن ستر نفاقه فلم نعلم به وكان ظاهراً للإسلام فهو

عندنا مسلم، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وإن أظهر كفره استتيب، فإن تاب وإلا قتل. وهذا الحكم زائل عن صاحب الكبيرة.

وحكم الله في المؤمن الولاية والمحبة والوعد بالجنة، قال الله جل ذكره «الله ولي الذين آمنوا»، وقال «وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا»، وقال «وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار،

وحكم الله في صاحب الكبيرة في كتابه أن لعنه وبرىء منه وأعد له عذابا عظيما، فقال تعالى «ألا لعنة الله على الظالمين»، وقال «وإن الفجار لفي جحيم»، وما أشبه ذلك من القرآن، فوجب أن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن لزوال أحكام المؤمن عنه في كتاب الله، ووجب أنه ليس بكافر لزوال أحكام الكفار عنه، ووجب أنه ليس بمنافق لزوال أحكام المنافقين عنه في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ووجب أنه فاسق فاجر لإجماع الأمة على تسميته بذلك، وبتسمية الله له في كتابه. ولقد رأيت أن واصلًا قد سلك في استدلاله على تسمية «مرتكب الكبيرة باسم الفاسق» طريقا إلى تقرير دعواه تمسك فيه:

أولا بالقرآن الكريم والسنة، مستدلا بما ورد فيه من تسمية القاذف باسم الفاسق.

ثانيا بالإجماع، لأن المخالفين له كانوا جميعا متفقين على تسميته بالفاسق، والخلاف بينهم في كونه - مع هذا - كافرا أو منافقا أو مؤمنا، فهو قد أخذ بالمجمع عليه، وترك المختلف فيه.

بعد هذا الاستدلال انتهى واصل إلى أن صاحب الكبيرة يجب أن يسمى «فاسقا» وأنه ليس بالمؤمن الكامل الإيمان، كما أنه ليس بالكافر البالغ حد الكفر، وكذلك ليس منافقا، كما أنه ليس بمؤمن، لأنه لا يجمع كل صفات المؤمنين، وإذا كان يكون في «منزلة بين منزلتين الإيمان والكفر». هذا ما يتعلق بمرتكب الكبيرة عند واصل في الحياة الدنيا. ولكن أين يكون وضعه في الآخرة؟ أ يكون كذلك في منزلة بين الجنة والنار بأن يكون من أهل الأعراف؟ أو يكون مع المؤمنين في الجنة بعد استيفاء عقابه على ما قصر فيه من عمل؟ أو يكون مع الكافرين خالدا في النار؟ أو يكون مع المنافقين في الدرك الأسفل من النار خالدا فيها معهم؟

لقد أجاب على هذا السؤال صاحب كتاب « الفرق بين الفرق » وهو من الأشاعرة ، بأن واصلا كان يقول : « إن الفاسق مخلد في النار ، ولكني لم أعر على هذا الرأي لواصل عند غير الأشاعرة من كتاب الفرق . على أن هناك ما يدل على عدم صحة نسبة هذا الرأي لواصل وهو :

أولا : استدلال واصل على تسمية « صاحب الكبيرة باسم الفاسق » حيث جعل أساس استدلاله على اختلاف التسمية هو اختلاف الأحكام ، فاستدل باختلاف الأحكام على اختلاف الأسماء ، وهو يعرف أن أحكام الكفار في الآخرة الخلود في النار ، فكيف يستدل على اختلاف التسمية باختلاف الأحكام ، ثم يحكم على الفاسق بأحكام الكفار ؟ أظن هذا ليس معقولا ، بعد أن رأينا دقة واصل في استدلاله على دعواه !

ثانيا : أن المسلمين لما اختلفوا في علي وأصحابه ، وفي طلحة والزبير وعائشة أصحاب حرب الجبل ، وكفرهم البعض وفسقهم البعض ، وخطأهم بعض آخر ، وقف واصل من هذه المسألة ، ووقف العلماء المتورعين ؛ هو يعلم أن الحق قطعا لا يتعدد ، فلا بد أن يكون الحق مع أحد الفريقين ، ولكن لا يعرفه بالضبط ، لهذا ذهب إلى أن أحد الفريقين فاسق ، لا بعينه . ولقد طبق واصل حكم القرآن الكريم ، وهو عدم قبول شهادة الفاسق ما لم يتب على علي وأصحابه وعائشة ومن معها ، ولكن ليس من المعقول أن يحكم واصل على علي بن أبي طالب وأصحابه أو عائشة وطلحة والزبير رضي الله عنهم بالخلود في النار ، ولم أر لواصل هذا الرأي حتى كتب الأشاعرة نفسها لم تنقله لنا ، ولو صح عنه هذا الرأي لما سكت الأشاعرة عن التشهير به على واصل .

لهذا أرى أن ما يدعيه كتاب الفرق من الأشاعرة على واصل من « أن مرتكب الكبيرة أو صاحبها مخلد في النار » ليس صحيح النسبة إليه . وقد يجوز أن يكون أساس هذا الخطأ الذي وقع فيه هؤلاء الكتاب هو ما كتبه عن المعتزلة « ابن الراوندي » في كتابه « فضائح المعتزلة » . ويكون الأشاعرة قد خدعوا بما قاله خصم المعتزلة . ولا أظنهم يتعمدون التجني على رئيس المعتزلة وشيوخهم ، وفي مقال تال إن شاء الله تنعم الحديث على ما بقي من آراء واصل الكلامية .

بين الشعر والنظم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حامد عوفى
المدرس بمعهد القاهرة

تضاربت الآراء، واختلف مذاهب العلماء فى تحديد معنى الشعر، وضبط هذا النوع من طرق الأداء ضبطاً يميزه عن سائر أنواع الأساليب. وقد أتى لي أن أطلع على بعض الآراء فى هذا السدد، راغباً أن أقف منها على ما يرضى الضمير، ويستسيغه الفهم، وتستشعره النفس. وبعد استقصاء البحث وتمدر ما سمحت به سعة الاطلاع، وقوة الإدراك، محكماً فى ذلك الوجدان الحر، والعقل الطليق من أغلال التقليد، وقفت فى آخره الأمر على رأى قد ارتاح إليه الضمير، واستساخه العقل.

قال علماء العروض فيه: إنه الكلام الموزون المقفى. وإلى هنا لم يخط العروضيون خطوة. وهو تعريف بظاهره — كما نرى — لم يعد فيه هؤلاء حاقّ اللفظ، وأصداء النغم؛ فالوزن والتقفية كلاهما قوام الشعر عندهم، وكأن عمدتهم فيه أن يكون الكلام مفرغاً فى القالب الموسيقى، موقفاً على نغم الألحان، ولا يبالون — بعد ذلك — أكان مركباً من قضايا أولية ساذجة، أم كان متضمناً معنى خيالياً مؤثراً، وسواء أكان متسق المعانى منسجماً، أم كان متنافر المدلولات مضطرباً، ما دامت أجزاؤه متسقة على التوقيعات الموسيقية.

ونحن إذا تأملنا قليلاً علمنا أن ما قالوه تعريف للنظم لا للشعر، وأنه الكلام الموزون المقفى، أعم من أن يكون بين معانى كلبه التثام وتضافر، أو تعاند وتنافر.

وإذا فبين الشعر والنظم من الفرق ما لا يخفى على أولى النظر، إذ قد يكون المرء شاعراً يأتى بالأخيلة البديعة، والحكم الرائعة، والتجوز الساحر؛ أو يأتى بالحقائق الناصعة المتضامة الآخذ بعضها برقاب بعض؛ ولكنه — مع ذلك —

لا يجيد إفراغ ما يأتي به في القالب الموسيقي الشائق . وقد يكون ناظما يحسن وضع الكلم على وفق توقيع الألحان ، ولكنك لا ترى في نظمه خيالا شعريا طريفا ، أو معنى تمثيلا جميلا ، بل تراه ينظم الكلام هكذا غفلا ساذجا لا تصرف فيه ؛ وقد نرى بين معاني كله تنافرا أو عداا يعاف بعضها بعضا ، ويبرأ بعضها من بعض . فقد يشجيك ويطربك ما تسمعه من تلك النغم الموسيقية في بيت الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حتى أبوه يقاربه

مع ما تراه من سوء النظم ، وسقم الذأليف ؛ فليس هذا من الشعر في شيء ، وإنما هي كلمات منظومة متراص بعضها إثر بعض .

فما عرف العروضيون الشعر حينئذ ، وإنما نظروا من جهة بنيته وقوافيه ، فعرفوا القالب الذي يفرغ فيه ، وذلك هو النظم ، وبقي الشعر على حدة . ولو أن الشعر كما عرفوا لكانت الشاعرية بين الأوزان والقوافي ، لافي المعاني والأساليب ، ولكان كل من وضع قافية ، وأقام وزنا ، شاعرا ؛ وإذا لضاف رحب الفضاء بعدد نجوم السماء من النظميين المتسمين بسمة الشعراء .

ولعل تعريفهم هذا هو الذي بعث جماعة النظاميين على التوفر عليه ، فما يكاد أحدهم يقف بهذا الباب ، ويلم بالخفيف والثقيل من الأسباب ، حتى يغامر في النظم يحسبه شعرا ، ثم يعن فيه ما يعن ، وكلما حاول أن يقترب من حقيقته اقتربا ، أو غل عنها اغترابا . ولقد تقرأ له مائة بيت في غرض واحد فلا تشم في خلال تلك الأسطر عبثا من المعاني الشعرية ، ولا تلمح في ثناياها شيئا من جلال الشعر .

يطلع عليك أبداع أولئك يسانا بأبيات في شكوى الهوى ، فيفضها على سماع حتى إذا أصغيت له سمعت ألفاظا متنافرة ، مشدودة الوثاق الى أوتاد من الوزن ، ورأيت ديباجة كأنها الطلل البالي ، وخيالا يعافه العقل ، ويمجه الذوق ؛ لا يعنى هذا النظام - متى استقام له الوزن ، وأسلمت له القافية قيادها - أن يرتفع بكلامه عن مستوى السوق ، ولا في مقدوره أن يدهك بمعنى مخترع ، أو يروعك ببيت على غرار البلاغة مطبوع ؛ ولو كان شاعرا - كما يزعم - لأطلعك من قلبه على موضع ناره ، وأسمعك منه رنين أوتاره .

ويحيثك آخر بكلام .وزون .تقنى فى الحماسة ، فاذا جلس اليك طفق يحصبك منه بما يغرى بك الكرى ، وتملك على جناح خياله إلى أحد القطبين ، فافترقما وكلاكما فى مكانه قائم ؛ ولو كان شاعرا ألهم من قلبك وترا جامدا ، وبعث من عزمك ما كان خامدا ، ثم اقتباك بشاعريته إلى الغاية التى يريدتها .

ويلقاك ثالث الجماعة بثالثة الأثافي فى وصف الحرب وأهوالها ، فاذا أعرته أذنا صاغية ، سمعت براعة الاستهلال تشف عن عتاب صديق ، أو شكوى من عنت الدهر ؛ فاذا جاوز المظلع ، وانحدر الى ما يليه ، لم يزد على أن يريك صديقين يتمازحان لاجيشين يقتتلان ؛ ولو كان شاعرا لدرج بنفس صاحبه بين صهيل الجياد ، ومواقع الجلال ، وخاض بها فى بحر من الدماء ، ثم مشى بها على جسر من الأشلاء .

إذا فبين الشعر والنظم من الفرق أن هذا وزن وتفعيل ، وسبب خفيف وآخر ثقيل ؛ وذلك تصوير لما يجيش به الصدر من حكمة ، وتهش له السريرة من أمنية ، ويسكن اليه العقل من حقيقة ، ويلق به الخاطر من خيال ، وينطبع فى المناظر من جمال ، ويأخذ بعنان النفس من كمال .

ومن أراد أن يميز ما يمر بسمعه من قول : أنظم هو أم شعر ؟ فليصت الى قائل ؛ فان شعر أن فى كل بيت من معانيه حيا جميلا يشرف من نافذته ، وحسنا يترقرق على قافيته ، فلم يتالك أن يهش له ويضطرب ، وتقاد له نفسه بزماء ، فذلك هو الشعر .

وإن مر به القول فلم يحدث فى نفسه من الأثر ، إلا مثل ما يحدثه مر الطائر فى الهواء ، ولم يجد فيه من روعة الشاعرية ما يصبو له القلب حنانا ، أو يصيب فى القلب مكانا ، فذلك هو النظم ، وخلق به أن يدخل فيه ما ليس من الشعر ولا قلامة ظفر .

فليعلم الذين زعموا الشعر وزنا وقافية ، أنهم فى واد ، وأن الشعر فى واد .

خطا بعضهم خطوة فشرط أن يكون الشعر مبنيا على استعارة ، معبرا عن خيال . فليت شعرى أى شئ يريد ؟ لأنه لا جرم يريد أن ينتحى ناحية الفلاسفة من أن الشعر هو ذلك المعنى السابح فى عالم الخيال ، الجائل فى مسارح الوهم ، فلا يكاد تتناوله

الحواس الظاهرة ؛ لذلك أطلقه المناطق على القياس المركب من قضايا خيالية تؤثر في النفس ولو كاذبة أو مستحيلة ، كقياس قولهم في اجتماع الضدين : « أنا مضمهر الشكوى باللسان ، مظهرها بالدموع ، وكل مضمهر صامت ، وكل مظهر متكلم فأنا صامت متكلم » . ومن هنا قال علماء الأدب : « أشعر الحديث أكذبه » ، أى أن أشد المعاني تأثيرا في النفس ، وأملكها للعواطف ، وأسلمها للشعور ، ألصقه بالخيال ، وأعلقه بالوهم . فكذلك يريد هذا القائل أن يقول لنا : إن الشعر هو ذلك القول المتضمن للخيال البديع المؤثر ؛ فكأنه يرى رأى الفلاسفة أن لا تأثير لغير الخيال ، وأن التجوز في المعاني ، والتخطي بها من الحقيقة الى مسارح الخيال ، هو مصدر الروعة ، وموضع السحر لا غير .

ونحن إزاء هذا الرأي لا يسعنا ، إلا أن نذعن أن للخيال تأثيرا حادا في النفوس ما لم تخرج به المغالاة عن حدود المعقول . هذا شيء نحسه في أنفسنا ، ونذكره بوجداناتنا حتى في لغة العامة ؛ فانك لا تكاد تسمع مثلا عاميا ، أو تمثيلا سوقيا من بعض أفناء الناس وعوامهم إلا طربت له وهششت عند سماعه ؛ ولكن الذى ننسكه هو أن يستأثر الخيال بهذا التأثير ، ويستقل به دون الحقيقة . ذلك أن من المعاني التى لم تخلع أردية الحقيقة ما لا يقل روعة وتأثيرا عن تلك التى خلعت عليها المغالاة لحل الخيال الرائع ، والجزاز البديع .

فهناك الكتاب الكريم قد تحدى الأمة العربية في أبين صفاتها ، وأسمى سماتها ، وأجل مفاخرها « تلك هى البلاغة نظما ونثرا » ، وما وسعها بعدد إلا أن تنحى أمامه صاغرة ، وهى أسبق الدول فى حلبة البيان ، ومضرب المثل منها فى هذا الميدان « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » . وإنك لو تصفحت هذا الكتاب الحكيم ، وتلوت آية آية ، بل تقصيته كلمة كلمة ، لا أراك تجد فيه من معاني الكناية والجزاز إلا بقدر الملح فى الطعام ، ومع ذلك ترى شبح الإعجاز ماثلا أمام عينيك فى كل ناحية من نواحيه ، فأنتى قرأت وحيتما تلوت ، رأيت فى كل كلمة معجزة ، وبكل آية آية ، ولا تكاد تمنع مشاعرك من أن يتملكها سحر هذا البيان . فهل ترى أن ما بهر ابن المغيرة ، وأفعم صدره روعة وجلالا من قوله تعالى : « إن الله يأمر

بالعدل والإحسان ، الآية « حتى دعاه ذلك أن يقول : « والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفل لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ، ما يقول هذا بشر ، ؛ هل ترى ذلك لشيء راعه في الآية من تجوز في المعنى أو كناية فيه ؟ كلا إن هي إلا حقائق ناطقة يتجاذب بعضها بعضا . وهل ترى الجاحظ حين قال : « ولو أن رجلا قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة ، لتبين له من بديع نظامها ورقة نسقها ، أنه عاجز عن مثلها ، ولو تحدى بها أبلغ العرب لعجز عنها ، نظر الى ما فيها من استعارة وكناية ليس غير ؟ أو هل ترى ابن مسعود حين قال في وصف القرآن : « لا يتفه ولا يتشان ، ، وإذ قال : « إذا وقعت في آل حم وقعت في روضات دمثات أتأتق فيهن ، قال ذلك من أجل ما فيها من تمثيل أو كناية فحسب ؟ أم ترى لذلك فقط قالوا في صفة القرآن : لا تفنى عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد ؟ أم هل ترى أن ما أعجز زعماء العرب وأساطينهم عن مباراته حتى وقفوا أمامه واجمين مهوتين لا يدرون ما يصنعون ، هو ما فيه من تجوز أو خيال ؟ .

وهل علمت أن لو كان ذلك البيان الساحر الذي تنخلع له قلوبنا روعة وجلالا حينما نسمع لكلامه تعالى وليد ما فيه من مجازات وأخيلة ، لأدى ذلك الى رفع الإعجاز عن الجهرة العظمى من آيات الله ، وأن يثبت ذلك فقط في آى من القرآن معدودة ، وفي مواضع من السور محدودة ، وفي هذا كفر صراح ؟ .

ما ذلك إذ إلا لما تضمنه هذا الكلام من دقائق المعاني ، ولطائف الأسرار المختلفة ، في ذلك الأسلوب العجيب ، والنظم الرائع البديع ، في المعاني المختلفة والأغراض المتباينة ، لا فرق في ذلك بين حقيقته ومجازه ، وصريحه وكنايته .

هـب هذا التأثير العجيب وليد ما في القرآن من سر اختص الله به ، ومزية أودعها إياه دون سائر كلام البشر كما قد قيل ، فأى سر أودع في منظوم كلام البشر أو مشورهم مما هو خلو من القضايا الخيالية ، سليم من خدائع المغالاة ، وتماويه الإغراق ، مع بلوغه الغاية في الجودة ، والنهاية في التأثير ، كقول أبي الطيب :

إذا قيل رفقا قال للحلم موضع وحلم الفتى في غير موضعه جهل

وقوله :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

أجل : إنا لا نسكر ما للحكم والأمثال من التأثير والروعة أيا كان الوضع الذى وضعتا به ، والقالب الذى أفرغتا فيه ، غير أن الذى نحسه فى أنفسنا أن ليس للحكمة أو المثل منطوقا بهما على انفراد من جمال التأثير ما يكون لهما منتظمين فى سلك حديث استدعاهما ، كالعقد النفيس فإنه فى جيد الحسنة أبهى وأنضر منه منعزلا جانبا . ولا إخال عاقلا يستطيع أن يسوى فى التأثير بين قول الشاعر : « وحلم الفتى فى غير موضعه جهل » منقطعا عما تقدمه من الكلام ، وبين قوله هذا منسجما مع قوله : « إذا قيل رفقا قال للحلم موضع » فإن انتظامه معه فى سلك واحد ، واستدعاء صدر الكلام ليعجزه ، أعطيا للحكمة روعة ، وأكسبها تأثيرا لم يكونا لها وهى منقطعة الصلة ، منعزلة المكان .

وإنك إن تسمع لقولهم : « فإن المسك بعض دم الغزال » ، أو قولهم « ما لجرح بميت إيلام » أو قولهم : « إن معدن الذهب الرغام » سمعت قولاً لا يبدو أن يكون مجرد خبر بأن المسك جزء من دم الغزال ، وأن الجرح الميت لا يحس ألم الوخز ، وأن الذهب مكانه التراب ، ولا يكاد يحوز ما سمعت صماخ أذنك ، ثم لا تلبث أن تسمع أو تقرأ قول المتنبي :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال
أو قوله :

وما أنا منهم والعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام
أو قوله :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام
فلا تكاد تضبط حواسك دون أن تتملكها روعة هذا الكلام . فافظر الى ذلك الذى كان خبرا ساذجا كيف استحال سحرا حلالا ، وانقلب رحيما مباحا . فليت شعرى : هل كان ذلك إلا بفضل ما بين الكلامين من حسن الانسجام ، ورقة الالتحام ، وأن صدر الكلام أخذ بناصية عجزه ، وآخره بمسك بعنق أوله ؟ ذلك هو السر فى أن كان للحكم والأمثال ذلك التأثير العجيب . وإليك قصة الغلام الحجازى الذى وفد على عمر بن العزيز فاشترأب الغلام

للکلام فتنه الخليفة لحدثة سنه قائلا : لیتکلم من هو أسن منك ، فقال الغلام : يا أمير المؤمنين إنما المرء بأعصره : قلبه ولسانه ، فإذا منح الله عبدا لساناً لا فظاً ، وقلباً حافظاً ، فقد أجاده الاختيار ؛ ولو أن الأمر بالسن لكان ههنا من هو أحق بمجلسك هذا ! . فقال عمر : « صدقت ، فهذا هو السحر الحلال » .

فما كان عمر بن العزیز ذلك الحجة الدامغة ، والقول الفصل ، لتفحمة مقالة غلام حدث لما فيها من تخيل وتجوز ، بل لما فيها من نخامة المعنى ، ورشاقة الأسلوب . ألا ترى كيف جعلها سحراً حلالاً في حين أنها معان لم تبرح أصولها ، ولم تعر عن ثيابها ؟ ولكنها دقت نخلت ، وتناسقت فسحرت .

فلا وجه إذاً لأن يستأثر الخيال بالتأثير ، إذ ثبت أن لبعض المعاني الحقيقية من التأثير ما لا يستهان به . وإن الأسلوب الساحر ، والمعنى الدقيق اللذين أتی بهما الكتاب الحكيم لأقوم دليل على حقيقة ما نقول من أن دقة المعاني وتناسقها من أقوى عوامل التأثير وإن لم يعد بها التجوز من الحقيقة الى الخيال .

وإذا أخذنا بنظرية القائل أن لا بد في الشعر من أن يكون مسبجاً للخيال ومسرحاً للوهم لمكانهما من التأثير ، فإذا يكون عذراً أمام شعر زهير ، وبهم تكون محبتنا إزاء الجهرة العظمى من شعر المتنبي ونحوهما مما هو خلو من القضايا الخيالية ، ونحن لا يسعنا بحال أن نسكر عليهما جودتهما وحسن تأثيرهما لما بين المعاني من جمال الانسجام ، وتوثق عرا الالتئام ، مع بهاء الرونق ، وصفاء الديباجة ، وفي ذلك من التأثير في النفس ما لا يقل شأناً من بارع الاستعارة ورائع الخيال .

وها هم أولاء الشعراء الجاهليون ما كانوا ليعنوا بزخرف القول ، أو ليتكلفوا الأداء ، بل كانوا يتوخون الحقيقة ما شاءت سذاجتهم وفطرتهم ، ولا يقولون من الکلام إلا ما يخطر لهم بلا تعمل أو تأنق ؛ لذلك قل المجاز في شعرهم ، وندرت المبالغة ، في حين أنهم مضرب المثل في مضمار البيان . فهل نستطيع أن نخرج جل أشعارهم من غمار الشعر ولا نذكرهم في عداد الشعراء لأن شعرهم عاطل الجيد من حلي الخيال ؟ . فليس لنا بعد هذا البيان الواضح أن نختص المعاني المجازية والتخييلية بحسن الوقع وجمال التأثير ، فندعی أنها قوام الشعر ، والدعامة التي عليها يعتمد ، وبها يكون ، فإن ذلك بلا ريب غلط لحق كثير من فحول الشعراء مـ

حسن الجوار وأثره في ربط الأسر

لفضيلة الأستاذ الحلبل الشيخ على رفاعي
المفتش بإدارة الوعظ

من تعاليم الإسلام دعوته إلى حسن الجوار ، وقد حث الهمم وبعث العزائم للتحلي بهذا الخلق العظيم ، بهدى مشرق كريم . قال الله تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ، وبذي القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذي القربى والجار الجنب ، والصاحب بالجنب ، وابن السبيل ، وما ملكت أيمانكم » . فمن الآية الكريمة ترى أن الله سبحانه أمر بالإحسان إلى الجار ذي القربى — القريب المسكن أو الذي له مع الجوار قرب واتصال ينسب أو دين — وإلى الجار الجنب — البعيد المسكن ، أو الذي لا تربطك به صلة القرابة .

وقد روى البزار عن جابر أنه صلى الله عليه وسلم قال : « الجيران ثلاثة : جار له حق واحد وهو أدنى الجيران ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق وهو أفضل الجيران ؛ فأما الذي له حق واحد فجار مشرك له حق الجوار ، وأما الذي له حقان فجار مسلم له حق الإسلام وحق الجوار ، وأما الذي له ثلاثة حقوق فجار مسلم ذو رحم له حق الإسلام وحق الجوار وحق الرحم » .

وإن الإحسان إلى الجار دليل الإيمان بالله واليوم الآخر ، يوم يجازى المرء بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً .

روى مسلم عن أبي شريح الخزاعي رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره » . وقد أقسم النبي صلى الله عليه وسلم أن من أساء إلى جاره تعرض من يوب الإيمان ؛ ففي الصحيحين عن

أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ! قيل من يا رسول الله ؟ قال : الذي لا يأمن جاره بوائقه » ، والبواطن : الشرور والآثام والإيذاء .

وروى الطبراني عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه ، وهو يعلم » .
كذلك رغب صلوات الله وسلامه عليه في حسن الجوار ، ونفر من الإساءة إلى الجار ، ببيان جزاء من أحسن ومن أساء إلى جيرانه .

روى الامام أحمد وغيره عن أبي هريرة قال : قال رجل : يا رسول الله إن فلانة تذكر من كثرة صلاتها وصدقتها وصيامها غير أنها تؤذى جيرانها بلسانها . قال « هي في النار » . وقال يا رسول الله : فان فلانة تذكر من قلة صيامها وصلاتها وإنها تصدق بالاثوار من الأقط - أى القطع من الأقط ، وهو شيء يتخذ من خيض اللبن الغنمي - ولا تؤذى جيرانها . قال « هي في الجنة » .

وروى مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال « لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه » .

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتشهير بالجار الذي يسيء إلى جاره ؛ ففي الطبراني عن أبي جحيفة رضى الله عنه قال : « جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو جاره ، قال : اطرح متاعك على الطريق ، فطرحه ، فجعل الناس يرمون عليه ويلعنونه ، فجاء الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ما لقيت من الناس ! قال : وما لقيت منهم ؟ قال يلعنونى ! قال : قد لعنك الله قبل الناس . فقال إني لا أعود . فجاء الذى شكاه الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال « ارفع متاعك فقد كفيت » . وأحسب أن هذا من أشد أنواع التأديب عند ذوى الضمائر الحية والفطر السليمة .

وإن من يتأمل وصية جبريل لنبيينا صلوات الله وسلامه عليه يدرك مقدار حق الجار عليه فيؤديه كاملا : « مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » .
وقد بين صلوات الله وسلامه عليه حق الجار على جاره فيما رواه الطبراني

عن معاوية بن حيدة قال « قلت يا رسول الله ما حق الجار على ؟ قال : إن مرض عدته ، وإن مات شيعته ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن أعور سترته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن أصابته مصيبة عزيتة ، ولا ترفع بناءك فوق بناءه فتسد عليه الريح إلا بإذنه ، ولا تؤذه بريح قدرك إلا أن تغرف له . » ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق وزاد « وإن اشتريت فاكهة فأهد له ، فإن لم تفعل فأدخلها سرا ، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده . »

إن من الإحسان إلى الجار أن تحب له ما تحب لنفسك ، فتتمنى له سعة المال وصلاح الحال وبلوغ الآمال ، وتعينه ما استطعت على بلوغ أمله ، وتسرع لتجأحه في الوصول إلى غرضه ، وإن كان جاهلاً فعله ، وإن كان عالماً فأنصحه ، فالدين النصيحة .

وإذا كان إيذاء غير الجار ذنباً وإثماً كبيراً ، فإيذاء الجار أكثر إثماً وأعظم جرماً . يعلم ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم « ما تقولون في الزنا ؟ قالوا حرام حرمه الله ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لأن يزني الرجل بعشر نساء أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره . قال : ما تقولون في السرقة ؟ قالوا حرمها الله ورسوله فهي حرام ؛ قال : لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره . »

إن حسن الجوار يزيد التراحم والتعاطف ، وسبيل التآلف والتواد ؛ إذ به يحصل تبادل المنافع وقضاء المصالح واستقرار الأمن ، واطمئنان النفوس ، وسلامة الصدور ، فتضحى الحياة ، طيبة والعيشة هنيئة .

وقد فطن لذلك السعداء فضربوا للناس أروع الأمثال في حسن الجوار ؛ فمن هؤلاء أبو حنيفة النعمان رضي الله عنه : كان له جار إسكاف يعمل نهاره ويقضى ليله في الشراب والغناء ، وكثيراً ما كان يزعم الإمام بجلبته ، ويتغنى بقول الشاعر :

أضاعوني وأى فتي أضاعوا ليوم كريمة وسداد ثغر

ففقده الإمام صوته ذات ليلة وعلم أنه محبوس . فصلى الصبح وذهب الى الامير فقابلته بجلا مبجلا ، وأجابه الى ما طلب من الإفراج عن جاره . ولما خرجا قال له الإمام : هل أضعنك يا فتى ؟ فقال لا ، بل حفظت ورعيت ، جزاك الله عنى خيرا عن حرمة الجوار . وتاب ولم يعد الى ما كان عليه .

وما أحسن قول الله تعالى فى مثل هذا المقام « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » .
وبعد ، فلو أحسن كل جار الى جاره لوجدنا البلد على تعدد أسره أسرة واحدة ، يظللها علم السعادة ، فتجتمع القلوب على الصفاء ، وتطيب النفوس بترفعها عن العداوة والبغضاء ، فتصرف الهمم الى الاصلاح والعمران ، وتنشد الرقى فى كل الميادين ، فيريح الوطن ، ويسعد كل من فيه .
فلنعتصم بحسن الجوار فى سبيل وحدتنا ، حتى يكون المستقبل الزاهر لنا .
ومن الله التوفيق ؟

من مساوىء الحجاب

وقف أبو العتاهية الى باب بعض الهاشميين فطلب الإذن ، فقيل له : تكون لك عودة . فقال :

لئن عدت بعد اليوم لاني لظالم سأصرف وجهي حيث تبغى المكارم
متى يظفر الغادى إليك بحاجة ونصفك محبوب ونصفك نائم

ومثله للعتابي :

قد أتيناك للسلام مرارا غير من منا بذاك المزار
فاذا أنت فى استتارك باللي ل على مثل حالنا بالنهار

الطلاق في القانون المدني الفرنسي

لحضرة الأستاذ صالح بكير
المدرس بكلية أصول الدين

لا يقع الطلاق في القانون المدني الفرنسي إلا بناء على حكم بدعوى يرفعها أحد الزوجين ضد الآخر، وبناء على أسباب معينة حصرها هذا القانون في أربعة . وسنذكر على هذه الأسباب أولاً ثم نتبع ذلك ببيان إجراءات دعوى الطلاق .

أسباب الطلاق

هي أربعة :

السبب الأول : الزنا — المراد بالزنا هو الواقعة التي تحصل من أحد الزوجين مع شخص آخر خلاف الزوج أثناء قيام الزوجية . وهذا هو الزنا الذي يعتبره القانون الفرنسي سبباً موجباً للطلاق ، والذي يعاقب عليه أيضاً قانون العقوبات الفرنسي (وكذا القانون المصري) أخذاً من القانون الفرنسي المذكور (!) . فطبقاً لنصوص المادتين ٢٢٩ ، ٢٣٠ م ف — يجوز لأحد الزوجين طلب الطلاق من زوجه الزاني . ومعنى هذا أن طلب الطلاق (كما في جميع الأحوال الأخرى) قاصر على أحد الزوجين فقط دون أي شخص آخر . ومنشأ هذا تاريخي راجع إلى القانون القديم في مادة الحيلولة (Séparation de Corps) . ولكن يلاحظ أن المادة ٢٢٩ من القانون المذكور تشترط في زنا الزوج ليكون سبباً لطلب الزوجة الطلاق منه أن يكون زناه مصحوباً بظروف خاصة خطيرة ، كاحتفاظ الزوج بشريكته في جريمة الزنا بمنزل الزوجية ، وهذه المحاباة موجودة أيضاً في قانون العقوبات الفرنسي في المادتين ٣٣٧ ، ٣٣٩ ع ف . إذ تقرر أن هتوبة الزوجة الزانية تكون بالحبس ، بينما أن الزوج لا يعاقب إلا إذا احتفظ بشريكته في منزل الزوجية ، كما أنه لا يعاقبه إلا بالغرامة لا الحبس . ولكن جاء قانون سنة ١٨٨٤ معدلاً للقانون المدني الفرنسي ومسوياً بين الزوجين في طلب

الطلاق بمجرد حصول الزنا من غير اشتراط الشرط السابق . وهذا هو النص الحالى المادة ٢٣٠ م ف . وهذا التعديل راجع إلى أن الزوجة تضار بزنا زوجها على أى حال كان هذا الزنا .

ومما يؤسف له أن قانون العقوبات الفرنسى لا زال محتفظا بالفرق والمحاباة السابقتين فى المعاملة .

السبب الثانى : العقوبة المقيدة للحرية التى تمس السمعة والشرف — قررت المادة ٢٣٢ م ف بأن أحد أسباب طلب الطلاق هو الحكم على أحد الزوجين بعقوبة نعتتها بكلمتين Afflictive et infamante والمراد بذلك هو العقوبة التى يحكم بها على ارتكاب الجرائم المقيدة للحرية كعقوبة الإعدام والأشغال الشاقة والنفي والإبعاد والاعتقال . فلعقوبات الثلاث الأولى هى عقوبات على الجرائم العادية De droit commun والآخرى ان عقوبات على الجرائم السياسية . ويلاحظ أنه يجب أن تكون العقوبة موصوفة بالوصفين afflictive (مقيدة للحرية) و infamante (ماسة بالسمعة والشرف) . وأما العقوبات غير المقيدة للحرية ويطلق عليها كلمة infamante كالنفي والتجريد من الحقوق المدنية والى لا تكون عقوبات مكتملة فإنها لا تكون سببا للطلاق . وعلى هذا لا تكون العقوبات التى لا تمس الشرف والسمعة سببا للطلاق . وكذلك أيضا العقوبات على جرائم الجنىح كالحبس والغرامة وكذا العقوبات التأديبية لا تكون سببا للطلاق . ومع ذلك فإنه يمكن اعتبار هذه العقوبات الأخيرة نوعا من الاضرار كما سيأتى فى موضعه .

ولكى تكون العقوبة السابق بيانها موجبة للطلاق ، ينبغى تحقيق شرطين : أولا : يجب أن يكون الحكم قد أصبح نهائيا غير قابل للطعن فيه بأى وجه من أوجه الطعن ، كما أنه لم يحصل رد اعتبار أو عفو شامل على ارتكاب الجريمة (لأنهما يمحوان أثر الجريمة) أما سقوط العقوبة بمضى المدة أو حصول العفو الخاص أى غير الشامل فلا يمحوان أثر الجريمة ، وإنما يمحوان العقوبة فقط ، وعلى هذا فيصح طلب الطلاق .

ثانيا : يجب صدور الحكم أثناء قيام الزوجية .

السبب الثالث : Epcés sérices grave ومعنى هذا هو إيذاء أحد الزوجين للآخر على أى شكل كان . ولكن يشترط أن يكون الإيذاء خطيرا . وهذا هو ما أشارت إليه المادة ٢٣١ م ف . وتنتج عن هذا تقيمتان :

(١) لكي يكون الإيذاء سببا للطلاق ينبغي أن يتجاوز حد اللوم والعتاب والمؤاخذه العادية .

(٢) أن خطورة الإيذاء موكول أمر تقديرها للقاضي .

السبب الرابع : الاضرار أو المضارة — (Injures graves) — هذا هو السبب الشائع في التطبيق أمام المحاكم ، وهو يشمل قذف أحد الزوجين للآخر قولاً أو فعلاً أو كتابة ؛ إذ أن هذا القذف يخالف واجبات الزوجية ويجعل حياتها منغصة لا تطاق . ويلاحظ أنه ليس من اللازم أن يضرر أحد الزوجين في قذفه للآخر كراهة أو سوء نية . ومن أنواع الضرر السكر المستمر العلني أو اعتياد لعب الميسر ، إذ أن مثل هذا يوجب سقوط الاعتبار والاحترام ومهينا لكرامة الزوج الآخر . وقد اعتبر هذا النوع من الفعل قذفا مستوجبا للطلاق .

ويمكن التوسع كثيرا في معنى الإيذاء حتى يشمل أحوالا عديدة يترتب عليها ضرر من أحد الزوجين للآخر ، كالإصرار اختيارا على مخالفة واجبات الزوجية ، وكالهجر اختيارا ، وكرفض الزوج بلا مبرر قبول زوجته في منزل الزوجية أو إصرار أحد الزوجين على عدم العودة إلى منزل الزوجية أو محاولة ارتكاب جريمة الزنا أو حتى ارتكاب أمر تافه من سوء السلوك أو رفض إشهار الدين بعد إشهاره مدينا أمام مأمور الأحوال المدنية . . . الخ .

ويلاحظ أن القضاء قد توسع في هذا الموضوع كثيرا ، ولكن هذا التوسع لا يخلو من النقد ، إذ مثل هذا التوسع قد يفضى الى تحوير مرمى اليه القانون من أغراض والى الخروج عليه . ألا ترى أن القانون قد نص على أن أحد أسباب الطلاق (وهو السبب الثاني) هو العقوبة المشينة للشرف والسمعة ، والمقيدة للحرية التي سبق بيانها . وهذا يدل بطريق المفهوم على أن غيرها من العقوبات كعقوبة الجنح لا تكون سببا للطلاق ، فاذا اعتبرت هذه العقوبة نوعا من الضرر

يلحق الزوج الآخر كانت حينئذ سببا للطلاق ، وهذا لا تعطيه دلالة النص للمادة المذكورة بطريق التصريح ، وعلى هذا لا يعتبر هذا النوع من العقوبة سببا للطلاق . ولكن يرد على هذا بما يأتي :

أولا : أن السببين الأول والثاني ليس للقاضي فيهما حرية تقدير واختيار ، بل إنه بمجرد حصول أحدهما وطلب الحكم بالطلاق بعد إثبات السبب يجب عليه وجوباً حتمياً إصدار حكم الطلاق ، بينما أنه في السببين الثالث والرابع للقاضي فيهما حرية اختيار وتقدير ، لأن الإيذاء أو الضرر يختلف باختلاف الناس وأقدارهم ، فمنهم من يرى الحبس مثلاً لا يشينه . وإنما قد يتوسل به أحد الزوجين إلى الحصول على الطلاق لأغراض خاصة أخرى .

ثانياً : لما لم يكن من المستطاع حصر جميع الوقائع التي يمكن اعتبارها سببا مفضيا للطلاق ، اضطر المشرع لأن يضع ضابطا معبرا عنه تعبيراً عاماً مرناً يصلح لجميع الأحوال والأشخاص والزمان والمكان ، لأن حياة الزوجية تختلف على حسب مشارب الناس وأذواقهم وطبائعهم وأخلاقهم ونظرة اليها ، كما ذكرنا سابقاً في السبب الأول . فمثلاً : ألا ترى أن شخصا من المراكز العالية يفض النظر عن زوجته فلا يعيرها اهتماما ، وترى الزوجة في ذلك ازدراء وامتهانا لكرامتها فظرا لمركزها العالي ، أفلا يصح لها في مثل هذه الحال أن تطلب الطلاق ؟ ومع ذلك (كما قلنا سابقاً) القاضي له في مثل هذه الحال سلطة تقدير واسعة . ويلاحظ بصفة عامة أن الأسباب الأربعة التي حددها القانون لطلب الطلاق هي وقائع لا بد من حصولها ووقوعها ، كما يشترط أن تكون هذه الحوادث والوقائع حصلت بطريق الاختيار . أما إذا وقعت عن غير اختيار كما إذا حصلت عن اضطراب عقلي فلا تعتبر سببا موجبا للطلاق . اللهم إلا إذا تحقق وترتب عليها ضرر مؤكد فلا مانع عندي أن تكون سببا للطلاق .

الطلاق بالتراضي : لما أعاد قانون سنة ١٨٨٤ نظام الطلاق وأسبابه لم ينص على ذكر الطلاق الذي يحصل برضا الزوجين . وهذا النوع ما زال باقيا في القانون البلجيكي . وإنه وإن سكت المشرع الفرنسي عن هذا النوع (والذي كان قصده من عدم النص عليه هو منع الطلاق لآتفه الأسباب فيتنفق الزوجان على

إيقاعه وفى ذلك ضرر عظيم فى نظره) فإنه رغم ذلك قد خولفت إرادته فلجأ الى الحيل القانونية . فيستطيع الزوجان الاتفاق على الطلاق ويقوم أحد الزوجين برفع دعوى الطلاق منتحلا وقائع وأسبابا غير صحيحة ثم لا يحضر الزوج الآخر أمام المحكمة ليرد على هذه الوقائع ، ولإذ ذاك يصدر الحكم غيابيا ، وبذا يتحصل الزوجان على حكم الطلاق بطريق التحايل على القانون . وقد يحضر محامى المدعى عليه ويسكت عن الرد على الوقائع المزعومة (وهذا ما يحصل كثيرا أمام المحاكم خصوصا محكمة السين بباريس) وحينئذ يصدر الحكم حضوريا . كما يصح أن يترافع محامى المدعى عليه ويثبت عدم صحة الوقائع المدعاة ثم يطلب طلبا فرعيا أثناء سير الدعوى بصدر حكم الطلاق له ضد المدعى ، إذ أن الوقائع التى ادعاها المدعى ثبتت عدم صحتها ، فكان هذا قذفا فى حق المدعى عليه ، وهذا القذف هو ما نص عليه القانون فى السبب الثالث . وبهذه الحيلة توصل الزوجان الى استصدار حكم بالطلاق .

وبهذه الحيل والطرق الملتوية يسهل كثيرا الحصول على الطلاق رغم إرادة المشرع ؛ ولذا قيل بأنه من الأجدر أن يقرر نظام الطلاق بالتراضى ما دام الواقع يقضى بذلك ومنعا للناس من التحايل على القانون وعلى عدم احترامه ، ولكن يجب إخضاعه لنوع من الرقابة خشية الفوضى . وبذلك لا تتكشف الفضائح ، ويمتنع التحايل وتطمئن النفوس .

الاحوال التى يعتبر فيها طلب الطلاق كأن لم يكن : أسباب ذلك ثلاثة :

(١) ترك بلا مبرر المسكن الذى عينه لها القاضى لتقيم فيه أثناء سير دعوى الطلاق .

(٢) موت أحد الزوجين أثناء سير دعوى الطلاق .

(٣) حصول الصلح بين الزوجين . ولكن هذا الصلح لا يمنع أحد الزوجين من طلب جديد للطلاق إذا جدت وقائع جديدة أو كانت هناك وقائع مجهولة . وقد رأت محكمة النقض والإبرام الفرنسية أن الوقائع الجديدة تحي ثانيا الوقائع القديمة التى حصل منها الصلح وتكون جميعها سببا للطلاق .

ابن خلدون

المصلح الاجتماعي

لحضرة الأستاذ سعيد زايد

ابن خلدون شخصية عربية ممتازة ، وعالم نحرير ، أفنى عمره في الاطلاع على كتب التاريخ وأحوال الأمم ، بل فيلسوف كبير لم تكن قراءته للكتب مجرد الإلمام بالشئ ، وإنما كانت قراءة من يعمل عقله في المشاكل والظروف التي مرت بها الأمم ، فيستخلص منها قواعد عامة متشابهة ، تسير عليها الشعوب والحكومات في تطورها .

قرأ فيلسوفنا العربي ، التاريخ ، وألم بدقائقه وخوافيه ، فهداه عقله الراجح وذنه المتوقد إلى المجتمعات الانسانية تسير في أحوالها وتطورها ورقبها وفق قوانين ثابتة مطردة لا تقبل التخلف .

والعلامة ابن خلدون باكتشافه لهذه الحقيقة إنما يعد الواضع الاصيل لعلم الاجتماع ، ولا يقتصر عند هذا الحد بل يتعداه الى التحدث عن فروع العلم والإفاضة في جزئياته ، فسبق بذلك علماء الغرب أمثال مونتسكيو وأوجيست كونت ، أما لماذا لم يسطع اسمه بين جدران الجامعات التي درست هذا العلم فإنه يرجع إلى سوء حظه بل إلى سوء حظ الأمة العربية كلها ، فلم يظهر بعده تلاميذ يسرون على نهجه ، بعكس علماء الغرب الذين ظهر بعدهم من التلاميذ من يزيد عليهم صقلا وتهذبا .

ولكن التاريخ المنصف لم يترك ابن خلدون في زوايا النسيان ؛ فقد ظهر في القرن العشرين من تناول آثاره بالدرس والتحصيل ، وقارن بينها وبين آثار الغربيين فتبينت له الحقيقة الرائعة ، وهي سبق الفيلسوف العربي لعلماء الغرب في اكتشاف أساس علم الاجتماع بمدة تقرب من خمسة قرون .

وأهم ما في آثار ابن خلدون - بالنسبة لموضوعنا - مقدمته ، التي كانت وستظل منبعاً خصباً للدارسين في جميع فروع علم الاجتماع ، وهي وإن كانت كذلك فإن تناولنا لها في هذه الفصول ليس من ناحية العلم بل من ناحية الفن ، الفن الإصلاحي الذي يقوم على دراسة أحوال المجتمع دراسة دقيقة ومعرفة ما يناسبه من وجوه الإصلاح ، وما يتمشى مع رغباته ، وما يتعارض معها .

وإن أول ما يطالع المتصفح لمقدمة ابن خلدون يراه يعقد فصلاً تحت عنوان « المقدمة في فضل علم التاريخ » يحارب فيه الخرافات التي كانت منتشرة في زمانه ويضعها تحت مجهر العقل المدقق الفاحص ويناقشها بالحجة المنطقية ، فإن كان « فن التاريخ » فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم ، والأنبياء في سيرهم ، والملوك في دولهم وسياساتهم حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا ، فإن فناء كهذا « محتاج إلى مأخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وثبوت ، يفضيان بصاحبها إلى الحق وينسكان به عن المزالات والمغالط ، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الانساني ، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب ، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم » .

بعد هذا يعرض لنا العلامة ابن خلدون نماذج وأمثلة من الخرافات التي قال بها المؤرخون أمثال المسعودي وغيره ، ويتناولها بالحجج العقلية ، فيتبين له منها مقدار المبالغة في سردها وطريقة روايتها ، ولو أنهم « قاسوها بأشباهها وسبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار ، لما « ضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط ، سيما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر » .

فقد ذكر المسعودي وكثير من المؤرخين أن جيوش بني اسرائيل بعد أن أحصاهم موسى عليه السلام ، وأجاز من يطيق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها ، بلغوا ستمائة ألف أويديون ، وهذا العدد مبالغ فيه في رأى ابن خلدون لأن روايه ذهل عن تقدير مصر والشام ، ومقدار اتساعهما لمثل هذا العدد من

الجوش . زد على ذلك أن ملك الفرس ودولتهم كان أعظم من ملك بنى اسرائيل بكثير بدليل غلب بختنصر لهم ، والتهامه بلادهم ، وتخريبه لبيت المقدس قاعدة سلطانهم ، مع ما نعرف من عدم اتساع نطاق ملك بنى اسرائيل الى غير الاردن وفلسطين من الشام ، وبلاد يثرب وخيبر من الحجاز . ويفيض ابن خلدون في ذكر الحجج التي لا يتسع لها نطاق مقالنا ، بل نكتفي بما ذكرنا .

وقصة أخرى يتناولها فيلسوفنا بالتمحيص وهي التي ذكرها المفسرون في تفسير سورة الفجر في قوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد ، فيقولون إن إرم اسم مدينة ذات عماد ، فلقد كان لعاد بن عوص بن إرم ابنان هما شديد وشداد ، ملكا من بعده فهلك شديد ، فخلص الملك لشداد ودانت له ملوكهم ، وحدث أن سمع شداد وصف الجنة ، فقال لأبنين مثلها ، فبنى مدينة إرم في صحارى عدن في مدة ثلاثمائة سنة ، وكان عمره تسعمائة سنة ، فجاءت مدينة عظيمة قصورها من الذهب ، وأساطينها من الزبرجد والياقوت ، وفيها أصناف الشجر والانهار العذبة ، ولما تم بناؤها سار اليها بأهل مملكته ، حتى إذا كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا كلهم . هذا ما ذكره الطبري والثعالبي والزخشري وغيرهم من المفسرين . ويذكر ابن خلدون بعد ذلك ما نقلوه عن عبد الله بن قلابة من الصحابة أنه خرج في طلب إبل له فوقع عليها وحمل منها ما استطاع ، فلما بلغ خبره الى معاوية أحضره فقص عليه قصته ، فبعث معاوية الى كعب الاحبار يستفسره ، فقال كعب : هي إرم ذات العماد ، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال يخرج في طلب إبل له ، ثم التفت فأبصر ابن قلابة ، فقال هذا والله ذلك . هذه القصة وحواشيها ، وهي خرافة في رأى ابن خلدون . والذي حمل المفسرين على القول بذلك في رأيه ، هو ما اقتضته صناعة الإعراب في لفظة ذات العماد أنها صفة إرم وحملوا العماد على الأساطين ، فتعين أن يكون بناء ، وساعدهم على ذلك قراءة ابن الزبير عاد إرم على الإضافة من غير تنوين . والحقيقة هي أن العماد هي عماد الاخبية بل الخيام ، وإن أريد بها الأساطين ، فلا بدع في وصفهم بأنهم أهل بناء وأساطين على العموم بما اشتهر من قوتهم ، لأنه بناء خاص في مدينة معينة أو غيرها ،

وإن أضيفت كما في قراءة ابن الزبير فعلى إضانة الفصيلة الى القبيلة، كما تقول : قريش كنانة والياس مضر وربيعة نزار . ولا يرى ابن خلدون أية ضرورة الى هذا المحمل البعيد الذى تقصده أمثال هذه الحكايات الواهية التى ينزه كتاب الله عن مثلها بعدها عن الصحة .

وقصة ثالثة هى قصة العباسة أخت الرشيد وجعفر البرمكى وما ينقلونه من أن سبب نكبة الرشيد للبرامكة هو اختلاط جعفر بالعباسة . ولا ين خلدون فى هذه القصة دفاعان : دفاع عاطفى يقول فيه « فأين يطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها ؟ أو أين توجد الطهارة والذكاء إذا فقدنا من بيتها ؟ أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربى بمولى من موالى العجم بملكة جده من الفرس أو بولاء جدها من عمومة الرسول وأشرف قريش ، وغايتها أن جذبت دولتهم بضبعه وضيع أبيه ، واستخلصتهم ورقتهم إلى منازل الأشراف » . ودفاع عقلى يبرر فيه غضبة الرشيد على البرامكة لما كان من استبدادهم واحتجافهم أموال الجبائية لدرجة أن كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه ، فكانوا غالبين على أمره ومشاركين فى سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف فى أمور ملكه ، ولما عظمت آثارهم وبعد صيتهم عمروا خطط الدولة ومراتبها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها عن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابه وسيف وقلم ، زد على ذلك أن الناس ضجوا من هذه الحال وتهامسوا بها فى مجالسهم الخاصة وفى مجالس الرشيد ؛ فلقد أراد الشاعر أن يحرك حفيظته فدس على المغنين البيتين التالين :

ليت هنداً أنجزت ما تعد وشفقت أنفسنا مما نجد
واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

فلما سمعها الرشيد قال : « إى والله إنى عاجز ! » هذه هى الأسباب الحقيقية فى نكبة البرامكة كما يقول العلامة ابن خلدون : استبدادهم إلى درجة أثارت الحفيظة فى قلوب القوم ، وامتدادها إلى سمع الرشيد .

هذه بعض الأمثلة التى تدل على محاربة فيلسوف المغرب للخرافة ، ونظيره إلى حوادث التاريخ نظرة عقلية فاحصة ، وعدم مبالاته لاحد فى قول الحق . ومحاربة ابن خلدون للخرافة تعد فصلا من الفصول التى سنتابع نشرها بإذن الله ، بعنوان المقال ، فإلى اللقاء فى العدد التالى .

ابن رواحة

لفضيلة الاستاذ الشيخ كامل محمد عجلان

المدرس بالأزهر الشريف

صلى رسول الله الظهر ، وجلس في أصحابه يتحدث اليهم الى أن قال :
زيد بن حارثة أمير الناس ، فإن قتل فجعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب فعبد الله
ابن رواحة ، فإن أصيب عبد الله ، فليرتض المسلمون بينهم رجلا فيجعلوه عليهم .
وكان ذلك عقب اعتداء (شرحبيل بن عمرو الغساني) على حامل كتاب
رسول الله الى صاحب (بصرى) إذ قتله ونكل به .

ولما ندب النبي المسلمين لبوا وعسكروا ، وهناك عقد الرسول اللواء ودفعه
الى قائد الجند في غزوة (مؤتة) وهي قرية من أعمال (البلقاء) قرب دمشق الشام .
وسار جيش المسلمين من المدينة بعد أن ودعه النبي حتى نزل (معان) من
قرى الشام . وعلم المسلمون أن (هرقل) قد نزل (مأت) من البلقاء في مائة ألف
من جنود الروم المحاربين .

فكر المسلمون وتهميوا كثرة جيش الاعداء ، وأقاموا ليلتين ، وأرادوا أن
يكتبوا إلى رسول الله ليردهم أو يزيدهم رجالا ...

في ذلك الموقف الرهيب ، التفت عبد الله بن رواحة ، وذكر وصاة الرسول ،
وحضرته كلماته يوم ودعه الأمراء على الجيش ، وأدار في نفسه حديثا سمعه
من الرسول في لحظات (ثنية الوداع) ولم يلبث أن رفع صوته بشيء من حديث
رسول الله « اغزوا باسم الله ، في سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله ... » ،

ويمضى عبد الله بن رواحة يستعرض وصاة النبي جميعها ، ويطير به خياله الشاعرى إلى موقف جملة الإيمان ، ورفعت عليه القداسة ، ونفحته طيوب الجنة التى وعد الله بها الشهداء من المكافئين فى سبيل الله والداعين إلى نصرته دينة .
وخيل إلى عبد الله أنه بين يدى رسول الله فى المدينة .

ونسى مكانه بين الجند فى ربوع الشام ، وكأنه يسمع جواب الرسول حين طلب ابن رواحة منه أن يأمره بشئ يحفظه ويعيه ويعمل به فقال الرسول : يا عبد الله ! إنك قادم غدا على بلد السجود فيه قليل ، فأكثر السجود . ولما قال ابن رواحة : زدنى يا رسول الله ، قال النبي : اذكر الله فإنه عون لك على ما تطلب ...
وسرعان ما هتفت به دواعى القوة وألهمته ثورة الشجاع : إنها كلمات النبي وإنه عون الله . اهتز القائد الثالث ، والمؤمر على الجنود بعد (زيد وجعفر)
وانتفض فى الجموع ونادى بأعلى صوته ، وكأنه يرسل قصيدة من عاطفة مشبوبة ونفس مطمئنة :

نادى بأعلى صوته : يا معشر الجند « والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد ولا بكثرة سلاح ، ولا بكثرة خيول إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به .. انطلقوا انطلقوا والله لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا إلا فرسان ، ويوم أحد فرس واحد . فإنما هى إحدى الحسينين : إما ظهور عليهم فذلك ما وعدنا الله ووعد نبينا ، وليس لوعده خلف ، وإما الشهادة فنلحق بالإخوان نرافقهم فى الجنان ...

* * *

ولم يطل به القول إذ اندفع المسلمون وساروا قدماً إلى (مؤتة) وواجهوا المشركين ، ولم يبالوا جموعهم ولا عددهم ولا ذهيبهم ، والتقى الجيشان ، وقاتل الأمراء يومئذ على أرجلهم ، فأخذ اللواء (زيد بن حارثة) حتى قتل ، ثم أخذ اللواء جعفر ، فنزل عن فرسه وعرقبها - أى قطع عرقوبها وهو الوتر الذى خلف كعبها من مفصل القدم والساق وتلك عادة المحاربين إذا حمى الوطيس - ثم قاتل حتى قتل .
ثم أخذ اللواء (عبد الله بن رواحة) ودارت رحى الحرب الزبون
إنه (عبد الله) الأنصارى الخزرجى ، أحد النقباء الذين تقدموا بين يدى

رسول الله في (بيعة العقبة) واشترك مع المدنيين الذين عاهدوا الله ورسوله على حرب الأحمر والأسود في رفع شأن الدين، ولم يغادر خيالهم ظل الجنة من يوم أن وعدهم الرسول وقت المبايعة على الجهاد .

ومن للجهاد غير عبد الله، صاحب السيف الباتر، واللسان الشاعر، ولقد باع نفسه لله ورسوله وللدفاع عن المسلمين، وشهد (بدرآ) و غَزَا في (أحد) ، وحضر غزوات (الخندق) و (الحديبية) و (خيبر) ، وكان مطافه الأخير الاستشهاد في (مؤتة) .

إنه الجندي الذي أخلص نفسه لدين الله ، وتأدب على يدى رسول الله ، حتى حظى بمنزلة الأئير بين الصحابة ، وناله الرضا الراضى من النبي
أتى مرة إلى الرسول وهو يخطب ، وقبل أن يصل إلى جموع الصحابة تستمع في المسجد دوى في أذنه قول النبي : اجلسوا . . . وكان عبد الله لما يزل خارج المسجد ، فجلس في مكانه لا يتحرك ، وسمع من بعيد حتى فرغ النبي من خطبته .
ولما أخبر الرسول بذلك قال داعياً لعبد الله : « زادك الله يا عبد الله حرصاً على طواعة الله وطواعة رسوله » .

إذا كان ابن رواحة ثالث ثلاثة من حملة الألوية يوم (مؤتة) فهو ثالث ثلاثة من الشعراء : هم حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وابن رواحة ، وهم من هم بلاء في الذود عن رسول الله ورد السنة الكفار ؛ وشعره ألقى ما لقي المشركون ، لأنه الميسم الذي أذل جبين المعاندين للدعوة بعد أن هدأت نغمة الجاهلية ، وتطامنن للإسلام .

إنه الشاعر الذي صور شعره بأس المحارب ، وسماحة الصديق ، ودماثة الرفيق .
ولقد عاش عبد الله مثلاً شروداً في لين الجانب ، وحسن المعاشرة ، وموضع حب الأصدقاء .

قال أبو الدرداء « أعوذ بالله أن يأتي على يوم لا أذكر فيه ابن رواحة ؛ كان إذا لقيني مقبلاً ضرب على صدرى ، وإذا لقيني مدبراً ضرب بين كتفي ؛ ثم يقول ملاطفاً : يا عويمر اجلس فلنؤمّن ساعة ، فنجلس فنذكر الله ما شاء ، ثم يقول : يا عويمر « هذه مجالس الإيمان » .

وكذلك كان الرسول يحبه ويدعو له ... أنشد يوما قوله :

إني تفرست فيك الخير أعرفه والله يعلم أن ما خاتني البصر
أنت النبي ومن يحرم شفاعته يوم الحساب فقد أزرى به القدر
فثبت الله ما آتاك من حسن في المرسلين ونصرا كالذي نصروا
فقال له الرسول « وأنت فثبتك الله يا ابن رواحة » ! .

ولقد ثبته الله في (غزوة مؤتة) واستهان بالحرب لايياليها ، وورد الموت
كأنه يساق إلى لقاء حبيب .

وكان يتشوق وجه الاستشهاد . وفي ليلة ساجية قبل أن يصل إلى المعركة جعل
يهزج ويخاطب راحلته التي ستبلغه ، ويتمنى أن ترجع إلى أهله دونه ، فقال :

إذا أدنيتني وحملت رحلى مسيرة أربع بعد (الحسام)
فشأنك فالنعمى وخلاك ذم ولا أرجع إلى أهلى ورأى
وجاء المؤمنون وغادروني بأرض الشام مشهور الثواء
وردك كل ذى نسب قريب إلى الرحمن منقطع الإخاء
هنالك لا أبالي طلع بعلل ولا نخل أسافلها رواء

إنه لا يحب إلا الاستشهاد ، ولا يبغى الرجوع إلى نخيله في المدينة حيث يلتقي
أهله وعشيرته لأنه يريد الجنة .

حتى إذا أشفق عليه أحد رفاقه وهو (زيد بن أرقم) ، وكان في رعاية عبد الله
وتوقع مصيره فبكى . فقال له : وما عليك إذا رزقني الله الشهادة ورجعت أنت ؟
ولا غرابة فانه ابن رواحة الذي بكى يوم ودعه النبي وودع أمراء الحرب
فقليل له : ما ييكيك وأنت أنشطنا للحرب ؟ فقال : والله ما بي حب الدنيا ولا
صباية إليها ، ولكنني سمعت رسول الله يقرأ : « وإن منكم إلا واردها كان على
ربك حتما مقضيا » . ولست أدري كيف لي بالصدر بعد الورد .

ثم أنشد شعرا منه :

لكنتي أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرع تقذف الزبداء
أو طعنة ييـدى حران مجهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبداء

حتى يقولوا إذا مروا على جدتي يا أرشد الله من غاز وقد رشدا

ولم يزل يحمل على نفسه ويهزج في المعمة بعد قتل جعفر وزيد :

يا نفس إلا تقتلي تموتي

هذي حياض الموت قد صليت

وما تمنيت فقد لقيت

إن تقبلي فعليهما هديت

وإن تأخرت فقد شقيت

ثم التفت إلى نفسه وسيفه أثناء المعركة وقال :

يا نفس إلى أي شيء تتوقين ؟ إلى فلانة ؟ يعني زوجته ، فهي طالق ، وإلى

فلان وفلان ؟ يعني غلاميه ، فهما حران ، وإلى (معجب) يعني حائطا له أي بستانا

فيه نخل غزير ؛ فهو لرسول الله .. ثم قال :

يا نفس

مالك تكرهين الجنه

أقسم بالله لتنزله

طائفة أو لتكرهه

فطالما قد كنت مطمئنه

ونزل إلى ميدان القتال وقاتل حتى طعن ، فاستقبل الدم بيده فذلك به وجهه

ثم صرع بين الصفيين ، فجعل يقول : يا معشر المسلمين ذبوا عن لحم أخيكم . وراح

المسلمون يحملون على الأعداء فلم يزالوا كذلك حتى مات مكانه .

وبذلك استشهد عبد الله بن رواحة الشاعر الفارس ، والذي عاش طول حياته

يعشق الجنة ، فيكون أول خارج إلى الغزو وآخر قافل منه

فسلام عليه في جنات النعيم ، وسلام عليه في الشهداء الى يوم الدين ؟

أسرار الفصل والوصل

في المفردات والجمال

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد محمد سلو
إجازة التدريس من كلية اللغة العربية

هذه دراسة جديدة لأحكام المفردات والجمال في البلاغة العربية من حيث عطف بعضها على بعض أو تركه ، وهي تقوم على أسس دقيقة ، وأحكام واضحة ، ولا يضيرها أنها تخالف آراء القدماء ما دام طابعها التفكير السليم ، والسلامة من الخطأ والتناقض ، والتجديد الشامل في دراسة هذا الموضوع البلاغي الدقيق .

أساس هذا البحث

أساس بحثي في هذا الموضوع يرجع إلى قاعدة منطقية سليمة متبعة في جميع الفنون ، وهي « إن الأشياء المشتركة في مظهر من المظاهر ، مندرجة تحت وصف عام هو السبب في اتحاد ذلك المظهر » .

وباتباعنا هذه القاعدة الواضحة أمكننا أن نبين أن الوصل سببه واحد ، والفصل سببه واحد ؛ كذلك أمكننا أن نبين السبب الحقيقي لحذف الواو وذكرها ، وأن ذلك ليس راجعاً إلى الانشائية والخبرية كما ذكر القدماء ، بل أصبح الموضوع كله يتلخص في كلمة واضحة دقيقة ، وهي « كل متجاورين في المفردات والجمال لا بد وأن يكون بينهما صلة ، فإذا كانت هذه الصلة واحدة غير متكررة حذفنا حرف العطف ، وسمى ذلك : اتحاداً ؛ وإذا تكررت عطفنا وسمى ذلك : تكراراً .

وبهذه الطريقة الجديدة أمكننا :

أولاً : تفسير هذا الموضوع تيسيراً تاماً بإفراغه في قاعدتين فقط ، بدلاً من هذه الكثرة المتشعبة .

ثانياً : تجنب التناقض كما كان في القواعد السابقة .

ثالثاً : إرجاع الأحكام إلى أسبابها الحقيقية بدلاً من أسباب وهمية ظهر تناقضها وعدم شمولها .

وقد عرضت بإيجاز بحثي هذا ، وهو على إيجازه واضح في عرض أفكاره ، ليكون هذا أدعى إلى تقبل الناقدين لنقده .

نتائج هذا البحث

رأيت أن أذكر هذه النتائج الخطيرة أول البحث ليلحظ الناقد أثناء قراءته تحقيقها فيه .

وها هي النتائج :

أولاً : اتحاد المبني يدل على اتحاد المعنى :

قد جمعت بين متفرقات اتحدت ظواهرها ، وبيّنت أن اتحاد اللفظ فيها إنما ينشأ من اتحاد الملاحظة ؛ فبيّنت أن حذف العاطف بين أى جزئين ، سواء كانا مفردين أو جملتين أو مفرداً وجملة ، إنما ينشأ من اتحاد الصلة ، وأن ذكر الواو إنما ينشأ من تكوُّنهما ؛ فكل ماسمونه كمال الاتصال وكمال الانقطاع وشبههما والتوسط بين السكالين مع عدم التشريك في الإعراب أو الحكم ، كل ذلك ما هو إلا شيء واحد وهو « الاتحاد » . وثلاثة أنواع الوصل ما هي إلا شيء واحد وهو « التكرار » . وبيّنت أن واو المفعول معه كواو العطف ، تدل على تكرار الصلة ، وأن الجملة الحالية — كما يسمونها — المقترنة بالواو ليست حالية وإنما هي معية ، وأن الحال مفرداً كان أو جملة لا يقترن بالواو ، وأن المصاحب مفرداً كان أو جملة يقترن بها .

ثانيا : المساواة بين المفردات والجمال في العلاقات :

بينت أنه لا فرق بين المفردات والجمال في العلاقات ، وأن الجمال المجتمعة تكون جملة كبرى ما هي إلا كالمفردات المجتمعة لتكون جملة ، وأن الكلام يتكون من طوائف بعضها مركب من بعض ليصبح الجميع وحدة مجتمعة قائمة متساندة .

ثالثا : كل متجاورين لا بد وأن يكون بينهما علاقة ، هذه العلاقة تؤثر

في العطف :

كانوا يجعلون بين الجملتين في آية واحدة من آيات الكتاب العزيز : كمال الانقطاع . ولما أحسوا بشطط هذه التسمية قالوا : ليس المراد كمال الانقطاع الحقيقي فلا بد من مناسبة ، ولكن ما هي هذه المناسبة ، وهل تؤثر في العطف ، وهل تترك اللغة العربية الدلالة على العلاقة في مجموعة واحدة ؟ .

لم يبينوا شيئا من ذلك ، فبينت هذه المناسبة ، وبينت أنها لا بد وأن تؤثر في العطف وعدمه في كل أجزاء الموضوع صغرت أو كبرت ، وبينت أن بعض ماسمونه - كمال الانقطاع - هو في الحقيقة كمال اتصال ، وأن كمال الانقطاع لا يكون إلا بين موضوعين لا علاقة بينهما ، لا بين جماعتين في موضوع واحد .

رابعا : المعول عليه في الربط هو الصلة ، لا الانشائية ولا الخبرية ، ولا اتفاق

المتجاورين مدلولاً أو تخالفاً :

بينت أن المعول عليه هو الصلة ، فإذا كانت واحدة ، سردت الأجزاء بعضها وراء بعض بدون رابط تحت اسم : الاتحاد ؛ وإذا تكررت وأردت مجرد الجمع ذكرت الواو تحت اسم : التكرار . ولا يهمنا بعد ذلك اتحدت خبراً وإنشاء أم اختلفت ، ولا يهمنا كذلك اتفقت المتجاورات مدلولاً أم اختلفت ، كما هو مبين في البحث .

مدرسة النقد الادبي

لفضيلة الاستاذ الشيخ عبد السلام أبو النجا سرحان
المدرس بكلية اللغة العربية

في العصر الأموي :

ومع أن القرآن الكريم كان معينا فاض بالخير الكثير على اللغة العربية وآدابها ، وكوثر أذبا نهل منه المسلمون فظهر على أسلأت ألسنتهم أسلوبا رائقا ، وعبارات موفقة ، وشعرا كله سلاسة وفصاحة وبيان - لم يكن عصر الخلفاء الراشدين كافيا لظهور أثره الأدبي في الشعر والنثر ، وإنما وضح ذلك في العصر الأموي ، وبرزت آثاره في خلاله .

الاتحاد والتكرار

الاتحاد : أن تكون الصلة التي في المتجاورين واحدة ، مثل أعجبنى محمد عليه .
فهنا اتحاد بين محمد وعليه ؛ وحينئذ يؤتى بهما بدون حرف عطف نظرا لاتحادهما ، لأن المعنى أعجبنى محمد ، والمعجب منه عليه ، فليس معنا إلا إعجاب واحد صدر مرة واحدة ؛ فالإعجاب القائم بمحمد هو بعينه الإعجاب القائم بالعلم ، ولذلك جرى بمحمد ، وعليه بدون حرف عطف بينهما نظرا لاتحاد الصلة وهي الإعجاب .

التكرار : أن تكون الصلة التي في المتجاورين متكررة ، وإن كانت من جنس واحد ولم يقصد غير مجرد الجمع بين المتجاورين تحت ذلك الجنس ، مثل أعجبنى محمد وعلی ؛ فهنا تكرار بين محمد وعلی ، وحينئذ يؤتى بالواو للدلالة على ذلك .
والصلة : هي ما في الألفاظ المتجاورة من معنى هو السبب في اجتماع هذه المتجاورات ، كالحديث في الفعل وفاعله ، وكالاخبار في الألفاظ الواقعة خبرا ، كما سيتضح في كل ما يأتي من الأمثلة :

والآن بعد أن ذكرت التعريفين ووضعتهما بمثالين يجدر أن أنتقل إلى ذكر جميع أنواع الأمثلة في المفردات والجمل ليتضح اندراجها تحت هذين التعريفين ؟

وقد اتسعت أرجاء الدولة في هذا العصر ، ودخل الاعاجم في دين الله أفواجا ، وبدأ التمازج والاختلاط يؤتى أكله ، فتزوج العرب بالأعجميات ، وحدث العكس لكن بقلّة ، وودع العجم مجدّهم السياسي واستعاضوا عنه بالمجد العلمي ، فظهر الموالي في العلوم والمعارف ، واستولوا على مقاليد الحياة الثقافية ، واستتبع ذلك كثرة اللحن في لغة التخاطب ، وبدت الحاجة أكثر الى صنع على بن أبي طالب وأبي الأسود الدؤلي ، بعد أن لانت السنة بعض الفصحاء المشهورين كخالد بن عبد الله القسري الخطيب للحانة العظيم [ص ١٣٣ > ١ رغبة الآمل] بل لقد خشي عبد الملك ابن مروان على نفسه من اللحن وقال كلمته المشهورة - حين شد أسنانه بالذهب - « لولا المنابر والنساء ما باليت متى سقطت » [ص ١٦ > ١ البيان والتبيين] .

دعت هذه الحاز الى اتساع مدى النقد ، وإلى الجد في صد سيل العجمة الجارف ، والمحافظة على العربية وآدابها ، وإعطائها السلطان المطلق على الحياة العامة والخاصة ؛ وقد وجدت لغة الضاد في أكناف الامويين ورعاية ملوكهم وأمراءهم أكبر عضد دفع عنها عادية الحوادث ، ولقيت في رحابهم أعظم سند رد عنها غوائل الزمن ، إذ تعصبوا لكل ما هو عربي ، وأشعلوا نار المنافسة بين الشعراء ، وأطلقوا العنان للعصبيات القبلية فأعادوها جذعة ، وأيقظوا الفتنة بين القبائل ، وفتحت قصور الخلفاء ومن دونهم للبرزين من الشعراء والادباء والعلماء ، وأجيزوا جوائز لم يحلوا بها قبل ذلك .

وهكذا اشتعل أوار الحركة الأدبية ، واشتدت المنافسة بين الشعراء ، وفتح باب الهجاء على مصراعيه بعد أن أوصده عمر بن الخطاب ، وأوقد الخلفاء أنفسهم جذوة الخصومات ، وظهر التفاخر بالأحساب والأنساب .

وقد تبع ذلك ازدهار مدرسة النقد في هذا العهد ، وكثرة تلاميذها كثرة فائقة ، وانتشار فصولها في كل مكان ، وكانت مجالس الخلفاء والأمراء أكثر هذه الفصول نشاطا وأعظمها اتساعا ، وانتشر النقد حتى بين العوام ، وحذقته الجوارى والصبيان ، وكان عبد الملك بن مروان وأبناؤه أظهر عمداء هذه المدرسة ، كما كان الولاة والاعيان من أكبر أساتذتها ، وشهدت المساجد كثيرا من حلقات النقد واجتماعات الادباء ، وكثرت المناقضات بين الشعراء ، وأشهرها مناقضات الفرزدق وجرير ، وعاد ذلك على الادب بالخير الكثير .

في العصر العباسي :

ولقد كان العصر الأموي بمثابة الدور المتوسط لمدرسة النقد الأدبي، كما كان صدر الاسلام بدم النمو، والعصر الجاهلي بدم التكوين .

أما العصر العباسي فكان عصر التخصص والتوسع والتعمق والانتشار السريع؛ ففيه أثمرت شجرة الدراسة النقدية وآتت أكلها طيبا، وازدانت الحياة الأدبية بالثمار الياقة والقطوف الدافئة، وفيه ظهر رجال النقد وصار لهم سلطان ودولة، واستطاعوا أن يؤثروا في اتجاه الأدب وأن يقفوا سدا منيعاً أمام الثورة الجاححة على أساليب العرب الشعرية، فهاهم الشعراء واطمأن إليهم الخلفاء، ونزل الجميع عند نقداهم إلا بعض الخلفاء والمجان .

وقد خطوا الخطوة الأخيرة في سبيل غايتهم، فدونوا قانون البيان العربي، ووضعوا الرسوم والحدود أمام الشعراء ليقفوا عندها ولا يتخطوها بحال .

لهذا هرع الناس نحو مدرسة النقد الأدبي يرشفون من رحيقها سلسيل البيان العربي، وسلافة الروح الأدبي، ويتذوقون أفويق البلاغة، ويكرعون من حياض الفصاحة، ومن شمس به طبعه فلم ينهل من موردها العذب ونيرها الصافي فلا ثقة بأدبه ولا اعتداد بمذهبه .

ومن الواضح أن الحاجة الشديدة هي التي أكبرت من شأن هذه المدرسة، فقد اشتد الاشتباك بين العرب والعجم، وامتزجت أيما امتزاج ثقافات الأمم المختلفة التي خفق عليها لواء الإسلام أو خضعت لسلطان المسلمين، ونشأ من كل هذا آثار سيئة واتجاهات هدامة للإسلوب العربي، فأصبحت لغة التخاطب مزيجاً من العربية واللغات الأخرى، وشاع الجهل باللغة فيما بين الخاصة، حتى إن الخليفة المعتصم جاءه كتاب من أحد عماله وقرأه عليه وزيره أحمد بن شاذي، وكان فيه لفظ « الكلاء » فسأله المعتصم : ما الكلاء ؟ فقال الوزير : لا أعلم ، فقال المعتصم متحسراً : « خليفة أمي ووزير عاى ١٩ إنا لله وإنا إليه راجعون ! » [ص ٢١٢ ج ٣ زهر الآداب] ولم يشف غلته إلا محمد بن عبد الملك الزيات الكاتب، وكانت هذه الحادثة سبباً في عزل ابن عمار وتولية ابن الزيات الوزارة [ص ٧١ ج ٢ وفيات الأعيان] .

وتدل الدراسة الأدبية على أن حركة النقد كانت عفيفة جداً ، وأن الجدل كان شديداً بين علماء اللغة من جهة ، والشعراء المأخوذين بمظاهر الحضارة والثقافات الجديدة من جهة أخرى .

لهذا تعددت مجالس النقد ، وكثرت مجامع الأدب ، وقام التنافس بين العلماء والأدباء والشعراء ، وظهرت مذاهب مختلفة في النقد الأدبي ، وأدى الأمر في النهاية إلى تدوين قواعد النقد ، وأصبح علماء ذا أصول وقواعد ، وتمخضت هذه الحركة عن مولود جديد تطور على الأيام حتى استقر في علوم البلاغة على يد الإمام عبد القاهر الجرجاني ورجال عصره .

ومن الصعب على الباحث أن يحصر عمداء المدرسة في هذا العصر أو يعدد أساتذتها وفصولها ، فقد كانت الدولة كلها ميداناً للكفاح العلبي والنقد الأدبي ، وكان على رأس عمدائها أوائل الخلفاء العباسيين ، خصوصاً المنصور والمهدي والرشيد والمأمون الذين غدوها بعلمهم وعضدوها بمالهم وخبرتهم الواسعة واطلاعهم على ألوان الأدب وأفانينه ، وما كان لهم من دقة الإحساس وسلامة الذوق .

وقد أنتجت مدرسة النقد الأدبي - في هذا العصر - إنتاجاً ضخماً ، وتركت تراثاً عظيماً ، وخرجت كثيراً من أعلام العلم والأدب عرباً وأعاجم ، وقامت على أيديهم نهضة فذة في التاريخ الأدبي ساعد ازدهارها عتميتهم الراضخة بأنهم إنما يخدمون بذلك دستور دينهم الخالد : كتاب الله وسنة النبي العربي الذي بعثه الله في الأميين رسولا .

تنبيه على خطأ مطبعي

وقع في العدد قبل هذا في ص ٥٢٦ السطر ٤ في مقال « ابن مضاء القرطبي » : « وبعضهم يرى أنها لا عمد لها لا ترى » وصواب العبارة : « وبعضهم يرى أنها لها عمد لا ترى » .

تقــاريظ

موسى عليه السلام

هذا كتاب يقع في نحو مائة وثمانين صفحة بالقطع المتوسط وضعه فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الحميد مطاوع المدرس بالأزهر في تاريخ موسى عليه السلام ، وقد أهداه إلى النبي صلى الله عليه وسلم صنوه في الجهاد والبلاء والعزم والتضحية ، وقد حدا فضيلته إلى وضع هذا الكتاب حفول حياة كليم الله بالحوادث فقال : « عنَّ لى أن أرجع بالبصرة إلى فترة نأت عنا ببعيد ، وأشرقت فيها شمس كليم الله موسى عليه السلام ، ذى العزم والبطش العتيد ، فبددت طغيان فرعون وملئه ، وحفلت بالحوادث الجسام بين موسى وقومه ، وتوالت فيها آيات الله ظاهرة جليلة ، وازدهرت فيها معجزات موسى عليه السلام مفحمة مرضية ؛ فهفت نفسي إلى نظم عقد حياته عليه السلام حلقة حلقة ، وإيضاح الحوادث في عهده حادثة حادثة . »

وقد وفى فضيلته بما وعد ، فنشكر له هديته ، ونثنى على عنايته بطبع كتابه طبعة راقية .

المحفوظات الأزهريّة

وضع فضيلة الأستاذ الأملعى الشيخ أحمد الشرباصى المدرس بالأزهر كتابا تحت هذا الاسم ذكر فيه أن درس المحفوظات درس ضائع فى الأزهر الشريف والمعاهد الدينية ، وقد هاله هذا التضييع ، فأراد أن يعرف سره فرأى من أكبر أسبابه أن قطع المحفوظات تعاد وتكرر فى مختلف الفصول حتى ملها الطلاب ، وسنة الحياة التجدد . ومن العجيب أن البرنامج الدراسى ينص على ذلك فىقول : يراعى أن تجدد المحفوظات فى كل عام بقدر الامكان ؛ لذلك أراد فضيلته أن يضع للطلاب مجموعة تضم قطعاً مختارة من النظم والشعر تجمع بين القديم والجديد من الأدب ؛ وذيل كل واحدة منها بالتعريف بصاحبها ، وشرح مفرداتها وأبياتها بإيجاز ، تاركا للمدرس ما يناسب المقام من التفصيل والتحليل والنقد .

وقد اطلعنا على ما أتى به من القطع الثرية والشعرية فوجدناها من أحسن ما يختار للناطقة من الأزهريين وغيرهم . فنثنى على عنايته ، ونرجو له زيادة من التوفيق .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سر إخلاص المسلم لدينه — منافاة الشيوعية والاشتراكية
لمبادئ الاسلام

أسئلة

موجهة إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر

من الصحفي الأمريكي ١.١. دوروينيان

والاجوبة عليها

لقد تأثرت تأثراً عميقاً بما لاحظته من تحمس المصري العادى لدينه ،
وحرصه على أداء صلاته كل يوم في حينها ؛ الأمر الذي لا يفعله إلا قليل من
المسيحيين ؛ وبذلك أود أن تسمعوا مشكورين بالإجابة على الأسئلة الآتية :

س ١ — ما الذي يدفع المسلم الى الإخلاص لدينه على هذه الصورة :
هل هو دافع غريزي شخصي أو دافع الدين ؟ هل السر في ذلك هو التعليم الأولى
الذي يتلقاه المسلم سواء كان دينياً أو غيره ، أم تأثير الوالدين في النشء ؟
وبالجملة ما هي العوامل في هذا الشعور ، وما أهمها في رأيكم ؟

ج ١ — الإسلام دين الفطرة ، فهو دين طبعى يفقد الى النفوس الفطرية من
غير مشقة ولا إجهاد فكر ؛ وذلك لأنه دين يدعو أصحاب العقول الى أعمال
فكرتهم في حقائقه ، ويتسع الى المناقشات العقلية والمنطقية ، لا يتوارى عنها ،
ولا يستتر دونها بستر شكلي . ومن أجل ذلك ترى المصري العادى يتلقاه عن
رضا واقتناع ، ويؤمن به إيماناً راسخاً كأنه ضرورة من ضرورات حياته ، ووسيلة
متفردة في إسعاده . وقد يساعد على ذلك عوامل كثيرة ، منها ما يرجع الى التربية

والتعليم تحت تأثير البيئة ولون الحياة التي يحياها المصرى العادى ؛ ومنها ما يرجع الى الاستعدادات الموروثة والدوافع الشخصية الداخلية ؛ ومنها ما أشرت اليه فى اختصار من أن الاسلام دين يعتقد ، لا دين يملئ إملاء . وسأفرد فيما يلى لكل حالة من الحالات التى ذكرتها كلمة يسيرة تزيد فى إيضاح ذلك ، وتكشف عن حقيقته .

(١) الدين الإسلامى دين ذو قواعد سهلة واضحة لا تعقيد فيها ولا التواء . فالعبادات الدينية فيه عبادات يقوم بها المسلم لربه فى أى مكان ، يسرّ فى ذلك أو يعلن . والله سبحانه وتعالى طالب العبد فى عبادته أن يقف بين يديه منه إليه من غير واسطة ، وجعل مقام ذلك العبد إن كان تقيا فى عبادته مخلصا لله فيها أكرم مقام وأعز موضع ، فقال تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، لا فرق فى ذلك بين أعجمى أو عربى ، شرقى أو غربى . فكرم المرء عند الله بعمله يقرب منه سبحانه به ، وبعده عن الله بعمله إن كان شرا ، يخرج به عن رضاه ، ويستحق بشروره غضب الله فى الدنيا ، وعقابه بالمار فى الآخرة .

لكل ذلك ترى المسلم حريصا أن يكون قريبا من ربه كريم الموضع عنده ، وما أخف الوسيلة إلى ذلك وأهونها على النفس ! فقد يسر الله على عباده هذه التكاليف ، وما حملهم شيئا فوق طاقتهم ولا أرهقهم ، بل راعى سبحانه وتعالى الرأفة بعباده ، فكان رفيقا بهم فى تكاليفه ، مترخصا لهم فى حالاتهم التى تعرض من شدة أو عناء ، فقال تعالى « لا يكلف الله نفسا إلّا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ، حتى لقد دعا سبحانه وتعالى كثيرا ممن أسرفوا على أنفسهم أن يعودوا إلى رضاه ، وهو غافر لهم الخوبة ، قابل منهم التوبة ، فقال عز من قائل « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم . وأنيبوا إلى ربكم وأسلوا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون » وقال تعالى « يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون . وجاهدوا فى الله حق جهاده ، هو اجتباكم ، وما جعل عليكم فى الدين من حرج » .

(٢) إن المتتبع لطبائع المصريين والباحث فى دوافعهم النفسية واستعداداتهم

الموروثة من أجيال طويلة مضت ، يقرر أن لها أكبر الأثر في الإقبال على العبادات ، والقرب من الله ، والإخلاص في دعائه سبحانه وتعالى ، وخصوصاً حينما تحمل بهم الشدائد ، أو تحزبهم الكروب ؛ فما أسرهم حين يتوجهون إلى الله سبحانه وتعالى ضارعين إليه أن يفك أسرهم ، ويفرج كربهم ، يخضعون في ذلك إلى قوله تعالى « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لي ، وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون » ، وقوله تعالى « هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين » .

(٣) أما التعليم والتربية فإني أعتقد اعتقاداً قوياً في أثرهما في ذلك الإخلاص القوي ، والتفاني في الطاعة لله سبحانه وتعالى ؛ وذلك لأن التعليم الديني في مصر كان هو السائد في القرى والمدن ، فقد انقضت حقبة طويلة والتعليم في المكاتب والمدارس أساسه حفظ القرآن الكريم وترتيبه ، وما كان يتعلم بجانبه من الكتابة والقراءة لم يكن إلا وسيلة لقراءة كتاب الله واستظهاره ، وحين تدرج التعليم في مصر حتى اشتمل التعليم المدني في مراحله الابتدائية والثانوية والعالية ، كان غداء هذه المدارس الجديدة المتخرجين في المكاتب التي قلت إن التعليم فيها يقوم على أساس قراءة كتاب الله وحفظ ما يمكن حفظه منه ؛ وما تجردت برامج الدراسة في المدارس الابتدائية والثانوية من دراسات كافية للبداء الدينية في كل فرعها ؛ فلنأخذ دائماً على تحفيظ بعض آي القرآن زيادة على دراسة المبادئ الدينية الكثيرة . على أن التدرج في إنشاء هذه المدارس المدنية لم يحرم البلاد المصرية خاصة والبلاد الإسلامية عامة من المحافظة على أكبر معبد ديني له الأثر الكبير المشكور في شرح قواعد الدين وبيان عقائده ؛ ذلك هو الأزهر الشريف ، الذي له الفضل الأكبر في الاحتفاظ بالآثار الصالحة المتوارثة عن السلف من كبار المسلمين ورجال العلم منهم ؛ فقد بقي أكثر من ألف عام وهو ينبوع الفياض الذي تتفجر منه عيون الحكمة الإسلامية ، وتفيض من جوانبه جداول المعرفة في كل ناحية من نواحي العلم والدين والثقافة الإسلامية . ولا أكون مبالغاً إذا قلت : إنه هو المعهد الوحيد الذي حفظ للسنن تراثهم ، وأبان لهم سبيلهم ، وأوضح أمامهم معالم الحق ، وجنبهم مسالك الضلال ؛ وأنه إلى عهد

قريب جدا كان المعهد الوحيد الذى أخرج للمصريين من قامت بأفكارهم نهضاتها ومن استحدثت بهم مصر أسس حضارتها التى يحنون ثمارها الآن .
ومن كل ذلك يتبين لك من غير خفاء أن التعليم الدينى كان ولا يزال سلطانه غير محدود على النفوس المصرية ، يدعوهم الأزهر إلى الاحتفاظ بدينهم ، والإخلاص لربهم من أول إفشائه إلى وقته الحاضر ، ولم يكن بعد ذلك موضع للعجب من تفانى المصريين فى حبهم لربهم وإخلاصهم لدينهم ، وسيق ذلك إن شاء الله مابقى الأزهر ، وما بقيت النفوس خالية من الهوى والغرض .

س ٢ — إننى لست مقتنعا بما قيل من أن الشيوعية لا تستطيع أن تتسلل بين المسلمين . وهنا أود أن أنوه لفضيلتكم بأن كنيسة الروم الكاثوليك تعترض بشدة على هذا الشر ، ومع ذلك فإن كثيرا من الزعماء المسيحيين وخاصة فى إيطاليا الكاثوليكية قد انقلبوا شيوعيين وناصبوا الكنيسة العدا ، أو استمروا فى التردد على الكنيسة فى أيام الآحاد ولكنهم يعملون للشيوعية فى أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت . ولست مقتنعا بما أعلن من أن المسلم الطيب لا يمكن أن يصبح شيوعيا ، لأن هذا هو عين ما قاله البابا عن الشيوعية ، ثم لم يلبث المسيحيون أنفسهم أن خالفوه . على أنه فى حالة ما إذا كانت إجابتكم بالمثل ، هل لى أن أسأل فضيلتكم عما إذا كنتم قد اتخذتم فى الأزهر تدابير خاصة ضد الشيوعية ، مثل إصدار تحريرات معينة ضدها ، أو الإشارة إلى الوسائل التى يمكن التعرف بها على الشيوعية ومكافحتها ؟ .

ج ٢ — لقد داخلك الشك فى أن الشيوعية لا تتغلغل بين صفوف المسلمين ولا أمنحك عذرا فى هذا ؛ لأنك لو عرفت الدين الإسلامى وكيف كفّل للمسلمين التساندا الاجتماعى ، وأن واجبا محتوما على كل واحد منهم أن يأخذ بيد أخيه المسلم ، وأن يقف حاجزا بينه وبين الحاجة وما تستدعيه ضرورات الحياة ، لما توانيت لحظة فى الإذعان معنا فى أن الإسلام هو الصخرة التى ترتطم بها أمواج الشيوعية ثم تنحسر عنها واهنة مخذولة إن شاء الله . وحتى أوضح لك ما أجملته أقول :

قلت لك : إن الإسلام كفّل للمسلمين التساندا الاجتماعى ، وما يقيهم شر الحاجة ، ويدفع عنهم مطالب الأيام . وسيله فى ذلك :

أولا — أنه فرض على كل مسلم أن يجعل لله حقا فى ماله ، سواء أكان ذلك

المال زروعاً، أو حيواناً من إبل أو بقر أو غنم، أو عروض تجارة، أو ذهباً أو فضة، أو مالا مقبوماً من أى نوع، بشرط أن يقيض عن حاجة المسلم من النفقة عليه وعلى عياله، ومن تجب عليه نفقتهم، وألا يكون مطالباً به في دين أو نحوه، وقد يبلغ ذلك الحق عشر المال أى ١٠٪ ثم حدد أيضاً وجوه الصرف لهذه الأموال التي تجتمع لدى بيت المال، وجعل مصارفها الفقراء والمساكين، ومن اقتطعت بهم السبل، ومن أغرقهم دين لم يكن مسبباً عن معصية الله، وغيرهم مما هو ثابت في الدين ومعروف من مأخذه. ولقد طالب الله سبحانه وتعالى المسلمين بدفع هذه الزكاة في مواضع كثيرة، ولم ترد في القرآن آية من الآيات التي تدعو المسلمين إلى إقامة الصلاة إلا ممترونة بدعوتهم إلى إيتاء الزكاة. فالزكاة والصلاة في الإسلام ركنان من الأركان التي قام عليها الإسلام، ودعامتان متينتان بنى عليهما ديننا القوي. من ذلك قوله تعالى « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة »، و « ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ». و « يأبى الذين آمنوا أن ينقذوا من طبيبات ما كسبتهم وبما أخرجنا لكم من الأرض ولا يقيموا الحديث منه تنفقون ». و « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، والذين هم للزكاة فاعلون ».

ولولا أنى لا أجد في مثل هذا المقام متسعاً لسرد كثير من الآيات التي تحتم على المسلمين أداء الزكاة كلها استحققت، لأفضت في البحث معك ولأطالت، ولكننى سأجتزئ بعد ما ذكرت بما أقص عليك من حادث خليفة المسلمين الأول أبى بكر الصديق، وكيف أنه قام في أشد أوقات المسلمين وأعصبها، بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم، بإعلان حرب شعواء على كل من امتنع عن تأدية هذا الفرض؛ وتحمل في سبيل ذلك تعريض المسلمين لهول فزع منه من كانت لا تفزع الخطوب ولا تزعزعه الحوادث، خليفة المسلمين عمر بن الخطاب المعروف بشدته في الدين وعدم الهوادة فيه، فجاء أبى بكر يطلب إليه التريث في إعلان هذه الحرب حتى تمر الشدة التي هم فيها؛ ولكن صرامة أبى بكر في دينه وتقانيه في الإخلاص لأركانه ودعائمه، دفعاه إلى ألا يتألى بمكروه يقع فيه وقال له: والله لو منعوني عمال بغير كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه أو أهلك دونه! وقال: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة

والزكاة ! . وخاض غمار هذه الحرب ، وخرج منها ظافراً ، معزاً لدين الله ، ومثبتاً لأركان الإسلام .

ومن ذلك ترى أن الدين الإسلامى اتخذ طريقاً وسطاً حذّ فيه من طغيان الرأسمالية ، فأخذ من مال الأغنياء نصيباً مفروضاً يصرف الحاكم منه على الفقراء وذوى الحاجات ، كما ينفق منه على دور الاستشفاء ، وأما كمن إيواء العجزة بحيث لا يترك لأمثال هؤلاء مجالا للشكوى ، ولا مسلماً ينفذون منه إلى سلب أموال الناس وأخذها بالباطل ، وغير ذلك من المسائل التى تُذكى نارها فى نفوس الفقراء وسائل الرأسماليين ومكتزى الذهب والفضة .

ثانياً — ومن المبادئ المقررة فى الإسلام أيضاً حرية التملك (الملكية الفردية) واحترامها ، وأن لكل فرد أن يقتنى من المال ما تمكنه من اقتنائه السبل المشروعة ، وليس عليه وراء ذلك إلا أن يؤدى الفرض الذى أُمِرنا إليه من قبل ، وله فى كل حالة أن يتصرف فى هذه الأموال بما يراه ، وتبقى بعده تركته لورثته ، فى حدود القوانين الإسلامية التى تجأت فى نصوص القرآن فى مواضع كثيرة منه . وقد دعا الدين الإسلامى جميع المسلمين بعد ذلك إلى التطوع بالإتفاق ، وشجعهم على التبرع لأعمال الخير ، ونهاهم فى كثير من المواقف عن الإفراط والتفريط ، فنهى عن السرف كما نهى عن التقثير ، فقال تعالى فى الحث على الإتفاق : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبئت سبع سنابل فى كل سنبله مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم ، وقال تعالى « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذيه إلا أن تغمضوا فيه ، وقال تعالى فى التوسط والاعتدال « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » وقال تعالى « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعباب آليم ، يوم يحسب عليها فى نار جهنم فتمسكوى بها جبائهم وحنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ،

ثالثاً — وإنك لو تأملت فى حكمة الإسلام فى احترام الملكية الفردية ووضع القواعد العامة للدواير ، لعرفت أن هذا من أكبر الدوافع التى تحفز الممولين إلى قوة الاستثمار والنشاط فى الإنتاج ، ويدعو إلى السهر على المصالح وبذل الجهود

القوية في تكثير الأموال ، وهو في الوقت نفسه يحمي هذه الأموال من أن تعبث بها يد السرف والتبذير . فالرجل الذي يعرف أن الأموال التي بذل في جمعها صحته وعقله ستصير بعد ذلك إلى الدولة ولا ينتفع بها بنوه بطريق مباشر ، ليس هناك ما يحفزه إلى ادخارها ويدفعه إلى المحافظة عليها . ولا يصح أن يقال إن قواعد التكافؤ الاجتماعي قد تغنى عن ذلك ؛ فإن الطبيعة البشرية التي تدفع الآباء إلى المحافظة على بنينهم وجمع الأموال في سبيلهم ، لا يمكن بحال أن يغنى عنها أو يقوم مقامها ما يدعيه ذوو الآراء الهدامة من مبادئ ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قبله العذاب .

إنك لو تأملت بعض ذلك لما ترددت لحظة في أن سبيل الشيوعية إلى المسلمين مليئة بالعوائير والأشواك ، وأنها إن شاء الله لن تجد المسلمين الطيبين لقمة سائغة ولا فريسة مستضعفة حتى يسهل عليها أن تنفذ إلى نفوسهم . ولعل لا أكون متجنبا إذا قلت : إن المسلمين يختلفون اختلافا واسعا عن غيرهم ؛ فإني أعتقد أن المسلمين يحبون دينهم من قلوبهم ، ويقومون بشعائر الإسلام حبا في القيام بها ، لا خاضعين لمؤثرات خارجة عنهم .

رابعا — هذا إلى ما تقرره المبادئ العامة في الدين الإسلامي من احترام الحريات والدعوة إلى الشورى وتبادل الرأي في المشاكل العامة ، مما طبع المسلمين بالطابع الدستوري من نحو ثلاثة عشر قرنا وبعض قرن . وهذا القرآن الكريم يطلب الله سبحانه وتعالى فيه من نبيه أن يشرك المسلمين معه في الرأي ، فقال تعالى : « وشاورهم في الأمر » ووصف المسلمين جملة في آية أخرى فقال : « وأمرهم شورى بينهم » . ولعلك واجد في القريب لعلساء المسلمين جولات وافية في دفع هذه النظريات الهدامة ومحاربتها ، بما يوضحونه للمسلمين من حقائق عن دينهم ، بالنشر والإذاعة ، والوعظ والخطابة .

س ٣ — وصف لي موظف في جامعة الدول العربية الإسلام بأنه يحمل طابع الاشتراكية ؛ فما رأيكم في ذلك ، وإلى أي مدى تبلغ الاشتراكية الإسلامية ؟ وما هي أوجه الشبه على وجه التحقيق بين الاشتراكية الإسلامية والاشتراكية الحديثة ؟ . ويلوح لي مما استخلصته من أحاديث في هذا الشأن أن القرآن لم ينص صراحة على وجوب عدم المساس بالملكية الشخصية ، فما رأيكم في ذلك ؟ . وإذا

كان الإسلام يماثل من بعض الوجوه الاشتراكية الحديثة ألا ينتظر من وراء هذا التشابه أن يقوم بين الإسلام وبين الاشتراكية الدولية السياسية (مثل الشيوعية الماركسية) تشابه يؤدي إلى توزيع الثروة الشخصية بأمر الحاكم أو الحكام ؟. إنني أوجه هذا السؤال بالذات، لأن بعض المصريين الشيوعيين قد قرروا إلى أن آيات القرآن يمكن أن تتمشى في سهولة مع الفلسفة الشيوعية فيما يتعلق بتوزيع الثروة. فإذا كان الأمر كذلك فإن أمن العالم العربي يصبح بذلك مهددا (ومعه الأمن العالمي كله) بمجرد السماح للدعاية الشيوعية بالازدهار في هذا الجانب من العالم.

ج ٣ — إنه ليؤسفني أشد الأسف أن تستخلص مما جرى بينك وبين الناس من أحاديث حول الإسلام والاشتراكية من ناحية، والإسلام والملكية الفردية من ناحية أخرى، أن القرآن لم ينص على شيء من عدم المساس بالملكية الشخصية، وأخذت لنفسك حق الادعاء من أن الإسلام يماثل من بعض الوجوه الاشتراكية، وأنه ينتظر من وراء هذا التشابه أن تقوم صلات بين الإسلام وبين الاشتراكية الدولية السياسية تؤدي إلى توزيع الثروة الشخصية بأمر الحاكم، وأنت توقع قرب تحقيق ذلك بما ألقاه في روعك بعض المصريين الشيوعيين كما تقول من أن آيات القرآن الكريم تتمشى في سهولة مع الفلسفة الشيوعية، بئس ما سؤلتكم أنفسكم ! وألا ساء ما تحكمون ! لقد نسبتم إلى آيات القرآن ما القرآن منه براء. فليس في القرآن آية تتمشى مع الفلسفة الشيوعية في أي وضع من الأوضاع، ولكن هؤلاء الشيوعيين الذين قرروا لك ما قرروه قد التوت بهم السبل، وضلوا عن سبيل الله، وأرادوا أن يضلوا الناس كذلك.

ولو أنك تفضلت فذكرت أسماء بعضهم لكان لنا منهم موقف آخر أمام الله وأمام الناس؛ فانا دائما على استعداد أن نأخذ أمثال هؤلاء بحرب لا قبل لهم بها؛ وإن مما هوّن على أثر هذه العبارات أنك - هداك الله - قد التجأت إلينا لتعرف الرأي الحقيقي في الدين الاسلامي وفي كتاب الله. ولعلنا فيما قدمنا إليك نكون قد كشفنا لك عن شبهات هؤلاء المضللين، وأبنا من حقيقة أمرهم من جهنم لشيوع الفتنة بين المسلمين.

ولما لتقرر لك أن القرآن الكريم قد أحترم الملكية الفردية وصانها بقواعد

وحدود لا تجعلها عرضة للتلف ولا للضياع، ونظم انتقالاتها الى الأبناء والمستحقين وفصل القول في قواعد الموارث وتحديد الانصبة فيما تركه الوالدان والاقربون قلّ منه أو كثر، فقال تعالى «وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا» ثم قال تعالى بعد ذلك «للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون، مما قلّ منه أو كثر، نصيبا مفروضا» ثم قال الله تعالى بعد ذلك «يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين» الى آخر ما جاء في هذه الآيات من بيان الانصباء مفصلا، ومن بيان الوصية التي للمالك في ماله لمن شاء، مما يدل الدلالة الواضحة على حق الملكية لكل مالك، وانتقال هذا الحق من بعده الى ورثته من أبنائه وأقربائه. ثم ختم هذا البيان الرائع بقوله سبحانه «تلك حدود الله، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك الفوز العظيم. ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين».

س ٤ — إذا كان القرآن يوصي بإثراء الفقراء في ثروات الأغنياء، ويحرم المقامرة والرشوة والخذاع، فما هو حكم الإسلام في أولئك الذين يرفضون أن يشركوا الفقراء في ثرواتهم، ويدأبون على الغش والرشوة؟ الخ؛ هل يمكن أن يعتبروا في هذه الحالة مسلمين طيبين؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك فهل يمكن عمل شيء لإلزامهم بتنفيذ تعاليم القرآن؟ وإذا كان أولئك الذين يخالفون تعاليم القرآن يحتفظون بمكانتهم الاجتماعية ويواصلون نجاحهم في الحياة، بل إن بعضهم لتغدق عليه ألقاب الشرف، ألا يمكن أن تفرض عقوبات على مخالفة القرآن من جانب أولئك الذين يولون وجوههم نحو الشيوعية.

ج ٤ — أما ما طلبته من بيان حكم الاسلام فيمن يتأخر عن دفع الزكاة أو يرفضها فقد فصلنا لك في صدر هذا الحديث ما كان من خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكر الصديق، وما شنه من حرب شعواء على المانعين للزكاة. وحكم الإسلام هو أخذهم بتأدية هذه الفريضة بالتبليغ والدعوة اليها، وإلا صودرت أموالهم بمقدار هذا النصيب المفروض. ولا يمكن بحال اعتبار هؤلاء من المسلمين الطيبين، فهم عصاة يستتابون ليرجعوا عن غيهم ويؤمنوا بربههم. وإننا إن شاء الله سبحانه

وتعالى نأمل أن نخطو خطوات واسعة في الاحتكام الى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، بفضل ما يبذله الملك الصالح (فاروق الاول) الحريص على الإسلام والمؤيد لدين الله . نسأل الله أن يعزز به الاسلام ، وأن يؤيده بنصر من عنده ، وأن يوفق المسلمين الى اتباع ما جاء في القرآن الكريم من الاوامر واجتناب ما نهاهم عنه .

« إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت واليه أنيب . »

تبرع السيدات بحلپهن

حضرة الأستاذ الأكبر يثنى عليهن

زارت حضرة السيدة الحاجة نعمات هانم الطرزي ، حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، وأعربت لفضيلته عما تكنه من شعور نحو جيشنا المجاهد لتحرير الأراضى المقدسة من خطر الصهيونية ، وقدمت إلى فضيلته مجموعة من الحلى الثمينة التى تملكها هى وسيدات وآفسات أسرته ، ورجت أن يخص ثمنها للترفيه عن الجنود المصريين المجاهدين وإعانة أبناء الشهداء منهم ، فشكر لها فضيلته هذه الأريحية ، ودعا لها بنجر .

ثم تحدث فضيلته عن هذا العمل المشكور فقال : « إن هذا العمل المبرور المجيد ليعد فاتحة كريمة وقدوة طيبة نرجو أن ينهج نهجها ويسير على سنتها كرائم العقيلات المصريات ، فيسارعن الى أعمال النجدة الوطنية والأريحية العربية ، ليكتبن بذلك فى تاريخ المرأة المصرية صفحات خالدة من الأريحية والوطنية .

« وإنى أعلن أن باب الاقتداء بهذا العمل الكريم مفتوح للسيدات المصريات والعربيات جميعا ، وإن المسارعة فيه خير وأبقى . وإنى أهيب بهن جميعا أن يكن فى هذا المضمار السابقات المجليات » إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم ، والله شكور حلیم . »

الحرب والاسلام

شرع الله الدين الإسلامى ليتولى الناس فى ناحيتهم الروحية والمادية ؛ ففى ناحيتهم الروحية أقامهم على الطريق السوى من تحكيم العقل ، وإيثار الحق ، وإقامة العدل ، ومراعاة الآداب ، وإعلان تساوى العالم أجمع فى الحقوق والواجبات ، لا فضل لأبيضهم على أسودهم ، ولا لعربهم على أعجمهم ، والعمل الجدى على جعل الحياة الأرضية مثابة لإخاء وتواد وتراحم بين أهلها أجمعين ، وتطلب المثل العليا فى كل مطلب من مطالب الروح ، ومقام من مقاوم العلم ، ومرمى من مرامى الحياة الفاضلة .

وفى ناحيتهم المادية سنّ لهم النظام والوحدة والتكافل ، وتناسى الذات فى سبيل حياة الجماعة ، والتضحية لبلوغ المقامات المحموده ، حتى إذا جرت الى الحرب . الحرب ، نعم الحرب ؛ ألم تر أنها لا تزال وسيلة من وسائل حلول المشاكل الاجتماعية الى هذا العهد الذى بلغت الانسانية فيه أشدها ، ونالت العقول رشدها ، فإلى أى مآل كانت تؤول حالة الجماعة الاسلامية التى دُعيت لنشر الدين العالمى العام ، فى عهد كان الحق لا يمكن الاحتفاظ به إلا بالقوة ، والحكمة لا يستطيع الإدلاء بها إلا إذا حاطتها القوة ، بل والحياة لا يتأتى أن تبقى إلا إذا ناغت عنها قوة ؟

إذا كانت الأمم الغربية بعد أن نالت ما نالته من ثقافة علمية عالية ، والمعنية فلسفية سامية ، ومدنية مادية راقية ، لا تزال تعتمد فى القرن العشرين لحل مشاكلها المختلفة إلى الحرب ، فهل يعقل أن تحرّم الحرب على أمة تألفت قبل ثلاثة عشر قرنا ، ونيط بها إحداث تطور عالمى من الناحيتين الدينية والاجتماعية ، وهما أدعى الى إثارة النفوس من جميع الخلافات البشرية ؟

أباح الإسلام الحرب ، ولكنه حاطها من الملطفات بما لم تبلغ إليه مدنية القرن العشرين ، ولا الى ما يقرب منه ، وخلصها مما كانت تنشره الكتب التى يعتبرها الأوروبيون مقدسة . فقد جاء فى الكتاب الخامس من الزبور قوله :

« إذا أدخلك ربك في أرض لتملكها ، وقد أباد أئمة كثيرة من قبلك ، فقاتلهم حتى تفنيهم عن آخرهم ، ولا تعظمهم عهدا ، ولا تأخذنك عليهم شفقة أبدا » .
وقد خاض الأوروبيون باسم الدين حروبا كانت شر الحروب التي شبت بين البشر عامة ، في قسوتها وتناسي كل الحقوق الإنسانية فيها . فالإسلام لم ينفرد بين الأديان السابقة والفلسفات المعاصرة بأنه دين يقر الحرب ، ولكنه انفرد ، كعادته ، بتلطيف هذه المجازر الإنسانية الى آخر حد يمكن الوصول إليه ، بدون الإخلال بسلامة الحوزة : فوضع للحرب حدودا ، وشرط على الغزاة شروطا ، كلها ترمى الى احترام الدماء البشرية ، والعمل بأرقى ضروب العطف على الإنسانية ، ولم يهمل مع هذا أن يشير على ذويه بأنه إن جاء وقت ترى الإنسانية فيه أن الحرب أصبحت أداة وحشية ، وأن في التفاهم والتعطف خيرا بدلا منها ، فإن عليهم أن يتابعوا الإنسانية في ترقيا ، ويدخلوا فيما يدخل فيه الناس من اعتبار الحرب أداة وحشية ، والجرى على ما يجرى عليه الناس من حصول الخلافات بالطرق السلمية كما سيأتى هنا .

قلت : إن الاسلام أباح الحرب ولكنه لطف من حديثها ، حتى جاوز ما أدخلته المدنية عليها بمراحل كثيرة .

(أولا) أن تكون لغرض مشروع كالدفاع عن الحوزة ، لا لهوى ملك ، ولا متابعة لأطماع رئيس .

(ثانيا) أن تكون الرحمة شعار المؤمنين ، فلا يقتلون طفلا ولا شيخا ، ولا رجل دين ولا مستسلبا ، ولا امرأة ، ولا أحدا من خدام المحاربين ، ولا أن يحرقوا دور أعدائهم ، أو يقطعوا أشجارهم .

(ثالثا) أن لا يسرفوا في استئثار انتصارهم ، فلا يجردون المغلوبين من حقوقهم ، ولا يصادرون أموالهم ، ولا يضطهدونهم لدينهم ، ولا يتقاضون منهم إلا الجزية ، وهي مبلغ من المال ، كما قال العلامة (دوزى) الهولاندى في كتابه تاريخ الفرق الاسلامية ، يقل كثيرا عما كانت تتقاضاه منهم حكومات تلك الأمم المغلوبة .

ولم يهمل الإسلام مع هذا كله أن يشير على ذويه بأنه لو جاء وقت تعتبر فيه الحرب من الوسائل الوحشية ، عند ما تصل الإنسانية الى درجة من الرقي تسمح للتخاصمين أن يحلوا منازعاتهم بالتحكيم ، فعليهم أن يجرؤوا في تيار هذا

التطور العظيم ، ويدخلوا فيما دخل فيه الناس من النظم الجديد ، ففقال تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ، وتوكل على الله » .

أنا في هذا المقام مضطر لأجل إثبات أقوالى هنا أن استشهد مؤرخين لا يمتون الى الاسلام بـصلة ، وإنما هم رجال اجتماعيون يعطون الحوادث حقها من البيان والتفصيل .

قال المسيو (هنرى دو كاسترى) أحد حكام الجزائر السابقين ، فى كتابه (الإسلام - تأثيرات ودراسات) L'Islam, impressions et études :

« بعد أن دان العرب للإسلام ، واستنارت قلوبهم بهذا الدين ، برزوا فى حال جديدة أمام أهل الأرض كافة ، هو حال المسالمة وحرية الأفكار فى المعاملات ، اتئارا منهم بما ورد فى القرآن من الإيصاد بمحاسنة الناس ، بعد تلك الآيات التى كانت تنذر القبائل المارقة . إلى أن قال :

« هكذا كانت تعاليم النبى بعد أن دخل العرب فى الاسلام ، وقد اقتنى أثره فيها خلفاؤه من بعده ، وذلك يضطرنا الى القول بما قاله قبلنا (روبنسون) : إن شيعة محمد هم وحدهم الذين جمعوا بين محاسنة الأجانب ، ومحبة انتشار دينهم . هذه العاطفة هى التى دفعتهم فى سبيل الفتح ، وهو سبب لا حرج فيه . فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشه الظافرة ، إذ أغاروا على الشام ، وانقضوا انقضاض الصواعق على أفريقيا الشمالية من البحر الأحمر الى المحيط الاطلانطى . ولم يتركوا أثرا للعسف فى طريقهم (تأمل) ، إلا ما كان لا بد منه فى كل حرب ، فلم يبدوا قط أمة أبت الدخول فى الإسلام » .

ثم قارن المسيو (هنرى دو كاسترى) بين هذه الرحمة والعطف من الإسلام ، وبين الشدة والروح الحربية فى الأديان التى تقدمته . فنقل عن الكتاب الخامس من الزبور قوله : « إذا اقتربت من مدينة لتحاصرها فاعرض عليها الإيمان ، فإن قبلته فقد سلم كل من فيها ، وإن أبت وبادأتك بالعدوان فشدد الحصار عليها ، ومضى وفقك الله للظفر بها فأحطم رأس كل ذكر فيها بجد الحسام » .

ثم قال المسيو (هنرى دو كاسترى) :

« فكان من وراء محاسنة المسلمين للأمم المقهورة أن انتشر الإسلام بسرعة ، وعلا قدر رجاله الفاتحين ، لما سبقه من ظلم براطرة المملكة الرومانية الشرقية (وهى مسيحية) التى أبغضها الناس ، وكرهوا الحياة فى ظلها . هذا وإذا

انتقلنا من الفتح الأول للإسلام الى حين استقراره ، رأينا أكثر محاسنة ، وأكرم معاملة لمسيحي الشرق كاه . فما عارض العرب أبدا شعائر الدين المسيحي ، بل بقيت رومية نفسها حرة في مراسلة الأساقفة في مختلف البلاد الإسلامية . الى أن قال :

« وهذه المحاسنة العظيمة من جهة المنتصر للمقهور هي التي أضعفت تأثير الديانة النصرانية جدا ، ثم زالت بالمرّة من شمال أفريقيا . على أن الاسلام لم يكن له دعاة يقومون بنشره . فلم يكره على الأخذ به أحدا بالسيف ولا باللسان ، بل دخل القلوب عن حب واختيار . وكان هذا من آثار ما أودع في القرآن من صفات التأثير والأخذ بالآل باب . »

« ولقد زادت محاسنة المسلمين للمسيحيين في بلاد الأندلس حتى صاروا في حالة أهنأ من التي كانوا عليها أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانيين الذين يقال لهم (الونيجو) . »

ويقول دوزي العالم الكبير :

« إن هذا الفتح لم يكن ضارا بأسبانيا ، وما حدث من الهرج والمرج بعده لم يلبث أن زال باستقرار الحكومة المطلقة الإسلامية في تلك البلاد . وقد أبقى المسلمون سكانها على دينهم وشرعهم وقضائهم ، وقلدوهم بعض الوظائف حتى كان منهم موظفون في خدمة الخلفاء . وكثير منهم تولى قيادة الجيوش مثل (سيد) . وقد تولد من هذه السياسة الرحيمة انحياز عقلاء الأمة الأندلسية إلى المسلمين ، وحصل بينهم تزواج كثير ، انتهى كلام المسيو دو كاستري . »

هذا أثر الفتوح الإسلامية ، والحروب التي شنها المسلمون على الأمم بقصد نشر الدعوة كما طلبه الحق اليهم ، وكلفهم بالقيام به ، وهي سيرة لا يوجد لها مثيل في التاريخ الديني أو الاجتماعي لأمة من أمم الأرض .

وهذا الجيش الإسلامي العربي الذي يدافع الآن عن فلسطين قد فاز بتقدير العالم أجمع في استقامته في غزواته ، وعدله حيال أعدائه ، وقيامه بأعباء كل التكاليف الأدبية التي تفرضها عليه مهمته ، حتى استحق ثناء جميع من وقف على أخباره ، وقارن بين سيرته وسيرة خصومه .

محمد فريد وهدي

مثل من الحيطّة

في رواية الحديث

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ طه محمد السباكت

المدرس بالأزهر

عن أنسٍ رضي الله عنه قال : إنه ليمنعني أن أحدّثكم حديثاً كثيراً أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من تعمّد على كذباً فليتبوأ مقعده من النار » . رواه الشيخان .

فليتبوأ مقعداً : فليتخذ منزله ، من المباءة وهي المنزل ، يقال : بوأه الله منزلاً فتبوأه ، أي أسكنه إياه فسكنه .

* * *

على القرآن والحديث يعتمد الإسلام دين الله العالم الخالد ، في شرعته ومنهاجه وهديه وإرشاده ؛ فهما لهذا الدين الحنيف أصلان مشتبكان ، وصنوان لا يفترقان . وإلى هذا يشير قوله صلوات الله وسلامه عليه « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وقوله : « ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ... » ^(١) .

لا جرم أن العناية بهما ، والحفاظ عليهما ، والتثبت في روايتهما ، تعدل العناية بالاسلام ، والحفاظ عليه ، والاحتفال به ؛ إذ كانا أساس بنيانه ، ودعام أركانه ، وملاك أمره .

[١] الحديث رواه أبو داود عن المقدم بن معد يكرب ، وانظر بقبته في أول تيسير الوصول . ودوى الأول مالك في موطنه عن أبي هريرة . وانظر في هذا الموضوع طائفة مهمة من الأحاديث في ج ٣ م ١٩ ونرجو أن يكون لنا أو لغيرنا بحث منصف في الحديث الثاني من هذه الطائفة .

ومن فضل الله ورحمته بهذه الأمة أن آتاهها ما لم يؤت أحداً سواها ؛ ومن ذلك أن خصها بحفظ كتابها ، والعناية بآثار نبيها ، مما لم يعرف التاريخ مثله بل بعضه لأمة من الأمم .

وقد كان من آيات نبوته ، وعظيم حكمته - صلوات الله وسلامه عليه - أن صرف هم أصحابه أول الأمر ، إلى كتاب ربه ، يتلونه حق تلاوته ، ويدرسونه حق دراسته ، ويهتدون بهديه ويستضيئون بنوره . وبلغ من اهتمامه بهذا الكتاب العزيز أن أذن لأصحابه بأن يحدثوا بحديثه دون أن يكتبوه ، فقال : « لا تكتبوا عني ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحُ » حتى إذا اطمأن إلى بليغ عنايتهم بالتنزيل ، وشدة حرصهم عليه ، أذن لهم بكتابة الحديث عنه كما أذن لهم من قبل في روايته ؛ فكان جل اعتماد الصحابة رضي الله عنهم على حفظهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلقيهم عنه ، ومن كتب منهم فإنما كان يكتب مبالغة في الحيلة والتثبت .

وكان منهم مكثر ومقلّ ووسط بين ذلك ، ومع تحرّيم جميعا في الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبلغ أمانتهم في الحديث عنه — من كتب منهم ومن لم يكتب — كان كثير منهم يسك عن الحديث وهو يحفظه خشية أن يخطئ وهو لا يشعر ؛ والثقة إذا حدث بشيء مُعمل به اعتماداً على ما يُعهد فيه من الصدق ، وليس الخطأ - وإن لم يَأثم صاحبه - بالأمر اليسير على أهل الورع والتقى ، وسادتهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ومن تَمَّ كان خوف أنس وأمثاله رضي الله عنهم ، مع أن أنسا كان خادماً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أدرى الناس به ، وأحفظهم لحديثه ، وقد رُوِيَ عنه مَثُون من الحديث ولكنها قليلة جداً إذا قيسَت بمكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعمره الطويل المبارك ، وبحاجة الناس إلى مثل علمه وفهمه .

وأحفظ الصحابة للحديث غير مدافع أبو هريرة رضي الله عنه ، وقد ذكر البخاري أن ثمانمائة من التابعين قد رَوَوْا عنه ، ولم يقع هذا لغيره ، مع أن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قد كتب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر منه بشهادة أبي هريرة نفسه ، ولكن اشتغاله بالعبادة ، ونظره في كتب أهل الكتاب

ورحلته إلى مصر أو الطائف — أقلت من تحديته والآخذ عنه . ومع أن أبا هريرة لم يحدث بكل ما حفظ ووعى فقد أنكر عليه كثرة تحديته جمع من الصحابة حتى أبان لهم عذره في ذلك فكفوا عنه ^(١) ؛ روى البخارى عنه أنه قال : إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة ، ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثا ، ثم يتلو « إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون . إلا الذين تابوا وأصلحوا ويتوبوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم » ، وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم ، وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيخه بطنه ، ويحضر ما لا يحضرون ، ويحفظ ما لا يحفظون . ثم يبين لهم السر في عدم نسيانه بما أصابه من بركة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعائه له فيقول كما روى الشيخان عنه : قلت يا رسول الله إني أسمع منك حديثا كثيرا أنساه ! قال : أبسط رداءك ، فبسطته . قال : فغرف بيديه ثم قال ضمه فضممته فما نسيت شيئا بعد ^(٢) . ثم يعتذر عن عدم تحديته بكثير مما سمع فيقول كما روى عنه البخارى : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين ؛ فأما أحدهما فبثته ، وأما الآخر فلو بثته قطع هذا البلعوم ^(٣) .

ثم سار التابعون على نهج الصحابة في الحفظ والضبط والتحري في الرواية حتى جاء عصر التدوين ، فعنى السلف بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عناية لم يعرف لها من بعد كتاب الله عز وجل مثيل . أنفقوا نفوسهم وأعمارهم وأموالهم في جمعه وتدوينه ، والبحث عن رواته طبقة طبقة إلى رسول الله

[١] وفي هذه الأيام يشتر عليه ، بل ينال منه قوم لاخلق لهم من علم ولا معرفة ، وربما ساعدتهم على طعنهم ما يصطنعه الوضاهون من أحاديث ينسبونها إليه ، وليست من مروياته في شيء ! .

[٢] ولفظ مسلم « فما نسيت بعد ذلك شيئا حدثني به » .

[٣] كناية عن القتل ، ويعنى بالوعاء الآخر أحاديث الفتن وأمراء السوء وأحوالهم وما إلى ذلك ، وقد تدرع الباطنية بهذا الحديث إلى نشر ضلالهم من أن للشرعة ظاهرا وباطنا ، ليتحلوا من عروة الشريعة وأحكامها ، وليتبموا وحي الشيطان والهوى .

صلى الله عليه وسلم — وتعلُّ الثَّقة عن الثَّقة إلى منتهى الحديث بما خصَّ الله به المسلمين دون سائر الملل — وبينوا درجة كل حديث حسب قوة رجاله في المدالة والضبط والتحرى . وبذلك مازوا الغث من الثمين ، والحديث من الطيب ، ونفوا من رجال الحديث طوائف الدجاجلة والمارقين ، والوضاعين والكذابين ، والجهلة المتعصبين ، كما ينفي الكبير خبث الحديث .

ذلك أن أعداء الله ورسوله من الزنادقة والملحدين وأشياهم قد كادوا لهذا الدين من قديم ؛ حاولوا جاهدين أن ينالوا من كتاب الله بالتحريف أو التبديل أو المعارضة ، فأحبط الله سعيهم ورد كيدهم ، وجعلهم هزأة الهازئين ومُسخرَةً الساخرين ، وصدق الله إذ يقول « إنا نحنُ نذكرُ وإنا له لحافظون » . جربوا محاولتهم بعد خيبتهم الأولى ، في التَّوَلَّى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوضعوا ما شاء لهم الهوى ، وكذبوا ما استحب لهم الكذب ، ودوَّه كثير منهم بأقاويل في الترغيب والترهيب قد يوافق بعضُ منها معنًى من معانى الحديث الصحيح ؛ فانبرى لهم هؤلاء الأئمة الأعلام ، فنقدوا أقوالهم ، وكشفوا للناس زيفهم وفضحوا أمرهم ووقفوا طلاب الحديث على الصحيح منه والسقيم^(١) . والعجب كل العجب أن يغتر هؤلاء الضالين بعض الأعلام من المفسرين والمتصوفين ، فيروِّوا في كتبهم طائفة من أحاديث موضوعة ، نبه على وضعها أهل الحديث ونقدته وفاضل القول فيه^(٢) .

وشرذمة أخرى ابتلى الله بها الإسلام والمسلمين ، لا تتل خطراً عن أولئك الأفاكين والوضاعين ! تلك التى تنسك من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لا يوافق هواها ، وتجدد ما يصد شهوة من شهواتها ، أو يقف عقبة في طريقها ، ولو اتفق على صحته وصدق نسبته أئمة الهدى ، وحماة الشريعة ! على حين يصدقون ما يصادف هواهم وإن قال الثقات الصادقون إنه كذب مقترى !! وقد يضللون

[١] فى علم مصطلح الحديث بسط القول فى الوضع وأسبابه ، والوسائل إلى معرفة درجة الحديث وغير ذلك مما يهم المستزيد .

[٢] ولهم فى ذلك مصنغات معروفة كتذكرة الموضوعات ، وكشف الخفاء والالباس

أشياعهم ويموهون عليهم بتأويل سخيفة لا تختلف ضلالة عن جحد الحديث الصحيح وتكذيبه أو انتهاك حرمت الله ورسوله ! وقد ذهبت الجراءة بأذناب منهم مذهب الشطط ، فزعموا أنه لم يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أحاديث معدودة !! .

ونحن لا نطمع في أن نهدي « من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة » ، ولكننا نذكر من نخشى عليه الاعتزاز بهؤلاء ، ومن حفظ شيئاً من مبالغة بعض السلف في رواية الحديث ، وغابت عنه أشياء ؛ نذكرهم جميعاً بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد انتقل إلى الرفيق الأعلى عن مائة ألف من أصحابه أو يزيدون ، وهو عنهم جميعاً راضٍ ، وكلهم ثقات عدول ، وإن كانوا عند الله درجات . ثم نتلو عليهم قول الله تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون » وقوله جل سبحانه « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، والله إن الله شديد العقاب » .



المبالاة بالعدو

خرج بعض أهل خراسان على قتيبة بن مسلم ، فأهمه ذلك . فقيل له : ما همك منهم ! وجه إليهم وكيع بن أبي صرد ، فإنه يكفيكم . فقال : لا ، إن وكيعاً رجل به كبر يتحارق أعداءه ، ومن كان هكذا قاتلت مبالاته بأعدائه ، فلم يحترس منهم ، فيجد عدوه غرة منه .

ومن نصائح علي بن أبي طالب في نهز الحرب : انتهبوا الفرصة فأنها تمر مر السحاب ، ولا تطلبوا أثراً بعد عين .

غريب القرآن

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكري يسن

مدير البحوث والثقافة المساعد

بالأزهر الشريف

علوم القرآن الكريم كثيرة متنوعة ، ومباحثه حجة متعددة ؛ وإن أول ما يجب أن يكون منها محل الاشتغال والمزاولة ، وموضع العناية والدراسة ، العلوم اللفظية المتعلقة بتحقيق الألفاظ ، وتحديد معانيها ، ومعرفة المراد منها ، وفهم دلالاتها ، وطرق استعمالها ، والوقوف على خصائصها وهيئاتها ؛ لأن الإمام بذلك كله على وجه صحيح ، من المقدمات الضرورية لفهم القرآن ، وإدراك معانيه ؛ ولأن معرفة هذا الضرب من علوم القرآن ومباحثه شرط جوهرى من الشروط التى وصفها العلماء بأنها لازمة لتفسير القرآن الكريم .

وقد يكون من المستغرب أن يوصف القرآن الكريم بأن فيه ألفاظا غريبة ، لأنه نزل بأفصح لغة العرب ، وعلى أساليبهم فى كلامهم ؛ وحتى نقف على حقيقة الغرابة الموصوفة بها تلك الألفاظ ، يحمل بنا أن نذكر شيئا وجيزا عن معنى الغرابة ، وعلاماتها ، والغريب وأقسامه ، لِنُقَيِّ بعد ذلك ببيان المقصود من « غريب القرآن » وأنه ليس على عمومته كما يفهم بعض الناس ، تشابه غرابته وغرابة الكلمات اللغوية الأخرى .

١ — الغرابة وعلاماتها :

الغرابة : أن تكون الكلمة غير ظاهرة المعنى ، ولا مأنوسة الاستعمال . وهى تعتبر تارة بالنظر الى جميع الأعراب الخالص من سكان البوادي ؛ وتارة بالنظر الى بعضهم ؛ وتارة بالنظر الى غيرهم من المولدين . فإذا وصفوا اللفظ بالغرابة مثلا فى مقام القسح ، يراد الاعتبار الأول ، وهذه هى الغرابة المحلة

بالفصاحة ، وإذا وصفوا اللفظ بالغرابة في مقام المدح ، يراد ذلك بالنظر إلى المولدين .

أما إذا وصف اللفظ بالغرابة عند بعض الأعراب الخالص ، فلا يلزم به قدح ولا مدح ، كما يشهد بذلك استقراء موارد الاستعمال .

والغرابة علامتان : الأولى ، الاحتياج في معرفة معنى الكلمة إلى بحث وتفتيش في مطولات كتب اللغة ، إذ لو كانت الكلمة مأنوسة للفصحى ، ما اختصت بها كتب اللغة المطولة ، وذلك نحو « تكأ كأتهم » في قول عيسى ابن عمر النحوي - وقد سقط عن حمارة ، فاجتمع عليه الناس - : « ما لكم تكأ كأتهم على تكأ كؤكم على ذى جنة انفرقوا عني » . والثانية : الاحتياج إلى تخريج الكلمة على وجه بعيد ، نحو « مُسَرَّج » في قول العجاج .

ومقالة وحاجبا مُزججا وفاحما ورسرسنا مسرجا

٢ - الغريب وأقسامه :

يقال لكل متباعد ، غريب ، ولكل شيء فيما بين جنسه عديم النظير : غريب ، وعلى هذا قوله عليه السلام : « بدأ الإسلام غريبا ، وسيعود كما بدا » ، وقيل : العلماء غرباء ، لقلتهم بين الجاهل . والغريب : الغامض من الكلام ، ومنه كلمة غريبة ، أى غامضة .

وقد قسم العلماء الغريب إلى قسمين : غريب حسن ، وهو ما كان سليما من تنافر الحروف ، وغريب قبيح ، وهو ما كان متنافرا الحروف ، وقالوا عن الغريب الحسن : إنه يختلف باختلاف النسب والإضافات ، وعن الغريب القبيح : إن الناس في استقباحه سواء ، ولا يختلف فيه عربي باد ، ولا قروى متحضر .

إذا علمنا هذا ، أمكن أن نصل بعد ذلك إلى تحديد معنى « غريب القرآن » ، على ضوء هذه المعاني التي ذكرناها عن الغرابة والغريب .

تضمن القرآن الكريم كلمات كثيرة يطلق عليها اسم « غريب القرآن » ، وهي وإن عدت غريبة ، فليس ذلك بالنظر لاستعمال العرب العرباء لها ، لأن « غريب

القرآن ، ظاهر المعنى ، مأنوس الاستعمال عندهم ، ولأن ألفاظه هي لب كلام العرب وزبدته ، وواسطته وكرائمه ، فلا يتصور - والحالة هذه - أن تكون هذه الكلمات غريبة عندهم ، وإنما اعتبرت هذه الغرابة بالنظر الى استعمال غير العرب العرباء .

وعلى هذا يكون « غريب القرآن » عبارة عن الكلمات التي تضمنها القرآن الكريم ، وخفي معناها ، ولم يؤلف استعمالها عند غير العرب الخالص من المولدين . نعم قد وجد بين الصحابة أنفسهم - على جليل فضلهم ، وعظيم منزلتهم ، وعلى أنهم من العرب العرباء ، أصحاب اللغة الفصحى ، ومن نزل القرآن عليهم وبلغتهم - من توقف في بعض ألفاظ خفي عليه معناها ، ولم يتمل فيها شيئاً ؛ فإنه يروى أن شيخ الصحابة أبا بكر الصديق رضى الله عنه ، سئل عن قوله : « وفاكهة وأبا » ، فقال : « أى سماء تظلمنى ، وأى أرض تقلنى ، إني أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم ! » ، ويروى أن عمر قرأ في خطبته يوماً على المنبر ، قوله تعالى : « أو يأخذهم على تخوف » ثم سأل الناس عن التخوف ، فقال : « ما تقولون فيها ، والتخوف منها ؟ » فقام شيخ من هذيل ، فقال « هذه لغتنا ، التخوف : التنقص ، فقال عمر : « هل تعرف العرب ذلك في أشعارها ؟ » فقال : « نعم » وأنشد البيت الآتى يستشهد به على ذلك :

تخوف الرجل منها تامكا قردا كما تخوف عود النبعة السفن ^(١)

فقال عمر : « عليكم بديوانكم لا تضلوا » قالوا : « وما ديواننا ؟ » قال : « شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم » .

ويكون معنى « أو يأخذهم على تخوف » على هذا : أن يأخذهم بالهلاك بعد أن يبتليهم بالنقص والبلاء شيئاً فشيئاً ، في أنفسهم وأموالهم حتى يتملكهم الخوف ، ويتوقعوا الشر دائماً .

(١) تخوف : تنقص ؛ التامك : العظم | السنام . والقرد : الكثير القردان . والسفن : الحديدية

التي يرد بها خشب القوس . يريد أن الرجل تنقص الناقة كما يأكل الحديد خشب القسي

ويروى أيضا أن ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، قال :
« كنت لا أدري ما فاطر السموات حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بر ، فقال
أحدهما : أنا فطرتها ، يريد أنا ابتدأتها » .

وقد سئل سعيد بن جبير عن قوله تعالى : « وحنا من لدنا » فقال : « سألت
عنها ابن عباس فلم يحب فيها شيئا » .

وفي اعتقادنا أن هذا لا يرجع إلى غرابة هذه الالفاظ ، وإنما يرجع إلى
تفاوت الصحابة فيما بينهم في معرفتهم بالأدب الجاهلى وفهمه ، وإلى ملازمتهم
للنبي صلى الله عليه وسلم ، والإقامة بجانبه ، وحضور مجالسه ، ومشاهدة الأسباب
التي دعت إلى نزول الآيات ، ومعرفة عادات العرب في أقوالهم وأفعالهم ، وإلى
قوة الأذهان ، واختلاف درجة الثقافة ، والاطلاع على أخبار الأوائل والتاريخ
القديم . وإن هذا التفاوت لا يضير الصحابة ولا يؤخذ عليهم ؛ لأنه موجود
في كل بيئة ، وكل وسط ، مهما علت منزلته ، أو كانت درجة حضارته ، إذ ليس
من المعهود أن يكون جميع أفراد طبقة واحدة في مستوى واحد من
المعرفة والتفكير .

هذا وقد عني المتقدمون بغريب القرآن عناية فائقة ، ووضعوا فيه أمهات
الكتب ، وأفرده منهم بالتصنيف خلائق لا يحصون ، منهم : أبو عبيدة ، والزاهد
وابن دريد ، وأبو حيان ، وابن قتيبة ، والراغب الأصفهاني ، قال ابن الصلاح :
وحيث رأيت في كتب التفسير ، قال أهل المعاني فالمراد بهم مصنفو الكتب
في معاني القرآن كالزجاج والفراء والآخرش وابن الأنباري . وقد وردت بعض
آثار مرفوعة وموقوفة في الحث على معرفة « غريب القرآن » والتماس معانيه .

وتلك المصنفات التي أشرنا إليها ، على نفاستها ، وجلال قدرها ، لا يزال
الباحث فيها يلقي كثيرا من العناء والمشقة في الوصول إلى بغيتها منها ، وذلك لما
تشتمل عليه من صعوبة نظام تأليفها ، وطريقة ترتيبها ، وشدة إيجازها أحيانا ،
وإسهابها أحيانا أخرى ؛ فعسى أن ينفذ قريبا ما ترمى إلينا من مشروع معجم
القرآن الذي يقوم بوضعه ، بجمع فؤاد الأول للغة العربية ، فإننا نعلم أن القائمين
على إخراجه نخبة من الجهابذة الأفاضل ، والعلماء النحارير . وفقهم الله ؟

دعائم الاستقرار

في التشريع القرآني

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدني

المفتش بالأزهر

بدأت - في الجزء السادس - شرح الدعامة الأولى من « دعائم الاستقرار في التشريع القرآني » وهي إقناع المكلفين بحاجتهم إلى التقيد بتشريع معين في أمر معين ، وأثبت بعض المظاهر التي تدل على هذه الدعامة في الكتاب الكريم ، وكان منها أن الله جل جلاله يقرن الأحكام التي يشرعها غالباً بما يدل على انبناء تشريعه فيها على مصالح الناس أنفسهم ، وعلى أن أحوالهم تتطلبها ، ولا تستقيم بدونها ، ولهذا كثر تعليل الأحكام ببيان الباعث عليها ، أو المصلحة التي تتضمنها ، أو المضار التي تترتب على إهمالها وعدم الأخذ بها .

ومن أمثلة ذلك - غير ما ذكرناه - قوله جل ثناؤه : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتالٌ فيه كبيرٌ ، وصدٌ عن سبيل الله وكفرٌ به والمسجد الحرام ؛ وإخراجُ أهله منه أكبرُ عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » .

فهذه آية من الآيات التي نزلت في شأن القتال بين المؤمنين والمشركين ، وقد كان المؤمنون يتخرجون من قتال المشركين في الأشهر الحرم ؛ ولما حدث ما حدث في سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة ، وقُتل من المشركين من قتل ، وأسر منهم من أسر ، تساءل الناس من مؤمنين ومشركين : أيحل القتال في الأشهر الحرم ؟ كان المسلمون يتساءلون عن ذلك تحرجاً وتأثماً من أن يفعلوه ، ويظنون أنهم بذلك يرتكبون وزراً عظيماً ، ويخرقون سياجاً محترماً مقدساً منذ عهد أبيهم

إبراهيم؛ وكان المشركون يتساءلون عن ذلك تساملاً الناقد المعارض الذى يتخذ من أفعال خصمه فرصة للتشنيع عليه والإثارة من حوله؛ فقد ورد أن قريشاً قالوا حين بلغ إليهم أمر السرية وقتلاهم وأسراهم فيها: لقد سفك محمد الدم الحرام، وأخذ المال، وأسر الرجال، واستحل الشهر الحرام! فنزل قوله تعالى «يسألونك عن الشهر الحرام، الآية»؛ وفيها اعتراف صريح بأن قتالا تدور رحاه في الشهر الحرام كبير، وصد عن سبيل الله وكفر به، وصد عن المسجد الحرام؛ فأقرت بذلك حرمة الأشهر الحرم، واعترفت بقداستها؛ ولكنها بينت بعد ذلك أن إخراج الناس من أوطانهم لمجرد اعتناقهم دين الحق، هو أكبر عند الله من القتال في الأشهر الحرم؛ وقتة الناس عن دينهم هي أكبر إثماً من القتل عامة، لأن القتل إزهاق للنفس، وتضييع للشخص، أما الفتنة فهي إبطال للعقيدة التى تفدى بالآرواح ولا تفدى بها الآرواح؛ كما بينت أن هؤلاء المشركين لا هم لهم إلا صد الناس عن دين الله، وزحزحتهم عما اعتنقوه عن عقيدة واطمئنان، ليردوهم عنه - إن استطاعوا - بكل وسيلة؛ وإذن فالمؤمنون في موقف المعتدى عليه، والمشركون في موقف المعتدى، وليس في شرعة الإنصاف والحزم أن يترك المعتدى يفعل ما يشاء، بينما يقف المعتدى عليه مكبلاً مبهوتا متحرجاً من أن يرد الاعتداء عن نفسه.

وانظر - أيها القارئ - إلى ما أعيت به الآية الكريمة من إبراز الأثر المترتب على نجاح المشركين في فتنتهم إذا نجحوا، فإنها تقول للمؤمنين: «ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون»، فتشير بذلك كل ما في نفوس المؤمنين من اعتزاز بالدين وحرص عليه ومقت للتحول عنه. وأى مؤمن يرضى بأن يرتد عن دينه، ويموت وهو كافر وتحبط أعماله في الدنيا والآخرة، ويكون من أصحاب النار الخالدين فيها؟ لا شك أن هذه أخطار تهدد المؤمنين في أعز شيء لديهم، وأن كل شيء يهون في سبيل درئها والتوقى منها، وبذلك تهيات نفوس القوم لتقبل هذا التشريع، وسلت من قلوبهم وساوس التحرج والتأثم التى كانت تستولى عليها.

وجاءت بعد ذلك الآيات الأخرى تقرر المبادئ الصالحة في هذا الشأن فتقول : « وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ، » وقائلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم .

هذا ولو ذهبنا نستقرئ التعليقات التي ذكرها القرآن الكريم للأحكام لاطال بنا هذا الاستقراء ؛ ويمكن أن نضم إلى ما ذكرناه من الأمثلة مفصلاً ، أمثلة أخرى نكتفي فيها بالإشارة :

فمن ذلك قوله تعالى في سياق ما أحل وما حرم من الطعام وغيره : « قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث » جملة على اختصارها بدفعة الفوائد ، نفهم منها أن الله — جلت حكمته — لا يحلل ما يحلل ، ولا يحرم ما يحرم ، مجرد أن يتعبدنا بذلك ، ولكن لمعان فيما أحل وفيما حرم ، هي طيب الطيب ، وخبيث الخبيث ؛ ونفهم منها أن الخبيث خبيث ولو كثر وأغرى وقتن ، وأن الطيب طيب ولو قل وزوجم وصرفت عنه العيون .

وقوله تعالى في تعليل ما شرعه في شأن شاهدي الوصية « ذلك أدنى أن يأتيوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم » .

وفي تعليل جعل شهادة امرأتين بمثابة شهادة رجل واحد « أن تَضِلَّ إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » .

وفي قصر تولى الكفار بعضهم على بعض ، وعدم إباحته للمؤمنين « إن لا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » .

وفي توصية المؤمنين برعاية الأدب مع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم « ذلك أطهر لقلوبكم وقلوبهن ، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله » .

وهكذا تحاط الأحكام بجميع مبرراتها ، وتكون لها هذه التعليقات وأمثالها بمثابة مذكرات إيضاحية ، تبين الغرض منها ، والباعث عليها ، والضرر الذي يتوقع إذا لم تشرع .

(٤) وفي تاريخ الأطوار التي مرت بها الخمر والميسر حتى انتهى أمرهما الى التحريم ، ما يدل على رعاية هذا المسمى في التشريع ؛ فالقرآن الكريم لم يحرم الخمر والميسر ابتداءً ، ولكن ترك الناس حتى شعروا بآثارهما السيئة في المجتمع ، وبما لحما من مفسد ، وما ينجم عنهما من شرور ، وكان من آثار هذا الشعور أنهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن حكمهما ، فنزل عليه قوله تعالى « يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما » وصف الإثم بأنه كبير ، وعبر عن المنافع بعبارة تشعيرهم وانها وقلة جدواها ، ولكنه على كل حال لم يصادم المكلفين بإنكار ما هم متمتعون به على نحو ما ، وكأنه يريد منهم أن يدركوا بأنفسهم أن هذه المنافع لا تذكر بجانب الآثار السيئة والمضار الكبرى ، وترك لهم الفرصة حتى يتبينوا ذلك ويؤمنوا به إيماناً عميقاً ، فلما استقر ذلك في نفوسهم ، وأصبح الجو مهيئاً لتشريعته تمام التهيؤ ، حسم الأمر بحرم الخمر والميسر تحريماً قاطعاً معللاً ؛ إذ يقول « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون » . فقد قصرهما على وصف الرجس بعد أن كان يشير الى ما هو شائع عندهم من منافعهما الضئيلة ، ثم أمر باجتنب ذلك الذي هو رجس من عمل الشيطان بعبارة حاسمة هي قوله « فاجتنبوه » بعد أن كان يشير الى هذا دون نص عليه ، حيث أثبت الإثم الكبير والمنافع الضئيلة مما يحكم العقل معه بالحرمة ؛ وكما مهد للحكم بوصف المحكوم عليه بأنه « رجس » و « من عمل الشيطان » ، أتبعه ببيانين : أحدهما إجمالى يبين الغرض من التشريع وهو قوله : « لعلكم تفلحون » أى إنما شرعنا لكم اجتناب ذلك رجاء أن تفلحوا ، والفلاح لفظ واسع المدلول لا يدع شيئاً من أسباب السعادة والطمأنينة والرضا والعافية إلا شمله ؛ والآخر تفصيلي يوضح به كون هذه الأشياء « من عمل الشيطان » مبرزاً آثارها السيئة في المجتمع بأسلوب قوى مؤثر ، وذلك قوله تعالى : « إنما يريد الشيطان ، إلى آخر الآية ، حيث ذكر العداوة والبغضاء وهما جماع أسباب القلق والاضطراب والشقاء وألوان البلاء ، وذكر الصد عن ذكر الله وعن الصلاة فس بذلك عاطفة الإيمان في المؤمنين واثار اشمزازها . ثم خاطبهم بهذه

الجملة الاستفهامية الرائعة في معناها التي من شأنها أن تُلَقِّقَ للمتقنين : « فهل أتممتهمون ؟ » .

نعم إن سائر الأحكام والقوانين التي أتى بها القرآن الكريم لم تتطور كلها على هذا النحو الذي تطور إليه الأمر في الخمر والميسر، ولم تأخذ كلها في الاحتياط والتدرج هذه الخطوات الوثيدة ؛ ولكن ينبغي أن يعلم أن الأمر في كل حالة كان مبنياً على تقدير ظروف المجتمع ، ومدى استعداده ، ومقدار تأثره ؛ وربما اتخذت في بعض النواحي وسائل أخرى للإقناع غير تركهم وما يبعثه التدرج في نفوسهم من الاقتناع الشخصي كما رأيناه في المظاهر الأخرى التي بينا بها قيام التشريع القرآني على هذه الدعامات .

وهكذا يتبين أن الدعامات الأولى من الدعامات التي يقوم عليها التقنين والتشريع ، ويستحق من أجلها البقاء والاحترام ، قد برزت في التشريع القرآني بروزاً واضحاً ، حيث لم يأت حكم من أحكامه إلا والأمر يتطلبه ، والإحساس العام للمكلفين بترقبه ، وهو مفتتح به بفطرته ، أو بعد البيان من العليم الحكيم . ولم يبق في هذا المقال مجال لبيان الدعامات الثانية ، وهي اقتناع المكلفين بشرعية السلطة التي عنها تصدر التشريعات ، فلتربص بها العدد القادم إن شاء الله .

الرأى السديد

أشار حكيم على حكيم برأى ، فقال : لقد قلت بما يقول به الناصح الشفيق الذى يخلط حلوه كلامه بمره ، وسهله بوعره ، ويحرك الإشفاق منه ما هو ساكن من غيره ؛ وقد وعيتُ النصيح وقبلتُ به ، إذ كان مصدره من عند من لا يشك في مودته ، وصفاء غيبه ، ونصح حبه ، وما زلت بحمد الله الى الخير طريقاً واضحاً ، ومناراً بيناً .

قال العتي : قيل لرجل من عبس : ما أكثر صوابكم ! قال : نحن ألف رجل وفيما حازم واحد ، فنحن نشاوره فكأننا ألف حازم .

الاسلام في نظر المحايدين

لحاضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب

المدرس بكلية أصول الدين

تصدى كثير من الباحثين الأوروبيين للإسلام بالبسط والشرح والتحليل والتوجيه والاستنباط ، ولكن عددا غير يسير من أولئك الباحثين قد أذعنوا لعاطفة التعصب ، فافتادتهم أهواء التحيز إلى طرق ملتوية مليئة بالاشواك ، يزيد بُعدها عن العدالة والنزاهة بقدر ما يمعن أولئك العلماء في الخضوع لغاياتهم الخاصة ومنافعهم الفردية .

ولقد أضلت المطامع الحائلة هذا الفر من المثقفين فجعلوا يتعاملون على الاسلام دون ذنب اقترفه أو جناية جناها ، وأخذوا يتصيدون للكيد له والخط من شأنه توافه الأمور التي قد تبدو على ظواهرها للوهلة الأولى أنها هنات ، ولكن التعمق في جميع مناحيها لا يلبث أن يمحو من النفوس ذلك الوهم السطحي السريع .

وأكثر من ذلك أن أولئك القوم ينقمون أحيانا على هذا الدين ما يثبت العقل السليم والمنطق القويم والمتمسك بالاجتماعي الصحيح أنه مبعث الانسانية ومصدر سعادتها ، أو أنه هو المنقذ الوحيد لها من هودتها .

ولا جرم أن هذه الشرذمة من الباحثين قد طبعت في هذا العصر بطابع الاستهانة والإهمال من جميع الذين يحترمون حكم العقل ويوقنون بأن النزاهة هي أولى بالإجلال وأدنى إلى الخلود .

وهناك فريق آخر من العلماء قد عرضوا للإسلام تُحَدِّق بهم النزاهة ، ويحف بهم نبل القصد ، ويحدوهم الأمل في الوصول إلى كشف بعض الحقائق المجهولة لدى بيئاتهم ؛ ولكنهم انزلوا الى حضضيض الهفوات ، وهووا

في سحيق الكبوات رغم نقاء نياتهم ، وسمو غاياتهم . وسر ذلك الإخفاق إما أن يكون هو الجهل بروح اللغة العربية والقصور عن إدراك مراميها ، وإما الاعتماد على مصادر زائفة مليئة بالباطيل والأضاليل .

وأيا ما كان ، فإن هذا الباحث الذي سنبداً اليوم هنا ببسط آرائه عن الإسلام ، ونناقشها على ضوء المنطق حيناً ، ونحاكم وإياه فيها إلى التاريخ حيناً آخر ، والذي يدعى « ديني سورا » Denis Saurat الأستاذ في جامعة لندن ، هو عالم من أفراد الفريق الأخير الذي ثبت لدينا حسن نيته بهيئة قاطعة ، بعد أن درسنا منتجاته ، وتعقبنا آراءه وأفكاره ، فألفينا أنه ينظر إلى الإسلام بنفس العين التي ينظر بها إلى المسيحية والاسرائيلية ، وأنه يستعمل في حديثه عن القرآن نفس العبارات وعين الصيغ التي يتحدث بها عن الإنجيل والتوراة . وقصارى القول في هذا الشأن أنه إذا حاد عن محجة الصواب فيما يتعلق بالدين الخفيف ، فإن ذلك يكون من جانبه خطأ لاخبثاً ، وجهلاً لا شراً .

والآن اليك كيف ينظر إلى الإسلام في كتابه « تاريخ الأديان » Historie de religions الذى نشر في سنة ١٩٣٣ ، ولكن قبل أن نعرض لبسط آراء هذا العالم ينبغى أن نقرر بدياً أنه يجب على كل باحث قبل أن يخوض في شرح مذهب من المذاهب أو في تحليل آراء عالم من العلماء ، أن يتبين قبل كل شيء المبادئ التي يؤسس عليها ذلك العالم دعائم مذهبه ليسير في توجيهاته وأحكامه على ضوء المعرفة الصحيحة لما هو بصدد من آراء وأفكار .

ونحن إذا سائرنا هذا الناموس العلى - ولا بد لنا من مسيرته - فإنه يتحتم علينا أن نسجل هنا أن هذا الباحث يصدر في آرائه عن مبدئين أساسيين : أولهما أن تاريخ الأديان هو تاريخ لنمو تينك الرغبةين البشريتين المتأصلتين في نفوس أفراد الجنس جميعه ، وهما الحاجة إلى وجود إله ، والحاجة إلى الحياة بعد الموت الدنيوى ؛ وثانى هذين المبدئين : هو أننا الآن في عصر على لا يستطيع الناس فيه أن يقبلوا من لدن الإله إلا ما تقدم اليهم التجربة والملاحظة الأدلة على صحته .

ونحن إذا قبلنا المبدأ الأول على أنه لازم ركزته الحكمة الإلهية في النفوس البشرية لتعدها للتأليه إعداداً فطرياً كي يفوق في متانتها جميع الإعدادات الاجتماعية، لأن العارض لا يرقى في السكال إلى درجة المتأصل، فإن الذي لا ريب فيه هو أننا لا نستطيع قبول المبدأ الثاني الذي صدر عنه هذا الباحث في تفكيره، لأنه، فيما نرى، خاطيء من أساسه، إذ أنه يرمى إلى هدف خطر، وهو إحلال ما يدعوه بالعقل العلمي التجريبي محل العقل الانساني في ذاته، أو العقل من حيث هو. ولا ريب أن هذا الرأي - فضلاً عن أنه فيج سطحي - هو إقرار لطغيان العلم التجريبي على كل ما عداه من جوانب الحياة الفكرية والروحية، وفي هذا من الخطأ مالا يخفى على ذي لب حصيف، إذ كيف يحدد من لديه مُسكة من العقل ذلك الدور الهائل الذي قام به الفكر البشري الذاتي أثناء هذه الآلاف من السنين التي انسلخت من عمر الزمن قبل أن يرى العلم التجريبي نور الوجود.

أما الرأي المعتدل في هذا الشأن، فهو أنه إذا كان العلم التجريبي قد استولى على بعض جوانب العقل الانساني، فإن الذي لا مشاحة فيه بحال هو أنه لم يستوعب كل جوانبه، فضلاً عن أنه يمحو كيانه الذاتي الأول ويستبدله بكيان جديد يدعى بالعقل العلمي الذي لا يتلقى شيئاً آتياً عن أى طريق آخر غير طريق الملاحظة والتجربة. وإنما الحق في هذه النظرية هو أن الجانب العلمي من جوانب العقل البشري الذاتي هو ملكة تنشأ فيه وتنمو كغيرها من الملكات، لأنه كما أن الوجود المطلق أعظم كثيراً من الوجود المحدود الذي يدركه العلم التجريبي، كذلك العقل المطلق من الملكة الخاصة بإدراك نتائج الملاحظة والتجربة.

ومهما يكن من شيء فإن الذي يبدو لنا جلياً من روح هذا الباحث، أنه واقعي النزعة، تجريبي التفكير؛ وتلك وجهة نظر تختلف في أسسها ومراميها مع مبادئ جميع الديانات التي تقرر أن الإله لا يتأله الحس بحال من الأحوال، وأنه مع ذلك أثبت الموجودات. وهذا يكفي لأن نعتبره عالماً أجنبياً محايداً لا يروقه من الأديان إلا ما تشتمل عليه من مبادئ خلقية نافعة، أو قواعد اجتماعية مفيدة للإنسانية. وإذا كان الإسلام أكثر اشتمالاً على هذه المبادئ القوية، وتلك الأسس المتينة،

فقد كان من الطبيعي أن يظفر لدى هذا النوع من العلماء بأعلى الدرجات، إلا في حالة الخطأ التي تحيد بهم عن الصراط المستقيم .

ومن آيات رجحان كفة الاسلام في نظر أولئك العلماء المحايدين الذين لا يلتفتون إلا إلى الجوانب الخلقية والعمرانية من الدين، أن هذا الباحث يبدأ حديثه عن الاسلام بقوله : « إن محمدا يكاد يكون هو الوحيد الذي نعرفه عن طريق التاريخ من بين عظماء مؤسسي الأديان ، إذ أن الخرافات لم تستطع أن تخفيه . . . وإن دين مواعظيه إبان ظهوره كان قد هوى إلى أدنى الدرجات ، أو قل إنه كان لميما من بقايا عقائد بدائية قد تفككت عند ما ارتقت الحياة الاجتماعية في الأمم التي كانت تدين بها ولم يبق فيها راكد سوى الدين . ولا غرو فقد كان العرب يعبدون الجن والأرواح التي تقطن الأحجار إلى جانب عدد من آلهة القبائل المختلفة . ولقد محا الاسلام هذا كله ولم يبق منه سوى الحجر الأسود ، فقد ظل في موطن القداسة الجوهريّة ، إذ وضعه محمد تحت حماية الخليل إبراهيم . ومن الممكن أن تكون هذه سياسة قصد بها التوفيق ، كما يمكن أن يكون ذلك ناشئا من احترام شخصي » .

ونحن نرى أن هذا الباحث قد بدأ حديثه في اعتدال واستقامة حينما كان الطريق أمامه واضحا معبدا ، ولكنه عندما وصل إلى الحجر الأسود كان الأفق قد تابّد بقاتم السحب ، فساد الظلام ، وسرعان ما ضل صاحبنا الطريق فلم يستطع السير إلى الإمام ، ولا الرجوع إلى الخلف ، فوقف حائر اللب ، خائر القوى يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، ويسلم نفسه للفروض والأوهام ، ويرسل قلبه باحثا عن الممكن تارة ، وعن المحتمل تارة أخرى ، ولكن عذره في ذلك واضح ، وهو أن الحجر الأسود كاد - في كثير من الموافف - يكون سببا في تبليبل عقول بعض المسلمين ، وتزلزل عقائدهم لولا أن فوضوا الأمر في شأنه إلى فاطر السموات والأرض ، معلنين أنه حجر لا ينفع ولا يضر ، وأنه من السمعيات التي وجب علينا تنفيذها ، وعزبت عن عقولنا حكمته . ولا شك أن في هذا عذرا لأجنبي كباحثنا . وللحديث بقية .

ثورة في المنطق

لحضرة الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الالهواني
المدرس بجامعة فؤاد الاول

مضى على كشف المنطق أكثر من عشرين قرناً من الزمان ، إذ ينسب الى أرسطو ، ولهذا سمي بالمعلم الاول . قال ابن قيم الجوزية في كتابه « إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، يطعن على أرسطو ما يأتي : « ويسمونه المعلم الاول ، لانه أول من وضع لهم التعاليم المنطقية ، كما أن الخليل بن أحمد أول من وضع عروض الشعر . وزعم أرسطو وأتباعه أن المنطق ميزان المعاني ، كما أن العروض ميزان الشعر . وقد بينَ نَظَار الإسلام فساد هذا الميزان وعوجه ، وتعيجه للعقول ، وتخيطه للأذهان ، وصنفوا في رده وتهافته كثيراً ... »

غير أن منطق أرسطو ظل راسخاً كالطود لم تززع قوائمه هجمات رجال الدين في العصر الوسيط ، إسلاميين كانوا أم مسيحيين . وعلى العكس من ذلك تناول الشراح كتبه بالترتيب والتبويب والتهديب حتى أصبح أشد رسوخاً وأقوى دعامة . والفضل الاول للرواقيين ، إذ جعلوا المنطق آلة لا تفهم الفلسفة بغيرها . ومن تشبيهاهم المأثورة : إن الفلسفة كالبلستان ، المنطق سوره ، والطبيعة شجره ، والأخلاق ثمره .

وأغلب فلاسفة المسلمين يجعلون المنطق آلة العلوم ، ولا يعدونه جزءاً منها . وفي ذلك يقول الشيخ الرئيس ابن سينا في أرجوزته المنطقية :

ما لم يؤيد بمحصل آله واقية الفكر من الضلاله
وهذه الآلة علم المنطق منه الى جل العلوم نرتقى
وظل العرب أمناء على هذا الاتجاه حتى العصور المتأخرة . وتعريف صاحب
الشمسية مشهور ، لا يزال طلبة الأزهر يتداولونه حتى اليوم ، وهو : المنطق آلة
قانونية تعصم مراعاتها الذهن من الزلل .

غير أن فلاسفة العصر الوسيط نحووا بالمنطق نحواً صورياً شكلياً، فأصبح لفظاً يبحتا، وصار جدباً لا يفيد نتائج جديدة، ولا يزيد في ثروة الفكر، ولا يقترب من الواقع.

* * *

وأول ثورة عنيفة ضربت منطق أرسطو في الصميم، هي تلك التي حمل لواءها ديكارت ويكون في القرن السابع عشر. أما ديكارت فهو صاحب المنطق الرياضي الذي استبدل به منطق القياس الجاف الجسد. وأما يكون فهو صاحب «الأورجانون الجديد» Novum Organum، الذي يعارض فيه أورانجون أرسطو، أي الآلة، فوضع أساس المنهج التجريبي الذي يعد أساس كشف العلوم الحديثة.

ولكن ديكارت ويكون لم يتخلصاً تخلصاً تاماً من سلطان أرسطو. فظهرت في القرن الماضي مباحث ستيوارت مل، ولاشلييه، ورايبه، وهوسرل، وشلر وغيرهم، واتجهوا بالمنطق وجهات جديدة مختلفة فيما بينها. ولكنهم جميعاً ظلوا عبيداً لخطأ جوهرى وقع فيه أرسطو وتبعه سائر الفلاسفة.

ذلك هو التوحيد بين الفكر واللغة.

فالمطلق من المنطق. وهم يعرفون الإنسان بأنه حيوان ناطق. ويقصدون بذلك أنه مفكر. قال صاحب البصائر النصيرية: «إن فكر الإنسان في ترتيب المعاني قلباً ينفك عن تخيل ألفاظها معها، حتى كأن الإنسان يناجي نفسه بألفاظ متخيلة إذا أخذ في التروى والتفكر».

ولا تنكر مع القدماء أن اللغة ضرورية، وأتينا نستعين بها في تفكيرنا كما هو الواقع في الغالب. ولكن اللغة تقوم على الألفاظ، والألفاظ «رموز»، واصطلاحات نكسو بها المعاني لتتعلق بها. ولذلك نبه أرسطو إلى أن البحث في الألفاظ لا يهم المشتغل بالمنطق إلا عرضاً، وأن ما يهمننا هو اختيار الألفاظ المحدودة المعاني حتى لا يقع المفكر في اللبس والغموض.

غير أن لغة الكلام التي تتداولها فيها كثير من العيوب. فهي لا تفي بالأغراض الدقيقة التي نحتاج إليها في التعبير العلى الحديث. وإن كنت في ريب من ذلك

فانظر إلى لغة الرياضيين في الحساب والجبر والرسوم البيانية ، تجد أن التعبيرات الرياضية أدق وأوفى . فإن قلت ولكن اللغة غنية بالألفاظ والاصطلاحات ، قلنا : إن فائدتها لا تنكر في الأدب والبلاغة ، ولكن جدواها في العلم قليلة .
والأصل في اللغة أنها وسيلة التفاهم بين الناس في صلاتهم اليومية ، ولم يكن القصد منها التعبير عن العلوم .

وقد فطن أرسطو الى بُعد اللغة عن الصياغة المنطقية الدقيقة ، فأراد أن يردّها الى أشكال مضبوطة ، فصاغ القضية التي تتركب من موضوع ومحمول ورابطة ، وضرب لذلك المثل المشهور « سقراط مائت »

Socrate est mortel

سقراط : هو الموضوع ، ومائت : هو المحمول . أو الصفة التي نصف بها سقراط ، والرابطة يصرح بها في اللغات الأجنبية ، ونعني بها فعل الكينونة ، ولكنها تطوى أو تضر في اللغة العربية ، لأن طبيعة اللسان العربي كذلك . وقد يصرح بها المناطقة فتلا عن اليونانية بقولهم « سقراط هو مائت » .

ويسمى شكل هذه القضية « المنيرة » Apophantique من اللفظة اليونانية فانس أى النور . والمقصود أن الصفة التي نحملها على الموضوع ، توضحه وتلقى عليه الضوء ؛ لأننا إذا قلنا : سقراط ، وسكتنا ، لم نفهم شيئاً .

ولكن القضية المنيرة ليست هي الشكل الوحيد الذي نعبر به عن أفكارنا ، بحيث يدخل الموضوع في المحمول دخولا تاماً ؛ فهناك قضايا لا يتداخل حدّاها بل يضاف أحدهما إلى الآخر . وفي اللغة العادية أمثلة كثيرة لذلك ؛ تقول : القاهرة أكبر من الإسكندرية ، ويقع السودان جنوب مصر ، ومحمد أذكى من علي ... إلى غير ذلك .

ومن هنا ظهرت الحاجة إلى وضع « جبر » خاص بالمنطق هو الذي يسمى بالمنطق الرمزي أو الجبري أو العلي .

Logique symbolique, ou logistique.

ولهذا النوع من المنطق ، الذي يعد ثورة عنيفة في منطق أرسطو ، تاريخ

طويل يرجع إلى العصر الوسيط ، ولم يبرز إلا على يد لينتير في أوائل القرن الثامن عشر ، الذى أراد أن يكشف أشكالا عامة تتلاءم مع جميع مناهج التفكير . غير أن ظهور المنطق الرمزى بحيث يحتل مكان المنطق القديم لم يتم إلا فى العصر الحاضر ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى عدد كبير من العلماء ، منهم فيلسوف رياضى لا يزال على قيد الحياة هو برتراند رسل ، وهو يبلغ الثمانين من العمر فى الوقت الحالى ، إذ هيأت شخصيته البارزة جمهوراً يستمع إليه ، يأخذ بأرائه ، ويستعمل الأسلوب الجديد العلمى فى المنطق . ومما ساعد على ذلك أن الاتجاه الحديث فى العلوم اتجه رياضى ، فلا غرو أن يصبح المنطق الحديث رياضياً . ويشغل اليوم هذا المنطق كثير من العلماء المختصين فى الرياضة والطبيعة ، وظل الفلاسفة بعيدين عن هذه الحركة الجديدة .

ولم يكن العرب فى العصر الوسيط بعيدين عن هذا الاتجاه ، فقد أحس مناطقهم بضرورة رد المنطق إلى الرموز الجبرية ، ولهذا تجدد فى كتب أئمتهم شيئاً من ذلك ، إذ يقولون : كل a ، وكل b ، إذن كل a . كأنهم استبدلوا الرموز الجبرية بالألفاظ اللغوية ، ولكن شكل القضية ظل منيراً (أبوفانتيك) من جهة ، كما أن المنطق الرمزى الحديث ينظر إلى الموضوع نظرة تحالف النظرة التى جرى عليها العرف من قديم ، مما نحدثك عنه بعد قليل .

ولو استمرت نهضة الحضارة الإسلامية ، ولم تعمل عوامل التوقف والتأخر عملها ، لكان خليقاً أن يصل فلاسفة العرب إلى ما وصل إليه علماء أوروبا اليوم فى المنطق الحديث .

ولقد أصبح المنطق الرياضى فى أيدي العلماء أداة دقيقة ثمينة يعز استبدال غيرها بها . وفطن الفلاسفة كذلك إلى أهمية المنطق الرمزى ، ولكنهم أحلوه فى المرتبة الثانية ، وعدوه فرعاً لا غنى عنه من المنطق العام . أما منطق أرسطو الذى درجنا على درسه واستخدامه فهو ذو فائدة عملية فى الحياة اليومية ، وهو إلى جانب ذلك رياضة عقلية . أما المنطق الرمزى فإنه يوضح الفكر الغامض حين

يلغى التعبيرات الملتبسة ، ويبعد عن الذهن آثار الغموض ، وهو أكثر ضرراً من الخطأ . وهو إلى جانب ذلك لا يوقع المرء في مزالق الأخطاء الناشئة عن الهوى والعواطف ، والألفاظ الرنانة الخلابة التي تعبر عن المثل العليا في المجتمعات الإنسانية .

أى أن المنطق الرمزي هو الذى يرد العقل حقاً إلى الصواب ، أو كما قال القدماء : إنه هو الذى يعصم الذهن من الزلل .

ولقد سمي المنطق الرمزي كذلك ، لأنه ضرب صفحاً عن الألفاظ الجارية في اللغة . ويقول الأستاذ موريس Mouris وهو من أئمة هذا الفن في كتابه « مدخل إلى المنطق » : إن استعمال الرموز بدلاً من الألفاظ المألوفة يرجع إلى الحاجة العملية أكثر مما يرجع إلى ضرورة منطقية . ذلك أن جميع القضايا يمكن التعبير عنها في أثواب من اللغة . غير أننا لا نستطيع أن نتقدم تقدماً كافياً بالمعرفة الرياضية والمنطقية بدون الاستعانة بالرموز المناسبة ، مثلنا في ذلك مثل صاحب التجارة الحديثة الذى لا يستغنى في تجارته عن استعمال « الشيكات » بدلاً من العملة ، أو مثل من يبني الدور الحديثة ويستعين بآلات خاصة . فالتفكير الرمزي ضروري إذا اتسع نطاق التفكير ، كما نحتاج إلى أدوات خاصة في التجارة الواسعة .

فإذا أردنا أن نصيد مقداراً كبيراً من السمك ، فعلينا أن نستعمل شبكاً من نوع خاص . أما معارضة المنطق الرمزي فإنها تشبه المعارضة التي ظهرت عند استعمال الآلات البخارية ، تنشأ من الميل إلى المحافظة والبعد عن التغيير .

والمنطق الرياضى ينظر في الألفاظ ، ثم في العلاقة بين رمز وآخر ، ثم في العلاقة بين هذه المجموعات . ولذلك يسمى المنطق الحديث منطق العلاقات .

والألفاظ ، أو الرموز التي نريد أن نضعها ، هي بطاقات نضعها على الأشياء الخارجية ، تدل عليها دلالة ذهنية : مثل الباب ، والشباك ، والماء ، والشمس ، وهذا البيت ... الخ . فنحن نشاهد في الواقع أشياء محسوسة لها طول وعرض

وعمق ، وتتصف بلون ، ولها شكل . وهذه الأشياء تتغير ، ويتصل بعضها ببعضها الآخر ، أو بينها علاقات يضاف أحدها إلى صاحبه . تقول : الباب أمام الشباك والشمس فوقنا في السماء وهكذا . . . كل شيء من هذه الأشياء كل لا يتجزأ ، له شخصية مستقلة .

وكان المنطق القديم ينظر إلى الأشخاص أو الأفراد ، ثم يجمعها في النوع ، ويرفع الجنس فوق النوع . النوع « إنسان » يشمل سقراط وزيد وعمرو . . . وهكذا ، ثم تقول بعد ذلك : سقراط إنسان ، ثم تقول : الإنسان حيوان ، باعتبار أن الجنس حيوان يشمل أنواعاً منها الإنسان والطيور والزواحف ، إلى آخر أنواع الحيوان .

هذه النظرة غير دقيقة وغير صحيحة ، لأن الإنسان ليس بمجموع سقراط وزيد وفلان وفلان ؛ إذ الواقع أن « إنسان » لا يتركب من زيد وعمرو ، وليس هذا الشخص وذاك وذاك أجزاء من النوع .

إذا كان الأمر كذلك فإذا نضع بدلاً من النوع والجنس ؟

يقول المنطق الرياضي : نضع المجموعة Ensemble ، وهي تدل على الأفراد بضروب ثلاثة من الدلالات .

الدلالة الأولى بالتعيين par désignation ، مثال ذلك : إذا دخلت مكتبة وطلبت من البائع « هذا الكتاب » ، أو « هذه الكتب الثلاثة » ، أو « هذه المجموعة من الكتب » ،

الدلالة الثانية بالعدد par énumération ، مثال ذلك : الجراح حين يجري عملية جراحية يعد المشارط والأسلحة ، ويضع بها بيانا حتى لا ينسى منها سلاحاً في بطن الجريح .

الدلالة الثالثة بالإضافة أو العلاقة par relation . مثال ذلك : الدائرة هي مجموع النقط المتساوية الأبعاد من المركز .

هذه المجموعات تختلف عن « النوع » في المنطق القديم . وما يهمنا منها هو الدلالة الأخيرة أى المجموعة التي تضم الأفراد لما بينهما من علاقات . كان المنطق

القديم يقول : إن النوع إنسان له صفات يملكها ، وهي تعرف عندهم بالمفهوم ، ويشمل أفراد بني الانسان ، ويصدق عليهم ويسمى الماصدق . وأن النوع يحتوى على جميع الصفات أى المفهوم ، ويدخل تحته جميع الماصدق أى الأفراد . غير أن المفهوم بالمعنى القديم لا يصبح له مكان إلى جانب المجموعات والعلاقات في المنطق الرمزي الحديث . وفي ذلك يقول وليم جيمس العالم النفساني « الكلب كلفظ لا يعرض » .

والمنطق الرياضى يضع بدلا من الألفاظ رموزاً . فإن قلت : ولكن الألفاظ رموز ، قلنا : إن الاصطلاح الرياضى أدق وأحكم . وأول مظهر لهذه الدقة أن الرموز منها ثابتة Constant ، ومنها متغيرة Variable ؛ ولا يقال عن الألفاظ إنها ثابتة أو متغيرة .

والرموز الثابتة والمتغيرة مستمدة من الرياضة . مثال ذلك : العدد « ١ » ثابت ، إذ له معنى لا يتغير مع الاستعمال في العمليات الحسابية . أما الرموز س ، ص ، وما إلى ذلك فهى متغيرة لأنها لا تحمل معنى مستقلاً بذاتها . فلو قلنا : هل الواحد عدد صحيح ؟ كان الجواب بالنفى أو الإثبات ، ولكنه على أى حال جواب يدل على معنى سواء أكان صادقاً أم كاذباً . أما إن قلنا : هل س عدد صحيح ؟ فلن يكون للجواب معنى مفهوم . الخلاصة أن « س » عدد متغير لا يمكن أن يكون له معنى حتى نحدده .

ونعود بعد ذلك إلى الألفاظ واللغة التى درجنا على استعمالها .

الواقع أن دراسة تطور الانسان من الطفولة إلى الشباب تبين لنا أن المنطق أسبق من التفكير ؛ لأن الطفل يتعلم لفظ الكلمات قبل أن يتعلم الحكم على مدلولاتها . وكثيراً ما يحفظ الشباب ألفاظاً لا يعرفون مغزاها . على أن وصول الذهن إلى مدلولات الألفاظ لا يتم إلا بإضافة الأشياء إلى غيرها وتحديد ما بينها من علاقات . وقد تكلم قدماء المناطق فى الدلالات فقالوا : إنها على ثلاثة أنواع : دلالة المطابقة والتضمن والالتزام ، وذلك بالنظر إلى الشيء الذى يدل عليه اللفظ . ولكن المنطق الحديث ينظر إلى دلالة الألفاظ على المعنى من جهات ثلاث : (١) الشيء أو الموضوع . (٢) ما يشير اليه الشيء أو ما يوصف به .

(٣) الشخص الذى يشعر بهذا الشيء ويدركه . وهناك علاقة وثيقة بين هذه الجهات الثلاث . مثال ذلك « الورد أحمر » يفهم منها العالم معنى ، والشاعر معنى ثانياً ، والرسام معنى ثالثاً . ولا نقصد من هذا أن نخلط بين النفسية والذاتية ، فهذه المعاني المختلفة نشأت من النسبة بين المدرك لها وبين لون الورد .

مهما يكن من شيء فإن اتجاه المنطق الحديث هو أن يجعل التعبير موضوعياً ، وبذلك يدنو من العلم الصحيح . نحن نقول « الذهب أصفر » ونعد هذه القضية صحيحة ذات دلالة تامة ، وأنها قضية صادقة لأنها تنطبق على الواقع . ومع ذلك تعال نمتحن هذه القضية البسيطة في ظاهرها ، وسوف نجد أن الذهب ولونه الأصفر جزءان من العالم الزاخر بالأشياء والصفات ، وهو عالم شديد التعقيد ، وليس لنا أن نحكم بصدق هذه القضية أو كذبها إلا إذا نظرنا فى جملة الظروف المحيطة بها . فالذهب أصفر فى ضوء خاص ، فإذا تغير الضوء تغير اللون .

وأظن أنه أصبح من الواضح أن أصحاب المنطق الرياضى على صواب فى نظرهم إلى الحدود ، واعتبار أن بعضها ثابت وبعضها متغير . فقد رأينا أن « أصفر » ليس حاداً ثابتاً بل متغيراً ، وذلك حسب الظروف المحيطة به .

ليس غرضنا أن نكتب بالتفصيل فى هذا المنطق الحديث ، فقد ألفت فيه المطولات والمتون ، وإنما ضربنا المثل بشيء مما يقال فى باب الألفاظ ومدلولاتها واستبدال الرموز بها .

وجملة القول : إن المنطق الرمضى أصبح أداة علماء الرياضة والطبيعة ، ولا يزال المنطق الارسططاليسى أداة اللغة المستعملة بين الناس فى معاملاتهم ؟

من الحماسة

قال شاعر عربى :

وأخذى الحمد بالثمن الريح	أبت لى شيمتى وأبى تسلادى
وضربى هامة البطل المشيح	واقدمى على المكروه نفسى
مكانك تحمدى أو تستريحى	وقولى كلما جشأت وجاشت

فلسفة القرآن

والحياة الآخرة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد يوسف الشيخ
المدرس بكلية أصول الدين

أنكرنا في مقالنا السابق على الأستاذ العقاد في مقاله الحياة الأخرى من كتابه «الفلسفة القرآنية»، أمرين : أولهما أن النعيم والعذاب في الحياة الثانية روى بحسب، وأبنا أن النعيم والعذاب في الآخرة ينظم أنواعا مختلفة من اللذائذ والآلام، ما هو مادي منها كالطعام والشراب والإحراق، وما هو روى لا صلة له بالجسم والجسمانيات ؛ وهذا أبعد الأمرين في باب النعيم والعذاب ، وليس الأمر قاصرا على هذا الأخير كما جزم الأستاذ العقاد

وفي هذا المقال تناقش الشواهد التي ساقها تأييدا لما جزم به :

قال الأستاذ أولا : « فالإمام غفر الدين الرازي مثلا يقول في تفسير الاتكاء على السرر الموضونة : معناه أن كل أحد يقابل كل أحد في زمان واحد ، ولا يفهم هذا إلا فيما لا يكون فيه اختلاف جهات ، وعلى هذا فيكون معنى الكلام أنهم أرواح ليس لهم أديار وظهور ، فيكون المراد من السابقين هم الذين أجسامهم أرواح نورانية ، جميع جهاتهم وجه كالنور الذي يقابل كل شيء . »

وأقول : هذا أحد رأيين ذكرهما الإمام الرازي في تفسير التقابل ، قال الإمام في تفسير قوله تعالى « على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين » : إن التقابل هنا فيه وجهان : الأول أن المتكئين على السرر لا يتدابرون بل كل منهم يستقبل الآخر في وقت واحد لا استدبار بينهم أصلا . والثاني أنهم متساوون في المكانة والرتبة لا يرى أحدهم أنه دون الآخر ، فالتقابل في الوجه الأول خلاف التدابر ، وفي الوجه

الثاني عدم التفاوت في المكانة والتقدير . وبعد ذلك رجح الإمام من الرأيين ثانيهما . فإن الأول يقتضى أن أولئك المتقابلين أرواح نورانية لا ظهور لهم ولا أدبار بل جميع جهاتهم وجه واحد كالور لا ظهر له ولا دبر ، يستقبل كل شيء ولا يستدبره ، حتى يمكن أن يتقابل الجميع في وقت واحد . هذا التصوير كما ترى لا يناسب المكانة التي قررها الله تعالى لهم في الاتكاء على السرر ، بل الذي ينسجم معها ولا ينافرها إنما هو الوجه الآخر ، فلمذا كان أقرب الوجهين .

نرى في هذا التمثل وجهين ذكرهما الإمام في تفسير التقابل ، اقتصر الأستاذ العقاد على أحدهما وتناسى الآخر ، وقد كان هو الراجح المختار عند الإمام الرازي ؛ وقد استند في ترجيحه إلى ما يشهد شهادة سافرة بأن من النعيم الآخروي ما هو مادي ، فإن الاتكاء على السرر الموضوع حقيقة كما يشهد بأنه لا يمكن أن يكون لجسوم نورانية روحية حتى ليستحيل الوجه الأول من التقابل ويتعين الثاني منه ، يشهد أيضا بأن من النعيم الآخروي ما هو مادي وهو ظاهر ، فإن الاتكاء على السرر الموضوع لون من ألوان النعيم ، وقد سبق في الآية الكريمة بياننا لما أعده الله تعالى للسابقين من نعيم وجزاء .

يذيل الأستاذ العقاد هذا الشاهد بقوله « وهذا فهم فيلسوف باحث في الجواهر والأعراض ، وفي مطالب الأرواح والأجسام » .

وأقول : لم يفهم هذا الفيلسوف ما يحتال الأستاذ العقاد ويحاول أن يضطره إلى فهمه حتى يختلس من الإمام شاهدا على ما زعمه ، بل الذي فهمه ذلك الفيلسوف واختاره هو ما يدحض ما زعمه الأستاذ . ولعل هذا هو السر الذي من أجله تناسى الأستاذ الوجه الثاني من الوجهين في معنى التقابل ، فأبرز لنا شاهدا من كلام الامام تناوله الامام نفسه بالتجريح ، وأغفل شاهدا تناوله بالتركية والترجيح . وإن كنت في ريب من مذهب الامام ورأيه في نعيم الآخرة فاسمع قائله في الآية الكريمة « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل ، وأتوا به متشابها ، ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون » .

قال الامام بعد بيان طويل للبعث الجسمي وأن الانسان الثاني على نمط هذا الانسان الأول قال : المسألة الثالثة (ص ٣٤٤) : «اعلم أن مجامع اللذات إما المسكن أو المطعم أو المنسكح ، فوصف الله تعالى المسكن بقوله تعالى «جنات تجري من تحتها الأنهار» ، والمطعم بقوله تعالى «كلوا رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل» ، والمنسكح بقوله سبحانه «ولهم فيها أزواج مطهرة» ثم إن هذه الأشياء إذا حصلت وقارنها خوف الزوال كان التمتع منغصا ، فبين سبحانه أن هذا الخوف زائل عنهم فقال «وهم فيها خالدون» فصارت الآية دالة على كمال التمتع والسرور . هذه قالة الامام الرازي ثادى بلغة لا لبس فيها ولا إبهام بأن من العيم الأخرى ما هو مادي فيه مسكن ومطعم وزينة .

الشاهد الثاني في دعوى الأستاذ العقاد : ما فهمه الصوفية في نعيم الآخرة ؛ فقد فهموا نعيما روحيا غايته الوصول إلى الله تعالى ، وأتى الأستاذ بنصين من كلام المتصوفة يؤيدان هذا الشاهد .

الأول : سمعت رابعة العدوية قارئا يتلو قوله تعالى « وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون » فقالت : نحن إذن صغار حتى نفرح بالفاكهة والطيور .
الثاني : سمع الشبلي قوله تعالى « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، فصاح صيحة عظيمة وقال : فأين الذين يريدون الله تعالى . وكان يقول في قوله تعالى «كأوا واشربوا» إن كان ظاهره إنعاما فباطله انتقام وابتلاء واختبار لينظر تعالى من هو معه ومن هو من حظ نفسه .

وأقول : أسلفنا في مقالنا السابق أن المحققين من أهل الملل يرون أن النعيم والعذاب في الحياة الثانية ينتظم اللذائد والآلام مادية وروحية ، وأن الثاني أبعد أثرا في باب النعيم والعذاب . وقد تأيد ذلك بالكتاب والسنة . والصوفية إذ تهدف إلى النعيم الروحي والوصول إلى جناب الحق تعالى ، لا ينكرون أن بجانب ذلك نعيما ماديا يغتبط به الجماهير والعامة من أهل الأديان . فالصوفية إذ يتكلمون في هذا الموضوع لا يتكلمون عما هو كائن ، إنما يتكلمون عن أمانتهم وآمالهم لحسب ، وهو رجاء يهدف إلى نوال أبعد الأمرين من النعيم .

وفي كلام الصوفية أنفسهم ما يشعر بما نقول ، قالت السيدة رابعة :

كلهم يعبدوك من خوف نار ويرون النجاة حظا جزيلا
أو بأن يدخلوا الجنان فيحفظوا بقصور ويشربوا سلسيلا
ليس لي في الجنان والنار حظ أنا لا أبتغي بحبي بدिला

فحديث الصوفية عن النعيم الروحي كما ترى في كلام السيدة رابعة إنما هو حديث عن الآمال التي يبتغونها عند الله تعالى ، كما هو شأن الفلاسفة في ذلك ، وحكاية ابن سينا في النجاة ، ونقلناه في مقالنا السابق ؛ أما أن مرادهم أن النعيم الآخروي لا يكون إلا من هذا اللون الروحي فلا ، وليس حديثهم في ذلك .

وأما قول الشبلي كما حكاها الأستاذ في الآية الكريمة كلوا واشربوا : إن كان ظاهره إنعاما فباطنه انتقام وابتلاء واختبار ، فأقول : إنما كان المأكل والمشرب ابتلاء واختبارا لما يكتشفه في هذه الحياة الأولى من تبعات وتكاليف ، فالطعام والشراب إنما يباح تناوله إذا كان من سبيل مباح لا غصب فيه ولا سرقة ، فهو مما يتعلق به أوامر الله تعالى ونواهيه ، فكان الأكل والشرب في الحياة الأولى ابتلاء واختبارا ، أما الطعام والشراب في الحياة الثانية ، فليس الأمر فيهما على هذا المنوال ، بل هو محض متعة ولذة بريئة من التبعات والتكاليف جزاء خالصا للصالحين .

تناول الأستاذ العقاد أمرا آخر هو أن عذاب الآثمين ينقطع وينتهي أمرهم إلى الغفران ، وأن الأنفس جميعا تتلاقى في حظيرة الرضوان ، وأما ما ورد من النصوص الدينية من الخلود والابد فأنما يفيدان الزمان الطويل ، ولا يفيدان البقاء بغير انتهاء . وأقول : هذا الحكم في عمومه وشموله لم يقل به ملئ ولا فيلسوف بل لهم في ذلك تفصيل .

قالوا : الإثم إما كفر وإما معصية أخرى . أما الكفر فقد أجمعوا على خلود صاحبه في العذاب لا ينتهي عذابه أبدا كيفما كان العذاب روحيا كما يرى الفيلسوف ، أو ماديا كما يرى الملى ، نقل ذلك عن الفريقين كتب الكلام .

قال الرازي في المحصل ووافقه الطوسي في تعليقاته ص ١٦٩ : د اتفقت الفلاسفة على شقاوة النفوس الجاهلة ، واتفقوا على أن تلك الشقاوة مخلدة . وقال العضد في المواقف ص ٥٨٢ : د قال الحكماء : النفوس الناطقة لا تقبل الفناء ،

ثم إنها بعد مفارقة البدن إما جاهلة جهلا مركبا، وإما عالمة؛ أما الجاهلة فتألم بعد المفارقة أبدا كالكافر عندنا، وذلك لشهورها بقمصانها وتمصانا لا مطمع لها في زواله .

وحكى صاحب المناصير عن الفلاسفة في ص ٢٢٤ ج ٢ قال : وتفصيل ما قال الحكماء : إن فوات كمالات النفس يكون إما لأمر عديم كتنقصان غريزة العقل ، أو وجودى كوجود الأمور المضادة للكمالات ؛ وهى إما راسخة أو غير راسخة ، وكل واحد من الاقسام الثلاثة إما أن يكون بحسب القوة النظرية أو العملية ، فالكمال الذى يفوت النفس لتقصان الغريزة فى القوتين لا عذاب عليه بعد الموت ، والذى يفوتها لوجود مضاد راسخ فى القوة النظرية كالجهل المركب الذى صار ملكة للنفس لا يفارقها ، فعذابه بعد الموت دائم . والذى يفوتها لوجود مضاد فى القوة النظرية غير راسخ كاعتقادات العوام الخاطئة ، أو فى القوة العملية راسخا أو غير راسخ كالإخلاق الرديئة مستحكمة وغير مستحكمة فعذابها بعد الموت على فوت هذا الكمال ينقطع ، إلا أنه يختلف كما وكيفما حسب اختلاف تلك الأخلاق الرديئة قوة وضعفا ، وحسب اختلاف وجودها طولا وقصرا .

هذا رأى الفلاسفة : أما رأى المايين فقد حدث عنه الرازى فى محصله ، والعصدي فى موافقه ، والسعد فى مقاصده .

قال الرازى فى صفحة ١٧٣ : أجمعوا على أن وعيد الكافر المعاند دائم ، وأما الكافر الذى بالغ فى الاجتهاد ولم يصل الى المطلوب فقد زعم الجاحظ والعنبرى أنه معذور لقوله ، ما جعل عليكم فى الدين من حرج ، والباقون أبوه (أى أبوا ما زعمه الجاحظ والعنبرى) بل حكمه كحكم المعاند فوعيده دائم ، وادعوا فيه الإجماع . وقد ناقش الطوسى رأى الشيخين فقال : المبالغ فى الاجتهاد يستحيل أن يؤدى اجتهاده الى الكفر ، بل إما أن يصل الى الحق أو يبقى ناظرا ، وهو فى كلا الأمرين ناج ، وأما قوله تعالى ما جعل عليكم الخ فخطاب لمن دخل فى الدين .

وقال صاحب المواقف فى صفحة ٥٨٦ : أجمع المسلمون على أن الكفار مخلدون فى النار أبدا لا ينقطع عذابهم ، سواء بالغوا فى الاجتهاد والنظر ولم يهتدوا ، أو اهتدوا لكنهم عاندوا أو تكاسلوا . وأنكر ذلك طائفة خارجة من الملة الاسلامية .

وأنكر الجاحظ والعنبري الخلود للبالغ في الاجتهاد ولم يهتد . ثم قال صاحب المواقف أخيراً : واعلم أن الكتاب والسنة والاجماع الذي انعقد قبل ظهور هؤلاء المخالفين يبطل ما زعمه هؤلاء . بل قال شارح المواقف : إن ما زعمه هؤلاء مخالف لما علم من الدين بالضرورة . وفي المقاصد صفحة ٢٢٨ مثل ما قال صاحب المواقف : واعلم أن الخلود ظاهرة لازمة لآيات الوعد والوعيد في شأن الكافرين والمؤمنين قلما يجد آية منها خالية من الأبدية والخلود . وهذا هو السند الذي انعقد إجماع المسلمين من أجله على خلود المؤمنين في نعيمهم ، والكافرين في عذابهم . أما ما وراء الكفر من المعاصي والآثام فجوز غفرانها جمهور المسلمين تمسكا بمثل قوله تعالى « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » . وشذ عنهم في كبائر الآثام أهل الاعتزال تمسكا بمثل قوله تعالى « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها » . وقد حمله الجمهور على المكث الطويل حتى لا يتعارض مع قوله تعالى « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

ولعلك بعد هذا البيان الذي تناول الآثام في أحكامها وجزائها ، وأن منها ما عقابه أبدى مخلد ، ومنها ما له نهاية وغاية ، لا تطمئن إلى ما زعمه الاستاذ العقاد في مقاله « من أن العذاب تطهير وتكفير ، وأن الأنفس جميعاً تتلاقى في حظيرة الرضوان » . بل من النفوس الآثمة ما يبقى دائماً في بئر الهوان بعيداً عن حظيرة الرضوان ، وهم الآثمون بالكفر ، والجاهلون بالعقائد الحقّة جهلاً مركباً .

وما تمسك به الاستاذ سنداً لعموم ما زعمه « من أن المفسرين كادوا أن يجمعوا على انتهاء عذاب الآخرة إلى الغفران ، وأن الخلود والأبد يفيدان الزمان الطويل ولا يفيدان البقاء بغير انتهاء » فهذا لا يفيد شيئاً فيما زعمه ، فإن المفسرين إنما ذهبوا إلى ذلك في الخلود الذي اقترن بالوعيد على إثم ليس من الكفر في شيء ، كآية « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها » . أما الخلود المقترن بوعيد الكفر فجمهور المفسرين على أنه الأبدية التي لا تنتهي ولا تقف عند غاية . وكذلك الأحاديث الواردة في الغفران فإنما هي في الآثام التي ليست من الكفر في شيء . وسند ذلك كله الآية المحكّمة « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

شعراء الأزهر

٣ - حسن القاياتي

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الجواد رمضان
المدرس بكلية اللغة العربية

ذاك جُذِّلَها المحمَّك، وعُذِّقَتْهُا المرجَّب : حسن بن محمد بن عبد الجواد
ابن عبد اللطيف ؛ زعيم بيت القاياتي ، بيت مصر الوسطى : الجيزة ، وبنى سويف ،
والمنيا ، والفيوم . وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية ؛ وشيخ رواق الفشنية
في الأزهر الشريف ، والنائب الوفدي السابق .

ينتهي نسبه من جهة أبيه ، إلى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أبي هريرة
رضي الله عنه ؛ ومن جهة الأم إلى الحسن السبط رضي الله عنه .

وبيت القاياتي أشبه البيوت الدينية بالزوايا التي كان لها بالأوطان الإسلامية
في العهود المتوسطة شأن مذكور . فقد كان — وما يزال — محط رجال الوافدين
من الواحات ، ومن بلاد المغرب ، ومن أقاليم مصر الوسطى ؛ يلقون في أوضاعه
الكريمة ، وفي رحابه الفسيح ، وفي سماحته الطبيعية ، عودة الغريب إلى وطنه ،
والتنازع^(١) إلى عَـطَنِهِ ، والطارئ إلى فَنَنِهِ .

وهو — إلى أنه بيت دين وكرم — بيت علم وأدب وسياسة . فن أعلام
علمائه : السيد أحمد عبد الجواد أحد علماء الأزهر وشيخ الفشنية في القرن التاسع
عشر ، والسيد عبد العظيم محمد زعيمه السابق ؛ وكل رجاله أدباء ؛ ولهم في السياسة
المصرية مقام مشهود ؛ فالسيدان : محمد وأحمد عبد الجواد في الصف الأول من
زعماء الثورة العرابية ، وكان حظهم من آثارها النفي إلى سوريا الشقيقة لمدة أربع
سنوات ؛ والشيخ مصطفى النباياتي ، كان من أبرز أعضاء الوفد المصري ، وخلفه

(١) النزاع : البعيد المغترب يمن إلى وطنه .

شقيقه السيد إبراهيم شيخ الفشنية السابق ؛ وعلى الجملة : لم تجد في مصر حركة وطنية أو دينية ، لم يبذل فيها بيتا النمايات في القاهرة وفي « القبايات » ، أوفى قسط من الجهود الأدبية والمادية بذل السخنى المسماح .

والسيد حسن القبايات ، من لدات المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الأزهر السابق ، وصاحب الفضيلة الشيخ محمود أبى العيون سكرتير الأزهر ، عمل تقارب أوطانهم الخاصة — مع ذلك — إلى اتصالحهم في الأزهر لما وفدوا عليه لطلب العلم ؛ فكانوا في دروسهم وأسمارهم ، وارتياضهم ، وفي أفراحهم وأتراحهم ؛ وفي إقامتهم وأسفارهم ؛ لا يكادون يفترقون ؛ ولقد مضى شيخ الأزهر السابق إلى لقاء الله وقد أوفى على الغاية ؛ وها هو ذا صديقه أبو العيون يسير في طريقها ، مد الله في أجله ؛ وبقي شاعرنا شيخنا لرواق الفشنية لا لأن حرفة الأدب أدركته ، ولا لأن حظه من المحصول العلمى كان أقل من حظ صديقه العظيمين ؛ بل لأن عزة الشاعرية أبت عليه أن يذل للجنة امتحان فيخضع لحكمها أعطته أو حرمته ، وقد يكون من بين أعضائها من هو دونه في موضوع الحكومة ؛ ولولا ذلك لكان له اليوم شأن آخر ؛ ولهم قتلنا له في الذروة والغارب لثنيه عن هذا رأى ، ولكن كان قد فات الأوان ، وما شاء الله كان !

كان للمغفور له أمير الشعراء شوق بك في حياته خصوم وأنصار ، وكان من أبرز خصومه الأستاذان الصديقان العظيمان : العقاد والمازنى ، فقد كان ينقدان شعره وينشران النقد في الصحف ، بل لقد أخرجنا مجلة في نقده بخاصة أسمياها « الديوان » ، وكان الأمير يبغض النقد جدا . ومن دون هذين طائفة أخرى ، تنقده شفويا في المجالس والأسمار ، وكان منها المرحوم الأستاذ الهراوى ، وشاعرنا السيد حسن . أما أنا فكنت من أخلص أنصاره عاطفيا ؛ واتفق أن نشر للأمير إحدى قصائده ، وأنشدت في بيت القبايات ، فأخذت أسرف في مدح القصيدة بخاصة ، وفي مدح شعر الأمير بعامة ، لإسرافا عاميا غاليا ؛ فالتفت إلى السيد حسن ، وقال لى في حدة : على أى أساس بنيت هذا المدح ؟ ! فأطرقت ،

ولم أحرز جواباً ! وكان أبلغ درس تلقينته في النقد الأدبي ، وأفدت منه ما آكل به خبزي في هذه الأيام !

ولقد مضى شاعرنا السيد حسن القاياتي بجزالة الأسلوب الشعري ونخامته ، وشرف المعنى ودقته ، بلا جدال ؛ وما أحاشى من شعراء النهضة الحديثة من أحد لا من الأموات ، ولا من الأحياء . يبدو أن الناس - منذ جرير والفرزدق - يختلفون في أى الشعارين أفضل ؟ الشاعر ذو الأسلوب الجزل الفخم ، أم الشاعر ذو الأسلوب الرقيق العذب . قال يونس بن حبيب : « ما ذكر جرير والفرزدق في مجلس شهادته قط ، فاتفق المجلس على أحدهما ، وقال أبو الفرج - بعد أن أفاض في اختلاف الناس في جرير والفرزدق - : « أما من كان يميل الى جزالة الشعر ونخامته وشدة أسرهِ ، فيقدم الفرزدق ، وأما من كان يميل الى أشعار المطبوعين ، وإلى الكلام السهل الغزل ، فيقدم جريرا » . وهذا يشرح قول يونس بن حبيب ، وقد سئل عن رأيه الخاص فيهما ، فقال : « الفرزدق أشعر خاصة ، وجرير أشعر عامة ، فان نسبة الخاصة التي ترونها جزالة الشعر ونخامته ، الى العامة التي تطربها أشعار المطبوعين ، لا تنكاد تبين .

ومن هنا ذهب بالشهرة وبعده الذكر ، كثيرون من الشعراء الذين يسمون هم أنفسهم بالسيد حسن عن مستواهم الشعري ، وهم في ذلك غير ملومين ، فتلك شنشة الجماهير ، لا في الشعر فحسب ، بل في أكثر شؤون الحياة .

ولعل أوضح ما يمثل المذهبين ، شعر السيد حسن القاياتي ، وشعر الشاعر الفحل ، الأستاذ محمود غنيم ، شاعر دار العلوم ؛ فهذا شاعر يفسق من شعره طاقة من الزهر ، وذلك شاعر يشيد من شعره هيكل من الصخر ؛ ولقد تلاقى الشاعران في رثاء المغفور له شيخ الأزهر السابق الشيخ مصطفى عبد الرازق طيب الله ثراه ؛ وتواردا على بعض المعاني ، فجلاها كل منهما مُعلّسة بِرَوسِمِهِ الخاص الذى يستعصى على « التقليد » ، وانفرد كل منهما بمعانٍ آخر ، وكلاهما في مذهبه مجيد كلٌ المجيد ؛ ومع كل أولئك ، تغلب جانب الجماهير ، فأنشدت قصيدة الشاعر غنيم على وجهها ، وأحسن استقبالها ، على حين اكتفى من قصيدة السيد بأبيات لعلها ليست أروعها ولا أندرها .

يذكر غنيم بيت عبد الرازق فيقول :

نمته أصول ، لو نمتي النجم بعضها	لحرك عطفه من التيه إن بدا
ورباه بيت يخدم الناس شيخه	وإن كان فيه الطفل يولد سيذا
على البر والتقوى تأسس ركسه	ومن لبنات العلم والدين شيدا
نما زهر الآداب حول سياجه	وصاح به طير البيان مغردا
وطابت ثمار الفكر في ظل روضه	وأشدد فيه الشعر درا منضدا
تشاهد فيه الشافعي ومالك	وتلقى ابن عباد به والمبردا
فللعلم منه سامر أي سامر	والأدب العالي هنالك منندي

* * *

ويتناوله القاياتي فيقول :

يا مصطفى أمل الحجا	في أمة خطبت حجاجها
فطر الملائك ربها	في مثل خيمك ، واحتذاها
الشمس بيدك ، والعلا	تنهل عارفة وجاها
عرفوا أباك فسدتهم	والشمس ما عرفوا أباه
إن تعل أسرة نابه	فتعرفوا : من والداها ؟
للدين بيت ثقافة	للجامعات وما بناها
في هدى طه يعتلى	ناديك ، أم في علم طه ؟ !

* * *

ويعرض غنيم للأزهريين فيقول :

ففي حرر الإسلام من رق معشر	يرون الجزىء الحر ليس موحد
قضى واجب الأوطان والدين كاملا	وأصدر في كل الأمور وأوردا
ولم يقض في ظل الصوامع عيشه	قعيدا ، وليس المسلم الحق قعدا
رأى العلم فيه فيلسوفا وما رأى	به الدين إلاقاتا متعبدا
فقل للثقاة الجامدين : رويدكم	مق كانت التقوى صلاة ومسجدا ؟ !
وما كل من يغشى المعابد مؤمنا	ولا كل من يستخدم العقل ملحدا

ويعرض لهم القاياتي فيقول :

يا سيدا	عصفت	به	شيم	الجلالة	وابتناها
فتكت	بنفسك	عزة	كالنار	يتلفها	لظاها
كرم	أحل	بربه	تلف	الأزهر	في نداها
ضحك	الغواة	لنبله	فبكي	الفضيلة	واقفداها
أنف	الهوان	بساحة	البدر	يشرق	في ذراها

* * *

ويتناول غنيم تسمكه بمظاهر الاسلام، في مضطرب الإلحاد، فيقول :

رفعت لواء الشرق في الغرب واكتسى	بك المظهر الشرق عزا وسوددا
وزانك ثوب زانه النبل والتقى	فاحمته هذا ، وذلك له سدى
لقد غض من شأن العمامة معشر	فشدت لها بين السماكين متعددا

* * *

ويتناوله القاياتي فيقول :

شيم الملائك	حلية	في مصطفى ، وله تقاها
عرف الإله	جلالة	والزيف يهتف : لا إله !

* * *

فأما بعد ، فإنني لم أقصد بإيراد هذه المثل إلى موازنة ، ولا إلى نقد ؛ وإنما نشدت زيادة الإيضاح ، الذي يوسع من آفاقه ويعين عليه الجمع بين الضدين ، ورحم الله صاحب اليتيمة :

فالوجه مثل الصبح مبيض	والشعر مثل الليل مسود
ضدان لما استجمعا حسنا	والضد يظهر حسنه الضد

واند حسن الشاعران كلاهما ، وتجلى فوقهما تجليا لا يخامره ريب ، وكان بودى أن يتحد مذهباهما ، وأن تتفق قصيدتاها وزنا وقافية ، حتى أستوفيها موازنة ونقدا ، إذاعة لفضلهما ، وتفصيلا لنواحي الجمال الفني في شعرهما ، ولكن : ما كل ما يتمنى المرء يدركه .

ومن السحر الذى ينفث السيد حسن القاياتى فى عقده ، ثم يسميه شعرا :
قوله فى الغزل من قصيدة :

إن فى الغادين منى طفلة قام بدعُ الحسنِ منها وقعدُ
صُوِّرَتْ مِنْ جوهر الشمس فما هى إلا رَيْقُ الثَّورِ جَمَدُ
أوقدَ الحُسْنُ على وجنتها جَحرَ قلبي ، فتَلظى وأتقد
يعكفُ الطرفُ عليها مُغضياً قد رأى قِبلةَ حُسنٍ فسجد !

* * *

لا يرانى الله إلا ذاكرا ليلة التوديع ، والبينُ يُعد
أقبلت والليل يرنو نجمه نظرة الزنجى حقدأ أو كمد
لا أذم البين ظلما ، وفم من فم دان ، وخذ فوق خد !
تمسح الدمع غزيراً بيد ثم تدفينى إلى الصدر بيد
أرشفتنى ريقة قد بُردت من ثناياها بحبات البرد

* * *

ومن وظيفاته قوله فى حرب طرابلس « من مقصورة » :

أكيداً لنا يا بغاث العدا ؟ دعوا البيض مركوزة والقنا
نصحنالكُم : لا تهيجوا الأسود وقد يرسل النصح لا عن هوى
جنيتم وغى ، فاجتوا صابها فان لسكل امرئ ما جنى
أبيننا سوى خطى عزة فإما المعالى ، وإما الردى
نجدود بأرواحنا لاثنتين غداة الوغى ، وغداة الندى
زعتم طرابلس ملكا لكم ألا ما أحب حديث المنى !
ترون السماء ، فهل تدنى لا يديكمو ؟ هى تلك السما !
أجدتم طعان المواسى الرقاق فأما طعان العوالى فلا
وقد تحسنون لئام الظباء ولا تحسنون لقاء الظُّبَا
رويدا عديد الدبى ، تمطروا من النبيل مثل عديد الدبى
كأن تدارك وقع النبال عليكم تدارك وقع الحيا

ومنها :

ألا يضحك الناس من زائف يرى المهتدين سبيل الهدى ؟
ومن مستطيل كفور الفؤاد يحاول مسعاة أهل التقي ؟
أللعدل جثمت ؟ معاذ الإباء متى عرف العدل فيكم ، متى ؟
أجوداً على العرب الطاعمين وفي داركم كل بادي الطوى ؟
وبرأ بقاصية العالمين والبر أولى به من دنا ؟ !
وما أصدق ما قال السيد ، في أمم الغرب بعامة ، لا في الطليان بخاصة !

* * *

والسيد حسن - الى أنه شاعر فحل - كاتب بليغ ، يتوخى طريقة مزاجا من مذهبي الجاحظ وابن العميد في الكتابة : جزالة نغمة ، مع الترسل حيناً ، ومع السجع المطبوع حيناً ، ويبطئ بقلبه عن المرانة والسرعة التي تستدعيها طبيعة العصر ، بإثؤه على التبذل ، وسموه عن الاتجار في أسواق الحياة ؛ ولولا ذلك لعد في العشرة الاوائل من كتاب الشرق العربي .

* * *

ثم أما بعد ، فعلى - بما أعربت عنه من تحديد موقف السيد حسن من أدباء النهضة الحديثة في غير مجاملة ولا تحامل - أكون قد خرجت من منطقة (العجم) الذين خاطبهم في بعض ثوراته بقوله :

إني لأضخم من في مصر قافية لا تجحدوني هذا ، أيها العجم
فأني أول المؤمنين بهذه الضخامة ؛ بيد أنها سلاح ذو حدين !

حاشية : روت مجلة الأزهر (عدد جمادى الاولى ، مجلد ١٩) بيت السموءل ابن عاديا ، هكذا :

وما مات منا سيد حنف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيل
وعبارة : « حنف أنفه » لم يسبق بها رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وصواب الرواية : « وما مات منا سيد في فراشه »

الى فلسطـطين

فلسطين جزء من البلاد العربية ، وهذه البلاد تؤلف منذ أكثر من ثلاثة عشرين قرناً وحدة اجتماعية لا تقبل الانقسام ، كما لا تقبل أية وحدة عالمية في الأرض الآن . وقد جمعت بين أهلها رُبط قوية من اللغة والعادات والغايات الاجتماعية بحيث يضر بكيانها قيام دولة أجنبية في بقعة منها لا تمت إليها بسبب ، مهما تشبثت بأدلة تاريخية تثبت أن قدماءها كانوا يعيشون بتلك البقعة قبل نحو (١٨٠٠) سنة . ولو كان يصح التشبث بأمثال هذه الأدلة التاريخية ، لاصبحت أكثر الممالك الأرضية في حالة عدم استقرار مستمر ، لأنه ليس منها واحدة ذات حدود طبيعية مقررّة ؛ ولكن العالم أصبح معترفاً بأن للتحوّلات الاجتماعية أوضاعاً لا بد من احترامها ، مادام قد مضت على قيامها أجيال ، واستقرت عليها الأحوال . و- ألهم البشر أن هذه القاعدة يجب أن تطبق حتى على الشؤون العالمية . من أمثلة ذلك سقوط الحق في المطالبة بعقار بعد مضي مدة معينة ، فتصبح ملكاً لمقتنيه بوضع اليد . هذه قاعدة أملت الحاجة إلى الاستقرار بين الأفراد ، فما بالك بالحاجة إلى الاستقرار بين الأمم ؟

كانت الأمة الإسرائيلية بعد وفاة إبراهيم عليه السلام تسكن مصر ، فلما بعث إليهم موسى عليه السلام هاجر بهم من مصر إلى شبه جزيرة طور سيناء ؛ وبعد وفاة موسى تقدموا صوب فلسطين واحتلوها تحت قيادة يوشع . ومن عهد يوشع إلى (شاول) كان اليهود في حروب دامية بينهم وبين أهل فلسطين . وخلف داود (شاول) فاتخذ أورشليم (مدينة القدس) عاصمةً للملكة . ولما تولى بعده ابنه سليمان بنى الهيكل ، وتوفي سنة (٩٣٠) قبل الميلاد . ولم يتفق اليهود على من يخلفه ، فانقسموا إلى دولتين : إسرائيل ، ويهوذا . ولما استولى الكلدانيون على أورشليم نُقل اليهود أسرى إلى شواطئ الفرات ، فلبثوا هناك حتى تولى الملك قيروش فسمح لليهود بالانتقال إلى فلسطين .

وبعد هذه الأدوار كلها وقع اليهود تحت سيادة المتمدونين ، وبعدهم تحت سلطان السلوسيديين بسورية ، فأذاقوهم ألوان العذاب بسبب دينهم ، فثاروا عليهم واستردوا حريتهم ، وكان ذلك سنة (١٦٤) قبل الميلاد . وفي سنة (١٤٠) ق . م . طلبوا إلى امبراطور الرومان أن يجعل ملوك أورشليم اليهود تحت الحماية الرومانية .

وفي سنة (٧٠) م . ثار اليهود على الرومانيين ، فاستولى امبراطورهم تيتوس على أورشليم . وعاد اليهود إلى الثورة مرة أخرى سنة (١٣٥) فأطفاها الامبراطور ادريان . ومن هذا العهد فقد اليهود وجودهم القومى حتى وعدتهم به انجلترا فى معاهدتها مع فرنسا سنة (١٩١٦) ، وسجلتها فى معاهدة لوزان سنة (١٩٢٣) . أعلنت انجلترا رسمياً بأنها وعدت اليهود بوطن قومى ، فلما رأهم فسروا ذلك بإقامة دولة يهودية ، ردت عليهم رسمياً بأنها لم تكن تقصد بالوطن القومى إقامة دولة ، وإنما قصدت به إيواء مهاجرين بنسبة ١ إلى ٢ من أهلها المسلمين . ولما آمنت أن اليهود أخذوا يكثرون من شراء الأراضى ، وخشيت أن أهل البلاد الأصليين سينتهى أمرهم إلى إضاعة أراضيهم ، أصدرت قانوناً بتحريم بيع الأراضى مادامت لها الوصاية على فلسطين ، وأصرت على أنها لا تقبل من مهاجرين إلا ألفاً وأربعمائة فى كل شهر . فلم يقنع اليهود بهذا العدد وأخذوا يكثرون من استيراد المهاجرين ، فكانت انجلترا تقبض على سفنهم وتحول وجهتها إلى بعض ممتلكاتها الأفريقية ، وإلى جزيرة قبرص ومالطة .

العامل الذى حفز الاسرائيليين الى ضرورة إيجاد وطن قومى لهم ، وإقامة دولة يهودية ، بعد أن لبثوا نحو ثمانية عشر قرناً مبعثرين فى الأرض ، هو ظهور نعمة جديدة بوجوب حفظ الدم الأوروبى (الآرى) نقياً من الدم السامى (نسبة الى سام) الذى ينتمى إليه اليهود . لم تكن كراهية الأوروبين لليهود بخافية على أحد منذ أن قضى عليهم بالتجاور ، ولكن هذه الكراهية اشتدت بعد ظهور هذه النعمة فى القرن التاسع عشر . فكانت تحدث مجازر تقشعر منها الأبدان فى روسيا وبولونيا ورومانيا وغيرها ، فكان اليهود يهاجرون الى تركيا وغيرها من بلاد المسلمين ، وإلى الأرجنتين بأمريكا الجنوبية ، ولكن نصيب الولايات

المتحدة منهم كان أعظم ، فقد هاجر فيها نحو أربعة ملايين نسمة ، وقد بلغوا ستة ملايين الآن . هذا الاضطهاد كان يحمل الجماعات منهم أن يتنصروا ظاهرا ، ثم يعودون الى ملتهم بعد هدوء الشواثر .

هذه الكوارث الاجتماعية حفزت الإسرائيليين أن يفكروا جديا في أمرهم ، فرأوا أنه لا منجاة لهم من هذه المجازر الدورية إلا إيجاد دولة يهودية لهم ، وكان أنجب من تصدى للدعوة لهذا الأمر ، كاتب كبير منهم من سكان فيينا يدعى (تيودور هرزل) ، فكتب في ذلك كتابات كثيرة اكتسب بها هوى أهل ملته إلا قليلا منهم من كانوا يرون في ذلك تضيقا لمجالهم الحيوى ، كان ذلك سنة ١٨٩٦ .

أطال زعمائهم الروية في أى البلاد تصلح لذلك ، فقرروا أن تكون فلسطين ، إن سمح سلطان تركيا أن ينيلهم ذلك في مقابل مال طائل ، فلم يقبل ، فظلوا يفكرون في أن يجعلوا تلك الدولة في الأرجنتين بأمرىكا ، فلم يتفق لهم ذلك . ولما حدثت الحرب العامة في سنة (١٩١٤) ، واضطرت بريطانيا للبال وعدتهم بأن تسمح لهم باتخاذ فلسطين وطنا قوميا لهم ، وأباحت لهم الهجرة إليها . ولما رموا إلى تكوين دولة مستقلة فيها عارضتهم إنجلترا ، وأبانت لهم أن الوطن القسوى لا يعنى إقامة دولة مستقلة كما قدمنا ، ولكن اليهود لم يقبلوا هذا التفسير ، واستمروا فيما هم فيه ، وشنوا عليها حرب عصابات مريرة .

ومما يجب أن نلفت إليه الأنظار ، أنه لما سمحت إنجلترا لليهود بالهجرة إلى فلسطين ، لم يبد من أهلها ما يشعر باستيائهم من هذا الأمر ، صادرين في ذلك عن أريحية المسلمين المعهودة في قبول اللاجئين ، وإيواء المضطهدين ، وهى خلال ورثوها عن آبائهم الأولين . وما كان يدور بخلدكم أن هذا الأمر سيتأدى إلى اقتطاع جزء من بلادهم ، لتقام فيه دولة لا تمت إليهم بسبب . فثارت نائرة أهل فلسطين ، ولجأوا إلى جامعتهم العربية ، فتولت دولها الدفاع عنهم . ثم حكمت هيئة الأمم المتحدة للفصل بين الفريقين ، باعتبار أنها المرجع الأعلى لما يشجر بين الأمم من خلاف . فلعبت السياسات المتعاكسة دورها ، وأقرت الهيئة مطلب الصهيونيين بأكثر الأصوات . فكان هذا القرار مثيرا للجامعة العربية إلى منع سريانه بالقوة ، وسرعان ما زحفت جيوش دولها إلى فلسطين بتهديمها الجيش

المصري الباسل، مليبا دعوة حضرة صاحب الجلالة قائده الأعلى الملك فاروق الأول الذي يرجع إليه الفضل في رفعه إلى درجة أرق جيوش العالم نظاما وتسليحا، وكان اليوم زحفه احتفال لم يسبق له مثيل، وجسد فيه من تشجيع الشعب له، وإكباره إياه، وحفاوته به، ما رفع من قواه المعنوية إلى أعلى ما تصل إليه.

وزاد جلاله الملك في العناية بفلسطين الى درجة أن تفضل بإرسال كتيبة من حرسه للاشتراك في قتال المعتدين، فكان الاحتفال بتوديعها من أبلغ ما عرف عن مصر في تاريخها الحديث. كان مئات الألوف من الناس محتشدين على طول الطريق من أول تسكنات الحرس بعابدين الى محطة القاهرة، وكانت الهتافات الحماسية تحترق أجواز الفضاء بحمية الجنود المرسلين، وداعية لجلالة قائدهم الأعلى فاروق الأول بدوام العز والتأييد؛ وكان في توديعهم على المحطة كثير من العظماء والوزراء. وعند تحرك القطار ألقى حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمود أبو العيون سكرتير عام الأزهر خطبة بليغة كان لها وقع عظيم في قلوب الجنود والمحترفين. وإليك نصها البديع :

« الى الامام يا حرس الفاروق ! الى الامام يا جند الله ! الى الامام يا أبناء البهاليل من العرب الأجداد ! قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة !

« انضحوا العار عن أنفسكم ، وعن دينكم ، وعن شرفكم ، وعن تاريخكم ، وعن أماكنتكم المقدسة ، وعن فلسطين الجريحة ، وتمثلوا بقول القائل :
لنا نفوس لنيل المجد عاشقة ولو تسلفت أسلناها على الأسل
لا ينزل المجد إلا في منازلنا كالنوم ليس له مأوى سوى المقل
« سيروا على بركة الله يا جند الفاروق ، فسيفرق الله بكم بين الحق والباطل !
سيروا في حراسة الله ، وفي رعايته وكلاءته .

« يأياها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون .
سار القطار وغاب عن الأعين ، والقلوب معهم ، والدعوات تحف بهم
ويأخوانهم الذين في ميدان القتال . نصرهم الله نصرا مؤزرا ، وحفظ لبلاد المسلمين كمالها وجلالها ومهابتها أبد الأبد ؟
ف

سبق الاسلام

إلى منع الاستكفاف

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعیدی
المدرس بسکایة اللغة العربية

الاستكفاف : مصدر استكفَّ الناس إذا مد إليهم كفه يستعطيهم ، وهو المعروف الآن باسم الشحاذة والتسول . والشحاذة : مصدر شحذ في السؤال إذا ألحَّ فيه . واتسول مأخوذ من السؤال ، يتمال سال سُوالاً بمعنى سأل سُوالاً ، والسُّؤلة : السُّؤال .

وقد سبق الإسلام الحكومات الحديثة الى منع الاستكفاف والتسول ، لانه وصمة عار في جبين كل شعب يظهر فيه ، ودليل على انحطاط أفراده وتأخرهم ، لانه يدل على فساد نفوس فقراءهم وأغنيائهم ؛ إذ يستسهل الفقراء هذه الحرفة الدنيئة ، ويؤثرونها على العمل الذي يقيمهم ذل السؤال ، وإذ يضمن الأغنياء بأموالهم على إنشاء الملاجىء التي تؤوى العجزة ، ولا تحوِّجهم إلى مد أيديهم إليهم .

وفي الإسلام نصوص من القرآن والحديث تنهى عن الاستكفاف والتسول ، وهي النصوص التي يجب الاعتماد عليها في أمره ، ليأخذ المسلمون بها في حياتهم العامة والخاصة ، ويعملوا على منع ظهور هذه الحرفة الدنيئة بينهم ، بالأحكام الزاجرة ، وبإنشاء الملاجىء التي تقى عجزتهم عن ذل السؤال ، كما عمل بهذا سلفهم الصالح ؛ ولهم في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ، لانه سنَّ في ذلك نظامين وقى بهما المعوزين من أصحابه ذل السؤال : أولهما نظام المؤاخاة ، وقد سنه في أول الاسلام للوالى الذين أسلموا فطردهم أوليائهم ولم ينفقوا عليهم ، وللشبان الذين أسلموا فطردهم أوليائهم ومنعواهم أدوالهم ؛ ثم سنه بعد هذا في أول الهجرة إلى المدينة للمهاجرين الذين منعهم قريش أموالهم في مكة ، فأخى

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : « ملعون من سأل بوجه الله ، وماهون من مثل بوجه الله ثم منع من سأله ما لم يسأل هجراً » . أى أمراً قبيحاً لا يلبق ، أو سؤالاً قبيحاً أى بكلام قبيح ، والسؤال بوجه الله هو أن يسأل الناس شيئاً بالله . فهذا الحديث يلعن السائل ، ولكنه يلعن المستؤل إذا لم يعطه .

وأما النصوص التى يفيد ظاهرها جواز السؤال فمها قوله تعالى فى الآية - ١٧٧ من سورة البقرة : « ليس البر أن تولتوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين ،

ومنها قوله تعالى فى الآية - ١٩ - من سورة الذاريات « وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » .

ومنها قوله تعالى فى الآيتين - ٢٤ ، ٢٥ - من سورة الماعز « والذين فى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم ،

ومنها قوله تعالى فى الآية - ١٠ - من سورة الضحى « وأما السائل فلا تنهر » .

ومنها ما أخرجه أبو داود عن على رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « للسائل حق ولو جاء على فرس » . وقد جاء فى الموطأ برواية زيد بن أسلم : « أعطوا السائل ولو جاء على فرس » .

ومنها ما أخرجه أبو داود والترمذى عن أم نجيد أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله إن المسكين ليقوم على بابي فلم أجد شيئاً أعطيه إياه . فقال لها : « إن لم تجدى إلا ظلفاً محرقاً فادفعيه إليه فى يده » . وفى رواية الموطأ : « ردوا المسكين ولو بظلف محرق » . والظلف مُخَفُّ الشاة ، وفى كونه محرقاً مبالغة فى قلة ما يعطى .

ومنها ما أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من سأل الناس وله ما يغنيه ، جاء يوم القيامة ومسأله فى وجهه حموش أو خدوش أو كدوح » . وقيل يا رسول الله : ما يغنيه ؟ قال : « خسون درهما أو قيمتها من الذهب » .

بين المهاجرين والأنصار، الى أن استغنى المهاجرون ، وصارت لهم أموال تغنيهم عن مساعدة إخوانهم من الأنصار .

والثاني نظام أهل الصفة ، وكانوا ناساً من فقراء المهاجرين لم يجدوا من العمل ما يكفيهم ذل السؤال ، فأنشأ النبي صلى الله عليه وسلم لهم صُفَّة بالمسجد ، وهي مكان مستقوف منه ، فكانت بهذا أول ملجأ في الإسلام ، ولعلها أول ملجأ ظهر على وجه الأرض ، وحاز الاسلام به قصب السبق في نظام الملاجئ ؛ وكان أهل الصفة يمثلون في المسجد طلبة العلم ، فكانوا الجيل الأول من طلاب العلم بالمساجد في الإسلام ، وقد تبعتهم الأجيال بعدهم في هذه السنة الى جيلنا الحاضر .

ولكن الاسلام فيه نصوص أخرى ربما يفيد ظاهرها جواز الاستكفاف والتسول ، ولعل إساءة فهمها هي التي تجعل المسلمين لا يستكفون الآن من انتشار الشحاذين والمتسولين في بلادهم ، ولا يرون في هذا عارا يلحق بهم ؛ ولهذا أردت أن أدرس النصوص التي وردت في هذا الباب ، لأحقق أمرها ، وأبين حكم الإسلام الصحيح فيها .

فأما النصوص التي وردت في منع التسول فنها قوله تعالى في الآية - ٢٧٣ - من سورة البقرة : « للفقراء أحْصِرُوا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً » . فالمراد لا يسألون الناس أصلاً ، لأنه قال : « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » وهو ترك المسألة ، فعلم بذلك أنهم لا يسألون البتة ، ولأنه قال : « تعرفهم بسيماهم » . ولو كانت المسألة من شأنهم لما كانت الى معرفتهم بالعلامة حاجة ، فمعنى الآية أنهم لا يكون منهم سؤال حتى يقع فيه إلحاف ، فهم لا يسألون الناس إلحافاً ولا غير إلحاف ، وهذا على حد قول امرئ القيس :

على لا حبٍ لا يُهتدى بمناره

يريد نفي المنار والاهتداء به . وقد نزلت هذه الآية في أهل الصفة مدحاً لهم ، والمدح بشئ يقتضى ذم نقيضه ، فيكون سؤال الناس مذموماً بمقتضى هذه المقابلة . ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : « لأن يأخذ أحدكم حبله ، ثم يأتي الجبل فيأني بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها ، خيره من أن يسأل الناس أعطوه أم منعوه » .

وقد قال الخازن في تفسير قوله تعالى في سورة الضحى « وأما السائل فلا تنهر » : يعنى السائل على الباب ، يقول : لا ترجره إذا سألك ، فقد كنت فقيرا ، فإما أن تطعمه ، وإما أن ترده ردا لنا برفق . وقال ابراهيم بن أدهم : القوم السؤال يحملون زادنا إلى الآخرة . وقال ابراهيم النخعي : السائل يريدنا إلى الآخرة ، يجرى إلى باب أحدكم فيقول : هل توجهون إلى أهليكم بشيء ؟

فالنصوص الأولى تدم الاستكفاف والتسول ، ومنها ما بالغ في ذم السائل بالله إلى حد اللعن ، وهو الطرد من رحمة الله تعالى ، ومثل هذا يفيد حرمة السؤال . ولكن النص الأخير منها لعن المسئول الذى لا يعطى السائل بالله ما لم يسأل هجئراً ، وهذا يفيد وجوب إعطائه مع حرمة سؤاله . وبعضهم حمل اللعن في هذا على الكراهة الشديدة .

والنصوص الأخيرة منها ما يفيد جواز السؤال مطلقا ، إذ أمرت بإعطاء السائل ولو جاء على فرس ، ومنها ما يفيد جواز السؤال عند الحاجة ، ومنعه عند الغنى ، وقد قُدِّر الغنى فيها بخمسين درهما أو قيمتها من الذهب ؛ ومنها ما يمدح القوم السؤال لأنهم يحملون زادنا إلى الآخرة .

والحقيقة أنه لا تعارض بين النصوص الأولى والأخيرة ، لأن ذم السؤال لا يقتضى المنع من الإعطاء ؛ إذ هما فعلاّن مختلفان ، ويصدران من شخصين مختلفين ، والفعل الواحد من شخص واحد قد يذم ويكون صحيحا في آن واحد ، كالصلاة في الأرض المنصوبة ؛ وكذلك جواز الإعطاء لا يقتضى جواز السؤال ، لأن السائل قد يكون محتاجا ، فيعطيه المسئول دفعا لحاجته ، ولا يصح أن يتركه إذا كان جائعا مثلا لهلك جوعا ، وقد يعطى المسئول دفعا لمذمة السائل أو غيره ، وهذا أيضا مما يقتضى جواز الإعطاء ، وإن كان السؤال في ذاته مذموما ، وإن كان السائل غنيا عن السؤال ، لأن المسئول لا يقصد في ذلك دفع حاجة السائل ، وإنما يقصد صون عرضه من الهجاء والذم .

والحق أنه لا شيء في ذلك على أفراد السائلين والمسئولين إذا كان السؤال عن حاجة ، وإنما الذنب في ذلك ذنب الجماعة أو ذنب الحكومة ، لأن الجماعة أو الحكومة هي المسئولة عن تعريض المحتاجين للسؤال ، وعن تعريض الأفراد

لسؤالهم ، فهي التي يمكنها أن تنشئ الملاجئ للمحتاجين ، وهي التي يمكنها أن تجمعهم فيها بما تملكه من قوة الحكم ، وهي التي يمكنها أن تمنع التسول بما تفرضه من الزواج .

فإذا قصرت الجماعة أو الحكومة في ذلك فلا شيء على المحتاجين إذا تولوا دفع حاجتهم بأنفسهم ، فسألوا الناس ما يحتاجونه لدفع جوع أو عرى أو نحو ذلك من أمورهم ، ولا شيء على المسؤولين إذا أجابوهم إلى ما يسألون ، بل قد يكون ذلك واجبا عليهم عند خوف هلاك السائل أو نحوه ؛ لأن تقصير الحكومة أو الجماعة في ذلك لا يقوم عذرا للأفراد ، ولا ينجيهم من عتاب الله إذا قصروا في دفع حاجة المحتاج .

ولم يكن على الاسلام أن يفعل أكثر من ذلك في علاج هذه المشكلة الاجتماعية ؛ فقد قام بعلاجها على ما يجب في جميع أحوالها ، فقدم التسول والاستكفاف شر ذم ، ووضع نظام الإخاء ونظام الملاجئ لعلاجها بالعمل بعد علاجها بالقول ، وهذا من شأن الحكومات والجماعات ، وقد احتاط للمحتاجين إذا قصرت الحكومة أو الجماعة في أمرهم ، فلم تنشئ لهم الملاجئ أو نحوها مما يقيم الحاجة ويفنيهم عن السؤال ، فأمر الأفراد أن يعطوهم إذا سألوهم ، وما كان له أن ينهائهم عن إعطائهم إذا قصرت الحكومة أو الجماعة في أمرهم ؟

من مجمع فؤاد الأول

قررت لجنة الأدب بمجمع فؤاد الأول أن تنوّه بخير الكتب المؤلفة سنة ١٩٤٧ - ١٩٤٨ في الأدب ، من شعر ، وقصص ، وبحوث ، ودراسات أدبية ولغوية ، على ألا يكون من بينها كتب مترجمة ، اللهم إلا إذا كان الكتاب المترجم من أمهات الكتب التي تعود على الأدب العربي بفائدة وتضم إليه ثروة محققة .

والمرجو من الهيئات العلمية ودور النشر والمكتبات موافاة اللجنة بهذه الكتب أو إفادتها بأسمائها ونبد عنها .

كعب الاحبار

ووهب بن منبه وزياد بن أبيه

بين الجرح والتعديل

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد عنتر
الأستاذ بكلية اللغة العربية

اطلعت في مجلة الأزهر بعدد رجب الماضي على كلمة نقد للزميل المفضل ،
الأستاذ الشيخ محمد علي النجار حول مقال (أسباب تأخر المسلمين) تلخص
في أنه أخذ على أمرين كان الأليق بي ألا يؤخذ على شيء منهما .

الأول — أتى جعلت من الذين كادوا للإسلام كعب الاحبار ووهب بن منبه
وزياد بن أبيه ، مع أنه لم يثبت كيد أحد منهم للإسلام ؛ وذكر الأستاذ أنه سبقني
بالطعن على كعب ووهب الأستاذ أحمد زكي باشا سنة ١٣٥١ هـ وقد رد عليه
الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى رحمه الله بما فيه مقنع بحسن الظن بهذين الإمامين .
أما زياد فلم يطعن فيه أحد .

الثاني — أتى سلكت في عداد الذين كانوا سبياً في تأخر الاسلام عبد الله
ابن أبي ابن سلول ، مع أنه كان في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يقل أن تأخر
المسلمين كان في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام .

وأحب قبل كل شيء أن أنبه الأستاذ المفضل على أني لا أريد بكلمتي هذه
الرد عليه ومجادلته ، لأنني أعلم أن نقده إياي نقد خالص لوجه العلم في وجهة
نظره ، لا تشوبه شائبة تحامل أو هوى ؛ كما أود أن أعلن أني لست من المولعين
بجرح العلماء كما يشهد بذلك وقفي مع الأب أنستاس ماري الكركملي في عددي
مجلة الرسالة (٥٠٦ ، ٥٠٧) لسنة ١٩٤٣ ، فقد هاجم اللاويين والنحاة ، ووصهم
بعدم الثقة بأقوالهم ، وقد دافعت عنهم بما رد هذا الهجوم الباغي ، وكان له وقع

حسن في البعثات العلمية ؛ وأنى لا أكتب ما أكتبه إلا بعد بحث وتمحيص .
وهذا بيان الحقيقة مع الإيجاز .

كعب الأحبار : قلتُ إنه اشترك في المؤامرة على قتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وقد بنيت هذا الحكم على الاستنتاج الذى يكاد يصل بى إلى درجة العلم ، من روايات ثقات المؤرخين فى الكتب الآتية :

١ — الطبقات الكبرى لابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ طبع أوروبا ج ٣ صفحات ٢٤٠ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٧ . وجزء ٧ ص ١٥٦ بالقسم الثانى منه .

٢ — مناقب عمر بن الخطاب لابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ص ٢١٧ .

٣ — تاريخ الأمم والملوك للطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ ج ٥ ص ١٢ وما بعدها .

٤ — الكامل لابن الأثير الجزرى المتوفى سنة ٦٠٣ هـ ج ٣ ص ٢١ وما بعدها . وهذه المراجع فى متناول الجميع .

وهب بن منبه : لم أشركه فى المؤامرة على قتل عمر ، ولكنى عدته فى المتآمرين على الاسلام من طريق بث متون الروايات الإسرائيلية التى شوهدت جمال معانى القرآن الكريم فى كتب التفسير ؛ مثل تفسير الرعد والبرق والجسد الذى ألقى على كرسي سليمان عليه السلام ، وما جاء فى عصا موسى عليه السلام ، وغير ذلك مما حشيت به هذه الكتب من الإسرائيليات التى مصدرها فى الغالب كعب الأحبار ووهب بن منبه ! . هذا جرح لها بالإجمال .

أما مسألة جرح هذين الرجلين أو تعديلهما بالتفصيل فقد كتبت فيها مجلة المنار ما يشفى العليل ويروى الغليل قبل أن يكتب فيها الأستاذ المرحوم أحمد زكى باشا ويرد عليه الأستاذ المغفور له الشيخ يوسف الدجوى بنحو تسع سنين . وذلك بالمجلدات أرقام ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ لسنوات ١٣٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ هـ . ويبلغ مجموع ما كتب فى هذا البحث ٤٧ صفحة ! فليتفضل الأستاذ المفضل بالرجوع إليها ، وهو واجد فيها طلبته ، إن شاء الله .

ومن المتفق عليه بين محققى العلماء أن كعب الأحبار ليس من رجال البخارى

ولا مسلم الذين روي عنهم في الجامعين الصحيحين ، خلافا لما يؤخذ من كلام العلامة الأستاذ الدجوى في نور الإسلام سنة ١٣٥١ هـ تبعا لتذكرة الحفاظ التي خطأها في هذا العلامة الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه تهذيب التهذيب ج ٨ ص ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، وأن وهب بن منبه ليس من رجال البخارى في الجامع الصحيح !

زياد بن أبيه : كان رأس الشعوية الذين يبغضون العرب ، ويرمونهم زورا بكل نقيصة ، وكان يخفى هذا الأمر ويتظاهر بضده ليحسن السبك . ولما أورد هنا نص عبارة العلامة الشيخ محمود شكرى الألوسى البغدادي في كتابه « بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب » ، قال : قال أبو عبيدة البكرى في شرح أمالى القالى : « كتاب مثالب العرب أصله لزياد بن أبيه ، فإنه لما ادعى أبا سفيان أبا علم أن العرب لا تقر له بذلك مع علمهم بنسبه ، فعمل كتاب المثالب ، وألصق بالعرب كل عيب وعار وباطل وإفك وبُهِت ، ثم فنى على ذلك الهيثم بن عدى وكان دعيّا ، فأراد أن يعير أهل الشرف تشفيا منهم ، ثم جدد ذلك أبو عبيدة معمر بن المثنى وزاد فيه ، لأن أصله كان يهودياً فأسلم جده على يدى بعض آل أبى بكر ، فاتمنى إلى ولادته ، (ج ٣ ص ١٦٠) . أقول : ثم ورثه في هذا البغض ابنه عبيد الله ابن زياد والى الكوفة في عهد يزيد بن معاوية . وابن زياد هذا هو الذى أمر بقتل الحسين بن على رضى الله عنهما ، وأن تطأ الخيل بعد قتله صدره وظهره ! . هذا زياد بن أبيه ، وهذا ابنه عبيد الله ^(١) ، وهذا موقعهما من أشراف العرب ! .

بقيت مسألة عبد الله بن أبى وعده من أسباب تأخر المسلمين مع أنه كان في عهد الرسول . والجواب عنها سهل ، فإن هذا المنافق كان جرثومة قوية تولدت منها الجرائم التي كانت سبباً في تأخر المسلمين بعد اكتمال مجدهم ، وهذا نظير قوله تعالى « فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما ، فتعالى الله عما يشركون » . فأدم عليه السلام وحوا لم يجعل الله شركاء ، وإنما كانا سبيين فيمن جعلوا الله شركاء من ذريتهما ، فلذا أسند إليهما اتخاذ الشركاء والمراد ذريتهما . وهذا واضح وبالله التوفيق ؟

(١) كانت غايته أن قتل يد ابراهيم بن الأشتر النخعي بالموصل سنة ٦٦ هـ ، وحملت رأسه الى عبد الله بن الزبير بمكة . وتلك عاقبة الباغي الظلم ! (مروج الذهب للسعوى ج ٣ ص ٤١ - ٤٢)

نظريـة المعرفة

بين الغزالي والفلاسفة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ سليمان دنيا
مدرس الفلسفة بكلية أصول الدين

للأستاذ الدكتور « جميل صليبا » بحوث حول الغزالي ، تدل على عناية خاصة بفلسفته . حقق له كتاب « المنقذ من الضلال » وطبعه عدة مرات ، وقدم له ببحوث تحليلية وافية ، تناولت حياته ، وفلسفته ، وخاصة ما جاء منها في كتاب « المنقذ » . وفضلا عن كل ذلك فقد وضع فهرساً قيماً لكتبه ، عُنى فيه بإحصائها وتصنيفها ، وبيان المفقود منها والموجود ، والمطبوع والمخطوط ، وماز صحيح النسبة من زائفها ، ودل على أماكنها ومطاز وجودها ؛ وذلك عمل قيم جليل ، يقدره الباحثون قدره ، ويدركون أثره وخطره .

والدكتور « جميل » من المعجبين بالغزالي المفضلين له على من سواه . ومن قوله فيه : « ونستطيع أن نلخص القول في فلسفة الغزالي بأنها صورة حية عن حياته الشخصية ، وأنها بقدر ما أهملت البحث في حوادث هذا العالم ، كانت ترداد عمقا وعمقا ونفوذا في ماهية الدين . ولا شك في أن الغزالي قد ارتفع عن مستوى الفلاسفة قبله ، الذين تمسكوا بالعقل ، واعتبروا الدين من منتوجات الخيال أو اختراعات المشترعين . على العكس من ذلك شرح لنا الغزالي العقيدة الدينية بأنها كشف باطنى ، وحقيقة روحية . ولا يمكن التردد في تفضيل محاولات الغزالي للوصول إلى الحقيقة العليا ، على مباحث الفلاسفة في عهده ، الذين اقتصروا في الغالب على تكرار ما قيل قبلهم » .

ويظهر أن الدكتور « جميل » يتابع دراساته عن الغزالي ؛ فقد وقع في يدي عددان من مجلة المجمع العلمي العربي التي تصدر في دمشق ، وفيهما له مقالان كبيران عن الغزالي بعنوان « الغزالي وزعماء الفلاسفة » وعنى بزعماء الفلاسفة — كما جاء في مقاله — الفارابي وابن سينا : تناول في أولهما : أسباب حملة الغزالي على الفلاسفة وغايتها ، وطريقته في الرد على الفلاسفة ، وموضع الخلاف بينه وبين الفلاسفة .

ومهد لمقاله الثاني بعبارة في آخر مقاله الأول جاء فيها « فلنقتصر على الإشارة الى بعض القضايا التي تدل على أن الغزالي قد وُفق في نقده ، لوضع أصول جديدة لفلسفة عامة جديدة . وهذه القضايا التي نريد ذكرها على سبيل المثال هي : مسألة المعرفة ، ومسألة العالم والزمان والمكان ، ومسألة السببية ، .

ورأيه في مسألة المعرفة هو ما أريد أن أعرض له في مقالتي هذا ، بالنقد والتعليق ، أو بالاستفسار عن أفكار جاءت فيه ، أراها بحاجة الى الإيضاح والبيان ، لعل الدكتور « جميل » يطالعنا بما يرفع عنها اللبس ويزيل الغموض . يرى الدكتور « جميل » أن للغزالي رأيا في المعرفة ، وللفلاسفة رأيا غيره ؛ بل يرى أن « مسألة المعرفة هي الأساس الذي يرجع إليه الخلاف بين الغزالي والفلاسفة » .

أما رأي الفلاسفة — فيما يرى الدكتور « جميل » — فيرجع الى أن الحواس الظاهرة تقع على ما يصادفها من عالم المحسّات فتلتقط له صورا ، وتنقلها الى الحواس الباطنة ، التي تنقلها بدورها الى العقل ، بعد أن تكون قد عملت فيها — بقدر طاقتها المحدودة — عملا يساعد العقل على تخليصها من شوائب المسادة وعلائقها ، وتحويلها من جزئي خاص الى كلي عام .

إلا أن الحواس والعقل ما كان لهما أن يصلا الى هذه النتيجة لولا مساعدة « العقل الفعال » الذي إليه يرجع الفضل في تصيير هذا التحويل ، حاصلا بالفعل ، بعد أن كان بمجهود العقل والحواس واقفا عند حد القوة .

قال الدكتور « جميل » في مقاله : « كان الفلاسفة يقولون : إن المعرفة لا تتم بطريق التجربة ، بل تتم بإشراق الصور من « العقل الفعال » على العقل الإنساني . فالعقل يكون في أول أمره عقلا بالقوة ، ثم يصير عقلا بالفعل ، وذلك بما يصل إليه من الصور التي تؤديها إليه الحواس الظاهرة والباطنة . ولكن هذا الانتقال من القوة إلى الفعل لا يتم إلا بتأثير « العقل الفعال » . وتمايز العقول الإنسانية بعضها من بعض بمقدار استعدادها للاتصال بالعقل الفعال الذي تتلقى عنه المعرفة . وفي ضوء هذا العقل يستطيع عقلا أن يدرك الصور الكلية ، وبه يصير الإحساس معرفة . فأنت ترى أن الفلاسفة قد بنوا المعرفة على العقل ؛ لأن العقل هو الذي يجرد الصور من اللواحق المشخصة وينزع من الصور المتخيلة صورا كلية . ولكن الصور المنتزعة من الإحساس والخيال لا تصبح صورا عقلية إلا بتأثير العقل الفعال » .

هذا هو تصوير الدكتور « جميل » لنظرية المعرفة عند الفلاسفة ، ولعله تلخيص لما جاء في الإشارات ج ٢ ص ٣٣٨ ، إخراجنا ، طبع عيسى الحلبي .

وأما رأي الغزالي - فيما يرى الدكتور أيضا - « فيختلف عن مذهب الفلاسفة في مبادئه وغاياته ؛ لأنه قد بنى المعرفة على التجربة والكشف الباطني » . وساق الدكتور ، استشهاده على أن المعرفة طريقين عند الغزالي ، قوله في الإحياء : « والقلب مثل الحوض ، والعلم مثل الماء ، وتكون الحواس الخمس مثل الأنهار . وقد يمكن أن تساق العلوم إلى القلب بواسطة أنهار الحواس والاعتبار والمشاهدات ، حتى يمتلئ علما ؛ ويمكن أن تسد هذه الأنهار بالخلوة والعزلة وغض البصر ، ويعمد إلى عمق القلب بتطهيره ، ورفع طبقات الحجب عنه ، حتى تتفجر ينابيع العلم من داخله » .

ثم علق على النص قائلا « وهذا يدل على أن المعرفة - يعني عند الغزالي - تحصل في النفس بطريقتين مختلفتين :

« الأول : هو طريق الحواس والاعتبار والمشاهدة ، وهو طريق التجربة الخارجية ، أو طريق المعرفة غير المباشرة .

« والثاني : هو طريق القلب وتطهيره ، ورفع الحجب عنه ، وهو طريق التجربة الداخلية المباشرة » .

لعل المقابلة التي أوجدها الدكتور بين رأى الفلاسفة في المعرفة ، وبين التجربة الخارجية التي هي أحد طريقى المعرفة عند الغزالي ، تدل على أن الدكتور يذهب إلى أن التجربة الخارجية عند الغزالي لا يتدخل فيها ما يسميه الفلاسفة بالعقل الفعال ، وإنما يقوم بالدور كله ، الخواس الظاهرة والباطنة وعقل الإنسان .

ولكننا إذا رجعنا إلى كتاب « معارج القدس » للغزالي الذي أغفله الدكتور في هذا البحث إغفالا تاما ، مع أنه من الكتب التي ألفها الغزالي في أخريات حياته ، واختصها بالمعارف الدقيقة الهامة عنده ، وأوجب أن لا يباح بها إلا لذوى العقول الناضجة ، وهو من الكتب الصحيحة النسبة إلى الغزالي حتى فيما يرى الدكتور . أقول : إذا رجعنا إلى هذا الكتاب ، وجدنا الغزالي يقول فيه ص ٦٢ : « وأما مراتب الإدراكات في التجريد ، فاعلم أن المدرك الذي يفتقر إلى تجريد ، لا يخلو في الوجود الخارجى عن لواحق غريبة وأعراض غاشية : من قدر وكيف وأين ووضع ... »

« فإذا فهمت هذا فاعلم أن مراتب المدركات مختلفة في التجريد عن هذه الغواشى واللواحق ، وهى على أربع مراتب :

« الأولى : إنما هى الحس ، فإنه مجرد نوعا من التجريد ؛ إذ لا تحل في الحاس تلك الصورة بل مثال منها ، إلا أن ذلك المثال إنما يكون إذا كان الخارج على قدر مخصوص ، وبعد مخصوص ، ويناله مع تلك الهيئة والوضع ؛ فلو غاب عنه أو وقع له حجاب لا يدركه .

« المرتبة الثانية : إدراك الخيال ، وتجريده أتم قليلا وأبلغ تحصيلًا ؛ فإنه لا يحتاج إلى المشاهدة ، بل يدرك مع الغيوبة ، إلا أنه يدرك مع تلك اللواحق والغواشى : من السك والكيف ، وغير ذلك .

« المرتبة الثالثة : إدراك الوهم ، وتجريده أكمل وأتم مما سبق ؛ فإنه يدرك المعنى المجرد عن الواحق وغواشي الأجسام ، كالعداوة والمحبة ، والمخالفة والموافقة ؛ إلا أنه لا يدرك عداوة كلية ومحبة كلية ؛ بل يدرك عداوة جزئية ، بأن يعلم أن هذا الذئب عدو مهروب عنه ، وأن هذا الولد صديق معطوف عليه .

« المرتبة الرابعة : إدراك العقل ؛ وذلك هو التجريد الكامل عن كل غاشية ، وجميع لواحق الأجسام ؛ بل جناب إدراكه منزه عن أن يحوم حوله لواحق الأجسام : من القدر والكيف وجميع الأعراض الجسمية . ويدرك معنى كليا لا يختلف بالأشخاص ؛ فسواء عنده وجود الأشخاص وعدمها ، وسواسية لديه القرب والبعد ؛ بل ينفذ في أجزاء الملك والملكوت ، ويتزعم الحقائق منها ويجردها عما ليس منها .

« هذا إن كان يحتاج المدرك الى تجريد ؛ فإن كان منزها عن لواحق الأجسام مبرا عن صفاتها ، فقد كفى المؤونة ، فلا يحتاج الى أن يفعل به فعلا ، بل يدركه كما هو . »

ويقول ص ٥٤ : « فالقوة النظرية تارة تكون نسبتها الى الصور المجردة ، نسبة ما بالقوة المطلقة ، وذلك متى تكون هذه القوة للنفس لم تقبل بعد شيئا من الكمال الذي بحسبها ، وحينئذ تسمى عقلا هيولانيا . وتارة نسبة ما بالقوة الممكنة وهي أن تكون الهيولانية قد حصل فيها من المعقولات الأولى ما يتوصل منها الى المعقولات الثانية ، ويجوز أن تكون نسبة ما بالقوة السكالية ، وهو أن يكون قد حصل فيها أيضا الصور المعقولة المكتسبة بعد المعقولة الأولية ، إلا أنه ليس يطالعه ويرجع اليها بالفعل ، بل كأنها عنده مخزونة ، فمتى شاء طالع تلك الصور بالفعل وعقلها وعقل أنه عقلمها وتسمى عقلا بالفعل ؛ لأنه يعقل متى شاء بلا اكتساب . . . وتارة تكون نسبتها نسبة ما بالفعل المطلق ، وهو أن تكون الصور المعقولة حاضرة فيه ، وهو يطالعهما بالفعل ويعقلها بالفعل ، ويعقل أنه يعقلها بالفعل ، حينئذ يكون عقلا مستفادا . وإنما سمي مستفادا ، لأنه سيتضح أن العقل بالقوة إنما يخرج الى الفعل بسبب عقل هو دائم الفعل ، وأنه إذا اتصل به العقل بالقوة نوعا من الاتصال ، انطبع فيه بالفعل نوع من الصورة تكون مستفادة من خارج . »

وعقد فصلا بعنوان « بيان أمثلة مراتب العقل من الكتاب الإلهي ، ص ٥٨ جاء فيه « ثم هذه الأنوار — يشير الى المعارف الإنسانية — مستفادة من سبب ، هذه الأنوار بالنسبة اليه كالسرج بالنسبة الى نار عظيمة طبقت الأرض . فتلك النار هي العقل الفعال المفيض لأنوار المعقولات على الأنفس البشرية . »

ويقول ص ١٢٢ : « ولو انفتح لك باب معرفة الملكية لرأيت الأرواح البشرية ، كسراج اقتبس من نار عظيمة طبقت العالم ، وتلك النار العظيمة هي الروح الأخير من أرواح الملائكة . »

ويقول في ص ٩٩ : « ههنا أربعة أمور : القلب ، وحقائق الأشياء ، وحصول نقش الحقائق في القلب ، ونور به تنكشف الحقائق في القلب ؛ وهو في الشرع عبارة عن جبريل عليه السلام ، وفي عبارة الحكماء عبارة عن العقل الذي بواسطته تفيض العلوم على الأرواح البشرية . »

ويقول في ص ١٣٨ : « إن القوة العقلية إذا اطلعت على الجزئيات في الخيال وأشرق عليها نور العقل الفعال ، استحالت مجردة عن المادة وعلاقتها ، وانطبعت في النفس الناطقة ، لا على أن نفسها تنقل من التخيل الى العقل ، بل على معنى أن مطالعتها تعد النفس لأن يفيض عليها المجرد من العقل الفعال . »

ويقول في ص ١٦٢ : « وسبب العلم : العقل الفعال ، أو الملك المقرب . »

ويقول في ص ١٣٧ : « إن النفس الإنسانية قد تكون عاقلة بالقوة ، ثم تصير عاقلة بالفعل ، وكل ما خرج من القوة إلى الفعل ، فإنما يخرج بسبب هو بالفعل يخرج ؛ فههنا سبب هو الذي يخرج نفوسنا في المعقولات من القوة إلى الفعل ؛ وإذ هو السبب في إعطاء الصور العقلية ، فيكون عقلا بالفعل ، عنده مبادئ الصور العقلية مجردة ، فهذا الشيء سمي بالقياس إلى العقول التي تخرج منه إلى الفعل ، عقلا فعلا . »

من هذه النصوص الكثيرة نستطيع أن نقول قول المثبت : إن الغزالي لم يغفل ما يسميه الفلاسفة بـ « العقل الفعال » سواء لديه العلم الذى ينبع من داخل القلب ، والعلم الذى ينحدر عن طريق قنوات الحواس .

ذلك : لأن معرفة الإلهام التى تنبع من داخل القلب عند الغزالي ، تقوم على أساس أن القلب إذا زال عنه صدى المعاصى ، وصقلت صفحته ، واستقبل اللوح المحفوظ — الذى هو فى لسان الشرع « قلوب الملائكة المقربين » أو الروح الأخرى ، وفى لسان الفلاسفة « العقل الفعال » — انطبع فيه من المعارف ما هو مستعد له .

ولأن معرفة التجربة التى تأتى عن طريق قنوات الحواس ، العقلُ الفعالُ هو الذى يقوم بالدور الأخير فيها ؛ إنه هو الذى ينقل تحويل الجزئى إلى كلى ، من القوة إلى الفعل ؛ على ما أفادته النصوص السابقة .

وإذا كان كل الفارق الذى أوجده الدكتور « جميل » بين المعرفة عند الفلاسفة ، وبين طريق التجربة عند الغزالي ، هو الدور الذى يلعبه العقل الفعال فى معرفة الفلاسفة ، دون التجربة التى عند الغزالي ، أمكن لنا أن لا نقبل هذه التفرقة ما دامت هذه النصوص الكثيرة التى نقلناها عن كتاب معارج القدس قد أفادت بشكل قاطع أن الغزالي يعترف فى كل صنوف المعرفة بالدور الحظير الذى يلعبه العقل الفعال .

وإذن يحق لنا أن نقول : إن ما سماهما الدكتور « جميل » « المعرفة الفعلية عند الفلاسفة » و « التجربة الخارجية عند الغزالي » ، وأراد أن يجعلهما شيئين متباينتين ، هما شئ واحد ، لا شيان .

وإذا تم لنا أن المعرفة العقلية عند الفلاسفة ، هى نفس المعرفة التجريبية عند الغزالي ، فإننا نتساءل عن طريق الكشف الباطنى المسمى بالإلهام عند الغزالي ، هل هو غريب عن الفلاسفة لا يعرفونه ؟! أو فى عبارة أخرى : ينكرونه ولا يعترفون به ؟ ! .

وجواب الدكتور « جميل » عن هذا السؤال معروف كما اتضح من نصوصه التي سقناها سابقا ، وهو الإيجاب ؛ إذ أنه يرى أن الغزالي باين الفلاسفة في الطريقتين معا : طريق التجربة ، وطريق الكشف والإلهام .

وعندى أن الفلاسفة يعرفون أيضا طريق الكشف والإلهام ويقولون به ، فها هو ابن سينا يقرر في تصوف الإشارات قريبا مما يقرر الغزالي في تصوفه . ولو خشية الاطالة لسقمت نصوصه الكثيرة حول هذا الموضوع ، وحسبى أن أحيل على النص ص ٢١٦ من طبعة ليدن .

وبعد ، فإن التأريخ للفيلسوف من بعض كتبه عمل ناقص وغير دقيق ، خصوصا فيلسوفا كالغزالي الذي أبنت في كتابي عنه « الحقيقة في نظر الغزالي » أنه له جملة مظاهر أو جملة مذاهب ؛ وتحت كل مظهر من مظاهره ، أو مذهب من مذاهبه ، تقع طائفة من كتبه ؛ فالإقتصار في التأريخ له على لون من هذه الكتب ، ليس إلا كشفا لمظهر واحد من مظاهره ؛ والقناعة بهذا المظهر معناها الرضا بأن تظل الجوانب الأخرى مجهولة ؛ وسيظل الغزالي — في حقيقته — مجهولا ، حتى تكشف كل هذه الجوانب .

ولعل شهرة الغزالي بالتصوف ، وبمناهضة الفلسفة والفلاسفة ، ألقيا في روع الباحثين أن الغزالي في ناحية والفلاسفة في ناحية أخرى ، ولكن صوفية الغزالي ومناهضته للفلسفة والفلاسفة ليسا إلا جانبا أو جانبين من جوانب كثيرة للغزالي ، لعلهما أهون هذه الجوانب شأنًا ؟

كتيبة

وُربَّ	ملتفة	العوالى	يلتمع الطرف في ذراها
إذا توطت	حزون	أرض	طحطحت الشم من ربها
يقودها	منه	ليث	غاب إذا رأى فرصة قضائها
تمضى	بآرائه	سيوف	يستبق الموت في ظبائها
بيض	تخلى	القلوب سودا	إذا انتضى عزمه انتضاها

بَابُ الْأَنْبِئَةِ وَالْفَتَاوَى

تعقيب على فتوى شرعية

نشر في الجزء الخامس من مجلة الأزهر الشريف لعامها التاسع عشر الصادر في جمادى الأولى سنة ١٣٦٧ ، فتوى شرعية بعنوان : (نقل المسجد) يسأل المستفتي فيها لجنة الفتوى بالجامع الأزهر : هل هناك رأى بجواز بيع مسجد بحجة أنه في شارع ضيق جدا ، وأن مساحته ضيقة ، بحيث تصبغ أرض المسجد وبنائه ماسكا حرا لمن يشتريها ، ثم يشتري بثمن ذلك مع ما يجمع من الاكتتابات أرض بالمكان القريب المتسع ويبنى عليها مسجد متسع ؟ .

وقد أجابت اللجنة الكريمة باسم رئيسها صاحب الفضيلة الأستاذ عبد المجيد سليم بأنه إذا كانت إقامة المسجد على القطعة المراد شراؤها خيرا وأصلح من المكان المراد بيعه جاز بيع هذا المكان وشراء ما يراد شراؤه بثمنه مع ما يتبرع به ليكون مسجدا بدله ، وذلك بواسطة المحكمة الشرعية المختصة إذا كان المكان الأول قد جعل مسجدا بالفعل . وهذا على ما ذهب اليه الامام أحمد بن حنبل واختاره شيخ الاسلام ابن تيمية ، وهو ما تختاره اللجنة للفتوى . والله أعلم .

ولما كانت مجلة الأزهر بالمنزلة الأولى من المجلات الدينية المعتمدة والموثوق بفتاويها ، صرح لى صديق نافذ الكلمة والرأى فى مجلس الاوقاف بدمشق بأنه يرغب بعد اليوم فى العمل بمقتضى هذه الفتوى فى جميع ما يتعلق بها فى مجلس أوقاف دمشق ، بحيث تصبح دستورا تعمل به كافة مجالس الاوقاف لا فى دمشق وحدها بل فى عامة البلدان السورية ، قال ما مؤداه : أولا يكفينا مذهب الامام أحمد ، وهل لا نرضى بورعه وعله ؟ أضف الى ذلك أن هذه المسألة مما اختاره

الامام ابن تيمية . ثم بعد كلام اتفقنا على التريث فى الامر الى أن نسأل فضيلة مفتى الحنابلة بدمشق ، من حيث إنه الجهة المختصة المسئولة . وقد أرسلت إليه عدد مجلة الأزهر فجاء منه ما يأتى :

فتوى الأزهر ونقل المسجد

لم يرد فى مسوغات بيع المسجد واستبداله لفظ (خير وأصلح) كما ورد فى فتوى الأزهر ، وإنما المسوغات لذلك هى أن تعطل المنفعة المقصودة من المسجد :

- (١) بأن يخرّب ولا يوجد له مال يعمر به .
 - (٢) أو يضيق عن أهله ولا يمكن توسيعه فى موضعه .
 - (٣) أو تخرّب محلته .
 - (٤) أو ينتقل أهل محلته الى محلة أخرى .
 - (٥) أو يكون موضعه قدرا بحيث يمنع ذلك من الصلاة فيه .
- أما كونه فى شارع ضيق أو كون مساحته ضيقة دون أن يضيق عن أهله ، أو يكون هناك أحد المسوغات المذكورة ، فليس استبداله بغيره موافقا لمذهب الحنابلة على ما فى كتبهم المتقدمة كالمغنى ٢٢٥ والشرح الكبير ٢٤٢ والفروع ٨٩٤ ؛ والمتأخرة المفتى بها كالمنتهى ٥٢٠ والافتناع ٧٤٠ والله تعالى أعلم .
- قال العلامة القاضى علاء الدين المرداوى فى كتاب (الإنصاف فى معرفة الراجح من الخلاف) :

« اعلم أن الوقف لا يخلو إما أن تعطل منافعه أولا ؛ فإن لم تعطل منافعه لم يحز بيعه ولا المناقلة به مطلقا . نص عليه (أى الامام) ، وعليه الأصحاب . (ثم قال) وجوز الشيخ تقي الدين (ابن تيمية) ذلك لمصلحة . ونقل صالح نقل المسجد لمصلحة الناس . واختاره صاحب الفائق (ابن قاضى الجبل تلميذ ابن تيمية) وحكم به فعارضه القاضى جمال الدين المرداوى صاحب الانتصار وقال : حكمه باطل على قواعد المذهب ، وصنف فى ذلك مصنفاً رد فيه على الحاكم سماه (الواضح الجلى فى نقض حكم ابن قاضى الجبل الحنبلى) ووافقه صاحب الفروع على ذلك ، . انتهى

ومما تقدم يعلم أن فتوى الأزهر هي على قول ابن تيمية وأتباعه ، وليست على نص الإمام ، ولا على المذهب المفتى به .

كتبه الفقير محمد جميل الشطي
المفتي الحنبلي بدمشق
عفى عنه

هذا ومما تقدم يعلم السبب الحامل لنا على نشر هذا التعقيب ، والله يتولى هدايا جميعا . دمشق — محمود ياسين

رد لجنة الفتوى

بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .

أما بعد ، فقد اطلعت اللجنة على ما ورد في كلام صاحب الفضيلة الشيخ محمد جميل الشطي المفتي الحنبلي بدمشق تعقيبا على فتوى هذه اللجنة في موضوع نقل المسجد الى مكان آخر للمصلحة . وقد استخلص فضيلته من النصوص التي ذكرها أن فتوى الأزهر هي على قول ابن تيمية وأتباعه ، وليست على نص الامام أحمد ولا على المذهب المفتى به .

وتفيد اللجنة بأن شيخ الاسلام ابن تيمية نسب الى الامام أحمد جواز نقل المسجد الى مكان آخر للمصلحة . وهذا نص عبارته بعد كلام لا حاجة اليه في هذا الموضوع : « النصوص عند أحمد وأصوله وعموم كلامه وكلام أصحابه وإطلاقه يقتضى أن يفعل في ذلك ما هو مصلحة أهل الوقف ، فإن أصله في هذا الباب مراعاة مصلحة الوقف ؛ بل أصله في عامة العقود اعتبار مصلحة الناس ؛ فإن الله أمر بالصالح ونهى عن الفساد ، وبعث رسله بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ؛ وقال موسى لأخيه هارون « اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ، وقال شعيب « إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وقال تعالى

« فن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وقال تعالى « وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون . » .
وقد جوز الامام أحمد بن حنبل إبدال مسجد بمسجد آخر للمصلحة ، كما جوز تغييره للمصلحة ، واحتج بأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبدل مسجد الكوفة القديم بمسجد آخر ، وصار المسجد الاول سوقا للبارين . . . الى آخر عبارته المذكورة في صفحة ٣٨٨ من الجزء الثالث من فتاواه .

والمأخوذ من هذه العبارة أمران : الأول : نسبة القول بجواز إبدال مسجد بمسجد آخر للمصلحة الى الامام أحمد صراحة . ولا يمكن لمثل ابن تيمية في علمه وأمانته أن ينسب الى الامام أحمد ما لم ينص عليه . ولو كان ابن تيمية قد أخذ هذا استنتاجا من القواعد والأصول لبين ذلك كما هو شأنه في غير هذه المسألة ؛ لا سيما أنه ساق هذه العبارة « وقد جوز أحمد بن حنبل إبدال مسجد بمسجد آخر للمصلحة الخ » فساق الاستدلال بها على مطلوبه من أنه يجوز شراء عين يبدل الوقف في بلد آخر غير بلد الموقوف إذا كان في ذلك مصلحة للوقوف عليهم . وسوق هذه العبارة هذا المساق دليل على أن ذلك هو مذهب الامام أحمد ، وأنه مسلم به ومفروغ منه .

الأمر الثانى : أن ما ذكره من اقتضاء أصول أحمد ونصوصه وعموم كلامه وكلام أصحابه وإطلاقه أن يفعل في الوقف ما هو مصلحة لأهله — يتضمن أيضا أن مذهبه هو ما نسب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية . ويؤيد ذلك ما أورده فضيلة الشيخ الشطى وذكره صاحب الفروع من أن صالحا نقل عن الإمام أن نقل المسجد جائز لمنفعة الناس ، فاعتبر مجرد المصلحة في جواز نقل المسجد . وأيضا فالمنقول عن الإمام نصا أنه يجوز نقل المسجد إلى مكان آخر لضيقه ، وقد قيده بعض المشايخ كابن قدامة في المغنى بحالة ما إذا لم يمكن توسيعه ، مع أن الدليل الذى استدل به على جواز النقل لا يدل على ضرورة هذا التضييق وإنما يدل على جواز النقل للمصلحة . فإذا كان المسجد ضيقا ويمكن توسيعه وكانت المصلحة في نقله مع ذلك متوافرة بأن كان المكان الذى ينقل إليه المسجد أدعى إلى تكثير الجماعة والمصلين بأن يكون في شارع عام يتيسر لكل شخص الوصول إليه وكان

في جو أحسن من جو المسكان الذي فيه المسجد الأول الضيق ، فالمصلحة هنا متحققة مع إمكان التوسعة . و تتمضي ما نقل عن عمر رضى الله عنه جواز النقل حينئذ ، ونصه على ما جاء في المغنى : « ولنا ما روى أن عمر رضى الله عنه كتب إلى سعد لما بلغه أنه قد نقب بيت المال الذي بالكوفة : « انقل المسجد الذي بالتمارين واجعل بيت المال في قبلة المسجد فإنه لن يزال في المسجد مصل » . قال صاحب المغنى : وكان هذا بمشهد من الصحابة ، ولم يظهر خلافه ، فكان إجماعا .

وهذا الدليل الذى اعتمده صاحب المغنى يدل على أنه يجوز نقل المسجد للمصلحة ولو كانت هذه المصلحة لا تتعلق بالمسجد نفسه ، فإن عمر رضى الله عنه أمر بنقل المسجد للحفاظ على مال بيت المال ، وكان من الممكن أن يبقى المسجد على حاله ، وأن يعين حراسا لبيت المال .

وبعد ، فما جاء في الكتب التى ذكرها فضيلة المفتى من مسوغات نقل المسجد يظهر أنه ليس المقصود به حصر المسوغات فيما ذكر ، بل لأنه بوجود مسوغ من هذه المسوغات تتحقق المصلحة التى هى مناط الجواز ، فلو وجدت هذه المصلحة مع عدم وجود مسوغ من المسوغات المذكورة تعين جواز النقل لهذه المصلحة ، كما يدل على ذلك ما أشار إليه شيخ الاسلام ابن تيمية من اقتضاء نصوص الإمام أحمد وأصوله وعموم كلامه وكلام أصحابه وإطلاقه أن يفعل فى ذلك ما هو مصلحة أهل الوقف ، وأهل الوقف فى المساجد هم المسلمون .

وبما ذكرنا تبين أن مذهب أحمد جواز نقل المسجد إلى مكان آخر إذا كان هذا النقل خيرا وأصالح كما قالت اللجنة فى فتواها . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

عبد المجيد سليم

الحلقة الأولى

في تاريخ الأزهر العلمي

لفضيلة الأستاذ الشيخ منصور رجب
مدرس الاخلاق بكلية أصول الدين



مذهب الشيعة هذا الذي دخل مصر على يد جوهر الصقلي في سنة ٣٥٨ هـ وعاش فيها حتى سنة ٥٦٧ هـ ، هو مذهب الإسماعيلية .

وسُموا إسماعيلية نسبة إلى اسماعيل بن جعفر الصادق من ولد علي بن أبي طالب . ذلك أن الإمامية بعد جعفر هذا افترقوا فرقتين : فرقة قالت بإمامة ابنه موسى الكاظم ، والآخرى قالت بإمامة ابنه الأكبر اسماعيل بن جعفر ؛ لهذا سُموا إسماعيلية . لكن لما كان اسماعيل قد مات في حال حياة أبيه ، حوّلوا الإمامة إلى ابنه محمد ؛ فهو صاحب الدعوة ، وهو عندهم المهدي المنتظر . وسمي محمد بن اسماعيل بهذا الاسم — المهدي المنتظر — استتاراً من اضطهاد الخلفاء العباسيين ، هذا الاضطهاد الذي حول العلويين من طلب الخلافة جهراً إلى الدعوة لأنفسهم سرا .

ولسنا نفيض في ذكر المذاهب الغالية التي شغلت الافكار في تلك الأزمان ، لأنها لم تدخل مصر ولم تدرس بالأزهر ، وبادت من زمان بعيد .

وأول كتاب افتتح الأزهر به حياته العلمية في صفر سنة ٣٦٥ هـ هو كتاب « الاقتصار » للقاضي أبي حنيفة النعمان المغربي في فقه هذا المذهب ، أو في فقه آل البيت كما كانوا يسمونه ، ولقد رجعت إلى دليل المخطوطات في العالم « بركلمان » فوجدته لم يحدد مكان هذا الكتاب وإن كان قد دلنا على كتاب آخر للؤلؤ نفسه وفي الموضوع ذاته ، ذلك الكتاب هو « مختصر الآثار فيما روى عن الأئمة الاطهار » وهو موجود في مكتبة « الفاتيكان » تحت رقم ١١٠٤/٥ ولقد تقدمت برغبة لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد

مأمون الشناوى ، لإحضار نسخة من هذا الكتاب ليحفظ تحفة تاريخية فى مكتبة الأزهر ، وليكون مصدر الحلقة الأولى فى تاريخ الأزهر العلمى . وفى اعتقادى أن هذا عمل طيب بمناسبة العيد الثانى للأزهر ، بكل عهد فضيلة الشيخ بالفخار والإكبار . وعلى ما تقدم يكون أبو حنيفة النعمان المغربى هذا هو أول عالم درست له كتب فى تاريخ الأزهر العلمى ، وابنه على هو أول جلس للتدريس فى الأزهر . وأبو حنيفة النعمان هذا يقدمه لنا « ابن خلسكان » فى كتابه وفيات الأعيان بأنه كان مالكي المذهب ثم انتقل الى مذهب الإمامية ، وصنف كتاب ابتداء الدعوة للعبيدين ، وكتاب الأخبار فى الفقه ، وكتاب « الاقتصار » فى الفقه أيضا . ويقول نقلا عن ابن « زولان » فى كتاب أخبار قضاة مصر : « كان النعمان ابن محمد القاضى فى غاية الفضل من أهل القرآن والعلم بمعانيه ، وعالما بوجوه الفقه وعلم اختلاف الفقهاء ، واللغة ، والشعر الفحل ، والمعرفة بأيام الناس مع عقل وإنصاف ، وألف لأهل البيت من الكتب آلاف أوراق بأحسن تأليف وأملح سجع ، وعمل فى المناقب والمثالب كتابا حسنا ، وله ردود على المخالفين له ردا على أبي حنيفة وعلى مالك ، والشافعى ، وعلى ابن سريج . وكتاب اختلاف الفقهاء وينتصر فيه لأهل البيت رضى الله عنهم ، وله القصيدة الفقهية لقبها بالمنتخبة . وكان أبو حنيفة المذكور ملازما صحبة المعز أبي تميم معد المنصور ، ولما وصل من أفريقيا الى الديار المصرية كان معه ولم تطل مدته ، وتوفى سنة ٣٦٣ بمصر ، وصلى عليه المعز . وكان لأبي حنيفة هذا أولاد نجباء سداة ، منهم أبو الحسن على ؛ وأبو الحسن على بن النعمان هذا يعتبر ابتداء سلسلة علماء الأزهر الشريف ، ذلك المعهد العظيم الذى شمع نوره على العالم الاسلامى ، والذى يقول عنه بحق المرحوم أحمد شوقى بك :

واذكره بعد المسجدين ^(١) معظما	لمساجد الله الثلاثة ^(٢) مكبرا
واخشع مليا ، واقض حق أئمة	طلعوا به زهرا وماجوا بأجرا
كانوا أجل من الملوك جلالة	وأعز سلطانا وأعظم مظهرا
زمن المخاوف كان فيه جنابهم	حرم الأمان وكان ظلم الذرا ^(٣)
من كل بحر فى الشريعة زاخر	ويريكه الخلق العظيم غضنفر

(١) الحرام والآصى . (٢) الحرام والآصى والأزهر . (٣) اللجأ .

وكان علي بن النعمان محل عطف وثقة العزيز بالله ثاني خلفاء دولة هذا المذهب بمصر ، الى أن قلده القضاء بالديار المصرية ، والشام ، والحرمين ، والمغرب ، وجميع مملكته ، والخطابة والإمامة ، ودار الضرب . وقرى مرسوم توليته هذه الأشياء بالجامع الأزهر وجامع عمرو ، وكان أمرهما اليه . وكان من عادة الدولة وقتئذ أن من يقلد هذه الوظيفة يخلع عليه الخلع المذهبة ، ويقلد السيف ، ويتم له ذلك بلا طبل ولا بوق إلا إذا ولي أمر الدعوة مع الحكم ، فلقد كان للدعوة في خلعا الطبل ، والبوق ، والبنود ، ولا تزال الطبول والبنود موجودة بمصر حتى الساعة عند أرباب الطرق الصوفية ، وهي بقية أو أثر من آثار هذه الدولة بمصر . وكانت رتبة قاضى القضاء وقتئذ أجل رتب أرباب العباء بمصر . ويكون في بعض الأوقات داعيا فيقال له حينئذ : قاضى القضاء وداعى الدعاة . وكانت العادة ألا يحضر لإملاك ولا جنازة إلا بإذن . وكان داعى الدعاة يلى قاضى القضاء فى الرتبة ، ويتزيا بزيه فى اللباس وغيره .

ولما كان الأزهر بجوار القصر مكانا لمجالس الدعوة أو مجالس الحكمة كما كانوا يسمونها أيضا ، كان لابد من ذكر شيء أو وصف لهذه الدعوة حتى نعرف ما كان يقوم به الأزهر فى هذا السيل . وإذا كان مذهب الروافض يعتبر الكلام عليه تأريخا للحلقة الأولى فى تاريخ الأزهر العلوى ، فإن هذه الدعوة من هذا المذهب كالأساس الذى يقوم عليه البناء .

إن هذه الدعوة دعوة الاسماعيلية أو هذا المذهب ، وضع أصلا فى العراق ثم أخذ يعرف فى البلدان الإسلامية ، فعرف فى اليمن والشام وبلاد المغرب ، ومنها حضر الى مصر . وهذه الدعوة منسوبة الى شخص كان بالعراق يعرف بميمون القداح ، وكان من غلاة الشيعة ، ثم رتبها عبد الله بن ميمون هذا مذهباً جعله فى تسع دعوات . ودعا الناس الى مذهبه فاستجاب له خلق كثير ، وكان يدعو الى الامام محمد بن إسماعيل فصار له مال ، واشتهرت دعائه ، وانتشروا فى أقطار الأرض وتفقهوا فى الدعوة حتى وضعوا فيها الكتب الكثيرة ، وصارت علما من العلوم المدونة .

العصر العظيم في تاريخ العالم

— ٣ —

« كُنْفَشْيُوس - جوتامو بودا - زَرْدَشت - فيثاغوراس ، من وجهة نظر تاليفية

تأليف : ف . ستانكا . تعريب : عمر طلعت زهران

« محاضرة خارج المنهج الدراسي أُلقيت في جامعة هامبورج في التاسع عشر من
سبتمبر سنة ١٩٤٦ ، ويجب أن ينظر الى ربط أصل نظريات هؤلاء الأربعة
باستخدام الحديد والاستقلال السياسي كفرض يحتاج الى فحص وتمحيص . »

— ٣ —

وعلينا، لكي نفهم هذه التعاليم، أن نرجع الى مصادرها، وهنا نجد صعوبات
جمة . وقد يكون سبب هذه الصعوبات ندرة هذه المصادر كما هو الحال مع
فيثاغوراس ، فلم يبق من كتاباته سطر واحد . هذا إذا تسكلمنا عن كتاباته التي
يختلف الباحثون فيها ، فيما إذا كان قد كتب شيء على الإطلاق ، وقد فقدت
كتابات تلاميذه أيضا . وأول المصادر المكتوبة عنه كانت مراجع لمؤلفين آخرين
لا يتعمون الى الفيثاغورية ، يتدنون بالمؤرخين مثل « هيرودوت وديودورس ،
وفلاسفة مثل « أفلاطون وأرسطو » . أما أدق الأخبار عنهم فيمكن أن توجد
فقط في مؤلفات الكتاب الأفلوطينيين « يامبيخوس وبورفيروس » ، أو في
مؤلفات « ديوجين » ، وعلينا أن نتذكر أن هذه الكتابات قد وضعت بعد موت
فيثاغوراس بنحو سبعة أو ثمانية قرون ، ويجب أن نكون على أشد الحذر حين
نأخذ من هذه المصادر المشككة غير المعتمد عليها .

أما الصعوبات التي تعترض مصادر البوذية فهي صعوبات جد مختلفة ،
إذ هي على عكس الصعوبات الأولى ؛ فان على الباحث أن يناضل لا ضد ندرة

المصادر ، بل ضد كثرتها وتعددتها . فانه يوجد على العموم ثلاثة أو أربعة أنواع من الكتابات البوذية : الكتابة البالية ، والسنسكريتية ، والصينية ، والكتابة اللامية بالتبت . وأقصر هذه الكتابات وأهمها هي الكتابة البالية عن البوذية الجنوبية ، وهي مع قصرها تبلغ ثلاثة أضعاف حجم الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد . أما السنسكريتية فأكثر طولاً ؛ وتشمل الكتابات اللامية بالتبت ١٠٨٣ كتاباً تقع في ١٠٨ مجلدات ، ولكنها جميعاً تتضاءل أمام الكتابات الصينية التي تتكون من ١٦٦٢ كتاباً تقع في ٦٧٠٠ مجلد ، فمن منا لا يستطيع ألا يضل في متاهات هذه النصوص ، كل واحد منها على حدة ، بله كلها مجتمعة ! .

أما صعوبات النصوص الزردشتية فانها ذات طبيعة مختلفة عن ذلك ؛ فان هذه النصوص توجد في الزند أفستا ، وهو كتاب الزردشتين المقدس . وقد بنيت آمال كبيرة على نشر هذا الكتاب ، ولكن ما إن نشرها العالم الفرنسي انكتيل دوبيرون^(١) حتى خابت الآمال . فبدلاً من وعظ موحى به ، وصورة فذة للصراع بين الخير والشر في العالم ، وجد أن الزند أفستا إنما تحتوي على أناشيد وأدعية لامية لها ، خالية من الحياة على صورة السحر . . . ووجدت الخيبة صداها في كلمات المستشرق الانجليزي الكبير سير وليام جونز « إما ان يكون زردشت لم يكتب هذا الكتاب أبداً ، وإما أن يكون مجرداً من العقل ، وفي كلتا الحالتين لا يستحق هذا الكتاب أن ينشر ، وكان سير وليام مغالياً في نقده إذ تمكن الباحثون بعد مجهود كبير من اكتشاف بعض آثار العظمة الروحية السابطة ، ولكن هذه الآثار كان يغطيها طبقه كثيفة من الزيادات والتحريفات ، تجمعت على مر العصور ، فجعلت معرفة النص الصحيح مستحيلاً .

وعلى الرغم من أى شيء ، فإن الأثر الذي تركه هؤلاء الحكماء على عقول البشر ، كان عميقاً حتى إن أشباحهم لتبدو منيرة خلال ظلام العصور الماضية ، ومن خلال التحريف والتشويه الذي أصاب كتاباتهم .

ويطلق على كنفشيوس دائماً أنه مؤسس الدين الوطني للدولة الصينية ، ولكن كلمة « دين » هنا يجب أن تقابل ببعض التحفظ ، وعلى أية حال ، فهي

(١) Anquetil Duperron, Zend Avesta, Ouvrage de Zoroastre, Paris 1771.

لا تعنى أى نوع من العبادة أو إقامة الشعائر لمعبود ما ، فإن معنى « الإله » كان بعيدا عن الكنفشيوسية ؛ وكل ما نجده هو كلمة « السماء » تستعمل بمعنى غامض . وحتى فى هذا الصدد يقف كنفشيوس ثابتا ويقول « لا تكلم السماء ، وإنما تتمثل إرادتها فى أعمال الناس . وهذا كل شيء » . أما إذا سئل عن كيفية عبادة الأرواح الخالدة فإنه يجيب « إنا لا نعرف كيف نخدم الناس ، فكيف نستطيع أن نعبد الأرواح ؟ » . وبنفس هذا الأسلوب كان يجيب عن الأسئلة الميتافيزيقية . أما عن السؤال : ما هو الموت ؟ ، فإنه يجيب « إنا لا نعرف ما هى الحياة ، فكيف لنا أن نعرف ما هو الموت ؟ » .

وبجانب هذه الواقعية الصرفة التى نراها فى آرائه ، وحاجته إلى الاهتمام بكل أنواع الميتافيزيقا ، فإن منهجه فى البحث كان منهجا عقليا : التفكير فالدراسة فالبحث . فلا يوجد به شيء موحى به من أعلى ، ولا شيء يفوق الطبيعة أو يفوق العقل .

وكان مدار البحث فى دراساته هو الإنسان نفسه ، وأحيانا الفرد « يقول الجميع : الإمبراطورية ، المملكة ، العائلة ، فأساس الإمبراطورية هو المملكة وأساس المملكة هى العائلة ، وأساس العائلة هو الفرد » ولكن هذه الآراء الفردية نادرة ، فإن كنفشيوس كان جماعيا وكان عمله الأساسى هو موضع علاقات الجماعات : فى العائلة والدولة وفى البشرية . ولنا أن نسأل : فى أى اتجاه كان يبحث عن حل للمشكلة ؟ ونستطيع أن نجيب دون تردد : فى العائلة . فإن العائلة كانت نقطة الابتداء لكل فلسفته الاجتماعية والسياسية . ويروى لنا مؤرخو حياته أن العظمة والجلال اللذين اكتنفا حفل جناز أمه أدهشا مواطنيه وجعلاه ذائع الصيت . وأمضى بعد الجناز ثلاثة أيام بجانب المدفن مخصصا كل الوقت للتأمل والأعمال الفلسفية ، ومن هنا أينعت نظريته . وينبع من تمجيد العائلة ميله للدراسات التاريخية ، بل وهنا نجد منبع تمسكه « بالتقاليد » أيضا إن لم نقل « المحافظة » أو « الرجعية » لوصف مثله الأعلى للتحكم الأبوى فى العلاقات العائلية وعلاقات الدولة . ومن الطبيعى أن يسكون هذا الشعور نفسه هو منبع العناصر التقدمية — إن لم نقل الثورية — فى آرائه وتعاليمه . ويجب أن تشمل

عناصر العلاقات العائلية علاقات المجتمعات الكبرى كالدولة والامبراطورية ، بل والانسانية جمعاء . وحين قال أحد أتباعه يا كيا إنه لا إخوة له أجابه كنفشيوس « علينا أن ننظر للناس في العالم كله كأنهم إخوة ، وحينئذ لن يبكي لإنسان لا فقدان إخوته » . وأجاب عن سؤال : ما هي الانسانية ؟ بقوله « الحب » ، وهو جواب يبدو كأنما هو أمر مسيحي . ولكن لنسكن على حذر حتى لا نتخذنا ظواهر الكلمات ، فإن نشوة الحب العجيب في خطبة الجبل ^(١) كانت بعيدة عن عقل كنفشيوس الحذر الرزين ، المرتبط بأمور الأرض أشد الارتباط . وسئل هل يجازي الانسان الشر بالخير ؟ فأجاب « وكيف يجازي إذن عمل الخير ؟ » أما نظريته في السلوك نحو الآخرين فقد بينها في « القانون الذهبي » : « ما لا تحب أن يعاملك به الناس ، لا تعامل به غيرك » ، وهي القاعدة الذائعة التي سبق بها كنفشيوس « كانت » بخمسة وعشرين قرنا .

وإذا ألح أي إنسان ، على الرغم من أي شيء ، في أن يبحث عما يثير العواطف في مؤسس أي دين ، فانه في حال كنفشيوس يوجد الشعور بالوقار ، والحذر ، والشعور بالتقاليد الدينية من الناحيتين العقلية والعملية ، ومهما كان الأمر ، فانه شعور حقيقى أكدده كنفشيوس بحياته - فقد وضع برنامجا للإصلاح الاجتماعى والسياسى لتحقيق السعادة للعالم أجمع « لو قلدنى حاكم مقاليد الحكم اثنى عشر شهرا لحققت شيئا عظيما ، وفي مدى ثلاث سنوات أحقق أغراضى بأجمعها » . وقد اضطر الى ترك إقليمه « لو » وجاب الأرض بقية حياته من ولاية الى أخرى يبحث عن الحاكم الذى يقلده مقاليد الحكم . وكان يقابل في أحسن الأحوال باحترام واستقبال غير حار دون وعود ، وأحيانا بجفاء ، بل وبالسجن . ولكنه لم يجد الحاكم الذى يبحث عنه ، ولما شعر بدنو أجله قال « لم يوجد حاكم ذكى يقلدنى مقاليد الحكم ، لقد انتهى زمنى ! » وهذه آخر كلمات تروى عنه . لقد كان أول وأعظم « عقلى » ، هو فى نفس أول ولعله أعظم « دون كيشوت » ^(٢) بأحسن معانى هذه الكلمة .

(يتبع)

(١) السيد المسيح .

(٢) بطل القصة التى كتبها بهذا الاسم الكاتب الاسبانى « مرفنتيز » فى القرن ١٦ الميلادى . ويستعمل مجازا بمعنى إنسان خيالى أو عالم متحمس . (العرب) .

علماء البلاغة

لفضيلة الأستاذ الشيخ على محمد حسن العماري
مبعوث الأزهر بالمعهد العلمي بأم درمان

لا تكاد تطلع على مؤلف في البلاغة العربية — منذ أخذت تتكون علما له قواعد ورسوم ، وتسلك طريقها إلى التحديد والتقييد — حتى تجد العلماء يجهرون بالشكوى المرة ، من إهمال الناس لهذه العلوم ، وانصرافهم عنها ، وبعدهم عن التعمق في دراستها ، واكتفائهم بالقشور دون اللباب ، وتقاعسهم عن اكتناه أسرارها ، واستجلاء غوامضها ، وتفهم شواهدا .

فتجد عبد القاهر الجرجاني الإمام الجليل ، يطيل القول في وصف الظلم الذي لحق بهذه العلوم ، وعذره واضح ، فهو يرى للنحو مدارس ودارسين ، وكتبا تؤلف ، ومناظرات تقوم ، وتنافس قويا حادا ؛ ويرى للفقه مجالس تدارسه ، وتأخذ في تحقيق أصوله ، واستخراج فروعه ، فتخرج بحوثا متجددة دائمة ؛ ويرى لعلم الكلام حركة نشيطة ، وحيوية غالبية ، فيشغل هذا العلم كثيرا من الأذهان ، ويسيطر على كثير من العقول ، ويبلغ ذروته في البحث والاستقصاء ، والأخذ والرد ؛ وهكذا يجد في التفسير والحديث والأصول والمنطق والأدب ... ثم ينظر في علوم البلاغة فلا يجد لها حياة بين الدارسين ، ويرى التعمق في دراستها أبعد ما يكون عن تفكير العلماء ، وإنما يكتفون — إذا درسوا — بالنظرة العابرة ، والجولة الحائرة ، والهمة الخائرة .

ثم يجيء السكاكي في القرن السادس فيردد ما يقوله عبد القاهر ، فيقول :
« ثم مع ما لهذا العلم من الشرف الظاهر ، والفضل الباهر ، لا ترى علما لقي من

الضيم ما لقي ، ولا هُني من سوم الخسف بما مني ؛ أين الذي مهّد له قواعد ، ورتب له شواهد ، وبين له حدودا يرجع إليها ، وعين له رسوما يعرج عليها ، ووضع له أصولا وقوانين ، وجمع له حججا وبراهين ، وشمر لضبط متفرقاته ذيله ، واستنفض في استخلاصها خيمه ورجله ؟ ! علم تراه أيدي سبا ، فجزة حوته الدبور ، وجزة حوته الصبا ! .

ولم يكن عصر السعد والسيد بأحذب على هذه العلوم ، ولم يكن أهله أحفل بها ؛ فزرى السعد يقول في مقدمه شرحه للقسم الثالث من مفتاح العلوم : « وبعد انقراض علماء فن البيان ، المطلع على نكت نظم القرآن ، وانتقاض مرّره على مر الأزمان ، وانتقاض مدده بتعاقب الحدّثان ، كاد تبقى رباعه من غير طلل ورسم ، وتذهب ذهاب جديس وطسم ، وتؤذن آيها بالطمس ، ويقرأ عليها : كان بالأمس ! » ويقول في مقدمة المختصر : « وإن هذا الفن قد انضب اليوم ماؤه فصار جدالا بلا أثر ، وذهب رُواؤه فعاد خلافا بلا ثمر ، حتى طارت بقية آثار السلف أدراج الرياح ، وسالت بأعناق مطايا تلك الأحاديث البطاح ، ويردد هذه المعاني بتوضيح وإسهاب في مقدمة المطول .

ونلاحظ أن العلماء كذلك يحرصون في أوائل كتبهم على أن يُبيّنوا أن هذه العلوم جليلة القدر ، عظيمة المنزلة ؛ لما يترتب عليها من فهم إعجاز القرآن ، وأنها أولى العلوم بالدراسة ، وأحقها بالعناية ؛ فن الرسوم المقررة أن تجدد في أوائل كتب البلاغة إشادة بمقادير هذه العلوم ، وشكوى من تقاصر الهمم عن تحصيلها .

وهذه كلمة لأحد المؤلفين من علماء القرن الثامن تعطينا صورة قوية واضحة للنهج الذي سارت عليه جمهرة كتبهم :

قال أمير المؤمنين علي بن حمزة صاحب كتاب « الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الانجاز » في مقدمة كتابه :

« أما بعد ، فإن العلوم الأدبية ، وإن عظم في الشرف شأنها ، وعلا على أوج الشمس قدرها ومكانها ، خلا أن علم البيان هو أمير جندها ، وواسطة عقودها ، فلكها المحيط الدائر ، وقرها السامر الزاهر ، وهو أبو عذرتها ، وإنسان مقلتها ،

وشعلة مصباحها، وياقوتة وشاحها، ولولاه لم تر لسانا يحوك الوشى من حلل الكلام، وينفث السحر مغتر الآكام، وكيف لا وهو المطلع على أسرار الإعجاز، والمستولى على حقائق المجاز، فهو من العلوم بمنزلة الإنسان من السواد، والمهيمن عليها عند السبر والحك والانتقاد، ولما فيه من الغموض ودقة الرموز، واحتوائه على الأسرار والكنوز، استولت عليه يد النسيان والذهول، وآلت نجوؤه وشموسه الى الانكساف والأفول، ولم يختص باحرازه من العلماء إلا واحد بعد واحد، وطالما قيل: «إذا عظم المطلوب قل المساعد، وما ذاك إلا لقصور الهمم عن بلوغ غاياته، وعجزها عن إدراكه والوصول الى نهاياته».

فإذا وصلنا الى عصرنا الحاضر نجد الشكوى لا تزال مرة قاسية، ونحن - ولا شك - أحق بالشكوى، وأولى بتصوير الظلم، الذى مُنيت به هذه العلوم؛ فالمطابع العربية تلد كل يوم عشرات المؤلفات، ومع ذلك فلا نجد منها فى علوم البلاغة إلا النزر اليسير، أكثره للتجارة لا للعلم، وبعضه للهدم لا للبناء.

غير أن ماعقدنا له هذا الفصل هو ظلم آخر وقع على هذه العلوم، ولا يزال يقع؛ ذلك هو الإهمال الاليم فى الترجمة لعلماء البلاغة، فأننا نجد المؤرخين قد وضعوا طبقات للنحاة، وأخرى للفقهاء، وثالثة للمحدثين، وهكذا نجدهم ترجوا تلمفسرين والأطباء والأدباء وغيرهم، ولكننا لا نجد مؤلفاً عني بجمع تراجم البلاغيين فى كتاب خاص، وإنما نجد تراجمهم موزعة فى الكتب، ومن الصعب أن يهتدى الدارس الى ترجمة وافية لأحد هؤلاء الاعلام.

على أننا نلاحظ ما هو أمر من هذا؛ فلاحظ أن الذين ترجوا هؤلاء العلماء لم ينظروا الى هذا الجانب من نبوغهم، وإنما نظروا الى جوانب أخرى؛ فإمام البلاغة عبد القاهر نحوى، والسكاكى متكلم، والزحشرى نحوى مفسر... وهكذا، ويحىء ذكر البلاغة بعد ذلك مكلاً؛ فإذا ترجوا لعالم جليل كالسكاكى، وذكروا خدمته لهذه العلوم، لم يكتبوا كتابة تحليلية مفصلة. وهل أدعى إلى العجب من أن المترجمين للشيخ عبد القاهر لم يذكروا فى ترجمته كتابيه فى البلاغة، وهما تاجان فى جبين هذا الفن!

وبدهى أنى أتكلم فى هذا عن الكثرة الكاثرة من هؤلاء الكاتبين، لا عن

جميعهم ، فربما قرأنا في بعض الكتب ترجمة لبعض هؤلاء العلماء عنى فيها صاحبها بيان مناحيه واتجاهاته ، يضاف إلى ذلك أنا نجد بعض الكتب تغفل الحديث عن بعض هؤلاء الأعلام ؛ فصاحب معجم الأباء يؤرخ لكل من هب ودب — كما يقولون — ولكنه لا يكتب عن عبد القاهر ، وهو في معجم البلدان يذكر جماعة من فضلاء جرجان — وكان نزلها — ويترك عبد القاهر ؛ ولا يظفر السكاكي منه بغير سطور معدودات ، ثم يأتي بعد ذلك الكتّابون فلا يزيدون شيئا على هذه السطور .

هذا شأن الإمام والسكاكي ؛ أما من جاء بعدهم فانا نجد مشقات عظيمة في الحصول على تراجمهم ، يعرف ذلك من عاناه ، ولهم تراجم ولكنها غير وافية ، وغير متداولة وكثير منها مخطوط ، ولذلك نجد الدارسين لهذه العلوم يرون أسماء كثيرة في الشروح والحواشي وهم لا يعرفون عنها شيئا ، بل إن عددا غير قليل منهم لا يقرأ هذه الأسماء قراءة صحيحة ، ومع أن مرجع هذا — كما ذكرت في مقال سابق — إلى عدم العناية بالنظر في تراجم العلماء ، ومعرفة اتجاهاتهم ، فإن كثيرا منه يقع على صعوبة الحصول على كتب التراجم .

البلاغة علم غامض ، وتراجم علمائه غامضة ، فخذوا لو كشف هذا الغموض ؛ ولعل دراسة التراجم أكبر معين على تفهم العلم نفسه ؛ وهذا ما عقدت العزم عليه ، والله المعين ؟

صفة معترك

ومعترك تهز به المنايا	ذكور الهند في أيدي ذكور
لوامع يبصر الأعشى سناها	ويعمى دونها طرف البصير
يوم راح في سربال ليل	فأعرف الأصيل من البكور
وعين الشمس تنو في فسام	رنو البكر من بين الستور
فكم قصرت من عمر طويل	به وأطلت من عمر قصير

اجراءات الطلاق

العلاقة بين الشكل (الاجراءات)

وقواعد الموضوع

لحضرة الاستاذ الفاضل صالح بكير

المدرس بكلية أصول الدين

كان من الواجب ذكر إجراءات الطلاق في قانون المرافعات المدنية، إلا أن المشرّع لاحظ الارتباط الوثيق بين الطلاق وإجراءاته من جهة، وأنه يريد من جهة أخرى أن يضع عقبات مادية لحصول الطلاق حتى لا يكثر وقوعه. ثم أخيراً لما كان الطلاق ذا أهمية كبرى إذ يترتب عليه هدم الأسرة، اضطر المشرع لوضع قواعد خاصة به؛ فكانت هناك مناسبة تامة بين الطلاق وإجراءاته، ولذا ذكرها في القانون المدني في باب الطلاق. وهذه الإجراءات تسير على مراحل:

المرحلة الأولى :

تبدأ هذه المرحلة أمام رئيس المحكمة المدنية الابتدائية، وتشمل عدة خطوات هي: (١) الأهلية الضرورية لرفع دعوى الطلاق. (٢) المحكمة المختصة. (٣) طلب المدعى المرفوع لرئيس المحكمة. (٤) محاولة الصلح بين الزوجين. (٥) قرار الرئيس بالسير في الدعوى. وهذا القرار قد يتضمن قراراً قاضياً باتخاذ مسكن منفصل عن مسكن الزوجية (أثناء سير الدعوى). (٦) الاجراءات التحفظية. وستكلم عن كل هذه الخطوات.

الأهلية الضرورية لرفع دعوى الطلاق :

الأصل أن كلا من الزوجين له الحق في رفع دعوى الطلاق، سواء كان ذلك بطلب أصلي أو بطلب فرعي أو على سبيل الدفاع من جانب المدعى عليه. ولكن

ما الحكم فيما إذا كان أحد الزوجين ليست له أهلية التقاضى ؟ فجاوبا عن هذا نقول :

واضح أن المرأة المتزوجة ليست فى حاجة (فى مثل هذه الحال) إلى أخذ تصريح أو إذن من زوجها لكي ترفع دعوى الطلاق ضده ، إذ أنه لا يرضى بذلك مطلقا ، فلها حينئذ أن ترفع دعواها بدون هذا الاذن . أما القاصر المتزوج فحيث كان أهلا للتقاضى فى الدعاوى غير العقارية ، يكون حينئذ أهلا للتقاضى فى دعوى الطلاق . وأما السفیه المبذر والمضطرب العقل ، وكذا المحجور عليه حجرا قانونيا ، والمحجور عليه حجرا قضائيا ، ومن به مرض عقلى وغير محجور عليه ، فهؤلاء يباشر لهم دعوى الطلاق القوام عليهم .

المحكمة المختصة :

المحكمة المختصة بنظر دعوى الطلاق هى المحكمة التى فى دائرتها يقيم المدعى عليه .

طلب الطلاق :

تقدم عريضة طلب الطلاق لرئيس المحكمة المدنية الابتدائية المختصة من المدعى ، وهذا هو أول خطوة فى إجراءات الطلاق والاساس الذى يبنى عليه ؛ فلذا يجب أن يحجر الطلب ويصدر عن محام . ولكن يجب أن يقدم طالب الطلاق بشخصه الطلب إلى الرئيس دون أى شخص آخر . فإذا استحال على الطالب الذهاب بشخصه لرئيس المحكمة انتقل هذا الأخير مع كاتب المحكمة إلى محل إقامة الطالب . والسرفى ذلك هو رغبة المشرع فى التوفيق والإصلاح بين الزوجين . ومع الأسف أثبتت التجارب أن هذا التحوط الذى تمسك به المشرع لم يكن ذا فائدة عملية .

محاولة الصلح والتوفيق بين الزوجين :

الأصل أن التشريع الفرنسى يوجب فى كل قضية مدنية ترفع أن يحاول القاضى ابتداء الصلح والتوفيق بين الطرفين ، ولذا تمر الدعوى أولا أمام قاضى الصلح ، فإذا فشل فى هذه المحاولة أحالها الى المحكمة الابتدائية إذا لم تكن الدعوى داخلة فى اختصاصه .

والمرجع الفرنسي لم يهمل هذا الإجراء في دعوى الطلاق . ولكنه أوجب أن تكون محاولة الصلح بين الزوجين على يد رئيس المحكمة الابتدائية المدنية لما يتمتع به من سلطة أعلى ودرجة أرقى من قاضى الصلح . ولذا يؤشر الرئيس على طلب الطلاق بتعيين يوم وساعة يحضر فيها الزوجان أمامه ، ويجب أن يعلن أمر الحضور هذا إلى المدعى عليه على يد محضر وفى مدة لا تقل عن ثلاثة أيام للشول أمامه ، وكما يلاحظ أيضاً ميعاد المسافة . وعلى هذا تكون عريضة الدعوى مشتملة على طلب الطلاق من المدعى ، وعلى أمر الحضور من الرئيس .

ويجب أن يكون إعلان عريضة الدعوى حين إعلانها إلى المدعى عليه مقفلاً ، وإن عدم مراعاة هذه الاجراءات يترتب عليه بطلان الإعلان .

وحضور الزوجين فى اليوم والساعة المحدتين يكون بشخصيهما دون أن يعاونهما أحد (من المحامين مثلا) . فإذا استحال على أحد الزوجين الحضور بشخصه جاز للرئيس أن يعين المكان المناسب لأجل محاولة الصلح بين الزوجين .

فاذا كان أحد الزوجين لم يستطع الحضور بشخصه وكان يقيم فى دائرة محكمة أخرى جاز أن يرسل الرئيس إلى رئيس هذه المحكمة لأجل أن يحاول هذا الأخير التوفيق بين الزوجين . كما يجوز للرئيس أن يهمل الزوجين مهلة لا تتجاوز عشرين يوماً للترؤى والتفكير فى الصلح .

ولكن مع الاسف الشديد لا يقع هذا ولا يحصل عملياً .

أمر التصريح بالسيرى فى الدعوى :

إذا لم يتم التوفيق والصلح بين الزوجين أصدر رئيس المحكمة قراراً يثبت فيه عدم حصول الصلح ، ويصرح للطالب بإعلان المدعى عليه بالحضور أمام المحكمة ، ويجب إعلان هذا القرار فى بحر عشرين يوماً . ووصول الاعلان بعد هذه المدة لا يؤدى إلى بطلانه ، وإنما يبطل مفعول الاجراءات التحفظية التى يأمر بها رئيس المحكمة .

الاجراءات التحفظية

وهى تشمل :

(١) المسكن المنفصل عن مسكن الزوجية : قبل محاولة الصلح بين الزوجين

يجوز لرئيس المحكمة عند تقديم طلب الطلاق إليه أن يأذن للطالب بالإقامة في مسكن منفصل عن مسكن الزوجية، كما يأذن له بأخذ ما يلزمه من حاجاته، وغالباً يكون ذلك للزوجة. والرئيس هو الذي يعين هذا المسكن كما يرى، سواء عند أقاربها أو عند من تلوذ بهم أو في أى مكان آخر. ويجوز أن تبقى الزوجة في مسكن الزوجية إذا كانت هناك ضرورة لذلك، والزوج يقيم في أى مكان شاء.

ولا يجوز للزوجة أن تترك هذا المسكن إلا لضرورة قصوى، أو بناء على تصريح من رئيس المحكمة. ومخالفة هذا تستلزم جواز امتناع الزوج عن أن يؤدي النفقة المؤقتة لزوجته، كما يجوز للزوج أيضاً طلب اعتبار الدعوى كأن لم تكن. وقرار الإقامة في مسكن منفصل هو قرار مؤقت يجوز أن يعدل.

(ب) النفقة المؤقتة: يجوز لرئيس المحكمة أن يقرر نفقة مؤقتة لأحد الزوجين الذى فى حاجة إليها على الآخر. وعادة تكون النفقة للزوجة على زوجها.

(ج) حضانة وحفظ الأطفال: لرئيس المحكمة سلطة كبرى فى تقرير حضانة وحفظ الأطفال، فله أن يقيمهم فى يد أمهم أو أبيهم، وهذا كله بعد الفشل فى الصلح بين الزوجين.

(د) الإجراءات الخاصة بأموال الزوجين: يجوز لرئيس المحكمة إصدار قرارات خاصة بالمحافظة على أموال الزوجين مدة سير الدعوى.

الطعن فى قرارات رئيس المحكمة:

لا يجوز الطعن فى القرارات التى تصدر قبل محاولة الصلح، ولكن القرارات التى تصدر بعد الفشل فيه يجوز الطعن فيها بكافة الطرق القانونية.

وهذه هى المرحلة الأولى وتبدأ المرحلة الثانية ٢

المؤلفات الجديدة

كتاب الكندي الى المنتصم بالله

الكندي هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق من أكبر الفلاسفة الاسلاميين . ولد حوالي سنة (١٨٥ هـ) وله في أكثر العلوم تأليف مطولة مشهورة ، ودعاه أهل عصره بفيلسوف العرب . تحدث عنه العلامة الشيخ مصطفى عبد الرازق رحمه الله وذكر ما اشتهر عنه من علوم الفلك والطب والهندسة ثم قال : « أما شأنه في الفلسفة فهو أهم شؤونه ، ومظهر عبقريته ، ومناطق الخلود لاسمه في ثنايا التاريخ ، .

للفيلسوف الكندي الذي نحن بصدد كتاب عمله لأمر المؤمنين المنتصم بالله ابن هارون الرشيد ، وهو كتاب موجز يشتمل على حدودها ومطالبها وأدلتها ، وعلى الموجودات ومراتبها وقواها وهيولائها الخ مما عني به القدماء ، وفكروا فيه تفكيراجديا ، ووصلوا من ذلك الى مدارك يجب الإلمام بها لمن يطلب الحقيقة . وقد قدم له حضرة الاستاذ الضليع الدكتور أحمد فؤاد الأهواني مدرس الفلسفة بجامعة فؤاد الأول مقدمة جمعت من الكلام عليه وعلى ما يتعلق بالكندي ما يفيد الاطلاع عليه ، لأنه اشتمل على استطرادات تاريخية تكشف للقارئ ما كانت عليه أحوال ترجمة العلوم اليونانية في الفلك والطبيعة والطب وغيرها ، وفيما لقيته الفلسفة من عناية أو غفلة . وهو تلخيص يغني عن قراءة المطولات ، وفيه آراء لكثير من الباحثين يخرج منه القارئ بفوائد لا يجدها مجتمعة في صعيد واحد . فنثي على همة الاستاذ الدكتور الأهواني ، ونعجب بحسن إirاده وإصداره للبحوث المختلفة في أسلوب رائع منشط للتلاوة في أمثال هذه الموضوعات العالية .

الفلسفة الاسلامية في المغرب

لحضرة الاستاذ الجليل الدكتور محمد غلاب مدرس الفلسفة بالجامعة الأزهرية

وهو كتاب من أجمع الكتب لبيان حصّة المسلمين من زيادة مادة الفلسفة ، دفعا لأقوال من زعموا أن الفلاسفة الاسلاميين لم يزدوا على أن كانوا مجرد نقلة للفلسفة اليونانية . فقد تصدى الدكتور غلاب لهذا الزعم فتقضه بالأدلة القاطعة ، وأتى على تلك الزيادات القيمة ، التي أضافها الفلاسفة المسلمون الى التراث الفلسفي

فزاد بها ثروة ، واتسع بها مدى . وفي هذا مفخرة للفلاسفة الاسلاميين ، لانهم مع عدم التنشيط الذى كانوا يصادفونه ، قد استطاعوا أن يأتوا فيها بجديد يشرفون به العبقرية الاسلامية .

ولاجل الوصول الى هذه الثمرة الثمينة ، اضطر الدكتور غلاب لعرض مذاهب ائمة الفلسفة الاسلامية كابن باجة ، وابن طفيل ، وابن رشد الخ ، وهو فى عرض هذه المذاهب يظهر ألمعية فائقة فى بيان الفروق الدقيقة بينها ، وفى حصة الاسلاميين من الزيادة على ما سبق الوقوف عند حده منها .

فهذا الكتاب ينشط القارىء على الاطلاع مدفوعا بجلالة الموضوع وبلاغة التعبير ، واتساق الموضوعات . فثنى على همة الدكتور المفضل بما هو أهله .

المذاهب الفلسفية العظمى

وهذا سفر ثان لحضرة الأستاذ النابه الدكتور محمد غلاب نفحنابه مع ما سبقه ، فكنا توأمين فى حلبة الإجادة والألمعية ؛ ذلك يطوف بنا على ما طواه التاريخ من الفلسفات القديمة ، وهذا يجول بنا فى حديقة غناء من الآراء الجديدة . بدأ الدكتور كتابه بالإلمام بعصر النهضة فهد لها ، وبين لونها ، وذكر أسبابها ونتائجها ، والتيارات الفكرية التى ولدتها من أول التيار الأفلاطونى ثم الأرسطى فيبروبوتونازى فنيكولا السكوزى فجورج انورونو فديشيل دومنتى . ثم ألم بطائفة التيار العلمى من الفلاسفة الذين يزعمون أنهم يصدرون فى فلسفتهم عن العلم لا عن الفلاسفة القدامى . وذكر ليوناردو فانس وكوبرنيك وجان كليبير وجاليليه من كاشفى السكيان الجديد للعالم .

ولم يهمل فى هذا المعترك الفكرى الخطير بيان نظرية الحركة ، ونظرية النسبية ، وكل ما مهد لظهور الفلسفة الحديثة ، وقد بينها ذا كرا ميزتها . ومر على ذكر يسكون واضع الدستور العلمى ، وتابع ما ذكره يسكون هذا عما سماه الاوثان ويريد بها الأهواء البشرية التى تحجب الحقائق عن الإنسان .

ومضى الأستاذ الجليل غلاب متابعا طريقته من الاستقراء والتجسس مارا بديكارت ومالبرانش وسبينوزا وليبنيز وجساندى ذا كرا ما لكل واحد منهم من قسط فى إدراك الحقيقة ، فجاء كتابه عيلا عدا من المذاهب والآراء والنظريات التى تشغل بال الإنسان ولا يجد لها مصرفا . فنشكر للأستاذ هديته .

الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية

لحضره الدكتور الجليل محمود حب الله أستاذ الفلسفة وعلم النفس
بكلية أصول الدين

لهذا الكتاب النفيس غاية على أعظم جانب من السمو، وهي تمكين الإنسان من استخدام جميع قواه الأدبية، في استكمال شخصيته الذاتية، وإيتائها بالوسائل التي تبلغها سعادتها القصوى، وطمأنينتها النفسية، وسكينتها القلبية. مطلب يتحرق للوصول إليه كل ذى عقل راجح، ولكن ما هو؟ هو أن يعرف الإنسان على صورة علمية واضحة كيفية استخدام ما ركب في طبيعته من الوسائل لبلوغها. والكتاب الذى بين أيدينا قمين بأن يبين تلك الوسائل مستندا إلى المقررات العلمية، والفتوحات الفلسفية.

فقد بين مؤلفه الجليل بعبارات جلية بليغة، مهمة الوجدان من الحياة الإنسانية، وأنه هو القوة التي تغذى العواطف وتربها وتكونها، وأن العواطف تربي الشخصية وتقويها. وهدف هذا الكتاب بعد هذا هو أن يبين أن جميع ما يتأثر به المرء من إشباع رغباته الروحية، والدينية، وما يشعر به من تطلب الطأينة القلبية، واتزان الشخصية، والتخلص من ربة الميول الحيوانية، والمتاع بالسعادة الحقيقية، وسائلها العملية مطبوعة في نفسه التي بين جنبيه، وليس فيها ما هو غريب عنها، ومجرد تحريك الإرادة نحو الوصول إليها يحققها، وما عليه إلا أن يعرف وسيلة تحريك الإرادة لنيلها. ومهمة هذا الكتاب بيان كل ذلك بعبارات واضحة يفهما الكافة، وإن كانت من صميم الفلسفة، ولباب الحكمة العالية.

هذا الكتاب القيم الذى يبين مبلغ تأثير الوجدان في حياة الإنسان الأدبية يجب أن يكون فى يد كل مشتغل ببلوغ السعادة التي وعد بها المقربون، فثنى الثناء كله على مؤلفه العلامة نفع الله به، وأمدّه بروح من عنده.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الدرس الديني

الدرس الديني الذي ألقاه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر
الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر فى قصر عابدين العامر
جريا على السنة الملكية

بسم الله الرحمن الرحيم :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد
النبي الكريم ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من سن سنة حسنة فله أجرها
وأجر فاعلها الى يوم القيامة » . وقد تفضل حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك
المعظم الملك فاروق الأول - أيد الله به الدين ، وأبقاه ذخرا للإسلام والمسلمين -
تفضل حفظه الله فشرع هذه السنة الحميدة ، عملا بقوله صلى الله عليه وسلم : « من دعا
إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا » .
ولا شك فى أن مجلس العلم فيه الخير كله ، « هل يستوى الذين يعلمون والذين
لا يعلمون » . « وقل رب زدنى علما » .

قال صلى الله عليه وسلم : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ، وإنما أنا قاسم
والله يعطى ، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي
أمر الله » . وقال صلى الله عليه وسلم : « من نفّس عن مؤمن كربة من كرب
الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله
عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله
فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه ، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما
سهّل الله له طريقا الى الجنة » .

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : « إذا مررتهم برياض الجنة فارتعوا ، قيل : وما رياض الجنة ؟ قال : مجالس العلم . »
 الا وإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

عن على كرم الله وجهه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، قلت : يا رسول الله وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو القول الفصل ، ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله ، فهو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، من علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدى الى صراط مستقيم . »

* * *

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : « وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ، وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا ، لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَآتُوا الزَّكَاةَ ، وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ، فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ . »

هذه الآية الكريمة اشتملت على أمور أربعة ، تعتبر خلاصة لعقائد الدين وشرائع الإسلام ، وهى : الجهاد فى الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والاعتصام بالله . ذلك أن الدين الإسلامى عقيدة وعمل ، والعقيدة تركزت فى الثقة بالله ، والاعتراف بأنه القوة العليا التى منها المبدأ وإليها المنتهى ، ومنها النفع والضرر ، ولها الخلق والأمر ، وهى الملجأ والملاذ فى الشدة والرخاء ، والسراء والضراء ؛ وإلى ذلك الإشارة بقوله جل شأنه : « واعتصموا بالله هو مولاكم . »

وأما العمل فمآله الى ثلاثة أنواع : عمل يعود نفعه على الفرد فى ذاته ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : « فأقيموا الصلاة » ؛ وعمل يتعدى نفعه الى فرد أو أفراد من

بمجموع الأمة، وإليه الإشارة بقوله سبحانه : « وآتوا الزكاة » ؛ وعمل يعود نفعه على الأمة كلها من حيث هي أمة ذات كيان دولي ، لها وطن تحميه ، ودين تفديه ، وقومية ترعاها ، وذلك هو قوله تعالى : « وجاهدوا في الله حق جهاده » . فجهاد العدو ضروري لحفظ كيان الأمة ورفع رايها وإعزاز كلمتها . والجهاد مبدأ مؤسس على نظرية اجتماعية طبيعية لازمت الانسان منذ تكونت منه الجماعة المتباينة الأغراض ؛ والله جل شأنه خلق الإنسان وركب فيه غريزة حب البقاء ، وحبُّ البقاء يدفعه دائماً الى أن يجلب لنفسه كل ما يستطيع من نفع ، وكثيراً ما يكون ذلك سبباً في البغي والعدوان ؛ فاقترضت حكمة الله أن يمنح كل إنسان قوة محدودة يستطيع بها أن يدفع عن نفسه . فالطفل في المنزل يقاوم العدوان بطبعه حتى إذا عجزت قوته لجأ الى والدته ، والولد الكبير يلجأ في حال عجزه الى أبيه أو أخيه الأكبر ، وأفراد الأمة إذا بغى بعضهم على بعض لجأ المغلوب الى الحاكم ، وهكذا الأمة في مجموعها ، شأنها في ذلك شأن الأفراد ؛ تلجأ في دفع العدوان الى جيش قوى يحمى ذمارها ويرهب أعداءها . وإذا كان للأفراد أعمار طبيعية يموتون بانتهائها فليس للأمة مثل هذه الأعمار ، إنما حياة الأمة وبقاؤها وموتها وفنائها منوطان بقوتها وضعفها . فالجيش القوي مبدأ حياة الأمة وبقائها ، ومناط عزها وكرامتها .

وكل أمة تهاونت في جيشها وبخلت عليه بما لها فآلها الفناء ، وإن بقي أفرادها على قيد الحياة فهم أحياء ولكنهم أذلاء مستعبدون ، لا يعبا بهم ، ولا يبالي بعديدهم . يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحيككم » . قال العلماء معناه : إذا دعاكم للجهاد ففيه حياتكم وعزكم وبقاؤكم . وقال جل شأنه : « وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » معناه : أنفقوا في سبيل الله ولا تبخلوا فتمتعوا موقع التهلكة ويستأصلكم عدوكم .

وقد عرف الإسلام للجهاد عظيم خطره وكبير أثره ، فجعل عدوة أو راحة في سبيل الله خيراً من الدنيا وما فيها ، وفضل المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ؛ درجات منه ومغفرة ، ورحمة ، وكان الله غفوراً رحيماً .

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى : « أنا ضامن لمن خرج في سبيل لا يخرج به إلا جهاد في سبيل وإيمان بي وتصديق برسلي أن أدخله الجنة أو أرجعه الى أهله

نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة . وقال تعالى : « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألنى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » .

هذا والجهاد ثلاثة أنواع : جهاد الأعداء ، وجهاد الشيطان ، وجهاد النفس .

فجهاد الشيطان يكون بمخالفته فيما يوسوس به ، وعدم اتباعه فيما يزين للإنسان من القبائح والشرور وسيئات الأعمال « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » . وجهاد النفس يكون بحبسها عن مألوفها ، ومنعها من الانغماس فى شهواتها ، وضبطها بميزان الشرع حتى لا تتعدى حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون .

وقوله تعالى « وجاهدوا فى الله حق جهاده » أمر بالجهاد بأنواعه الثلاثة ، أى ليكن جهادكم كله لله ، ومن أجل الله ؛ ولذا قال تعالى : « حق جهاده » أى جهادا حقا خالصا لوجه الله .

وبعد أن أمر الله تعالى بالجهاد الخالص لوجه الكريم ، أردف ذلك بأمور كلها تبعث على الجهاد وترغب فيه ، فمنها قوله تعالى : « هو اجتباكم » . أى أن الله اختاركم لخدمته واصطفاكم لنصرة دينه ؛ ومن شأن العبد إذا اختاره سيده وقرّبه أن يتفانى فى خدمته ويخلص فى طاعته . ومنها قوله تعالى : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » . ومعناه أن الدين الذى شرعه الله ورضيه لكم ديناً كله يسر لا عسر فيه ، وسهل لا صعوبة فيه ، حتى إن الجهاد الذى يظنونونه أمراً شاقاً وتكليفاً صعباً هو فى ذاته من أيسر الأمور على المؤمن الصادق الإيمان ، وما هو بصعب إلا على المتردد السقيم الوجدان .

أما قوى الإيمان الصادق العزم الواصل بالله وما عند الله ، فإن قوة إيمانه تدفعه الى الميدان دفعا كأنه عمل لا شعورى ، فيقدم لا يلوى على شىء ، ولا يبالي ما وراه من مال وولد ، وزوج وقريب ، لأنه يعتقد أن نتيجة هذا العمل إما الجنة ، وإما المجد والذكر الحسن .

روى أنه صلى الله عليه وسلم رغب فى الجهاد وذكر الجنة ، ورجل من الأنصار

يأكل تمرات في يده، فقال: إني لحريص على الدنيا إن جلست حتى أفرغ من هذه التمرات ! فرماها من يده ، وحمل بسيفه فقاتل حتى قتل .

« والمقتولون في سبيل الله أحياء عند ربهم يرزقون ، لأنهم كانوا سبياً في حياة أمتهم . وهبوا حياتهم لتحيا أمتهم ، فوهب الله لهم حياة خيرا من حياتهم » تكون أرواحهم في حواصل طيور خضر ، يسرحون ويمرحون في رياض الجنة .

وقوله جل شأنه : « وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم » .

يريد أن دين الإسلام ميسر سهل كما كانت ملة إبراهيم عليه السلام ميسرة سهلة . « هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا » ، يعني أن الله عز وجل رفع ذكركم في الكتب السابقة ، ونوه بشأنكم في الآمم قبلكم ، فسماكم في كتبهم مسلمين ومذعنين طائعين ، وكذلك سماكم المسلمين في كتابكم هذا ، وهو القرآن الحكيم . « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » فأنتم « خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

وأما قوله تعالى : « ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس » ،

فهو مثل قوله جل شأنه في آية أخرى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

ورد أنه يؤتى بالآمم وأنبيائهم يوم القيامة فيقال للأنبياء : هل بلغتم أممكم ؟ فيقولون : نعم بلغناهم . فيمكرون . فيؤتى بهذه الأمة فيشهدون أنهم قد بلغوا ، فتقول الأمم لهم : من أين عرفتم ؟ فيقولون : عرفنا ذلك من الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم .

« فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » يريد : تقربوا الى الله عز وجل بأنواع

الطاعات لما خصكم بهذا الفضل العظيم .

« واعتصموا بالله » : تقوا به في جميع شئونكم ، واضرعوا إليه في كشف ما بكم ،

واحتموا به يحكمكم ، واسألوه النصر ينصركم ويثبت أقدامكم ، وتعرفوا إليه جل شأنه في الرخاء يعرفكم في الشدة ، واستقيموا إليه واستغفروه ، واطلبوا منه

الهداية والتوفيق والنصر والتأييد، فإنه وحده هو مولاكم وناصركم، ومتولى جميع أموركم، « فنعم المولى ونعم النصير » .

هذا وإن للعاملين لذكرى، وإن للمصلحين لأثرا، وإن أولى العاملين بالذكر وأحق المصلحين بالآثر من نهضوا بأمتهم، وساروا بها الى حيث تبلغ مجدها ورفعتها ومكاتها بين الأمم . وهكذا كان المغفور له صاحب السمو الخديوى إسماعيل العظيم؛ فإنه رحمه الله قد بعث فى مصر روح النهوض، وأفسح للأمة فى مجال الرقى، وجعل المملكة المصرية تاج الممالك الشرقية وكعبة الأمم الغربية . وقد اختاره الله تعالى الى جواره، فانتقل الى الرفيق الأعلى راضيا مرضيا فى مثل هذا اليوم من شهر رمضان، سنة اثنى عشرة وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية .

نسأل الله تعالى أن يحزبه خير الجزاء، ويسكنه الفردوس الأعلى، إنه أرحم الراحمين .

اللهم إنا نتوجه إليك بقلوبنا وبصدق نياتنا أن تثبت أقدام عبادك المجاهدين، وتظهرهم على أعدائك الطغاة الباغين، وتمنحهم نصرك الذى وعدت به من يجاهد فى سبيلك يا خير الناصرين، ونضرع إليك يا ذا الجلال والإكرام، أن تشمل بعونك ورعايتك المجاهد فى سبيلك، الداعى لنصرتك، المؤيد لكلمتك، المخلص فى طاعتك، الملك الصالح الموفق، مولانا صاحب الجلالة فاروقا الأول، وأن تحييه حياة طيبة، مباركا فيها، تعم بنفعها العباد والبلاذ، وأن تمنحه وإخوانه أصحاب الجلالة والفخامة ملوك العرب ورؤساءهم نصرك المبين يارب العالمين، وأن توفق رجال حكومة جلالته الى ما فيه الخير العميم، إنك على ما تشاء قدير .

ونسألك اللهم يا واسع الفضل والإحسان، أن تتغمد برحمتك ورضوانك الراحل الكريم، مولاي الملك العظيم، صاحب الجلالة المغفور له الملك فؤادا الأول . اللهم اجعله فى أعلى عليين مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

الدرس الدينى

الذى ألقاه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل الأزهر بمسجد محمد على بالتملة فى حفل عظيم ضم كبار العلماء ورجال الدولة

وكان ينوب عن حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فيه حضرة صاحب المعالي ابراهيم عبد الهادى باشا رئيس الديوان الملكى .

بسم الله الرحمن الرحيم .

قال الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ . وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ، بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ . وَلَنُبَلِّغَنَّكُمْ أَشْيَاءَ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ . أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ . »

بيّن الله فى الآيات السابقة ما أنعم به على المؤمنين من النعم العظيمة ، وبيّن ما يجب عليهم من ذكره وشكره على هذه النعم ، وعدم إهمالها أو التحول بها الى غير ما وجدت له ، وذلك بقوله « فاذكرونى أذكركم ، واشكروا لى ولا تكفرون » . فكان من تمام إرشاده سبحانه إذ أمر بالشكر على النعم ، أن يأمر بالصبر على الشدائد والنقم ؛ فإن العبد إما أن يكون فى نعمة فيشكر الله عليها ، أو فى نعمة فيصبر عليها . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عجباً للؤمن : لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له ؛ إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له ، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له » .

والصبر : هو قهر النفس على احتمال المكاره في ذات الله ، وتوطئتها على تحمل المشاق وتجنب الجزع ، لتربي في النفس ملكة الرضا ، والثبات على الحق ، واحتمال كل ما يشق على النفس .

فهو فضيلة هي أم الفضائل التي تربي في النفس ملكات الخير ، حتى إن الإنسان لا يكون شجاعاً ، ولا أميناً ، ولا عفيفاً ، ولا حليماً ، ولا غير ذلك من الفضائل إلا إذا كانت عنده فضيلة الصبر .

وقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة » أمر عام ، وإرشاد شامل للمؤمنين ، أفراداً وجماعات ، بل وللأمة في مجموعها .

فهو خطاب موجه الى الأفراد فيما ينزل بهم من المصائب والشدائد ، بأن يستعينوا بالصبر ، ويثبتوا أمام مصائبهم ، لينالوا من الله برد الرضا وحسن الجزاء . وموجه الى الجماعات من الأمة ، كل جماعة فيما تقوم به من عمل .

فالمجاهدون في سبيل الله جماعة من الأمة تجاهد لإعلاء كلمة الحق ؛ عليهم أن يستعينوا في جهاد عدوهم وقهره بالصبر والثبات ، ولو تراءى لهم أنه أكثر منهم عدداً ، وأقوى عدة ، لأنهم بصبرهم وثباتهم ، يزيدهم الله قوة إلى قوتهم ، وهو نعم المعين - « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين » .

وكل جماعة تؤدي عملاً عاماً من طوائف الموظفين والعمال والصنّاع وغيرهم يتقاضى عليها واجب الوطن بأن تتحمل أعباء ثقيلة من العمل ؛ يجب عليها أن تنهض بهذه الأعمال ، ولا تجعل للضجر على نفسها سبيلاً ، بل تستعين على إنجازها بالصبر وقوة العزيمة .

والخطاب موجه الى الأمة في مجموعها ، بأن تستعين بالصبر والثبات في مغالبة الشدائد ، وما يصادفها من عتبات وأحداث ، في سبيل تقدمها ، واستخلاص حقوقها ، كي يُكسب لها البقاء والفوز في مضمار الحياة ... فإن الأمة التي تفقد الصبر والثبات في الملمات ، وتزلزلها الأحداث فلا تقوى على احتماها ، هي أمة ميتة كتب عليها الفناء ، ولا تلبث أن تصرعها الأقدار ، فتصبح كأن لم تكن بالأمس .

أما الاستعانة بالصلاة فلأنها من أكبر العون على الثبات في الأمور ؛ إذ يجب أن تؤدَّى بالخضوع والتذلل والإخلاص لله سبحانه وتعالى ، وأن يوفَّر المصلّي قلبه عليها بالشعور بعظمة الله تعالى ، وسلطانه ، وأنه الغالب على كل شيء ، وأنه الذي يُلجأ إليه في ملبات الأمور ، ويُفزعُ إليه عند الكوارث ، وأنه لا أكبر في هذا الوجودِ سواه .

ولا شك أن من أقام صلاته على هذه الصفة ، فقد ذلّ نفسه لاحتمال المشقة فيما عداها من أمور الدين ، كما قال تعالى « وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمرٌ فزع إلى الصلاة .

وقوله تعالى : « إن الله مع الصابرين » ، يعني أن الذين اتصفوا بالصبر ، وكان الصبر مُخلِّقاً لهم ، يمدّهم الله بمعاونته ، ويزيدهم من فضله توفيقاً وتسديداً وألطافاً كما قال « ويزيد الله الذين اهتدوا هُدى » .

بعد أن دعا الله المؤمنين إلى الاستعانة بالصبر على الشدائد في الأمور كلها ، وكان من أهمها الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ، وفي هذا السبيل يقتل بعض المؤمنين ، قال : « ولا تقولوا لمن يُقتلُ في سبيل الله أمواتٌ ، بل أحياءٌ ولكن لا تشعرون » . ليعلمنا منزلة هؤلاء الشهداء ، وما أكرمهم به من النعيم المقيم .

ولم يبيّن الله حقيقة هذه الحياة التي يحياها الشهداء ، وليست لها آثارٌ ظاهرة لنا حتى يمكن البحث فيها ، وإنما أخبر الله بأنهم أحياء عنده ؛ ولهذا نحن نؤمن بهذه الحياة ، وأنها حياة اختص الله بها الشهداء ، وميّز أرواحهم بها على أرواح الناس ؛ بها يرزقون ، ويسنعمون ، كما جاء في الآية الأخرى : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله » .

هذا جزاء الشهداء من المجاهدين وما أكرمهم الله به . أما المجاهدون الذين لم يُقْتَلُوا ، فهؤلاء مع ما يكون لهم من حسن الذكر بين الناس على ما قاموا به في سبيل الذود عن حرم الإسلام ، ودفع الطغيان عنه ، فإن كل ما يصيبهم في جهادهم من تعب وآلام ، وكل ما يشفقونه من النفقات ، عظمته أو قلته ، وما ينالونه من عدوهم من تقتيل وتجريح وكيد ، وغير ذلك ، سيكون لهم به عند الله أجر عظيم . يقول الله تعالى : « ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ، ولا يطؤون موطئا يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين . ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون »

وقوله تعالى « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات » يعنى أنه ستصيب المؤمنين محن وبلايا في سبيل الدفاع عن الحق لإعلاء كلمة الله . وقد أخبر الله بهذه المحن قبل وقوعها ، ليوطن المؤمنون أنفسهم على الصبر عليها إذا حلت بهم ، فيكون ذلك أبعد لهم عن الجزع ، وأسهل عليهم بعد الورود .

وقد أصاب المؤمنين بلاء وشدة من أعدائهم كانوا يغالبونها بالصبر والثبات وقوة الإيمان ، مع قلة عددهم وعدتهم ، وكثرة أعدائهم وقوتهم . وقد كانت واقعة الأحزاب امتحانا أى امتحان لقوة إيمانهم ، وثباتهم على الحق . فقد تجمعت الأحزاب من شتى القبائل في نحو عشرة آلاف مقاتل ، بتحريض من اليهود ، ليستأصلوا محمداً ومن معه من المسلمين ، وحاصروا المسلمين بالمدينة نحو شهر ، يظاهروهم يهود بنى قريظة الذين خانوا ونقضوا ما كان بينهم وبين الرسول من عهد وميثاق . وقد أذاقوا المسلمين في هذا الحصار ألوان الشدائد ، من الألم والنصب والجوع ، وهم مع ذلك ثابتون مع قلة عددهم الذى لا يجاوز ثلاثة آلاف مقاتل ؛ سلاحهم الصبر وقوة الإيمان بالله ، حتى أرسل الله على أعدائهم ريحاً عاتية ، مزقت شملهم ، وفترت جمعهم ، فبأوا بالخيبة والفشل ، ومكّن الله للمسلمين من اليهود ، جزاء خيانتهم ونقضهم العهد .

وفي هذا يقول القرآن الكريم « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً » . الى أن يقول : « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا . وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ، وقذف في قلوبهم الرعب ، فريقتا تقنلون وتأسرون فريقتا ؛ وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم ، وأرضا لم تطئوها ، وكان الله على كل شيء قديرا »

كذلك أصاب المسلمين الجوع في أوقات متفرقة ، من قلة المال ، وما كان يصيبهم من الجذب والجوائح واشتغالهم بجهاد أعدائهم ، حتى بلغ من أمرهم أن كان بعضهم يقتات ببعض الثرات ، وبعضهم يشد الأحجار على بطنه من آلام الجوع ؛ وكان من آثار اشتغالهم بالجهاد بأموالهم وأنفسهم ، أن أصابهم القتل ، وقلت الأيدي العاملة في الزراعة والتجارة ، فنقصت بذلك الأموال والأنفس والثرات .

ولما كانت هذه البلايا وغيرها غير قاصرة على عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، بل المسلمون عرضة لأن تصيبهم فيما لا يزال من الزمان ، في السلم وفي الحرب ، وردت البشارة عامة في قوله تعالى « وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون » ، لتشمل جميع الصابرين الموجودين ومن يأتي بعدهم ممن وصفهم الله في الآية .

وليس المراد مجرد النطق بهذه الكلمة « إنا لله وإنا إليه راجعون » ، وإنما المراد أن ينطقوا بها بدافع من الشعور النفسي بأن الله مالك أمرهم ، بيده ملكوت كل شيء ، لا يفعل إلا ما تقتضيه حكمته ، وأنهم في جميع أمورهم راجعون إليه ، يخفف عنهم آلام ما نزل بهم ، ويدفع عنهم كيده المتعدين ، ويتنصف لهم من الظالمين . فهؤلاء هم الصابرون حقا ، لهم البشرية في الحياة الدنيا وفي الآخرة . وقد فاز هؤلاء الصابرون من الله تعالى بثلاث خصال لم يجمعها لغيرهم من

المؤمنين ، وهى التى ذكرت فى قوله : « أولئك عليهم صلوات من ربهم ، ورحمة ،
وأولئك هم المهتدون » .

فصلوات الله عليهم : أن يثنى عليهم ، ويزيدهم تشريفاً وتكريماً وتعظيماً ؛
ورحمته عليهم : هى ما يكون لهم فى نفس المصيبة من لطف الله وإحسانه ، فيكون
لهم منه حسن العزاء والرضا والتسليم بقضاء الله ؛ وهم المهتدون إلى الحق والصواب
فيما ينبغى عمله فى أوقات الشدائد والمصائب ، فلا يستحوذ الجزع على نفوسهم ،
ولا يذهب البلاء بالأمل من قلوبهم .

أما ما يجده الإنسان فى نفسه من ألم المصيبة والحزن ودمع العين فليس منها
عنه ؛ لأنه مع كونه من الأمور القهرية التى لا قبل للإنسان بدفعها ، فإنه من الرحمة
ورقة القلب ، وهما من صفات المؤمنين .

وبعد أن انتهى فضيلته من هذا الحديث قال :

حضرة صاحب المعالى مندوب حضرة صاحب الجلالة الملك - أيها الشعب الكريم :
إن الله تعالى أمرنا بالصبر وحببه إلينا ، وأرشدنا إلى أن نجعله عدتنا
فى علاج أمورنا ، وقوتنا فى شدائدنا وجهادنا .

واتخذت نزلت بنا شدائد وبلايا ، ومرّت بنا أحداث كان فيها حضرة صاحب
الجلالة مولانا الملك - أعزه الله - المجاهد الأول بنفسه وماله ، والمثل الأعلى لقيادة
شعبه النبيل إلى مواطن العزة والكرامة والمجد ، بصبر وقوة عزم .

فالتاريخ يسجل له ما قام به فيما أصاب الأمة من الأمراض الفتاكة من
الجامبيا والملايا والسكري . فقد جاهد فى هذا السبيل بالآلاف المؤلفة من ماله
الخاص ، وشارك الأمة فى آلامها ، وذهب إلى الجهات المنكوبة بنفسه ليواسى
أهلها ويعمل على تخفيف آلامها ومصائبها ؛ وكان يواصل الليل بالنهار يعمل
ويشرف على ما تقوم به حكومته بصبر وجلد وقوة إيمان ، إلى أن أزال الله
هذه الغمة ، وطهر البلاد منها .

والتاريخ يسجل له مواقف الحزم والثبات في معالجة قضية الوطن الكبرى ،
 مما كان له أثر عظيم في موقف البطولة الذى وقفه وفدنا الامين في مجلس الامن .
 والامة في هذا السبيل تترسم خطا جلالته وتشد أزره ، حتى كان ما استرده لها
 من حقوق مضت عليها عشرات السنين ؛ وهو لا يزال في مضمار المجد يجاهد
 ويصابر حتى يصل الى نهاية الشوط ، وبين يدي جلالته حقوق الامة كاملة غير
 منقوصة بإذن الله .

والعروبة والإسلام يسجلان له بالفخر ما كان له من الصبر والثبات
 في سبيل تكوين جامعة الدول العربية التى تدين لجلالته في وجودها . وها هى ذى
 قد أصبحت قوة يخشى بأسها بين الدول ، وجلالته أعزه الله في الطليعة ، يمدّها بقوة
 نفسه وعزماته الوثابة لاسترداد مجد العروبة ودفع الطغيان عنها . وها هو ذا
 قد تقدم الصفوف بجيش مصر القوي الباسل للجهاد في سبيل الله ، سبيل مجد الوطن
 والعروبة والإسلام . وسيكتب التاريخ لجيش مصر البطولة والانتقال من نصر
 الى نصر ، في صحائف المجد والعزة والفخر .

هذه أمثلة مما كان لجلالته من صبر وثبات وقوة عزم . زاده الله قوة وثباتا
 وعزما ، والله ولى الصابرين .

نرجو الله العلى التقدير أن يؤيده ، وأن يؤيد حكومة جلالته ، ويقوى عزمها
 فيما فيه خير الامة ومجدها وعزتها .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

هل فات زمان الأديان

يخيل للذين يشهدون الخطوات الواسعة التي يخطوها العلم في سبيل كشف القناع عن وجوه المجاهيل ، وفي متابعة البحث وراء عللها ، ومبلغ آثارها ، حتى تأدى الى فهم حقيقة المادة ، وتراعى له ما سيدبني على ذلك من حل مساوئ أخرى ؛ قلنا يخيل الى الذين يشهدون ذلك أن عهد الدين قد آذن بالزوال ، وأن سيحل محله العلم في هداية الإنسان الى أقوم سبل الحياة ، وفي إيتائه بمسئل عليا من الأدب السامى يندفع الى الوصول إليه على أكل ما يكون من ثقة وطمأنينة وبعد عن الشبهات . وقد نطق بهذا الحكم طائفة من العلماء وتلقفها عنهم رجال من المتصلين بهم من زعماء المذهب المادى ، فاندفعوا يروجونها في الجامعات والمجلات العلمية ، واشتدت حملتهم على الدين حتى زعموا أن بقاءه أصبح من الخيال ، فما هى إلا ملاوة من الدهر تمضى حتى يموت من بقى من أهل الجيل الحاضر المطبوعين بتأثير بيئاتهم وثقافتهم ، على الدين ، فينقض عهد الدين ، ويشرق سلطان العلم ، فلا يناظره فى قيادة النفوس منازع ، وتتوحد وجهة البشرية تحت ضيائه الساطع .

بنى هذا الحكم من قادة الماديين على أن العلم يكشف حقائق الموجودات ، ويبحث فى عللها ، ويُعنى بتفسير ما يستطيع تفسيره منها ، وهو دائب على عمله هذا من يوم وُجد ، وقد تأدى الى ثمرات قيمة ، لا يتردد فى عظمها أحد . وهذا لا يؤثر فى ضرورة الدين أقل تأثير حتى ولو وصل العلم الى غاية مراده من تفسير الموجودات وتعليلها ، الى أن يصبح الإنسان لا يحجل شيئاً منها . ذلك لأن للدين مطلباً آخر أسمى من مطلب العلم ، وأرفع منه موضوعاً ، وأعلق بالنفس الإنسانية من ثمرته مهما جلت ، ألا وهو إيجاد صلة بين الإنسان ومبدعه ، يتأهل بها الى ما تتوق إليه نفسه من اقتباس فيوضاته ، والاستعداد لإدراك حقيقة حياته ، إدراكاً يطمئنه على خلود ذاته ، ويكشف له عن معنى حكمة الوجود وآياته ، ويحل له ما يزعج العقول من متناقضاته . وهذا كله ليس من مهمة العلم أن يقوم به ، ولا فى استطاعته أن يحاوله . وهو الذى تألم النفوس من الجهل به ، وتفضل الإمام به على كل عزيز عليها . فإذا يفيد الإنسان أن يعرف سر تركيب الذرة المادية ، وأن يصل الى تفجيرها ، وأن يصنع منها قنبلة تأتى على مدينة بأكملها ؛ أو أن يجيد استخدام الكهرباء فى حاجاته ، وأن يكتشف قوة

جديدة من قوى الوجود، تقوم له بما هو أخص وأرفع مما تقوم لنا به القوى المعروفة، أو أن يخترع آلة توضع في السفن والطائرات فتوصله الى أقصى الأرض في دقائق قليلة، أو غير ذلك مما يدخل في عداد المعجزات؛ قلنا ماذا يفيد النفوس من هذا كله إذا كانت غير مطمئنة على حياتها، ولا تعرف حقيقة ذاتها، ولا مصير الأجزاء من أمواتها؟ وبأى نفع يعود عليها إذا مسها طائف من مرض، وضعت مقاومة بنيتها له، وأصابها من الجزع ما يزيد علتها تفاقمًا حين يترامى لها أن الفناء فاجر فاه ليلتلعها ويلاشى قواها العقلية، ولا تبقى منها إلا ذكرى لا تشعر هي بها وإن طبقت الأرض صيتنا وشهرة؟.

لا جرم أن العلم في الحدود التي حصروه فيها لا يواتى النفس البشرية من هذه الناحية بأقل فائدة.

لسنا بسبيل بيان تمصير العلم وإنما بصدد دحض قول من يزعم أن في العلم غناء عن الدين، وقد رأيت العكس، فإن العلم فضلًا عن أن عمله مقصور على العالم المادى، فإن كثيرًا من رجاله يتدخلون فيما لا يعينهم، ويقررون أن ما تحلم به النفوس الضعيفة من وجود بارى للوجود، ونفس مستقلة عن الجثمان في الأحياء، أحاديث خرافة يجب أن تتجرد منها العقول السليمة. وتعالى بعضهم فقال إن هذه العقائد تنافى الإنسانية القوية الجديرة بالسيطرة على القوى الطبيعية، وأن المتمسكين بها ضعاف النفوس يغلب عليهم التراخي والزهد في الدنيا، والتغلب على الطبيعة وامتلاك زمامها لا تنافى لأمثالهم من الذين جعلوا أمانهم فيما وراء هذا العالم. إن أمثال هذه المحاولات تروج في العقول المحدودة، وتأتى بشمرات إلحادية تنافى المقام المحمود للإنسانية، وهى قائمة على سفسطة لا تقوى على الرد.

هل يصح أن يغيب عن هؤلاء الخصوم أن الأمم التي تنقسم الأرض وتسيطر عليها اليوم، قامت كلها على بواعث دينية؟ وأن أمم الشرق الأقصى التي تتناحر جماعاتها كذلك للحصول على حقوقها الطبيعية، وشعوب الشرق الأدنى التي تستعصى اليوم على الاستعمار، وتقاوم القوى المضادة لها باستبسال وعناد لا يتصف بها إلا ذوو النفوس الآبية، هل منعتها أديانها عن الاندفاع وراء مطالبها المادية، وهل حطت من كبرياتها التومية ما تعتقده من الأصول الدينية؟

وهذه الأمة الإسلامية التي ظهرت في جزيرة العرب في بيئة لا تسمح طبيعتها بتيام أمة فيها، ألم ترها قامت تحت تأثير عقيدتها تفتح العالم وتستغل

الطبيعة حتى بلغت أقصى ما تبلغه أمة من العظمة الأدبية والمادية ؟ فلو كانت المطالب الروحية تصد النفوس عن الاشتغال بالشئون الدنيوية ، والمعارف الكونية ، لكانت الأمة الإسلامية في عهدها الأول - وقد نالت بسطة من الملك وسعة من السلطان - استناعت إلى مآلديها من العقائد ، وأهمات ما عداها من البحوث الفلسفية والعلمية ؛ بل كانت تصدت لما صادفته من هذه البحوث واعتبرتها من المكائد الشيطانية ، لإلهام المؤمنين عن الواجبات الدينية فأحرقتها . ولكن العالم كله يشهد الآن وفي مقدمته المؤرخون ، بأن المسلمين في بدء نشوئهم ما احتسكوا بأمة إلا أخذوا بأفضل ما عندها من المعلومات الكونية ، والأسرار الصناعية ، واكبوا على دراستها حتى بلغوا درجة الامامة فيها قرونا كثيرة ، ولا تزال مؤلفاتهم ماثلة في الجامعات الأوروبية تشهد بصحة ما يقوله المؤرخون عنهم ، فأين تقع بعد هذا الدليل المحسوس دعوى زعماء الفلسفة المادية من أن الاشتغال بالأمور الدنيوية والعقائد الدينية ، يمتد القلوب ، ويصد النفوس عن الاهتمام بالأمور المادية ، ويحول دون الوصول إلى النهايات البعيدة للفتوحات الطبيعية . أما وقد دحضنا هذه الشبهة ، فنعود إلى القول بأن للدين مهمة لا يستطيع أن يقوم بها العلم بل هو كما ترى يحاول أن يستهين بها ، ويعزوها إلى السذاجة العقلية . لا ، لا ، ليس تفكير الإنسان في مصيره ، ولا البحث في علاقاته الروحية بما فوق الطبيعية ، من السذاجة العقلية ، ولكنه اسمى ما يجب أن يبحث فيه الإنسان ، وهو مدفوع إليه بعوامل طبيعية في ذاته ، فإن كان من المسموح به استخدام عبارة السذاجة العقلية في هذا البحث ، فإن هذا الوصف أولى بالذين يدعون أن ليس فوق الطبيعة المنظورة وجود أعلى منها يصح البحث عنه ، وخاصة في الوقت الذي ظهرت فيه مكتشفات تثبت أن فوق عقل الإنسان العادى عقلا باطنا أقوى منه إدراكا ، وأبعد منه نظراً ، وأشرف منه غاية ، ولا أريد أن أتعدى هذا الحد هنا . وكل ما أريد أن أقوله إن هذا الحنين من النفس لمعرفة ذاتها ، وكشف الستار عن عالمها ، وإحكام الصلة بينها وبين قيوماها ، من الأمور التي تهمها ، إلى أبعد حد ، ولا يمكن أن تنصرف عنها مهما شككها فيها المشككون ، ومهما بلغ اليه العلم من تسخير الطبيعة . فلا خوف على الدين من تقدم العلم بل إنني أتوقع ، وقد كثرت المكتشفات الروحية ، أن يصير العلم من أشياع الدين ، ويصبح من أخلص خدامه ؟

الجنة تحت ظلال السيوف

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ طه الساکت

المدرس بالأزهر

عن عبد الله بن أبي أُو في رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، انتظر حتى مالت الشمس، ثم قام في الناس فقال: «أيها الناس! لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا؛ واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف». ثم قال: اللهم مُنْزِل الكتاب ومُجْرِى السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم!، رواه الشيخان.

الحرب شر لا بد منه! قضية آمن بها الناس جميعا، ويزدادون إيماناً بها كلما اتسع العمران وتنافس الناس في هذه الحياة. وأخرى آمن بها الناس كذلك: مسلمهم وكافرهم، إلا أعمى أو مكابراً، يدمغه الحق، فيولّى صاغراً، ويدبر مستكبراً، قد ختم الله على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة! تلك هي: أن الإسلام لا يتشهى الحرب ولا يتمناها، ولا يقدم عليها إلا مضطراً؛ فهو دين الهدى والرحمة والسلام والطمأنينة، والوقار والسكينة؛ فإذا اعتدى معتد على كرامته أو بغى باغ على حرمة، رد العدوان بمثله، لا يحيف ولا يجور، ولا يغدر ولا يخون؛ فإذا كف الظالم، وثاب الآثم، ورجع المعتدى - صالحه الإسلام وعفا عنه، وأعاشه في كنفه وادعاً آمناً مطمئناً على نفسه وماله وعرضه ودينه، يدافع عنه ويقا تل دونه، ويرعى له من الحرمة والكرامة ما لا يرعاه له أهل ملته، ولا يزال كذلك في بُجوحة الأمن والطمأنينة، حتى يغدر أو يفجر فيعلنها على الإسلام حرباً عواناً! ^(١) هنالك لا يجد الإسلام بدءاً من الأخذ بالحزم والعزم في

(١) العوان: النصف (بوزن سبب) في سنّها من كل شيء، والعوان من الحرب؛ الذي قوتل فيها مرة بعد مرة، كأنهم جعلوا الأولى بكراً.

معاقبة الباغين، وتأديب الطاغين، وإلا كانت رحمته ضعفا، وعزته ذلا، وشجاعته جبنا! وتلك بعض الرذائل التي جاء لمحوها والقضاء عليها.

وهل يستطيع منصف أن يقول إن الإسلام يشتهي الحرب أو يدعو إليها في غير الضرورة التي لا يحصى عنها، وهذه إحدى غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم التي نهى فيها عن تمنى لقاء العدو والاشتباك معه؟

لم تُعرف على وجه التحديد هذه الغزوة^(١) ولكن الذي عرف من سيرته صلوات الله عليه، حتى أضحي الجدل فيه عنادا ومكابرة، أنه ما خرج لملاقاة قوم قط إلا بعد أن سطعت الأدلة على غدريهم ومكرهم، وعملهم سرا أو جبرا على هدم دعوته، ووضع العقبات والعراقيل في طريقها! وكما احتمل هو وأصحابه صابرين مصابرين من إيذاء لا يحتمل، وإغصات لا يطاق! في إثارة السلم على الحرب، والعفو على العقوبة، واللين على البطش والقوة. وفي مواعدة اليهود، وصلاح الحديبية، وفتح مكة وكثير غير ذلك، شواهد صدق لما نقول. وإذا كان الإسلام يحنح للسلم إن جنح العدو لها - ولو كان في جنوحه هذا مخادعا - فمن العناد والمكابرة، بل من السخف والمهاترة، أن يرى الإسلام أفاك أثيم، بأنه متعطش للدماء، أو معتمد على الأبرياء!

وإذا أمر الإسلام أهله بأن يُعدوا لعدوهم ما استطاعوا من قوة، فما ذلك إلا لإرهاب العدو، والحيلة له، والحذر من كيد ومداهمته؛ والاختد بالحزم والحيلة فضيلة من الفضائل التي اجتمع العقلاء عليها، ومظهر من مظاهر القوة التي لا تحيا أمة إلا بها. ومما يقطع القلوب حسرة، ويفرى الأكباد هما، أن يأخذ أعداء الإسلام بهذه الحيلة - ولا أقول بهذه الفضيلة - من بعد أن يخذعهم ويرموهم بالتعصب، ويتوسلوا بهذه الفرية إلى إضعافهم وتجريدتهم من كل حول وطول، ثم لا يتنبه المسلمون من بعد نومهم العميق إلا على فنون من القوة، وضروب من الرمي، تذهب بالصواب، وتطير بالألالباب!

أوتيت ملكا فلم تحسن سياسته كذاك من لا يسوس الملك يخلعه

(١) غير أنها كانت بعد غزوة الأحزاب قطعاً بدليل السياق.

نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تمنى لقاء العدو ، رغبة في علاج الأمور بالسلم ، وكراهية لإراقة الدماء عند الخصومة ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل ؛ ثم حذرا من الإعجاب والبغى ؛ فإن المعجب مزهو بنفسه ، قليل المبالاة بعدوه ، والباغى ظالم ، والظالم قلما ينتصر ، ومن بُغى عليه فهو مظلوم ، والله مع المظلوم وناصره ، وأخوف ما يخاف على الجيش إعجابه بنفسه ، وبغيه على غيره ، وقد قال قائل في غزوة حنين : لن تغلب اليوم من قلة ، حينما أعجبهم كثرتهم فلم تغن عنهم من الله شيئا ! وقال على لابنه رضى الله عنهما : يا بني لا تدع أحدا إلى المبارزة ، ومن دعاك إليها فاخرج إليه لأنه باغ ، والله قد ضمن النصر لمن بُغى عليه ! ثم أمرهم أن يسألوا الله العافية لأن أحدا لا يعلم ما يثول إليه أمره مع عدوه ، فلأن يعافى فيشكر ، خير له من أن يتلى فيصبر ، كما يؤثر عن الصديق رضى الله عنه .

فإذا استفحل الداء ، وعز الدواء ، ولم تجد لدى العدو حيلة ولا وسيلة ، فلا مفر إذا من اللقواء ، والجهاد في سبيل الله ، وبيع النفس والنفيس لمرضاة الله ، والصبر تحت ظلال السيوف ، حيث الفوز العظيم بجنات النعيم .

أما انتظاره صلوات الله عليه حتى مالت الشمس عن كبد السماء فتلك عادة من عاداته في الحرب ؛ روى النعمان بن مقرن رضى الله عنه قال : غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوات ، فكان إذا طلع الفجر أمسك عن القتال حتى تطلع الشمس ، وإذا طلعت قاتل حتى إذا انتصف النهار أمسك حتى تزول الشمس ، فإذا زالت قاتل حتى العصر ثم أمسك حتى يصلى العصر ثم قاتل . وكان يقول : عند هذه الأوقات تهيج رياح النصر ، ويدعو المؤمنون لجيوشهم في صلواتهم . أخرجه أبو داود والترمذى .

وأما الدعاء في القتال وعند التحام الجيشين ، فكان من دأبه صلوات الله وسلامه عليه ، ومن أعظم الآداب التي أدب بها جنوده في الحرب ؛ ذلك لأن الدعاء ولا سيما في هذا الموطن ، عنوان الفرع إلى الله والالنجاء إليه وأن لا اعتماد في الانتصار إلا عليه ؛ ثم هو أمانة على أن هذا القتال في سبيله ومن أجل نصرته دينه ، وهو يقول وقوله الحق : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

وأشار صلوات الله وسلامه عليه وهو يدعو بهذا الدعاء ، إلى وجوه كريمة في طلب النصر : فيأينزال الكتاب يشير إلى قوله تعالى « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزئهم وينصرهم عليهم ويكشف صدور قوم مؤمنين ، ويجزاء السحاب يشير إلى قدرته جل سلطانه على تسخير السحاب وإرسال الرياح وإغاثة عباده بالمطر ، فهو لاشك قادر على إغاثة المجاهدين في سبيله وإمدادهم بنصره ومعونته ؛ وبهزيمة الأحزاب يشير إلى تجريد التوكل عليه ، واعتقاد أنه لا نصر إلا من عنده سبحانه ، إذ هزم الأحزاب وبدد شملهم ، وفرق جموعهم ، وما كان للمسلمين بهم طاقة . ثم نبه على عظم هذه النعم الثلاث كلها ؛ فيأينزاله تعالى كتابه العزيز كانت نعمة الدين ، ويجزاء السحاب كانت نعمة الدنيا ، وبهزيمة الأحزاب كان حفظ التعمتين جميعا .

هذه أثاره من آداب الحرب في الإسلام ، ونظره إليها ، ومن نظر بعين الإنصاف فإنه واجد في هذا الدين الخفيف ، أعلى مثل تنتظره المدنية ، ويصبو إليه الأنام ، في العزة والرفاهية والطمأنينة والسلام .

الحض على النضال

روى عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو قائم على المنبر : « أعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ! وكان أرمى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن أبي وقاص ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا له ، فقال : اللهم سد رميته ، وأجب دعوته . فكان لا يرد له دعاء ، ولا يخيب له سهم .

وذكر أسامة بن زيد أن شيوخا من أسلم حدثوه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءهم وهم يرمون ببطحان ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارموا يا بني إسماعيل فقد كان أبوك راميا وأنا مع ابن الأدرع . فقال القوم : يا رسول الله من كنت معه فقد فضلك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارموا وأنا معكم كلكم ، فاتتضلوا ذلك اليوم ، ثم رجعوا بالسواء ليس لأحد على أحد منهم فضل .

دعائم الاستقرار

فى التشريع القرآنى

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدنى

المفتش بالأزهر

بينما فيما سبق كثيرا من الآيات والموضوعات التى تدل على أن القرآن الكريم قد عنى تمام العناية بأن يكون تشريعه قائما على إقناع المكلفين بحاجتهم إلى التقيد بتشريع معين فى أمر معين ، حيث لم يأت حكم من أحكامه إلا والأمر يتطلبه ، والإحساس العام للمكلفين بترقبه ، وهو مقتنع به بفطرته ، أو بعد البيان من العليم الحكيم . وبذلك انتهى الكلام على الدعامة الأولى من دعائم الاستقرار فى التشريع القرآنى .

وأما الدعامة الثانية : ونقصد بها اقتناع المكلفين بشرعية السلطة التى عنها تصدر التشريعات ، فإننا نجد القرآن الكريم يبرزها أيضا ، ويعمل على أن تكون واضحة فى نفوس الناس ، متقبلة بما ينبغى لها من قبول حسن عند المكلفين .

إن التشريع إلزام وتكليف ، يفرض فيه المشرع إرادته على طائفة من الناس ويأخذهم بها ، ويجعلها نظامهم الذى يسرون عليه ، ولا يحق لهم التفلت أو التخفف منه ؛ والفطرة تقضى بأن يكون الملزم والمشرع ذا سلطان مسلم به ، تخضع النفوس لإرادته ، وتدعن لحكمه ؛ وهذا السلطان قد يكون قائما على القوة المادية ، والقهر والغلبة ؛ فلو لا ذلك ما بقى ، ولو لا ذلك ما رضى به الراضون ، وخضع له الخاضعون ؛ وقد يكون مستمدا من الهيبة المعنوية والاحترام الروحى

وتقبل المكلفين له عن رضا نفسى ، وإيمان قلبى ، سواء أ كان هو جديرا بذلك فى نفس الأمر ، أو ليس جديرا به .

ولذلك شهد العالم فى أطواره المختلفة أنواعا من التشريعات ، اختلفت مصادرها ، واختلفت باختلاف هذه المصادر حظوظها من الاحترام والتقدير والبقاء . شهد العالم تشريعات القوة والضغط والجبروت ، حين يكون أصحاب الأمر مغتصبين للأمر ، لا يعتمدون فى حكمهم على حق مشروع ، وإنما يعتمدون على القوة والبطش والتسكيل بمن يقف فى سبيل رغباتهم ، فتبقى هذه التشريعات ما بقيت القوة التى تستند إليها ، حتى إذا انهارت انهارت معها غير مأسوف عليها . وشهد العالم نوعا آخر من التشريعات لا يعتمد القوة والإرهاب ، ولا يقوم على البطش والتسكيل ، ولكنه يعتمد الخداع والتضليل واستغلال جهل المحكومين أو غفلتهم أو سذاجتهم ؛ وتلك هى تشريعات الأجباز والرهبان والرؤساء المتصدين باسم الأديان ؛ كانوا يحلون ما يشاءون ، ويحرمون ما يشاءون ، وكان الناس لفرط عمايتهم وجهالتهم يتقبلون منهم ذلك ، ويتخذونهم أربابا ينزلون على أحكامهم ، ويرضون بتحليلهم وتحريمهم ؛ وقد بقى لهذه التشريعات سلطانها وقبولها عند الناس ما بقيت الجهالة والضلالة ، حتى إذا انكشف الغطاء ، وانجلت الغشاوات ، وأفاق العقل البشرى أو رشد وحصف ، تزلزلت هذه التشريعات بتزلزل مصادرها ، وانطوت مع التاريخ كما انطوى أصحابها .

ثم كان لا بد أن يدرك الناس أنهم متساوون فى الإنسانية ، وأن أحدا منهم لا يمتاز عن غيره بميزة تجعله مشرعا للآخرين ، وتلزمهم بقبول تشريعهم ، فهم جميعا مخلوقون لخالق واحد ، وهم جميعا مملوكون لمالك واحد ، هو الذى خلقهم وأنعم عليهم ، فله وحده حق التصرف فيهم ، والأمر والنهى ، وأن يقول هذا حلال وهذا حرام . كان لا بد أن يدرك الناس هذا ، لأنه هو الواقع الصحيح فى نفس الأمر ، ولأنه هو الذى تستقيم عليه شؤون البشر ، ويستقر معه أمر التشريع ؛ ولهذا جاءت الدعوة الى التوحيد والإيمان بالله خالق قادر منعم ، والى جانبها الدعوة الى نبذ الأرباب من الرؤساء والأجباز والرهبان الذين زعموا لأنفسهم حق التحليل والتحريم ؛ فأنحصرت الربوبية فى الله حكما

وتشريعا ، كما انحصرت فيه جل جلاله خلقا وإنعاما وتصريفا . بذلك جاءت الرسل ، وبذلك نزلت الكتب ، وقد أوضح القرآن الكريم هذا المعنى وجلاله حتى لم يعد في شأنه أدنى خفاء .

١ - فالله سبحانه وتعالى هو « المشرع » لأنه الخالق المالك المنعم المتصرف ، والناس جميعا خاضعون لسلطانه بحكم ربوبيته وعبوديتهم « قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب » « قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ، قل الله أذن لكم أم على الله تفترون ؟ » « إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين » « أليس الله بأحكم الحاكمين » « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ، فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن كثيرا من الناس لفاسقون . أخكم الجاهلية يبيغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون . » « والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب » « ولا يشرك في حكمه أحدا »

٢ - ومثل ذلك ألفاظ : شرع وشريعة وشرعة ونحوها ، فقد جاءت كلها مضافة إلى الله على أن الأمر فيها له ، ومنفية عن سواه أو منكرة عليه « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى » فكل الشرائع هو الذي شرعها « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله » .

٣ - ومثل ذلك أيضا ألفاظ التحريم والتحليل « قل تعالوا أتتل ما حرم ربكم عليكم » « وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم » « قل أذكركم حرم أم الإثنيين » « قل هل شهداكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا » « لم تحرم ما أحل الله لك » « فيحلوا ما حرم الله » « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله » « يأبى الذين

آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ، « وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء ، بزعمهم ، وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه ، سيجزيهم بما كانوا يفترون . وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميثقه فهم فيه شركاء ، سيجزيهم وصفهم . »

إلى غير ذلك من الآيات التي يغرس بها القرآن في نفوس المؤمنين مبدأ الحكم الصحيح والتشريع الصحيح ، من أن الحكم لله ، والتشريع لله ، والتحليل والتحريم لله ، وأنه ليس لأحد من المخلوقين أن يحكم أو يشرع إلا بما حكم الله وشرع الله .

٤ — وقد بين القرآن في هذا أن الرسل لا يأتون بشيء من التشريع ولا يحرمون ولا يحلون إلا بإذن الله ، وأنهم إنما يبلغون أحكام الله ؛ ولذلك نجد في الكتاب الكريم مثل قوله تعالى « من يطع الرسول فقد أطاع الله » « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ، « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله . »

ويعتبر القرآن أمر الأنبياء في ذلك مستمدا من أمر الله ، حيث وهب كلا قسما من الحكم والتشريع باسمه تعالى وإذنه ؛ وفي ذلك يقول عن موسى « ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما » وعن يوسف « ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ، وعن لوط « ولوطا آتيناه حكما وعلما » وعن داود وسليمان « وكلا آتيناه حكما وعلما ، وقد دعا إبراهيم ربه فقال « رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين ، إلى غير من الآيات .

وقد أجمل القرآن الكريم مصادر التشريع في قوله تعالى « يأيا الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا . »

فالمصدر الأول هو القرآن الكريم ، وإطاعة الله هي العمل به ؛ والمصدر

الثاني هو السنة ، وإطاعة الرسول هي العمل بها ؛ والمصدر الثالث هو إجماع أولى الأمر وأهل الحل والعقد الذين تثق بهم الأمة ، وطاعتهم هي النزول على ما اتفقوا عليه ، والرضوخ لما حكموا به استنباطا من كتاب الله وسنة رسوله ؛ فإذا لم يتفقوا على شيء ، بل تنازعوا فيه واختلفوا ، عرض ذلك على الكتاب والسنة ، وعمل بما يرشدان إليه ويدلان عليه .

وبهذا تبين أن المصادر كلها راجعة الى مصدر واحد هو الله جل علاه ، وأن التشريع القرآني يجعل المؤمنين مطمئنين الى أن مصادر تقييدهم وإلزامهم وتكليفهم هي مصادر لها هذا الحق ، وليس لأحد أن ينازعها فيه ، أو يتفقت من سلطانه ، فتحقق من هذه الناحية الدعامة الثانية من دعائم التشريع والتكليف ، وتكتسب القوانين والأحكام التي شرعت على هذا الأساس هيبتها وقداستها .

هذا وقد شاع واستفاض على الألسنة في عصرنا الحاضر أن الأمة مصدر السلطات ، وأن من بين هذه السلطات سلطة التشريع ، فهي باسم الأمة ؛ فلا ينبغي أن يظن بهذا منافاة لما قلناه من أن التشريع لله ، فإن سلطة الأمة لا بد أن تتركز في دستور يرسم للعاملين باسمها مبادئ الحكم ومناهج التشريع ؛ ودستور الأمة الإسلامية الذي يرجع إليه ويبني الحكم والتشريع على أساسه هو الكتاب والسنة ، في دائرتيها يكون النظر ، وعلى هداهما تسير الأمة في تنظيم شئونها ورسم سياستها وتشريعها ؛ فالأمة حقا هي مصدر السلطات ، ولكن في حدود ذلك الدستور الساموي الذي يجب أن يخضع له كل نظام وكل حكم ، وأن يرد إليه ما يكون من نزاع أو خلاف . والله المستعان ؟

في وصف حصان

ذو أولق تحت العجاج وإنما	من صحة إفراط ذك الأولق
تغرى العيون به ويغلق شاعر	في نعتة عفوا وليس بمغلق
قد سالت الأوصاح سيل قرارة	فيه فمفترق عليه وملتقى
صافي الأديم كأنما ألبسته	من سندس ثوبا ومن إستبرق

الأولق : خفة العقل . وهو غير مذموم في الخيل . والعجاج : العير . والأوصاح يراد بها الألوان .

أسباب تأخر المسلمين

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد عنتر
الأستاذ بكلية اللغة العربية

وهذه أسباب التأخر من الدرجة الثانية . وأهمها ما يأتي :

السبب الأول - تفرق شمل المسلمين في أقطار الأرض إلى دويلات صغيرة ، وانحلال رابطتهم بزعزعة أركان الخلافة الإسلامية ، ونزوعهم إلى النعرة العصبية وحمية الجاهلية ، وانقسامهم شيعا وأحزابا ، حتى لقد كانت هذه الدويلات الإسلامية في وقت ما تُربى على اثنتي عشرة دولة ! منها ست في الشرق تفرعت عن الدولة العباسية التي كانت إذ ذاك في طور الاحتضار . وهي : دولة بني بويه ، والدولة السلجوقية التركية ، ودولة آل سُبُكْتِكِين ، والدولة الطولونية بمصر ، والدولة الفاطمية ، والدولة الأيوبية . وكان الحكم في هذه الدول أغرب حكم عرف في تاريخ الإسلام ، إذ كان لكل حكومة منها سلطتان : سلطة شرعية ظاهرية فقط ، ولها اسم الخلافة ، وتستمدّها من الخليفة العباسي برضاه ؛ وسلطة حاكمة فعلية ، ولها اسم الملك ، وهي مستمدة من هذا الخليفة قهرا عنه ^(١) ! وأكثر من ست دول في بلاد الأندلس العربية ، التي آل أمرها إلى أن تكون كل قبيلة منها دولة مستقلة ، لها حاكم مستقل ؛ وقد اشتهر هؤلاء بملوك الطوائف . وفيهم يقول الشاعر :

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر !
وآخر هذه الدويلات دولة بني الأحمر التي كانت من أقوى الأسباب في زوال ملك العرب المسلمين من بلاد الأندلس .

وقد كان من أثر هذا التفرق المشؤم الذي منشؤه حب الرياسة والجاه والمال ،

(١) الدروس التاريخية للأستاذ الحضري بك ، رحمه الله

وعدم التنبيه إلى دسائس الأعداء - أن تضعضع سلطان العرب ، وانطفأ مصباح الحضارة والعلوم الإسلامية في الشرق ؛ وأن استسلمت بلاد الأندلس لأعداء العرب في الغرب ، بعد أن سطع نور المعارف ، وأشعت شمس العلوم الإسلامية في تلك الديار زهاء سبعة قرون من الزمان ؛ وأن تألفت على إثر سقوط دولة بني الأحمر محاكم التفتيش القيسية الوحشية ، وأخذت تتحكم في رقاب المسلمين وفي أعراسهم وأموالهم وعقيدتهم ، وتصدر أحكامها الجائرة الغاشمة التي يقشعر لها لبدن المروءة ، ويندى لها جبين الإنسانية حياء وخجلا . ويدوب منها القلب حزنا وكدا ! .

يحدث كل هذا والمسلمون واجمون سامدون ، خاضعون لهذا الذل والهوان والفضيحة والعار ، لا يحركون ساكنا ، ولا يثارون لحرماتهم التي انتهكت ، وأعراسهم التي هتكت ، ومساجدهم التي هدمت !!

عبر التاريخ :

أيها القارىء ! لست أقصد بذكر هذه الحوادث الالمية نبش الماضي السحيق ، وتقلب ذكرياته التي تُمض النفس وتكدر الصفو ، وتجلب الهموم والاحزان ؛ وإنما القصد أن يعتبر العرب والمسلمون بما في الاتحاد من عز وقوة بأس ، وبما في التفرق والتقاطع من ضعف وخذلان ودمار . قال الله تعالى « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » ، وقال عز شأنه « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » ، واصبروا إن الله مع الصابرين .

العرب والمسلمون اليوم : لئن انطوى ماضى العرب والمسلمين بما فيه من

محن ورزايا وعبر وعظات ، ولئن فرقتهم شياطين السياسة الاستعمارية التي اغتروا بزخرفها وبهرجها زمنا طويلا - لقد تفتنوا اليوم لالاعيب هذه السياسة وحيلها ، وأدركوا بالبرهان العملي الخطر الداهم الذي هم صائرون إليه ؛ ذلك الخطر الذي يتستر بأسماء مستعارة : تارة باسم الحروب الصليبية ، وأخرى باسم تمدن الشرق ومحو الهمجية ، وثالثة باسم الصهيونية أو الدولة اليهودية ، ورابعة باسم الاشتراكية

أو توزيع العدالة الاجتماعية . هذا ظاهر الحال ، وما هو في الحقيقة إلا شبح الموت وغول الفناء ونذير الشر والفساد ، وضياح البلاد واستعباد الأولاد والأحفاد - لا قدر الله شيئاً من ذلك - . هذا ما أدركه العرب والمسلمون الآن ، بعد أن صهرتهم الحوادث ، ونهتهم التجارب ، وجمعتهم الشدائد ، فهبوا يدافعون عن فلسطين عرين العروبة ، وقدس الإسلام ، ومهد المسيح عليه السلام .

ومن الفأل الحسن لنتيجة اتحاد العرب ، ذلك القرار الحازم الذي أصدرته حكومات الدول العربية في هذه الأيام ، وهو يقضى بمد يد المعونة الحربية الفعلية إلى عرب فلسطين المجاهدين ، بعد أن تخرجت الحال ، وسُلبت مدينة حيفا وقبلها طبريا إلى النفوس الإرهابية الصهيونية ، وشرعت هذه القوات في مهاجمة يافا وعكا والقدس ، وعمما قريب ستسترد قوات العرب المجاهدين بمعونة الله ما بيد الصهيونيين ، ثم تذكر عليهم وتدحرهم وتمزق جموعهم شرمزق ، وتستولي على عقارهم وأموالهم ، وتطهر البلاد من خبثهم ورجسهم ، فتعيش فلسطين بعد ذلك عربية حرة ، يرفرف عليها علم العروبة الخاص بها ، وينعم أهلها تحت ظلال السيادة العربية ، سواء في هذا العرب المسلمون والمسيحيون ، واليهود المواطنون المسلمون الذين عاشوا مع إخوانهم في العروبة متمتعين بالحرية التامة والطمانينة الشاملة ثلاثة عشر قرناً من السنين العربية ، ولم يحركهم للشر إلا أطماع (الجويم (١)) . هذه آمال كل محب لخير الإنسانية ، مبغض لشره الطامعين المعتدين الظالمين الآثمين ، وستتحقق هذه الآمال - إن شاء الله - بفضل اتحاد العرب ، وتعاون الشرق . وكل آت قريب (٢) .

(١) الجويم : اسم رمزي لليهود الصهيونيين ، الذين يريدون الاستيلاء على العالم كله ، ويعتبرون كل من سواهم من الناس هائم !! انظر مقالات الأستاذة نفولا الحداد عن اليهود في أعداد مجلة الرسالة : مارس وابريل ومايو سنة ٤٨ .

(٢) بعد كتابة ما تقدم دخلت الجيوش النظامية لجامعة الدول العربية أراضي فلسطين ، لتحررها من أيدي الصهيونيين ، فتقدمت تقدماً مظهرها في جميع جهات القتال ، والمأمول أن يكتب النصر التام لهذه الجيوش المجاهدة في سبيل الله « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ، !!

وبعد : فموضوع فلسطين درس وطني وعملي للعرب ؛ لئن أضرَّ بهم في ناحية لقد نفهم أعظم النفع في نواح كثيرة . وقد يما قيل : المصائب تجمع القلوب المتفرقة . وإلى الله التكريم نضرع أن يديم الاتحاد والوفاق بين أعضاء جامعة الدول العربية ، وباقي أعضاء الجامعة الإسلامية ، ليتبوأ العرب والمسلمون مكانتهم في المجتمع الإنساني العالمي ، ويتميموا بوساطة تعاليم الإسلام الرشيدة الحكيمة أمة عظيمة ييدها مقاليد السعادة والرفاهية لجميع بني الإنسان على السواء . وما ذلك على الله بعزيز .

السبب الثاني - التهاون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . المعروف كلمة جامعة ، ومعناه في عرف الشرع : الإحسان والرفق والخير . والمنكر ضد ذلك . وقد كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أخص صفات الأمة الإسلامية في عصرها الأول ؛ وبهما ترقى إلى أوج السعادة ومدارج السيادة . ويرجع الفضل في توالي الفتوحات الإسلامية في الشرق والغرب ، وانتشار الدين بين طبقات الأمم في آسيا وأفريقيا وبعض جهات أوروبا ، إلى هاتين الصفتين الحيويتين ، فلما تخلت عنهما الأمة الإسلامية ومال كثير من أفرادها إلى المداهنة والمجاملة والمصانعة والتغاضي عن هفوات المسيء ، بل ربما يكال له المدح جزافا وبلا حساب ولا تقدير ؛ لما حدث ذلك انحطت قيم الصالحين المصلحين ، وارتفعت أقدار المسيئين المفسدين ، فتولوا ما ليس من شأنهم ، وأشاعوا الفساد في بلاد الإسلام ، يعاونهم على ذلك أعداء الدين والعروبة ، فنتج عن هذه الحال السيئة ضعف المسلمين وتقهرهم في ميادين العمل والإصلاح ! وهذا الذي حدث نتيجة المخالفة لقوله تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » ولقوله عليه الصلاة والسلام « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » .

خطب أبو بكر رضي الله عنه ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَمُونَ هَذِهِ الْآيَةُ وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوْضِعِهَا » يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ، وَإِنَّا سَمِعْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

يقول : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله بعقاب ؛ وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدرّون على أن يغيروا فلم يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب » .

ومعنى هذا أن الأمر في قوله تعالى « عليكم أنفسكم » موجه إلى جميع أفراد الأمة الإسلامية بدون استثناء . يطالبهم فيه بإصلاح شئونهم وسلوكهم سبيل الهداية ، فإذا صلح أمرهم واهتدوا فلا يضرهم ضلال من ضل من الأمم الأخرى غير الأمة الإسلامية . هذا مراد الله تعالى من الأمر . ولكن كثيرا من الناس يفهم الآية على غير وجهها الصحيح ، فيزعم أن الأمر متوجه إلى بعض أفراد الأمة ، وأن هذا البعض إذا اهتدى فلا يضره ضلال البعض الآخر من أفراد هذه الأمة . وقد بين الرسول عليه السلام خطأ هذا الزعم ، وبينه كذلك خليفته أبو بكر من بعده . وبالرغم من هذا لا يزال سواد المسلمين متمسكين بهذا الزعم الباطل حتى يومنا هذا ؛ لذلك وقعوا فيما وقعوا فيه من تأخر وتقاطع ، وانحلال واضمحلال !

السبب الثالث - التواكل . وهو داء حديث من أدواء الأمة الإسلامية ، فشى في جميع ربوع الإسلام . ومعناه أن يهرب الشخص من الواجب عليه ويتكل في قضائه على آخر ، ومنشؤه الكسل والخمول ، وحب الدعة والراحة .

وقد روج هذه الصفة الذميمة بين المسلمين دعاة الاستعمار الأوروبي ، وساعدهم على ذلك مناخ بلاد الإسلام ، وما منى به المسلمون من البعد عن دينهم ، والاستماع لكل ناعق ولو بالباطل !

تسرب هذا الداء إلى الحكام ، فأحجموا عن تشجيع الصناع الوطنيين ، ورضوا بأن يكون الشرق عالة على أوروبا في جميع لوازم حضارته ومعدات جيوشه ومقومات حياته !

وتسرب إلى موظفي الدواوين في بلاد الشرق ، فتعطلت مصالح الناس ، وكاد يقف دولاب العمل فيها ! وتسرب إلى المشتركين في عمل مشاع كالصناع والعمال

وخفراء الأمن ، فقلّ الإنتاج ، وقلت الثروة ، وترأى للناس شبح الفقر والمرض والجهل ، واختل نظام الأمن !

وتسرب الى أفراد الاسر الذين يشتركون في معيشة واحدة ، فنشأ عنه أن تبرم الولد بأبيه ، والأخ بأخيه ، والوالد بينيه ، فهجر المتبرم أسرته حاقدا حائقا ؛ وبذا انحلت روابط الألفة ، ونمت عوامل التفريق والضعف .

وتسرب الى نفوس الشحاذين أقوياء الأبدان ، والى بعض طوائف الصوفية المرتزقة باسم التصوف ، فأمات فيهم روح العمل والنشاط ، وأصبحوا كالعضو الأشل في جسم الأمة الإسلامية ! ولو تذبذبت بمجموع الأمة ولا سيما أولى الأمر منهم الى ما يرمى اليه قوله تعالى « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » لماحدث من هذا كله شيء ؛ ولكن الله في خلقه شئون !

السبب الرابع - إهمال تربية البنات تربية دينية صحيحة . وهذا السبب يكاد يعد من الاسباب الجوهرية في تأخرنا .

ولا أريد أن أطيل في التعليل لهذه الدعوى ؛ فإن المعروف أن المرأة العربية الإسلامية كان لها حظ كبير من علوم الاسلام وثقافته الدينية في عهد الرسول عليه السلام وخلفائه الراشدين ، مكنتها من أن تساهم بقسط وافر في نهضة الأمة وبناء حضارتها ، وتوالى فتوحاتها واتساع رقعتها . ثم تغيرت الحال في أواخر عهد الدولة العباسية نجبا مصباح تعليم المرأة ، وأخذت تتعثر في حياتها الاجتماعية بين الجود والتجديد : الجود الذي حرّمها حتى من تعليم دينها تعليما مشمرا ، والتجديد الذي قد يشول بها الى فقد شخصيتها النسائية كربة بيت ومخرجة جيل . وإذا عرفنا أن النساء نصف الأمة أو أكثر ، وأنهن إذا صلحن صلح حال الأمة كلها ، كما قال شاعر النبيل حافظ ابراهيم طيب الله ثراه :

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق

وأنهن إذا جهلن أو فسدن ، غرقت الأمة في بحر من الجهل والفساد ، كما قال أيضا :

من لى بتربية النساء فإنها فى الشرق علة ذلك الإخفاق !

إذا عرفنا ذلك سهل علينا إدراك ما حاق بأممتنا من الضعف والتأخر بإهمال تربية النساء ، وإدراك ما نكتسب من قوة وتقدم بالعناية بتربيتهن تربية دينية عصرية صحيحة .

السبب الخامس - جمود رجال الدين فى أقطار الإسلام ، وأعنى بهذا الجمود عدم مسابقة العصر فيما لا يضير الدين .

ومما لا شك فيه أنه قد حدثت فى العالم تطورات فى نظم الحياة وأساليب المعيشة ، وتطورات فى نظم القضاء وأساليب التعليم والتأليف ، وتطورات فى النظم الاقتصادية والاجتماعية ، وتطورات فى نظم التبشير بالدين والدعوة إليه ، وتطورات فى نظم الدفاع وأساليب الحرب . حدثت كل هذه التغيرات وغيرها فى غير بلاد العرب ، أعنى فى أوروبا ، ثم فى أمريكا ، فكانت نتيجتها ما شهدته العالم أجمع من القوة والرقى الماديين ، والتسلط على جميع بلاد العرب بل على جميع بلاد الشرق الإسلامى ! فإذا كان موقف رجال الدين المسلمين من هذه التطورات ؟ الحق أنه كان موقفا غير مشرف ، إذ من المعروف أن علماء الدين ورجاله كانوا قدوة الأمة فى العصور الخالية ، فكان عليهم أن يوجهوها إلى كل صالح مفيد ، وأن يكونوا فى طليعة الداعين إلى الأخذ بكل تطور لا يمس عقيدة من عقائد الدين ، ولا يبطل حكما من أحكامه التى علمت منه بالضرورة ، ولا سيما فى الوقت الذى رأوا فيه تيار الغرب يحرف الشرق ، ويغزوه بعاداته الأروبية ، وقوانينه الوضعية ، ومبادئه الاستعمارية ، واختراعاته الحديثة ، ودسائسه المسبوكة التى طوحت بأمثال السيد جمال الدين الأفغانى ، والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده والوطنى الغيور مصطفى باشا كامل . ومما يوجب الأسف الشديد أننا اضطررنا أخيرا إلى مسابقة العصر فى أشياء كثيرة ، ولكن بعد فوات الفرصة ، وبعد أن نكبتنا فى عاداتنا وأخلاقنا وديننا ووطنيتنا ، فاللهم تداركنا بعفوك ورحمتك ، وقبض لهذه الأمة من يعيد إليها مجدها الغابر وعزها القديم !

« الكلام صلة »

ابن حزم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الله المراغي
مدير قسم المساجد بوزارة الأوقاف

نفسية ابن حزم في تأليفه :

أسلفنا القول في تاريخ ابن حزم أنه اغتنم فرصا من حياته فألف في شتى العلوم التي نبغ فيها . والباحث في هذه المؤلفات يستشرف نفسية ابن حزم يتدفق تيارها في جداولها التي تنساب حاملة آراءه وعواطفه، وشخصيته وشاعريته، واستقلاله في رأيه، وإيمانه بما يعتقده، وتعصبه لمذهبه، وعدم مبالاته بما يثيره خصومه من نقع يغيّر أفق الحياة حوله .

وعندى أن الوقوف على الخبيء من نفسية ابن حزم مستطاع من قراءة وتببع ما بثه في كتبه ، وليس أصدق في الاستدلال على تفكير المرء وما يخالج أحاسيسه بما يدبجه قلبه إذا عرف بالإيمان وثبات اليقين ؛ ولا يشكر أحد على ابن حزم أنه كان مؤمنا بما يعلنه، قوى اليقين بما يظهره ، ثابت العقيدة بما يكتبه ، ينيء مظهره على ما يضمرة ؛ فقد كان شافعيًا متحمسا لمذهبه ؛ لأنه كان مؤمنا به ؛ فلما تحول الى مذهب الظاهرية كان شديد التعصب له ؛ فهل كان مرائيا في أولاه أو مغرضا في أخراه ؟ لقد رُمى ابن حزم بذلك من بعض خصومه الألداء ، مستدلين على ذلك بأن لسانه كان سليطا على الأئمة ، ومنهم الشافعي الذي كان يدين بمذهبه ويدافع عنه . وإذا كان بعض الناس يرى أن القلم يستطيع أن يكتب غير ما يعتقد الكاتب لشهوة ساذجة أو لغرض خاص ، فإن هذا النوع من الكتابة لم يكن مألوفًا في عهد ابن حزم إلا قليلا ، ولا نستطيع أن نتصور هذا الاتهام في مؤلف يكتب في علوم الحديث ، والكلام ، والأصول ، والتفسير ، والفقه .

ولقد كتب ابن بشكوال والذهبي والمقري وابن الأبار وابن خلدون وجولدسيهر وهورتن وياقوت وابن خلكان وابن القفطي والضبي وعبد الواحد المراكشي وابن خاقان وغيرهم من المسلمين وغير المسلمين ، من ناقدين ومعاضدين ، ومؤيدين ومعارضين ، فلم يستطع أحد منهم أن ينكر على ابن حزم أنه رجل عقيدة

ودليل ، ورجل رأى وبرهان؛ وسواء أكان مصيباً أو مخطئاً فإنه ليس خاطئاً إن خافه التوفيق؛ وشتان بين مخطيء لا يحالفه الصواب ، وبين خاطيء يعتمد الخطأ ويكتب على غير هدى قاصداً ، ويضل الناس عامداً ؛ وليس ابن حزم من النوع الثالث . ولا يمكن لمنصف أن يقول بذلك مهما غلا في نقده .

والحق أنه أحد رجلين : مجتهد مصيب يحالفه الصواب فله أجران ، أو مجتهد يخطيء حيناً فيكون له أجر ويصيب حيناً فيكون له أجران . هذا رأينا فيما اطلعنا عليه من مؤلفات ابن حزم ، وفيما تضمنه من آراء ، يوافقنا عليه المنصفون من نقاده ، ولا نبالي أن يخالفنا فيه المخالون من حساده .

مؤلفاته :

يقول المؤرخون : إن من بواكير مؤلفاته كتاب « طوق الحمامة في الألفة والآلاف » ألفه ابن حزم في شاطبة حوالى سنة ٤١٨ هـ على ما يقوله بعض الباحثين ، أو سنة ٤١٧ هـ على ما يقوله ابن الأثير .

والمطلع على هذا الكتاب يرى ابن حزم مثلاً لصفاء العاطفة ، ومرآة لدقة الأحاسيس ورقة المشاعر ؛ قص فيه من تجاربه وتجارب أهل عصره ، وأعرب عن نظراته العميقة ووجدانه المتغلغل بين الجوانح ، ما يضىء لنا جوانب الحياة في عهده ، وهو أمر لا يعرفه إلا القليل ، ولا يدرك من سره إلا النزر اليسير .

ويبدو أن المؤلف تكلم في هذا الكتاب على الألفة والمحبة والحب والعشق على نحو يتسق مع تفكيره ، وصاغ كلامه في أسلوب عنى فيه بإظهار شاعرية نفسه ، أو هي قد ظهرت على الرغم منه ، كما روى لنا فيه أشعاراً من نظمه الذى عرضنا لونا منه في المقال السابق . وإن عنوان الكتاب يهذى القارىء الى موضوعه ، ويأخذ بيده الى أمر لا تخلو نفس من الحديث فيه أو التطلع فى أفقه أو التفكير فى مآله . ومن مؤلفاته « رسالة فى فضل الأندلس » التى كتبها وأهداها الى صديقه أبى بكر محمد بن إسحاق ، وفيها يتكلم على تصارييف مسلى الأندلس المتقدمين ؛ ويظهر فى هذه الرسالة تحول ابن حزم من مذهب الشافعية الى مذهب الظاهرية . وإذا بحثنا فى تاريخ تأليف هذه الرسالة وجدنا أنها قد تكون معاصرة أو قريبة العهد من تاريخ تأليف كتابه « طوق الحمامة » .

ويقول المقرئ وابن الأبار : إن ابن حزم ألف رسالة فى فضل الأندلس إجابة لرغبة حاكم « قلعة البوت » .

ومن مؤلفاته في التاريخ كتابه المسمى « نبط العروس » في تواريخ الخلفاء وكتاب « جهرة الأنساب أو أنساب العرب » الذي عني بآليفه حوالي سنة ٤٥٠ هـ . ولهذا الكتاب وزن كبير في نظر المؤرخين ، نوه عنه ابن خلدون في مقدمته في مواضع كثيرة عند تعرضه لأنساب العرب والبربر في المغرب والأندلس ، واتخذ بعض المؤرخين الأجانب سندا في البحث عن تاريخ الحموديين والتجيينيين والأمويين ، مما يدل على أن لأبحاث ابن حزم قيمة كبيرة في نظر الأجانب . ومن مؤلفاته في علم الأصول كتاب « الأحكام في أصول الأحكام » . وهو كتاب يبين شخصية ابن حزم الى حد كبير ومدى بعيد ، وقد طبعته مكتبة الخانجي في ثمانية أجزاء .

وإذا كان الكتاب يعرف من عنوانه ، فإن هتمة هذا الكتاب تدل على الوجهة التي يهدف إليها ابن حزم من تأليفه ؛ فتراه يقول في هذه المقدمة عن شرائع الإسلام : « إن الله أودع تلك الشرائع في الكلام الذي أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبليغه إلينا وسماء قرآنا ، وفي الكلام الذي أفلق به رسوله وسماء وحيا غير قرآن ، وألزمنا في كل ذلك طاعة نبينا عليه السلام ، وألزمنا تتبع تلك الشرائع في هذين الكلامين ، لنخلص بذلك من العذاب ، ونحصل على السلامة والحظوة في دار الخلود . ووجدناه تعالى قد ألزمنا ذلك بكتابه المنزل ، وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » فوجب علينا أن ننفر لما استنفرنا له خالقنا عز وجل ، فوجدناه قد قال في القرآن الذي قد ثبت أنه من قبله عز وجل والذي أودعه عهده اللازمة إلينا « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ، فإن تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » .

قال ابن حزم : فنظرنا في هذه الآية فوجدناها جامعة لكل ما تكلم الناس فيه أولهم عن آخرهم مما أجمعوا عليه واختلفوا فيه من الأحكام والعبادات التي شرعها الله عز وجل لهم لا يشذ عنها شئ من ذلك . فكان كتابنا هذا كله في بيان العمل بهذه الآية ، وكيفية بيان الطاعتين المأمور بهما لله تعالى ولرسوله عليه السلام . وهذا هو جماع الديانة كلها .

من هذه العجالة نستبين أن ابن حزم يرى أن الأدلة الشرعية هي :

١ — القرآن المنزل من عند الله .

٢ — الكلام الذى أنطق الله به رسوله وسماه وحيا غير قرآن .

٣ — الإجماع الذى عبرت عنه الآية بأنه طاعة أولى الأمر .

أما القياس الذى رأى أكثر الفقهاء أنه دليل من الأدلة الشرعية ، فإن ابن حزم ينكره ويسفه من يقول به ويرميه بالجهل ، ولا يتحرج عن الإقذاع فى النقد؛ الأمر الذى أخذه عليه خصومه ، وبغضه عند كثير من الناس .

يقول ابن حزم : ظن قوم بمجملهم أن قولنا بالدليل خروج منا عن النص والإجماع، وظن آخرون أن القياس والدليل واحد؛ فأخطأوا فى ظنهم أخش خطأ . ثم يقول فى موضع آخر : وها هنا خلط أصحاب القياس فسموا الدليل علة والعلة دليلا ففحش غلطهم ، وسموا حكمهم فى شىء لم ينص عليه بحكم قد نص عليه فى شىء آخر دليلا ، وهذا خطأ ، بل هذا هو القياس الذى تنكره ونبطله .

ويقول فى موضع آخر ، فى شأن المخالف « له فهو كاذب آفك مفتر » . وهكذا تلازمه هذه الظاهرة فى ردوده على من لا يشاركه الرأى ، فيقول عن رواية من روايات أهل الكوفة بشأن إجماع أهل المدينة « هذه رواية ليس فى رواية أهل الكوفة أتت منها » وهذه زراية كنا نتمنى أن يتنزه عنها لسان ابن حزم وقلبه ، فإن السباب لا يدل على قوة الحججة ؛ وقد علمنا القرآن الكريم أدب الخطاب والجدال والمناقشة ، وطالبنا أن نجادل أهل الكتاب بالتي أحسن .

وغريب من رجل فى علم ابن حزم وأدبه يملك من أدب اللغة مختلف الأساليب وشتى العبارات ، ألا يتخير لمصطلحاته وحواره أعف الألفاظ والأقوال .

ولقد وضع فى مقدمته أسماء المصطلحات التى تدور بين أهل النظر فى أبحاثه وذكر منها « الحد والرسم والعلم والاعتقاد والبرهان والدليل والحجة والدال والاستدلال والشغب والتقليد والإلهام » . وقد أراد بالشغب السفسطة ، فهو حتى فى مصطلحاته يتتقى لبعض المعانى لفظا كان فى استطاعته أن يستبدل به لفظا ليس من أقذاع ولا ينال من كرامة المجادل .

ونحن لا نوافق ابن حزم فى هذا المسلك ، وإن كنا نجل فيه كرامة العلم وغزارة المادة . وللقول بقية نستوفى بها ترجمة ابن حزم ، إن شاء الله .

حول كتاب الرد على النحاة لابن مضاء القرطبي

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عبد الخالق عضيعة
المدرس بكلية اللغة العربية

أحمدُ للأستاذ شوقي ضيف جهده المشكور بنشره كتاب الرد على النحاة لابن مضاء، فقد هباً للبهتمين بالدراسات النحوية الاطلاع على لون من ألوان النقد لفنهم .

كما أشكر له جهده في تقديم مشروع لتفسيق النحو وتذليل صعباته .
وأجمل حديثي فيما يأتي :

طاف نقد ابن مضاء للنحو بأمور شكلية ، فلم ينفذ إلى جوهر النحو ولبابه ، فيبرز لنا ما في قواعده من قصور ، وما وقع النحويون فيه من تقصير .
لم يصل النحويون إلى قوانينهم عفوا صفوا ، وما وافتهم رهوا سهوا ، وإنما كان ذلك ثمرة جهود متتابعة متواصلة ، وصبر على عناء الاستقصاء والاستقراء لكلام العرب شعره ونثره ، وسماع من الفصحاء ، ولإنعام النظر في كتاب الله ؛ وبعد أن استقامت لهم هذه القوانين شغلوا أنفسهم بالتعليل لها وبيان أسرارها . فيجمل بمن يتصدى للرد على النحويين أن يبين أولاً : عدم اطراد هذه القوانين وأنها لا تنظم كلام العرب . لم يفعل هذا ابن مضاء ، وكان منه اعتراف في مقدمة كتابه بأن النحويين بلغوا الغاية فيما أرادوا ؛ قال : « وقد وضع النحويون صناعة النحو لحفظ كلام العرب من اللحن وصيائته عن التغير ، فبلغوا من ذلك إلى الغاية التي أموا ، وانتهوا إلى المطلوب الذي ابتغوا ، .

دار حديث ابن مضاء في كتابه على أمور ثلاثة هي : العوامل ، التعليلات ، التمارين الفرضية . وسأبين بإيجاز مدى اعتبار النحويين لهذه الأمور :

العوامل في صناعة النحو بمثابة الأمانة والدلالة، تهدي الناظر في الكلام العربي إلى مراعاة ما تقتضيه من حركات الإعراب. قال ابن الأنباري في الإنصاف :

« العوامل بالإجماع إنما هي أمارات ودلالات، والأمانة تكون بعدم شيء كما تكون بوجود شيء؛ ألا ترى أنه لو كان معك ثوبان وأردت أن تميز أحدهما من الآخر فصبغت أحدهما وتركت صبغ الآخر، لمكان ترك صبغ أحدهما في التمييز بمنزلة صبغ الآخر، ؟

فتصوير ابن مضاء للعوامل تصوير مبالغ فيه، وقد اعتمد على بعض الأمثلة التي هي مثار اختلاف بين النحويين. فليست للعوامل هذه الهيمنة على كلام العرب تقبل بعضه وتنكر بعضه، إنما يبحث النحويون عن العامل بعد سماع النص العربي. قال الرضي في شرح الكافية ج ١ ص ٢٠٨ : « وقال بعضهم : المستثنى منصوب بأستثنى، كما أن المنادى منصوب بأنادى، وإلا وحرف النداء دليلان على الفعلين المقدرين. وقد اعترض عليه بأنه يلزم منه جواز الرفع بتقدير أمتنع. ولا يلزم ذلك؛ لأننا نعمل ما ثبت وورد من كلام العرب، ولو ورد الرفع لكنا نقدر أمتنع ونحوه؛ ألا ترى أنه يجب النصب في إياك والأسد بتقدير بعد ونحوه؟ ولو ورد الرفع نحو أنت والأسد لكنا نقدر بعد أنت والأسد ونحوه.

* * *

وقد راعى أن ينسب ابن مضاء إلى أبي الفتح بن جنى مخالفته النحويين بإنكار العوامل، ويستند في دعواه إلى نص مبتور، ثم يقره على هذا الأستاذ شوقي دون أن يكلف نفسه الرجوع إلى الخصائص فيجد كلام ابن جنى صريحاً في أن العامل سبب للعمل، وهو الذي يحمل المتكلم على أن يراعى ما يتطلبه من حركات الإعراب. ويتضمن تعليلاً لتقسيم النحويين العوامل إلى لفظية ومعنوية (الخصائص ١/١١٤). ولو تجاوزنا هذا الموضع من الخصائص وألقينا نظرة عابرة لوجدنا أحاديث عن العوامل في غير موضع.

في صفحة ١٠٧ تعرض ابن جنى لأقوال النحاة في ناصب المفعول به، ورجح أن الناصب له هو الفعل وحده، وضعف رأى من يقول إن الناصب هو الفاعل

أو الفعل مع الفاعل؛ كما تحدث عن عمل لا الزائدة في صفحة ٣٠٤ في قول الشاعر:
 لو لم تكن غطفان لا ذنوب لها إذن للام ذوو أحسابها عمرا
 وتكلم عن عوامل مختلفة في هذه المواضع ١١٢، ١٣١، ١٧٢، ١٩٣، ٣١٩،
 ٣٣٤؛ وتذكر كتب النحو المختلفة أن ابن جني زاد عوامل لم يعترف بها جمهور النحاة:
 المنادى عنده منصوب بحرف النداء لنيابته عن الفعل المحذوف؛
 وما الزائدة هي العاملة الرفع والنصب في نحو قول الشاعر:
 أبا خراشة أما أنت ذا نفر فإن قومي لم تأكلهم الضبيع
 لنيابتها عن كان المحذوفة.

وأجاز أن يتعلق الظرف والجار والمجرور بحروف النفي .
 نقل ذلك عنه ابن هشام في المغني ، والبغدادى في خزنة الأدب وغيرهما .
 فهل يقال بعد هذا إن ابن جني سبق ابن مضاء في تزييف نظرية العامل ؟ .

* * *

دفع النحويين إلى البحث عن متعلق الظرف والجار والمجرور نظام الأسلوب
 العربي؛ وجدوا أنه قد يسبق الظرف فعل أو اسم فيه معنى الفعل يرتبط به الظرف
 ومعناه خاص ، فقالوا : المتعلق الخاص يجب ذكره ولا يحذف إلا عند وجود
 القرينة ؛ تقول : هذا الكتاب مطبوع في مصر ، ولو حذفت المتعلق اختلف المعنى .

ودليلهم على تقدير المتعلق العام ورود ذكره في قول الشاعر :
 لك العز إن مولاك عز وإن يهن فأنت لدى بجوحة الهيمون كأن
 ولما كانت الأساليب الفصيحة خالية من ذكره ، أوجب النحويون حذفه ،
 فلا يصح أن تقول : منزلنا المكان بشارع كذا ، كما يجرى ذلك على السنة العامة .
 فالبحث عن المتعلق بحث يتصل بسلامة الأسلوب وفصاحته . وقد حض ابن مضاء
 في كتابه على البحث في المسائل التي تفيد نطقا ، وإن نادى بالانصراف عن البحث
 في متعلق الظرف .

وتعيين المتعلق إنما يحدده المعنى ؛ فقد يوجد الفعل قبل الظرف ولا يصح
 تعلقه به ، كقول ابن دريد :

إن امرأ القيس جرى إلى مسدى فاعتاقه حمامه دون المدى

لو علق الجار والمجرور بالفعل « جرى » مع بقائه على معناه ، لناقض صدر البيت عجزه ، وهو متعلق بحال محذوفة ، أى جرى قاصدا الى مدى .

الخطب فى التعليقات النحوية أهون وأيسر . سأل سائل الخليل فقال له : أعن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك ؟ فقال : إن العرب نطقت على سبيلها وطباعها وعرفت مواقع كلامها وقامت فى عقولها علله وإن لم يتقبل ذلك عنها ، وعللت أنا بما عندى أنه علة لما عللته به ؛ فإن أكن أصبت العلة فهو الذى التمت ، وإن تكن هناك علة غير ما ذكرت فالذى ذكرته محتمل أن يكون علة له ، ومثلى فى ذلك مثل حكيم دخل دارا محكمة البناء عجيبه النظم والأقسام ، وقد صحت عنده حكمة بانها بالخبر الصادق والبراهين الواضحة ، فكلما وقف هذا الرجل الداخل الدار على شىء منها قال : إنما فعل هذا هكذا لعله هو كذا ، لعله سنحت له وخطرت ؛ فجائز أن يكون الحكيم البانى للدار فعل ذلك للعلة التى ذكرها هذا الذى دخل الدار ، وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلة ، إلا أن ما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علة ... ثم يقول : فإن صحت لغيرى علة لما عللته من النحو هو أليق مما ذكرته بالمعلول فليات بها .

وقال أبو الفتح فى الخصائص ٩٠/١ : أعلم أنا مع ما شرحناه وعيناه به فأوضحناه ، من ترجيح علل النحو على علل الفقه ولحقاها بعلم الكلام ، لا ندعى أنها تبلغ قدر علل المنكلمين ، ولا عليها براهين المهندسين .

ويسر النحويين اعتبار ابن مضاء دراسة علل النحو بمنزلة دراسة اللغات والأدب والتاريخ ، حيث يقول فى كتابه : « من المعارف التى لاتدعو الى جنة ولا تزر عن نار : اللغات والأشعار ، ودقائق علل النحو ، ومليات الأخبار » .

وعندى أن صنيع النحويين فى العوامل والتعليل شبيه بما تصنعه الحكومات والهيئات فى تبيينها ؛ تصوغ مواد القانون ثم تردف ذلك بمذكرة تفسيرية إيضاحية تنطوى على بيان وجوه الحكمة فى التشريع ولاءمته لما شرع له .

وأنتقل الى الحديث عن مشروع التنسيق الذى وضعه الدكتور شوق ضيف .

(١) ما يراه الأستاذ من وضع باب للفعل العام ينتظم الأفعال الناسخة

وأحوال المضارع إعراباً وبناءً ، وأحوال الماضي والأمر - موجود في الكتب التي بين أيدينا ؛ سار على هذا النظام جار الله في المفصل ، وابن الحاجب في الكافية ، تكلموا عن الأسماء ثم الأفعال ثم الحروف . وشرح المفصل لابن يعيش وشرح الكافية معروفة متداولة .

(٢) هل يغنينا إدماج بعض الأبواب في بعض ، كإدماج الاختصاص في باب التمييز ، والإضافة في التوابع ، والمنادى ولا النافية للجنس في الممنوع من الصرف ، عن دراسة خصائص أسلوب كل منها وتفهم معانيها لتعرف نظائرها وأشباهاها في كلام العرب ؟ .

(٣) أليكون حكماً على الخبر بأنه يكون منصوباً في نحو : ضربني العبد مسيئاً ، وفي نحو : أبا خراشة أما أنت ذا نفر ، ويكون مجروراً في نحو : « وما ربك بظلام للعبيد » ، مما يهون مسائل النحو ويرفع عنا إصرها ؟

لو أقرنا الأستاذ شوقي على أنه لا بد من تحديد مواقع كل حالة لكان الخلاف بينه وبين النحويين لا يتجاوز مجرد التسمية .

كيف نقول للمبتدئ : إن الخبر ينصب بعد أمّا ونرسل الكلام إرسالاً ، فيقع على أمّا من نوع آخر بعدها المبتدأ والخبر مرفوعان ، وبعدها الجار والمجرور : « وأما بدمعة ربك فحدث » وبعدها المفعول به : « وأما اليتيم فلا تقهر » ، وبعدها الجملة الشرطية ...

وكيف يغني قولنا : المبتدأ يكون مجروراً نحو « وما ربك بظلام للعبيد » دون أن نفرق بين هذا الخبر المجرور بحرف جر زائد والمجرور بحرف جر أصلي ، وكيف ساغ العطف على الأول بالنصب في نحو قول الشاعر :

معاوى إتنا بشر فأصبح فلسنا بالجمال ولا الحديد

كذلك معرفة موقع الجملة من الإعراب يترتب عليها ضبط ما بعدها في بيت كثير :

وما كنت أدري قبل عزة ما البكا ولا موجعات القلب حتى تولت

(٤) بيان موقع كم من الإعراب أمر لا بد منه ، لما يتبع ذلك من اختلاف في المعنى . فبيت الفرزدق :

كم عممة لك يا جرير وخالة فدعاء قد حلبت على عشارى
روى برفع عمه ونصبها وجرها ؛ فرواية الرفع تفيد أن لجرير عمه واحدة وخالة
واحدة قد حلبتا للفرزدق عشاره مرات كثيرة أو حلبًا كثيرًا ، وكم ظرفية أو دالة
على الحدث ؛ وروايتا الجر والنصب تفيدان أن لجرير عمات كثيرات وخالات
كثيرات أجيرات قد حلبن للفرزدق عشاره ، وكم دالة على ذات .

كذلك عرض النحويون لبيان الفرق بين النصب على الاختصاص والرفع
على الخبرية في نحو قول الشاعر :

إنا بنى نهشل لا ندعى لأب عنه ولا هو بالأبناء يشرينا
كما بينوا أى المعنيين أبلغ من الآخر .

* * *

فهل يطلب منا الدكتور الأديب أن نعرض عن مثل هذه الدراسات
ولا نقبل على تعرف دقائقها وتحصيل أمثالها ؟

وكيف يصح بعد هذا أن يقال : إن صناعة النحو صناعة لفظية تغفل شأن
المعاني وتعنى بالألفاظ ؟

أنا لا أنكر تشعب قواعد النحو ودقتها ؛ ولكنى أقول كما قال الدكتور
عبد الوهاب عزام بك في بعض كتبه : « قيل إن لغتنا صعبة بهذه المفردات وبهذه
التراكيب والأوزان ، وإنما تكاد تأبى على دارسها وتعجز طالبها ، وهذا حق
لاندفعه ، وإن عدّ عيباً فلا ننكره ، ولكنه ليس من نقصان في خلقها أو اختلال
في أبنيتها أو عجز في موادها وأوزانها ، ولكنه نتيجة التطور الكامل ، والنمو التام ؛
فأدنى الأشياء في هذا العالم أيسرها وأقلها تركيباً ، والكمال يصحبه التركيب
والتفصيل والإشكال والإعصال ... الخ

حى بن يقظان

لحضرة الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

مدرس الفلسفة بجامعة فؤاد الأول

هذه قصة صغيرة ، كتبها الفيلسوف الأندلسى أبو جعفر بن طفيل . وهى على صغر حجمها بالغة الأهمية من الناحية الفلسفية ، حتى لقد بلغ من قيمتها أن نقلت فى القرون الوسطى إلى اللغة اللاتينية ، وترجمت إلى كثير من اللغات الأوروبية الحديثة ؛ ولم يألف المسلمون التعبير عن الآراء فى شكل قصصى ؛ لهذا كانت رسالة حى بن يقظان من الطرافة بمكان عظيم ، لندرة هذا الأسلوب فى التأليف .

وهناك أسباب كثيرة تدفع المفكرين إلى صياغة أفكارهم فى ثوب قصصى ؛ منها التشويق ، ومنها تصوير المسائل فى صورة الحقيقة والواقع ، ومنها الهرب من استبداد الحكم ، والخوف من ذوى السلطان .

وأكبر الظن أن ابن طفيل ركب متن القصة خشية على حياته من الاتهام بالكفر والزندقة والفلسفة ، وكان الاشتغال بالفلسفة فى عصره جريمة لا تغفر ، وجناية على الشرع والدين ، يدفع الفلاسفة ثمنها غالبا ، إذ تمزق كتبهم ، ويرجون فى أعماق السجون ، ويضطهدون فى أموالهم وأهليهم ، وكان التعذيب الشنيع ، ثم الموت حرقاً هو عقاب المتفلسفين فى أوربا .

والحنّة التى وقع فيها أبو الوليد بن رشد من هذا القبيل .

ولقد تصدى كثير من الفقهاء ورجال الدين للفلاسفة ، وزيفوا آراءهم ، وبينوا ما فيها من مخالفة للدين ، وما ترمى إليه من كفر ، غير أن أقوى هؤلاء جدلا

وأبرزهم حجة هو أبو حامد الغزالي في كتابه تهافت الفلاسفة ، فابنبرى له الفلاسفة يردون عن أنفسهم هذه التهمة المنسكرة ، لأن ثبوتها يقضى عليهم بالإعدام ، وهو حكم الدين على المشركين . ورد بعضهم ردا صريحا كما نقرأ في تهافت التهافت لابن رشد ، وغمز بعضهم الآخر الغزالي ولم يلجأ إلى التفنيد .

قال ابن طفيل في هذه الرسالة : « وأما كتب الشيخ أبي حامد الغزالي فهو بحسب مخاطبته للجمهور يربط في موضع ، ويحل في آخر ، ويكفر بأشياء ثم يتحللها » ثم قال بعد أن عرض بمذهبه وكتبه وغموض ما جاء فيها ما يأتي « وقد ذكر (يريد الغزالي) في كتاب الجواهر : أن له كتباً مضموناً بها على غير أهلها ، وأنه ضمنها صريح الحق ولم يصل إلى الأندلس في علمنا منها شيء . بل وصلت كتب يزعم بعض الناس أنها هي تلك المضمون بها ، وليس الأمر كذلك . » وإذا كان الغزالي لم يعجبه لتقلبه في الرأي ، وشك في الاعتقاد الموروث واستعمال الرمز والإشارة دون صريح الحق ، فكذلك لم يعجبه أبو نصر الفارابي لأن ما وصل إلى الأندلس من كتبه أكثرها في المنطق ، وما ورد منها في الفلسفة كثيرة الشكوك ، ومن جملة ما ذكره مخالفا للشرع أن السعادة الإنسانية إنما تكون في هذه الحياة الدنيا ، مما أياأس الخلق جميعا من رحمة الله تعالى ، وصير الفاضل والشرير في رتبة واحدة إذ جعل مصير الكل إلى العدم ، وهذه زلة لا تقال ، وعثرة ليس بعدها جبر . هذا مع ما صرح به من سوء معتقده في النبوة وأنها بزعمه للقوة الخيالية خاصة ، وتفضيله الفلسفة عليها ، إلى أشياء ليس بنا حاجة إلى إيرادها .

ولم يسلم أبو بكر بن الصائغ من نقد ابن طفيل ، وبعد أن قدره قدره وقال عنه إنه أحذق المتأخرين نظرا وأقربهم إلى الحقيقة وأثبهم ذهنا وأصدقهم رؤية ، غير أنه شغلته الدنيا حتى اخترمته المنية قبل ظهور خزائن علمه وبث خفايا حكمته ، وأن أكثر ما يوجد له من التأليف غير كاملة ، وأن ترتيب عبارته في بعض المواضع من كتابه رسالة الاتصال على غير الطريق الأكمل .

أما الفيلسوف الذي يبدو أنه سلم من لسانه وماآخذه ، فهو الشيخ الرئيس

ابن سينا، ومع ذلك فقد نبه الناس إلى أن كتاب الشفاء إذا أخذه القارئ على ظاهره دون أن يتنبه لسره وباطنه، لم يوصل به إلى الكمال، وأن من أراد الحق الذي لا جملة فيه فعليه بكتابه في الفلسفة المشرقية .

فلما رأى ابن طفيل غموض التأليف، وخروجها عن سواء السبيل، أراد أن يكتب شيئاً يجيب به عن سؤال ذلك الأخ الكريم الذي طلب منه أن يثبت إليه ما أمكنه به من أسرار الحكمة المشرقية التي ذكرها ابن سينا، وقال مخاطباً ذلك السائل « وأرجو أن أصل من السلوك بك على أقصد الطريق وآمنها من الغوائل والآفات . فكتب قصة حي بن يقظان وأبسال وسلامان .

فما هو ذلك الطريق المستقيم، وما هي تلك الغوائل والآفات، التي يخشاها ابن طفيل ويحذر منها .

الحق أن الآفات آفة واحدة، هي تهمة الكفر والخروج على الشرع الحنيف . أما الطريق، فهما في الواقع عند ابن طفيل طريقان : طريق الحكمة، وطريق الشريعة، وكلاهما يوصل إلى الحق، والحق هو معرفة الله .

ولم يكن ابن طفيل أول من تعرض للتوفيق بين الفلسفة والدين، ولم يكن آخر من كتب في هذا الموضوع . قال أصحاب رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، الذين كتموا أسماءهم : إنهم لا يعادون علماً من العلوم، ولا يتعصبون لمذهب من المذاهب، ولا يهجرون كتاباً من كتب الحكماء والفلاسفة، كما يعتمدون على كتب الأنبياء وما جاءوا به من التنزيل . وجعل أبو الوليد بن رشد فيلسوف قرطبة عنوان كتاب من تأليفه، وهو من أجملها وأهمها، « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » . فالصلة إذن بين الفلسفة والدين، أو بين الحكمة والشريعة، هي المسألة التي شغلت بال الفلاسفة فترة طويلة من الزمان . وبحور السؤال يدور على هذه القضية : هل يكتفى بالشرع وما جاء فيه، ويؤمن الناس بالله وأوامره ونواهيه حسب ما نزلت به الكتب السماوية على لسان الأنبياء والمرسلين، أو يلجأ الناس إلى عقولهم يبتدون بها إلى معرفة الخالق والتميز بين الخير والشر ؟

هما طريقان: طريق السمع أو الشرع أو النقل، وطريق الفكر أو العقل.

وقد جمعت بعض المذاهب بين الطريقتين، وقدمت أحدهما على الآخر. فالمتكلمون مثلاً يقدمون العقل على النقل، والأشاعرة يقولون: معرفة الله بالعقل تحصل، وبالسمع تجب، فيقدمون الشرع على العقل.

ويريد الفلاسفة أن يقولوا إن اتباع طريق العقل يوصل إلى معرفة الله، كما يوصل طريق الشرع، فلا تنافي بينهما. وهنا موضع الآفة، لأنه إذا صح الاهتمام إلى الله بالعقل فما وجه الحاجة إلى الشرائع؟

ونعود إلى ابن طفيل فنجدّه يصور في قصته أن حى بن يقظان نشأ في جزيرة نائية فشب وحيداً يرضع من لبن غزالة إلى أن اشتد ساعده وبلغ مبلغ الشباب والرجولة، فنظر في أحوال الكائنات التي تحوطه واهتدى إلى أسرار الجماد والنبات والحيوان كل ذلك بغير معلم؛ ثم انعطف على نفسه فكشف سر الروح واهتدى إلى العقل أداة المعرفة، وتبين أن جوهره مخالف للسادة المحسوسة، بل مفارق لها، فانصرف عن الجسم واتصل بالروح الأعلى، «وفى عن ذاته وعن جميع الذوات ولم ير في الوجود إلا الواحد الحى القيوم»، فكأنه وصل إلى الله بالمشاهدة والاتصال، كما يذهب أهل التصوف.

ولعلك تسأل: كيف شاهد حى بن يقظان الله، وما أوصافه؟ غير أن ابن طفيل هرب من الجواب معتذراً «بأن مجال العبارة هنا ضيق، وأن الالفاظ على كل حال توهم غير الحقيقة».

ثم تذهب القصة إلى أن جزيرة قريبة من جزيرة حى بن يقظان كان يسكنها جماعة اعتنقت شريعة إلهية، وكان على رأس الجماعة رجلان من أهل الخير والفضل، أحدهما أسال والآخر سلامان. أما أسال فكان أشد غوصاً على الباطن وأكثر عثوراً على المعاني الروحية، وأطعم في التأويل، وأما سلامان فكان أكثر احتفاظاً بالظاهر وأشد بعداً عن التأويل وأوقف عن التصرف والتأمل، وكلاهما مجتهد في الأعمال الظاهرة ومحاسبة النفس ومجاهدة الهوى. وطلب أسال العزلة والتفكير،

ولزم سلامان الجماعة وتعلق بالجمهور . ثم امتطى أسبال متن البحر ورحل الى الجزيرة المجاورة ينشد العزلة والافتراق ، فالتقى هناك يحيى بن يقظان فتعارفا ، وتعلم حتى لغة الانسان ، وحكى كل منهما لصاحبه ما يعرفه ، فوجدا أنهما متفقان في الغاية وهى الوصول الى الله : حتى بن يقظان بطريق العقل والتأمل ، وأسأل بطريق الملة والشريعة . وهكذا وفقت القصة بين الفلسفة والدين .

ولا ينبغي أن تصرقنا هذه النتيجة عن الأفكار الأخرى التى بثها ابن طفيل فى ثنايا قصته ، لأنها حقاً جديرة بالنظر والاعتبار . وهى أفكار تتصل بعلم الحياة وعلم النفس وعلم الاجتماع : أصل الحياة ، ومنشأ اللغة ، وظهور الحضارة ، وفضل الانسان على الحيوان ، وسبيل المعرفة ، وغير ذلك من المسائل الأساسية الداخلة فى صميم الفلسفة ، والتى وصل العلم الحديث الى حل بعضها ، ولا يزال الجدل دائراً حول بعضها الآخر .

من هذه المسائل نشأة الانسان . وتحدثنا نظرية التطور أن الكائنات الحية ظلت تتسلسل فى الرقى حتى بلغت الانسان ، وأن جميع الأحياء كانت مائة وأرقاها الأسماك ، ثم عاشت بعضها على اليابسة فنشأت الزواحف ، ثم ارتقى بعضها الى ذوات الأربع ، واختلفت أجناسها ، وتعددت أنواعها . وهذا كله كلام جميل يحاول به العلماء رد الكائنات الحية الى أصل واحد ، غير أن الرقى فى داخل الجنس الواحد ليس دليلاً على تطور الجنس بما يحمل من صفات ذاتية الى جنس آخر يختلف عنه فى الصفات . لهذا السبب ذهب القدماء الى أن الكائنات خلقت كذلك منذ نشأة الحياة وبدء الخليقة ، وتذهب الكتب الدينية هذا المذهب ، فتحدثنا أن نوحاً عند الطوفان ، حمل فى سفينته من كل صنف زوجين . وقد عرض ابن طفيل القضية على الوجهين دون أن يرجح أحدهما على الآخر : الوجه الأول أن حتى بن يقظان نشأ بغير أب ولا أم ، بل تولد من الأرض ، وامتزج الحار بالبارد والرطب باليابس فى طينة تخمرت وتهايت لقبول « الروح الذى هو من أمر الله » . فكان ابن طفيل عجز عن حل المشكلة الأبدية وهى خروج الحى من الميت ، فاضطر الى القول بأن الروح دائم الفيضان من عند الله . أما الوجه الثانى لنشأة حتى بن يقظان عند من ينكرون تولده بغير أب

ولأم ، فإن ابنة أحد الملوك ، وكانت باهرة الحسن والجمال ، منعها أبوها من الزواج ، فتزوجت سرّاً قريباً لها يسمى يقظان وأنجبت منه « حى » ، وخشيت الفضيحة ، فوضعت في صندوق ألقت به في اليم حتى استقر على شاطئ الجزيرة التي عاش فيها ، وأرضعته فيه غزالة فقادت وليدها .

ولم ينطق حى بن يقظان لغة كهذه اللغات التي يتحدث بها الناس ، ولكنه أخذ يحكى نغمة الطيبة ، وكذلك كان يحكى جميع ما يسمعه من أصوات الطير وأنواع الحيوان . وهذه هي إحدى النظريات المسلم بها في العلم الحديث عن نشأة اللغة

ثم اهتدى الى قدرة يده على معالجة الأغصان واتخاذ العصي وتسوية أطرافها واستعمالها للدفاع . واليد في أعضاء الإنسان هي سر تفوقة على الحيوان ، والأصل في تحضره .

واتخذ لنفسه من الريش ستاراً لعورته ، لأن الحيوان مستور بالاذناب والأوبار . وهي نظرية بعيدة الاحتمال في علة الكساء ، إذ المشاهد أن بعض القبائل التي تعيش في خط الاستواء لا تزال عارية تماماً ، ولم يستر الإنسان عورته إلا لأسباب اجتماعية تتعلق بالغريزة الجنسية وصلة الذكور بالإناث .

ولا أريد أن أحدثك كيف اهتدى حى بن يقظان الى النار وفائدتها ، والى اتخاذ الأسلحة من الأحجار المشحودة ، والى النظر في أجسام الكائنات وتشريحها لمعرفة أسرار تركيبها ؛ لأننى أحب أن تقرأ بنفسك هذا الكتاب ، فتطلع على آراء فلاسفة المسلمين ، وتعرف أن الشرق بلغ في وقته من العلم والحضارة مبلغاً يجعلك تعجز بالماضى وتفخر بالتراث القديم .

آفات البلاغة

قال محمد كاتب إبراهيم بن المهدي وكان راوياً وعلامة في النحو : سمعت أبا داود — وجرى شيء من ذكر الخطب وتمييز الكلام — يقول : تلخيص المعاني رفق ، والاستعانة بالغريب عجز ، والتشادق في غير أهل البادية نقص ، والنظر في عيوب الناس عى ، ومس اللحية هلك ، والخروج مما بنى عليه الكلام إسهاب .

مسئولية الاطباء

في الشريعة الاسلامية وفي القانون المقارن

لحاضرة الاستاذ الدكتور أحمد محمد ابراهيم

القاضى بمحكمة المنيا الوطنية

الناس في حاجة ماسة الى الاستعانة بالاطباء لعلاجهم مما يصيبهم من أمراض وما يحدث لهم من إصابات . ويقوم الاطباء - في سبيل ممارسة مهنتهم - بأعمال تعد في ظاهرها جرائم تستوجب العقاب ، فقد يصف الطبيب للمريض دواء يحدث له جسيم الآلام ، وقد يترعضوا من أعضائه ، أو يجري له جراحة فيشق صدره أو بطنه ، وقد يترتب على العلاج وفاة المريض أو شفاؤه بعاهة تلازمه إلى الأبد .

ورغم أن أكثر ما يقسوم به الاطباء - وخصوصا الجراحين منهم - يستوجب العقاب ، فإن عدم مسؤولية الاطباء عن هذه الأفعال ليست محل خلاف . ولكن ما هو أساس عدم المسؤولية ، وما هي الشروط الواجب توافرها في عملهم حتى يعفوا من هذه المسؤولية ؟

ونرى - قبل بحث هاتين المسألتين - أن نذكر أن القوانين الوضعية في كل الدول المتقدمة تنظم كيفية ممارسة مهنة الطب ، فتقتصرها على الأشخاص الحاصلين على شهادات دراسية تؤهلهم للقيام بها ، بعد أن يكونوا قد أمضوا فترة طويلة في دراسة علمية وعملية لأصول هذه المهنة وقواعدها ، حتى تستطيع الدولة أن تأتمنهم على علاج رعاياها ؛ وإذا قام بالعلاج شخص من غيرهم فإنه يسأل عن نتيجة فعله مسؤولية الشخص العادى ، فلا يتمتع بأى حماية قانونية ، فضلا عن عقابه على جريمة ممارسة مهنة الطب بدون تصريح من الجهة المختصة .

وهذه التفرقة بين من حصل على شهادة تخول له ممارسة الأعمال الطبية وبين من لم يحصل عليها ، لانجدها واضحة في كتب الفقه الإسلامى . ومرد ذلك - فيما نعتقد - أن قصر ممارسة أعمال الطب على من درسوا قواعده لم تعرف بطريقة رسمية في الدول الإسلامية المختلفة ، وليس معنى ذلك أن قواعد الشريعة

الغراء تتيح ممارسة المهنة لكل شخص ، بل كل ما نقصده هو تقرير أن التنظيم الحديث لرجال هذه المهنة لم يكن معروفا لديهم وقت أن وضعوا الأحكام الفقهية التي ذكروها في كتبهم . فإذا تطور الزمن وصار من أهم واجبات الدولة أن تحافظ على صحة رعيتهما وأن تقيمهم شر المشعوذين والدجالين ، فإننا نقرر - في اطمئنان - أن مثل هذا التنظيم ليس مما يتنافى مع أحكام الشريعة ، بل بالعكس فإنها توجبها ؛ فقد نص الفقهاء على أنه يحجر على المتطبب الجاهل لأنه يفسد أبدان الناس . وليس المقصود بالحجر هنا حقيقة الحجر وهو المعنى الشرعى الذى يمنع نفوذ التصرف ، فلو باع الطبيب الأدوية بعد الحجر نفذ بيعه ، ولكن المراد بالحجر هو المنع الحسى ، أى يمنع عن عمله حسيا ، لأن المنع عن ذلك من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(١) . كما نص في مذهب الإمام أحمد على أنه إذا قام بأعمال التطبيب شخص غير حاذق في فنه ، فإن فعله يعتبر فعلا محرما .^(٢) .

أساس عدم المسؤولية :

ذكرنا فيما تقدم أن عدم مسؤولية الأطباء عن أفعالهم ليست محل خلاف من أحد ، ولكن ما هو الأساس القانونى لعدم المسؤولية ؟

ذهب بعض الشراح وقضت بعض المحاكم بأن انعدام المسؤولية يرجع إلى رضا المجنى عليه ؛ فالعملية الجراحية لا يجوز للطبيب أن يجريها إلا بعد الحصول على موافقة المريض ، وهذا الرضاء كاف للقول بعدم مسؤولية الطبيب ، واعتبار عمله مشروعا . وهذه النظرية هى المعمول بها فى القضاء الانجليزى ؛ لأن القاعدة عندهم - بصفة عامة - أن رضا المجنى عليه يبرر الفعل . ويتمول بها بعض علماء ألمانيا ، وبها قضت محكمة النقض المصرية فى حكم قديم لها .

ويترب على الأخذ بهذه النظرية أن رضا الشخص المعالج يعدم المسؤولية مهما كانت صفة المعالج ، فيستوى أن يكون طبيا ماهرا أو أن يكون شخصا لا دراية له بالمهنة ولم يحصل على أى دراسة فى علوم الطب ؛ كما يترتب عليه انعدام

(١) الدرر شرح الدرر ٢ ص ٦٢٨ .

(٢) المغنى ٦ ص ١٢٠ .

المسئولية مهما كان الباعث على العمل ، فلا مسئولية عليه ولو لم يكن يقصد العلاج بل كان غرضه بتر عضو حتى يستطيع الشخص الذى بتر أحد أعضائه أن يفر من التجنيد الإجبارى .

ويؤخذ على هذه النظرية — خصوصا فى مصر وفرنسا — أن انعدام رضاء المجنى عليه ليس ركنا من أركان جرائم الجرح أو إعطاء المواد الضارة ، وعلى ذلك فرضاء وعدم رضاه يستويان فى النتيجة ، أى أن المسئولية تتوافر ولو كان الفعل برضاء المجنى عليه ؛ فمن يضرب شخصا أو يجرحه يعاقب ولو كان لم يفعل ذلك إلا بناء على إلحاح من المجنى عليه .

وقد ذهب بعض العلماء الفرنسيين إلى أن انعدام المسئولية يرجع إلى انعدام القصد الجنائى فالقصد الجنائى ، ركن فى جميع الجرائم العمدية ، فإذا انعدم انعدمت معه الجريمة ولم يكن ثم فعل يستوجب العقاب . والشخص المعالج لا يقصد الاعتداء على المريض بل يريد له الشفاء ، فنيته طيبة وليست نية آثمة .

ويترتب على التسليم بهذه الفكرة أنه يجب أن يعفى من المسئولية كل شخص يباشر أعمال الطب ولو لم يكن مرخصا له بذلك ما دام أنه يقصد شفاء المريض بفعله ، فهذه النية الطيبة يستوى فيها من حصل على شهادات فى الطب ومن لم يحصل على شيء من ذلك .

ويعاب على هذه النظرية أنها تخلط بين الباعث وبين القصد الجنائى ، فالباعث على الفعل يختلف من شخص إلى شخص ومن حالة إلى حالة ، فقد يعتدى شخص على آخر انتقاما منه ، أو ليحصل على ماله ، أو ليظهر قوته ؛ ولكن القصد الجنائى فى كل الجرائم (التى من نوع واحد مهما اختلفت البواعث) واحد لا يتغير ، والقصد الجنائى هو أن يرتكب الشخص الفعل المحرم ، وهو يعتقد أنه محرم ؛ فشق البطن غير جائز ، وكل من ارتكب هذا الفعل وجب عقابه مهما كان الباعث على فعله ، لأن البواعث لا دخل لها فى وجود الجرائم وانعدامها .

والرأى السائد الآن فى مصر وفرنسا - هو أن عدم مسئولية الأطباء راجع إلى أن المشرع أراد ذلك ، فإنه بتنظيمه مهنة الطب وقصره حق ممارستها على من تلقى فيها دراسة خاصة وحصل على شهادة تؤهله لذلك ، قد أباح للحاصلين على هذه الشهادة ممارسة الأعمال التى تقتضيها مهنتهم ولو كانت فى ذاتها جريمة يعاقب عليها

الشخص العادى . والعلة فى إباحة هذه الأفعال هى أن أعمال الأطباء تعود بالفائدة على الفرد وعلى المجتمع ؛ فمن صالح الفرد أن يعيش سليما قويا خاليا من الأمراض والعلل ، ومن صالح المجتمع أن يكون أفرادہ متمتعين بالصحة أقوىاء خالين من الأمراض لينتجوا ويعود الخير على الجميع .

وإذا رجعنا الى كتب الفقه الاسلامى لمعرفة أساس انعدام مسؤولية الأطباء وجدنا أن أساس انعدام المسؤولية هو رضاء المجنى عليه ؛ إذ رأى جمهور الفقهاء أنه لو قال شخص لآخر اقتلنى أو اجرحنى ففعل فلا يقتص منه لرضاء المجنى عليه بالفعل ^(١) ، وحكم الطبيب فى عدم المسؤولية هو حكم الشخص العادى فيها ، لأن الطبيب لا يقوم بعمله إلا بناء على رضاء من المريض ، كما سنوضح فيما بعد .

ومن رأينا أنه يجب عدم الأخذ برأى جمهور الفقهاء فى هذه المسألة ؛ فقد سبق أن بينا أهم الاعتراضات التى توجه اليه فى تفقه الحديث ، وهى اعتراضات لها قيمتها ولها وجاهتها ؛ فالأخذ بهذا الرأى يهدم كل الآثار التى تترتب على تنظيم المشرع لمهمة الطب تنظيما من مقتضاه تحريم ممارستها على غير الأطباء ؛ لأن الإعفاء من المسؤولية على أساس رضاء المريض يشمل الطبيب وغير الطبيب ، وفى ذلك الخطورة كل الخطورة على الفرد وعلى المجتمع . فكثيرا ما يجهل المريض مصلحته وينساق خلف الدجالين وأدعياء الطب الذين قد يأتون أفعالا محقة الضرر وهم لا يعلمون ، ومع ذلك يفرون من العقاب بحجة أن قيامهم بالعلاج كان بناء على رضاء المريض ودعوته .

ومن رأينا أنه يجب أن يكون سبب الإعفاء من العقاب فى الشريعة الإسلامية هو نفس السبب السائد الآن ، أى أن يكون أساس الإعفاء هو رغبة المشرع فى إباحة بعض الأفعال للأطباء ما دام القيام بواجب المعالجة يستدعيها ولو كانت فى ذاتها جرائم نظرا للفائدة التى تعود على الفرد وعلى المجتمع من ذلك . ويترب على الأخذ بهذه الفكرة ضرورة القول بمعاقبة غير الأطباء لو ارتكبوها ولو كان المريض هو الذى استدعاهم لمعالجته ، فما دام عملهم محرما ويجب الحجر عليهم

(١) من أراد زيادة الايضاح فليرجع الى مؤلفنا « القصاص فى الشريعة الإسلامية » ص ١١٠ وما بعدها والمراجع المشار اليها .

فكيف لا نعاقبهم ؟ . هذا فضلا عن أن قصر ممارسة المهنة على أشخاص معينين يتضمن منع سواهم من ذلك^(١) .

شروط لإباحة أعمال الطب :

ولا يكفي أن يكون الشخص طبيا حتى يستطيع أن يعالج الناس ويقوم بإجراء الجراحات وهو آمن المسؤولية الجنائية ، بل لا بد من أن تتوافر في عمله الشروط الآتية حتى يستطيع أن يتمسك بالاعفاء من المسؤولية .

أولا : يجب أن يكون تدخل الطبيب لعلاج المريض . فمن أجل هذه الغاية

أباح المشرع أعمال الأطباء ، فإذا انحرف الطبيب عن هذه الغاية وقصد غرضا آخر بعلاجه عد مسؤولا عن أعماله مسؤولية الشخص العادي ، فإذا بتر الطبيب يد شخص حتى يفر من الخدمة العسكرية أو جهمض حاملا لأنها حملت سفاحا ، عوقب على هذه الأفعال ، واعتبرت مسؤوليته عنها مسؤولية عمدية . وقد أجمع كبار الفقهاء في فرنسا على أن الطبيب الذي يستأصل مبيض امرأة بناء على طلبها ولم تكن حالتها الصحية تستدعي القيام بهذه العملية ، فإنه يسأل عن هذا الفعل ، مسؤولية عمدية . ويسأل الطبيب عن فعله أيضا إذا كان الغرض منه القيام بإجراء اكتشاف علمي دون أن يكون بقصد علاج المريض .

وقد يبدو أن هذا الشرط غير لازم وفقا لرأى جمهور الفقهاء الشريعة مادام أن أساس الإعفاء هو رضا المجنى عليه . ولكننا إذا أمعنا النظر في بحث العلاقة بين الطبيب والمريض وجدنا أن هذا الشرط لا بد من توافره ، لأن الصلة بين الطبيب والمريض صلة عقدية يحكمها العقد الذي تم بينها ، والمريض في العادة يطلب من الطبيب أن يتولى علاجه ويترك له اختيار طريقة العلاج ، فإذا تجاوز هذا الغرض فإنه يعد مسؤولا عن أعماله التي ارتكبها خارج حدود العقد ، إلا أنه يجب أن نلاحظ أنه وفقا لرأى جمهور الفقهاء لا يسأل الطبيب ولو لم يكن يقصد العلاج ما دام المريض قابلا لذلك . والرأى الذي نقول به كفيل بالعقاب في مثل هذه الحالات .

(١) ونحن لا نسلم بما يقول به جمهور الفقهاء من أن الرضا بالقتل أو الجرح يسقط القصاص ،

من هدى الإسلام :

من أين لك هذا ؟

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المنعم أحمد النمر
المدرس بمعهد القاهرة

يشعر الناس كبيرهم وصغيرهم أن المجتمع المصرى تسوه ظاهرة من أخطر الظواهر على حياة الأمم ، وتتسلط عليه علة من أكبر العلل الهدامة لكيان الشعوب ؛ تلك هى ظاهرة استغلال المراكز للارتفاع الشخصى والثراء . وقد طغت هذه الظاهرة واستشرت حتى كادت تجرف فى تيارها النفوس الشريفة ، وتسهم العقلية الجديدة . فهناك أناس خدعوا من حولهم بمظاهر الإخلاص والوطنية والغيرة على الصالح العام ، ولبسوا مسوح الزهد والقناعة حتى وثق الناس بهم ، ووصلوا بهذا الطريق الى المراكز التى يستطيعون فيها أن ينهضوا بالشعب ويقدموا له الدليل على صدق إخلاصهم ؛ ولكنهم بدل ذلك راحوا يستغلون غفلته ، ويسخرون مراكزهم للثراء ، ويتوصلون على حسابها الى المال الوفير ، ويصبحون بين يوم وليلة من ذوى الثروات الضخمة ، ويحسب الناس ويتساءلون : كم أخذ هذا ؟ وكم أنفق ؟ وماذا تبقى له بعد ذلك ؟ ! فيجدون أن الذى تبقى له أكثر مما أخذه !! فمن أين إذن أنفق عن بذخ ؟ ومن أين له كل هذا ؟ وسرت هذه الروح - روح استغلال المراكز للثراء - من الكبار للصغار ، ومن الرؤساء للبرءوسين ، حتى أصبح من الغريب أن نجد الموظف العفيف ، وصاحب المركز النزيه ؛ فصغار الموظفين والعمال الذين يتولون أعمالا تتبع لهم هذه الفرصة لا يمكن أن يتركوها تمر دون أن ينتفعوا ، حتى أصبح هذا عادة عنده ، كأنه لا يتقاضى من الدولة أجرا على عمله . وهؤلاء الذين ييدهم عقد الصفقات وإعطاء المشروعات

لا يمكن أن تفلت من أيديهم فرصة الانتفاع . والمتعمدون والمقاولون خير من يعرف هذا ويساعد عليه وإن كان يشكو منه . وأنا وأنت أيها القارئ نعرف هذا وتحدث عنه ، ونلجسه في العمارات الشاهقة ، والضياح الواسعة التي تقيم بنفسها الدليل القوي على اتهام أصحابها . ومع هذا كله يقف المجتمع وتقف الدولة بتشريعيها وقوانينها وسلطانها عاجزة عن محاسبة هؤلاء وسؤالهم : من أين لهم هذه الثروة المفاجئة ، وكيف هبطت عليهم ؟ فليس في القانون للآن مادة تبيح محاسبة المالك ، من أين ملك ؟ ولقد كان هذا العجز وهذا القصور سبباً في قوة شيوع هذه الظاهرة وسيطرتها على العقول سيطرة تنذر بالخطر ؛ فإن الدولة التي تفسد ذمم عمالها وخدامها ، ويذهب هباء نداء الواجب والضمير فيها ، دولة تحطم نفسها بنفسها ، وتقوض بنيانها بيد أبنائها ، وتعرف مقدما حكم التاريخ فيها مهما بلغت هذه الدولة من متانة البنيان ، وعظمة السلطان ، ونباهة الشأن ؛ فما بالنا بدولتنا الناشئة التي نريد أن نبني لها مجداً ونشيد لها نهضة ! .

ولقد دفعت الغيرة بعض الناس على أن يفكروا في قانون محاسبة الوزراء وغيرهم من الكبار ، ومع قصور هذا عن الغاية المرجوة والعلاج المنشود فإنه يسير متعثراً في الظلام ، لا يكاد يرى النور حتى ترده إلى الظلمات أباد لا تريد له الحياة .

ولقد واجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حالة فردية تشبه حالتنا التي نشكو منها الآن ، ولمس صورة من الصور الكثيرة التي تمر بنا ، وشعر عليه السلام بالخطر يهدد كيان الدولة الإسلامية الوليدة ، وينخر في عظام المجتمع الإسلامي وهو في بدء تكوينه ، فسارع عليه السلام ، وهو القائد الخبير والمربي الملمهم والمشرع الذي لا ينطق عن الهوى ؛ سارع إلى وضع علاج حازم حاسم كفيل بالقضاء على روح استغلال المراكز للانتفاع الشخصي وسد الباب في وجوه الطامعين ؛ وضع عليه السلام العلاج وسبقنا إليه بأربعة عشر قرناً ، ولا زلنا نحن ننشكو من فداحة الداء ، وفي أيدينا خير الدواء .

« روى البخاري في صحيحه عن أبي حميد الساعدي قال : « استعمل النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً من بني أسد على صدقات بني سليم ، فلما جاء إلى رسول الله

وحاسبه قال : هذا الذى لكم وهذه هدية أهديت لى ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فهلا جلست فى بيت أبيك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقاً ؟ ! ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المنبر فخطب الناس وحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فإنى أستعمل رجالا منكم على أمور مما ولانى الله فياقى أحدكم يتول : هذا لكم وهذه هدية أهديت لى فهلا جلس فى بيت أبيه وبيت أمه فينظر : أيهدى أم لا إن كان صادقاً ! فوالله لا يأخذ أحدكم منها شيئاً بغير حقه إلا جاء الله يحمله على رقبته يوم القيامة ، إن كان بعيراً له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تبعر ، ثم رفع عليه السلام يديه حتى رأينا بياض إبطيه وقال : ألا هل بلغت ، ألا هل بلغت ، ألا هل بلغت ! .. !

وهذا الحكم وهذا القرار يتقرر مصير هذا الكسب الذى وصل الى يد هذا الرجل ويصل الى يد أمثاله من بعده الى يوم القيامة ، ويتبين حكم الإسلام فيه . فهذا رجل من الذى ولاّهم عليه الصلاة والسلام جباية الصدقات وتحصيل الضرائب من بنى سليم ، ذهب إليهم نائبا عن رسول الله وممثلاً لبيت المال ليتلقى من مواشيهم زكاتها المفروضة ، وقد رجع الى الرسول بالزكاة التى حصلها ومعه شيء خاص به ، هدية أهداها القوم له وخصوه بها ، وجاء الى رسول الله ولم يخفها عنه ، بل صارحه بها ظاناً أن ذلك مما لا يتنافى مع مهمته ، ولا يتعارض مع وظيفته ، ولا يغضب رسول الله ، ما دامت هدية صادرة عن رضا واختيار ؛ ولكن كيف يتغاضى الرسول وهو الذى يضع الأسس والمبادئ لسعادة الشعوب ورقها وصيانة نظمها ، وسلامة أوضاعها ! أليست هذه الهدية مما يؤثر فى عمل الموظف ؟ أليست مالا أخذه بسلطان عمله ، وطمعاً فى رحابة صدره وتنازله عن بعض واجباته ، وتساهله معهم فى أية ناحية من النواحي تجر عليهم كسباً وفائدة ، وتعود على الدولة بالخسارة مهما كانت صغيرة أو كبيرة ؟ ! وقد قدر الرسول هذه النواحي — وهو خير من يتقدر — فكان غضبه شديداً . انظر معى إلى قوله لعامله يؤنبه ويبين له خطأه — مع أنه كما يفهم كان عن حسن نية — « هلا جلست فى بيت أبيك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك » أرايت تأنيباً مع توجيه ، وتقريعاً مع تشريع ، أشد من هذا وأوجع ؟ !

ولم يدع رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الحادثة تمر دون أن يعلق عليها ويضع بسببها مبدءاً عاماً يبقى من بعده نبراساً وهدى للعالمين ، وشفاء لجراحات المجتمع وسداً لأطماع الطامعين ، فقام رسول الله إلى المنبر — كشأنه في كل أمر خطير ذى بال — ووجه إلى أصحابه الكلام ، ولم يرد أن يحبه صاحب الحادثة ، فلم يصرح باسمه في كلامه إبقاء على ما في نفسه من خير وتقدير أحسن النية في احتفائه بهديته ؛ وهذا من كمال أدبه وعالي إدراكه ، عليه الصلاة والسلام .

لقد انتهن عليه السلام هذه المناسبة لتوجيه أصحابه إلى الأوضاع السليمة التي يجب أن يكونوا عليها ، وإلى الأسس الفاضلة التي تكون المجتمع الإسلامي السليم ، فتكلم في غضب ظاهر ؛ ولكن في أدب كامل ، وبين الحكم ، ولم يترك بيان سببه وتوجيه الأنظار إلى علته ، فقال لأصحابه : كيف يستسيغ الواحد منكم وقد وليته عملاً عاماً أن يستغل سلطانه ووظيفته فيقبل الهدايا التي تقدم إليه من الناس ؟ هل يتصور الرجل منكم أنه كانت تأتيه هذه الهدايا لو كان شخصاً عادياً لا يرجي عطفه ولا تنتظر منه رعاية ومحابة في عمله ؟ لئن كان في شك من هذا فليجلس في بيت أبيه وأمه مجرداً من سلطان الوظيفة التي تجمع حوله آمال الطامعين فيه ، مجرداً من أمل الانتفاع من ورائه ، ولينظر هل يتقدم هؤلاء الناس له بالهدايا التي تقدموا بها إليه وهو في عمله ؟ إن هذه الهدايا ستقطع ولا شك عنه ، وسوف لا يظفر بها بحال ؛ فهي إذن مال أخذه بسيف الرغبة أو الرهبة ، وتحصل عليه بسلطان الدولة التي ليست ملكاً له ، فليس من الحلال أن يأخذه أو ينتفع به مهما صاحب هذا من مظاهر الرضا من الدافعين للهدايا ، فإن ما يمكن وراء هذه المظاهر من أغراض غير شريفة ليكنفي في ردها وفي تحريمها .

ويرى رسول الله عليه الصلاة والسلام أن الأمر خطير ، وأن الموضوع يستدعي التوكيد والتشديد لاتصاله بأسس المجتمع الإسلامي ، فيقسم - وإنه لقسم لو تعلمون عظيم - : والذي نفسي بيده لا يأخذ أحدكم من هذا المال شيئاً بهذا الأسلوب إلا لا تحمل وزره في الآخرة - بعد وزره في الدنيا - وفضحه الله على رءوس الأشهاد يوم القيامة ، وصور له إثمته في هذا اليوم صوراً من الهدايا التي قبلها تعلن عن إثمته وتبرهن أمامه وأمام الناس على جورته وظلمه . ثم يرفع الرسول

عليه السلام يديه في عناية واهتمام بالغين ، حتى يرى الصحابة بياض إبطيه ، ويتوجه الى الله يشهده على أنه قد أبرأ ذمته ونصح لأمته ، وبين هذا الامر الخطير وأعطاه ما يستحقه من توجيه ، ويعلن أنه بذلك قد بلغ الرسالة وأدى ما في عنقه من أمانة ، وعلى الناس أن يختاروا ، فمن اهتدى فلنفسه ، ومن عصى فليعاقب ، وما أنا عليكم بحفيظ .

هذا هو الهدى النبوى الكريم ، والتشريع الإسلامى الحكيم ، يريد الحاكم والعامل نظيفا في عمله نزيها في قصده ، عفا في تصرفاته ، بعيدا عن الشبهات ، لا يستحل إلا أجره ، ولا يستغل سلطانه ليملا خزائنه وجيبه ، ولا يقبل مالا جاءه طمعا في جاهه وسلطانه العاجل أو الآجل ، وبذلك تصان المصالح العامة ، وتسير الامور في مجراها الطبيعى ، لا يؤثر عليها حيف أو جور ، يصل كل إنسان الى حقه ، ويطمئن الى سلامة تصرفات حكامه ، ولا يظن بهم الظنون ، ولا تضع على الدولة حقوق ، ولا يستغل مرافقها أصحاب المصالح الشخصية ، ولا تخضع للتيارات والاهواء ، فتفقد التوازن ، ويختل دولاب العمل .

ألمست تحس أيها القارئ مع الشعب بفداحة الخطب الذى أصاب الدولة المصرية من سيطرة الشركات على مرافقها زمنا طويلا ، واستغلالها استغلالا يتجه كله الى مصلحة الشركة دون مراعاة مصالح الجمهور الذى يئن ويشكو ولا يجد من يحميه من عسف هذه الشركات الاجنبية واستهتارها ! . والذى مكن لهؤلاء الدخلاء من اللعب بمصالح الجمهور إنما هم بعض أبناء البلد الذين أنخمتم الشركات بعطاياها وهداياها وعضويات مجالسها .

إن الحديث النبوى الكريم الذى ذكرته ليضع الأساس لمحاسبة الوزراء والموظفين ومن يستغلون نفوذهم للثراء على حساب مصالح الشعب ، ويضع حدا للفوضى والارتباك ، ويقضى على روح الرشوة التى سيطرت على النفوس . وهو أساس وضعه الرسول منذ أربعة عشر قرنا ، وقبل أن تكون أوربا الحديثة التى نأخذ منها القوانين .

وستتابع البحث والكشف عن هذا المبدأ فى أعمال الخلفاء الذين تولوا سياسة المسلمين بعد الرسول عليه الصلاة والسلام .

ذكرى مرور خمسين سنة

الشيخ جمال الدين الافغانى

مصلح دينى وزعيم سياسى

لفضيلة الاستاذ محمود الشرقاوى

خرج جمال الدين من مصر أو أخرج منها بأمر من الخديو توفيق فى أواخر سنة ١٨٧٩ ، فقصده إلى الهند مرة أخرى وأقام فى حيدر آباد ، وفيها ألف كتابه « الرد على الدهريين » ، باللغة الفارسية ، وقد نقله الى العربية الشيخ محمد عبده فيما بعد .

ويقول مؤرخو جمال الدين فى إخراجه من مصر : إن توفيقا كان يقرب اليه جمال الدين ويعتز به قبل أن يلى عرش مصر ، وكان يعدّه إن هو ولى هذا العرش أن يؤيده فى إصلاحاته وأن يعينه على تحقيقها ، فلما ارتقى توفيق عرش مصر أخذ جمال الدين يستنجزه وعده ويستحثه ويلح فيه حتى ضاق توفيق ذرعاً به فنفاه . ويقول الشيخ رشيد فى تاريخ الاستاذ الامام : إن نشاط جمال الدين كان ينغص على انجلترا ، وكان قنصل انجلترا فى مصر غير راض عنه ، وإن الحكومة البريطانية سعت عند توفيق فى نفيه .

وعندما كان جمال الدين مقبياً فى حيدر آباد قامت الثورة العراقية ، وكانت الحكومة البريطانية تعتقد أن جميع الثورات والانقلابات التى تقوم فى الشرق أو فى بلاد الاسلام إنما هى من صنع جمال وتحريضه ، نفشيت منه فى هذه الثورة العراقية ، وأزمته الانتقال من حيدر آباد الى كلكتا ، وأقامت عليه الرقباء فيها .

فلما انتهت الفتنة العرابية باحتلال إنجلترا مصر، أبحاث له حكومة الهند مبارحة البلاد، فغادرها الى لندن، واستقر فيها أياماً، ثم تركها الى باريس .

ويقول واحد من مؤرخي جمال الدين : إنه قصد في هذا الوقت الى أميركا، ولأنه رغب في أن يتجنس بالجنسية الأميركية، ولكن هذه الرحلة وهذه الرغبة مشكوك فيهما جداً .

بقي جمال الدين في باريس ثلاث سنين، وكان في ذلك الوقت قد أحسن اللغة الفرنسية . أما العام الأول من هذه السنين فقد بقي فيه يكتب المقالات والفصول في الصحف الفرنسية، وكانت آراؤه التي يبديها في السياسة وفي الأمور العامة تلقى عناية كبيرة واهتماماً من الحكومات الأوروبية التي لها روابط بالبلاد الإسلامية .

وكان الشيخ محمد عبده في هذا الوقت نفسه مبعداً من مصر الى الشام بسبب الثورة العرابية، فبعث إليه جمال الدين أن يوافيه في باريس فوافاه إليها . ونظم السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده أمر إصدار مجلة إسلامية لنشر دعوتهما الإصلاحية ومحاربة الاستعمار الذي نكبت به البلاد الإسلامية، فأصدرا لهذا الغرض مجلة « العروة الوثقى » كان جمال الدين يدير سياستها العامة والشيخ عبده محرر فصولها، وأزججت هذه الصحيفة الحرة القوية، الحكومة الإنجليزية، بسبب عنفها في خصومة الاستعمار البريطاني، فحاربها حرباً عنيفة، ومنعت دخول أعدادها الى مصر والهند .

ولم تن الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية أيضاً في حرب هذه الصحيفة ولعناتها حتى لم يستطع الشيخان مولاة إصدارها، فتوقفت بعد أن أصدرا منها ثمانية عشر عدداً^(١) .

قصد جمال الدين بعد توقف « العروة الوثقى » عن الصدور إلى لندن، وتفاوض مع حكومتها في شؤون البلاد الإسلامية، وفي شؤون السودان خاصة

(١) صدر العدد الأول في ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ والأخير في ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤ وقد

أعيد طبع مقالاتها في القاهرة مرتين في سنة ١٩١٠ وسنة ١٩٢٨ .

حيث كانت ثورة المهدي ناشبة وقتذاك (سنة ١٨٨٥) . ثم انتقل بعد ذلك إلى روسيا القيصرية فأقام فيها أربع سنين بين موسكو وبطرس برج .
وفي سنة ١٨٨٩ كان شاه الفرس ناصر الدين يزور أوروبا ، وكان جمال الدين أيضا في ميونخ ، فتقابل ، ورغب الشاه إلى السيد أن يصحبه إلى إيران ، فلبى السيد الدعوة ، فلما ذهب إليها أكرمه الشاه وعينه وزيرا للحرب وقربه إليه ، ولكن الشاه أوجس بعد ذلك من جمال الدين ، حيث رأى حجة الناس له ، وشهد تأثيره في نفوسهم وقوة سلطانه عليهم جميعا . وأحس جمال الدين تغير الشاه عليه وتوجسه منه وخوفه ، فاستأذنه في الخروج ؛ ولكن الأمر فسد بين الشاه وبين جمال الدين قبل أن يخرج ، حتى احتفى جمال الدين بمقام الشاه عبد العظيم خوفا من بطش ناصر الدين ، وأقام في مقامه هذا سبعة أشهر حيث نال منه المرض ، ولم يجد ناصر الدين مندوحة من أن يجترأ على حرمة الشاه عبد العظيم فيهاجم في مقامه جمال الدين . وقبض على جمال الدين ثم أخرج وهو مريض إلى حدود الدولة العثمانية ؛ ولكن جمال الدين كان قد استطاع أن يؤلب الناس على الشاه ، وأن يكيد له ، وأن يجاهر بخلعه ودعوة الناس للخروج عليه ، فلم تمض على إخراجه من إيران خمس من السنين أو ست حتى قامت الثورة على ناصر الدين واغتاله واحد من الثائرين ، ثم قال في اعترافه : إن القتل بتحريض جمال الدين^(١) فلما طلبته حكومة إيران لمحاكمته رفض السلطان عبد الحميد تسليمه .

ولما أخرج من إيران قصد البصرة فأقام بها إلى أن زال عنه مرضه ، ثم سافر إلى لندن مرة أخرى ، ثم ترك لندن إلى الآستانة في سنة ١٨٩٣ .
في هذه الفترة التي قضها السيد في الآستانة رعاها السلطان عبد الحميد وأكرمه ، فخصص له قصراً منيفاً ، وأجرى عليه في كل شهر خمسا وسبعين ليرة عثمانية ، ولكن السيد كان في مقابل ذلك سجين السلطان وأسيره ، وبقي على هذا الحال حتى أصابه السرطان في فكه آخر سنة ١٨٩٦ ثم امتد إلى عنقه ، وبقي يتعرض حتى مات في يوم ٩ مارس من سنة ١٨٩٧ وقال بعض أصدقاء السيد : إن موته كان بتدبير عبد الحميد ، ثم دفن باحتفال مهيب في مقبرة المشايخ بالآستانة .

١- أخرج جمال الدين من إيران في أواخر سنة ١٨٩٠ أو أوائل السنة الثانية . وقتل الشاه ناصر الدين في سنة ١٨٩٦ بيد مرزافا الكرمانى .

ونحن نجد من هذه الترجمة القصيرة الموجزة لحياة السيد أن شخصيته كانت فريدة بين شخصيات هذا الشرق الإسلامي ، فهو رجل من رجال الدين ، ولكنه يدرس إلى جانب هذه العلوم الدينية علوم الطب والتشريح والرياضة ، وهو يعرف إلى جانب لغته الوطنية الأفغانية ولغته الثقافية « العربية » اللغة الفارسية والتركية وقليل من الإنجليزية ، ويحسن اللغة الفرنسية^(١) وكذلك نرى أن هذه الحياة التي عاشها السيد كانت حياة فريدة بين حيوات الرجال في هذا الشرق الإسلامي من هذا العهد ، فهو رجل دين ، ولكنه يشتغل بالسياسة العامة ، ويشغل بالحرب ، حتى نرى ناصر الدين شاه الفرس يجعله وزير حربه ، ويشغل بالسياسة الشعبية ، فهو شريك في التمديد للثورة العراقية في مصر ، ومحاول أن يستفيد من الثورة المهدية في السودان ، ومتهم بالاشتراك في حزب « تركيا الفتاة » بالأستانة ، ومؤسس وموجه لجمعية العروة الوثقى في مصر وغيرها من بلاد هذا الشرق الإسلامي ، وهو يشتغل أيضاً بهذه السياسة « الدبلوماسية » فيفاوض الإنجليز ويفاوض الروس في شؤون المسلمين جميعاً ، وهو يمتد عند توفيق أن يكون مصلحاً إذا ولي عرش مصر ويعاهده ، وهو يتخذ إلى جانب الدروس والشروح والمحاضرات وسيلة لم يتخذها رجال الدين من قبل .

فهو يجعل من الصحف ، أداة لدعوته السياسية والإصلاحية والدينية ، ويصدر في باريس مجلة « العروة الوثقى » ويكتب في صحف باريس مقالات تثير اهتمام الحكومات الأوروبية ، ويثير مع الكاتب الفرنسي الكبير « رينان » حواراً يشغل به المفكرين ، مدافعاً به عن الإسلام ، ومقررراً صلاحيته وقابليته للعلم ولما يستجد ويفيد من حياة المدنية الحديثة ؛ وهو رجل دين ، ولكنه رحب الفكر واسع الأفق غير متعصب لرأى ولا مذهب ؛ يعمل لوحدة الأمم الإسلامية الدينية كما يعمل لوحدة السياسية ؛ فقد روى مؤرخوه أنه سعى للتوفيق بين الشيعة وبين أهل السنة ، ورمى في سعيه هذا إلى هدف سياسي وهدف ديني معاً ؛ وهو فوق هذا كله عارم الطبع يسعى سعيه إلى أهدافه متخذاً كل سبيل حتى سبيل العنف ، فيكاد يكون من المؤكد أنه شريك أو محرض على قتل

(١) ص ٨ و ١١ من كتاب الإسلام والتجديد في مصر .

شاه الفرس ناصر الدين ، وأنه سعى في بلاد كثيرة من بلاد الإسلام إلى قلب نظم الحكم التي يرى فيها تعطيلاً للنهضة . ونسب إليه أنه كان يرى جواز خلع الأمراء المسلمين الذين يمالئون النفوذ الأوربي ويؤيدونه في بلادهم . وروى « براون » صديق جمال الدين أنه قال له « لا أمل في الإصلاح قبل قطع ستة رؤوس أو سبعة » ^(١) وأنه سمى من هذه الرؤوس شاه العجم وكبير وزرائه ، وكلاهما قتل . ويقول مستر « بلنت » إنه فكر في خلع خديو مصر أو التخلص منه ^(٢) لأنه اعتقد أن وجوده عائق عن الإصلاح .

ونرى من أخلاق جمال الدين هذه الحدة الصارمة التي جعلته يخاصم شيخ الإسلام في الاستانة ويطلب إليه أن يساجله علناً فيما يرى من رأى ، بل يطلب أن يحاكم شيخ الإسلام على أن تهجم على جمال الدين وسلط عليه الواعظين والصحف أن يسبوه وأن يهيموه بالإلحاد والزندقة . وقد انتهت هذه الحدة الصارمة وهذا اللجاج في خصومة شيخ الإسلام وحربه إلى أن يخرج جمال الدين من الاستانة كما رأينا من قبل . وكذلك نرى هذه الخلقة نفسها في علاقات السيد بشاه الفرس ، وبتوفيق ، وبالحكومة الهند وانجلترا ، وفي كل ما يتصل برأيه وجهاده .

وقد ألف جمال الدين كتابه « الرد على الدهريين » باللغة الفارسية حينما كان يقيم في الهند للمرة الثانية ، وقد كتب إليه صديق أن هذا المذهب الدهرى يجرى دعوة نشيطة إليه في هذه البلاد . وليس لهذا الكتاب قيمة كبيرة حتى إن كثيرين من مؤرخي جمال الدين وتلاميذه لا يذكرون نسبه إليه ، ولعله ألفه لغرض سياسي حيث نسب إلى حكومة الهند أنها تعين هؤلاء الداعين إلى المذهب الدهرى في الهند لتشغل الناس عن أمرهم وأمرها ، ولانصرف المسلمين في الهند عن دينهم .

أما مجلة « العروة الوثقى » فقد رأينا أن ما كتب فيها كان للشيخ الإمام محمد عبده ، وأن السيد كانت له إدارة سياستها . وكذلك محاضراته التي ألقاها في الاستانة وهو عضو في مجلس المعارف ليست لها قيمة كبيرة حتى تلك التي أثارها شيخ الإسلام حسن أفندى فهمي .

(١) ص ١٥ من كتاب الإسلام والتجد يد في مصر .

(٢) ص ١٥ من كتاب التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا مصر .

فليس لهذا الكتاب ولا لهذه المحاضرات من القيمة ما يبرر هذه المسكنة الرفيعة التي وصل إليها جمال الدين، ولا هذا الذكر الباقي له في تاريخ هذه النهضة الديفية السياسية للشرق الاسلامى .

فلم يبق إذن إلا أن يكون جمال الدين قد بلغ هذه المسكنة حياً وميتاً لذات نفسه وصفاته العظيمة الممتازة . هذه الشجاعة الأدبية والسعوط النفسية والسلطان فيما يعتقد الحق ، وهذا الإخلاص للبدأ والرأى والعقيدة ، والدؤوب فى السعى إلى تلك الغايات السكرىمة البعيدة التى قصدها جمال الدين وسعى إليها ، وكده وجهده ولقى فى سبيلها العنت والتشريد والنفى والتهمة والمرضى ؛ هذه الصفات وهذا الدؤوب والسكدح هما اللذان جعللا من السيد مصلحا دينياً وزعياً سياسياً كما وصفناه فى رأس هذين الفصلين ، وجهلت منه رائداً ، إماماً للشيخ محمد عبده ، ولذلك النفر القليل من المصلحين الذين لهم الفضل كله فى نهضة هذا الشرق الاسلامى العربى ، وفى هذه الثورة الفكرىة التى لم تحب نارها منذ أوروها .

* * *

يقول مستر « بلنت » فى كتابه الممتع « التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر » : إن جمال الدين هو أول من وجه الإصلاح الدينى فى العصر الأخير توجيهاً مشعراً ، ويرى « أن من أغرب ما يروى أن الفضل فى نشر هذا الإصلاح الدينى الحرب بين العلماء فى القاهرة لا يعود إلى عربى أو مصرى أو عثمانى ، ولكن إلى رجل عبقرى غريب يدعى السيد جمال الدين الأفغانى ، تلقى تربيته الدينية فى بخارى ، وبغير أن يتصل بأى أستاذ من الذين يعيشون فى مراكز الأنكار الاسلامية الراقية ، استنبط من درسه وتفكيره الآراء التى تعزى إليه اليوم ^(١) .

ثم يقول مستر « بلنت » إن دعوة جمال الدين تماثل « ما حدث من إحياء المسيحية بأوروبا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ^(٢) » .

(١) ص ٧٧ من التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر .

(٢) ص ٧٨ من التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر .

دراسات للشعر في العصر المملوكي

السراقات والمعاني التي توارد عليها الشعراء

لفضيلة الأستاذ الشيخ يوسف البيومي

المدرس بكلية اللغة العربية

ظاهرة أدبية من الوضوح بحيث لا تخفى على النظرة العابرة ، بله العين الناقدة ، يلحظها الدارس للشعر في هذا العصر : تلكم هي السرقة ، أو التزامح على المعنى الواحد .

ولا أحسب لهذا التزامح من سبب غير نقص الثقافة وقصر الخيال ، وجذب القريحة ، وما يستتبعه ذلك من بحث عن أسباب للتفوق والإجادة قد يجدها الشاعر في الصنعة اللفظية والحلية البديعية حيناً ، وقد يجدها في توليد المعاني التي سبقه إليها غيره بالزيادة أو النقص أو النقل أحياناً ، وقد يجدها في غير هذا مما يدق من ألوان السرقات حتى يكاد يخفى إلا على الناقد البصير .

وهكذا شاعت السرقة — كما شاع التقليد — في المعاني والأخيلة ، حتى تعدت الأموات إلى الأحياء .

فما يكاد الشاعر يُغير على معنى قديم فيجمله بحلية من حلي البديع ، أو يخفيه — وكثيراً ما يكون ذلك — في ثوب من أثواب التورية ، حتى تتلفه أيدي الشعراء بالصقل والتهذيب ، والزيادة والنقص ، وكل يحاول أن يختص به بما يلبسه من ثياب الصنعة والزخرف البديعي .

ومن العجيب أن الشعراء لم يجدوا في نفوسهم من ذلك غضاضة ، ولم يشعروا بشيء يمس كرامتهم شعراء يحسون الجمال فيعبرون عنه ، ويشعرون بالحياة فيحسنون تصوير هذا الشعور ، بل إن منهم من صرح بالسرقة في شعره ؛ فهذا ابن الوردي ، وهو شاعر مجيد ، يعلن في جراءة غريبة أنه يسرق ما أراد من المعاني ، ويعلل ذلك أو يعتذر عنه بما يذكر في هذه الآيات :

وأسرق ما أردت من المعاني فإن فقت القديم حمدت سيرى
ولم ساويته نظماً فحسبى مساواة القديم وذا لخيرى
ولم كان القديم أنم معنى فمذا مبلغى ومطار طيرى
ولم الدرهم المضروب باسمى أحب إلى من دينار غيرى
وما ظنك بتوم بلغ من فقرهم فى المعانى ونضوب قرائحهم ولأجذاب أخيلهم
أن يمدحوا بالقصيدة الواحدة أكثر من واحد ؟ !
حكوا أن « عويس العالية »^(١) كان يفعل ذلك ، فلما عوقب على صنيعه قال :
« هن أبكار أفكارى أزوجهن من شئت » .

ما ظنك بتوم هذه حالهم ؟ وما تظنهم فاعلين أمام هذا القصور الفاضح
والعجز الشائن ؟ ! إنهم لا بد لاجئون إلى معانى السابطين يسرقونها سرقة مستترة
بالتورية حيناً ، وسافرة فى أثوابها التى سرقت فيها نفسها فى كثير من الأحيان .
وأخيراً أدت المنافسة التى كانت سوقها قائمة فى هذا العصر بين شعراء مصر
والشام ، إلى سرقة هؤلاء من أولئك ، وأولئك من هؤلاء .

حكوا أن جمال الدين بن نباتة كان يخترع المعنى الذى لم يسبق إليه ويمكنه
بيتاً عامراً من أبياته . فيغير عليه صلاح الدين الصفدى^(٢) حتى اضطر ابن نباتة
إلى أن يؤلف كتابه (خبز الشعير) يكشف به أمر هذه السرقة .

قال ابن حجة وهو يتكلم على براعة الاستهلال :

وأما براعة الشيخ جمال الدين بن نباتة فى خطبة كتابه المسمى (خبز الشعير)
فأنها خاص الخاص ، ولا بد من مقدمة تكون هى النتيجة الموجبة لتسمية هذا

(١) هو (عويس بن حجاج بن سلال) الأديب شرف الدين السعدى المعروف بعويس تصغير
عيسى . العالية فى الشطرنج شاعر اشتهر فى الموالي ثم نظم العشر وعرف طرفاً من اللغة وشارك فى غيرها
ولد سنة ٧٣٠ هـ وتوفى سنة ٨٠٧ هـ

(٢) هو صلاح الدين (خليل بن أريك) الصفدى الأهل الدمشقى البار ، من صدور العلماء
وقول شعراء زمانه ومتقدي كتابه ، تولى كتابة الانشاء بمصر والشام ، وله عدة مؤلفات أشهرها
وأعظمها (الوافى بألوانيات) كتاب تراجم يقع فى أكثر من ستين مجلداً يوجد منه سبعة عشر مجلداً
مخطوطاً بدار الكتب الملكية ، وله (أعيان العصر) و (جناس الجناس) وعلق شرحاً على لامية العجم
توفى سنة ٧٦٤ هـ .

الكتاب بخبز الشعير فإنه مأكول مذموم ، وما ذاك إلا أنه كان يخترع المعنى الذى لم يسبق إليه ويسكنه بيتا من أبياته العامرة بالحاسن ، فيأخذه الشيخ صلاح الدين الصفدى بلفظه ولا يغير فيه غير البحر ، وربما عام فى بحر طويل يفتقر إلى كثرة الحشو ، واستعمال مالا يلائم ، فلم يسع الشيخ جمال الدين إلا أن جمعه من نظمه ونظم الشيخ صلاح الدين ، واستهل خطبته — وهذا مكان الاستشهاد لبراعة الاستهلال — بقوله تعالى « رب اغفرلى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا . » ورتب كتابه المذكور على قوله : قلت أنا ، فأخذه الشيخ صلاح وقال .

ثم ذكر ابن حجة أمثلة كثيرة لذلك فى خزانة الأدب ، نذكر منها بعضا مع تعليق ابن حجة ، ليكون ذلك درسا للون من ألوان النقد فى هذا العصر .
فمن ذلك قول الشيخ جمال الدين : قلت :

ومولع بفخاخ يمدّها وشراك
قالت لى العين : ماذا يصيد ؟ قلت : كراكى^(١)

فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال :

أغار على سرح الكرى عندما رى الـ كراكى غزال للبدور يحاكي
فقلت ارجعى يا عين عن ورد حسنه ألم تنظريه كيف صاد كراكى
قال ابن حجة : وأحسن ما وقع فى هذا الباب للشيخ جمال الدين أنه قال :
بروحى عاطر الأنفاس أسمى ملئ الحسن خالى الوجنتين
له خالان فى دينار خد تباع له القلوب بحبتين
فأخذه الصفدى وقال :

بروحى خده المحمر أضحت عليه شامة شرط المحبة
كأن الحسن يعشقه قديما فنقطه بدينار وحبه

فلما وقف الشيخ جمال الدين على هذين البيتين قال : لا إله إلا الله ، الشيخ صلاح الدين سرق - كما يقال - من الحبطين حبة .

(١) فى لفظ (كراكى) تورية ؛ المعنى القريب جمع (كركى)

وبعد أن ذكر ابن حجة عدة أمثلة قال : قال الشيخ جمال الدين وأجاد الى الغاية :

فديتك أيها الراى بهـوس ولحظ يا ضنى قلبى عليه
لقوسك نحو حاجبك انجذاب وشبه الشيء منجذب اليه
فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال :

تشرط من أحب فذبت وجدا فقال وقد رأى جزعى عليه
عقيق دى جرى فأصاب خدى وشبه الشيء منجذب اليه
ثم قال ابن حجة يوازن بين المقطوعتين وهو لون من ألوان نقده :

وما أظن الشيخ صلاح الدين - غفر الله له - لما سمع ما قال الشيخ جمال الدين ونظم بعده هذين البيتين ، كان فى حين الاعتدال ؛ وأين انجذاب القوس الى الحاجب من انجذاب الدم الى الخد ؟ ! وليته - يعنى ابن نباتة - فى براعة استهلاله بقوله : رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا ، قال بعدها : اللهم ومن دخل بيتى كافرا بفوائد المنعمة ، وبيت شعرى سارقا من ألفاظه ومعانيه المحكمة ، فاحجله فى سره وعلا نيته ، وعاقبه على قوله ونيته !

وإنه وإن كان الصفدى قد أغار على معانى ابن نباتة ، قد سنّ ابن نباتة هذه السنة وسلك تلك الطريق من قبل ، فأغار على معانى (الوداعى) ^(١) الذى يذكرون أنه « سبك التورية فى قوالب لم يسبقه أحد إليها ، ولا سقط فكره عليها » ^(٢) ، فثل لنا بهذا سرقة المصريين من الشاميين ، كما مثل لنا الصفدى إغارة الشاميين على معانى المصريين .

فن مؤائد الوداعى التى تطفل ابن نباتة عليها قوله من قصيدة :

أثخنت عينها الجراح ولا إثم م عليها لأنها نعساء
زاد فى عشقها جنونى فقالوا : ما بهذا ؟ قلت : بى سوراء

(١) هو الأديب الشاعر (علاء الدين على بن المظفر بن إبراهيم بن عمر) الكندى الوداعى ، تولى عدة ولايات وكتب ديوان الاقشاش بدمشق ، ولد سنة ٦٤٠ هـ وتوفى سنة ٧١٦ هـ .

(١) ابن تغرى بردى بالمثل الصافى فى ترجمة الوداعى .

(٢) هو القاضي الفاضل أبو على عبد الرحيم بن على بن الحسن اللخمي اليسافى ثم العسقلانى ثم المصرى محي الدين ، وقيل مجير الدين الوزير صاحب ديوان الانشاء وشيخ البلاغة ، ولد سنة ٥٢٩ هـ وقيل إن مسودات رسائله لو جمعت بلغت مائة مجلد . توفى سنة ٥٩٦ هـ . حسن المحاضرة .

أخذه ابن نباتة فقال وهو مطلع قصيدة :

قام يرنو بمقلة كحلاء علمتني الجنون بالسوداء
وقال الوداعي :

إذا رأيت عارضا مسلسلا في وجنة كجنة يا عاذلي
فاعلم يقينا أتى من أمة تقاد للجنة بالسلاسل

أخذه الشيخ جمال الدين وزناً وقافية وقال :

أفدى التي ساق إليها مهجتي فرع طويل تحت حسن طائل
قلبي بصدغيها إلى طلعتها يقاد للجنة بالسلاسل
وقال الوداعي من قصيد :

يفتن بالفاتر من طرفه وريقه البارد يا حار
أخذه ابن نباتة وقال من قصيد :

لو ذقت برد رضاب من مقبله يا حار ما لمت أعضائي التي ثملت
قال ابن حجة : مع أن الشيخ جمال الدين فتر عن الفاتر ، يقصد الفاتر من
طرف المحبوب في بيت الوداعي .

وقد ذكر ابن حجة الكثير من تطفل ابن نباتة على الوداعي بالخزانة ولأنه
ليخيل إلى من يقرأ أكل هذه السرقات التي سرقها ابن نباتة من الوداعي ، والتي
عرضنا لبعضها ، والتي سرقها من غيره مما تزخر به كتب الأدب ، أن هذا الشاعر
الذي سارت ملوك الأدب قاطبة بعد الفاضل خلف ركبته وتحت لوائه - لم يأت
في شعره بجديد . وإذا كانت هذه هي حال الملوك فما هي إذن حال الوزراء والأمراء
ورجال الحاشية ؟ بل ما هي حال الرعايا والسوقة ؟ ! إنها حال مزرية حقاً ،
مزرية بقدر الشعر وبكرامة الشعراء ، أن يغيروا هذه الإغارات الفاحشة على
بضاعة الأحياء بعد تقليدهم التقليد ^(١) الفاضح الشأن لطرائق القدماء ؟

(١) ربما عرضنا لدراسة هذا التقليد في مبحث عام .

بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتَاوَى

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الازهر الاستفتاء الآتى :

- ١ — يحلف غالب الزراع بالطلاق خارج المنزل أثناء العمل بالحقل أنه لا يفعل كذا ثم يفعله ؛ هل يقع أم لا ؟
 - ٢ — التغنى والترنم بالأذان والصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم عقبه بالتغنى جهرا كما يفعله غالب المؤذنين ؛ هل ذلك جائز أم لا ؟
 - ٣ — ما حكم الجهر فى المسجد بتسبيح أو قراءة قرآن خصوصا سورة الكهف يوم الجمعة ؟ كما أن غالب المقرئين لا يقرءونها بل يقرءون مريم ، طه ، الضحى ، هل هذا جائز أم لا ؟
- أبو الفتوح السيد

الجواب :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .
أما بعد : فتفيد اللجنة بما يأتى :

عن السؤال الأول :

إن الصيغة التى تجرى على السنة العامة مما هو مذكور بالسؤال ، من قبيل الطلاق المعلق الذى لا يقع بوجود المعلق عليه إذا كان قصد الخالف مجرد الحمل على فعل شيء أو تركه . وظاهر أن العامة لا يقصدون بهذه الايمان إلا مجرد الحمل على فعل شيء أو تركه ، فلا يقع بها طلاق . وهذا على ما ذهب اليه بعض العلماء ، وجرى عليه قانون المحاكم الشرعية ، وهو ما تفتى به اللجنة .

عن السؤال الثانى :

لأنه لا يجوز التغنى بالأذان تغنيا يغير كلماته بزيادة حركة أو زيادة حرف أو مد أو غيرها فى الأوائل أو الأواخر . أما التغنى بلا تغيير لحسن ، لأن تحسين الصوت مطلوب .

وأما الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم عقب الأذان فهي زيادة على الأذان المشروع ؛ ولم تكن في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولا في عهد الصحابة والسلف ، رضوان الله عليهم أجمعين . ولا ينبغي لمسلم أن يغير ما كان عليه الرسول وأصحابه ومن تبعهم بإحسان في العبادات التي منها الأذان ، لا بزيادة ولا بنقص ولا بغيرهما ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » .

هذا وقراءة سورة الكهف كما هو معهود الآن في المسجد يوم الجمعة بصوت مرتفع قبل صلاة الجمعة ، بدعة مستحدثة ، لم تعرف في عهد الرسول عليه السلام ولا في زمن الصحابة والسلف الصالح . ويظن العامة أن قراءتها بهذه الكيفية وفي ذلك الوقت من شعائر الإسلام فهي مكروهة ، لا سيما أن قراءتها على هذا الوجه تحدث تشويشا على المصلين . وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يصلون ويجهرون بالقراءة فقال : « أيها الناس ! كلكم يناجي ربه ، فلا يجهر بعضهم على بعض » . وكذلك الحكم في قراءة غير سورة الكهف من القرآن ، وفي الجهر بالتسبيح أو التهليل ، مما يحدث تشويشا على المصلين . بل نص بعض علماء المالكية على أن ذلك إذا أحدث تشويشا كان حراما .

أما الجهر بالذكر عقب انتهاء الإمام من الصلاة المفروضة ، فقد صح عن ابن عباس أن رفع الصوت به كان على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم حتى قال ابن عباس « ما كنت أعرف انقضاء صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بالتكبير » . وهذا واضح في مشروعية الجهر بالذكر في هذا المقام .

وحمل الإمام الشافعي رحمه الله ما صح عن ابن عباس على أنه كان يتقصد التعليم . والظاهر الإطلاق ، سواء قصد به التعليم أم لا . ولكن بشرط ألا يحدث بذلك تشويش على من يكون في الصلاة . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

عبد المجيد سليم

من تاريخ الحضارة الإسلامية :

عباس بن فرناس

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد المنعم خفاجي

« عبقرية الفكر الإسلامي ، ومفخرة الشرق
السائرة ، وحديث الإنسانية الأولى ، وأول
طيار ركب متن الهواء » .

١ — يؤمن كثير من الناس بأن الشرق موطن الخيال ، ووادي الأحلام
والسحر ؛ وأن الفكر الإسلامي من نبتة الفكر السامي ، فيه اضطراب الفكرة ،
والعجز عن إدراك الحقيقة في جوهرها ، والتنوع بالبحث في حواشها ومظاهرها .
ويقولون إن الحضارة الإسلامية حضارة عقيمة ، لم تُسدِّ للإنسانية يداً ،
ولم ينوِّ بحملٍ منها جيد . فالجمل هو الجمل ، مركب البداوة ، ومطية الحضارة
الإسلامية ؛ والمصباح هو المصباح ، زيت وفتيل ؛ استضاء به المسلمون في أزهى
عصورهم ، كما استعمله الإنسان منذ فجر عصور التاريخ . والماء هو الماء ،
تجرى به الأنهار ، وتغصُّ به الأودية ، ويحملة المسلمون على ظهورهم وفوق
متون رواحلهم كما كان يصنع القدماء . والفنُّ هو الفن ، لم تنبغ فيه في الإسلام
يد صناع ، ولا روح ملهم ، ولا عبقرية خالدة ؛ وأين لنا في الفن الإسلامي
ما نفاخر به معابد أثينا ، وصروح روما ، وفن الأكاسرة ، وأهرام الفراعين ؟
والعلم هو العلم ، كما خلفته مدارس الإغريق ، ومعاهد الرومان وجامعات
الاسكندرية وجنديسابور وحرَّان ونصيبين .

ونقول لهؤلاء الشاكين : رويدكم ، رويدكم ! لقد عافت الحضارة الإسلامية
ركوب الجمل ، لحاوات تذليل الهواء ، وأنفتحت من هذا النبراس الضئيل ، فتخذت
الثرثريات المشرقة في القصور والمساجد وعلى حفاقي الشوارع والميادين . وأبت
أن تعيش في نصيب البداوة ، فأدخلت الماء العذب في أنابيب الرصاص إلى

القصور والحمامات والرياض ، وفجرت من ثغور التماثيل الفنية الرائعة المصنوعة من « الذهب الأبريز ، والفضة الخالصة ، والنحاس المموه ، » وأجرته الى البحيرات الهائلة ، والبرك البديعة ، والصهاريج الجميلة ، في أحواض الرخام المرمرية المنقوشة العجيبة . والفن الاسلامي أمامكم فانظروه : في آثار بغداد وقرطبة والقاهرة ودمشق وسواها ، وفي قصور الزهراء والحراء ، ومساجد الشرق العظيمة الشاحخة التي تسخر بالزمن وتبسم في وجوه الأيام ، وإذا لم يسعدكم الوقت والحظ بالاطلاع على التراث العلمي المجيد الذي خلفه رجال الفكر الاسلامي ، فاقروا ما يكتبه عنه المنصفون من الشرقيين والغربيين . والنهضة الاسلامية في الاقتصاد والزراعة والصناعة والتجارة ، وفي الإدارة والسياسة ، والطب والعلاج ، وفي جميع ميادين النشاط الانساني ؛ لا تتعجلوا بالحكم عليها قبل أن تتعرفوا مدى ما وصلت اليه من عبقرية وقوة ومدنية .

فليتهد هؤلاء في الحكم على حضارة أظلت العالم أحقاباً طوالاً ، ونقلت جميع الحضارات القديمة - بعد أن هضمتها وهذبتها ووجهتها توجيهاً جديداً - الى العالم في أول عصر النهضة الحديثة ، وكانت السبب المباشر في قيام الحضارة الاوربية التي نضيء نورها الدنيا الآن .

هذه نظرات عابرة أكتبها تمهيداً لبحثي عن أبي القاسم « عباس بن فرناس » ، مفخرة الشرق ، والمفكر العظيم الذي رددت ذكره الأجيال .

٢ - نشأ « عباس » في بلاد الاندلس في أوائل القرن الثالث الهجري ؛ والدولة للأمويين أحفاد الداخل البطل الأموي الكبير .

وكان لا بد له - ككل شاب طامح - أن يرد مناهل العلم ، ويندب فكره وعمله بالثقافة الإسلامية في مساجد قرطبة ودور العلم فيها ؛ فتتلذذ على رجال العلم ثم أعلام الفلسفة الذين كانوا يفكرون ويبحثون ويستنبطون في خفية بعيداً عن عيون الناس والجمهور ممن لا يستسيغون التفكير الحر ولا يشجعون عليه .

ثم خرج « عباس » الى الحياة العامة ، شاباً ثائر الفكر ، متأجج الغزيرة ، مشتعل الذكاء ؛ لا يريد أن يفكر كما يفكر الناس ، ولا أن يعيش كما يعيشون ، ولا أن يُعنى بما يعنون به ؛ بل أراد أن يفكر كما يجب أن يفكر ، وأن يستنبط ويخترع ويحدد

كما شاء له عقله وقواه الفكرية السكامة فيه . ولم تكن آمال « ابن فرناس » وأفكاره من خيالات الشباب وأكاذيب النفس ، بل كانت مظهراً لعقلية مبدعة ، وتفكير سليم .

٣ — وبعد قليل تمكن هذا الذهن الحاد القوي من استنباط طريقة لصنع الزجاج من الحجارة ، فكان أول مبتكر لهذه الطريقة الجديدة ، التي نسير على أثرها في شيء من التجديد والدقة والسرعة .

ثم أخذت نفسه تحدّثه : كيف نعيش دون التفكير في اختراع شيء جديد يعرف به حساب الدقائق والساعات والأيام ؟ إن اخترع الشرق الساعات المائية ، فليخترع هو ما تفخر به الأندلس والأندلسيون ؛ وفعلّا ثم له ما أراد ، فاخترع آلهة البديعة « المنقالة » التي صنعها على غير مثال لمعرفة الأوقات .

٤ — وحول « ابن فرناس » فكره من جديد إلى مملكة النصور .

أيظل هذا الأفق الفسيح ، والجو الرحب ، ميداناً للطيور ترفرف بأجنحتها فيه ، ناعمة بجباله ؟ ولم لا يشاركها فيه الإنسان ؟

هذه الطيور ، أليست تطير بجناحين ، يساعدهما ريش كثيف ، فلم لا يكون لابن فرناس جناحان ممدودان وريش منتشر على جسده ليطير كما تطير النصور في الهواء ؟

وأخذ يكو نفسه بالريش ويمدّ له جناحين ، ثم كان يوم المحاولة الخطيرة الفريدة ، التي هي أول محاولة بشرية للطيران ؛ فاجتمع الناس من كل حدب ، ليروا هذا الرجل كيف يفتح هذه الآفاق الجديدة أمام الإنسان .

وحرك عباس جناحيه ، ونشر ريشه ، وأخذ يداعب الهواء ؛ فارتفع في الجو ، وطار مسافة بعيدة ، والناس في أماكنهم ينظرون ويعجبون ويسخرون . ثم كان لابد لهذا الطائر أن يهبط إلى الأرض ، فهبط رويداً رويداً ، حتى قرب منها ، فلم يستطع حفظ توازنه ، فسقط مصاباً برضوض في جسده .

لقد نظر « ابن فرناس » إلى جناحي الطائر وريشه ، فأمن بأنهما وسيلته في الطيران ، ولم ينظر إلى ذيله ليعرف مدى مساعدته له في طيرانه وحفظ

توازنه وحين هبوطه الى الارض ؛ فلم يصنع له ذيلا كما صنع ريشا وجناحين ، فأصابت التجربة بإخفاق ما كان أجدر « ابن فرناس » أن يتلافى سببه .

عجب الناس ، وسخروا من « عباس » ، وهزئوا به ، ونظم الشعراء الشعر في السخرية والتندر عليه . وهكذا شأن العبقرين في كل جيل ، يسبقون زمنهم فلا يفهمهم الناس ولا يفهمونهم ، بل ويعادونهم عداً شديداً .

قد يكون نقد الناس وسخريتهم سبباً لإحجامه عن إعادة التجربة من جديد ، وقد يكون الباعث على ذلك جهله بسبب إخفاقه في محاولته الأولى وخوفه على نفسه أن تلاقى صدمات جديدة ، وقد يكون الصارف له ما أصيب به من جروح دامية أثرت في صحته .

وعلى أى فرض ، فما كان أقرب « ابن فرناس » إلى الظفر بأمنيته ، وإلى غزو هذا الأفق الجديد وتسخيرها للناس . ولو فعل ذلك لانقلبت الحياة ، وتغير مجرى الحضارة ، ولسجلت الحياة لعباس بن فرناس هذا النصر الذى سجلته بعد أكثر من عشرة قرون « للأخوين رايت » .

ه — لم يسكن هذا الفكر النائر ، والعقل الجبار . بل أخذ يعمل ويتسكر ، حتى تمكن من وضع صورة في بيته ، تمثل هيمة السماء ، يخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والرياح والبروق ؛ فعجب منه بعض الناس ، وسخر به الآخرون . ويقول فيه مؤمن بن سعيد الشاعر الأندلسي :

سما عباس الأديب أبى ا لقاسم ناهيك حسن رائقها

... ..

وهكذا قضى « ابن فرناس » حياته في تجديد وابتكار ، في سبيل خدمة الحضارة ، والرقى بالحياة الإسلامية في عصره .

٦ — وكان مع هذا موسقياً بارعاً ، يعد أول من فك كتاب بطليموس في الموسيقى والألحان ، وأول من فك من الأندلسيين كتاب العروض للخليل ابن أحمد .

٧ - وهو مع هذا النبوغ شاعر أديب ؛ اتصل بالأمير الأموى حاكم
الاندلس محمد بن عبد الرحمن ، الذى اعتلى عرش البلاد من ٢٣٨ هـ الى ٢٧٣ هـ ؛
فكان له عنده مقام نبيل ، ومدحه بتصانيد أدبية كثيرة :
أنشد الأمير محمدًا من أبيات :

رأيت أمير المؤمنين محمدًا وفى وجهه بذر المحبة يثمر
فقدته مؤمن بن سعيد ، وعابه أن جعل وجه الأمير أرضا تغرس فيها البذور .
وخرج أهل طليطلة حوالى عام ٢٤٠ هـ على الأمير محمد واستعانوا بالافرنج ،
فخرج إليهم بجيوشه وهزمهم وهدم قنطرة مدينتهم ؛ وفى ذلك يقول ابن فرناس :
أضحت طليطلة معطلة من أهلها فى قبضة الصقر
تركت بلا أهل تؤهلها مهجورة الأكناف كالقبر
ما كان يبق الله قنطرة نصبت لجل كتائب الكفر
وغنى ابن زرياب بعض الرؤساء ، وعباس بن فرناس حاضر معه ، هذين
البيتين :

ولولم يشقنى الظاعنون لشاقى حمام تداعت فى الديار وقوع
تداعين فاستبكين من كان ذاهوى نوائح ما تجرى لهن دموع
فذللهما « عباس » يمدح هذا الرئيس وكان اسمه محموداً :
شدت بمحمود يدى حين خانها زمان لأسباب الرجاء قطوع
بنى لمساعى الجود والمجد قبلة إليها جميع الأجودين ركوع
فأجزل له العطاء « وأسنى له المكافأة :

ويعد ابن فرناس من أوائل من اخترعوا فن الموشحات ، وله القليل منها ،
مما بقى من أدبه محفوظا فى كتب الأدب الأندلسى ومصادره .

٨ - وبعد فهذه صورة مصغرة لهذا الرجل ، الذى لقب بحق حكيم الأندلس ،
والذى شغل الفكر الأندلسى حيا وميتا ، وكان أول من فكر فى الطيران ، والذى
مضى على وفاته أحد عشر قرنا من الزمان أو يزيد . وكما أود أن أعاود الكتابة
عنه مرة أخرى ؟

المبادئ الاشتراكية في الاسلام

لحضرة الأستاذ سعيد زايد

يتحدث الشرق اليوم عن الاشتراكية جهارا نهارا بعد أن كان يتحدث عنها بين أروقة جدران كشيعة، والفضل في ذلك يرجع إلى الحرب الأخيرة وما صححته عن موقف الاشتراكية حيال نظام المجتمعات، وعن الغاية التي ترمى إليها.

والمذهب الاشتراكي كأى مذهب اقتصادى يضع أسسا جديدة يسير عليها المجتمع. وكأى مذهب على ازدهر في ربوع الغرب، ثم انتقل إلى الشرق فوجد مؤيدين ومعارضين، أقول إن المذهب الاشتراكي وجد عند الشرقيين كما هي العادة عندهم من يعقد المقارنة بينه وبين النظم الاسلامية، ويبين موقف الإسلام منه، ومدى اتفاق الاشتراكية مع روح الدين وجوهره، بل إن منهم من قال إن النظام الاشتراكي موجود في الشريعة وفي النظم الاسلامية بخلافه، ومنهم من قال بعكس ذلك؛ وظلت هذه الأقوال تتأرجح تارة نحو اليمين وتارة نحو اليسار، إلى أن أدلى صاحب القول الفصل في مسائل الإسلام برأيه في هذا الموضوع (١) ولأول مرة رأيت مجلة الأزهر تنشر مقالا بعنوان «الإسلام والاشتراكية» فوددت أن أشارك برأى في هذا الموضوع بنشر بحث صغير على هامش رسالتي الجامعية، ولعلى أكون بنشره قد وضعت في بناء العلم لبنة.

نبذة تاريخية

ولدت الاشتراكية يوم أن ولدت الرأسمالية، دون أن تسمى باسمها، ولم يحس بها الناس إلا يوم أن اصطدمت حاجات الإنسان مع المصلحة الرأسمالية، ولقد كانت هذه الاصطدامات منذ العصور الأولى للتاريخ، فأراد البعض أن يحقق رغبة في المساواة بين الأفراد. ويكفى أن نذكر آيتين من كتاب أعمال الرسل

(١) إشارة إلى حديث فضيلة الأستاذ الأكبر لسعادة وزير الحمر المفوض في مصر، وتعليق سعادة الأستاذ الجليل مدير المجلة عليه في المجلد التاسع عشر عنه ١٣٦٧ العدد السابع.

لبولس الرسول لنعرف أن العالم قد حقق معنى الاشتراكية قبل ميلاد المسيح يمترون . ففي الإصحاح الثاني يقول « وكانت عجائب وآيات تجري على أيدي الرسل ، وجميع الذين آمنوا كانوا معاً ، وكان عندهم كل شيء مشتركاً ، والأملاك والممتلكات كانوا يبيعونها ويتسمونها بين الجميع ، كما يكون لكل واحد احتياج » . وفي الإصحاح الرابع يقول « وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة ، ولم يكن أحد يقول إن شيئاً من أمواله له بل كان عندهم كل شيء مشتركاً ، وبقوة عظيمة كان الرسل يؤدون الشهادة بقيام الرب يسوع ، ونعمة عظيمة كانت على جميعهم ، إذ لم يكن فيهم أحد محتاجاً ، لأن كل الذين كانوا أصحاب حتمول أو بيوت كانوا يبيعونها ويأقرون بأثمان المبيعات ويضعونها عند أرجل الرسل ، فكان يوزع على كل واحد كما يكون له احتياج » .

ولقد حاول بعض الفلاسفة من قديم الزمان أن يضعوا نظماً عامة للمجتمع ، يفترضون فيها العدالة المطلقة والمساواة في الحقوق والواجبات ، ولكن هذه النظم كان فيها للخيال نصيب كبير . وإذا رحنا نحن نعرض صوراً لبعض تفكيرهم فلا بد أن نرجع إلى الدولة التي ازدهر فيها الفكر القديم ، وحاول أن ينفذ إلى صميم المشكلات يلتمس لها حلولاً ، ونعني بها دولة اليونان القديمة ، فنجد أفلاطون في كتابيه الجمهورية والاثنا عشر دولة يلغى فيها نظام الملكية الفردية ، وتلغى فيها أنظمة الأسرة ، وبذلك تصبح الأموال والنساء والأطفال ملكاً للجميع ، ليتحقق غرض أفلاطون الأكبر ، وهو أن تصبح المدينة أسرة واحدة وإن لم ينصح أستاذ المعلم الأول بإلغاء نظم الزواج إلا في طبقة واحدة من طبقات المجتمع .

هذا هو أساس فكرة أفلاطون ، ومنها نرى أن الواقع المحسوس لم يكن له مجال عند الفيلسوف ، بل أراد أن يرسم بقلبه ما تناه في صميم قلبه ، والحال التي ينبغي أن يكون عليها المجتمع ؛ ولكن أفلاطون بعد أن صدمه الواقع المحسوس في تجربته عاد فعُدل عن فكرته وخفف من شيوعيته ، فتمال بتقسيم الأموال الموجودة بالتساوي على الأفراد ليستغلوها على أن تستمر ملكيتها للدولة ، ويمكن أن يرث أولاد المستغل حق الاستغلال ؛ كما رجع عن قوله في إلغاء نظم العائلة واحتفظ بنظام الأسرة ، بشرط أن يتم الزواج تحت رعاية الدولة .

وفي القرون الوسطى نجد الفلسفة المسيحية تقول: إن الخطيئة الأولى لا تزال لها آثارها الفعالة في حياة الناس؛ فالظلم والاستعباد قائم، وحب الشهوات والماديات يسود عوضاً عن الفضائل، وربما كانت الملكية الفردية أساساً مساعداً بجوار الخطيئة الأولى لهذا البلاء القائم واقعياً، والذي ينجم عنه عدم المساواة. حقاً إن المسيحية لا تلغى الملكية الفردية، وإنما تريد ملكية في مصلحة المجموع حتى يرفع البؤس والشقاء عن الناس، فهي تريد مجتمعاً تضعف فيه الأنانية. ولقد بالغ بعض المنكرين ووصف ذلك بالاشتراكية، وهي على كل حال وإن لم تكن من قبيل الاشتراكية الحديثة إلا أنها تقرب من اشتراكية الإسلام المعتدلة، كما سنعرف ذلك بعد قليل.

وعلى أثر انهيار النظام الإقطاعي في أوروبا في العصور الوسطى، ابتدأ التصادم بين الرأسمالية والطبقة العاملة، وكان ذلك في أواسط القرن الخامس عشر، ولاند ظهرت فكرة إلغاء الملكية في ذهن العالم الانجليزي توماس مور وسجلها في كتابه «الاتوبيا Utopia» وكانت هذه الفكرة نتيجة للشعور بالفارق العظيم بين طبقة الملاك وهم اللوردات ورجال الدين، وبين الفلاحين، ولكن أتوبيا مور كانت كمدنية أفلاطون حلماً يصعب تحقيقه، ولقد ظل هذا الحلم يتردد في ذهن الجماعات، فأخذ العمال يفضلون شيئاً فشيئاً عن السادة وبزالون أعمالاً يدوية، ثم أخذوا يتجمعون في جماعات، كل أبناء حرفة معاً. ثم أخذ حلم توماس مور يتحقق شيئاً فشيئاً على مدى أربعة قرون حتى كان القرن التاسع عشر، فوقفت الأحلام على قدميها نظاماً شيوعياً ونظاماً اشتراكياً.

والواقع أن الفكرة الشيوعية والفكرة الاشتراكية كما نسمع عنهما اليوم نبتت في الاتوبيا التي قال بها توماس مور، وبدأت تنضج على القرون، إلى أن كان نضوجها الكامل نظرياً وعملياً على يد لينين الذي يعتبر الصدى الحقيقي لمور.

وبعد الثورة الفرنسية وتطور الصناعة دخل الناس في عهد جديد، وظهرت في فرنسا نظريات ترمي إلى تنظيم العلاقات في الجماعة، فما دامت الثورة قد كفلت لهم المساواة فلا بد من تحقيقها فعلياً. ولقد حاول سان سيمون أن ينظم الإنتاج الصناعي، لأن الصناعة في ذلك الوقت كانت كل شيء، وقال بقيام حكومة صناعية

مكان الحكومة السياسية ، لتحقيق مبدأ العدالة الذى يقول : لكل تبعاً لكفاءته ، ولكل كفاءة أو مقدرة تبعاً لأعمالها .

وفى الوقت الذى قامت فيه دعوة سان سيمون فى فرنسا ، قامت فى إنجلترا ما يسمى اشتراكية الجمعيات ، وحمل لواءها « روبرت أوين » فى إنجلترا « وشارل فوربيه » فى فرنسا ، ولقد كان لروبرت أوين مصانع ، فأنشأ فيها مساكن وحدائق للعمال ، وأسس لهم صناديق ادخار ، وخفض ساعات العمل ، ولم يحاول فوربيه إلغاء الملكية الفردية ، وإنما حاول توحيد الإنتاج ليصبح للبالك وصاحب رأس المال والعامل نصيب متناسب فى المنتجات مع نصيبهم فى الإنتاج .

ويطول بنا المقام اذا نحن حاولنا أن نقف عند كل صاحب دعوة اشتراكية نلخص أساس مذهبه ، ويكفى أن نختم تلك النبذة التاريخية برسول الاشتراكية فى العصر الحديث ، ألا وهو « كارل ماركس » ، وهو الذى تبدأ الاشتراكية من يوم دعوته عهداً جديداً ، إذ تنتقل من الخيالية الى العملية ، والواقع أن مقام كارل ماركس فى عالم الاقتصاد والاجتماع كمقام أرسطو فى عالم المطلق ، فليس من شك أنه كانت هناك أفكار تداولها الناس من قديم الزمن ، وهى أفكار تمت بطبيعتها الى الأنظمة الاشتراكية كما وجدناها عند أفلاطون وغيره من الفلاسفة ، ولكن العلماء لا يعتبرون مثل هذه الأفكار مكونة لنظام كامل يسمح أن يسمى مذهباً اشتراكياً ، الى أن جاء عالم جمع شذور هذه الأفكار المتفرقة ، وحاول أن يوفق بينها وأن يلائم بين أجزائها ، وأضفى عليها بعض التجارب التى حدثت خلال التاريخ ؛ وجمع كل ذلك تحت ضوء الفكر العلمى المنظم بحيث بدت هذه الأفكار مكونة لجسم مذهب علمى ، وهذا العالم هو : كارل ماركس .

ولقد قام مذهب ماركس نتيجة لفشل المذهب الحرفى التجارة الذى نادى به آدم سميث فى إنجلترا وفولتير وروسو وجماعة الفيزوكراث فى فرنسا ، والذى كان شعاره « دعه يعمل دعه يمر » وكان من أثره ظهور فئة الأغنياء الرأسماليين الذى ساعد على توسيع الشقة بينهم وبين الفقراء ظهور الثورة الصناعية واختراع الآلات ، ولقد أسس ماركس مذهب الاقتصادى على أساس المادية التاريخية . ويتلخص فى أن المصالح المادية هى التى تحرك الأفراد ، لجميع التطورات والتقلبات التى تصيب المجتمع ترجع الى كفاح الطبقات لتحسين حالها ، فلقد

قامت المنازعات في القديم بين الأرقاء والسادة الى أن تحرر الأرقاء وأصبح لهم حق الحياة، وحديثا نرى الثورات تقوم لتوفر للعبيقة الدنيا حياة رغدة، وسيستمر هذا النزاع حتى يأتي اليوم الذي يتلام فيه نظام الملكية مع نظام الانتاج، وبذلك تصير الملكية اشتراكية .

الاشتراكية الحديثة :

إذا كان معنى الشيء يتبين في خلال العرض التاريخي له ، فإننا نرى أن الاشتراكية بمعناها العام هي فكرة ومذهب لتنظيم الدولة والمجتمع ، وهي تبغى تحقيق المساواة بمعناها الحقيقي ، ولكن كيف يمكنها تحقيق ذلك ؟ إن التاريخ قد سجل الحوادث الدامية في سبيل الحصول على المال والعقار والاحتفاظ به ، وإن المتأمل لصفحاته ليروعه ذلك الظلم الذي أوقعه الأغنياء بالفقراء وبالتحكم فيهم ، فما العمل ؟ إن الذي يميز الناس بعضهم عن بعض هي الملكية الفردية . إذن ففي إلغائها تحقيق للمساواة ، وهذه الرأسمالية التي هي في صميمها إيثار وتحكم من الأقلية في الأغلبية ، والتي قال عنها لينين إنها أعلى مراتب الاستعمار ، في إلغائها العدل كل العدل . هذا هو المبدأ العام للاشتراكية تتفق فيه كل علمائها وإذا كانت المذاهب الاشتراكية تختلف فيما بينها ، فإنها تتفق أيضا في الغايات التي ترمى إليها ، فكلها تتفق على أن النظام الاقتصادي الحالي نظام غير عادل ، ولا بد من مساواة اقتصادية بين جميع الأفراد بلا تمييز في القومية أو الجنس أو السن ، ونظام الملكية الخاصة في نظرهم أساس للاستعباد السياسي والأخلاقي والفكري ، فلا بد من إلغائه وجعل ثروات الانتاج موحدة جميعها في أيدي الدولة تديرها لمصلحة الجميع ، والأفراد يؤدون أعمالا للدولة نظير أجور تعطى لهم بالتساوي ، على أساس قيمة العمل الذي ينتجه كل منهم ، والمسنون والضعفاء والمرضى الذين لا يستطيعون أن يؤديوا عملا على المجتمع أن يعولهم ويوفر لهم أسباب الراحة . كذلك يجب أن يكون التعليم مجانا للجميع ، والمهم أن هذه الغايات يجب أن تقوم دولة اشتراكية لتنفيذها ، وهي المالكة الوحيدة لجميع الثروات ووسائل الانتاج ، وهي التي تتولى استثمارها ، فتدير المصانع والمناجم ووسائل المواصلات والنقل ، وتشرف على تربية الفرد ومده بسائر حاجاته .

عظـات

من التاريخ

لفضيلة الاستاذ الشيخ عبد العزيز السيد موسى

واعظ القاهرة

نشرت في مجلة الازهر كليات من التاريخ عن حياة القائدين أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد، واستتبع الحديث عنهما طرفا من الحديث عن الخليفين العظيمين أبي بكر وعمر، وسجل التاريخ بين هؤلاء الاربعة وثائق تاريخية في الفتوحات الشامية، فرى أن تأتي بها لما فيها من العظات البالغة والتعاليم الحازمة .

رسالة من أبي بكر إلى أبي عبيدة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله بن عتيق بن أبي قحافة إلى أبي عبيدة ابن الجراح . سلام الله عليك . أما بعد ، فقد وليت خالدا قتال العدو في الشام ، فلا تخالفه ، واسمع له وأطع ، فإنني وليته عليك وأنا أعلم أنك خير منه ، ولكن ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك . أراد الله بنا وبك سبيل الرشاد . »

وكتب خالد من الحيرة إلى أبي عبيدة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من خالد بن الوليد إلى أبي عبيدة بن الجراح . سلام الله عليك . أما بعد ، فقد أتاني كتاب رسول الله يأمرني بالسير إلى الشام والقيام على جندها والتولى لأمرها ، والله ما طلبت ذلك قط ولا أردته إذ وليته ، فأنت على حالك الذي كنت عليه ، لا نعصيك ولا نخالفك ، ولا نقطع دونك أمرا ، فأنت سيد المسلمين ، لا ننكر فضلك ، ولا نستغنى عن رأيك . »

مات أبو بكر قبل واقعة اليرموك بعشرين ليلة ، وبويع بالخلافة من بعده عمر بن الخطاب ؛ وبينما واقعة اليرموك قائمة على قدم وساق وصل إلى أبي عبيدة كتاب قال فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجراح . أوصيك بتقوى الله الذى يبقى ولا يبقى سواه ، الذى هداانا من الضلالة وأخرجنا من الظلمات إلى النور ، وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد ، فقم بأمرهم بحق الذى عليك ، لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ، وتنزلهم منزلاً قبل أن تستريده لهم ، وتعلم كيف ماتاه . وإياك وإلقاء المسلمين فى الهلكة . وقد ابتلاك الله بى وابتلانى بك ، فغض بصرك عن الدنيا وأله قلبك عنها . إياك أن تهلكك كما أهلكك من كان قبلك ، فقد رأيت مصارعهم . فلم يبلغ أبو عبيدة إلى خالد خطاب العزل والمعركة قائمة ، بل ترك الأمر على حاله حتى انتهت المعركة بقيادة خالد .

هذه وثائق تاريخية أعرضها للعظة والعبرة بما فيها من خلق عظيم ونبيل كريم . فإن الخليفة الأول يكتب إلى قائد الشام وقاتمها يطلب منه التحدى عن القيادة إلى خالد فاتح العراق مع الإشادة بفضلله حيث يقول له : وأنا أعلم أنك خير منه . فتقبل ذلك بصدر واسع ونفس هادئة وقلب مطمئن ، ورضى أن يكون مقوداً بعد أن كان قائداً مع أسبقته فى الإيمان وأقدميته فى الجهاد فى سبيل الله .

وهذا خالد بن الوليد يكتب إلى أبي عبيدة بأنه تولى القيادة مكانه ، وهو كتاب يقدر فيه أبا عبيدة كل التقدير ، ويحله كل الإجلال ، حيث يقول له : لا نعصيك ولا نخالفك ولا نقطع دونك أمراً فأنت سيد المسلمين لا ننكر فضلك ولا نستغنى عن رأيك . ولم يعلق بنفسه زهو القيادة ولا كبرياء الرياسة ، بل قدم على أبي عبيدة ولا شىء فى نفسه غير الإخلاص والود . وتلقاه أبو عبيدة ولا شىء فى نفسه غير الإخلاص والود ، وكل واحد تولى أمره وهو عنه راض بما همى له .

هذه نفسية القائدين العظمين . والخليفة الأول لم يول خالدًا القياد لشيء فى نفسه ، إنما كان ذلك لما يرى فيه من الدربة العسكرية والخبرة الحربية ويقصد من وراء ذلك الصالح العام . ثم دار الفلك دورته وجاءت الخلافة إلى الخليفة الثانى ، ولم يكذب يضع يده على أمورها حتى أرسل رسولاً إلى أبي عبيدة يخبره بعزل خالد وإسناد القيادة إليه . وصل ذلك الرسول وتسلم منه أبو عبيدة ذلك الكتاب ، وواقعة اليرموك قد حى فيها وطيس القتال ، ورأى أبو عبيدة

بحكمته السامية ونظره البعيد أن يرجى تسليم ذلك الكتاب الى خالد حتى تنتهى هذه المعركة ، لأن هدفه المصلحة العامة ، والمصلحة الخاصة أمام الجميع لا تساوى مثقال ذرة . فهذا خالد أخذ القيادة من أبي عبيدة ، وهذا أبو عبيدة أخذها من خالد ، والصدقة هى الصدقة ، والود هو الود ، وهما الصديقان الوفيان على أى ناحية من النواحي . واسمع حديث الوفاء والود الذى جرى بينهما عند ما وقف خالد على جلية الأمر بعد عشرين يوما من وصول ذلك الكتاب : دخل خالد على أبي عبيدة فقال : يغفر الله لك جاءك كتاب أمير المؤمنين فلم تلعنى وأنت تصلى خلفى والسلطان سلطانك . فقال أبو عبيدة : يغفر الله لك ما سلطان الدنيا أريد وما للدنيا أعمل ، وإن ما ترى سيصير الى زوال وانقطاع ، وإنما نحن أخوان ، وما يضير الرجل أن يلى عليه أخوه فى دينه ولا دنياه ، بل يعلم الوالى أنه يكون أدناهما الى الفتنة وأوقعهما فى الخطيئة لما يعرض له من الهلكة إلا من عصم الله عز وجل وقليل ما هم . وإن الخليفة الثانى لم يعزل خالدا لريية إنما عزله كما قال فى كتابه الى الامصار : إني لم أعزل خالدًا عن سخطه أو خيانه ، ولكن الناس فتنوا به نخت أن يوكلوا اليه ويبتلوا به ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع والال يكونوا بعرض فتنة . ذلك هو السبب . وإن سيدنا عمر قدره بعد ذلك كل التقدير ، فانه لما فتح خالد قنسرين تحت قيادة أبي عبيدة وانتهى الخبر الى عمر قال : أمر خالد نفسه ؛ رحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال منى .

كل هذا يريك رأى العين كيف محق الإسلام أخلاق الجاهلية ، وأحل محلها أخلاقا تمثل الإخاء والتحاب وعدم التحاسد . فان مثل هذا التبديل فى القيادة كان فى عهد الجاهلية يثير حربا ضروسا بين القائدين . فهذا التبديل فى الأخلاق من المعجزات التى تبقى على الدهر أدلة قاطعة على أن الإسلام دين إلهى كان له أكبر الأثر فى ترقية الإنسانية .

تلك صفحة مجيدة من مجد الاسلام ، تصور لك النفوس الطيبة والقلوب الخلصة لله وفى سبيل الله ، ولعلمها تكون عظة وعبرة لقاداتنا وعظمائنا يتخذون منها نهجا قويمًا وطريقا مستقيما يسلكونها فى حياتهم لنهضة بلادهم وإحياء شعوبهم . وبذلك تسعد الأمم وترقى الى القمم .

الوضع في الحديث

أو الكذب على رسول الله

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد رشاد عبد الظاهر خليفة
من العلماء المتخرجين في تخصص التدريس

لا نرى أكبر جرماً بعد الكذب على الله عز وجل ممن يتناول على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكذب والاختلاق عليه .

وكفاه أن أعد الله له عذاباً أليماً في نار جهنم ، كما أخبرنا الصادق الأمين بقوله
« من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » .

ولقد أساء إلى السنة النبوية في عصورها الأولى أقوام أفاكون كمحمد ابن سعيد المصلوب بالشام و ابراهيم بن أبي يحيى الأسلى بالمدينة ، والواقدي ببغداد ، ومقاتل بن سليمان بخراسان والسكبي بالكوفة ، ومحمد بن زياد اليشكري ، وعبد الله بن سبأ اليهودي وأضرابه ممن تستروا بالإسلام وأخفوا وراء التشيع أغراضهم الدنيئة .

قال حماد بن زيد : وضعت الزنادقة أربعة آلاف حديث ليفسدوا على الناس دينهم .

أو للتعصب والانتصار للبذاهب كما فعل الشيعة والخوارج ، والكرامية^(١) ، والخطائية ، والسالمية .

(١) الكرامية : بتشديد الراء مع فتح الكاف : قوم ينسبون لمحمد بن عبد الله بن كرام . والخطائية : بفتح "خاء" وتشديد الطاء : فرقة تنسب لأبي الخطاب الأسدي ، كان يقول بأن الله حل في أناس من أهل البيت على التعاقب . ثم ادعى الألوهية . ثم قتل . وجاء أتباعه من بعده . وقالوا أبو الخطاب نبي وقرضوا طاعته بل زادوا على ذلك فقالوا الأئمة أنبياء ، والحسن والحسين ابنا الله . وجعفر الصادق إله ، ولكن أبو الخطاب أفضل منه .

والسالمية : فرقة تنسب للحسن بن محمد بن أحمد بن سالم السالمي .

روى عن ابن لهيعة أنه قال : سمعت شيخا من الخوارج تاب فجعل يقول
« إن هذه الأحاديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم فإننا كنا إذا هوينا
أمراً صيرناه حديثاً » .

وهذا جابر بن يزيد الجعفي الشيعي يزعم أن عنده خمسين ألف حديث ، أو سبعين
ألف حديث يرويها عن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب .
أو للجهل الغالب ابتغاء العبادة والزهادة والتقرب من المولى عز وجل
والطمع في الثواب والترغيب والترهيب .

ومن هذا القبيل أحاديث القصاص . فقديمًا أكثر القصاص من الأحاديث
التي ليس لها أصل ، وكان ثقات المحدثين يتعرضون لتسكينها فيتعرضون لسخط
العامة والإيقاع بهم .

يذكر أن الشعبي في أيام عبد الملك بن مروان نزل (تدمر) فسمع شيخا عظيم
اللمعة يقول : إن الله خلق صورين في كل صور نفختان : نفخة الصعق ، ونفخة القيامة .
قال الشعبي : فرددت عليه وقلت : إن الله لم يخلق إلا صورة واحدة ، وإنما
هي نفختان .

فقال لي يا فاجر : إنما يحدثني فلان عن فلان وترد علي ؟ ثم رفع نعله وضربني
بها ، وتتابع القوم على ضربها فما أقبلوا حتى قلت لهم : إن الله خلق ثلاثين صورة .

وروى الخطيب البغدادي عن محمد بن يونس قال : كنت بالأنهار فسمعت
شيخا يقص : لما زوج النبي صلى الله عليه وسلم عليا فاطمة أمر شجرة طوبى أن
تنثر اللوز الرطب يتهداه أهل الجنة بينهم في أطباق ... ! فقلت له يا شيخ هذا كذب
على رسول الله . فقال لي : ويحك اسكت ، حدثني الناس . قلت من حدثك ؟ فروى
لنا إسنادا عن ابن عباس .

وروى عن الليث بن سعد أنه قال : قدم علينا شيخ بالأسكندرية يروى لنا
ونافع يومئذ حتى ، فكتبنا عنه صحتين عن نافع ، فلما خرج الشيخ أرسلنا بالصحيفتين
إلى نافع ، فما عرف منهما حديثا واحدا .

ولعمري إن هؤلاء هم أضر شيء على الدين الإسلامى من سواهم ، وأعظم خطرا عليه ، إذ يحملون العامة والبسطاء على اتباعهم والاقتداء بهم والتمسك بأقوالهم التى ما أنزل الله بها من سلطان .

قال ابن الجوزى فى كتابه الموضوعات : معظم البلاء فى وضع الحديث من القصاص ، لأنهم يريدون أحاديث ترقق وتنفيق ، والصحاح ثقل فى هذا ، ولأن القصاص لا يتحرون الصواب ، ولا يحترزون من الخطأ لقلة علمهم وتقواهم ، اهـ .

وجزى الله علماء الحديث أحسن الجزاء تلقاء ما قاموا به من الجرح والتعديل ونقد الحديث وروائه وبيان الصحيح منه والموضوع ، والحسن منه والضعيف ، حتى ألفوا فى هذا الغرض الموسوعات الضخمة ، والأسفار التى تنوء بالعصبة أولى القوة .

وإنى أذكر لك أيها القارئ الكريم طائفة منها لتكون لك مرجعا ودليلا تهتدى إليه :

فمن ذلك الجرح والتعليل لابن أبى حاتم ، وكتب الذهبى ، وهى فريدة فى بابها ، وكتاب السكامل لابن عدى فى الضعفاء ، وكتب الميزان للحافظ العسقلانى ، وكتاب العلل للإمام أحمد بن الحلال ، والعلل المتأمية لابن الجوزى ، والآلء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة لجلال الدين السيوطى . وغيرها مما لا يمكن استقصاؤه ولا الإحاطة به .

وبعد : فإن للحديث الموضوع علامات وقرائن يعرف بها ، كأن تظهر عليه مسحة الاختلاق ، وتشم منه رائحة الكذب ؛ وذلك بأن تأباه العقول السليمة وتنفر منه القلوب الصحيحة . قال ابن الجوزى : إن الحديث المنكر يقشعر له جلد الطالب للعلم ، وينكسر منه قلبه فى الغالب .

وقال الربيع بن خيثم : إن للحديث ضوما كضوء النهار نعرفه ، وظلمة كظلمة الليل نسكرها ، وطبعى أنه لا يعرف هذا إلا من له ملكة قوية فى فن الحديث ، واطلاع واسع .

ورأى أسوق إليك جملة من الأحاديث الباطلة التي لا كتبها السنة العوام ،
وردتها أفواههم في الصباح والمساء . فمن ذلك :

أكرهوا عمتكم النخلة - لو اعتقد أحدكم في حجر لنفعه - ضاع العلم بين أخاذ
النساء - قدس القدس على لسان سبعين نبيا آخرهم عيسى بن مريم - لا يدخل ولد
زنا ، ولا شيء من نسله الى سبعة آباء الجنة . وهذا معارض بقوله تعالى : « ولا
تزر وازرة وزر أخرى ، ومن ذلك أيضا : الأرض على صخرة ، والصخرة على
قرن ثور - عذاب أمتي في دنياها أو في قبورها - عليكم بدين العجائز .

هذه أمثلة صغيرة للأحاديث الموضوعة التي لم يقلها الرسول عليه
الصلاة والسلام .

ومن القرائن ما يؤخذ من حال الراوى كما وقع لغيث بن ابراهيم النخعي
حيث دخل على المهدي (والد هارون الرشيد) فوجده يلعب بالحمام فساق
في الحال إسنادا الى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا سبق إلا في نصل أو
خف أو حافر أو جناح » فزاد في الحديث أو جناح ، فعرف المهدي أنه كذب
لأجله ، فأمر بذب الحمام . ثم قال لغيث هذا : أشهد أن قفاك لثقا كذاب .

ومنها أن يكون لفظ الحديث ركيكا أو مصادما للقرآن الكريم أو السنة
المتواترة أو الإجماع القطعي أو صريح العقل ، كالحديث الذي وضعه أحد الملاحدة
وتفوه فيه بكلام لا يصدر عن عاقل فضلا عن نبي مرسل ، فقال مسندا للرسول
عليه السلام « رأيت ربي بمنى يوم النفر على جمل أورق عليه جبة صوف
أمام الناس » .

سبحانك هذا بهتان عظيم ، وكذب محض يصادم قول الله تعالى « ليس
كمثل شيء » .

ويعرف الوضع في الحديث أيضا بأن يكون فيه وعيد شديد على ذنب
صغير ، مثل : من ترك العشاء قال له ربه لست ربك فاطلب ربا سواي .

أو فيه وعد عظيم على فعل شيء حقير ، مثل : من أطعم لقمعة بني الله له
في الجنة ألف مدينة في كل مدينة ألف بيت في كل بيت ألف حورية وصيفة .
ونحو : لقمعة في بطن جائع أفضل من بناء ألف جامع .

فواجب الحكومة ومشيجة الأزهر مصادرة تلك المكتب حتى لا تفسد عقيدة العوام وتشيع بها فيها من أباطيل وأكاذيب .

وواجب على إخواننا المسلمين أن يطلعوا على كتب السنة الصحيحة كالبخاري ومسلم وسنن أبي داود والنسائي وابن ماجه والترمذي فإنها أحسن مرجع لهم بعد كتاب الله العزيز ، وفيها ما يغنيهم ويجدون فيها ضالهم المنشودة وطب قلوبهم ، وإصلاح نفوسهم .

ولا تخلو بعض كتب التفسير كالحازن والبيضاوي والكشاف من الأحاديث الواهية والموضوعة كحديث ^(١) الغرائق ، وأحاديث فضائل السور التي رويت عن أبي عصمة نوح بن مريم المروزي قاضي مرو ، فقيل له من أين لك عن عكرمة بن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة ، وليس عند أصحاب عكرمة هذا ؟ فقال : إني رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقهاء أبي حنيفة ومغازي محمد بن اسحاق فوضعت هذا حسبة (أى احتساباً لوجه الله تعالى) .

اعلم أن السور التي صحت الأحاديث في فضلها « الفاتحة والزهروران (البقرة وآل عمران) والأنعام والسبع الطوال بجملا (البقرة إلى آخر براءة بعد الانفال وبراة سورة واحدة) الكهف ويسن والدخان والمالك والزلزلة والكافرون ، والنصر ، والإخلاص ، والمعوذتان ، وما عداها لم يصح فيه شيء .

رب قائل يقول « هل تحل رواية الحديث الموضوع للعالم بحاله ؟ فالجواب : لا يصح مطلقاً سواء أكان في فضائل الأعمال أم في القرآن أم في الترغيب والترهيب أم في المواعظ والقصص أم في صفات الله تعالى إلا إذا كان مقروناً ببيان الوضع ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين ، رواه مسلم في صحيحه .

(١) الغرائق جمع غرنوق اسم لطائر من طيور الليل يشبه الكركي ، استعمل لفظ الغرائق للأصنام وحديث الغرائق هو أنه يقال إن النبي عليه السلام قرأ في سورة النجم بمجلس من قریش بعد أفرايتهم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى بإلقاء الشيطان على لسانه من غير علمه صلى الله عليه وسلم به : تلك الغرائق العلاء وإن شئاعتهن ارتجى . قفرحوا بذلك .

السنة النبوية الشريفة

ومنزلتها من الدين وضرورة العمل بها

والإنكار على من ردها

لحضرة الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي

الفصل الثامن

سنة رسول الله هي الحكمة في قول الله

قال الإمام الشافعي في رسالته ص ٧٦ :

قال الشافعي : ففرض الله على الناس اتباع وحيه وسنن رسوله ، فقال في كتابه « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » ، ٢/ البقرة / ١٢٩ .

وقال جل ثناؤه « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويعلمهم ما لم تكونوا تعلمون » ، ٢/ البقرة / ١٥١ .

وقال « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » ، ٣/ آل عمران / ١٦٤ .

وقال جل ثناؤه « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » ، ٦٢/ الجمعة / ٢ .

وقال « واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به » ، ٢/ البقرة / ٢٣١ .

وقال « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما » ، ٤/ النساء / ١١٣ .

وقال « واذكروا ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً » ، ٣٣/ الأحزاب / ٣٤ .

فذكر الله الكتاب ، وهو القرآن ، وذكر الحكمة ، فسمعت من أَرْضِي
من أهل العلم بالقرآن يقول : الحكمة سنة رسول الله .

وهذا يشبه ما قال . والله أعلم .

لأن القرآن ذِكْرٌ وأُتبعته الحكمة ، وذكر الله مَنَّهُ على خلقه بتعليمهم الكتاب
والحكمة ، فلم يحز - والله أعلم - أن يقال : الحكمة ههنا إلا سنة رسول الله .
وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله ، وأن الله افترض طاعة رسوله ، وحثَّ
على الناس اتباع أمره ، فلا يجوز أن يقال لقول فرض إلا لكتاب الله ثم سنة
رسوله ؛ كما وصفنا من أن الله جعل الإيمان برسوله مقرونا بالإيمان به .
وسنة رسول الله مَبْنِيَّةٌ عن الله معنى ما أراد دليلاً على خاصه وعامه . ثم
قرن الحكمة بها بكتابه فأتبعها إياه ، ولم يجعل هذا لاحد من خلقه غير رسوله اه .

الفصل التاسع

الحجة في تثبيت خبر الواحد

قال الإمام الشافعي في رسالته ص ٤٠١ :

قال الشافعي : فإن قال قائل : اذكر الحجة في تثبيت خبر الواحد بنص خبر
أو دلالة فيه أو إجماع ، فقلت له : أَخْبَرَنَا سَفِيَّانُ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عَمِيرٍ
عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ قَالَ :
« نَصَّرَ اللَّهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتي خَفِظَهَا وَوَعَاها وَأَدَّاهَا ، فَرَبٌّ حَامِلٌ فَفقه غير فقيهه ،
وَرَبٌّ حَامِلٌ فَفقه إلى من هو أفقه منه . ثلاث لا يُغْلِبُ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ : إِيْلَاصُ
الْعَمَلِ لِلَّهِ ، وَالنَّصِيحَةُ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَلِزُومُ جَمَاعَتِهِمْ ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تَحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ » .
فلما ندب رسول الله إلى استماع مقالته وحفظها وأدائها امرؤاً يُوَدِّيها ،
والامرؤ واحد ، كَلَّ على أنه لا يأمر أن يُؤدَّى عنه إلا من تقوم به الحجة على
من أدَّى إليه ، لأنه إنما يُؤدَّى عنه حلال ، وحرام يجتنب ، وَحَدٌّ يُقام ، ومال
يؤخذ ويُعطى ، ونصيحة في دين ودنيا . اه .

وقال في ص ٤٠٦ :

أَخْبَرَنَا مَالِكٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ عَنْ ابْنِ عَمْرِو قَالَ : بَيْنَمَا النَّاسُ مُقْبِلِينَ

في صلات الصبح إذ أتاهم آت فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه قرآن ، وقد أمر أن يستقبل القبلة (السكبة) فاستقبلوها ، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى السكبة .
وأهل قباء أهل سابقة من الأنصار وفقه ، وقد كانوا على قبلة فرض الله عليهم استقبالها .

ولم يكن لهم أن يدعوا فرض الله في القبلة إلا بما تقوم عليهم الحجة ، ولم يلقوا رسول الله ، ولم يسمعوا ما أنزل الله عليه في تحويل القبلة ، فيسكونون مستقبلين بكتاب الله وسنة نبيه سماعاً من رسول الله ، ولا بخبر عامة ؛ وانتقلوا بخبر واحد — إذا كان عندهم من أهل الصدق — عن فرض كان عليهم ، فتركوه إلى ما أخبرهم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أحدث عليهم من تحويل القبلة . ولم يكونوا ليفعلوه — إن شاء الله — بخبر إلا عن علم بأن الحجة تثبت بمثله ، إذا كان من أهل الصدق .

ولا ليحدثوا أيضاً مثل هذا العظيم في دينهم إلا عن علم بأن لهم إحدائه .
ولا يدعون أن يخبروا رسول الله بما صنعوا منه .

ولو كان ما قبلوا من خبر الواحد عن رسول الله في تحويل القبلة ، وهو فرض ، مما يجوز لهم — لقال لهم — إن شاء الله — رسول الله : قد كنتم على قبلة ، ولم يكن لكم تركها إلا بعد علم تقوم عليكم به حجة ، من سماعكم مني ، أو خبر عامة ، أو أكثر من خبر واحد عنى . ١٠ هـ .

وقال أيضاً في ص ٤٥٧ :

ولو جاز لأحد من الناس أن يقول في علم الخاصة : أجمع المسلمون قديماً وحديثاً على تثبيت خبر الواحد والانتفاء إليه ، بأنه لم يعلم من فقهاء المسلمين أحد إلا وقد ثبتته — جاز لي .

ولكني أقول : لم أحفظ عن فقهاء المسلمين أنهم اختلفوا في تثبيت خبر الواحد بما وصفت من أن ذلك موجود على كلهم . ١٠ هـ .

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري الجزء الثالث عشر ص ٢٠٢ :

وقد نقل بعض العلماء لقبول خبر الواحد أن كل صاحب وتابع سئل عن نازلة في الدين فأخبر السائل بما عنده فيها من الحكم أنه لم يشترط عليه أحد

منهم أن لا يعمل بما أخبره به من ذلك حتى يسأل غيره فضلا عن أن يسأل الكواف ، بل كان كل منهم يخبره بما عنده فيعمل بمقتضاه ، ولا ينكر عليه ذلك ؛ فدل على اتفاقهم على وجوب العمل بخبر الواحد . ٥١ .

وقال الإمام البخارى فى صحيحه الجزء التاسع ص ٨٦ :

باب ما جاء فى إجازة خبر الواحد الصدوق فى الأذان والصلاة والصوم والفرائض والأحكام ، وقول الله تعالى « فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » ، ٩ / التوبة / ١٢٢ .
ويسمى الرجل طائفة لقوله تعالى « ولأن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » ، ٤٩ / الحجرات / ٩ .

فلو اقتتل رجلان دخل فى معنى الآية .

وقوله تعالى « إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » ، ٤٩ / الحجرات / ٦ .
وكيف بعث النبي صلى الله عليه وسلم أمراءه واحدا بعد واحد ، فإن سها أحد منهم رد إلى السنة ٥١ .

وقال أيضا ص ٨٨ :

حدثني يحيى بن قرعة ، حدثني مالك عن اسحق بن عبد الله بن أبى طلحة عن أنس ابن مالك رضى الله عنه قال : كنت أسقى أبأ طلحة الأنصارى وأبا عبيدة بن الجراح وأبى بن كعب شربا من فضيخ ، وهو تمر ، فجاءهم آت فقال : إن الخمر قد حرمت . فقال أبو طلحة : يا أنس قم إلى هذه الجرار فاكسرها .

قال أنس : فقممت إلى مهراس لنا فضربتها بأسفله حتى انكسرت . ٥١ .

وقال الشارح الحافظ ابن حجر فى فتح البارى الجزء الثالث عشر ص ٢٠٢ :

(الحديث الثامن) حديث أنس : كنت أسقى أبأ طلحة وأبا عبيدة بن الجراح الحديث ، وفيه : فجاءهم آت فقال : إن الخمر قد حرمت ، وقد تقدم شرحه مستوفى فى كتاب الأشربة ، وإن الآتى المذكور لم يسم ، وإن من جملة ما ورد فى بعض طرقه « فوالله ما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل » وهو حجة قوية فى قبول خبر الواحد ، لأنهم أثبتوا به نسخ الشيء الذى كان مباحا حتى أقدموا من أجله على تحريمه ، والعمل بمقتضى ذلك . ٥١ .

فَعَلَّامُ الْمُؤَلَّفَاتِ الْجَدِيدَةِ

تهافت الفلاسفة للإمام الغزالي

للإمام حجة الإسلام الغزالي كتب جمعة، منها كتاب (تهافت الفلاسفة) ضمنه ردودا على الفلاسفة الإسلاميين الذين عبوا من مدين الفلسفة اليونانية، ورموا إلى التوفيق بينها وبين الإسلام، وابتعدوا في نظر حجة الإسلام عن القصد؛ فرأى بعد أن شاركهم في الاطلاع عليها، ووقف على جهات ضعفها، أن يبين تلك الجهات من الضعف في كتاب أسماه تهافت الفلاسفة كان له تأثير كبير في صد تيار الفلسفة اليونانية عن المسلمين. وقد طبع هذا الكتاب في مصر وغيرها، ولكن طبعة من تلك لم تبلغ شأواً التي بين أيدينا الساعة في جمال الخط وصفاقة الورق وإتقان الطباعة، وملاحظة الترقيم. ولا غرو، فإن متولى طبعه فضيلة الأستاذ النابه الشيخ سليمان دنيا أستاذ الفلسفة وعلم الكلام في كلية أصول الدين. وما حباه به الأستاذ من العناية التعليق على الكثير من عباراته مما جعل المطالع لا يقف حيال معضلة إلا وجد عنها كلاماً يعين على حلها. وتجده في بعض تلك التعليقات يتوسع ليوفي المقام حقه من البيان. وهذا ما لا يوجد في النسخ المطبوعة التي تقدمته، بله أخطاء كثيرة وقعت فيها.

وما يزيد هذا الكتاب قيمة علمية أنه وضع له مقدمة ذكر تاريخ المؤلف وطريقته في البحث عن الحقيقة، وتحريه عن الطريق المأمون للايصال إليها، وهو فصل أوجز فيه كل ما قاله حجة الإسلام في هذا الباب، على نحو لا يحتاج تاليه معه إلى زيادة بيان، ويكشف عن ناحية في الإمام الغزالي لم يشاركه فيها إمام غيره من المؤلفين.

فثنى على فضيلة الأستاذ ثناء يوفي بحقه من إبرازه هذا الكتاب الجليل في هذا الشكل البديع، ويعينه على اتحاف قراء العربية بأمثاله.

الحقيقة في نظر الغزالي

لفضيلة الأستاذ العلامة الشيخ سليمان دنيا أيضا

الإمام الغزالي من أكبر رجالات الاسلام ، ومن أكثرهم سلطانا على العقول والقلوب ، ناهيك أنه دعى بحجة الاسلام ، ولم يدع بهذا الوصف غيره من العلماء العاملين . وقد عرض لأميات الامور الاعتقادية ، التي حامت حولها الأفهام ، واعركت في سبيلها الأقلام ، فأفاض فيها متبعا طريقة جمعت بين حرية النظر وسداد الاستدلال ، ألفاها المسلمون تجديدا أخاذا بالآليات ، وثابا الى بعيد الغايات ، فاعتدوا بكل ما كتب ، واعتبروا مذهبه موصلا الى لباب الباب .

نعم إن الامام الغزالي لم تنزه كتاباته عن النقد ، ولكن أنصاره تولوا هذا النقد بالدحض ، فخلص له مذهب في فهم الحقائق يسد أقوى مطامع العقول ، وأبعد مطامح الأرواح . فيكون التصدي لبيان الحقيقة في نظر الغزالي عملا لا يتطاول اليه إلا رجل ذو فهم ثاقب ، وذوق عال ، وتقدير دقيق ، ونظر بعيد ، وقد دل ما بين أيدينا من كتاب (الحقيقة في نظر الغزالي) أن مؤلفه الألمي الشيخ سليمان دنيا رجل هذا المجال . فقد لخص مذهبه تلخيصا موفيا ، وشرحها شرحا كافيا ، وناقشها نقاشا مواتيا ، خلص منه الى بيان صميم الحقيقة في نظر الامام الغزالي ، وما وصل اليها إلا بعد فهم وبسط لا يستطيعهما إلا الجدير بالخوض في هذه المواطن . وإننا لنسر حين نرى في عهدنا هذا من يحلل مذهب حجة الاسلام الغزالي هذا التحليل الدقيق ويصل منه الى ما وصل اليه من التحقيق . إنه لتوفيق عظيم ، وإنا بعمله لمن المعجبين .

كتاب الاشارات والتنبيهات

للمرئيس ابن سينا

أهدانا فضيلة الأستاذ العلامة الشيخ سليمان دنيا المتقدم ذكره مع كتابيه السابقين كتابا ثالثا هو ما جعلناه عنوانا لهذه السطور .

الشيخ الرئيس ابن سينا من أشهر فلاسفة المسلمين وأطبائهم ، وقد طبقت

شهرته العالم كله ، وترجمت كتبه الى كثير من اللغات الأوربية ، ودرست في جامعاتها ، ولا يزال بعضها يدرس فيها .

لهذا الأستاذ الجليل كتاب في المنطق أسماه الاشارات والتنبيهات اشتهر في الخافقين وطبع مرات ، ولكن طبعاته لا تخلو من الخطأ وخال من المنطق ، فرأى مؤلفنا الفاضل أن يخرج هذا الكتاب إخراجاً علمياً ، يأخذ - على قدر الطاقة - بما للإخراج العصري من يسر وسهولة ، ودقة وتمحيص .

وقد تم لفضيلة المؤلف ما أراده ، فظهر القسم الأول منه في المنطق . وقد صدره بمقدمة أتى فيها على آراء حجة الاسلام الغزالي والشيخ الرئيس ابن سينا ومهتته ومصدره .

ثم يحىء منطق ابن سينا بعد تلك المقدمة لا سرداً كما تفعل دور الطباعة ولكن مع تعقيبات هامة مطولة وموجزة تدفع حيرة التالى في كثير من مواطنه ، يخرج منه مطالعه حاصلاً على فقه منطقى يستوعب جميع معضلاته .

فنشكر فضيلة المؤلف على هديته القيمة ، ونرجو له دوام التوفيق الى أعمال هذه الاعمال العلمية العظيمة ؟

كتاب الدين والحج

هذا أجمع ما رأينا من الكتب المؤلفة في موضوع خاص . فقد استوعب فيه مؤلفه الفاضل الحاج عباس كزاره كل ما يتصل بالحج من فرائض وسنن وأدعية وكل ما يتعلق به مما يجب أن يعرفه الحاج . وزاد في تكميله فوضع صوراً للأماكن المقدسة وعين بالكيلو مترات بعدها عن المدن الحجازية ، فلم يترك صغيرة ولا كبيرة مما يطرأ على فكر الحاج أو لا يطرأ إلا أتى عليها . ومن فوائده أنه بدأ بشرح أركان الإسلام الخمسة ثم تناول الحج بالكلام فوفاه حقه من كل ناحية . ولو كنا نريد أن نعد ما أتى به من الفوائد عدا لاستوعب ذلك مكاناً كبيراً من هذه المجلة . فسكت في هذا الإيجاز .

ونما لا يصح أن نغفله أن مؤلفه الفاضل عمداً إلى ضروب من المشوقات للاطلاع كالصور الفوتوغرافية ، والاكتشاف من صور الخطوط اليدوية خص بها بعض الأدعية والمواقف . فجاء كتاباً فريداً في باب يشكر صاحبه على وضعه ويرجى له الجزاء الأوفى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حديث القرآنه عنه يوم بدر :

الحديث الديني

الذي ألقاه صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد عبد اللطيف دراز

مدير الأزهر والمعاهد الدينية

في قصر عابدين العامر ليلة ١٧ من رمضان سنة ١٣٦٧

بسم الله الرحمن الرحيم

و يسألونك عن الأنفال ، قل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين . إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ، وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ، وما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم . كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون . يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . وإذا دعيتكم الله لإحدى الطائفتين أنها لكم ، وتوعدون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ، ويقطع دابر الكافرين . ليعق الحق ويُبطل الباطل ولو كره المجرمون .

هذه الآيات الكريمة هي صدر سورة الأنفال المدنية ، وتسمى سورة بدر . والأنفال : الغنائم ، وكان قد وقع شيء من الخلاف على قسمتها يوم بدر ، فقررت الآية الأولى أن أمر الغنائم موكول إلى الله ورسوله ، يقضى الله فيها بحكمه ، وينفذ الرسول قضاء ربه . وقد بين هذا الحكم في موضع آخر ، من السورة نفسها ؛ قال تعالى : : واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسته وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، . فهذا حكم الخمس ، وأما الأختام الأربعة فهي قسمة بين المجاهدين ، وقد بينت السنة كيفية هذا التوزيع .

ولما كان هذا الخلاف على قسمة الغنائم مما لا ينبغي لهم ، ولا يتناسب وسمو الغاية التي يستهدفها المجاهدون في سبيل الله ، ويقفون أنفسهم على تحقيقها ، وهي إحقاق الحق ، وإزهاق الباطل ، لتسكون كلمة الله هي العليا ، وتقرير الحرية الدينية بين الناس حتى لا تسكون فتنة في الأرض ويكون الدين كله لله ؛ نقول : لما كان الخلاف على الغنائم وقسمتها مما لا يتناسب وسمو هذا المثل الأعلى ، وكان الخلاف على إطلاقه في الغنائم أو في غيرها مما يخشى منه على وحدتهم ، وقوة الرابطة الإسلامية في نفوسهم - لقتهم القرآن إلى ذلك ، وأهاب بهم أن يتركوا الخلاف وسائر الأسباب التي تؤدي إلى الفرقة ، وإفساد ذات البين ، وأن يكلموا الفصل فيما اختلفوا فيه إلى الله ورسوله ، مدعين للحكم ، راضين بالقضاء : « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين » .

ثم بين هذا الإيمان بما فصل من دلائله في الاعتقاد وآثاره في الأعمال ؛ فهو في قلوب المؤمنين خشية من الله إذا ذكر ، واستحضار لجلاله وعظمته في كل حين ؛ وهو في عقولهم حكمة ونور تزيده آياتُ الله بصرًا بالحق ، وسعة في المعرفة ، ورسوخًا في اليقين ؛ وهو في نفوسهم اطمئنان بالدين ، وتسليم لأمر الله ورضاً بقضائه ؛ وهو فيما بينهم وبين الله ، صلاة وعبادة ومناجاة ، وفي مجتمعهم أخوة ، وتعاطف ، وإيثار ومواساة ؛ فهم الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ، وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون .

ثم أخذ القرآن الكريم — على سفته — يقيم البرهان على ما طالبهم به ، من الرضا بحكم الله ، وحسن التوكل عليه ، بما يقرر هذه الحقيقة في نفوسهم ؛ وهو أنه لما كان الإنسان بالغاً ما بلغ علمه ، لا يعرف من وسائل الحق وسبل الصلاح ما يعلمه الله جل شأنه بوسع علمه ، وعظيم إحاطته ، وهو لهذا قد يخفى عليه من الغايات البعيدة ، والمثل العليا ، ما يريد الله جل شأنه أن يبلغه إياه ، ويحمله عليه - وجب أن يسلم الأمر لله تسليماً ، وأن لا يشك في الأمر بعد أن جاءه اليقين من الله ، ولا ينبغي أن يصدّه عن امتثال الأمر والرضا به ، ماعسى أن يكون فيه مما تكرهه النفس أو يثقل عليها حمله ؛ فرب أمر عظيم الخطب ،

شديد الوقع ، ثقيل على النفس ، يكون له من العاقبة المرضية ، والغاية الحسنى ،
مالم تكن النفس تؤمله وترجوه ، بل مالم تسكن تدركه ولا تحيط به .

كان جمهور من المؤمنين يرفض الصلح فى الحديدية على الوجه الذى تم عليه ،
وعدوا قبوله مهانة ومذلة لما فى ظاهره من تحكم وعسف لا يليق بعزة المؤمنين ؛
وكانوا لهذا يريدون أن يأخذوا طريقهم إلى مكة بقوة السيف ، حتى إن عمر بن
الخطاب قال يا رسول الله ، ألسنت برسول الله ! قال بلى ، قال أولسنا بالمسلمين !
قال بلى ، قال أوليسوا بالمشركين ؟ قال بلى . قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟
قال : أنا عبد الله ورسوله إن أخالف أمره ولن يضيعنى ! .

ومع أن المسلمين لم يدركوا حقيقة الخير فيما ثقل على نفوسهم من هذا الصلح ،
فقد كان نصراً مؤزراً وفتحاً مبيناً للإسلام والمسلمين ؛ فإذا كان بعض الناس
يجهلون الحكمة فى بعض ما يقضى الله به من قضاء ، وما يلزمهم من أحكام ،
فليعلموا أن قانون الحق والباطل لا يجرى دائماً على ما يحبون وما يكرهون ؛ فقد
تحب النفوس الشيء وهو وبال عليها ، وقد تكرهه وهو لها صلاح وخير ، كما
أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ، يجادلونك
فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . وهل لو استسلموا
فققعدوا عن الجهاد يوم بدر كما كانوا يريدون ، . ورجعوا إلى المدينة خائفين ،
أكانوا قد حصلوا على المجد الذى حصلوا عليه يوم بدر ، واستحوذوا على ذلك العز
والنصر الذى ساقه إليهم الجهاد ، والتضحية فى سبيل الله ؟ أما إنهم لو فعلوا لكان
فشلم خاتمهم ، ونهاية أمرهم ؛ واسكن الله الذى يتولى الصالحين ، ويؤيد عباده
المؤمنين ، قد أراد لهم غير ما كانوا يريدونه لأنفسهم ، فحملهم بتوقيه وتأيدته
ومعوته على الخطة التى نالوا بها أعلى المثل وأهمرف الغايات .

يذكر القرآن الكريم بهذه الآيات موقفهم يوم بدر ، وكان ذلك فى رمضان
فى السابع عشر منه من السنة الثانية للهجرة . وبجمل القصة : أن النبى صلى الله عليه
وسلم ، أراد أن يجزى قريشاً ببعض ما عاملوا به المسلمين فى مكة ، حيث
أخرجوهم من ديارهم وأموالهم ، وشردوهم فى البلاد ظلماً وعدواناً ، ولما انتصر
بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبيغون

في الأرض بغير الحق ، فأمر عليه السلام أصحابه أن يخرجوا لغير قريش القادمة بتجارته من الشام لعل الله يعوضهم بها بعض ما سلبته منهم قريش في مكة من دور وأموال ، وما أزعجهم عنه من وطن كان أحب الاوطان إليهم ، وأقربها بجوار بيت الله وحرمة الأمين ، إلى نفوسهم وقلوبهم ، حتى ليقول النبي عليه السلام يوم هجرته مشيراً إلى مكة : « والله إنك لأحب بلاد الله إلي ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت » .

ومع ذلك فأى مال وأى متاع كان يمكن أن يستعيض به النبي عليه السلام والمهاجرون عن قرارهم في وطن يحبونه مثل هذا الحب ويناجونه مثل هذه المناجاة ؟ ولكنه الانتصار بعد الظلم ، وتأديب المعتدين ببعض ما فعلوا ، وملاقة البغي والطغيان بما يكسر شوكته ، وينكس رأيته ، إحقاقاً للحق وإزهاقاً للباطل ، وتأيداً لكلمة الله ، وإعزازاً لدينه ؛ وفي ذلك يقول الله جل شأنه : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفعُ الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامعُ وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، والله عاقبة الأمور » .

وكان المسلمون يوم بدر قليلى العدد قليلى العدة لم يخرجوا للحرب ولا لقتال ، وإنما خف منهم من خف للقاء العير ومصادرة أموال الأعداء ؛ ولم يكن مع هذه الأموال جيش محارب ، بل كان عليها أبو سفيان بن حرب في نفر من تجار قريش وأتباعهم ، فلما علم بأمر المسلمين وما اعتزموا من مصادرة التجارة أرسل إلى مكة يستنصها لإنقاذ أموالها ، فلم يبق فيها رجل يستطيع القتال إلا خرج أو استأجر مكانه من يخرج ؛ فتجتمع بذلك جيش لقريش بلغ عدده أضعاف عدد المسلمين يقوده أبو جهل بن هشام ، ويسير تحت رايته الملاء من عظماء قريش وصناديدها . وتصرف أبو سفيان لأمره فحاد بالغير عن طريق المدينة إلى ساحل البحر ، ثم أخذ طريقه على جدة فإلى مكة ، ثم أرسل إلى أبي جهل يشير عليه بالرجوع حيث لم تبق حاجة إلى القتال بعد نجاة الأموال ؛ فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرد

ماء بدر ففتح الجوز ، ونشرب الخمر ، وتعزف على رءوسنا القيان ، ويسمع العرب بمسيرنا هذا ، فلا يزال الناس يهابوننا بعدها أبدا .

وبذلك تمحضت غاية قريش من القتال إلى أن صارت كما سماها الله بطرا ورثاء الناس ، وكان هذا مما صنعه الله للمسلمين وإن كانوا لا يشعرون ، حتى تقابل في الميدان الباطل المزهو بنفسه المختال بكبرته وقوته ، مع الحق تقيض به قلوب المؤمنين لإخلاصه له وثباتاً عليه ، فيقع الفريقان تحت حكم الله العدل وسننه القاهرة في الحق والباطل والإخلاص والرياء ؛ لكن المسلمين لم يكونوا قد جاءهم تأويل ذلك بعد ، وإنما كانوا ينظرون إلى الموقف بحسب ما ظهر لهم من أسبابه ، فهم قليل وأعداؤهم كثير ، وهم قد خرجوا بغير استعداد ليقابلوا العير لا النفير ؛ فلا غرابة أن يتخوفوا ما دهمهم من أمر لم يكونوا على استعداد له ، وأن يذكروا ذلك للنبي عليه السلام ويجادلوه فيه : « يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون » . ولكن النبي صلى الله عليه وسلم كان واثقاً من أمره عارفاً بربه مؤمناً بتأييده ونصره ؛ ومع ذلك فقد وقف - على سننه الشريعة في الإنصاف والحرية والشورى - يستشير أصحابه ؛ وانتهى الموقف بقول قائلمهم : امض يا رسول الله لما أراك الله ، والله لو استعرضت بنا هذا البحر تخوضه لخصناه وراءك ما تخلف منا أحد !! فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولهم ، ثم قال : « سبروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم ، ا .

والطائفتان : طائفة النفير أى الجيش ، وهى الطائفة ذات الشوكة برجالها وقوتها ؛ وطائفة العير ، أى قافلة التجارة والأموال ، وهى التى لا شوكة لها ولا محذور من لقاءها ، بل فيها ما يحب من الأموال والمتاع ؛ وفى هذا يقول الله جل شأنه : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليعق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » .

وقد تكررت كلمة الحق في هذا السياق . ولها في كل موضع معنى . فهو في قول الله تعالى « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق » : الصواب والحكمة بطاعة الله

ورضوانه؛ وفي قوله تعالى «يجادلونك في الحق» : القتال ، خلص له القصد بعد نجاة العير وأصبح حقيقة الموقف دون سواء ؛ وفي قوله «ويريد الله أن يحق الحق بكلماته» : وعد الله الذي وعده رسوله ، وهو تمكينه من إحدى الطائفتين ؛ وفي قوله «ليحق الحق ويبطل الباطل» : الإسلام ؛ يبين الله لرسوله الحكمة في تمكينه من الطائفة ذات الشوكة بعد أن وعدهم إحدى الطائفتين مهمة وهذه الحكمة هي إن إحقاق الحق وإعزازه لا يكون بالاستيلاء على الأموال والغنائم ، لكن بتمكين الله رسوله والمؤمنين من رموس الكفر وأئمة الباطل ، وقطع دابر المجرمين .

طائفتاه :

أما إحداهما : فلا تذكر في القرآن الكريم إلا مقرونة بالحق ، وحسبها حقاً في خروجها ومسيرها وغايتها ، أن وليها الله ، وأن قائدها رسول الله .

وأما الأخرى : فقد خرجت من دارها بطراً ورثاء الناس ، وقفت حياتها على تأييد الباطل ومناوأة الحق ومطاردة الرسول والمؤمنين ؛ وقد التقى الجمعان على ماء بدر بالقرب من المدينة : الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت .

وهذا أول مشهد شهده الخصمان حرباً في سبيل العقيدة ، وقتالا بين الحق والباطل ؛ فلا جرم أن كان له من الرجاء والخوف في نفوس المسلمين ما يناسب عواقبه الجليلة العظيمة ، إذ عليه يتوقف سير الدعوة الإسلامية وتقرير مكانتها ؛ ولا عجب أن حمل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم — حينما رأى كثرة أعدائه وقلة أصحابه في العدد والعدد — على أن يبتهل إلى ربه ويستغيثه ويستنجزه وعده قائلاً : « اللهم أنجز لى ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلىن تعبد في الأرض » .

صبر المسلمون في القتال وثبتوا لأعدائهم ثبات الجبال ، وآمنوا إيماناً تنزلت عليه الملائكة من السماء ، وكانت ساعة استجاب الله فيها لرسوله صلى الله عليه وسلم ،

ومنح المسلمين ظهور أعدائهم فاتبعوهم، فريقتا يقتلون، ويأسرون فريقتا، وفر من نجا منهم إلى مكة مهزوماً طريداً؛ وكانت النتيجة أكبر من نصر متعارف، وأهم من فوز فريق على فريق؛ كانت آية بيّنة عنت لها وجوه العرب، فأخذوا يتأملون الأمر أكثر من ذي قبل، وينظرون إلى الدعوة نظرهم إلى حقيقة عظيمة تشمل السمع والبصر والفؤاد؛ فلا عجب أن سمي الله يوم بدر فرقاناً بما فرق به بين الحق والباطل، وأن كان ليوم بدر ولأبطاله المؤمنين من المسكنة في الإسلام وفي تاريخ المسلمين ما لم ينله مشهد سواه. وفي ذلك الموقف من الرسول قبيل الموقعة يقول الله جل شأنه: «إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين. وما جعله الله إلا بشرياً ولتطمئن به قلوبكم، وما النصر إلا من عند الله، إن الله عزيز حكيم».

حضرات السادة :

إنه لمن بين الطالع وسعادة المناسبة، أن نتذكر موقعة بدر في ميعادها من هذا الشهر الكريم؛ فقد كانت في السابع عشر من رمضان، وأن نتذكرها وجيوش العرب والمسلمين في فلسطين ما زالت في موقف الجهاد في سبيل الحق الذي جاهد في سبيله المسلمون يوم بدر، وأن نرى الباطل اليوم — كما كان يوم بدر بل أشد وأظنى — متألّباً بجمعه وحوله وطوله على الحق الذي يستمد معونته ونصرته من الله العزيز الحكيم. فإن تكن لنا من الإسلام هداية فهذا يتنا اليوم منه أن نؤمن كما آمن أهل بدر، وأن نثق بأنفسنا كما وثقوا بأنفسهم، وأن نوقن يقيناً لا يخالجه أدنى شك بأن الله الذي أقام السموات والأرض بالحق، وأرسل رسله بالهدى ودين الحق، وأنزل الكتب من السماء قياماً بالحق ودعوة إليه، لا يؤيد جل شأنه الباطل مهما طغى وبغى وكثر أتباعه، على الحق وإن قل أعوانه وأنصاره. وإذا رأيت الباطل مزهواً مختالاً يريد أن يخرق الأرض أو يبلغ الجبال طولاً، فاصبروا له ساعة من الزمان، وارقبوا ما يؤول إليه أمره، فإنه في اضمحلال وإلى زوال، ولا مناص له — طال الزمن أم قصر — من أن تدمغه سنة الله التي لا تحول ولا تزول، بصاعقة من الحق تزلزل أركانه وتهدم بنيانه، ويومئذ يعلم المبطلون الذين حموا هذا الباطل وأقاموه مراغمة لأبسط مبادئ العدالة

أن مقاليد السموات والأرض بيد الله لا بأيديهم ، وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ، لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، .

ألا وإن مثل القضية بين الحق والباطل في التاريخ كثيرة لا تعد ، أشبهها بقضية اليوم موقف مصر وعليها صلاح الدين ، ومعها العرب والمسلمون ، في وجه الصليبيين ؛ ثم في وجههم ووجه التتار جميعاً ... وقفت مصر إذ ذاك للدنيا كلها ، كما تقف اليوم للدنيا كذلك وعليها الفاروق العظيم ، ومعها إخوانها العرب والمسلمون ؛ وكما نصرها الحق بالأمس سينصرها اليوم إن شاء الله ، ومن يعيش يره ، ولتعلن نبأه بعد حين .

أما بعد ، فإنني أبتهل إلى الله جل شأنه في هذه الليلة العظيمة والذكرى المباركة التي تتذكر بها آيات الله وهدى الله في شهر الله رمضان ، أن يؤيد الفاروق العظيم ويمد في عمره ويبسط في ملكه ، وأن يعينه سبحانه ويكلاًه برعايته وتوفيقه فيما وقف نفسه عليه من العمل الدائب والجهاد المتواصل في سبيل النهوض بالامة وتقديمها في سائر مناحي الحياة .

وأسأله سبحانه أن يحزبه خير الجزاء على ما آتاه للمسلمين في مصر وفي خارج مصر من هذه المجالس الطيبة المباركة ، حيث يجتمعون ليستمعوا إلى كتاب الله يتلى عليهم ويتدارسونه بينهم .

كما أسأله جل شأنه أن يؤيد ويرعى بالتوفيق والسداد سائر ملوك العرب والمسلمين ورؤسائهم وأمراءهم ، وأن يعينهم في جهادهم الحق ضد الباطل والمبطلين ، ويسددهم في السلم والحرب ، ويكتب النصر والظفر للمجاهدين ، وأن يعيد على أيديهم دولة العروبة ومجد الإسلام .

والسلام عليكم ورحمة الله .

الاسلام حمى الانسانية من الانهيار

لم تتجل حاجة العالم الى الاسلام مثل ما تجلت في عهدنا هذا .
لقد كان قيام الاسلام في أول وجوده حدا فاصلا بين التدهور الاجتماعى العام ،
وبين العالم كله ؛ وقد لخص المستشرق (جول لا بوم) الفرنسى صاحب الفهرست
لآيات القرآن العظيم ، حالة العالم كله قبيل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، فأثبت بالأدلة
التاريخية أن العالم برمته كان في حالة تنازع وتناحر ، لا يبدأ لامة جأش ، ولا يترك لها
عهد استقرار ، يمكن أن تتطور فيه في الوجهة الأدبية والعلمية ، بل كانت تتطور في التبدل
في هاتين الناحيتين ، حتى لو كانت بقيت على ما كانت عليه لتجردت بعد بضعة قرون
أخرى من كل ما حصله أجدادها من أدب وعلم وصناعة ، وباءت بأسوأ ما يوه به
العارون من هذه الفتوحات العقلية المكملة للإنسانية ، فقال العلامة جول لا بوم :
« حوالى ميلاد محمد في القرن السادس الميلادى ، كان جو العالم متلبدا بغيوم
الاضطرابات والفتن ، .

ثم أخذ يسرد ما كانت عليه الامم قاطبة في جميع أنحاء الارض من التناحر
الوحشى بين الجماعات البشرية ، ثم قال :
« الخلاصة أن جو العالم الأرضى كان متلبدا بسحب القلاقل الهمجية ،
وكان اعتماد الناس على وسائل الشر أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير ، وكان
أجمع الرؤساء للثقة والطاعة أشدهم صيحة في إصلاء نيران الحروب والمعارك ؛
ولم يكن يأخذ بعواطف القلوب ولا يؤثر عليها تأثيرا حادا وإن كان وقتيا لإشياء
واحد ، وهو الغنيمه وسلب الأمم والشعوب والمسدائن والأعيان ورجال
الحروب وفقراء الحرائين وسذج المتسولين ، .

ثم ختم المسيو جول لا بوم مقدمته التفصيلية هذه بقوله :
« في عهد هذه الأحوال الحالكه ، وفي وسط هذا الجيل الشديد الوطأة ،
ولد محمد بن عبد الله في ٢٩ أغسطس سنة ٥٧٠ م . .

وقد ثبت تاريخيا وبشهادة المؤرخين أنفسهم أن المسلمين الأولين انتشروا
في الأرض يبلغون الأمم دعوة الإسلام ؛ فاندفعوا يقتبسون ما صادفوه من العلوم
والصناعات لدى تلك الأمم ، وأخذوا يتدارسونها ويتقنونها ، ودفعهم حب التكمّل

الى البحث عن نصوصها في مصادرها المكتوبة ، فلم يحرقوا ما صادفوه في البلاد التي افتمحوها من الكتب العلمية ، كما كان يفعل غيرهم من الفاتحين ، ولكنهم كانوا يستولون فيها على أمهات المصادر العلمية ، ويستأجرون العارفين بلغاتها لكي يترجموها لهم ترجمة حرفية ، ويغدقون على أولئك الترجمة من المال ما يغريهم على الدؤوب والاجتهاد والتبارى في الإنتاج ؛ ثم أكبوا على دراستها وتطبيقها على العمل ، وساعدتهم في ذلك ملوكهم وأمراؤهم وأسريائهم حتى انتقلت إليهم الخلافة العلمية بعد اليونانيين والرومانيين ، وأصبحت جامعاتهم محط رحال مريدى الاستفادة من جميع الأمم ، وزادوا في مواد العلوم مما اكتشفوه في الطب والكيمياء والطبيعات والرياضيات الخ . ولم يهتموا بالفلسفة على مجافة جمهورهم لها ، لا لاعتبارات وهمية ، ولكن لما ظهر لهم من أنها ترتكز في مقدماتها على الخيالات والظنيات ، وهذه في نظرهم لا توصل الى يقين ، فالشغل بها يكون عرضة للأخطاء ؛ وقد ثبت بعد نظرهم في هذا الموضوع ، وصدقت فراستهم فيه ، فقد اتضح بعد أن رقت العلوم أن كل الظنيات الفلسفية كانت خيالات لا حقيقة لها ، فصرف المسلمون همهم في إتقان العلوم المرتكزة على الأدلة الواقعية ، والمنافع الحيوية ، فارتقت معارفهم ، وتطورت مداركهم ، ووصلوا الى مدى بعيد من الرقي استحقوا به خلافة الله في الأرض . والى القارىء رأى مؤرخى أوروبا في ذلك :

قال العلامة (سديو) Sédillot في كتابه تاريخ العرب :

« كان المسلمون في القرون الوسطى متفردين في العلم والفلسفة والفنون ، وقد نشروها أينما حلت أقدامهم ، وتسربت عنهم الى أوروبا ، فكانوا هم سببا لنهضتها وارتقاءها » .

هل يدري القارىء ماذا كانت أوروبا في ذلك العهد ، وخاصة بعد أن مزقت الحروب الداخلية أحشاءها ، وتوقفت الحركة العلمية فيها قرونا طويلة ؟ .
الاولى بنا في هذا المقام أن نستشهد بالأجانب . قال العلامة (دريبر) في كتابه (المنازعة بين العلم والدين) :

« إن أوروبا في ذلك العهد كانت غاصة بالغابات الكثيفة من إهمال الناس للزراعة ، وكانت المستنقعات قد كثرت حوالى المدائن ، وكانت تنتشر منها روائح

قتالة اجتاحت الناس وأكثهم . وكانت البيوت فى باريز ولوندره تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب . ولم يكن فيها نوافذ ولا أرضيات خشبية . أما الأبسطه فكانت مجهزة لديهم ، وكان يقوم مقامها القش ينشرونه على الأرض نشرًا . ولم يكونوا يعرفون المداخن ، فكان الدخان يطوف الدار ثم يتسرب من ثقب صنعوه له فى السقف . فكان الساكنون فيها معرضين لضروب الإصابات الخطيرة . وكان الناس لا يعرفون للنظافة معنى ، فيلقون بأحشاء الحيوانات ، وأقذار المطابخ أمام بيوتهم أكواما تتصاعد منها روائح قاتلة ، ولا رقيب عليهم . وكانت الأسره تنام فى حجرة واحدة رجالا ونساء وأطفالا ، وكثيرا ما كانوا يؤوون معهم الحيوانات المنزلية .

إلى أن قال : « هذه الجهالة كان من أثرها على أوروبا أن عتمها الخرافات والأوهام ، فأنحصر التداوى فى زيارة الأماكن المقدسة ، ومات الطب وحييت أحاييل الدجاجلة . الخ الخ » .

نقول : احفظ هذا وقابله بما كانت عليه الحالة عند المسلمين فى تلك الأيام ببركة النهضة العلمية والاجتماعية التى أوجدها الإسلام ، ننقله لك عن العلامة درير نفسه فى كتابه المذكور ، قال :

« لم تكن أوروبا العصرية بأعلى ذوقا ، ولا أرق مدنية ، ولا ألطف رونقا من عواصم الأندلس على عهد العرب ، فقد كانت شوارعهم مضاءة بالأنوار ، ومبلطة أجمل تبليط ، والدور مفروشة بالأبسطه ، وكانت تدفأ شتاء بالمواسد ، وتهوى صيفا بالنسيمات المعطرة بواسطة إمرار الهواء تحت الأرض من خلال أوعية مملوءة زهرا ؛ وكانت لهم حمامات ومكتبات ومطاعم وينابيع مياه عذبة الخ .

ويقول فى مواطن أخرى : « إن جامعات المسلمين كانت مفتوحة للطلبة الأوربيين الذين نزحوا إليها من بلادهم لطلب العلم ، وكان ملوك أوروبا وأمراؤها يقدون على بلاد المسلمين ليعالجوا فيها » .

لسنا هنا بصدد أن المسلمين لم يمض عليهم قرنان حتى بلغوا الى هذه الدرجة السامية من الرقى بينما كان الأوربيون فى حالة قهقرى سريعة نتيجة للحروب التى

كانت ناشبة بين جماعاتهم ، ولكننا بسبيل التدليل على أنه لولا المسلمون لاستمرت أوروبا في تدهورها ووصلت الأمم العائشة فيها الى أسوأ مما وصفه العلامة (دربير) ولتلاشى منها كل ميل الى تدارك الخطر ، وانتهى أمر العالم كله الى همجية محضنة . ولكن السنة الإلهية التي شوهدت آثارها في الجماعات البشرية على مدى الزمان ، تدل أن التدهور متى بلغ الى درجة مؤذنة بسيادة الوحشية الباحتة ، بعث الخالق أمة من العدم ، وحلها بالميل التي تدفعها الى الرقي ، وأمدّها بالوحي الذي يرشدها الى الصراط السوي ، فترقى في سنين معدودة الى أرقى ما تسمح به الوسائل المعاصرة ، وتنجي ميراث العقلية البشرية من التلاشى ، وتستولى عليه وتزيده مادة ، وتنتشر في الأرض فتبث في أممها من روحها ما يقف من تدهورها ، وما يمدّها من عوامل حياتها ، فتسترد البشرية نزوعها الطبيعي للبقاء ، وتبلغ ما قدر لها من الارتقاء .

وقد اختار مدبر الكون جل شأنه لإحداث النهضة العالمية الاخيرة الأمة الإسلامية ، فقامت بها ندبت له تحت تأثير الوحي الإلهي ، والقيادة النبوية الملهمة ، فوقفت الحركة القهقرية التي كانت شملت الأمم كافة ، ورسمت لها طريق النجاة ، بما حصلت عليه من التراث الأدبي والعلمي والمدني للبشرية ، وزادت عليه . نعم إن الله يغار على عباده فلا يدعم تحت سلطان الأهواء حتى تؤديهم الى الفناء ، فلو لم تكن الأمة العربية لناط هذه المهمة بأمة أخرى ، ولكنّه اختار العرب ومنحهم هذه الكرامة ، ولا حرج لفضل الله . وقد صرح الكتاب الشريف بذلك فقال تعالى : « وإن تتولوا (أى عجزا عما تستدعيه هذه المهمة العالمية) يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » .

فعلى الذين يكتبون في الإسلام ويعلمونه للناس أن ينوهوا بهذه المهمة الإسلامية الخطيرة ويدلّوا عليها بشهادات الأجانب أنفسهم لها ، كما نفعل ، فإنها تضع الإسلام من الأذهان في مكاتته العليا ، وتكون أفعل في نشره من جميع عوامل النشر .

محمد فريد ومبري

البعوث في الإسلام

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ طه محمد الساكت
مبعوث الأزهر الى مكة المكرمة

عن أبي موسى رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره قال : « بَشِّرُوا وَلَا تَفْشَرُوا ، وَيَسِّرُوا وَلَا تَعْسَرُوا » .

وعن سعيد بن أبي بُردة عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه ومعاذاً الى اليمن فقال : « يَسِّرَا وَلَا تَعْسَرَا ، وَبَشِّرَا وَلَا تَفْشَرَا ، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلَفَا » ، رواهما الشيخان .

حق على الدعاة الى الله عامة ، ومن ولاؤه الله منهم مقاليد الأمور خاصة ، أن يتبينوا تاريخ البعوث في الإسلام ، وكيف كان يتخيرها النبي عليه الصلاة والسلام ؛ فإنما تتمج الدعوة وتوثق أكلها بمقدار إخلاص صاحبها وحسن اختياره . ونحاول هنا ، ونحن في بعث الى البلد الحرام ، أن نقبس من الهدى النبوى في البعوث الإسلامية ، ما نرجو أن يكون للدعاة منارا ، وللهادين ضياءً .

هاجر النبي صلوات الله وسلامه عليه ، من مكة إلى المدينة ، على رأس ثلاث عشرة سنة ، رأى فيها وهو صابرٌ مُصابِرٌ ، من ضروب الأهوال ، ما ينوء بُشْمُ الجبال . وما إن استقر أمر الإسلام أو كاد حتى أخذ عليه الصلاة والسلام يبعث البعوث إلى البلاد النائية ، يجاهدون في الله حق جهاده ، ويدعون إلى الله على هدى وبصيرة ، ويحكمون بين الناس بالحق ، ويفقهونهم في دين الله عز وجل ^(١) .

وكان صلوات الله عليه يوصى بعوثة بوصايا الجامعة ، وعظاته البليغة ، ليكونوا عنوان الهداية وموضع القدوة .

(١) فالمراد بالبعوث هنا : ما يشمل الغزاة والمجاهدين ، والقضاة والمرشدين .

وهذا نموذج من وصيته لما بعث صاحبيه أبا موسى الأشعري ، ومعاذ ابن جبل الى قومهما وبلدهما باليمن ، وكانا من أعلم الصحابة بالحلال والحرام ، وأدراهم بأحكام الإسلام ؛ وأصاهما بخلال ثلاث ، هن جماع الفقه والحكمة ، وعماد العلم والمعرفة ؛ وعليهن يبنى أمر الدين كله أصولا وفروعا ، وآدابا ومكارم ، وبهن أو بما يُردّ إليهن كان يوصى أصحابه في عامة الأمر وخاصة .

الأولى : التيسير ، وهو ضد التعسير ، والمراد به التسهيل على الناس والتخفيف عليهم في الدعوة والعبادة ، والعلم والعمل ، وأخذهم بالتدرج في الأمور شيئا فشيئا ، ولا سيما حدثاء العهد بالإسلام ، ومن قارب حد التكليف من الصبيان ، ليتعمروا على الإسلام وخصاله ، إلى أن يأنسوا به ويهشوا له ، ويختلط بهم اختلاط اللحم بالدم ؛ ولا بأس حينذاك أن يأخذهم ببعض الحزم والشدة . ولو حل الناس على الحق جملة لتركوه جملة . وكم من داعٍ عسر ولم ييسر ، وشدد ولم يخفف ، خاب سعيه ، وضاع أمله ، وذهبت دعوته أدراج الرياح .

إنه لا ينبغي لأحد أن يتصدى للدعوة إلا من بعد أن يفقه سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومنهاجه فيها ، كما لا يحل لإمام أو أمير أن يولها أحدا إلا إذا كان لها كفتاً ، وبها جديرا . لقد بنى هذا الدين على التيسير ، وأشاعه النبي صلى الله عليه وسلم في جميع أقطاره ، وقال : إن الدين يسر ، ولن يُشادَّ الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا ؛ ونهى عن التعمق في الدين ، وشدد النكير على المتعمقين ، وقال : هلك المنتقعون ثلاثا . ودخل المسجد فإذا جبل ممدود بين ساريتين ، فقال ما هذا الجبل ؟ قالوا : هذا جبل لزيئب ، فإذا فترت تعلقت به ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : حاشوه ، ليصلَّ أحدكم نشاطه ، فإذا فتر فليرقد . ودخل على عائشة رضي الله عنها وعندها امرأة ، فقال من هذه ؟ قالت هذه فلانة ، تذكر من صلاتها . قال : مه ، عليكم بما تطيقون ، فوالله لا يمل الله حتى تملوا .

وقالت عائشة رضي الله عنها : ما خيّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه في شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله

فبقيتم الله بها . ودخل المسجد أعرابي فانتحى منه ناحية ، وبال فيها ، فثار اليه الناس وهموا به ، فزجرهم صلوات الله وسلامه عليه وقال دعوه وأهريقوا على بوله ذنوبا من ماء - أو سحجا من ماء^(١) - فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين . وكان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يذكر الناس كل خميس فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن لو ددت أنك تذكرنا كل يوم ! فقال : لا يمنعني من ذلك إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتحولنا بالموعظة خشية السامة علينا . وكانت الحنيفة السمجة فرائض وسننا ، وآدابا وفصائل ، ليأخذ كل من بعد الفرائض بالقسط الذى يسر الله له . ورخص الله للناس فى كل ما يشق عليهم أداؤه ، فأباح للمسافر الفطر فى رمضان ، وأوجبه على من خشى هلاكا أو قاربه ؛ وأمر صلى الله عليه وسلم العاملين على الصدقات أن ييسروا على الأغنياء فى الجباية فيكفوا بالوسط ولا يرهقوهم بأخذ السمين والمنتقى . وسن للمسافر قصر الصلاة ، وأمر الإمام بالتخفيف فيها ؛ فإن فى الناس المريض والضعيف وذا الحاجة . وكان إذا سمع بكاء الطفل ، يتجاوز فى صلاته رفقا بأمه . وكان يأمر بالآخذ بالرخصة ويقول : إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه . . . الى غير ذلك من أمثلة لا يحصيا العدد ، ثابتة كلها فى صحيح الآثار ، ومنتقى الأخبار ، بلغت - أو كادت - مبلغ التواتر .

ومالنا نعدّ الأمثلة ونبسط الأدلة ، وقد علم الناس جميعا أن دين الله هو دين الفطرة ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وأنه واضح المنهج فى عقائده وأحكامه ، سهل المآخذ فى كل أمر من أموره ، وحسب الناظر فيه ومن ابتغاه ديننا أن يعلم أن الأعرابي الجلف كان يجلس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة من نهار ، فيتلقى عنه الدين كله ، فإذا هو خلق آخر ، قد ملئ نورا وهدى ، وكان منذ ساعة قطعة من الظلمات تمشى على الأرض .

لا جرم أن الدين يسر ، ولكن لا يحسن الذين لا يفقهون ، أن يسره أو التيسير فيه ، يدعو إلى النهاون فى أمره ، أو التساويل فى نصوصه ، أو تتبع الرخص التى تروى عن علمائه والفقهاء فيه ؛ فإن الدين حبل الله المتين ، وصراطه

(١) الذنوب والسجل : الدلو ، وأو للشك من الراوى فى أى اللفظين قاله صلى الله عليه وسلم .

المستقيم ، لم يكن فى شأن من شئونه غالبا ولا جافيا ، وكان بين ذلك قواما ، لا إفراط ولا تفريط .

إنه ليوشك من تأول فيه لشهوة أو هوى ، أو تهاون فيه عن عمى وجهالة ، أو تتبع الرخص المروية هنا وهناك ، يتأنفها تلقف المتلاعبين ، أو يعتمد عليها اعتماد الجاحدين المهوسين ! إنه ليوشك هؤلاء جميعا أن يخرجوا من الدنيا بغير دين .
فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم .

قال شراح الحديث - وذلك من أحسن ما قالوا - : وإنما أردف صلى الله عليه وسلم أمره بالتيشير نهييه عن التعسير ، مع أن الأمر بالشئ يستتبع النهى عن ضده ، تقوية وتوكيدا ، حتى لا يدع لمتنطع عذرا ؛ على أنه لو اقتصر على التيسير لتحقيق امثال الأمر مرة واحدة ، وإن عسر مرارا ؛ فلما قرنه بالنهى عن التعسير ، فهم أن المراد المداومة على التيسير .

تلك الجملة الأولى من الحلال الثلاث . وإذا ضاق المقام عن استيفاء الخلتين الآخرين ، فالموعد عددنا الآتى ، إن شاء الله ؟

تصيد الدراهم

قال الأصمعى : كنت عند الرشيد إذ دخل عليه إبراهيم الموصلى فأنشده :
وآمرة بالبخل قلت لها اقصرى فليس إلى ما تأمرين سبيل
فعالى فعال المكثرين تجملا ومالى كما قد تعلمين قليل
فكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى ورأى أمير المؤمنين جميل
فقال الرشيد : لله آيات تأتينا بها ما أحسن أصولها ، وأبين فصولها ! يا غلام أعطه عشرين ألفا . قال الموصلى : لا أخذت منها درهما . قال الرشيد : ولم ؟ قال : لأن كلامك يا أمير المؤمنين خير من شعري ! . قال : أعطوه أربعين ألفا . قال الأصمعى : فعلت أنه أصيد لدراهم الملوك منى .

الحج عن الغير

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكري ياسين
المدير المساعد لإدارة البحوث والثقافة بالأزهر

يكثّر الكلام بين الناس عند كل موسم من مواسم الحج ، حول موضوع الحج عن الغير ، ويمتد حديثهم عنه ، واهتمامهم به ، الى حدّ التساؤل عن أصله وحكمه ، وعمّا يقع من إيفاد بعض الأفراد كل عام للحج عن غيرهم ، وعمّا يرصده بعض الأشخاص من الأموال والاحباس للإنفاق منها بعد موتهم في هذا السبيل ، وهل لذلك كاه أصل في الإسلام ، وجاءت به أحكامه ؟ أو هو أمر جرى به متعارف الناس ومألوفهم ؟ .

وقد رأينا من أجل ذلك ، أن نؤثر هذا الموضوع الهام ، بالكتابة فيه ، رعاية لمناسبة موسم الحج ، وإرواءً لغلّة المتحدثين فيه .

* * *

معروف أن من بين التكاليف الشرعية العملية ، العبادات ؛ ومعروف أيضا أن العبادات تتنوع الى أنواع : فمنها ما هو مالى محض كالزكاة ، ومنها ما هو بدنى محض كالصلاة ، ومنها ما هو مركب منهما كالحج ؛ فالأولى تقبل النيابة مطلقا في حالتي الصحة والمرض ، لحصول المقصود - وهو إيصال النفع الى الفقراء - بفعل النائب ؛ والثانية لا تقبل النيابة بحال ، لأن المقصود - وهو تركية النفس ، والاتصال بالخالق - لا يحصل بفعل النائب .

أما الثالثة ، وهى الحج ، فالجمهور من الفقهاء على أنها تقبل النيابة ؛ فمن عجز عن الحج بنفسه ، وجب عليه أن يستنيب غيره ليحج عنه ، ولكنهم اختلفوا بعد ذلك فى الشروط والالتزامات ، والأوصاف والأحوال ، التى يجب أن تتوفر فى الحاجّ والمججوع عنه ؛ وقد نمحا كل فريق منهم فيها المنعنى الذى

يوافق أصول مذهبه ، ويتفق مع قواعده ، وهي مبسطة في كتب الفروع ، فليرجع إليها من أراد .

أما غير الجمهور فإنه يرى أن الحج وإن كان عبادة مركبة من بدنية ومالية ، إلا أنه قد غلب فيها جانب البدنية ، فهي لا تقبل النيابة ؛ فمن كان عليه حجة الإسلام ، فلا يجوز له أن ينوب من يحج عنه ، سواء كان صحيحاً أم مريضاً ترجى صحته ؛ ومن عجز عن الحج بنفسه ، ولم يقدر عليه في أى عام من حياته ، فقد سقط عنه الحج بناتاً ؛ وإذا استأجر من يحج عنه ، سواء كان صحيحاً أم مريضاً ، وسواء كان الحج فرضاً أم نفلاً ، فإنه لا يكتب له أصلاً ، بل يقع نفلاً للأجير ، وللمستأجر ثواب مساعدته على الحج ، وبركة الدعاء الذى يدعو به .

وقد اعتمد الجمهور فى الاستدلال لمذهبه على ما صح عنده من أحاديث وآثار ، وبخاصة ذلك الحديث المشهور المعروف بحديث الخثعمية ^(١) وهو ما أخرجه البخارى عن ابن عباس ، قال : « كان الفضل رديف النبي صلى الله عليه وسلم ، فجاءت امرأة من خثعم ، فجعل الفضل ينظر اليها وتنظر اليه ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يصرف وجه الفضل الى الشق الآخر ، فقالت : إن فريضة الله أدركت أبى شيخاً كبيراً ، لا يثبت على الرحلة ، أفأحج عنه ؟ قال : نعم ، وذلك فى حجة الوداع » . قال ابن العربى : حديث الخثعمية أصل متفق على صحته فى الحج ، خارج عن القاعدة المستقرة فى الشريعة من أن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وفقاً من الله فى استدراك ما فرط فيه المرء بولده وماله .

* * *

هذا هو وضع المسألة فى ذاتها ، وبحسب ظاهرها الفقهى ، ولكن الواقع أن للمسألة وراء هذا الوضع ، سرائر كئيباً ، وأصلاً دقيقاً ، هو مثار الخلاف فيها ، والنزاع عليها ، وقد اصطخبت حوله الآراء ، وتشعبت فيه الأفكار ، ووقف منه بعض العلماء موقف القبول والتأييد ، كما وقف منه البعض الآخر موقف الرد والتفنيد . وهذا الأصل - وقد أشار اليه ابن العربى فى كلامه السابق - هو : أن الإنسان إذا جعل ثواب عمله لغيره - صلاة كان هذا العمل ، أو صوماً ، أو حجاً ، أو صدقة أو قراءة قرآن ، أو ذكراً ، أو غير ذلك ، من جميع أنواع البر - هل يجعل بهذا

(١) نسبة الى خثعم وهي قبيلة مشهورة .

الجعل ، ويصل الثواب الى ذلك الغير ، وينفعه ؟ أو أنه لا يجعل ، بل يلغو ، ولا يصل الثواب الى الغير ، ولا ينفعه ؟ .

وقد افترق العلماء حيال هذا الاصل ، الى فريقين : فريق يرى أنه ليس للإنسان أن يفعل شيئاً من ذلك ، وأنه لا يصل الثواب ، ولا يحصل الانتفاع به ، واستدل على رأيه هذا ، بقوله تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يُرى » ، وبحق قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ، وقوله : « لا يصوم أحد عن أحد ، ولا يصلي أحد عن أحد » .

والفريق الآخر يرى أن الإنسان له ذلك ، وأن الثواب يصل ، وينفع ؛ وقد استدل بما جاء في الصحيحين ، من « أنه صلى الله عليه وسلم ضحى بكبشين أملحين ^(١) ، أحدهما عن نفسه ، والآخر عن أمته ؛ وبما جاء في سنن ابن ماجه ، من أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أن يضحي يشتري كبشين عظيمين سميين ، أقرنين أملحين ، موجهين ، فذبح أحدهما عن أمته ، بمن شهد الله بالوحدانية ، وله بالبلاغ ، وذبح الآخر عن محمد وآل محمد ، ؛ وبما رواه ابن أبي شيبة من « أنه صلى الله عليه وسلم ، أتى بكبشين أملحين عظيمين ، أقرنين موجهين ، فأضجع أحدهما ، وقال : بسم الله ، والله أكبر ، اللهم عن محمد وآل محمد ؛ ثم أضجع الآخر ، وقال : بسم الله ، والله أكبر ، اللهم عن محمد وأمته ، بمن شهد لك بالتوحيد ، وشهد لي بالبلاغ ، ؛ فإن هذه الروايات كلها ، تدل على أنه صلى الله عليه وسلم ، جعل تضحية إحدى الشاتين عن أمته ، وجعل ثوابها لها ؛ وهذا تعلم منه عليه الصلاة والسلام ، أن الإنسان ينفعه عمل غيره .

وقد استدلوا أيضا بما روى عن أنس أنه سأله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « يا رسول الله إنا نتصدق عن موتانا ، ونحج عنهم ، وندعو لهم ، فهل يصل ذلك إليهم ؟ » قال : « نعم ، إنه ليصل إليهم ، وإنهم ليفرحون به ، كما يفرح أحدكم بالطبق إذا أهدى إليه » .

فهذه الآثار كلها ، وكثير في السُّنة غيرها ، يبلغ القدر المشترك فيها ، بين الكل ، مبلغ التواتر ، وهو أن من جعل شيئاً من الصالحات لغيره ، نفعه الله به .

(١) الملة : ياض يشوبه شررات سود .

وليس هذا فقط ، فقد جاء في القرآن الكريم الأمر بالدعاء للوالدين ، في قوله تعالى : « وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا » ، كما جاء فيه الإخبار باستغفار الملائكة للمؤمنين في قوله تعالى : « والملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لمن في الأرض » ، وفي قوله : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ، ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا » ، وساق عبارتهم : « ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك » ، إلى قوله « وقهم السيئات » — فهذا كله قطعى في حصول الانتفاع بعمل الغير ؛ وهو — كما ترى — يخالف ظاهر آية : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » ، إذ ظاهرها أنه لا ينفع استغفار أحد لأحد بوجه من الوجوه ، لأنه ليس من سعيه ، فلا يكون له منه شيء ، فيجب إذن القطع بانتفاء إرادة ظاهر الآية ، ويحتمل حينئذ أن تكون مقيدة بالثواب الذى لم يهبه العامل لغيره ، أما الذى يهبه لغيره ، فإنه يصل وينفع ، ويكون المراد من الآية على هذا ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى : أى إلا إذا وهبه العامل له ، فإنه يصل وينفع .

أما حديث : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث » ، فقد ردوا على المستدلين به ، بأنه إن دل على انقطاع عمل الميت ، فإنه لا يدل على انقطاع عمل غيره ، والكلام فى عمل الغير ، لا فى عمل الميت ، على أنه ليس فيه شيء مما يستبعد عقلا ، لأنه ليس فيه إلا جعل ماله من الأجر لغيره ، والله تعالى هو الموصل إليه ، وهو قادر عليه ، ولا يختص ذلك بعمل دون عمل .

وأما حديث : « لا يصوم أحد عن أحد » ، ولا يصلى أحد عن أحد ، فقد قالوا فى الرد على من استدل به : إن ذلك فى حق الخروج عن العهدة ، وسقوط الفريضة ، لا فى حق الثواب ، والانتفاع به .

هذا هو الأصل السكامن وراء تلك المسألة ، والمثير للخلاف فيها ؛ وهذا هو تفصيل موقف العلماء منه ، وبيان حججهم ، وردودهم ؛ والظاهر من مجموعها ، رجحان رأى القائل بوصول الثواب إلى الغير ، والانتفاع به ، إذا شاء الله تعالى .

دعائم الاستقرار

في التشريع القرآني

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدني
المفتش بالازهر

الدعامة الثالثة :

قد يقتنع الناس بحاجتهم الماسة إلى التقييد بتشريع معين في جانب معين ، وبأن السلطة التي صدر عنها هذا التشريع هي سلطة ذات حق مسلم به في إصداره وتنفيذه ؛ وبهذا وذاك يتبها لهذا التشريع عاملان من عوامل تقبله وارتياح النفوس إليه ، والنزول على حكمه .

ولكن هناك عاملا ثالثا لا بد منه في استقرار هذا التشريع ، وبقائه محترما ، وعدم تعرضه للعواصف النفسية التي من شأنها إذا ثارت أن تقتلع القوانين ، وتطيح بالنظم . هذا العامل هو ما نغنيه « بالدعامة الثالثة » من دعائم الاستقرار في التشريع القرآني ؛ وهو إقناع المكلفين بأن القيود التي أتى بها هذا التشريع قد جاءت على قدر الحاجة دون شطط ولا إسراف ، وعلى قدر الاستطاعة دون تعجيز ولا إعنات .

وقد عني القرآن الكريم أشد العناية ببيان أمرين عليهما تقوم جميع التكاليف الإلهية ، وفي دائرتيها كانت جميع الواجبات الإنسانية :

أحدهما : كون الشريعة وسطا ، أو « صراطا مستقيما » .

والثاني : بحجى التكاليف في حدود الاستطاعة البشرية ، وهو ما يعبر عنه أهل الشرع « بنفى الحرج » .

فأما كون الشريعة الإسلامية وسطا ، فهو ظاهر فيما كلفنا به من العقائد ، وفيما كلفنا به من العبادات ، وفيما رسم لنا من قواعد السلوك الاجتماعى المعبر عنه فى الفقه « بالمعاملات » .

١ — فمن ذلك : أن العقيدة الإسلامية فى الله جل جلاله ، قائمة على وصفه تعالى بكل جميل ، وتنزيهه عن كل قبيح ، وقد أمرنا بأن نفكر فى آثار الله ، ولم نؤمر — بل نهينا — أن نفكر فى ذات الله : لأن آثار الله فى الخلق والإيجاد والتصريف واضحة يمكن أن نراها بعقولنا كما نراها بعيوننا ، وأن نسبح فيها السبح الطويل دون أن نخشى ضلالا أو نخاف تبها ؛ أما ذات الله فهى فوق العقول التى ألفت التقدير والتكييف ، والتحديد والقياس والتشبيه .

هذه العقيدة فى جانب الألوهية كافية للإيمان ، ولو أن امرأً لقي ربه وهو يعلم أنه إله واحد قادر متصف بجميع صفات الكمال ، منزّه عن جميع صفات النقص ، لكان إيمانه عند الله مقبولا .

وقد ركب متن الشطط قوم حاولوا أن يخوضوا بعقولهم فى هذا المجال ، إذ حسبوا أنهم قادرون على إدراك ذات الله وكنه صفاته ، وعقدوا ما شاموا بين الذات والصفات من نسب ، واختلفوا فى أن الثانية هى عين الأولى أو غيرها ، وفى أنها قائمة بها أو مستقلة عنها ، وفى أنها قديمة بقدمها أو لا كقدمها ، إلى غير ذلك من الظنون والفروض التى شغلوا بها أنفسهم وشغلوا بها الناس ، وفتحوا بها على العقول أبواب الشكوك والفتن ، وهم فى ذلك إن لم يشبهوا فقد قاربوا ، وقالوا على الله بغير علم ، كما زعم الذين قالوا : اتخذ الله ولدا ، أو الذين قالوا : الملائكة بنات الله . فالكل ينسب إلى الله ما لم يأذن به الله ، ويحاول أن يتصور الألوهية تصورا ماديا ، مع أن حقيقة النفس الإنسانية والروح البشرية لم تدرك ، ولم يعلم على وجه يصح ما هى ولا كيف هى ؟ !

كما ركب متن الشطط قوم تناسوا الله وخلقه وتصريفه وقدرته ، فزعموا أن هذه الدنيا وليدة المصادفات أو التفاعلات ، كذلك وجدت ، وكذلك ستظل حتى يصادفها الفساد ، ويدركها نوع من الخلل فى النسب والمقاييس .

اشتط هؤلاء وهؤلاء ، ووقف كل منهما في جانب الألوهية على طرف مناقض : قوم يؤمنون بالإله ولكنهم يقهملون عقولهم فيما ليس لها طاقة به من معرفة كنهه وحقيقته ، وقوم يكفرون به وينكرونه وتعمى قلوبهم عن آياته وآثاره ؛ والقرآن الكريم ينادى أولئك وهؤلاء أن الهدى غير ما تزعمون « وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

يقول الله عز وجل في حض العباد على التفكير فى خلقه وآثاره وماله من تصريف وتدير : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الأبالباب » « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » « فانظروا كيف بدأ الخلق » « انظروا إلى ثمرة إذا أثمر وينعه » « فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها » « قل سيروا فى الأرض ثم انظروا » « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

ويقول الله عز وجل فى وصف نفسه ، وإعلام المخلوقين بأنه فوق ما يعقلون وما يدركون : « وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير » « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » « وجعلوا لله شركاء الجنّ وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون . بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ؛ وخلق كل شىء ، وهو بكل شىء عليم . ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » .

فالقرآن الكريم لم يأت لنا أبداً بشىء يفصح عن ذات الله تعالى من حيث الحقيقة والكنهه ، وإنما هو يلفت دائماً إلى آثار الله فى الخلق والتصريف .

وقد قص الله علينا ما كان من نقاش بين نبيه موسى عليه السلام ، وفرعون حين أعلنه بأنه مرسل من رب العالمين ، فأراد فرعون أن يمكر به ، وأن يقهمه فى ورطة لا خلاص له منها : « قال فرعون : وما رب العالمين ، سأل عن حقيقة الرب ، لأن السؤال بما ، لطلب الحقيقة ، فلو حاول موسى أن يجيبه عما سأل لحاول محالا ، وأثار على نفسه نقاشاً وجدالاً ، ولو سككت عن الجواب لبان عجزه ؛ ولكن

موسى رد على فرعون رداً حكيماً ، قال : رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ، فكأنه قال له : ليس لك أن تسأل عن ذات الله وحقيقته ، فذلك فوق عقلك وفوق قدرتك وفهمك ، ولكن سل عن آثاره تعلم أنه رب كل شيء في السماء والأرض وما بينهما خلقاً وتصريفاً وحكماً وعِلماً . وهذا هو الجواب الحق ، لأن ذات واجب الوجود سبحانه وتعالى يستحيل أن تعرف بالمساهية التي تستدعي التركيب من الأجزاء ، فلم يبق إلا أن يعرف بآثاره وأفعاله ؛ وقد تناسى فرعون ذلك لأنه لا يريد إلا المجادلة بالباطل : « قال لمن حوله : ألا تستمعون ؟ ، يعنى فلتعجبوا له ؛ أنا أسأله عن المساهية والحقيقة ، وهو يجيبني بنسبة الآثار إليه خلقاً أو تصريفاً . وعندئذ عدل موسى إلى جواب آخر : « قال : ربكم ورب آبائكم الأولين ، وفيه أيضاً معنى لفته إلى عدم إمكان السؤال عن الذات ، مع انتقال إلى بيان أثر آخر من آثار القدرة الإلهية هو أقرب وضوحاً من الأول ، لأن أمر السموات والأرض ربما أشكل على بعض العقول ، أما شعور العاقل بأنه مخلوق متناسل من مخلوقين فهو أقرب قبولاً ، وليس من السهل إنكاره . ولكن فرعون أصر على أن الجواب غير السؤال ، واشتد في هذه المرة ما لم يد في المرة السابقة : « قال : إن رسولكم الذى أرسل إليكم مجنون ، أى فهو لا يفهم السؤال فضلاً عن أن يجيب . وهنا أجابه موسى بأثر آخر من آثار القدرة الإلهية هو أشد الآثار وضوحاً وجلالاً : « قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون . فالمشرق يشير إلى طلوع الشمس وظهور النهار ، والمغرب يشير إلى غروبها ومجيء الليل ؛ وهذان أمران دائماً مستمران لاشك أنها عن تدبير وقدرة من مدبر قادر .

في هذا كله يظهر لنا مبلغ إصرار فرعون ، وهو المتكلم بلسان أهل الباطل والإضلال ، على اقتحام ما لا يقتحم ، ومحاولة البحث عما لا سبيل إلى معرفته ، ليتخذ ذلك سبيلاً إلى الفتنة والشك ، وإلقاء الريب في النفوس المستعدة بطبعها للإيمان ؛ ويظهر لنا إصرار موسى ، وهو المتكلم بلسان أهل الحق والهداية ، على صرف الحديث عن ذلك المقتحم الصعب ، والاكتفاء بمعرفة الله عن طريق آثاره وآياته ؛ وهذه ولا شك سبيل المؤمنين ، وهى سبيل وسط بين المبالغين في تصور الألوهية كما تصور المادة ، والمبالغين في إنكارها مع وجود آثارها ، ووضوح أفعالها وتدبيرها .

فهذا مثال من التوسط في العقيدة ؛ ولنا غيره من المثل لو أردنا استقصاء
لما اتسع لنا مجال هذه المقالات ، ولكفنا نشير الى بعضه :

٢ — فمن ذلك عقيدة الإسلام في التوسط بين الزاعمين بأن الإنسان مجبور
ظاهرا وباطنا ، والزاعمين بأنه خالق لكل فعل من أفعال نفسه دون دخل لله .

في القرآن آيات يستدل بها هؤلاء ، وآيات يستدل بها هؤلاء ، والنقاش
والجدال بينهما طويل ؛ ولكن التأمل المنصف الخالي من التعصب يستطيع أن يعلم
الحق ، وأن يراه واضحا في كتاب الله ، كما هو واضح في الواقع .

بيان ذلك : أن كلاً منا يشعر في نفسه بأمرين لا يستطيع أن يجادله فيهما
مجادل : أحدهما : أنه فاعل متصرف يأتي الشيء بإرادته ، ويمتنع عنه بإرادته ،
فن قال إنه مجبور على الأفعال كالريشة في مهب الريح فقد أنكر هذا الإحساس ؛
والثاني : أنه مع ذلك تحيط به ظروف وأسباب في الكون والمجتمع ، خارجة
عن إرادته ، ليس له في تكيفها تأثير ، وهذه الظروف قد تعطل إرادته في بعض
الاحيان فلا يتم تنفيذها ، وقد تلائم هذه الإرادة فتم ؛ فإذا نظرنا إلى هذه
الظروف وتلك التأثيرات الخارجة عن إرادة الإنسان ، والتي لها حظ
في التمام أو عدم التمام ، كان لنا أن نعتبر أن إرادة الإنسان ليست هي كل شيء ،
وأنه لا يتم بمجرد حصول شيء من الأشياء أو عدم حصوله ؛ ولما كانت
هذه الأسباب ، أو هذه الظروف ، ليست من صنع فرد أو أفراد ، أو هي منتبهة
إلى أن تكون كذلك ، وأن ترجع إلى الخالق جل وعلا ، علمنا أن للعبد جانبا
من الفعل والإرادة ، وأنه مسوق فيما وراء هذا الجانب بقوى ، وخاضع
لأسباب من صنع الله .

على أن إرادة الإنسان فعل شيء من الأشياء لا تأتي ارتجالا ، وإنما تتكون
حسب التأثيرات المحيطة به أيضا ، وربما كان لإرادة الغير تحكم فيها من حيث
لا يشعر الإنسان .

فالحاصل : أن الإنسان فاعل مختار ، ولكن في نفس الوقت مقيد
بما يشعر به وما لا يشعر به من القيود التي تفرضها الظروف والأسباب
والأحوال المحيطة به ؛ فالأمر في شأنه وسط . وبمثل هذا نفهم معنى قوله تعالى :

« والله خلقكم وما تعملون » حيث أسند الفعل للعبد والخلق لله ؛ فالعبد مباشر ، والله هو المهيء لأسباب تلك المباشرة ، ولولا تهيئته لم تتم . وكذلك نفهم مثل قوله تعالى « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » وقوله « إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده » ، ونفهم لماذا فعل الفعل ونسأل الله فيه التوفيق .

٣ — كما يفيدنا ذلك أيضا فى إدراك معنى التوكل الصحيح الذى هو مزيج من الثقة بالله والتوجه إليه ، والتماس الأسباب والسعى لها ؛ فالتوكل الصحيح توسط بين الذين يعتقدون أن الأمر كله للأسباب والأمر المادية ، والذين يظنون أن التوجه الى الله يقتضى إبطال السعى والعمل .

٤ — ومن الأمثلة التى تدل على أن ما جاء به الإسلام من العقائد وسط ، منهج الحذاق فى الإيمان بالغيب ، حيث يتوسطون فلا ينكرون شيئا ورد عن المعصوم ، ولو خالف بظواهره العقل ، ولا يتوسعون فيؤمنون بتفاصيل لم ترد عن طريق صحيح كما يفعل الجاهلون والمسرعون الى تصديق كل ما يروى دون فحص ولا تثبت .

الى غير ذلك من المثل التى نرى فى القرآن توضيحا لها وتبيانها ، ولا يتسع المجال لبسطها والإفاضة فيها .

وكما يقال هذا فى العقائد الإسلامية ، يقال فى العبادات التى كلفنا الله بها ، والمعاملات التى رسم لنا طريق السلوك فيها .

فالصلاة : انقطاع عن المادة واتصال بالروح الأعلى ، ولكن فى أوقات مناسبة محصورة ، بحيث لا ينخلع الإنسان من حياته وأعماله ونشاطه ، ولا ينخرط فيها انخراطا كليا فتظلم نفسه ، ويتبدل حسه . والصوم ليس حرمانا كاملا بالليل والنهار ، أو قصرأ على بعض المباحات دون بعض ، وإنما هو حرمان وقى لمدة ساعات محدودة ، لك بعدها أن تتناول كل ما تريد من المباح ، وأن تلبس ما أحل الله لك ، فيجتمع لك من هذا وذاك تربية الروح ، وتليمة الجسم .

وقل مثل هذا في الزكاة، والحج، والنكاح، والطلاق، وحل البيع، وحرمة الربا، والاعتراف بالحرب مع النهي عن الاعتداء، والأمر بأخذ الحذر مع النهي عن الإسراف في التظن، وتشريع القصاص مع العدل والمساواة فيه، وإباحة الانتصار للنفس مع الترغيب في جانب العفو، وغير ذلك مما كلفنا الله تعالى به، وكانت سنة الإسلام فيه التوسط، دون ميل إلى جانب التفريط، أو جنوح إلى ناحية الإفراط.

والقرآن الكريم يعبر عن هذا المبدأ الذي تظهر آثاره في كل تشريع بمثل قوله «وكذلك جعلناكم أمة وسطا»، «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا»، «كلا واشربوا ولا تسرفوا»، «وكان بين ذلك قواما»، «إنه لا يحب المسرفين»، «ولا تطيعوا أمر المسرفين»، «إن الله لا يهدي من هو مسرف»، «وأحل الله البيع وحرم الربا»، «لا تظلمون ولا تظلمون»، «لا تضارّ والده بولدها ولا مولود له بولده»، «وإما تخافن من قوم خيانة فأنذ إليهم على سواء»، «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله»، «ولكم في القصاص حياة»، «يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم»، «ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا»، «ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل. إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبيعون في الأرض بغير الحق»، «وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم».

إلى غير ذلك من الآيات ؟

«يتبع»

استعطاف

كتب النابغة الذبياني للنعمان بن المنذر ملك الحيرة بالعراق في الجاهلية يتنصل إليه بما بلغه عنه من أبيات :

فإن أك مظلوما فعبد علمته	وإن تك ذا عتب فثلك يعتب
حلفت فلم أترك لنفسك رية	وليس وراء الله للرم مذهب
لئن كنت قد بلغت غنى جناية	لمبلغك الواشي أغش وأكذب
ألم تر أن الله أعطاك صورة	ترى كل ملك دونها يتذبذب
فإنك شمس والملوك كواكب	إذا طلعت لم يبد منها كوكب

عدة المؤمنين في وقت الحرج

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ عبد الرحيم العدوى
شيخ معهد فؤاد الأول بأسوط

لا يخلو إنسان في هذه الحياة التي ملئت بالكوارث والحروب والنوازل والخطوب، من هم يقض عليه المضاجع، أو شجن يستثير المدامع، أو حسرات تنم عنها في الغالب الزفرات؛ غير أنهم متفاوتون في أشجانهم، متباينون في أحزانهم؛ هذا يبكي الطلول التي خلت من أقمارها، ويندب أحبابا كانوا كالزهور في أكامها، وذاك بنوح على فلذة كبد طواها الردى وضماها الثرى، وآخر تهيج به ذكريات حسب ضاع ونسب أبيد؛ وغير هؤلاء وهؤلاء من ليس على غرارهم أزججه أن غاض معين الوفاء، ونضب سلسبيل الهناء، يذكر الاصدقاء وخيانتهم، والابناء وعقوقهم، ويسكب الدمع السخين في لآثر أمل ضائع، وأمانى صارت كالسراب. وهناك رجل آخر يقول: ما بال هذا الزمان أضيق رزقا، وأنضب حياء، وأفسد خلقا، وأقل سعادة وأنسا، ربما يتساوة الحياة، وفرارا من جمود الواقع. يضعف عن احتمال الشدة، ويضيق ذرعا بمرارة العيش. وليس كل أولئك بذوى أشجان، عند الباحث الفيلسوف، الذي يستشف هواجس النفوس، وينظر من وراء حجاب إلى خلجات الضمائر، وإن كانوا خليقين بهذا الاسم في نظر العواطف؛ بل الحقيق بأن يكون ذا شجن في نظر الفيلسوف، ذلك الشخص الذي يقبل الدهر له ظهر المجن، في كل خطوة يخطوها، فكلمة بنى صرحا لوطنه، هدمه الزمن، وكلما وضع لبنة في سبيل هناء الجماعة، ذهب بها الأيام، وأتت عليها. وكذلك الشخص الذي يكون مطمئع النفوس، وموئل الرجاء، فيخيب أمل الناس فيه، ويتلاشى رجاءهم عنده؛ هو أيضا حرى بأن يكون من ذوى الأشجان، في نظر الباحث الفيلسوف.

وإذا كان قد قدر لكل قلب أن يأخذ نصيبه من آلام الحياة وأشجانها ، فقد قدر للآلم أيضا هذا النصيب ، وهيء لها مكانها بين الزعازع . وفي تقلبات الايام ، وحوادث الزمن صور شتى لتلك المآسى بين الآلم ، هي أدلة يقينية على أنها لا تمتاز عن الفرد إلا فى الشكل ، لا فى الموضوع .

وقد أنشأ الله الحياة الدنيا لتكون دار محنة وبلاء لعباده جميعا حتى الانبياء أخذوا من المحن والبلايا بنصيب ، فجاهدوا الباطل ، وجالدوا أهل العناد ؛ دعوتهم الحق ، والحق على أولئك ثقیل ، وعدتهم الصبر ، والصبر كليل .

فلا غرو إذا عاشوا غرباء فى الارض ، لأنهم من السماء ، وكانوا أمثلة لبؤس العيش ، لأنهم مثل عليا للمواعظ والعبر ؛ ومصدق ذلك قول الله عز وجل فى الكتاب الحكيم ، مخاطبا المؤمنين «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم : مستهم البأساء والضراء ، وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ، ألا إن نصر الله قريب » . على أن ضيق الرسل بالشدائد لا يكون إلا بمقدار ما فيهم من صفات البشر ، وما جبلوا عليه من غرائز الإنسان ، ولكن لا تلبث آلامهم أن تتلاشى ، ووقع الخطوب على نفوسهم أن يهين ، حين تشع على قلوبهم ما فيهم من قوة الروح ، وما بين جوانبهم من قوى اليقين .

وقد رسم الله لعباده المؤمنين طريقا يسلكونه فى وقت الشدائد ، ويلوذون بكنفه فى المحن ، ويلجئون إليه إذا عبس الدهر أو تنكر الزمن ؛ طريقا معبدا غير ذى عوج ، وسبيلا ممهدا لا يحتاج لاكثر من بقطة الضمير وانتباه النفس والإحساس الصادق السليم ؛ فالؤمن الحق يحمل بين جنبيه عقيدة صادقة ، تهدى البصر ، وتبهر البصيرة ، وتحول بينه وبين المخالفة والعصيان ، وتغرس فى الغرائز النفسية القوة والصلابة ، فلا يتبرم بخطب ، ولا يهن عند شدة .

على أننا لو مُنحنا فصاحة سحبان ، أو بلاغة الأيادى ، ما كان فى مكتنتنا حصر الآثار الكريمة لعقيدة الإيمان ، ولا الإتيان على ما تلده من فضائل . فلنكتف إذا بسرد بعض تلك الآثار ، وعرضها فى صور محدودة ، وهى إذا تمت للؤمن ، لقي الشدائد بقلب المطمئن الآمن ، وتحمل الأزمات بصبر أولى العزم ، نخدم أمته ووطنه ، فى وقت الحرج .

فمن سلاح المؤمنين في وقت الحرج : الإقلاع عن الذنوب ، واتقاء المخالفة ، وتطهير النفس من دخائل الحقد والضغينة ، والإجابة إلى الله ، والرجوع إلى حمائه ، واستدراك ما فات من التقصير ، فإن الشدائد أغلب ما تكون جزاء عن المعاصي ، والغفلة عن عقاب الله : « إن الله لا يُغَيِّر ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال » ؛ ومن عدة المؤمنين في وقت الشدة ، ومن ذخائره في الأزمات : الصدق ، الذي يقول فيه الرسول الكريم : « تحروا الصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر ، والبر يهدي إلى الجنة ، وإن المرء ليتحري الصدق ، حتى يكتب عند الله صدقاً » .

وقال الأحنف بن قيس لابنه : يا بني ! يكفيك من شرف الصدق أن الصادق ليقبل قوله في عدوه ؛ ومن دناءة الكذب أن الكاذب لا يقبل قوله في صديقه ولا عدوه .

قيل : مرَّ عمر بن الخطاب بعجوز تبيع اللبن ، فقال : يا عجوز ! لا تغشى المسلمين ، ولا تشوبى لبنك بالماء . فقالت : نعم يا أمير المؤمنين . ثم مر عليها بعد ذلك فقال : يا عجوز ! ألم أعهد إليك أن لا تشوبى لبنك بالماء ؟ فقالت : والله ما فعلت يا أمير المؤمنين . فتكلمت بذت لها من داخل الخباء ، فقالت : يا أماء ! أغشوا وحنثاً ! فسمعها عمر ، فأعجبته ، وقال لولده : أيكم يتزوجها ، فلعل الله أن يخرج منها نسمة طيبة ؟ فتزوجها ابنه عاصم ، فكان من ذريته سيدنا عمر بن عبد العزيز .

فالصدق في كل الأحوال حسن ، طيب الأثر ، ونو في وقت الحرج أنسب بالمؤمن ، وألصق بعقائد المؤمنين ؛ فالمؤمن يصدق في القول ، فلا يكذب ، ولا ينشر الإشاعات الكاذبة ، التي ترهف الأعصاب ، وتهيج النفوس الآمنة ، وتجنح على الأمة والوطن البلايا ، من الخوف والذعر ، والفوضى والاضطراب .

فالذي يكون سبباً في حصول هذه الزلزلة ، يكون عضواً فاسداً في الأمة ، يجب بتره ، لتوفر للأمة طمأنينتها ، ويجتمع لها الاستقرار والأمان .

ويصدق المؤمن في الفعل فلا يغش المسلمين ، ولا يخونهم ؛ ويصدق في السلوك ، فيكون مظهره عين مخبره ، وعلنه ترجمان سرّه .

ومن ذخائر المؤمنين في وقت الحرج : اتحاد الكلمة ، وضم الصفوف ، لتلقى الأمة الخطب بجهود بنينا ، ولتكون كتلة واحدة في الشدة ، فلا تنقسم لها عروة ، ولا يفك العدو ما بين بنينا من أوامر الدين ، ووشائج الوطنية . عند ذلك تسير أعمالها في طريق الإصلاح العام ، ويسكثر إنتاجها لخير البلاد ، وسعادة العباد . فعلى قادة الأمة وذوى رأى فيها ، أن يعملوا على ذلك بما أوتوا من قوة ، فقد جسد الجد ، واشتد الكرب ، وما من عار أن يضحي الشريف الكريم ، والزعيم العظيم ، ببعض وقته ، في سبيل هذا المقصد النبيل ، وأن تتصافى القلوب ، وتتساقى النفوس كثوس الحب الخالص ، ليكون لهم في صفحات التاريخ الأثر الخالد ، والذكرى التى يفوح عبرها على مر الدهور ، وكر السنين ، وينقلها الجيل بعد الجيل .

ومن عدة المؤمنين في وقت الحرج : حسن القدوة .

أجل ! فإن حسن القدوة بليغ الأثر في وقت الشدة ، وها هو الزمان زمان شدة والعصر عصر قحط وبلاء ، يلاقى فيه العامل البسيط ، والفلاح الكدود ، شظف العيش وخشونته ؛ غلّت الأقوات ، وضنت السماء بالماء ، وبخلت الأرض بالأنعام ، فارتفعت الأسعار ، وطمع التجار ، فقاسى الفقير من الشدة ما أثقل كاهله ، وأحنى ظهره ، وهو ينظر إلى بعض مواطنيه وهم يسرفون في الكاليات ، ويبالغون في التوافل والزيادات ؛ ولو أنهم أحسنوا إلى أبناء وطنهم ، لشاركوهم في خشونة العيش ، ولو بقدر ؛ أو حكموا الدين والأخلاق ، لواسوهم في بأسائهم ، في كل نازلة . فقد كان كبار المسلمين في العصر الأول ، قدوة حسنة للرعية ، ومظهراً صادقاً لحسن الأسوة .

فقد لبس عمر رضى الله عنه المرقع من الثياب ، وأكل خبز الشعير من غير إدام ؛ وعمر إذ ذاك يجبى إليه خراج : العراق ، والحجاز ، ومصر ، والشام ،

وما إلى ذلك ينضم ؛ وتندفق إليه كنوز فارس والروم ، على يد أبطال الإسلام الفاتحين . فكان فعله هذا أخذاً بقلوب الرعية ، مستولياً على مشاعرهم ، فكانوا لذلك لا يضعفون عند خطب ، ولا تلين قناتهم لشدة ؛ فكان عمر بسيرته سائس أمم ، ومربي دول ، ورائي ممالك .

قالوا : استعمل عمر على حمص « عمير بن سعيد » ؛ فلما مضت السنة ، استدعاه فلم يشعر عمر إلا وقد قدم عليه عمير ، ماشياً ، حافياً ، عكازته بيده ، وإداوته ، ومروده ، وقصعته على ظهره ؛ فلما نظر إليه عمر ، قال : يا عمير ! أأجدبت البلاد ، أم البلاد بلاد سوء ؟ ! فقال : وله ، يا أمير المؤمنين ، وقد جئت إليك بالدنيا ، أجزأها بقراها ؟ فقال له عمر : وما معك من الدنيا ؟ قال : عكازة أتوكأ عليها ، وأدفع بها عدوا إن لقيته ، ومزود أحمل فيه طعامي ، وإداوة أحمل فيها ماء شرابي وطهوري ، فوالله يا أمير المؤمنين ما الدنيا بعد إلا تبع لما معي ! . فقام عمر إلى قبر الرسول ، وقبر أبي بكر ، فبكى ساعة ، ورجع إلى عمير ، فقال : ما صنعت في عملك يا عمير ؟ فقال : أخذت الإبل من أهل الإبل ، والجزية من أهل الجزية ، عن يد وهم صاغرون ، ثم قسمتها بين الفقراء ، والمساكين ، وأبناء السبيل ، ولو معي شيء لأحضرته إليك . فقال له عمر : عد إلى عملك يا عمير ، فقال : يا أمير المؤمنين ! ناشدتك الله ، إلا رددتني إلى أهلي ! . فأذن له عمر ، وأرسل خلفه من يعرف جلية أمره ؛ وإذا بعيشه في أهله ، خبز الشعير ، ورفع الرجل إلى عمير مائة دينار ، كان قد بعث بها عمر إليه ، فصرفها في الحال في إخوانه الفقراء ، فرجع الرقيب إلى عمر يقول : جئتك من عند أزهذ الناس ، وما عنده من الدنيا قليل ولا كثير ! . فكان عمير هذا صورة صادقة لزهد الولاة ، وحسن سياستهم في الرعية . وكان في مقالته لعمر أفصح واعظ ، وأبلغ مذكر .

فبمثل هؤلاء تسعد الأمم ويكثر رجاؤها ، وتؤمن الفتن والزلازل . فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

ومن الفضائل التي يلجأ إليها المؤمن في وقت الشدة : الصبر ، والصبر ملاك الخير في كل النواحي ، وعنوان الرجولة الكاملة ، وما المخترعات إلا بالصبر . فالصبر مطية لا تكبو وإن عنف عليها الزمان ، فهو مطية النصر والغفر ؛ ولذا

يقول القرآن الكريم : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ، وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا ، وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ، وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » . فالله مع الصابرين في الشدائد يعينهم ، ويشد أزهرهم ، لأنهم انتظروا النصر منه ، وعوّلوا عليه في عتبي أمرهم ، وأعتمدوا عليه في كل شؤونهم .

وفي قصة غزوة بدر في القرآن الكريم ، ما يشير إلى نتائج الصبر ومكانة التقوى ، من أنها بشير النصر ، إذ يقول جل وعز : « وَلَقَدْ فَصَّرَكُمُ اللَّهُ يُدْرِكُ أُنْتُمْ أَذَلَّةً ، فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ » ، إذ تقول للمؤمنين أن يكفّكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ، بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، ويقول : « إِنْ تَمَسَّكُمُ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وَإِنْ تَصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ » . وليس المراد بالتقوى مجرد امتثال الأوامر واجتناب النواهي ، بل هي هنا أوسع مجالا وأرحب فناء ، وأعم دائرة . إنها والحياة حياة جهاد ، تشمل اتقاء الوسائل المنافية للحياة الراقية ، اتقاء وسائل الخزي والعار ، اتقاء وسائل التدهور في الجماعة والفرد .

يقول ابن عباس رضي الله عنه : عقرت النساء أن تأتي بمثل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، كعهدي به يوم صفين ، وعلى رأسه عمامة بيضاء ، وهو يقف على شذمة من الناس يحضهم على القتال حتى انتهى إلى وأنا في كنف من الناس ، وفي أغيلة من بني عبد المطلب ، فقال : يا معشر المسلمين ! تجلببوا السكينة ، وأكملوا اللأمة ، وأفلقوا السيوف في الأغمد ، وكافخوا بالظبا ، وصلوا السيوف بالخطي ، فإنكم بعين الله . عاودوا الكر ، واستحيوا من الفر ، فإنه عار في الأعقاب ، ونار في الحساب ؛ وطبوا على الحياة أنفسا ، وسيروا إلى الموت سيرا مُبْجُحًا (أى لنا سهلا) . واصبروا فإن الشيطان راكب صعده ؛ فصمدا صمدا ، حتى يبلغ الكتاب أجله ، ثم قرأ : « قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ » .

ابن مضاء القرطبي

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد علي النجار
المدرس بكلية اللغة العربية

ز - وفي ص ٣٧ يذكر الأستاذ أن ابن مضاء يلغى القياس متأثراً بنزعه الظاهرية ؛ ولا يكاد الباحث يصدق أن نحوياً يلغى القياس . واللغة تعتمد على القياس في كثير من مظاهرها ، ولو أغلق باب القياس لماتت اللغة ، ودخل على الناس من ذلك حرج وضيق . فالقياس جار في اللغة العربية ، في لسان العرب ، وفي لسان من حذا حدوهم من المستعربين .

ولا نرى في كلام ابن مضاء تصريحاً بهذا الإلغاء الذي ينحله إياه الأستاذ شوقي الناصر لعلم ابن مضاء ؛ وإنما ينعي القرطبي على النحاة أنهم قد يخطئون في العلل ، وقد يقيسون الشيء على الشيء ، دون حاجة إلى القياس ؛ إذ يكون المقيس قد علم أمره ، واستقر حكمه ، وقد يكون الشيطان في درجة واحدة ، في استحقاق الحكم اللغوي ، وقد لا يكون في المقيس العلة التي استحق بها المقيس عليه الحكم . وعمود حديثه الكلام على العلل الثواني والثالث . وقد استجره هذا إلى الكلام على إعراب الفعل المضارع ، وقياس البصريين إياه على إعراب الأسماء ، وهو لا يرى هذا ، بل يرى أن الإعراب أصل في المضارع ، كما هو أصل في الأسماء ؛ إذ الداعي إلى الإعراب - وهو التمييز بين المعاني المتواردة على الكلمة - موجود في الفعل ، كما هو في الاسم على السواء ؛ وليس من دهرى في هذا البحث ، أن أبحث في رأى ابن مضاء هذا ، وإنما هي أنه في هذا المقام لا يقول بإلغاء القياس .

هو يعيب النحويين في قياسهم الفعل على الاسم في الإعراب ، ويذكر أوجهاً أخطأوا فيها ، حين عالجوا هذا القياس ، وحين نسبوه إلى العرب ، والعرب أحكم من أن يقعوا في هذا القياس الفائل الذي تصوره النحاة .

ويأتى الأستاذ فى هذا الوطن ، ويضع على ابن مضاء العنوان : « الدعوة الى إلغاء القياس » . ولا يضع أيدينا على الموضوع الذى ينبئ عن هذه الدعوة المتكررة . ويقول الأستاذ فى تعليقه على هذا الوطن : « يلاحظ ابن مضاء هنا أن النحاة لم يدرسوا القياس دراسة صحيحة كما يعرفها الفقهاء » . وإنى أوافق على هذا ، ولا أوافق على أنه يقول بإلغاء القياس . ولو أن الأستاذ جعل العنوان : « الدعوة الى تهذيب القياس » ، لكان له وجه من الحق ، وسند من الواقع . وكيف يدعو ابن مضاء الى إلغاء القياس ، وهو قد قاس فى بعض المواطن دون أن يحس فى ذلك أنه يخالف ما رسم فى كتابه ؟ فهو يقول فى ص ١١٥ : « فإن قيل : النحويون لم يذكروا فى هذا الباب — يريد باب التنازع — إلا الفاعل والمفعول والمجرور ، وهنا معمولات كثيرة ، على مذهبهم : كالمصادر والظروف والأحوال والمفعولات من أجلها ، والمفعولات معها ، والتمييزات ؛ فهل تقاس هذه على المفعولات بها ، أو لا تقاس ؟ قيل : أما المصدر فالظاهر من كلامهم أنه لا يكون فى هذا الباب ؛ وذلك أن المصادر إنما يجاء بها لتأكيد الفعل ، والحذف مناقض للتأكيد... وإن قصد بالمصدر تبين النوع ، كان أشبه بالمفعول به » . ويمضى ابن مضاء فى قياس سائر المعمولات على المفعول به .

والحق أن ابن مضاء يدعو إلى عدم الإسراف فى تلبس العلل ، وعصر الذهن فى استخراجها ؛ ومن النحويين من سبقه الى وجوب الاقتصاد فى العلل ؛ فهذا أبو حيان ، رأى النحويين يعملون كسر تاء المؤنث ، فى نحو أنت ضربت ، فلا يعجبه ذلك ، ويقول ^(١) : « وهذه التعاليل لا يحتاج إليها ؛ لأنها تعليل وضعيات والوضعيات لا تعلل » .

وقد ركب ابن مضاء متن الإسراف فى هذا ، فسوّى بين حركات البنية ، وكسر العين ، فى عظم ، وبين الحركات فى الأواخر التى يحتلها العامل .

٢ — وفى مبحث : « حاجة النحو الى تصنيف جديد » ، ترى الأستاذ

صاحب المدخل ، يلتقي عبء النحو الذى بيد الناس ، وثقله ، على العامل ، ويحمله من ذلك ما يقع تحته طليحا موقعا .

وفي الحقيق أن صعوبة النحو ، من صعوبة موضوعه : الإعراب والبناء ، وسيظل نحو العربية متشعب الأطراف متعدد المناحي ، مادام فيها إعراب وبناء . والبناء لا يعجب أحد أن يكون سبب العسر ، فهو فى العربية يكون على الحركات والسكون ، كالإعراب . وما أخلق العامل أن يتمثل - إذ ينسب إليه ظلما العسر ، وهو منه برىء - بقول الشاعر :

لمسلى ذنب امرئ ، وتركته كذى العُر : يكوى غيره وهوراتع

وترى صاحب المدخل يحتج إذ يدعى أن العامل مجلبة للعسر ، بأنه يشغل النحويين بشروطه ، ومواضع حذفه ، وتقديمه وتأخيرهِ ، وغير ذلك من أحوال العامل ، التى عُنى بها النحاة . وهذه الأحوال لا تمت إلى النطق بصلة ، عند صاحب المدخل ؛ ومن رأيه ألا يهتم النحاة إلا بما يفيد نطقاً . والنحويون إذ يبحثون فى شروط العامل ، ومواطن حذفه وتقديمه وتأخيرهِ ، يرون أنهم يبحثون فيما يفيد نطقاً ، ويحاولون جهدهم أن يصوّروا ما جرى عليه الغرب ، حتى يكون المؤتمى بهم جاريا على سننهم ، غير منحرف عن منهاجهم ؛ ولصاحب المدخل أن ينقدّم فى علل العمل مثلا ، واختلافهم فيها .

وفي الحق أن هذا فضل فلسفة وفطر ، يكون مثله فى سائر العلوم المدونة ، إشباعا لهمة النفوس الطلعة .

والواقع أن علل العمل وتاريخها ، لا يزال البحث فيها ناقصا ؛ وقد يهتدى إلى الحق فيها بعد إحسان درس اللغات السامية القديمة .

ويرى صاحب المدخل أن إلغاء العامل ينشأ عنه ترتيب النحو على غير الترتيب الراهن ؛ فإن هذا يتيح أن يُجمع الإلف إلى إلفه ، والشئ إلى وقفه ، ويضمّ اللفق إلى لفته ؛ وقد أفاض فى ذكر الأمثلة للترتيب المقترح . والنحويون ما عدوا أن سلكوا هذا المسلك ، فضمّوا الشئ إلى إلفه ، وقد يكونون فى هذا أحكم نظرا ، وأسد رأيا .

وسأعقب على بعض كلام الأستاذ صاحب المدخل :

(أ) في ص ٤٩ : يذكر أن ابن مضاء دعا إلى تيسير النحو ، وإلغاء العامل ، فلم يستجب له نخاة المغرب ، ولانخاة المشرق ؛ وقد علمت السبب في هذا الانصراف عن رأى ابن مضاء ، وأنه لا يقوم على أساس صحيح ، ولو كان في مذهبه قوة وصلاح ، لصلاح للبقاء ؛ ومثله في ذلك ، مثل مذهب الظاهرية في الفروع ؛ فهو مذهب ليس له أتباع وأنصار ، ولم يرزق من النضج والسداد ما يتنافس المذاهب الأخرى . وقد كان الأستاذ صاحب المدخل حرياً أن يسعه ما وسع النخاة من قبله ، أو أن يستريب في رأى ابن مضاء ، فلا يقدم على تحييده واعتناقه ، قبل تمحيصه وتبيين الحق فيه .

(ب) وفي ص ٥١ ، وما بعدها : ينعى على النخاة تقسيمهم العوامل ، إلى عوامل قوية ، وعوامل ضعيفة ، ووضعهم للعمل شروطاً وحدوداً . والنحويون إذ يشترطون للعمل شروطاً ، إنما يستنبطون ذلك من الكلام العربي ، على حسب ما بلغهم عن العرب ، أو شافوهم ؛ وقد كان منهم من خالط العرب في محاوراتهم وأحاديثهم ، كأبي عمرو بن العلاء ، والخليل ، والكسائي ، فلم يضعوا ما وضعوا من ذات أنفسهم ، ولا اتباعاً لهوى أو خيال .

(ج) دفا ، ودلا ، الحجازيتان ، هل يرى أن يرتفع المبتدأ بعدهما ، وينتصب الخبر دون شرط ؛ فيقال : ما مسيئاً من أعتب ، وما محمد إلا رسولا ؟ وهل يرى إذا قيل هذا أن هذا القول موافق لغة الحجاز ؟ إن النحويين لم يفعلوا بشروطهم إلا أن يكونوا أمناء في تصوير الصورة التي نطق بها الحجازيون ، وما كانوا في شروطهم مسرفين أو راغبين في التعقيد .

(د) وكذلك القول في نواصب المضارع : يرى الأستاذ إهمال شروطها ، ووضع شروطها يحقق ما جرى عليه العرب ، والإخلال بها لإخلال بنطقهم ؛ ولو درسنا من النواصب (إذن) وجراً على مذهب صاحب المدخل ، فوضعنا أنها تنصب مطلقاً ، لكان الدارس لهذا ينصب المضارع ، في نحو (زيد ينبجح إذن) ، و (هو إذن ينبجح) والنصب في هذا لا يوافق لغة العرب .

(هـ) ويقول في شأن حروف الجر : إن النحاة يشترطون فيها أن تتكرر حين تعمل في اسمين متعاطفين ، وأن تتصل بعمولها . ويعاهد نفسه أن يحذف هذا من النحو الجديد .

والحكم الأول الذى نسبته إلى حروف الجر أرسله حيث قيده النحاة ، وكأنه جرى على طريقته في الإرسال والإهمال ، و « ما هكذا يساعد تورد الإبل » . ذلك أن النحاة إنما يضعون هذا الحكم عند العطف على الضمير المخفوض ، بحرف أو اسم ؛ كما في قوله تعالى : « فقال لها وللأرض » ؛ فأما في غير ذلك نحو : مررت بمحمد وعلى ، فلا يقول نحوى بوجوب التكرار ؛ ومن ذلك قوله تعالى : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات » . على أن المسألة الأولى ليست مجمعا عليها ؛ فن النحويين من لا يوجب التكرار ، ويخرج على ذلك قراءة حمزة : « واتقوا الله الذى تسألون به والأرحام » ، بجر الأرحام - ، وما جاء دون تكرار قول الشاعر :

فاليوم قد بت تهجونا وتشتمنا فاذهب فإياك والايام من عجب
وقد عرض لهذا ابن مالك في قوله :

وعود خافض لدى عطف على ضمير خفوض لازما قد جعلنا
وليس عندى لازما ؛ إذ قد أتى فى النظم والنثر الصحيح مثبتا

فأما الحكم الثانى الذى نسبته إلى حروف الجر - وهو أن تتصل بعمولها - فتراه يهمله أيضا ولا يقول به ، فيجوز على هذا أن تقول : لقيت في محمداً الطريق ، تريد لقيت محمداً في الطريق . وقد يوافقنى القارىء على أن هذا لا يطابق النطق العربى ، بل لا أخطئ إذا قلت : إنه لا يوافق اللسان العامى الذى هو على إرث من اللسان العربى .

(و) وترى صاحب المدخل فى القول فى ترتيب النحو ، على أثر إلغاء نظرية العامل ، يرى أن يقرن الفعل المضارع المتصل بنون التوكيد ، مع الفعل المضارع المنصوب ؛ إذ لا فرق بين التقييلين ؛ فالمضارع مفتوح فيهما . فإذا أن يجعل الفتح فيهما من قبيل الإعراب ، أو من قبيل البناء . فأما التفريق بينهما ، فهو من آثار العامل ؛ وإذا بطل المؤثر بطل الأثر ، كما يقول المتكلمون . ويمكن المنصف يرى

أن النحويين حملوا على الفرق بينهما لوجود فوارق حرية بالاعتبار . فالفعل المضارع المنصوب يتغير حاله إذا دخل عليه جازم ، أو إذا خلا من الناصب والجازم . وليس الأمر كذلك في المضارع المتصل بنون التوكيد ؛ فإن آخره لا يتغير . فمن ثم جعل أحدهما مبنيًا ، والآخر معربًا ؛ وأيضًا فإن المنصوب يتبع بالنصب ، تقول : يعجبني أن تسر أباك وتواصل أخاك ؛ فأما الفعل المضارع المتصل بنون التوكيد ، فقد يكون محله جزمًا ، فيتبع بالجزم ؛ تقول : إما تتجهدن في دروسك وتفهمها تنجح ، يحزم تفهمها . فترى من هذا أن النحاة غير عابثين فيما صنعوا . وهكذا يقال فيما رأى من قرن الفعل المضارع المتصل بنون الإناث ، مع الفعل المضارع المجزوم . ولا أراني في حاجة إلى بيان هذا وتوضيحه .

(ز) وفي النحو الجديد يرى أن يجعل المرفوع بعد كان فاعلاً ، والمنصوب حالاً ، كما يرى الكوفيون ؛ وهذا رأى غير ناضج ؛ فإن العهد بالحال أن يكون نسكرة ؛ تقول : جاء محمد ضاحكاً ، حين تريد الحال ، ولا تقول : جاء محمد الضاحك ؛ وكان ذلك ، لأن الوصف في هذه الحالة يراد به الحدوث والتجدد ، وهو في هذه الحالة في موقع الفعل ، فلا يلائمه التعريف . والمنصوب في باب كان ، كثيراً ما يكون معرفة .

(ح) وتراه يجعل المرفوع بعد «ما» ، و«لا» الحجازيتين مبتدأ ، والمنصوب خبراً ؛ وقد يكون هذا جالباً للعسر في دراسة النحو ؛ فإن هذا يلزم الطالب أن يراعى تقسيم خبر المبتدأ إلى خبر مرفوع ، وإلى خبر منصوب ، والخبر المنصوب يكون في كذا وكذا ؛ وخير من هذا ، وأعون على الضبط ، صنع النحاة . وتراه في هذا الموطن يورد المثال : (ضرب العبد مسيئاً) ، ويجعل مسيئاً خبراً عن ضربي ، ويعزف عن رأى النحاة في جعل مسيئاً حالاً والخبر محذوفاً ؛ ذلك أن من رأيه العزوف عن الحذف والتقدير . ولكن المعنى لا يستقيم على تخريجه هذا ؛ فإن هذا يقضى بالحكم على ضربه العبد بأنه مسيء ، والمتكلم لا يريد هذا ، وإنما يريد أن الضرب وقع على العبد حال إساءة العبد ، وأنه حل بمن يستحقه .

وتراه بعد هذا يعرض للبيت :

أبا خراشة أما أنت ذا نفر فإن قومي لم تأكلهم الضبع

ولا يرضى تخريج النحاة ؛ إذ يجعلون ذا نفر خبراً لكان المحذوفة ؛ ويرى

أن ذا نفر خبر المبتدأ الذى هو أنت ، ولا ضير عنده أن ينتصب خبر المبتدأ على الشذوذ . ومن المقرر ألا يلجأ فى التخريج إلى الشذوذ ما كان عنه مندوحة ؛ وحذف كان ثبت فى مواطن كثيرة ، لا يسع صاحب المدخل إنكارها ؛ وإلا فماذا يرى فى قولهم : إن خيراً فخير ، والتس ولو خاتماً من حديد ؟

وتراه بعد هذا فى ص ٥٥ : يذكر أن خبر المبتدأ قد يكون مجروراً بحرف الجر الزائد ، فلا بدع أن يكون منصوباً ، والنحويون يقدرّون الخبر المجرور مرفوع المحل ، حتى ليراعى الرفع فى التابع ؛ تقول : ما زيد بقائم ولا قاعد ، بالرفع ؛ وذلك فى لغة التميميين .

(ط) وفى ص ٥٥ ، وما بعدها ، يعرض للنصب والمرفوع بعد (إن) وأخواتها ، فيجعل المنصوب مبتدأ ، والمرفوع خبراً لمبتدأ ؛ وهذا أيضاً فيه تعبیر ؛ لما علمت أن الطالب سيؤخذ بتفصيلات عديدة ، وتقسيات هو فى غنى عنها ، بما وضع النحاة من تمييز كل نوع بحالة لا تلتبس بالأخرى .

(ي) وهو يرى ألا يفرد باب — لظن وأخواتها — وأن يجعل ذلك فى باب تعدى المفعول به ؛ وإذا علم القارئ أن لمفعولى — ظن وأخواتها — أحكاماً خاصة ، عمل عليها العرب ، وراعوها فى كلامهم ؛ كالإلغاء والتعليق ، لا يسعه إلا أن يفرد لها باباً ، كما صنع النحاة . وهذا لئلا يشتبه أمر هذه الأفعال ، بنحو : أعطى وكسا .

ومما يسترعى النظر فى هذا المقام ، أن صاحب المدخل ينأى عن فكرة التعدى وال لزوم فى الأفعال ؛ لأنها تدل على العمل ، وترتبط به ؛ وهو يوصى بأحد هذه الاصطلاحات : واقعة وغير واقعة ، مجاوزة وغير مجاوزة ، مؤثرة وغير مؤثرة . ومحل العجب رضاه بالاصطلاح الأخير ؛ وفيه من التصريح بتأثير الفعل وعمل العامل ما ليس فى المتعدى وال لازم .

(ك) وفى ص ٥٧ : يذكر أن النحويين فى باب الفاعل « قلما وقفوا وأشاروا إلى صيغته الخاصة حين يخرج من الرفع إلى الجر ؛ ومن المعروف أنه يحجر بمن الزائدة بعد النفي والاستفهام ، فى مثل : هل جاء من أحد ؟ وأيضاً فإنه يحجر

في عبارتين دائماً؛ وهما: كفى بالله شهيدا، وصيغة التعجب، في مثل: «أسمع بهم وأبصر»، والواقف على كتب النحو يرى أنهم عرضوا في باب الفاعل لخروجه من الرفع إلى الجر؛ يرى هذا في التوضيح وشرحه، ويراه في الأشتوني، إذ يعقد أحد تنبيهاته لهذا الحكم.

(ل) وفي ص ٥٨: يذكر من الشذوذ في باب الفاعل مجيئه جملة، ويقول: ويجب أن تصور ذلك فيه؛ فنذكر أنه يأتي جملة باطراد بعد: أن وأن ولو وما،، فتراه يجعل مجيء الفاعل جملة شاذاً، ثم يجعل منه ما هو مطرد؛ والمعروف أن الشاذ لا يكون مطرداً. فهل تراه لا يعبأ بالاصطلاح الذي لا بد منه في العلوم؟! ولعله يريد أن الأصل في الفاعل أن يكون مفرداً، ومجيئه جملة خلاف الأصل، وهذا هو المعنى بكونه شاذاً. وأيا ما كان الأمر، فهو يعتمد الخروج على ما قرره النحاة، وهو جعل الفاعل بعد الحروف المذكورة مفرداً، هو المصدر المنسبك كما يقولون؛ وذلك أن قولك: يسر المرء ما ذهب الليالي، يساوي تماماً: يسر المرء ذهاب الليالي؛ ولا يحس الناطق بالكلام الأول، أنه نطق بجمليتين. فقد يكون نظر النحويين أسد.

(م) وفي ص ٥٩: يذكر من أنواع التمييز، التمييز بعد الضمير، نحو: لله دره فارسا، والضمير في هذا الأسلوب ليس بشرط؛ فلو قلت: لله در محمد فارسا، لم يتغير الأسلوب.

وأراني بعد هذا قد أبديت ما عن لي حين قراءة المدخل، لكتاب ابن مضاء، ولست أدعي العصمة من الخطأ، وإنما هو بحث أعرضه، وإني لئن على صاحب المدخل غير كافر له. والله يهدينا جميعاً سواء السبيل؟

حسن التوسل

أتى عبد الملك بن مروان بأعرابي سرق، فأمر بقطع يده. فأنشأ يقول:
يدي يا أمير المؤمنين أعيدها بعفوك أن تلقى مكاناً يشينها
ولا خير في الدنيا وكانت خسيصة إذا ما شمالي فارقتها يمينها
فأبى أمير المؤمنين إلا قطعها. فقالت أمه يا أمير المؤمنين: إنه واحدى وكاسي. قال: بلئس الكاسب كان لك، وهذا حد من حدود الله. قالت: يا أمير المؤمنين اجعله من بعض ذنوبك التي تستغفر الله منها. فعفا عنه.

مسئولية الاطباء

لحضرة الأستاذ الدكتور أحمد محمد ابراهيم
القاضى بمحكمة المنيا الوطنية

جراحة التجميل :

قلنا إنه يجب أن يكون تدخل الطبيب بقصد شفاء المريض وإلا فهو مسئول .
ولكن ظهرت فى العهد الأخير رغبة قوية - خصوصا بعد الحرب العالمية الأولى -
نحو معالجة بعض العيوب الخلقية بإجراء عمليات جراحية لإزالتها ، لما يترتب
على بقائها من جعل المشوهين محل سخرة الناس ، فضلا عما يثور فى نفوسهم
من الغم والسكند ، لما يحسون به من نقص عن سواهم من البشر ؛ فاحكم هذه
الجراحة التى سميت بجراحة التجميل ؟

الرأى الراجح فى فرنسا ، هو أن العمليات التى لا ينتظر أن يتخلف عن
إجرائها خطر ، تعدّ من الأعمال الطبية المشروعة ؛ أما إذا كانت خطرة فلا يجوز
القيام بها .

ويرى الفقهاء الألمان أن جراحة التجميل عمل تقره الدولة ، ولا يستوجب
المسئولية .

ويرى علماء بلجيكا إباحة جراحة التجميل ، ما لم تنع من أداء واجب اجتماعى .
ومن الواضح أن جراحة التجميل مباحة لدى جمهور فقهاء الشريعة ما دام
أساس الإعفاء من المسئولية هو رضا الشخص المعالج ؛ وظاهر أنه فى هذه
الحالات يكون تدخل الطبيب بناء على طلب ورضا المعالج ؛ ومن ثم فلا محل
للمسئولية .

وقد سبق أن بيّنا أننا لا نقر جعل الرضا أساسا للإعفاء من المسئولية ؛
ونرى فيما يختص بجراحة التجميل أن المسألة تتوقف على العيب المطلوب علاجه

ومدى تضرر صاحبه منه ، وهل يلحقه منه عاروشين أم لا . والمسألة تقديرية نرى أن يترك الفصل فيها للهحاكم وفقا لظروف كل حالة ، فإما يعد عيبا في المرأة قد لا يعد عيبا في الرجل ، كما أن بعض الأشخاص كثيرا ما يقدمون على إجراء هذه العمليات لا ليزيلوا عيبا بل ليزدادوا جمالا . ويجب أن يدخل في الاعتبار أيضا مدى خطورة الجراحة التي سيجريها الطبيب ؛ فإن كان الأمل في نتيجتها أو في الشفاء منها ضعيفا ، فتمد وجب أن تمتنع ، مهما كانت صفة العيب المطلوب إزالته .

وليس القول بجواز إزالة العيب الخلقى مخالفا لأحكام الشريعة ، بل على العكس ؛ فإنها إن لم تكن توجهه فهي لا تحرمه ؛ فقد ذهب بعض الفقهاء إلى أن بعض العيوب الخلقية تمتنع من انعقاد الإمامة ، وهذا يوحى بأن من الواجب إزالة هذه العيوب متى كان ذلك ممكنا . قال هؤلاء الفقهاء : إنه يمتنع من انعقاد الإمامة ما شأن وقبح ولم يؤثر في عمل ولا نهضة كجذع الأنف وسمل إحدى العينين ... فالسلامة منه تكون شرطا معتبرا في عقدتها ليسلم ولاية الملة من شين يعاب ونقص يزرى فنقل به الهيبية ، وفي قلتها زفور عن الطاعة ، وما أدى إلى هذا فهو نقص في حقوق الأمة ^(١) .

ثانيا : يجب أن يكون العلاج طبقا لقواعد مهنة الطب . فن المفروض على الطبيب أن يراعي أصول المهنة عند معالجة المريض ، فإذا خالفها وجب أن يسأل عن ذلك ، وهو لا يسأل إلا عن الخطأ الجسيم ، أما الخطأ في الآراء أو الوسائل الفنية المختلف عليها بين الأطباء فلا يسأل عنه مهما كانت نتيجته . والعلة في إعفائه من المسؤولية في هذه الحالات هي الرغبة في إعطاء الطبيب شيئا من الحرية حتى يمكن لعلم الطب أن يتقدم .

وإذا تجاوز الطبيب حدود عمله متعمدا فإن مسؤوليته تكون مسؤولية عمدية ؛ أما إذا كان قد أخطأ فإنه يسأل مسؤولية غير عمدية .

وهذا الشرط محتم لدى فقهاء الشريعة الغراء . ونرى قبل أن نستخلص القاعدة

(١) الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٨ .

العامة في هذا الموضوع عندهم أن نذكر شيئاً مما جاء في كتب الفقه عن هذا الموضوع ، ليتضح للقارىء الأساس الذى أقننا عليه رأينا .

جاء في كتاب معين الحكم « إذا حجب الحجام أو بزغ البيطار أو ختن الختان فمات ، لم يضمن . هذا إذا لم يجاوز موضع الفعل ؛ فإن جاوز موضع الفعل فقطع الحشفة : ذكر في النوازل أنه إن مات فعليه نصف بدل النفس ، فإن برى فكمال بدل النفس ، لأنه مات بجرحين وهو مأذون في أحدهما . وفي ديات شرح الطحاوى : فعليه القصاص ، ولو قطع بعض الحشفة لا قصاص عليه . ولم يذكر ماذا يجب عليه . وفي الفتاوى الصغرى في كتاب الديات : تجب حكومة العدل .

الكمال : إذا صب الدواء في عين رجل فذهب ضوءها لا يضمن كالختان إلا إذا غلط . حجام قال لآخر : في عينك لحم إن لم تزله عميت عينك ، فقال : إني أزيله عنك ، فقطع الحجام لحماً من عينه وهو ليس بحاذق في هذه الصفة فعميت عينه ، يلزمه نصف الدية .

سئل نجم الأئمة الحلبي عن صبية سقطت من السطح فانفتح رأسها فقال كثير من الجراحين : إن شققم رأسها تموت ، وقال واحد منهم إن لم تشقوه اليوم أنا أشقه وأبرئها ، فشقه ثم مات بعد يوم أو يومين : هل يضمن ؟ فتأمل ملياً ثم قال : لا ، إذا كان الشق بإذن وكان معتاداً ولم يكن فاحشاً خارج الرسم . فقليل له : إنما أذنوا على أنه علاج مثلها . فقال : ذلك لا يوقف عليه ، فاعتبر نفس الإذن . قيل له : فلو قال هذا الجراح : إن مات فأنا ضامن : هل يضمن ؟ قال : لا (١) .

وجاء في كتاب تبين الحقائق « لا يضمن حجام أو بزاع أو قصار لم يعدد الموضوع المعتاد ، لأنه التزمه بالعقد فصار واجبا عليه ، والفعل الواجب لا يجامع الضمان ، كما إذا حد القاضى أو عزروا مات المضروب بذلك ، إلا إذا كان يمكنه التحرز عنه كدق الثوب ونحوه ، لأن قوة الثوب ورقته يعرف به ما يحتمله من الدق بالاجتهاد ، فأمكن تمييزه بالسليم منه ، بخلاف الفصد ونحوه فإنه ينبئ على قوة الطبع وضعفه ، ولا يعرف ذلك بنفسه ولا ما يحتمله من الجرح ، فلا يمكن تمييزه

بالسليم ، وهو غير السارى ، فسقط اعتباره ، إلا إذا جاوز المعتاد فيضمن الزائد كله إذا لم يهلك ، وإن هلك يضمن نصف دية النفس ^(١) .

وفى متن الأمير وحاشية حجازى العدوى عليه : أنه إذا جهل الطبيب ضمن . وظاهره أن الضمان عليه فى ماله . وهذا ظاهر سماع أشهب . ويضمن أيضا إذا قصر كأن أراد قلع سن فقلع غيرها خطأ أو تجاوز - بغير اختياره - الحد المعلوم فى الطب عند أهل المعرفة ، كأن زلت أو ترامت يد خاتن ، أو سقى عيلا دواء غير مناسب للداء معتقدا أنه يناسبه وقد أخطأ فى اعتقاده ^(٢) .

وإذا خلع الطبيب سنا غير المتفق عليها ، فإن كان ذلك عمدا فعليه القصاص ، وإن كان خطأ فالعقل ^(٣) .

ونص فى مذهب الإمام أحمد على أنه لا ضمان على حجام ولا ختان ولا متطبب إذا عرف منهم حدق الصنعة ولم تكن أيديهم . فإذا لم يكونوا ذوى حدق فى صناعتهم ولا لهم بها بصارة ومعرفة لا يحل لهم مباشرة القطع . فإذا قطع أحدهم مع هذا كان فعله محرما فيضمن سرايته كالقطع ابتداء . وكذا يضمن الطبيب إذا كان حاذقا ولكن وقع منه إهمال لا يجوز أن يقع منه كأن يجاوز قطع الختان إلى الحشفة أو إلى بعضها ، أو قطع فى غير محل القطع ، أو يقطع بآلة كآلة يكثر ألها ، أو فى وقت لا يصلح القطع فيه ، وأشباه هذا .

والذى يمكن استخلاصه من الأحكام المتقدمة هو أن الطبيب الحاذق لا يضمن إذا قام بواجبه على الوجه الكامل بأن اتبع قواعد الطب والجراحة فى معالجة مريضه مهما كانت نتيجة العلاج ، فيستوى فى الحكم أن يشفى من مرضه أو أن يلقى ربه .

وكذلك لا يسأل الطبيب إذا أخطأ فى عمله خطأ يسيرا يمكن أن يقع فيه أى طبيب ، أما إذا كان الخطأ مما لا يجوز أن يقع فيه طبيب بأن كان ناتجا عن جهل أو خطأ فاحش ، فإنه يسأل عن فعله ، ومسئوليته تكون مسئولية غير عمدية ؟

(١) تبين الحقائق ج ٥ ص ١٣٧ ، وعلل المؤلف كون الواجب فى حال الهلاك نصف الدية بأن النفس تلفت بمأذون فيه وغير مأذون فيه ، فيضمن بحسابه وهو النصف ، حتى إن الختان لو قطع الحشفة وبرأ المقطوع تجب عليه دية كاملة لأن الزائد هو المشقة وهو عضو .

(٢) متن الأمير وحاشية حجازى العدوى ج ٢ ص ٤٠٦ (٣) المرجع السابق ص ٢٥٩ .

عود على بدء

السيد القاياتي

لحضرة الاستاذ السيد عناني

شكر الله المجلة الأزهر صنعها في إفساح المجال لدراسة شاعر فحل ، من شعراء الأزهر ، هو : السيد حسن القاياتي ؛ وجزى ناسج بردها ، الأستاذ الجليل عبد الجواد رمضان ، خير الجزاء ، أن فتح لعشاق الدراسات الادبية الرفيعة ، هذا الحصن الشاخص ، من حصون الأدب ، التي تهيب الدنو منها كثير من الدارسين .

وما أريد أن أعقب على الأستاذ ، فيما أورد للسيد من ترجمة ، ولا فيما قدم من عرض لآثاره ؛ فإنه لحقيق بأن يكون ابن بجدة ذلك ؛ وإنما أحب أن أجلي رأيي المتواضع ، فيما انتهى إليه من حكم ، قد لا يتفق كثيراً ، مع ما قدم من مقدمات ، وما عقد من مقارنة بينه وبين شاعر دار العلوم : الأستاذ محمود غنيم ، وهو واحد من الشعراء الذين يسمونهم أنفسهم بالسيد عن مستواهم الشعري ، وما قرر في دراسته من أن « شاعرنا القاياتي مضى بجزالة الأسلوب الشعري ونظامته ، وشرف المعنى ودقته ، بلا جدال ، وما أحاشى من شعراء النهضة الحديثة من أحد لا من الأموات ولا من الأحياء . . . » فإن هذا التقرير بدنياً ، وهو حق في جملته ، يقتضى ألا تعقد مقارنة بينه وبين أحد ، وأن يكون المجلي دائماً حتى فيما توارد عليه وغيره من معان ، وأن يكون المفضل المتأنيق عند ما يقيم أنموذجا من نماذج الفن الرفيع ، يتقف المشاهد عنده مأخوذاً مشدوهاً ، لا ذلك البناء الربني الذي « يشيد من شعره هيكل من الصخر » ؛ فإن « من مضى بجزالة الأسلوب ونظامته بين الشعراء ، أضن بخرائد الشعر أن تستحيل بين يديه إلى صخور . . » ومن ثم فإنني آمل ألا يؤاخذني الأستاذ في أن أخالفه فيما انتهى إليه من حكم ، يبدو أنه تأثر فيه بشئشنة الجماهير وحكمها الفطير ؛ فلا ريب في أنه مؤمن معي

أن الجماهير لا تستطيع التغلغل في دقائق الفنون الرفيعة عامة ، في أى عصر من العصور ، ولا في أى أمة من الأمم - على تفاوت بينها في ذلك - . ولا ريب في أن رسالة الفن ، في أى ناحية من نواحيه ، هى إرشاد هذه الجماهير ، وتهذيب شعورها ، والسمو بمستواها الفنى ، حتى تستطيع أن ترتفع إلى تصور المثل العليا في الحياة ؛ ومن ثم فإنها لن تفهم ذلك بدياً ولا تقبل عليه إلا أن تسنح لها الفرص أو يوجد من يهديها إليها . وعلى ذلك لابد أن يكون ما يقدمه الفنان فوق مستواها مع أن النزول إليها في الوقت نفسه أيسر سيلاً وأقل كلفة وعناء ؛ بيد أن هذا ليس غرض الفنان الحق الذى يؤمن برسالته ، ويعرف أن مهمته هى إرشاد هذه الجماهير إلى المثل العليا في الحياة ؛ وإلا ما شهدت الدنيا روائع الفن التى قدمها مبدعوها في مختلف العصور قرباناً خالصاً للبشرية ، غير مبالين برضاء الجماهير ولا غضبها ؛ هذه الجماهير التى أبدع القاياتي وصفها - من حيث تقديرها للشعر - إذ يقول :

طائر الصيت لديهم كل من أرسل الشعر سقيماً أو لحن
وقد سجل لنا التاريخ أن كثيراً من الفنانين ضحوا بعيشهم وسمعتهم ، بل بحياتهم كلها ، إيماناً منهم برسالتهم وجهل أجيالهم ، الى أن أتت أجيال باعدت بينها وبينهم السنين ، فأرسلت آيات تقديرها وعرفانها الى أرواحهم ، وعطرت بتقديرها لهم تاريخهم ؛ وتلك قضية أعتقد أن الأستاذ عبد الجواد موافق عليها .
وعلى ضوء هذا نعرض لدراسة بعض آثار السيد ، من حيث الغرض الفنى للشعر ؛ وليكن مثالنا قصيدته في رثاء المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق ، مقارنة بما أورده الأستاذ من قصيدة الشاعر محمود غنيم في نفس المقال ، والشاعران - عندي - من مدرسة واحدة ، ومذهب شعري واحد ، إذ أن ثقافتهم واحدة ، وليس كما يذهب الأستاذ عبد الجواد من أنهما يمثلان مذهبين مختلفين ، ولا تفاوت بينهما إلا بمقدار تفاوتهما في الموهبة الشعرية ، ورسوخ القدم في الفن .

يذكر غنيم بيت عبد الرازق فيقول :

نمته أصول لو نمتي النجم بعضها لحرك عطفه من التيه إن بدا
ورباه بيت يخدم الناس شيخه وإن كان فيه الطفل يولد سيدا

على البر والتقوى تأسس ركنه ومن لبنات العلم والدين شيدا
ويذكره القاياتي فيقول :

الشمس بيتك ، والعلا تنهل عارفة ، وجاها
عرفوا أباك فسدتهم والشمس ما عرفوا أباه
للدين بيت ثقافة للجامعات ، وما بناها
في هدى طه يعتلى ناديك ، أم في علم طه . !

ويعرض غنيم موقفه من الأزهرين فيقول :

فتى حرر الإسلام من رق معشر يرون الجرىء الحر ليس موحد
قضى واجب الاوطان والدين كاملا وأصدر في كل الامور وأوردا
ولم يقض في ظل الصوامع عيشه قعيداً ، وليس المسلم الحق قعددا
ويعرض لهم القاياتي فيقول :

يا سيداً عصفت به شيم الجلالة ، وابتناها
فتكت بنفسك عزة كالنار يتلفها لظاها .. !
كـرم أحـل بربه تلف الأزاهر في نداها .. !
ضحك الغواة لنبله فبكي الفضيلة وافتداه
أنف الهوان بساحة البـدرُ يشرق في ذراها

ولن نمضى في إعادة ما أثبتته الأستاذ رمضان ، وإنما نكتفى بهذه الأبيات لكل من الشعارين ، في غرض واحد تواردا على بعض معانيه ، وسيرى القارئ أن غنيا مع تقديرنا له وعلى سهولة شعره وجمال تراكيبه ، متأثر أئما تأثر بأخيلة التمدامى ومعانيهم ، وأنه لم يسجل معنى جديداً ، ولا تشبيها مبتكراً ؛ بل صور لنا في بساطة محبة بيت عبد الرازق على ما كان عليه فعلاً ، ولم يرد على حكاية الحال المشاهدة بالبصر !!

أما القاياتي فإنه يعرض لنا في كل بيت معنىً جديداً مبتدعاً ، في لفظ أنيق رقيق ، فيه جدّة الاستعمال وقوة الأسر : وتلك إحدى مميزات القاياتي ، التي جعلت له طابعاً خاصاً تفرد به ، كما تميز بدقة التشبيهات وابتداعها ، فلا يقع منها إلا على كل فريد حسن في موضعه ، واشتغال كل بيت من أبياته على فكرة مستقلة تقرأ بها النفس ، أو صورة ذهنية يسعد بها العقل والفكر . وتأمل أبيات السيد المذكورة آنفاً ، تدلّك بنفسها على ما فيها من جمال فني ، وابتداع في التشبيه البياني ، وبخاصة البيتين : الثاني والثالث .

وستجد أن الطاقّة الفنّية عند الأستاذ غنيّ محدودة بحكاية الحال ونقل الصورة المشاهدة ، على رغم رنين الألفاظ وجرسها ؛ ولا شك أن المعاني المستخرجة من غير شاهد الحال أصعب منالاً من المصورة للواقع المشاهد ؛ وكما يقول ابن الأثير : « وللمجوم على عذارى المغاني المحمية بحجب البواتر ، أيسرُ من الهجوم على عذارى المعاني المحمية بحجب الخواطر » .

ولقد بنى الأستاذ عبد الجواد حكمه على الشعارين على اعتبار أن الأول يمثل الرقة والعذوبة التي تستهوى الجماهير ، وأن الثاني يمثل الجزالة التي لا تستهوى إلا الخاصة التي لا تكاد تذكر . وفي هذه المناسبة نحب أن نسأل الأستاذ عن الفرق بين الجزالة والرقة ؟ اللهم إن كانت الجزالة هي المتانة في اللفظ ، مع عذوبته في الفم ، وحسن وقعه على السمع ، وكانت الرقة هي اللطافة في التعبير مع بعده عن الإسفاف والصنعة ، مع سلاسته وخلوه من التعقيد ، فإنه ليس ثمة فرق يذكر بينهما سوى ما يدركه السامع الخبير بذوقه من فرق بين لفظ وآخر ، وأدائه للمعنى الذي حمله ؛ ولم يبق من فرق فعلي سوى السموّ في المعنى ، وشرف الفكرة التي يتناولها الشاعر ، ودقة الصورة التي يريد أن يبرزها .

ولقد ظلّ الشعر العربي منذ انحلال الدولة العباسية يدور في دائرة واحدة تقريباً ، هي دائرة اللفظ ، وجعلها الشعراء حلبة تسابقهم ؛ أما المعنى ، أما التحليق في دُنَى من المعاني ، وابتداع صور جديدة يزودون بها عالم الفكر ، فهذه لم تكن لهم على بال ، حتى صَحَّ لبعض النقاد أن يهتموا الشعر العربي بأنه مشغلة الفارغين ، وهم في ذلك جدّ معذورين .

فإذا وافقنى الأستاذ على هذه القضية أيضاً ، وهى أنه ليس ثمة مانع من أن تجمع الرقة والجزالة فى واحد ، وأن كل جزل رقيق وبالعكس - سوى ماتمليه المناسبات الخاصة من اختيار ألفاظ معينة قد تبعد عن الرقة أو الجزالة قليلاً أو كثيراً - فإننا نكون قد وصلنا الى أن السيد قد جمع بين الغائتين ، وتفرد بالحسنين بين شعراء النهضة ؛ وحسبى فى الاستدلال نفس الأبيات التى أوردها الأستاذ ووسمها بحق بأنها سحرٌ من السحر ، وإن أطلق عليه الشعر . وهى التى منها :

إن فى الغادين منى طفلة قام بدعُ الحسن منها وقعد
مُصوّرت من جوهر الشمس فما هى إلا ريقُ النّور جمدُ !
أوقد الحسنُ على وجنتها جمر قلبي ، فتلظى واتقد
يعكف الطرف عليها مُغضياً قد رأى قبلة حسن فسجد !

ليت شعرى هل رأى الشعر العربى فى أزهى عصوره ، بل فى كل عصوره ، شعراً يَسُمُّو هذا الشعر رقة وعذوبة وجمالاً ؟ وهل رأت البلاغة العربية أزهى من هذه الصور المتلاحقة ، فى قلب مُحبٍّ يودع حبيبه ؟ إنه فن فتان ماهر ، بكل ما فى هذا اللفظ من قوة .

ومما يشهد لشاعرنا برسوخ القدم فى فنه ، وحساسيته المرفهة ، فى الوقوف على الفرق الدقيق بين الجزالة والرقة ، مقصودته فى حرب طرابلس سنة ١٩١١ ، والتى أورد الأستاذ شيئاً منها ، ولا أمل بتكراره ؛ بل أورد شيئاً من قصيدته فى ثورة دمشق فى سنة ١٩٢٥ وما فعله بها الفرنسيون :

لغير الهدى أجلب العاصف وللنبيل أن يغضب الآنفُ
إذا رسف الشعب ذاق الفناء كأن الهوام هو الراسف
قبول المظالم يغرى الظلوم كما لج فتانك الصادف
إذا عطل الشعب هماته فأنبل ما يرتجى حاتف
بلاء الدخيل وكيد العشير كما اجتمع النار والعاصف

هو الغرب : لا قلبه نابض برحى ، ولا طرفه ذارف
حرى بتفكيره أن يسيل نجيعاً كما يطرق الرافف
تباب لعديه ، لا يومه أعان ، ولا أمسه السالف
أسى للحليفة إذ غدرها تليد ، وإذ حلفها طارف
لقد جند الغرب حتى العيون غزا الشرق فتأناها الشاغف
كان الدنانير غريبة فوارس جحفها زاحف
والقصيدة فى نحو السبعين بيتاً كلها على هذا الفسق الفريد الطراز ، قوة وجزالة ،
حتى أتت ألفاظها كما يقول ابن الأثير : كأشخاص عليها مهابة ووقار .
ولما كان شاعرنا طليعة المجددين لدياجة الشعر وأخيلته ومعانيه ، فإننا
نحمل مميزات شعره لنتبين مدى أهدافه ومقاصده ، وحدود رسالته وأوضاعها ،
ولنستطيع تفهم أدبه وفنه ، فنقول : إنها :

- ١ — التألق فى اختيار اللفظ مع صفائه وعدوبته .
 - ٢ — ابتداع صور من المعانى لم يسبق إلى أكثرها .
 - ٣ — جمال التشبيهات المنزعة من المدركات الحسية .
 - ٤ — استقلال كل بيت من قصيدة بفكرة مستقلة .
 - ٥ — تخيير الأوزان والقوافى التى لم يطرقها كثير من الشعراء .
- وليست هذه كل مميزات شعر السيد ، وإن كان بعضها حسب شاعر من غفار ؛
فاذا علمت إلى ذلك أنه ظل طوال حياته ، يرسل شعره فى شتى الأغراض ،
لا يقصد به إلا إرضاء رغباته الفنية البحت ، علمت أن له هدفا يقصده ، ورسالة
معينة ؛ وذلك أن يحدد شباب الشعر ، ويعيد اليه مجده الفنى من حيث السمو
فى المعنى ، والإشراق فى التعبير ، وتزويده بصور جديدة من الأخيلى ، متخذاً
من منابع اللغة الأصيلة معينه ، ومن هدى القرآن مثله . أو كما يقول هو بنفسه
واصفاً بيانه :

بيان هاد غذته آى من المثانى فرق آيا
يراعة صُرفت جمالا كما يشق اليراع قايا

ولقد مضى شاعرنا في تحقيق أهدافه وأداء رسالته ، في هدوء هو طبعه ،
وسكون هو سجيته ، وسماحة هي ديدنه ، وانصراف عن الضجة والدعابة الزائفة ؛
وظل على ذلك عمره — مد الله فيه — مؤمناً بحق ، أنه إن لم يفهمه جيله فسيأتي
من بعدهم من ينصفه ويثأر له ؛ وهذه الخلال ، وتلك السجايا هي التي جنت عليه
وباعدت بينه وبين الجماهير ، لا شعره ولا فنه ، وإن كان لإرضائها أيسر من لا
وأقرب سيلاً . ولكن للرجل مثالية فنية عبر عنها إذ يقول :

ليس طيب الذكر حقاً كما يذكر البدر بحسن ما فتن
ومثالية أخلاقية تتمثل في قوله :

عصى الجلالة لا أعتزى الى الهون لولا سجود الصلاة
هذا وليس الرجل بالقليل الخبرة بوسائل العصر ، والوصول الى ما يريد ؛
فهو في ذلك ذو الناب والمخالب ، ولكنه يعتصم بخلقته وسجاياه ، وقد يسر إليه
في أسباب الرزق والنعمة . واسمعه يصف عصره هذا الوصف الدقيق إذ يقول
في قصيدة ضافية :

يا عصر ما فيك من عواد يا عصر ما فيك من خفايا
ما للثنايا ترف بشرا على الجوى يصدع الحنايا ؟
علام تزهى بعصر علم تدم في حمده التحايا ؟
لدى البغايا لنا خلال وما لنا رقة البغايا !!
فطالع الحفل بالمخازى يا قبح لا تنظر المرايا

والآن وقد وصلنا الى هذا المدى من البيان ، لا نغالى إذا قلنا إن السيد بحق
رائد جميله وطليلة مجديده ، وشاعر البيان الأصيل ، وواصف الجمال الرائع ؛
وإن من الجناية على الذوق الفن لأبناء هذا الجيل أن يقال إنه شاعر الخاصة
وحدهم . وإليك طاقات من أزاهيره هي خير ختام لهذا الحديث :

قال يصف شجرة صناعية زينت بعقود من ثريات الكهرباء في قصيدة
طويلة منها :

لقد أورك الغصن حتى زها وشف به النور حتى التهب
لمن كفن يحمل المبدعات كما يحمل العود حملو الطرب

سَرِيٍّ من الحسن في مُتَرَفٍ من الغُصْنِ يزهي بنور عجب
عن السَّلكِ أو مَضُّ نُورِهِ فَمَهْلٍ مَسَّ قَلْبِي حَتَّى وَجِبِ
سَمَاءٍ تَأَلَّقَ بالنَّيِّرَاتِ فَنَجْمٌ أَضَاءَ وَنَجْمٌ غَرَبِ
ضِيَاءٍ ، فَكَفَّ ، كَغَمَزِ الْجَفُونِ وَوَجْهَهُ تَهَلَّلَ ثُمَّ اكْتَأَبِ
إِلَى أَنْ يَقُولَ :

سَمِئَتِ الْمَعَادُ وَأَنْ الْحَيَاةُ كَأَنْفَاسِ أُنْبَاءِهَا مُتَسَلِّبِ
مُفَتِنًا ، وَكَمْ نَعْبُدُ الزَّائِفَاتِ بِزُيْفِ الْجَمَالِ وَزُيْفِ الْآدَبِ
وَمِنْ غَزَلِ الْقَايَاتِي فِي صَدْرِ قَصِيدَةٍ وَطَنِيَّةٍ ، وَهُوَ فِي شُرْعَةِ الْآدَبِ بَدَعَ مِنْ
الْبَدْعِ لَا شِعْرَ مِنْ الشَّعْرِ ، قَوْلُهُ :

هَتَفْتُ بِأَكِيَّةٍ يَوْمَ الظَّنِّ لَيْتَ هَذَا الْبَيْنَ لَمْ يَمْلِكْ حَسَنُ
غَضَبَةِ اللَّهِ عَلَى يَوْمِ النَّوَى إِنَّهُ دَلَّ عَلَى الْقَلْبِ الشَّجَنُ
أَهْ مِنْ وَقْفَةٍ بَيْنٍ لَمْ تَذَرِ دَمْعَةً فِي مَقْلَةٍ الظُّبَى الْأَغْنُ
مَقْلَةٍ مَلَأَى بِسَحَرٍ لَمْ تَبِتْ لَيْلَةً فِي الدَّهْرِ مَلَأَى مِنْ وَسَنِ
وَفُؤَادٌ أَسْكَنَتْهُ لَوْعَةٌ وَدَّ مِنْ طَوْلِ خَفُوقٍ لَوْ سَكَنَ
أَقْبَلْتُ مُطْلَقَةً مِنْ قَرْطِهَا زَهْرَةً أَوَّلَى بِهَا ذَاكَ الْفَنَنِ
تَخَلَّطَ الدَّلَّ بِمَضْنَى حَزَنِ حَرَّ قَلْبِي ، مِنْ دَلَالٍ فِي حَزَنِ

* * *

ويقول مطالباً زعماء مصر بالإصلاح :

عَوَّدُونَا مِنْ قِيَادِ نَهْضَةٍ إِنَّمَا الْأَمَةُ كَهْدَى وَاعْتِيَادِ
عَلَّمُونَا ، أَصْلَحُونَا ، حَظَّمُوا كُلَّ قَيْدٍ يَسْتَبِينَا أَوْ صِفَادِ
الْغِنَى وَالْمَجْدُ ، رَهْنٌ بِالْغِنَى جَدَّدُوهُ ، كَالْتَمَغْنَى يُسْتَعَادِ
كَذَبِ الْغَاوُونَ ، لَيْسَتْ حَرَّةٌ أُمَّةٌ تَعْيَا بِعِلْمٍ وَاقْتِصَادِ

ويقول واصفا طفلاً يرضع ثدى أمه :

فَتَنَانَةُ الدَّلِّ من بعض الأماليد تُدْنِي حُلِيَّ ثَدْيِهَا من ثَغْرِ مولود
 طفلٌ يميل على نهدٍ فَيَرْضَعُهُ أخذ الحمام بأطراف العناقيد !!
 وهكذا جل شعر السيد ، بل كل شعره ، متعة للسمع والقلب ، ونزهة
 للخطاير ؛ فحكيمته وحى حسٍّ مرهف ، وغزله يستبى أشد الغيد دلاً ، وشكاته
 تلين أشد القلوب عتواً ؛ ولولاً ضيق النطاق لأوردت للقراء كثيراً وكثيراً . وكـم
 يصدق عليه قول القائل :

أطاعته أنواع البلاغة فاهتدى إلى الشعر من نهج إليه قويم

تحايل

قال أبو عبيدة : أخذ سراقه بن مرداس أسيراً يوم جبانة السبيع فقدم
 فى الأسرى الى المختار صاحب الدعوة العلوية . فأنشده سراقه :

امنن على اليوم يا خير معد وخير من لبي وصلى وسجد
 نفلى سبيله . فلم يف سراقه بما وعد من الانضمام إليه ، ولحق بجيش إسحاق
 ابن الأشعث ، فوقع أسيراً ثانية وأتى به المختار أسيراً ، فقال له : ألم أعف عنك ؟
 لأقتلنك ! قال سراقه : لن تفعل . قال المختار : ولم ؟ قال : لأن أبى أخبرنى أنك تفتح
 الشام حتى تهدم دمشق حجراً حجراً وأنا معك . نفلى سبيله . فهرب ثانية ووقع
 أسيراً . فقال له المختار : لأقتلنك هذه المرة !

فقال : ليس هؤلاء الذين أسرونى ، فإننا لما التقينا رأينا قوما عليهم ثياب
 بيض وتحتهم خيل بلق تطير بين السماء والأرض .

فقال المختار : خلوا سبيله ليخبر الناس بذلك ، ثم هرب سراقه ودعا لقتال

المختار وقال :

ألا من مبلغ المختار عنى بأن البلق دهم مضمرات
 أرى عيـنى ما لم ترأياه كلانا عالم بالترهات
 كفرت بوحىكم وجعلت نذرا على قتالكم حتى الممات

المبادئ الاشتراكية في الإسلام

لحضرة الأستاذ سعيد زايد

الاشتراكية في الإسلام

مما سبق ندرك أن الاشتراكية في صميمها ترمى أولاً وبالذات إلى المساواة الفعلية في كل شيء، وخاصة في النواحي الاقتصادية، فهي في جوهرها مساواة وعدل؛ وندرك أيضاً أنها لم تأخذ الشكل العملي، أو كما يقال: لم تبلور أفكارها على شكل مبادئ عامة إلا على يدى كارل ماركس.

بقى علينا أن نعرف إذا كانت أسسها والمبادئ التي رغبت في تحقيقها قد تحققت فعلاً في الإسلام قبل ذلك بحوالى اثني عشر قرناً أم لا.

ذخر القرآن الكريم بالآيات التي تحض على المساواة في الحقوق والواجبات: «يأياها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم» إلى غير ذلك من الآيات. وسيرة الرسول الكريم كلها تنطق بالعدل وتحث على المساواة، وتحارب التفاخر والغرور، فلقد قال عليه الصلاة والسلام في خطبة الوداع: «يأياها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر، فضل إلا بالتقوى؛ ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد، ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب». وكذلك سيرة الخلفاء الراشدين مملوءة بما يصح أن يفخر به المسلم من تحقيق للعدل والمساواة. ويطول بنا المقام إذا نحن حاولنا أن نقف عند سيرة كل منهم فنبين أثرها من آثاره.

ولقد منح الإسلام حرية للمسلمين لا تنص عليها أعظم دساتير العالم. غليفة المسلمين اختياره موكول إليهم، والحرية الفكرية كانت مكفولة في الإسلام،

وما زال التراث الذى خلفه المتكلمون ، وخاصة المعتزلة وفلاسفة الاسلام ، محفوظا الى اليوم ؛ وحرية العقيدة كانت محققة أيضاً ؛ قال تعالى « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي » ؛ والحرية المدنية أيضاً . ويكفى أن نذكر أن الإسلام كان يتلمس أوهى الأسباب للقضاء على الرق حتى يحقق لجميع الأفراد الرشد المدنى ، واتباع فى إلغائه طريقة حكيمة سارت تدريجيا حتى قضت عليه .

وأية مساواة أعظم من وقوف المسلمين بعضهم بجانب البعض ، لا فرق بين غنيهم وفقيرهم ، فى الصلاة ، وقيامهم بحركات واحدة من ركوع وسجود ؟ هنا تخضع نفس الكبير ، وترتفع نفس الصغير ؛ وكذلك وقوفهم عرايا إلا من ثياب الإحرام فى الحج ، لا يسكاد المرء ، أو بتعبير أصح : تعدم التفرقة بينهم ، أليس فى ذلك مثال المساواة ؟

بقى أن نعرف كيف حقق الإسلام المساواة المادية ؟ قال تعالى « واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » . ولقد كانت الغنيمة أيام الرسول هى ما يستولى عليه جيوش المسلمين من منقول ، فكان صلى الله عليه وسلم يختص بخمسها لتوزيعها على الأشخاص المنصوص عليهم فى الآية ، والاربعة الاخماس الأخرى كانت توزع على رجال الجيش بنسبة مجهود كل شخص فى الحرب ؛ وطبق الرسول هذه القاعدة فى الأرض أيضاً عند ما فتحت الجيوش خيبر . وعندما جاء عمر رضى الله عنه فرق فى الغنيمة بين المنقول وغير المنقول ، فكان يوزع الغنيمة على الجيش كما كان يوزعها الرسول تطبيقاً للآية ؛ أما بالنسبة للأرض فكان يعتبرها فيئاً أو وقفاً على الناس ، تطبيقاً لآية النىء التى يقول فيها سبحانه وتعالى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » . ولقد عمل بهذه الآية فى جميع الأراضى التى فتحها المسلمون فى عهد عمر ، ومنها مصر التى ظلت طيلة حكم العرب وهى مملوكة لبית المال الذى كانت تدفع منه أرزاق الجند وما تحتاجه المصالح العامة فى البلاد الذى حصل منه المال ؛ ويصرف الباقي على الناس على أساس ما يؤدونه للدولة من عمل ومجهود ، أو على أساس ما قدمه السابقون من خير للإسلام .

ويحسن هنا أن نذكر نصاً للقاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم في كتابه الخراج ، إذ ذكر أنه لما جاءت عمر بن الخطاب رضى الله عنه الفتوح وجاءت الأموال قال « إن أبا بكر رضى الله تعالى عنه رأى في هذا المال رأياً ولى فيه رأى آخر ؛ لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه ؛ ففرض للمهاجرين والأنصار من شهد بدراً خمسة آلاف خمسة آلاف ، وفرض لمن كان إسلامه كإسلام أهل بدر ولم يشهد بدراً أربعة آلاف أربعة آلاف ، وفرض لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم اثني عشر ألفاً اثني عشر ألفاً إلا صفية وجويرية فإنه فرض لهما ستة آلاف ستة آلاف ، فأبيا أن يقبلا ، فقال لهما : إنما فرضت لهن للهجرة . فقالتا : لا إنما فرضت لهن لمكانهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان لنا مثله ، فعرف ذلك عمر ، وفرض لهما اثني عشر ألفاً ، وفرض للعباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم اثني عشر ألفاً ، وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف ، وفرض لعبد الله بن عمر — ابنه — ثلاثة آلاف . فقال : يا أبت ، لم زدته على ألفاً ؟ ما كان لأبيه من الفضل ما لم يكن لأبي ، وما كان له ما لم يكن لى . فقال : إن أبا أسامة كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أيك ، وكان أسامة أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك . وفرض للحسن والحسين خمسة آلاف ألحقهما بأبيهما لمكانهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفرض لأبناء المهاجرين والأنصار ألفين ألفين ، فمر عمر ابن أبي سلمة فقال : زيدوه ألفاً . فقال له محمد بن عبد الله بن جحش : ما كان لأبيه ما لم يكن لأبائنا ، وما كان له ما لم يكن لنا . فقال : إني فرضت له بأبيه أبي سلمة ألفين ، وزدته بأمه أم سلمة ألفاً ، فإن كان لك أم مثل أم سلمة زدتك ألفاً . وفرض لأهل مكة والناس ثمانمائة ثمانمائة ، فربه النضر بن أنس فقال عمر : افرضوا له ألفين . فقال طلحة : جئتكم بمثله ففرضت له ثمانمائة وفرضت لهذا ألفين ؟ فقال : إن أبا هذا لقيني يوم أحد فقال : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقلت : ما أراه إلا قد قتل ، فسل سيفه وكسر غمده وقال : إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل فإن الله حى لا يموت ، فقاتل حتى قتل ، وأبو هذا يرعى الشاء في كذا وكذا . . . فعمل بهذا في خلافته .

وهناك نص آخر يشهد على عدل عمر ، إذ يعتبر الأرض التي استولى عليها جيش المسلمين فيمًا . قال أبو يوسف « فلما جاء فتح العراق . . . وشاورهم في قسمة الأرضين التي أفاء الله على المسلمين من أرض العراق والشام ، فتكلم قوم فيها وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم وما فتحوا . فقال عمر رضي الله تعالى عنه : فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الأرض بعلوجها قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت ؟ ما هذا برأى . فقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه : فما الرأي ما الأرض والعلاج إلا بما أفاء الله عليهم ، فقال عمر : ما هو إلا كما تقول ولست أرى ذلك ، والله لا يفتح بعدى بلد فيكون فيه كبير نيل ، بل عسى أن يكون كلا على المسلمين ، فإذا اقتسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق ؟ » .

ولقد رأى عثمان وعلى وطاحنة وابن عمر رأى عمر ، ولكن الفاروق العادل لم يكتف بهذا ، بل أرسل في طلب عشرة من الأنصار ، خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج ، وقال لهم « . . خالفني من خالفني ووافقني من وافقني ، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هوأى ، معكم من الله كتاب ينطق بالحق ، فوالله لئن كنت فطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق » وعرض عليهم الأمر « فقالوا جميعا الرأي رأيك فنعلم ما رأيت ؛ إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجري عليهم ما يتقون به ، رجع أهل الكفر إلى مدنها » فقال عمر « قد بان لي الأمر ، فمن رجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها ويضع على العلوج ما يحتملون ؟ » .

هذا ما كان يتبعه الإسلام في تقسيم الغنائم . ولقد كان من نتيجة ذلك أن تجمعت بالطبع عند الأفراد ثروة فردية أو ملكية فردية حصلوا عليها من التجارة ومن أخذ أنصبتهم من بيت المال ، ولكن الإسلام فرض أشياء حالت دون تكديس الأموال ودون ظهور نظام الطبقات ، فقانون التوريث الإسلامي ساعد على توزيع الثروة على أكبر عدد ممكن ، ووسع دائرة الانتفاع بها ، فكل أبناء المتوفى لهم حق الميراث ، بعكس القانون الانجليزي مثلا الذي يقتضى بانتقال ثروة الأب إلى الابن الأكبر ، وبذلك تظل الثروة مكدسة في يد فرد واحد من أفراد العائلة

وقول الرسول « لا وصية لوارث » الذى صار بعد ذلك مبدأ فقهيا له حكمة وأية حكمة ، فهو يمنع انتقال الثروة كلها الى أحد الأبناء . أليس فى هذا اشتراكية معتدلة تجعل العدل والمساواة نصب أعينها ؟

والزكاة التى هى إحدى أركان الإسلام الخمسة ، قد فرضت على كل ما يمتلك الشخص من أموال وتجارة وزراعة وما الى ذلك من أشياء . وأكبر مثل للمساواة فيها فرضها على الشخص الذى يمتلك قوت يوم وليلة بمناسبة عيد الفطر ، لتعم البهجة وينتشر السرور ؛ قال تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل » .

ولقد حجب الإسلام فى الصدقة ؛ قال تعالى « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ، وما تنفقوا من شئ فإن الله به عليم » وتندد بالبخل وحب الشح خشية الفقر؛ قال تعالى « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » . ومجد الإيثار، قال تعالى « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

ولقد كفل بيت مال المسلمين العيش للسنين والعاطلين من المرضى ، وللمواليد أيضا ؛ وكلنا يعرف قصة الأم التى فطمت ولدها قبل الأوان ، فلما مر عمر بن الخطاب ليلا وسمعه يبكى واستقصى السبب فعرف أنها فطمته لينال راتبه من بيت المال ، فأصبح الصباح على صوت منادى عمر ينادى فى المسلمين : أن لا تقطعوا أولادكم قبل الأوان فإننا سنرتب لهم من يوم ولادتهم ١ .

كلمة تقديرية :

هذه بعض نظرات سريعة فى الإسلام كشفت لنا عن نوع من الاشتراكية يمكن تسميته بالاشتراكية المعتدلة ، اشتراكية وحدث فى روح الشريعة السمحة ، وفى سيرة النبي والخلفاء الراشدين . وإن الباحثة المدقق ليلمس آثارها فى كل شئ ؛ فلقد ظهرت روحها فى بعض آثار الفلاسفة والأدباء والشعراء ، ولئن أراد أستاذنا الأكبر ألا ينبعث الإسلام إلا بأنه إسلام وكفى ، فإنى أرى أن فى قول فضيلته

لفتنا لنظر هؤلاء الذين يمثلون الدنيا صياحا بأن في الاشتراكية عدلا ومساواة، الى أن الإسلام قد حقق مساواة وعدلا يفوق عدلهم ومساواتهم، فإن كان الإسلام لم يبلغ الملكية الفردية، إلا أنه جعل فيها حقوقا للفقير والبائس والمحروم.

الإسلام إذن هو الإسلام كما قال أستاذنا الأكبر، فإن وجد فيه الباحثون عدلا وحرية ومساواة تطابق روح الاشتراكية فواجب عليهم أن لا يسألوا عما حقق الإسلام من الاشتراكية، بل عما حققت الاشتراكية من روح الإسلام. وإذن فيمكننا بدون تعسف أن نغير موضوع مقالنا - إذا أردنا أن نعطي الفضل لذويه، وأن نقصد السابق الأول في حلبة الآراء قلادة النصر - الى : « المبادئ الإسلامية في النظام الاشتراكي ».

وبعد، فهذا بحث سريع على هامش رسالتنا الجامعية - كما قدمنا - ويوم أن يسمح لنا بنشر كل ما رأينا، سيرى حضرات القراء أن الإسلام قد فاق الاشتراكية وأى نظام آخر في تحقيق المبادئ الإنسانية النبيلة.

بديهة موفقة

أقبل أعرابي إلى داود بن المهلب فقال له : إني مدحتك فاستمع . قال : على رسلك ، ثم دخل بيته وتقلد سيفه وخرج فقال : قل ، فإن أحسنت حكمناك ، وإن أسأت قتلناك . فأنشأ يقول :

أمنت بداود وجود يمينه	من الحدث الخشى والبؤس والفقر
فأصبحت لا أخشى بداود نبوة	من الحدثان إذ شددت به أذى
له حكم لقمان وصورة يوسف	وحكم سليمان وعدل أبي بكر
ففى تفرق الأموال من جود كفه	كما يفرق الشيطان من ليلة القدر

فقال له داود : قد حكمناك فإن شئت على قدرك ، وإن شئت على قدرى . قال الأعرابي : بل على قدرى . فأعطاه خمسين ألف درهم . فقال له بعض الجلساء : هلا احتكمت على قدر الأمير ؟ قال : لم يك فى ماله ما يفى بقدره ! . قال له داود : أنت فى هذه أشعر منك فى شعرك . وأمر له بمثل ما أعطاه .

المنطق اليونانى والمنطق الرمزى

لفضية الأستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعدي
المدرس بكلية اللغة العربية

نشرت مجلة الأزهر فى عدد شعبان سنة ١٣٦٧ هـ من المجلد التاسع عشر ، مقالا تحت عنوان : (ثورة فى المنطق) وهو للأستاذ الفاضل الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى المدرس بجامعة فؤاد الأول ، وقد أشار فيه الى ثورة جديدة توجه الآن نحو المنطق اليونانى ، باسم المنطق الرمزى ، أو الجبرى ، أو العلى . وكمن ثورة قامت على المنطق اليونانى منذ نقل الى اللغة العربية ، فلما نقل الى اللغات الأوروبية الحديثة ، قامت عليه مثل هذه الثورات ، ولكنه صمد لها كلها ، ولم تحدث هذه الثورات فى صميمه تغييراً يذكر .

لقد ثار على هذا المنطق بعض علماء المسلمين باسم الدين ، لأنه كان مختلطاً ببعض مسائل الفلسفة اليونانية ، فحرموا الاشتغال به من هذه الناحية ، لأنه ضار بالدين فى ذاته ؛ ولكن الله قيض له علماء آخرين من المسلمين قاموا بإنصافه ، فجردوه من هذه المسائل الفلسفية التى لا تدخل فى صميمه ، حتى صار علماً لا يؤخذ على أنه وسيلة خاصة بتلك الفلسفة ، بل يؤخذ على أنه علم قائم بذاته ، يخضع لحكمه غيره من العلوم ، ولا يخضع لحكم تلك الفلسفة ولا لغيرها ، وقد بلغ تعصب الإمام الغزالى له أنه كان يقول : من لا معرفة له بالمنطق لا يوثق بعلمه .

ثم قامت عليه ثورة أخرى من بعض علماء العربية ، لأنه يعتمد على أصول اللغة اليونانية ، وهى تخالف العربية فى كثير من أصولها ، فلا يمكن أن يقوم هذا المنطق فى العربية كما يقوم فى اليونانية . وقد غفل هؤلاء العلماء عن العلاقة التى تقوم بين المنطق واللغة اليونانية ، فهو لا يتصل بأسلوبها فى المحادثة أو الخطابة أو الشعر ، وإنما يتصل بالأسلوب العلمى الذى ترتب فيه التعاريف ترتيباً خاصاً يوصل الى حقائقها ، وترتب فيه المقدمات ترتيباً خاصاً يوصل الى نتائجها ؛ وهذا الأسلوب لا يفترق فى اللغة اليونانية واللغة العربية ، ولا فى غيرهما من اللغات البشرية ، لأنه أسلوب يتأثر بأسلوب العلم فى التعريف والتدليل والمناظرة

والحجاج ، والعلم لا يقف عند لغة من اللغات ، بل يجرى حكمه على اللغات جميعا ؛ فشان علم المنطق في هذا كشأن العلوم الإلهية والطبيعية والرياضية ، تتفق مسائلها في جميع اللغات ، ولا تختلف في لغة منها عن غيرها .

ثم قامت عليه ثورة ثالثة ، في أوائل النهضة الحاضرة ، يراد منها تقديم المنطق الاستقرائي ، على المنطق القياسي ، لأن المنطق الاستقرائي يعتمد على التجربة ، وقد قامت النهضة الحاضرة على أساس الاعتماد عليها في العلم ، فليكن المنطق الاستقرائي الذي يعتمد عليها أحق بالتقديم على المنطق القياسي ؛ وبعضهم يغالى في هذا ، ويجعله هو الأحق باسم علم المنطق ، والمنطق اليوناني يعرف القسمين ، ومنطق القياس فيه هو الذي يعتمد على استنباط الجزئيات من الكلّيات ، ومنطق الاستقراء فيه هو الذي يعتمد على استنباط الكلّيات من الجزئيات ، ولكنه كان يهتم بالمنطق الأول أكثر من الثاني ، لأن الكلّيات التي يعتمد عليها في الاستنباط مرجعها إلى العقل ، أما الجزئيات التي يعتمد الاستقراء عليها في الاستنباط فمرجعها إلى الحس ، والعقل هو الذي يحكم على الحس ، دون العكس ، فيكون ما يرجع إليه أولى بالتقديم ، مما يرجع إلى الحس ؛ على أن كلا منهما له مجاله في الحكم ، ولو كان مجالهما واحدا ، لكان هناك معنى لتقديم أحدهما على الآخر ، وإنما اهتم المنطق اليوناني بمنطق القياس لكثرة أحكامه ، وتنوع مسائله .

وهذه ثورة رابعة على المنطق اليوناني ، وهي ثورة أصحاب المنطق الرمزي ، يدعون فيها أن المنطق القديم ينظر إلى الأشخاص أو الأفراد ، ثم يجمعها في النوع ، ويرفع الجنس فوق النوع ، فالنوع كإنسان ، يشمل : سقراط وزيدا وعمرا وغيرهم ، ثم تقول : سقراط إنسان ، ثم تقول : الإنسان حيوان ؛ لأن الحيوان يشمل أنواعا ، منها الإنسان والطيور ، إلى آخر أنواعه .

ثم يدعون أن هذه النظرة غير دقيقة ، وغير صحيحة ، لأن الإنسان ليس بمجموع سقراط وزيد ، وفيلان وفلان ، إذ الواقع أنه لا يتركب من زيد وعمرو ، وليس هذا الشخص وذاك الشخص ، أجزاء من النوع ؛ وإذا كان الأمر كذلك ، فإنه يجب البحث عن أمر آخر بدلا من النوع والجنس .

ولا شك أنهم يخطئون في نسبة ذلك إلى المنطق القديم ؛ لأن دلالة النوع فيه

ليست من دلالة الكل على أجزائه ، كما يدعون ، وإنما هي من دلالة السكلي على جزئياته ، والفرق كبير بين الدالتين ؛ وإذا كانت هذه الدعوى غير صحيحة ، فإن ما بنوه عليها في منطقهم الرمزي يكون غير صحيح أيضا ، وهو إلى هذا من الغموض بحيث لا تظهر له ثمرة كشمرة الجنس والنوع .

وهكذا يدعون في ثورتهم على المنطق اليوناني ، أنه يعتمد على الألفاظ ، أما المنطق الرمزي فإنه يعتمد على الرموز ، وهو في هذا أدق وأحكم ، لأن الرموز منها الثابت كالعدد - ١ - فإن له معنى لا يتغير مع الاستعمال في العمليات الحسابية ، ومنها ما يتغير مثل - س ، ص - فإنه متغير لا يحمل معنى مستقرا في ذاته ؛ فإذا قلنا : هل الواحد عدد صحيح ؟ كان الجواب بالنفي ، أو الإثبات ، ولكنه على أى حال جواب يدل على معنى ، سواء أ كان صادقا أم كاذبا ؛ أما إذا قلنا : هل - س - عدد صحيح ؟ فلن يكون للجواب معنى مفهوم ، لأن - س - عدد متغير ، لا يمكن أن يكون له معنى حتى نحدده ، فهذا شأن الرموز ، أما الألفاظ فإنه لا يقال فيها إنها ثابتة أو متغيرة ؛ وبهذا يكون اتجاه المنطق الرمزي إلى أن يجعل التعبير موضوعيا ، وهذا يدينه من العلم الصحيح ، لأننا نقول : الذهب أصفر ، ونعد هذه القضية صحيحة ذات دلالة تامة ، ولكننا إذا امتحناها نجد الذهب ، ولونه الأصفر ، جزمين من العالم الزاخر بالأشياء والصفات ، وهو عالم شديد التعقيد ؛ وليس لنا أن نحكم بصدق هذه القضية أو كذبها ، إلا إذا نظرنا في جملة الظروف المحيطة بها ، فالذهب أصفر في ضوء خاص ، فإذا تغير الضوء تغير اللون . وعلى هذا يكون أصحاب المنطق الرمزي على حق في نظرهم إلى الحدود ، واعتبار أن بعضها ثابت وبعضها متغير ، فقد رأينا أن الصفرة ليست حدا ثابتا بل متغيرا ، وذلك حسب الظروف المحيطة به .

ولا شك أن المنطق القديم ليس في شيء من هذه الدعوى أيضا ، لأنه ينظر في المفاهيم لا في الألفاظ ، ونظره في الألفاظ بالعرض لا بالذات ، وهو مع هذا يجعل من الصفات ما هو ثابت ، وما هو متغير ، ويسمى الثابت باللازم ، ويسمى المتغير بالمفارق ؛ كما يجعل من الصفات ما هو ذاتي ، لا يمكن إلا أن يكون ثابتا . وما أجدر ما ذكره في صفرة الذهب بأن يعد من السفسطة ، وما أجدر المنطق الذي يعتمد على مثل هذا بأن يكون سفسطة باطلة ! ؟

نواحي الإعجاز في أخلاق الرسول

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد شاهين
من علماء الأزهر

باتت السيرة النبوية موضع عناية كثير من قادة الفكر الحر في الشرق والغرب جميعاً؛ فقد عنوا هنالك وهنا ببحثها ودراستها على الطريقة العلمية السائدة بين باحثي العصر في تحقيق الأحداث الإنسانية الكبرى، وتحليل الشخصيات التاريخية البارزة. وهذه العناية بالسيرة كانت بعض نتائج البعث الثقافي والنهضات القومية في الشرق الإسلامي الحديث. أما في الغرب فكانت من مظاهر تحرير الفكر الأوروبي من سلطان الكنيسة التي شلت تقدمه أجيالاً، حتى حطم أغلاله وأدرك استقلاله، فانبعث يفشد الحقائق المجردة من سائر آفاق المعرفة الإنسانية، ومنها أفق الحضارة الإسلامية الزاهرة.

وقد وفق لفيف من مفكرى الغرب الأحرار إلى فهم جوانب عدة من مدنية القرآن، وحقائق الدين الحنيف، وتاريخ خاتم النبيين، وصدعوا في أمهم بما أدركوه ثمة من الحقائق والقيم؛ فعُدل «كارليل» موقف كثير من مفكرى الانجليز من نبي الإسلام العظيم. وطلع «دار منغام» على الفرنسيين بما أدهشهم من مزايا الإسلام وعظمة رسوله محمد. كما انبرى «تليستوى» يدافع بجرارة وإخلاص عن النبي العربي في العالم السلافي المتعصب. وكذلك أتاحَت النهضة الفكرية وحرية الرأي للأوربيين الوقوف على كثير من حقائق الإسلام وحقائقه ورسوله الأعظم، من الظلام الكثيف والمفتريات الخسيسة الشائعة التي حاولت بها الكنيسة تليس هذا الدين على الأوربيين، حتى لا يقضى على سلطانها في الغرب كما قضى عليه في المشرق. ولكن إلى أي حد فهم هؤلاء المفكرون المنصفون نبي الإسلام؟

لقد حال بينهم وبين حقيقة الرسول العربي أن المدنية الإسلامية كانت مدنية عربية خالصة ، فلا يتاح لباحث ما أن يحسن فهمها على وجهها مالم يحسن فهم لغة القرآن وروحها وأسرار بلاغتها . كذلك زاد في صعوبة فهمها لهذا الرسول تشويه ما نقل من تاريخه الى اللغات الأوروبية ، بفعل نفر من صنائع الكنيسة من المبشرين أو أنصار الاستعمار من المستشرقين . زد على ذلك تسلط المنهج العلمي الطبيعي على أولئك الباحثين في تمحيص التاريخ وتعليل حوادثه ، فهم دائماً مقيدون بالظاهر من قوانين المادة وأحكامها في الشرح والتعليل ، حتى لقد حاولوا تفسير الظواهر الميتافيزيقية في حياة النبيين تفسيراً مادياً ، ولو أدى ذلك الى الاعتساف ، بل الى التخطأ أحياناً ، كما سترى بعدُ حين نعود الى مناقشة هؤلاء الباحثين في مدى فهمهم لنبي الإسلام ، وإنما ألعنا هنا الى منهجهم القاصر ، لتأثيره الظاهر على من عاجل السيرة من كتّابنا المحدثين .

هذا وإن من سمات الضعف في دراسات هؤلاء المفكرين المحدثين ، أن الجانب الخلقى من السيرة لم يظفر منهم بما يستحقه من العناية والبحث ، رغم أنه من أبرز العناصر في شخصية الرسول ، وأغناها بالمعاني والقيم السامية ، وأحفلها بمظاهر العظمة والبطولة ودلائل النبوة ونواحي الإعجاز . ولقد قصصنا عليك في بحثنا السالف صورة من أخلاقه صلى الله عليه وسلم في شبابه وقبل مبعثه ؛ فإذا تأملناها الآن في ضوء العلم وتحت مجهر (السيكولوجيا) الحديث ، سطعت لعينيك معجزة روحية باهرة ، تخلفت بها بعض نواميس الوجود الروحية ، كما تخلفت بعض نواميسه المادية ، بما ظهر على يديه عليه السلام من المعجزات الحسية الجبارة . وآية ذلك أنك لا ترى في تلسم الأخلاق ما عده العلم الحديث العوامل الأساسية في تكيف الأخلاق والسلوك ، وذلك هو تأثير البيئة وروح الجماعة ، والوراثة ، والغريزة .

اشتهر الرسول في هذه السن الباكرة بالتواضع والرفق والإخلاص الى الصمت والعزلة . وما كان لهاته الخلال في بيئته شأن ما ؛ ذلك بأنه نبت في بيئة صحراوية قاسية بخلت على سكانها بكثير من حاجات العيش الضرورية ، ونأت بهم عن المدنية ، ولم تعمّر فيها الشرائع السماوية على وجهها طويلاً ، فأدى ذلك وغيره الى تفكيك الروابط الإنسانية بينهم ، فتفاقت بينهم سنة تنازع البقاء ، حتى أصبحوا يعيشون

في إقليمهم عيشة الضواري والسباع : صراع دائم، وتناحر مستمر؛ ومن ثم كان مظهر التجابة في الشيبية يومئذ بالشجاعة والمهارة في أساليب السكر والفر ، أو بالشجاعة والنبوغ في فنون الشعر والنثر . بهذا كانوا يتقون غارات الالسة في الجوامع والمحافل ، وبذلك يتقون غارات الالسة في معترك الجحافل ؛ وكلما ظهر في قبيلة شاعر مجيد أو فارس صنديد ، دقت البشائر ومشى إليها أحلافها بالتهاني . فكيف نأى محمد بن عبد الله عن هذا الصراع ، وترفع عن أقرانه من الشباب ، وآثر التمسك والزهد ؟ لقد كان تحصيل الغنائم والمتع بقوة السلاح وسيلة مألوفة من وسائل الكسب ، بل من دواعي الفخر والإعجاب ، فما له لا يساير زمانه ويحاكي أقرانه ؟ إن هنا عواطف وغرائز بطل عملها في سلوك هذا الفتى القرشي اليتيم . أين غريزة التقليد ومحاكاة النظير والمباراة ؟ وأين عواطف العصبية وحب الظهور والأثرة ؟ لم يكن محمد ضعيفا ولا رعيديا ، ولا بذى عى أو حصر ، وكان من أشرف العرب بيتا وأعلام صوتا ، فما الذى صرفه عن مجارة أمثاله من الشيبية ؟ وما الذى عقد لسانه عن قرض الشعر أو التغريد به في المفاخرة والمكاثرة ؟ إن محمدا عليه السلام لم يتلق قبل بعثته من عوامل التربية الخاصة ما يعصمه من تحكم البيئة ، أو يجعل تأثيرها عكسيا ، أو يرقى بغرائزه وعواطفه على أسلوب ما من أساليب الابدال والإعلاء والتسامي .

وما هنا ، هاهنا تتجلى المعجزة في ضوء العلم المجرد . كان محمد في صباه يمتق عبادة قومه وعاداتهم ، على حين كان من أبرز الصفات الوارثية في بني قومه التعصب الاعمى للتقاليد وتقديس العرف ، وكان الرجل منهم يتحامل على نفسه ويخالف ضميره وعقله في سبيل النزول على مقتضيات العرف والتقاليد الموروثة ، حتى وأدوا أفلاذ كبدهم عملا بالعرف السائد .

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد
إنا لنرى هاته المناعة الخلقية في سلوك محمد هي بعض إرهاب نبوته ، ونواحي الإعجاز في أخلاقه العظيمة . يؤيدنا في ذلك العلم المجرد ومنطق البحث المحايد ؛ ولكن ذلك مالا يراه بعض الباحثين المعاصرين في السيرة النبوية ؛ لقد عرض لهاته الظاهرة ، ظاهرة المناعة والتنسك ، في أخلاق الرسول علبان من أعلامنا المحدثين ، هما أستاذنا الجليل هيكل باشا والأستاذ العقاد ، فحاولا تفسير هذه الظاهرة على

المنهج السالف الذكر ، فقال الاول في كتابه (حياة محمد) ما نصه : « أما أنه نأى عنها (يعنى خلاعة الشباب) فذلك ما يشهد به التاريخ ، لكنه لم ينأ عنها عجزاً عن النيل منها ، فقد كان الخلعاء المقيمون بأطراف مكة والذين لا يجدون أسباب الرزق إلا الضنك والإملاق ، يجدون الوسيلة إليها ، بل كان بعضهم أشهر من أمجاد مكة وأشراف قريش إمعاناً فيها وإدماً لها ؛ إنما كانت نفس محمد صلى الله عليه وسلم مشغوفة بأن ترى وأن تسمع وأن تعرف ، وكأن حرمانه من التعليم الذى يتعلمه بعض أئداده من أبناء الأشراف جعله أشد للبركة تشوقاً وبها تعلقاً ، كما أن النفس العظيمة التى تجلت من بعد آثارها وما يزال يغمر العالم ضياؤها ، كانت فى توقها إلى الكمال ترغب عن هذا اللهو الذى يصبو إليه أهل مكة ، إلى نور الحياة المتجلي فى مظاهر الحياة لمن هداه الحق إليها ، ولا كسناه ما تدل هذه المظاهر عليه وما تحدث الموهوبين به . كل ذلك ظهر منذ الصبا الأول مظهر الكمال والرجولية وأمانة النفس حتى دعاه أهل مكة جميعاً الأمين » . وقال الثانى فى كتابه القيم عبقرية محمد : « تهيأ للعبادة بميراثه ونشأته وتكوينه ، فولد فى بيت السدانة والتقوى ، وتقدمه آباء يؤمنون ويوفون بإيمانهم ، ويعتقدون ويخلصون فيما اعتقدوه ، ونشأ يتيماً من طفولته ، فانطوى على نفسه ، وتعود التأمل والجد والعزوف عن عبث الصغار ، والنظر إلى ما حوله بعين الناقد المترفع عن الدنيا ، الجانح إلى الطهر واستقامة الضمير ، الخ .

إذن فالدكتور هيسكل يرى تلك الظاهرة أثر حب المعرفة والكمال ، والشعور بالنقص والحسرة عند إنسان حرمه فقره من العلم والتعليم . ويراها العقاد أثر بيئة صالحة وورثة خيرة وتأمل مستمر ؛ ولكن إذا علمنا أن الامة كانت خصيصة غالبية على العرب فى جاهليتهم ، وأنه لم تكن لهم علوم تذكر ، اللهم إلا معلومات بدائية بسيطة كانوا يتداولونها ويتوارثها الخلف عن السلف ؛ فلم تكن الامة إذاً مما يعاب على الأميين أو يحط من قدرهم فى تلك البيئة حتى يستشعروا نقصاً ، أو تولد لهم عقدا نفسية تدفعهم إلى محاولة التعويض بأسلوب شاذ ، كالتماس المعرفة بالانقطاع فى شعف الجبال للتأمل والتفكير . فهذا لم يكن طريقاً للمعرفة عند القرشيين فى ذلك العهد ، اللهم إلا نفر من مشيختهم ممن أصابوا علماً أو نخلة عند أهل الكتاب ..

وإذا أعلننا أن نزعة الخير في النفس وحبا للسكال لا يصرف سلوكها عن الأهداف التي تواضعت عليها البيئة واعتبرتها خيرا ، إذ القيم دائما نسبية ، والبيئة هي أول الاعتبارات في تقريرها وتحديدتها ؛ وإذا أعلننا كذلك أن خصائص الوراثة عند الإنسان خاضعة دائما لبيئته ، فهي التي تبرزها وتنميتها وتكيفها بطابعها الخاص ، وهذا القانون متخلف في أخلاق محمد عليه السلام ، إذ أن نسكه حينذاك لم يكن من طراز النسك في بيئته ، بدليل مقتته للأوثان ، على حين لم يكن قومه يجدون غضاضة في تقديسها ، وقد نصبوها حول البيت لتكون شفعا لهم عند الله تقر بهم إليه زلفى . . . كذلك نعلم أن اليتيم لا يحمل على الانزواء أو الانطواء من كان على شاكلة محمد من الأبطال العظام - إذا أعلننا ذلك كله صعب علينا قبول هذا التفسير من أستاذنا الجليلين : هيكل والعقاد ؛ إذن فلا مندوحة للباحث المحايد الذي ينصف الحقيقة المجردة من التسليم بهذا التفسير الحق الوارد في حديث القاضي عياض المتقدم في صدر بحثنا السالف ، وذلك هو العصمة ، وإلا فعمدنا بكل مصلح تشكر لأساليب الحياة في بيئته أن يكون في ثورته متشعبا بأفكار ومبادئ أخرى ، ولكن محمد بن عبد الله لم يتح له علم ولا معرفة على يد معلم أو مرشد . وههنا سر المعجزة . كثيرا ما ظهر العباقرة المثاليون والأبطال المصلحون في البيئات المنحطة ، كما تظهر حجارة الماس وسبائك الذهب في باطن الأرض بين الثرى والجنادل ، ولكن كما لم نسمع بأن ماسة كريمة أو سبيكة ذهب خالص عثر عليها في منجمها وهي مصفاة مصقولة قد صيغت حلية بدیعة دقيقة الصنع وذلك من غير أن تمتد إليها يد من قبل ، كذلك لم نسمع ولا سمع التاريخ أن عبقریا قد ظهرت عبقريته وخصائص نبوغه دون أن تتناوله عوامل التربية المختلفة ، إلا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ؛ إلا هذا الفتى الأسمى الذي نشأ فقيرا يتما بين سخافات الجاهلية وخرافات البدو الهمجية ، ثم كان على هذا السمو النفسى والخلق العظيم . إن الذين ذهبوا إلى أن الفطرة في أصلها خير محض لا ينكرون أن إهمالها وتعرضها للبؤثرات الفاسدة يفسدها ، كالارض الطيبة إذا أهملت سبخت وأنبثت الطفليات . وههنا تتجلى المعجزة ، معجزة العصمة التي رمز إليها شق الصدر ، وأظهرها حديث القاضي ، وشهد بها العالم ، ودل عليها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله « أدبني ربى فأحسن تأديبي » .

المسئولية الادبية

الفضيلة الاستاذ منصور رجب
المدرس بكلية أصول الدين

يخالف الإنسان القانون فيسرق، أو يغصب بالقوة، أو يقتل، أو يشهد الزور، فماذا يحصل ؟

يحصل أن تسأله الدولة عن هذه المخالفات التي ارتكبتها ضد المواطنين الذين ترعاهم، ثم يقدم للقضاء فيحكم القاضي عليه بالعقوبة التي فرضها القانون، وقدرها على من يعصى أمره ويضر غيره من الناس. وهذه المسئولية تسمى المسئولية القانونية، أو المسئولية الاجتماعية؛ لأن المخالفات فيها ارتكبت ضد القوانين الوضعية التي جاءت لتنظيم مصالح الأفراد في علاقاتهم المتبادلة بعضهم مع بعض في الجمعية الإنسانية.

ويحصل أن ترى ناساً من عباد الله يثنون تحت نير الفقر، والجبل، والمرض، ويراهم عبد من عباد الله يكدز الذهب والفضة، يسره أن يراها كل يوم تزداد وتزداد، ولا يسره بل يخيفه أن ينزل عن شيء منها لتخفيف ويلات هذه الإنسانية المعذبة؛ فهل يسأله القانون عن هذا الشح كما يسأل السارق، والغاصب، والقاتل، وشاهد الزور، ثم يفرض عليه عقوبة لعدم إحسانه على عباد الله، وامتناعه عن أداء خدمة المحتاج وهو قادر على أدائها ؟!

ويحصل أن تساعد إنساناً في مسألة ما، فتضيع من وقتك، وراحتك ومالك أحياناً حتى تقضيها له، ثم لا يلبث أن يجهد هذا الجليل، ويكفر بهذه النعمة، ويقلب لك ظهر المحن؛ فهل يسأله القانون، كما يسأل ذلك السارق، والغاصب، والقاتل، وشاهد الزور، ثم يفرض عليه عقوبة لجحده النعمة، وكفره بهذا الجليل ؟ لا.

غير أن ذلك البخيل، وهذا الجاحد للجميل، وإن لم يسألاً أمام المحاكم الوطنية لمخالفتهما القوانين الوضعية، فإنهما مسئولان أمام قانون آخر ليس

كذلك القانون ، وفي محكمة أخرى ليست كذلك المحكمة . . . ذلك هو قانون الاخلاق ، وتلك هي محكمة الضمير الإنسانى ، وهذه المسئولية تسمى المسئولية الادبية ، أو المسئولية الاخلاقية .

والإلزام فى المسئولية القانونيه أو المسئولية الاجتماعية آت من سلطة خارجة عن ذات الشخص ؛ تلك هي سلطة القانون الذى يحرم ، والدولة التى تعاقب ؛ وفى المسئولية الادبية أو المسئولية الاخلاقية ترى الإلزام آتيا من سلطة داخلية ذاتية غير خارجة عن الشخص ؛ تلك هي سلطة الضمير الإنسانى الذى يأمر وينهى ، ويعاقب ويثيب .

وعلى هذا فالإنسان مسئول أدبيا أو أخلاقيا عن أعماله جميعها من ألفها إلى يائها أمام محكمة الضمير ، وما هو إلا محكمة استئناف كبرى ترجع إليها كل أعمال الإنسان ساعة بعد ساعة ، ويوما بعد يوم ، عامة أو خاصة كانت هذه الأعمال . وليس الأمر كذلك فى دائرة المسئولية القانونية أو المسئولية الاجتماعية . فبينما ترى القانون الاخلاقى فى دائرة المسئولية الادبية يقضى على الإنسان بفعل كل ما فيه منفعة الأمة ومنفعته الشخصية ؛ بينما ترى هذا ، ترى القانون الوضعى فى دائرة المسئولية القانونية لا يشمل إلا المسائل العمومية التى تنظم أعمال الإنسان من جهة علاقته بغيره من الناس ؛ أما سير الأفراد الشخصى فلا يتدخل فيه القانون الوضعى ؛ فهو لا يتدخل إلا حيث يؤذى الناس بعضهم بعضا ، فركز العليين علم القانون وعلم الاخلاق واحد ، وهو تنظيم أعمال الإنسان للوصول به إلى الدرجة الممكنة فى السعادة التى هى الخلو من القلق ، والألم ، والاضطراب . لكن محيط أحدهما أكبر من محيط الآخر .

والسبب فى هذا الاختلاف بين العليين أمران كما يقول د . بنتم ، فى كتابه أصول الشرائع :

الاول : أن علم القوانين لا يمكن أن يؤثر مباشرة على سير الأفراد الشخصى إلا بالعقوبة ، والعقوبة ضرر لا يجوز الحكم به إلا إذا نتج من إيقاعه خير أكبر منه . وإذا نظرنا إلى كثير من الأحوال الشخصية رأينا أن العقوبة عليها تنتج ضرراً أكبر من ضرر الفعل الذى حكم من أجله على مرتكبه ؛ لأن تنفيذ القوانين

في مثل هذه الحال يستلزم استعمال وسائل من شأنها إزعاج الخواطر ، وإيقاع الرعب في الافكار ، وهو ضرر أشد مما جاء القانون لاجتنابه .

الامر الثاني . أن علم القوانين مخفوف دائماً بالخوف من إصابة برئ حال كون المراد معاقبة الجاني ، وهو في الاحوال الشخصية يصل إلى درجة الخطر ؛ ومنشأ هذا الخطر ما يوجد من الصعوبة في تعريف الجرائم النفسية ، وتوضيحها والوقوف على كنهها . مثلاً : القسوة ، وكفران النعمة ، والخيانة ، والمورابة ، وما شابهها من القبائح ، مرذولة عند الناس ، لكن لا تقع تحت سلطة القانون لتعذر الوقوف عليها تماماً ، كالسرقة ، والقتل ، وشهادة الزور ، وغير ذلك .

ومن هنا جاءت ضرورة تمسك الناس بالدين ، واتباع الاخلاق الفاضلة ، لبقاء لحسن الروابط بين الناس ، وحفظاً للنظام العام في هذه الحياة . فالدين قد سد الفراغ الذي لم يستطع القانون أن يسده ، والدين قد أمر بأشياء لم يستطع القانون أن يأمر بها . فهو ضروري للاجتماع السياسى ، وهو ضرورى للاجتماع الذى له علاقات يومية وغير يومية . ضرورى لكل ذلك ضرورة الماء للحياة ، ما دام الإنسان أشد قابلية للاجتماع من النحل ومن سائر الحيوانات التى تعيش قطعاناً .

لذلك أمر الدين الإسلامى بالإحسان ، قال تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وقال : « وأحسن كما أحسن الله إليك ، وقال سبحانه : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » .

وما دامت المسئولية الادبية نتيجة لطبيعتنا الإنسانية ، والطبيعة الإنسانية قد طغت عليها المادية بشكل مزعج ، ولا يمكن الشك - كما يقول أرسطوطاليس في كتابه السياسة ترجمة أستاذنا الجليل مربي الجليلين احمد لطفى السيد باشا - « في أن الدولة هى بالطبع فوق العائلة ، وفوق كل فرد ، لأن الكل هو بالضرورة فوق الجزء ، ما دام أنه متى فسد الكل فليس بعد من جزء ، لا أرجل ولا أيدي ، إلا أن يكون على سبيل المجاز ، كما يقال : يد من حجر ، لأن اليد متى فصلت عن الجسم لا تبقى يداً على الحقيقة ؛ وإن الاشياء لتعرف على العموم بآثارها التى توقعها والتي من شأنها أن توقعها ، فتى انقطع استعدادها الاولى لا يمكن أن يقال هى أنفسها » .

ما دام هذا وذاك ، وأن الطبع يدفع الناس بغرائزهم الى الاجتماع السياسى ، فن مصلحة هذا الاجتماع إذن التوسع فى القانون بفرض عقوبة على من يخالف بعض القوانين الاخلاقية المتعلقة بالإحسان ، إذا امتنع القادر عن أداء خدمة المحتاج وهو قادر على أدائها ، إذا تسبب عن هذا الامتناع ضرر .

وهذه الفكرة نادى بها « بنتام » من زمن ، فلقد قال : « القانون قصر فيما يجب عليه ، لأنه كان ينبغى أن يعد من الجرائم امتناع شخص عن أداء خدمة المحتاج وهو قادر على أدائها إذا تسبب عن هذا الامتناع ضرر ، كما إذا مر رجل على طريق فرأى جريحاً ولم يساعده أو لم يستدع غيره لمساعدته ؛ ومن رأى غيره قابضاً على كأس فيه سم ولم يشعره ؛ ومن رأى شخصاً وقع فى وهدة لا يستطيع الخروج منها بنفسه ولم يأخذ بيده . ففى مثل هذه الأحوال يجب أن يتدخل القانون بأن يضع عقوبة تشين من ارتكبها أو يضمنه فى ماله بالضرر الذى يمكن إزالته . »

وحتى يضع المشرع هذا القانون ، أدعو إلى تقوية الروح الدينية فى نفوس الشعب ؛ فالقرية فى حاجة الى إصلاح وإصلاح . وبهذه المناسبة تحضرنى حكاية عن الخليفة الاول أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأرضاه ، رواها الغزالى فى كتابه إحياء علوم الدين ، قال : شهد شاهد هند عمر رضى الله عنه ، فقال للشاهد : اتنى بمن يعرفك ، فأناه برجل ، فأثنى عليه خيراً ، فقال له عمر : أنت جاره الأدنى الذى يعرف مدخله ومخرجه ؟ قال : لا ، فقال : كنت رفيقه فى السفر الذى يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ فقال : لا ، قال : فعاملته بالدرهم والدينار الذى يستبين به ورع الرجل ؟ قال : لا ، قال : أظنك رأيت قائماً فى المسجد يهيمهم بالقرآن يخفض رأسه طورا ويرفعه أخرى ؟ قال : نعم ، فقال : اذهب فلست تعرفه ، وقال للرجل : اذهب فأتنى بمن يعرفك .

وبعد ، فإذا كانت الآراء تتعدد بتعدد الرموس ، وكلما وجد اجتماع وجد شرع ، فأساس حفظ الربط الواقع فى الاجتماع تلك الحكمة الخالدة :

« لا تعامل الناس بما لا تحب أن يعاملوك به ، والسلام »

المرحلة الثانية

أمام المحكمة الابتدائية وأمام الاستئناف

لحضرة الاستاذ صالح بكير

المدرس بكلية أصول الدين

بمجرد عرض القضية أمام المحكمة الابتدائية يتبع فيها ما يتبع في القضايا العادية . ولكن منذ سنة ١٨٨٦ حظر نشر المرافعات في دعاوى الطلاق إلا نشر نص الحكم فقط ، ويلاحظ أن طرق الإثبات المعروفة التي تجرى وتحصل بجميع الطرق في الدعاوى العادية ، لها بعض الخصائص في دعاوى الطلاق ، فلا يؤخذ باعتراف من أسندت إليه وقائع تكون سبباً للطلاق ، فلا يعتبر دليلاً كافياً لاحتمال أن يكون هناك تواطؤ بين الزوجين على الطلاق ، بل يجب تحقيق هذه الوقائع للتثبت من صحتها . كما أن شهادة الأقارب والخدم يصح الأخذ بها في إجراءات التحقيق ، ولكن شهادة الفروع لا تقبل . ويصح الاستشهاد بالخطابات المتبادلة بين أحد الزوجين وبين أجنبي ، ولكن يشترط أن يكون الحصول عليها بطريق مشروع ، فلا يجوز اختلاسها مثلاً .

ويجوز للقاضي رئيس المحكمة أن يتخذ إجراءات جديدة للمحافظة على حقوق وأموال الزوجين ، كما يجوز له أن يعدل القرارات السابقة التي أصدرها بهذا الشأن ، وكل هذا إذا دعت ضرورة إليه .

وطرق الطعن في حكم الطلاق هي كالطرق في القضايا العادية ، وإنما لها بعض الخصائص ، فثلاً لا يجوز تنفيذ حكم الطلاق فوراً ، كما لا يجوز لمن صدر ضده الحكم أن يقوم بتنفيذه قبل صيرورته نهائياً ، وذلك بأن ينتظر انتهاء مواعيد الطعن المقررة قانوناً .

المرحلة الثالثة

بعد صدور الحكم النهائي يجب نشره وإعلانه بالصحف ، كما يجب تسجيله والتأشير به على هامش عقد الزواج . ويلاحظ أن أثر الحكم بالطلاق يكون من يوم صدوره والنطق به .

آثار الطلاق

تترتب على صدور الحكم بالطلاق آثار كثيرة ، منها ما يرجع إلى الزوجين ، ومنها ما يرجع إلى أولادهما ، ومنها ما يرجع إلى أموالهما ؛ وسنذكر بإيجاز أهم تلك الآثار .

فالذى يرجع إلى الزوجين ، هو أن الزواج ينقضى وينحل ويعود كل من الزوجين إلى الحالة التي كانا عليها قبل الزواج ، فيحمل كل منهما اسمه الخاص ، ويجوز لكل منهما التزوج بآخر مع ملاحظة انقضاء عدة المرأة ، كما يجوز لهما أن يتزوجا من بعضهما ثانياً . وتنقضى التزامات الزوجية والاتفاقات المالية الخاصة بنظامهما المالي ، كما تسقط الحقوق المالية وحقوق الانتفاع بأموال الآخر بالنسبة لمن صدر ضده الحكم ، إلى آخر ذلك .

وأما بالنسبة للأولاد ، فالطلاق لا يؤثر في حالتهم ، فهم يعتبرون أولاداً شرعيين ، ولا تسقط حقوقهم المالية نحو والديهم ، فنجب عليهما نفقتهم وكسوتهم وتربيتهم وتعليمهم ، كما لا تسقط سلطة الوالدين ولا ولايتهم عليهم . وتكون حضانتهم عادة لمن صدر لصالحه حكم الطلاق . ومع ذلك إذا قضت مصلحة الأولاد أن تجعل حضانتهم للزوج الآخر أو لاجنبي ، وللقاضى مثل ذلك بالنسبة لإدارة أموال الأولاد .

الانفصال الجسمانى

الانفصال الجسمانى هو أن يعيش كل من الزوجين بعيداً عن الآخر ومستقلاً عنه . وقد بينا فيما سبق أن هذا ما كانت تاجأ إليه الكنيسة حيث لا تجيز الطلاق .

ولما أن شرعت الدولة (في فرنسا) الطلاق في القانون المدني ، كان قد ألغى الانفصال الجسائي ، ولكنه أعيد ثانية على اعتبار أنه نوع من تهدة خواطر الزوجين ، حتى يتبصرا في عاقبة أمر الطلاق قبل الإقدام عليه ، فيصطلحا ويعورا إلى عشرينها السابقة .

ولكن التجارب أثبتت عدم صحة هذا الرأي نظرا لما شوهد أن حياة الانفصال الجسائي هي حياة نفاق وشقاق أشد من حياة الزوجية ، وربما تكون سببا (بل هو الواقع) لفساد الأخلاق ، لما يشعر به كل من الزوجين من حرية واستتار .

وأسباب الانفصال هي عين أسباب الطلاق ، ولا بد من دعوى ترفع أمام القضاء ليصدر به حكم . وتختلف إجراءات دعوى طلب الانفصال الجسائي عن دعوى الطلاق اختلافا قليلا .

ولا يترتب على حكم الانفصال الجسائي انقضاء الزوجية ، بل تبقى جميع التزامات الزوجية ما عدا المساكنة معا . ولكل من الزوجين أخذ ماله يستقل به .

وينتهي الانفصال الجسائي بموت أحد الزوجين ، وبالطلاق لأسباب جديدة غير أسباب الانفصال ، وبالصلح ، وبانقلاب الانفصال إلى طلاق إذا مضى على الانفصال ثلاث سنوات بلا صلح ، ويصدر الطلاق بناء على طلب أحد الزوجين ، ولا يحتاج هذا الطلب إلى إجراءات كإجراءات دعوى الطلاق .

الطلاق في الفقه الاسلامي

الطلاق في الفقه الإسلامي هو حل رباط الزوجية الصحيحة في الحال وفي الاستقبال بعبارة تفيد ذلك ، أو من القاضى بناء على طلب الزوجة .

والطلاق نوعان : رجعي وهو الذي يحيز للزوج أن يعيد زوجته إلى عصمته بدون عقد ومهر جديدين ، وبائن والبائن نوعان : بائن يبنونة صغرى وهو الذي لا يحيز للزوج أن يعيد زوجته إلى عصمته إلا بعد عقد ومهر جديدين ؛ وبائن

بينونة كبرى وهو الذى يحتاج فوق ذلك إلى أن تزوج المرأة زوجها آخر وتطلق منه وتنتهى عدتها ثم تعقد على زوجها الأول عقدا جديدا بمر جديد .

والطلاق من حيث العبارة صريح وكناية . وأحكام الطلاق مذكورة فى جميع كتب الفقه بإسهاب فلا داعى للإطالة بذكرها . والذى يهمنا هو أن الطلاق فى الفقه الإسلامى يختلف كثيرا عن التشريعات الأخرى تمام الاختلاف . ونحن نتعرض هنا فقط لذكر بعض أحكام لقوانين صدرت أخيرا فى موضوع الطلاق حيث الجارى عليه العمل بالمحاكم الشرعية هو مذهب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه . ولأسباب كثيرة دعت الحكومة لأن تأخذ بعض أحكام الطلاق من المذاهب الأخرى وتصدر بها قانونا ألزمت به المحاكم الشرعية فى اتباعه ، وتتلخص هذه الأحكام فيما يأتى :

- (١) لا يقع الطلاق غير المنجز إذا قصد به الحمل على فعل شىء أو تركه لا غير .
- (٢) للقاضى أن يفرق بين الزوجين بناء على طلب الزوجة لغيبة الزوج ولكن بشروط خاصة .
- (٣) لا يقع طلاق السكران والمسكره .
- (٤) الطلاق المقترن بعدد لفظا أو إشارة لا يقع إلا طلاقا واحدة .
- (٥) كنايات الطلاق وهى ما تحتل الطلاق وغيره لا يقع بها الطلاق إلا بالنية .
- (٦) يجوز للقاضى أن يفرق بين الزوجين للضرر بناء على طلب الزوجة ولكن بشروط خاصة . وهذا التفريق يكون طلاقا بائنا .
- (٧) يجوز للقاضى أن يطلق على الزوج زوجته لعيب بالزوج ، ولكن بشروط خاصة .

وإلى هنا ينتهى بحثنا الموجز فى أحكام الزواج والطلاق فى الفقه الإسلامى وبعض الشرائع الأخرى . وسنبداً يبحث جديد خاص بموضوع المعاملات فى كل من الفقه الإسلامى والتشريعات الأجنبية بمناسبة مشروع القانون المدنى المعروض الآن بالبرلمان . وموعدنا بذلك قريبا .

الدين يسر لا عسر

لفضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم على أبو الخشب
المدرس بمعهد القاهرة

يخيل إلى أن بعض الداعين إلى الدين ، والقائمين بحمل رسالته ، هم السبب الأول والآخر ، في تنفير الراغبين فيه ، بما يصورون لهم من أنه تكليف كله مشقة ، وفرائض أغلبها يرجع إلى الإغناات والخرج ... مع أن المتبع لافعال النبي صلى الله عليه وسلم ، وهدايته لقومه ، وتعليمه لصحابته ، ونهيه في مناسبات مختلفة عن المبالغة الداعية إلى السأم والملل ، يعتقد تمام الاعتقاد أنه « يسر لا عسر » . وإذا كان هنالك من التكاليف ما يشتمل على المشقة نوعا ما ، فإن ذلك منوط بالاستطاعة « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » . وهذا هو السر في أن الناس يتفاوتون عند الله سبحانه وتعالى — يوم القيامة — في الدرجات والمنازل . ولعله معنى قول الصادق المصدوق : « فاكلفوا من العمل ما تطيقون » . وقد رأينا القرآن الكريم يعنى الأعمى والمريض والأعرج والشيخ الفانى وذوى العاهات ومن لا يستطيعون أن يقفوا في ميادين القتال ، من الجهاد . كما رأينا أنه لا يجعل إنفاق الرجل على أهله ومن هم في عياله إلا مقدراً بحسب استطاعته ، ومرتباً بما يتسع له ماله . وليس ذلك خاصاً بهذين النوعين من الواجبات على المسلم ، ولكنه يجعل الأمور — دائماً أبداً — في حدود الطاقة ، وفي نطاق القدرة .

وهاهم أولاء صحابة النبي رضوان الله عليهم أرادوا أن يحاكوه في « صوم الوصال ، فلم يقرّهم على ذلك ، ونهاهم أعنف النهى وأشدّه ، مبينا لهم أنهم لا يطيقون ما يطيق ، لأن له من الخصوصيات النفسية والروحية ما يجعله كأنما يبيت يطعمه ربه ويسقيه . وربما كان في هذه الحادثة نفسها ما صح عن بعضهم من أن زوجته اشتكت منه — إلى جانب هذا — أنه لا ينام ، ولا يباشر عملاً من أعمال الدنيا ، ولا يقوم

بشيء من خدمة تناط به ، أو تطلب منه ؛ ولهذا كانت دهشته صلى الله عليه وسلم وسؤاله : « ومن يعمل له ؟ » فقال له أحدهم : كنا يا رسول الله نكفيه مؤنة ذلك . فقال : « كلكم خير منه ... » . وقد نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله ابن عمرو لما علم عنه أنه يقوم الليل ويصوم النهار بقوله : « صم وأفطر ، وقم ونم وأت أهلك . ! ! » . وفي حادثة تطويل الإمامة في الصلاة يقول للبطل : « أفئتان أنت ، أفئتان أنت ! » .

وقد يقول قائل : إن ذلك حيث ابتدأت الدعوة والإسلام — حينئذ — غريب عن العرب ، فلم تكن مهمته سوى تأليف القلوب ، وتوحيد الصفوف ، وجمع الكلمة : ولذا كانت التشريعات — على سنة النشوء والتطور — تدريجاً ، كما في تحريم الخمر حيث لم ينه عن شربها طرفة واحدة ، بل تذرّع إلى ذلك بالوسائل والطرق التي لا تجعل النهي عنها مخالفاً للطبائع والفطر .

والدعوة التي رسمها القرآن الكريم « بالحكمة والموعظة الحسنة » ، يجب أن يكون المتصدى لها على شيء من اللباقة والكياسة ، والذوق والسياسة ، والفهم للتشريع — على هذا الوجه — حتى لا ينفّر الناس منه ، ويكون ضرره في الهداية أكبر من نفعه .

وقد لبّ عمر رضي الله عنه برجل وساقه إلى النبي عليه السلام ، لأنه استمع إليه يقرأ آية على خلاف ما تلقى هو .

وانظر كيف كانت رحابة صدر الرسول الأعظم ، وسروره وبشره ، وفرحه واغباطه بهذين المتخاصمين : اقرأ يا فلان .. اقرأ يا فلان ، ويعقب على قراءة كليهما بقوله : هكذا نزلت . ثم يقول « نزل القرآن على سبعة أحرف » ، ... وفي هذا مثل رائع من السلوك الذي يجب أن يسلكه الداعي إلى الله ، أما العنف والشدّة ، والحق وضيق العطن ، وما أشبه ذلك مما ينفر الناس ويجعلهم شيعة وأحزاباً ، فإنني أعتقد أنه ليس من الدين في شيء .

على أن التكاليف تهدف إلى كبح النزوات ، وقمع الاطماع ، وإطفاء نيران الحزازات ، وجعل الترابط بين الأفراد والجماعات قائماً على الحب والتآلف ،

والمعونة والتكاتف... وللدين معالم ينتهى إليها الضال ، وبقى عصاه عندها المسترشد ، والحلال بّين والحرام بّين ، وما بعد كتاب الله وسنة رسوله إلا أن تخضع الرقاب ، وتدعن للحكمة وفصل الخطاب....

ولا تنكر أن القانون السماوى لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، إنما تنكر التطبيق ، فإنه لا يحمل بالأريب اللبيب أن يقوم فى حلقة من حلقات العوام لا تعرف أركان الإسلام الضرورى ليفسر لها معنى قوله سبحانه : « ثم استوى على العرش » ؛ أو يتحدث متحدث عن مهارات السابقين فى حقيقة الجن والملائكة ، بين قوم لا يعرفون فرائض الوضوء التى لا بد منها لتصح الصلاة ، أو يضنى لإنسان فؤاده فى أن صفات الله عين ذاته أو غيرها لمن يدينون بتعدد الأرباب .

وإذا كان الشاذى فى الكتابة يتبدى بحروف الهجاء ، فإن للدين أوليات يتدرج منها المتدينون ، ويعبرها المسلمون . وإذا كان الطبيب لا يعالج المريض إلا بالدواء الذى تسيغه أمعاؤه ، وتحمله معدته ، فإن الواعظ المرشد يجب أن يكون كذلك . ولا نجد نهجه صلى الله عليه وسلم تعدى قوله « فقاربوا وسددوا » . وكأنه فى الحديث : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، كان يتنبأ بما سيكون ، لأن الإسرائيليات التى احتشدت بها بعض الكتب ، واحتفلت لها بعض العقول ، وتناقلها - بعد ذلك - حثالات الأجيال » كحاطب ليل يجمع الدق والجزلا ، تجعلنا نأسف الأسف كله إذا تصورنا كيف أننا نستعرض فى تخيلنا دعاة ومصلحين فلا نكاد نجد اثنين يتفقان على محجة واحدة ، أو يتلاقيان على مشروع سواء . وبهذا تخلفنا عن قافلة الزمن ، وتأخرنا عن ركب الحياة .. وصدق الله العظيم : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

سعد الدين التفتازانى

٧٢٢ — ٧٩٢ هـ

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ على محمد حسن العمارى
مبعوث الأزهر إلى المعهد العلى بأم درمان

نشأته وقصره : هو العلامة مسعود بن عمر ، ولد فى تفتازان إحدى قرى خراسان الكبرى ؛ وأخذ العلم عن أكابر العلماء فى عصره ، كعضد الدين الأيجى وقطب الدين الرازى ، وطار ذكره ، ورحل إليه الطلبة ، وصنف (الرىحانة) وفرغ منها فى سنة ٧٣٨ وعمره حينئذ ستة عشر عاما ، ثم فارق بلده ، ورحل على عادة العلماء فى تلك العصور ، ونزل كثيرا من البلدان ؛ ونستطيع أن نستخلص من التواريخ التى ذكروها لمؤلفاته ، والبلاد التى ألفت فيها ، طريقة رحلاته ؛ فهو قد نزل أولا (هراة) وألف فيها كتاب (المطول) سنة ٧٤٨ ، وأتم المختصر سنة ٧٥٦ هـ ، وانتقل من هراة إلى (خوارزم) وألف فى هذه الحقة (شرح التوضيح سنة ٧٥٨) و (شرح العقائد سنة ٧٦٨) ثم عاد إلى هراة ، وألف (فتاوى الحنفية سنة ٧٦٩) ثم عاد إلى خوارزم ، وألف (حاشية العضد سنة ٧٧٠) ومنها رحل إلى سرخس وفيها ألف (مفتاح الفقه سنة ٧٧٢) ثم عاد إلى خوارزم وألف (رسالة الإرشاد سنة ٧٧٤) ، وذهب بعد ذلك إلى سمرقند حيث ألف (المقاصد وشرحه سنة ٧٨٤) ، ثم عاد إلى سرخس ، وألف (شرح تلخيص المفتاح سنة ٧٨٦) وعاد إلى سمرقند ، وألف (حاشية الكشف سنة ٧٨٩) بظاهر سمرقند . ويختلف المؤرخون بعد ذلك ؛ فبرى جماعة منهم أنه مات بسمرقند ثم نقل إلى سرخس بعد ثلاثة أشهر ، ويذكر (خواندمير) أن المقام استقر بالتفتازانى فى خوارزم .

ونلاحظ من هذا السرد لكتبه أنه شرح التلخيص للخطيب القزويني ثلاث مرات : في سنة ٧٤٨ و ٧٥٦ و ٧٨٦ ، والذي نعرفه أنه شرح تلخيص المفتاح في كتابيه المطول والمختصر ، وأما كتابه الثالث في البلاغة فهو (شرح القسم الثالث من المفتاح) فلعل ما ذكر في سنة ٧٨٦ هو هذا الكتاب . كما يبدو أن هذه الرحلات كان سببها — مع شغفه بالمعرفة — سوء حاله في بلده ؛ فإنه كان يشكو من الشكوى في مقدمات كتبه ، ومن ذلك ما ذكره عن المختصر ، فقد قال إنه ألف كل سطر منه في بلد ، قال في مقدمته : « فانتصبت لشرح الكتاب على وفق مقترحهم ثانيا ، ولعنان العناية نحو اختصار الأول »^(١) ثانيا ، مع جمود القريحة بصّر البليات ، وخمود الفطنة بصرصر النكبات ، وتراعى البلدان بي والاقطار ، ونبو الأوطان غنى والأوطار ، حتى طفقت أجوب كل أغبر قائم الأرجاء ، وأحرر كل سطر منه في شطر من الغبراء .

يوما بحزوى ويوما بالعقيق وبال — عذيب يوما ، ويوما بالخليصاء
ولعله قدم بذلك الى اتصاله بحمود جاني بك ، الذي لقي في ظله الأمان ،
وقدم إليه هذا الكتاب ، وقد اتصل بتيمورلنك . ويقول (ابن عرب شاه) :
كان التفازاني كقطب الدين الرازي من العلماء الذين اجتذبهم بلاط مغل القفجاق
الغربية .

وقد كانت رحلته الى سمرقند باستدعاء تيمورلنك له عندما استولى عليها ،
فإنه دعاه وأغدق عليه كثيرا من النعم ، وقربه من مجلسه ؛ وفي حضرة تيمورلنك
جرت المناظرة المشهورة بينه وبين تلميذه السيد الشريف الجرجاني .

عصره : عاش السعد في القرن الثامن الهجري ، وهو عصر ركدت فيه ريح
العلم ، وقيل الابتكار في التأليف ، وأصبحت الكتب تدور حول ما ألفه
القديمى ، شرحا وتحشية وتقريراً ، واختصاراً . وليس معنى هذا أن
العصر لم يكن فيه نابغة ، بل كان فيه جماعة من الأفاضل ، وحسبنا فيلسوف
العربية ابن خلدون ؛ ولكن معناه أن الهمم كانت متقاصرة ؛ ولقد كان العلماء
الأعلام يشكون من خمود جذوة العلم ؛ وسعد الدين نفسه يحدثنا عن ذلك فيقول :

(١) يريد بالأول الشرح الكبير وهو المطول .

« ثم رأيت الجمع الكثير من الفضلاء ، والجم الغفير من الأذكياء ، يسألونني صرف الهمّة نحو اختصاره — يريد المطول — والاقتصار على بيان معانيه ، وكشف أسرارهِ ، لما شاهدوا من أن المحصلين قد تقاصرت همهم عن استطلاع طوابع أنوارهِ ، وتقاعدت عزائمهم عن استكشاف خبيئات أسرارهِ . » ثم يقول : « وإن هذا الفن قد نضب اليوم ماؤه فصار جدالاً بلا أثر ، وذهب رواؤه فعاد خلافاً بلا ثمر ، حتى طارت بقية آثار السلف أدراج الرياح ، وسالت بأعناق مطايا تلك الأحاديث البطاح . »

ومع أن هذا ترديد لما قاله الشيخان الجليلان عبد القاهر والسكاكي ، ومع أننا نقوله الآن ، إلا أني أعتقد أن أقرب هذه الأقوال الى الواقع هو قول السعد ؛ فإن أقل ما يوصف به عصره هذا الوصف .

أسلوبه وطريقته : كانت طريقة السعد في التأليف والجدل والمناظرة ، طريقة المناقشة حول الألفاظ ، وتحقيق مدلولاتها ، وإيراد الاعتراضات والأجوبة حول المسائل العلمية ، وهو من العلماء الذين غلبت عليهم طريقة الفلسفة والمنطق ؛ وتكاد تكون مؤلفاته على اختلاف أنواعها صورة لهذه العقلية المنطقية ؛ وقد كان لهذه الطريقة أنصار كثيرون في عصر السعد وبعد عصره ، كما كان لها عظيم الإجلال والتقدير ، ولا يزال كثير من علمائنا يراها العلم كل العلم ، غير أن ابن خلدون لم تعجبه هذه الطريقة ، كما لم تعجب كثيرين غيره ؛ فقد جاء على لسان بعض من ترجموا له ، بعد أن ذكر أنه كان يدرس في الجامع الأزهر ، جاء على لسانه هذه الفقرة : « كان يسلك في إقرائه الأصول مسلك الأقدمين كالغزالي والفخر الرازي ، مع الإنكار على الطريقة المتأخرة التي أحدثها طلبة العجم ومن تبعهم من التوغل في المشاحة اللفظية ، والتسلل في الحدية والرسمية اللتين أثارهما العصد وأتباعه في الحواشي عليه ، وينهى الناقل غصون إقرائه عن شيء من هذه الكتب مستنداً إلى أن طريقة الأقدمين من العرب والعجم وكتبهم في هذا الفن على خلاف ذلك ، وأن اختصار الكتب في كل فن ، والتقييد بالألفاظ على طريقة العصد وغيره ، من محدثات المتأخرين ، والعلم وراء ذلك كله . »

والحق أني لا أفهم معنى لأن يأخذ الجم الغفير من العلماء في تخريج تعبير

للسكاكي أو للخطيب أو غيرهما ، حتى ليوجهوا تقديمه وتأخيريه وحذفه وذكره كأن ما جاء في هذه المؤلفات من النصوص الأدبية التي يعنى بنقدها وتوجيهها ، ثم يطول حول ذلك الجدل والمناقشة والمناظرة ، وقد نصل في النهاية الى أن المؤلف لم يقصد الى شيء مما ذهبوا اليه ، وإنما هي الشهوة الجامحة في مضع الكلام ؛ وصدق ابن خلدون : فإن العام وراء ذلك كله .

أما أسلوبه فهو أسلوب أعجمي ألكن اللسان ، عقدت الفلسفة تفكيره ، وشاب المنطق تعبيره ، وظهر ضعف عصره الأدبي في كتابته ، فنراه يكثر من التلميح والتضمين والتورية والجناس ، والاستعارات المزدولة ، والسجع البارد الممجوج ؛ على أنه لا يخلو في بعض الأحيان من لمحات أدبية طريفة ، انظر إليه وقد ثقل في التعبير ، وأسرف في حشو أسلوبه بالمصطلحات ، قال في مقدمة المختصر : نحمدك يا من شرح صدورنا لتلخيص البيان في إيضاح المعاني ، ونور قلوبنا بلوامع التبيان من مطالع المثاني ؛ ونصلي على نبيك المؤيد لدلائل إعجازه بأسرار البلاغة ، وعلى آله وأصحابه المحرزين قصبات السبق في مضمار الفصاحة والبراعة .

ويسمون هذا حسن ابتداء ، وبالتأمل في هذه العبارات القصيرة نجد أنه ذكر خمس كتب : التلخيص ، والإيضاح ، والتبيان ، ودلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة ، كما نجد الشرح والبيان ، والمعاني ، والفصاحة ، والبراعة . وانظر إليه وهو يتحدث عن الذين يأخذون من كتبه ويسرقون من تأليفه ، تجده رق بعض الشيء قال : « أما الأخذ والانتهاج فأمر يرتاح له اللبيب ، فللأرض من كأس الكرام نصيب ، وكيف ينهر عن الأنهار السائلون ، ومثل هذا فليعمل العاملون . » وهو يشير الى قول الشاعر :

شربنا وأهرقنا من السكاس جرعة وللأرض من كأس الكرام نصيب

ومن الغريب أن أسلوبه في المطول أسهل وأوضح بكثير من أسلوبه في المختصر مع أنه ألف الثاني بعد الأول بثمانى سنوات ، ولذلك أرى - إذا لم يكن بد من دراسة السعد في الأزهر - أن يستعاض عنه بالمطول فسيجد الطلاب فيه حاجتهم دون رجوع طويل الى الحواشي والتقارير . وعلى العموم فأسلوبه معقد ، ولا سيما

في علوم البلاغة ، وهي التي تحتاج الى الأسلوب الادبي المحبب الى النفوس .
ومن شعره :

طويت بإحراز العلوم ونيلها رداء شبابي ، والجنون فنون
وحين تعاطيت العلوم وشرحها تبين لي أن الفنون جنون

آراء العلماء فيه : كان للسعد في عصره منزلة عظيمة ، وكان من شرف العالم أن ينتمى إليه ، بل كان علماء الروم - فيما بعد - يجعلون من جملة أوصاف كبار علمائهم أنه كان يميل إلى ترجيح جانب السعد ، أو إلى ترجيح جانب السيد الشريف . وقد قرأ ابن خلدون ، وهو في مصر مؤلفات السعد وأثنى عليه في مقدمته ، فقال : « ولقد وقفت على تأليف متعددة لرجل من عظماء هراة من بلاد خراسان يشرر بسعد الدين التفتازاني ، منها في علم الكلام وأصول الفقه والبيان تشهد بأن له ملكة راسخة في هذه العلوم ، وفي أثناءها ما يدل على أن له اطلاعا على العلوم الحكيمة ، وقدا عالية في سائر الفنون العقلية ، والله يؤيد بنصره من يشاء » .

وترجم له ملازاده فقال : « أستاذ العلماء المتأخرين ، وسيد الفضلاء المتقدمين ، مولانا سعد الملة والدين ، ومعدل ميزان المعقول والمنقول ، مفتاح أغصان الفروع والأصول » .

وفي ترجمة الشوكاني : « متفرد بعلمه في القرن الثامن ، لم يكن له في أهله نظير فيها ، وله من الحظ والشهرة والصيت في أهل عصره فن بعدهم مالا يلحق به غيره ، ومؤلفاته قد طارت في حياته الى جميع البلدان ، وتنافس الناس في تحصيلها » .

وفي دائرة المعارف الإسلامية للقرن العشرين في ترجمته : « حجة مشهور في البلاغة والمنطق وما وراء الطبيعة والكلام وغيرها من العلوم » .

الى الاستان الاكبر

« بمناسبة سفر البعوث الثقافية ، إلى الافطار الإسلامية ،

تغنّت بمأمونٍ — فأغنت — فضائله
وما الشعرُ في روض النساء ، وهذه
سل الازهر المعمور ، ينبئك أنه :
وأصبح مأمونا على العلم والهدى
هو المجد والإسلام ، فاعمل موقفا
فلا الدهر يمحوه ، ولا جحد جاحد
وقد شملتنا من يدك عوارف
توخيت فيها الحق والعدل ، فالتقى
إذا الحق حيطت بالوفاء سبيله
وفيك ضمان أيد الفعل عهد

فا أنت محصيه ، وما أنت قائله ؟
حمائم تدعو به ، وعنادله ؟
تجلت دياجيه ، وقمرت بلبله
وقد كاد يلويه عن الرشد باطله
فبلغد والتاريخ ما أنت فاعله
ولا بحلى الأشعار يزدان عاطله
هى الغيث وافت بالسعود مخايله
بشكرك محروم النوال ونائله
فمحرزه راضى الفؤاد وآمله
ستغمرنا آلاؤه وفواضله

فيا رجل الإسلام في حين تلتقى
زاهت راية الفاروق فادعم ظلالها
حبا الدين والدنيا شباها ونائلا
وحولك أجناد إذا ما نثرتهم
شباب وشيب ثقّف الدين منهم
بيمنك يغزون الوجود مطالعا
سنرضيك إخلاصا ، فإنك مخلص

أواخره جيّاشة ، وأوائله
بروح من الإسلام تزهو خمائله
وقام بأعباء العروبة كاهله
نظمت خميسا لا تبارى مقاوله
إذا نزلوا وردا تطيب مناهله
فيشرق داجيه ، ويخضر ماحله
ومن يصل الإسلام ، فالله واصله

السنة النبوية الشريفة

ومنزلتها من الدين وضرورة العمل بها

والإنكار على من ردها

لحضرة الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي

الفصل العاشر

أقسام الصحيح ودرجة أحاديث البخارى ومسلم

جاء فى مقدمة ابن الصلاح ص ١٢ :

أعلى أقسام الصحيح هو الذى يقول فيه أهل الحديث كثيراً : « صحيح متفق عليه ، يطلقون ذلك ويعنون به اتفاق البخارى ومسلم ، لا اتفاق الأمة عليه ؛ لكن اتفاق الأمة عليه لازم من ذلك ، وحاصل معه ، لاتفاق الأمة على تلقى ما اتفقا عليه بالقبول . وهذا القسم جميعه مقطوع بصحته ، والعلم اليقيني النظرى واقع به . » اهـ .

وقال أيضا فى ص ١١ :

قال الحافظ أبو نصر الوايلى السنجرى : أجمع أهل العلم ، الفقهاء وغيرهم ، على أن رجلا لو حلف بالطلاق أن جميع ما فى كتاب البخارى مما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قد صح عنه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاله لاشك فيه - أنه لا يحنث ، والمرأة بحالها فى حبالته .

وجاء فى حجة الله البالغة - الجزء الأول ص ١٠٦ :

أما الصحيحان فقد اتفق المحدثون على أن جميع ما فيهما من المتصل

المرفوع صحيح بالقطع ، وأنها متواتران إلى مصنفيهما ، وأنه كل من يهون أمرهما فهو مبتدع ، متبع غير سبيل المؤمنين . ١ هـ .

وقال الأستاذ أحمد محمد شاكر ناشر كتاب اختصار علوم الحديث للحافظ

ابن كثير ص ٢٢ :

الحق الذي لا مرية فيه عند أهل العلم بالحديث من المحققين ، ومن اهتدى بهديهم وتبعهم على بصيرة من الأمر ، أن أحاديث الصحيحين صحيحة كلها ، ليس في واحد منها مطعن أو ضعف ، وإنما انتقد الدارقطني وغيره من الحفاظ بعض الأحاديث ، على معنى أن ما انتقده لم يبلغ في الصحة الدرجة العليا التي التزمها كل واحد منهما في كتابه ؛ وأما صحة الحديث في نفسه فلم يخالف أحد فيها ، فلا يهولنك إرجاف المرجفين ، وزعم الزاعمين ، أن في الصحيحين أحاديث غير صحيحة ؛ وتتبع الأحاديث التي تكلموا فيها وانقدها على القواعد الدقيقة التي سار عليها أئمة العلم واحكم عن بيته ، والله الهادي إلى سواء السبيل . ١ هـ .

وقال الحافظ ابن كثير في كتابه اختصار علوم الحديث ص ٢٣ :

(حاشية) ثم وقفت بعد هذا على كلام لشيخنا العلامة ابن تيمية مضمونه : أنه نقل القطع بالحديث الذي تلقته الأئمة بالقبول عن جماعات من الأئمة ؛ منهم القاضي عبد الوهاب المالكي ، والشيخ أبو حامد الإسفرائيني ، والقاضي أبو الطيب الطبري ، والشيخ أبو إسحق الشيرازي ، من الشافعية ، وابن حامد ، وأبو يعلى بن الفراء ، وأبو الخطاب ، وابن الزاغوني وأمشالم ، من الحنابلة ؛ وشمس الأئمة السرخسي ، من الحنفية .

قال : وهو قول أكثر أهل الكلام من الأشعرية وغيرهم ، كآبي إسحق الإسفرائيني وابن فورك .

قال : وهو مذهب أهل الحديث قاطبة ، ومذهب السلف عامة .

الفصل الحادى عشر

صحيح الإمام البخارى وما قيل فيه

جاء فى مقدمة ابن الصلاح ص ٨ :

فقد رويانا عن البخارى أنه قال : ما أدخلت فى كتاب الجامع إلا ما صح ، وتركته من الصحاح لملال الطول . اهـ . وقد قال البخارى : أحفظ مائة ألف حديث صحيح ومائتى ألف حديث غير صحيح . وجملة ما فى كتابه الصحيح سبعة آلاف ومائتان وخمسة وسبعون حديثاً بالأحاديث المكررة ، وقد قيل إنها يأسقاط المكررة أربعة آلاف حديث . اهـ .

وجاء فى طبقات الشافعية الجزء الثانى ص ٦ :

عن محمد بن حمدونة يقول : سمعت محمد بن إسماعيل يقول : أحفظ مائة ألف حديث صحيح ، وأحفظ مائتى ألف حديث غير صحيح .

وفى ص ٧ :

قال شيخنا أبو عبد الله الحافظ : روى من وجهين ثابتين عن البخارى أنه قال : أخرجت هذا الكتاب من نحو ستمائة ألف حديث وصنفته فى ست عشرة سنة ، وجعلته حجة فيما بينى وبين الله تعالى . اهـ .
وأقول أنا : قد عددت أحاديث البخارى الأصلية (جامع مسانيد صحيح البخارى) فوجدتها ٢٦٠٥ بغير المكرر .

تذنيه

« لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم » .
وردت هذه الآية فى هذا البحث فى العدد السابق ص ٨٥٨ خطأ ، وصحتها ما ذكر هنا .

أبو القاسم الزمخشري

٥٣٨ هـ

فضيلة الأستاذ الشيخ محمود النواوى

المدرس بمعهد القاهرة

حداني أن أكتب في الزمخشري تفسير الكشاف ، ؛ فقد بدأت أقرأ فيه بشيء من التروية ، وكان يحفزني اليه على بما لصاحبه من فولة في البيان ، وإمامة في البصر بتصوير القرآن . فكنت أجد اليه حيناً في النفس ، وطرباً في القلب ، حتى استطعت أن أخلص للنظر فيه من بعض تلك الشواغل التي لا تهدأ ، وذلك الفضول الذي لا يكاد يفارق ؛ فإذا الأسلوب الموثق ، واللفظ الرائق ، والعبقريّة الخارقة ؛ وأحببت أن أتقدم بتصوير ما أجد لقراء مجلة الأزهر الغراء على أن أهيج فيهم مشاطرتي هذا الإعجاب ، والغوص على در ذلك الكتاب ؛ ولكنني آثرت أن أبدأ بالتصوير للمؤلّف قبل تقديم المؤلّف ، لتصح الرغبة فيما قصدت اليه ، من صادق الإقبال عليه .

فالزمخشري محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري الإمام الكبير في التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان ، وأحد رجلين قيل فيهما : لولا الأعرجان ، لضاعت بلاغة القرآن . وثانيهما يوسف بن أبي بكر السكاكي .

والزمخشري من زمخشّر ، إحدى قرى خوارزم من بلاد العجم . وقد تعجب حين تعلم أن أولئك الأعاجم هم الذين تولوا اللغة العربية ، وحاطوا الشريعة الإسلامية فرعوها حق رعايتها .

وقد ألهب في هؤلاء الأعاجم جذوة النشاط شعورهم بالنقص العنصري في نظر العرب ، وحرصهم على أن يكونوا موضع التقدير من الخلفاء والكبراء ، فوصلوا الليل بالنهار ، وجابوا في العلم الفياثي والقفار ، وكان منهم مفاخر الإسلام والمسلمين ، من أمثال الإمام أبي حنيفة والبخاري والغزالي ، وأمثال ابن المقفع

والصولي والجاحظ وابن العميد والصاحب والخوارزمي ، وأمثال سيويه وعبد القاهر والسكاكي ، وكثير جدا ممن رفعوا شأن العلم والإسلام .
ونشأ الزمخشري في نهاية القرن الخامس وأوائل السادس ، فهو من أدباء العصر العباسي الرابع ؛ ذلك العصر الذي ظهرت فيه ثمار آداب اللغة ، وكانت قد أزهرت في العصر العباسي الثالث ، وتسابق الناس فيه إلى العلم والآداب ، وكثرت المؤلفات ، وانتشرت المدارس ، وولدت علوم جديدة ، وظهرت مصنفات عظيمة ، أهمها كتب النحو والصرف والبيان التي كان عليها معول العلماء في نشر هذه الفنون ونقلها إلى من بعدهم ، وتفانى في التحصيل رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع ، فأخصبت اللغة العربية ببحوثهم ، ونضرا الله البيان والإيمان بهم ؛ كالإمام عبد القاهر الجرجاني واضع البلاغة ومؤسس قواعدها ، بكتايبه العظيمة ، وإمام النحو . توفي سنة ٤٧١ .
والتبريزي شارح الحساسة والمعلقات وغيرهما ، توفي سنة ٥٠٢ ، والراغب الأصفهاني مصنف غريب القرآن ومؤلف المحاضرات ، توفي سنة ٧٠٢ ؛ وكالحري والميداني وابن الشجري والإمام الزمخشري والإمام السكاكي والعكبري وابن الأثير والصغاني وغيرهم ممن أعلوا منار العلم والآداب أيما إعلاء بما دونوا ، وبمن علوا . أحسن الله جزاء الجميع .

ذلك هو العصر الذي كان الزمخشري أحد رجاله وخريجيه ، ونشأ الزمخشري فيه وهو على غاية الذكاء وتمام الاستعداد ، ومنتهى الاجتهاد ، مع دين قويم ، وعقل سليم ، فكان إماماً يشار إليه ، وعلماء يعشون إلى ضوء هدايته . صنف لجمع من جواهر العلم ودرره ، وهذب من أصول النقد والبيان ، وفتح من أكام الأزهار ما لا يهدى إلى مثله إلا مثله ، وكتب فبذ الكتابين ، وأعرق في تصحيح البيان بما أعيا على المعاصرين . وقال شعرا إلا أنه لم يكن فيه من المبرزين ، كما هو شأن العلماء الأفاضل .

وقد عرّف بشيء من تاريخه المؤرخ ابن خلدون فقال : « الإمام الكبير في التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان ، كان إمام عصره غير مدافع ، تشد إليه الرحال في فنونه ، أخذ الأدب عن أبي منصور نصر ، وصنف التصانيف البديعة ، منها الكشف في تفسير القرآن العزيز لم يصنف قبله مثله ، والمحاجاة بالمسائل النحوية ، والمفرد والمركب في العربية ، والفائق في تفسير الحديث ، وأساس البلاغة

في اللغة ، ورييع الأبرار ، ونصوص الأخبار ، ومتشابه أسامى الرواة ، والنصائح الكبار ، والنصائح الصغار ، وضالة الناشد والرائض في علم الفرائض ، والمفصل في النحو وقد اعتنى بشرحه خلق كثير ، والآنموذج في النحو ، والمفرد والمؤلف ، ورموس المسائل في الفقه ، وشرح أبيات سيبويه ، والمستقصى في أمثال العرب ، وسوائر الأمثال ، وديوان التمثيل ، وغير ذلك . وكان قد سافر الى مكة حرسها الله وجاور بها زمانا فصار يقال له : جار الله لذلك ، وكان هذا الاسم علما عليه . انتهى المراد من عبارة ابن خلكان .

وفي كلام الزحشرى في مقدمه الكشف ما يدل على أنه كان مرجعا في حل الغامض ، وموثلا لدراسة آى الكتاب على النهج الذى رسمه ؛ فهو يقول هنالك : ولقد رأيت إخواننا فى الدين من أفاضل الفئمة العدلية ^(١) الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية كلما رجعوا الى فى تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب ، أفاضوا فى الاستحسان والتعجب ، واستطبروا شوقا الى مصنف يضم أطرافا من ذلك ، حتى اجتمعوا الى مقترحين أن أملى عليهم الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل فى وجوه التأويل ، فاستعفيت فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين وعلما العدل والتوحيد ؛ والذى حدانى على الاستعفاء على على أنهم طلبوا ما الإجابة إليه على واجبة ، لأن الخوض فيه كفرض العين ^(٢) ما أرى عليه الزمان من رثالة أحواله وركاكة رجاله وتقاصر همهم عن أدنى عدد هذا العلم ، فضلا عن أن تترقى الى الكلام المؤسس على على المعانى والبيان . الخ .

فهذه عبارة تبين ما كان للرجل من إحاطة بغرائب العلم ، ولا سيما فى على المعانى والبيان ، وتقاصر همم الأقران عن مجاراته .

والزحشرى كان على جانب كبير من توثق العلاقة بينه وبين ربه ، ويتجلى لك ذلك فيما كان من مجاورته بالبيت العتيق ، ويبدو لك ذلك فى مسلكه الوعظى الذى سلكه فى مقاماته ، فلم يقبل أن تكون فكاهة أو هزلا كالذى عرف لغيره من المقامات

(١) هم المعتزلة وكانوا يسمون أنفسهم أصحاب العدل لأنهم يقولون إن الله لا يقدر القبيح ولا يخلق الشر . (٢) ما : خبر اسم الموصول السابق .

فهي مقامات جمعت من نبل المقصد وإيثار الجد وحسن التوجيه ما دل على همة عالية ونفس كبيرة .

والزخشرى وإن كان يقول متواضعاً كما روى عنه : أقسم بالله وآياته ، ومشعر الحج وميقاته ، إن الحريرى حرى بأن تكتب بالتبر مقاماته ... فإننا من الناحية الأدبية نرى أن مقامات الزخشرى قد فاقت مقامات الحريرى عراقية في البيان وحسن السبك ، وإيثار جانب المعنى على جانب اللفظ ، لأنه أرسخ قدماً ، وأبعد في ميدان البلاغة مدى . على أن مقامات الحريرى قد أربت على غيرها لغرائب اللغة ونفائس الأدب .

وقد وجه الزخشرى إلى ناحية الامتياز في مقاماته وهو يقدمها إلى القارىء فقال : « توصيتك ألا تمكن منها إلا من يوازيك في صفك ، أو يدانيك من أولى الفضل والديانة ، وأن تربأ بها عن أولئك الذين يحسبون أنهم يحسنون ولا يحسنون ، لتكون من العمال بقول عيسى عليه السلام : لا تطرحوا الدر تحت أرجل الخنازير ؛ فان العلم بنقلته يكبر بكبرهم ويصغر بصغرهم . . . وتكليفك ألا تمر على شيء من تلك الأسواق وغيرها من أبواب الصنعة إلا ما ملأ وجهه تمكنه وثبات قدمه والاستعداد له قبل دورده لنعلم أن ما سماه الناس البديع من تحسين الالفاظ وتزيينها بطلب الطباق فيها والتجنيس والتسجيع والترصيع ، لا يملح ولا يبرع حتى يوازى مطبوعه مصنوعه ، وإلا فما قلق في أما كنهه ، ونبا عن مواقعه ، فنبوذ بالعراء ، مرفوض عند الخطباء والشعراء .

هذا أسلوب جميل في ذاته ، ومسلك جليل في توجيهه ، يدل على نفوذ بصر ، وصحة طبع ، وسمو عبقرية تأبى على التقاليد .

وذكروا أن الزخشرى كان مقطوع إحدى الرجلين ، وهذا قد يكون من العوامل في تصحيح دينه وانقطاعه للعلم وصفاء النفس ، فإن المصيبة إذا نزلت بالنفس البشرية ولا سيما إذا شوهت شيئاً من الجمال ، فهي جديرة أن تصرفها عن الدنيا ، وأن تجذبها إلى التماس السعادة في متع روحية كريمة ، واتجاهات هي أخرى أن تعوض النقص الجسدى . ولعل الجاحظ كان من هذا الصنف الذى ألغى كثيراً من متع الحياة في سبيل متعة النفس والعقل . ويذكر في سبب قطع رجله ما تحدث به عن نفسه قال : « دخلت بغداد فاجتمعت بالفقيه الحنفى الدامغانى

فسألني عن سبب قطع رجلي ، فقلت : « دعاء الوالدة » ؛ وذلك أني كنت في صباي أمسكت عصفورا وربطته بخيط ، ثم أفلت وجذبه فانقطعت رجله بالخيط ، فغضبت أُمي ودعت علي بقطع رجلي ، فلما وصلت إلى سن الطلب رحلت إلى بخاري لطلب العلم فسمعت عن الدابة فانكسرت رجلي . وهذه الرواية تدل على ما كان من صحة إيمان الرجل وسلامة اعتقاده .

على أن الزحشري كالمسكاكي كان معتزليا ، وكان متعصبا لمذهب الاعتزال . وهذا المعنى صرف كثيرا من الناس عن مطالعة تفسيره والانتفاع بدرره وجواهره . وفي الحق ما كان ذلك داعيا إلى تلك العصرية ، وما يزال الحق في مسائل الخلاف عند الله سبحانه يفصل فيه . على أنه لم يكن هناك خلاف ذو بال لو أنصفوا ، ولكن شهوة الظفر والانتصار وما أحاط بمسائل الكلام من ظروف سياسية وغير سياسية قد وسع الهوة وأبعد الشقة ، وعقد كثيرا من مسائل هذا الدين السمح . ولدمري لقد اختلف هؤلاء وهؤلاء في مسائل نهى الإسلام عن الخوض فيها ، نزل الجميع وتكبروا عن الجادة .

الزحشري معتزلي كما قالوا ، ولكن ذلك لا يمنع أن نقرأ كلامه ونتفجع بما فيه . على أن لهجة الرجل كثيرا ما تكون لهجة حق وسبيل فصيح ، لا تخلو من توجيه صالح ، وإصلاح قويم . فاستمع إليه وهو يناقش في تفسير « ويمدحهم في طغيانهم يعمهون » ويقول في آخر المناقشة بعد أن خطأ رأى الخصم من ناحية اللغة :

« المعنى الصحيح ما طابته اللفظ وشهد بصحته ، والإي كان بمنزلة الأروى من النعام ؛ ومن حق مفسر كتاب الله الباهر وكلامه المميز أن يتعاهد في مذاهبه بقاء النظم على حسنه ، والبلاغة على كمالها ، وما وقع به التحدى سليما من القادح ، فإذا لم يتعهد أوضاع اللغة فهو من معاهد النظم البلاغية على مراحل » .

وقد ذهب ابن خلدون مذهبا معتدلا لمن يحمده على مذاهب أولئك الكلاميين من الأشاعرة والماتريدية ، فقال وهو يحدث عن التفاسير :

« ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشف للزحشري من أهل خوارزم العراق ، إلا أن مؤلفه كان من أهل الاعتزال في العقائد ، فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة حين تعرض له في آي القرآن ، فصار بذلك للباحثين من أهل السنة انحراف عنه ، مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان

والبلاغة . وإذا كان الناظر فيه واقفا مع ذلك على المذاهب السنية محسنا للحجاج عنها فلا جرم أنه مأمون من غوائله ، فليغتنم مطالعته لغرابته في فنون اللسان ، .

الزحشرى كما رأيت مصنف عزيز المادة ، مبدع في العلوم اللسانية والشرعية ، ثم هو إلى ذلك كاتب بذ الأقران ، وسلم من كثير مما تورط فيه المعاصرون من طغيان المحسنات على البلاغة ، كما ترجم عن ذلك في مقدمة المقامات ، وذلك لأن الرجل كما قلت نفاذ البصيرة سليم الفطنة واسع الذرع من البيان العربى الصحيح متأثر بقوة مايروى ويحفظ . وتستطيع أن تقرأ فى كتب الزحشرى لترى كيف كان خولة بيان وقوة بلاغة يحفل أسلوبه بغزارة المعنى وقوة التأثير ، مع ما يحمل من طابع البديع وجمال الصنعة ، حتى ليخيل الى القارئ أنه ينثر كنانة اللغة العربية بين يديه فيأخذ منها ما يحقق الغرض فى وضوح وقوة ، ويخصب الأسلوب به بالجمال والروعة .

ويعجبني من نثره قوله فى خطبة الأساس وهو يشرح الباعث على وضع الكتاب :
 « ولما أنزل الله كتابه مختصا من بين الكتب السماوية بصفة البلاغة التى تقطعت عليها أعناق العتاق السبق ، وونت عنها خطى الجياد القرح ، كان الموفق من العلماء الأعلام أنصار ملة الإسلام الذابين عن بيضة الحنيفية البيضاء ، المبرهين على ما كان للعرب العرباء حين تحمدوا به من الإعراض عن المعارضة بأسلات ألسنتهم والفرع إلى المقارعة بأسنة أسلهم ^(١) من كانت مطامح نظره ومطامح فكره الجهات التى توصل إلى تبين مراسم البلغاء ، والعثور على مناظم الفصحاء ، والمخابرة بين متداولات ألفاظهم ومتعاورات أقوالهم ، والمغايرة بين ما انتقوا منها وانتخلوا ، وما انتثوا عنه فلم يتقبلوا ، الخ .

هذا أسلوب جزل قوى بليغ مع ما يحمل من أثر الصنعة . ولك أن ترجع إلى أدب الزحشرى وكتاباته فى مختلف كتبه لتظفر بمادة عجيبة وفصح نادرة ومعين فياض وبعد ، خسبك من القلادة ما أحاط بالعنق ؛ ولكن لا بد أن أشير قبل مغادرة البحث إلى أن للزحشرى شعرا لا يقل رصانة عن نثره ، إلا أنه كشعر

(١) خبر كان فى قوله كان الموفق

العلماء المبرزين لا يظفر بخيال الشعراء ، بل يغلب عليه المعنى العلى والحكمة
الراشدة ؛ ولعله إلى النظم أقرب منه إلى معنى الشعر المرموق . ومن أجود شعره
قوله يصف المتقى :

إذا العيون اجتمعت في بذاذته تعلو نواظرها عنه وتقتحمه
ما زال يستحق الدنيا بهمة حتى ترقى إلى الأخرى به هممه
فذلك أعظم من ذى التاج متكئا على النمارق محتفا به حشمه
كانت ولادة الزمخشري يوم الأربعاء السابع والعشرين من رجب سنة ٤٦٧
بزمخشري : وتوفي ليلة عرفة سنة ٥٣٨ بجزجانية خوارزم بعد رجوعه من مكة .
تغمده الله بواسع عفوه ورحمته .

من سيرة عمر بن عبد العزيز

لما تولى الخلافة وفد إليه الشعراء لتهنئته على عادتهم ، فأقاموا بيابه أياما
لا يأذن لهم ، حتى قدم إليه عدى بن أرطاة ، وكانت له عنده مكانة ، فقابلته
جرير ، وأنشده :

يا أيها الرجل المزجى مطيته هذا زمانك ، لى قد مضى زمنى
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقية أنى لدى الباب كالمصفود فى قَرَن
فلما دخل على عمر قال له : يا أمير المؤمنين : الشعراء بيابك ، وأقوالهم باقية ،
وسنانهم مسنونة . فقال : يا عدى ، ومالى وللشعراء ! ثم سأله عن الباب ، وكما
ذكر له واحداً ، أنشد له عمر أبياتا نابية من شعره ، وأبى أن يأذن له ، حتى انتهى
إلى جرير ، قال له : أو ليس هو القائل :

طرفتكَ صائدة القلوب وليس ذا حين الزيارة فارجعى بسلام ؟

فإن كان ولا بد فليدخل هذا ، فدخل وأنشده قصيدة ، فلما انتهى منها ، قال له
أمير المؤمنين : يا جرير ، لقد وليت هذا الأمر ، وما أملك إلا ثلاثمائة درهم ، فائة
أخذها عبد الله ، ومائة أخذتها أم عبد الله ، يا غلام أعطه المائة الباقية .
فقال جرير : والله يا أمير المؤمنين إنها لأحب مال كسبته إلى .

صحائف خالدة

هذه رسالة تقع في ثمانين صفحة حسنة الطبع والإخراج وضعها الأستاذ الفاضل إبراهيم الشورى بالمفوضية السعودية بمصر ، أتى فيها على تاريخ جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود عاهل العرب العظيم في عهدنا هذا ، بسط فيها تديره في استرداده لملك آبائه من حوزة ابن الرشيد ، والجرأة الفائقة ، والاستبسال النادر الذى توصل بها هذا الملك العبقري إلى الفوز على خصمه .

وقد اشتملت الرسالة بعد هذا على تاريخ حياة العاهل العظيم ، وما قام به من سياسة الملك ، وتهدة روع القبائل ، وتأمين الطرق وتيسير التبادل ، ملأ بالأدوار التي تقلبت فيها حياته المباركة من زعامة قبائل نجد الى ملك الحجاز . ولم ينس ما اقتضته هذه الأدوار من الحزم والعزم وحسن السياسة ، ونبالة المقاصد ؛ وهي صفات رفعتة الى مستوى كبار القادة في جيلنا الحاضر .

ولم يغفل المؤلف الفاضل ما امتاز به هذا الملك الجليل من الصفات النبيلة كالرجولة السكاملة ، والسياسة الرشيدة ، والتقوى المجدودة ، وحبه للرعية . ولم يترك أخص النواحي التي تقدر بها كفايات الملوك من إشرافه على القضاء والإدارة ، وتيسير المعيشة ، وكرمه الذاتي ، وتجرده من الغايات الشخصية .

ولم ينس المؤلف الفاضل أن ينوه بالناحية التي تهتم كل مسلم يجب أن يرى الأمة العربية تتابع تاريخها العظيم ، فتصل حاضرها بماضيا في نشر العلم ، وتهيئة البيئة للمدنية الفاضلة ، فذكر أن أول ما اتجهت إليه رغبته تحضير البدو ، فبنى لهم القرى وساعدهم على الاستقرار ، وجد في جلب المياه الى النواحي التي تفتقر إليها ، وفي تنشيط الصناعة والزراعة والتجارة . وقد أدخل وسائل الانتقال بتمهيد الطرق وإدخال التلغونات الى مدن الحجاز ونجد ، والاستكثار من السيارات .

الخلاصة : أن ما يقوم به جلالة الملك عبد العزيز من الأعمال الممهدة لتحضير البوادي من أشق الأعمال ، ولكنها إزاء همة عالية كهمة تتدلل صعباها مع الزمن . فترجو له عمرا مديدا ، وتأبيدا وتسديدا ، ونثني على مؤلف هذه الرسالة القيمة التي آتينا بهذه المعلومات الثمينة .

مَجَلَّةُ الْأَزْهَرِ

فهرس

المجلد التاسع عشر
لسنة ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م

فهرس

المجلد التاسع عشر

لسنة ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م

صفحة	بقلم	الموضوع
		(١)
٢٤٠	حضرة الأستاذ صالح بكير	آثار الزوجية
٤٥٠	فضيلة الأستاذ محمود النواوى	آى الكتاب والسنة
٨٠١٠٤٣٤	عبد الله المراغى	ابن حزم
٦٥٦	حضرة الأستاذ سعيد زايد	ابن خلدون
٥٠١٠٣٢٨ } ٥٩٠ }	الدكتور محمد غلاب	ابن رشد
٦٦٠	فضيلة الأستاذ كامل عجلان	ابن رواحنة
٥٢٤٠٢٣٣ } ٨٩٨٠٦١١ }	محمد على النجار	ابن مضاء القرطبي
٢١	محمد محمد المدنى	أبو الانبياء
٩٥٣	محمود النواوى	أبو القاسم الزمخشري
٢٧٤	عبد الحميد المسلوت	أبو نواس بين الطبع والصنعة ...
		احتفال الأزهر بالمولد النبوى
٢٨٩	...	كلية فضيلة الأستاذ الأكبر
٢٩١	...	كلية فضيلة الأستاذ مدير الوعظ
		احتفال الأزهر بعيد الهجرة
٩٧	...	كلية فضيلة الأستاذ وكيل الأزهر
٢٨٩	...	احتفال الأزهر بشيخه الجسديد

صفحة	بقسم	الموضوع
٥٧٧		احتفال الازهر بذكرى المغفور له الملك فؤاد الاول ... كلمة فضيلة الاستاذ الاكبر ...
٥١٧	فضيلة الاستاذ عبد الجواد رمضان	أحمد الزين
٦٧٣	صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر	إخلاص المسلم لدينه
١١٩	فضيلة الاستاذ عبد الرحيم العدوى	أدب الجدل فى القرآن الكريم ...
٧٥١	منصور رجب	الازهر - الحلقة الاولى فى تاريخه ...
٣٨٠	ابراهيم أبو الحشب	أساليب العيش
٥٠٦، ١٥١ } ٧٩٤، ٥٩٥ }	فضيلة الاستاذ عبد الحميد عفر	أسباب تأخر المسلمين
٦١٧	محمد على النجار	أسباب تأخر المسلمين - حول مقال
٢٢٤	عبد المتعال الصعيدى	إسلام قریش
٨٧٣	حضرة صاحب العزة مدير المجلة	الإسلام حى الإنسانية من الانهيار
٧٣٠	فضيلة الاستاذ عبد المتعال الصعيدى	الإسلام والاستكفاف
٦٧٣	صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر	الإسلام والشيوعية والاشتراكية
٥٨٠	حضرة صاحب العزة مدير المجلة	الإسلام والاشتراكية
١٨٨ ، ٩٢	الاستاذ الدكتور محمود حب الله	الإسلام والمسلمون
٧٠١	محمد غلاب	الإسلام فى نظر المحايدين
١٣٢	فضيلة الاستاذ محمد المدنى	الاشهر الحرم
١٠٥		افتتاح الإذاعة الدينية
٩٤٩	فضيلة الاستاذ عبد الجواد رمضان	كلمة فضيلة الاستاذ مدير الازهر
٤٠٢	حضرة الاستاذ الدكتور محمد غلاب	إلى الاستاذ الاكبر
١١٥	فضيلة الاستاذ طه الساكت	أمهات المشاكل الفلسفية
		إنما الاعمال بالنيات

صفحة	بقلم	الموضوع
٥٥	فضيلة الأستاذ إبراهيم أبو الخشب	إيمان أبي بكر
١٣	د عبد الرحيم العدوى	الإيمان الكامل
٣٨٥	حضرة صاحب العزة مدير المجلة	الإيمان بما فوق الطبيعة
(ب)		
٣٣٣	فضيلة الأستاذ حسن حسين	بعث الرسول الى الجن
٤٧٠	د عبد السلام سرحان	بعث أمة وميلاد دولة
٨٧٧	د طه الساكت	البعوث في الإسلام
٧٠	د أحمد الشرباصى	البلوطى
٣٠٤	حضرة صاحب العزة مدير المجلة	بين المؤمنين والملحدن
(ت)		
٢٢٦	فضيلة الأستاذ فكرى ياسين	تحقيقات عليية فى المولد والهجرة
٤٨١	حضرة صاحب العزة مدير المجلة	الترك والإسلام
٦٢٥ ، ٤٦٣	فضيلة الأستاذ عبد الغنى الراجحى	تشابه النظم فى القرآن
٧٤٦	مفتى دمشق ولجنة الفتوى	تعقيب على فتوى ورده
٨٢٨	لجنة الفتوى	التغنى بالأذان
٥١٢	فضيلة الأستاذ عبد الرحيم العدوى	التقليد
١٦٣	د إبراهيم أبو الخشب	تيارات الإلحاد
(ث)		
٧٠٥	الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى	ثورة فى المنطق
(ج)		
١٨٣	فضيلة الأستاذ سليمان خميس	الجاحظ — حول مؤلفاته
٨٦		جبهة العلماء ورسالة القصص

الموضوع	بقلم	صفحة
جمال الدين الأتغاني	فضيلة الأستاذ محمود الشرقاوى	٨٢٧، ٥٦١
الجمال والصدق	» » كامل عجلان	٢٧٢
الجنة تحت ظلال السيوف	» » طه الساكت	٧٨٥
الجمهر بالذكر	الجنة الفتوى	٨٢٨
الجوار - حسنه	فضيلة الأستاذ على رفاعى	٦٤٧
(ح)		
الحب بين العباد والرب	فضيلة الأستاذ محمد المدنى	٤٠٧
الحج عن الغير	» » فكري ياسين	٨٨١
السيد حسين والى	» » عبد الجواد رمضان	٤١٤
الحرب والإسلام	حضرة صاحب العزة مدير المجلة	٦٨٣
حقوق الإنسان	فضيلة الأستاذ إبراهيم أبو الخشب	٢٥١
حى بن يتظان	الأستاذ الدكتور فؤاد الأهوانى	٨١١
حيرة العالم	فضيلة الأستاذ أبو الوفا المراغى	٦٠٨، ٥٤٥
الحيلة والحذر فى الرواية	» » طه الساكت	٦٨٧
(خ)		
خالد بن الوليد	فضيلة الأستاذ عبدالعزيز موسى	٥٩
خدم البيوت	» » إبراهيم أبو الخشب	٥٥٨
الخشب والعطار	» » عبد الجواد رمضان	١٣٩، ٣٢٢ ٢٢٠
(د)		
الدخان - حكم تعاطيه والاتجار فيه	فضيلة مفتى الديار المصرية	١٦١
دراسات للشعر	فضيلة الأستاذ يوسف بيومى	٨٣٢
الدرس الدينى	صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر	٧٦٩
الدرس الدينى	» » وكيل الأزهر	٧٧٥

الموضوع	بقلم	صفحة
الدرس الدينى	صاحب الفضيلة مدير الازهر	٨٦٥
دعائم الاستمرار فى التشريع	فضيلة الاستاذ محمد المدنى	٦٩٦، ٤٩٠ ٨٨٥، ٧٨٩
دعوى الجاهلية	طه الساكت	٢١٧
الدين يسر لا عسر	ابراهيم ابوالخشب	٩٤١
(ر)		
رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ...	فضيلة الاستاذ طه الساكت	٣٩٢
الرد على النجاة - حول كتاب ...	حضرة الاستاد الدكتور شوق ضيف	٣٥٠
الرد على النجاة -	فضيلة الاستاذ محمد عبد الخالق عضيمة	٨٠٥
الرسالة الملكية فى عيد الهجرة ...		٢
الرفق فى العبادة	فضيلة الاستاذ فكبرى ياسين	٥٨٥
الروافض فى مصر - مذهبهم ...	منصور رجب	٦١٩
الروح والجسد	حضرة الاستاذ محمد كمال الدين الشاهد	٤٦٨
(س)		
السابقات الى الإسلام	فضيلة الاستاذ كامل مجلان	٣٧٦
سعد الدين التفزازانى	على محمد حسن	٩٤٤
السنة - منزلتها من الدين	حضرة الامام تاذ محمد فؤاد عبد الباقي	٢٦٢، ٧٨ ٩٥٠، ٥٤٦ ٨٥٨
السنن الكونية	حضرة صاحب العزة مدير المجلة	٣١٣
سيد الانبياء فى شعر أمير الشعراء ...	فضيلة الاستاذ الشيخ عبد الحميد عنتر	٢٠٧

صفحة	بـقـلم	الموضوع
		(ش)
٤١٣	فضيلة الأستاذ عبد الجواد رمضان	شعراء الأزهري
٥١٧		
٧١٩		
١٧٤	د رياض هلال	الشعر في العهد الأيوبي
٥٧٣		
٦٤٠	د حامد عوني	الشعر والنظم
٣٥٨	د أبو الوفا المراغي	شيء من الذوق
		(ص)
٥٦٦	فضيلة الأستاذ نور الدين شريعة	الصوفية المسلمون
		(ض)
٥٣١	فضيلة الأستاذ عبد المتعال الصعدي	ضرب الناشز في الإسلام
		(ط)
٣٦	فضيلة الأستاذ عبد الغني الراجحي	طرائف القرآن الكريم
٧٦٢، ٦٥١	د صالح بكير	الطلاق - مقارنة
٩٣٧		
٨٣٨	لجنة الفتوى	الطلاق المعاق
		(ع)
٨٤٠	فضيلة الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي	عباس بن فرناس
٨٩٢	د عبد الرحيم العدوي	عدة المؤمنين في وقت الحرج
٨٥٠	د عبد العزيز موسى	هظات من التاريخ

الموضوع	بقلم	صفحة
العدالة في الإسلام	فضيلة الأستاذ احمد على منصور	٧٥
العصر العظيم	حضرة الأستاذ عمر طلعت زهران	٤٥٩، ٢٦٦ ٧٥٤
العقل السليم	فضيلة الأستاذ عبد الرحيم العدوى	٣٢١
علم الاجتماع	حضرة الأستاذ سعيد زايد	٤٣٨
علوم القرآن	فضيلة الأستاذ حسن حسين	١٥٦
العلم والإلحاد	حضرة صاحب العزة مدير المجلة	١٩٣
علماء الأزهر وفلسطين		١٤٨، ١٤٥
دعوة إلى الجهاد — نداء		...
علماء الأزهر والشعر	فضيلة الأستاذ محمد كامل الفقى	٦٣٠
علماء البلاغة	فضيلة الأستاذ على حسن العمارى	٩٤٤، ٧٥٨
العلماء سفراء وقادة	» » محمود الشرقاوى	٢٥٧
عيد الإنسانية	» » محمد عبد المنعم خفاجى	٣٨٣
عيد الجلوس الملكى		٥٧٧
كلية فضيلة الأستاذ الأكبر		...
عيد الميلاد الملكى		...
كلية فضيلة الأستاذ الأكبر		٣٠٩
العيد الأكبر والحج الأكبر	فضيلة الشيخ محمود أبو العيون	٤
(غ)		
غريب القرآن	فضيلة الأستاذ فسكرى ياسين	٦٩٢
الغزل فى كامل المبرد	» » عبد الغنى اسماعيل	٣٦٧
(ف)		
فاتحة السنة التاسعة عشرة		١
الفاروق - فى ذكرى مولده	حضرة الأستاذ محمود الشرقاوى	٣٦٠

الموضوع	بقلم	صفحة
فطرة اقه	فضيلة الأستاذ محمد محمد المدني	٢٠٢
الفصل والوصل — أسرار	د أحمد محمد سلو	٦٦٥
فلسطين — في توديع الجيش	د محمود أبو العيون	٧٢٦
فلسفة القرآن والحياة الأخرى	د محمد يوسف الشيخ	٧١٣، ٦٠٢
(ق)		
قديمنا وجديد الناس	فضيلة الأستاذ علي حسن العماري	٥٤١
القصاص في القرآن	حضرة صاحب العزة مدير المجلة	٨
الميد القاياتي	حضرة الأستاذ السيد عناني	٩١٠
(ك)		
كعب الأخبار ووهب بن منبه	فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الحميد عنتر	٧٣٥
الكويت الإسلامية	د أحمد الشرباصي	٢٨٢، ١٦٦
(ل)		
لا إكراه في الدين	فضيلة الأستاذ حسن حسين	٥٣٥
لغويات	د محمد علي النجار	٣٤٥، ٤٤٩
(م)		
المبادئ الاشتراكية في الإسلام	حضرة الأستاذ سعيد زايد	٩١٩، ٨٤٥
محمد صلى الله عليه وسلم	فضيلة الأستاذ مدير الأزهر	٣٩٧
مدرسة النقد الأدبي	د عبد السلام سرحان	٢٧٧، ٦٦٦ ٩٥٠، ٦٦٨

الموضوع	بقلم	صفحة
المرأة — في محيط	صاحب السعادة محمد العشماوى باشا	٤٢٦
المرأة بين طاعة الزوج والوالد	لجنة الفتوى	٥٥٦
مسئولية الاطباء	الاستاذ الدكتور أحمد إبراهيم	٩٠٦، ٨٧١
المسئولية الادبية	فضيلة الاستاذ منصور رجب	٩٣٣
المساجد الثلاثة	د طه الساكت	١٩٧
المسلمون بين أمس واليوم	د فسكرى ياسين	٤٩٦
المظاهرة المصرية		٢٥٤
معجزة مجهولة	فضيلة الاستاذ عبد المتعال الصعيدى	١٣٥
متمارنة بين الشرائع الوضعية	د صالح بكير	{ ٣٧٢، ٤٢٢
والشريعة الإسلامية		{ ٩٣٧
المنطق اليونانى والمنطق الرمضى	د عبد المتعال الصعيدى	٩٢٥
من أين لك هذا ؟	د عبد المنعم النمر	٨٢٢
موالاة المستعمرين	لجنة الفتوى	٥٥٣
موقف المسلمين من القرآن	فضيلة الاستاذ الشيخ عبد الحميد عنتر	٤٢١
(ن)		
نداء للجهادين والعرب	حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الأكبر	٥٧٧
نداء علماء الازهر الى أبناء العروبة	د د د د	١٤٨
نظرية الارتكاب بالترك	حضرة الاستاذ الدكتور أحمد إبراهيم	٣٢٩، ٢١٥
نظرية المعرفة	فضيلة الاستاذ سليمان دنيا	٧٣٨
النفاق والمنافقون	فضيلة الاستاذ أبو الوفا المراعى	١٣٢
السيدة نفيسة رضى الله عنها	حضرة الاستاذ احمد عز الدين	١٧٨
نقل المسجد - فتوى	لجنة الفتوى	٤٥٥
نور الله على الجبال	حضرة الاستاذ عمر طلعت زهران	١٧١
نواحي الإعجاز فى أخلاق الرسول	فضيلة الاستاذ احمد شاهين	٩٢٨، ٤٥٦

الموضوع	بقلم	صفحة
(هـ)		
هلال المحرم	فضيلة الأستاذ كامل مجلان	٦٢
هل فات زمان الأديان	حضرة صاحب العزة مدير المجلة	٧٨٢
(و)		
واصل بن عطاء	فضيلة الأستاذ علي مصطفى الغرابي	٢٤٦، ٢٧ ٦٣٥
الوضع في الحديث	د محمد رشاد خليفة	٨٥٣
الوعي القومي والمسلم الإسلامي	حضرة صاحب العزة مدير المجلة	١١٠
(ى)		
يومان	فضيلة الأستاذ الكبير مدير الأزهر	٤٨٦

